دراسات منهجية في القرآن والسُّنة

إبراهيم أبو عواد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحَمْدُ لله رَب العَالَمين، والصلاة والسلام على النبيِّ محمد، وإخوته الأنبياء الكرام، وآل كلٍّ، وصحب كلٍّ .

تأتي هذه الدراسات المُكثَّفة في القرآن والسُّنة لتوضِّح كثيرًا من الجوانب الشرعية العِلمية ذات التماس المباشر مع الحياة الإنسانية فِكْرًا وواقعًا. وهذا يشير بوضوح إلى أن مَصْدَرَي التَّشريع الإسلامي (القُرآن والسُّنة) لا تنقضي عجائبهما ، وهُما غَير محدودَيْن بالزمان والمكان . فهما قادران على صناعة النظام البشري الذي يقود إلى السَّعادة في الدَّارَيْن.وتستند هذه الدراسات إلى مَنهجية علمية تأصيلية، وتتضمن العديد من الجوانب المُهِمَّة ليس للمُسلمين فَحَسْب،بل أيضًا لكل البشر، لأن القرآن والسُّنة عَالَمِيَّان جاءا رَحمةً للعَالَمين، ولَيْسَا مُوَجَّهَيْن إلى قَوم بعَيْنهم. صحيحٌ أنهما بالعربية، لكن رسالتهما للإنس والجِن ، باعتبارهما التشريع الخِتامي، والاتصال السَّماوي النهائي .

وقد فكرتُ أن أصدر كلَّ مبحث (فَصْل) على حِدَة في كتاب مستقل ، لكنِّي عَدَلْتُ عن هذا القرار، وارتأيتُ تجميع هذه المباحث في كتاب واحد لتعمَّ الفائدة المَرْجُوَّة، ويَقْدِر القُرَّاءُ على تناول كُل المواضيع في كتاب واحد دُون بَعثرة للجُهود أو تضييع وقت القُرَّاء في البَحْث عن كتب مُتفرِّقة وتجميعها. وهذا يَجعل المَرْءَ يُدرك أهمية الإسلام كنظام مُتكامل وشامل ، فهو حبلُ الله المَتِين بين السماء والأرض، والصراطُ المستقيم الذي لا يمكن تجاوزه أو استبداله . ولم أُرِدْ أن تكون هذه المقدمة طويلة ومغرقة في التفاصيل، لأن التأصيل الشرعي بكل جوانبه وحَيثياته موجود في صفحات هذا الكتاب، حيث البحث في الموضوعات الرئيسية والفَرْعية، وتخريج الآيات والأحاديث، والإحالة إلى المصادر والمراجع المَوثوقة. لذلك فهذه المقدمة مُجرَّد لقطة عابرة ومُوجزة حول المَسار العام لهذا الكتاب بكل مباحثه،عِلْمًا بأنني حاولتُ قَدْر المُستطاع تجنُّب الأخطاء . ولكن الكمال لله وَحْدَه. وعُذري أنَّني قد حاولتُ ، راجيًا مِن الله تعالى أن يُنعِم عليَّ بالإخلاص، والمَنهج العِلمي الدقيق المُلتزم بالكتاب والسُّنة الصحيحة .

والجدير بالذِّكر أن هذا الكتاب الذي بين أيدينا " دراسات منهجية في القرآن والسنة " قد تم تأليفه بشكل مُختصر ومُكثَّف يعتمد على تسليط الضَّوء على الجوانب المُتعددة للشريعة الإسلامية دون الخوض في التفاصيل المُتشعبة، أو بحث الأمور بشكل متخصص في علوم الشريعة ، فقد أردتُ أن يصل الكتاب لجميع الناس بغض النظر عن أديانهم ، ومذاهبهم ، ومُستواهم العِلْمي .

وإنْ وَجَدْتَ خَيْرًا فَمِنَ الله وَحْدَه ، وإنْ وَجَدْتَ غَير ذلك فَمِن نَفْسِي والشَّيطانِ .

والله وَلِيُّ التوفيق

الفصل الأول

أركان الإسلام

تمهيد

إن الإسلام هو الدِّين السماوي الوحيد لقول الله تعالى:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] . وبالتالي تبرز أهمية هذا الدين باعتباره الطريق الوحيد الموصل إلى الخلاص الأبدي في الآخرة ، والسعادةِ الدنيوية .

والإسلام ليست مجموعة شعائر أو طقوس مفرغة من المعنى أو منقطعة عن الواقع . بل هو فكر وتطبيق واقعي بلا انفصال أو تضاد . وليس هو فكرةً معلقة في الهواء ، بل هو نظام حياتي متكامل قائم على أركان وقواعد ثابتة . وهذه الأسس المتينة تنظِّم العلاقة بين الخالق والمخلوق ، والمخلوقِ ونفسه ، والمخلوقِ وباقي المخلوقات. وهذا يعكس الشمولية التامة والتوازن بلا إفراط أو تفريط .

والتوحيد هو الركن الأول المتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهذه الشهادة الجليلة هي التي تُدخِل الإنسان في الإسلام وتضمن له الجنة في الآخرة . ولا يمكن تجاوز هذه الشهادتين مهما بلغ الإنسان من الصلاح .

والركن الثاني هو الصلاة ، وهي الحبل المتين بين الله تعالى والعبد . وهي عمود الإسلام لأنها تمثل الرابطةَ الإيمانية مع السماء ، والصلةَ الوثيقة ، والصراطَ المستقيم .

أما الزكاة فهي الركن الثالث . وقد قامت بتنظيم العلاقات المالية في المجتمع عبر إلزام الأغنياء بمساعدة إخوانهم الفقراء ، مما يؤدي إلى تماسك المجتمع وإبعاده عن الصراعِ الطبقي الذي من شأنه تمزيق كلمة المجتمع وتقسيمه إلى فئات متناحرة حول المادة والثروة .

ويأتي الحج بوصفه الركن الرابع . وهو الرحلة الإيمانية السامية ، والهجرةُ من ظلمات الذنوب إلى نور التوبة والعودة إلى الله تعالى . فيعود الإنسان كيوم ولدته أمه نقياً ، لأنه لبَّى دعوةَ الله تعالى بكل إخلاص ، وترك أهلَه وبلدَه ، وجاء إلى البقاع المقدَّسة لأداء هذه العبادة العظيمة .

وصومُ رمضان هو الركن الخامس الذي يلزم الفردَ بترك شهوتَي البطن والفَرْج من أجل الله تعالى ، حيث مدرسة الإخلاص والصبر تتجلى في شهر رمضان الفضيل لبناء مجتمع قوي ملتزم .

وفي الحديث المشهور ، عن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((بُنِيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان)) [متفق عليه . واللفظ للبخاري] .

أولاً : الدِّين

١ـ الدِّين عند الله :

الإسلام هو الدِّين الوحيد المقبول عند الله تعالى ، وهو دين كل الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، جاؤوا من أجل نشره ، وإيصاله إلى العباد ، فهو رسالة الله تعالى إلى خلقه .

والإسلامُ نظامٌ إلهي متكامل لا نقص فيه أو خلل . دِينٌ خالدٌ إلى يوم القيامة صالحٌ لكل زمان ومكان ، يشتمل على أنظمة الوجود كلها بلا غُلُو أو تطرف . ففيه السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والأشواق الروحية والنزعات المادية . وكل هذه الأنظمة تسير جنباً إلى جنب ضمن منظومة متكاملة لا تضاد فيها أو تنافر . فليس الإسلامُ نزعةً تأملية محصورة في إطار الروح تعيش في عوالم الأحلام والخيالات الهلامية ، وليس شهوةً مادية شرسة موغلة في تقديس المادة ووأد الفرد والجماعة والطبيعة . إنه نظام شامل للحياة الدنيا وما وراء الدنيا (الآخرة) ، وكل ما يرتبط بهاتين الحياتين من قواعد وعلاقات وأنظمة . والإسلامُ هو الدِّين الذي ارتضاه اللهُ تعالى لعباده ولا يَقبل غيرَه . إذ إنه مبني على عقيدة تنزيه الخالق وتمجيده وإفراده بالعبادة والقداسة. وهذه المعاني السامية غير متواجدة في أي دِين آخر. فالنصرانيةُ تعتمد على تعدد الآلهة وخلط الصفات البشرية بالصفات الإلهية ضمن فوضى تأليه المخلوق(جعل المسيح إلهاً) وأنسنة الخالق (جعله بشرياً). لذلك يكثر في النصرانية استخدام المصطلحات المشوَّشة مثل الناسوت (الطبيعة البشرية) واللاهوت (الطبيعة الإلهية) ، وذلك ضمن فوضى دينية عارمة لا تزيد الفردَ إلا حيرة ، حيث يخرج الإنسانُ من متاهة إلى متاهة بسبب غياب المنهج الواضح ، وعدم التمييز بين الخالق والمخلوق . واليهوديةُ تعتمد على تشبيه الخالق بالمخلوق. فهي غارقة في التجسيم (إثبات صفات الأجسام لله تعالى) . كما أنها تنسب صفاتِ النقص للخالق تعالى . فتجد في توراة اليهود المحرَّفة أن الله تعالى استراح بعد عمله ، وأنه يندم على فعل الشر ... إلخ .

وهذا كله يشير إلى غياب تنزيه الله تعالى وتقديسه عن العقائد النصرانية واليهودية . وبالتالي فلا يمكن لهاتين الديانتين أن تكونا مقبولتَيْن عند الله تعالى لأنهما تسيران وفق مسار مضاد للإرادة الإلهية. أما الإسلامُ فهو عقيدة التنزيه والتمجيد. فهو لا يُؤَلِّه محمداً ﷺ كما يُؤلِّه النصارى عيسى عليه السلام. كما أنه لا ينسب الصفاتِ البشرية للذات الإلهية كما يفعل اليهود . لذلك كان الإسلامُ هو منظومة الخلاص الشاملة ، والدِّين الصالح في الأرض والسماء .

قال الله تعالى : ﴿ إن الدِّين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩][1] .

هذا يشير إلى وحدانية الخالق تعالى ، ووحدانية الدِّين الصحيح (الإسلام) . وما سواه هي إسهامات بشرية تم تجميعها على شكل أديان في الشرق والغرب ، وهذه الأديان البشرية كالنصرانية واليهودية والبوذية والهندوسية ... إلخ ، هي تياراتٌ فكرية وفلسفية اختلط فيها الحابل بالنابل دون وُجهة صحيحة لأن البوصلة مفقودة . فهذه التياراتُ هي مذاهب نفعية تم ابتكارها لتحقيق مكاسب شخصية، واختراع هالة القداسة حول الأشخاص من أجل بسط السيطرة والنفوذ على الأتباع ، واستغلال الناس حتى الرمق الأخير ، وإخضاعهم لسُلطة الأمر الواقع . وذلك للحفاظ على مصالح عِلية القوم ، وإبقاء سطوتهم وسُلطتهم الطامحة إلى إبقاء الناس عبيداً للسادة لا يرفعون رؤوسهم ، ولا يُعمِلون عقولَهم ، ولا يُمارِسون النقد والنقض . فهذه الأديانُ الوضعية تستند في بسط نفوذها على منطق القطيع ، وتحويل الأفراد إلى أغنام تُساق إلى الذبح دون تفكير أو اعتراض . أما الإسلامُ فقد أمر الناسَ بالتفكير ، وفتح عيونَهم لكي يروا المشهدَ الكوني بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات، ومنحهم حقَّ التعبير وممارسة النقد الاجتماعي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، ومواجهة الباطل بحزم وثبات ، وعدم تصنيم الذوات ومنحها القداسة المزعومة . فالمسلمُ هو القدوة الحسنة وله الريادة الباهرة، وليس جزءاً من قطيع يأكل ويشرب وينام ويموت . فالإسلام أحدث ثورةً عارمة في المجتمع وانقلاباً في طبيعة التفكير والممارسة الحياتية ، فجعل الأفرادَ قادةً للحراك الإنساني يصنعون الفعلَ ولا يَنتظرون ردَّ الفعل . وقد حرَّرهم من عبادة العبيد والخضوع للمخلوقات فوجَّه خضوعَهم للخالق العظيم وَحْدَه . ومنحهم القوةَ الروحية القادرة على تثوير الفكر والمجتمع من أجل توليد حركة إنسانية راقية قادرة على بناء الحضارة الأرضية المرتبطة بالسماء . واستناداً إلى هذه المبادئ تحرَّر الفرد من السلبية والعجز ، وانتقل إلى الممارسة الواقعية الواعية لفعل الإعمار وصناعة المجتمع المتحرر من الأوهام والأساطير والأمراض الروحية والعُقد النفسية . لذلك فليس من المستغرب أن يكون المسلمُ ــ بما

(١) من الخطأ الفظيع استخدام عبارة " الأديان السماوية" . فالإسلام هو الدِّينُ السماوي الأوحد . وباقي الأديان أرضية. أما الشَّرائع فمتعددة ومختلفة باختلاف الزمان والمكان. قال الله تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾[المائدة:٤٨].فهناك شرائع سماوية وكتب سماوية،ولكن لا توجد أديان سماوية .

لديه من قوة العقيدة والطاقة الروحية الهائلة _ قادراً على مواجهة العالَم ، فَيَنصر الحقَّ ويَهزم الباطلَ دون خوف أو تردد .

وعن أُبي بن كعب _ رضي الله عنه _ قال : قال لي رسول الله ﷺ : ((... وأن الدِّين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية))[2] .

والحنيفيةُ هي الدِّين المائل عن كل دِين منحرف ، وهذا يعني أنه على الصراط المستقيم ، فلا يزيغ ، ولا يضل طريقَه ، وهذا الدِّين المعصوم _ وحده _ من يملك القدرة على هداية البشرية نحو الهدف الصحيح (عبادة الله وحده) ، ومن ثم نيل رضا الله تعالى ودخول الجنة في الآخرة .

فاليهوديةُ والنصرانية دِينان منحرفان عن الجادة ، بسبب غرقهما في الأهواء الشخصية والأغراض الدنيوية التي لا تمت للحق بصلة . فهما أداتان في أيدي رجال الدِّين المتحالفين مع عِلية القوم لتحقيق منافع متبادلة على حساب العامة ، والمتاجرةِ بمصائرهم وأحلاهم . وقد رأينا حجمَ التغييرات الطارئة على اليهودية والنصرانية ، مما يشير إلى كثرة الأيدي المتلاعبة بهما ، وكثرة المصالح المادية التي تفرض نفسها على القيم الروحية الدينية عند أهل الكتاب .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٧٢) : ((أي الشريعة المائلة عن كل دين باطل، فهي حنيفية في التوحيد.وأصل الحنف الميل. والحنيف المائل إلى الإسلام الثابت عليه)).

وهذا يدل _ بلا شك_ على علو منزلة الإسلام باعتباره الدين الوحيد الذي اختاره الله تعالى لعباده . فهو نظام متكامل ، ويقدِّم تصوراً شاملاً لكل مناحي الدنيا والآخرة ، ويوفِّق بين الروح والمادة بكل توازن وبدون تلفيق متكلف . كما أنه دِين متماسك من ناحية الشكل والمضمون ، قادر على توفير السعادة في الدارين . وقد تم تطبيقه عملياً على أرض الواقع في مناسبات كثيرة جداً ، فأنقذ البشريةَ من أزماتها الوجودية .

والإسلام ليس فرضيةً فلسفية في أبراج عاجية ، عائشةً في الخيال وعاجزةً عن الوصول إلى الناس. بل هو نظام متكامل لا يعتريه أي نقص ، ولا يَبلى كلما مرت السنوات وتقدمت البشرية ، ولا يفقد بريقَه في ظل ازدياد المنجزات الحضارية المدنية . مما يشير إلى أن مصدره إلهي لا آدمي ، لأن الكاملَ لا يصدر إلا عن الكامل . وعلى الرغم من الحرب الشعواء التي تُشَن على الإسلام سِراً وعلانية في الماضي والحاضر إلا أنه ما زال الدِّين الأكثر انتشاراً في العالَم ، والقادر

---

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٤) برقم (٢٨٨٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

على الإجابة عن كل الأسئلة التي تدور في الذهن البشري . فليس في الإسلام أسرار كهنوتية أو أشياء يُخجَل من إعلانها . فالإسلامُ دِين واضح يتحرك في ضوء الشمس ، وليس لديه ما يُخفيه تحت الطاولة ، أو يحجب عيونَ الناس خوفاً من رؤيته . مع ضرورة الانتباه إلى أن الإنسان له حدود تحصره لا يمكنه تجاوزها . فالعقلُ البشري قاصر يتحرك في إطار محدود ولا يقدر على مغادرة مداره لئلا يَحترق . وكلُّ الأفعال البشرية يعتريها النقص والسهو والقص واللصق والتجريب والتغيير . أما الأفعال الإلهية فهي كاملة لا يمكن الاستدراك عليها لخلوها من أي ثغرة .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قيل لرسول الله ﷺ : أي الأديان أحب إلى الله ؟، قال : ((الحنيفية السمحة))(3) .

وهذا يدل على تعذر إمكانية الوصول إلى الله تعالى إلا عبر انتهاج الصراط المستقيم ، وهو الإسلام (الحنيفية السمحة) الذي يتضمن توحيدَ الله تعالى وتنزيهه عن كل النواقص . وما كان الله تعالى ليختار الإسلام ديناً وحيداً معتمَداً عنده _ سبحانه _ لولا اشتماله على الكمالات كالتوحيد الخالص الذي لا يشوبه شِرك ، والتماسكِ البنائي الذي لا يمكن خدشه . وهذا غير مستغرب على الإسلام بوصفه الدِّين السماوي الأوحد .

وقال الله تعالى : ﴿ ومَن يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

في هذه الآية مؤشر واضح على وجود طريق واحد مقبول لا يتكرر ولا يتعدد. وهذا الطريق هو الإسلام الموصل إلى سعادة الدارين بلا انقطاع . فكل ما سوى الإسلام غير مقبول ، وسيقود إلى خسارة الدنيا، حيث فقدان الطمأنينة، والنكد الحياتي ، والأزمات النفسية والاجتماعية والاقتصادية المتفاقمة بلا حل ، وغياب السلام في داخل الإنسان ، وازدياد مشكلات الجماعة البشرية . كما يقود إلى خسارة الآخرة ، أي الخلود في النار ، حيث لا توجد أية فرصة للتعويض ،

---

(٣) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٣٦) برقم (٢١٠٧) ، وحسَّنه الحافظ في الفتح (١/ ٩٤). وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥١) : ((ورواه أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة أيضا لكن بلفظ" إني أُرسلتُ بالحنيفية السمحة ")). وقال الحافظ في الفتح (١/ ٩٤) : ((والمراد بالأديان الشرائع الماضية قبل أن تُبدَّل وتُنسَخ.والحنيفية مِلة إبراهيم . والحنيف في اللغة من كان على ملة إبراهيم . وسُمِّيَ إبراهيم حنيفاً لميله عن الباطل إلى الحق لأن أصل الحنف الميل)) اهـ .

أو تدارك ما فات ، ولا ينفع حينئذ الندم ، أو تمني اختيار طريق الإسلام . فالدار الآخرة هي دار جزاء لا دار عمل ، ومن أراد العمل عليه أن يغتنم وقتَه في الدنيا لأنها مزرعة الآخرة ، أما الآخرة فهي ساعة الحصاد . قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧١) : ((لا دِين عنده _ سبحانه_ يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرُّسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتموا بمحمد ﷺ ... فمن لقي اللهَ بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبَّل)) اهـ .

الإسلامُ _ وَحْدَه _ هو الدِّينُ الحق الذي احتوى جميع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وهو وَحدة واحدة لا تعارض فيها . وكلُّ نبي تَرك بصمته في مجال خدمة الإسلام ، ومضى إلى لقاء ربِّه . وهذا يدل على أن الإسلام ليس مشروعاً عائلياً ، أو نزعةً إقليمية ضيِّقة ، وإنما هو نظام حياة للإنس والجن ، لا مكان فيه للشطط الطبقي ، أو الظلم الاجتماعي . إذ إن مقياس التفاضل يكمن في التقوى . وهذا المبدأ العظيم قرَّره الإسلامُ ، وجعل منه واقعاً ملموساً . والدعوةُ إلى الإسلام لا تعني مجاملة العرب على حساب غيرهم، أو التعصب لمحمد ﷺ في مواجهة باقي الأنبياء. فالأنبياء جميعًا يدينون بالإسلام. فالمسْلمُ يُعظِّم موسى وعيسى كما يُعظِّم محمَّداً ، ويؤمن بالتوراة والإنجيل (قبل تحريفهما) كما يؤمن بالقرآن.وهذا يدل على عالمية الإسلام وشموليته.

وقال الله _ عز وجل _ : ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾ [المائدة : ٣] .

فهذه بشارة عظمى من الله تعالى تتضمن إكمال دين الإسلام وجعله خالياً من أي نقص ، وإتمام النعمة على المسلمين الذين هداهم اللهُ تعالى إلى الدين الحق الذي رَضِيَه لعباده وهو الإسلام . فهذا الكمالُ يبعث في النفس البشرية الراحة والطمأنينة . فخلوُّ الإسلام من أي ثغرة _ بغض النظر عن حجمها _ ، وعدم وجود أي خطأ فيه ، وتحديه لكل أعدائه المعانِدين . كل ذلك يبث القوةَ في نفسية المسلم ، ويجعل منه أداة بناء لا تنكسر أمام العواصف والمصاعب . فحينما يدرك الفردُ أبعادَ اعتناقه للإسلام فإنه يتحول إلى طاقة جبارة لصناعة الفرد وإعمار البيئة ، وليس لقهر الآخرين أو إخضاعهم لوجهة نظره . فهذه القوةُ الدينية الكاملة لا يمكن محاصرتها ، وغير قابلة للاختراق أو التدجين . الأمر الذي يؤدي إلى ولادة أجيال واثقة بنفسها وعقيدتها وتاريخها ، قادرة على ممارسة فعل البناء الإنساني ، والتشييد الحضاري ، وإنشاء الطبيعة .

إن الخوفَ يأتي من النقص . والمشكلاتُ تُولَد من الثغرات . فاللصُّ لا يدخل إلا من خلال ثغرة ما . ولو كان البيتُ مُحصَّناً ضد الاختراق فلا يمكن لأحد أن يقتحمه .

وبما أن الإسلام (أعظم بناء حضاري) دِين كامل لا ثقب فيه ، فلا يمكن اختراقه أو التلاعب به ، أو إجراء عمليات ترميم له . فالكاملُ غير قابل للزيادة أو النقصان . وهذه هي قوة الدِّين الإسلامي ، عقيدةً وفكراً وممارسةً .

وعن عمر بن الخطاب أن رَجلاً من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين ، آية في كتابكم تقرؤونها ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : ((أي آية ؟)) ، قال : ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾ . قال عمر : ((قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة))[4] .

وقد كان المسلمون لحظة تلقي هذه الآية في عيدَيْن : يوم عرفة ، ويوم الجمعة . ولم ينتبه اليهودي إلى ذلك الأمر . لكنه أدرك عظمةَ الآية الشريفة التي تحمل بشارة إكمال الدِّين وإتمام النعمة، مما يدل على أهمية الأمة المحمَّدية الإسلامية التي تلقَّت هذه المكافأة الربانية الكريمة ، وكَوْنها الأمة الوحيدة الحاملة لكلمة الله إلى الخلائق .

كما أن الحديث يدل على فِطنة عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ ، وسَعة عِلمه . فهو عالِمٌ بمكان نزول الآية وزمانها ، واستطاع استحضارهما دون تردد أو طُول تفكير . مما يشير إلى ارتباطه الوثيق بالوحي القرآني والظروفِ المحيطة به . ولا شك أن اليهودي كان يستشعر النقصَ في دِينه دون الإفصاح عنه . فكل شخص يَبحث عمَّا ينقصه ، وما تعلقه بآية إكمال الدِّين إلا مؤشر باهر على شعوره بالعجز ، وأنه ينتمي إلى دِينٍ ناقصٍ تمَّ التلاعب به . ومن سياق كلامه يظهر أنه يتمنى لو كانت اليهودية دِيناً كاملاً ، ولو نَزلت عليهم آيةٌ بهذا الخصوص لاتخذوا ذلك اليوم عيداً ، واحتفلوا به ، ونشروه بين الناس . لكنَّ فاقدَ الشيء لا يُعطيه .

٢_ لا إكراه :

لا يخفى أن ماهية الدين الإسلامي تتعارض تماماً مع الإكراه والاعتناق القسري . فالإجبارُ يتنافى مع التصديق القلبي والاطمئنان الروحي . فلا يوجد في الإسلام محاكم تفتيش كالتي حدثت في "إسبانيا " لإجبار الناس على اعتناق النصرانية[5] . ولم توجد في تاريخ الحضارة الإسلامية أي

(٤) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٥) برقم (٤٥) ، ومسلم (٤/ ٢٣١٢) برقم (٣٠١٧) .

(٥)محاكم التفتيش(محاكم الاستجواب)تم إنشاؤها بأمر السلطة الدينية لقتل المخالفين عَقدياً والتنكيل بهم بكل وحشية. وقد مرت بعدة أطوار: محاكم التفتيش التي أنشأها البابا غريغوروس التاسع عام ١٢٣١م

فترة زمنية تضمنت إخضاع الأفراد لاعتناق الإسلام بقوة السيف . فالمسلمون استعملوا القوةَ ضد الطواغيت الرافضين منح شعوبهم حرية الاطلاع على الإسلام ، وسماع تعاليم الشريعة السماوية .

وهكذا تكون القوةُ موضوعةً في سياقها الصحيح الرامي إلى إتاحة الفرصة أمام الناس للتعرف على الإسلام ، وبعدها يقررون بكامل حريتهم اعتناقه أو رفضه . والذين يزعمون أن الإسلام قد انتشر بالسيف عليهم أن يذكروا نصاً شرعياً (آية قرآنية أو حديثاً نبوياً) يأمر بإجبار الناس على اعتناق الإسلام ، أو يقول إما أن تعتنقوا الإسلامَ أو يتم قتلكم .

وأصحابُ خرافة " الإسلام انتشر بالسيف " يعتمدون على ظواهر النصوص ، فيأخذونها مُجرَّدةً من أسباب نزولها وسياقها التاريخي مع عدم التمييز بين المحارِبين حاملي السلاح ، والأبرياء غير المحارِبين . أو يلجأون إلى لوي أعناق النصوص فيخترعون تأويلاتٍ مغرِضة للنصوص الشرعية من أجل إثبات الفكرة المسبقة في أذهانهم حول " العنف الإسلامي " . مع العلم أن أي نص لغوي في الوجود سواءٌ كان دينياً أو غير ديني يمكن تأويله وإخراجه في سياق داعم للتطرف والعنف .

فلوي أعناق النصوص ، وإخراجها من سياقها ، والتلاعب بالتفسيرات اللفظية والمعنوية، والأفكار الشاذة المسبقة ، واللف والدوران في إيجاد روابط مغرضة بين الأحداث ، وتحويل الواقع إلى خيال والخيال إلى واقع ، ... ، إلخ . كل هذه الأمور تساهم في إنتاج صورة مشوَّهة عن النص الديني ، وتحويله إلى سيف مرفوع على الرقاب . فالأفكارُ المظلمة المسبقة في أذهان أعداء الحقيقة تدفعهم إلى إخراج الكلام عن سياقه بُغية الوصول إلى أهدافهم الظلامية المرسومة مسبقاً ، والمفتقدة إلى أصول المنهج العلمي في البحث والفهم والاستنباط .

قال الله تعالى : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

الإكراه يتعارض مع الدِّين جملةً وتفصيلاً . ولا يمكن للمُكْرَه أن يشعر بالسعادة الروحية أو الطمأنينة في حياته . بل إنه يغرق في الشكوك والشبهات والخوف من كل ما حوله . وهذا يؤدي إلى صناعة إنسان مضطرب نفسياً يكون معولَ هدم في المجتمع البشري . والإكراهُ يجعل من

لمكافحة الذين أعملوا عقولَهم وخرجوا عن الدِّين، ومحاكم التفتيش الإسبانية التي أُنشئت في إسبانيا بموافقة البابا سيكستس الرابع عام ١٤٧٨م لمطاردة المسلمين واليهود،وديوان التفتيش الروماني الذي أنشأه البابا بولس الثالث عام ١٥٤٢م لمقاومة الحركة البروتستنتية بالقسوة والتفنن بالتعذيب حتى الموت .

القلب مكاناً مُلوَّثاً لا تَنبت فيه بذرة الإيمان والاستقرارُ الروحي . ولا يخفى أن العقيدة الصحيحة مكانها القلب الصافي ، وإذا كان القلبُ غير نظيفٍ ، فلا يمكن أن يحتضن الإيمان والسَّكينة .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ . قال : [((كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد فتحلف : لئن عاش لها ولد لَتُهَوِّدَنَّه . فلما أُجْلِيَت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار ، فقالت الأنصار : يا رسول الله ، أبناؤنا . فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾)).قال سعيد بن جبير:فمن شاء لحق بهم ،ومن شاء دخل في الإسلام][6].

فلم يتم إجبارهم على اعتناق الإسلام بأية وسيلة ، وإنما تُركوا لكي يُقرِّروا مصيرَهم بأيديهم اعتماداً على فكرهم الذاتي . وفي هذا احترامٌ لحرية الاعتقاد ورفع من شأن العقل البشري الذي منحه اللهُ تعالى حقَّ تقرير المصير مع تحمل مسؤولية الاختيار كاملةً . ولو كان الإسلامُ دِيناً عنيفاً لوضع السيفَ على الرقاب لإدخالهم في الدِّين رغم أنوفهم ، وهو يملك النفوذ والقوة والسَّطوة . ومع هذا فلم يُفرَض الإسلامُ عليهم . وكل فرد اختار طريقَه وفق مشيئته الخاصة دون إكراه .

وفي الحديث إشارةٌ إلى الجهل المتجذر في بعض النساء. فالمرأةُ من الأنصار التي لا يعيش لها ولد اتَّخذت من الانحراف العَقدي سلوكاً اجتماعياً على أمل حماية أبنائها من الموت. فصار النذرُ بتهويد ابنها إن عاش هو الطريق الأمثل بالنسبة إليها . وبدلاً من شُكر الله تعالى على حياة ابنها ، فإنه تهوِّده . وهذا الضلالُ المتفشي في البيئة الاجتماعية يعكس مدى التخلف العَقدي ، والانهيار الاجتماعي المنتشر على نطاق واسع . والمرأةُ غارقةٌ في بحر عواطفها ، فهي تريد أن يعيش أبناؤها بأي ثمن ، ومستعدة لتقديم كل شيء في سبيل هذه الأمنية . إنها تريد أن تكون أُمَّاً ، وتعيش عاطفةَ الأمومة بكل حيثياتها، ولا تبالي بالثمن الذي تقدِّمه، حتى لو كان عقيدةً زائغة، أو انحرافاً أخلاقياً .

وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : ٢٩] .

هذه منتهى الحرية الممنوحة للإنسان الذي بإمكانه أن يختار الدرب الذي يريده ، ويتحمل مسؤولية اختياره أمام الله تعالى وأمام الناس . وهذا يدل على تكريم الله تعالى لبني البشر ، حيث

---

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٣٥٢) برقم (١٤٠) .

أعطاهم حرية تقرير مصيرهم وفق ما يرونه، وعليهم أن يتحملوا تبعاتِ اختيارهم . ﴿ إن الله لا يظلم الناسَ شيئاً ولكنَّ الناسَ أنفسهم يَظلمون ﴾ [يُونُس : ٤٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ولو شاء ربُّكَ لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً أَفأنتَ تُكرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ [يُونُس: ٩٩] .

اللهُ تعالى قادرٌ على جعل العباد كلهم مؤمنين على شريعة واحدة ، وعلى قلب رَجل واحد دون وجود للأديان أو المذاهب . لكنه _ سبحانه _ شَرَّف العقلَ البشري بأن منحه حريةَ الاختيار وفق ما يراه مناسباً . إذ إن العقيدة والإكراه ضِدَّان لا يجتمعان في قلب إنسان . فالاختيارُ الذاتي دون ضغوط هو _ وَحْدَه _ القادر على جعل العقيدة تستقر في النفس البشرية .

وفي فتح القدير للشوكاني (١/ ٤١٦) : ((أي : لو شاء لقسرهم على الإيمان ، ولكن لم يفعل ، وبنى الأمر على الاختيار)) اهـ .

وهذا يشير إلى التكريم الإلهي للإنسان الذي مُنح حق الاختيار بين الإيمان والكفر ، فلا يمكن للنبي ﷺ إكراه الناس على الدخول في الإسلام بالقوة، لأن الإنسان حر في اختياره ، كما أن العقيدة مبنية على حرية الاختيار ، والقبولِ الطَّوْعي ، والتصديقِ القلبي بدون ضغط . ولا يمكن للجوارحِ أن تعمل بأريحية ذاتية إلا إذا كان عملُها نابعاً من القلب ، وهذا القلب لا سُلطة بشرية لأحد عليه ، أي إنه لا يخضع للسيف ولا التهديد ولا الوعيد . فالقلوبُ بيد الله وحده .

وكلُّ تعاليم الإسلام تعتمد على النية التي محلها القلب ، والنيةُ الصادقة في العبادة والإكراهُ نقيضان لا يجتمعان ، وبالتالي فالذين يعتنقون الإسلام فكراً وتطبيقاً لا يمكن أن يكونوا مُكْرَهين .

وهذا يدحض الشبهاتِ التي يثيرها المغرِضون حول انتشار الإسلام ، وينسبون إليه الدموية والوحشية ، وأنه يجبر الناسَ على اعتناقه بالسيف . وهذا كلام بلا دليل ، ولا تقوم له قائمة لأنه لا يستند على أدلة معرفية وحُججٍ منطقية . فالذي يتهم الإسلامَ بأنه دموي انتشر بالسيف عليه أن يُقدِّم البراهين ، بأن يحضر نصوصاً شرعية تحض على قتل رافضي اعتناق الإسلام ، أو يُثبِت أن الناس اعتنقوه مُكْرَهين ، أو أن الإسلام اعتمد منهجية " إما تُؤمن أو تُقتَل " ، أو يُحضِر أدلةً تاريخية تفيد بقتل الناس لأنهم لم يختاروا الإسلام دِيناً . كما أن الذين يتهمون الإسلامَ بالدموية وإجبار الناس على اعتناقه عليهم أن يُفسِّروا وجود الأقليات الدينية في العالم الإسلامي ، مع أن المسلمين كانوا قادرين على قتلهم أو فرض الإسلام عليهم بكل سهولة ، حينما كانت الحضارة

الإسلامية تبسط سيطرتها على كوكبنا ، وكانت الأمة الإسلامية أقوى الأمم ، ولا أحد يجرؤ على تحديها أو معارضتها .

٣_ الإخلاص في الدِّين :

الإخلاص أساس الدِّين ، ويعني التوجه الكامل نحو الله تعالى، بحيث يكون قصدُ كل أعمال الإنسان هو وجه الله وَحْدَه . وبدونه لا تُقبَل العبادات . والإخلاصُ هو القوة الروحية الهائلة التي تنعكس على سلوك المرء وطبيعة تفكيره ونظرته إلى الأفعال الحياتية على كافة الصُّعد . كما أن الإخلاص يُحرِّر الفردَ من شوائب العلاقات الدنيوية الوضيعة ، ويجعل تَوجُّهه نحو الخالق العظيم بلا شريك. وبذلك يتجذر شرفُ العبادة في أسمى معانيها في الذات الإنسانية المتحررة من قيود المصالح الدنيوية ونيلِ الحظوة عند الناس . فالناسُ لا يملكون من أمرهم شيئاً . والأمرُ كله بيد الله تعالى . وإذا استقرت هذه العقيدة في النفس فإنها تُورِث المرءَ أماناً وسعادة ولذةً في أداء العبادات مع إدارة الظهر لكل أوهام الدنيا وإغراءاتها الشكلية . ولا يمكن للمرء أن يتوجه إلى سَيِّدَيْن ، لذلك على الإنسان أن يُسقِط الناسَ من حساباته ، ولا يُعير بالاً لأحكامهم عليه ، بل يتوجه بالكلية إلى الخالق تعالى ، فهو _ وَحْدَه _ الذي يَحكم له أو عليه .

قال الله تعالى : ﴿ فاعبدِ اللهَ مخلِصاً له الدِّين ﴾ [الزُّمر : ٢] .

إن هذا التوجيه الإلهي للنبي ﷺ بالإخلاص في العبادة ، وعدم الشرك بالله تعالى ، يُعتبَر أساساً في منهجية الإسلام الذي جاء من أجل إفراد الله تعالى بالعبادة ، وعدم تأليه المخلوقات . فلا أحدٌ يستحق العبادة إلا الله تعالى صانع المخلوقات وموجدها من العَدم . وكلُّ مبدأ بُنِيَ على منح صفةٍ إلهية لمخلوق ، فإنه مبدأ باطل ، لا حَظ له من الحق . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل . ولا يمكن أن يتساوى المخلوق مع الخالق ، أو يشاركه في إحدى صفاته . فلا يُعقَل أن يتساوى الكرسي مع النَّجار الذي صَنعه أو يشاركه في خصائصه ، ومن غير المنطقي أن يصبح السيفُ كالحدَّاد الذي صنعه . فالنقلُ والعقلُ متفقان على استحالة تساوي الصانع مع المصنوع . ولله المثلُ الأعلى . قال الطبري في تفسيره (١٠/ ٦١٠) : ((يقول تعالى ذِكره : فاخشع لله يا محمد بالطاعة ، وأخلص له الأُلوهة ، وأفرده بالعبادة ، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكاً ، كما فعلت عبدة الأوثان)) اهـ .

إن وظيفة النبي ﷺ دعوة الناس إلى عبادة الله وحده الذي لا ند له ، ولا شريك له . فلا خالق إلا الله تعالى ، وعلى الخلق أن يتوجهوا إليه وفق طريق التوحيد المستقيم بلا شوائب شِركية مهما كانت صغيرة أو خفية .

وفي الواقع فإن العربي كان غارقاً في الشِّركيات بفعل علاقته مع الأصنام المنتشرة في البيئة الجاهلية . وقد اخترع أهلُ الأوثان علاقاتٍ بين الأصنام والله تعالى ، فزعموا أنها تُقرِّبهم إلى الله تعالى . مما يشير إلى تغلغل الجاهليِّ في هذه العقلية البدائية الوهمية . وقد جاء الإخلاصُ لانتشال الفرد من عبودية الأشياء ، وتوجيه كل الطاقات البشرية للخضوع لله تعالى بلا شريك . فالإنسانُ لا يكون إلا عبداً . فمن ليس عبداً لله الإلهِ الحق فهو عبدٌ لإله معبود بغير حق. وبالتالي فالإخلاصُ إنقاذٌ للبشر من الوقوع في مستنقع الباطل ، ومسارٌ مضيء لاعتناق الحق ورفض الباطل . وهكذا يلتقي الإنسان بإنسانيته، ويعرف خالقَه تعالى الذي أوجده من العَدَم وسيُعيده إلى التراب.

وقال الله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفُلْك دَعَوُا اللهَ مخلِصِين له الدِّين فلما نجَّاهم إلى البَر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

وهذا يشير إلى أن الإنسان في الشدائد يعود إلى الأصل الثابت الكامن في نفسه وهو توحيد الله تعالى . فحينما يوقن الفردُ بالهلاك يتوجه ــ بكل جوارحه ــ إلى خالقه وَحْدَه . لكنه حينما يشعر بالأمان يعود إلى طبعه الأول وهو الشرك بالله تعالى افتراءً عليه . فالفِطرةُ الإنسانية خاضعة لإلهٍ واحد لا شريك له ، لكن المصالح الشخصية وغياب الهداية وتزيين الشيطان تؤدي إلى الشِّرك . والناسُ ــ على اختلاف عقائدهم وأجناسهم ــ يؤمنون في قرارة أنفسهم بأن هذه الموجودات لها صانع حكيم هو الله تعالى . حتى الملحِدُ يؤمن في قرارة نفسه بوجود الله تعالى لكنه يُكابِر ويُعانِد ويضحك على نفسه بأن يخترع أوهاماً ومبادئ فاسدة . والكلُّ يتوجَّه في الشدائد إلى الله الواحد الأحد المنَزَّه عن الشريك والنِّد . وهنا تتجلى العودةُ إلى الفِطرة ، والنواةِ الإيمانية الأساسية الكامنة في العنصر البشري . فالبشرُ يُدركون عجزَهم وخضوعهم لقوةٍ عليا ، هي قوة الخالق العظيم ، صانعِ الأشياء ، ومُوجِد الحياة بكل تفاصيلها .

قال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٠١) : ((إذا انقطع رجاؤهم من الحياة ، وخافوا الغرق، رجعوا إلى الفِطرة فدعوا اللهَ وحده ، كائنين على صورة المخلِصين له الدين بصدق نياتهم ، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام ، لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله ــ سبحانه ــ)) اهـ .

والإخلاصُ والتوحيد يشيران إلى خطورة الشِّرك الأكبر (المخرج من الملة)، والشركِ الأصغر (غير المخرج من الملة) . فالمقارنةُ بين الأضداد تقود إلى فهم أكثر تماسكاً .

فعن شداد بن أوس _ رضي الله عنه_ قال : ((كنا نَعُد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشِّرك الأصغر)) [7] .

والرياءُ أن لا يُقصَد بالعمل وجه الله تعالى ، وهذا محبط للعمل وفق درجات متفاوتة . كما أنه أمر بالغ الخطورة ، لأنه يُفقد العباداتِ معناها الحقيقي عبر توجيهها إلى غير الله تعالى ، كما يُفقد الإنسانَ متعة الإخلاص وحسن أداء الشعائر الدينية ، ويُعرِّض الإنسان لغضب الله في الدارَيْن .

فينبغي أن تُترَك ملاحظة العمل لا العمل . فعلى المرء أن يسعى بكل جوارحه إلى عبادة الله تعالى دون النظر إلى تعليقات الناس ، أو التوقف عن رأيهم . أي إنه يُقبِل على العمل ويُهمِل ملاحظة العمل التي قد تنشأ في كلام الناس ورؤيتهم له . فمن يَعرف طريقَه لا يلتف أثناءَ سَيْره . فالعابدُ لا يهتم بالأحكام البشرية ، نفياً أو إثباتاً ، سلباً أو إيجاباً ، لأنه لا يرى إلا الله تعالى .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٥١٣) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رَجل استشهد، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟، قال : قاتلتُ فيكَ حتى استشهدتُ . قال : كذبتَ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقيَ في النار . ورجلٌ تعلم العلمَ وعلَّمه وقرأ القرآنَ فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ ، قال : تعلمتُ العلمَ وعلَّمْتُه وقرأتُ فيك القرآن. قال : كذبتَ ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالِم، وقرأتَ القرآنَ ليقال هو قارئ فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقيَ في النار . ورَجلٌ وسَّع اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟ ، قال : ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك . قال : كذبتَ ولكنك فعلتَ ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقيَ في النار)) .

وهكذا نرى خطورة الرياء ، وانعدامِ الإخلاص لله تعالى . فالمرائي شخصٌ يريد بعمله أن ينال ثناءَ الناس والحظوةَ عندهم . وقد تم مدحه والإطراء عليه ووصفه بالجرأة والعلم والكرم ، لكنه قد أخذ نصيبَه في الدنيا ، وما له في الآخرة من خَلاق .

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٥) برقم (٧٩٣٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فالمقاتِلُ الذي مارس فعل القتال في المعركة بكل بسالة وإقدام كان يقصد نيل مديح الآخرين ، والإعجاب به ، والثناء عليه بأنه شجاعٌ مِقدام ، وجريء لا يخاف الموتَ . فهذا القصدُ الوضيع كان الدافع لعمله ، فلم يُقاتِل لتكون كلمةُ الله هي العليا ، إذ إن هَمَّه محصور في لفت أنظار الناس والحصول على الإطراء منهم .

ونحن نرى كثيراً من القادة العسكريين الذين يتبخترون أمام وسائل الإعلام مع أنهم لم يُحرِّروا ذبابةً . نراهم وقد امتلأوا فخراً زائفاً ، وبريقاً وهمياً . ويُحبون أن يُحمَدوا بما لم يَفعلوا . وحتى لو قاتلوا فإنهم يُقاتِلون دفاعاً عن الحاكم الفلاني ، أو تعصباً لقومية معينة أو عِرْق محدد أو مذهب سياسي منحرف . وهؤلاء أبعد ما يكونون عن الإخلاص ومعرفةِ القصد الحقيقي وراء التضحية بالنفس التي هي أغلى ما يملكه الإنسان .

فقبل أن يُضحِّيَ الفرد بنفسه ، عليه أن يسأل ذاته عن سبب التضحية . فإن كان يُقاتِل من أجل الله تعالى فليتقدم واثقاً بالموعود الإلهي ، إما النصر أو الشهادة . أما إن كانت نيته غير ذلك ، فينبغي أن يعيد تقييم الموقف . فالتضحيةُ بالنفس ذهابٌ بلا عودة ، ولا توجد فرصة للتعويض . فلا بد أن يكون هدف التضحية سامياً . ولا يوجد أسمى من الإخلاص لله تعالى كهدف وحيد .

والذي تعلَّم العلمَ ، وزاحم العلماء في مجالسهم . وقام بقضاء الليالي في الدراسة ، وأعطى الدروس للطلاب ، ونشر العلمَ في كل الاتجاهات . كلُّ ذلك لا فائدة منه إذا كانت النيةُ غير خالصة لله تعالى . فكثيرٌ من طلبة العلم إنما يهدفون لنيل مكانة اجتماعية مرموقة ، وأن يُوَسَّع لهم في المجالس ، ويُوصفوا بالعلماء . فترى الواحد منهم يقضي حياته طالباً للعلم من أجل شهادة ورقية تزيد راتبَه الشهري أو تضمن له ترقية جامعية ، أو منزلة سامية بين أقرانه . فصار العلمُ للأسف من أجل إضافة حرف " د " إلى بداية الاسم . فصار الواحدُ يطلب العلمَ لكي يُوصف بالدكتور أو البروفسور أو العلامة ، فيتصدر المجالس ، ويقتحم عالم اللقاءات التلفزيونية ، ويجلس مع عِلية القوم من السياسيين ورجال الأعمال لتحقيق منافع شخصية لا تمتُّ للحياة العلمية بصلة . وهؤلاء خاب مسعاهم ، ولم يذوقوا حلاوة الإخلاص في طلب العلم ، لأنهم غرقوا في الألقاب العلمية ، فشُغلوا بها عن القيمة الشريفة للعلم . وصدق القائل :

ولم أَقضِ حَقَّ العلم إن كان كُلما بدا طَمَعٌ صَيَّرْتُه لِي سُلَّما

أما الـذي تصـدق بأموالـه ريـاءً وسـمعة ، وأنفـق فـي دروب الخيـر ليُقـال إنـه جـواد ومحسـن . فإنفاقُه سيكون وبالاً عليه ، لأنه لم يقصد وجهَ الله تعالى، ولم يعرف حقَّ خالقه الرزاق الذي منحه الأموال فأنفقها للفت انتباه النـاس ، والحصـول على إعجابهم وتقـديرهم ، وكَيْـل المـديح لـه . وبالتالي فإن نيته الفاسدة سوف توردُه المهالك لأنه حصر هَمَّه في أغراض دنيوية بائسة وزائلة ، ولم ينظر إلى النعيم المقيم ، لذلك فقد أخذ نصيبه من الدنيا ، مديحاً زائلاً وإعجاباً مؤقتاً وإطراءاً لا يدوم . وفي الآخرة سيأتي صفر اليدين مأزوراً لا مأجوراً .

فعلى الإنسان أن يُسقط الناسَ من حساباته ، ليس بمعنى احتقارهم . بل بمعنى الإيمان بأنهم لا يملكون من أمورهم شيئاً ، وليس بيدهم الضر أو النفع . وبالتالي يركِّز جهودَه على تنقية عبادته من أية شائبة رياء معتصماً بالإخلاص في أدق التفاصيل، لأن مديح الناس سرعان ما يذهب أدراج الرياح ، إذ إن إرضاءهم غاية لا تُدرَك . وكما قال أحدهم : ((نظرتُ إلى الناس فرأيتُهم موتى فكبَّرتُ عليهم أربع تكبيرات)) .

****

ثانياً : التوحيد

١ــ توحيد الله :

أ ــ وجوده ووحدانيته وربوبيته :

وجود الله ثابتٌ عقلاً ونقلاً. فالدلائلُ الماثلة في الكون تشير ــ بلا ريب ــ إلى وجود خالق مبدِع. وكل هذه المصنوعات من حولنا، والتي تسير وفق دقة متناهية ، ونظامٍ لا يعتريه اضطراب ، تدل على وجود صانعٍ لها . فلا يُعقَل أن تكون الطبيعةُ هي العقل المسيِّر لكل هذه الموجودات ، إذ إنها بحاجة إلى من يُسيِّرها . كما أن الصدفة عاجزة تماماً عن اختراع أنظمة كَوْنية دقيقة وبالغة التركيب .

كما أن الفطرة الإنسانية السوية مجبولة على التوجه إلى اللهِ خالقها . فالنقصُ الإنساني والحاجة البشرية يسير باتجاه الإيمان بالله تعالى صاحب القوة العظمى المسيطرة على كل شيء . لكن الكفرَ عناد . فهؤلاء الملاحدة هم ــ في واقع الأمر ــ يقمعون فطرتَهم ، ويتحايلون على أنفسهم عبر خداعها وإقناعها بالإلحاد . لكنهم ــ في قرارة أنفسهم ــ يؤمنون بوجود الله تعالى . لكن المصالح الشخصية الآنية ، وضغطَ الشهوات البشرية ، والنفسَ الأمارة بالسوء ، وحبائلَ الشيطان ، كلها تؤدي إلى إنكار وجود الله تعالى .

وكما قال أحدهم : البعرةُ تدل على البعير ، وأثرُ الأقدام على المسير . أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدل على اللطيف الخبير ؟! .

فيا عجباً كيف يُعْصَى الإلهُ ... أم كيف يَجْحَدُه الجاحدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ

وقد قدَّم القرآنُ الكريم دلائل واضحة على وجود الله تعالى ، وأظهر الحججَ ، ولفتَ انتباهَ الناس إلى المظاهر الكَوْنية لكي يتفكروا فيها ، ويدركوا أنها ما كانت لتأتيَ عبثاً . كما حثَّهم على التدبر في السُّنن الكونية، والإشاراتِ الطبيعية المنتشرة بكثافة في كل مكان، وأمام أعين الناس كلهم . وفي هذا تحريك للعقل البشري كيف يفكِّر في القوة المحرِّكة للظواهر الكَوْنية المختلفة ، فالعقلُ هو مناط التكليف ، والقادر على معرفة الله تعالى ، إذا كان عقلاً طاهراً يسعى إلى معرفة الحق بدون أهواء مسترشداً بالهداية الربانية .

قال الله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يُحييكم ثم إليه تُرجَعون ﴾ [البقرة : ٢٨] .

إن اللهَ تعالى قد وضَّح مسألة الإحياء والإماتة لكي يتفكر الناسُ فيها ، ويستدلوا على عظيم القدرة الإلهية في الإحياء والإماتة . فالحياةُ والموت مشهدان ماثلان أمام العيان ينبغي للفرد أن يتفكر بهما وبما وراءهما ، وبالقوةِ القادرة على منح الحياة وسلبها دون صعوبة أو تناقض .

قال الطبري في تفسيره (١/ ٢٢٢) : ((ووبَّخهم واحتج عليهم في نكيرهم ما أنكروا من ذلك ، وجحودهم ما جحدوا بقلوبهم المريضة . فقال : كيف تكفرون بالله فتجحدون قدرته على إحيائكم بعد إماتتكم لبعث القيامة ... وقد كنتم نطفاً أمواتاً في أصلاب آبائكم ، فأنشأكم خلقاً سوياً ، وجعلكم أحياء ثم أماتكم بعد إنشائكم . فقد علمتم أن من فعل ذلك بقدرته غير معجزه بالقدرة التي فعل ذلك بكم إحياؤكم بعد إماتتكم، وإعادتكم بعد إفنائكم، وحشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم)) اهـ .

لقد وجَّه اللهُ تعالى فكرَ الناس إلى مشاهدات حسية من صميم حياتهم . فالنطفةُ كيانٌ ميت لا وزن له . وحينما تخرج من أصلاب الرجال إلى أرحام النساء ثم تحدث الولادة ، فإن هذه النطفة تصير كائناً حياً ذا لحم ودم وقلب ودماغ وأعضاء متكاملة وأجهزة بالغة التعقيد والدقة منتظمة في عملها بلا تضاد . فهذه العمليةُ الباهرة التي تشتمل على الخروج من الموت إلى الحياة تشير إلى قدرة الخالق تعالى غير المحصورة . وبعد انتهاء فترة الحياة المقدَّرة فإن الإنسان ينتقل إلى الموت . وبالطبع فالإنسان لا يختار ميلاده ولا وفاته . وهذا يشير إلى وجود قوة قاهرة للإنسان الخاضع _ بإرادته ورغم أنفه_ . وبالتأكيد فهذه القوة هي قوة الله تعالى الذي لا يعجزه الإحياء ولا الإماتة.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١١٤) : ((أي : كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية ، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وُجِد ، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات ، لأنه بمثابته ، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه ، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء)) اهـ .

وكلُّ إنسان _ بغض النظر عن عقيدته _ مقتنع تماماً بأنه لم يكن موجوداً ثم وُجِد ، وأنه سائر إلى الموت . والعجيبُ أنك ترى الملاحدة ينكرون وجودَ الله تعالى لكنهم لا ينكرون الموتَ . ولو أنهم أعملوا عقولَهم لأدركوا أن الموتَ خاضع لقوة عليا تتحكم فيه ، وتحدد موعدَه ، وهذه قوة الله خالقِ الحياة والموت .

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بَشراً فجعله نَسَباً وصِهْراً وكان ربُّكَ قديراً ﴾ [الفُرْقان : ٥٤] . وتتجلى قدرةُ الله تعالى في إيجاد الإنسان ذي الأجهزة بالغة التعقيد من ماء مهين (المني) ، ثم يتدرج الإنسان في مراحل النمو المختلفة بكل تراكيبها المتطورة . وكل ذلك من نطفة بالغة الصغر. فهذا الكائنُ البشري الذي يصبح نسباً وصِهراً مرجعه إلى أصل بسيط (حيوان منوي) . وهنا تتجلى القدرةُ الإلهية اللامحدودة التي تجعل من اللاشيء شيئاً ذا قيمة . فعلى المرء أن يتساءل عن مصدر القلب والعقل وهذه الأعضاء البشرية المتناسقة ، من أين انبثقت ؟ . وكيف صدرت عن هذا الماء (المني) ؟ . لكن العَظَمَةَ لا تكمن في طبيعة الماء ، بل في القدرة التي جعلت من الماء كائناً حياً يُفكِّر ويتحرك ويمارس نشاطاته الحياتية بكل يُسر اعتماداً على أجهزته العضوية المتكاملة. قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٩) : ((أي : خلق الإنسانَ من نطفة ضعيفة ، فسوَّاه وعَدَله وجعله كامل الخِلقة ذكراً وأنثى كما يشاء ... فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات وكل ذلك من ماء مهين)) اهـ . وهذه العلاقات الاجتماعية المختلطة والمنصهرة من علامات وجود الله تعالى ووحدانيته وربوبيته . فقد أوجد اللهُ تعالى الإنسانَ من نطفة لا وزن لها ، وهيَّأ لها رَحِماً حاضنة لها ، ثم يولد الإنسان ، ويكبر ، ويتزوج . وهذه المنظومة المتكاملة لم تتشكل وفق عبقرية الإنسان ومواهبه . فالإنسانُ عاجز عن خلق أصغر عضو في جسمه ، بل هو عاجز عن معرفة أسراره جسده وحقيقة روحه وطريقة عمل أعضائه المعقدة . فهذه المنظومةُ البشرية خاضعة لنظام إلهي مُحكَم لحفظ النسل، وإعمار الأرض . إنها النظامُ الاجتماعي المتماسك : النَّسَب والصِّهْر[8] .

وتتوالى الإشارات الإلهية التي تدفع الإنسانَ إلى التفكر في الظواهر الطبيعية من حوله ، ليدرك عظمةَ الخالق الذي يسيطر عليها ويتحكم فيها .

---

(٨) في تفسير القرطبي (١٣/ ٦٠) : ((قال ابن العربي : النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع، فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً ، ولم يكن نسباً محققاً)) اهـ . وفي فتح القدير للشوكاني (٤/ ١١٨) : ((قال الفراء والزجاج : واشتقاق الصهر من صهرت الشيء : إذا خلطته . وسميت المناكح صهراً لاختلاط الناس بها . وقيل : الصهر قرابة النكاح . فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء والأصهار)) اهـ. وفي فتح الباري (٩/ ١٣٢) : ((قال الفراء : النسب من لا يحل نكاحه ، والصهر من يحل نكاحه)) .

قال اللهُ تعالى:﴿وآيةٌ لهم الأرضُ الميْتة أحيَيْناها وأخرجنا منها حَبَّاً فمنه يأكلون﴾[يس: ٣٣] .

إن القرآن يُسلِّط الضوءَ على الظواهر الطبيعية المشاهَدة والملموسة . لكنَّ الإنسان من فَرْط رؤيته للأشياء لم يعد يرى الأشياء ويتفكر فيها ، ويدرك عَظَمةَ القدرة التي تُحرِّكها . فالأرضُ الميتة التي تكون كالجثة الهامدة ، تراها تعود إلى الحياة ، ويخرج منها الْحَبُّ ، فيأكل الناس . فعمليةُ الإحياء هذه دليل مادي واقعي يجريه اللهُ تعالى أمام عيون كل الناس لكي يتفكروا في حياتهم وموتهم وبعثهم ، وأن الذي أحيا الأرضَ بعد موتها وأخرج منها الحبَّ ، قادرٌ على إحياء الأموات وإخراجهم من التراب . والقرآنُ ـ بذلك ـ يُرَسِّخ في النفوس المعاني المشاهَدة بأم العيون لكي يؤمن الناسُ بالمعاني الغَيْبِيَّة التي تُرى بالقلوب لا الأبصار . وهذه الدلائل الباهرة الواضحة للعيان تثير في النفس الإنسانية الأسئلة العميقة التي تقود إلى الإيمان بوجود الله تعالى وقدرته اللامحدودة . فمشهد الأرض الميتة كيف تعود إلى الحياة ، ويخرج منها الحبُّ ليأكل الناس يدل على مشهد انبعاث الناس من قبورهم يوم البعث والنشور . فالقادرُ على إحياء الأرض الميتة لن يعجز عن إحياء الموتى . والقادرُ على إخراج الحب من قلب الأرض الميتة قادرٌ على إخراج الموتى من جوف قبورهم . فالمشاهِدُ المحسوسةُ في عالم الشَّهادة تتجذر في النفس الإنسانية لكي يتجذر الإيمانُ بالمشاهِد في عالم الغيب التي يُسمَع عنها ولم تُرَ رأي العين .

قال القرطبي (١٥/ ٢٦) : ((نبَّههم اللهُ تعالى بهذا على إحياء الموتى ، وذكَّرهم توحيده ، وكمال قدرته . وهي الأرض الميتة أحياها بالنبات وإخراج الحب منها ، فمنه ـ أي : من الحب ـ يأكلون وبه يتغذون)) اهـ .

وتنتقل الصورُ من الأرض الموات إلى الفضاء الرحب . فكل الأكوان يسيطر عليها اللهُ تعالى ، فهو موجدها من العدم ، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبحون ﴾ [الأنبياء : ٣٣] . إن هذه المظاهر الكَوْنية الهائلة لا تأتي عبثاً أو بمحض الصدفة . فالليلُ وُجد لكي ترتاح فيه الخلائقُ من التعب ، وتأخذ قسطاً من الراحة ، حيث تستعيد نشاطها وحيويتها لمواصلة أعمالها الحياتية الرامية إلى الإعمار والتعمير . والنهارُ هو وقت النشاط والاندفاع والانطلاق في مسالك الأرض. والشمسُ تبعث الطاقة في الأرض وتنشر النور على البشر لكي تستمر الحياة دون عوائق، أما القمرُ فيمارس وظيفته في الإنارة . كما أن الشمس والقمر يُعتمَد عليهما في إجراءات العمليات الحسابية الخاصة بالشهور والسنوات .

قال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٥١) : ((ذكَّرهم نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيها لمعايشهم ... وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، لتعلم الشهور والسنون والحساب.كل (يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار) في فلك يسبحون، أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء)) اهـ .

فهذه الظواهر ذات تماس مباشر مع حياة الإنسان . لكن كثرة المشاهدة قد تجعل الإنسانَ غارقاً في الاعتيادية ، حيث يتعود على وجود الشمس والقمر والنهار والليل ... إلخ ، دون التفكر في هذا النظام البديع ، فتصبح النجوم والكواكب وتعاقب الليل والنهار _ في عيون البعض _ مظهراً عادياً خاضعاً لقوانين الفيزياء والكيمياء دون النظر بالبصيرة لإدراك عظمة محرِّك المكوَّنات السماوية الباهرة .

فينبغي للعاقل أن ينظر إلى ما وراء الأشياء، ويتفكر في أنظمة عملها وضوابطها ، والإشاراتِ التي تحملها، وأن لا يغرق في الاعتيادية والتعود على رؤية الأشياء دون تحليلها وإيجادِ روابط بينها. فلا يوجد شيء في الكون وُجِد بشكل عبثي أو بالصدفة . إذ إن كل عنصر موجود لأداء وظيفة محدَّدة خلقها اللهُ تعالى ، ووضَّح معالمها وحدودَها بكل دقة وانتظام . لكن المشكلة تكمن في العيون الميتة التي تُبصِر بلا بصيرة .

قال الله تعالى : ﴿ خلق السماواتِ بغير عَمَدٍ تَرَوْنها وألقى في الأرض رواسيَ أن تميد بكم وبثَّ فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زَوْجٍ كريم (١٠) هذا خلقُ الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين (١١) ﴾ [لقمان] .

فاللهُ تعالى خلق السماوات بغير أعمدة ، وهذا واضح أمام كل ناظر . وفي ذلك تتجلى طلاقة القدرة الإلهية وعدم محدوديتها . وهذه الصورُ الكَوْنية الباهرة من شأنها هداية العقل البشري إلى الإيمان بالله تعالى والامتثال لأوامره ، وإخلاص العبادة له ، وتوحيده الخالص الذي لا تشوبه أية شِركيات صغيرة أو كبيرة . فالسماواتُ العظيمة محمولةٌ بلطف الله تعالى ومقهورةٌ في قبضته . واللهُ غنيٌّ عن الأسباب ، فلا يحتاج _ سبحانه _ إلى أعمدة لكي تحمل سماواته .

قال ابن كثير (٢/ ٦٥٦) : ((يخبر الله تعالى عن كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تُنال ولا تدرك مداها . فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض ، وما حولها من الماء والهواء ، من جميع نواحيها وجهاتها)) اهـ .

وألقى اللهُ تعالى في الأرض جبالاً راسيات تحافظ على توازن الأرض وثباتها . فهذه الجبال بمثابة الأوتاد للخيمة. وهذا مظهر من مظاهر رحمته بخلقه، وتفرده بالحكم والأمر، مما يدل على وحدانيته وربوبيته . فهو يعتني بعباده ، ويحافظ على حياتهم ، ولا يتركهم يدبِّرون لأنفسهم فهم لا يحسنون التدبير ، وليس لهم القدرة على التحكم في الأنظمة الكَوْنية الأرضية والسماوية .

وقد ذرأ اللهُ تعالى في الأرض من أنواع الحيوانات على اختلاف حجومها وأشكالها وقوتها ، ونشرها في الأرض . وكلُّ دابة تعرف وظيفتها بدقة ، وتؤدي عملَها في هذا النظام البيئي البديع . فاللهُ تعالى لم ينسَ الدواب ، وحاشاه أن ينسى . فهو رب جميع الخلائق بلا استثناء ، يعتني بهم ، ويزوِّدهم بالأجهزة العضوية والتركيبِ الجسماني لكي تسهل حياتهم في البيئات المختلفة .

قال الله تعالى : ﴿ واللهُ خلق كلَّ دابةٍ من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رِجلَيْن ومنهم من يمشي على أربع ﴾ [النور : ٤٥] .

فهذا التنوعُ في طبيعة الخلق ، وتعدد الأشكال والمظاهر في نظام بيئي لا اضطراب فيه ولا تعارض ، يشير إلى القدرة الإلهية والحكمةِ الربانية . فاللهُ تعالى لم يخلق مخلوقاته لكي يَحشرهم في الزاوية ويقضيَ عليهم ويضطرهم إلى أضيق المسالك . بل فتح لهم طريقَ اليُسر . فهو _ سبحانه _ خلق الدوابَّ وفق أشكال مختلفة ، وزوَّدها بأعضاء متباينة ، لكي تتأقلم مع بيئتها . فالكائناتُ الصحراوية بحاجة إلى أسلوب حياة يختلف عن أسلوب الكائنات العائشة في الأماكن الباردة . ومن هنا اختلفت طبيعة خلق الأجسام الحيوانية . وهكذا تتجلى الحكمةُ الإلهية في توفير سُبل العيش الهانئ للدواب على اختلاف بيئاتها . والذي يرزق الدوابَّ ولا ينساها ، وهي كائنات غير عاقلة ، فكيف ينسى عبادَه الذين شرَّفهم بالعقل وكَلَّفهم بإعمار الأرض ؟!.

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٩٨) : ((يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ ومنهم من يمشي على رِجلَيْن ﴾ كالإنسان والطير﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات)) اهـ .

واللهُ تعالى أنزل من السماء ماءً فأخرج النباتَ حسن المنظر . وفي هذا النبات فائدة للإنسان والحيوان والبيئة . ولو اجتمعت الخلائق على إنزال الماء من السماء لعجزت عن ذلك . كما أن جميع علماء الأرصاد الجوية لا يقدرون على تحديد ساعة نزول المطر ، لكنهم يدرسون الأحداث الجوية الظاهرة للعيان ، ثم يبنون حساباتهم على التقريب والاحتمالات .

وكل المشاهَدات الكَوْنية مكشوفة للعيون البشرية ، فليست من عالم الغيب ، وليست من خيالات الشعراء وصورهم الفنية ، وما هي بالمجاز اللغوي المعتمد على قوة المخيلة . بل هي صور واقعية يراها المؤمن والكافر على السواء، وموجودة عبر كل أطوار التاريخ ، وفي كل البيئات.

وقد تحدى اللهُ تعالى عبادَه وهو يعلم عجزَهم . فقال تعالى : ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ ، أي الأصنام والأنداد المعبودون من دون الله تعالى . وبالطبع فلا خالق إلا الله تعالى . ولا معبود بحق إلا الله تعالى . فكلُّ شخص يعبد غيرَ الله تعالى عليه أن يُقدِّم أسماءَ مخلوقات إلهه . فالنصارى الذين يَعبدون المسيحَ ﷺ عليهم أن يُخبرونا ما هي مخلوقات المسيح التي أوجدها . واليهودُ الذين عَبدوا العجلَ ينبغي أن يقولوا لنا ماذا خلق العجلُ . والهندوسُ الذين يُقدِّسون البقر عليهم أن يُقدِّموا قائمة بالمخلوقات التي أوجدها البقرُ . وعبدةُ الأصنام المقتنعون بآلهتهم من دون الله ، ينبغي أن يخبرونا عن قدرة الأصنام على الخلق والإبداع ... إلخ . وحينما يتذكر الفردُ هذا المنظور الفكري المعتمد على المنطق والحجَّة ، سيدرك أن الله تعالى هو الخالق الْمُنَزَّه عن الشريك أو المساعِد . وكلُّ ما سوى الله تعالى هو عبدٌ لله تعالى ومخلوقٌ ضعيف فقير إلى سَيِّده الخالقِ العظيم _ سبحانه _ . وكما قال الشاعر : ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

ب _ أهواء الناس وعقائدهم :

إن الهوى ذو تأثير قاتل في العقيدة لأنه يحيل المنظومة العقائدية إلى مصلحة شخصية ، وخليطٍ من الحق والباطل ، وشكوكٍ منثورة بين الثوابت والمتغيرات ضمن فوضى من شأنها قتل الروح الإنسانية وإحالتها إلى كومة متناقضات ذات أثر سلبي في حياة الفرد التي تصير جحيماً من الاضطراب النفسي ، والانكسارِ الجسماني .

وأصحابُ العقائد الزائغة لهم مذاهب شتى في اتباع الهوى وخطواتِ الشيطان . حيث إنهم يستندون إلى حجج واهية يزيِّنونها لأنفسهم ، ويسيرون وفقها على غير هدى . فكل طائفة منحرفة لها مذهبها في اتباع الهوى والفوضى العقائدية .

قال الله تعالى عن بعض الشواذ عقائدياً : ﴿ يخادِعون اللهَ والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (٩) في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مرضاً ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون (١٠) وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلِحون (١١) ألا إنهم هم المفسِدون ولكن لا يشعرون (١٢) وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناسُ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (١٣) ﴾ [البقرة] .

إن هؤلاء الضالين يعتقدون أن بإمكانهم خداعَ الله تعالى والذين آمنوا ، ويؤسسون فلسفةَ أعمالهم على مبدأ الخِداع ، وهُم في الحقيقة يَخدعون أنفسهم ، ويَضحكون على ذواتهم ، فقد أوردوها المهالك وما يَشعرون بذلك بسبب جهلهم وغرقهم في الوهم الوقتي الزائل . وكلُّ تصرفاتهم تنطلق من قلوب مريضة، ملوَّثة بالكفر، عَشعش فيها السرابُ والعفنُ والأفكار الدنيئة ، وهذا هو المرض الحقيقي الذي يَغفل عنه الكثيرون . وقد زادهم اللهُ مرضاً عقوبةً لهم ، فهُم لم يَسعوا إلى تنظيف قلوبهم من الشوائب، وتنقيتها من الضلالات، فازدادوا غرقاً في شهواتهم الخبيثة، وأفعالهم القذرة . ولم يقف الأمرُ عند هذا الحد ، بل ينتظرهم أيضاً عذابٌ أليم بسبب كذبهم ، واتخاذهم التحايل وسيلةً لتنفيذ مآربهم غير المشروعة .

وهؤلاء القومُ يَرفضون النصائحَ جُملةً وتفصيلاً ، لأنهم يَنطلقون من موقف مسبق معادٍ للحق، ولا يعتمدون منهجيةَ البحث عن الحقيقة ، أو مقارعة الحُجَّة بالحجَّة . قد أغلقوا قلوبَهم ، وأبوا الاستماع إلى أية إرشادات . ففي عقولهم مشروعٌ خبيث ، وهُم يريدون تنفيذه بأية وسيلة دون التمييز بين الحق والباطل. وإذا نُهوا عن الإفساد في الأرض ، أخذتهم العِزَّةُ بالإثم ، وقدَّموا أنفسهم كمصلِحين يَهدفون إلى إصلاح الناسِ والبيئةِ الاجتماعية ، والأخذ بيد الآخرين إلى بَر الأمان . وهذا هو الضلالُ بعَيْنه ، لأنهم هم المفسِدون ، لكنَّ مشاعرهم تبلَّدت ، ومات إحساسُهم ، فلا يشعرون بفسادهم ، تماماً كالمريض الذي لا يَشعر بمرضه ، ويواصل حياته معتقداً بأنه في أحسن حال ، لكنه لا يَدري أنه سائر إلى الهاوية السحيقة التي لا رجوع منها . وهنا تكمن قضية غاية في الأهمية، وهي أن المريض لا بد أن يُدرك أنه مريض إذا أراد العلاجَ، أمَّا التحايل والمكابَرة والهروب من الواقع ، فأمورٌ لا تساهم في العلاج . وإذا دُعِيَ هؤلاء المفسِدون إلى الإيمان مثلما آمن الناسُ ، فإنهم يتذرعون بالمكانة الاجتماعية المزعومة ، فيَنظرون إلى المؤمنين على أنهم سُوقة ورعاع ، ومن السفهاء الذين لا عَقل لهم. وهذا الكلامُ لا دليل عليه ، وإنما هو مجرَّد اتهامات في الهواء لذر الرماد في العيون ، لذلك فهؤلاء المفسِدون هم السفهاء ، ولكنهم لا يَعلمون بأمرهم . وكما قيل :

فإنْ كُنتَ لا تدري فتلك مصيبة وإنْ كُنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ

والآياتُ السابقةُ تتضمن فضحاً لعقائد المبطِلين من المنافقين ومن سار على منوالهم ، وتفنيداً لها بالحُجَّة الدامغة . ولا شك أن اللهَ تعالى لا يمكن خداعه أو التحايل عليه ، ((فإنه العالِم

بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم ، وقلة علمهم وعقلهم ، يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس ، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك يكون حُكْمُهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده ، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده ، كما قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم اللهُ جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ [المجادِلة : ١٨]))[9] .

فهؤلاء المنافقون يُظهرون الإيمانَ ويبطنون الكفرَ ، وهم يعتقدون أن حيلتهم سوف تنطلي على الله تعالى ، لكن لا يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم ، ويلقون بأيديهم إلى التهلكة ، والجحيم السرمدي، حيث لا توجد فرصة للتعويض مطلقاً .

ومن صفات المنافقين كما وضَّحها ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦) : ((خنع الأخلاق ، يصدق بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويخالف بعمله ، ويصبح على حال ويمسي على غيره ، ويمسي على حال ويصبح على غيره ، ويتكفأ تكفؤ السفينة ، كلما هبَّت ريحٌ هبَّ معها)) اهـ .

والنفاقُ هو المرض المستشري في قلوبهم الذي يحرق دواخلَهم ، ويقودهم إلى الهاوية . والمنافقُ يعتقد نفسَه ذكياً وقادراً على التلاعب بالمواقف لصالحه ، والضحكِ على الآخرين باستخدام أساليب التحايل . لكنه لا يدرك أنه يلعب بمصيره ، ويقضي على تاريخه ، ويحشر نفسَه في الوهم والتعاسة وضياع الأمل . فهو يضحك على نفسه ولا يَنظر إلى عواقب الأمور ، تماماً كالشخص الذي يبتلع السُّمَّ ويقضي وقتَه مُفكِّراً في مذاقه ، وينسى أن حياته ستنتهي عما قليل . لذا فالمنافقُ محصورٌ في اللحظة الآنية ، ومُحاصَرٌ بالأوهام العمياء التي تزيده حيرة وضياعاً .

والمنافقون أصحابُ أخلاق وضيعة متذبذبة ، يتَّخذونها سُلَّماً لتحقيق أهدافهم غير النظيفة ، ألسنتهم تنطق بالكلام المعسول ، والمجاملات الخادعة ، وقلوبهم مفعمة بالشك والحقد والكراهية ، وأعمالهم السيئة تعكس ما في قلوبهم .

وفي تفسير القرطبي (١/ ٢٤٤): ((قال ابن فارس اللغوي : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من عِلة ، أو نفاق ، أو تقصير في أمر)) اهـ .

وقد زادهم اللهُ مرضاً ، أي زادهم كفراً ونفاقاً وتكذيباً عقوبةً لهم على سوء أفعالهم . فهم غارقون في أمراضهم الأخلاقية وعِللهم الروحية ، وكلما خرجوا من متاهة دخلوا في متاهة أخرى.

---

(٩) تفسير ابن كثير (١/ ٧٥٥) .

وهذا النفقُ الذي يقتحمونه غير مبالين سيكون وبالاً عليهم ومقبرةً لهم، لأنه بدون ضوء في آخره . فهم كالفَرَاش الذي يرقص حول النار سعيداً مختالاً ، لكنه لا يدرك أنه سيحترق بالنار ، وتكون نهايته المؤلمة ، حيث تختفي فرص التعويض والعودة .

وعادةُ المنحرِفين في كل زمان ومكان أنهم يَدَّعون العلمَ والإصلاح والتنوير ، وذلك لكي يخفوا فسادَ أفكارهم وأفعالهم . فهؤلاء المنافقون إذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض زعموا أنهم مصلِحون يريدون إصلاح الأمور ، وبث الألفة والتوفيق ، لكنهم لا يشعرون بفسادهم بسبب جهلهم المريع ، والنفاقِ المستوطن في دواخلهم المحترقة . فهم كالذي يَرُشُّ على الموت السُّكَّر ، إذ إنهم يحاولون تزيين أفكارهم المتعفنة بالمكياج الخادع والزينة الظاهرية الزائلة ، تماماً مثل شخص يُحاول تزيين الجثث بالورود والأزهار الفواحة .

وقد رأينا عبر العصور الكثير من هؤلاء الذين يُغلِّفون أفكارهم الشاذة وعقائدهم المنحرفة ومواقفهم المخزية بالنظريات العلمية وهالةِ التنوير والمعاني البراقة . فهم يستندون إلى منهجية دس السم في الدسم . حيث إنهم إذا حاولوا تقديم أفكارهم الموبوءة سافرةً فإنهم سيُجابَهون بالرفض والإقصاء والطرد، ويُفضَح أمرهم، لذلك يلجأون إلى التحايل ومحاولة الدخول من الباب الخلفي ، ووضع السموم في إطار براق جميل مُحبَّب إلى النفوس لكي يسهل اختراقها وتمرير باطلهم . إنهم غارقون في فكرة " حصان طروادة " . قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٨٠) : ((يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس ، أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار ، وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر ،﴿ قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾، يعنون_ لعنهم الله _ أصحابَ رسول الله ﷺ _ رضي الله عنهم _)) اهـ. وهذا طبعُ المنافقين والكافرين في كل العصور . فهم ينعتون المؤمنين بالظلامية والرجعية والسفاهة والتطرف في محاولة يائسة لتشويه صورتهم أمام الرأي العام ، وصرفِ الناس عن الحق عبر التشويش على دعاة الإيمان . فالقاعدة الأساسية التي يتبعها أصحاب العقائد المنحرفة _ على الدوام _ هي محاولة هدم الفكرة عن طريق تدمير من يحملونها، إذ إن إسقاط الأشخاص من شأنه إسقاط العقائد التي يرفعون لواءها .

وأهواءُ الناس وعقائدهم الزائغة لها جوانب كثيرة ، وهي ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، ضمن خليط فوضوي عابث لا يوصل إلى اليقين ، بل يقود إلى الغرق المتزايد في مستنقع الشك والكفر والفوضى الروحية ، والاضطرابِ الإنساني الحرج .

وإنك لتجد في القرآن الكريم لفظة " النور " بالمفرد ، ولا توجد لفظة " الأنوار " ، لأن الحق واحد لا يتعدد . في حين أن القرآن الكريم مليء بلفظة " الظلمات " لأن الباطل يتعدد ، وذو مذاهب شتى ، وأهواء متباينة .

قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ [البقرة : ١٦٥][10] .

وهؤلاء الذين يُثبِتون لله تعالى أنداداً ويُسقِطون عليهم صفات الألوهية والحاكمية إنما يقومون بذلك العمل السيئ اعتماداً على قلوب مريضة مليئة بأوهام الشك ، وفوض العقائد الكفرية المحتوية على الجهل والعناد والأساطير . والأندادُ المعبودون من دون الله تعالى يتغيرون باختلاف الزمان والمكان ، مثل الأصنام والحكام الطغاة ، وسادة القوم ... إلخ .

فاتخاذُ الأنداد يرمي إلى نيل الحظوة لدى الناس ، وتحقيق مكاسب مادية ذاتية ، وصعود سُلَّم السُّلطة بالطرق غير الشرعية . إنهم يطمحون إلى تكوين سُلطات زائفة عبر المتاجرة بالحقائق المطلقة . فالحقُّ _ بالنسبة إليهم _ أداةٌ لتحقيق مآرب شخصية . والمعاني الجميلةُ تصبح جسراً يدوسون عليه في عبورهم نحو المجد الوهمي المستند إلى المكر، والنفوذِ المتهاوي المعتمد على الخداع. فهم يُحوِّلون القيمَ السامية إلى مَطِيَّةٍ لتحقيق أهدافهم الخبيثة المضادة للحق والحقيقة .

قال الله تعالى :﴿ ومن الناس من يعجبكَ قولُه في الحياة الدنيا ويُشهِد اللهَ على ما في قلبه وهو ألد الخِصام (٢٠٤) وإذا تولى سعى في الأرض ليُفسِد فيها ويُهلِك الحرثَ والنسلَ واللهُ لا يحب الفسادَ (٢٠٥) وإذا قيل له اتَّقِ اللهَ أخذتْهُ العِزَّةُ بالإثم فحسبُه جهنم ولبئس المهاد (٢٠٦) ﴾ [البقرة] .

وهذه الصفاتُ تشير إلى غبش عقائدي مريع ، وانحراف عن الصراط المستقيم ، مرجعه إلى عوامل شتى كالهوى والشيطان والمنفعة الذاتية الوقتية .

فالاعتمادُ على الكلام المعسول لترويج الباطل يُعتبَر سلاحاً من وجهة نظر هؤلاء المنافقين . فهم يعتقدون أن كلامهم البراق قادر على إخفاء حقيقتهم السوداء ، وضمان سلامتهم ، وتمرير أفكارهم الخبيثة المسبقة . فكلامُهم لا ينبع من قلوب صادقة وصدورٍ صافية . بل ينبع من خبثٍ مُبَيَّت ذي أغراض محدَّدة سلفاً . وهؤلاء لا يتورعون عن إشهاد الله تعالى على ما في قلوبهم ظناً

---

(١٠) في تفسير القرطبي (١٤/ ٢٦٥) عن معنى " أنداداً " : ((أي أشباهاً وأمثالاً ونظراء)) .

منهم أنهم _ بذلك _ يكونون أصحاب حُجَّة قوية تُفحِم الآخرين ، وموقفٍ راسخ ينطلي عليهم . لكنهم _ في واقع الأمر _ قلوبهم تغلي بالحقد والاستهزاء بالحق والجدال بالباطل . ويسعون بكل قوتهم إلى بث الفساد في الأرض .

قال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٢٤) : ((وهذا نعتٌ من الله _ تبارك وتعالى _ للمنافقين . يقول _ جل ثناؤه _ : ومن الناس من يعجبك يا محمد ظاهر قوله وعلانيته ، ويستشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، جدل بالباطل . ثم اختلف أهل التأويل فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال بعضهم : نزلت في الأخنس بن شريق ، قدم على رسول الله ﷺ فزعم أنه يريد الإسلام ، وحلف أنه ما قدم إلا لذلك ، ثم خرج فأفسد أموالاً من أموال المسلمين)) اهـ .

إن المنافقين يَعتمدون على ألسنتهم المداهِنة في إخفاء ما في قلوبهم . فهُم أصحابُ كلامٍ جميل ، ولكنْ الواقع يُكذِّبه . وهنا تبرز أهمية الكلام البَرَّاق في حياة المنافق ، فهو يعتقد أن لسانه هو سيفه الذي يَحميه ، لذا يعتني به ، ويُنظِّفه من الشوائب . أمَّا واقع المنافق فعكس ذلك تماماً . وهذا التناقض الحاد بن القول والفعل يُعتبَر علامةً أساسية في شخصية المنافِق .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٣٢) : ((وعن ابن عباس : أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قُتلوا بالرجيع وعابوهم فأنزل الله في ذم المنافقين ... وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم ... وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس ، وغير واحد ، وهو الصحيح)) اهـ .

وهذا طبعُ المنافقين الذي يظهرون عكس ما يبطنون . فتراهم يظهرون بثياب الحملان وهم ذئاب شرسة . وهم يستعملون الكلماتِ الناعمة الجميلة لخداع الآخرين وتطبيقِ مشاريعهم الفاسدة . ويحلفون بالله تعالى إنهم صالحون لكي ينالوا القبولَ والتصديق عند الناس ، وهم _ في واقع الأمر _ معجونون بالكذب والخديعة والغدر .

وكما قال الشاعر :

لا خيرَ في امرئٍ متملــقٍ   حلوِ اللسانِ وقلبهُ يَتَلهَّــبُ
يلقاكَ يحلفُ أنه بكَ واثــقٌ   وإذا توارى عنك فهو العَقْـرَبُ
يعطيكَ من طرفِ اللسانِ حلاوةً   ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ

وهذا المنافق إذا قيل له اتَّقِ اللهَ، وارجع عن انحرافكَ ، تمرَّدَ ، وأخذتْه الحمية بالإثم ، والإصرار على الباطل . فجزاؤه جهنم لقاء عناده وغروره وتكبره على الحق . فرفضُه الرجوع للحق نابع من غروره واعتداده بنفسه بالباطل ، لذلك يكون تقبلُ الحق ثقيلاً على قلبه،فيرفضه لأنه نفسه المتعاظمة المزهوَّة تقف حاجزاً دون تقبل الحق والإذعان له.فحسبُه جهنم، فهي مصيره المستحق.

قال الله تعالى : ﴿ ومنهم مَن يقول ائذَن لي ولا تفتِنِّي ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ [التوبة : ٤٩] .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٧٦) : ((يقول تعالى : ومن المنافقين من يقول لك : يا محمد ﴿ ائذَن لي ﴾ في القعود ﴿ ولا تفتِنِّي ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم ... قد سقطوا في الفتنة بقولهم)) اهـ .

فالمنافِق يخترع الأعذارَ من بنات أفكاره لكي يهرب من التحديات الجسيمة ، والخطوبِ الجليلة . وهذا دَيْدَن المنافقين الذين يفتقدون إلى الشجاعة والحزم ورباطة الجأس وقوةِ الكلمة . فهم يعيشون كالطفيليات على المصائب، والهروبِ من الأزمات ، والذوبان في المجتمع ونشر الإشاعات والأكاذيب لتفتيت وحدة الصف ، والنجاة بأرواحهم لحرصهم على حياتهم المفتقدة إلى قيم الشرف والفروسية والأخلاق الرفيعة والكلامِ الصادق . فالمنافقُ أراد الهروبَ من المعركة وملاقاةِ العدو فلم يجد وسيلةً للتملص من هذا الاستحقاق المصيري سوى ربطه بالجواري من الرُّوم . فزعم أن هؤلاء الجواري فتنةٌ له يضعف أمامهن ، ولا يطيق صبراً عليهنَّ ، فالحلُّ _ من وجهة نظره _ أن يتخلف عن الجهاد لئلا يُفتتن بهؤلاء النساء الجميلات . وهذا الأسلوب البائس الرامي إلى الهروب من الجهاد يعكس منظومةَ الانهيار العقلي والانكسار الأخلاقي واختراع الأعذار الواهية التي يرتع فيها المنافقون . وكما قيل : عُذْرٌ أقبح من ذَنْب .

وتتوالى الضبابية في العقائد الزائغة والسلوكياتِ السيئة المفتقدة إلى إيمان راسخ . فالخللُ في بنية العقيدة يتضح في التعاملات الاجتماعية بين الناس خصوصاً التعاملات المالية ، لأن المال هو المحك الرئيسي الذي يكشف عن معادن الرجال .

قال الله تعالى : ﴿ ومنهم مَن يلمزكَ في الصدقات فإن أُعطوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخطون ﴾ [التوبة : ٥٨] .

أي يعيب تصرفَكَ ، ويطعن عليكَ في الصدقات . فإن أُعطوا منها رضوا ، وإذا لم يُعطَوا انقلبوا ساخطين رافضين . وهؤلاء مُسَيْطَر عليهم من قبل مصالحهم الشخصية . إذ إن حب المال

أعماهم ، وجعلهم رافضين لحكم النبي ﷺ غير راضين به لأن الإيمان لم يتجذر في قلوبهم ، فهم يميلون مع أهوائهم دون تحكيم الشريعة في أفعالهم . فقد أصبح المالُ عندهم هو الفيصل والحاكم على الشريعة وليس العكس ، لذا فإنهم يُطَوِّعون عقائدهم لتتماشى مع المكسب المادي ، فقد أصبح دينُهم تابعاً للدرهم والدينار ، يدور معهما حيث دارا .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٥٤٠) : عن أبي سعيد قال : بينا النبي ﷺ يقسم ، جاء عبد الله ابن ذي الخويصرة التميمي ، فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : ((وَيْحك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟)) .... قال فنزلت فيه ﴿ ومنهم مَن يلمزكَ في الصدقات ﴾ .

فالبعضُ يرمي الكلامَ السيئ ولا يُدرِك أبعادَ ما يقول . فمطالبةُ النبي ﷺ بالعدل وقاحةٌ ، لأن النبي ﷺ هو مؤسس العدل على الأرض التي كان فيها القويُّ يأكل الضعيفَ، والغنيُّ يسرق الفقيرَ. وإذا كان النبي ﷺ ظالماً _ حاشاه _، فهذا يعني موت العدل على الأرض ، ولا يوجد أحدٌ سيَعدل.

لكنَّ النبي ﷺ ذو الصدر الواسع ، والصابر على الأذى وجهل الآخرين ، لا يمكن استفزازه بهذه الأقوال القبيحة ، أو إخراجه عن قيم العدالة والحق ، لذلك رسَّخ مفهومَ العدل في النفوس ، ونَبَّه إلى أنه الإمام العادل ، وأن لا أحد سيَعدل إذا لم يعدل هو ﷺ .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن الأعراب مَن يتخذ ما يُنفِق مَغْرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السَّوْء واللهُ سميع عليم ﴾ [التوبة : ٩٨] .

من الأعراب من يعتبر إنفاقه وتقديمه المال خسارةً كبرى ومشروعاً فاشلاً لا يعود عليه بالربح، وذلك لأنه عقله محصور في الأرباح المادية ومنطق الربح والخسارة من منظور شكلي لا ينطلق من إيمان راسخ بأن الله تعالى رزاق يُثيب المنفِقين ، ويرزقهم السعادة والرضا والمكاسب الروحية والمادية في الدنيا، ويُعد لهم نعيماً أُخروياً لا ينفد جزاءَ ما قَدَّموه من مال في سبيل الدعوة.

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥١) : ((يقول تعالى ذِكره : ومن الأعراب من يعد نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك ، أو في معونة مسلم ، أو في بعض ما ندب الله إليه عباده ﴿ مَغْرماً ﴾ يعني : غرماً لزمه لا يرجو له ثواباً ، ولا يدفع به عن نفسه عقاباً)) اهـ .

وهؤلاء المنافِقون ينتظرون حدوث المصائب في صفوف المسلمين ، مما يدل على خبثهم وفساد بواطنهم . لكن المصائب ترتد عليهم . وعليهم تقع دائرة السَّوْء . فسلوكُهم ينطلق من حقد دفين على الدعوة الإسلامية ، لذلك يحاولون الاصطياد في الماء العكر بكل قوتهم ، ولا يدخرون في ذلك جهداً. كما أن يترقبون نزول المصائب على المسلمين وغرقهم في الكوارث لكي تضعف

قوتهم ، ويخسروا نفوذهم ، وتُستأصل شأفتهم ، ويُقضَى على وجودهم . الأمرُ الذي يُفسِح المجالَ لقوى الظلام بأن تنتشر ، وتبث باطلها ، وتعيد الناس إلى الضلال من أجل استغلالهم لصالح طبقة الفاسدين والمفسِدين . لكنَّ الله تعالى حافظٌ دِينه ، وناشرٌ شريعته ، شاء من شاء وأبى من أبى.ولا يمكن لأحد أن يوقف نورَ الشمس، مهما امتلك من الوسائل والإمكانيات الهائلة.

قال الله تعالى : ﴿ وإذا ما أُنزِلت سورةٌ نظر بعضُهم إلى بعض هل يراكم مِن أَحدٍ ثم انصرفوا صرف اللهُ قلوبَهم بأنهم قومٌ لا يفقهون ﴾ [التوبة : ١٢٧] .

في هذا إشارة بالغة إلى تصرفات المنافقين المستندة إلى الخداع ، والرياء ، وتنفيذِ مخططاتهم الشريرة دون وازع ديني أو رقابة ذاتية ، لأن أمانيهم محصورة في الحياة الدنيا دون التفكر في الحساب بعد الموت . فالتخندقُ في المصلحة الذاتية الآنية الزائلة يجعلهم لا ينظرون إلى ما وراء الأحداث بعينٍ إيمانية ، وهذا أدى إلى وجود البصر في اصطياد الأزمات مع غياب تام للبصيرة .

فإذا أُنزلت سورةٌ فإن قلوبهم تضطرب وتشمئز رافضةً لنور الحق ، فهم ينظرون إلى بعضهم البعض متلفِّتين مستعدين للهروب من الحقيقة ، فلا يريدون الاستماع إلى القرآن الكريم ، لذلك يفرون منه وينصرفون عنه لأن الخفافيش لا تطيق ضوءَ النهار . ولو استقر الإيمانُ في قلوبهم لاحتضنت كلامَ الله تعالى وتَدَبَّرَتْه ، ولكنَّ القرآنَ لا يمكن أن يستقر في قلب نجس غير نظيف . فالأزهارُ لا تنبت في مزبلة . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٣٠) : ((هذا أيضاً إخبار عن المنافقين ، أنهم إذا أُنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نظر بعضُهم إلى بعض ﴾ أي تلفَّتوا ﴿ هل يراكم مِن أَحدٍ ثم انصرفوا ﴾ أي تولوا عن الحق ، وانصرفوا عنه . وهذا حالهم في الدِّين ، لا يثبتون عند الحق ، ولا يقبلونه ، ولا يفهمونه)) اهـ .

قال الله تعالى:﴿ ومن الناس مَن يقول آمنَّا بالله فإذا أُوذِيَ في الله جعل فتنةَ الناس كعذاب الله﴾ [العنكبوت : ١٠] .

هذه صفة لازمة للمنافقين الذين يزعمون الإيمان الصادق بالله تعالى ، فإذا أُوذيَ وناله العذاب والشدة من الناس ، جعل أذى الناس كعذاب الله تعالى في الآخرة ، فارتد عن الإيمان ، ونكص على عقبَيْه. مما يدل على عدم تغلغل الإيمان في قلبه، إذ إن إسلامه ظاهري لا يجاوز لسانَه .

فالفتنُ حصاد المنافقين تحرقهم بنارها، وتلغي وجودهم ، وتنقلهم من طمأنينة الإيمان إلى متاهة الشك والكفر . فالإيمانُ إذا كان ضعيفاً فإنه سينهار في وجه الفتن . تماماً كالشجرة المهزوزة غير الثابتة في الأرض والتي تفتقد إلى جذور راسخة ، فإن أدنى عاصفة سوف تقتلعها

وتقضي على وجودها تماماً . فالفتنُ شديدة الخطورة على القلب الضعيف الذي لم يستقر فيه الإيمان ويسيطر على الجوارح. وسوف تكونُ تلك الفتن بمثابة الضربة القاضية التي تقصم مصيرَ الفرد. إذ إن خسارة الإيمان لا يمكن تعويضها، وإذا أُصيب العمود الفقري للإنسان فإن شللاً لا يُرجى شفاؤه سوف يسيطر عليه حتى نهاية حياته.والدِّينُ عمودُ الحياة،فإذا زال وانهار أمام عواصف الفتن فإن البناء الإنساني سينهار ، وتصبح الحضارةُ خاويةً على عروشها جحيماً لا يطاق.

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : كان ناس من أهل مكة قد أسلموا ، وكانوا مُسْتَخْفين بالإسلام ، فلما خرج المشركون إلى بدر أخرجوهم مُكْرَهين ، فأصيب بعضهم يوم بدر مع المشركين ، فقال المسلمون : أصحابنا هؤلاء مسلمون ، أَخْرَجوهم مُكْرَهين فاستغفروا لهم ، فاستغفروا لهم. فنزلت هذه الآية : ﴿ إن الذين توفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم ﴾ [النساء : ٩٧] . فكتب المسلمون إلى من بقي منهم بمكة بهذه الآية ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ظهر عليهم المشركون وعلى خروجهم ، فلحقوهم فردوهم فرجعوا معهم ، فنزلت هذه الآية :﴿ ومن الناس مَن يقول آمنَّا بالله فإذا أُوذِيَ في الله جعل فتنةَ الناس كعذاب الله﴾ [11].

فهؤلاء الذين رجعوا مع المشركين لم يصمدوا في وجه هذا التحدي ، ولم يحاولوا المقاومة أو الدفاع عن دينهم بسبب ضعفهم الذاتي وعدم تمكن الإيمان من قلوبهم ، لذلك انهاروا عند أول تجربة ، وسقطوا في أول امتحان . فهذه الفتنةُ قد اجتاحتهم وجرفتهم ، فخسروا الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ وإنَّا إذا أذقْنا الإنسانَ منَّا رحمةً فرح بها وإن تُصبهم سيئةٌ بما قدَّمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ [الشورى : ٤٨] .

أي إذا أصاب الإنسانَ رخاءٌ فرح وشعر بالسعادة الغامرة ، يكاد يطير من شدة الفرح . وإذا أصابته شدة أو بلاء فإنه كفور ، أي جاحد للنعم الكثيرة . فعلى الإنسان أن يثبِّت نفسَه في السراء والضراء ، ويظل دائمَ التوجه إلى خالقه تعالى ، سواءٌ أعطاه أم منعه ، لأن العطاء والمنع اختباران إلهيان لكي يرى اللهُ تعالى من ينجح ومن يفشل . فالمؤمنُ الحقيقي لا يُخضِع إيمانَه للرخاء والشدة في الحياة الدنيا ، فالإيمانُ أسمى من الدنيا بكل ما فيها . كما أن الدنيا وعاء للسراء والضراء ، وهذا الوعاء يحتوي الناسَ كلهم على اختلاف عقائدهم وأجناسهم .

---

(١١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٧/ ٦٨) : ((رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح غير محمد ابن شريك وهو ثقة)) .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥) : عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ : ((عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)) .

المؤمنُ فَطِنٌ متماسكٌ لا يهتز أمام الصعوبات، ولا يستسلم في وجه الأزمات ، ولا ينهار أمام التحديات الجسيمة. فهو شخصيةٌ متميزة إن أصابته سَرَّاء لم ينسَ شُكرَ الله تعالى ، بل يلوذ بالشُّكر الحارس للنِّعم، وهنا يحصل على خيرٍ عميم ، فيكون رابحاً في الحالتَيْن معاً . وإذا أصابته ضَرَّاء لم يَسخط ، ويعاتب خالقَه تعالى _ كما يفعل الجهَّال _ ، بل يستعين بالصبر ، فيتحول الضرُّ إلى نعمة عظيمة ، وتصبح الشِّدةُ خيراً له. ولا يخفى أن المؤمن ينظر إلى السَّراء والضراء على أنهما امتحانان ولا يمكن النجاح فيهما إلا بالشكر على السراء ، والصبر على الضراء . فالشُّكر والصَّبر هما الجناحان اللذان يطير بهما المؤمن إلى الرُّتبة السامية ، والمنزلةِ الرفيعة .

ومن أخطر العقائد الباطلة المستندة إلى اتباع الهوى الفاسد إنكار البعث بعد الموت . وهذا الإنكار مرجعه إلى تعلق النفس البشرية بالدنيا دون النظر إلى عالم الغيب بعين البصيرة والتفكر .

قال الله تعالى : ﴿ وقالوا إن هِيَ إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [الأنعام : ٢٩] .

إنهم محصورون في الحياة الدنيا ، ولا ينظرون إلى ما ورائها بعد الموت . وبالطبع فقد وَقعوا في فخ السِّحر الدنيوي المزيَّف فاعتقدوا أن الدنيا هي البداية والنهاية . فعقيدةُ البعث غائبةٌ تماماً عن عقولهم، لذلك فأعمالهم تجيء بدافع الرياء والسُّمعة والحميَّة والعصبيات المختلفة بعيداً عن منهجية الثواب والعقاب يوم القيامة ، لأن الموت _ بالنسبة إليهم _ هو نهاية المطاف ، مع أنه هو نقطة البداية . وشعارُهم المرفوع في هذا السياق هو : أرحامٌ تَدفع ، وأرضٌ تَبلع .

قال الطبري في تفسيره (٥/ ١٧٦) : ((يخبر عنهم أنهم ينكرون أن الله يُحيي خلقه بعد أن يميتهم ويقولون : لا حياة بعد الممات ، ولا بعث ، ولا نشور بعد الفناء . فهم بجحودهم ذلك وإنكارهم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة لا يبالون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية ، لأنهم لا يرجون ثواباً على إيمان بالله ، وتصديق برسوله ، وعمل صالح بعد موت ، ولا يخافون عقاباً على كفرهم بالله وبرسوله)) اهـ .

وإنكار الحياة الأخروية له تأثير مدمِّر على الفرد والمجتمع ، لأنه يلغي في النفوس جزاءَ العمل ، فيصبح الإنسان لا ينتظر ثواباً ولا يخشى عقاباً . فهو _ كالأنعام _ يعيش ويأكل ويتمتع ويموت دون وجود غاية سامية يسعى إليها ، أو هدف راقٍ يتوِّج مسيرةَ حياته . مما يؤدي إلى تدمير البنية

النفسية للفرد ، والقضاءِ على تماسك المجتمع ، وتفتيته إلى كيانات مصلحية آنية تفتقد إلى الوازع الإيماني الداخلي . فتصبح الحياةُ فوضى ميكانيكية قاتلة للروح والجسد ، ويتحول الفرد إلى آلة صماء تعمل بدون روح ، وحينما تعجز عن العمل تُرمَى في المهملات . فغيابُ النظر إلى ما وراء الموت يجعل من حياة الفرد موتاً متكرراً . كما أن الركون إلى الدنيا وبهرجها الزائل يورث في النفس قلقاً هائلاً. فعدمُ الإيمان بالبعث لا يعني الاستراحة من التفكير بالثواب والعقاب يوم القيامة، بل يعني مزيداً من الانكسار الروحي ، وتحايل المرء على ذاته ، وإغراق حياته في الخداع ، وعدم الاستعداد لنيل الخلود الأبدي والحصولِ على الخلاص .

وعن ابن عيينة قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إن الدهر هو الذي يهلكنا ، هو الذي يميتنا ويحيينا ، فرد اللهُ عليهم قولهم . قال الزهري : عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة : عن رسول الله ﷺ قال : ((يقول الله _ عز وجل _ : يؤذيني ابن آدم ، يَسُب الدَّهْرَ ، و أنا الدهر ، أُقلِّب ليله ونهاره ، فإذا شئتُ قبضتُهما)) . وتلا سفيان _ ابن عيينة _ هذه الآية : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : ٢٤] [12] .

فأهلُ الجاهلية قد حشروا أنفسهم في حياة روتينية مملة بدون هدف راقٍ (الأكل والشراب / النوم / الجنس / الموت). وهذه الحياة القاتلة لمعنى الحياة تخلو من القيم السامية، وصناعةِ التاريخ، والإخلاصِ لله تعالى ، ونيل جنَّته الخالدة . لذا فإن جنة المشركين هي في حياتهم الدنيا المحشورة في زاوية الضيق والضنك وغياب الطمأنينة النفسية . وهم ينسبون الموتَ إلى الدهر ، وأنه مرحلة طبيعية خاضعة للمبادئ الزمنية والقواعدِ الحسابية الخاصة بالشهور والسنوات. ويغيبُ عن أذهانهم ما وراء الموت ، أو القوة المسيطرة على الموت .

وفي فتح الباري (٨/ ٥٧٥) : ((قال القرطبي : معناه يخاطبني من القول بما يتأذى من يجوز في حقه التأذي ، والله مُنَزَّه عن أن يصل إليه الأذى ، وإنما هذا من التوسع في الكلام . والمراد أن من وقع ذلك منه تعرض لسخط الله . قوله : وأنا الدهر . قال الخطابي : معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر ، فمن سبَّ الدهرَ من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سَبُّه إلى ربه الذي هو فاعلها ، وإنما الدهر زمان جُعل ظرفاً لمواقع الأمور ، وكانت عادتهم إذا أصابهم مكروه أضافوه إلى الدهر ، فقالوا بؤساً للدهر وتَبَّاً للدهر)) اهـ .

---

(١٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩١) برقم (٣٦٩٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وهكذا نجد أن العقائد الزائغة المبنية على اتباع الهوى قد أوصلت الكثيرين إلى الهاوية عبر انتهاج طريق خاطئ يحتوي على مخالفات جمة . لكن تصحيح هذه السلوكيات السيئة دائماً يأتي في النصوص الشرعية لانتشال الناس من مستنقع الجهل والكفر الذي يتخبطون فيه .

ويظل الإيمانُ باليوم الآخر أساساً لتنظيم السلوك البشري وفق مراد الله تعالى . فالفردُ حينما يؤمن بوجود الثواب والعقاب بعد الموت ، فإنه سوف يسير في حياته الدنيا وفق الدرب المستقيم ، ويحسب أفعالَه بدقة لعلمه أن مُحاسَب عليها .

أما الذين أنكروا يومَ البعث فهم يعتقدون أن بوسعهم الهروب من النهار الساطع ، لكنَّ الحقيقة أن لا أحد يستطيع الهروب من ضوء الشمس أو الاختباء وراء أصبعه. فقد اتبعوا أهواءهم بغير علم ، وغرتهم الحياة الدنيا التي جعلوها البدايةَ والنهاية في مسارهم الوجودي ، مما قادهم إلى الضياع الحتمي على كافة المستويات . فالاضطراب الروحي والانكسارُ الجسماني نتيجتان طبيعيتان لغياب المعنى عن الحياة البشرية في المجتمعات التي لا تؤمن بالله واليومِ الآخِر .

ج ـ دعوتهم إلى الاعتبار بمن سبقهم :

إن صاحبَ البصيرة هو الذي يَدرس التاريخ من أجل أخذ العِبَر والفوائد ، فيتجنب الأخطاءَ والخطايا التي وقعت فيها الأقوامُ الغابرة . فالعاقلُ من اتَّعظ بغيره ، والجاهل من اتعظ بنفسه .

وليس التاريخُ كومةً عبثية من الأحداث ، أو سِجِلاً للوقائع خالياً من المعنى . إنه رصيد إنساني هائل يُبرز التحولاتِ الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في حياة الأفراد والجماعات ، ويَرصد منظومةَ الصعود والسقوط في حياة الأمم والحضارات . فالشخصُ المنقطع عن التاريخ إنما يتحرك في العُزلة والفراغ ، ويُقامر بحاضره ومستقبله ، ويُورد نفسَه المهالك دون أدنى بصيص أمل . أمَّا الشخص القارئ للتاريخ والمستوعِب لأحداثه إنما يبني مصيره على قاعدة صلبة مستقاة من تجارب الآخرين المتضمنة نجاحاتهم وإخفاقاتهم . كما أن التاريخ يُوفِّر على المرء البدء من الصفر ، وذلك بسبب وجود مخزون هائل من التجارب الإنسانية ونقاطِ القوة ونقاط الضعف . مما يجعل المرء ذا حصيلة معرفية ضخمة تؤهِّله لصهر المراحل ، والقفزِ فوق الفِخاخ ، وسَبْرِ أغوار القضايا الإنسانية والحضارية ، وتجنب الدروب المظلمة التي تفضي إلى طرق مسدودة .

وقد نَبَّه القرآنُ على أهمية التاريخ، ولفتَ الانتباه إلى حال الأمم الغابرة للتفكر في مسارها ومصيرها ، والوقوف على مشكلاتها الروحية والمادية والعمل على تجنبها ، والاعتبار بما حدث لها لئلا يتم السقوط في نَفْس الحُفرة .

قال اللهُ تعالى:﴿ ألم يَرَوا كَم أهلكنا مِن قبلهم مِن قَرْن مَكَّناهم في الأرض ما لم نُمكِّن لكم ﴾ [الأنعام : ٦] . ينبغي النظر إلى الأمم الخالية التي أُوتِيَت من أسباب القوة والسَّعة والقدرات الفائقة ما لم يَحصل عليه أهل مكة . ومع هذا أهلكهم اللهُ تعالى وهم أصحاب التمكين والمنعة . إذن ، ماذا ستكون حالُ أهل مكة وهم أضعف منهم بكثير ؟! . فالقادرُ على إهلاك الجبابرة لن يَعجز عن إهلاك الضعفاء . ومن هنا تنبع أهميةُ التفكر في أحوال الأقوام السابقين الذين اعتمدوا على قوتهم الذاتية والأسبابِ المادية معتقدين أنها كفيلة بجعلهم صامدين في وجه الأزمات ، وضمان بقائهم على طول الدهر . لكنَّ شيئاً من هذا لم يَحدث . والمشكلةُ الكبرى في عقلية الظالمين عبر العصور ، هي اعتقادهم بأنهم استثناء من القاعدة ، وأن ما يَنطبق على غيرهم لا يَنطبق عليهم . وهذا الوهمُ مرجعه إلى غرور القوة الذي يمنع المرءَ من رؤية الأمور على حقيقتها . فالظالمُ سائرٌ إلى حتفه بكل غرور وتكبُّر . فقد غَرَّه حِلمُ الله عليه ، وطولُ أمله ، وثناءُ الناس عليه . ولو كان الظالمُ قارئاً للتاريخ لأدرك أن لله تعالى سُنناً ثابتة تنطبق على الجميع ولا تتغير .

وإن الحضارات العظمى التي زالت ، وعتاةَ الجبابرة الذين ذهبوا إلى غير رجعة ، وانتصار المظلوم على الظالم ولو بعد حين . كل هذه الأمور تدعو للتفكر من أجل اتخاذ القرار الصائب .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٢):((القرن مدة أغلب أعمار الناس، وهي سبعون سنة. وقيل: ثمانون، وقيل: القرن أهل عصر فيه نبي أو فائق في العلم قَلَّت المدة أو كَثُرت)) اهـ.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ أفلم يَهْدِ لهم كَم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآياتٍ لأُولي النُّهى ﴾ [طه : ١٢٨] .

إن إهلاك الأمم الماضية واضحٌ للعيان ، إذ إن آثار ديارهم ماثلة أمام الناس الذين يمرون بها في أسفارهم، فيُشاهدون بقايا الأمم السابقة بكل وضوح. فالديارُ المتهالكة التي ذهب أصحابُها إلى اللاعودة تُنبئ عن الحال بكل جلاء ، وتدل على وجود أقوام سابقين عَمروا المكانَ ثم زالوا . ومن آثارهم تعرفونهم. وهذا الخرابُ الجاثم على صدر المكان يشير إلى العذاب الذي حَل بهؤلاء الأقوام، لكنَّ أصحاب العقول _ وَحْدَهم _ هم القادرون على التفكر وأخذ العِبَر .

قال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٠) : ((يريد أهل مكة ، أي : أفلم يتبيَّن لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون ، يمشون في مساكنهم إذا سافروا وخرجوا في التجارة طلب المعيشة ، فيرَوْن بلادَ الأمم الماضية والقرون الخالية خاوية، أي : أفلا يخافون أن يَحل بهم مثل ما حَل بالكفار قبلهم)) اهـ .

د ـ إنذارهم بالانتقام :

لا يخفى أن الجزاء من جنس العمل . فالطائعُ سيُلاقي جزاءَ عمله خيراً وإحساناً وتوفيقاً ، أما المسيء فقد أَهلك نفسَه ، وأوردها المهالك. ولا يمكن للمجرم أن يهرب بفعلته ، أو يمارس أسلوبه القبيح على هواه دون حساب أو عقاب أو إنذار .

واللهُ تعالى هو الحليم الصبور الذي لا تستفزُّه المعاصي ولا تضره . وهو ـ سبحانه ـ يَمنح الإنسانَ الفرصة تلو الفرصة لكي يُصحِّح مسارَه ، فيعود عن غَيِّه ، ويلتزم طريق الحق . وإن الله تعالى يُرسل رسائل إنذار ووعيد للمسرفين على أنفسهم من أجل أن يعودوا إلى جادة الصواب . وهذا يدل على سعة الرحمة الإلهية . فهذه الرسائل الإلهية التحذيرية تشير إلى حِلم الله تعالى ورحمته بعباده . فاللهُ تعالى قادرٌ على إهلاك العباد دون إنذارهم ، فلا طاقة لمخلوق مع قدرة الخالق ، ولا يمكن للعبد الضعيف أن يتحدى السَّيد العظيم . لكنَّ الله تعالى أرحم بالعباد من أمهاتهم ، فهو الصَّبور الحليم ، يُمهِل ولا يُهمِل . ومَن أعرض عن كل الرسائل التحذيرية فلا يلومنَّ إلا نفسه ، لأنه يمشي إلى الهاوية بقدمَيْه متجاهلاً كافة إشارات التنبيه .

قال اللهُ تعالى : ﴿ أفأمنوا أن تأتيَهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيَهم الساعةُ بَغتةً وهُم لا يَشعرون ﴾ [يوسف : ١٠٧] . هل أمن المشركون أن تغشاهم عقوبةٌ إلهية قاصمة جزاء كُفرهم وإعراضهم عن الصراط المستقيم أو يأتيَهم يوم القيامة فجأةً فلا مجال للتوبة أو العودة ؟! . فعليهم أن يتفكروا في مصيرهم المحفوف بالمخاطر . فهم لم تأتيهم شهادة بأنهم من أهل الجنة فيطمئنوا ويرتاحوا . بل قد جاءهم تحذير بالغ الأهمية بأنهم على شفير الهاوية إذا استمروا سائرين في طريق الضلال . وهذا الأمر مدعاة للتفكر والتأمل وموازنة الأمور ما داموا في الدنيا (دار المُهلة) . أمَّا إذا خرجوا إلى الآخرة فلا فرصة للتعويض بتاتاً .

وفي زاد المسير (٤/ ٢٩٤) : ((قال ابن قتيبة : الغاشية المجلِّلة تغشاهم . وقال الزجاج : المعنى يأتيهم ما يغمرهم من العذاب ، والبغتة الفجأة من حيث لم تتوقع)) اهـ .

وفي مختصر تاريخ دمشق (١/ ٥٨٩) : أن الأسود بن بلال المحاربي صعد المنبر ، فخطب الناسَ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قرأ : ﴿ أفأمنوا أن تأتيَهم غاشيةٌ من عذاب الله أو تأتيَهم الساعةُ بَغتةً وهُم لا يَشعرون ﴾ ، فصعق ، فَخَرَّ عن المنبر .

وهكذا نرى تأثير الآية في النفس البشرية التي عَرفت عَظَمةَ خالقها ، وأيقنت بقدرته اللامحدودة على تعذيب المستحقين للعقاب . واللهُ تعالى لم يَخلق الناسَ ليجعل حياتهم جحيماً

لا تُطاق ، أو يحشرهم في زاوية التفكر الدائم بالعذاب والخلود في النار . بل خلقهم وكَرَّمهم رحمةً بهم ، ومنحهم القدرة على التمييز بين الحق والباطل . فمَن اختار الحقَّ فقد نجا ، أمَّا الذي صَمَّم حياته على أن يكون عدواً لخالقه ، فعليه أن يتحمل كامل المسؤولية .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأنذِر الناسَ يومَ يأتيهم العذابُ فيقول الذين ظلموا رَبَّنا أَخِّرْنا إلى أجل قريب نُجب دعوتكَ ونتَّبع الرُّسلَ ﴾[إبراهيم : ٤٤] .

وهذا المشهد العظيم يومَ القيامة يدل على أن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم طريق الباطل سوف يؤمنون فيَطلبون إمهالهم لإجابة الدعوة الإلهية واتِّباع الرُّسل . لكن هذا الإيمان لا فائدة منه البتة ، لأنه جاء في وقت الحصاد لا وقتِ الزراعة . فالدنيا عملٌ بلا جزاء ، والآخرةُ جزاء بلا عمل . ولا معنى لإيمان الشخص في الآخرة إذا لم يؤمن في الدنيا . ففي الآخرة لا يعود هناك معنى للإيمان بالغيب . فالغيبُ صار حقيقةً مُشاهَدة . فالجنةُ والنار من عالَم الغيب في الدنيا ، لكنهما واقع ماثل أمام العيون في الآخرة . وكلُّ شيء جاء في غير موعده فلا أهمية له . فالعِبرةُ هي الإيمان في الدنيا كي يَعبر المرءُ إلى الآخرة بسلام ، وما سوى ذلك لا يُجدي نفعاً .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَذَرْهم حتى يُلاقوا يومَهم الذي فيه يُصعَقون ﴾ [الطور : ٤٥] .

فالمشركون سوف يُلاقون أهوالاً شديدة . ففي يوم القيامة سوف يُصعَقون ، أي يهلكون . ولا يخفى أن الصعق يشير إلى الشدة البالغة ، والألم المذهل الواقع بهؤلاء الكافرين الذين أَعرضوا عن المنهج الإلهي القويم . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٩٨) : ((فَدَعْ يا محمد هؤلاء المشركين حتى يُلاقوا يومهم الذي فيه يهلكون ، وذلك عند النفخة الأولى)) اهـ .

٢_ الكافرون :

أ _ افتراؤهم على الله :

إن الكذب على الله تعالى هو نتيجة لانكسار الروح الإنسانية ، وانتكاسةِ الفرد في قاع الضلال ، وتمردِ المخلوق على الخالق . فالإنسان يلجأ إلى اختراع الافتراءات وإسنادها إلى الله تعالى من أجل تحقيق منفعة شخصية ، وإشباع غرور اتباع الهوى بالباطل ، وتضليلِ الآخرين عبر نقلهم من الحق إلى الباطل ، وتثبيت سُلطة رجال الدِّين الضالين المتحالفين مع السادة من أجل ضمان استعباد الناس وإخضاعهم عبر التلاعب بالنصوص الدينية وتوجيهها لخدمة أغراض مادية .

قال الله تعالى : ﴿ فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ [البقرة : ٧٩] .

هؤلاء صنفٌ من اليهود الذين حرَّفوا التوراةَ، وغيَّروا كلامَ الله تعالى ، حيث أضافوا وحذفوا وفق أهوائهم ومصالحهم الشخصية ، ونسبوا هذه التحريفات إلى الله تعالى من أجل الحصول على بعض المكاسب الدنيوية الوضيعة . وقد توعَّدهم اللهُ تعالى بالعذاب الشديد جزاء كذبهم على خالقهم تعالى ، وتحريفهم للكلام الإلهي المقدَّس ، ولن ينفعهم ما كسبوه من متاع الدنيا الزائل .

إنهم أصحاب نظرة قاصرة ، فلم يَعرفوا المكانةَ الرفيعة للكلام الإلهي ، لذلك تَاجروا به ، واتَّخذوا من العقائد الدينية وسيلةً للثراء السريع ، والحصول على منافع شخصية . فكانت الدنيا هي الركيزة الأساسية في حياتهم ، فضحُّوا بالغالي والنفيس من أجلها دون النظر إلى ما وراء الزينة البراقة الخادعة .

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : ((الويل واد في جهنم ، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرَه))[13] .

فالكافرُ ينتظره عذابٌ دائم لا يَزول بسبب رفضه الإيمان . فهذا الوادي في جهنم المسمَّى بالويل تبلغ المسافةُ بين بدايته وقَعره أربعين سنة ، وتم التعبير عن السَّنة بالخريف من أجل إظهار النهاية المأساوية للكافر ، والشِّدة العظيمة التي تنتظره ، والمآل الفظيع الذي قضى على آماله .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٧٩) : أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : ((كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أُنزل على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرؤونه محضاً لم يشب ، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدَّلوا كتابَ الله وغيَّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ، لا والله ما رأينا منهم رَجلاً يسألكم عن الذي أُنزل عليكم)) .

والمعنى : كيف تسألون اليهود والنصارى عن الأمور الدينية والقرآنُ الكريم هو خاتم الكتب السماوية ، وهو محضٌ ، أي خالص لا تشوبه شائبة فلم يتم تغييره أو التلاعب به . ولم يُشب ، أي لم يُخلَط . والقرآنُ الكريم أخبر أن أهل الكتاب حرَّفوا التوراةَ والإنجيلَ وتلاعبوا بهما ، وذلك لتحقيق مكاسب آنية زائلة . فيُفتَرَض بأهل الكتاب أن يأتوا لسؤال المسلمين عن القرآن ، لأن القرآن كتابٌ محفوظ من كل تغيير بعكس التوراة والإنجيل . لكن أهل الكتاب محشورون في غرور اللحظة الراهنة ، ولا يُعمِلون عقولَهم في نقد المعطيات التوراتية والإنجيلية المتلاعب بها .

---

(١٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥١) برقم (٣٨٧٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ [النساء : ٥١] .

إنهم لم ينتفعوا بالعلم الذي حصلوا عليه لأن مصالحهم المادية قد طغت على شرف العلم والإخلاص في تحصيله ونشره . فمع أنهم أُوتوا نصيباً من كتاب الله تعالى وأدركوا ما فيه إلا أنهم انحرفوا عن جادة الطريق ، فآمنوا بالجبت والطاغوت ، وانزلقوا في وحل الكفر والعصيان .

قال الطبري في تفسيره (٤/ ١٣٣) : ((يعني بذلك جل ثناؤه : ألم تر بقلبك يا محمد إلى الذين أُعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه ... يُصدِّقون بالجبت والطاغوت ، ويكفرون بالله ، وهم يعلمون أن الإيمان بهما كفر ، والتصديق بهما شِرك)) اهـ .

والغريبُ أنهم على بَيِّنة من أمرهم ، أي إن كُفرهم مبني على عِلم واستعداد مسبق ، ولا ينطلقون من الجهل أو عدم المعرفة . وهنا تظهر خطورة اتباع الهوى وتقديمه على الحق طمعاً في منافع دنيوية وقتية . كما أن العِلمَ وَحْدَه لا يقود إلى الإيمان ، بل يجب أن ينضويَ العِلمُ تحت الهداية الربانية ، وسوى ذلك سوف يصبح العِلمُ طريقاً للشقاء .

وسبب النزول : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه ، فقالوا : نحن أهل السقاية والسدانة ، وأنت سيد أهل يثرب ، فنحن خير أم هذا الصنيبير المنبتر من قومه ــ يقصدون النبي ﷺ ــ يزعم أنه خير منا، فقال : أنتم خير منه. فنزل على رسول الله ﷺ : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ، ونزلت : ﴿ ألم ترَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجِبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ (14) .

فالطاغوت (كعب بن الأشرف) الذي كان من زعماء اليهود استغل مكانته وعلمه بوصفه من أهل الكتاب للتدليس والتلبيس على أهل الجاهلية الوثنيين ، فكانت النتيجة أن قام بهذه الخيانة الشنيعة مفضلاً عبدة الأصنام على إمام الموحِّدين الأنقياء رسولِ الله ﷺ . وهو ــ بذلك ــ ينطلق من حاكمية الأهواء بدون تقديم دليل علمي أو حُجَّةٍ منطقية ساطعة .

وتفضيلُ الباطل على الحق مرجعه إلى نيل رضا عِلْية القوم المتنفذين بُغية تحقيق مكاسب ذاتية تشتمل على توسيع دائرة النفوذ والهيمنة والقبول في مجتمع المنحرفين عن الصراط

---

(١٤) رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥٣٤) برقم(٦٥٧٢)واللفظ له . قلتُ : وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦٠) : رواه البزار بسند صحيح .

المستقيم، وإبعادِ الناس عن الحق الذي يفتح العيونَ على الإيجابيات والسلبيات، وهذا لا يريده المتنفذون، لأنه يهدد مصالحهم وسيطرتهم . وفي واقع الأمر فإن الكفر مشروع استثماري مادي لتكريس سطوة السادة على العبيد ، والحفاظِ على مصالح أصحاب القرار ، والحيلولةِ دون نقد الأوضاع السيئة . فمن مصلحة الطغاة في كل العصور أن يظل الناسُ بدون عقول مفكرة ، لأن العقلَ المفكر يقود إلى النقد والنقض ، وهذا يشكل خطراً داهماً على نفوذ عِلْية القوم في المجتمعات القائمة على تجذير الباطل وحراسته. وبالتالي فإن الأنظمة الطاغوتية المنتشرة في العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية تخشى من رياح التغيير. فمن مصلحتها أن يظل الوضعُ ثابتاً على ما هو عليه ، وأن يظل الماء راكداً وآسناً لكي تقدر على مواصلة العيش في المستنقعات . وبما أن الإسلام قد قام بتثوير المجتمع وزرعِ القيم الانقلابية، حيث انقلاب العدل على الظلم ، وأحدث حركةً تصحيح للمسار والمفاهيم والسلوكيات،فسوف يُحارَب بكل شراسة لأنه تهديد حقيقي لنفوذ الفاسدين وحراسِ الأساطير .

وقال الله تعالى في وصف أهل الضلال : ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سَمِعْنا لو نشاء لقُلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأنفال : ٣١] .

فإذا سمعوا الآياتِ الربانية الباهرة فإنهم يزعمون أن بإمكانهم الإتيان بكلام مشابه ، وذلك تنقيصاً منهم لكلام الله تعالى ومحاولة طمس نوره والاستخفاف به . وبالطبع فهم عاجزون تماماً عن الإتيان بمثله، ولو كانوا صادقين لقَدَّموا شيئاً يُشبه القرآن أو يتفوق عليه . فهم يعتمدون منهجيةَ الطعن والتنقيص لإحداث شرخ في المجتمع الإيماني وتشكيك الناس بعقائدهم، مؤمنين بقاعدة " خير وسيلة للدفاع الهجوم ". ولو كانوا صادقين في دعواهم لَقَدَّموا البراهين الملموسة وأثبتوا أن القرآن كلامٌ بشري بالحجج، لكنهم عجزوا عن فعل ذلك . مما يشير إلى اتباع أهوائهم في غياب تام لقواعد المنهج العلمي .

فمن صفات الكافرين أنهم يطلقون الأحكام بدون أدلة واقعية ملموسة . فهم يتحركون بدافع الهوى والحقد لا بدافع مقارعة الحجة بالحجة . وهذا ليس بغريب ، فهم لا يملكون الأهليةَ العلمية للجدال والحوار والمناظرة . لذلك نرى أن اتهام القرآن الكريم بأنه أساطير الأولين لا تقوم له قائمة لأنه بدون دليل . وكما قال الشاعر :

والدعاوى إنْ لم تُقيموا عليها ... بيِّناتٍ أبناؤُها أدعيـاءُ

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٢٩) : ((يقول تعالى ذِكْره : وإذا تتلى على هؤلاء الذين كفروا آيات كتاب الله الواضحة ...﴿ قالوا ﴾ جهلاً منهم وعناداً للحق وهم يعلمون أنهم كاذبون في قيلهم ﴿ لو نشاء لقُلنا مثلَ هذا ﴾ الذي تُلِيَ علينا ﴿ إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ . يعني : أنهم يقولون : ما هذا القرآن الذي يتلى عليهم إلا أساطير الأولين ... سطَّره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم !)) اهـ .

والمشكلةُ الحقيقية أن الكافرين يَضحكون على أنفسهم ويَخدعونها . والإنسانُ قَد يَخدع غيرَه لتحقيق مكاسب معيَّنة ، أمَّا أن يَخدع نفسَه فهذه هي الكارثة الكبرى . فاتِّهامُ القرآن بأنه أساطير الأولين كتبوه من أخبار الأمم الغابرة يفتقد إلى المنطق والعقلانية . فلو كان القرآنُ كلاماً بشرياً لما عَجز فصحاءُ العرب (وهُم أهل الفصاحة والبلاغة) عن الإتيان بمثله . فلماذا عجز الشعراء والأدباء والبلغاء عن تأليف كتابٍ كالقرآن ؟! . كما أن محمَّداً ﷺ معروف للجميع بأنه الصادق الأمين ، فمن غير المعقول أن يتحرى الصدقَ مع الناس طيلة حياته ثم يكذب على الله تعالى. أضف إلى هذا أن محمداً ﷺ كان أُمِّياً لا يَقرأ ولا يَكتب، ولم يُعرَف بأنه كان طالباً للعِلم، أو دارساً للتاريخ واللغاتِ القديمة ، أو مُطَّلعاً على تراث الحضارات السابقة ، فمن أين أتى بكل المعلومات الدقيقة في القرآن الكريم ؟!. إن هذا يدل _ بلا شك _ على أن القرآن مصدره أعلى من مستوى البشر. ولو كان القرآن من تأليف إنسان فلماذا لم يُعرِّفْنا هذا المؤلِّف بكتابه ، أو يقول إن محمداً قد أخذه منه ؟!.مع العِلم أن كل مؤلِّف يهتم بتعريف الناس بكتبه، والدعوة إلى قراءتها.

ب_ شُبهِهم واحتجاجهم بالقَدَر :

منهج أهل الكفر والضلال هو محاولة التنصل من أفعالهم عبر إسنادها إلى القَدَر ، وذلك لتقديم أنفسهم كمجبَرِين لا ذنب لهم في كفرهم. فهم يتعلقون بالقَدَر ليس بدافع الإيمان به، بل بدافع اتخاذه ذريعةً،وشماعةً يُعلِّقون عليها خطاياهم وضلالهم،في محاولة يائسة للتنصل من تبعات أفعالهم القبيحة، والهروبِ من تحمل المسؤوليات الجسام المترتبة على كفرهم . فالفاشلُ الذي لا يعترف بفشله سوف يبحث عن شيء ما يضع عليه إخفاقه في محاولة للإفلات من المساءلة. وهذا الهروبُ لا يجدي نفعاً بسبب اشتماله على خداع النفس والالتفاف على محور الحقيقة ومحاولة تجميل الواقع البائس وتصويره في إطار براق ومقبول . والعاقلُ لا يلجأ إلى المسكِرات الفكرية للفرار من مسؤولية أخطائه،أو يقضي وقته في المكابرة واختراع الأعذار وتبرير الكوارث، بل يستغل وقتَه لتصحيح الأخطاء والخطايا.والوقتُ الذي يؤخذ لتبرير الخطأ يكفي لإصلاحه.

قال الله تعالى : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء اللهُ ما أَشْرَكْنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنا من شيء كذلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسَنا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

قد علَّقوا شِرْكهم على مشيئة الله تعالى جهلاً منهم ، وجعلوا الشِّرك إنما تم بمشيئته تعالى وإرادته وفق منظورهم الرامي إلى تخليص أنفسهم من أية مسؤولية على اختياراتهم . فنظرتهم العَقَدية متمركزة حول فكرة جَبرية ، وأنهم واقعون تحت مشيئة الله تعالى التي أجبرتهم على سلوك الأفعال السيئة_ وفق عقيدتهم الباطلة_ . فهم يجهلون أن الخير والشر، والإيمان والكفر ، يكتسبه الإنسان بملك إرادته، وأن القَدَر لا يعارض تحمل الإنسان لمسؤولياته كاملة غير منقوصة . فالله تعالى أحاط بكل شيء علماً، لكنه لم يجبر الإنسان على سلوك طريق محدد . فاللهُ يعلم أن المشركين سيغرقون في الشِّرك لكنه لم يجبرهم على سلوك هذا الطريق . ولو كان هناك إجبارٌ لفقد الأنبياءُ شرعيةَ وجودهم ، وأصبحت الجنة والنار بلا معنى ، ولم يعد هناك فائدة ليوم الحساب .

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٤٩) : ((وأما قوله في الأنعام: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ الآية. فقد تمسك بها المعتزلة وقالوا إن فيها رداً على أهل السُّنة . والجواب أن أهل السنة تمسكوا بأصل قامت عليه البراهين وهو أن الله خالق كل مخلوق، ويستحيل أن يخلق المخلوق شيئاً . والإرادة شرط في الخلق ، ويستحيل ثبوت المشروط بدون شرطه . فلما عاند المشركون المعقولَ ، وكذَّبوا المنقولَ الذي جاءتهم به الرسل ، وأُلزموا الحجة بذلك ، تمسَّكوا بالمشيئة والقَدَر السابق ، وهي حُجَّة مردودة ، لأن القَدَر لا تبطل به الشريعة ، وجريان الأحكام على العباد بأكسابهم)) اهـ .

إن منهج المعتزلة في الاستدلال قائم على ضَرب النصوص ببعضها البعض ، وأخذها مجتزأةً . وهذا منهج مهزوز لا تقوم له قائمة. فالنصوصُ الدينية وَحدة واحدة ينبغي أن تؤخذ معاً ، ولا بد من معرفة القواعد العامة للإسلام ، ورد المتشابه إلى الْمُحْكَم، وتقديم الجمع والتوفيق بين النصوص الشرعية قبل الذهاب إلى النسخ أو الترجيح . والمشرِكون قد رَبطوا شِرْكهم بالمشيئة الإلهية ، وتعلَّقوا بشُبهة وهي أن الله تعالى قادر على منعهم من الشِّرك ، ولو شاء لجعلهم وآباءهم غير مشرِكين ، وبما أنه سبحانه وتعالى لم يَفعل ذلك فهذا دليل على شرعية شِرْكهم ورضا الله تعالى عنه. وهذه حُجَّةٌ داحضة عند الله تعالى لأنها قائمة على أوهام متخيَّلة لا تمت للواقع بِصِلة.

صحيحٌ أن كل شيء خاضع للمشيئة الإلهية ، وأيضاً إن الله تعالى قد خَلق الخيرَ والشر ، وأعطى الإنسانَ القدرة على الاختيار بينهما ، وحَسَبَ الاختيار يتحدد الجزاء (الجنَّة أو النار) ،

فأداءُ الإنسان في هذا الامتحان الإلهي تُحدِّد النتيجةَ ، إمَّا النجاح وإمَّا الفشل . وقد ذَهبت المعتزلةُ إلى أن الإنسان يَخلق أفعالَه ، وهذا منتهى الضلال. فالإنسانُ كائن ضعيفٌ ومخلوق خاضع لخالقه تعالى ، والخلقُ صفةٌ لله تعالى ، ومحالٌ أن يتساوى المصنوع مع الصانع في فعل الخلْقِ . وكلُّ ما سوى الله تعالى مخلوقٌ ، واللهُ خالقُ كلِّ شيء . ولا يمكن أن يخلق المخلوق شيئاً لأن فاقد الشيء لا يُعطيه. فاللهُ تعالى خلق العباد وأكسابَهم ، وصَنع الفاعلَ (العبدَ) وفِعْلَه ، وهو سبحانه مالِكٌ لهم ولِمَا مَلَّكهم . لكنَّ المشركين لا يَملكون الحجَّةَ والمنطق الصحيح لذا تمسَّكوا بالقَدَر السابق ، ولا يَخفى أن القضاء والقَدَر لا يَسلبان الفردَ من قدراته ، ولا يُجرِّدانه من مسؤولياته . كما أن عِلْمَ الله تعالى الذي أحاط بكل شيء ليس إجباراً للمرء ، أو دفعه في طريق محدَّد رغمَ أنفه . لكنَّ العاجز دائم البحث عن مبررات لعجزه وفشله . ومن هنا يتم التعلق بالقضاء والقَدَر والمشيئة الإلهية والإرادة الرَّبانية دون معرفة المعاني الحقيقية لهذه القضايا التي حَار الكثيرون في فهمها والوقوف على معانيها بسبب عدم معرفة قواعد الإسلام ومنهجه .

وقال الله تعالى:﴿وقالوا لَوْ شاء الرحمنُ ما عَبَدْناهم ما لهم بذلك من عِلْم إنْ هم إلا يَخْرصون﴾ [الزُّخرف : ٢٠] .

وها نحن نجد المشركين يتذرعون بالمشيئة الإلهية ، ويُعلِّقون عليها شِرْكهم . فهم يقولون إن الله تعالى لو شاء لمنعهم من عبادة الأصنام . وبما أنه سبحانه يَعلم أنهم يَعبدون الأصنام ولم يَمنعهم من ذلك فهذا دليل ـ من وُجهة نظرهم ـ على شرعية شِرْكهم ، وأنهم لم يُخالِفوا الإرادةَ الإلهية . وهذا وهمٌ كبير منبعث من أهواء شخصية متوارثة عن الآباء الغابرين ، كما أنه يشتمل على عدم فهم للقضاء والقَدَر . فاللهُ تعالى يَعلم كلَّ شيء عن الإنسان قبل أن يَخلقه ، لكنه لم يَجبره على اتخاذ طريق معيَّن . ﴿ فَمَن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] . فالإجبارُ يتنافى ـ جُملةً وتفصيلاً ـ مع حرية الاختيار التي يقوم عليها الحسابُ الذي يُحدِّد مصير الإنسان (الجنَّة أو النار) .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٥٩) : ((أي : لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله فإنه عالِم بذلك وهو يقرنا عليه . فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ : أحدها ـ جعلهم لله تعالى ولداً تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً . الثاني ـ دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين ، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً . الثالث ـ عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ـ عز وجل ـ ، بل

بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء . الرابع _ احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قَدَراً . وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً ، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه)) اهـ .

إنهم يستخدمون القَدَر لتبرير كفرهم ، والتنصلِ من كافة مسؤولياتهم . وقولهم : ﴿ لَوْ شاء الرحمنُ ما عَبَدْناهم ﴾ كلام حق يراد به باطل . فهم لم يقصدوا تعظيمَ الله تعالى ، وإظهار أن مشيئته نافذة في كل شيء. بل أرادوا خداع أنفسهم بأن الله تعالى يقرهم على الباطل ولم يمنعهم من الكفر _ وفق تفكيرهم القاصر _ . وهذا يعكس جهلاً متجذراً في فوضى التفكير داخل العقل الجاهلي البدائي . وكثيرٌ من الناس يختبئون وراء القَدَر للتخلص من أية لائمة . وهم سائرون في درب التقليد والمحاكاة . فالذي يفتقد إلى الحجَّة الناصعة تصبح أفكارُه خليطاً من تقاليد الآباء وما يدور في المجتمع من طقوس ورسوم . فالجاهلُ يقول كما يُقال لأنه يفتقد إلى منهجية التفكير والنقد والموازنة بين الأدلة والترجيح بينها . كما أن فكرة التبرير ووضع الإنسان لأخطائه وخطاياه في "القضاء والقَدَر " تريح أعصاب الكثيرين، وتنقذهم من وخز الضمير . ومع أن هذه الراحة خادعة كالسراب إلا أنها منتشرة على نطاق واسع . وللأسف فإن الكثيرين ينظرون _ لجهلهم _ إلى القضاء والقَدَر كما يَنظرون إلى الحبوب المهدِّئة . وهذا هو الوهمُ اللذيذ الذي يَغرق فيه الكثيرون بحثاً عن سعادةٍ مؤقتة دون النظر إلى ما وراء تلك " السعادة " من عذاب وتعاسة .

ج _ عداوتهم :

قال الله تعالى : ﴿ ما يَودُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّل عليكم من خير من ربكم ﴾ [البقرة : ١٠٥] .

إن الله تعالى يوضِّح شدة عداوة اليهود والنصارى والمشركين للمؤمنين . حيث إنهم لا يحبون أن يحصل المؤمنون على الخير من عند الله تعالى . وهذا يعكس الحقد المتجذر في صدورهم ، وابتعادهم عن مفهوم الأخوة الإنسانية الخاضعة للخالق تعالى . فالمؤمنُ يحبُّ الخيرَ للجميع لأنه يدرك أن له رسالة في هذه الحياة محدودة بمدة زمنية . فعليه أن يستغل هذا الوقت في الدعوة وإرشاد الناس إلى خالقهم وإعادة القطار الاجتماعي المنحرف إلى السكة . والإسلامُ ليس سُلطةً كهنوتية مغلَّفة بالأسرار والطلاسم ، ومغلقة في وجه الآخرين . إنه الدِّين العالمي للإنس والجن على السواء . ومقياسُ التفاضل بين الخلائق يعتمد على التقوى وليس الجنس أو العِرق أو اللون .

والكفر ليس عقيدةً مخفية في الصدور فحسب ، بل هو أيضاً ذو انعكاس صارم على أرض الواقع ، حيث يتجذر الحقد ضد المؤمنين ، وتتأجج الكراهية في أبشع صورها . فالكافرُ يود لو كان الناسُ كلهم كفاراً ، وهذا من تمنِّي انتشار المنكرات في المجتمع الإنساني لئلا يشعر المنحرفون أنهم شاذون عن المسار الحياتي .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٦) : ((نزلت تكذيباً لجمع من اليهود ، يُظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير ، والود : محبة الشيء مع تمنِّيه)) اهـ .

قال الله تعالى : ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنَّا وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ ﴾ [آل عمران : ١١٩] .

يصف اللهُ تعالى المنافقين الذين إذا لقوا المؤمنين زعموا الإيمانَ تقيةً ، وإذا خَلَوْا عضوا على المؤمنين أطراف الأصابع من شدة الحقد والغيظ . وهذا التصويرُ القرآني البليغ يشير إلى نار الحقد المتأججة في صدور أهل الضلال ، وأنهم يكرهون الخير للآخرين ، ولا يريدون صلاحَ الأرض وإعمارها. والعرب تصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان .

والقلبُ الخالي من نور الإيمان وبَرْد اليقين سوف تندلع فيه نيران الشك والضغينة والكراهية لكل ما هو جميل . لكنَّ نار الحقد تأكل صدرَ صاحبها وتقضي عليه ، فالنارُ حينما لا تجد ما تأكله ستأكل نفسَها . وعن عبد الله بن مسعود في قوله _ عز وجل _ : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ [إبراهيم : ٩] . قال عبد الله : ((كذا ، وردَّ يدَه في فيه ، وعضَّ يدَه))، وقال : ((عضوا على أصابعهم غيظاً))[16] .

وفي هذا إشارة إلى الحقد الدفين في قلوب الكافرين الذين لو استطاعوا أن يأكلوا المؤمنين بأسنانهم لفعلوا ذلك . فهم يريدون أيةَ فرصة للانتقام من أهل الإيمان ، والتنكيل بهم ، وتشكيكهم بعقائدهم . كما يتمنون أن يرتد المؤمنون عن الإسلام لكي يصبحوا مع المنافقين والكافرين في نفس الخندق ، خندقِ الباطل ورفضِ الحق ومعاداة أهله .

وكما قيل : إن اللص يحب أن يكون كلُّ الناس لصوصاً ، كما أن المرأة سيئة السمعة تود لو سارت النساءُ في طريقها . فأهلُ الباطل لا يكتفون بأنهم فاسدون ، بل يسعون _ بكل جهدهم _ أن يكونوا مُفسِدين ، لكي يجذبوا الآخرين إلى دربهم المظلم .

(١٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٢) برقم (٣٣٣٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

قال الله تعالى:﴿لتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا﴾ [المائدة: ٨٢].

إن العداوة تنبع من القلب المتأجج بالحقد والكراهية. واليهودُ(القادة)والمشرِكون (الأتباع) كانت صدورُهم تغلي حقداً على المؤمنين وعداوةً لهم بسبب إيمانهم واتباعهم لمنهج الحق المضاد لانحرافات اليهود والمشركين، والمهدِّد لمصالحهم. ولم تقف العداوةُ عند الشعور الداخلي أو السلوك اللفظي، بل تحوَّلت إلى واقع عملي ملموس ، فتمَّت حياكة المؤامرات الرامية إلى وأد الدعوة الإسلامية ، وقتل رجالها . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن عداوة المؤمنين وكراهية الحق ركنان أساسيان في فلسفة اليهود والمشركين . وبالطبع فإن الذي لا يَملك نورَ الحقيقة ، وليست لديها القدرة على مقارعة الحُجَّة بالحجَّة ، سوف يلجأ إلى الأساليب القذرة والمؤامرات الخبيثة .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٧) : ((ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق ، وغمط للناس ، وتنقص بحملة العلم . ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء ، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسَمُّوه ، وسحروه ، وأَلَّبوا عليه أشباههم من المشركين)) اهـ .

كما أن العرب المشركين في الجاهلية ليس لهم أي كتاب ديني ، فهم أمةٌ أُمية وثنية . لذلك كانوا ألعوبة بيد اليهود والنصارى يحرِّكونها كيفما شاؤوا ، ويبثُّون فيها عقائدهم الباطلة ، وتعاليم كتبهم المحرَّفة .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٥٦) : قال رسول الله ﷺ مُخاطباً اليهود : ((هل جعلتُم في هذه الشَّاةِ سُمَّاً)) ، قالوا : نَعَم ، قال: ((ما حملكم على ذلك ؟))، قالوا : أردنا إنْ كُنْتَ كاذباً نستريح منك ، وإنْ كنتَ نبياً لم يضرك .

وهذا يشير إلى رسوخ العداوة في قلوب اليهود لكل المؤمنين ، وسعيهم الدؤوب إلى التشويش على الحق، ومحاولة وأده قبل ظهوره . لكن الحق لا يمكن إيقافه ، كما أن الشمس لا يمكن تغطيتها بغربال .

***

ثالثاً : الصلاة

١ _ الطهارة :

أ _ التطهر :

لقد حرص الإسلام على تجذير مبدأ الطهارة في المجتمع على المستوى الفردي والجماعي ، والمستوى المحسوس وغير المحسوس. فالمسلم هو عبدٌ لله تعالى ، فينبغي أن يكون طاهراً حتى يصح التوجه إلى خالقه تعالى . كما أن الطهارة هي أساس العبادات ، سواءٌ بمعناها الفعلي المادي أو المعنوي (ماوراء المادة الملموسة) .

قال الله تعالى : ﴿ ويُنَزِّل عليكم من السماء ماءً ليُطَهِّركم به ﴾ [الأنفال : ١١] .

إن الماءَ هو أساس الطهارة . وقد نزَّل اللهُ تعالى على المؤمنين ماءً في غزوة بَدْر ليُطهِّرهم به . يَشربون منه ، ويَغتسلون به ، ويُصَلُّون طاهرين . وفي ذلك الموقف العصيب كان الماءُ مفقوداً ، وقد جاء الغَوْثُ الإلهي رحمةً بالمؤمنين ، وتطهيراً لهم، وإنقاذاً لهم من هذا المأزق القاسي . والإنسانُ لا يَعرف قيمةَ النِّعمة إلا في حال فَقْدها . وفي تفسير القرطبي (٧/ ٣٢٦) : ((وحكى الزجاج : أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه ، وبقي المؤمنون لا ماء لهم ، فوجست نفوسهم ، وعطشوا ، وأجنبوا ، وصَلُّوا كذلك . فقال بعضهم في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم : نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله وحالنا هذه والمشركون على الماء ، فأنزل الله المطر ليلة بدر ، السابعة عشرة من رمضان ، حتى سالت الأودية فشربوا وتطهروا)) اهـ .

ومع أن الظروف المحيطة بالصحابة _ رضي الله عنهم _ ظروف حرب (غزوة بدر) ، إلا أن الله تعالى أراد أن يجعل عبادَه طاهرين لكي يواجهوا الأعداءَ وهم في أعلى درجات النقاء المعنوية والحسية . فهذا الماءُ الذي أنزله الله تعالى كان طاهراً مطهِّراً ، وبثَّ السكينةَ في قلوب المؤمنين ، ونقلهم إلى مرتبة الطهارة الكاملة . وهذا يدل على أهمية النقاء والصفاء في كيان المسلم وبيئته .

وطهارةُ المسلم ليست شكليةً ظاهرية فحسب ، بل إنها تنفذ إلى صميم كيان المسلم الذي داخله كخارجه لا تعارض بينهما. فالطهارةُ هي الحاضنة الشرعية لروح المسلم وجسده ، تنقله إلى عوالم القرب من خالقه تعالى . وليست الطهارةُ _ بأية حال من الأحوال _ إجراءً تجميلياً تنظيفياً مجرَّداً من أبعاده الروحية ودلالاته الاجتماعية . إذ إن مفهومها أوسع من ذلك ، وأكثر شموليةً وعمقاً. إنها تطهُّرٌ من شوائب الدنيا ، وانقطاعٌ تام عن النجاسات الحسية والمعنوية ، وعمليةُ

تطهير للإنسان من القيم السلبية على الصعيد المعنوي والمادي. فلا يمكن للنور أن يستقر في مكان نجس ، لذلك كانت الطهارةُ هي الاستعداد الضروري لاستقبال الهداية، والتَّهيئة الحتمية لاحتضان النور .

قال الله تعالى : ﴿ وإن كنتم جُنُباً فاطَّهروا ﴾ [المائدة : ٦][17] .

اغْتَسِلوا بالماء في حال حدوث جنابة (الحدث الأكبر) . وذلك لكي يظل المسلمون طاهرين في كل أحوالهم . فديمومةُ الطهارة بالغة الأهمية من أجل استقبال الفيوضات الرَّحمانية ، والبقاء على أُهبة الاستعداد لتلقي النفحات الربانية . فغيابُ الطهارة قطيعةٌ مع الهداية الإلهية .

وفي صحيح البخاري (١/ ٩٩) : عن عائشة زوج النبي ﷺ : أن النبي ﷺ كان إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه ، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة ، ثم يُدخل أصابعه في الماء فيُخلِّل بها أصول شَعره ، ثم يصب على رأسه ثلاث غُرف بيديه ، ثم يُفيض الماءَ على جِلده كله .

والنبيُّ ﷺ ــ وهو الطاهر المطهَّر ــ لا يقوم بأعماله عبثاً، ولا تخضع حركاته وسكناته للصدفة . فالحرصُ على الاغتسال من الجنابة مؤشر على أهمية الطهارة ، كما أن هذا الترتيب الدقيق المشتمل على البدء باليدين ثم وضوء الصلاة والحرص على إيصال الماء لأصول الشَّعر ثم صب الماء على الرأس بدون إفراط في استهلاك الماء ، ثم تعميم الماء على الجلد كله ، ليس ترتيباً عبثياً ، بل هو نظام دقيق يتضمن عدم الإسراف في الماء ، واستحضار وضوء الصلاة الذي يدل على الارتباط اللصيق بين الطهارة والصلاة ، وإيصال الماء إلى كل نقاط الجسم دون استثناء . كما أن التَّيامن (البدء بجهة اليمين) سُنَّة نبوية ثابتة. فهذه المنظومة المتكاملة تشير إلى أهمية الطهارة في حياة المسلم وانعكاساتها على حياته وطبيعة تفكيره وسلوكياته . فليست الطهارةُ كميةً

---

(١٧) قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٥) : ((وقد ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود إلى أن الجنب لا يتيمم البتة ، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء استدلالاً بهذه الآية . وذهب الجمهور إلى وجوب التيمم للجنابة مع عدم الماء ، وهذه الآية هي للواجد ، على أن التطهر هو أعم من الحاصل بالماء أو بما هو عوض عنه مع عدمه وهو التراب . وقد صح عن عمر وابن مسعود الرجوع إلى ما قاله الجمهور للأحاديث الصحيحة الواردة في تيمم الجنب مع عدم الماء)) اهـ . وقال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ٥) : ((وأصل الجنابة في اللغة : البُعد . وتُطلَق على الذي وجب عليه غُسْلٌ بجِماع ، أو خروج مني ، لأنه يجتنب الصلاةَ والقراءة والمسجد ، ويتباعد عنها ، والله أعلم)) .

من الماء تُسكَب على الجسم وينتهي الأمر ، أو مجموعة من المواد الكيميائية لإزالة الأوساخ . إن ماهيتها أكبر من ذلك ، فهي تحتوي على منهجية شاملة لتجهيز العبد وتهيئته نفسياً وجسمياً لاستحضار عَظَمة الخالق تعالى والوقوف بين يديه ونشر تعاليمه .

قال الله تعالى : ﴿ وثيابكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدَّثر : ٤] .

هذا الأمرُ الإلهي يشير إلى أهمية الطهارة ، سواءٌ كان المقصود بالآية الطهارة المادية ، وهي تطهير الثياب من النجاسات التي قد تلحق بها. أو الطهارة المعنوية ،كتطهير القلب أو الجسم .

والمعنوي اللغوي الظاهر من الآية هو تطهير الثياب الملبوسة . والأصلُ حَمْلُ آياتِ القرآن على المعنى الظاهر ، ولا يتم اللجوء إلى المجاز إلا في حال ظهور قرينة .

أمَّا مَن فسَّر " الثياب " في الآية بالقلب ، فقد استدل بقول امرئ القيس في معلَّقته :

وَإن تَكُ قد ساءتكِ مني خَليقةٌ فسُلِّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ

أو بقول عنترة : فَشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَهُ ليسَ الكريمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ

قال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٥٤) : ((المراد بها الثياب الملبوسة على ما هو المعنى اللغوي . أمره اللهُ _ سبحانه _ بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات ، وإزالة ما وقع فيها منها . وقيل : المراد بالثياب العمل ، وقيل : القلب ، وقيل : النفس ، وقيل : الجسم ، وقيل : الأهل ، وقيل : الدِّين ، وقيل : الأخلاق . قال مجاهد وابن زيد وأبو رزين : أي عملك فأصلح . وقال قتادة : نفسك فطهِّر من الذنب ، والثياب عبارة عن النفس . وقال سعيد بن جبير : قلبك فطهِّر . ومن هذا قول امرئ القيس : (فسلي ثيابي من ثيابك تنسل) . وقال عكرمة : المعنى ألبسها على غير غدر وغير فجرة ، وقال : أما سمعت قول الشاعر :

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبستُ ولا من غدرة أتقنع)) اهـ .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ وهو يحدِّث عن فترة الوحي ، قال في حديثه : ((بَيْنا أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصري فإذا الْمَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، ففرقتُ منه، فرجعتُ ، فقلتُ : زَمِّلوني زملوني)) ، فدثَّروه ، فأنزل الله تعالى :﴿ يا أيها المدَّثر . قُمْ فأنذِرْ . وربَّكَ فكبِّرْ . وثيابكَ فطهِّرْ . والرُّجْزَ فاهْجُرْ ﴾ [المدثر ١_٥][18] .

---

(١٨) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٩٥)برقم(٤٦٧١).ومسلم (١/ ١٤٣) برقم (١٦١).

لقد أمر الله تعالى النبي ﷺ بالطهارة الحسية والمعنوية . وهذا الأمرُ شامل لكل الأمة . وهنا تتجلى رحمة الله تعالى بعباده الذين أرادهم أنقياء أصفياء بلا شوائب ، يدخلون إلى حضرته العَلِيَّة وفق أحسن صورة ، قلباً وقالباً . والدربُ إلى الله تعالى لا مكان فيه للنجاسات والشوائب ، فهو دربٌ نوراني ممتلئ بالتطهر والخير والسعادة . ومن اختار أن يمشيَ فيه ، عليه أن يكون طاهرَ السريرة ، وطاهرَ البدن . يهاجر إلى خالقه تعالى مستعداً ، وعلى أفضل هيئة .

قال الله تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المطَهَّرون ﴾ [الواقعة : ٧٩] .

والذي يَظهر أن المقصود في الآية هو الكتاب المكنون (الكتاب الذي في السماء) ، وليس القرآن الكريم . فالقرآنُ يمسُّه المؤمنُ الطاهر والكافرُ النجس . أمَّا الكتاب المكنون فلا يمسُّه إلا المطهَّرون ، وهُم الملائكة .

قال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٢٢٧) : ((قال الواحدي : أكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الكتاب المكنون: أي لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهَّرون، وهم الملائكة. وقيل : هم الملائكة والرسل من بني آدم)) اهـ .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : كنا مع سلمان _ رضي الله عنه _ فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا ، ثم خرج إلينا ، وليس بيننا وبينه ماء . قال : فقلنا له : يا أبا عبد الله لو توضأتَ فسألناكَ عن أشياء من القرآن ، قال : فقال : سلوا ، فإني لستُ أَمسه ، فقال: إنما يمسه المطهرون . ثم تلا : ﴿ إنه لقرآنٌ كريم ﴾ [الواقعة : ٧٧] . ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المطَهَّرون ﴾ [الواقعة : ٧٩] [19].

ووفق هذا الحديث يتَّضح أن سلمان الفارسي _ رضي الله عنه _ يعتقد أن المقصود في الآية هو القرآن الكريم ، لذا رَفض أن يمسَّه وهو على غير وضوء . وهذا ما ذهب إليه بعضُ المفسِّرين الذي يَرَوْن أن القرآن الكريم لا يجوز مسُّه من قِبَل غير المطهَّرين، ومن لم يلتزم بذلك فقد خالفَ الشريعةَ . ومن خلال النصوص الشرعية تتضح أهمية الطهارة والتطهر على جميع الأصعدة . لما في ذلك من تهيئة الفرد للاضطلاع بمسؤولياته الجسيمة، باعتباره حامل أمانة الدِّين ، وخليفة الله في الأرض. فالمنهج الشرعي واضحٌ في مساره ، حيث يحاط الإنسان بسياج الطهارة والتطهر ، لكي يظل دائماً على اتصال مع خالقه تعالى ، وهو في أبهى حُلَّة مشتملة على نقاء العبودية ، وصدقِ التوجه إلى الله تعالى .

---

(١٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إن الله اصطفاكِ وطهَّركِ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

أي إن الله اختاركِ وطهَّركِ من الكفر والضلال والدنس ، وجعلكِ نقيةً عابدة تقية ذات قلب صافٍ لا مكان للشوائب فيه ، وذات جسد طاهر شريف لا مكان للحرام فيه . فالسيدة مريم _ عليها السلام _ جُعلت ذات قلب طاهر وجسدٍ نقي لكي تضطلع بدورها المحوري في الدعوة الإسلامية . فالهدايةُ الربانية والنجاسة ضدان لا يجتمعان . ولو وُجدت أدنى شُبهة حول السيدة مريم لكان ذلك ضربةً قاضية للدعوة ، وباباً واسعاً لدخول المشكّكين الطاعنين في الدِّين ، وعندئذ ستؤول دعوة النبي عيسى ﷺ إلى الفشل بسبب غياب الحاضنة الطاهرة . وهذا مُحال . فاللهُ تعالى اختار المنبعَ الصافي (السيدة مريم) لاحتضان هذا النبي العظيم ، والمساهمة في الدعوة الإسلامية من خلال موقف قوي متماسك، ومنظورٍ إيماني لا تتسلل إليه الشبهات أو النجاسات المعنوية والحسية . فالدعوةُ تخرج من حاضنة طاهرة شريفة لكي تكون ذات تأثير وإقناع في الرأي العام ، ولا يمكن أن تنبع من مكان مشبوه .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٥١٠) : ((قيل : هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأول . فالأول هو حيث تقبلها بقبول حسن ، والآخر لولادة عيسى ... وقيل : الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول ، والمراد بهما جميعاً واحد)) اهـ .

وهكذا تتجذر الطهارة كرتبة سامية ومنزلة عظيمة لا يحصل عليها إلا من اختاره اللهُ تعالى لحمل مسؤولية الدين وتبليغه ، وإيصال الدعوة الإسلامية إلى الآخرين . فالسيدةُ مريم _ عليها السلام _ ليست امرأةً عادية حَبِلت وَوَلَدَت . فاللهُ تعالى اختارها لإجراء معجزة خالدة ، حيث صارت حُبلى بدون زواج ، وهذا الطفلُ الذي كان في أحشاؤها هو واحد من أعظم أنبياء الله تعالى ، وهو عيسى ﷺ الذي خلقه الله تعالى بدون أب ليرى الناسُ قدرةَ الخالق غير المحدودة .

ب _ الوضوء :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلَكم إلى الكعبَيْن ﴾ [المائدة : ٦] .

وهذه آيةُ الوضوء التي حدَّدت كيفية الاستعداد قبل الدخول في الصلاة ، حيث غسل الوجه واليدين إلى المرافق ، ومسح الرأس، وغسل الرِّجْلين إلى الكعبَيْن. والترتيبُ أحد فرائض الوضوء ، فلم يثبت عن النبي ﷺ أنه خالف هذا الترتيب . والعباداتُ توقيفية تستند إلى الاتباع .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٨٤) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ : سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخ النبي ﷺ ونزل ، فثنى رأسه في حِجري راقداً . أقبل أبو بكر فلكزني لكزة شديدة. وقال: حبستِ الناس في قلادة، فبي الموت لمكان رسول الله ﷺ وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ ، وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد ، فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ . الآية . فقال أُسيد بن حضير : لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ، ما أنتم إلا بركة لهم[20] .

اللهُ تعالى يُخفِّف عن الناس ولا يضطرهم إلى أضيق المسالك . فقد أنزل هذه الآيةَ ليرشد المؤمنين إلى كيفية التصرف في حال القيام إلى الصلاة . كما بيَّن لهم الإجراءات الواجب اتباعها . فلم يتركهم لأهوائهم أو أمزجتهم الشخصية . وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرج ، فلا مكان للضيق والمنغِّصات فيها .

قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٥) : ((قد اختلف أهل العلم في هذا الأمر عند إرادة القيام إلى الصلاة ، فقالت طائفة : هو عام في كل قيام إليها سواء كان القائم متطهراً أو مُحدِثاً ، فإنه ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ ... وقال جماعة : هذ الأمر خاص بمن كان مُحدِثاً. وقال آخرون : المراد إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، فيعم الخطاب كل قائم من نوم)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (١/ ٨٧): عن عمرو بن عامر عن أنس قال : ((كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة)). قلتُ : كيف كنتم تصنعون ؟، قال : ((يجزىء أحدنا الوضوء ما لم يُحدِث)).

فلا يمكن إنكار أهمية الوضوء في الطهارة والتطهر قبل الدخول إلى حضرة الله تعالى، والاتصال معه عبر الصلاة . فالوضوءُ سلاح المؤمن ، ويمنح كلَّ أعضائه نوراً وبهجة ، فليس هو مجرد إسالة الماء على بعض الأعضاء ، بل هو نظام حياة متكامل يضع المؤمنَ في أقصى مدى النور . والنبيُّ ﷺ كان حريصاً على الوضوء عند كل صلاة . وهذه هي حالة الكمال الإيماني ، مع أن هذا الأمر ليس بواجب. فيجوز للمسلم أن يُصلِّيَ كل الصلوات بوضوء واحد ، فالعِبرةُ في انتقاض الوضوء أم لا .

---

(٢٠) (فثنى رأسه) وضعه. (راقداً) أي يريد الرقود والنوم.(لكزني) دفعني في صدري بكفه. (فبي الموت) أي كاد ينزل بي الموت من شدة الوجع،ولم أتحرك حتى لا أزعج رسول الله ﷺ .(فيكم) بسببكم.

وفضل الوضوء عام في الحياة الدنيا ، حيث يجعل المؤمنَ واثقاً بنفسه ، في أعلى درجات النظافة والتطهر ، مقبلاً على الله تعالى وهو في شكل نوراني حسن . ويتعدى فضلُ الوضوء إلى الحياة الآخرة . حيث إن الوضوء يساهم في رفع درجة المؤمن يوم القيامة ، ومجيئه طاهراً شريفاً مكتمل الهيئة . فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : ((إن أمتي يُدْعَوْن يوم القيامة غُرًّاً مُحَجَّلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يُطيل غرته فليفعل))[21] .

أي إن الأمة المحمدية الإسلامية تأتي يوم القيامة يعلوها البياضُ الوهاج، والصفاءُ الباهر ، نتيجة الوضوء في الحياة الدنيا الذي منحهم النظافة والتألق والبياض المنتشر من غير عِلَّة . فيتحولون إلى كائنات بشرية نورانية، لأنهم ـ في الدنيا ـ التزموا أوامرَ الله تعالى في الطهارة والتطهر والاستعداد للصلاة ، فيأتون في الآخرة ، وعليهم الوقارُ الناصع ، حيث وجوههم مشرقة ، وأجسادهم طاهرة نقية . وهكذا ، فإن الوضوء ليست عمليةً ميكانيكية أو تعاملاً عبثياً مع الماء . إنه حالة إيمانية شاملة يتعدى أثرُها إلى الحياة الآخرة .

٢ـ أداء الصلاة :

أ ـ الحض عليها :

إن الصلاة عمود الدِّين ، وهي الصلة الوثيقة بين العبد وخالقه . فليست حركاتٍ ميكانيكية أو تمارين رياضية لتمضية وقت الفراغ . بل هي منظومة متكاملة من العمل الإيماني المستند إلى عقيدة راسخة ،كما أنها الاتصال المقدَّس بين المخلوق والخالق ، حيث الانقطاع عن عوالق الدنيا، والتوجه بالكلية إلى الله تعالى . مما ينقل الفردَ من طَوْر المادية الشهوانية الترابية إلى عوالم الطهارة والروح المشرقة التي تُولَد باستمرار من الصلة بين السماء والأرض . لذلك جاء الحض على الصلاة ، والتشديد على التمسك بها ، والترهيب من تركها ، لأن تاركها يقطع العلاقةَ بينه وبين الله تعالى ، وهذا يقود الإنسانَ إلى انتكاسة كبرى وتمركز في قاع الوجود البشري . فتركُ الصلاة وأد للروح والجسد معاً ، لأنه يؤدي إلى إفراغ الكيان البشري من معناه ، وتغييب الجدوى عن الحياة الآدمية على كوكب الأرض .

قال الله تعالى : ﴿ وأَقِمِ الصلاةَ طَرَفي النهار وزُلفاً من الليل ﴾ [هود : ١١٤] .

---

(٢١) متفق عليه . البخاري (١/ ٦٣) برقم (١٣٦) ، ومسلم (١/ ٢١٦) برقم (٢٤٦) .

إقامةُ الصلاة تملأ اليومَ كاملاً بالبهجة والسرور والتوفيق . فحينما يبدأ المسلمُ يومَه بالصلاة وينهيه بالصلاة ، فعندئذ سوف تحل البركةُ في الزمان والمكان ، وترسخ العلاقةُ بين العبد والمعبود ، ولا تنقطع الصلة بين المخلوق والخالق . وبما أن الصلاة سَدٌّ منيع يحول دون غرق العبد في الآثام ، فإن اليوم سوف يتحول إلى منبع للطهارة والأعمال الصالحة وإدارة الظهر للخطايا . وبذلك يصبح الفردُ مسيطراً على حياته ، يأخذ زمامَ المبادرة في الصالحات ، ولا يترك الدنيا تتلاعب به أو تخطفه الشهوات الدنيئة وحظوظ النفس الأمَّارة بالسوء . وعندئذ يصبح الزمنُ ذا قيمة سامية ، ويختفي وقتُ الفراغ المفسِد ، فالعمرُ صار مملوءاً بالطاعة والأفعال النافعة للإنسان ومجتمعه . في فتح القدير للشوكاني (٢/ ٧٦٨) : ((والزلف : الساعات القريبة بعضها من بعض . ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة)) اهـ .

أما سبب نزول الآية فروى البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٢٧) : عن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ أن رَجلاً أصاب من امرأة قُبلة ، فأتى رسولَ الله ﷺ فَذَكر ذلك له ، فأُنزلت عليه : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ [هود : ١١٤] . قال الرَّجل : ألي هذه ؟ ، قال : ((لمن عمل بها من أمتي)) .

فالرَّجلُ قد ارتكب ذَنْباً ، ووقع تحت تأنيب ضميره الحي . فقد عَصى اللهَ تعالى وأراد أن يتوب من إثمه الذي اعترف به للنبي ﷺ من أجل أن يرشده إلى طريق التوبة والخلاص. فَنَزَلت الآيةُ الكريمة التي تأمر بإقامة الصلاةِ لأنها الحبل المتين بين العبد وخالِقه تعالى. والحسناتُ تُذهِب السيئاتِ وتقضي عليها بشكل تام ، لذا على الإنسان ــ مهما بَلغت ذنوبه ــ أن يُكثِر من الحسناتِ ، ولا يَستسلم لآثامه، أو يَفقد الأملَ في التوبة. فبابُ التوبةِ مفتوحٌ. ولا كبيرةٌ مع الاستغفار، ولا صَغيرةٌ مع الإصرار . والحسناتُ تنقيةٌ للقلب ، وتطهيرٌ له من كل الشوائب . فالإنسانُ الذي يواصل فِعلَ الخيرات يتحول قلبُه إلى مرآة صافية عَصِيَّة على الخدش أو الكسر .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٧٦٨) : ((لما ذكر اللهُ ــ سبحانه ــ الاستقامة خَصَّ من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان. وانتصاب طرفي النهار على الظرفية ، والمراد صلاة الغداة والعشي وهما الفجر والعصر ... ورجَّح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب قال : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح فدل على أن الطرف الآخر المغرب)) اهـ .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ وزُلفاً من الليل ﴾ هما صلاتا المغرب والعشاء .

وهكذا نرى أن أوقات المؤمن مليئة بالصلاة في أوقات محددة ، وذلك لكي يبقى على اتصال مع الله تعالى . فلا وقت للغفلة في حياة المؤمن ، ومع هذا فلن يتم قضاء كل الوقت في الصلاة ، فالصلواتُ هي أركان الحياة الإيمانية التي تحدد معالمَ طريقة عيش المسلم ، وتجذبه إلى الخير ، وتبعده عن الشر .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لعباديَ الذين آمنوا يُقيموا الصلاةَ ﴾ [إبراهيم : ٣١] .

فالمؤمنُ عليه أن يُقيم الصلاةَ ويحافظ عليها. فهي الرابطة الإيمانية المقدَّسة بين الأرض والسماء، وإذا انقطعت سَقط الإنسانُ في هاويةٍ سحيقة . فَمَن حافظ على الصلاة بكل تفاصيلها ، وأخذها على مَحمل الجِد ، كانت له نوراً يقود حياته إلى القمة ، ومن تركها غرق في الظلام الدامس . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٤٥٦) : ((قل لهم : فليقيموا الصلوات الخمس المفروضة عليهم بحدودها)) اهـ .

ففي إقامة الصلاة إقامة لكيان المؤمن وفق قواعد راسخة تحفظ آدميةَ الإنسان المرتبط بخالقه تعالى ، وكذلك إقامة للمجتمع الإسلامي القادر على تحمل مسؤولياته بكل كفاءة ، والقادر على إعمار الأرض ، وصناعة الفرد المؤمن الذي هو خليفة الله في الأرض .

قال الله تعالى على لسان السيد المسيح ﷺ : ﴿ وأَوصاني بالصلاة ﴾ [مريم : ٣١] .

وفي هذا إشارة واضحة إلى أهمية الصلاة ، حيث أوصى اللهُ بها رسولَه عيسى بن مريم ﷺ ، أي أمره بها . فعليه أن يحافظ عليها، ويقيم حدودها، ويلتزم بها طريقاً في الحياة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . فالصلاةُ قادرة على تصحيح مسار الفرد والجماعة ، وتوجيه كافة الجهود نحو إصلاح الإنسان والأرض ، وتأسيس حياة فضلى في ظل الشريعة الإلهية المعصومة .

ب _ صفات المصلِّين :

إن الصلاة تحيط المحافظين عليها بصفات الطهارة والخير والإيجابية ، لأنها تنقِّي الإنسانَ من السلبية الفعلية والقَوْلية ، وتمنحه أفقاً أكثر رحابة وصفاء . مما يؤدي إلى صناعة منهجية الإصلاح وثقافةِ المصلِحين ، فيغدو الفردُ أداة بناء في المجتمع الإنساني العالمي لا معول هدم . والمصلِّي ليس فرداً عادياً أو رقماً بين الأرقام . إنه كائن مُميَّز له صفاتٌ خصوصية ووقارٌ معروف وسَمْتٌ مُعيَّن، وهذا التميز اكتسبه من عبادة الصلاة التي تنعكس على السلوك الإنساني ، فتجعل من الفرد طاقةً خلاقة إيجابية لا تستسلم للصعوبات ولا تصاب باليأس والإحباط ، وتجعل من

المجتمع خلية نحل دؤوب ، قادر على الحركة البناءة ، وصناعةِ الحراك الاجتماعي الفعال ، وتشييد الحاضر والمستقبل بكل ثقة وأمان .

قال الله تعالى : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ [المؤمنون : ٢] .

والخشوعُ في الصلاة علامة المؤمن الصادق البعيد عن النفاق والرياء ، فما كانت أعضاؤه لتخشع لولا خشوع قلبه. وهذا يدل على ارتباط القلب بالله تعالى، وهو علامة الصلاح والتقوى. أما تصنع الخشوع فهو الرياء بعينه ، حيث إظهار الصفات الحميدة دون تواجدها في القلب ، وذلك لنيل الحظوة عند الناس ، والمديح ، وتحقيق أغراض شخصية .

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : أنه سئل عن قوله ـ عز وجل ـ :﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ . قال : ((الخشوع في القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت في صلاتك))[23] .

فالقلبُ هو مَلِك الأعضاء والحاكم عليها ، وما وقر فيه فلا بد أن يظهر على الجوارح بقصد أو بغير قصد . والخشوعُ مكانه في القلب (المركز / المنبع / الأساس) . ويقتضي الخشوعُ التعاملَ مع المسلم بلين وأدب ، وعدم الالتفات في الصلاة ، لأنه يشتِّت التركيز ، ويؤثر سلباً على حضور القلب وتماسكِ الأعضاء .

فحينما يستقر الخشوع في القلب ، فإن تغييراً هائلاً سيطرأ على باقي الأعضاء . فيغدو المسلمُ كائناً متزناً يضع الكلمةَ في موضعها الصحيح ، لا تأخذه فَوْرة الغضب ، ولا يستسلم للاستفزاز وسفاهة الجهلاء . فيمشي بسكينة ووقار ، يساعد الآخرين ويأخذ بأيديهم نحو بَر الأمان . فعندئذ يصبح شعلةَ نشاط ومنارةً تهدي الحيارى وترشد الضائعين . كما أنه سيتعامل مع الناس باحترام ، فلا يتطاول عليهم ولا يحتقرهم ، ولا ينظر إليهم نظرةً دونية أو يعاملهم كالشياطين الذين ضلوا عن السبيل . فالخشوعُ أساسٌ للسَّكينة واللين وسهولة التعامل . فإلانةُ الكتف للمسلم تشير إلى معاملته بالأدب لا الوقاحة ، واحتوائه لا رفضه .

وفي صحيح البخاري (١/ ٢٦١) : عن عائشة قالت : سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة ؟ ، فقال : ((هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)) .

---

(٢٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٦) برقم (٣٤٨٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

والشيطانُ لا يرتاح إلا حين يشوّش على صلاة العبد ويجعلها تغرق في اللاخشوع. والالتفاتُ في الصلاة عبارة عن سرقة شيطانية بسرعة من الصلاة. وذلك كي يحرم المصلِّي من أجر الخشوع، ويبعده عن السكينة الكاملة في الصلاة. وهذا هو طبعُ الشيطان الرجيم الذي يتركز منهجُه في إفساد العبادات وجعلها خالية من المعنى عبر تشتيت ذهن المصلي ، وطرحِ القضايا المتشعبة في نفسه لكي ينشغل بها بعيداً عن صلاته، وهذا يؤثر سلباً على أجره وشعوره بحقيقة العبادة .

قال الله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ [المؤمنون : ٩] .

ومن صفات المؤمنين الصادقين أنهم يحافظون على أوقات الصلاة، فلا يُضيِّعونها ، ولا ينشغلون عنها . فهم يحرصون على أدائها بشكل تام لا نقص فيه ولا تهاون ولا تكاسل . فالصلاةُ على وقتها أعظم قربة إلى الله تعالى. فعن ابن مسعود قال : سألتُ النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى الله ؟ ، قال : ((الصلاة على وقتها))[24] .

وقال الله تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حقٌّ معلوم ﴾ [المعارج : ٢٤] .

وتتوالى صفاتُ المصلين الصادقين كما يوضحها القرآنُ الكريم . فمن صفاتهم الطيبة أنهم يخرجون زكاةَ أموالهم . فالحق المعلوم هو الزكاة لأنها محددة كمياً وزمنياً . وهذا يدل على أن الصلاة نظام شامل يُساهم في الالتزام بكل العبادات . فالمسلمُ الحريص على الصلاة سيحرص على الزكاة لأنها مقترنة بالصلاة لا تنفصلان ، مما يشير إلى شمولية الشريعة الإسلامية لكل جوانب الحياة بلا تناقض أو فصل بين العبادات . فالإسلامُ نظامٌ كُلِّي لا يتجزأ ، ومنظومةٌ عامة من العبادات والمعاملات والقواعد الشرعية المفتوحة على عوالم السياسة والاقتصاد والثقافة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ٧١) : ((وقد اختلف السلف في معنى قول الله تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حقٌّ معلوم (٢٤) للسائل والمحروم (٢٥) ﴾ [المعارج] . فقال الجمهور : المراد به الزكاة وأنه ليس في المال حق سوى الزكاة ، وأما ما جاء غير ذلك فعلى وجه الندب ومكارم الأخلاق ... وقال بعضهم : هي منسوخة بالزكاة ، وإن كان لفظه لفظ خبر فمعناه أمر . قال : وذهب جماعة منهم الشعبي والحسن وطاوس وعطاء ومسروق وغيرهم إلى أنها مُحْكَمة وأن في المال حقاً سوى الزكاة من فك الأسير ، وإطعام المضطر ، والمواساة في العسرة ، وصلة القرابة)) اهـ .

---

(٢٤) متفق عليه . البخاري (١/ ١٩٧) برقم (٥٠٤) ، ومسلم (١/ ٨٩) برقم (٨٥) .

قال الله تعالى : ﴿ والذين يُصَدِّقون بيوم الدِّين ﴾ [المعارج : ٢٦] .

من أهم صفات المصلين أنهم يؤمنون بالبعث والحساب بعد الموت. وهذه صفة لازمة للمصلي الذي يقوم بعبادة الصلاة على أتم وجه ليحافظ على صلته بالخالق تعالى . فالمصلي مرتبط بالآخرة ، ومؤمن بالثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية . لذلك فإن الصلاة هي إصلاح للعبد في الدارين ، وإعلاء لمنزلة العبد يوم الدين . إنها تجهيز لدار الإنسان الخالدة التي يسكنها بعد الموت . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٠) : ((تصديقاً بأعمالهم ، وهو أن يُتعب نفسَه ، ويصرف ماله طمعاً في المثوبة الأُخروية)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مُشفقون ﴾ [المعارج : ٢٧] .

فمن صفات المصلين الصادقين في صلاتهم أنهم خائفون من عذاب الله تعالى ، لذلك فهم يتمسكون بأوامره ونواهيه ، ويقيمون العباداتِ على أكمل وجه دون تقصير . فالمؤمن في حالة خوف من عذاب الله تعالى وانتقامه الشديدَيْن. وقال الله تعالى: ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ [المعارج : ٢٩] . إنهم يمنعون فروجَهم من الوصول إلى الحرام ، فيحافظون عليها في وجه كل المغريات والشهوات المحرَّمة ، فيبقون أنقياء أطهاراً ، لا يُلوِّثون أجسامَهم بالحرام .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده _ رضي الله عنه _ قال : قلتُ : يا رسول الله ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟، قال: ((احفظْ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)) ، قلت : أرايتَ إن كان قوم بعضهم فوق بعض ؟ ، قال : ((إن استطعتَ أن لا يراها أحد فلا يَرَيَنَّها)) ، قلت : أرايتَ إن كان خالياً ، قال : ((فالله أحق أن يُسْتَحْيَى منه))[25] .

وهذا يشير إلى قوة منهج الانضباط الأخلاقي في المجتمع الإسلامي المحروس بقوانين الشريعة التي حالت دون غرق الأفراد في الفوضى الجنسية، وانتشارِ الفواحش، وشيوعِ الأمراض التناسلية. فالمجتمع الإسلامي مجتمعٌ نظيف طاهر يضع الشهواتِ في نصابها الصحيح ، ويغلق كلَّ الذرائع الموصلة إلى الحرام . فحفظُ العورات هو الأساس لتجنب الانسياق وراء العلاقات المحرَّمة بين الذكر والأنثى ، والضمانةُ الأكيدة لحماية المجتمع من الكبت الجنسي والفوضى الأخلاقية . وهنا تتجلى أهمية التوازن والسيرِ على الخط المستقيم (أقصر مسافة بين نقطتَيْن) بلا انحراف أو تحايل .

---

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٩) برقم (٧٣٥٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ [المعارج : ٣٢] .

إن المصلين يردون الأمانات إلى أصحابها ، ويوفون بعهدهم ، مبتعدين كل البعد عن الخيانة . فهم يتمتعون بالأمانة والإخلاص في معاملاتهم. فيصبحون _ بذلك _ محل ثقة الآخرين، ويفرضون احترامهم على الجميع ، لأن الصفات الأخلاقية ملتصقة بالجوارح ، وبالتالي فالناس يحكمون على الأشخاص تبعاً لأخلاقهم الظاهرة التي لا يمكن إخفاؤها مهما حاول الإنسان التكلف ، وصناعة الصفات الحسنة . فطبعُ الإنسان يظهر في حركات الإنسان وسكناته . ومن غير الممكن أن يتصنع الفردُ الصفاتِ الحسنة دائماً . فلا بد أن يُكتشَف أمره _ عاجلاً أو آجلاً _ مهما كان بارعاً في التمثيل والتحايل ، وسوف يظهر على حقيقته . وكما قال الشاعر :

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَمِ

فعلى الإنسان أن يتحلى بالصفات الحسنة لأنها تعكس شخصيته وخلفيته ، وتساهم في تحسين العلاقات التواصلية بين الناس ، ونيل قبولهم ورضاهم . كما أن الصفات الحميدة مضادة تماماً لصفات المنافقين . فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ عن النبي ﷺ قال : ((آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أُؤتمن خان))[26] .

---

(٢٦) متفق عليه . البخاري (١/ ٢١) برقم (٣٣) ، ومسلم (١/ ٧٨) برقم (٥٩) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٤٦و٤٧) : ((هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدِّق الذي ليس فيه شك . وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدِّقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال، لا يُحكَم عليه بكفر ، ولا هو منافق يخلد في النار ، فإن أخوة يوسف ﷺ جمعوا هذه الخصال ، وكذا وُجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله . وهذا الحديث ليس فيه _ بحمد الله تعالى _ إشكال، ولكن اختلف العلماء فى معناه . فالذي قاله المحققون والأكثرون ، وهو الصحيح المختار ، أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه ،= =وهذا المعنى موجود فى صاحب هذه الخصال،ويكون نفاقه في حق من حدَّثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس ، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر . ولم يُرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلَّدين في الدرك الأسفل من النار)) اهـ .

فهذه العلاماتُ الثلاث هي من خصائص المنافقين وصفاتهم . فالكذبُ في الحديث يؤدي إلى قلب الحق باطلاً، وتحويل الباطل إلى حق.وهذه الصفةُ القبيحة لها آثار مدمرة في النسيج الاجتماعي لأنها تعمل على تفتيته، وخلط الأمور بشكل عبثي كارثي يقود إلى تضليل الناس، وإطلاق الأحكام جُزافاً دون التثبت منها . وهنا تبرز الأوهام في المجتمع ، وتنتشر الإشاعات ، ويسود الشك بين الناس ، ويختفي اليقين في القيل والقال . ولا يخفى الأبعاد الكارثية لهذا الانهيار الاجتماعي المرعب. ومن صفات المنافقين عدم الوفاء بالوعد ، وهذه الصفة القبيحة تزيل الثقةَ بين الناس ، فيصبح الجميعُ خائفين من بعضهم البعض، ولا يَثقون بأنفسهم ومجتمعهم . وإذا انتهى التواصل الاجتماعي وتفككت الروابط الإنسانية فعندئذ تتحول القيم المجتمعية إلى كوابيس ، ويصبح كلُّ فردٍ متربصاً بالآخر ، فيتحول المجتمع الإنساني إلى غابةٍ لا قانون لها سوى القوة والقدرة على الاستغلال . أمَّا خيانةُ الأمانة فآيةٌ واضحة من آيات المنافق. وإذا عجز المرءُ عن حفظ الأمانة وتأديتها على أكمل صورة فهذا مؤشر على انهيار الإنسان ، وسقوطه في مستنقع الابتزاز والغدر ، والاستحواذ على ممتلكات الآخرين دون وجه حق. فيصبح المجتمعُ مكاناً للكراهية والحقد والانتقام ، فتعم الفوضى ، ويزول التكافل الاجتماعي ، فتتمزق الأواصر الإنسانية ، ويتحول الفرد إلى خنجر غدر في ظَهر أخيه ، ويصير المجتمعُ جُزراً معزولة . الكُلُّ يَكره الكل . وهنا يفقد المجتمع شرعيةَ وجوده بسبب عجزه عن ترك بصمة مؤثرة في تاريخ الأخلاق والحضاراتِ، فيزول، ويصبح أثراً إثر عَيْن .

وقال الله تعالى : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ [المعارج : ٣٣] .

فهم يقومون بأداء أمانة الشهادة كما هي وعلى أكمل وجه ، فلا يكتمونها ، ولا يُغيِّرون فيها، فلا زيادة ولا نقصان . وهذا يعكس أمانة إيصال الحق لئلا تضيع حقوق الناس . فيتأسس المجتمع على قواعد الأخوة المتجذرة ، والتكافلِ الاجتماعي الحقيقي غير المرتبط بالنفعية المصلحية . فالكيان المجتمعي المبني على أسس الحقيقة والعدالة وحفظ حقوق الأفراد لا يصل إلى طور التفكك لأن بنيانه ثابت على قواعد راسخة لا تتخلخل . كما أن شعور الفرد بأنه محمي يمنحه شعوراً بالأمان والثقة والدافعية نحو تعزيز انتمائه للمجتمع ، والمساهمة في التنمية والإعمار . وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٣٩) : ((والذين لا يكتمون ما اسْتُشْهِدوا عليه ، ولكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها غير مُغيَّرة ولا مُبدَّلة)) اهـ .

ج _ التَّهَجُّد وقيام الليل :

إن التهجد[27] وقيام الليل دليل باهر على صدق العلاقة بين المخلوق والخالق وتماسكها . ويدل على تجذر الإيمان في نفس العبد الذي استطاع التفوق على شهواته ونزواته ، وضحى براحته في سبيل نيل رضا خالقه تعالى.قال الله تعالى:﴿ ومن الليل فتهَجَّدْ به نافلةً لكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

فقد ألزم اللهُ تعالى رسولَه الكريم ﷺ بقيام الليل (شرف المؤمن) لما في ذلك من مجدٍ ورِفعة للنبي ﷺ . فصلاةُ الليل تفتح آفاقاً جديدة للعبد الذي يبتعد عن ضجيج النهار ، وصخب الناس ، ويهجر النومَ ، من أجل ملاقاة خالقه تعالى . فالناسُ يغطون في سُبات عميق ، أما هو فيكسر شهوةَ نفسه ، وينقلها إلى عوالم القُرب من الله تعالى . ولا شك أن قيام الليل هو قمةُ الإخلاص وإدارة الظهر لمتاع الدنيا الزائل ، وصدقُ التوجه إلى الخالق العظيم . وكل الصالحين عبر الحقب الزمنية المختلفة كان قيامُ الليل جزءاً أساسياً من حياتهم ، يُجدِّدون به عهدَهم مع الله تعالى . وقيامُ الليل هو العلاقة الصافية بين العبد وربِّه ، والتي لا يَمكن أن يخالطها الرياء .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٥) : ((أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة ... فإن التهجد ما كان بعد النوم ... واخْتُلِف في معنى قوله تعالى : ﴿ نافلةً لكَ ﴾ ، فقيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة . رواه العوفي عن ابن عباس وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي _ رحمه الله _ واختاره ابن جرير . وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يُكفِّر عنه صلواته النوافلُ)) اهـ .

إن قيامَ الليل واجبٌ في حق النبي ﷺ ، وذلك لكي يبقى على اتصال بخالقه تعالى . ففي الليل يخلو كلُّ حبيبٍ بحبيبه ، وأعظمُ حُب هو حب الله تعالى . وأُنس العبد بربِّه تعالى لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا في الليل ، لأن النهار وعاء الضجيج والعلاقات الاجتماعية ولهاث الفرد

---

(٢٧) قال ابن منظور في لسان العرب (٣/ ٤٣١) : ((وتَهَجَّدَ القوم استيقظوا للصلاة أَو غيرها ... الجوهري : هَجَدَ وتَهَجَّدَ أَي نام ليلاً ، وهَجَدَ وتَهَجَّدَ أَي سَهِرَ ، وهو من الأَضدادِ . ومنه قيل لصلاة الليل التَّهَجُّد ، والتهْجِيدُ التَّنْويمُ ... قال الأَزهري : والمعروف في كلام العرب أَن الهاجد هو النائم ، وهَجَدَ هُجوداً إِذا نام ، وأَما الْمُتَهَجِّدُ فهو القائم إِلى الصلاة من النوم ، وكأَنه قيل له مُتَهَجِّد لإِلقائه الهُجُود عن نفسه)) .

وراء متطلبات الحياة التي لا تنتهي . أمَّا الليل فهو السَّكينة المطْلقة ، وفيه تهدأ الجوارحُ وترتاح من صخب الحياة اليومية، فيصبح القلبُ في أعلى درجات الصفاء ، مستعداً لتلقي التجليات الربانية ، والنفحاتِ الإيمانية. ومَن كان مع الله تعالى لا يحب أن يكون مع غيره ، ومن أَنِسَ بالخالق تعالى لم يأنس بالمخلوقين ، وشعر بالوحشة منهم . ومما لا شك فيه أن قيامَ الليل دليلٌ باهر على محبة العبد لخالقه تعالى ، وهروبه من سراب الدنيا وضوضاءِ الحياة الاستهلاكية إلى حقيقة الإيمان الصافية . وفي المستطرف للأبشيهي (١/ ١٩) : ((وقيل: أوحى اللهُ تعالى إلى داود _عليه السلام _ : يا داود ، كَذب من ادَّعى محبتي ، وإذا جُنَّ عليه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه ؟)) اهـ .

ويقول عبد الله بن المبارك _ رحمه الله تعالى _ :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم و هم ركوع

أطار الخوفُ نومَهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

فالليلُ هو متعة العابدين الذين يَجدون فيه سعادتهم ، فهم يملؤونه بالعبادة . وقد مَلَكَ قلوبَهم الخوفُ من الله تعالى فطار النومُ من عيونهم ، فقاموا الليلَ لعلمهم بأهمية العبادة من أجل النجاة والخلاص. أمَّا أهلُ الدنيا فهُم غاطسون في غفلتهم وشهواتهم لذلك قضوا حياتهم نائمين . وسوف يَسْتيقظون عندما يَصعقهم الموتُ ، ويَدفعون ثمنَ تفريطهم. فالناسُ نِيامٌ، وإذا ماتوا انتبهوا.

وروى الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٠) وصحَّحه ووافقه الذهبي أن جبريل _عليه السلام _ قال مخاطِباً النبي ﷺ : ((يا مُحمَّد ، شَرَفُ المؤمنِ قيامُ الليلِ)) .

إن قيامَ الليل هو تاريخُ المؤمن وشَرَفه الذي يَعتز به، ولا يسمح بزواله مهما حَدث . فالشرفُ الحقيقي نابع من الإيمان وليس من العلاقات الاجتماعية . وذلك لأن رابطة الدِّين أسمى من كل الروابط. وكلما ازداد الإيمانُ في قلب المرء ازداد شرفاً وسُلطةً _ مهما كانت منزلته الاجتماعية _ أمَّا إذا ابتعد عن الدِّين فقد سَقط في قاع الذل، ولن ينتفع بماله أو رابطةِ الدمِ أو علاقاتِ المصلحة. وفي صحيح مسلم (٢/ ٨٢١): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ أن النبي ﷺ قال : ((أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاة في جوف الليل)) .

مما يشير إلى أهمية قيام الليل ، وأن يتوجه العبدُ إلى خالقه تعالى حيث لا يراه الناس ولا يشعرون به . وهذا يزرع في النفس الإنسانية الإخلاصَ ، وينقِّيها من أية شائبة رياء . ولا يصل إلى هذه المرحلة إلا العباد الصادقون أصحاب الهمة العالية .

فقيامُ الليل يدل على الإخلاص الصافي المكتمل . فلا يمكن للمرء أن يقوم في جوف الليل فيتوضأ ويصلي ويضحِّي بشهوة النوم اللذيذة إلا وهو يريد وجهَ الله تعالى ، ولا شيء سواه . وهذا السلوكُ انعكاس للإيمان الراسخ في القلب ، والتصديق بالحساب يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ ومن الليل فسَبِّحْه وأدبارَ السجود ﴾ [ق : ٤٠] .

فالتسبيحُ في الليل وبعد انتهاء الصلاة يزيد الإيمانَ في القلوب ، ويُبقي القلبَ معلَّقاً بخالقه . فالليلُ هو مركز التأمل الهادئ والفكر العميق الذي لا تشوبه ضوضاء ، فيكونُ فيه التسبيحُ صافياً نابعاً من قلب حاضر غير مشغول بحركة الدنيا وتقلبات المعاش . والتسبيحُ بعد الصلاة إكمال للمسيرة الإيمانية . إذ إن ختم العبادة الجليلة (الصلاة) بذكر الله تعالى يدل على أن العبادات متصلة لا تنفصل . فحياةُ المسلم كلها لله تعالى ، لكنَّ العبادات تأخذ أشكالاً مختلفة وأزمنةً متباينة لئلا يُصاب القلب بالسآمة أو الملل .

فالصلاةُ عبادةٌ فِعْلية وقَوْلية ، أما التسبيح فعبادةٌ قَوْلية ، مما يشير إلى تكاملية العبادات ودورها المركزي في إنقاذ الأفراد والجماعة من أزماتهم الوجودية الخانقة ، وصناعة الكيانات الإنسانية والمجتمعية بشكل متماسك فعال لا يقيم أدنى قطيعة مع العبادة .

قال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ١١٤) : ((أي سَبِّحه بعض الليل . وقيل : هي صلاة الليل ، وقيل : ركعتا الفجر ، وقيل : صلاة العشاء . والأول أولى .﴿ وأدبارَ السجود﴾ أي : وسبِّحه أعقاب الصلوات)) اهـ .

وهذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ بالتسبيح في أوقات مخصوصة هو أمرٌ لعموم الأمة ، وذلك يدفع باتجاه تقوية العلاقة بين العبد وربه تعالى ، فيظل العبدُ على اتصال بخالقه ، يذكره دون ملل ، ويقوم بمسؤولية العبادة على أكمل وجه .

قال الله تعالى : ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون (١٧) وبالأسحار هم يستغفرون (١٨) ﴾ [الذاريات] . هاتان الآيتان توضحان صفتَيْن عظيمتين من صفات المؤمنين الصادقين ، وتشتملان على مدح لهم لتثبيتهم ورفع معنوياتهم وتشجيعهم على مواصلة العبادة .

فالصفةُ الأولى تشير إلى سهر المؤمنين الصادقين في طاعة الله تعالى ، وتضحيتهم بساعات نومهم من أجل إعطاء العبادة حقها. فقد ((كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ...وصفهم بذلك مدحاً

لهم ، وأثنى عليهم به فوصفهم بكثرة العمل،وسهر الليل ومكابدته فيما يقربهم منه ويرضيه عنهم))[28].

وقد ورد أكثر من تفسير للآية الشريفة : ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ .

فعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : ((كانوا يصلون بين العشاء والمغرب))[29].

أي إنهم حريصون على الصلاة لأنها العلاقة المقدَّسة بين المخلوق والخالق ، والرابطة الوثيقة بين الأرض والسماء. لذلك هم يملؤون أوقاتهم بالصلاة، ولا يُضيِّعون أوقاتهم في اللهو والعبث. فالمؤمنُ وقتُه ثمين ، ويستغل كلَّ لحظة في طاعة الله تعالى ، ولا يوجد في عُمره وقت فراغ ، لأن الفراغ أكبر مفسدة . ونَفْسُك إن لم تشغلها بالحق شَغَلَتْكَ بالباطل . وكما قال الشاعر :

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ مفسدةٌ للمرءِ أيُّ مفسدهْ

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:((لا يمر بهم ليلة ينامون حتى يصبحوا يُصلون فيها))[30].

إن وقتَ المؤمن حلقة متصلة من العبادات ، وإعمار الأرض ، ونشر الخير . فالليلُ والنهار هما ساحة العبادة. والعبادةُ مفهومٌ شامل لكل ما يحبُّه الله تعالى ويرضاه. وفي واقع الأمر، لا توجد _ في حياة المؤمن _ أفعال دنيوية وأفعال دينية ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة . فالمؤمنُ فارسٌ في

---

(٢٨) تفسير الطبري (١١/ ٤٥١) .

(٢٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٧) برقم (٣٧٣٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٣٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٧) برقم (٣٧٣٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وفي فتح الباري (٣/ ٢٩) : ((زاد الأصيلي أي ينامون. وقد ذكر الطبري وغيره الخلاف عن أهل التفسير في ذلك . ونقل عن قتادة ومجاهد وغيرهما أن معناه : كانوا لا ينامون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون ... عن ابن عباس قال : معناه لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئاً ... ورجَّح الأول ، لأن الله تعالى وصفهم بذلك مادحاً لهم بكثرة العمل. قال ابن التين : وعلى هذا تكون ما زائدة أو مصدرية وهو أبين الأقوال وأقعدها بكلام أهل اللغة. وعلى الآخر تكون ما نافية)) اهـ .

النهار ، راهبٌ في الليل ، يُحوِّل جميعَ أفعاله إلى عبادات ، وذلك بجعل النيةَ خالصةً لوجه الله تعالى .

أما الصفة الثانية فهي الاستغفار في الأسحار (جمع سَحَر ، وهو وقت ما قبل الفجر) . وهذه الأوقاتُ العظيمة يرجى فيها استجابة الدعاء . كما تدل على إخلاص المؤمن وحرصه على العبادة في وقت يكون فيه الناس نائمين ، أما هو فمستيقظ لأداء العبادة المقدَّسة ، متفوِّقاً على شهواته الطينية ، والنزعةِ الإنسانية نحو الراحة . وعلى قَدْر المشقة يكون الأجرُ . كما ينبغي للمؤمن أن يختار الأوقات المباركة والأزمنة الشريفة لأداء عباداته لكي تكون أشد تأثيراً في النفس البشرية ، وأدعى للقبول .

فعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له))(31) .

واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الحركة والانتقال من مكان إلى مكان . فالمعنى أن الله تعالى قريبٌ من العبد تتنزل رحمته في هذا الوقت الفضيل . فيقول تعالى : ((من يدعوني فأستجيب له)) وهو غنيٌّ عن العالَمين . لكنَّ اللهَ تعالى يُذكِّر عبادَه بأهمية الدعاء ، ويعدهم بالاستجابة لهم ، مع أنه ــ سبحانه ــ لا يحتاجهم ، بل هم يحتاجونه . فالدعاءُ مخُّ العبادة ، وتتزايد أهميته في هذا الوقت العظيم آخر الليل . ويقول تعالى : ((من يسألني فأعطيه)) . فاللهُ تعالى لا تنفد خزائنه ، وهو ينفق في الليل والنهار فلم يُصب بالفقر أو التعب . والإنسانُ العادي يغضب إذا سألتَه ، أما

---

(٣١) متفق عليه . البخاري (١/ ٣٨٤) برقم (١٠٩٤) ، ومسلم (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨) . وقال ابن الجوزي في دفع شبه التشبيه (ص ١٩٤و١٩٦) : ((وقد روى حديث النزول عشرون صحابياً ، وقد سبق القول أنه يستحيل على الله ــ عز وجل ــ الحركة والنُّقْلة والتغير ... والواجب على الخلق اعتقاد التنزيه ، وامتناع تجويز النُّقْلة ، وأن النزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتقر إلى ثلاثة أجسام : جسم عالٍ ، وهو مكان الساكن ، وجسم سافل ، وجسم ينتقل من علو إلى أسفل ، وهذا لا يجوز على الله تعالى قطعاً . فإن قال العامي : فما الذي أراد بالنزول ؟، قيل: أراد به معنى يليق بجلاله لا يلزمك التفتيش عنه ، فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟ ،قلنا: قد علمتَ أن النازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقرب ولا تظنه كقرب الأجسام)) اهـ .

الخالق العظيم فيغضب إذا لم تسأله . فلا شيء يُعجزه ، وكلُّ شيء خاضع له ، فيُعطي كلَّ صاحب مسألة مسألته دون أن يَنقص من مُلْكه شيء. ويقول تعالى : ((من يستغفرني فأغفر له)). فكلُّ الذنوب _ مهما بلغ حجمها وعَظُمَ أمرها _ هي أصغر من الرحمة الإلهية التي وسعت كلَّ شيء . والكبائرُ مثل الصغائر في المغفرة . فالمغفرةُ الإلهية أعظم من أن تُحصَر في صغيرة أو كبيرة . فالعفو الإلهي قرارٌ رباني لا يخضع لحجم الإثم . إنه محضُ فضل من الخالق _ سبحانه _ .

د _ صلاة الْجُمُعة :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودِيَ للصلاة من يوم الْجُمُعة فاسْعَوْا إلى ذِكْر الله ﴾ [الجمعة : ٩] .

إن يوم الجمعة هو عيد المسلمين العظيم الذي يتفوق على عيدَيْ أهل الكتاب، ويتقدم عليهما. فهو يسبق السبتَ (عيد اليهود) ، ويسبق الأحدَ (عيد النصارى) . وصلاة الجمعة هي العهد بين العبد وخالقه تعالى ، حيث يجدِّد المؤمنُ ولاءه لله تعالى والعهدَ الإيماني الذي يهدف إلى الثبات على الحق ، والتوبةِ من كل الذنوب ، واستدراكِ ما فات من التقصير ، والعملِ بشكل مخلِص ودقيق لأداء العبادات على أكمل صورة دون أية ثغرة .

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ٩٤) : ((يقول تعالى ذِكْره للمؤمنين به من عباده : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿ إذا نودِيَ للصلاة من يوم الْجُمُعة ﴾ ، وذلك هو النداء ينادي بالدعاء إلى صلاة الجمعة عند قعود الإمام على المنبر للخطبة . ومعنى الكلام : إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴿ فاسْعَوْا إلى ذِكْر الله ﴾ . يقول : فامضوا إلى ذكر الله واعملوا له . وأصل السعي في هذا الموضع العمل)) اهـ .

فالسعي هو قصدُ صلاة الجمعة وإتمامها والانشغال بها عن كل ما سواها من متاع الدنيا الزائل. أما السعي بالمفهوم المحسوس فمنهيٌّ عنه . والمرءُ حين يأتي للصلاة فهو يُقبِل على الله تعالى بكل جوارحه ، ويُلقي الدنيا وراء ظهره . فعندما يقف العبدُ بين يدي الخالق لا تصبح هناك أدنى قيمة للمخلوقات .

والمؤمنُ يُلبِّي نداءَ الحق، ويُنقِّي قلبَه من إغراءاتِ الدنيا ، وشوائبِ الحياة الاستهلاكية العنيفة. وهذا هو المحك الحقيقي في حياة الإنسان . وقلبُ العبدِ إمَّا أن يكون لله تعالى أو للدنيا ، ولا يمكن الجمعُ بينهما . ومن نَجح في تفريغ قلبه من سراب الدنيا وزينتها الخادعة ، وجعله

متوجِّهاً بالكلية نحو الخالق تعالى ، فقد نجح في الاختبار نجاحاً باهراً ، وانتصر على هواه الذي يُعتبَر من ألد أعدائه .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون عليكم السكينة ، فما أدركتم فصَلُّوا ، وما فاتكم فأتموا))[32] .

فالسعي يتنافى مع الوقار الذي ينبغي أن يتحلى به المصلِّي أثناء مجيئه إلى الصلاة ، كما أنه يؤدي إلى دخول سريع في الصلاة ، وهو غير مستعد نفسياً ، مما يعمل على تشتيت الخشوع ، وعدم القدرة على تدبر الألفاظ والمعاني .

وكل هذه الأمور تدل على أهمية الصلاة بشكل عام ، وأهمية صلاة الجمعة بشكل خاص . فالصلاةُ هي الصلة بين المخلوق والخالق ، لذلك لها فرائض وسُنن وأوقات ، لأنها ذات مكانة سامية في التشريع الإسلامي ، فلا بد أن تكون صلاةُ العبد كاملةً أو قريبة إلى الكمال بقدر المستطاع لأنها الحبل المتين بين الأرض والسماء ، وإذا انقطع هذا الحبلُ ، فسيفقد الإنسانُ دورَه ، ويصاب بانتكاسة شديدة من شأنها أن تجعل دنياه جحيماً لا يطاق ، وهذه مقدمة لعذاب الآخرة .

٣ _ القِبْلة :

قال الله تعالى : ﴿ ومِن حيثُ خرجتَ فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

وهذا أمرٌ إلهي باستقبال المسجد الحرام في الصلاة(التوجه شَطْره أي قِبَله). وقد كان النبيُّ ﷺ توَّاقاً لاستقبال المسجد الحرام ، إذ إن هذا المسجد العظيم (أول مَسجد على كوكب الأرض) له مكانة عظيمة في نَفْس النبي ﷺ ، ونفوسِ المؤمنين. ولا يمكن الإفلات من حبِّه والشوق إليه.

---

(٣٢) متفق عليه . البخاري (١/ ٣٠٨) برقم (٨٦٦) ، ومسلم (١/ ٤٢٠) برقم (٦٠٢) . وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٣٩٢) : ((وكأن البخاري استشعر إيراد الفرق بين الساعي إلى الجمعة وغيرها ، بأن السعي إلى الصلاة غير الجمعة منهي لأجل ما يلحق الساعي من التعب ، وضيق النفس ، فيدخل في الصلاة وهو منبهر ، فينافي ذلك خشوعه، وهذا بخلاف الساعي إلى الجمعة، فإنه في العادة يحضر قبل إقامة الصلاة ، فلا تقام حتى يستريح مما يلحقه من الانبهار وغيره ، وكأنه استشعر هذا الفرق فأخذ يستدل على أن كل ما آل إلى إذهاب الوقار مُنع منه فاشتركت الجمعةُ مع غيرها في ذلك والله أعلم)) .

وقد حقَّق اللهُ تعالى رغبةَ النبي ﷺ. كما أن كل أصحاب دِين لهم قِبلة يتَّجهون إليها ويُقدِّسونها وتهفو قلوبُهم إليها . والمسلمون أَوْلى الناس بوجود قِبلة ، لأنهم ـ وَحْدَهم ـ على الحق . وأيضاً تُجسِّد القِبلةُ معاني الوَحدة الإسلامية، والترابط الإيماني العميق، وتبث الرعبَ في قلوب الكافرين ، وتمزِّق شَمْلَهم ، وتدحض شبهاتهم وحُججهم الواهية .

وقد ((كرَّر [اللهُ تعالى] هذا الحكم لتعدد علله ، فإنه تعالى ذَكر للتحويل ثلاث علل : تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته ، وجري العادة الإلهية على أن يولِّيَ أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها ، ودفع حجج المخالفين))[33] .

فقِبلة المسلمين هي المسجد الحرام المحتوي على الكعبة المقدَّسة . ووجودُ مكان يتوجه إليه كل المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتنوع أعراقهم ولغاتهم عامل توحيد ، وضمانة أساسية لتجذير الأمة الإسلامية كوحدة جمعية متجانسة ومتماسكة . وهذا عامل قوة يعزز الثقة بقدرات المسلمين ، ويبث الرعب في صدور أعدائهم الطامحين إلى تفريقهم .

وحينما يستشعر المؤمنون وَحدةَ القِبلة فهم يترفعون عن كل خلافاتهم المذهبية أو الضغائن المزروعة بينهم ، لأنهم سيُدركون ـ حينئذ ـ أنهم أُمَّة واحدة تتوجَّه إلى إله واحد ، وذات رسالة واحدة . وهذه الجماعةُ البشرية العظيمة المتوحِّدة تمضي وفق الصراط المستقيم الذي لا يتعدد . وبالتالي فلا مكان لهذه الخلافات ، وسوف تتساقط الشحناء ، ويختفي الحقدُ والتربصُ بالآخرين، ومحاولة الانقضاض عليهم، لأن الجسد الواحد لا يمكن أن يحارب نفسَه مهما أصابه من أمراض.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : ((أول ما نُسخ من القرآن فيما ذُكر لنا شأن القِبلة، قال الله : ﴿ وللهِ المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله ﴾ [البقرة : ١١٥] . فاستقبل رسولُ الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس ، وترك البيتَ العتيق ، فقال الله تعالى : ﴿ سيقول السفهاءُ من الناس ما ولاهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ﴾ [البقرة : ١٤٢] . يعنون بيت المقدس ، فنسختها، وصرفه الله إلى البيت العتيق ، فقال الله تعالى :﴿ ومِن حيثُ خرجتَ فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة : ١٥٠]))[34] .

---

(٣٣) تفسير البيضاوي (١/ ٤٢٦) .

(٣٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٤) برقم (٣٠٦٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وحادثةُ تحويل القِبلة ثابتةٌ في القرآن الكريم بحيث إن منكرها يَكْفر لتكذيبه كلام الله تعالى ، أي تكذيب نَص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة . فقد تم تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام لحِكَم إلهية عديدة وجليلة . منها أن اللهَ تعالى أراد تحقيق رغبة نبيِّه ﷺ في التوجه إلى البيت الحرام . واللهُ تعالى قادر على جعل البيت الحرام هو القِبلة الأولى دون عملية تحويل ، لكنه أراد الربط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام بحيث لا ينفصلان في عقيدة المؤمن ، كما أن حادثة تحويل القِبلة كانت اختباراً حقيقياً لعقائد الناس ، بحيث أظهرت الثابتين على الإسلام، وأظهرت أصحاب العقيدة المضطربة الضعيفة ، وأبرزت ما في قلوب أعداء الأمة الذين يريدون أية حادثة لكي يزعزعوا عقائد المؤمنين، ويشكِّكوا فيها ، في محاولة يائسة منهم لصرف الناس عن الإسلام. ولا يَخفى أن الامتحان هو الكاشف عن عقائد الناس، وسلوكهم، وصمودهم أو انهيارهم.

قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٤٤) : ((أعلم اللهُ تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة : ﴿ ما ولاهم ﴾ . وسيقول بمعنى قال . جعل المستقبلَ موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك ، وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخص بقوله : ﴿ من الناس ﴾ لأن السفه يكون في جمادات وحيوانات . والمراد من السفهاء جميع من قال : ﴿ ما ولاهم ﴾ ، والسفهاء جمع. واحده سفيه ، وهو الخفيف العقل)) اهـ .

والردُّ القرآني يجيء حاسماً لكل المسائل ، وقاطعاً لكيد أعداء الإسلام ، وفاضحاً لهم . إذ إن ترك المنحرفين ينشرون باطلَهم دون إيقافهم عند حدهم من شأنه تدمير المجتمع الإنساني ، وسيادة الفسقة والكافرين على الناس، وقيادتهم للأمور الحياتية ، وهذا سيؤدي إلى اجتثاث الخير ، وتفشي الشر . فالقرآنُ يؤسس منهجَ الرد على المخالِفين ، وفضح انحرافهم ، وإقامة الحجَّة عليهم ، ورد كيدهم في نحورهم . والمراد بالسفهاء هم اليهود[35] الذين حاولوا نشر باطلهم وصرف الناس عن الحق عبر إيراد حادثة تحويل القِبلة لتشكيك المؤمنين بإيمانهم ، وإثارة التساؤلات الخبيثة المغرضة حول هذا الأمر .

وفي فتح الباري (٨/ ١٧١) : ((ورُوِيَ من طريق السدي قال : هم المنافقون ، والمراد بالسفهاء الكفار وأهل النفاق واليهود . أما الكفار فقالوا _ لما حُوِّلت القِبلة _ : رجع محمد إلى

---

(٣٥) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧١) : ((واختلف في المراد بالسفهاء. فقال البراء ... وابن عباس ومجاهد : هم اليهود . وأخرج ذلك الطبري عنهم بأسانيد صحيحة)) اهـ .

قِبلتنا وسيرجع إلى ديننا فإنه علم أنَّا على الحق . وأما أهل النفاق فقالوا : إن كان أولاً على الحق فالذي انتقل إليه باطل وكذلك بالعكس . وأما اليهود فقالوا : خالف قِبلة الأنبياء ولو كان نبياً لما خالف)) اهـ .

إن الكفار قد اعتبروا تحويلَ القِبلة رجوعاً إلى قِبلتهم . وفي الحقيقة إن الكعبةَ المشرَّفة قِبْلة المسلمين ، أمَّا العرب الوثنيون فقد استحوذوا عليها ، ودنَّسوها بالأصنام المضادة لعقيدة التوحيد التي أمر بها اللهُ تعالى (ربُّ الكعبة) . فاللهُ تعالى أراد أن تكون الكعبةُ قِبْلةَ المسلمين الذين يجتمعون على توحيد الخالق وعدم الإشراك به. والكعبةُ هي تجسيد باهر لمعنى توحيد الله تعالى ، كما أن تمثِّل معنى وَحدة المسلمين واجتماع كلمتهم . أمَّا المنافقون فقد اخترعوا حُجَّةً للطعن في الإسلام ، وتمسَّكوا بشُبهة تتلاعب بعقولهم ، فقالوا إن كان التوجه لبيت المقدس هو الحق، فإن التوجه إلى الكعبة باطل ، وكذلك العكس . وهذا وهمٌ مُطْبق لأن فِعْلَ الشيء لا يَنْفي ما عداه. ويمكن أن نعطيَ أمثلةً على هذه القاعدة من الحياة اليومية. فالمرءُ إذا ترك مَسقط رأسه ، ورحل إلى مكان آخر ، فهذا لا يعني أنه انتقل من الباطل إلى الحق أو العكس . وإذا ترك الإنسانُ شرب الشاي ، وراح يشرب القهوةَ ، فهذا لا يعني أنه انتقل من الخطأ إلى الصواب أو العكس .

ولو عُدنا إلى بحثنا لوجدنا أن تحويل القِبلة كانت اختباراً لإيمان الناس ، ولا تَحمل معنى بطلان القِبلة الأُولى أو الثانية . فاللهُ تعالى هو مَالِكٌ للجهات كلها ، يتصرف في مُلْكه كيفما يشاء . ولو سألنا هؤلاء المنافقين : لماذا ترتدون هذه الثياب ؟ ، أو لماذا تضعون في بيوتكم كذا وكذا ؟ ، لقالوا إننا أحرار نتصرف في ممتلكاتنا ، ولا يحق لأحد أن يسألنا عن هذه الأمور . ولله المثلُ الأعلى ، فهو _ سبحانه _ مَالِكُ كلِّ شيء ، لا يحق لأحد أن يسأله عمَّا يَفعل ، فهو يتصرف في مُلكه ، وكلُّ ما سوى الله تعالى هو مُلْكٌ له . ومَن يَرفض هذا الكلام ، عليه أن يَخرج من مُلْكِ الله تعالى ويقيم له مُلْكاً خاصاً ، وهذا محال _ نقلاً وعقلاً _ . والمسجد الحرام والمسجد الأقصى هما أوَّل مسجدَيْن وُضِعا في الأرض ، فلا عَجب أن يحصل الربطُ بينهما للتنبيه على أنهما وُجهة المؤْمِن ، فلا يجوز التنازل عنهما ، أو عن أحدهما .

وأمَّا اليهود فقد اعتبروا حادثةَ تحويل القِبلة مخالفةً لِقبلة الأنبياء وخروجاً على شَرْعهم ، ووفق رأي اليهود : لو كان محمَّد نبياً لَمَا خالف قِبلةَ الأنبياء .

والعجيبُ أن هذا الكلام يَصدر عن اليهود . فالذي يَسمعه يعتقد أن اليهود حريصون على قِبلة الأنبياء ، ومتمسكون بمنهج الأنبياء ، مع أنهم قَتلوا الأنبياءَ ، وحَاكوا ضِدَّهم المؤامراتِ .

فلماذا لم يتمسكوا بِدِين الأنبياء ويدافعوا عن قِبلتهم ؟!. وكما قال المثل : رَمَتْني بدائها وانسلَّت . ولا يَخفى أن المسجد الحرام والمسجد الأقصى كلاهما حاضنة للأنبياء ومأوى لهم .

ودَيْدَنُ أعداء الحق في كل زمان ومكان هو محاولة الاصطياد في الماء العكر ، وبث الأراجيف والإشاعات لإبعاد الناس عن الإيمان ، وإيصالهم إلى الشك والكفر . وهم بذلك يستخدمون كل الوسائل الخبيثة الدنيئة لتحقيق غايتهم غير الشريفة . فيتعاملون مع الحق من منظور مصالحهم الشخصية الضيقة ، ووفق أهوائهم الذاتية المشوَّشة . وهذا أدى إلى إصابتهم بانتكاسات متوالية قادت إلى طردهم من حظيرة الإيمان لأنهم لم يقوموا بتنظيف قلوبهم لاستقبال الحق ، فخسروا الدارين معاً .

والجديرُ بالذكر أن حادثة تحويل القِبلة قد حصلت في السنة الثانية للهجرة ، حيث أمر اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بالتوجه من بيت المقدس إلى البيت الحرام .

٤_ المساجد :

إن المساجد بيوت الله تعالى له مكانتها السامية وحُرْمتها الجليلة ، فلا يأوي إليها إلا مؤمن صادق ، ولا يبتعد عنها إلا ضال . وتعظيمُها يدل على تعظيم العبد للشريعة الإلهية ، وتدميرُها _ معنوياً أو مادياً _ إشارة واضحة إلى انحراف العبد عن الصراط المستقيم ، كما أنه يُعرِّض نفسَه للانتقام الإلهي الشديد . فالمسجدُ بيت الله تعالى ، لا أحد يستطيع دخوله إلا بإذن صاحبه ، وكم من شخص يمر من أمام باب المسجد ولا يدخله ، فمَلِكُ الملوك لا أحد يدخل بيتَه رغماً عنه . والقلوبُ المؤمنة تأوي إلى المسجد لأن فيه راحتها وخلاصها ، أما القلوبُ المريضة فتعتبره سجنَها لذلك تفر منه . قال الله تعالى : ﴿ وأقيموا وجوهَكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

أي توجَّهوا نحو الكعبة (القِبلة) أينما كنتم . فهي قِبلة المسلمين التي توحِّدهم على كلمة واحدة ، وتجمع قلوبهم نحو هدف واحد ، بحيث تتوحد الأمة ، وتتماسك كلمتها أمام التحديات . إنه التوجه السامي ، والتركيز في العبادة ، دون تشتيت الجهود أو الجهات .

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٨٥) أربعة أقوال في تفسير الآية : ((أحدها : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أُصلي في مسجدي ، قاله ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة . والثاني : توجَّهوا حيث كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، قاله مجاهد والسدي وابن زيد . والثالث : اجعلوا سجودكم خالصاً لله تعالى دون غيره ، قاله الربيع ابن أنس . والرابع : اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة أمراً بالجماعة لها ، ذكره الماوردي)) .

وإذا حَضرت الصلاةُ فينبغي على المسْلم أن يُصلِّيَ في المسجد ، ولا يؤخر الصلاةَ أو ينتظر العودة إلى مسجده الذي تعوَّد الصلاةَ فيه . فخيرُ البِر عاجلُه . وفي كل الحالات سوف يتم التوجه إلى الكعبة المقدَّسة (قِبلة المؤمنين) التي تُوحِّدهم، وتجمع شَمْلهم ، وتجعلهم على قلبِ رَجلٍ واحد. والصلاةُ الحقيقية لا مكان فيها للرياء أو السُّمعة. فجميعُ الحركاتِ والسكنات منذ تكبيرة الإحرام حتى التسليم هي لله تعالى، خالصةً له دون غيره. وعلى المؤمن أن يَحرص على أداء صلاة الجماعة، ولا يَكتفي بالصلاة في بيته . فالمسْلمُ قوي بإخوانه ، والذئبُ يأكل الغنمَ القاصية ، فمن ابتعد عن الجماعة فإن فرصة الشيطان ستكون كبيرة في السيطرة عليه والاستفراد به . والرِّفعةُ كامنة في الجماعة لأنها تجميعٌ لنقاط القوة ، وتقليص لنقاط الضعف .

وقال الله تعالى : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ [الأعراف : ٣١] .

فهذه الآية توضح ضرورة أن يكون المؤمن في أحسن هيئة ، وأن يتزين بأجمل الثياب عند الصلاة أو الطواف. فالزينةُ له أثرٌ بالغ في بعث الراحة النفسية. كما أنها توفِّر الاستعدادَ الضروري للدخول في العبادة بكل ثقة وطمأنينة وراحة . وإذا كان المرءُ يتزين بأبهى حُلَّة حين يذهب لمقابلة مسؤول كبير أو شخصية مهمة ، فما بالك حين يذهب للصلاة ويقف بين يدي ملك الملوك ؟! . فعليه أن يكون في أجمل صورة وأبهى زينة . فلكل جوهر نقي مظهر صافٍ ، كما أن فساد الصورة يشير إلى فساد المضمون .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٦٧) : ((هو خطاب لجميع العالَم وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً ، فإنه عام في كل مسجد للصلاة ، لأن العِبرة للعموم لا للسبب . ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطواف لأن الطواف لا يكون إلا في مسجد واحد ، والذي يعم كل مسجد هو الصلاة ، وهذا قول من خُفي عليه مقاصد الشريعة)) اهـ .

فالمؤمنُ يتزينُ لربِّه تعالى مَلِكِ الملوك . وقد كان العربُ في الجاهلية يَطوفون بالبيت عُراةً ، وهذا منافٍ للفِطرة السليمة، والأدب مع الله تعالى، واحترامِ المساجد ، وسترِ العورات . ويتعارض بالكلية مع الحضارة البشرية ، ومدنية الإنسان .

فالعُري إجراء بدائي يتصادم مع نضوج الفكر البشري ، والتقدمِ الإنساني . والمؤمنُ ينبغي أن يأتيَ إلى المسجد في أبهى حُلة . رائحته طيبة ، وثيابه نظيفة . فهو كائنٌ متميز يستمد شَرفه من شَرف المكان الذي يتوجه إليه (المسجد) . ولا بد أن يكون في هيئة حسنة لأنه سيقف بين يَدَي الله تعالى بكل انضباط وخشوع . وهذا لا يتأتى إلا إذا جهَّز نَفْسه وفق أعلى مستوى .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة ، فتقول من يعيرني تطوافاً[36] ؟ ، تجعله على فَرْجها ، وتقول : اليوم يبدو بعضه أو كله ... فما بدا منه فلا أُحِلُّه . فنزلت هذه الآية ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾)) .

قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٦٥): ((ونقل ابن حزم الاتفاق على أن المراد ستر العورة)) .

وهكذا نجد أن أهل الجاهلية كانوا يرتعون في مأزق العري وكشف العورات ، خصوصاً في البيت الحرام. وهذا يدل على جهلهم بالله تعالى، وفسادِ عقائدهم المختلطة بالهوى والجهل والكفر. فأراد اللهُ تعالى أن يرشدهم إلى الأخلاق العالية ، وستر العورات ، والالتزام بالهيئة الحسنة البعيدة كل البعد عن العري ، والانحراف الأخلاقي . فالحرص على الزينة عند الصلاة والطواف من شأنه أن يرتقيَ بإنسانية الإنسان ، وينتشلها من مستنقع الرذيلة والتعري .

فإيمان العبدُ يتحدد وفق قربه من المساجد . فإن كان بعيداً عنها معادياً لها فقد عرَّض نفسَه للهلاك ، وإن كان محباً لها فهو على خير عظيم .

قال الله تعالى : ﴿ ومَن أظلم ممن منع مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم ﴾ [البقرة : ١١٤] .

هؤلاء الذين يناصبون مساجدَ الله العداء يكون المسجدُ _ بالنسبة لهم _ سجناً يريدون أن لا يدخلوه ، وإذا دخلوه فسيبقون خائفين غير مرتاحين نفسياً ، لأنهم يفتقدون إلى الطمأنينة ولا يشعرون بهدوء الأعصاب ، ويريدون الهروب منه بأسرع وقت ممكن .

فمنعُ المساجد من ذكر الله تعالى دليلٌ واضح على حجم الانتكاسة التي وصل إليها الفرد الطامح إلى محاربة الشريعة عبر خنق المساجد وتحجيمها ومحاصرتها . فالمسجدُ ذو مركزية عظيمة في المجتمع الإسلامي ، وإذا تم إبعاده عن صناعة القرار ، فإن المجتمع سيفقد بوصلته ، ويتحول إلى كيان مسخ بلا هوية ولا وُجهة . وهذا ما يطمح إليه أعداء الشريعة في كل زمان ومكان

---

(٣٦) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٨/ ١٦٢):((وهو ثوب تلبسه المرأة تطوف به. وكان أهل الجاهلية يطوفون عُراة، ويرمون ثيابهم، ويتركونها ملقاة على الأرض ، ولايأخذونها أبداً ، ويتركونها تداس بالأرجل)) .

_ مهما اختلفت أسماؤهم أو أديانهم _ . كما أن السعي في خراب المساجد يرمي إلى إطفاء جذوة الإيمان ، وجعل المجتمع بلا منارة هداية ، وتجريد الأفرادمن الضوء الهادي الذي يرشدهم إلى الطريق . فالمسجدُ ليس بناءً محصوراً في رقعة جغرافية ، إنه نظام حياة كاملٌ تنتشر أفكارُه في صميم المجتمع الإنساني لإنقاذ الفرد والجماعة ، وإعادة بناء المصطلحات الاجتماعية وفق منظور إيماني راسخ ، وعلاج الأزمات التي تعصف بوجدان الإنسان ، وتطهير الجماعة البشرية من أمراضها ، وانتشالها من متاهاتها المتكاثرة .

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٢٠٤) : ((هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه ، وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم : أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله ... ﴿ أن يُذكر فيها اسمه ﴾ ... والمراد بمنع المساجد أن يُذكر فيها اسم الله ، منع من يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه . والمراد بالسعي في خرابها : هو السعي في هدمها ... ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وُضعت لها)) اهـ .

إن منع مساجد الله تعالى هو أعظم الظلم ، لأنه إعلان حرب على الخالق سبحانه ، وذلك بمحاربة دِينه وبيوته التي تقام فيها شعائره _ عزَّ وجَل _ . فمن أعاق بناءَ المساجد ، أو منعَ ذِكر الله تعالى فيها ، أو حاربَ تلاوةَ القرآن ، أو منعَ حلقاتِ التعلم والتعليم ، فهو محارِبٌ لله تعالى ، عَدُوٌّ لمساجده. ومن أحبَّ خَرابَ المساجد وتمنى زوالها ، أو هجرة المصلين لها ، أو اختفاء العبادات منها ، فهو عدو لله تعالى لأنه ساعٍ في خراب بيوت الله بكل ما أُوتيَ من قوة ومال .

قال القرطبي في تفسيره (٢/ ٧٤): ((إذا استولى عليها المسلمون _ أي المساجد _ وحصلت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر حينئذ من دخولها، فإن دخلوها فعلى خوف من إخراج المسلمين لهم وتأديبهم على دخولها.وفي هذا دليل على أن الكافر ليس له دخول المسجد)) اهـ.

وقد حاول البعض أن يحوِّلوا المسجد إلى أداة تفريق وهدم في المجتمع ، معتقدين أن بإمكانهم إخفاء مشاريعهم السيئة خلف قداسة المسجد في الإسلام . وهذه محاولة يائسة لن تثمر إلا مزيداً من اليأس في نفوس أصحابها الهادفين إلى تقويض دعائم المجتمع الإيماني . وهنا تبرز حادثة مسجد الضرار ، والتي وضَّحها اللهُ تعالى في كتابه العزيز لكي يكون المؤمنون على حذر من ألاعيب المغرِضين الذين يُخفون مكرَهم خلف المقدَّسات ، ويستعملونها كستار لأعمالهم الخبيثة

قال الله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لِمن حارب اللهَ ورسولَه من قَبْل ﴾ [التوبة : ١٠٧] .

((سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب . وكان قد تنصَّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير . فلما قدم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أُحد فكان من أمر المسلمين ما كان . ... لما فرغ الناس من أُحد ورأى أمرَ الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبيﷺ فوعده ومنَّاه وأقام عنده . وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنِّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتيَ إليهم فيُصلِّيَ في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ... نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أُسِّس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة))[37] .

إن العلم _ بحد ذاته _ لا ينفع ما دام لم يرتبط بالعمل الصالح . والعِبرةُ لا تتجلى في العقل وإنما تتجلى في الهداية الربانية . فكم من عبقري أوردته عبقريته المهالك بسبب غياب التوفيق .

وأبو عامر الراهب كان رَجلاً ذا علم ، شريفاً في قومه ، لكنَّ علمه لم يرشده إلى الحق بسبب غياب الهداية . فلما ظهر أمرُ النبي ﷺكالشمس في رابعة النهار ، دَبَّ الحقد والغَيرة في نفس أبي عامر ، فأخذ على عاتقه محاربة الدعوة بكل ما أُوتيَ من قوة . فبدلاً من التسليم للأمر النبوي ، والانخراطِ في جماعة المسلمين ، وإنقاذ نفسه ، وتقديم مواهبه لخدمة الإسلام والمسلمين لكي يصبح عنصراً مهماً وفاعلاً في صناعة الحضارة الإنسانية ، اختار طريقَ الكفر وحرب الدعوة بكل الأشكال . وبالطبع فسوف يذهب إلى الحاضنة الاجتماعية للانحراف العَقَدي (مشركي قُريش)

---

(٣٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٠) .

لكي يحتضنوه ويُقدِّموا له كل مساعدة يحتاجها في سبيل تنفيذ مخططه البائس. فالطيورُ على أشكالها تقع . ثم ذهب إلى هرقل ملك الروم لتأليبه على الإسلام والمسلمين. ونحن نلاحظ أن أبا عامر كان لديه مخطط يشتمل على الجهات التي يتوجه إليها . إذ إنه يعلم مسبقاً عداوة مشركي قُريش والرُّوم للدعوة الإسلامية مما جعله يعتقد أنهم هم الوُجهة الصحيحة القادرة على حرب الدعوة الإسلامية، وتوفير كل مساعدة له لإنجاح خطته المتهاوية . وبعد أن استقر به المقام في معقل الكفر ، راح يتصل بأعوانه في الداخل يُشجِّعهم ويُمنِّيهم أنه سيُحارب النبيَّ ﷺ بجيش لا يُقهَر . ولا بد أن يكون له مركز قيادة ، فكان مسجدُ الضِّرار هو مركز قيادة العمليات . وهذا الاختيارُ لم يجيء عبثاً . فاختيارُ المسجد سوف يُبعد كل الشبهات عنهم ، فصورةُ المسجد في أذهان الناس أنه مكان للصلاة ونشر الخير . وبالتالي يستطيع أهلُ الضلال التحرك علانيةً أمام الأنظار دون أن يُثيروا الشبهاتِ أو الشكوك . وأرادوا أن يحصلوا على الشرعية ، فسألوا رسولَ الله ﷺ أن يُصلِّيَ فيه لكي تكون صلاتُه حُجَّةً لهم ، وشهادةَ حسن سيرة وسلوك . والنبيُّ ﷺ لا يعلم الغيبَ ، بل يُجري الأمورَ على الظاهر . لكنَّ الوحي أخبره بأنه هذا المسجد لم يُبْنَ لرفع كلمة الله تعالى ، بل لنشر الضلال . فهُدم المسجد لاستئصال هذا الباطل من جذوره ، وتجنيب المسلمين الانشقاق والتفرق ، وبالتالي حماية الدعوة من الانكسار أو السقوط .

وقد قال اللهُ _ عز وجل _ : ﴿ لا تَقُمْ فيه أبداً لمسجدٌ أُسِّس على التقوى من أوَّل يَوْم أحق أن تقوم فيه ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

إن أعداء الدين لا يتورعون أن يستخدموا الرموزَ الدينية المقدَّسة لتنفيذ مشروعاتهم الهدامة . فهم يختبئون وراء طهارة المقدَّسات لكي يحصلوا على الشرعية ، فيصبغوا بها باطلَهم وانحرافاتهم العقائدية . فهم يريدون هدم الإسلام من الداخل . أي محاربة الدعوة الإسلامية بنفس أسلحة الدعوة . وهذه الخطةُ الفاسدة منتشرة عبر العصور . فكثيرٌ من أهل الضلال يحاربون القرآن بالقرآن ، أي إنهم يسعون إلى لوي أعناق النصوص ، وتأويلها بشكل يتعارض مع دلالات اللغة ، وذلك للقضاء على قُدسية القرآن وتشكيك المؤمنين به . وتراهم يحاربون الإسلام بالإسلام ، فنجد أشخاصاً يحملون أسماءً إسلامية مثل عبد الله ، عبد الرحمن ، محمد ، ... . لكنهم يحملون عقائدية كفرية يطمحون إلى نشرها داخل الجماعة المسلمة ، وذلك للقضاء على الإسلام من الداخل _ كما يتخيلون _ . فهم يعتقدون أن هذا الأسلوب سيُبعد عنهم الشبهاتِ والشكوك والاتهامات، ويُصوِّرهم في زي العلماء الذين لديهم اجتهادات مُعتبَرة ، ويمارسون دورَهم

في التنوير وإعمال العقل وممارسة الاجتهاد، وينتمون للحضارة الإسلامية ، ويدينون بالولاء للكتاب والسُّنة. وهذا الأسلوبُ العقيم لم يعد خافياً على أحد . وإن حضاراتٍ عظمى عبر التاريخ حاولت استئصالَ الإسلام لكنها دَخلت في الإسلام ورَفعت لواءه وقامت بنشره مثل المغول والتتار _ على سبيل الذكر لا الحصر _. فالشريعةُ المحمَّدية الإسلامية موجودة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، ولو استطاع أهلُ الضلال أن يستأصلوها لقاموا بذلك منذ قرون . لكنَّ نورَ الله لا يمكن اجتثاثه .

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهِنَها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوَعِلُ

وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ ما كان للمشركين أن يَعْمروا مساجدَ الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ [التوبة : ١٧] .

فالمشركون سواءٌ كانوا وثنيين أو كتابيين لا يمكن أن يساهموا في إعمار مساجد الله تعالى ، لأن قلوبهم خالية من الإيمان والتصديق بوعد الله ووعيده . فدائرةُ عقائدهم الباطلة محصورة في نطاق دنيوي محصور لا يفيدهم يوم القيامة. فإعمارُ المساجد يعتمد على إيمان راسخ في القلوب ، وصدقٍ تطبيقي مرتبط بالجوارح ، وتضحية في سبيل الله تعالى ، وإخلاص النية بحيث تكون نقيةً لا شائبة رياء فيها . وقد قال الله تعالى : ﴿ إنما يَعْمر مساجدَ الله مَن آمن بالله واليومِ الآخر وأقام الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولم يَخْشَ إلا الله ﴾ [التوبة : ١٨] .

٥ _ الدعاء :

أ _ الحث على الدعاء :

الدعاءُ هو الاتصال المقدَّس بين المخلوق والخالق . إنه صدقُ التوجه إلى الخالق ، والاعترافُ الصريح بعجز العبد وحاجته إلى القوة الإلهية لكي تنتشله من مشكلاته المتكاثرة . فالدعاءُ تجسيد حي للعبودية في أبهى صورها ، وأجملِ لحظات خضوعها لله تعالى .

قال الله تعالى:﴿ وإذا سألكَ عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

فاللهُ تعالى قريبٌ من عباده بعلمه المحيط بكل شيء ، وإجابته التي لا تتخلف. يجيب دعاءهم إذا توجَّهوا إليه لأن الكريم لا يرد من يأتيه . وهذه الاستجابة تشير إلى الرحمة الإلهية المحيطة بالعباد ، والكرمِ الرباني الذي يغرق فيه الناسُ . وبالطبع فالقربُ الإلهي لا كقرب الأجسام ، لأن الله تعالى مُنَزَّه عن الحركة والحلول في الزمان والمكانِ .

قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن (٤/ ٥٤) : ((إن قيل : كيف جاء ﴿ وإذا سألكَ عبادي عني فإني قريب ﴾ ، وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن بقُلْ، نحو﴿ يسألونكَ عن الأهِلَّة قُل هِيَ مواقيت للناس والْحَج ﴾ ونظائره . قيل : حُذفت للإشارة إلى أن العبد في حالة الدعاء مستغن عن الواسطة ، وهو دليل على أنه أشرف المقامات ، فإن الله _ سبحانه _ لم يجعل بينه وبين الداعي واسطة . وفي غير حالة الدعاء تجيء الواسطة)) اهـ .

وفي هذا إشارة واضحة إلى مكانة الدعاء وشرفه السامي، فلا واسطة بين العبد الداعي والخالقِ الذي يستجيب الدعاء رحمةً بعباده . كما أن القُرب الإلهي يزيد الإنسانَ طمأنينة ، ويجعله ذا ثقة بخالقه لا تهتز . فاللهُ تعالى سميع قريب لا تختلط عليه الأصوات ، ولا يعجز عن الإجابة ، يعلم دبيبَ النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء . فإذا استشعر المؤمنُ القربَ الإلهي فإن حياته سوف تتغير إلى الأفضل ، ويزداد قوةً في مواجهة الأزمات ، ولا تنكسر رايتُه مهما اجتمع عليه الخصوم ، أو حاصرته الكوارث من كل الجهات .

فعن أبي موسى الأشعري _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم))[38] .

فعلى المؤمن أن يخفض صوتَه لأن الله تعالى ليس بعيداً ولا أصم ، فهو السميعُ البصير . فالمرءُ إذا نادى على إنسان بعيد فإنه يرفع صوتَه لكي يُسمعه بسبب قصور الأعضاء البشرية ونقصها . أما اللهُ تعالى الْمُنَزَّه عن الجوارح فلا يُعجزه شيء ، ولا تختلط عليه الأصوات .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٦): ((معناه : ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم ، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه ، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولاغائب ، بل هو سميع قريب ، وهو معكم بالعلم والإحاطة . ففيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه ، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه ، فإن دعت حاجة إلى الرفع رُفع)) اهـ .

فينبغي استشعار مَعِيَّة الله تعالى وقربه المعنوي لا الحسي ، والدعاء بقلب مخلص واثق بأن الله يستجيب ، لأنه كريم لا يرد من يسأله ، ولا يطرد من يأتيه صادقاً . ومهما ارتكب الإنسان من ذنوب عليه أن يحافظ على طريق العودة إلى خالقه تعالى ، فلا مهرب من الله إلا إليه . فلا يقول

(٣٨)متفق عليه . البخاري(٤/ ١٥٤١) برقم (٣٩٦٨) ، ومسلم (٤/ ٢٠٧٦) برقم (٢٧٠٤).

قائل إني ارتكبتُ ذنوباً جسيمة ولن يغفرها الله لي. فالغفرانُ الإلهي غير محدود بالصغائر أو الكبائر. فالطاعةُ لا تنفع اللهَ تعالى ،كما أن المعصية لا تضره . وبالتالي ينبغي التمسك بالدعاء كمنهج ثابت لا محيد عنه سواءٌ كان العبدُ طائعاً أم عاصياً . إذ إن صدق التوجه إلى الخالق تعالى يعمل على تثبيت الإنسان على الصراط المستقيم بعد انتشاله من مستنقع الأخطاء والخطايا .

وسعةُ الرحمة الإلهية لا تعني أن يسرف الإنسانُ في المعاصي ، أو يستهين بالذنوب والآثام ، فعلى المرء أن يتذكر عظمة الخالق تعالى لا حجم المعصية أو أثرها . وإذا وقع الإنسانُ في الإثم فإن باب التوبة مفتوح، ولا يوجد عاقلٌ يقنط من رحمة الله تعالى. وكما قال البوصيري :

يا نَفْسُ لا تقنطي من زَلَّةٍ عَظُمَتْ   إن الكبائر في الغُفران كاللممِ

وعن سلمان الفارسي ــ رضي الله عنه ــ عن النبيﷺ قال : ((إن ربكم حَيِيٌّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً))[39] .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة رحمة الله تعالى الذي كرَّم الإنسانَ ورفع من شأنه ، وجعله عزيزاً ذا مكانة سامية وحُرمة عظيمة . فاللهُ تعالى لم يرد أن يقفل الأبوابَ في وجه العبد ، أو يضيِّق عليه ، أو يحشره في الزاوية الضيقة . فقد فتح له بابَ التوبة والإنابة ، واستجاب دعاءه دون أن يرده صفر اليدين .

وعن أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ : أن النبيﷺ قال : ((ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث : إما أن يستجيب له دعوته ، أو يصرف عنه من السوء مثلها ، أو يدخر له من الأجر مثلها))[40] .

يتضح لنا من خلال سياق الحديث أن دعوة المسلم لا تُرَد ، لكنها تتخذ أشكالاً متعددة ، فإما أن تُستجاب فوراً، أو يُدفع عنه من السوء والمصائب بقَدْر الدعوة ، أو تتحول إلى أجر في الآخرة. فعلى المسلم أن يطمئن في هذا السياق ، ويثق أن الله تعالى اختار له الأفضل في دنياه وآخرته ، فالإنسانُ عجول ذو علم محدود قد يطلب شيئاً فيه هلاكه وهو لا يدري . فلا ينبغي له

---

(٣٩) رواه ابن حِبَّان في صحيحه(٣/ ١٦٠)برقم (٨٧٦)،والحاكم(١/ ٦٧٥)برقم (١٨٣٢)وصحَّحه، والترمذي(٥/ ٥٥٦)برقم(٣٥٥٦) وحسَّنه. وقال الحافظ في الفتح (١١/ ١٤٣) : ((وسنده جيِّد)).

(٤٠) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠) برقم (١٨١٦) وصحَّحه .

أن يتذمر من الدعاء أو يمل بحجة أن دعوته لم تحقق على أرض الواقع. فهذا السلوكُ يتنافى مع آداب الدعاء، كما يتعارض مع ثقة العبد بربِّه تعالى . فوعدُ الله تعالى باستجابة الدعاء ثابت لا يتخلف ، وعلى العبد أن يسلك طريقَ إجابة الدعاء عبر تنقية قلبه وجسده ومحيطه من كل المحرَّمات ، فيكون مطعمُه وملبسه حلالاً. ((ومن جملة آداب الدعاء تحري الأوقات الفاضلة كالسجود وعند الأذان، ومنها تقديم الوضوء ، والصلاة ، واستقبال القِبلة ، ورفع اليدين ، وتقديم التوبة ، والاعتراف بالذنب ، والإخلاص ، وافتتاحه بالحمد والثناء ، والصلاة على النبي ﷺ ، والسؤال بالأسماء الحسنى))[41] .

وعلى المؤمن أن يتحلى بالصبر ، ويتحلى بالأدب بعد انقضاء الدعاء . فلا يستعجل الإجابةَ ، ويبدأ في عد الأيام والشهور منتظراً تحققها ، ثم يقول لم تحصل الإجابة .

فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوتُ فلم يُستجب لي))[42] .

وهنا إشارةٌ دقيقة إلى ضرورة الصبر قبل الدعاء وأثناءه وبعده ، وأهميةِ الإلحاح في الدعاء وعدم القنوط أو الملل . فاللهُ تعالى اختار الاستجابةَ لعباده في الوقت الذي يريده لا الذي يريدونه ، وبالشكل الذي اختاره تعالى لا بالشكل الذي يرغبه العباد . وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ، فهو خالقهم ، ويعلم ما يصلحهم وما يفسدهم .

قال الله تعالى : ﴿ قُل ادعوا اللهَ أو ادعوا الرحمنَ أيَّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ [الإسراء: ١١٠] .

والآيةُ تشير بوضوح إلى أهمية الدعاء ، وإلى عظمة الاسمَيْن المقدَّسَيْن : الله والرحمن ، الذين هما أعظم الأسماء الحسنى . وأسماءُ الله تعالى حين يتدبرها المرءُ ويخضع لها ، فإن انقلاباً حقيقياً يحصل في حياته ، فيغدو التعب الحياتي راحةً نفسية ومادية ، وتتحول الآلام إلى صبر وتحمل ، ويذوب التعلق بالدنيا ليحل مكانه التعلق بالآخرة .

ففي صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٢): عن ابن عمر _ رضي الله عنهما_ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن أحب أسمائكم إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن)) .

---

(٤١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٤١) .

(٤٢) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٣٣٥) برقم (٥٩٨١)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٥) برقم (٢٧٣٥).

إن هـذَيْن الاسـمَيْن المميَّـزَيْن (عبـد الله وعبـد الرحمن) يشيران إلى عظمـة الخـالق سـبحانه وتفرده بصفات الجمال والكمال والجلال ، فلم يُعرَف عبر التاريخ أن مخلوقاً اسمه الله أو الرحمن ، وهذا مؤشر على عَظَمة هذَيْن الاسمَيْن ، وأن إضافة العبودية لكل منهما هي إضافة خالصة .

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٧١) : ((قال بعض شراح المشارق : لله الأسماء الحسنى وفيها أصول وفروع ، أي من حيث الاشتقاق . قال : وللأصول أصول ، أي من حيث المعنى ، فأصول الأصول اسمان الله والرحمن، لأن كلاً منهما مشتمل على الأسماء كلها ...ولذلك لم يتسم بهما أحد. وما ورد من رحمن اليمامة غير وارد لأنه مضاف... وقد لُقِّب غير واحد الملك الرحيم ، ولم يقع مثل ذلك في الرحمن . وإذا تقرر ذلك كانت إضافة العبودية إلى كل منهما حقيقية محضة ، فظهر وجه الأحبية ، والله أعلم)) اهـ .

فأسـماءُ الله الحسـنى مشـهورة ومعروفـة بـين النـاس . وهـي أكثـر مـن تسـعة وتسـعين . وعلـى الإنسان أن يدعوا بأيها شاء مع تقديم الاسمَيْن : الله والرحمن ، لأن لهما مكانة خاصة .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة))[43] .

إن عدد أسماء الله تعالى لا يَعلمها إلا الله وَحْدَه . ومعنى الحديث أن من أحصى هذه الأسماء التسـعة والتسـعين دَخـل الجنـةَ، ولـيس معنـاه حصـر هـذه الأسـماء بعـدد معيَّـن . وبـالطبع يكـون إحصاؤها بمعرفتها ، وفهم معانيها ، وتعظيمها .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٥) : ((واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيـه حصـر لأسـمائه ــ سـبحانه وتعـالى ــفلـيس معنـاه أنـه لـيس لـه أسـماء غيـر هـذه التسـعة والتسعين، وإنمـا مقصـود الحـديث أن هـذه التسـعة والتسـعين مـن أحصـاها دخـل الجنـة ، فـالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء)) اهـ .

وروى ابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣) أن النبي ﷺ قال : ((أسألكَ بكل اسم هو لَكَ ، سَمَّيْتَ به نفسكَ ، أو أنزلته في كتابكَ ، أو عَلَّمته أحداً من خَلْقك ، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك)) .

---

(٤٣) متفق عليه. البخاري (٢/ ٩٨١) برقم (٢٥٨٥) ، ومسلم (٤/ ٢٠٦٢) برقم (٢٦٧٧).

هذا الحديثُ دليل واضح على أن لله تعالى أسماء سَمَّى بها ذاته العَلِيَّة ، أو أنزلها في كتابه الكريم ، أو عَلَّمها لأحد المخلوقات، أو أخفاها عن الخلائق واستأثر بها في عِلم الغيب ، فلا يَعْلمها إلا هُوَ _ سبحانه وتعالى _ . مما يدل على أن أسماء الله تعالى لا يمكن لمخلوق أن يَحْصرها في عدد معيَّن، لذلك لا أحد يَعرف أسماءَ الله إلا الله تعالى . ولا أحد يَعرف اللهَ إلا الله .

ب_ كيفية الدعاء :

إن الدعاء يأخذ عدة أوضاع تبعاً للظروف المحيطة والهدف من ورائه . لكن كيفية الدعاء تدل على درجة أدب المسلم ، ومدى التزامه بالأوامر الشرعية . فالدعاءُ يكشف مستوى فقه الداعي ، وبعد نظره ، وعلمه الشرعي .

قال الله تعالى : ﴿ ادعوا ربَّكم تضرعاً وخُفْية ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

أي ادعوا الله تعالى ربَّكم وخالقكم بقلوب منكسرة خاشعة ، وبكل تذلل واستكانة وخضوع، في خفية واستتار (بشكل سري) . ((والدعاء الأفضل فيه الإسرار لأنه أقرب إلى الإجابة))[44].

فينبغي على المؤمن الحرص على الدعاء بخشوع وتذلل في الأوقات الفضلى ، وأن يتحلى بالصبر والمواظبة والإلحاح . فإن خزائن الله لا تنفد ، ولا يَعجز _ سبحانه _ عن إعطاء كل سائل مسألته . فالدعاءُ هو العبادة المقدَّسة التي تديم الاتصال بين المخلوق والخالق .

ففي الحديث القدسي الذي رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤) أن الله تعالى قال : ((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر)) .

والإنسانُ يغضب حينما يُطلَب منه شيء ، لكن الله تعالى يأمر عباده بأن يدعوه ، ويطلبوا منه تحقيق حوائجهم ، فكلُّ شيء مُلْكٌ له فقيرٌ إليه ، وهو الغني عن كل شيء . وهو _ سبحانه _ يُنفق منذ بدء الخليقة ليلاً نهاراً فلم يُصَب بالإعياء ، ولم يأمر عباده بالكف عن مسألته . فصاحبُ الخزائن التي لا تنفد هو الإلهُ الحق الْمُنَزَّه عن الفقر والحاجة .

---

(٤٤) فيض القدير للمناوي (١/ ٤٥٧) .

رابعاً : الزكاة والصدقات

إن المنهج الاقتصادي الإسلامي عالج قضايا المجتمع بصورة واقعية بعيدة عن المثالية النظرية الجوفاء . فقد وضع أنظمةً تطبيقية فعالة لتجذير العدالة الاجتماعية عبر محاربة الشطط الطبقي واحتكارِ الثروة من قبل فئة محدودة .

فعبر تشريع الزكاة نقل الإسلامُ المجتمعَ من الحقد إلى الأخوة ، ومن الظلم إلى العدل . فالزكاةُ تعني مساعدة الأغنياء لإخوانهم الفقراء ، الأمر الذي ينزع الحسدَ والغل من صدور الفقراء تجاه مجتمعهم وأغنيائه ، ويعمل على تقوية الروابط المجتمعية وتثبيتها كوحدة جَمْعية متماسكة ، ويتيح فرصةً كبيرة لتداول المال بين أبناء المجتمع الواحد دون تركز الثروة في أيدي أناس معدودين .

كما أن المنهج الاقتصادي الإسلامي أسَّس لمبدأ الصدقة ، حيث يساعد الأغنياءُ الفقراءَ بما يرونه مناسباً في أي وقت شاؤوا ، إيماناً بالشريعة الإلهية ، والأجرِ الأخروي يوم القيامة ، ومساعدةً للطبقات المتدنية في المجتمع .

قال الله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء[45] والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابنِ السبيل فريضةً من الله واللهُ عليم حكيم ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وهذه القِسمةُ تجسيد للعدالة الربانية ، فهي قِسمةٌ إلهية ، ولم تنبع من اجتهاد النبي ﷺ . فاللهُ تعالى هو الذي حَكَم فيها وتولاها بنفسه . لذلك لا يمكن الاعتراض عليها . وكما قال الشاعر :

فاقْنَع بما قَسَمَ الْمَليكُ فإنما   قَسَمَ الخلائِقَ بَيْننا عَلَّامُها

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٧٩) : ((لما ذَكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبيﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات ، بيَّن تعالى أنه هو الذي قسمها وبيَّن حكمها وتولى أمرها بنفسه ، ولم يَكِل قسمها إلى أحد غيره فجزَّأها لهؤلاء المذكورين)) اهـ .

وقد بيَّنت الآيةُ الكريمة مصارف الزكاة (الأصناف المستحقة لها) وهي ثمانية أصناف :

---

(٤٥) قال السيد سابق في فقه السنة (١/ ٣٦٢) : ((اللام للمُلك ، أو الاستحقاق ، أو بتقدير مفروضة ، كما يدل عليه آخر الآية وهو ﴿ فريضة من الله ﴾)) .

١ _ ٢ _ الفقراء والمساكين : ((وهم المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم ، ويقابلهم الأغنياء المكفيون ما يحتاجون إليه))[46]. فهؤلاء المحتاجون في أمس الحاجة إلى المساعدة المالية من قبل إخوانهم الأغنياء . فتأتي الزكاةُ لردم أي ثغرة في المجتمع من أجل تحويل الأفراد إلى عناصر إيجابية بناءة لا هدامة ، تملك كفايتها ولا تمد الأيدي إلى الناس، أو تلجأ إلى وسائل الكسب الحرام . فعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنهما _ : عن النبي ﷺ قال : ((لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة قوي))[47] .

إن منهج الصدقات قائم على مساعدة الفقراء والضعفاء ، والطبقاتِ المتدنية . أمَّا الأغنياء والأقوياء فهُم قادرون على الكسب ، ولا يَحتاجون إلى مساعدة الآخرين . لذا لا حَظ لهم في الزكاة التي شُرعت لتقوية الضعفاء وإخراجهم من ذُل الحاجة ، ومساعدةِ الفقراء وجعلهم أغنياء لا يَنتظرون أحداً يمد لهم يَدَ العون. وعن عبيد الله بن عدي حدَّثه أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة ، فقلَّب فيهما البصر ، ورآهما جَلْدَيْن ، فقال : ((إن شئتما أعطيتكما ، ولا حظ فيها لغني ، ولا لقوي مكتسب))[48] .

وهكذا نجد أن الأغنياء والأقوياء القادرين على العمل والكسب لا يجوز إعطاؤهم شيئاً من الزكاة ، لأنهم قادرون على توفير مصادر دخل كريمة لأنفسهم وأُسرهم ، فهم لا يحتاجون إلى مساعدة مالية من أي نوع .

والمساكين هم صنفٌ مخصوص من المحتاجين ، لذلك جعلتهم الآيةُ صنفاً مستقلاً بذاته ، لتمييزهم عن الفقراء . فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن به فيُتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس))[49] .

---

(٤٦) المرجع السابق .

(٤٧) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٥) برقم (١٤٧٨) وصحَّحه . وحسَّنه الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٠٨) .

(٤٨) رواه أحمد (٤/ ٢٢٤) برقم (١٨٠٠١) ، وأبو داود (١/ ٥١٣) برقم (١٦٣٣) ، والنسائي (٥/ ٩٩) برقم (٢٥٩٨) . وقوَّى إسنادَه ابنُ كثير في تفسيره (٢/ ٤٧٩) .

(٤٩) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٥٣٨)برقم (١٤٠٩).ومسلم(٢/ ٧١٩) برقم (١٠٣٩).

والمسكينُ له وضعيةٌ خاصة ، فهو مخفيٌّ عن الأنظار ، لا يُظهِر الحاجة والسؤال . فهو لا يجد غنىً يُغنيه فيسد حاجته ويخرجه من دائرة العوز ، ولا ينتبه الناسُ إليه فيتصدقون عليه لأن وضعه مستتر لا تُدرَك حقيقته إلا للقريبين منه المطلعين على أسراره . وهو _كذلك_ لا يمد يدَه للآخرين بسبب عزة نفسه ، وتعففه ، فلا يَقبل أن يسأل الناسَ ويطلب منهم المالَ .

٣_ العاملون عليها : وهم الذين يعملون على جمع الزكاة من الأغنياء وحفظها والقيام بشؤونها . وقد ((اتفق العلماء على أن العاملين عليها السعاة المتولون لقبض الصدقة))[50] . ((ويجب أن يكونوا من المسلمين، وأن لا يكونوا ممن تحرم عليهم الصدقة، من آل رسول الله ﷺ ، وهم : بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب))[51] .

ففي صحيح مسلم (٢/ ٧٥٦) : أن النبي ﷺ قال : ((إن الصدقة لاتنبغي لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس)) .

والصدقةُ هي تنقيةٌ لأموال الناس ، وتنظيفٌ لذواتهم ، وكأنها غَسْلٌ لأوساخ الناس ، وجَبْرٌ لتقصيرهم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٧٩) : ((ومعنى أوساخ الناس : أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم ... هي كغسالة الأوساخ)) اهـ .

لذلك فأخذ الصدقة منزلة ضعيفة ومتدنية تمس الكرامةَ الإنسانية ، والأنبياءُ أصحاب المكانة السامية أرفع من أن يمدوا أيديهم لمن هم دونهم . واللهُ تعالى أَغنى الأنبياءَ من فضله العميم ، وجعلهم لا يمدون أيديهم إلا إليه سبحانه ، ومَن كان اللهُ سَيِّدَه ، لا يَبحث عن مساعدة سَيِّد آخر.

وفي فتح الباري (٥/ ٢٠٤) : ((قال ابن بطال : إنما كان النبي ﷺ لا يأكل الصدقة ، لأنها أوساخ الناس . ولأن أخذ الصدقة منزلة ضعة ، والأنبياءُ مُنَزَّهون عن ذلك ، لأنه ﷺ كان كما وصفه الله تعالى :﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الضحى : ٨] . والصدقة لا تحل للأغنياء ، وهذا بخلاف الهدية ، فإن العادة جارية بالإثابة عليها)) اهـ .

٤_ المؤلَّفة قلوبهم : من التأليف (التجميع) . وهم جماعة من الناس يُهدف إلى تأليف قلوبهم واستمالتهم . وهم أصناف. فمنهم من يُعطَى ليُسلم . فالأموال التي تُعطَى لهم تهدف إلى إبراز وجه الإسلام المشرق الذي يحتوي أبناءه ويغنيهم من فضل الله تعالى ، ولا يتركهم فقراء

---

(٥٠) نقله الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٣٦٥و٣٦٦) عن ابن بطال .

(٥١) فقه السنة للسيد سابق (١/ ٣٦٥) .

معوزين . كما أن البعض قد يفقد أموالَه في حال اعتناقه للإسلام . فالأسرة أو القبيلة قد تمارس ضغطاً هائلاً على الفرد الذي يريد اعتناقَ الإسلام ، فيُصادِرون أمواله وممتلكاته لكي يردوه عن الإيمان . لذلك يُعطَى من المال لكي ينفتح قلبُه على الإيمان دون وجود عوائق مادية ، أو حواجز نفسية ، أو إشكاليات من أي نوع تؤثر سلباً على مسار الدعوة .

ففي صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٦): عن ابن شهاب قال : ((غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح ، فتح مكة . ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين ، فاقتتلوا _ أي مع الكفار _ بحُنَيْن ، فنصر اللهُ دينه والمسلمين ، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة)) . وعن سعيد بن المسيب أن صفوان قال : ((والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلَيَّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلَيَّ)) .

فالإسلامُ يُقدِّم حوافز للآخرين ، ولا يتركهم ضحيةً لهواجسهم ومخاوفهم . فإعطاءُ المال لصفوان بن أمية أظهر محاسنَ الإسلام ، وفتح قلبَه لمحبة النبي ﷺ ، لأن النفوس مجبولة على حب مَن أحسن إليها . فليست هذه رشوةً لتغيير عقائد الناس ، أو شراء ولائهم ، أو خداعهم . وليست _ كذلك _ وصفةً تجميلية للدِّين . فالإسلامُ جميلٌ لا يحتاج إلى وصفات ولا يحتاج إلى الآخرين ، فهم الذين يحتاجونه لكي ينالوا الخلاصَ الأبدي .

لكنَّ منح المال يُدخِل الطمأنينة والأمان إلى النفس البشرية المجبولة على حب المال ، وهذا يؤدي إلى انشراح الصدر لسماع الحق واعتناقه دون الانشغال بالأمور المادية ، أو حصر التفكير بطرق جمع المال لتأمين المستقبل وتوفير الحماية من المجهول ، كما يفعل الكثيرون . فالمرءُ حينما يتحرر من ضغط الاحتياجات المعيشية فإنه يتفرغ للتفكير بمعالم الحق واعتناقه .

ومنهم من يُعطَى ليحسن إسلامُه ويثبت على الحق : فهؤلاء يُعْطَوْن ليزدادوا طمأنينة وثباتاً على الإسلام ، ويبتعدوا عن التأثيرات السلبية للمال ، ويركِّزوا في تدعيم أركان إيمانهم دون تأثيرات مادية ضاغطة على عقائدهم قد تؤدي إلى إعادتهم إلى الكفر بفعل الضغوط الاقتصادية ، لأن الفقر والكفر وجهان لعملة واحدة .

فعن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه_ قال: ((بعث علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه _

إلى رسول الله ﷺ من اليمن بِذُهَيْبَة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها ، فقسمها بين أربعة نفر بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس ، وزيد الخيل ، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل))[52].

((ومنهم مَن يُعطَى لما يُرجَى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يُعطَى ليجبيَ الصدقاتِ ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضررَ من أطراف البلاد . ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع ، والله أعلم))[53] .

٥_ الرِّقاب: وهُم الْمُكَاتَبون يُعْطَوْن من الزكاة لفك رقابهم من الرِّق فيتخلصون من العبودية، ويصبحون أحراراً . ولا يخفى أن المنهج الإسلامي واضح ومتماسك في إعتاق الرقاب، والحث عليه ، ونقلِ الناس من الرق إلى الحرية ، لكنه منهج تدريجي عبر مراحل منطقية لضمان عدم حدوث خلل في المجتمع ، أو فوضى عارمة لا يمكن إصلاحها . فهؤلاء الأرقاء السابقون بحاجة إلى وقت كي يدخلوا في السياق الفكري الحياتي للمجتمع، إذ إنهم ينتقلون من وضع نفسي واجتماعي إلى وضع آخر ذي طبيعة مختلفة ،كما أن المجتمع بحاجة إلى وقت كي يستوعبهم ، ويضعهم في مكانتهم اللائقة ، ويقود الأفرادَ للتعامل معهم بأسلوب صحيح . ومن هنا نفهم منهجية التدرج في تعامل الإسلام مع مسألة الرق . إذ إن إقحام الرق في الحرية مباشرةً دون مقدمات من شأنه تفتيت الأواصر الاجتماعية ، وإحداث اضطراب هائل في المجتمع الذي سيعجز عن استيعابهم وإعطائهم أدواراً اجتماعية لتحريك عجلة المجتمع ، وصناعة التقدم ، والقيام بعملية الإعمار والتعمير . مما يؤدي إلى انتكاسة كبرى في النسق الحضاري، وتراجع مرعب في التنمية، وانكسار حلم المشروعات الضخمة، لأنه _ عندئذ _سيكون جزءاً كبيراً من المجتمع مشلولاً وعبئاً على الآخرين، وهذا الوضعي غير الصحي سيعود بالضرر الشامل على الفرد والجماعة . فليست القضيةُ مسألة شعارات ولافتات تحرر وتحرير وجعجعة بلا طحن . إنه قضية أمن قومي لها تماس مباشر مع كل تفاصيل المجتمع ومفاصل الدولة . وبالطبع فإن كل عملية

---

(٥٢) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٥٨١) برقم (٤٠٩٤)، ومسلم (٢/ ٧٤١) برقم (١٠٦٤). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٦٢) : ((قال العلماء: ذكر عامر هنا غلط ظاهر ، لأنه توفي قبل هذا بسنين ، والصواب الجزم بأنه علقمة بن علاثة)) اهـ . قلتُ : أما قوله " بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها " فيعني : ذهبٌ مدبوغ بالقرظ (نوع من الشجر) لم تخلص من تراب المعدن .

(٥٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٩) .

إصلاح بحاجة إلى وقت للتخطيط ورسم السياسات وتطبيقها على أرض الواقع ، وليست فعلاً ارتجالياً أو خُطبةً عصماء ثم ينتهي الأمر .

وعن البراء بن عازب ـــ رضي الله عنه ـــ قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، علِّمْني عملاً يُدخلني الجنة . فقال : ((أعْتِق النَّسَمةَ وفُكَّ الرَّقبةَ)) ، فقال : يا رسول الله ، أوَ لَيْستا بواحدة ؟، قال:((لا، إن عِتْقَ النَّسَمة أن تفرَّد بعِتقها، وفَكَّ الرَّقبة أن تُعين في عِتقها))[54].

فهذا التوجه النبوي لنشر عبادة عِتق الرِّقاب في المجتمع ، وتوجيه انتباه الناس إلى هذه القضية الحساسة التي كانت مهملةً قبل الإسلام، يدل على المنهج الإسلامي في تخليص الناس من ذل الرِّق، وجعلهم أحراراً متساوين في الكرامة الإنسانية ، وعلى قَدم المساواة مع الآخرين دون شعور بالدونية أو اللاجدوى . فالعبيدُ والجواري في المجتمع الجاهلي كانوا جزءاً من الأثاث لا يُعبأ بهم ، فيُعامَلون كالدواب أو أقل . فلمَّا جاء الإسلامُ رفع من مكانتهم وسَلَّط الضوء على معاناتهم ، ووضع تشريعات لتخليصهم من أوضاعهم البائسة. وإننا لنجد آياتٍ قرآنية عديدة تتحدث عنهم، وهذا الشرفُ ما كانوا ليحصلوا عليه لولا الإسلام .

٦ـ الغارمون : وهم الأشخاص الخاضعين لدَيْن لا يقدرون على سداده. فهؤلاء يُعْطَوْن من الزكاة لسداد ديونهم ، وتفريجِ كرباتهم ، وقضاءِ حاجاتهم . فالشخصُ الخاضع للدَّيْن تجده محاصَراً وواقعاً تحت الضغط ، فتأتي الزكاة لتعيده إلى الوضع الطبيعي المتحرر من ثقل الحياة الاجتماعية بكل أبعادها النفسية والمادية .

ففي صحيح مسلم (٢/ ٧٢٢) : عن قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملتُ حمالةً فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال : ((أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها)) .

فهذا الرَّجلُ الذي عليه دَيْنٌ أدرك أن الشريعةَ الإسلامية لن تتركه يغرق ، ولن تُغلق الأبوابَ في وجهه . فجاء إلى النبي ﷺ طالباً العَوْن ، فقرَّر النبي ﷺ إعطاءه من الزكاة حينما تأتيه . وهذا تجسيدٌ فعلي لا شعاراتي للتكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم الذي يحضن أبناءه ولا يُميِّز بينهم . فالمسلمُ يعلم أن له دولةً تؤويه وتدافع عنه ، وإذا وقع فإنها ستُقيل عثرته ، وتنتشله من مأزقه . مما يبعث الطمأنينة في نفوس الرَّعية ، ويزيد من انتمائهم لمجتمعهم الإيماني ، ويُقوِّي

---

(٥٤) رواه أحمد (٤/ ٢٩٩) برقم (١٨٦٧٠)،وابن حِبَّان في صحيحه(٢/ ٩٧) برقم(٣٧٤)،والحاكم في مستدركه(٢/ ٢٣٦)برقم(٢٨٦١) وصحَّحه،ووافقه الذهبي. وصحَّحه الحافظ في الفتح (٥/ ١٤٦).

الروابط بين الحاكم والمحكوم، وبين المحكوم والتعاليم الشرعية . فالمجتمعُ الإيماني الحامل للفكرة الإسلامية نظريةً وتطبيقاً لا يمكن أن يكون طارداً لأبنائه ، أو عبئاً عليهم ، أو يُضيِّق عليهم في طرق معيشتهم ، فهذا المجتمعُ المحكوم بالشَّريعة ينطلق من مبدأ تحقيق مصالح الناس وحماية مكتسباتهم ، وتخفيف الضغوط الحياتية عن كاهلهم ، وهذا ليس بمستغرب إذا علمنا أن الشريعة جاءت لرفع الحرج ، وأن الأمر كلما ضاق اتَّسع .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٣٣) : ((قوله (تحملتُ حَمالةً) ... وهي المال الذي يتحمله الانسان ، أي يستدينه ، ويدفعه في إصلاح ذات البين ، كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذلك . وإنما تحل له المسألة ويُعطَى من الزكاة بشرط أن يستدين لغير معصية)) .

٧_ في سبيل الله : والمقصود به هو الغزو . فهؤلاء المجاهِدون يمارسون دوراً محورياً في الدفاع عن الإسلام ، والذَّوْد عن حِياض الأمة . إنهم يضعون أرواحهم على أيديهم ، ويُضحُّون بأوقات راحتهم وسعادتهم في أحضان نسائهم وأبنائهم من أجل رفع كلمة الله تعالى . وهم يعلمون أن ذهابهم قد يكون بلا عَوْدة . ومع هذا فهم يواصلون عملَهم دون تردد أو إجبار من أحد ، لأنهم ينطلقون من قناعاتهم الداخلية المستمدة من قوة الإيمان ، ورباطةِ الجأش ، وشرفِ الجهاد.

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٦٦) : ((وهم الغزاة وموضع الرباط ، يُعْطَوْن ما ينفقون في غزوهم ، كانوا أغنياء أو فقراء ، وهذا قول أكثر العلماء)) .

وعن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : لغازٍ في سبيل الله ، أو لعاملٍ عليها ، أو لغارمٍ ، أو لرَجلٍ كان له جار مسكين فتصدَّق على المسكين فأهدى المسكينُ الغني))[55] .

والمجاهِدون يُعْطَوْن من الزكاة للإنفاق على متطلبات الجهاد الذي يتكلف أموالاً كثيرة، وذلك للدفاع عن الإسلام وأهله وأراضيه . ومن أجل قهر الأعداء وتحجيمهم ، وردهم خاسرين يجرون أذيال الهزيمة ، ويرفعون رايةَ الاستسلام .

---

(٥٥) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٦) برقم (١٤٨٠) وصححه ، وأبو داود (١/ ٥١٤) برقم (١٦٣٥) ، وابن ماجة (١/ ٥٩٠) برقم (١٨٤١) . قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١١١) : ((وصحَّحه جماعة)) .

٨_ ابن السبيل : وهو المسافر الذي انقطع عن أهله ، وانقطعت به السُّبل . فيتم إعطاؤه من مال الزكاة لكي يتجاوز عثرته ، ويتخلص من غربته . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٨١) : ((وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته ، فيُعطَى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة فيُعطَى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ، ويدخل في ذلك الضيف)) .

فنجد أن الأصناف الثمانية (مصارف الزكاة) التي تم تحديدها في القرآن الكريم لم تجيء عبثاً أو مصادفة . بل هي من علم الله تعالى المحيط بكل شيء ، فاللهُ الذي خلق الإنسانَ ، يعرف ما يصلحه وما يفسده . كما أن القرآنَ الكريم يجذِّر القناعةَ في النفوس بأن كل كلمة إلهية لها معنى دقيق ، ودلالة محددة ، وتؤسس لمجتمع الخير المنشود على أرض الواقع . فليس القرآن شعاراتٍ خيالية حول مكافحة الفقر ، وإنشاءِ مجتمع العدالة . بل هو منهاج متكامل قابل للتطبيق على أرض الواقع لسعادة الإنسان في الدارَيْن . والمنهجية الاقتصادية متكاملة في القرآن الكريم ، وهي ترمي إلى اجتثاث الفقر من جذوره ، وتأسيس العدالة الاجتماعية ، ومجتمع الأخوة البشرية الحقيقي بعيداً عن الطبقية المرَضية، والشططِ الطبقي المخزي الذي ينذر بتفكيك المجتمع إلى كيانات متناحرة. قال الله تعالى : ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

لن تنالوا أيها المؤمنون الخير والعطاء الجزيل من الله تعالى والجنة حتى تنفقوا من الأشياء التي تحبونها ، والتي هي قريبة من قلوبكم وعقولكم . فالتخلي عن الأشياء التي يعشقها القلبُ هو قمة الصدق والتضحية .

وعن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب . قال أنس : فلما أُنزلت هذه الآية: ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون ﴾ . قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن الله _ تبارك وتعالى _ يقول :﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون ﴾ . وإن أحب أموالي إلي بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو بِرَّها وذخرها عند الله، فضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ:((بَخٍ _ كلمة تقال عند الرضا _ ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح. وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين)).فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله.فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه[56] .

(٥٦) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٥٣٠) برقم(١٣٩٢).ومسلم (٢/ ٦٩٣) برقم (٩٩٨).

إن أبا طلحة _ رضي الله عنه _ لم تشغله أمواله عن طاعة الله تعالى ، ومضاعفة عبادته . وقد كان رضا الله تعالى مسيطراً على قلبه وعقله . والآيةُ الكريمة : ﴿ لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تحبُّون ﴾ فيها دلالة واضحة على أن مرتبة البِر لا يمكن الحصول عليها إلا بالإنفاق من الأشياء المحبَّبة للنَّفْس . وهذا هو أعلى درجات البذل والعطاء والتضحية . فمن السهل أن يُقدِّم الإنسانُ شيئاً يَكرهه فيتخلص منه ، ويرتاح من رؤيته . أمَّا المحك الحقيقي فهو تقديم ما يحبه الإنسانُ رخيصاً في سبيل الله تعالى . وفي هذا الأمر قهرٌ للنَّفْس العاشقة للامتلاك والسيطرة من أجل نيل الرضا الإلهي . وهذا ما فعله أبو طلحة الذي قَدَّم بُستانه الأثير صدقةً لله تعالى . وقد وجَّهه النبيُّ ﷺ إلى وضعها في الأقربين ، وذلك تطييباً لنفوسهم ، وتعميقاً للتكافل الاجتماعي ، والتماسك العائلي ، فلا يصبح في القلوب مكانٌ للحسد أو الغَيرة أو الحقد. وهذا يساهم في تقوية الروابط الاجتماعية، ونشر قيم الحق والتضحية التي تُعتبَر من أُسس المجتمع الفاضل .

وهكذا كان الصحابةُ _ رضي الله عنهم _ هم الجيل الذهبي الذين فهموا النصوصَ الشرعية ، وقاموا بتطبيقها على أرض الواقع دون تأخير أو تكاسل . فالتطبيق العملي للإنفاق من الممتلكات المحببة للنفس خضوعاً للآية القرآنية قد تم واقعاً ملموساً . فينبغي على المسلم أن يبذل أحبَّ الأشياء لنيل رضى الله تعالى . وهذا إن دل على شيء فيدل على علو الهمة التي تدفع المؤمن إلى التخلي عن أحب ممتلكاته من أجل وجه الله تعالى دون النظر إلى مديح الناس ، أو نيل الحظوة عندهم . وهذا هو الإخلاص الصافي الذي لا تشوبه شائبة ، وأعلى درجات التضحية .

***

خامساً : الحج والعُمرة

١ _ الحج :

إن الحج من أعظم العبادات التي يُتقرب بها إلى الله تعالى . فهو من أركان الإسلام الخمسة ، كما أنه رحلة نورانية من الظلام إلى التألق ، ومن الذنوب إلى التوبة ، ومن الشهوانية المادية إلى الروحانية المستقيمة .

فالعبدُ يرحل إلى خالقه تعالى راجياً القبول ونيل المغفرة . كما أن شعائر الحج تذكِّر العبدَ بأحداث ما بعد الموت ، مثل البعث والنشور . مما يترك في النفس البشرية بالغَ الأثر الطيب الذي يدفع باتجاه خلع الذنوب والتزام التوبة .

والحج من الفرائض الثابتة في القرآن والسنة، بحيث إن منكره يخرج من الملة . وحريٌّ بالذكر أن الحج يجب على العبد مرةً واحدة في العمر ، وهذا أمرٌ مُجمَع عليه بلا خلاف .

ولا يتسع هذا المقام لبيان شعائر الحج تفصيلاً ، أو ذكر الأدلة الشرعية بكل جوانبها . لكننا نسعى إلى تسليط الضوء على موضوع الحج بشكل عام شديد الإيجاز لنعطيَ فكرةً شمولية واضحة وسريعة حول مركزية هذه العبادة ودورِها في بناء الفرد، وتحريكِ المجتمعات نحو العمل الدؤوب ، وإلغاء اليأس من القلوب ، وبعث الأمل المتجدد في قلوب العباد لكي يواصلوا رحلتهم إلى الله تعالى . وكلما سَقطوا وقفوا من جديد ، واستمروا في المشي بكل ثبات رغم كل العوائق .

قال الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حِجُّ البَيْت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

فالحجُّ عبادةٌ خالصة لله تعالى لها حُرمتها الجليلة ومكانتها المجيدة . وهي تقوم على أُسس ثابتة كصحة البدن وتوفر المال . وقد اقترن الحجُّ بالقدرة الإنسانية تخفيفاً عن الناس ، وعدم تكليفهم فوق ما يطيقون . مع العلم أن كل عبادة فيها قَدْرٌ من المشقة والتعب ، إلا أن الله تعالى يُعين العبادَ على أداء ما افترضه عليهم ، ولا يُحمِّلهم فوق طاقتهم .

وعبادةُ الحج مُيسَّرةٌ رغم ما فيها أحكام دقيقة وشعائر متعددة وانتقال عبر أماكن مختلفة . وبالطبع فلن يكون دخولُ الجنة مجاناً . وكل امتحان لا يمكن تجاوزه إلا ببذل الجهد والوقت والمثابرة. والجدير بالذِّكر أن المشقة في العبادات مقدورٌ عليها ، وفي دائرة قُدرة الإنسان ، وليست مشقةً تعجيزية . ولا يخلو أمرٌ دنيوي أو أُخروي من قَدْر من التعب ، والسهر ، وبذل الجهد . فهذه طبيعة الامتحان الرامية إلى التمييز بين الناس ، وفصل الصالح عن الطالح .

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٥٤٧) : ((اللام في قوله ﴿ للهِ ﴾ هي التي يقال لها لام الإيجاب والإلزام. ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف ﴿ على ﴾فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب . كما إذا قال القائل لفلان عليَّ كذا ، فذكر الله _ سبحانه _ الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه ، وتعظيماً لحرمته . وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصَّصه الدليل كالصبي والعبد)) اهـ . وتتجلى حكمةُ الله تعالى في ربط الحج بالاستطاعة . لذلك قال تعالى : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ . وتتحقق الاستطاعة بأن يكون الشخصُ صحيح البدن ، والطريق آمن ، ومالكاً للزاد والراحلة . وعن أنس _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ في قوله _ تبارك وتعالى _ : ﴿ ولله على الناس حِجُّ البَيْت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ . قال : قيل : يا رسول الله ، ما السبيل ؟ . قال : ((الزاد والراحلة))(57) .

٢ _ مكة المكرمة :

قال الله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أنَّا جعلنا حَرَماً آمناً ويُتخطَّف الناسُ من حَوْلهم﴾ [العنكبوت: ٦٧].

والخطابُ موجَّهٌ إلى الكفار. ألم ينظروا كيف جعلنا مكة المكرمة حرماً يتمتع بالأمن والإيمان، فيأمن الإنسان على نفسه وماله وعِرْضه دون حدوث أي اعتداء عليه ، في حين أن جرائم القتل والنهب تصيب من حولهم . وفي هذا إشارة واضحة وبليغة إلى نعمة الله العظيمة بأن جعل مكة المكرمة حرماً مصوناً محمياً له حُرْمة جليلة لا ينتهكها إلا ضال .

كما أن حُرْمة مكة تبث في النفس المؤمنة مزيداً من الإيمان والطمأنينة ، فهي البلد الآمن الأمين. فقد قال الله تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ [التين : ٣] . ولا يخفى أن مكة المكرمة هي أعظم بقعة على كوكب الأرض على الإطلاق. فهي مدينة الله ذات الثقل العالمي الذي لا يُجارَى . وهي مأوى أفئدة المؤمنين يهربون إليها ، فيشعرون بالأمن والإيمان . فما دام المرءُ متواجداً فيها ، فهو في حصن حصين لا يتسلل إليه الخوف ولا الوهن . إنها محطُّ أنظار العالَم بأسره . فهي مدينةُ مَلِك الملوك ، ولا أحد يدخلها إلا بإذنه وتوفيقه .

---

(٥٧) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٠٩) برقم (١٦١٣) وصحَّحه . قال ابن حجر في تلخيص الحبير (٢/ ٢٢١) : ((قال البيهقي : الصواب عن قتادة عن الحسن مرسلاً ... وسنده صحيح إلى الحسن ... وقد قال عبد الحق : إن طرقه كلها ضعيفة . وقال أبو بكر بن المنذر : لا يثبت الحديث في ذلك مسنداً . والصحيح من الروايات رواية الحسن المرسلة)) اهـ .

وقد قال رسول الله ﷺ مُخاطِباً مكة المكرمة ، مدينته العزيزة المحببة إلى نفسه الشَّريفة : ((واللهِ إنكِ لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أُخْرِجْتُ منكِ ما خَرَجْتُ))[58].

وكل هذه الدلائل تشير _ بلا شك _ إلى مكانة مكة الدينية والحضارية والتاريخية والجغرافية، ومركزيتها العظيمة ذات القداسة في الأرض والسماء ، وأهميةِ الوطن في حياة الإنسان .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٩٨٩) : عن جابر _ رضي الله عنه_ قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول : ((لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح)) .

مما يدل على الأهمية الخاصة لمكة المكرمة حَرَمِ الله الآمن . فالإنسان لا حاجة له بحمل السلاح فهو يتمتع بالأمان بكل جوانبه . لكن الضرورات تبيح المحظورات. فإن ظهرت حاجة طارئة تضطر المؤمنَ لحمل السلاح فلا شيء عليه .

قال السيوطي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٤٠٢) : ((قال الجمهور هذا النهي إذا لم تكن حاجة ، فإن كانت جاز)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً وارزُقْ أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليومِ الآخر ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

وهذه دعوة نبوية جليلة من إبراهيم خليل الله ﷺ بأن يجعل مكة المكرمة بلداً يتمتع بالأمن ، وأن يرزق أهله المؤمنين بالثمرات . وكما هو معلوم فإن دعاء الأنبياء مستجاب لا يُرَد . وكل هذه المؤشرات تدل على تفرُّد مكة بالرتبة السامية . فلا يمكن للنبي إبراهيم ﷺ أن يدعوَ لبلدٍ ما بالخير إلا إذا كان عالِماً بمكانة هذا البلد، ودورِه المركزي في تاريخ الحضارة البشرية على كوكبنا. فأفعالُ الأنبياء وأقوالهم لا تَخضع للصُّدف أو الارتجال العبثي . إنهم يَعلمون ما يقولون ويفعلون ، فهم حملةُ الرسالة الإلهية على هذه المعمورة ، ولا يتخلى اللهُ تعالى عن مبعوثيه . فمكةُ ليست مدينةً عادية ، وليست بقعةً جغرافية محصورة في الزمان والمكان . إنها منبع الطهارة ، وقلبُ النور ، وصانعةُ الزمان والمكان .

وقد اختلف العلماء في مكة ، هل صارت حَرَماً آمناً بدعاء إبراهيم ﷺ أو كانت قبله . فالذي نعتمده هو أنها حَرَمٌ يوم خلق اللهُ السماواتِ والأرض .

---

(٥٨) رواه الحاكم (٣/ ٨) برقم (٤٢٧٠) وصحَّحه، ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٨٣) : ((رواه أبو يعلى ، ورجاله ثقات)) اهـ .

فقد قال الله تعالى :﴿ إنما أُمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها ﴾ [النمل : ٩١] .

فتحريمها تحريمٌ إلهي لا بشري. فلا يُسفَك فيها دم، ولا يُظلَم فيها أحد ، ولا يُصاد فيها صيد ، ولا يُعضَد فيها شجر .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ((إن هذا البلد حرَّمه اللهُ يومَ خلق السماواتِ والأرض ، فهو حرام بحُرْمة الله إلى يوم القيامة))(59) .

وهذه الحُرمة الإلهية سابقة على وجود الأنبياء كلهم . فمكةُ المكرَّمة هي حَرَمُ الله تعالى ، وهي محروسة من الطغاة والكوارث الطبيعية كالزلازل وغيرها . كما أن لها هَيْبة جليلة في النفوس لا تضارعها هَيْبة أخرى . ومَن دخلها كان آمناً في حماية الخالق تعالى ، فتطمئن روحه ، ويَخشع قلبُه، وتسكن جوارحه .

وفي تفسير القرطبي (٢/ ١١٧) أن العلماء قالوا عن مكة المكرمة : ((لم تزل حَرَماً من الجبابرة المسلَّطين ، ومن الخسوف والزلازل وسائر المثلات التي تحل بالبلاد . وجُعل في النفوس المتمردة من تعظيمها والهيبة لها ما صار به أهلها متميزين بالأمن من غيرهم من أهل القرى . ولقد جعل فيها _ سبحانه _ من العلامة العظيمة على توحيده ما شوهد من أمر الصيد فيها ، فيجتمع فيها الكلب والصيد فلا يهيج الكلب الصيد ، ولا ينفر منه ، حتى إذا خرجا من الحرم عدا الكلب عليه ، وعاد إلى النفور والهرب. وإنما سأل إبراهيم أن يجعلها_ بلداً _ آمناً من القحط والجدب والغارات، وأن يرزق أهله من الثمرات. لا على ما ظنه بعض الناس أنه المنع من سفك الدم في حق من لزمه القتل . فإن ذلك يبعد كونه مقصوداً لإبراهيم ﷺ حتى يقال : طلب من الله أن يكون في شرعه تحريم قتل من التجأ إلى الحرم . هذا بعيد جداً)) اهـ .

ومكةُ المكرمة هي الحاضنة للكعبة المشرَّفة قِبْلةِ المسلمين التي توحِّدهم على اختلاف مذاهبهم وبلادهم وأجناسهم ولغاتهم . وهذه المدينة هي قلبُ العالم الإسلامي النابض ، وسيدة مدن كوكب الأرض. إنها مدينة الله وحَرَمه الآمن، من دخلها فهو في كنف الله تعالى،يتمتع بالأجواء

(٥٩) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٦٤) برقم (٣٠١٧)، ومسلم (٢/ ٩٨٦) برقم (١٣٥٣).
وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٤٧): ((وقيل : الحُرْمة الحق . أي حرام بالحق المانع من تحليله. واستدل به على تحريم القتل والقتال بالحرم. فأما القتل فنقل بعضهم الاتفاق على جواز إقامة حد القتل فيها على من أوقعه فيها.وخُصَّ الخلاف بمن قَتل في الحل ثم لجأ إلى الحرم. وممن نقل الإجماع على ذلك ابن الجوزي)).

الإيمانية الصافية ، ويخلو قلبُه من المخلوقات ، ويتوجَّه بالكلية إلى خالقه تعالى . إنها المركزُ الحضاري والمركزيةُ الشرعية العالمية. من آوى إليها آوَتْه، ومن قصدها بسوء قَصَمَتْه ، ومن دخلها بقلبٍ مشتاق للإيمان فإن الفتوحات الربانية ستهبط عليه، وتكتنفه الفيوضات الإلهية المجيدة .

قال الله _ عز وجل _ : ﴿ إنَّ أوَّل بَيْت وُضع للناس للذي بِبَكَّة مُبارَكاً وهدىً للعالَمِين ﴾ [آل عمران : ٩٦][60] .

فالكعبةُ هي أول بيت وُضع للناس . وهذه المنزلة المقدَّسة ليست لغيرها . مما يدل على عظمتها الفائقة ، ومكانتها الكَوْنية التي لا يضارعها شيء . فهي مركزُ القداسة والطهارة والبركة والهدى . من رآها لان قلبُه وخضع لله تعالى.ومن رفضها قَضَتْ عليه فعاد منتكساً يجر أذيال الخيبة والظلمة. ولا شك أن كَوْنها أول بَيْت لعبادة الله تعالى يُعطيها أفضلية على غَيْرها ، فلها شَرَف الأولية والسَّبق ، وكلُّ بيوت العبادة من بعدها تابعةٌ لها .

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٥٤٦) : ((هذا شروع في بيان شيء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل . وذلك أنهم قالوا : إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة . فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿ إنَّ أوَّل بَيْت وُضع للناس ﴾ [آل عمران : ٩٦] ... فنبَّه تعالى _ بكونه أول مُتَعَبَّد _ على أنه أفضل من غيره . وقد اختلف في الباني له في الابتداء فقيل : الملائكة ، وقيل : آدم ، وقيل : إبراهيم . ويجمع بين ذلك بأول من بناه الملائكة ثم جدَّده آدم ثم إبراهيم)) اهـ .

واليهودُ يحاولون على الدوام الانتقاص من دِين الله تعالى ورسوله ﷺ ، فهُم يُقدِّمون أنفسهم حُرَّاساً للشريعة ، وحُماةً للأماكن المقدَّسة ، ومُدافِعين عن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . وهُم يُظهِرون التمسك ببيت المقْدِس لكي يَطعنوا في الكعبة . وهُم يَزعمون الإيمان بأنبياء بني إسرائيل لكي يطعنوا في مُحمَّد ﷺ . وهذا مما تضحك منه الثكلى .

---

(٦٠) قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠٨): ((بَكَّة من أسماء مكة على المشهور. قيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها . وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون)) اهـ . وفي مفردات القرآن (١/ ١٣٧٨) : ((اشتقاق مكة من : تمككت العظم : أخرجتُ مخه . وامتك الفصيلُ ما في ضرع أمه . وعبر عن الاستقصاء بالتمكك ... وتسميتها بذلك لأنها كانت تمك من ظلم بها. أي : تدقه وتهلكه)) اهـ . وقيل : سُمِّيَتْ بذلك لقلة مائها .

ولو كانوا مؤمنين حقاً لما قَتلوا الأنبياءَ ، وحَرَّفوا التوراةَ . فمنهجُ الأنبياء واحد ، والكتبُ السماوية مصدرها واحد ، ولو كانوا مؤمنين حقاً بموسى ﷺ لاتَّبعوا محمداً ﷺ . ولو التزموا بالتوراة لاهتدوا إلى الإيمان بالقرآن ، لكن التحايل على النصوص الشرعية ، والالتفاف على الشريعة ، والتلاعب بالكلام خضوعاً للهوى والمنافع الشخصية ، وتقديم الحجج الواهية ، كل هذه الأمور أبعدتهم عن حظيرة الحق .

وعن أبي ذر _ رضي الله عنه _ قال : قلتُ : يا رسول الله ، أي مسجد وضع في الأرض أول؟. قال : ((المسجد الحرام)) . قال : قلتُ : ثم أي ؟ ، قال : ((المسجد الأقصى)) . قلتُ : كم كان بينهما ؟ ، قال : ((أربعون سنة))[61] .

ويتضح الاقترانُ الأبدي ، والترابطُ العقائدي المصيري ، والصلةُ الوثيقة الحاسمة بين المسجد الحرام (أول مسجد وُضع في الأرض / القِبلة الثانية) ، والمسجد الأقصى (ثاني مسجد وُضع في الأرض / القِبلة الأولى) . فالمدةُ الزمنية بينهما قريبة جداً ، وهنا تتجلى الرابطة المشتركة بينهما . كما أن حادثة الإسراء قد وحَّدت بينهما بشكل متماسك على الصعيد العقائدي والتاريخي والجغرافي . فقد قال الله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريَه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء : ١] .

ومن أسماء مكة المكرمة الثابتة (أم القرى) . وهذه التسمية الجليلة تعكس أصالة مكة ومركزيتها بالنسبة لباقي القرى فهي أُمُّها . وهذا المعنى يحمل صفات الأصل والحاضنة . فمكةُ

---

(٦١) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٢٣١) برقم (٣١٨٦) ، ومسلم (١/ ٣٧٠) برقم (٥٢٠) . قلتُ : وقد يظهر لدى البعض إشكال . فالنبي سليمان ﷺ بنى بيتَ المقدس كما ورد في سنن النسائي (٢/ ٣٤) بسند صحَّحه الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨) . والنبي إبراهيم ﷺ بنى الكعبةَ . فقد قال الله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البَيْت ﴾ [البقرة : ١٢٧] . وبين إبراهيم وسليمان _ عليهما الصلاة والسلام _ مدة زمنية طويلة . فقد قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة [تفسير القرطبي ٤/ ١٣٤] . قلتُ : قد قيل _ لإزالة هذا اللبس في الأذهان _ إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدَّدا ما كان أسَّسه غيرهما . وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨) : ((وليس إبراهيم أول من بنى الكعبةَ ، ولا سليمان أول من بنى بيتَ المقدس . فقد روينا أن أول من بنى الكعبةَ آدم ، ثم انتشر ولده في الأرض ، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيتَ المقدس ، ثم بنى إبراهيمُ الكعبةَ بنص القرآن)) .

هي أشرف البلاد قاطبةً . وقد تناولنا الأدلة الشرعية التي تؤسس هذا المعنى بشكل واضح لا لبس فيه. فتقدمُ مكة على سائر البلدان أمرٌ متفق عليه بلا معارضة . إنها أم القرى ، أي أساس القرى ومنبعها . فهي الشمسُ الساطعة ، وباقي القرى تدور في فَلَكها .

قال الله تعالى:﴿ وكذلك أوحَيْنا إليكَ قُرْآناً عربياً لتنذرَ أُمَّ القُرى ومن حَوْلها ﴾[الشورى : ٧].

القرآنُ الكريم الذي هو بلسان عربي مبين جاء لإنذار أهل مكة (أم القرى) ومن حَوْلها ، مشتملاً على الترغيب والترهيب. فلكل مقامٍ مقال. وتخصيص أم القرى(مكة) بالذكر دليلٌ على مركزيتها الأصيلة،ومن حَوْلها أطراف. فهي كالأم التي أبناؤها يحيطون بها لأنها الشجرة وهم الأغصان .

قال الله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ [البلد : ١] .

وهذا قسمٌ إلهي جليل بمكة المكرمة يشير إلى مكانتها المقدَّسة . فاللهُ تعالى يُقسِم بما شاء من مخلوقاته، وليس للإنسان أن يحلف بغير الله تعالى . وكما هو معلوم فإن الله تعالى لا يُقسِم إلا بشيء عظيم ذي رتبة سامية . وقَوْله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ ﴾ أشد من القَسَم ، وفيه تأكيد بليغ . وهذا مشهور في لغة العرب . والقَسَمُ يَلفت انتباهَ السامع ، ويجذبه من أجل التركيز في اللفظ والمعنى . فالقَسَمُ يُعطي أهميةً جليلة للكلام. وعندما يُقسِم اللهُ تعالى بمكة ، فهذا مؤشر باهر على أنها بَلَدٌ يتمتع بخصوصية معيَّنة، ولها قُدسية عظيمة ، ولا يماثلها أي بلد آخر .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (٢٠/ ٦٢): ((زيادة ﴿ لا ﴾ لتأكيد الكلام،وهو مستفيض في كلام العرب . ﴿ لا أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ أي : أُقسم بهذا البلد ، وفائدتها تأكيد القَسَم كقولك : لا والله ما ذاك ،كما تقول : أي والله . قال امرؤ القيس : ((لا وأبيك ابنة العامري)))) .

٣ ـ الكعبة المشرَّفة[62] :

---

(٦٢) قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٠٢) : ((وقد سُمِّيت الكعبة كعبة لأنها مربعة ، وأكثر بيوت العرب مُدَوَّرة . وقيل : إنما سميت كعبة لنتوئها وبروزها ، فكل ناتئ بارز كعب ، مستديراً كان أو غير مستدير . ومنه كعب القدم ، وكعوب القناة ، وكعب ثدي المرأة إذا ظهر في صدرها . والبيتُ سُمِّيَ بذلك ، لأنها ذات سقف وجدار وهي حقيقة البَيْتية وإن لم يكن بها ساكن)) .

إن الكعبة المشرَّفة هي بيت الله الحرام ، وهي قِبلة المسلمين في أنحاء العالم التي تجمع كلمتهم ، وتوحِّد شملَهم على اختلافهم . ومنزلتها الساميةُ لا يمكن الوصول إليها .

قال الله تعالى : ﴿ وإذْ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمناً ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

أي إن الله تعالى جعل الكعبة المشرفة مرجعاً للناس يثوبون (يرجعون) إليها من كل الجهات ، فهل مركز التقائهم ، ونقطة تجميع شملهم . فهي القوة الجاذبة التي تستقطبهم لتبث فيهم المعاني الإيمانية الراقية ، ويجدون عندها الطمأنينة ، ويستشعرون معاني الوحدة والقوة .

وقال الله تعالى : ﴿ جعل اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرام قِياماً للناس ﴾ [المائدة : ٩٧] .

فقد جعل اللهُ تعالى الكعبة صلاحاً ومعاشاً لأمن الناس.وهي سبب صلاحهم في الدنيا والآخرة. حيث الخائف يشعر بالأمان ، والضعيفُ يحصل على القوة ، والمضطربُ ينال السكينة . والجميعُ يأمنون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٩) : ((﴿ قِياماً للناس ﴾ انتعاشاً لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التجار ، ويتوجه إليه الحجاج والعُمَّار ، أو ما يقوم به أمر دينهم ودنياهم)) اهـ .

٤ـ العُمرة :

قال الله تعالى : ﴿ وأتِمُّوا الحجَّ والعُمرةَ لله ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وقد سبق توضيح مكانة الحج وفضله . وبقي توضيح مكانة العُمرة وفضلها . ففي الآية أمرٌ بإتمام الحج والعُمرة. وقد قرنهما الله تعالى معاً للتشديد على أهميتهما القصوى ، وارتباطهما الوثيق، إذ إنهما رحلتان نحو الخالق تعالى ، تشتملان على إلقاء الدنيا وراء الظهر ، والسعي نحو الآخرة . فالمؤمنُ يُلقي أعباء الدنيا عن كاهله ، ويسافر في هذه العوالم الجديدة التي لا تَبلى ، فيكتشف إنسانيته ، ويُجدِّد العهدَ مع خالقه ، ويسير على خطى النبي ﷺ وصحابته ــ رضي الله عنهم ــ . قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٢) : ((فأمر بإتمام الحج والعمرة . وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ... ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعُمرة مُلزم ، سواءٌ قيل بوجوب العُمرة أو باستحبابها ، كما هما قولان للعلماء)) اهـ .

وفي الحديث أن رَجلاً قال للنبي ﷺ: كيف تأمرني أن أصنع في عُمرتي ؟ . فقال النبي ﷺ : ((اخلعْ عنكَ الجبة ، واغسلْ أثرَ الخلوق عنكَ ، وأنق الصفرة ، واصنع في عمرتك كما تصنع في حجك))[63] .

لذلك فالواجبُ إتمام شعائر الحج والعُمرة بضوابطهما لكي ينال المؤمنُ رضا الله تعالى في هذه الرحلة المقدَّسة المقترنة معاً (الحج والعُمرة) ، حيث يخلع الدنيا ، ويسعى نحو خالقه تعالى، ناظراً بعين قلبه إلى ما وراء الموت . حيث النعيم الأبدي أو الشقاء الأبدي .

***

(٦٣)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٦٣٤)برقم (١٦٩٧).ومسلم(٢/ ٨٣٦) برقم (١١٨٠).
الجبة : ثوب واسع يلبس فوق الثياب / الخلوق : نوع من الطِّيب / صفرة : من أثر الطيب .

سادساً : الصِّيام

١ــ الطعام والأغذية :

لم تجئ شريعةُ الصيام من أجل تعذيب النفس الإنسانية أو القضاء عليها أو حرمان الإنسان من الطعام الطيب. إن الصيام نظام حياتي دقيق يرمي إلى إثبات قدرة المؤمن على التضحية بشهواته من أجل خالقه تعالى . وبالتالي يصبح الصيامُ منظومة التضحية والصبر والتحمل لصناعة جيل قادر على تحمل أعباء الحياة لا ينكسر أمام التحديات الجسيمة . وهذا كله يدفع باتجاه صناعة الإنسان المتفوق الذي يقوم بإعمار الأرض وفق مراد الله تعالى بكل صبر وتحمل ، فيؤسس مجتمعَ الخير والجمال على الأرض ، ويفوز بالنعيم الإلهي في الآخرة . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طَيِّباً ﴾ [البقرة : ١٦٨] . واللهُ تعالى يمن على عباده بأن أباح لهم الطيبات ، فأمرهم بأن يأكلوا من الخيرات الطيبة الحلال الموجودة في الأرض . فلا يوجد ضيقٌ أو حَرج في تناول الطيبات ، فهي تُعين على العبادة ، وتبعث البهجة في النفس ، فيستقبل الإنسانُ يومَه بإشراق وتفاؤل دون تحجير للرحمة الإلهية ، أو تحريم للطعام الحلال بدافع الزهد أو التقوى . فالتقوى في اتِّباع الأوامر الشرعية ، وليس تحريم الحلال أو التضييق على النفس وتعذيبها وحرمانها من الطيبات . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٧٧) : ((أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كَوْنه حلالاً من الله طيباً ، أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٧٢) عن الآية : ((نزلت في ثقيف وخزاعة وبني عامر ابن صعصعة فيما حَرَّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام ، وحَرَّموا البحيرة والسائبة والحام، قاله ابن السائب)) اهـ. وأهلُ الجاهلية كانوا مولعين بتحليل الحرام وتحريم الحلال ، وقد اخترعوا أحكاماً كثيرة ما أنزل اللهُ بها من سلطان، وربطوها بعقائدهم وعاداتهم وحياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذا يعكس مدى التخلف العقائدي نتيجة غياب الهداية الإلهية ، وغبشِ الوعي الإنساني . والقاعدةُ الفقهية الشهيرة تقول إن الأصل في الأشياء الإباحة . بمعنى إن كل شيء حلال ما لم يأت نصٌّ بتحريمه . ففي صحيح مسلم(٤/ ٢١٩٧) : عن عياض بن حمار ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : ((ألا إن ربي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم مما عَلَّمَني يومي هذا . كل مال نحلته عبداً حلال . وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم،وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم)).

وهذا يعني أن كل مال أعطاه الله تعالى لعباده فهو حلال. كما أن العباد مخلوقون حنفاء كلهم، أي إنهم مَوْلودون على الفِطرة (توحيد الله تعالى) . لكنَّ الشياطين أوردتهم المهالك ، فانحرفوا عن جادة الطريق ، وقامت بتحريم الحلال عليهم ، فاتَّبعوها بلا بصيرة . وفي هذا إنكار على أهل الجاهلية ما حرَّموه على أنفسهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي[64] .

والله تعالى خلق عبادَه كلهم حنفاء أي مسلمين . ((وقيل : طاهرين من المعاصي ، وقيل : مستقيمين منيبين لقبول الهداية ، وقيل : المراد حين أخذ عليهم العهد فى الذر))[65] .

وإن الشياطين أزالوا الناسَ عن الحق وجالوا معهم في الباطل ، وحرَّموا عليهم ما أحلَّه الله ، افتراءً عليه ، ورفضاً للشريعة الإلهية السمحة . فالشياطين دفعوا الناسَ إلى الانحراف ، وتحريمِ الحلال، وتحليلِ الحرام، ضمن فوضى عبثية ضاع فيها الإنسان بسبب ابتعاده عن المنهج الإلهي.

والجدير بالذكر أن عملية الابتعاد عن الحلال الطيب والغرقِ في الحرام ، من شأنها تدمير الكيان الإنسان والقضاء على حياته الدنيوية ، وإضاعته يوم القيامة . فالحرامُ له تأثير سلبي للغاية في مسار حياة الفرد وعواطفه وطموحاته وإمكانياته . فهو يَحْرمه التوفيق ، ويجعل صدرَه ضيقاً حرجاً ، ويجعل نظرته للحياة غارقة في المادية الآنية والاستهلاكية الفجة بلا هدف ولا مسار ، مما يؤدي إلى تكوين سلوكيات منحرفة تُعمِّق أزمات الإنسان على الصعيد الحسي والمعنوي .

ففي صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أيها الناسُ إن اللهَ طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً ، وإن اللهَ أَمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحَاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[المؤمنون :٥١] . وقال

---

(٦٤) قال الله تعالى : ﴿ ما جعل اللهُ من بَحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حامٍ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ [المائدة : ١٠٣].قال الصابوني في صفوة التفاسير (٣/ ٤٧) : ((كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذَكر ، بحروا أذنها أي شقوها وحرَّموا ركوبها وهي البحيرة، وكان الرجل يقول : إذا قدمتُ من سفري أو برئتُ من مرضي فناقتي سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها وهي الوصيلة ، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره وهو الحام، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)) .

(٦٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٩٧) .

: ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[البقرة : ١٧٢] . ثم ذكر الرجلَ يُطيل السَّفرَ ، أشعثَ أَغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرامٌ ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغُذِّيَ بالحرام فأنى يُستجابُ لذلك)) .

فالحرامُ من شأنه أن يُعرِّض الإنسان لغضب الله تعالى ، ويفقده طمأنينة الإيمان . فيصبح دعاؤه مرفوضاً غير مستجاب ، وهذا يقوده إلى الهاوية السحيقة على الصعيد النفسي والمادي ، لأن الإنسان سيضيع إذا تخلى عنه اللهُ تعالى ، فيفقد توازنه الروحي ، ويغرق في مستنقع الحياة الدنيا ، بلا مسار ولا هدف . وإننا لنجد أن ذنوب البشر قد أدَّت إلى حرمانهم من الطيبات كعقوبة بسبب تقصيرهم ، وظلمهم لأنفسهم . قال الله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ من الذين هادوا حَرَّمْنا عليهم طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لهم ﴾ [النساء : ١٦٠] .

يخبر الله تعالى عن اليهود الذين ظلموا أنفسهم ، وارتكبوا الذنوبَ الجسيمة ، فتم تحريم طيبات كانت حلالاً لهم كعقوبة وإجراء رادع . فقد حُرِموا الرزقَ الحلال بسبب غرقهم في المعاصي دون التفكير في التوبة والرجوع إلى الله تعالى .

فالذنوبُ توصد الأبوابَ أمام الإنسان ، وتجعل حياته محصورةً في زاوية ضيقة خانقة ، لا مكان فيها للتحرر والانطلاق، فتضيق عليه الأرضُ بما رَحُبت ، وينكمش صدرُه بحيث يصبح غير قادر على استيعاب الخير واحتضان المعروف . وهذه هي بداية النهاية المشتملة على الانكسار الكلي الذي يضرب الفكر الإنساني ، فيجعل من المرء شبحاً لا وزن له ، وكائناً مسخاً بلا هوية ، لا يعرف مسارَه ، ولا يدرك مصيرَه .

((وهذا التحريم قد يكون قَدَرياً ، بمعنى أنه تعالى قيَّضهم لأن تأوَّلوا في كتابهم ، وحرَّفوا ، وبدَّلوا أشياء كانت حلالاً ، لهم فحرَّموها على أنفسهم تشديداً منهم على أنفسهم ، وتضييقاً وتنطعاً. ويحتمل أن يكون شرعياً ، بمعنى أنه تعالى حرَّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك))[66] .

٢_ وجوب الصيام :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

---

(٦٦) تفسير ابن كثير (١/ ٧٧٧) .

وهذا أمرٌ إلهي بصوم رمضان الذي هو الإمساك عن كافة المفطِّرات مع النية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وفوائد الصيام لا يمكن حصرها ، فهي تشتمل على تهذيب النفس وتطهيرها من الآثام والشوائب والأخلاق السيئة ، وتضييق مسالك الشيطان عبر قطع الشهوة . فالصيامُ نظامٌ دِيني ودُنيوي ينتشل الفرد من مستنقع الماديات الروتينية ليعيد صناعته من جديد وفق منظور إيماني . ومفهومُ الصيام أكبر من قضية الامتناع عن الطعام والشراب . إنه بناءٌ روحي يعيد الفردَ إلى إنسانيته ، وإنتاجٌ للقيم الإنسانية والحضارية خارج إطار النمط الاستهلاكي الفج .

لذلك وجَّه النبيُّ ﷺ الشبابَ القادرين على الزواج إلى أهميته ، وأرشد غير القادرين على الزواج إلى الصيام لأنه وقاية من الوقوع في الحرام ، فقالﷺ : ((يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفَرْج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وِجاء))[67] .

وفضل الصيام مشهور للغاية ، وقد ورد في ذلك نصوص شرعية كثيرة. وهذا غير مستغرب ، فهو أحد أركان الإسلام الخمسة . ومعلومٌ من الدين بالضرورة ، إذ إنه ثابتٌ في القرآن والسنة والإجماع . فمنكره كافر .

فالصيامُ مدرسةٌ دينية وأخلاقية متكاملة ، فلا يمكن حصره في دائرة الطعام والشراب ، فالنظر إلى ماهية العبادات والحكمة منها وما يترتب عليها من مبادئ وسلوكيات ضروريٌّ للغاية إذا أردنا تكوين فهم أفضل للعقائد الدينية ، والعباداتِ وتطبيقاتها على أرض الواقع ، وتصرفاتِ المؤمنين . فالدِّينُ الإسلامي كلٌّ لا يتجزأ . وهنا تتجلى عظمة الإسلام في كَوْنه منظومة صالحة لكل زمان ومكان ، ونظاماً إصلاحياً لكل عناصر الطبيعة بلا استثناء .

وعن أبي سعيد ــ رضي الله عنه ــ قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : ((من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً))[68] .

ومن الواضح من خلال آية الصيام أنه كان مفروضاً على أهل الكتاب الذين كانوا قبل أتباع الرسالة المحمدية الإسلامية . فالله تعالى يقول : ﴿كما كُتب على الذين من قبلكم ﴾في إشارة واضحة إلى أهل الكتاب . والجمهورُ على أن التشبيه واقع على نفس الصوم لا صيام رمضان .

---

(٦٧) متفق عليه. البخاري (٥/ ١٩٥٠) برقم (٤٧٧٩)،ومسلم (٢/ ١٠١٨) برقم (١٤٠٠).

(٦٨) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٤٤) برقم (٢٦٨٥)، ومسلم (٢/ ٨٠٨) برقم (١١٥٣).

قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧٨) : ((أما قوله ﴿ كُتب ﴾ فمعناه فُرض . والمراد بالمكتوب فيه اللوح المحفوظ . وأما قوله ﴿كما﴾ فاختلف في التشبيه الذي دلت عليه الكاف ، هل هو على الحقيقة فيكون صيام رمضان قد كُتب على الذين من قبلنا ، أو المراد مطلق الصيام دون وقته وقدره ... وفي قوله ﴿ لعلكم تتقون ﴾ إشارة إلى أن من قبلنا كان فرض الصوم عليهم من قبيل الآصار والأثقال التي كُلِّفوا بها.وأما هذه الأمة فتكليفها بالصوم ليكون سبباً لاتقاء المعاصي وحائلاً بينهم وبينها)) اهـ .

وقد مَرَّ الصيام بأطوار متعددة ضمن المنهجية الإسلامية في التدرج ، وإصدار الأحكام بشكل تدريجي على شكل خطوات، وذلك من أجل احتواء الناس بشكل مرحلي ، وعدم التضييق عليهم، أو نقلهم من طَوْر إلى طور آخر دون وجود استعداد نفسي وجسدي لهذه النقلة . فكل تغيير يصاحبه تطورات إنسانية واختلافات مجتمعية . والتغييرُ الفوري بلا مقدمات قد يكون قاصماً .

فعن معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ قال : أمَّا أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة ، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وصيام يوم عاشوراء ، ثم إن الله فرض عليه الصيام ، فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين من قبلكم ﴾ [البقرة : ١٨٣] إلى هذه الآية ﴿ وعلى الذين يطيقونه فِدْيةٌ طعامُ مسكين ﴾ [البقرة : ١٨٤] . فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزى ذلك عنه . ثم إن الله أنزل الآية الأخرى﴿ شهرُ رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس ﴾ [البقرة :١٨٥] إلى قوله تعالى :﴿ فمن شهد منكم الشهرَ فليصمه ﴾ [البقرة : ١٨٥] . فأثبت اللهُ صيامه على المقيم الصحيح ، ورخَّص فيه للمريض وللمسافر . وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، فهذان حَوْلان . وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا . ... وكان عمر قد أصاب من النساء من جارية أو حرة بعدما نام فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فأنزل الله :﴿ أُحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ [البقرة : ١٨٧] إلى قوله: ﴿ ثم أتموا الصيامَ إلى الليل ﴾ [البقرة : ١٨٧][69] .

وهكذا يتضح لنا أن مشروعية الصيام مرَّت في أحوال متعددة لمراعاة أحوال المؤمنين ، والتسهيل عليهم ، وعدم حشرهم في الزاوية الضيقة . فالشريعةُ جاءت لرفع الحرج ، وفتح الأبواب الشرعية أمام الناس لا إغلاق المنافذ عليهم .

(٦٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠١) برقم (٣٠٨٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يُفرض رمضان ... فلما فرض اللهُ رمضان ، قال رسول الله ﷺ: ((من شاء أن يصومه فليصمه ، ومن شاء أن يتركه فليتركه))[70] .

كل هذه النصوص تعكس أهمية الصيام ودوره المحوري في حياة المسلم ، حيث ينقل الأفرادَ والجماعات من الفوضى إلى الانضباط ، ومن خشونة الطباع إلى الأخلاق اللينة ، ومن سطوة الشهوة إلى الشهوة المنضبطة في المكان والزمان المناسبَيْن . فلا يمكنُ للمرء أن ينتصر على صعوباتِ حياته إلا إذا انتصر على نفسه ، ولا يمكن للمرء أن يكون سيداً بين الناس وهو عبدٌ لشهواته . وكل العبادات إنما جاءت لانتشال الفرد من مستنقع الروتين الوظيفي الدنيوي الترابي ، وزراعته في قلب الفعل الاجتماعي المؤمن ، حيث تتجلى قيم خلافة الله في الأرض ، وإعمارها وفق الشريعة الإلهية الخالدة . ولا يمكن إنكار دور العبادات في تنظيم الحياة الدنيا ، ونيلِ السعادة السرمدية في الآخرة . وكل هذا يعود على الفرد بالطمأنينة والاتزان النفسي والقوةِ المادية . فاللهُ تعالى هو خالق الإنسان، وأعلم به منه، ويعرف _ تعالى _ ما يصلح الإنسانَ وما يفسده . ولم يتم تشريع العبادات للتضييق على الناس ، إنما شُرعت لإنقاذ الإنسان ومنحه الخلود في الدارين : خلودُ ذِكره الطيب في الدنيا ، وخلوده في الجنة في الآخرة .

إن العبادات صناعةٌ حقيقية للسلوك الإنساني، وإعادة القطار الاجتماعي المنحرف إلى السكة . والعباداتُ وُجدت من أجل سعادة الناس أنفسهم. فالطاعاتُ لا تنفع اللهَ تعالى، والمعاصي لا تضرُّه. فحينما يذوب المرءُ في أداء العبادة على أكمل وجه فإنه يَشكر خالقه المنعِم عليه ، ويُجدِّد معه العهدَ والوعد . وإذا نظر المرءُ إلى نفسه ومحيطه سيجد أنه غارق في النعم الإلهية بلا حصر ، فعليه أن لا يبخل على نفسه بأداء العبادات ، لأنها _ أولاً وأخيراً _ وُجدت لمصلحته ، وإنقاذه من ضنك الحياة ، وضيق الصدر ، وهواجس الفكر . فهي طوقُ النجاة الذي إذا ذهب قد لا يَعود .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((قال الله : كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أَجزي به ، والصيامُ جُنَّة ، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سَابَّه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم . والذي نَفْس محمد بيده لخلوف فم

---

(٧٠) رواه البخاري (٢/ ٥٧٨) برقم (١٥١٥) واللفظ له،ومسلم (٢/ ٧٩٢) برقم (١١٢٥).

الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح ، وإذا لقي رَبَّه فرح بصومه))[71] .

وهذا الحديث يُقدِّم لنا منهجاً متكاملاً في فقه الصيام . فالصيامُ عبادةٌ خفية لا يدخلها الرياء مطلقاً لأنها متوارية عن أعين الناس . أما باقي العبادات كالصلاة والحج _ مع فضلها الجليل _ فيمكن أن يدخلها الرياءُ والسُّمعة ، وحبُّ الظهور ، واستمالةُ عيون الناس ، واستدعاءُ انتباههم ، فهي عبادات ظاهرية أمام عيون الناس وأسماعهم . أما الصيامُ فسرٌّ بين العبد وخالقه _ تعالى _، لا يعلم وجودَه من عدمه سوى الله تعالى . لذلك كان الصيامُ لله تعالى يجزي به .

والصيامُ جُنَّة ، أي وقاية من الوقوع في المحرَّمات والشهوات والأخلاق القبيحة ، ومانعٌ من النار ، فمن صام يوماً لله باعد اللهُ النارَ عنه سبعين سنة . وعلى الصائم أن يبتعد عن الشهوة والصياح وكل الأخلاق الذميمة . وهذا أمرٌ شاملٌ في حال الصوم أو عدمه .

والصيامُ سدٌّ منيع يحمي الإنسانَ من الغرق في الأخلاق الذميمة أو الانجرار إلى الخطايا المهلِكة. وهذه الحمايةُ الشاملة تجعل من الفرد كائناً نورانياً يمكن تمييزه بين الناس بسبب صفته وسَمْته ، فهو ليس إنساناً عادياً أو عابرَ سبيل في هذه الحياة . إنه يملك بصمته الشخصية المؤثرة في مسار المجتمع الإنساني ومصيره . إنه ليس رقماً هامشياً يُضاف إلى أعداد البشر لأنه حاملُ الرسالة الإلهية إلى الناس ، سائراً على خطى الأنبياء _ عليهم السلام _ . وهذا هو التميز الحقيقي بلا غرور أو تطاول على الآخرين .

---

(٧١) متفق عليه . البخاري(٢/ ٦٧٣) برقم (١٨٠٥) ، ومسلم (٢/ ٨٠٦) برقم (١١٥١) .
وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٢٩) : ((اختلف العلماء في معناه مع كَوْن جميع الطاعات لله تعالى ، فقيل : سبب إضافته إلى الله تعالى أنه لم يُعبَد أحدٌ غير الله تعالى به ، فلم يُعظِّم الكفارُ في عصر من الأعصار معبوداً لهم بالصيام،وإن كانوا يُعظِّمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذِّكر وغير ذلك . وقيل : لأن الصوم بعيد من الرياء لخفائه بخلاف الصلاة والحج والغزو والصدقة وغيرها من العبادات الظاهرة . وقيل : لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ ، قاله الخطابي ، قال : وقيل إن الاستغناء عن الطعام من صفات الله تعالى، فتقرب الصائم بما يتعلق بهذه الصفة، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء . وقيل : معناه أنا المنفرد بعلم مقدار ثوابه أو تضعيف حسناته ، وغيره من العبادات أظهر _ سبحانه _ بعضَ مخلوقاته على مقدار ثوابها ، وقيل : هي إضافة تشريف)) .

وإن اعتدى أحدٌ على الصائم بشتمه أو مدافعته فليقل إني امرؤ صائم لكي يُذكِّر نفسَه ومن حوله بأنه في حالة إيمانية سامية لا تقبل الشتم والمجادَلة والمقاتَلة . فالصائمُ لا يقع ضحية جهل السفهاء أو كلماتهم الاستفزازية .

أما تغيرُ رائحة فم الصائم فهو يؤذي من حول الصائم لأنهم يستقذرونها ، لكنها عند الله تعالى أطيب من ريح المسك .

والصائمُ له فرحتان : الأولى _ إذا أفطر فرح بفطره ، فقد أطاع اللهَ تعالى ، وامتثل أمرَه ، وأنهى يومَه على أحسن ما يُرام . وأيضاً يفرح بالطعام الطيب والشرابِ اللذيذ . والفرحة الثانية_ إذا لقي اللهَ فرح بثوابه العظيم ومكافأته التي لا تضيع .

***

الفصل الثاني

الإيمان

تمهيد

إن الإيمان هو الأساس الفكري والعملي في حياة المسلم ، حيث ينقله من ظلمات الجهل والضياع إلى نور العلم والهداية . والإيمان لغةً هو التصديق ، وله ثلاث ركائز متضافرة : التصديق القلبي والإقرار باللسان والعمل بالجوارح. وإذا اجتمعت هذه الدعائم الثلاث في حياة الفرد كانت لها بالغ الأثر في تغيير حياته نحو الأفضل . والإيمان يزداد بالطاعات وينقص بالمعاصي . وكلما ازدادت طاعات العبد وإنجازاته الصالحة ازدادت حياته إشراقاً . الأمر الذي يدفعه إلى العمل كخليفة الله في الأرض وفق الشريعة الإلهية .

والإيمان له ستة أركان ينبغي أن تتحقق معاً ، فإذا زال أي ركن انهار الإيمان من جذوره ، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره .

وقد قال الله تعالى :﴿ آمن الرسولُ بما أُنزل إليه من ربِّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وقد عرَّف النبي ﷺ الإيمانَ بقوله : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)) [صحيح مسلم] .

ويأتي هذا المبحث ليسلِّط الضوءَ على الإيمان باعتباره أساس الحياة ، والقوة المحركة للفرد والجماعة في سبيل إعمار الأرض بالخير ، والعيش في ظل الشريعة الربانية بلا إفراط ولا تفريط .

وقد اشتملت الدراسة على الظاهر والباطن ، أي الإيمان بعالم الشهادة (المحسوس) وعالم الغيب (اللامحسوس) ، وذلك لتكتمل صورة الإيمان الظاهرية والخارجية ، وترسخ في النفوس ، فتقضي على الشكوك والوساوس ، وتزرع في النفس الثقةَ المطلقة بالله تعالى .

والجدير بالذكر أن هذا البحث محاولة جاهدة لجمع الموضوع من كل جهاته بشكل واضح لا لبس فيه يتميز بالإيجاز غير المخل وسلاسة العبارة غير المعقدة ، حيث التفصيل في موضعه ، والاختصار في موضعه . فموضوع الإيمان بحثٌ عميق وواسع لا تتسع مئات المجلدات للإحاطة به من كل جوانبه النفسية والمادية. لكن طريق المِيل يبدأ بخطوة . والإنسان مطالبٌ بالعمل لا النتيجة. فالسعي نحو توضيح معالم الإيمان وانعكاساته في الحياة الدنيوية والأخروية يستحق منا البحث الدؤوب المستمر بلا كلل أو ملل ، لأن المعنى الشريف يفرض علينا أن نتعب من أجله .

أولاً : الإيمان بالله

١ـ الدعوة إلى الإيمان :

إن الإيمان هو الهدف السامي الذي يسعى الفرد إلى اعتناقه وتحقيقه واقعاً ملموساً . وهذا الهدف ينقل الفرد من الموت إلى الحياة ، فيغدو إنساناً كَوْنياً صالحاً، يعمر الأرضَ ، ويطبِّق الشريعةَ الإلهية على كوكب الأرض بكل توازن .

والآياتُ القرآنية التي تتحدث عن موضوع الإيمان كثيرة جداً ، لكن هذا المقام يسعى إلى إضاءة الطريق بشكل مختصر ومفيد . وذلك لتقديم الإيمان شكلاً وجوهراً ، وإبراز أهميته الوجودية القصوى في إعطاء الأشياء معانيها ، وفتح الباب أمام الكائنات الحية عموماً ، والإنسان خصوصاً ، للعيش الكريم في ظل الشريعة الربانية التي جاءت لإنقاذ الحياة لا القضاء عليها . فالمؤمنُ إنسان متصالحٌ مع إنسانيته ومجتمعه ، أما غيرُ المؤمن فغارقٌ في التصادم مع ذاته ومحيطه . والدعوة إلى الإيمان مسألة غاية في الأهمية لأنها ترشد الحيارى إلى اليقين الذي لا يعتريه الشك، وتأخذ بأيدي العباد الضالين إلى الهداية الربانية من أجل الاستمتاع بالدنيا والآخرة . فالدعوةُ الإيمانية هي مشروع أخلاقي لإنقاذ الناس ، وتحقيقِ الأخوة البشرية واقعاً ملموساً لا شعاراً فارغاً . ولا يخفى أن أعظم الدعاة إلى الإيمان هو النبي ﷺ الذي نادى للإيمان ، ودعا إليه بكل ما أوتي من قوة ووقت . فقد قال الله تعالى : ﴿ ربَّنا إننا سَمِعْنا منادياً يُنادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنَّا ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

وأكثر المفسرين على أن المنادي في الآية هو النبي ﷺ ، وهذا إن دل على شيء فيدل على شرف الدعوة ومكانتها السامية ، ودورِ النبي ﷺ المركزي في الدعوة ، واقتناع الأفراد بالإيمان والالتزام به ، وحمل أمانة الإيمان ودعوته بكل صبر وإخلاص .

والإيمان لا يمكن أن يثبت في القلوب بالإكراه ، أو بإجبار الناس على اعتناقه بحد السيف . والإسلامُ الذي انتشر بالتسامح والوعي والحجَّة الساطعة لا يقبل أن يُدخلَ الإجبارَ في مجال الإيمان لأن الإكراه مبدأ يناقض القرآنَ الكريم . فقد قال الله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدِّين ﴾ [البقرة : ٢٥٦]. لذا فإن الدعوة إلى الإيمان منهج حياتي متكامل يرتقي بالإنسانية،ودعوةٌ حضارية مستندة إلى النقل والعقل معاً بلا إكراه . ﴿ فمَن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

٢ـ حقيقة الإيمان :

يرتكز الإيمان إلى مبدأ أساسي ثابت وهو التصديق بالغيب (اللامحسوس). فالمنهجية الإسلامية تقدِّم البراهين المحسوسة على صدق الدعوة الإيمانية كطريق للإيمان بالغيب غير المحسوس ، والتصديقِ بما وراء قدرة الحواس الإدراكية (الماورائيات) .

فلا يعني الإيمانُ بالغيب ــ بأية حال من الأحوال ــ الاستسلامَ الأعمى ، والتقليدَ المبني على الوهم . بل على العكس ، إنه يدعو إلى التسليم المبصر بصدق الشريعة الإسلامية فيما أخبرتْ عنه في عالم الغيب والشهادة . كما يدل الإيمان بالغيب على قوة الفرد من الناحية الإيمانية، وثباته على الحق .

والغيبُ ليس خيالاً ، بل هو واقع ملموس في حينه . فعلى سبيل المثال ، لم تتم مشاهدة الجنة والنار ، لكن الدلائل والبراهين قائمة على وجودهما في الكتاب والسنة بالحجَّة والمنطق الواضح لا التسليم الأعمى المعتمد على التقليد . وبعد الموت سيرى العبدُ بأم عينيه ما كان يقرأ عنه في النصوص الشرعية ، أو يسمع به من العلماء والدعاة .

لذلك كان الإيمان بالغيب (كل ما غاب عنك) دليلاً واضحاً على قوة عقيدة العبد ، وحُسْنِ إسلامه، وعقلِه الراجح، وبعدِ نظره المستند إلى البراهين والحجج الواضحة لا الخيالاتِ والأوهام.

قال الله تعالى موضِّحاً أولى صفات المتقين : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : ٣] .

وهذا يدل على أن الإيمان بالغيب هو ركيزة الإيمان ، والحد الفاصل بين نجاة العبد وهلاكه .

والغيبُ مرئيٌّ بعين القلب ، يُورث في النفس لذةَ التسليم للشريعة على بصيرة . فليس في الإسلام إيمانٌ أعمى ، أو سُلطة كهنوتية تغلق عيونَ الناس ، ثم تقودهم دون أن يعترضوا . كما أن الدلائل الملموسة في العالم المشاهَد تشير إلى وجود عالَم غيبي له حالاته الخاصة . والإنسانُ الذي صَدَّق بالقدرة الإلهية يُدرك أن الله تعالى لا يُعجزه شيء . فخالقُ النار في الدنيا قادرٌ على خلق النار في الآخرة. والقادرُ على بعث الناس بعد النوم (الموت الصغير) يستطيع بعثهم من قبورهم ، وهكذا . وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : ((إن أمر محمد كان بَيِّناً لمن رآه . والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب)) ، ثم قرأ : ﴿ الم (١) ذلك الكتاب لا ريبَ فيه هدىً للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [سورة البقرة][1] .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٦) برقم (٣٠٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهنا تبرز قوة الإيمان الغيب . فالنبي ﷺ صاحب الشخصية الفذة والمتفردة ما كان ليخفى نورُه للذي يشاهده . كما أن الحضور النبوي الساطع لا يمكن إخفاؤه أو تجاوزه ، فالشمسُ لا يمكن تغطيتها بغربال _ كما يقال _. أما الذين آمنوا بالنبي ﷺ ورسالته ، وقاموا بتطبيقها دون رؤيته ، فهذا يدل على قوة إيمان كبيرة مستندة إلى التسليم المبصر بالغيب والإيمان به .

وعن عمر _ رضي الله عنه _ قال : كنتُ مع النبي ﷺ جالساً ، فقال رسول الله ﷺ : ((أتدرون أي أهل الإيمان أفضل إيماناً ؟)) ، قالوا : يا رسول الله الملائكة ، قال : ((هم كذلك ويحق ذلك لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم)) ، قالوا : يا رسول الله فالأنبياء الذين أكرمهم الله تعالى بالنبوة والرسالة ، قال : ((هم كذلك ويحق لهم ذلك وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها بل غيرهم)) ، قال : قلنا : فمن هم يا رسول الله ؟ ، قال : ((أقوام يأتون من بعدي في أصلاب الرجال فيؤمنون بي ولم يروني ، ويجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه ، فهؤلاء أفضل أهل الإيمان إيماناً))(2) .

فأفضلُ المؤمنين إيماناً هم الذين آمنوا بالنبي ﷺ ولم يَرَوْه . ومع هذا صَدَّقوا بوجوده ، واعتنقوا شريعته ، وساروا على دربه متمسكين بِسُنَّته التي وَجدوها محفوظةً في الكتب والأوراق . فهؤلاء ليسوا مُغفَّلين أو يفتقدون للمنهج العلمي . إنهم انطلقوا من المحسوس إلى غير المحسوس ، ومن آثار الطريق إلى صاحب هذه الآثار الذي مَرَّ على الطريق . وهذا هو التحليل العلمي المنطقي الذي ينطلق مع رؤية العَيْن إلى رؤية القلب . فليس في الشريعة الإسلامية مبدأ " آمِنْ ثم فَكِّرْ "، لأن الفكر المستقيم _ بلا أهواء أو إغراءات _ هو الموصل إلى الإيمان الراسخ .

وحقيقةُ الإيمان تنعكس إيجاباً على حياة الفرد والجماعة ، فتتحول الحياةُ من نظام روتيني مغلق إلى حياة طيبة مفعمة بالنشاط والعمل الجاد المخلِص . وتكتسب طريقةُ العيش معنىً شريفاً في ظل طاعة الله تعالى ، فيحس الفردُ بجدوى حياته وأهميةِ دوره فيها ، وهذا التأثير الإيجابي يصل إلى الجماعة التي تتحول إلى خلية نحل دؤوب ، لا مكان فيها للكسل أو الفوضى . أضف إلى هذا نيل السعادة الأخروية ، والفوزِ بالرضا الإلهي ، والجنةِ السرمدية .

---

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٦) برقم (٦٩٩٣) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((بل محمد ابن أبي حميد ضعَّفوه)) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٥) : ((رواه أبو يعلى ورواه البزار ... وقال الصواب أنه مرسل عن زيد بن أسلم ، وأحد إسنادي البزار المرفوع حسن)) اهـ .

وإننا لنجد في آيات كثيرة في القرآن ارتباط الإيمان بعمل الصالحات . فالإيمان ليس كلاماً مجرَّداً ، بل هو قول وفعل ، لذلك من الطبيعي أن يقترن العمل الصالح بمفهوم الإيمان . وفي حال غياب العمل النافع فإن مفهوم الإيمان يفقد معناه في النفس البشرية ، مما يؤدي إلى تآكل المنظومة الإيمانية في نفس الفرد ، فيخسر معنى حياته ، ويُعرِّض نفسه للهلاك في الدارين ، لأن لم يقم بتأدية حق الإيمان كما أمر الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً مِن ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧] .

فعملُ الصالحات المقترن بالإيمان هو مفتاحُ السعادة ، إذ إنه يُحوِّل الإنسان إلى كائن فعَّال مُنتِج وليس كائناً استهلاكياً عالةً على الآخرين ، فيتغير السلوك البشري من السلبية إلى الإيجابية ، وتنتقل نظرة الفرد من التشاؤم والاكتئاب إلى التفاؤل والبهجة . وهذا يدفع باتجاه صناعة حياة جديدة مضادة للملل والفراغ والروتين الوظيفي ، وعامرة بالإبداع والنشاط والإعمار ، فتُولَد هذه الحياة الطيبة المحكومة بالشَّريعة ، والتي تدفع المرءَ لإبراز كل طاقاته وتوجيهها نحو نشر الخير من أجل نيل رضا الله تعالى لا استغلال الآخرين أو السيطرة عليهم .

والدنيا دارُ عمل ، أمَّا الآخرة فدارُ جَزاء . كما أن الدنيا مزرعةُ الآخرة . ولو كانت الآخرة من حديد والدنيا من ذهب ، لكانت الآخرة أفضل ، لأن الحديد الباقي أفضل من الذهب الزائل. فما بالك إذا كانت الآخرة هي النعيم (لمن آمن) والدنيا هي الشقاء ؟!. فالجزاءُ الأُخروي الأبدي أعظم من الجزاء الدنيوي المؤقَّت المحدود .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٤٩) : ((من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة . ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا)) اهـ .

وهنا تتجلى المساواة بين الذكر والأنثى في نيل العطاء الإلهي . فعملُ الصالحات المستند إلى الإيمان يؤدي إلى صناعة حياة طيبة روحياً ومادياً ، والحصولِ على الأجر الجزيل . فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ـ ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طَيِّبةً ﴾ ، قال : القنوع . قال : وكان رسول الله ﷺ يدعو يقول : ((اللهم قَنِّعْني بما رزقتني ، وبارك لي فيه ، واخلف عليَّ كل غائبة لي بخير))[3] .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٨) برقم (٣٣٦٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والقناعةُ كنزٌ لا يَفنى . وهذه قاعدة واقعية لا شعار خيالي . فالقناعةُ تريح الفردَ روحياً ومادياً، وتبعده عن التذمر والسخط وعدم الرضا بقَدَر الله تعالى . فتجعله متصالحاً مع نفسه ، في سلام داخلي عميق مع ذاته فيبتعد الاضطراب النفسي والقلق والأمراض التي تنهش فكرَ الفرد وجسدَه. مما يجعل من الفرد شعلة نشاط ، وراية لا تنكسر أم المصائب . وكلما تعرَّض لأزمة شديدة قام أقوى من ذي قبل ، متسلحاً بالإيمان بالله تعالى ، ومؤمناً بالقضاء والقَدَر ، بلا كسل أو تواكل .

وكما قال الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ :

إذا ما كنتَ ذا قلبٍ قنوعٍ فأنتَ ومالكُ الدنيا سَواءُ

وعن سعد بن أبي وقاص ــ رضي الله عنه ــ قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أوصني وأوجزْ ، فقال له النبي ﷺ : ((عليكَ بالإياس مما في أيدي الناس ، وإياك والطمع ، فإنه الفقر الحاضر))(4) .

وهذا يدل على الأهمية الشديدة للقناعة . فعلى الإنسان أن لا يَنظر إلى ما في أيدي الناس ، ولا يتطلع للحصول عليه ، ويقطع الأملَ نهائياً في نَيْله . ويبتعد عن الطمع الذي هو شكلٌ من أشكال الفقر واللهاث الهستيري وراء تحصيل لعاعة الدنيا . وكما قال حكيم : أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

ومنزلةُ العبد عند خالقه تعالى تتحدد وفق إيمانه وعمل الصالحات لا وفق أمواله أو أولاده . كما أن الإيمان لا يمكن شراؤه بالمال ، أو نيله عن طريق العشيرة القوية ، أو باستخدام السلطة الممنوحة للأفراد . إنه فضلٌ رباني محض يمنحه اللهُ لمن يشاء ، ويحجبه عمن يشاء .

قال الله تعالى:﴿ وما أموالكمْ ولا أولادكم بالتي تقرِّبكمْ عِندنا زُلفى إلا مَن آمن وعملَ صالحاً﴾ [سبأ : ٣٧] .الأموالُ والأولاد ليست طريقَ التقرب من الله تعالى . وإنما يقرِّب الناسَ من خالقهم أن يكونوا مؤمنين حق الإيمان ، ويقوموا بالعمل الصالح في كل زمان ومكان . أما المالُ والولد فمتاعُ الحياة الدنيا الزائل وزينتها الزائفة . والمرءُ ينبغي أن ينظر إلى اللباب ولا ينخدع بالقشور ، ويُفكِّر في الجوهر الكامن وراء المظاهر البراقة . فالمظاهرُ الشكلية مجرد وهم ظاهري غير قادر على النفي والإثبات،أما الجوهرُ فهو الذي يُحدِّد وجهةَ السير ، وهو الذي يكشف الفكرَ الحقيقي عارياً من مواد التجميل . والعاقلُ يواصل النظر إلى ما وراء الأشياء إذا أراد اكتشاف حقيقتها .

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٢) برقم (٧٩٢٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

قال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٨٠) : ((وما أموالكم التي تفتخرون بها أيها القوم على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتي تقربكم منا قربة)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ المالُ والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

وهذه الزينة شكلية يوظِّفها الناسُ للتفاخر فيما بينهم في هذه الدنيا الدنيئة الزائلة ، ووجودها لا يدل على منزلة العبد عند خالقه تعالى ، لأن التقوى _ والتي مكانها القلب_ هي التي تجعل للعبد مكانةً عند الله تعالى .

وفي صحيح مسلم(٤/ ١٩٨٦) : عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) .

إن الصور الآدمية صورٌ ظاهرية زائلة لا تحتوي على العقائد ، لكن القلبَ هو مَلِك الأعضاء ، الذي يرسخ فيه الإيمانُ أو الكفر . وبالتالي إما أن يقود الفردَ إلى النعيم أو الهلاك . وهذا لا يعني عدم الاهتمام بالظاهر، فكل جوهرٍ داخلي له حقيقة ينبغي أن تَظهر ، وتبرز علاماتها . ولكنْ ينبغي التركيز على المنبع وهو القلب .

فعن النعمان بن بشير_ رضي الله عنه_ قال:سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:((ألا وإِنَّ في الجسد مُضْغَةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجسدُ كُلُّه ، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كُلُّه ألا وهي القَلْبُ))[5].

وأهمية القلب تكمن في احتوائه على العقل . فقد قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦].

إذن ، حقيقة الإيمان ضرورية للغاية في حياة الفرد الدنيوية التي تقود إلى حياته بعد الموت . وتتجلى مظاهر هذه الحقيقة الإيمانية السامية في كل تفاصيل الحياة .

ومن الجدير بالذكر أن الإيمان مكانه القلب ، وتظهر آثاره على الجوارح . ولا يمكن للإيمان والإكراه أن يلتقيا في قلب العبد . فعلى العبد أن يعتنق الإيمان ويثبِّته في قلبه ما دام هناك متسع من الوقت لذلك ، وما دام أنه في وقت الرخاء والمهلة . فهناك أحداث جسامٌ بالغة الشدة حينما تأتي لن ينفع إيمان العبد الذي لم يؤمن من قبل ، أو كسب في إيمانه خيراً . فمن الطبيعي أن

---

(٥) متفق عليه.البخاري (١/ ٢٨) برقم (٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٢٩):((واحتُج بهذا الحديث على أن العقل في القلب لا في الرأس وفيه خلاف مشهور.مذهب أصحابنا_ يقصد السادة الشافعية_وجماهير المتكلمين أنه في القلب)).

يؤمن كل الناس حينما يرونَ الشدائد المحيطة بهم ، أو يعاينون عذابَ الله تعالى بأم أعينهم . ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما حصل لفرعون الذي ادعى الألوهية، لكنه آمن بالله تعالى حينما أيقن بالغرق والنهاية، لكنه تاب في وقت لا تنفع فيه التوبة ، فرُفض إيمانه بشكل كامل .

قال الله تعالى :﴿ يَوْمَ يأتي بعضُ آيات ربِّكَ لا ينفع نَفْساً إيمانها لم تكنْ آمنتْ من قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيمانها خيراً ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

فهذه الآيات الربانية الباهرة حينما تأتي لا يُقبَل إيمان غير المؤمن ، ويُغلَق باب التوبة ، ويوضع حد لأعمال الإنسان فلا يُقبَل منه شيء بعد ذلك ، وتنتهي فترة الامتحان الإلهي للعبد في حياة الدنيا ، وعليه أن ينتظر النتيجةَ ، فأمامه خياران لا ثالث لهما : الجنة أو النار .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين ﴿ لا ينفع نَفْساً إيمانها لم تكنْ آمنتْ من قَبْلُ أو كَسَبَتْ في إيمانها خيراً ﴾))(6) .

فالإيمانُ ليس سلعةً في متناول اليد متى شاء الفردُ أخذها حسب مزاجه . بل هي نعمةٌ ربانية تُمنَح لأناس ، وتُحجَب عن آخرين . وقد يبحث عنها الإنسان فلا يجدها ، وقد تكون عند شخص ثم تُنزَع منه عقوبةً له . وفي صحيح مسلم (١/ ١٣٨) : عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ثلاث إذا خرجنَ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض)) .

فينبغي للعاقل أن يبادر إلى الإيمان والتمسك به قبل أن يلهث وراءه فلا يحصِّله. فما دام البابُ مفتوحاً ينبغي الإسراع في الدخول ، لأنه إذا أُغلِق لن يُفتَح مرةً أخرى ، وسيدرك الفردُ أنه خسر الفرصةَ الوحيدة في حياته ، والتي تحدِّد مصيرَه ، ولا يوجد مجال للتعويض أو فرصة أخرى . فهو خيارٌ وحيد : إما الخلود في الجنة أو الخلود في النار . والإنسانُ في سباق مع الزمن ، ولا يعرف متى تدركه المنية ، لأن الموت لن يستأذن من أحد ، فيجب على الإنسان أن يكون مستعداً للرحيل في أي وقت . فالمسافرُ حقيبته جاهزة دائماً . وتظل الوصيةُ النبوية الخالدة مشعلاً ينير

---

(٦) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٣٨٦) برقم (٦١٤١) ، ومسلم (١/ ١٣٧) برقم (١٥٧) .

الطريقَ للعالَم نحو الخلاص الأبدي : ((اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك))[7] .

إن العاقل يستغل نقاطَ قوته ، ويحاول علاجَ نقاط ضعفه . فلا بد من اغتنام فترة الشباب لأنها فترة القوة والنشاط والإبداع، أما الشيخوخة فهي نهاية الأحلام ، وانهيار البدن ، وضعف الروح . لذلك فالشبابُ هم البناة الحقيقيون للمجتمع، وعلى أكتافهم تقوم الحضارات . وإذا عَجزت الأُمَّةُ عن استيعاب طاقات الشباب أو توجيهها ، فلا بد أن تَسقط ، وتقع في هاوية الانحلال والتخلف والضعف. وإنَّ شاباً أضاع فترةَ شبابه (فترة البناء) في اللهو والعبث، لا يمكنه في حالة الشيخوخة أن يصبح عنصراً فاعلاً في المجتمع . فالفرصةُ إذا لم تستغلها سوف تَذهب ، تماماً كالشخص الذي يتأخر عن موعد انطلاق القطار ، سوف يفوته القطارُ ويمضي ، ويظل هو جالساً يندب حظَّه ، ويتحسر على ما فات .

أمَّا الصحةُ فهي نعمةٌ عظمى لا يَعرفها إلا من فَقدها . وكما قيل : الصحةُ تاجٌ على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى . فالعاقلُ يستغل فترة الصحة لإنجاز الأعمال النافعة ، فالصحةُ هي القوة الدافعة للإنجاز . وإذا جاء المرضُ سوف ينهار الإنسانُ ، ويَفقدُ رغبته في العمل ، ويَخسر قدرته على التحرك وتنفيذ الأعمال . والغِنى طاقةٌ جبارة ، وسلاحٌ فعَّال . فينبغي استغلال على أحسن وجه ، ويكون ذلك بوضعه في مواطن الصلاح والإصلاح . وإذا ذهب المالُ فإن الشخص يصبح عاجزاً بلا حِيلة ، ولا قوة . فالفقر هو سَببُ الانحراف الأخلاقي ، والانهيارِ الاجتماعي ، والفوضى السياسية . أمَّا من قضى حياته في تبذير أمواله ، فسوف يَندم يومَ لا يَنفع الندم . فالدنيا دَوَّارةٌ لا تبقى على حال ، وهي سريعة التبدل والتغير ، فَكَم من غني أصبح فقيراً ، وكَم من فقير صار غنياً . فالإنسانُ إذا كان في يده مال عليه أن يوظِّفه لصالح نَفْسه ومجتمعه وأُمَّته قبل أن يَذهب أدراجَ الرياح أو يتقاسمه الوَرَثةُ.

وصدق الشاعرُ إذ يقول في أهمية المال :

مَن كانَ يملكُ درهمينِ تعلمتْ ... شفتاه أنواعَ الكلامِ فقالا
وَتقَدَّمَ الفصحاءَ فاستمعوا له ... ولرأيتَه بين الورى مُخْتالا
لولا دراهمُهُ التي في كيسِهِ ... لرأيته شَرَّ البريةِ حالا

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١) برقم (٧٨٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إن الغنيَّ إذا تكلمَ كـاذباً قالوا : صدقْتَ وما نطقْتَ مُحالا
وإذا الفقيرُ أصابَ قالوا : لم يُصِبْ وكذبْتَ ياهذا وقُلْتَ ضـلالا
إن الدراهمَ في المواطنِ كُلِّـها تكسو الرجالَ مَهابةً وجـلالا
فهي اللسانُ لمن أرادَ فصاحةً وهي السلاحُ لمن أرادَ قِتالا

أمَّا وقتُ الفراغ فهو ثمينٌ للغاية ، لأن الوقت كنز لا ينتبه إليه الكثيرون . وإذا فَنِيَ لن يعود أبداً . فعلى المرء الاستفادة من كل لحظة لأنها محسوبة عليه ، ومُحاسَبٌ عليها . فالفراغُ متَّسعٌ عظيم لإنجاز الأعمال الصالحة. وإذا حلَّت فترةُ الشغل فلن يتمكن المرءُ من فعل أي شيء، وسوف يقف مكتوف اليدَيْن . وإذا جئنا إلى حياة الإنسان لوجدناها نعمةً ربانية كبرى ، ومنحةً إلهية جليلة . فاللهُ تعالى سَخَّر عناصرَ الطبيعة لخدمة الإنسان ، وذلك كي يتفرغ الإنسانُ للوظيفة التي خُلق من أجلها . وهي عبادةُ الله تعالى، وتحقيق خلافة الله في الأرض وإعمارها . فالحياةُ هي الوعاءُ العظيم الذي يستوعب الحضارات الإنسانية ، والتاريخ البشري . وهذه الحياةُ فرصةٌ وحيدة لا تتكرر ، وإذا أضاعها المرءُ لا يمكن أن يحصل على فرصة ثانية . وإذا جاء الموتُ فإنه سوف يطوي صفحةَ الحياة إلى الأبد . وإذا لم يَعمل الفردُ في حياته شيئاً مفيداً ، فلن يَعمله بعد الموت . فالموتُ هو النقلة من عالَم العمل إلى عالَم الجزاء ، وهو الانتقال من الامتحان إلى النتيجة . وإذا انتهى الامتحانُ فلا يمكن إضافة أي شيء بعد ذلك .

٣_ تشبيه الإيمان بالنور :

الإيمانُ هو النور الذي ينقل الفرد من الضياع إلى الهداية ، ويسطع في طريقه فينير الدروب ، ويجعل من الفرد على بصيرة ، يسير مفتوح العينين ، ويعرف هدفَه بدقة ، ويرسم منهجَ حياته بكل استقامة لكي يصل إلى الفوز الأكبر (الجنة) بعد الموت .

قال الله تعالى :﴿ اللهُ وَلِيُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

إن الله تعالى هو ولي المؤمنين الذي يتولاهم وينصرهم ، يخرجهم من ظلمات الكفر المانع لرؤية حقائق الإيمان ، والذي يحجب إبصارَ الآيات الإلهية الساطعة ، إلى نور الإيمان الذي يفتح القلوب والأعين . أما الكفار فنصراؤهم الأوثان والأنداد المعبودة من دون الله تعالى يخرجونهم من نور العلم والإيمان إلى ظلمات الجهل والكفر .

والجدير بالذكر أن لفظة " النور " في القرآن الكريم تجيء بالمفرد دائماً ، فلا توجد كلمة " الأنوار " لأن الحق واحد لا يتعدد ، أما الظلمات فمتعددة ، لأن الكفر أجناس ومذاهب شتى . فعلى الفرد أن يلتزم بالصراط المستقيم ، ولا يضيع وقتَه وجهده في الطرقات الملتوية المتفرعة عن الوهم واتباع الهوى، لأن ذلك يؤدي إلى التشويش على عقيدة الإنسان، وتشتيتِ جهوده وأهدافه الرامية إلى صناعة الخير في كل المجالات . كما أن الطرقات الملتوية من شأنها إثارة الشبهات في النفوس ، وهذا يؤثر سلباً على تركيز المرء ، ويسلبه الطمأنينةَ وحلاوةَ الإيمان . فالشُّبه خطَّافة ، والقلوبُ ضعيفة . وهنا تبرز ضرورةُ إبعاد القلب عن أماكن الفتن ، فلا يوجد عاقلٌ يُعرِّض نفسَه للامتحان ، لأنه قد يَسقط فيه ، ولا يقدر على الوقوف مرةً أخرى . فالسلامةُ أكبر غنيمة ، وعلى المرء أن يقيس الأمورَ قبل أن يَغوص فيها لكيلا يَغرق . وعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنهما _ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إن الله _ عز وجل _ خلق خَلْقَه في ظُلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل))[8] .

وهذا يدل على أن الإيمان لا يُكتسَب بعبقرية الإنسان وقدراته الذاتية ، بل هو فضلٌ رباني محض يعطيه اللهُ لمن يشاء ويحجبه عمن يشاء . ومع هذا فالإنسان يتحمل مسؤوليةَ اختياره ، لأن الله تعالى لم يجبر المؤمن على الإيمان ، ولم يرغم الكافر على الكفر . فكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له . فإن هدى اللهُ العبدَ إلى الإيمان فبفضل الله تعالى وله المنَّة . وإن هداه إلى الكفر فبعَدْله ، ولله على العبد الْحُجَّة .

٤_ المقابلة بين المؤمن والكافر :

لا شك أن الأشياء تُعرَف بأضدادها . فلا يمكن معرفة النور وأهميته إلا إذا عُرف الظلام لتحصل المقارنة . إذ إن المقارنات بين الأضداد تعمل على تمييز الحق من الباطل عبر إحداث نوع من المقابَلة تؤدي إلى تأصيل المعرفة .

وفي هذا المقام تأتي المقابَلة بين المؤمن والكافر لتقود إلى معرفة الفروقات بين الطرفين ، وتمييز النور من الظلام .

---

(٨) رواه الترمذي (٥/ ٢٦) برقم (٢٦٤٢) وحسَّنه، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٤٣) برقم (٦١٦٩) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٩٨) : ((رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات)) .

قال الله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ [غافر : ٥٨] .

فالأعمى هو الكافر الذي لا يبصر الدربَ الذي يسير فيه ، والبصيرُ هو المؤمن الذي يرى ببصره وبصيرته، ويعرف نقطتَي البداية والنهاية في طريقه. وهما لا يستويان بأية حال من الأحوال. كما لا يستوي المؤمن الذي يعمل الصالحات مع مقترف الإساءة . فلا يوجد عاقل يؤمن بتساوي النور والظلام ، أو المحسن والمسيء .

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن اتَّبع رضوانَ الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ [آل عمران : ١٦٢] .

وتتوالى المقابَلة بين المؤمن والكافر واستحالة التساوي بينهما ، فلا يمكن أن يتعادل المؤمن الذي اتبع رضوانَ الله تعالى ، وقام بالتزاماته الإيمانية على أكمل وجه ، وبين العائد بسخط الله تعالى وغضبه لأنه خالف التعاليمَ الإلهية ، وتجاوز حدودَه .

وقال الله تعالى :﴿ أَفَمَن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متَّعْناه متاعَ الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضَرين ﴾ [القَصَص : ٦١] .

إن الله تعالى وَعَدَ عباده بمنحهم الجنَّة إذا آمنوا وعملوا الصالحاتِ . ووعدُ الله لا يتخلف . فالمؤمنُ الذي التزم بالأوامر الإلهية داخلٌ الجنَّة قَطْعاً ، وسوف يَلقى ما وعده اللهُ إياه . وهذا المؤمنُ لا يمكن أن يتساوى مع الكافر الذي حصل على نصيبه في الدنيا كاملاً غير منقوص ، ولا نصيب له في الآخرة . فهو اختار المتعةَ الوقتية الزائلة (الدنيا) على المتعة الأبدية (الآخرة) . وسوف يأتي يوم القيامة مُجلَّلاً بالخزي والعار ليدفع ثمنَ كُفره وتقصيره ورفضه لأوامر الله تعالى.

((أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا الجنة ، فآمن بما وعدناه وصدق وأطاعنا فاستحق بطاعته إيانا أن ننجز له ما وعدناه فهو لاقٍ ما وُعد وصائر إليه، كمن متعناه في الحياة الدنيا متاعها فتمتع به ونسي العمل بما وعدنا أهل الطاعة وترك طلبه ، وآثر لذة عاجلة على آجلة ، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله من المحضَرين ، يعني من المشهدين عذاب الله وأليم عقابه))[9].

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلقَى في النار خيرٌ أم من يأتي آمناً يومَ القيامة ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٠] .

---

(٩) تفسير الطبري (١٠/ ٩٢) .

وتتوالى الصور القرآنية التي توضِّح استحالة التماثل بين المؤمن والكافر . فالكافر الذي يُلقَى في النار بكل خزي وعار لا يمكن مقارنته بالمؤمن الذي يأتي يوم القيامة بطمأنينة ربانية آمناً ، فائزاً برضا الله تعالى وجنته .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن كان على بيِّنةٍ من ربِّه كَمَن زُيِّنَ له سوءُ عمله واتَّبعوا أهواءهم ﴾ [محمد : ١٤] .

وتتوالى المنهجيةُ القرآنية في بيان الفرق بين المؤمن والكافر . فالآيةُ تقول : أفمن كان على حُجَّة وبرهان من ربه تعالى ، فيعبده على بصيرة وعلم وأدلة شرعية معتمدة كمن زيَّن له الشيطانُ سوءَ عمله فرآه حسناً . واتبعوا ميولَ النفس في معصية الله تعالى كالشرك وعبادة الأصنام دون امتلاكهم للبرهان أو الدليل . إذ إن اتباع الهوى يعمي ويصم بسبب غياب المنهج الإيماني العقلاني الذي ينير الطريقَ للإنسانية .

وقال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يمشي مُكِبَّاً على وجهه أهدى أمَّن يمشي سَوِيَّاً على صراطٍ مستقيم ﴾ [الْمُلْك : ٢٢] .

وهذا مثلٌ دقيق وواضح ضربه اللهُ تعالى لبيان حال الكافر الذي يمشي منحنياً في طريقه غير مبصر لا يعرف أين يذهب لأنه اتخذ من الضلالة منهجاً حياتياً ، وبيانِ حال المؤمن الذي يمشي في درب واضح مستقيم منتصب القامة يعرف نقطتَي البداية والنهاية ، ويبصر الطريقَ بوضوح .

ومن الملاحَظ أن سياقَ القرآن الكريم لم يورد جواب الاستفهام الإنكاري ، لأن العقل يعرف أن الأهدى هو الذي يمشي سوياً على صراط مستقيم . وفي هذا دلالة واضحة على دفع السامع إلى التفكر والتفكير ، ومعرفة الفروقات بين المؤمن والكافر عبر استحضار الأمثلة القرآنية في ذهنه وتحليلها ، وربطها بالواقع ، ليكون التأثير بالغاً وبليغاً في آن معاً .

وكل هذه المقابَلات بين المؤمن والكافر إنما تهدف إلى تمييز الصالح من الطالح ، والتفريق بين أهل الإيمان (النور) وأهلِ الكفر (الظلمات) . وكما قال الشاعر : وبضدها تتبيَّن الأشياء .

٥ـ الفرق بين الإيمان والإسلام :

قال الله تعالى : ﴿ قالت الأعرابُ آمنَّا قُل لم تؤمنوا ولكن قولوا أَسْلَمْنا ولَمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ [الحجرات : ١٤] .

إن الآية السابقة تشير إلى وجود فرق بين الإيمان والإسلام . وهذه مسألة مشهورة عند أهل العلم. فهؤلاء الأعراب الذين ادعوا الإيمانَ لم يصلوا إلى هذه الرتبة ، فجاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ

بأن يقول لهم : ﴿ لم تؤمنوا ﴾، أي لم تصلوا إلى منزلة المؤمنين، ولم تنالوا رتبةَ الإيمان . ﴿ ولكن قولوا أَسْلَمْنا ﴾ . ولَمَّا تدخل شعائر الإيمان وحقيقته في قلوبكم . فالإسلام قولٌ ، أما الإيمان فقولٌ وعمل . وهذا يشير إلى أن الإيمان مكانة مميزة أخص من الإسلام .

وفي حديث جبريل الشهير في صحيح مسلم (١/ ٣٦) : أن النبي ﷺ عرَّف الإسلامَ بقوله : ((أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)) ، ثم انتقل إلى تعريف الإيمان فقال ﷺ : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)) ، ثم انتقل إلى تعريف الإحسان فقال ﷺ : ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) .

أي إن النبي ﷺ انتقل من العام (الإسلام) إلى الخاص (الإيمان) إلى الأخص (الإحسان)، وفرَّق بين هذه المفاهيم الثلاثة في التعريف . مما يدل _ بلا ريب _ على اختلاف معنى الإسلام عن معنى الإيمان .

وعن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ : أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس ، فترك رسول الله ﷺ رَجلاً هو أعجبهم إلَيَّ ، فقلتُ : يا رسول الله ، ما لك عن فلان ؟ ، فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال : ((أو مسلماً))[10] .

((فليس فيه إنكار كَوْنه مؤمناً ، بل معناه : النهي عن القطع بالإيمان ، وإن لفظة الإسلام أولى به ، فإن الإسلام معلوم بحكم الظاهر ، وأما الإيمان فباطن لا يعلمه إلا الله تعالى))[11] .

وهكذا نرى أن فرقاً جوهرياً بين الإسلام والإيمان . فكل من نطق الشهادتين يُحكَم عليه بالإسلام ، ويصبح معصومَ الدم ، بغض النظر عن صدقه أو كذبه ، وتُجرَى عليه الأحكام حسب ظاهره ، وحسابه عند الله تعالى الذي يعلم الباطنَ .

أما الإيمان فباطنٌ مكانه القلب لا سبيل لمخلوق للاطلاع عليه لأنه مخفي عن عيون الناس ، ولا يعلم حقيقته إلا الله تعالى الذي يحاسب الناس ، ليس بالنظر إلى صورهم ، بل إلى قلوبهم .

٦_ تفضيل الإيمان على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام :

(١٠) متفق عليه . البخاري (١/ ١٨) برقم (٢٧) ، ومسلم (١/ ١٣٢) برقم (١٥٠) .

(١١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٨١) .

قال الله تعالى :﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[التَّوبة : ١٩] [12] .

وهذا تقريعٌ وتوبيخ لأولئك المفتخرين بسقاية الحاج وسدانة البيت . فأعلمهم _ سبحانه وتعالى _ أن الفخر الحقيقي والشرف السامي في الإيمان بالله واليومِ الآخر والجهاد . وهنا تبرز الأولويات الشرعية التي تُعطي كل قضية مكانتها اللائقة بها . فلا بد من إصلاح الأصل (القلب) فهو الأساس ، أما السلوكيات فتابعة له . وإذا فَسد الأصلُ فَسدت الفروع . وما بُنيَ على باطل فهو باطل. وفي هذه الآية إشارة إلى العقلية البدائية لعرب الجاهلية الذين كانوا يتفاخرون بأنهم أهل البيت الحرام. وهذا دفعهم إلى التكبر والتطاول على باقي القبائل ، لأن الإنجازات العربية في الجاهلية كان مبعثها الرياء والاستكبار في الأرض بغير الحق ، وإعلاء راية القبيلة في المحافل العشائرية الأخرى ، فهذا التنافس القَبَلي كان يسيطر على العقول ، ويدفعها لتحويل كل شيء إلى تفاخر في المجتمع الجاهلي .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٩٩) : عن النعمان بن بشير _ رضي الله عنه _ قال : كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ . فقال رَجلٌ : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقيَ الحاج . وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُه فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله _ عز وجل _ : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فنجد أن التوجيه الإلهي قد رسَّخ في النفوس أن الإيمان بالله واليومِ الآخر والجهاد أعلى من سقاية الحاج وخدمةِ بيت الله الحرام . وفي الآية توجيةٌ إلى أهمية جعل الأعمال خالصةً لوجه الله تعالى . ولا يخفى أن القبائل العربية اتخذت من سدانة البيت سُلَّماً لتحقيق مصالحها الشخصية ، وبسطِ نفوذها بين قبائل العرب ، والتطاولِ على الناس بالباطل ، وفق عقلية العصبية القبلية والتفاخر الجاهلي بالحسب والنسب . فجاءُ القرآن ليجعل من النوايا خالصةً لوجه الله تعالى عن طريق تجذير الإيمان الصافي في النفوس ، والذي لا تشوبه شائبة شِرك أكبر أو أصغر (الرياء) .

---

(١٢) هذه الآية الشريفة تؤسس لفقه الأولويات ، وترد على مُنكريه بشكل حاسم وقطعي .

٧_ مثال الإيمان :

لقد ضرب اللهُ تعالى مثلاً باهراً للإيمان ، حيث امرأتان في منتهى الإيمان والطهارة ، تجذر في قلبَيْهما حب الله تعالى والالتزام بأوامره . وفي ذلك تكريمٌ خصوصي للمرأة ، حيث ذُكرت في القرآن ، وصارت مثلاً سامياً للإخلاص يتردد اسمها حتى يوم القيامة .

ولا يوجد أعظم من هذا التكريم الذي يرد على كل أولئك الذين يرمون الإسلامَ بتهمة احتقار المرأة ، وهم لا يملكون أية دليل . بل إن الأدلة الشرعية متضافرة على تكريم الإسلام للإنسان عموماً ، والمرأة خصوصاً .

قال الله تعالى :﴿ وضربَ اللهُ مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فِرْعَوْن إذْ قالتْ ربِّ ابْنِ لي عندكَ بيتاً في الجنَّة ونجِّني من فرعون وعمله ونجِّني من القوم الظالمين ﴾ [التحريم : ١١] .

فامرأةُ فرعون وهي آسيا بنت مزاحم كانت مؤمنةً بموسى ﷺ ورسالته ، ولم يُؤثِّر عليها كَوْنها زوجةً لفرعون اللعين ، لأن الإيمان قد تجذر في قلبها، فدينها متماسكٌ، وطهارتها في الأوج، وصلتها بالله تعالى وثيقة ، فهي تدعوه ، وتتوجه إليه .

وهذا المثال الإيماني الباهر يُعتبر قدوةً عظمى ليس للنساء فحسب ، بل أيضاً للرجال . فهذه المرأة عانت من كفر زوجها وظلمه ، لكنها بقيت متماسكةً راسخة الإيمان رغم ضعف الأنثى . إذ إن علاقتها المتينة مع خالقها تعالى جعلتْ منها قرآناً يُتلى حتى يوم القيامة ، وأنموذجاً خالد الذكر ، وقدوةً تُحتذى في كل العالم . إنها مثال لشحذ الهمم وحث النفوس على الصبر في طريق الإيمان ، والثباتِ على الحق مهما كانت المعاناة والأزمات والتهديد والعذاب .

وفي هذا المثل الرباني العظيم دروس جليلةٌ منها : إن مخالطة الكافرين لا تضر إذا وُجدت ضرورة لذلك . وإن اللهَ تعالى لا يؤاخذ شخصاً بذنب آخر ، فامرأةُ فرعون كانت زوجةً لفرعون إمامِ الكافرين ، فلم تتأثر ، لأنها كانت مؤمنة متمسكة بعلاقتها مع الله تعالى .

((ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على المُلْك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه . وكانت فراستها في موسى _ عليه السلام _ صادقة ، حين قالت :﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ﴾ [القَصَص : ٩]))[13] .

(١٣) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٤٤٨) .

أما دعاءُ آسيا _ رضي الله عنها : ﴿ ربِّ ابْنِ لي عندكَ بيتاً في الجنَّة ﴾ ، فيدل على كمال عقلها ، وقوةِ إيمانها ، لأنها قدَّمت ذكر الله تعالى على البيت فلم تقل : ابن لي بيتاً في الجنة عندكَ ، وإنما قالت : ﴿ ابْنِ لي عندكَ بيتاً في الجنَّة ﴾ ، أي قريب من رحمتك ، أو في أعلى درجات الجنة ، فاللهُ تعالى مُنَزَّه عن المكان ، فلا يحل في الأشياء ، ولا تحل الأشياء فيه .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ : أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها ، فكان إذا تفرقوا عنها ظَلَّلَتْها الملائكة فقالت : ﴿ ربِّ ابْنِ لي عندكَ بيتاً في الجنَّة ونجِّني من فرعون وعمله ونجِّني من القوم الظالمين ﴾ ، فكُشف لها عن بيتها في الجنة [14] .

وهذا يشير إلى شدة العذاب الذي لقيته السيدة آسيا _ رضي الله عنه _ ، وقوةِ تحملها وصبرها على الألم في سبيل الله تعالى الذي أكرمها بأن جعل الملائكة تظلِّلها كرامةً لها . مما يدل على وصولها إلى رتبة إيمانية سامية نالتها بفعل ثبوتها على طاعة الله تعالى في أحلك الظروف ، وأشد الأزمات النفسية والجسدية . وقد صارت مضربَ المثل في الصبر على الطاعة وقوةِ التحمل . فأضحت _ بذلك _ قدوةً للرجال والنساء على السواء . وقد أكرمها اللهُ تعالى بأن جعلها قرآناً يُتلى آناء الليل وأطراف النهار .

وصدق الشاعر إذ يقول :

ولو كان النساء كمثل هذي   لفُضِّلت النساءُ على الرجال

وقد وردت بعض الأوصاف لطريقة تعذيبها ، وقوةِ صبرها على الشدائد الجسيمة .

فعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((وتَّد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رحىً عظيماً حتى ماتت))[15] .

وعن سلمان _ رضي الله عنه _ قال : ((كانت امرأة فرعون تُعَذَّب بالشمس))[16] .

---

(١٤) رواه أبو يعلى (١١/ ٣١٦) برقم (٦٤٣١) . وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥٠) : ((ورجاله رجال الصحيح)) . وقال السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٢٩) : أخرجه أبو يعلى والبيهقي بسند صحيح .

(١٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٨) برقم (٣٩٢٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٨) برقم (٣٨٣٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وما دعاؤها الله تعالى بأن ينجّيها من فرعون وعمله والقوم الظالمين إلا مؤشر بالغ على رفضها للكافرين وأعمالهم الشريرة بكل أشكالها ، وهذا يعكس حرصها على الإيمان والتمسك به حتى اللحظة الأخيرة .

وهناك مثلٌ إيماني باهر يتجاوز مثال السيدة آسيا بنت مزاحم _ رضي الله عنها _ ، وهو السيدة مريم الصِّديقة _ رضي الله عنها _ .

قال الله تعالى : ﴿ ومريمَ ابنةَ عِمْران التي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيه من روحنا وصدَّقتْ بكلمات ربِّها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ [التحريم : ١٢] .

إن هذا الكلام الإلهي المقدَّس مديحٌ رباني للسيدة مريم _ رضي الله عنها _ ، حيث أثبت القرآنُ طهارتها وإحصانها لفَرْجها ، أي إنها حفظته من الشبهات والشكوك والفجور ، وحافظت على ورعها وطهارتها وشرفها . لا كما زعم اليهود بأنها زانية ، وأن المسيح ابن زنا . فهي الطاهرةُ النقية التي لا تتسلل الريبةُ إلى سلوكها .

وقد أكرمها اللهُ تعالى بأن جعلها تحبل بالنبي عيسى ﷺ من غير زَوْج . وذلك عن طريق الْمَلَك جبريل _ عليه السلام _ الذي نفخ في فتحة جَيْبها فحبلتْ .

وقد شهد اللهُ تعالى بأن مريم صِدِّيقة في قوله : ﴿ وصدَّقتْ بكلمات ربِّها وكتبه ﴾ ، أي آمنتْ بقَدَر الله تعالى وشرعه وكتبه السماوية . وفي هذا إشارة بليغة إلى علم السيدة مريم بالكتب السماوية وقراءتها لهذه الكتب. فلا يُعقَل أن تؤمن بشيء تجهله . وهذا غير مستغرب ، فهي العالِمة التقية الطاهرة التي اختارها اللهُ تعالى على نساء العالَمِين . وهي القانتة العابدة لخالقها ، والمطيعة له، والملتزمة بأوامره ، والمجتنبة لنواهيه .

وهكذا نجد أن الله تعالى قد كرَّم المرأة كامرأة ، وذكر امرأتين عابدتَيْن ، وجعلهما مثلاً خالداً للإيمان الذي لا يهتز أمام الأزمات .

وعن أبي موسى الأشعري _ رضي الله عنه_ عن النبي ﷺ قال : ((كَمُلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون))[17] .

وقد أثبت النبيُّ ﷺ الكمال لمريم وآسيا _ رضي الله عنهما _ ، وهذا يعني وصولهما إلى رتبة الولاية العظمى ، ومنتهى الفضائل والأخلاق الطيبة ، وقمةِ الطهارة .

---

(١٧) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٠٦٧) برقم (٥١٠٢)،ومسلم (٤/ ١٨٨٦) برقم (٢٤٣١).

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ قال: قال رسول الله ﷺ : ((إن أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد،ومريم بنت عمران،وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون))(18).

وبالطبع ، فهؤلاء النساءُ العظيمات لم يصلن إلى هذه المكانة السامية إلا بالإيمان بالله تعالى ، والصبر على الشدائد، والتحلي بالأخلاق الفاضلة . وهُنَّ بذلك يُعطينَ القدوةَ الحسنة لباقي النساء من بعدهن . والمرأةُ الحريصة على رضا الله تعالى تقتفي آثارهن وتتشبَّه بهن ، بدلاً من التشبه بالممثلات والمطربات في الشرق والغرب .

٨ _ النفاق :

إن النفاق يعني إظهار عكس الباطن ، أو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر ، أو إظهار الصداقة وإخفاء العداوة . لذلك فهو بالغ الخطورة في المجتمع الإنساني عموماً ، والإسلامي خصوصاً . فمن شأنه تفتيت أوصال المجتمع ، وتدمير معنويات أبنائه، والقضاء على المكتسبات الوطنية . وكل هذه العوامل تقضي على تماسك الجبهة الداخلية ، وتجعل من البلاد والعباد لقمةً سائغة للأعداء . فالشيء لا يمكن أن يَسقط إلا إذا سقط من الداخل .

لذلك كان المنافقون (العدو الخفي) أشد خطورة من الكافرين (العدو الواضح)، لأن العدو الخفي لا تعلم من أين تأتي ضربته وغدره وخيانته، فيصبح عنصر المفاجأة شديد الخطورة، خصوصاً مع انعدام إمكانية التوقع وأخذِ الاحتياطات. أما العدو الواضح فمعلومٌ مكانه وإمكانياته ، وبالتالي لا مكان للمباغتة والمفاجأة. فيمكن أخذ الحيطة والحذر بسبب معرفة الشخص وقدراته وارتباطاته، فيكون الوضع تحت السيطرة .

فليس غريباً أن يكون عذاب المنافق أشد بكثير من عذاب الكافر . فقد قال الله تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ [النساء : ١٤٥] .

إي إنهم في أسفل النار . ((فالمنافق لَمَّا كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين ، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذي غرَّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين . ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف. ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح ونجح))(19) .

---

(١٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٩) برقم (٣٨٣٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٩) تفسير ابن كثير (١/ ٧٩) .

وقد فضح اللهُ تعالى المنافقين ، وكشف صفاتِهم للمؤمنين ، وأظهر كثيراً من المواقف التي صنعها المنافقون في محاولة يائسة منهم لتفريق الجماعة الإسلامية والقضاءِ على الدعوة . وهذه الإرشادات الإلهية جاءت لكي يأخذ المؤمنون حذرهم ، ويعملوا على تقوية الجبهة الداخلية لمجتمعاتهم ، ويمنعوا المنافقين من تنفيذ مخططاتهم الدنيئة . فالمؤمنُ كَيِّسٌ فَطِن ، وليس مُغفَّلاً يُضحَك عليه ، ويتم التلاعب به .

قال الله تعالى :﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلا بعضُهم إلى بعض قالوا أتحدِّثونهم بما فتح اللهُ عليكم ليحاجوكم به عند ربِّكم أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : ٧٦] .

وهؤلاء المنافقون كانوا إذا لقوا المؤمنين ادعوا الإيمانَ نفاقاً لخداع المؤمنين ، وتنفيذ أهدافهم التدميرية . وإذا خلا بعضهم ببعض وكانوا لوحدهم قالوا : ((أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاه فيكم ؟ . ومن حكمه _ جل ثناؤه _ عليهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد ﷺ ، وبما جاء به في التوراة . ومن قضائه فيهم أن جعل منهم القردة والخنازير ، وغير ذلك من أحكامه وقضائه فيهم . وكل ذلك كان لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به حُجَّة على المكذِّبين به من اليهود المقرِّين بحكم التوراة وغير ذلك من أحكامه وقضائه)) [تفسير الطبري (١/ ٤١٢)] .

وهؤلاء المنافقون كتموا العلمَ خوفاً أن يُحتج به عليهم . فهم يضحكون على أنفسهم ظناً منهم أنهم بذلك يحافظون على مكانتهم بين الناس ، ويخدعون المؤمنين من أجل تحقيق مآربهم المادية الوضيعة . وهذه هي الفلسفة اللامنطقية للمنافقين في كل العصور .

وقال الله تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذين يزعُمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليكَ وما أُنزل من قبلكَ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقدْ أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطانُ أن يُضِلَّهم ضلالاً بعيداً (٦٠) وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل اللهُ وإلى الرسول رأيتَ المنافقين يَصُدُّون عنكَ صدوداً (٦١) ﴾ [سورة النساء] . هذا إنكار من الله تعالى على هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أُنزل على محمد ﷺ والأنبياء السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ . ومع هذا لم يرضوا بحكم الكتاب والسنة . بل يريدون التحاكم إلى غيرهما .

أما سبب نزول الآيات السابقة . فعن الشعبي قال : ((كان بين رَجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة ، فدعا اليهوديُّ المنافقَ إلى النبي ﷺ لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة ، ودعا المنافقُ اليهوديَّ إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذونها))[20] .

وهكذا نرى أن المنافقين _ دائماً _ ينتهجون الأساليب الملتوية، فلا يحبون أن يسلكوا الصراطَ المستقيم لأنه يتعارض مع مصالحهم الآنية الدنيوية الزائلة ، فتراهم يسلكون كل السبل المنحرفة التي من شأنها أن تحقِّق أطماعهم ، وتوفِّر لهم شرعيةً مصطنعة للحفاظ على مكاسبهم المادية ومكانتهم الاجتماعية . وهم دائمو التحرك بفعل أهوائهم ومصالحهم الشخصية بغض النظر عن موقف الشريعة منها .

أما الطاغوت فهو كل معبود من دون الله تعالى . والمقصود به في الآية على قولَيْن :

الأول _ أنه حاكم اليهود أبو برزة الأسلمي قبل أن يسلم ويصحب (يصبح صحابياً)[21].

والثاني _ أنه كعب بن الأشرف[22] . وهو من أكابر سادة اليهود . وقد سُمِّيَ بالطاغوت لشدة طغيانه وعداوته للنبي ﷺ .

وقد أُمروا بأن يكفروا بالطاغوت، ويؤمنوا بالله تعالى، ويتحاكموا إلى الكتاب والسنة وحدهما. لكنهم رفضوا ذلك اتباعاً للهوى والمصلحة الشخصية ، وساروا في طريق الشيطان الذي يريد إضلالهم وإغواءهم ، وقيادتهم إلى طريق الجحيم . وهؤلاء المنافقون إذا دُعوا إلى الكتاب والسنة ليحكما بينهم بالحق والخير، فإنهم يعرضون عن النبي ﷺ رافضين الاحتكام إلى الشريعة . وهذا سقوطٌ مريع يجعل من الإنسان كائناً شاذاً عن مسار الحق والحقيقة ، ومتمرداً على الشريعة الإلهية. والإنسان بذلك يُلقي بنفسه إلى الهاوية . فاللهُ تعالى هو خالقُ الإنسانِ وواضعُ الشريعة ، وهو أعلم بالإنسان من نَفْسه ، وما يُصلحه وما يُفسده . والمؤمنون يحملون صفاتٍ معاكسة لصفات المنافقين . إذ إن الإيمان يوجب على الإنسان أن يحتكم إلى الكتاب والسُّنة ، وأن يرضى بحكمهما . وهذه صفة لا تستقر إلا في قلب استقر فيه الإيمان . كما أن الاعتراض على الحكم الإلهي والحكمِ النبوي كارثة حقيقية تقضي على الإنسان ، وتجعل منه ظلاً باهتاً للأهواء والجهل .

---

(٢٠) قال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧) : رواه إسحاق بن راهويه في تفسيره بسند صحيح .

(٢١) قال ابن حجر : رواه الطبري بسند صحيح عن ابن عباس [انظر المرجع السابق] .

(٢٢) قال ابن حجر : رواه الطبري بسند صحيح إلى مجاهد [انظر المرجع السابق] .

فعن عبد الله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ أنه حدَّثه : أن رَجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة_ مسايل الماء ـ التي يسقون بها النخل ، فقال الأنصاري : سرِّح الماء يمر فأبى عليه ، فاختصما عند النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ للزبير : ((اسقِ يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك)).فغضب الأنصاري فقال: أن كان ابن عمتك ؟ ، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : ((اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر)). فقال الزبير : والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿ فلا وربِّكَ لا يؤمنون حتى يحكِّموكَ فيما شجر بينهم ﴾[النساء : ٦٥] [23] .

لقد أمر النبيُّ ﷺ الزبير أن يسقيَ ثم يرسل الماءَ إلى جاره . لكنَّ الأنصاري قد تلفظ بكلام بالغ القبح ، فقد طعن في حكم النبي ﷺ ، واتهمه بالمحاباة مع أقربائه . إذ إن والدة الزبير هي السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ . وقد تلوَّن وجهُ النبي ﷺ بسبب انتهاك حرمات الله تعالى . ولم يكن ليغضب لنفسه الشريفة لأن قداسة الشريعة فوق مكانة النبي ﷺ . وهذا هو قمة السُّمو الأخلاقي ، وتقديم الشريعة الإلهية على الشخصية النبوية . فأمر ﷺ الزبيرَ أن يحبس الماءَ حتى يرجع إلى الجدر (الحواجز التي تحبس الماءَ) ، أي حتى تبلغ تمام الشرب . وهذه هي العدالة النبوية في الحكم بين الناس بغض النظر عن درجة القرابة .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : ((وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حُرمة الله فينتقم لله بها))[24] .

وهذا الكلامُ من الأنصاري جهلٌ وتهور . فكل من يطعن في النبي ﷺ كافرٌ بالإجماع . وإنما تركه النبي ﷺ لأنه كان في أول الإسلام يتألف الناس ، ويصبر على أذاهم ، ويرشدهم إلى الخير .

والنبي ﷺ لم يظلم الأنصاري ، لأن أولوية السقي كانت للزبير ـ رضي الله عنه ـ بحكم موقع أرضه . فلا يجوز الاعتراض على الحكم النبوي المعصوم، ولا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسولَ ﷺ في كل الأمور ، ويخضع لحكمه دون اعتراض ، فلا يمكن أن يتساوى الحكمُ النبوي المؤيَّد بالوحي المعصوم مع الحكم البشري القاصر .

---

(٢٣) متفق عليه. البخاري (٢/ ٨٣٢) برقم (٢٢٣١)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩) برقم (٢٣٥٧) .

(٢٤) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣٠٦) برقم (٣٣٦٧)، ومسلم (٤/ ١٨١٣) برقم (٢٣٢٧).

قال الله تعالى : ﴿ وإن منكم لَمَن ليُبَطِّئَنَّ فإنْ أصابتْكم مصيبةٌ قال قدْ أنعم اللهُ عليَّ إذْ لم أكن معهم شهيداً (٧٢) ولئنْ أصابكم فضلٌ من الله ليقولنَّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودةٌ يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً (٧٣) ﴾ [سورة النساء] .

ويتوالى فضح المنافقين . ويجيء التحذير الإلهي بأن بين المؤمنين مجموعة مدسوسة من المنافقين الذين يظهرون الإيمان تقيةً. والمنافق يتباطأ في الخروج للجهاد ، ويُبطئ غيره لكي يثبِّطهم ، ويقضيَ على معنوياتهم .

فإن أصاب المسلمين خسارة أو تفوق عليهم العدو لحكمة إلهية ، فإن هذا المنافق يفرح بعدم وجوده مع المؤمنين في تلك الموقعة، وما درى بتضييعه للأجر الإلهي الجزيل. أما إن انتصر المسلمون وحصلوا على الغنائم فيقول كأنه من ليس المؤمنين ﴿ يا ليتني كنتُ معهم ﴾، وذلك للحصول على المكاسب المادية ، وتحقيق أرباح شخصية محضة .

وقال الله تعالى :﴿ ويقولون طاعةٌ فإذا برزوا من عندكَ بيَّت طائفةٌ منهم غير الذي تقول ﴾ [النساء : ٨١] .

وهؤلاء المنافقون عندما يكونون في حضرة النبي ﷺ يزعمون طاعته ، وموافقته ، وامتثالهم لأوامره، فإذا خرجوا قامت طائفة منهم بتبديل الكلام وتغيير المواقف لتحقيق مكاسبهم الشخصية. وهم يعتقدون بذلك أنهم يكسبون الوقت ، ويلعبون على الحبال دون أن يُكتشف أمرهم ، لكن الله تعالى يكتب أعمالهم الشريرة ، وسوف يحاسبهم عليها حساباً عسيراً . فكما هو معلوم إن الأحكام الدنيوية تُجرى على الظاهر ، أما السرائر فحسابها عند الله تعالى ، ولا طريق للبشر لمعرفتها . وبالتالي فالمنافق يضحك على نفسه لأنه يقامر بمصيره ، ويضيع دنياه وآخرته مجاناً .

وقال الله تعالى : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتَيْن واللهُ أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل اللهُ ومَن يُضللِ اللهُ فلن تجد له سبيلاً ﴾ [النساء : ٨٨] .

هذه الآيةُ تشير إلى انقسام المؤمنين في أمر المنافقين إلى فرقتَيْن ، وهذا عائد إلى اجتهادهم البشري وفق العلم الذي لديهم . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . وفي هذا إشارةٌ إلى صعوبة التعامل مع المنافقين لأنهم أعداء يمتازون بالخفاء ، والتلاعب بالألفاظ . لذلك حصل الاختلافُ حَوْلهم. ولو كانت عداوتهم ظاهرةً لَمَا خُفِيت على أحد ، ولَمَا حصل الاختلافُ بشأنهم .

وعن زيد بن ثابت_رضي الله عنه_قال:((لَمَّا خرج النبي ﷺ إلى أُحد، رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم. فنزلت﴿ فما لكم في المنافقين فئَتَيْن ﴾ [25] .

ومعناه : أي شيء لكم في الاختلاف في أمرهم . وهذا إنكار وتوبيخ للمؤمنين الذين يحكمون وفق علمهم الشخصي القاصر ، فيأتي التوجيه الرباني الكامل المعصوم ليرشد المؤمنين ، ويصحِّح أخطاءهم ، ويقودهم إلى جادة الصواب . فاللهُ تعالى يتولى أمر عباده الصادقين ، ولا يتركهم لآرائهم الشخصية . واللهُ تعالى أركس المنافقين ، أي ردَّهم إلى الضلال والكفر جزاء أعمالهم الدنيئة ، وعقوبة لهم على أفعالهم القبيحة. ولا يمكن هداية من أضلهم اللهُ تعالى وختم على قلوبهم . فهم يستحقون ذلك، فقد ظلموا أنفسهم ، وما ظلمهم اللهُ تعالى . ومن أضله اللهُ فلا تفلح كل المخلوقات في هدايته ، ومن يطرده اللهُ فلن ينجح أحد في إيوائه .

وتتوالى الآياتُ في إبراز صفات المنافقين السيئة . ومنها _ بل من أهمها _ موالاة الكافرين ، والاستقواء بهم لنيل العزة الوهمية ، وإيجاد ظهر يسندهم _ وفق ما يتصورون _ .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العِزَّةَ فإن العزة لله جميعاً ﴾[النساء : ١٣٩] . هؤلاء المنافقون يتخذون الكافرين نصراء وداعمين وأولياء متجاوزين بذلك ولايةَ المؤمنين . ويلجأ المنافقون لهذا العمل لنيل العِزة الوهمية ، والمنعةِ ، والحماية . لكن العِزة الحقيقية هي لله تعالى ومن خضع لأمره . والمؤمنون لا يوالون أعداءَ الله تعالى ، بل يوالون المؤمنين وينصرونهم. وعن علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ:((المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم))[26] .

وهذا يشير إلى وحدة الجماعة الإسلامية ، وكونها يداً واحدة ، ومجتمعاً متماسكاً من قاعدة هرمه حتى الرأس . حيث يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً ، ولا يسمحون للغرباء (الكفار) بالدخول فيما بينهم لتفريق كلمتهم ، وتشتيت رأيهم ، وبث الوهن فيهم . فالمسلمون على الحق يتحركون في ظل الشريعة الإلهية ، وغيرهم على الباطل يتحركون بفعل قوة الأهواء ، وتضليلِ الشيطان . لذلك رفض النبيُّ ﷺ أن يساعده أحد المشركين في المعركة، لأن المسلمين يقاتلون بدافع العقيدة الإسلامية الواضحة المستقيمة ، أما الكافرون فيقاتلون رياءً وسُمعة ، وبدافع تحقيق أرباح مادية .

---

(٢٥) متفق عليه. البخاري (٢/ ٦٦٦) برقم (١٧٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٤٢) برقم (٢٧٧٦).

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٥٣) برقم (٢٦٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ففي صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٩): عن عائشة_رضي الله عنها_ أنها قالت:خرج رسول الله ﷺ قِبَل بدر، فلما كان بحرة الوبرة _ اسم مكان _ أدركه رجل قد كان يُذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ : جئتُ لأتبعك وأصيب معك ، قال له رسول الله ﷺ: ((تومن بالله ورسوله ؟))، قال: لا ، قال : ((فارجع فلن أستعين بمشرك)).

وقال الله تعالى في وصف المنافقين وفضحهم :﴿ الذين يتربَّصون بكم فإن كان لكم فتحٌ من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾ [النساء : ١٤١] .

فالمنافقون ينتظرون ماذا يحدث في أثناء المعركة وبعدها لكي يصوغوا مواقفهم الشريرة في اللعب على كل الحبال، ودراسة كل الاحتمالات. فإن انتصر المسلمون ، وحقَّقوا إنجازاتٍ حاسمة، جاء المنافقون يمدحون أنفسهم بأنهم قاتلوا إلى جانب المسلمين ، ودافعوا عنهم ، وكانوا معهم في الشدة ، فيطلبون نصيبهم من الغنائم . أما إن كان للكافرين نصر وظفر ، فيقولون للكافرين ألم نغلبكم ونقدر على قتلكم وأسركم ، لكننا حافظنا عليكم ، وحميناكم من المؤمنين ، فهاتوا نصيبنا من المكاسب التي حصلتم عليها .

قال الله تعالى:﴿إذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ غَرَّ هؤلاء دينُهم ﴾ [الأنفال: ٤٩].

وقد قال المنافقون والذين في قلوبهم شك دون نفاق لكَوْنهم حديثي عهد بالإسلام إن المسلمين قد غرَّهم دينُهم حتى تكلَّفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش . وهذا الأسلوب الدنيء في لغة النفاق يهدف إلى تثبيط المؤمنين، وتدميرِ معنوياتهم، لكي يصبحوا فريسةً سهلة لأعدائهم. فإذا سقطت معنويات المقاتِلين فسيخسرون المعركة لا محالة . وهذا هو الوتر الحساس الذي يضرب عليه المنافقون في كل زمان ومكان . والمنافقون يفتقدون إلى الشجاعة والإقدام ، لذلك يخترعون الأعذار للهروب من المواجهات الحاسمة . وذلك لأن الدنيا بالنسبة إليهم هي حلمهم النهائي الحاسم ، فلا ينظرون إلى الأجر الإلهي الذي ينتظرهم إذا بذلوا جهدهم بإخلاص ، وقاموا بالتضحية من أجل الإسلام والمسلمين . قال الله تعالى : ﴿ إنما يستأذنكَ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبُهم فهم في رَيْبهم يترددون (٤٥) ولو أرادوا الخروجَ لأعدُّوا له عُدَّةً ولكن كره اللهُ انبعاثهم فثبَّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين (٤٦) ﴾ [سورة التوبة] .

فالمنافقون يستأذنون النبي ﷺ للتخلف عن الجهاد مستخدمين أعذاراً واهية للهروب من هذه المسؤولية لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر . فقلوبهم مرتابة مليئة بالشبهات والشكوك التي يغرقون

فيها أكثر فأكثر . ولو أنهم كانوا صادقين لأعدوا عُدةً للجهاد ، وقاموا بتجهيز أنفسهم وعتادهم ، لكنهم لم يستعدوا للخروج، فكره اللهُ انبعاثهم ، فخذلهم ، وردَّهم على أعقابهم خاسرين وقاعدين.

وقال الله تعالى :﴿ يحذر المنافقون أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تنبِّئهم بما في قلوبهم قُلِ استهزؤوا إن الله مُخْرِجٌ ما تحذرون ﴾ [التوبة : ٦٤] .

فقد كانوا يحذرون أن تُنزَّل سورةٌ تفضحهم وتكشف سرَّهم للمؤمنين . وهم مستمرون في استهزائهم وغيِّهم ، واللهُ تعالى يكشف أمرَهم للمؤمنين ، ويُنزل سورةً تفضحهم . وقد فضحهم في مواضع كثيرة في القرآن ، وبيَّن صفاتهم الدنيئة ، ومواقفهم المخزية .

وقال الله تعالى :﴿ وممَّن حَوْلكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذِّبهم مرَّتَيْن ثم يُرَدُّون إلى عذابٍ عظيم ﴾ [التوبة : ١٠١] .

ويتواصل توضيح أحوال المنافقين الدنيئة . فهؤلاء المنافقون الذين هم حَوْل المدينة : مزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وغفار ، وأشجع . ومن أهل المدينة منافقون أيضاً أقاموا على النفاق وغرقوا فيه فلم يفارقوه، وتخصَّصوا فيه فخفي أمرُهم على النبي ﷺ والمؤمنين ، فلم يقدروا على تحديد أسمائهم، لكن الله تعالى يعلمهم ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . وينتظرهم عذابان قبل نار الآخرة وهما : عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ، لكي يذوقوا جزاء أعمالهم البشعة الرامية إلى القضاء على الدعوة الإسلامية ، وإعادة الناس إلى الكفر والضلال .

وقال الله تعالى :﴿ ألا إنهم يثنون صدورَهم ليستخفوا منه ألا حين يَسْتغشون ثيابَهم يعلم ما يُسِرُّون وما يُعْلِنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ [هود : ٥] .

إن المنافقين يكتمون في قلوبهم الحقدَ على الإسلام وعداوةَ النبي ﷺ ، ويطوونها على المكر والخديعة . وهم يقومون بذلك ليستخفوا من الله تعالى أو من رسوله ﷺ . ويغطون رؤوسهم بثيابهم لكي يحيكوا المؤامراتِ دون أن يراهم أحد _ في اعتقادهم _ . لكن الله تعالى يعلم سرَّهم وعلانيتهم . فلا يمكن إخفاء أي شيء عليه _ سبحانه وتعالى _ .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا اللهُ ورسولُه إلا غروراً ﴾ [الأحزاب : ١٢] . هذه الآية تقدِّم وصفاً دقيقاً لحال المنافقين ومبلغ علمهم وموقفهم المخزي وقولهم الجاهل الوقح الرامي إلى خنق الدعوة الإسلامية ، وبث الإشاعات والشكوك في النفوس عن طريق استغلال الأوضاع ، ومحاولة تحويلها عن حقيقتها . فطبعُ المنافقين أنهم يحاولون اصطياد أية لحظة وتحويلها إلى نقطة في صالحهم _ حسب اعتقادهم الفاسد _ .

فالمنافقون والذين قلوبهم مرض الشك والحيرة اعتبروا الوعدَ الإلهي والوعدَ النبوي باطلاً بلا أية قيمة . وهذا تجديفٌ كارثي وكفرٌ ممزوج بالوقاحة والجهل وغيابِ بعد النظر . ((قيل : قائله معتب بن قشير _ أحد المنافقين _ قال : يعدنا محمد بفتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً _ خوفاً _ ، ما هذا إلا وعد غرور))[27] .

وقال الله تعالى :﴿ وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا ويستأذن فريقٌ منهم النبيَّ يقولون إن بيوتنا عَوْرةٌ وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ [الأحزاب : ١٣][28] .

وتستمر خيانة المنافقين حيث قالوا لأهل المدينة : لا مكان لكم هنا ولا إقامة ، فاتركوا محمداً وأصحابه لوحدهم . وهذه دعوة لعزل النبي ﷺ وصحابته ، وجعلهم محاصَرين بلا قوة بشرية داعمة . وتأتي فرقة من المنافقين بعذر واهٍ ، حيث يزعمون أن بيوتهم عَوْرة ، أي غير حصينة ، فيخافون عليها اللصوص أو الاعتداء عليها . وقد كذَّبهم اللهُ تعالى ، ونفى أن تكون عَوْرة لكنهم يريدون الهرب وعدم المواجهة .

---

(٢٧) تفسير البيضاوي (١/ ٣٦٦) .

(٢٨) يثرب : هو الاسم القديم للمدينة المنورة . ((ويقال كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب بن عبيد)) [تفسير ابن كثير ٣/ ٦٢٤] . وفي الحديث المتفق عليه (البخاري ٣/ ١٣٢٦ ومسلم ٤/ ١٧٧٩) أن النبي ﷺ قال : ((رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب)) . أي إن ظن النبي ﷺ ذهب إلى اليمامة (بلد من بلاد الحجاز) أو هجر (بلد في اليمن) . وفي فتح الباري (٤/ ٨٧) : ((يقولون يثرب ، وهي المدينة . أي أن بعض المنافقين يسمِّيها يثرب ، واسمها الذي يليق بها المدينة . وفهم بعض العلماء من هذا كراهة تسمية المدينة يثرب . وقالوا : ما وقع في القرآن إنما هو حكاية عن قول غير المؤمنين)) اهـ . وقد روى أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٥) عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن سمَّى المدينة يثرب فليستغفر الله _ عز وجل _ ، هي طابة هي طابة)) . لكن ابن كثير ضعَّفه في تفسيره (٣/ ٦٢٤) . ففي سنده يزيد بن أبي زياد . قال عنه الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٠٨) : ((والأكثر على ضعفه)). وضعَّفه ابن حجر في تلخيص الحبير (٢/ ٢٧٤) . وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣/ ٢٢١) : ((متكلم فيه)) .

وقال الله تعالى عن المنافقين الكاذبين : ﴿ ولَوْ دُخلت عليهم من أقطارها ثم سُئلوا الفتنةَ لآتَوْها وما تلبَّثوا بها إلا يسيراً ﴾[الأحزاب : ١٤][29] .

أي : لو دخل الأعداءُ على هؤلاء المنافقين من كل جوانب المدينة ثم طُلب من المنافقين أن يكفروا ، ويقاتلوا المسلمين ، لفعلوا ذلك سريعاً دون تردد لفساد عقائدهم ، وغيابِ الحق في قلوبهم ، وخرابِ نياتهم ، وانعدامِ ثقتهم بأنفسهم .

وقال الله تعالى :﴿ أشِحَّةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليكَ تدور أعينهم كالذي يُغشَى عليه من الموت فإذا ذهب الخوفُ سلقوكم بألسنةٍ حِداد أشحَّةً على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط اللهُ أعمالَهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ [الأحزاب : ١٩] .

وقد وصف اللهُ تعالى هؤلاء المنافقين بأنهم بخلاء على المؤمنين ، لا يساعدونهم لا مادياً ولا معنوياً. فإذا جاء الخوف أُصيبوا بالجزع والقلق وانعدام الاتزان وذهول العقل ،كالشخص الذي أصابته علامات الموت ، وهذه صفة الجبناء على الدوام . فإذا شعروا بالأمن آذوا المؤمنين بألسنة سليطة وقحة ، ويتميزون بالبخل الشديد . وكل هذه الصفات تكاثرت فيهم لأنهم لم يؤمنوا بالله واليومِ الآخر . فأفسد اللهُ أعمالَهم وأبطلها ، وردَّهم خاسرين في الدنيا والآخرة معاً .

وقال الله تعالى : ﴿ لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجِفون في المدينة لنُغْرِيَنَّكَ بهم ثم لا يجاورونكَ فيها إلا قليلاً ﴾ [الأحزاب : ٦٠] .

إذا لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض الفجور وشهوة الإثم ، والمرجِفون الذي يبثون الإشاعات لخلخلة الصفوف ، وإسقاطِ الروح المعنوية ، وتشتيتِ كلمة المجتمع ، فإن الله تعالى سيُسلِّط عليهم النبيَّ ﷺ ليستأصلهم . فيخرجون من المدينة ولا يعودون لمجاورة النبي ﷺ إلا زمناً

(٢٩) قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٧١) : ((وأخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند صحيح عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ﴿ ولَوْ دُخلت عليهم من أقطارها ثم سُئلوا الفتنةَ لآتَوْها ﴾ ، يعني إدخال بني حارثة أهل الشام على أهل المدينة في وقعة الحرَّة)) اهـ . ووقعة الحرَّة سببها أن أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية لما بلغهم ما يتعمده من الفساد ، فأمَّر الأنصار عليهم عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر ، وأمَّر المهاجرون عليهم عبد الله بن مطيع العدوي . وأرسل إليهم يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري في جيش كثير فهزمهم واستباحوا المدينة، وقتلوا ابن حنظلة وقُتل من الأنصار شيء كثير جداً [انظر فتح الباري لابن حجر ٨/ ٦٥١] .

قليلاً استعداداً للخروج . وقد كان النبيُّ بعيد النظر في التعامل مع المنافقين فلم يقتلهم لئلا يسبِّب ذلك بلبلةً في المجتمع الإسلامي ، وإضعافاً للروح المعنوية ، فيظهر المجتمع الإيماني ممزَّقاً يقتل بعضُه بعضاً. لذلك قال النبي ﷺ:((لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابَه))(30) .

وقد صلى النبيُّ ﷺ على عبد الله بن أبي بن سلول (رأس المنافقين) مع علمه بأحواله السيئة وأقواله الدنيئة ومواقفه القذرة .

ففي صحيح البخاري (٤/ ١٧١٥) عن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ أنه قال : لَمَّا مات عبد الله بن أُبي بن سلول دُعِيَ له رسول الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عليه ، فلمَّا قام رسولُ الله ﷺ وثبتُ إليه فقلتُ : يا رسول الله ، أتصلِّي على ابن أُبي وقد قال يوم كذا : كذا وكذا ؟ ، قال : أُعدِّد عليه قوله ، فتبسم رسولُ الله ﷺ وقال : ((أَخِّر عني يا عُمر) . فلمَّا أكثرتُ عليه قال : ((إني خُيِّرت فاخترتُ ، لو أعلمُ أني إن زِدتُ على السبعين يُغفَر له لَزِدْتُ عليها)) . قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة : ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾[التوبة: ٨٤].

إن النبي ﷺ رحيمٌ بأصحابه في حياتهم ومماتهم . لذلك إذا مات أحدُهم يُصلِّي عليه ليرحمه الله تعالى ، وينتفع ببركة الصلاة النبوية . وعبد الله بن أُبي بن سلول كان رأس النفاق ، يُظهر الإيمان ويُبطن الكفرَ . وعمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ كان حريصاً على الدِّين ، وقد حَكم بأنه منافق بسبب اطلاعه على شؤونه. أمَّا النبي ﷺ فأجرى الحُكم وفقاً لظاهر الأمر وهو إسلام عبد الله ابن أُبي ، ولما في ذلك من مصلحة يَعرفها النبي ﷺ ويُقدِّرها حق قَدْرها . والنبي ﷺ ليس ساذجاً ولا مغفلاً ، واللهُ تعالى لا يمكن خداعه . وما صلاةُ النبي ﷺ على هذا المنافق إلا مؤشر باهر على رحمته بالناس ، واتساع صدره ، وطهارة قلبه . وكلُّ نَفْسٍ ذَهبت إلى النار فقد أَفلتت من النبي ﷺ ، لذلك يَحزن عليها .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٣٥) : ((أما جزم عمر بأنه منافق فجرى على ما كان يطلع عليه من أحواله . وإنما لم يأخذ النبي ﷺ بقوله وصلى عليه إجراء له على ظاهر حكم الإسلام ... واستصحاباً لظاهر الحكم ، ولما فيه من إكرام ولده الذي تحققت صلاحيته ، ومصلحة الاستئلاف لقومه ، ودفع المفسدة . وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصبر على أذى المشركين ويعفو

(٣٠) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٦١) برقم (٤٦٢٢)،ومسلم (٤/ ١٩٩٨) برقم (٢٥٨٤).

ويصفح ، ثم أُمر بقتال المشركين فاستمر صفحه وعفوه عمن يظهر الإسلام ولو كان باطنه على خلاف ذلك لمصلحة الاستئلاف وعدم التنفير عنه ... فلما حصل الفتح ودخل المشركون في الإسلام، وقلَّ أهل الكفر وذلوا ، أمر بمجاهرة المنافقين ... ولا سيما وقد كان ذلك قبل نزول النهي الصريح عن الصلاة على المنافقين ... قال الخطابي : إنما فعل النبي ﷺ مع عبد الله بن أبي ما فعل لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدِّين ، ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل الصالح ، ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم . فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح لكان سُبَّة على ابنه وعاراً على قومه ، فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة)) اهـ .

وقال الله تعالى :﴿ ومنهم من يستمع إليكَ حتى إذا خرجوا من عندكَ قالوا للذين أُوتوا العلمَ ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع اللهُ على قلوبهم واتَّبَعوا أهواءهم ﴾ [محمد : ١٦] .

وهؤلاء المنافقون كان يستمعون إلى النبي ﷺ ، فإذا خرجوا من عنده قالوا لجماعة الصحابة أصحاب الحصيلة العلمية الوافرة : ماذا قال قبل قليل ؟. حيث إنهم لم يفهموا كلامَه ﷺ ، فأضافوا إلى جهلهم سخريةً ووقاحة وسوء أدب. فختم اللهُ على قلوبهم بالكفر والضلال ، واتبعوا أهواءهم الباطلة وأمانيهم التي لا أساس لها على أرض الواقع .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قوله _عز وجل _ :﴿ حتى إذا خرجوا من عندكَ قالوا للذين أُوتوا العلمَ ماذا قال آنفاً ﴾ . قال : ((كنتُ فيمن يُسأل))[31] .

والمنافقون لا يسألون حرصاً على العلم والتعلم . فأسئلتهم تُظهر ما في قلوبهم من حقد وحسد وكُفر وسخرية . فَهُم يَحملون فكرةً مسبقة ثابتة ، ولا يُريدون تغييرها سواءٌ ظَهر لهم الحق أم لم يَظهر . وقال الله تعالى : ﴿ وإذا رأيتَهم تعجبكَ أجسامُهم وإن يقولوا تَسْمَعْ لقَوْلهم كأنهم خُشُبٌ مُسنَّدة يحسبون كلَّ صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم ﴾ [المنافقون : ٤] .

وهؤلاء المنافقون أصحاب خِلقة سوية وقاماتٍ منتصبة فكان النبيُّ ﷺ حينما يراهم تعجبه أشكالهم ، وحينما يتكلمون يسمع لهم لأنهم أصحاب منطق ، ويجيدون الكلامَ المعسول . لكن الله تعالى الذي يعلم السرَّ وأخفى مطَّلع على نفوسهم الخبيثة ، فهم كالخشب المسندة لا خير فيها ولا منطق . فهم أشباح بلا أرواح ، وأجسام بلا عقول. ومن شدة جبنهم وخوفهم يحسبون كل صيحة أو أمر أنه نازل بهم . فكاد المريب أن يقول خذوني . فهؤلاء هم العدو الخطير الذين

---

(٣١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٦) برقم (٣٧٠٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يختفون وراء الكلام المعسول . وجاء الأمرُ الإلهي للنبي ﷺ بالحذر منهم لخبثهم ومكرهم وحقدهم . فالعدو الخفي أخطر بكثير من العدو المكشوف .

وكما قال حسان بن ثابت _ رضي الله عنه _ :

لا بَأْسَ بالقَوْمِ من طُولٍ ومن عِظَمٍ   جِسْمُ البغالِ وَأحْلامُ العَصَافِيرِ

وقال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ولله العِزَّة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[المنافقون : ٨] .

فالمنافقون قالوا حينما نرجع من غزوة بني المصطلق إلى بلدنا (المدينة المنورة) ليخرج الأعزُّ (قصدوا به ابن سلول وأتباعه) الأذلَّ (قصدوا به النبي ﷺ وصحابته) .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : كنا في غزاة ، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال الأنصاري : يا للأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ... وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر ، ثم كَثُر المهاجرون بعد . فقال عبد الله بن أبي : أو قد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، فقال عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، قال النبي ﷺ : ((دَعْهُ ، لا يتحدث الناس أن محمداً يَقتل أصحابه))(32) .

ونلاحظ أن رأس النفاق ابن سلول قد حوَّل النزاع بين الأنصاري والمهاجري إلى عصبية قَبَلية، وقام بصب الزيت على النار لإشعال الفتن ، إذ إن المنافقين دائمو الاصطياد في الماء العكر ، ويعشقون إذكاء نار الفتن، وما دروا أنها حصادهم . وهم يهدفون من وراء ذلك إلى تدمير المجتمع، والقضاء على إنجازاته ، واستئصال الدعوة من جذورها ، وإحراق الأخضر واليابس لكي ترتاح نفوسهم الشريرة الحاقدة . لكن النبي ﷺ بما يملكه من بعد نظر مؤيَّد بالوحي المقدَّس المعصوم لا يمكن استفزازه بالكلمات الدنيئة التي تصدر من هنا وهناك ، فقام بتهدئة عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ ، وأمره بترك ابن سلول ، لئلا يعتقد الناس أن محمداً ﷺ يقتل أصحابَه ، وعندئذ تتفرق كلمة المسلمين ، وينهار المجتمع الإيماني من جذوره ، وتذهب الدعوة الإسلامية أدراج الرياح بسبب البلبلة والإشاعات وأعداءِ الداخل والخارجِ .

---

(٣٢)متفق عليه واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٦٣)برقم(٤٦٢٤).ومسلم(٤/ ١٩٩٨)برقم(٢٥٨٤).

وقال ابن حجر في أُسد الغابة(١/ ٦٣٣):[فقال ابنه عبد الله للنبيﷺ : هو واللهِ الذليلُ وأنت العزيز يا رسول الله. إن أذنتَ لي في قتله قتلتُه ، فوالله لقد علمت الخزرجُ ما كان بها أحد أبر بوالده مني، ولكني أخشى أن تأمر به رجلاً مسلماً فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حياً حتى أقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار. فقال النبي ﷺ : ((بل نحسن صحبته ، ونترفق به ما صحبنا ، ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابَه، ولكن بِرَّ أباك وأحسن صحبته))][33] . تشير هذه القصة إلى القوة الإيمانية للصحابي الجليل عبد الله الذي والده هو زعيم المنافقين ، وكيف أنه قدَّم الإسلامَ على رابطة النسب ، واستعدَّ لقتل أبيه في سبيل الدعوة . لكن النبي ﷺ بما يملكه من بعد نظر مؤيَّد بالوحي لم يرد أن يفرِّق الجماعةَ الإسلامية ، ويثيرَ فيها الفتن والقلاقل ، ويتركها فريسةً لكلام الأعداء وطعنهم . وهذا يدل على أهمية القائد الذي ينظر إلى ما وراء الواقع حفاظاً على مصلحة رعيَّته .

ومن عظيم رحمة الله تعالى بخلقه أن جعل بابَ التوبة مفتوحاً . فالمنافقُ أمامه فرصة ذهبية للتوبة والعودة إلى الله تعالى لكي ينجوَ في الدارين . ولخطورة موضوع النفاق كانت التوبة منه أشد من التوبة من الكفر . فالكافر يدخل الإسلامَ بالشهادتين ، أما المنافق فعليه أن يحقِّق أربعة شروط معاً : التوبة ، والإصلاح ، والاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله .

فقد قال الله تعالى :﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلَصوا دينَهم لله فأولئك مع المؤمنين ﴾ [النساء : ١٤٦] . هذا الاستثناء يشمل المنافقين الذين أرادوا التوبة . فعليهم أن ينتهوا عن نفاقهم ويتوبوا ، ويصلحوا نياتهم وأفعالهم وأقوالهم ، ويعتصموا بالشريعة الإلهية المعصومة (الكتاب والسُّنة) ، ويجعلوا كل أعمالهم الفعلية والقَوْلية طلباً لرضا الله وحده . وبذلك يصبحون مؤمنين، لكن الله تعالى لم يقل: فأولئك هم المؤمنون، بل قال: ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ لكي يشعرهم بعظيم جُرْمهم (النفاق) ، وتشديد الله عليهم .

٩_ الرَّيْب والشك :

إن الشكوك إذا دخلت في القلب ستحيله إلى أنقاض ، وتنقل صاحبَه من الطمأنينة إلى القلق القاتل الذي يدمِّر الحياةَ الإنسانية ويفقدها معناها ، فيصبح الفردُ معولَ هدم في مجتمعه ، فيخسر الجميع ، وتذهب الجهود أدراج الرياح ، حيث يفقد الفردُ نفسَه في هاوية الألم والضياع والحيرة ،

---

(٣٣) انظر البداية والنهاية (٤/ ١٥٨)، وتاريخ الطبري (٢/ ١١٠)، وسيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٥).

ويخسر المجتمع طاقاتِ أبنائه، وهو في أمس الحاجة إليها. وهذا الضياع الشامل سيقود المجتمع إلى التفكك والانتحار التدريجي، بحيث يفقد القدرةَ على الوقوف على قدميه ، فيحصل الانهيار .

قال الله تعالى :﴿ ومِن الناس مَن يعبد اللهَ على حرف فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإن أصابته فِتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسران المبين ﴾ [الحج : ١١] .

وهؤلاء الفئة يعبدون اللهَ تعالى على جانب وطرف من الدين دون أن يتغلغل الإيمانُ في قلوبهم ويثبت . فهم يعبدون اللهَ تعالى على جهة واحدة وهي السَّراء دون الضراء . فإن حصلوا على الرفاهية ورغد العيش ثَبَتوا على الدين ، وإن تعرَّضوا لاختبار إلهي أو خسروا أموالهم ومكانتهم ارتدوا عن الإسلام وعادوا إلى الكفر . فيخسرون دنياهم وآخرتهم . وهذه هي أعظم خسارة .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٦٨) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ﴿ ومِن الناس مَن يعبد اللهَ على حرف ﴾ . قال : ((كان الرَّجل يقدم المدينة ، فإن ولدتْ امرأته غلاماً ونتجت خيلُه ، قال : هذا دِين صالح. وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله ، قال : هذا دِين سوء)).

وهؤلاء يربطون الدِّين بالمصالح المادية الدنيوية الزائلة ومدى تحصيلهم لها . وهم لا يملكون رؤيةً شمولية تقودهم إلى فهم السراء والضراء ، ومنهجيةِ الابتلاء بالشر والخير لتمييز الصادق من غير الصادق . لذلك فعقولهم _ في هذا السياق _ بدائية لا تتجاوز أرباحهم المحسوسة في محيطهم الضيق .

١٠_ الفتنة :

إن الفتن هي الابتلاء والاختبار الذي من شأنه تمييز الغث من السمين ، والصالح من الطالح .

وفي اللغة : فَتَنَه يَفْتِنُه فَتْناً _ إذابةُ الذهب بالنار لكي يتميز عن الشوائب العالقة به، ويصبح خالصاً نقياً . لذلك فالفتن تعمل على تمييز الخير من الشر ، وفصل الصالحين عن الفاسدين . إنها عملية غَرْبلة بالغة الدقة. والفتنُ هي حصاد المنافقين تفضحهم على رؤوس الأشهاد، وتعلي شأنَ الصادقين الذي ثبتوا في المواقف الصعبة .

وهذا الامتحان القاسي ليعلم اللهُ الصادقَ من الكاذب ، ويحصل كلُّ فرد على نصيبه الذي يستحقه . فإن كان صالحاً ثابتاً فالفتن هي طريقه إلى الجنة ، وإن كان فاسداً مضطربَ العقيدة فالفتن هي الضربة التي ستقضي عليه وتقوده إلى النار . وبالطبع فلا أحد يعرف قلبَه عند الفتن ، فلن يكون ثباتُ المرء نتيجة عبقريته . بل إن الثبات والتثبيت من الله تعالى .

قال الله تعالى :﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عَدُوّاً شياطينَ الإنس والجن يوحي بعضُهم إلى بعض

زُخرفَ القول غروراً ﴾ [الأنعام : ١١٢][34] .

في هذه الآية دعمٌ للنبي ﷺ وتسلية له . فكما جعل اللهُ تعالى للنبي ﷺ أعداءً يبارزونه بالعداوة العملية والقَوْلية، جعل ـ سبحانه وتعالى ـ أعداءً من الإنس والجن لكل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وهؤلاء شياطين يُوَسْوِس بعضهم لبعض ـ بشكل خفي ـ بالكلام المزيَّن المعسول لكي يخدعوا الناس ، ويُغروهم . وقد قدَّم اللهُ تعالى ذكر الإنس على الجن ، لأن شياطين الإنس أشد خطورةً لأنهم منتشرون بين الناس ، ويتم الاحتكاك بهم على الدوام ، ويتحركون في المجتمع طولاً وعرضاً مثل الآخرين ، ويتعاملون مع كافة الأصناف ، وينشرون الآثام والضلال في أوصال الجماعات البشرية . وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال : ((إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فَرُّوا من عمر))[35] .

وهذه منقبة جليلة لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حيث تفر منه شياطين الإنس والجن لقوته في الحق ، وهيبته العظيمة . وهذا الحديثُ يُثبِت وجود شياطين إنسية وشياطين من الجن .

وقال الله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ [الأنعام : ١٢١] .الشياطين يُوَسْوِسون إلى المشركين أوليائهم في الباطل ليجادلوا المؤمنين في موضوع الميتة . فالمجادلة تتمثل في قول المشركين للمؤمنين : أتأكلون مما قتلتُم ولا تأكلون مما قتل اللهُ (الميتة) ؟ . فإن الشياطين وأولياءهم المشركين يريدون من المؤمنين أن يأكلوا الميتةَ ليضلُّوهم . وإذا أطاع المؤمنون المشركين في مسألة تحليل الحرام ، فسيكونون عندئذ مثلهم في الشِّرك . فينبغي الثباتُ في المواقف الجليلة ، وعدمُ إدخال المجاملات أو المداهنة في موضوع العقائد والسلوكيات ، والتمسكُ بالحق بغض النظر عن رضا الناس أو عدم رضاهم. فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن المشركين قالوا عن المؤمنين : ((ما قَتلوا أكلوا ، وما قتل اللهُ لم يأكلوا))[36] .

---

(٣٤) في تفسير ابن كثير (١/ ١٦) : ((وقال سيبويه : العرب تقول : تَشَيْطَنَ فلان ، إذا فعل فعل الشياطين . ولو كان من شاط لقالوا تشيَّط . فالشيطان مُشتق من البعد ، على الصحيح. ولهذا يُسمون كل من تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً)) اهـ .

(٣٥) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٦٢١) برقم (٣٦٩١) وصحَّحه .

(٣٦) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٦٠) برقم (٧٥٧٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وهذا انحرافٌ عن المنهج العلمي في الاستدلال ، مرجعه إلى سوء الفهم وفسادِ النية . فمنطقُ المشركين مبني على قياس مغلوط نابع من الهوى لا المرجعية الشرعية المتماسكة . لذلك انحرفوا عن جادة الصواب ، فلا يمكن الوصول إلى نتيجة صحيحة إلا بوسيلة صحيحة . وكلُّ فهمٍ خاطئ لا بد أن يوصل إلى فكرة منحرفة . وهذا ما حصل مع المشركين في موضوع الميْتة . فَهُم يَنظرون إلى الميْتة على أنها مقتولة بأمر الله تعالى ، وبالتالي ـ وفق منطقهم المعْوَج ـ لا بأس بأكلها . وهذا أدى إلى تقديم القذارة على الطهارة بسبب غياب منهج الاستدلال الصحيح .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ـ ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ . قال : ((يقولون ما ذُبح فذُكر اسم الله عليه فلا تأكلوه ، وما لم يذكر اسمُ الله عليه فكلوه))[37] .

وإننا لنجد أن المشركين الذين يتلقون الدعمَ من شياطينهم ، يحاولون صرف المؤمنين عن الحق بواسطة التلبيس والكلامِ المعسول ، واختراعِ حُجج تبدو للوهلة الأولى منطقية ، لكنها تنبئ عن مكر وجهل ، وتهدف إلى بث الانحراف في الذات الفردية ، والذات الجماعية .

قال الله تعالى : ﴿ واتَّقوا فِتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

يحذِّر اللهُ تعالى المؤمنين من أن يصيبهم بلاءٌ واختبار لا يطال الظالم فحسب ، بل يعم الجميعَ (المحسن والمسيء معاً) .

وعن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يَعُمَّهم اللهُ بعقاب))[38] .

وهذا يشير إلى أن عدم إيقاف الظالم عند حده والتصدي له سببٌ لعموم العقاب الشامل للصالح والطالح في المجتمع . وهذا العذاب لا يفرق بين المحسن والمسيء ، لأن غياب عملية النصح والتصدي لمظاهر الباطل أدخل الجميعَ في دائرة العقوبة . وهنا تتجلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وعن زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ أنها سألت النبيَّ ﷺ : أنهلك وفينا الصالحون ؟ ، قال : ((نعم ، إذا كَثُرَ الْخَبَثُ))[39] .

---

(٣٧) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٥٧) برقم (٧٥٦٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣٨)رواه الترمذي(٥/ ٢٥٦)برقم (٣٠٥٧) وصحَّحه،ورواه ابن حبان في صحيحه(١/ ٥٣٩).

(٣٩) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣١٧) برقم (٣٤٠٣)،ومسلم (٤/ ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠).

ويكون عندئذ الإهلاك الشامل حينما تعم المعاصي ، ويكثر الفجور ، وتبرز المعاصي علانية . ولا يتم الوصول إلى هذه المرحلة السيئة إلا بغياب النصح الفعال ، ومظاهرِ الإصلاح الشاملة ، وعدم ردع الظالمين وإيقافهم ، وعدم كبح جماح المفسِدين . فالساكتُ عن الحق هو _ في واقع الأمر _ يساهم في انتشار الباطل . فبسبب تقصيره وعدم قيامه بواجبه استطاع الباطلُ أن يكسب مواقعَ جديدة ، ويستشري لأنه لم يجد أمامه سداً منيعاً .

وعن مُطَرِّف قال : قلنا للزبير _ رضي الله عنه _ : يا أبا عبد الله ، ما جاء بكم ؟ ، ضَيَّعْتُم الخليفةَ حتى قُتل ثم جئتم تطلبون بدمه . قال الزبير _ رضي الله عنه _ : ((إنا قرأناها على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان _ رضي الله عنهم _ :﴿ واتَّقوا فِتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ ، لم نكن نحسب أنَّا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت))[40] .

وهكذا نرى أن الفتن قد تعم الجميعَ بدون تمييز ، فإن جيل الصحابة _ رضي الله عنهم _ وهو الجيل الذهبي، قد أُصيب بفتن شرسة للغاية مثل موقعة صِفِّين ، وموقعة الجمل. وعلى الإنسان أن يدور مع الحق حيث دار ، بغض النظر عن شخوص الرجال ومكانتهم . فالحق أحق أن يُتَّبع . كما أن الفتن هي عملية غربلة ، حيث تعمل على تمييز الصلاح وأهله من الفساد وأهله . وبالتأكيد فلن يَثْبت إلا مَن ثَبَّته اللهُ تعالى مَالِكُ القلوب .

وقال الله تعالى : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فِتنةٌ ﴾ [الأنفال : ٢٨] .

ينبغي أن يُعلَم أن الأموال والأولاد اختبارٌ إلهي لكي يمحِّص اللهُ تعالى الصالح من الفاسد . ويرى _ سبحانه _ كيف يقوم عبادُه بأداء شكر هذه النعم ، وتأدية الحقوق المرتبطة بها . كما أن الأموال والأولاد تشغل الذهنَ عن القيام بالطاعة .

وعن كعب بن عياض _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إن لكل أُمَّة فتنة ، وإن فتنة أُمَّتي المال))[41] .

---

(٤٠) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٦٥)برقم(١٤١٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٩) : ((رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح)) . وسكت عنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٤) وقال إن المقصود بالخليفة هو عثمان_ رضي الله عنه_ الذي قُتل بالمدينة، أما قوله " تطلبون بدمه" أي في البصرة.

(٤١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٤) برقم (٧٨٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وصحَّحه ابن حبان (٨/ ١٧) برقم (٣٢٢٣) .

فالمالُ فتنة شديدة بسبب الالتهاء به عن طاعة الله تعالى ، والانشغال بجمعه عن أداء العبادات على الوجه الأمثل . ولا يخفى أن حب المال مسألة غريزية ، ولكن على الفرد أن يقاوم جموحَ شهواته ، ويجعل المال في يده لا قلبه . فالإغراءُ المادي المتمثل في المال يخاطب الفطرةَ الداخلية للمرء ، وهنا تتجلى قيمة الثبات ، والتصدي لكل أنواع الإغراءات الشهوانية . وعلى المرء أن يبعد قلبَه عن امتحانات الفتن ، لأن الداخل في البحر قد لا يَخرج منه أبداً .

وعن بُرَيْدة ــ رضي الله عنه ــ قال : بينما النبيﷺ يخطب إذ أقبل الحسن والحسين ، وعليهما قميصان أحمران ، يقومان ويعثران ، فنزل إليهما النبي ﷺ فأخذهما ، وقال : ((﴿ أنما أموالكم وأولادكم فِتنةٌ ﴾))[42] .

وهذه فتنة الأولاد التي أدَّت إلى قطع النبي ﷺ للخطبة لكي يريح الحسن والحسين ــ رضي الله عنهما ــ من القيام والتعثر . وهذا يعكس حنو الوالد على ولده ، والرحمة النبوية الإنسانية الجليلة . فالنبي ﷺ هو كائن بشري ذو عواطف وميول قبل أن يكون نَبِيَّاً .

١١ــ الشفاعة :

إن الشفاعة نعمة جليلة من نعم الله تعالى على خلقه ، فهي مساعدة الأعلى للأدنى والأخذ بيده بعد أن تقطَّعت به السُّبل ، فهي من تجليات الرحمة الإلهية غير المحدودة . وهي إحدى تجليات منظومة الأسباب والمسبِّبات الخاضعة للإرادة الإلهية . فلا بد للقوي أن يساعد الضعيف ، والغني يأخذ بيد الفقير ، وصاحبُ الجاه يستغل مكانته لتحقيق مصالح الضعفاء والمحتاجين دون إضاعة الحقوق أو التحايل على القوانين .

أما تعريفها الدقيق : ((قال الزرقاني : هي انضمام الأدنى ــ أي لجؤوه وقصده ــ إلى الأعلى، ليستعين به على ما يرويه، ــ أي جلب منفعة ، أو دفع مضرة))[43] .

---

(٤٢) صحَّحه ابن حبان (١٣/ ٤٠٢) برقم (٦٠٣٨) ، وصحَّحه ابن خزيمة (٢/ ٣٥٥) برقم (١٤٥٦) . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٢٥٤) : ((وظاهر الحديث أن قطع الخطبة والنزول لهما فتنة دعا إليها محبة الولد فيكون مرجوحاً. والجواب : إن ذلك إنما هو في حق غيره ، وأما فعل النبي ﷺ ذلك فهو لبيان الجواز ، فيكون في حقه راجحاً . ولا يلزم من فعل الشيء لبيان الجواز أن لا يكون الأولى ترك فعله . ففيه تنبيه على أن الفتنة بالولد مراتب ، وإن هذا من أدناها ، وقد يجر إلى ما فوقه فيُحذَر)).

(٤٣) سفينة النجاة في عقيدة الأئمة الهداة ، ص ٣٥٧ .

وقال الشوكاني في فتح القدير(١/ ٧٤٣):((فالشفاعة: ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك)).

والشفاعةُ قسمان : شفاعة حسنة (تكون في أعمال الخير والصلاح) ، وشفاعة سيئة (تكون في أعمال الشر والفساد) . قال الله تعالى : ﴿ مَن يَشْفَعْ شفاعةً حسنة يكن له نصيبٌ منها ومَن يَشْفَعْ شفاعةً سيئة يكن له كِفْلٌ منها ﴾ [النساء : ٨٥] . من يسعى في عمل صالح يقود إلى حصول خير وتحصيل منفعة طيبة ، فإن له نصيباً وحظاً من ذلك الخير . ومن يسعى في أمر باطل يأتي بالمفسدة فعليه إثم من ذلك الأمر ، ويتحمل جزءاً من المسؤولية .

وبالتالي فليس كل شفاعة تؤدي إلى تحصيل أجر لصاحبها ، فالشفاعةُ الحسنة وحدها هي التي يؤجر عليها الفرد . ((وضابطها ما أذن فيه الشرع دون ما لم يأذن فيه))[44] .

وهكذا نجد أن الشرع قد رغَّب في الشفاعة الحسنة التي تشجع على أعمال البِر والخير، وتعزز العملَ الخيري والتكافلي في المجتمع الواحد المتراص . وجعل للشافع نصيباً من الخير . كما جرَّم الشفاعة السيئة التي تؤدي إلى نشر الباطل والإفساد في الأرض ، وتقطيع الروابط الاجتماعية ، وتشتيت كلمة المجتمع ، وحمَّل فاعلَها الوِزْرَ . وقد روى الطبري في تفسيره (٤/ ١٨٨) عن مجاهد في تفسير الآية قال : ((شفاعة بعض الناس لبعض))[45] .

وعن أبي موسى ــ رضي الله عنه ــ قال : كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل ، أو طُلبت إليه حاجة ، قال : ((اشفعوا تؤجروا ، ويقضي اللهُ على لسان نَبِيِّه ﷺ ما شاء))[46] .

وفي هذا الحديث الشريف دعوة صريحة وحض على الشفاعة الحسنة التي تعكس تكافلَ أبناء المجتمع الواحد ، ومساعدتهم لبعضهم البعض . حيث الناس متفاوتون في السُّلطة والنفوذ والمكانة الاجتماعية . فحينما يساعد القويُّ الضعيفَ ، ويشفع الغنيُّ للفقير ، ... إلخ . عندئذ ستزول الشحناء في النفوس ، ويصبح المجتمعُ على قلب رجل واحد ، لا مجال لاختراقه أو تفتيته . وهذه هي نقطة القوة المركزية في التكافل الاجتماعي . فالتفاوتُ هو مبدأ كَوْني، والناسُ درجاتٌ يختلفون في قدراتهم ، وهذا البناء الاجتماعي المتفاوت يتطلب التعاون فيما بينه لكي يقدر على التحرك إلى الأمام ، فالقطارُ لا يسير إلا إذا تكاملت حركة مقطوراته بكل تناسق .

---

(٤٤) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٥١) .

(٤٥) صحَّح إسنادَه الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٥١) .

(٤٦)متفق عليه واللفظ للبخاري(٢/ ٥٢٠)برقم (١٣٦٥).ومسلم(٤/ ٢٠٢٦) برقم(٢٦٢٧).

وقال الله تعالى : ﴿ مَن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وفيه بيان أن لا أحد يشفع عند الله تعالى إلا بإذنه سبحانه ، ولا يوجد إنسان يملك تأثيراً مستقلاً عن إرادة الله تعالى . وفي هذا إبطال عقيدة المشركين التي تنص على شفاعة الأصنام .

وقال الله تعالى : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا مَن اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ [مريم : ٨٧] .

فلا أحد يَشفع أو يُشفَع له إلا من اعتنق شهادة التوحيد . فالعهد شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : أنه قرأ :﴿ إلا مَن اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ فقال : ((اتخِذوا عند الرحمن عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة : مَن كان له عندي عهد فليقم)) ، قال : فقلنا : فعلِّمْنا يا أبا عبد الرحمن ، قال : ((قولوا : اللهم فاطرَ السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا بأني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك ، فاجعله لي عندك عهداً ...))(47) .

وإننا لنرى أهمية شهادة التوحيد في نجاة صاحبها يوم القيامة ، ونَيْله الشرف الجليل ، وحصوله على المساعدة الكبرى (الشفاعة) بإذن الله تعالى . فاللهُ تعالى لم يخلق العبادَ ليعذِّبهم ، بل ليدخلهم الجنة إلا من رفض ذلك . أي رفض الإقرار بتوحيد الله تعالى . وعندئذ على الفرد أن يلوم نفسَه لأن اللهَ تعالى هداه إلى طريق الخير ، لكنه استحب العمى على الهدى ، وارتضى لنفسه أن يكون عدواً لخالقه ، فعليه أن يتحمل مسؤوليةَ قراره الذي اختاره بمحض إرادته دون إجبار .

وعن عُبادة بن الصامت_رضي الله عنه_قال:سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:((مَن جاء بالصلوات الخمس ، قد أكملهن لم ينقص من حقهن شيئاً ، كان له عند الله عهد أن لا يعذِّبه، ومَن جاء بهن وقد انتقص من حقهن شيئاً، فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه، وإن شاء عذَّبه))(48).

وهكذا نرى أن الصلوات هي العهد الوثيق عند الله تعالى . فالحرصُ عليها ، وأداؤها في وقتها على أكمل وجه كانت عهداً عند الله تعالى يقيه من العذاب ، أما أن انتقص منها ، وأخلَّ بأدائها فقد خسر عهدَه عند الله تعالى ، وهو تحت المشيئة الإلهية ، إما للرحمة أو العذاب .

---

(٤٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٩) برقم (٣٤٢٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٤٨)رواه ابن حبان في صحيحه(٥/ ٢١) برقم (١٧٣١).وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ٢٠٣) : ((وصحَّحه ابن حبان وابن السكن وغيرهما)) .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا يَشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[الأنبياء : ٢٨] .

هذه الآية تتحدث عن شفاعة الملائكة _ عليهم السلام _ . وأنهم لا يشفعون إلا لمن رضي اللهُ عنه ، وهم أهل الإيمان (أهل شهادة أن لا إله إلا الله) . وتدل هذه الآية على عظمة الرحمة الإلهية التي جعلت الملائكةَ يشفعون للمؤمنين ، ويساعدونهم في موقف هم فيه بأمس الحاجة إلى الشفاعة والمساندة .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ : أن رسول الله ﷺ تلا قولَ الله _ عز وجل _ : ﴿ ولا يَشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ، فقال ﷺ : ((إن شفاعتي لأهل الكبائر من أُمَّتي))[49] .

وهنا تتجلى الرحمة النبوية بالمؤمنين . فالنبي ﷺ لن يترك أُمَّته تضيع يوم القيامة ، فتأتي شفاعته كطَوْق نجاة للغرقى أهلِ الكبائر الذين ماتوا على التوحيد ، لكنهم ارتكبوا ذنوباً عظيمة .

وفي حديث الشفاعة الطويل يقال للنبي ﷺ يوم القيامة : ((وقُلْ يُسْمَعْ ، وسَلْ تُعْطه ، واشْفَعْ تُشَفَّع))[50] .

ولا يخفى أن هذه الرتبة السامية التي لم يصل إليه أي مخلوق سوى النبي ﷺ ، تشير إلى الكرم الإلهي الجليل ، والمقامِ النبوي العظيم . فاللهُ تعالى منح النبيَّ ﷺ شرفَ الشفاعة لأمته لإنقاذهم من النار في موقف بالغ الصعوبة ، حيث تقطَّعت بهم السُّبل ، ولا ناصر لهم سوى الله تعالى . كما يدل الحديث على مكانة المؤمنين الذين أحبهم اللهُ تعالى ، لذلك أنقذهم من النار ، وجعل لهم من همِّهم مخرجاً .

كما أن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ أصحاب المكانة السامية لهم شفاعة تدل على منزلتهم العظيمة عند الله تعالى. ففي صحيح مسلم (١/ ١٦٧) : أن الله تعالى يقول يومَ القيامة : ((شفعت الملائكةُ ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين)) .

وعندئذ يُخرِج اللهُ تعالى من شاء من النار. فرحمته وسعت كلَّ شيء . كما أن طاعات العباد لا تنفعه _ سبحانه _ ، ومعاصيهم لا تضره . فلو ألقى كلَّ المخلوقاتِ في النار لما كان ظالماً لأي واحد فيهم ، ولو أبقى العصاةَ في النار خالدين لما قدر أحدٌ على إخراجهم . لكن اللهَ تعالى _ الذي خلق العبادَ _ هو أرحم بهم من أمهاتهم .

---

(٤٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٤) برقم (٣٤٤٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٥٠) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٦٩٥) برقم (٦٩٧٥) ، ومسلم (١/ ١٨٠) برقم (١٩٣).

قال الله تعالى : ﴿ ما للظالمين مِن حميمٍ ولا شفيع يُطاع ﴾ [غافر : ١٨] .

وعلى الجهة الأخرى نجد أن الكافرين لا قريب لهم ينفعهم ، ولا أحد يشفع لهم، لأنهم أضاعوا مستقبلَهم بمحض اختيارهم . والشخصُ حينما يقضي على نفسه بإرادته ، فلا ينتظر أحداً لكي ينقذه . فالكافرُ حينما يخلد في النار يكون قد ظلم نفسَه وأوردها المهالك . ولم يظلمه اللهُ تعالى الذي وضَّح الصراطَ المستقيم لعباده ، فمن التزمه نجا ، ومن انحرف عنه هَلَك . وقد كرَّم اللهُ تعالى الإنسانَ بنور العقل ، لكن الإنسان هو الذي يحجب ذلك النورَ بجهله وعناده وآثامه . ومن اعتقد أنه مستغنٍ عن خالقه تعالى ، وغير محتاج إلى الهداية ، فقد أهلك نفسَه ، وصار عبداً لشهواته وأطماعه الدنيوية البائسة ، غارقاً في متاهات الشك والحيرة .

والجدير بالذكر أن الشفاعة خمسة أقسام[51] : أولها _ مختصة بالنبي ﷺ ، وهي الإراحة من هَوْل الموقف ، وتعجيل الحساب . والثانية _ في إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وهذه وردتْ للنبي ﷺ . والثالثة _ الشفاعة لقوم استوجبوا النارَ فيشفع فيهم النبي ﷺ ومن شاء الله تعالى . والرابعة _ فيمن دخل النار من المذنبين ، فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا ﷺ والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ثم يُخرِج اللهُ تعالى كلَّ من قال لا إله إلا الله. والخامسة _ في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها .

١٢_ الابتلاء والفتن اختبار لإيمان المؤمن :

إن الابتلاء يجسِّد اختباراً حقيقياً لإيمان المؤمن ، ومدى التزامه بالشريعة ، وقدرته على الصبر والتحمل والعملِ تحت ضغط الأزمات . فالشدائدُ تكشف عن معادن الرجال ، تماماً كما النار التي تكشف عن الذهب الحقيقي وتفصله عن الشوائب . فلا توجد درجات إيمانية في الجنة بدون اختبارات دنيوية وعملياتِ تمحيص وغَرْبلة .

فمنظومةُ الاختبارات في الدنيا تكشف عن قوة القلب الحامل للعقيدة . ففي السراء يكون كلُّ الناس ثابتين واثقين ضاحكين ، لكن الأزمات هي المحك الحقيقي للكشف عن المعدن النفيس .

وأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم في المنزلة وهكذا . كما أن الإنسان كلما علت مكانته الإيمانية كان بلاؤه أشد . فعن سعد بن أبي وقاص قال : سألتُ رسول الله ﷺ : من أشد الناس بلاءً ؟، قال : ((النبيون ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرَّجل على حسب دِينه ، إن كان صَلْبَ

---

(٥١) ذكر هذه الأقسام النوويُّ في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٣٥و٣٦) . [منقول بتصرف].

الدين اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء على العبد حتى يدعه يمشي على الأرض ليس عليه خطيئة))[52] .

لذلك يكون البلاءُ حسب إمكانيات الشخص وقدراته ، وهو _ بحد ذاته _ عملية تطهير للنفس الإنسانية مما علق فيها من آثام وثغرات ، وتنقية للجسد الآدمي مما علق به من خطايا وأوساخ معنوية جراء تتابع الذنوب عبر الأزمنة . وبذلك تكون الفتن للصابرين فرصةً ذهبية لتكفير ذنوبهم ، والعودة أنقياء طاهرين ، بعد أن يَخلعوا ثوبَ الخطيئة .

قال الله تعالى : ﴿ ولنبلونَّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين ﴾[البقرة : ١٥٥] .

وهذا الكلام الإلهي مُوَجَّه للصحابة _ رضي الله عنهم _ . أي إن الله تعالى سيبتليهم بشيء من الخوف حيث يفتقدون الأمان ، والجوعِ حيث لا يجدون الطعامَ ، وتقل الأموال في أيديهم ، وتنقص القوى البشرية (يقل عدد الأنفس) ، وتقل الثمرات حيث الأشجار يضعف إنتاجُها أو لا تعود تُنتج . وفي هذا إشارة واضحة إلى أن الدنيا دار بلاء واختبار ، نعيمها مشوب بالكَدَر ، ونعومتها مختلطة بالخشونة ، وفرحها ممزوج بالحزن .

ومن صبر على هذا الابتلاء فله البشرى والفوز ورفع الدرجات ، ومن سخط وضجر فعليه سخطه ، ورجع خائباً صِفر اليدين في الدنيا والآخرة .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٦٣١): عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((ما مِن مسلم تصيبه مصيبة ، فيقول ما أمره الله : ﴿ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ﴾ [البقرة : ١٥٦]، اللهم أجرني في مصيبتي ، واخلفْ لي خيراً منها . إلا أخلف الله له خيراً منها)).

فالمسلمُ متصل بالله تعالى في السراء والضراء . وهو يعبد خالقَه تعالى لأنه أهلٌ لأن يُعبَد ، لا لنيل مكاسب دنيوية دنيئة ، أو تحقيق أرباح مالية ، أو تحصيل مكانة اجتماعية . فالعبادةُ التي هي حق الله على العبيد غير مرتبطة بالسراء والضراء في حياة المسلم . فعلى المؤمن أن يعبد خالقَه تعالى ويلتزم بذلك بغض النظر عما يحصل له في الدنيا ، خيراً أو شراً . فالإيمانُ ليس بورصةً يتحدد شكلُها وفق الربح الدنيوي أو الخسارة . إن الإيمان نظام متكامل لا يخدشه متاع الدنيا الزائل .

---

(٥٢) رواه الحاكم في المستدرك(١/ ١٠٠) برقم (١٢١). وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٦).

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٥) : عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ : ((عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)) .

وقال الله تعالى:﴿ ورفع بعضَكم فوق بعض درجاتٍ ليبلوَكم في ما آتاكم ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فاللهُ تعالى قد خالف بين أحوال العباد من حيث الغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والقوة والضعف . فالدنيا مبنية على التفاوت بين العباد . وكل ذلك من أجل الاختبار ، وتمييز الغث من السمين ، ومن يصبر ومن يسخط ، ومن يشكر ومن يكفر . فعلى المرء أن يستغل نقاطَ قوته ، ويحاول قَدْر الاستطاعة تحويل نقاط ضعفه إلى نقاط قوة . والكمالُ للهِ تعالى .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) : عن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون)) .

فهذه الدنيا منظرها فتَّان ومُحبَّب للنفس بما فيها من زينة ولمعان . وهي دار ابتلاء واختبار . وإن الله تعالى جعل الناس مُسْتَخْلَفين فيها، أي أنهم خَلَفوا الأممَ السابقة،ووصلت إليهم الأمور، من أجل الامتحان والابتلاء . وإن الله تعالى ناظر إليهم كيف يعملون (من الذي سيؤدي شكرَ النعم فيفوز ، ومن الذي سيجحدها فيخسر) .

قال الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ الناسُ أن يُترَكوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يُفتنون ﴾ [العنكبوت: ٢] .

وهذا الاستفهام الإنكاري معناه : هل يظن الناسُ أن لا يتعرضوا للامتحان بمجرد أن يقولوا بألسنتهم نحن مؤمنون ؟ . فلا بد للعمل أن يُصَدِّق قولَهم . فالفتنةُ هي الكاشفة عن صدق إيمانهم من عدمه . وهناك مسألة غاية في الدقة ، وهي اعتقاد الكثيرين أن البلاء مرتبط مع الضراء فقط . وهذا فهمٌ قاصر ، لأن البلاء مرتبط بالسراء والضراء ، والعلمِ والجهل ، والغنى والفقر . فأحياناً يكون ابتلاءُ النعيم أشد من ابتلاء الشقاء .

قال الله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فِتْنةً ﴾[الأنبياء : ٣٥] . هذه الآية تدل على أن البلاء يكون بالشر (المصائب) تارةً لبيان الصابرين ، وتارةً بالخير (النِّعم) لبيان الشاكرين . وهكذا يتضح الشاكر من الكافر، والصابر من الساخط، والصادق من الكاذب.وقد كان النبي ﷺ يتعوَّذ بالله تعالى فيقول : ((وأعوذ بكَ من فِتنة الغنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر))[53] .

---

(٥٣) متفق عليه واللفظ للبخاري(٥/ ٢٣٤٤)برقم (٦٠١٥).ومسلم (٤/ ٢٠٧٨)برقم(٥٨٩) .

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن الغنى والفقر يتساويان في كَوْنهما اختباراً إلهياً للعبد لبيان درجة إيمانه عند الشدائد ، وثباتِ قلبه عند الفتن العاصفة . والمؤمنُ من يثبت عند الغنى ، فيقوم بشكر النعمة على أكمل وجه ، ليس باللسان فحسب ، بل بالعمل التطبيقي . فيُخرِج الزكاةَ ، ويساعد الفقراء ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يبذِّر ثروته . أما الفقير فعليه بالصبر قولاً وفعلاً ، فلا يَسخط ، وعليه أن يسعى في طلب الرزق ، فلا يَقنط ، ولا يَعجز ، ولا يشكو ربَّه إلى الناس . ومن التزم بالمثابرة والقناعة فهو على خير ، ومن هاج وثار على قضاءِ الله وقَدَره فسوف تكون ثورته وبالاً عليه . فالناجح في الدنيا والآخرة هو الذي يثبت عند الفتن ، ولا يترك الشدائدَ تلعب به يمنةً ويسرة. فالدهرُ يومان : يومٌ لك ، ويوم عليك . فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطبر . فكلاهما سينحسر .

***

ثانياً : الملائكة

إن وجود الملائكة يُعتبر من المعلوم من الدين بالضرورة . بحيث إن منكره كافر. وقد ذُكروا في القرآن الكريم مرات عديدة جداً. وهذا الأمر معروف للقاصي والداني ، والعالم والجاهل .

قال الله تعالى :﴿ آمن الرسولُ بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

والملائكةُ أجسامٌ نورانية (خُلقوا من نور) قادرة على التشكل بأشكال مختلفة . لهم قدرات خاصة ، ولا يَعصون اللهَ مُطْلقاً . ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يتزوجون ، ويقومون بأمر ربهم ، وينفِّذون الوظائفَ الموكولة إليهم دون تفكير أو نقاش .

١ــ تَوفِّي النفوس :

قال الله تعالى:﴿قُلْ يتوفَّاكم مَلَكُ الموت الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربِّكم تُرْجَعون﴾[السَّجدة: ١١] .

وهذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ بأن يقول للكافرين رداً على مزاعمهم الباطلة : يتوفاكم ملكُ الموت المختص بقبض أرواحكم هو وأعوانه حينما تحين الآجال . ثم تعودون إلى الله تعالى من أجل الحساب ونيل الجزاء العادل[54] .

وقال الله تعالى:﴿حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توَفَّتْهُ رُسُلُنا وهم لا يُفرِّطون ﴾[الأنعام: ٦١] .

فعندما تحين ساعة الوفاة التي كتبها اللهُ تعالى على العبد فإن أعوان مَلَك الموت يَسْتَوْفون روحَه، وهم لا يضيِّعون ولا يقصِّرون . وبالطبع فإن مَلَك الموت هو الرئيس الذي وُكِّل بقبض الأرواح، وكل الأرواح التي تُقبَض تتم بعلمه ، كما أنه لا يفعل شيئاً من تلقاء نفسه ، لأن الله تعالى هو الآمر الناهي .

قال الله تعالى : ﴿ ولو ترى إذْ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

فهؤلاء ملائكةُ العذاب الذين يتوفون أرواحَ الكفار ، فيضربون وجوهَهم ومؤخِّراتهم جزاءً لهم على كفرهم بالله تعالى ، وعداوتهم للشريعة الإلهية .

---

(٥٤) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٠٤) : ((الظاهر من هذه الآية أن مَلَكَ الموت شخص مُعيَّن من الملائكة...وقد سُمِّيَ في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور. قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان)).

٢ـ كتابة أعمال بني آدم :

إن هناك ملائكة يضطلعون بمهمة كتابة أعمال البشر . فملائكة يكتبون الحسنات، وملائكة يكتبون السيئات . واللهُ تعالى لا يحتاج إلى من يُسجِّل أعمالَ البشر ، لأنه ـ تعالى ـ أحصاها قبل أن يولدوا . فعلمُه شاملٌ لكل شيء . ولكن من أجل إقامة الحجَّة على بني البشر ، ولإشعار البشر أن هناك ملائكةً ملازِمين لهم في حركاتهم وسكناتهم .

وهؤلاء الملائكةُ كِرامٌ على الله يكتبون أعمالَ البشر وأقوالهم. كما قال الله سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ كِرَاماً كاتِبين ﴾ [الانفطار : ١١] .

وقال الله تعالى : ﴿ ورُسُلنا لَدَيْهم يَكْتبون ﴾ [الزُّخرف : ٨٠] .

فلا مجال للهروب منهم، لأنهم يُسجِّلون ما يقوم به الإنسان قولاً وفعلاً ، صغيراً كان أم كبيراً.

وقال الله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قَوْلٍ إلا لَدَيْه رقيبٌ عَتيد ﴾ [ق : ١٨] .

قال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ١٠٦) : ((أي ما يتكلم من كلام فيلفظه ويرميه من فيه إلا لديه ... رقيب : أي مَلَك يرقب قوله ويكتبه . والرقيب : الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر ، فكاتب الخير هو ملك اليمين وكاتب الشر ملك الشمال. والعتيد : الحاضر المهيَّأ)) اهـ . وبالتالي فإن الإنسان تحت مراقبة شديدة لا تنقطع . فعليه أن يفكِّر بالكلمة قبل قَوْلها، وبالعمل قبل فعله . فإن كان خيراً فليتقدم ، وإن كان شراً فليُمْسِكْ . فحريٌّ بالإنسان أن يختار أعماله الكلامية والفعلية بدقة شديدة ، وأن يحرص على تحصيل الثواب قدر الاستطاعة ، والابتعاد عن الآثام التي تُراكم الذنوبَ القاتلة . وتبقى مسألة : هل يكتب الملكان كل شيء أم ما فيه ثواب وعقاب فقط ؟ . وهذه مسألة خلافية بين العلماء . فعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أنه سئل عن هذه الآية : ﴿ ما يلفظ من قَوْلٍ إلا لَدَيْه رقيبٌ عَتيد ﴾ . قال : فقال ابن عباس : ((إنما يكتب الخير والشر ، لا يكتب : يا غلام اسرج الفرسَ ، ويا غلام اسقني الماء . إنما يكتب الخير والشر))[55] . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٥) : ((وقد اختلف العلماء : هل يكتب الملك كل شيء من الكلام، وهو قول الحسن وقتادة . أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب ، كما هو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ . فعلى قَوْلين . وظاهر الآية الأول ، لعموم قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ما يلفظ من قَوْلٍ إلا لَدَيْه رقيبٌ عَتيد ﴾)).

---

(٥٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٥) برقم (٣٧٣٠) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

على الإنسان أن يتذكر نظرَ الله تعالى إليه ، وأن يستحي من الملكَيْن الملازِمَيْن له في كل أحواله، حيث يحصيان أعمالَه وأقوالَه. فالتفكرُ قبل اتخاذ أي قرار ، وعرضه على الكتاب والسُّنة، هو الحل الأمثل لتجنب الزلل والخطايا . وكما قيل : لسانُ الأحمق أمام قلبه (أي يرمي الكلمةَ ثم يفكّر فيها)، ولسانُ العاقل وراء قلبه (أي يفكّر بالكلمة ثم يقولها) . ويبقى الحياءُ من الله تعالى هو الذي يردع الإنسانَ عن ارتكاب الآثام،وهو الوازع الداخلي المانع من اقتراف المعاصي .

وفي صحيح البخاري(٥/ ٢٢٦٨) أن النبيَّ ﷺ قال: ((إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شِئْتَ))[56].

فإذا لم يستحِ الإنسانُ فلا شيء سيردعه ، لذلك سيفعل ما يحلو له غير عابئ بلَوْمٍ أو عتاب . فالحياءُ هو الوازع الداخلي ، فإذا زال ، زالَ صمامُ الأمان . ويمكن فهم الحديث بأن المرء إذا لم يستحِ من شيء فليفعله ، فعدمُ الاستحياء منه دليلٌ على أنه أمرٌ شرعي ، ومقبول اجتماعياً .

٣_ حفظهم :

هناك قِسم من الملائكة وظيفتهم حفظ الإنسان والاعتناء به . وهذا مظهر من تجليات الرحمة الإلهية بعباده ، حيث يحيطهم بحمايته ، فهو خالقهم الذي يعتني بهم . وهو أرحم بهم من أمهاتهم .

قال الله تعالى : ﴿ له مُعَقِّباتٌ من بين يَدَيْه ومِن خَلْفه يحفظونه مِن أمر الله ﴾ [الرعد : ١١].

---

(٥٦) قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٢٣): ((قال الخطابي: الحكمة في التعبير بلفظ الأمر دون الخبر في الحديث أن الذي يكف الإنسان عن مواقعة الشر هو الحياء، فإذا تركه صار كالمأمور طبعاً بارتكاب كل شر ... قال النووي في الأربعين : الأمر فيه للإباحة ، أي إذا أردت فعل شيء ، فإن كان مما لا تستحي إذا فعلته من الله ولا من الناس فافعله ، وإلا فلا . وعلى هذا مدار الإسلام ، وتوجيه ذلك أن المأمور به الواجب والمندوب يستحي من تركه ، والمنهي عنه الحرام والمكروه يستحي من فعله ، وأما المباح فالحياء من فعله جائز ، وكذا من تركه ، فتضمن الحديث الأحكام الخمسة . وقيل : هو أمر تهديد كما تقدم توجيهه ، ومعناه : إذا نزع منك الحياء فافعل ما شئت ، فإن الله مجازيك عليه ، وفيه إشارة إلى تعظيم أمر الحياء . وقيل : هو أمر بمعنى الخبر ، أي من لا يستحي يصنع ما أراد)) اهـ . وفي مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢١١) : ((قال بعضهم : جعل الحياء وهو غريزة من الإيمان وهو اكتساب ، لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي وإن لم يكن له تَقِية (مهابة)، فصار كالإيمان الذي يقطع بينها وبينه . ومنه الحديث .. " إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت " ، أي من لم يستح صَنَعَ ما شاء ، لفظُه أمر ، ومعناه الخبر)) .

والمقصودُ بالمعقِّبات هم الملائكة الذين يتعاقبون (يتناوبون) على حفظ الإنسان ، وإحاطته بالحماية والأمن من أمامه وخلفه ، يحفظونه من الكوارث والأخطار بأمر الله تعالى[57] .

وقد وردت آياتٌ أخرى تتحدث عن الملائكة الحفظة الذين يحفظون أعمالَ بني آدم، ويحصونها عليهم ، ويحفظونهم من الأضرار. كما في قوله تعالى: ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠]. وقوله تعالى : ﴿ إن كلُّ نَفْسٍ لَمَّا عليها حافظ ﴾ [الطارق : ٤] .

٤ـ دعاؤهم :

إن دعاء الملائكة للإنسان يشير إلى الرحمة الربانية الشاملة ، وطهارةِ الملائكة الأبرار الذين يدعون ويستغفرون للبشر بأمر ربهم . إذ إنهم لا يفعلون شيئاً من تلقاء أنفسهم .

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي يُصلِّي عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾[الأحزاب : ٤٣] . إن اللهَ تعالى يُصلِّي على المؤمنين، بمعنى يرحمهم ويباركهم، ويتولى أمورهم ويصلحهم. والملائكةُ يدعون للمؤمنين طالبين لهم الرحمة ، ويطلبون المغفرة لهم . وذلك لإخراج الناس من الضلال إلى الهدى ، ونقلهم من ظلمات المعاصي والشكوك إلى نور الطاعة واليقين . فاللهُ تعالى رحيم بعباده هداهم إلى الصراط المستقيم ، وفتح لهم باب التوبة ، وأمر الملائكةَ بالدعاء والاستغفار لهم . ((والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة ... وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار))[58] .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٠٢) : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : ((إذا خرجت روحُ المؤمن تلقاها مَلَكان يصعدانها ... ويقول أهلُ السماء : روح طيبة ، جاءت من قبل الأرض ، صلى الله عليك ، وعلى جسد كنت تعمرينه)) .

فالملائكةُ ـ عليهم السلام ـ يُصَلُّون على هذه الروح الطاهرة روحِ المؤمن التي جاءت من الأرض . أي يدعون لها ، ويطلبون لها الغفران ، وأن يتجاوز اللهُ تعالى عنها .

---

(٥٧) ذهب البعض إلى أن "المعقِّبات" في هذا الموضع تعني الحرس الذي يتعاقب على الأمير . فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ له مُعَقِّباتٌ من بين يَدَيْه ومِن خَلْفه ﴾ قال : ((ذلك مَلِك من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس)) [تفسير الطبري ٧/ ٣٥٠] . قلتُ : وصحَّح إسنادَه الحافظُ في الفتح (٨/ ٣٧٢) .

(٥٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٥٣) .

وجاء رجل إلى أبي أمامة _ رضي الله عنه _ قال : يا أبا أمامة ، إني رأيتُ في منامي أن الملائكة تصلي عليك كلما دخلتَ، وكلما خرجتَ ، وكلما قمتَ ، وكلما جلستَ . قال أبو أمامة: ((... و أنتم لو شئتم صَلَّتْ عليكم الملائكة ثم قرأ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذِكْراً كثيراً (٤١) وسبِّحوه بُكْرةً وأصيلاً (٤٢) هو الذي يُصلِّي عليكم وملائكتُه ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً (٤٣) ﴾))[59] .

ذِكرُ الله تعالى مفتاح كل خير،حيث يُذكر الإنسانُ في الملأ الأعلى، ويصلِّي عليه اللهُ وملائكته. وهذه المنزلة الجليلة تنعكس إيجاباً على حياة الفرد على الأرض، وعلى حياته بعد الموت.

قال الله تعالى:﴿والملائكةُ يُسبِّحون بحمد ربِّهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ [الشورى : ٥].

الملائكةُ _ عليهم السلام _ يُنَزِّهون اللهَ تعالى عما لا يليق به ، ويستغفرون للمؤمنين في الأرض من أجل زيادة حسناتهم ومراتبهم الإيمانية . لا سيما أن الملائكة يطلعون على أعمال الإنسان وأقواله ، ويعرفون الخللَ فيها والنقصَ ، ويدركون الذنوب التي اقترفها الإنسان وغرق فيها . فالملائكةُ لا يُسجِّلون أعمالَ الإنسان بدافع كرهه أو تدمير مستقبله ، أو إفساد مصيره . إنهم كِرام رحماء يقومون بتنفيذ الأمر الإلهي دون زيادة أو نقصان ، لإقامة الحجَّة على العبد ، ولكي يُدرِك أنه لم يتعرض لظلم . فأعماله هي بما كسبت يداه دون إجبار من أحد، ولكي يستشعر وجود مراقِبين وملازِمين له لا يفارقونه ، فيرتدع ويستحيي من الله تعالى وملائكته الكرام .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((إن الناس بعد آدم وقعوا في الشِّرك . اتخذوا هذه الأصنام وعبدوا غير الله . فجعلت الملائكةُ يدعون عليهم ويقولون : ربنا خلقتَ عبادك ، فأحسنتَ خلقَهم ، ورزقتهم فأحسنتَ رزقهم ، فعصوك وعبدوا غيرك . اللهم اللهم ، يدعون عليهم . فقال لهم الربُّ _ عز وجل _ : إنهم في غيب . فجعلوا لا يعذرونهم . فقال : اختاروا منكم اثنين اهبطهما إلى الأرض فآمرهما وأنهاهما . فاختاروا هاروت وماروت ... فلما شربا الخمر وانتشيا وقعا بالمرأة ، وقتلا النفس ، فكثر اللغط فيما بينهما وبين الملائكة ، فنظروا إليهما وما يعملان ، ففي ذلك أُنزلت : ﴿ الملائكةُ يُسبِّحون بحمد ربِّهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾. فجعل بعد ذلك الملائكة يعذرون أهل الأرض ويدعون لهم))[60] .

---

(٥٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٣) برقم (٣٥٦٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٦٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٠) برقم (٣٦٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

إن الملائكة ـ عليهم السلام ـ كائناتٌ نورانية لا تعصي اللهَ تعالى ، وهي غير مُكلَّفة ولا تملك حريةَ الاختيار بين الإيمان والكفر ، أو الخير والشر، لأنها خُلقت للطاعة فقط دون وجود أية فرصة للمعصية . أمَّا الإنسانُ فكائن ترابي مُكلَّف له القدرة على الإيمان أو الكفر ، وتتنازعه الشهوات والرغبات . وبعد آدم ﷺ وقع الناسُ في الشرك ، فضلوا وأضلوا . فدعت عليهم الملائكةُ ولم تعذرهم . فأراد اللهُ تعالى إظهار أن الناس يختلفون عن الملائكة ، فجاءت قصة هاروت وماروت . ومنذ ذلك الحين راحت الملائكةُ تستغفر لمن في الأرض وتدعو لهم لعلمها بأن الإنسان يجاهد أعداءً كُثر (الشيطان ، النَّفْس ، المغرَيات الحياتية) من أجل الطاعة . أمَّا الملائكةُ فهُم مطيعون رغماً عنهم .

٥ ـ حملهم العرش :

قال الله تعالى : ﴿ الذين يَحْمِلون العَرْشَ ومَن حَوْله ﴾[غافر : ٧] .

وهؤلاء الملائكة الأطهار المذكورون في الآية هم حملة العرش ، ومن حول العرش . يقومون بهذه الوظيفة الجليلة، ويسبِّحون بحمد ربهم تعالى، ويؤمنون به . فهم عباد ملتزمون بالطاعة المطلقة، لا يحيدون عن الأوامر الإلهية . والعرشُ هو ((جِسْم مُجَسَّم خلقه اللهُ ـعز وجل ـ وأمرَ ملائكة بحمله ، وتعبَّدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق في الأرض بيتاً ، وأمر بني آدم بالطواف به ، واستقباله في الصلاة))[61] .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٥) عن قصة هاروت وماروت : ((وأطنب الطبري في إيراد طرقها بحيث يقضي بمجموعها على أن للقصة أصلاً ، خلافاً لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه . ومحصلها أن الله ركَّب الشهوةَ في مَلَكَيْن من الملائكة اختباراً لهما ، وأمرهما أن يحكما في الأرض ، فنزلا على صورة البشر ، وحكما بالعدل مدة ثم افتتنا بامرأة جميلة ، فعوقبا بسبب ذلك بأن حُبسا في بئر ببابل منكسين ، وابتليا بالنطق بعلم السحر فصار يقصدهما من يطلب ذلك ، فلا ينطقان بحضرة أحد حتى يحذراه وينهياه فإذا أصر تكلما بذلك ليتعلم منهما ذلك . وهما قد عرفا ذلك فيتعلم منهما ما قصَّ اللهُ عنهما ، والله أعلم)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٨٧) : ((فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا فيكون تخصيصاً لهما ، فلا تعارض حينئذ ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق)) اهـ .

(٦١) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٥٨) .

قال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٨٦) : ((والمراد بمن حول العرش : هم الملائكة الذين يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين)) اهـ .

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ﷺ قال : ((أُذِنَ لي أن أحدِّث عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش، إن ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام))[62].

وهذا يدل على عظمة ملائكة الله تعالى عموماً ، وحملة العرش خصوصاً ، والذين هم العباد الكرام المقرَّبون . وهذه المسيرة العظيمة بين شحمة أُذنه إلى عاتقه ليست من الخيال العلمي ، فاللهُ تعالى الذي يمسك السماءَ أن تقع على الأرض لن يعجزه أن يصنع مخلوقاً بهذه العَظَمَة .

وقال الله تعالى : ﴿ ويَحْمِل عَرْشَ ربِّكَ فَوْقهم يومئذ ثمانيةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٣٢) : ((أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة . ويُحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب))[63] .

<u>٦ــ إغاثتهم المؤمنين :</u>

الملائكةُ ــ عليهم السلام ــ يُغيثون المؤمنين، ويساعدونهم بأمر الله تعالى. ولا يتركونهم في الشدائد يواجهون الأعداءَ وحيدين .

---

(٦٢) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٦٤٥) برقم (٤٧٢٧).وصحَّحه الحافظ في الفتح (٨/ ٦٦٥).

(٦٣) بعض الجهال والعوام يعتقدون أن الله تعالى جالس على العرش ، والملائكة يحملون العرشَ الذي فوقه الله تعالى . وهذه العقيدة الباطلة قد نتجت من عقائد التشبيه والتجسيم . فالواجب اعتقاده أن الله تعالى مستوٍ على عرشه كما ذُكِر لا كما يخطر للبشر. فعلى الإنسان أن يؤمن بلا تشبيه ، ويُصدِّق بلا تمثيل ، ويمسك عن الخوض فيما لا علم له به . قال الإمام الغزالي في قواعد العقائد في التوحيد (ص ٩) : ((وأنه مستوٍ على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواءً مُنَزَّهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال . لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته. وهو فوق العرش والسماء، وفوق كل شيء ... فوقيةً لا تزيده قرباً إلى= =العرش والسماء ، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى)) اهـ . قلتُ : إن الله تعالى مُنَزَّه عن الحلول في الأشياء ، فلا مكان يحتويه ، ولا زمان يَحُدُّه ، لأنه ــ سبحانه ــ خالق الزمان والمكان . وكان الله موجوداً قبل العرشِ والزمانِ والمكانِ وكلِّ المخلوقات ، ولا شيء معه .

واللهُ ينصر عباده بأن يمدهم بالملائكة ناصرين. وهذا يبعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين،ويجعلهم يؤمنون بأنهم ليسوا وحدهم في أرض المعركة .

قال الله تعالى : ﴿ إذ تقول للمؤمنين أَلَن يَكْفِيَكم أن يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزَلين ﴾ [آل عِمران:١٢٤].هذه الآية تشير إلى العَون الإلهيّ عبر الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين لمساعدة المؤمنين في حربهم ضد المشركين . واخْتُلِف هل كان ذلك يوم بَدْر أم يوم أُحُد. قال الطبري في تفسيره(٣/ ٤٢١):((ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، إذ تقول للمؤمنين بك من أصحابك:ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين ؟.وذلك يوم بدر)) اهـ . وعن الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بَدْر أن كُرْز بن جابر المحاربي يمد المشركين ، فأنزل الله تعالى :﴿ أَلَن يَكْفِيَكم أن يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثة آلاف ﴾ الآية[64] .

إن الله تعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين ، فهو يمدهم بالنصر والتأييد والتمكين . ومهما جمع الأعداءُ من عدد وعتاد ، فعلى المؤمن أن يظل دائمَ الصلة بخالقه تعالى ، واثقاً به ، ومؤمناً بأنه _ سبحانه _ لا يتخلى عن عباده الصادقين .

وقال الله تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أنِّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفِين ﴾ [الأنفال : ٩] .المؤمنون الذين كانوا _ يوم بدر _ يستغيثون اللهَ تعالى ، ويدعونه طالبين العون والنصر ، قد استجاب اللهُ لهم ، فأيَّدهم بألف من الملائكة متتابعين، يردف بعضُهم بعضاً (يتبع بعضُهم بعضاً) . وكل ذلك لطمأنة المؤمنين ، وبث فيهم روح القتال ، والإرادة غير القابلة للانكسار . وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) : عن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : لَمَّا كان يوم بدر ، نظر رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رَجلاً ، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ ، ثم مَدَّ يديه ، فجعل يهتف بربِّه : ((اللهم أَنجِزْ لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تَهلِك هذه العُصابة من أهل الإسلام لا تُعبَد في الأرض)) . فما زال يهتف بربِّه ماداً يديه ، مُسْتَقْبِلَ القِبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبَيْه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه . وقال : يا نبيَّ الله ، كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله _ عز وجل _ : ﴿ إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أنِّي مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفِين ﴾ ، فأمده اللهُ بالملائكة .

---

(٦٤) ذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٥) وقال : رواه ابن أبي حاتم بسند صحيح .

وهنا تظهر أهمية الدعاء ، ولا يمكن لأحد أن يستغنيَ عنه مهما بَلغ من المنزلة الرفيعة . فها هو النبي ﷺ الصادق المصدوق المؤيَّد بالوحي ، يدعو بكل إلحاح ، وذلك لكي يزداد ثباتاً ، ويزداد أصحابه إيماناً ورسوخاً . وقال النووي في شرحه على مسلم (١٢/ ٨٥) : ((قال العلماء : هذه المناشدة إنما فعلها النبي ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرعه، مع أن الدعاء عبادة ، وقد كان وعده اللهُ تعالى إحدى الطائفتين، إما العير وإما الجيش ، وكانت العير قد ذهبت وفاتت، فكان على ثقة من حصول الأخرى، لكن سأل تعجيل ذلك وتنجيزه ، من غير أذى يلحق المسلمين)) اه .

وهكذا نرى أن وعد الله تعالى لا يتخلف ،كما أنه _ سبحانه _ لا يخذل أنبياءه وأتباعهم ، وإنما يؤيدهم بنصره ، ولا يجعلهم فريسةً لأعداء الحق يسومونهم سوءَ العذاب . والنبيُّ ﷺ أعلم المخلوقات بالخالق تعالى ، وواثقٌ به ثقة مبصرة ومطلقة ، لكنه كان يدعو بإلحاح وذل واستكانة ، لأن حال العبد مع خالقه ينبغي أن تكون وفق هذا الشكل. كما أن دور أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _ يشير إلى ثقته بربّه ، وسعة علمه ، ودرايته بالأمور ، وإشفاقه على النبي ﷺ ، وهذا هو حال المساعِد المخلِص ، والصحابي المقرَّب .

وقال الله تعالى : ﴿ إذ يوحي ربُّكَ إلى الملائكة أنّي معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ فاضْرِبوا فَوْق الأعناق واضْرِبوا مِنهم كلَّ بَنان ﴾ [الأنفال : ١٢] .

فالأمر الإلهي جاء للملائكة _ يوم بدر _ بأن يثبِّتوا المؤمنين على القتال ، ويكثِّروا سوادَهم ، ويشدُّوا من عزيمتهم . واللهُ تعالى سيلقي الخوفَ والتردد والارتباك في قلوب الكافرين ، فتنهار معنوياتهم ، وتتساقط عزيمتهم . وقد أمر اللهُ تعالى الملائكةَ أن يضربوا على أعناق الكافرين وعلى أطرافِ الأصابع، حتى تسقط السيوفُ . فالمقاتِل إذا خسر أصابعَه توقَّف عن القتال وخسر حياته ، إما قتلاً أو أَسْراً . فالأطراف هي العنصر الأساسي في الأداء القتالي في كل المعارك ، فإذا زالت زال خطر العدو ، وانكسر جيشُه .

وعن أبي أيوب الأنصاري _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : ((إني أُخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير ؟ ، لعل الله يغنمناها)) ، فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلما سِرْنا يوماً أو يومين قال لنا : ((ما ترون في القوم فإنهم قد أُخبروا بمخرجكم ؟)) ، فقلنا : لا والله ، ما لنا طاقة بقتال العدو ، ولكن أردنا العير . ثم قال : ((ما ترون في قتال القوم ؟)) ، فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا

رسول الله كما قال قوم موسى لموسى:﴿ فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنَّا هَهُنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] . قال : فتمنَّيْنا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد ، أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ... ثم أنزل الله ـ عز وجل ـ :﴿ أنِّي معكم فثبِّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوب الذين كفروا الرُّعْبَ فاضْرِبوا فَوْق الأعناق واضْرِبوا مِنهم كلَّ بَنان ﴾ (65) .

وهكذا نرى إرادةَ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الخاضعة لإرادة النبي ﷺ ، فلا تلين ولا تنكسر أمام المغريات المادية . وقد تدارك الأنصارُ أمرَهم حينما سمعوا الردَّ الباهر من المقداد ، حيث أعلن عدم التخلي عن النبي ﷺ ، ومساندته حتى اللحظة الأخيرة ، دون تخاذل أو فرار . لذلك فإن هذا الجيل استحق النصرَ الإلهي ، والتأييد الرباني بإرسال الملائكة ، وأمرهم بتثبيت المؤمنين على الحق والجهاد. وعند الشدائد يظهر معدنُ الرجال الحقيقي ، لأن الأزمات هي الحاكمة على مستوى إخلاص الأفراد والجماعات .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) : عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : بينما رَجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رَجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ... فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ... فجاء الأنصاري، فحدَّث بذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: ((صدقتَ، ذلك مَدَد السماء الثالثة)).

ومن خلال هذا الحديث تتجلى بعضُ تفاصيل قتال الملائكة مع المؤمنين ، وتأثيرهم البالغ في سير المعركة عبر استئصالهم لشوكة الكافرين . فهذا المشركُ الذي سقط صريعاً قد خطم أنفه ، أي صارت علامة على أنفه إذلالاً له ، ووجهُه قد شُقَّ كضربة السوط ، لكي يذوق جزاء أعماله الشريرة . ولم يسقط المشرك صريعاً فحسب ، بل صارت هناك علامة على أنفه لكي يموت ذليلاً كسيراً. فالأنفُ عند العرب هو رمز الشموخ ، وحدوث علامة عليه يُعتبر إهانةً عظيمة للشخص . وهذا المشرك قد مات مُهاناً بسبب العقيدة الباطلة التي يعتنقها .

وعن الربيع بن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال:((كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ـ عليهم السلام ـ ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أُحرق به))(66).

---

(٦٥)رواه الطبراني(٤/ ١٧٤)برقم(٤٠٥٦).وحسَّنه الهيثمي في المجمع(٦/ ٩٤) برقم (٩٩٥٠).

(٦٦) الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٣٥) . وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٦) ، وفتح الباري لابن حجر (٧/ ٣١٢) .

إن المؤمنين الصادقين الذين يدافعون عن شرف الدعوة الإسلامية، والمنجزاتِ الحضارية المنبثقة عن عقيدتهم ، لا بد أن ينصرهم اللهُ تعالى ، ويثبِّتهم في المواطن الشديدة ، لأنه _ سبحانه _ لا يترك حملةَ دعوته المخلِصين ، ولا يترك رسالته تضيع بفعل جحود الكافرين وشدةِ بأسهم . فالنصرُ قادم لا محالة في الوقت الذي يختاره اللهُ تعالى . ﴿ وكان حَقَّاً عَلَيْنا نَصْرُ المؤمنين ﴾ [الرُّوم :٤٧].

٧_ ملائكة العذاب :

قال الله تعالى : ﴿ وما جَعَلْنا أصحابَ النار إلا ملائكة ﴾[المدَّثر : ٣١] .

إن خزنة النار هم ملائكة كِرام شديدو البأس ، مختصون بعذاب المستحقِّين له ، لا يمكن الإفلات منهم . وهم ينفِّذون الأوامرَ الإلهية كما هي . فيُعاقِبون من غضب اللهُ عليه . فالذي قضى حياته مستهزئاً بخالقه تعالى وشريعته ، وسائراً ضد طريق الأنبياء ، لا بد أن يدفع ثمنَ كُفره .

وفي تفسير القرطبي (١٩/ ٧٤) : ((أي لم نجعلهم رجالاً فتتعاطون مغالبتهم. وقيل : جعلهم ملائكة لأنهم خلاف جنس المعذَّبين من الجن والإنس ، فلا يأخذهم ما يأخذ المجانس من الرأفة والرقة ، ولا يستروحون إليهم . ولأنهم أقوم خلق الله بحق الله وبالغضب له ، فتؤمن هوادتهم ، ولأنهم أشد خلق الله بأساً ، وأقواهم بطشاً)) اهـ .

فملائكةُ العذاب_ عليهم السلام _ لا يمكن مقاومتهم أو التغلب عليهم أو طلب منهم الرحمة والعطف وتخفيف العذاب ، لأنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً . فهم ينفِّذون الإرادةَ الإلهية كاملةً غير منقوصة دون نقاش أو استدراك .

وفي سيرة ابن هشام (٢/ ١٥٥) : ((فقال أبو جهل يوماً وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق : يا معشر قريش ، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ . فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله :﴿ وما جَعَلْنا أصحابَ النار إلا ملائكة وما جَعَلْنا عِدَّتهم إلا فِتْنةً للذين كفروا ﴾))[67] .

---

(٦٧) انظر تفسير الطبري (١٢/ ٣١٢) ، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٧١) ، ولباب النقول للسيوطي (١/ ٢٢٣) ، والموافقات للشاطبي (٣/ ٣٨٥) .

إن الكافرين في كل زمان ومكان لا يقدرون على مواجهة الحجَّة بالحجَّة ، وتقديمِ البراهين الساطعة ، لذلك نراهم يختبئون وراء الاستهزاء والسخرية ، لكي يخدعوا أنفسَهم بأنهم في موقف القوة والانتصار . كما أن سخريتهم مستندة إلى جهلهم المفرط وعنادهم الشديد .

فأبو جهل _ لعنه اللهُ _ كان يعتقد بسخرية وجهل أن خزنة النار هم رجال عاديون يمكن مقاومتهم بمزيد من العُدَّة والعتاد والقوة الجسمانية . فالمسألة بالنسبة إليه : غالب ومغلوب ، ومعركة بين رجال أقوياء . لكن اللهَ تعالى فضح جهلَ ذلك المغرور وسخريته بأن ذكر أن خزنة النار هم ملائكة لا طاقة لبني البشر بمقاومتهم ، أو التغلب عليهم .

٨ _ ملائكة الرحمة :

قال الله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يدخلونها ومَن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذُرِّياتهم والملائكةُ يَدْخلون عليهم مِن كل باب (٢٣) سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُم ﴾ [سورة الرعد] .

وهؤلاء ملائكة الرحمة الذين يدخلون على المؤمنين من أبواب الجنة للسلام عليهم وتهنئتهم بنيل رضوان الله تعالى وجنَّته الخالدة ، فيبعثون في نفوس المؤمنين الراحة والسعادة بما كتبه اللهُ لهم من النعيم السرمدي الذي لا ينقطع . وهذه الجائزةُ العظمى تجعل المؤمنين ينسون كل أصناف العذاب التي يكابدونها في الحياة الدنيا فتزداد ثقتهم بالخالق تعالى الذي لا يُخلِف وعدَه ، ويزداد إصرارهم على التمسك بالحق والسير في طريق الدعوة حتى آخر العمر رغم كل العوائق .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٧١) : ((وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنِّئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنهما _ عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟)) ، قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ((أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون الذين تُسد بهم الثغور ، ويُتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله _ عز وجل _ لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيُّوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتيَ هؤلاء فنسلِّم

عليهم ؟، قال : إنهم كانوا عباداً يعبدوني لا يشركون بي شيئاً ، وتُسد بهم الثغور ، ويُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء))[68] .

وعندئذ تأتي الملائكةُ _ عليهم السلام _ للمؤمنين ﴿ يَدْخلون عليهم مِن كل باب ﴾ ، ويقومون بالسلام عليهم وتهنئتهم بفوزهم برضا الله وجنَّته . فقدومُ الملائكة _ عليهم السلام _ لتهنئة الفقراء والمهاجرين الذين فازوا بالجنَّة بعد معاناتهم الطويلة ، يشير إلى عظمة العطاء الرباني غير المحدود ، وأن اللهَ تعالى لا ينسى معاناة المؤمنين في الدنيا ، بل يُعوِّضهم خيراً لصبرهم . والصبرُ هو مفتاح الفَرَج في الدنيا والآخرة .

٩_ النفخ في الصور :

قال الله تعالى : ﴿ ونُفِخ في الصُّور فصَعِقَ مَن في السماوات ومَن في الأرض إلا مَن شاء اللهُ ثم نُفِخَ فيه أُخرى فإذا هم قِيامٌ يَنظرون ﴾ [الزُّمر : ٦٨] .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٤/ ٦٦) : ((_ الصُّور _ هو قرنٌ ينفخ فيه إسرافيل _ عليه السلام _ بأمر الله ، والمراد بالنفخة هنا " نفخة الصَّعق " التي تكون بعد نفخة الفزع ، ... فخرَّ ميتاً كل من في السماوات والأرض ... إلا من شاء اللهُ بقاءه كحملة العرش ، والحور العين والولدان ... _ ثم _ نُفخ فيه نفخةٌ أخرى وهي نفخة الإحياء ... فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يؤمرون)) اهـ .

فالْمَلَك إسرافيل _ عليه السلام _ هو صاحب الصُّور ، ينفِّذ الأمرَ الإلهي بالنفخ في الوقت الذي يحدِّده اللهُ تعالى . وهذا الأمرُ من علم الغيب المخفي على الإنسان لكي يظل دائمَ الحذر والاستعداد . فهناك أهوال بالغة الشدة ، وعلى الفرد المهتم بمصيره بعد الموت أن يستعد لتجاوز هذه الأهوال ، والنجاح في الاختبارات المتوالية . وهذا لا يتأتى إلا بعد إتقان العمل في الدنيا، لأن الدنيا مزرعة الآخرة .

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٦٨): ((اشْتُهِر أن صاحب الصور إسرافيل _عليه السلام _، ونقل فيه الحليمي الإجماع)) اهـ .

أما " الصُّور " فهو قرنٌ عظيم ينفخ فيه الْمَلَكُ بأمر الله تعالى .

---

(٦٨) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٦٨) برقم (٦٥٧٠) ، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٥٥) : ورجاله ثقات . اهـ . وصحَّحه ابن حبان (١٦/ ٤٣٨) برقم (٧٤٢١) .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ما الصُّور ؟ ، قال : ((قرنٌ يُنفخ فيه))[69] . وذهب قِسْمٌ من العلماء إلى وجود ثلاث نفخات : نفخة الفزع (حيث تفزع الخلائق وتخاف وتضطرب ويتغير مجرى الحياة)، ونفخة الصَّعق (حيث تموت الخلائق إلا من استثناهم اللهُ تعالى)، ونفخة البعث (حيث تقوم الخلائق من قبورها وتُبعَث من أجل الحساب) . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٢١) : ((وقيل : إنها نفختان ، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق أو إلى نفخة البعث ، واختار هذا القشيري والقرطبي وغيرهما)) .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : ((بَيْن النَّفختين أربعون))[70] .

هذا الحديث يشير إلى وجود نفختَيْن لا ثلاث نفخات . والأربعون لم يتم تحديدها بالسنوات أو الأشهر أو الأيام ... لعدم علم أبي هريرة ــ رضي الله عنها ــ بها . أو ربما كان يَعلم بها لكنه أجَّل الموضوع فيما بعد لانشغاله بشيء ما ، أو غياب الفكرة من ذهنه. وقال ابن التين:((ويُحتمل أيضاً أن يكون عَلِمَ ذلك ، لكن سكت ليخبرهم في وقت أو اشتغل عن الإعلام حينئذ))[71] .

وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : ((يقوم الْمَلَكُ بالصُّور بين السماء والأرض فينفخ فيه ، والصُّورُ قرنٌ ، فلا يبقى خلقٌ في السماوات والأرض إلا مات ، إلا من شاء ربُّك ، ثم يكون بين النفختين ما شاء اللهُ أن يكون))[72] .

---

(٦٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠) برقم (٣٨٧٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وصحَّحه ابن حبان (١٦/ ٣٠٣) برقم (٧٣١٢) .

وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٦٨) : ((والصُّور إنما هو قرنٌ ــ كما جاء في الأحاديث المرفوعة ــ. وقد وقع في قصة بدء الأذان بلفظ البوق والقرن في الآلة التي يستعملها اليهود للأذان. ويقال إن الصُّور اسم القرن بلغة أهل اليمن، وشاهده قول الشاعر :

نحن نفخناهم غداة النقعين   نطحاً شديداً لا كنطح الصُّورين)) اهـ .

(٧٠) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨١٣) برقم (٤٥٣٦) ، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠) برقم (٢٩٥٥).

(٧١) ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٥٥٢) نقلاً عن ابن التين .

(٧٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤١) برقم (٨٥١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا الحديث يشير إلى الأهوال القادمة ، كما يدل _ أيضاً _ على وجود نفختَيْن لا ثلاث .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته يَسمع متى يُؤمر ، فيَنفخ)) ، فقال أصحاب محمد : كيف نقول ، قال : ((قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا))[73] .

فلا مفر من الاستعداد لمواجهة هذا الخطب الجليل عبر الإخلاص لله تعالى في أداء العبادات على أكمل صورة . فإذا كان النبي ﷺ يقول : ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن)) ، وهو المغفور له ما تقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر . فما بالك بالناس الذين لا يعلمون هل مصيرهم الجنَّة أم النار ؟! . وهذا يشير إلى عِظَم الخطب ، وشدة الأمر . وهنا تتجلى أهمية الاستعداد لتلك اللحظة كي ينجوَ المرءُ من هذا الكرب العظيم . وقد جاء الإرشادُ النبوي للصحابة _ رضي الله عنهم _ أن يتوجَّهوا لخالقهم ، ويلهجون بذكر الله تعالى ، ويتوكَّلون عليه. فلا أحد يقدر على كشف الغمة ، وإزالةِ الخوف والاضطراب ، وإزاحةِ الكربات سوى الخالق تعالى . وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن طَرْفَ صاحب الصور مُذْ وُكِّل به مستعد ينظر نحو العرش ، مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طَرْفه ، كأن عينيه كوكبان دُرِّيان))[74] .

وها هو إسرافيل صاحب الصُّور على أهبة الاستعداد لكي ينفِّذ أمرَ الله تعالى في التو واللحظة دون تأخير أو نقاش . فحريٌّ بالبشر أن يكونوا مستعدين بشكل كامل لأن الأمر يتعلق بمصيرهم (النعيم الأبدي أو العذاب الأبدي) . والأنبياء والملائكة لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون ، ومصيرهم معلوم وهو العيش في رحمة الله تعالى ونعيمه السرمدي دون أن يُمَسُّوا بأي أذى أو عذاب . إذن ، الأمر يتعلق بالإنس والجن الذين لا هم من الأنبياء ولا الملائكة. ومصيرهم غير مضمون البتة ، فهم لم يحصلوا على بلاغ إلهي يذكر أنهم من أهل الجنة . فينبغي أن يكونوا شديدي الحذر ، ويأتوا يومَ القيامة بأعمال الخير ، متوكِّلين على الله تعالى لكي ينالوا الخلاصَ الأبدي (الجنَّة) ، وغير ذلك فإن الضياع السرمدي في الانتظار ، يومَ لا ينفع الندم ، ولا توجد فرصة للتعويض .

---

(٧٣) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٢٦) برقم (٣٠١٠) ، والترمذي في سُننه (٥/ ٣٧٢) برقم (٣٢٤٣) وحسَّنه . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٥) : ((وهو حديث جيِّد)) .

(٧٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٠٣) برقم (٨٦٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٠ـ مَن ورد اسمه منهم :

قال الله تعالى: ﴿ مَن كان عَدُواً للهِ وملائكتِه ورُسُلِه وجِبْريلَ ومِيكالَ فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾ [البقرة : ٩٨] .

إن الْمَلَك جبريل ـعليه السلام ـ هو أعظم الملائكة على الإطلاق .

فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ رأى جبريلَ له ستمائة جناح[75] .

وهذا الحديث يشير إلى عظمة هذا الْمَلَك وقوته الكبيرة التي لا يمكن للعقل البشري أن يجسِّدها أو يتصوَّرها ، لأنها فوق قدرته على التحمل أو التخيُّل . فالملائكة أعظم مخلوقات الله تعالى من ناحية القوة الجسمانية التي لا تنهار مطلقاً ، ولا يعتريها التعب والإرهاق ، ولا تُصاب بالملل . فهم كائنات مخلوقة من النور ، أي إنهم يتميزون عن البشر المخلوقين من التراب ، والجن المخلوقين من النار .

وقد ورد في صحيح البخاري (٣/ ١١٨١) : عن عائشة ـ رضي الله عنه ـ أن جبريل جاء النبيَّ ﷺ في صورته الحقيقية فَسَدَّ الأفقَ .

وجبريلُ ـ عليه السلام ـ هو رُوح القُدُس الأمين المختص بالنزول على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لإخبارهم بالوحي ، فهو أمين الوحي.

فقد قال الله تعالى : ﴿ نَزَلَ به الرُّوحُ الأمين ﴾ [الشُّعراء : ١٩٣] .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٨٤) : ((فإن المراد به جبريل اتفاقاً)) .

والْمَلَك ميكال (ميكائيل) ـ عليه السلام ـ يأتي في المنزلة بعد جبريل ـ عليه السلام ـ ، وهو مَلَكٌ كريم عظيم الشأن .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٢): عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال : ((رأيتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أُحُد رَجُلَيْن، عليهما ثياب بياض،ما رأيتهما قبل ولا بعد)). يعني جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ[76] .

---

(٧٥) متفق عليه . البخاري (٣/ ١١٨١) برقم (٣٠٦٠) ، ومسلم (١/ ١٥٨) برقم (١٧٤).

(٧٦) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ٦٦) : ((وفيه فضيلة الثياب البيض وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء ، بل يراهم الصحابة والأولياء . وفيه منقبة لسعد بن أبي وقاص الذي رأى الملائكة ، والله أعلم)) .

وقال الله تعالى : ﴿ ونَادَوْا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا ربُّكَ ﴾[الزُّخرف : ٧٧] .

والْمَلَك (مَالِك) _ عليه السلام _ هو خازن النار . وهؤلاء الذي يُنَادُون هم الكفار الذين يتمنون الموتَ لكي يستريحوا من العذاب الأبدي .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٨٢) : عن سمرة _ رضي الله عنه _ قال : قال النبي ﷺ : ((رأيتُ الليلة رَجُلَيْن أتياني ، قالا : الذي يوقد النار مَالِك خازنُ النار ، وأنا جبريل ، وهذا ميكائيل)) .

***

ثالثاً : الكُتُب

(القرآن الكريم في فصل خاص)

١ــ التوراة :

إن الكتب السماوية لا تناقض بينها مطلقاً ، لأن مصدرها واحدٌ ، وهي وحي الله تعالى لأنبياء مخصوصين . وكلها تُصدِّق بعضها بعضاً . فإسقاطُ كتاب سماوي هو إسقاط وتكذيب لكل الكتب وطعن في الوحي، وتكذيب لله تعالى . فلا معنى لإيمان العبد بدون الإيمان بالكتب السماوية التي هي المنهاجُ السماوي لصلاح الإنسان والأرض . وفي ذات الوقت فإننا نجد أن التوراة والإنجيل قد طرأ عليهما التحريف والتبديل والتلاعب البشري بنصوصهما، مما أحدث فيهما التناقض والتضارب واختلاط الكلام الإلهي بالكلام البشري ضمن فوضى عارمة . أما القرآنُ الكريم فقد حفظه اللهُ تعالى من التلاعب. فالقرآنُ الذي بين أيدينا الآن هو ذاته الذي أُنزل على محمد ﷺ دون زيادة أو نقصان . والقرآنُ هو الْحَكَم ، فما وافقه فهو حق ، وما خالفه فهو باطل .

قال الله تعالى : ﴿ إنَّا أَنزَلْنا التَّوْراةَ فيها هُدىً ونور ﴾ [المائدة : ٤٤] .

لقد أنزل اللهُ التوراةَ على موسى ﷺ. والتوراةُ كتابٌ سماوي عظيم فيه حُكْم الهدى، والبشرى بقدوم النبي الخاتَم محمد ﷺ، ويتضمن توجيهات إلهية كلها نور تدعو إلى الإيمان بالله وحده . ولكن طرأ عليها التحريف والتبديل ، فحُذِف منها ، وزِيد فيها .

٢ــ الإنجيل :

قال الله تعالى : ﴿ وآتيناه الإنجيلَ فيه هُدىً ونور ﴾ [المائدة : ٤٦] .

والإنجيلُ هو الكتاب السماوي العظيم الذي أنزله اللهُ تعالى على عيسى ﷺ ، ويتضمن توجيهاً ربانياً يدعو إلى الهدى . ويشتمل على نورِ الهداية ، وتنظيمِ العلاقة بين الفرد وخالقه .

٣ــ الزَّبور :

قال الله تعالى : ﴿ وآتَيْنا داودَ زَبوراً ﴾ [النساء : ١٦٣] .

والزَّبور هو اسم الكتاب السماوي الذي أنزله اللهُ تعالى على داود ﷺ .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٥٤) : ((الزُّبر الكُتُب . وأَحدها زَبُور ... وقال الكسائي : زبور بمعنى مزبور ، تقول : زبرتُه فهو مَزْبور ، مثل كتبتُه فهو مكتوب)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٥٦) : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : ((خُفِّفَ على داود ـ عليه السلام ـ القرآنُ ، فكان يأمر بدوابه فتُسرَج ، فيقرأ القرآنَ قبل أن تُسرَج دوابه))[77] .

و((الزبور مائة وخمسون سورة ، كلها مواعظ وثناء ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود))[78] .

٤ـ صُحف إبراهيم وموسى :

قال الله تعالى : ﴿ صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى ﴾ [الأعلى : ١٩] .

وهذه الصُّحف القديمة المنْزَلة على إبراهيم وموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ . كانت هدىً ونوراً تهدي الخلق إلى خالقهم .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما نزلت ﴿ سَبِّح اسْمَ ربِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : ١] . قال رسول الله ﷺ : ((كُلُّها في صحف إبراهيم وموسى))[79] .

وكل الكتب السماوية جاءت من عند الله تعالى الْمُنَزَّه عن التناقض . وقد تشرَّف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بحمل الكلام الإلهي، وإيصاله ـ دون زيادة أو نقصان ـ إلى الناس. لكن البعض أبى إلا أن يقوم بفعل التحريف في كلام الله تعالى لتحقيق مصالح ذاتية خاضعة للأهواء الشخصية.

وقد حفظ اللهُ تعالى كتابه الخاتَم (القرآن الكريم) من التحريف رغم كل المحاولات المسعورة للتلاعب به ، ليظل دستوراً كاملاً معصوماً إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها .

****

---

(٧٧) (خُفِّف) : سُهِّل . (القرآن) : قراءة الكتاب الْمُنْزَل عليه . فلفظ القرآن في اللغة العربية مصدر قرأ . قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾[القيامة : ١٨]. (فتُسرَج) : يوضع عليها السُّرج، وهو ما يوضع على ظهر الفَرَس تحت الراكب .

(٧٨) ذكره الحافظ في الفتح (٦/ ٤٥٥) وقال : أخرجه ابن أبي حاتم وغيره عن قتادة . وانظر أيضاً تفسير القرطبي (١٠/ ٢٤٢) ، وتفسير الثعالبي (٢/ ٣٤٦) ، والإتقان للسيوطي (١/ ١٨٠) .

(٧٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٥٨) برقم (٢٩٣٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

رابعاً : الأنبياء والرُّسل

١_ الإيمان بهم :

إن الإيمان بالأنبياء كلهم يُعتبر من أركان الإيمان . ومن أسقطَ أيَّ نبي أو طعن فيه فهو كافر . وهؤلاء الأنبياء_ عليهم الصلاة والسلام _ هم سادة البشرية الذين اختارهم اللهُ تعالى لحمل كلمته وإيصالها إلى الخلق . واللهُ تعالى لن يختار إلا من كان مؤهَّلاً لحمل هذه الأمانة الجسيمة .

قال الله تعالى: ﴿ ولكنَّ البِرَّ مَن آمن بالله واليومِ الآخر والملائكةِ والكتابِ والنَّبِيِّين ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

والجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين النبي والرسول . فالرسولُ أعظم من النبي . و ((مَن نبَّأه اللهُ بخبر السماء ، إن أمره أن يبلِّغ غيرَه فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره أن يبلِّغ غيرَه فهو نبي وليس برسول . فالرسول أخص من النبي . فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً))[80] .

٢_ تفضيل بعضهم على بعض :

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسل فَضَّلْنا بَعْضَهم على بعض ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وهذه الآية تدل على أن مراتب الرُّسل متفاوتة ، فبعضُهم أفضل من بعض . فكل رسول له منزلته الخاصة به ، والتي تعكس إمكانياته وإنجازاته وأداءه في تبليغ الرسالة . فسادةُ الأنبياء هم أُولو العَزم (محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح) ، وبعدهم يأتي باقي الأنبياء . وهذا الأمرُ لا يقدح في شرف النبوة ومكانةِ الأنبياء، لأن ذوات الأنبياء الشريفة تختلف في الفضائل والدرجات ، وبينها تنافس طيِّب في عمل الخيرات ، ونيلِ رضا الله ، وتنفيذِ أوامره بحذافيرها ، وهذا جعل مراتبهم مختلفة حسب أعمالهم . ((كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبيُّ ﷺ الأنبياءَ في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله _ عز وجل _))[81].

أما ما رواه أبو سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((لا تخيِّروا بين الأنبياء))[82] .

---

(٨٠) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ، ص ١٤٩ .

(٨١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٧) .

(٨٢) متفق عليه.البخاري (٦/ ٢٥٣٤)برقم (٦٥١٨)،ومسلم (٤/ ١٨٤٥) برقم (٢٣٧٤).=

فيعني الابتعاد عن تفضيل الأنبياء بهدف الانتقاص من قَدْرهم ، أو الطعن فيهم ، أو الخضوع للعصبية والعناد ، أو التمسك بالرأي بدافع الهوى دون حُجَّة . ولكن يجب اعتقاد التفاوت بين الأنبياء لأنه مذكور في القرآن الكريم . ومنكرُ التفاضل بين الأنبياء والرُّسل كافرٌ لتكذيبه كلام الله تعالى .

٣ـ أخذ الميثاق منهم :

قال الله تعالى : ﴿ وإذْ أَخَذْنا من النَّبيين ميثاقَهم ومِنكَ ومِن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأَخَذْنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ [الأحزاب : ٧] .

إن الله تعالى قد أخذ على الأنبياء العهدَ بأن يكونوا يداً واحدة في نشر الإسلام ، متناصرين خاضعين للشريعة الإلهية . فالأنبياءُ كيان واحد لا يمكن تفتيته ، دينهم واحد وهو الإسلام ، وشرائعهم متعددة . وكلهم جاء بالتوحيد . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦١٩) : ((يقول الله تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهدَ والميثاق في إقامة دين الله تعالى ، وإبلاغِ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق)) اهـ .

وعن أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ : أن آدم ﷺ نظر إلى بنيه ((فرأى فيهم الغني والفقير ، وحسن الصورة وغير ذلك فقال : ربِّ لو سَوَّيْتَ بين عبادك ، فقال : إني أحب أن أُشكَر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرج، وخُصُّوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة فذلك قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وإذْ أَخَذْنا من النَّبيين ميثاقَهم ومِنكَ ومِن نوح ﴾ الآية))[83] . هذا الميثاق الغليظ هو العهد الإلهي الذي لا يقبل التلاعب أو التجاوز . والأنبياءُ الكرام ـ باعتبارهم سادة البشرية ـ هم الأقدر على حمل هذا العهد وتنفيذه على أرض الواقع دون إفراط أو تفريط . فالإيمانُ ليست مسألةً سهلة أو تحصيل حاصل ، إنها قضية مصيرية يتوقف عليها خلود البشرية في الجنة أو النار .

=وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم(١٥/ ٣٧ و٣٨): ((فجوابه من خمسة أوجه: أحدهما : أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه سَيِّد ولد آدم ، فلما علم أخبر به . والثاني : قاله أدباً وتواضعاً ، والثالث : أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص المفضول . والرابع : إنما نهى عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة ... والخامس : أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة ، فلا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرى . ولا بد من اعتقاد التفضيل)) .

(٨٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٣) برقم (٣٢٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٤ـ نفي الغُلول عنهم :

قال الله تعالى : ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾ [آل عمران : ١٦١][84] .

أي : ما كان لنبي أن يخون في الغنيمة . فالغُلول والنبوة ضدان لا يجتمعان . والخيانةُ فعل مضاد لقيمة النبوة الطاهرة الصافية النقية ، وتتعارض ـ كلياً ـ مع مكانة النبي ﷺ الْمُنَزَّهة عن الغدر والخيانة وكافة الصفات الذميمة التي ينفر منها الإنسانُ العادي ، فما بالك بالنبي المعصوم المؤيَّد بالله تعالى ، والذي يَنزل عليه الوحي ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور . وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:((نَزلت هذه الآية ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾ في قطيفة حمراء فُقِدت يوم بَدْر، فقال بعض الناس:لعل رسول الله ﷺ أخذها . فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾ ـ إلى آخر الآية ـ))[85] . فقد نزَّه اللهُ تعالى نبيَّه عن الغلول (الخيانة في الغنيمة) لأنها تطعن في أخلاق النبوة المعصومة ، فهمَّة النبي ﷺ عالية لا تَنزل إلى مستوى أخذ قطيفة (ثوب مخمل) وإخفائها عن أصحابه . فهو الصادق الأمين الذي رفض متاعَ الدنيا الزائل في سبيل الدعوة الإسلامية ، وتحدى كلَّ الإغراءات التي تم تقديمها له متمسكاً بحمل أمانة تبليغ الرسالة الإلهية دون تخاذل أو تكاسل ، وبلا زيادة أو نقصان . وقد عرض مشركو قريش على النبي ﷺ أعظمَ العروض الدنيوية التي تجذب ضعاف النفوس وأصحابَ القلوب المريضة لكنه رفض دون تردد أو ضعف ، فقالوا : ((فَإِنْ كُنْتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً ، وإن كنتَ إنما تطلب الشَّرف فينا سَوَّدْنَاكَ علينا ، وإن كنتَ تريد به مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ علينا))[86] . ومَن كان هذا حاله ودرجة صموده فهل سيغتر بثوب مخمل أحمر يخفيه عن أعين أصحابه ؟!. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : ((بعث نبيُّ الله ﷺ جيشاً فَرُدَّتْ رايته ، ثم بَعث فرُدَّت بغلول رأس غزال من ذهب . فنزلت ﴿ وما كان لنبيٍّ أن يَغُلَّ ﴾))[87].

(٨٤) قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٨٥) عن الغلول : ((أي الخيانة في المغنم . قال ابن قتيبة : سُمِّيَ بذلك لأن آخذه يَغُلُّه في متاعه أي يخفيه فيه . ونقل النووي الإجماع على أنه من الكبائر)) .

(٨٥)رواه أبو داود (٢/ ٤٢٦) برقم (٣٩٧١)،والترمذي (٥/ ٢٣٠) برقم (٣٠٠٩) وحسَّنه.

(٨٦) تفسير الطبري(١٥/ ١٦٤)، وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣)،والسيرة الحلبية (١/ ٤٨٧).

(٨٧) رواه الطبراني (١٢/ ١٣٤) برقم (١٢٦٨٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٢) : ((ورجاله ثقات)) . وقال السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٣٦١) : وسنده جيِّد .

إن تأثير الغلول مدمِّر في صفوف المؤمنين ، فهو يُضعف الروحَ المعنوية ، ويؤثر سلباً على مجريات الأمور ، ويعكس صورةً سلبية عن الجيش الذي تنتشر فيه هذه الآفة . لذلك فقد حاربها الإسلامُ بكل قوة للحفاظ على صورةِ الجهاد نقيةً من كل شائبة ، وحفظِ نقاء المجاهِدين الذين يقاتِلون في سبيل الله تعالى ، وليس من أجل متاع دنيوي زائل .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (٣/ ١١١٨) ومسلم (٣/ ١٤٦١) : أن أبا هريرة _ رضي الله عنه _ قال : ((قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلولَ ، فعظَّمه ، وعظَّم أمرَه)) .

فالغلول (الخيانة في المغنم) من الكبائر . فإثمها عظيم لاشتمالها على الخيانة والغدر والسرقة والأنانية . حيث يقوم فاعلُها بتقديم شهوة نفسه الشريرة في حب التملك بغير وجه حق ، فهو لا يقدِّر جهود إخوانه ، حيث يقوم بخداعهم مستخدماً وسائل التحايل الخفي ، وإيثار نفسه الأمَّارة بالسوء على المؤمنين الذين يمارسون فعلَ التضحية راجين الثواب من عند الله تعالى .

كما أن الغلول يشير إلى نفسية بالغة السوء وقلبٍ أعمى مريض غارق في لعاعة الدنيا دون النظر إلى وحدة الصف الإسلامي، والتماسكِ الاجتماعي الإيماني. كما أن أثره قاتل في زراعة الحواجز بين المؤمنين وفقدان الثقة، وإقامة السدود المانعة من التواصل بين الجماعة المؤمنة ، وهذا يجعل المجتمعَ الإسلامي جُزراً متباعدة متباغضة ، فتؤول قوتهم وتماسكهم إلى شظايا مبعثرة بائسة .

٥_ مهمتهم في البلاغ :

قال الله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم كثيراً مِمَّا كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ [المائدة : ١٥] .

والخطابُ الإلهي مُوَجَّه لأهل الكتاب (اليهود والنصارى). فقد جاءهم النبيُّ محمد ﷺ ليوضِّح كثيراً من الأمور التي أخفاها أهل الكتاب وحرَّفوها وتلاعبوا بها (مثل : آية الرَّجم وقصة أصحاب السبت الذين مُسِخوا قردةً) ، ويتجاوز النبيُّ ﷺ عن كثير من باطلهم وتحريفهم للكتاب لعدم وجود فائدة في بيانه . وإظهارُ ما أخفاه أهلُ الكتاب دليلٌ باهر على نبوة محمد ﷺ ، لأنه أُمِّي لم يقرأ التوراة والإنجيل . إذن ، هذه المعلومات التي أظهرها النبي ﷺ ليس لها أي مصدر إلا الوحي الموجِّه لسلوك النبي ﷺ وتعاملاته .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أنه قال : ((مَن كَفَر بالرَّجم فقد كفر بالرحمن ، وذلك قول الله :﴿ يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم كثيراً مِمَّا كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ ، فكان مما أَخفوا الرَّجمُ))[88] .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ((ما تجدون في التَّوراة في شأن الرَّجم ؟)) ، فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إنَّ فيها الرَّجْمَ ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفعْ يدك ، فرفع يده فإذا فيها آية الرَّجم ، فقالوا : صدقَ يا محمد ، فيها آيةُ الرجم . فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما [89] .

وهكذا نرى ضعاف النفوس يحاولون إخفاءَ النصوص الدينية والتحايلَ عليها من أجل تحقيق مصالح شخصية ، وبسطِ السيطرة والنفوذ على الأتباع الجهال الذين لا يملكون حصيلةً علمية . وتظهرُ مسألةُ الرجم في هذا السياق لتعكس طبيعةَ تفكير أهل الكتاب العائشين في الأوهام والعقائد المتضاربة ، والخاضعين لسُلطة رجال الدين وعِلْيةِ القوم في تفسير النصوص والتلاعب بها حسب الأهواء والمنافعِ الذاتية . حيث يتم تمييعُ النصوص الدينية وإعادةُ تأويلها أو إخفاؤها لتتناسب مع الظروف ، فتصبحُ البيئةُ المحيطةُ هي الحاكمة على النص الديني وليس العكس . فنجدُ أن أهل الكتاب أَخْضَعُوا كلامَ اللهِ المقدَّسَ لأهواء البشر ، وآراءِ النخبة الدينية المحصورة

---

(٨٨) صحَّحه ابن حبان (١٠/ ٢٧٦) برقم (٤٤٣٠) . ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٠٠) برقم (٨٠٦٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ./ ملاحظة : الكفرُ لا يكون إلا بإنكار نص قطعي الورود (القرآن الكريم والحديث المتواتر) وقطعي الدلالة .

(٨٩) رواه البخاري(٣/ ١٣٣٠) برقم (٣٤٣٦) واللفظ له،ومسلم (٣/ ١٣٢٦) برقم(١٦٩٩). وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ١٦٨) : ((قال الباجي: يُحتمل أن يكون عَلِم بالوحي أن حكم الرجم فيها ثابت على ما شُرع لم يلحقه تبديل . ويُحتمل أن يكون علم ذلك بإخبار عبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم منهم على وجه حصل له به العلم بصحة نقلهم. ويُحتمل أن يكون إنما سألهم عن ذلك ليعلم ما عندهم فيه ثم يتعلم صحة ذلك من قِبَل الله تعالى)) اهـ .

في الضغوطات السياسية والاجتماعية . فتكرَّس التحريفُ في التوراة والإنجيل ، وصار كلامُ الإنسان _ عند أهل الكتاب _ هو الحاكم على كلام الله تعالى . وهذا منتهى الضلال والكفر .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٧) : عن البراء بن عازب _ رضي الله عنه _ قال : مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحمَّماً _ أي مُسْوَد الوجه _ مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال : ((هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم ؟)) ، قالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم فقال : ((أَنشُدُكَ بالله الذي أَنزل التوراةَ على موسى ، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟)) ، قال : لا، ولولا أنكَ نَشدتني بهذا لم أخبركَ . نجده الرجم ولكنه كَثُرَ في أشرافنا، فَكُنَّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه وإذا أخذنا الضعيفَ أَقمنا عليه الحدَّ. قُلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميمَ والْجَلْدَ مكان الرَّجم .

وهذا الحديثُ يشير إلى الأيدي العابثة بالنصوص الشرعية خضوعاً لاعتبارات دينية أو سياسية أو اجتماعية. فتصبح فلسفةُ تغيير الأحكام الإلهية شريعةً جديدة عند أهل الكتاب نزولاً عند ضغط الأهواء والمنفعةِ الدنيوية القاصرة . وهكذا ندرك الأساس الفكري لتحريف التوراة والإنجيل ، والذي يتمحور حول التلاعب بالعامة عبر خداعهم ، وتثبيت خضوعهم للسُّلطة الدينية المشوَّشة والسُّلطةِ السياسية المتحالفة مع طبقة رجال الدِّين ، لضمان استمرارية حاكمية الطغاة دون تغيير ، وبالطبع فإن الشعب هو من يدفع الثمن .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم على فترة من الرُّسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ [المائدة : ١٩] .

واللهُ تعالى يخاطب أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) ويمنُّ عليهم أن أرسل محمداً ﷺ لبيان الشريعة الإلهية الصحيحة بعد انتشار عبادة الأوثان ، وتحريفِ التوراة والإنجيل ، وتفشي العقائد الزائغة التي ما أَنزل اللهُ بها من سلطان . والبعثةُ المحمَّدية الإسلامية جاءت بعد مدة زمنية طويلة منذ عيسى ﷺ (أقرب الأنبياء زمنياً إلى النبي الخاتَم محمد ﷺ) .

وهذا فضلٌ إلهي جليل . فالخالقُ الرحيم بعباده لم يتركهم للشياطين تتلاعب بهم ، ولم يكلهم إلى أنفسهم وأهوائهم . بل أرسل إليهم خيرَ رُسله محمداً ﷺ ليخرجهم من سنوات الجهل والظلام والكفر إلى الحضارة النورانية الإيمانية .

وبعد رفع عيسى ﷺ إلى السماء انقطع وجود الأنبياء لمدة ستمائة سنة(90) حتى جاء محمد ﷺ . وفي فترة الانقطاع انتشرت الأديانُ الباطلة ، واتسعت رقعةُ عبادة الأصنام حيث انتشرت الوثنية والعقائد المنحرفة . وأضحى وجهُ الأرض كئيباً جراء العقائد الكُفرية ، وغيابِ الهداية الإلهية ، واتباع الناس لأهوائهم وشياطينهم . فجاءَ محمد ﷺ ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى وتوفيقه ، ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٧) : عن عياض بن حمار _ رضي الله عنه_ أن النبي ﷺ قال : ((وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب)) .

وهذا الحديثُ يتعلق بالفترة الزمنية التي سبقت البعثة المحمَّدية الإسلامية . فقد أبغضَ اللهُ أهلَ الأرض بسبب انحرافهم واتباعهم للشيطان وعدم التزامهم بشرائع الأنبياء السماوية ، إلا بقايا من أهل الكتاب المتمسكين بالدِّين الحق من غير تحريف .

وتتكرس العلاقة بين محمد وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ باعتبارهما رسولَيْن كريمَيْن ، وباعتبار الفترة الزمنية بينهما. فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة))(91) .

فالأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ إخوةٌ ، دينهم واحدٌ . يَحْملون كلمةَ الله تعالى إلى الناس لإنقاذهم ، وإخراجهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . وكلُّ نبي يُصدِّق مَن قَبْله . وكُلُّهم يصنعون البنيانَ الإيماني على سطح الأرض دون تعارض أو تنافر .

٦_ أمرهم بالتذكير :

قال الله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فإن الذِّكرى تنفع المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وهذا أمرٌ إلهي للنبي ﷺ بأن يَعِظَ ويُذَكِّر بفضل الله تعالى ونعيمه وعقابه ، وتوضيح العلاقة بين الخالق والمخلوق ، والرابطة بين الدنيا والآخرة، لأن الموعظة تنفع أهلَ الطاعة الملتزِمين بالإيمان

---

(٩٠) روى البخاري في صحيحه(٣/ ١٤٣٥) عن سلمان الفارسي _ رضي الله عنه _ قال : ((فترة بين عيسى ومحمد _ صلى الله عليهما وسلم _ ستمائة سنة)) . وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧٧): ((والمراد بالفترة المدة التي لا يُبعَث فيها رسولٌ من الله، ولا يُمْتَنَع أن يُنَبَّأ فيها مَن يدعو إلى شريعة الرسول الأخير . ونقل ابن الجوزي الاتفاق على ما اقتضاه حديث سلمان هذا)) اهـ .

(٩١) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٢٧٠) برقم (٣٢٥٩)،ومسلم (٤/ ١٨٣٧) برقم (٣٢٥٩).

قولاً وفعلاً. فقلوبهم بيئة صالحة لاستقبال نور الدعوة ، واحتضان الحق في صدورهم . وهذا يعينهم على الثبات والمضي قدماً لحمل الرسالة الإلهية ونشرها في العالَم .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٧٥) : ((وَعِظ يا محمد من أُرسلتَ إليه ، فإن العِظة تنفع أهلَ الإيمان بالله)) اهـ .

٧_ لا أجر لهم على التبليغ :

قال الله تعالى : ﴿ قُل لا أسألكم عَلَيْه أَجراً إلا المودَّةَ في القُرْبى ﴾ [الشُّورى : ٢٣] .

فالنبيُّ ﷺ لا يأخذ أُجرةً على الدعوة إطلاقاً ، ولا يطمح لنيل أَجر بسبب قيامه بأعباء الرسالة. فهو يمتثل أمرَ الله تعالى في الدعوة والتبليغ ، وينتظر المكافأةَ الكبرى من خالقه وحده . مع ضرورة الانتباه إلى أن الاستثناء منقطع، فالمودةُ في القُربى ليست أجراً على الرسالة ، لذا فإن المعنى هو : لا أسألكم أجراً قط ، ولكني أسألكم المودة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٤٢) : ((أي : قُل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني وتذروني أُبلِّغ رسالات ربي ، إن لم تنصروني فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة)) اهـ.

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٨٩) أن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((إن النبيﷺ لم يكن بطن من قريش إلا وله فيه قرابة ، فنزلت عليه إلا أن تصلوا قرابة بيني وبينكم)) .

فالنبي ﷺ ذو نسب رفيع في قومه ، وهذا النَّسب متشعب ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بعائلات قُريش ، وقدكان النبي ﷺ حريصاً على حماية الجو الأُسري والترابط الاجتماعي بين العائلات والقبائل ، فهو لم يجيء ليُفتِّت المجتمع ، أو يمزِّق الوشائج العائلية ، بل ليحميَ علاقات القرابة ويجعلها تنطلق من منظور شرعي . وهذا ما سعى إليه .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((لا أسألكم على ما آتيتُكم من البيِّنات والهدى أَجراً إلا أن تُوادُّوا اللهَ ، وأن تَقرَّبوا إليه بطاعته))(92) .

فالنبيُّ ﷺ لا يطلب أجراً أو منزلةً دنيوية على الدعوة ونشرِ الهدى . فهو يسعى إلى نشر محبة الله تعالى وحضِّ المؤمنين على اعتناقها قولاً وفعلاً، وأن يتقرَّبوا إلى خالقهم بامتثال أوامره ، واجتنابِ نواهيه .

---

(٩٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) برقم (٣٦٥٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٨ـ حكمتهم في الدعوة :

قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربِّكَ بالحِكمة والموعظة الحسنة وجادِلْهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : ١٢٥] .

إن الدعوة الإسلامية منهجيةٌ متكاملة . لم تجيء لتُضيِّق على الناس وتحرجهم . بل جاءت لرفع الحرج، وفتحِ الأبواب المغلقة أمام الأشواق الروحية ، والتطلعاتِ الجسدية ، والإبداعاتِ البشرية. فالدعوةُ الإيمانية متوافقة مع الفِطرة الإنسانية السليمة دون تعارض أو ضغط أو كبت .

كما أن المنهج الدعوي قائم على الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالأسلوب الأحسن ، واحتضان الناس ، ومد يد العون لهم ، لا التنغيص عليهم ، أو حشرهم في الزاوية . فالدعوةُ مشروعُ إنقاذ عالمي لكي يستعيد المرءُ إنسانيته المفقودة والمبعثرة بين شظايا الحياة المادية الضاغطة ، وكي يجد نفسَه الضائعة في متاهات الدنيا ، ويدرك دورَه المركزي في صناعة حاضر هذه الأرض ومستقبلها من منظور إيماني يُفجِّر الطاقاتِ المبدعة ولا يقمعها .

وفي هذا السياق تظهر أهمية الأسلوب الدعوي في جذب الأتباع، وتعميقِ الإيمان في صدورهم عن طريق أخلاق الداعية السمحة وأسلوبه الوعظي الجذاب الذي يخاطب القلبَ والعقلَ معاً فيستقطب الناسَ ولا يُنفِّرهم . فوضعُ الكلام السليم في سياقه الصحيح بأسلوب حكيم ، من شأنه وضع الدعوة الإسلامية في أقصى مداها، وبيان مزاياها. وهذا يجعل الناس يلتفون حولها، ويتخذونها مشروعَ حياتهم وغاية وجودهم على الأرض .

والأنبياءُ عموماً ، والنبيُّ محمد ﷺ خصوصاً . كلهم التزموا بمنهج الحِكمة في الدعوة ، قولاً وفعلاً . فهم حريصون على إنقاذ الناس من النار الأبدية ، وإرشادهم إلى النعيم السرمدي ، وذلك بامتثال الأوامر الإلهية في كل صغيرة وكبيرة.فهذا المنهجُ النوراني كفيلٌ بمنح السعادة للناس في الدارَيْن . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٠٦): ((فأما السبيل فقال مقاتل : هو دين الإسلام. وفي المراد بالحكمة ثلاثة أقوال : أحدها أنها القرآن.. والثاني الفقه .. والثالث النبوة .. وفي الموعظة الحسنة قولان : أحدهما مواعظ القرآن .. والثاني الأدب الجميل الذي يعرفونه .. قوله تعالى : ﴿ وجادِلْهم ﴾ في المشار إليه قولان أحدهما أنهم أهل مكة..والثاني أهل الكتاب.. وفي قوله: ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ ثلاثة أقوال أحدها جادلهم بالقرآن ، والثاني بِ لا إله إلا الله .. والثالث جادلهم غير فظ ولا غليظ وألن لهم جانبك)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ فقولا له قَوْلاً ليِّناً لعلَّه يتذكر أو يخشى ﴾ [طه : ٤٤] .

وهذا أمرٌ إلهي لموسى وهارون _ عليهما الصلاة والسلام _ أن يقولا لفرعون الطاغية قولاً لَيِّناً بأسلوب جَذَّاب لا يُنفِّره ، لعله يعود إلى الصواب ، فيؤمن بالله الخالق العظيم . فالأسلوبُ الخشن يعمل باتجاه مضاد للدعوة ، ويقود إلى مشكلات جمة تؤثر سلباً على مسار التبليغ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٠٧) : ((هذه الآية فيها عِبرة عظيمة ، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أُمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين)) اهـ .

وصدق القائل :

يا مَن يتحبَّب إلى من يُعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟

وقد أوصى النبيُّ ﷺ معاذاً وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن قائلاً : ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا ، وَبَشِّرا ولا تنفِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا))[93] .

فبثُّ المعاني الطيبة الهادئة في النفوس بأسلوب ناعم وسلس من شأنه أن يُلين قلوبَ الناس ، ويعمل على استقطابهم إلى الإيمان بالله تعالى ، لأن النفوس مجبولة على حب من أَحسن إليها ، وقدَّم لها المساعدة بأسلوب طيب .

وكما قال الشاعر :

أَحسنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهمُ فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

فالإحسانُ إلى الناس يجعل المرءَ يسيطر على قلوبهم ، فتنقاد جوارحُهم إليه وتخضع له ، وتسمع لكلامه ، وكأنها تحت تأثير السِّحر . فالكلمةُ الطيبة لها وقعٌ عميق في النفوس .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغوَ أعرَضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عَلَيْكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ [القَصَص : ٥٥] .

وفي هذه الآية مدحٌ لقوم من أهل الكتاب كانوا إذا سمعوا الباطلَ أعرَضوا عنه ، فلا يخوضون فيه ، ولا يشتركون مع أهل الباطل في جهلهم وضلالهم. بل يبتعدون عنهم ، ويُلقون سلامَ المتاركة لا سلامَ التحية ، في إشارة واضحة إلى الفراق والمخالفة في النهج .

---

(٩٣) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٠٤) برقم (٢٨٧٣)،ومسلم (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٣).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٣٠) : ((قوله تعالى: ﴿ وإذا سمعوا اللغوَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها الأذى والسب .. والثاني الشِّرك .. والثالث أنهم قوم من اليهود آمنوا ، فكانوا يسمعون ما غَيَّر اليهودُ من صفة رسول الله ﷺ ، فيكرهون ذلك ، ويُعرضون عنه .. وفي قوله : ﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ قولان : أحدهما لنا ديننا ولكم دينكم ، والثاني لنا حِلمنا ولكم سفهكم . ﴿ سلامٌ عَلَيْكم ﴾ قال الزجاج : لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتارَكة وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال .. وفي قوله :﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها لا نبتغي دِين الجاهلين ، والثاني لا نطلب مجاورتهم ، والثالث لا نريد أن نكون جهالاً)) .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسن إلا الذين ظلموا مِنهم ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

أي : لا تُجادِلوا أيها المؤمنون أهلَ الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالأسلوب الحسن ، والحجَّةِ الدامغة، وبيانِ وجوه القصور في عقائدهم الباطلة بالنقاش الطيب ، وإظهارِ تماسك العقيدة الإسلامية دون إكراه أو غلظة . أما المحارِبون من أهل الكتاب الذين يناصبونكم العداء فهؤلاء لا يُحاوَرون إلا بالسيف والشدة . وفي الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٤٦٨) : ((عن مجاهد في قوله : ﴿ ولا تجادِلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحسن ﴾ قال : إن قالوا شراً فقولوا خيراً ، إلا الذين ظلموا منهم فانتصِروا منهم)) .

٩_ حُكمهم بين الناس :

قال الله تعالى : ﴿ كان الناسُ أُمَّةً واحدةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبيِّين مُبشِّرين ومُنذِرين وأنزل معهم الكتابَ بالحق لِيَحْكُمَ بَيْن الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

إن اللهَ تعالى لم يترك الناسَ فريسةً لأهوائهم وشياطينهم ، وإنما أرسل أنبياءه لينقذوا الخلقَ . لكنَّ الحقب الزمنية اشتملت على فترات مد وجَزْر بالنسبة للإيمان . فهناك أزمنة انتشر فيها الإيمانُ وعمَّ في الأرجاء . وفي أزمنة أخرى انتشر الكفرُ واختلط الحابل بالنابل . وهنا تبرز حتميةُ الحرص على الإيمان ، والدوران معه حيث دار . فإن اختفى الإيمانُ من مكان ، فعلى المرء أن يجتهد لإعادته ، وإصلاح الفساد ، لا أن يتخذ القضاء والقَدَر ذريعةً لتقاعسه ويأسه . إذ إن طبيعة المؤمن متميزة تجعله غير قابل للاستسلام ورفع الراية البيضاء ، فهو صامدٌ على جميع الجبهات ولا يُصاب بالعجز مهما تلقى من مصائب ، لأن معدنه النبيل يجعله شعلةَ نشاط لا تنطفئ ، وجوهره الأصيل يدفعه إلى التحدي حتى الرمق الأخير .

وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_في قوله: ﴿كان الناسُ أُمَّةً واحدةً ﴾،قال:على الإسلام[94].

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا ، فبعث اللهُ النبيِّين مُبشِّرين ومُنذِرين))[95] .

ويأتي الأنبياءُ _ عليهم الصلاة والسلام _ لعلاج أمراض الفرد والمجتمع . فحيثما يكون المرضُ يظهر الطبيبُ المنقِذ . فانحراف الناس عن طريق الإيمان أدى إلى تفشي الأمراض الروحية والجسدية في المجتمع ، فعمَّ البلاءُ ، وابتعد الناسُ عن المنهج السماوي . فأرسل اللهُ تعالى أنبياءه لانتشال الخلق من مستنقع الكفر والجهل مُؤيَّدين بالكلام الإلهي الذي يَحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . فالكتابُ السماوي الذي أَنزله اللهُ تعالى هو الْحَكَم الحاكِم . فأنزل اللهُ تعالى الكتابَ مع الأنبياء بالحق ((ليحكمَ الكتابُ _ وهو التوراة _ بين الناس فيما اختلف المختلفون فيه . فأضاف جَلَّ ثناؤه الْحُكْمَ إلى الكتاب ، وأنه الذي يحكم بين الناس دون النبيين والمرسَلين، إذ كان مَن حَكَمَ من النبيين والمرسلين بِحُكْم إنما يحكم بما دَلَّهم عليه الكتاب الذي أنزل اللهُ _ عز وجل _ ، فكان الكتابُ..حاكماً بين الناس ، وإن كان الذي يفصل القضاء بينهم غيره))[96] .

والكتبُ السماوية لم تجيء لِتُوضَع على الرفوف . بل جاءت ليتم تطبيقها واقعاً ملموساً في حياة الناس لأنها مشتملة على التعاليم الإلهية الكاملة المعصومة . والقرآنُ الكريم آخر الكتب السماوية وقد نَسَخَها . فهو الدستور الإلهي الخالد حتى يوم القيامة يجب تطبيقه والالتزام به ، والابتعاد عن الدساتير الوضعية التي وضعها بشرٌ ناقصون لا يتمتعون بالكمال أو العصمة. فالكلامُ الإلهي هو المنقِذ للبشرية من كل أزماتها . أما البشرُ العاجزون عن معرفة ذواتهم والوقوف على أسرار أجسامهم التي يحملونها ، فلا يَقدرون على التشريع الكامل المطلق .

وقال الله تعالى : ﴿ لقد أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّنات وأَنزَلْنا معهم الكتابَ والميزانَ لِيَقُومَ الناسُ بالقِسْط ﴾[الحديد : ٢٥] . اللهُ تعالى أرسل الرُّسلَ بالحجج الدامغة والدلائلِ الهادية ، وأنزل الكتبَ السماوية والعدل لكي يقوم الناس بتطبيق الشريعة الإلهية في حياتهم، فتستقيم أمورُهم وفق مراد الله تعالى ، فيعمرون الأرضَ بالإيمان والخير ، ويحصلون على السعادة الأخروية . وهكذا

---

(٩٤)رواه الطبراني(١١/ ٣٠٩) برقم (١١٨٣٠).وصحَّحه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٥٨٢).

(٩٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٦) برقم (٤٠٠٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٩٦) تفسير الطبري (٢/ ٣٤٧) .

يفوزون في الدنيا والآخرة . فقد ضمن اللهُ تعالى السعادةَ للناس إذا اعتصموا بشريعته الكاملة المعصومة التي لا يأتيها الباطلُ من بين يديها ولا من خلفها . فإذا ساروا وفق المنهج الإلهي فإنهم سيجدون أنفسَهم ، ويكتشفون طاقاتِهم الإبداعية ، ويصبحون عناصر فاعلة في زراعة الأرض بالخير لكي يحصدوا الفوزَ والنجاة في الآخرة ، لأن الحياة الدنيا هي مزرعة الآخرة . وفي الدار الآخرة يكون الحصادُ ، وكما تَزرع تَحصد .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٧٤): ((وفي الميزان قولان : أحدهما أنه العدل .. والثاني أنه الذي يُوزَن به .. فعلى القول الأول يكون المعنى: وأمرنا بالعدل، وعلى الثاني : ووضعنا الميزان ، أي أمرنا به ليقوم الناسُ بالقسط ، أي لكي يقوموا بالعدل)) اهـ .

١٠_ لكل أُمَّة نذير :

قال الله تعالى : ﴿ وإن مِن أُمَّةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر : ٢٤] .

فكلُّ أُمَّةٍ سابقة جاءها نبيٌّ ينذرهم مسترشِداً بالوحي الإلهي المعصوم . فالأممُ السابقة جاءها من ينذرها بأسَ الله تعالى ، ويقيم عليها الحجَّة . وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٩١) : ((واقْتُصِر على ذكر النذير دون البشير لأنه ألصق بالمقام)) اهـ .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ٢٥٦) : ((معناه أن دعوة الله تعالى قد عمَّت جميعَ الخلق . وإن كان فيهم مَن لم تباشره النذارة فهو ممن بَلَغَتْه ، لأن آدم بُعث إلى بنيه ، ثم لم تنقطع النذارة إلى زمن محمد ﷺ)) اهـ .

١١_ بلسان قومهم :

قال الله تعالى : ﴿ وما أَرْسَلْنا مِن رسول إلا بلسان قَوْمه لِيُبَيِّنَ لهم ﴾ [إبراهيم : ٤] .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٩٠) : ((أي بلغتهم لِيُبيِّنوا لهم أمر دينهم ، ووحَّد اللسان وإن أضافه إلى القوم ، لأن المراد اللغة فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير ، ولا حُجَّة للعجم وغيرهم في هذه الآية، لأن كل من تُرجِم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمةً يفهمها لزمته الحجَّة)) اهـ.

إن اللهَ تعالى يُرسِل الرسولَ بنفس لغة قومه لكي يقدر على دعوتهم وتعليمهم وإرشادهم وإقامة الْحُجَّة عليهم ، وفي نفس الوقت لكي يقدر الناسُ على فهم كلام الرسول والتخاطب معه . فتتجذر لغةُ التواصل دون حواجز أو عقبات لغوية. وهذا يساهم في تحقيق مُرادِ الله تعالى في إنقاذ الناس ، ونشرِ الدعوة على أكمل وجه حتى تصل إلى كل الشرائح الاجتماعية دون حدود لغوية أو مشكلاتٍ في طريقة التخاطب والدعوة .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١٠) : ((لا يستلزم أن يكون النبي ﷺ أُرسِل بلسان قريش فقط لكونهم قومه ، بل أُرسِل بلسان جميع العرب لأنه أُرسِل إليهم كلهم ، بدليل أنه خاطب الأعرابي الذي سأله بما يَفْهمه بعد أن نزل الوحي عليه بجواب مسألته ، فدلَّ على أن الوحي كان يَنزل عليه بما يفهمه السائل من العرب قرشياً كان أو غير قرشي)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ أُرسِل إلى الإنس والجن . وهذا لا يستلزم أن يتقن كلَّ اللغات ، لأن لغته ﷺ هي لغة قومه (العربية) ، وبعد ذلك تنطلق حركةُ الترجمة . ويجب على المسلمين أن يَحْملوا أمانةَ الدعوة الإسلامية إلى أرجاء العالَم ، كلاً حسب طاقته . فالدعوةُ النبوية الإسلامية لا تنقطع .

***

خامساً : اليومُ الآخِر

١ـ الموت :

أ ـ قضاءٌ محتوم :

قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائقةُ الموت ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

كلُّ النفوس سوف تتجرع كأسَ الموت وتصارع غُصَّاتِه . فلن تنجوَ أيةُ نَفْس من الموت ، فمصيرها المحتوم إلى الفناء . وفي هذا إشارة بالغة إلى أن النفوس مقهورة خاضعة للسُّلطة الإلهية العُليا المطلقة التي تتحكم في كل شيء. واللهُ تعالى هو المسيطر على هذه النفوس، فقد وضع لها آجالاً لا يمكن للمخلوقات تجاوزها . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٧) : ((فهو ـ تعالى ـ وحده هو الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهَّار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخِراً كما كان أوَّلاً ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت)) اهـ .

والجدير بالذكر أن لفظة ﴿ ذَائقة ﴾ تدل على صورة تشبيهية للموت ، وكأنه طعام أو شراب لا بد من تذوقه وعندئذ يُعرَف طَعْمُه المر . وكل الخلائق قادمةٌ لتذوقه رغماً عنها . فلا مهرب من الموت . وكلٌّ ينتظر دورَه . والموتُ شاملٌ عام لا يُفلِت من قبضته أَحد . وليس بدعةً تصيب البعضَ وتترك البعضَ الآخر . فالموتُ يصيب الجميعَ بلا استثناء . وكما قال طرفة بن العبد :

تمنَّى رِجالٌ أن أموت وإن أَمُت   فتلكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيها بأوحد

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٤٠) أن الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ كان يُنشد هذا البيت ويستشهد به . وقد روى ذلك أيضاً ابن حبان في روضة العقلاء (١/ ٢٨٧) .

وقال الله تعالى:﴿ وما كان لِنَفْسٍ أن تموت إلا بإذن الله كِتاباً مُؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران : ١٤٥].

فكلُّ نفسٍ لا تموت إلا بإذن الله تعالى الذي وضع وقتاً محدَّداً لخروج الروح من الجسد . وهذا الوقتُ المعيَّن موجود في علم الله تعالى المحيطِ بكل الأزمنة والأمكنة . فإذا انقضى الأجلُ فارقت الروحُ الجسد بأمر الله تعالى ، أما إذا لم تحن ساعة الوفاة فلا يحصل الموتُ .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٥٩) : ((وما يموت محمد ولا غيره من خلق الله إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله اللهُ غايةً لحياته وبقائه ، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذي كتبه اللهُ له وأذن له بالموت ، فحينئذ يموت ، فأما قبل ذلك فلن يموت بكيد كائد ولا بحيلة محتال)) اهـ .

وهذه الحقيقة الثابتة تبعث في النفس البشرية الطمأنينة، وتحضُّها على العمل باجتهاد وشجاعة، لأن الموت بيد الله وحده، لا بيد الأعداء . وكَم من قائد قضى حياته في المعارك مُقاتِلاً ثم مات على فراشه . وكَم مِن جبان قضى حياته هارباً من المعارك ، لكنَّ ذلك لم يمنعه من الموت . ومات حَتْفَ أنفه (من غير قتل ولا ضرب) . وكما قال المتنبي :

ولو أن الحياةَ تَبْقَى لحيٍّ　　　لعدَدنا أضَلَّنا الشُّجعانا
وإذا لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ　　　فمن العجزِ أن تموتَ جبانا[97]

وقال الله تعالى : ﴿ قُل لو كُنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

أي لو كان المؤمنون في بيوتهم آمنين مطمئنين لخرج الذين كُتب عليهم القتل إلى الأماكن التي سيُقتَلون فيها ، لأن قَدَر الله تعالى لا يُرَد . والإنسانُ الذي كُتب عليه الموت سيذهب إلى الموت بقدمَيْه ، فالقضاءُ والقَدَر نافذان في كل شيء ، ولا يمكن رَدُّهما أو تجاوزهما أو التحايل عليهما ، فالإنسانُ يدور في مدار مغلَق مركزه الجاذب هو الموت، ولا يمكن الإفلات منه إطلاقاً.

وروى الطبري في تفسيره (٣/ ٤٨٢) أن الحسن قال في تفسير الآية : ((كتب اللهُ على المؤمنين أن يُقاتِلوا في سبيله، وليس كلُّ مَن يُقاتِل يُقتَل ، ولكن يُقتَل من كتب اللهُ عليه القتلَ)).

وقال الله تعالى :﴿ أينما تكونوا يُدْرِكّكُم الموتُ ولو كُنتم في بُروجٍ مُشيَّدةٍ ﴾[النساء : ٧٨].

فالموتُ قادمٌ لا محالة ، لا يحتاج إلى خارطة أو بوصلة لمعرفة طريقه ، ولا يمكن رَدُّه بوضع حواجز أو حراس شخصيين . ولو كان الإنسانُ في حصونٍ منيعة أو قلاعٍ محروسة ، فإن الموت سيأتيه حينما يحين الأجلُ المكتوب الذي لا يعلمه إلا اللهُ تعالى . وكما قال الشاعر :

ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ　　　وإن يرقَ أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ١٧٤) : ((يقول : لا تجزعوا من الموت ، ولا تهربوا من القتال وتضعفوا عن لقاء عدوكم حذراً على أنفسكم من القتل والموت ، فإن الموت بإزائكم أين كنتم وواصل إلى أنفسكم حيث كنتم ، ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة)) اهـ .

---

(٩٧) معنى البيتَيْن : لو كانت الحياةُ خالدةً دائمة بلا موت لكان أغبى الناس وأضلُّهم هم الشجعان الذين ضحوا بحياتهم . وبما أن الموت لا بد منه ولا مفر منه ، فمن العجز أن يموت الإنسانُ جباناً . لأن كل الناس سيموتون . فلماذا لا يموت الإنسانُ شجاعاً ما دام الموتُ لا يُفرِّق بين شجاع وجبان ؟ .

وفي واقع الأمر فإن الموت هو الحارس الشخصي للإنسان ، فإذا لم تحن ساعة وفاته فلا أحد يقدر على قتله ، أما إذا حانت ساعة الموت فكل الخلائق لا تقدر على حماية حياته .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٣٧): ((قوله تعالى: ﴿ أينما تكونوا يُدْرِكْكُم الموتُ﴾ سبب نزولها أن المنافقين قالوا في حق شهداء أُحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا فنزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس ومقاتل)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ قُل إن الموت الذي تَفِرُّون مِنه فإنه مُلاقيكم ﴾ [الْجُمُعة : ٨] .

لا يمكن الفرارُ من الموت.أمَّا محاولات البعض الهروب من الموت_حسب تفكيرهم القاصر_ فهي محض عبث ، لأن الموتَ قادمٌ ، وسيُلاقي الناسَ وجهاً لوجه فلا يترك لهم فرصةً للهرب أو الإفلات . فالقَدَرُ المحتوم نازلٌ بالناس لا محالة ، ولا تنفع معه وسائل الحراسة أو الاختباء .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إذا جاء أَجلُها ﴾ [المنافقون : ١١] .

إن الله تعالى لن يؤخر نفساً إذا حان وقتُ وفاتها . لن يُعطيَها فرصةً أخرى أو عمراً آخر أو فترةً إضافية . فالأجلُ المحتوم إذا حان وقتُه فارقت الروحُ الجسدَ ، ومات الإنسانُ في الوقت الذي قَدَّره اللهُ له دون زيادة أو نقصان . وهذا يدحض عقيدةَ الفوضى والعبث والصدفة التي تتجلى في قول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى :

رأيت المنايا خَبطَ عشواءَ من تُصبْ   تُمِتْهُ وَمَنْ تُخطئ يُعَمَّرُ فيهرَمِ

فهو يقرر أن الموت يصيب الناس على غير نسق وترتيب وبصيرة . وهذه عقيدة تُضاد العقيدة الصحيحة ، وهي أن الله تعالى يقبض أرواح من يشاء إذا انتهت أعمارهم المكتوبة . لكنَّ البيئة الجاهلية الوثنية التي عاش فيها زهير بن أبي سلمى أصابَتْه بلوثتها .

وقال الله تعالى:﴿وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أفإن مِتَّ فهم الخالدون﴾[الأنبياء : ٣٤].

أي : وما جعلنا لبشرٍ من قبلك يا محمد الخلودَ في الدنيا . فإذا مِتَّ فهل الذين بعدكَ سيحصلون على الخلود ؟ . فكل الخلائق سائرة نحو الموت . والقضيةُ مسألة وقتٍ ، حيث ينتظر الإنسانُ دَوْرَه كي يتجرع كأسَ الموت .

وهذه الآيةُ العظيمة هي التي ثَبَّتت أبا بكر الصِّديق _ رضي الله عنه _ ساعة وفاة النبي ﷺ . وذلك أن أبا بكر الصديق _ رضي الله عنه _ أتى البيتَ الذي تُوُفِّيَ فيه رسول الله ﷺ فكشف عن وجهه وهو مُسَجًّى ، فنظر إليه فَأَكَبَّ عليه لِيُقَبِّل وجهَه، وقال : ((واللهِ لا يجمع اللهُ عليكَ

موتتَيْن بعد موتكَ التي لا تموت بعدها)) ، ثم خرج إلى المسجد ، وعمر يُكلِّم الناسَ ، فقال أبو بكر : ((اجلسْ يا عمر)) ، فأبى فَكَلَّمه مَرَّتين أو ثلاثاً ، فأبى ، فقام فتشهَّد ، فلما قضى تشهده قال : ((أما بعد ، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات ، ومن كان يعبد اللهَ فإن الله حي لا يموت ثم تلا :﴿ وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ ...))[98] .

وهذا يشير إلى عظمة القرآن الكريم في تثبيت النفوس عند الشدائد ، وبثِّ الروح المعنوية في الأفراد والجماعات عند الأزمات الصعبة ، من أجل أن يظلوا متماسكين بدون انهيار أو بلبلة . فاللحظاتُ العصيبة هي الكاشفة عن معادن الرِّجال ورباطةِ جأشهم .

وقال الله تعالى : ﴿ وجاءت سَكْرةُ الموت بالحق ذلك ما كُنتَ مِنه تَحيد ﴾[ق : ١٩] .

وجاءت شدةُ الموت وغمرته التي تغلب على عقل الإنسان بالحق الساطع الذي لا يُنكَر . فالمرءُ سوف يرى الأشياء التي كان يسمع عنها عياناً ، فتصبح الغيبياتُ واقعاً محسوساً كعالَم الشَّهادة.وهذا ما كنتَ تهرب منه وتَفزع. وعن القاسم بن محمد يُحدِّث،وتلا قول الله_عز وجل_: ﴿ وجاءت سَكْرةُ الموت بالحق ذلك ما كُنتَ مِنه تَحيد ﴾ ، ثم قال : حَدَّثتني عائشة أم المؤمنين _ رضي الله عنها _ قالت : لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو بالموت ، وعنده قدحٌ فيه ماء ، وهو يُدخِل يَدَه في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول:((اللهم أَعِنِّي على سكرات الموت))[99] .

فالنبيُّ ﷺ الذي هو أعظم مخلوقات الله تعالى يعاني من سكرات الموت . واللهُ تعالى قادر على تخليصه منها . ولكنْ في ذلك زيادة في الأجر والإيمان والمكانةِ الأُخروية. وأيضاً لكي يصبر المؤمنون الذين يتخذون من النبي ﷺ قدوةً لهم ومُعلِّماً، فيسيرون على دربه في الإيمان والصبر وقوةِ التحمل. فالمعلِّمُ حينما يتطابقُ قولُه مع فعله فإنه سيكون بالغ التأثير في أتباعه ، أما إن كان منفصلاً عنهم في عالَمه الخاص ، فعندئذ سيحصل الشرخُ ، ويختفي التأثير .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٢) : ((قوله تعالى : ﴿ وجاءت سَكْرةُ الموت ﴾ وهي غمرته وشدته التي تغشى الإنسانَ ، وتغلب على عقله ، وتدله على أنه ميت .﴿ بالحق ﴾ وفيه وجهان : أحدهما أن معناه جاءت بحقيقة الموت ، والثاني : بالحق من أمر الآخرة فأبانت للإنسان ما لم يكن بَيِّناً له من أمر الآخرة)) اهـ .

---

(٩٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٣) برقم (٣١٦٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٩٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٥) برقم (٣٧٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وعن عائشة قالت : كنتُ عند أبي بكر حين حَضَرَتْه الوفاة فتمثلتُ بهذا البيت : (من لا يزال دمعه مقنعاً يوشك أن يكون مدفوقاً) ، فقال : ((يا بُنَيَّة، لا تقولي هكذا، ولكن قولي : ﴿ وجاءت سَكْرَةُ الموت بالحق ذلك ما كُنتَ مِنه تَحيد ﴾))[100] .

وهذا التوجيهُ من أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _ يدل على رجاحة عقله ، وقدرته على استحضار الآيات القرآنية ومعانيها ، حيث إنه يعيش معها ، ويتخذها مصباحاً منيراً في حياته . وعلى الرغم من حالته الصعبة (الاحتضار) إلا أنه استحضر المعاني القرآنيةَ السامية المتعلقة بأهوال الاحتضارِ ، وسكراتِ الموت . مما يدل على أن القرآن الكريم كان دستورَه في حياته ، وعند لحظات وفاته .

أما السيدة عائشة _ رضي الله عنها _ فتمثَّلت ببيت من الشِّعر معناه أن مَن كان دمعُه مُقنَّعاً مخفياً يوشك أن يصير مصبوباً مكشوفاً . وفي هذا معنىً للألم والحزن والتأثر . لكنَّ تأثير القرآن الكريم لا يجاريه تأثير . لذلك حَضَّها والدُها على تلاوة الآية القرآنية لا بيتِ الشِّعر .

ب _ لكلِّ أُمَّة أَجَلٌ محتوم :

قال الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فإذا جاء أَجلُهم لا يَستأخرون ساعةً ولا يَستقدمون ﴾ [الأعراف : ٣٤] . كلُّ أُمَّةٍ لها وقتٌ محدَّد لنزول العذاب بها أو موتهم . وهذا الأجلُ المحتوم المعيَّن لا يتأخر ولا يتقدم .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِن قَرْيةٍ إلا نحن مُهلِكوها قبل يوم القيامة أو مُعَذِّبوها عذاباً شديداً ﴾ [الإسراء : ٥٨] .

فكلُّ قريةٍ لا بد من هلاكها قبل يوم القيامة . فالقريةُ الصالحة تُهلَك بالموت ، أما الطالحة فتُهلَك بالعذاب . والمقصود بالقرية في الآية هم أهلُها[101] . فالفناءُ مكتوبٌ على الأشياء ، وهو أمرٌ حتمي لا مفر منه .

---

(١٠٠) رواه ابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٠٨) برقم (٣٠٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٢٩) برقم (٤٤٥١).وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٣) عن إسناد أبي يعلى:((رجاله رجال الصحيح)).

(١٠١) هذا الأسلوب القرآني شبيهٌ بأسلوب الآية : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسُف : ٨٢] . أي اسأل أهلَ القرية ، وحُذفت " أهل " للبلاغة ، كما أن ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية .

وقال الله تعالى : ﴿ فهل تَرى لهم مِن بَاقيةٍ ﴾ [الحاقة : ٨] .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٣٠) : ((أي : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ ، بل بادوا عن آخرهم ، ولم يجعل اللهُ لهم خَلفاً)) اهـ .

وتتجلى قدرةُ الله تعالى غير المحدودة في استئصالهم ، ومحوهم عن بكرة أبيهم ، واجتثاثهم ، فلم يعد لهم أثر ، وصاروا أحاديث في المجالس بعد أن ملأوا الدنيا ضجيجاً ومجداً زائفاً . فالعاقلُ من اتعظ بغيره ، والجاهلُ من اتعظ بنفسه .

والعذابُ الإلهي لا يحتمل المزاح أو المراوغة أو التحايل ، ولا يمكن امتصاصه ، لأن الصدمة النازلة على القوم المستحقِّين للعذاب تكون قاصمةً لا تُبقي ولا تَذر . فالأمرُ في منتهى الجدية ، وليس أزمةً طفيفة عابرة . فالعذابُ هو عملية اجتثاث استئصالية ماحية تأتي كعقوبة مستحقة على أقوام لم يكتفوا برفض الإيمان، بل حارَبوه بشتى الوسائل وبكل الإمكانيات ، وقاموا بالاعتداء على المؤمنين والتضييق عليهم. وكلُّ هذا بعد أن أُقيمت عليهم الْحُجَّة ، واتضح لهم الحق من الباطل . وبالتالي فهم مستحقون للعذاب . ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ [الزُّخرف : ٧٦] .

ج _ ساعة الاحتضار :

إن ساعة الاحتضار بالغة الصعوبة . وهي لحظاتٌ شديدة الوطأة لن يثبت فيها إلا من ثَبَّته اللهُ تعالى . وقد عبَّر القرآنُ الكريم عن هذه الساعة ، ووضَّح أبعادَها التي من شأنها بث الاعتبار في نفس السامع ، لأن المشهد الذي تصنعه الآياتُ يستجلب انتباهَ الإنسان وينقله إلى عالم الاحتضار الصارم . قال الله تعالى : ﴿ فلولا إذا بَلغت الْحُلْقومَ ﴾ [الواقعة : ٨٣] .

وهذا مشهدٌ تصويري لحالة الاحتضار الشديدة حيث تبلغُ الروحُ الحلقَ أثناء خروجها من الجسد . وكأنها لا تريد مفارقةَ الجسد . وفي هذا إشارة بالغة إلى هول الموقف ، ولحظاتِ الاحتضار العصيبة التي يعاني فيها الإنسانُ ، ويتكبد المشاق العظيمة . وفي تلك اللحظات لا ينفع الرصيدُ البنكي ، ولا قوة القبيلة ، ولا كثرة الأتباع . فالإنسانُ يكون في أشد أنواع الوحدة .

وقد قال حاتم الطائي في تصويره لشدة خروج الروح من البدن (الحشرجة) :

أَمَاوِيَّ ومَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَن الْفَتَى   إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : جاء رَجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أَيُّ الصدقة أعظم أجراً ؟ ، قال : ((أن تَصَدَّق وأنتَ صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلتَ : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان))[102] .

فعلى الإنسان أن يسارع في عمل الخيرات قبل أن تبلغ الروحُ الحلقومَ ، ويبدأ حينئذ بالحسرة وتمني تدارك ما فاته من أعمال البِر . فما دام في العمر فسحةٌ فعلى المرءِ أن يستغلها على أكمل وجه قبل أن يغرق في الاحتضار ، وتفارق الروحُ البدنَ ، ويصبح في عِداد الموتى الذين انقطعت أعمالهم ، وحان وقتُ حصاد ما زرعوه ، دون أية فرصة للتعويض .

وقال الله تعالى : ﴿ كلا إذا بَلغت التراقِيَ ﴾ [103] [القيامة : ٢٦] .

وهذا مشهدٌ بالغ الصعوبة ، حين تبلغ الروحُ أعالي الصدر في طريق خروجها من الجسد . فهذه الصورةُ المعبِّرة عن الاحتضار تجعل المستمعَ يتابع حركةَ الروح الخارجة من البدن لحظةً بلحظة بكل ما يحمله هذا الحدث من أهوال .

وعن بسر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بزق على كفه فقال: ((يقول الله : يا ابن آدم أَنَّى تعجزني وقد خلقتكَ من مثل هذه ، حتى إذا سَوَّيتكَ وعدلتكَ مشيتَ بين بردتين وللأرض منك وئيد ـ يعني شكوى ـ فجمعتَ ومنعتَ حتى إذا بلغت التراقي قلتَ : أتصدق ، وأَنَّى أوان الصدقة))[104] .

على الفرد أن يبادر إلى عمل الخير قبل وصول الروح إلى التراقي ، وعندئذ تذوب حياةُ المرء ويدخل في عالم الموتى دون فرصة للعودة أو التعويض .

---

(١٠٢) متفق عليه. البخاري (٢/ ٥١٥) برقم (١٣٥٣)،ومسلم (٢/ ٧١٦) برقم (١٠٣٢). وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ١٢٣): ((راجعه الخطابي فمعنى الحديث أن الشح غالب في حال الصحة فإذا شَحَّ فيها وتصدق كان أصدق في نيته وأعظم لأجره ، بخلاف من أشرف على الموت وآيس من الحياة ورأى مصير المال لغيره فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حالة الصحة والشح... ومعنى بلغت الحلقوم : بلغت الروح . والمراد قاربت بلوغ الحلقوم ، إذ لو بلغته حقيقةً لم تصح وصيته ولا صدقته ولا شيء من تصرفاته باتفاق الفقهاء)) .

(١٠٣) قال السيوطي في الإتقان (١/ ٥٤٨) : أضمر الروحَ أو النفسَ لدلالة التراقي عليها .

(١٠٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٥) برقم (٣٨٥٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وحالةُ الاحتضار المخيفة لم يوضِّحها القرآنُ الكريم للخوف والاعتبار فحسب ، بل أيضاً لتكون حافزاً على عمل الخير والإسراع في الطاعات ما دام الفردُ على قيد الحياة ، وأمامه مهلة زمنية لم يصل إليها الاحتضار . فعملُ الخير عند الاحتضار (حينما يفقد الفردُ فرصته في الحياة) ليس كعمل الإنسان للخير أثناء حياته وفي أوج مصارعته لشهواته .

فالخيرُ الحقيقي هو أن تملك ثم تتخلى طواعيةً في ذروة صحتك وعنفوانك ، أما الاحتضار فهو تركٌ قسري للحياة الدنيا بكل متاعها وزخرفها ، وفي هذه الحالة كلُّ الناس يصبحون كراماً أسخياء . فينبغي أن تكون الدنيا في اليد لا في القلب . وهكذا يصبح الفردُ مالِكاً للمال _ على وجه التحقيق _ ، فلا يملكه المالُ ، ولا تلعب به الدنيا .

وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧٤) : ((قال بعض السلف عن بعض أهل الترف : يعصون اللهَ في أموالهم مرتين ، يبخلون بها وهي في أيديهم _ يعني في الحياة _ ، ويُسرفون فيها إذا خرجت عن أيديهم _ يعني بعد الموت _)) اهـ .

وعن أبي الدرداء _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((مَثَل الذي يُعتِق عند الموت كمثل الذي يهدي إذا شبع))(105) .

فعملُ الخير الحقيقي مكانه في الحياة الدنيا أثناء صحة الإنسان وعافيته ، ونزواته الشهوانية الاستهلاكية . فهذه هي مجاهدة النفس والتغلب عليها في سبيل رضا الله تعالى . أما حينما يفقد المرءُ الأملَ في الحياة والتمتع بها ، فلا معنى لعمل الصالحات .

٢_ اليومُ الآخِر وأسماؤه :

إن الإيمان باليوم الآخِر من أركان الإيمان . وقد ذُكر هذا الركن الجليل في آيات كثيرة جداً . قال الله تعالى : ﴿ ولكنَّ البِرَّ مَن آمن بالله واليومِ الآخر ﴾ [البقرة: ١٧٧] . فهو من المعلوم من الدِّين بالضرورة . ومنكرُه كافرٌ خارج من الإسلام . فلا معنى للحياة الإنسانية دون الإيمان باليوم الآخِر الذي يُحاسَب فيه المرءُ ، فيُكافأ على حسناته ، ويُعاقَب على سيئاته .

وقد وردت أسماء متعددة لليوم الآخر تشير إلى معانيه المتضافرة :

---

(١٠٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣١) برقم (٢٨٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . ورواه الترمذي في سُننه (٤/ ٤٣٥) برقم (٢١٢٣) بسند حسَّنه الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧٤) .

أ _ يوم الدِّين :

قال الله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾[الفاتحة : ٤] .

ويوم الدِّين هو يوم القيامة ، حيث يَدِينُ اللهُ عبادَه بأعمالهم ، فإن عملوا خيراً وجدوا خيراً ، وإن عملوا شراً وجدوا شراً . ويعفو اللهُ عمن يشاء ، ويُعاقب من يشاء . فهذا اليومُ العظيم يُحاسَب فيه العباد ، ولا أحد يملك الهربَ أو التحايلَ . وقال الطبري في تفسيره (١/ ٩٤) : ((... أن لله الْمُلْك يوم الدِّين خالصاً دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكاً جبابرة ينازعونه الْمُلْك ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية ، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدِّين أنهم الصغرة الأذلة ، وأن له من دونهم ودون غيرهم الْمُلْك والكبرياء والعزة والبهاء)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ وعن أُناس من أصحاب النبي ﷺ : _ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ ، قال : ((هو يوم الحساب))(106) .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣) : ((وفي الدِّين هاهنا قولان: أحدهما أنه الحساب، قاله ابن مسعود . والثاني : الجزاء ، قاله ابن عباس ، ولَمَّا أقرَّ اللهُ _ عز وجل _ ربُّ العالمين أنه مالك الدنيا دَلَّ بقوله : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ على أنه مالك الأخرى . وقيل : إنما خُصَّ يوم الدِّين لأنه ينفرد يومئذ بالْحُكْم في خلقه)) اهـ .

و ((الله تعالى هو المنفرد بالْمُلْك ذلك اليوم ، وبجزاء العباد وحسابهم . والدِّينُ الحساب ، وقيل الجزاء))(107) .

فيومُ الدِّين يعرف الإنسانُ فيه حقيقةَ أعماله المقبولة أو المرفوضة ، وينال المرءُ جزاءه المستحق دون ظلم . فإن وجد خيراً ، فبفضل الله تعالى وله المِنَّة . وإن وجد غيرَ ذلك فبعدل الله تعالى وله الْحُجَّة .

ب _ الآخِرة :

---

(١٠٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٤) برقم (٣٠٢٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . =

=وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٥٦) : ((وللدِّين معانٍ أخرى منها : العادة والعمل والحُكم والحال والخُلق والطاعة والقهر والملة والشريعة والورع والسياسة ، وشواهد ذلك يطول ذِكرها)) .

(١٠٧) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٠٤) .

قال الله تعالى: ﴿ وبالآخِرةِ هُم يُوقنون ﴾[البقرة: ٤]. قال الطبري في تفسيره (١/ ١٣٨) : ((أما الآخِرةُ فإنها صفة للدار ... وإنما وُصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى كانت قبلها)) .

فالآخرةُ (وقت الحصاد) هي المرحلة المتأخرة عن الدنيا (وقت الزراعة) . وفي الآخرة تظهر نتيجة امتحان الدار الأولى (الدنيا) . وعندئذ يُكرَم المرءُ أو يُهان . فعلى المرء أن يحرص على الوصول إلى يوم القيامة وهو في كامل الاستعداد ، ذو رصيد وافر من الحسنات لئلا يخسر مصيرَه. والناس نيامٌ ، فإذا ماتوا انتبهوا . كما أنهم إذا ماتوا قامت قيامتهم .

ج ـ يوم القيامة :

قال الله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بيوم القيامة ﴾[القيامة : ١] .

وهذا السياق القرآني هو قَسَمٌ بيوم القيامة . وما كان اللهُ تعالى ليُقسِم بهذا اليوم لولا مكانته السامية ، ومنزلته العظيمة . وهو يوم الحسابُ والجزاء دون إمكانية الاستئناف أو تعيين المحامين البارعين .

((وقد اشْتُهِر في كلام العرب زيادة ﴿ لا ﴾ قبل القَسَم لتأكيد الكلام ، كأنه من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى قَسَم ، وجوابُ القَسَم محذوف تقديره ((لتُبْعثنَّ ولتُحاسبنَّ))))[108] .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٨٣) : ((قيل : إن (لا) صلة ، وجاز وقوعها في أول السورة ، لأن القرآن متصل بعضه ببعض ، فهو في حُكْم كلام واحد)) اهـ .

واللهُ تعالى يُقسِم بما شاء من مخلوقاته ، وليس هذا إلا لله تعالى . أما الإنسانُ إذا أراد الحلفَ فلا يجوز أن يحلف إلا بالله تعالى ، فلا يُشرِك معه شيئاً . وحينما يُقسِم اللهُ تعالى بشيء من مخلوقاته فهذه إشارةٌ إلهية سامية على عظمة ذلك الشيء ومكانته الجليلة .

وقد سُئل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن قوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بيوم القيامة ﴾ ، فقال : ((يُقسِم رَبُّكَ بما شاء من خلقه))[109] .

---

(١٠٨) صفوة التفاسير للصابوني (١٩/ ٧٥) .

(١٠٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٢) برقم (٣٨٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وسُمِّيَ يوم القيامة بهذا الاسم لأن الناس يقومون فيه لله _ سبحانه وتعالى _ . ﴿ يَوْمَ يقوم الناسُ لربِّ العالَمين ﴾ [المطفِّفين : ٦] . أو لأن الناس يقومون من قبورهم إلى هذا اليوم . قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخرجون من الأجداث سِرَاعاً ﴾ [المعارج : ٤٣] .

د _ السَّاعة :

قال الله تعالى : ﴿ حتى إذا جَاءتْهُم السَّاعةُ بَغْتةً ﴾[الأنعام : ٣١] .

فيومُ الساعة (القيامة) يأتي فجأةً ، ولا يُعطي فرصةً للآخرين كي يستعدوا ، أو يُجهِّزوا أنفسهم . فعلى العاقل أن يكون مستعداً بشكل مسبق لئلا تصعقه الساعةُ قاطعةً حياته ، وعندئذ يبدأ في التحسر على تفريطه ، ويتمنى العودةَ ليُصلح ما فات . فما دام هناك وقتٌ للتحرك فينبغي اغتنامه واستغلاله في عمل الطاعات .

((وَسُمِّيت القيامةُ بالساعة لوقوعها بغتة ، أو لسرعة حسابها ، أو على العكس لطولها ، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق))[110] .

هـ _ يوم الحسرة :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرهم يومَ الحسرة ﴾[مريم : ٣٩] .

في يوم القيامة تظهر الحسرةُ بشكل واضح لا لبس فيه . فالكافرُ يتحسر على تقصيره ، ورفضه الإيمان ، وسلوكه طريق الغواية والضلال . والمؤمنُ يتحسر على ما فاته من الخير ، فلو ضاعف عملَه في الدنيا لارتفعت درجته في الآخرة. فالجميعُ يتحسَّر ، ولكنْ بلا فائدة ولا جدوى.

قال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ٤٧٧) : ((أي يوم يتحسَّرون جميعاً ، فالمسيء يتحسَّر على إساءته ، والمحسنُ على عدم استكثاره من الخير)) اهـ .

وعن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ ، فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه . ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول: هل تعرفون هذا ؟ ، فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه . فَيُذبَح . ثم يقول : يا

---

(١١٠) الكشاف للزمخشري (١/ ٤٣٩) .

أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت. ثم قرأ : ﴿ وَأَنذِرهم يومَ الحسرة إذ قُضِيَ الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ [111] .

ومن خلال هذا الحديث تتضح حسرةُ الكافرين الخالدين في النار . فقد أضاعوا الفرصةَ الذهبية في الدنيا لكي ينالوا النعيم السرمدي في الآخرة ، فخسروا الدارين ، خصوصاً الآخرة . وقد أحسن اللهُ إليهم في الدنيا ، فأعطاهم العقولَ والنعمَ الجزيلة ، لكنهم أساؤوا إلى أنفسهم ، فلم يُنظِّفوا قلوبَهم لاستقبال الهداية الربانية ، فركنوا إلى الحياة الدنيا ، واطمأنوا إليها ، ولم ينظروا إلى ما ورائها . وفي زاد المسير (٥/ ٢٣٤) : ((قال المفسرون : فهذه هي الحسرة ، إذا ذُبح الموت ، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة ، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار)) اهـ .

والموتُ مخلوقٌ مثل الإنسان، له أجلٌ محدَّد . وبعد أن يدخل المؤمنون الجنةَ ، والكافرون النارَ، يُذبَح الموتُ بأمر الله تعالى ، لأن الموت حينئذ يفقد معناه . ففي الآخرة (الدار الباقية) لا يوجد موتٌ . إما نعيم أبدي أو جحيم أبدي . كما أن الموت هو لحظة فاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، حيث يُنقَل المرء من العمل إلى الحساب ، ومن الزرع إلى الحصاد ، ومن الامتحان إلى النتيجة . وبالتالي تظهرُ النتائج في الدار الآخرة ويفقد الموتُ جدوى وجوده ، وتنتهي مهمته ، فيُذبَح . وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٤٠٢) : عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : قال النبي ﷺ : ((لا يدخل أحدٌ الجنةَ إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً ، ولا يدخل النارَ أحدٌ إلا أُرِيَ مقعده من الجنة لو أحسن ، ليكون عليه حسرة)) اهـ .

إن الأشياء تُعرَف بأضدادها . فالمؤمنُ المستحق للجنَّة نظير إيمانه وعمله للصالحات ، لن يَعرف قيمةَ الجنة إلا إذا رأى النار ، فعندئذ يَعرف حَجمَ النعمةَ الإلهية التي هو فيها ، ويُدرك مقدارَ النعيمَ الذي يعيش فيه . والكافرُ عندما يرى الجنَّةَ يزداد حسرةً وحزناً على ما فاته ، فقد كان مقعده من الجنَّة في متناول اليد لكنه أضاعه بكُفره وتفريطه .

و ــ المعاد :

قال الله تعالى : ﴿ إن الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾[القَصَص : ٨٥] .

فالمعادُ هو يوم القيامة، حيث العودة لكي يُحاسَب المرءُ على أفعاله ، ويحصل الفردُ على نتيجة الامتحان الدنيوي، ويقف على مستواه الدقيق ، إما فائزاً أو خاسراً . وفي هذا اليوم العظيم

(١١١)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٧٦٠)برقم(٤٤٥٣).ومسلم(٤/ ٢١٨٨)برقم(٢٨٤٩).

تظهر الإنجازات البشرية والإخفاقات على حَدٍّ سواء . فالدنيا ليست هي نهاية المطاف ومنتهى الأحلام ، فما بعدها أجمل منها أو أسوأ منها . فالموتُ هو البداية الحقيقية للحياة ، بل إن الموت هو الحياة بعَيْنها ، وإذا لم ينتبه المرءُ إلى هذه المبدأ السامي ، فإنه الأوهام ستجرفه . وهنا يظهر الفرق بين الزوال (الدنيا) والبقاء (الآخرة) .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٦٨) : ((أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادكَ إليه ، ومعيدكَ يوم القيامة ، وسائلكَ عن أداء ما فرض عليكَ . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن))[112] .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٨) : ((يقال بيني وبينك المعاد : أي يوم القيامة ، لأن الناس يعودون فيه أحياء)) اهـ .

وتتجلى القدرةُ الإلهية غير المحدودة يومَ المعاد ، حيث يعود الناسُ أحياء بعد أن جمع اللهُ تعالى عظامهم ، وأخرجهم من قبورهم ، وأحضرهم عن بكرة أبيهم ، دون وجود أية فرصة للهرب أو الغياب أو الاختباء . وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٧) أن النبي ﷺ كان يدعو : ((وأصلح لي آخرتي التي فيها مَعادي)) . هذا المعنى العظيم يشير إلى أهمية الدار الآخرة باعتبارها الباقية ، حيث يعود الإنسانُ إليها ليستقر فيها إلى الأبد . فيجيء الدعاءُ النبوي ليُنبِّه على أهمية إصلاحها بالطاعات في الدنيا ، لكي يكون المعادُ راحةً أبدية لا شقاءً دائماً .

ز ــ يوم البعث :

قال الله تعالى : ﴿ فهذا يَوْمُ البعث ﴾[الرُّوم : ٥٦] .

إنه يوم القيامة العظيم الذي يُبعَث فيه الناسُ من قبورهم . والفاءُ في الآية القرآنية ((جواب لشرط محذوف دَلَّ عليه الكلام مجازة : إن كُنتم مُنكِرين البعث فهذا يوم البعث))[113] .

---

(١١٢) قال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٨) : ((قال جمهور المفسرين : أي إلى مكة . وقال مجاهد وعكرمة والزهري والحسن : إن المعنى : لرادك إلى يوم القيامة ، وهو اختيار الزجاج)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٩٠) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ﴿ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾ ، قال : ((إلى مكة)) . اهـ . وفي رواية أن ابن عباس قال : ((إلى الموت)) [ذكرها الحافظ في الفتح (٨/ ٥١٠) ، وقال : ((أخرجها ابن أبي حاتم ، وإسناده لا بأس به))] .

(١١٣) تفسير القرطبي (١٤/ ٤٥) .

والبعثُ من تجليات عدالة الخالق _ سبحانه وتعالى _ ، حيث يُبعَث الناس لكي يُحاسَبوا . فإن كان الظالِمُ قد هرب بفعلته في الدنيا ، فسوف يلاقي جزاءه العادل يوم القيامة . وإن كان المظلوم قد عاش في الدنيا منبوذاً مقهوراً فسيأخذ حقَّه كاملاً غير منقوص في هذا اليوم العظيم . فالدنيا ليست نهاية المطاف ، إنها عَمَلٌ ولا جَزَاء . والآخرةُ هي جزاء ولا عمل . فلا توجد أدنى فرصة لهروب الظالم ، أو ضياع حقوق المظلوم .

ح _ يوم الفَصْل :

قال الله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ الفَصْل الذي كُنتم به تُكذِّبون ﴾[الصافات : ٢١] .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٧٨) : ((يقول تعالى ذِكْره : هذا يوم فَصْلِ الله بين خلقه بالعدل من قضائه الذي كنتم به تكذبون في الدنيا فتنكرونه)) اهـ .

ويوم القيامة يفصل اللهُ فيه بين الخلائق ، فيظهر الصادقُ من الكاذب ، والمحِقُّ من المبطِل ، والصالح من الطالح ، والمحسن من المسيء . ويتميز فيه الحق من الباطل. فهو يوم الفصل ، وإحقاق الحق ، ودحض الباطل . وهذا يؤدي إلى بعث السَّكينة في قلوب المقهورين ، فهم يُدرِكون أن حقهم لن يضيع . وأيضاً يردع الظالمين ، فهو يُذكِّرهم أن العقوبة بانتظارهم إذا لم يتوبوا . والموتُ ليس النهاية ، بل هو البداية .

ط _ يوم التَّلاق :

قال الله تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاق ﴾[غافر : ١٥] .

وهذا اليوم العظيم يلقى فيه العبدُ خالقَه ، ويتلاقى أهلُ السماء والأرض ، ويتلاقى العباد . ويلتقي الأولون بالآخرين في مشهد رهيب لا فرصة فيه للتدارك أو التعويض . فالقيامةُ لا تتكرر ، إنه فوز أبدي أو خسارة أبدية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٧) : ((فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد ، وأهل السماء والأرض ، أو المعبودون والعُبَّاد ، أو الأعمال والعُمَّال)) اهـ .

ي _ يوم الجمع :

قال الله تعالى : ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع لا رَيْبَ فيه ﴾[الشُّورى : ٧] .

ففي هذا اليوم الذي لا شك فيه ، سوف يَجمع اللهُ تعالى العبادَ للحساب فيُوفِّيهم أعمالهم كاملةً غير منقوصة بلا ظلم . وهذا المشهدُ العظيم سوف يضمُّ كلَّ الخلائق والأمم التي تعاقبت على الأرض.فالذين كانوا موتى صاروا أحياء في صعيد واحد ينتظرون مصيرَهم بكل قلق وترقب.

ولا أحد بإمكانه الهرب أو التواري عن الأنظار . قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣٦) : ((وهو يوم القيامة يجمع اللهُ الأولين والآخرين في صعيد واحد)) اهـ .

فاللهُ تعالى الذي بدأ الخلقَ لن تعجزه إعادته. فالذي خلق الإنسانَ من تراب لن يعجز عن إعادته من التراب . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٤) : ((وتنذرهم يوم الجمع ، وهو يوم القيامة ، يجمع اللهُ فيه الأوَّلين والآخرين ، وأهل السموات والأرضين ، ﴿ لا رَيْبَ فيه ﴾ أي : لا شك في هذا الجمع أنه كائن)) اهـ .

وسُمِّيَ بيوم الجمع ((لأنه مَجْمع الخلائق . وقيل : المراد جمع الأرواح بالأجساد . وقيل : جمع الظالم والمظلوم . وقيل : جمع العامل والعمل))[114] .

ك _ يوم الوعيد :

قال الله تعالى : ﴿ ذلك يومُ الوعيد ﴾[ق : ٢٠] .

وهو يوم القيامة الذي وعد اللهُ الكفارَ به بالعذاب. وهذا اليومُ الجليل هو يوم الوعد والوعيد، ولكن خُصَّ بالوعيد لتعظيمه وتهويله ، ولكي يكون ذا وقع شديد في النفوس .

ل _ الواقعة :

قال الله تعالى : ﴿ إذا وَقَعَت الواقعةُ ﴾[الواقعة : ١] .

فهذا اليوم الشديد واقع لا محالة ، وهو قريبٌ ، لأن كلَّ آتٍ قريبٌ . فلا مفر منه ، ولا توجد وسيلة للاختباء منه . فالقيامةُ قريبةٌ ، وفيها أهوال شديدة ، لا يمكن تجاوزها إلا بإذن الله تعالى . والعاقلُ مَن بنى حياته وفق ما بعد الموت .

قال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٢٢) : ((إذا نزلت صيحةُ القيامة ، وذلك حين يُنفَخ في الصور لقيام الساعة)) اهـ .

وفي زاد المسير (٨/ ١٣٠) : ((والمراد بها ها هنا النفخة في الصور لقيام الساعة)) اهـ .

((وسُمِّيت واقعة لأنها تقع عن قُرب . وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد))[115] .

م _ يوم التَّغابن :

قال الله تعالى : ﴿ ذلك يومُ التَّغابُن ﴾[التَّغابن : ٩] .

---

(١١٤) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٧٤٩) .

(١١٥) تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٧) .

الغَبْن _ لغةً _ : النقص . يُقال : غَبَنَهُ ، إذا أخذ الشيءَ بدون قيمته .

فيومُ القيامة هو يوم التغابن الذي يُظهِر غُبنَ أهل النار بتركهم الإيمان ، وغُبنَ أهل الجنة بتقصيرهم في الطاعات .

أما تسميته بهذا الاسم ففيه أقوال نوجزها على الشكل التالي(116) :

_ ليس من كافر إلا وله منزل في الجنة ، فيرث ذلك المؤمنُ ، فيُصاب الكافر بالغُبن .

_ غُبن أهل الجنة لأهل النار .

_ يوم غبن المظلوم الظالم ، لأن المظلوم كان في الدنيا مغبوناً ، فصار في الآخرة غابناً .

_ يظهر فيه غُبنُ الكافر بتركه للإيمان ، وغُبنُ المؤمن بتقصيره في الإحسان .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٢١) : ((وسُمِّيَ يوم القيامة يوم التغابن ، لأنه غبن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار ، أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير والشر والجيد بالرديء والنعيم بالعذاب ، يقال : غبنتَ فلاناً إذا بايعتَه أو شاريتَه فكان النقص عليه ، والغلبة لك ، وكذا أهل الجنة وأهل النار)) اهـ .

ن _ الحاقة :

قال الله تعالى : ﴿ الحاقَّة ﴾ [الحاقة : ١] .

وهذا الاسم العظيم ليوم القيامة يدل على أنها حقٌّ واقع لا محالة ، ولا يقبله الشك أو الإلغاء . وفيها يتحقق الوعد والوعيد . فهي الحاقةُ (القيامة) التي عظَّمها اللهُ تعالى في كتابه ، وجعلها إحقاقاً للحق ، وإزهاقاً للباطل .

فيوم القيامة لا يتخلف ، وسيأتي في موعده بدقة بلا تقديم أو تأخير ، فهو الحق الساطع ، والحقيقةُ الباهرة التي تنهار أمامها العقائدُ الزائغة والشكوك والوساوس . فالذين آمنوا بهذا اليوم ينبغي أن يستعدوا له ، أما الذين رفضوا الإيمان باليوم الآخر فسوف يُصعَقون حينما يباغتهم . فعلى المرء أن يتحلى ببعد النظر لئلا يَسقط في الهاوية السحيقة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٢٤) : ((سُمِّيت بذلك لأن الأمور تحق فيها ، قاله الطبري ... وقيل : سُمِّيت حاقة لأنها تكون من غير شك ، وقيل : سُمِّيت بذلك لأنها أحقَّت

---

(١١٦) أورد هذه الأقوال ابنُ الجوزي في زاد المسير (٨/ ٢٨٢ و٢٨٣) .

لأقوامٍ الجنةَ وأحقَّت لأقوامٍ النارَ ، وقيل : سُمِّيت بذلك لأن فيها يصير كل إنسان حقيقاً بجزاء عمله)) اهـ .

س ـ القارعة :

قال الله تعالى : ﴿كَذَّبت ثمودُ وعاد بالقارعة ﴾[الحاقة : ٤] .

والقارعةُ اسم جليل من أسماء القيامة ، فهي تقرع القلوبَ بأهوالها . وهذا دليلٌ على الشدة البالغة والخطب الجليل . حيث ترجُّ القلوبَ رجّاً عنيفاً ، فيشعرُ المرءُ كما لو كان قلبُه سيخرج من مكانه . ولا يمكن للقلب أن يَثبت في تلك اللحظات العصيبة إلا إذا كان مملوءاً بالإيمان المقترن بالعمل الصالح في الدنيا .

قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٢٥) : ((يقال : أصابتهم قوارع الدهر ، أي أهواله وشدائده ، ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه وقوارص لسانه جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية ، وقوارع القرآن : الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجن أو الإنس نحو آية الكرسي كأنها تقرع الشيطانَ ، وقيل : القارعة مأخوذة من القرعة في رفع قوم وحط آخرين ، قاله المبرد)) .

ع ـ الطَّامَّةُ الكبرى :

قال الله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامَّةُ الكُبرى ﴾[النازعات : ٣٤] .

فهي عظيمة الشأن شديدة الوطأة ، فتُغطِّي على كل الفظائع والمصائب ، فهي الحدثُ الرهيب الذي تصغر أمامه الأحداثُ الجسيمة . فكل الخطوب العظيمة تتلاشى أمام الطامة الكبرى التي تعمُّ على كل الأحداث فتصبح هي الحدث الأكبر المرعب ، والشغل الشاغل للعباد . فكما أن نور الشمس يُغطِّي على نور النجوم ، فكذلك هذا الحدث الجلل يُغطِّي على ما عداه .

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٤٠) : ((تطم على كل هائلة من الأمور ، فتغمر ما سواها بعظيم هَوْلها)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٣و٢٤) : ((الطامة : الحادثة التي تطم على ما سواها أي تعلو فوقه ، وفي المراد بها هاهنا ثلاثة أقوال : أحدها النفخة الثانية التي فيها البعث ، والثاني : أنها حين يقال لأهل النار : قوموا إلى النار ، والثالث : أنها حين يساق أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار)) اهـ .

ف ـ الصَّاخَّة :

قال الله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصَّاخَّةُ ﴾[عَبَسَ : ٣٣] .

والصاخةُ هي صيحة يوم القيامة . سُمِّيت كذلك لشدة صوتها ، فتصخُّ الآذانَ ، أي تجعلها عاجزةً عن السمع (حالة الصَّمم) . فهذا الصوتُ المخيف يُعطِّل الجوارحَ عن عملها ، فتصبح حاسةُ السمع كما لو أنها غير موجودة . وذلك لشدة الصدمة والضغط الهائل . مما يشير إلى عَظَمة الموقف ، وشدة الأهوال .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٩٤) : ((والصاخة : الصيحة التي تكون عنها القيامة ، وهي النفخة الثانية تصخ الأسماعَ : أي تصمُّها ، فلا تسمع إلا ما يُدعَى به للأحياء ، وذكر ناسٌ من المفسرين قالوا : تصيخ لها الأسماع ، من قولك : أصاخ إلى كذا : أي استمع إليه)) اهـ .

ص _ الغاشية :

قال الله تعالى : ﴿ هل أتاكَ حديثُ الغاشية ﴾[الغاشية : ١] .

والغاشيةُ هي القيامة ، تغشى الناسَ بأهوالها ، وتَعُمُّهم بالشدائد . وفي ذلك الموقف العصيب لن يَثْبت إلا من ثَبَّته اللهُ تعالى . فهذه الشدةُ العارمة العامة التي لا تستثني أحداً تدل على هَوْل الموقف واستحالة الإفلات منه . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢٦) : ((أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها قاله أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جبير و محمد بن كعب : (الغاشية) : النار تغشى وجوه الكفار ... وقيل : تغشى الخلق ، وقيل : المراد النفخة الثانية للبعث لأنها تغشى الخلائق ، وقيل : (الغاشية) أهل النار يغشونها ويقتحمون فيها)) اهـ .

٣_ الحشر :

قال الله تعالى : ﴿ واتقوا اللهَ واعلموا أنكم إليه تُحشَرون ﴾[البقرة : ٢٠٣] .

فمصيرُ الخلائق عند الله تعالى . يجمعها بعد الشتات فلا يغيب أحد ، ويعيدها كما بدأها . وهذه ساعةُ الحشر العظيمة التي لا يمكن الفرار منها ، أو عدم الحضور . إنها عملية جمعٍ إلهية من أجل الجزاء العادل ، فيُجازَى كلُّ مخلوق بعمله . والحشرُ موقفٌ رهيب لأنه مرحلة تسبق تحديدَ المصير(الخلود في الجنة أو الخلود في النار). وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٩٠): ((﴿ واعلموا أنكم إليه تُحشَرون ﴾ للجزاء بعد الإحياء ، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق)).

وعلى الرغم من أن الناس يُحشَرون عُراةً، الرجال والنساء على السواء ، إلا أن هول الموقف يمنعهم من التفكير في الشهوات . فعمليةُ تحديد المصير مسيطرة على الأذهان ، وهذا يمنع التفكيرَ في أي أمر آخر .

فعن عائشة _ رضي الله عنها_ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((تُحشَرون حُفاةً عُراةً غُرْلاً))، قالت عائشة : فقلتُ يا رسول الله : الرجالُ والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ ، فقال : ((الأمرُ أَشَدُّ من أن يهمهم ذاك))[117] .

فيُحشَرون كما خُلقوا حفاةً عُراةً غير مختونين . ولا ينظر بعضُهم إلى بعض رغم العُري ، لأن تحديد المصير هو شاغلهم الذي يملأ وجدانهم. فمن شدة الأمر لا يهتمون بأية شهوة . وهذا يعكس _ بدون شك_ هولَ موقف الحشر الذي يُنسي الإنسان الضغطَ الشهواني واللذة الحسية .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٩٣) : ((الغُرْل ... معناه غير مختونين ، جمع أغرل ، وهو الذي لم يُختَن وبقيت معه غرلته ، وهي قلفته وهي الجِلدة التي تُقطَع في الخِتان ، ... والمقصود أنهم يُحشَرون كما خُلقوا ، لا شيء معهم ، ولا يُفقَد منهم شيء ، حتى الغرلة تكون معهم)) اهـ .

٤_ الميزان واستلام الكتاب :

قال الله تعالى : ﴿ والوزنُ يومئذ الحقُّ ﴾[الأعراف : ٨] .

إن وزن الأعمال يوم القيامة سيكون بالعدل التام بلا ظلم ، وسيجد الإنسانُ حقيقةَ أعماله . فلن يحدث خطأ في الوزن ، ولن تتدخل جهةٌ ما لتغييره ، ولن تُقبَل عملية استئناف أو طعن في عملية الوزن بحجَّة التلاعب أو عدم الدقة . وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٧٧) : ((واختلف أهل العلم في كيفية هذا الوزن الكائن في هذا اليوم . فقيل : المراد به وزن صحائف أعمال العباد بالميزان وزناً حقيقياً ، وهذا هو الصحيح ، وهو الذي قامت عليه الأدلة . وقيل : توزن نفس الأعمال وإن كانت أعراضاً فإن الله يقلبها يوم القيامة أجساماً...وقيل : الميزان الكتاب الذي فيه أعمال الخلق . وقيل : الوزن والميزان بمعنى العدل والقضاء ، وذكرهما من باب ضرب المثل كما تقول هذا الكلام في وزن هذا)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٢٩) وصحَّحه ووافقه الذهبي عن سلمان الفارسي _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((يُوضَع الميزان يوم القيامة ، فلو وُزن فيه السماوات والأرض لوسعت ، فتقول الملائكة : يا رب ، لمن يزن هذا ؟ ، فيقول الله تعالى : لمن شئتُ من خلقي ، فتقول الملائكة : سبحانك ، ما عبدناك حق عبادتك)) .

---

(١١٧)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٥/ ٢٣٩١)برقم(٦١٦٢).ومسلم(٤/ ٢١٩٤)برقم(٢٨٥٩).

إن الميزان من مخلوقات الله العظيمة ، فليس ميزاناً دنيوياً محدوداً أو غير دقيق . إنه ميزان قادر على استيعاب السماوات والأرض ، ولا مجال فيه للخطأ أو عدم الدقة . فتوزن أعمالُ العباد وزناً حقيقياً ، وعندئذ تتحدد النتيجة ، ولا فرصة للمراجعة أو التشكيك في نزاهة الوزن . وهذا الميزانُ يدل على قدرة الخالق اللامتناهية ، وإحاطته بأعمال مخلوقاته ، فلا ينسى شيئاً ، ولا يفوته شيء . لذلك قالت الملائكة : ((سبحانك ، ما عبدناك حق عبادتك)) .

قال الله تعالى : ﴿ ونضعُ الموازين القِسْطَ ليوم القيامة ﴾[الأنبياء : ٤٧] .

فاللهُ تعالى يضع الموازين العادلة التي توزن بها أعمال الخلائق يوم القيامة . ولا احتمال للخطأ أو استخدام النفوذ والوساطات أو الرشاوي لتغيير الموازين كما يحدث في الدنيا .

قال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٥٧) : ((الموازين جمع ميزان ، فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مُكلَّف ميزاناً توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة. وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ... ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عَبَّر عنه بلفظ الجمع)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٣٨) : ((والذي يترجَّح أنه ميزان واحد ، ولا يُشكل بكثرة من يوزن عمله لأن أحوال القيامة لا تُكيَّف بأحوال الدنيا)) اهـ . فالقضيةُ ليست سهلةً . إنها تتعلق بوزن الأعمال بكل دقة . ووفق هذا الأمر يتحدد مصيرُ الخلائق.فإن رجحت كفةُ الحسنات فالمصير هو الجنة. وإن رجحت كفة السيئات فالنار هي الموعد.

قال الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ كتابَكَ كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حَسيباً ﴾[الإسراء : ١٤] .

أي : اقرأْ كتابَكَ الذين يتضمن الحسناتِ والسيئات . وقد كتبهما الملكان الكريمان ، فلم يتركا شيئاً . فأنتَ تحاسب نفسَكَ بنفسك ، لأن أعمالكَ بين يديكَ . وهذا هو العدل الإلهي . والجميعُ سيقرأ كتابَه سواءٌ كان أُمِّياً أو قارئاً .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٦) : ((وفي معنى ﴿ حَسيباً ﴾ ثلاثة أقوال _ أحدها : مُحاسِباً ، والثاني : شاهداً ، والثالث : كافياً . والمعنى أن الإنسان يُفَوَّضُ إليه حسابه ليعلم عدلَ الله بين العباد ، ويرى وجوب حُجَّة الله عليه واستحقاقه العقوبة ، ويعلم أنه إن دخل الجنةَ فبفضل الله لا بعمله ، وإن دخل النارَ فبذنبه)) اهـ . والإنسانُ هو شاهدٌ على نفسه وسيقودها إلى الجنة أو النار . والأعضاءُ البشرية شاهدةٌ على صاحبها تنطق بأعماله ولا تخفي شيئاً .

ففي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٠) عن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : كُنَّا عند رسول الله ﷺ فضحك . فقال : ((هل تدرون مما أضحك ؟)) ، قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : ((من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ ، يقول : بلى ، فيقول : فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . فيُختَم على فيه ، فيقال لأركانه _ أي جوارحه _ : انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً ، فعنكنَّ كنتُ أُناضِل _ أي أُجادِل _)) .

فلا يمكن للمرء أن يهرب من أعماله ، فهي مُسَجَّلة من البداية إلى النهاية . وتأتي شهادةُ الأعضاء إقامةً للحُجَّة على هذا الإنسان . فاللهُ تعالى غنيٌّ عن العالَمين ، لا يحتاج إلى ظلمهم أو الانتقاص من أعماله. فطاعاتُ الخلائق لا تنفعه _ سبحانه وتعالى _ ولا تزيد في مُلْكه ، ومعاصيهم لا تضرُّه ولا تُنقِص في مُلْكه شيئاً .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤): عن النبيﷺ فيما روى عن الله_ تبارك وتعالى _ أنه قال : ((إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أُوفِّيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)) .

اللهُ تعالى يحصي كلَّ أعمال الخلائق كاملةً غير منقوصة ، ويضعها في متناول يد العبد لكي يعلم أن اللهَ تعالى لم يظلمه . فهو العفو الغفور يغفر لمن يشاء ، وهو شديد العقاب يُعذِّب من يشاء.فمن وجداً خيراً فبفضل الله تعالى وله المِنَّة،ومن وجد غيرَ ذلك فبعدل الله تعالى وله الْحُجَّة.

٥_ الأنساب يومئذ :

قال الله تعالى : ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾[المؤمنون : ١٠١] .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((فهذا في النفخة الأولى ، حين لا يبقى على الأرض شيء ، فلا أنساب بينهم يومئذ))[118] .

فيوم القيامة ، لا تنفع القرابةُ ولا يَشفع النسبُ لزوال التراحم من شدة الهول والصدمة . فكل إنسان يريد النجاةَ بنفسه ، حيث يفر المرءُ من أقرب المقرَّبين إليه . وبالتالي تغدو قضية النَّسب والتفاخر به بلا معنى . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٩٠) عن الآية : ((في الكلام

(١١٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٨) برقم (٣٤٨٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

محذوف تقديره : لا أنساب بينهم يومئذ يتفاخرون بها أو يتقاطعون بها ، لأن الأنساب لا تنقطع يومئذ ، إنما يُرفَع التواصل والتفاخر بها)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤) عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ: ((ومَن بَطَّأَ به عملُه لم يُسرع به نسبُه)) .

فالمرءُ حينما يُقصِّر في عمله لن ينفعه الاعتمادُ على الحسب والنَّسب ، ولن يستفيد من شرف عائلته في جبر أعماله أو إيصاله إلى الجنة .

وقال الله تعالى : ﴿ لن تَنفعكم أرحامُكم ولا أولادُكم ﴾[الممتَحَنَة : ٣] .

فمن كان عملُه سيئاً لن تنفعه القرابةُ في شيء . فالنافعُ والضار هو الله تعالى وحده . أما الأرحام والأولاد فهي متاع الحياة الدنيا الزائل ، وتفاخرٌ بين الناس ، واستعراض للقوة والسُّلطة . فعلى المرء أن يكون مع الله تعالى في السراء والضراء ، بغض النظر عن رضا الأقارب أو سخطهم . فهم لا يملكون من أمرهم شيئاً . فرضا الناس غايةٌ لا تُدرَك . ومَن كان هَمُّه رضا الله تعالى فإن الله سيجعل الناسَ ترضى عنه ، لأن قلوبهم في يده _ سبحانه وتعالى _ . لذلك نجد أن التقوى تجذب قلوبَ الأرحام خاصةً،والناس عموماً. فالإيمان نورٌ جاذب للقلوب، والتقوى حبلٌ لا ينقطع.

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٤٢) : ((أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ، ونفعُهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يُسخط اللهَ. ومن وافق أهله على الكفر ليرضيَهم فقد خاب وخسر وضل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء)) اهـ .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((مَن التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه ، وأرضى الناسَ عنه . ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط اللهُ عليه وأسخط عليه الناسَ))(119) .

فالحريصُ على الرضى الإلهي لن يلتفت إلى أحكام البشر لعلمه بأنهم لا يَملكون من أمرهم شيئاً وغير قادرين على النفع والضر . فإذا كان هدفُه رضا الله تعالى رغم سخط الناس وعدم رضاهم ، فإن الله تعالى يرضى عنه ، ويجعل الناسَ راضين عنه ، حيث يضع له القبولَ في الأرض . أما من كان قصدُه رضا الناس لنيل الحظوة عندهم والحصول على مديحهم ولم يعبأ بالسخط

(١١٩) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥١٠) برقم (٢٧٦) .

الإلهي، فإنه سيخسر مرتين. فاللهُ تعالى يسخط عليه ، ويجعل الناس رافضين له ، ينبذونه ولا يطيقونه . لذلك على الإنسان أن يُسقط الناسَ من حساباته ، ليس بمعنى احتقارهم . بل بمعنى أنهم لا يَملكون نفعاً ولا ضراً ، ولا يملكون من أمرهم شيئاً. وإذا اعتمد الإنسانُ على الناس ، وبنى حياته وفق رضاهم أو غضبهم ، فمثله كمثل السجين الذي يُعوِّل على السجين ، أو الغريق الذي يعتمد على الغريق. أمَّا الاعتماد على الله تعالى فهو حقيقة الإيمان التي تنبئ عن بعد النظر ، وقوةِ الحجَّة ، لأن الله تعالى يُجير ولا يُجار عليه ، وقادرٌ على حماية الإنسان من المخلوقات ، أمَّا المخلوقات فلا تَقدر على حماية الإنسان من الخالق تعالى .

٦ _ فئات الخلق يومئذ :

قال الله تعالى : ﴿ وَكُنتم أزواجاً ثلاثةً ﴾[الواقعة : ٧] .

وهذه الآية تتحدث عن مراتب الناس ودرجاتهم يوم القيامة ، وهي ثلاث مراتب : (أصحاب اليمين وأصحاب الشِّمال والسابقون) . فالآخرةُ _ كما الدنيا _ مبنيةٌ على التفاوت والتفاضل ، إذ إن إمكانيات الناس مختلفة ، وجهودهم تتفاوت ، وتضحياتهم متباينة ، فليس من العدل أن يُوضعوا كلهم في مرتبة واحدة . لذلك كانت هذه المنازل دلالةً واضحة على اختلاف المستويات الإيمانية للناس وتباين إنجازاتهم .

قال الله تعالى : ﴿ فأصحابُ الميْمَنة ما أصحابُ الميمنة ﴾ [الواقعة : ٨][120] .

وهم أهل اليمين يأخذون صحفَهم بأيمانهم ويؤخذ بهم إلى الجنة لكي يتنعَّموا برضوان الله تعالى.

وقال الله تعالى : ﴿ وأصحابُ المشأمة ما أصحابُ المشأمة ﴾ [الواقعة : ٩] .

وهم أهل الشِّمال يأخذون صحفَهم بشمالهم ويؤخذ بهم إلى دار الشقاء الأبدية (النار) بسبب رفضهم للإيمان ، والتزامهم بمنهج الكفر الذي يتضمن رفضَ النور والتمردَ والجهلَ .

---

(١٢٠) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٣٢و١٣٣) ثمانية أقوال في معنى أصحاب الميمنة : (أ) أنهم الذين كانوا على يمين آدم حين أُخرجت ذريته من صلبه (ب) أنهم الذين يُعْطَوْن كتبهم بأيمانهم (ج) أنهم الذين كانوا ميامين على أنفسهم أي مُبارَكين (د) أنهم الذين أُخذوا من شق آدم الأيمن (هـ) أنهم الذين منزلتهم علن اليمين (و) أنهم أهل الجنة (ز) أنهم أصحاب المنزلة الرفيعة (ح) أنهم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة .

وقال الله تعالى : ﴿ والسَّابقون السابقون ﴾ [الواقعة : ١٠](121) .

وهؤلاء هم السابقون إلى الخيرات والدرجاتِ العلى ، فهم المقرَّبون إلى الله تعالى ، يَحْيون في رضوانه ، وجنَّته . فقد أكرمهم اللهُ تعالى بعنايته ونعيمه الخالد، لأنهم نفَّذوا أوامرَه ملتزِمين بشريعته ولم يحيدوا عن ذلك حتى وفاتهم .

***

(١٢١) ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٣٣) خمسة أقوال في قوله ــ تعالى ــ : ﴿ والسَّابقون السابقون ﴾ :(أ) أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أُمَّة(ب) أنهم الذين صَلُّوا إلى القِبْلَتَيْن (ج) أهل القرآن (د) الأنبياء (هـ) السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله .

سادساً : الغَيْب

١ـ الإيمان بالغيب :

قال الله تعالى موضِّحاً أُولى صفات المتقين : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [البقرة : ٣] .

فالغيبُ هو أساس الإيمان . وبالطبع فهذا لا يعني انقياداً أعمى ، وترديداً ـ كالببغاء ـ بلا بصيرة . فالدلائل على وجود الله تعالى في عالم الشهادة المحسوس تقودنا إلى التسليم بقدرة الخالق على صنع عالم الغيب . فاللهُ تعالى لم يترك الناس لوساوسهم وعقولهم القاصرة ، وإنما وضَّح لهم الصراطَ المستقيم ، فقد أنزل شريعته السماوية الخالدة المتضمنة الإجاباتِ الحاسمة على أسئلة الوجود والإيمان، فأخرج الناسَ من الشك إلى اليقين. وهذا اليقين في عالم الشهادة (الواقع المعاش) يجعل من المرء يؤمن بما وراء عالم الشهادة (أي عالم الغيب) .

فعلى سبيل المثال : إن القادر على إيقاظ الناس من نومهم في عالم الشهادة قادرٌ على بعثهم يوم القيامة (عالم الغيب) . والذي صنع الشمسَ ويتحكم بها (عالم الشهادة) ليس غريباً أن يصنع النارَ ويتحكم بها (عالم الغيب) ...إلخ .

وهكذا نجد أن الله تعالى قد وضَّح الدلائلَ الباهرة على وجوده وصفاته المقدَّسة في هذه الحياة الدنيا، وفي ذات الوقت أخفى عنَّا أشياء جعلها بعد الموت ليختبر إيمانَ العباد ويعلم ـ عزَّ وجل ـ المؤمنين بالغيب الذين صدَّقوا الوعدَ الإلهي ووعيده ، ويعلم الكافرين المنكِرين للغيب . فيتميز الصالحُ من الطالح ، والمؤمنُ الذاهب إلى الجنة من الكافر الذاهب إلى النار .

٢ـ الجنَّة وأسماؤها :

إن الجنة هي الجزاء العادل الذي أَعَدَّه اللهُ تعالى لعباده الصالحين . فقد رحمهم بأن وفَّقهم لأداء العبادات في الدنيا وفق منهج الشريعة السمحة ، فكان جزاؤهم الجنة خالدين فيها أبداً ، علماً بأن دخول الجنة يكون برحمة الله تعالى لا بأعمال الإنسان القاصرة . والإنسانُ مهما عمل من طاعاتٍ جليلة إلا أنه يظل في دائرة التقصير ، فكل المخلوقات بلا استثناء لم تعبد اللهَ حق عبادته ، حتى الأنبياء والملائكة هم مُقصِّرون في عبادة الله تعالى ، ليس بمعنى انتقاصهم ، بل بمعنى أنهم عاجزون عن أداء حق الله تعالى بشكل كامل ، لذلك فإن الأنبياء لا يَدخلون الجنةَ بأعمالهم ، وإنما برحمة الله تعالى ، وهؤلاء هم سادة البشرية المعصومون ، فما بالك بالبشر العاديين الغاطسين في الآثام ؟.

والمؤمنُ يعبد اللهَ تعالى لأنه أَهْلٌ للعبادة . فلو لم يكن هناك جنَّة ولا نار ، لكان اللهُ تعالى مستحقاً للعبادة . لكنَّ رحمته _ تعالى _ تجلَّت على عباده فجعل لهم جنةً عرضها السماوات والأرض مكافأةً لهم على إيمانهم في الدنيا وسيرهم وفق الشريعة الإلهية . ففي الجنة يرتاحون من تعب الحياة ومصائبها ، وينتقلون من ضنك الدنيا الفانية إلى الجنة الخالدة التي لا نهاية لها، والْمُنَزَّهة عن المنغِّصات . وقد وردت أوصاف كثيرة للجنَّة في القرآن والسُّنة كي يتشوق الإنسانُ ، وترتفع روحه المعنوية ، ويواصل صمودَه أمام فتن الحياة الدنيا وزخرفها الزائل . ولكن الجنة لا يمكن تخيُّلها لأنها فوق مستوى العقل البشري القاصر ، والمحصور في المتع الدنيوية الفانية .

فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((قال الله تعالى : أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رَأَتْ ، ولا أُذن سَمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشر))[122] .

وللجنَّة أسماء متعددة ، حيث يشير كلُّ اسم إلى صفة لها ، ويُسلِّط الضوءَ على جانبٍ معيَّن منها ينقل المرءَ إلى التفكير بعمق ، وتكوين فهمٍ منضبِط، والإحاطة_قدر المستطاع _ بهذا الموضوع الغَيْبِي الجليل .

أ _ الآخِرة :

قال الله تعالى : ﴿ والآخِرةُ عند ربِّكَ للمُتَّقين ﴾[الزُّخرف : ٣٥] .

والجنةُ التي فيها النعيمُ المقيم واللذةُ الأبدية هي خاصة بالمتقين حصرياً فلا يشاركهم فيها أحد. فهم أهلُها الشرعيون وأصحابها الفعليون ، لأنهم قضوا حياتهم الدنيا في نشر الخير والاستعداد لهذا الموقف العظيم ، فاستحقوا نيل المكافأة نظير أعمالهم الجليلة في الدعوة إلى الله تعالى ، والتزام أوامره دون أن يَحيدوا عن الطريق . فقد كانوا في الدنيا أصحاب بصر وبصيرة ، فلم ينخدعوا بالبهرج الفتان المخادِع . وهؤلاء دخلوا الجنَّة مرتين . الأولى في الدنيا ، حين عمروا المساجدَ وقاموا بالطاعات وعاشوا تحت راية الشريعة . والثانية يومَ القيامة ، حيث النعيم المقيم الْمُعَدُّ للمتقين حصرياً دون غيرهم . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٨٦) : ((يقول تعالى ذِكْره : وزينُ الدار الآخرة وبهاؤها عند ربك للمتقين الذين اتقوا اللهَ ، فخافوا عقابه ، فَجَدُّوا في طاعته ، وحذروا معاصيه ، خاصة دون غيرهم من خلق الله)) .

---

(١٢٢) متفق عليه. البخاري(٣/ ١١٨٥)برقم (٣٠٧٢)،ومسلم(٤/ ٢١٧٤) برقم (٢٨٢٤).

ب ـ جَنَّاتُ عَدْن :

قال الله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار خالِدين فيها ﴾[طه : ٧٦] .

قال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٨٦):((أي في دار إقامة. يُقال: عَدَنَ بالمكان إذا أقام به)).

فهي دارُ الاستقرار والكرامةِ السرمدية التي أعدَّها اللهُ تعالى لعباده الصالحين كي يتنعَّموا فيها بلا انقطاع . فالجنةُ مقرُّ إقامتهم فلا يَرحلون عنها ، ولا يستبدلونها بأي سَكَن آخر ، ولا يُصابون فيها بالملل أو السآمة . وعن عبد الله بن قيس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : ((جَنَّتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[123] .

فهذا النعيمُ المقيم في جنَّة عدن دارِ الإقامة الشريفة تم تتويجه برؤية الله تعالى الْمُنَزَّه عن المكان والزمان. فاللهُ تعالى غير محصور في مكان ، فهو أكبر من كل شيء . ورؤيةُ المؤمنين له ـ سبحانه ـ أعظمُ شرفٍ لهم ، ودليلٌ على قُدسية جنة عدن ومكانتها السامية .

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ : أن النبي ﷺ تلا قولَ الله ـ عز وجل ـ : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخلونها يُحَلَّوْنَ فيها من أساور من ذهب ﴾ [فاطر : ٣٣] . فقال : ((إن عليهم التيجان ، إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب))[124] .

وهذا المجدُ الباقي ، والمتعةُ الخالدة التي لا تشوبها أحزان أو كدر . وقد أعطاهم اللهُ تعالى هذا النعيم جزاءً لهم على حسن فعالهم في الدنيا، وصبرهم على طاعته، وثباتهم على شريعته .

---

(١٢٣) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧١٠) برقم (٧٠٠٦)، ومسلم (١/ ١٦٣) برقم (١٨٠). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ١٦) : ((قال العلماء: كان النبي ﷺ يخاطب العربَ بما يفهمونه، ويُقرِّب الكلامَ إلى أفهامهم ، ويستعمل الاستعارةَ وغيرها من أنواع المجاز لِيُقرِّب متناولها. فَعَبَّر ﷺ عن زوال المانع ورفعه عن الأبصار بإزالة الرداء)) اهـ.وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٣٣): ((قال ابن بطال : لا تَعَلُّق للمجسِّمة في إثبات المكان، لما ثبت من استحالة أن يكون ـ سبحانه ـ جسماً أو حالاً في مكان ، فيكون تأويلُ الرداء الآفةَ الموجودة لأبصارهم ، المانعة لهم من رؤيته ، وإزالتها فعل من أفعاله يفعله في محل رؤيتهم ، فلا يرونه ما دام ذلك المانع موجوداً ، فإذا فعل الرؤيةَ زال ذلك المانع، وسَمَّاه رداءً لتنَزُّله في المنع منزلة الرداء الذي يحجب الوجهَ عن رؤيته ، فأطلق عليه الرداء مجازاً)) اهـ.

(١٢٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٦٢) برقم (٣٥٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والإنسانُ يَعجز عن تخيُّل هذا النعيم المقيم لأنه محصور في شوائب الدنيا التي سعادتها ممزوجة بالكدر، وبهجتها مندمجة مع الهموم ، وتألقها ظاهري لا يَدوم . ولكنْ عليه أن يُدرك أن المعطي هو الله تعالى ، لذلك تكون العطيةُ عظيمةً لا تُقاس ولا تزول . فصانعُ هذا النعيم هو مالكُ الخزائن التي لا تَنفد . فكل هذا المجد السرمدي لا يُنقِص من مُلْك الله شيئاً . فالمنعِمُ هو صانعُ السماواتِ والأرض ورازقُ الخلائق عبر كل هذه الحقب التاريخية . يُنفق ليلاً نهاراً، ولا يَبخل على عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، ولا يُصاب بالتعب أو الفقر . ومن كانت هذه قدرته فلن يَعجز عن خلق جنَّة عرضها السماوات والأرض ، أو منح عباده _ رغم عملهم القليل _ الخلود في النعيم . فخالقُ الموت والحياة قادرٌ على إلغاء الموت من حياة أهل الجنة .

ج _ الفِرْدَوْس :

قال الله تعالى : ﴿ الذين يَرِثُون الفِرْدَوْسَ هُم فيها خالدون ﴾[المؤمنون : ١١] .

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات _ أي إنهم لم يكتفوا بالقول بل حوَّلوا إيمانَهم إلى واقع عملي لإصلاح أنفسهم بالطاعات وإصلاحِ الأرض بالفضائل _ كانت لهم أعلى درجات الجنة منزلاً ومكانَ إقامة لا يتبدل ، فهم يرثون الفردوس ، أي يحصلون عليها مكافأةً لهم ، ولا أحد ينتزعها منهم . وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٧٠٠) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((فإذا سألتُم اللهَ فسلوه الفردوسَ ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهارُ الجنة)) .

فالفردوسُ هي أشرف منازل الجنة . ففيها النعيم الدائم ، ويعلوها عرشُ الرحمن _ سبحانه وتعالى _ ، ومنها تفجر أنهار الجنة ، فهي المنبع الطاهر . وهذا يشير إلى مكانتها المميَّزة عن باقي الجِنان . فالجنانُ متفاوتة فيما بينها بسبب تفاوت إيمان الناس وحجم تضحياتهم ، وكلُّ امرئ ينال منزلته التي يستحقها . فكما أن الطالب ينال علامته الدراسية التي يستحقها وتكشف مستواه الحقيقي ، كذلك طالب الآخرة ينال درجته العادلة . فلا يُعقَل أن تتساوى درجة الأنبياء مع درجة الشهداء ، أو تتساوى درجة الشهداء مع درجة المؤمنين العاديين . وهذا التفاضلُ حافزٌ للمؤمنين على زيادة العمل ، ومضاعفة الجهود ، وبذل أقصى ما يستطيعون من طاقة .

د _ جنة المأوى :

قال الله تعالى: ﴿ عِندَها جَنَّةُ المأوى ﴾[النجم : ١٥] .

فعند سِدْرة المنتهى[125] تقع جنةُ المأوى التي يأوي إليها الشهداء والأتقياء . فهي منزلهم ومستقرهم . والدنيا _ مهما طالت _ هي دار مؤقَّتة ، وأهلُها راحلون عنها _ رغم أنوفهم _ . فالجنةُ هي المأوى الحقيقي والمستقر الكريم الأبدي .

قال الشوكاني في فتح القدير (٥/ ١٥٢) : ((أي عند تلك السِّدرة جنةٌ تُعرَف بجنة المأوى، وسُمِّيت جنة المأوى لأنه آوى إليها آدم ، وقيل إنها أرواح المؤمنين تأوي إليها)) اهـ .

هـ _ جنة الْخُلد :

قال الله تعالى : ﴿ قُل أذلك خيرٌ أم جَنَّةُ الْخُلْدِ التي وُعد المتَّقون ﴾[الفُرقان : ١٥] .

فجنَّةُ الْخُلْد دائمة بلا انقطاع ، ونعيمها لا ينفد . فقد أُضيفت إلى الخلود لإشعار السامع بأنها لا تنتهي ، ولا يطرأ عليها الزوال أو الكدر . وهي مخصَّصة للمتَّقين الذين وُعدوا بها ، ووعدُ الله لا يتخلف . وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ كان يدعو : ((اللهم إني أسألكَ إيماناً لا يَرتد ، ونعيماً لا يَنفد ، ومرافقةَ محمد ﷺ في أعلى جنة الْخُلد))[126] .

وهذا الدعاءُ الجليل يشتمل على معانٍ عظيمة وهي : الإيمان المعصوم من الارتداد ، وهذه نقطة شديدة الأهمية ، يَغفل عنها الكثيرون . فالقلوبُ متغيرة ، وكَم من شخص قضى حياته مؤمناً ثم مات كافراً ، وهنا خطورة الأمر . وهذا العبدُ خذله اللهُ تعالى لحكمةٍ يَعلمها سبحانه . والعِبرةُ بالخواتيم ، ويُبعَث الإنسانُ على ما مات عليه. والمؤمنُ يبقى موزَّعاً بين الخوف والرجاء ، ولا يأمن مكرَ الله تعالى . والمعصومُ من عَصَمه اللهُ ، والكمالُ للهِ وَحْدَه .

أمَّا النعيمُ الذي لا يَنفد فهو نعيم الجنَّة فقط . إذ إن النعيم الدنيوي متعكِّر ، ومشوب بالكدر، وزائل لا محالة . وفي الدنيا لا توجد أية فرصة للخلود والبقاء ، لأن الدنيا نفسها زائلة ، ولا تَقدر على منح البقاء لعناصرها ، ففاقدُ الشيء لا يُعطيه .

---

(١٢٥) هي شجرة النبق (السدر) . وفي الحديث النبوي : ((ثم صعد بي إلى السماء السابعة ... ثم رُفعت لي سِدْرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر _ أي كالجِرار _، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة)) [جزء من حديث رواه البخاري (٣/ ١٤١٠) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٤٥)].((قال المفسرون : وإنما سُمِّيت سدرة المنتهى لأنه إليها منتهى ما يصعد به من الأرض فيُقبَض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيُقبَض منها ، وإليها ينتهي علم جميع الملائكة))[زاد المسير لابن الجوزي ٦٩/٨].

(١٢٦) رواه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٣) برقم (١٩٧٠) .

ومرافقةُ محمد ﷺ في أعلى جنة الْخُلدِ شرفٌ عظيم . فالشخصُ الذي يكون رفيقاً للنبي ﷺ في جنة الْخُلد الدائمة إلى ما لا نهاية ، بلا زوال ولا انقطاع ، لا بد أن يكون شخصاً طاهراً مُطَهَّراً ، رضي اللهُ عنه ، فَمَنَحَه هذه المكانة السامية التي لا يمكن لأحد أن يُجرِّده منها . وهذا هو الفضل الإلهي العظيم .

و _ الحسنى :

قال الله تعالى : ﴿ وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى ﴾[النساء : ٩٥] .

والحسنى هي الجنةُ ، وهي وَعْدُ الله لعباده الصالحين الذي لا يتأخر ولا يُلغَى . وقد وعدهم _ سبحانه _ بالأجر الجزيل ، والسعادةِ الأبدية في الدار الآخرة التي لا تفنى. مع العلم أن درجات الجنَّة متفاوتة ، لأن أعمال العباد متفاوتة في درجة صلاحها .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٣٨) : ((المثوبة الحسنى وهي الجنة ، لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم ، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب)) اهـ .

ز _ الدار الآخِرة :

قال الله تعالى : ﴿ تلك الدارُ الآخِرةُ نجعلها للذين لا يريدون عُلُوَّاً في الأرض ولا فساداً ﴾ [القَصَص : ٨٣] . الإشارةُ للتعظيم . أي : تلك الجنة العالية ذات المكانة المقدَّسة ليست في متناول الجميع ، بل يحصل عليها المؤمنون الصادقون الذين لا يريدون الظلمَ والاستكبارَ في الأرض ولا الفساد . فعلوُّ مكانتها دافع للعمل من أجل نَيْلها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٤٨) عن معنى " العُلُو " : ((وفيه خمسة أقوال : أحدها أنه البغي ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : الشرف والعِز ، قاله الحسن . والثالث : الظلم ، قاله الضحاك . والرابع : الشِّرك ، قاله يحيى بن سلام . والخامس : الاستكبار عن الإيمان ، قاله مقاتل)) اهـ .

ح _ دار السلام :

قال الله تعالى : ﴿ لهم دارُ السلام عند ربِّهم ﴾[الأنعام : ١٢٧] .

فدارُ السلام هي الجنَّة التي خلقها اللهُ تعالى للمؤمنين ، وقد أُضيفت إليه _ سبحانه _ إضافة تشريف مثل بيت الله . وقد وردت أقوالٌ في سبب تسميتها بذلك. ((أحدها: أن السلام هو الله

وهي دارُه. والثاني: أنها دار السلامة التي لا تنقطع. والثالث: أن تحية أهلها فيها السَّلام . والرابع: أن جميع حالاتها مقرونة بالسَّلام))[127] .

ط _ دار المتقين :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَنِعْمَ دارُ المتَّقين ﴾[النحل : ٣٠] .

إنها الجنة بيتُ المتقين الدائم الذي لا يغادرونه ، وإنما يستقرون فيه . فالجنةُ دارُهم التي لا يتركونها من أجل أية دار أخرى . إنها تجمعُ المتقين الذين صنعوا حياتهم وفق مراد الله تعالى ، فلم يتقاعسوا ، ولم يُصابوا بالإحباط أو التعب من مواصلة السَّير . ولا شك أنهم تحلوا بالصبر الهائل في دنياهم حتى نجحوا في الوصول إلى هذه المنزلة الراقية .

ي _ دار الْمُقامة :

قال الله تعالى : ﴿ الذي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامة ﴾[فاطر : ٣٥] .

فاللهُ تعالى أعطى المؤمنين الجنةَ، وهي المنزلة الرفيعة بفضله ورحمته. وهي دار الإقامة والاستقرار بلا رحيل أو مغادَرة .

٣_ النار وأسماؤها :

لا شك أن النار هي العذاب الذي أعدَّه اللهُ تعالى للكافرين عقوبةً لهم على رفضهم الإيمان ، وسيرهم في طريق الغواية رغم كل الإرشادات الإلهية . وقد أوردت الشريعةُ أوصافاً كثيرة للنار لكي يعتبر الناسُ ويرتدعوا عن فعل المعاصي . فتصبح النارُ حافزاً على الالتزام الإيمان ، وذلك باجتناب ما يُغضب اللهَ ، وما يوجب دخولَ النار . فكلما ازداد المرءُ هروباً من النار كان ذلك مؤشراً على صلاحه . ولكنْ ينبغي أن يترافق القول والعمل معاً . فالخوف من النار ليس شعاراً على الألسنة فحسب ، بل هو أيضاً سلوك عملي يتضمن التزام الطاعات واجتناب المحرَّمات . وينبغي تذكر أن الله تعالى هو خالق النار ، وهو أحق بأن يخافه العبدُ .

وقد وردت أسماء كثيرة للنار _ أجارنا الله منها _ . وكل اسم يوضِّح جانباً من هذا العذاب الأبدي لكي يَعتبر المعتبِرون .

أ _ الآخِرة :

قال الله تعالى : ﴿ يَحْذر الآخِرةَ ﴾[الزُّمر : ٩] .

(١٢٧) زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١٢٢) .

أي : يحذر النارَ لعلمه بعدم قدرته على تحمُّلها ، وهذا يدفعه إلى العمل _ جاهداً _ لنيل الجنة. وهذا الحذرُ يُبقي المرء على أُهبة الاستعداد . فالشخصُ الْحَذِرُ يراقب جميع المداخل والمخارج خوفاً من مجيء العدو . والمؤمنُ يراقب نفسَه فلا يَسمح باختراق الشيطان أو الأهواء أو يقع فريسة نفسه الأمارة بالسوء . لذلك فإن أسلحته الإيمانية على أتم الجهوزية خوفاً من الاختراق فتزل قدمُه ويسقط في المحظور . فالنارُ _ على الدوام _ موجودة في ذهنه ، لذا يعمل جاهداً للابتعاد عن كل طرقاتها المهلِكة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٦٧): ((﴿ يَحْذر الآخِرةَ ﴾ أي عذاب الآخرة)) .

ب _ الجحيم :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تُسْأل عن أصحاب الجحيم ﴾[البقرة : ١١٩] .

فالجحيمُ هي النار الشديدة التي حذَّر منها الله تعالى ورسوله ﷺ . ولا يُسأل النبي ﷺ عن كُفر من كَفَرَ ، فهو لا يتحمل مسؤولية أصحاب النار ، فقد دعاهم بكل إخلاص وتفانٍ ، وأقام عليهم الْحُجَّةَ ، وكان لهم خيرَ الناصح والمعلِّم . أخذ بيد الناس إلى خالقهم ، وأرشدهم إلى صراطه المستقيم . فمن تنكَّب الطريقَ فهو يتحمل المسؤولية كاملة غير منقوصة ، ولا يلومنَّ إلا نفسه .

وكما قال الله تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾[المائدة : ٩٩] . وكلُّ رسولٍ أدى رسالته على أكمل وجهٍ ، بلا زيادة أو نقصان . أمَّا حسابُ العباد فعلى رب العباد . والرسلُ هم دُعاة ، ولا يَملكون سُلطة الحساب . فَمَن آمن فلنفسه ، ومَن كفر فعليها .

و ((إنما سُمِّيت النار جحيماً لأنها أُكثر وقودها ، من قول العرب : جحمت النار أجحمها ، إذا أَكثرتَ لها الوقود))[128] .

ج _ جهنم :

قال الله تعالى : ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّم ﴾[البقرة : ٢٠٦] .

إن جهنَّم هي النار الكافية المعاقِبة للعُصاة . فمن أخذته العزةُ بالإثم وطغا وتجبَّر فإن جهنم هي الكافية الوافية التي ستكون الردَّ القاطع على غروره وطغيانه . قال القيسي في مشكل إعراب القرآن (١/ ٤١٣) عن لفظ " جهنم " : ((لا ينصرف لأنه اسم معرفة أعجمي . وقيل : هو

(١٢٨) زاد المسير (١/ ١٣٨) .

عربي ولكنه مُؤَنَّث معرفة ، ومن جعله عربياً اشتقه من قولهم : ركية جهنام إذا كانت بعيدة القعر ، فَسُمِّيت النار جهنم لبُعد قَعْرها)) اهـ .

د _ الْحُطَمَة :

قال الله تعالى : ﴿ وما أدراكَ ما الْحُطَمَة ﴾[الْهُمَزة : ٥] .

فالحطمة هي النار الشديدة التي تُهشِّم العِظامَ وتأكل اللحمَ . وسُمِّيت كذلك لأنها تحطِم كلَّ ما يُلقى فيها . وهذه الحركةُ المرعبة تشير إلى شدة غليانها وشدتها الكاسرة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٧٢) عن السياق القرآني : ((﴿ وما أدراكَ ما الْحُطَمَة ﴾ على التعظيم لشأنها والتفخيم لأمرها)) اهـ .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (١/ ٢٦٠) ومسلم (٢/ ٦١٨) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : قال النبي ﷺ : ((فرأيتُ جهنم يَحطِم بعضُها بعضاً)) .

أي يأكل بعضُها بعضاً من شدة الحرائق . إنها الْحُطَمَة التي تلتهم ما يُلقى فيها وتلتهم نفسها.

هـ _ السعير :

قال الله تعالى : ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾[النِّساء : ١٠] .

السعيرُ هي النار العظيمة المستعرة . أي إنهم سيُحرَقون بالنار الملتهِبة شديدة التوقُّد .

و _ سَقَر :

قال الله تعالى : ﴿ ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ ﴾[القمر : ٤٨] .

أي : ذوقوا أيها الكافرون عذابَ النار . ويُقال : " سَقَرَ " من قولهم : سَقَرَتْهُ الشمسُ إذا أذابته . أي إنها تذيب الأجسامَ ، فلا يقف في طريقها جسمٌ أو مانع . فهي تُغيِّر صفاتِ الأجسام وتنقلها إلى حالة الذوبان والانصهار ، فيتحول الجسمُ إلى شيء آخر لا علاقة له بحالته الأولى . وهذا مؤشر على شدة العذاب .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧٠) : ((أي يقال لهم : ذُوقوا حرَّ النار وألمها ، فإن مَسَّها سبب التألم بها ، وسقر عَلَم لجهنم ، ولذلك لم يُصرَف)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٦) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : جاء مشركو قريش يُخاصمون رسولَ الله ﷺ في القَدَر ، فنزلت ﴿ يومَ يُسحَبون في النار على وجوههم ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إنَّا كلَّ شيء خلقناه بِقَدَر (٤٩) ﴾ [سورة القمر] .

وقوله تعالى : ﴿ ذُوقوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ تعبيرٌ إلهي بليغ . فهذا العذابُ كأنهم يتذوقونه مثل الطعام، فسوف يلازمهم ولا يزول عنهم . وهذا الألمُ سوف يكون هو الطَّعم الذي يذوقونه .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٥٦٨) : ((فإن قال قائل : وكيف يُذاق مَس سقر أو له طعم فيُذاق ؟ ، فإن ذلك مختلف فيه ، فقال بعضهم : قيل ذلك كذلك على مجاز الكلام ، كما يقال : كيف وجدتَ طعم الضرب ، وهو مجاز. وقال آخر : ذلك كما يقال : وجدتُ مَسَّ الحمى يراد به أول ما نالني منها ، وكذلك وجدتُ طعم عَفْوك ، وأما سَقَر فإنها اسم باب من أبواب جهنم ، وتُرك إجراؤها _ صرفها _ لأنها اسم لمؤنث معرفة)) اهـ .

<u>ز _ السَّموم :</u>

قال الله تعالى : ﴿ وَوَقَانا عَذابَ السَّمُوم ﴾[الطُّور : ٢٧] .

والسَّموم (لغةً) : هي الريح الحارة النافذة في المسام .

وفي تفسير القرطبي (١٧/ ٦٢) : ((قال الحسن : السموم اسم من أسماء النار وطبقة من طباق جهنم ، وقيل : هو النار ، كما تقول جهنم . وقيل : نار عذاب السموم ، والسموم الريح الحارة تؤنث ، يقال منه : سم يومنا فهو مسموم والجمع سمائم ، قال أبو عبيدة : السموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ، وقد تستعمل السموم في لفح البرد ، وهو في لفح الحر والشمس أكثر)) اهـ .

والمؤمنون قد أكرمهم اللهُ تعالى بأن وقاهم عذاب النار (السموم) النافذة في المسام كالريح الحارة، فهي مخصَّصة للكافرين الذين تمتَّعوا في الدنيا بضلالهم وشهواتهم . وجاء الوقتُ لكي يدفعوا الثمنَ .

<u>ح _ لظى :</u>

قال الله تعالى : ﴿كلا إنها لَظَى ﴾[المعارج : ١٥] .

وسُمِّيت النار لظى لأن نيرانها تتلظى (تلتهب) . فهي شديدة الاشتعال والتوهج . وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٤٩) : ((واشتقاق لظى من التلظي، والتظاء النار التهابها، وتلظيها تلهبها . وقيل : كان أصلها لظظ ، أي ما دامت لدوام عذابها ، فقُلبت إحدى الظائين ألفاً فبقيت لظى، وقيل: هي الدركة الثانية من طبقات جهنم ، وهي اسم مؤنث معرفة فلا ينصرف)).

<u>ط _ الهاوية :</u>

قال الله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[القارعة : ٩] .

فمصيرُه إلى النار (الهاوية) التي يهوي فيها بشدة ، أي يَسقط . فقد رفض أوامرَ الله تعالى ، وأعرض عن الإيمان ، واتَّبع شهواتِه وأهواءه بغير عِلْم ولا حُجَّة . فجاءت العقوبة جزاءً وِفاقاً .

والهاويةُ اسمٌ للنار يدل على عمقها الشديد ، حيث يسقط الكافرون فيها .

والعربُ تقول للرَّجل إذا وقع في شدة : هَوَت أُمُّه . أي هَلَكَت . كما قال الغنوي :

هَوَت أُمُّه ما يبعث الصبح غادياً   وماذا يرد الليل حين يؤوب

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٠٢) : ((قيل : معناه فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم ، وعَبَّر عنه بأُمه يعني دماغه ، رُوِيَ نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح وقتادة ، وقال قتادة : يهوي في النار على رأسه ، وكذا قال أبو صالح : يهوون في النار على رؤوسهم ، وقيل : معناه فأُمه التي يرجع إليها ويصير في المعاد إليها هاوية ، وهي اسم من أسماء النار . قال ابن جرير : وإنما قيل للهاوية أُمه لأنه لا مأوى له غيرها ، وقال ابن زيد : الهاوية النار ، هي أُمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٤) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبةً _ سقطةً_، فقال النبي ﷺ : ((تدرون ما هذا ؟))، قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((هذا حجر رُمِيَ به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار،الآن حتى انتهى إلى قَعْرها)).

وهذا يشير _ بوضوح _ إلى معنى الهاوية التي هي اسم للنار، فهي شديدة العمق، الأمر الذي أدى إلى استغراق الحجر لمدة سبعين سنة حتى يصل إلى القعر . وعندما تُقاس المسافة بالزمن (السنوات) فهذا له وقعٌ مؤثر في نَفْس السامع ، يدل على هَوْلِ الموقف ، وشدةِ العذاب.

٤_ الشيطان وسلوكه :

إن الشيطان هو العدو الخطير الذي يُهدِّد حياةَ الإنسان ومصيرَه . فهو لا يُقصِّر في جلب المفاسد والوساوس إلى الحياة الإنسانية من كل الجهات ، وذلك من أجل تدمير الفرد ونقله من النور إلى الظلمات ، وهدايته إلى النار لا الجنة . وسُمِّيَ الشيطان بهذا الاسم لبعده عن الحق والخير ، وامتداه في الشر ، وتمرده . وتتضح خطورته في كثرة ألاعيبه وأساليبه المحتالة الرامية إلى إبعاد الناس عن الشريعة الإلهية لكي يغرقوا في الكفر والعصيان والشهوات ، ويخسروا الدنيا والآخرة . وهذا هو حلمُ حياته الذي يسعى إلى تحقيقه بأي ثمن .

ومن خلال سلوكيات الشيطان تبرز صفاته السيئة، وأساليبه الخبيثة، وعداوته الدائمة للإنسان في كل زمان ومكان . وتتضح أهدافُه الشريرة في تدمير الحياة البشرية ، وتعكيرِ صفوها . وقد

بيَّنت الشريعةُ للبشر طبيعةَ الشيطان وأفعاله لكي يحذره الخلقُ ، ويتخذونه عدواً مستعينين بالخالق _ سبحانه وتعالى _ القادر على كل شيء . علماً بأن الإيمان بوجود الشيطان ضروري لأنه ذُكر في القرآن في آيات كثيرة جداً . ومنكرُ وجوده كافرٌ بسبب تكذيبه لكلام الله تعالى . فعلى المرء أن يعرف كيفيةَ التعامل معه ، لأن الانتصار على العدو لا يتحقق إلا بمعرفة حقيقته .

وعداوة الشيطان للإنسان قديمةٌ جداً . فقد بدأت حينما رفض إبليس اللعين السجودَ لآدم ﷺ تكبراً على أمر الله تعالى . فقد رأى الشيطانُ نفسه أعظم من آدم ﷺ فاستحق الطردَ لأنه قاسَ الموضوعَ حسب تفكيره القاصر رافضاً الأمر الإلهي المقدَّس . فقد اعتقد_ جاهلاً _ أن النار لصعودها وخفتها ولمعانها أفضل من الطين .

قال الله تعالى مخاطباً إبليس : ﴿ ما مَنَعَكَ ألا تسجد إذ أمرتُكَ قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقتَه من طين ﴾ [الأعراف : ١٢] .

فاللهُ تعالى سأل إبليس _ وهو أعلم _ عن سبب عدم سجوده ، وعدم امتثاله لأمر الله تعالى ، فردَّ إبليس أقبح رَد ، إذ اعتقد أنه الفاضل (مخلوق ناري) وأن آدم ﷺ هو المفضول (مخلوق طيني) ، وأنه _ أي إبليس _ هو الأعلى مكانة فلا يسجد للأدنى مكانة (آدم ﷺ) وذلك حسب نظرته القاصرة ، وقياسه الباطل . حيث احتكم إلى عقله وقدَّمه على الأمر الإلهي .

فالشيطانُ ((أَبلس من الرحمة ، أي أَيس من الرحمة، فأخطأ _ قبَّحه اللهُ _ في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنارُ من شأنها الإحراق والطيش والسرعة . ولهذا خان إبليسَ عُنصرُه. ونفعَ آدمَ عُنصرُه بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة))[129] .

وعن ابن سيرين قال:((أول من قاس إبليس وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس))[130].

فكلُّ من يقيس برأيه وهواه دون علمٍ ولا بصيرة فسلفُه في هذا المجال هو إبليس الذي أعرض عن أمر الله تعالى بسبب لوثةٍ في عقله المحدود . فينبغي للمرء قبل إصداره للأحكام أن يتثبَّت ، ويبنيَ أفكاره على قاعدة إيمانية معرفية صلبة ، فيسعى إلى الحق جاهداً بلا أهواء شخصية

(١٢٩) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٢) .

(١٣٠) رواه الطبري في تفسيره (٥/ ٤٣٨) بسند صحَّحه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٢) .

. ولا يمكن الوصول إلى الحق إلا عبر سلوك الصراط المستقيم، فالغايةُ الصالحة لا بد لها من طريق صالح . وما بُنِيَ على باطل فهو باطل .

وقال الله تعالى في توضيح أحد جوانب السلوك الشيطاني : ﴿ إلا مَن استرق السمعَ فأتبعه شِهابٌ مُبين ﴾ [الحِجْر : ١٨] .

قال الطبري في تفسيره (٧/ ٤٩٩) : ((وحفظنا السماءَ الدنيا من كل شيطان لعين ، قد رجمه اللهُ ولعنه... لكن قد يسترق من الشياطين السمعَ مما يحدث في السماء)).

فالشياطين تسمع الخبرَ من أخبار السماء ثم تتبعهم الشُّهب فتقتلهم أو تخبلهم. لكنهم عاجزون عن استماع الوحي ، فإنها لا تسمع منه شيئاً . إذ إنها لو سمعت الوحي لكان ذلك طعناً في القرآن، ولأصبح القرآنُ أُلعوبةً بيد الشياطين ، مما يُشكِّك الناسَ فيه . لكن الله تعالى حفظ الوحي ، أي حفظ القرآنَ من تأثير المخلوقات . فهو كتابُ الله المحفوظ ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

قال الله تعالى : ﴿ وما تَنَزَّلت به الشياطين (٢١٠) وما ينبغي لهم وما يستطيعون (٢١١) إنهم عن السمع لمعزولون (٢١٢) ﴾ [سورة الشعراء] .

فالقرآنُ كتاب الله تعالى ما تَنَزَّلت به الشياطين.فهم مخلوقات شريرة هدفها الإفساد والضلال. أما القرآن فكتابٌ سماوي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وهؤلاء الشياطين معزولون عن السمع فلم يسمعوا حرفاً واحداً من القرآن حال نزوله لئلا يصبح القرآنُ موضعَ شك وشُبهة . وهذا من تجليات الرحمة الإلهية . فقد حفظ اللهُ كتابَه من ألاعيب الخلق ، وصان شريعته الغرَّاء من الدنس والشبهات .

والكلامُ الذي يسترقه الشياطين يلقونه بسرعة في آذان الكهنة فيخلطونه بالأكاذيب . لذا فليس غريباً أن يَحدث شيء في الواقع أخبر عنه الكاهنُ مسبقاً . وقد أجاب النبي ﷺ عن هذه القضية التي أُشكلت على الصحابة ، فقال ﷺ : ((تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أُذن وَلِيِّه فيخلطون معها مائة كذبة))[131] .

ويستمر القرآنُ في توضيح السلوك الشيطاني الآثم من أجل أخذ الحيطة والحذر ، والانتباه إلى ألاعيبه . فالمنهجُ الشيطاني هو : ﴿ وَلَآمُرَنَّهم فَلَيُغَيِّرُنَّ خلقَ الله ﴾ [النِّساء : ١١٩] .

---

(١٣١) متفق عليه.البخاري (٥/ ٢١٧٣) برقم (٥٤٢٩)،ومسلم(٤/ ١٧٥٠) برقم (٢٢٢٨).

فالشيطان يطمح إلى أن يقوم الناس بتغيير خلق الله تعالى بموجب أمره ، ونزولاً عند رغبته ، وخضوعاً لوساوسه وأساليبه الملتوية . وقد وردت أقوال في تفسير ﴿ خلقَ الله ﴾. إنه تغيير دين الله عن طريق تحليل الحرام وتحريم الحلال ، وتغييرُ الخلق بالخصاء والوشم ، وتبديلُ أمر الله تعالى ، وعبادةُ الشمس والقمر والحجارة.

وقال الله تعالى : ﴿ إن الشيطان يَنزَغ بينهم ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

فالشيطانُ يبث الشقاق والوقيعة بين الناس ، ويُغري بعضَهم ببعض لكي يقعوا في المعاصي فيكسبوا الآثام ، وتنهار الروابط الاجتماعية بين الناس . فهذه التفرقة بين البشر وبث العداوة بينهم من أهم أهداف الشيطان الذي يفرح بالتفكك الأسري ، وانهيارِ الفرد والجماعة ، وتآكلِ الروابط الاجتماعية . وهذا التناحر من شأنه تفتيت أوصال المجتمع ، وإغراقه في الحقد والظلم والكراهية والشر ، وإبعاده عن منهج الخير والتسامح والقيم الفاضلة . وهذا هو مراد الشيطان .

وقال الله تعالى : ﴿ إنما النجوى من الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمنوا ﴾ [المجادِلة : ١٠] .

والشيطانُ يفرح حينما يبث الأحزانَ في النفوس . إذ إن فلسفة عمله تتجلى في نشر المنغِّصات في الحياة البشرية حتى تصبح الحياةُ جحيماً لا يُطاق . فيفقد عندئذ الفردُ القدرةَ على التحرك في مجتمعه بحرية وإبداع ، فيسقط الفردُ والجماعة معاً .

والنجوى (الكلام بين اثنين فأكثر سِرَّاً) هي من تزيين الشيطان ليبث الحزنَ في نفوس المؤمنين، ويُثبِّط عزيمتهم ، ويوقع بينهم الحسد والحقد ، ويقضي على قوة الرابطة الإيمانية ، ويُفتِّت الأواصرَ المجتمعية لكي ينهار المجتمع بكل ما فيه . وهكذا نرى أن الشيطان على أُهبة الاستعداد لإفساد الدِّين عبر التلاعب بعقول الناس ، ونقلهم من النور إلى الظلمات، وتدمير حياتهم ليصبحوا معاول هدم في مجتمعاتهم، وبذلك يخسرون الدنيا والآخرة معاً .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (٥/ ٢٣١٩) ومسلم (٤/ ١٧١٨) : عن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال النبي ﷺ : ((إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رَجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس أجْلَ أن يُحْزِنَه)) .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ١٦٧و١٦٨) : ((وهو نهي تحريم ، فيحرم على الجماعة المناجاة دون واحد منهم إلا أن يَأذن . ومذهب ابن عمر _ رضي الله عنه _ ومالك وأصحابنا _ يعني الشافعية _ وجماهير العلماء أن النهي عام في كل الأزمان ، وفي الحضر والسفر . وقال بعض العلماء : إنما المنهي عنه المناجاة في السَّفر دون الحضر لأن السفر مظنة

الخوف. وادعى بعضهم أن هذا الحديث منسوخ ، وأن كان هذا في أول الإسلام ، فلما فشا الإسلام وأمن الناس سقط النهي . وكان المنافقون يفعلون ذلك بحضرة المؤمنين ليحزنوهم ، أما إذا كانوا أربعة فتناجى اثنان دون اثنين فلا بأس بالإجماع ، واللهُ أعلم)) اهـ .

٥ـ السِّحر[132] :

السحرُ من الأمور الغيبية التي لها آثار واضحة في الواقع ، وهو ثابتٌ في الشريعة الإسلامية ، بحيث إن منكره كافر بسبب تكذيبه للقرآن الكريم في أكثر من موضع ،كقوله تعالى : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة :١٠٢]،وقوله تعالى : ﴿ وَجَاؤوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦].

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٤٦) : ((واختلف أهلُ العلم حول موضوع حقيقة السِّحرِ. فذهب أهلُ السُّنَّة إلى أن له حقيقةً ، وذهبَ عامةُ المعتزلة إلى أن لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام)) اهـ .

قال الله تعالى عن سَحَرة فرعون : ﴿ سَحروا أعينَ الناس ﴾[الأعراف : ١١٦] .

أي : خَيَّلوا لهم ، وجعلوا أعينَ الناس عاجزة عن الإدراك الحقيقي بسبب التمويه والتحايل كالشعوذة التي تَصرف الأبصارَ بخفة اليد . وهم يرمون من وراء ذلك إلى خداع الآخرين ، وإيقاعهم في مصيدة الخيال عبر تصويره بالواقعية . والساحرُ يمارس هذا العمل من أجل المال وتحقيق منافع ذاتية ، وتوجيه الناس إلى وُجهة معينة يريدها . فالسِّحرُ مشروع استثماري لزيادة الأرباح عبر التلاعب بأعصاب الناس وخداعهم . فهو عمليةُ نصب واحتيال من نوع آخر . والساحرُ لا مبدأ له ولا عقيدة ، فهو لاهثٌ وراء المال بكل جوارحه ، وغير معنيٍّ بالحلال والحرام. كما أن السَّحرة لا يَنتشرون إلا في مجتمعات الخرافة والجهل والفقر. ففي هذه المجتمعات المسحوقة تبرز مفاهيم التعلق بالوهم ، والأساطير . وتنتشر العداوة بين الناس بسبب الحقد وعدم تساوي الفرص ، والظلم الاجتماعي ، والشطط الطبقي ، فيتم اللجوء إلى السحر (الحرب الخفية) .

وقال الله تعالى : ﴿ ومِن شَر النَّفاثات في العُقَد ﴾ [الفَلَق : ٤] .

---

(١٣٢) ((قال الراغب وغيره : السِّحر يُطلَق على معانٍ . أحدها : ما لَطُفَ ودَقَّ . ومنه سَحَرْتُ الصبي خادعتُه واستملتُه . وكلُّ من استمال شيئاً فقد سَحَرَه . ومنه إطلاق الشعراء : سحر العيون ، لاستمالتها النفوس)) [فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٢٢)] .

أي : من شر السواحر[133] اللائي ينفثن في عُقد الخيط حين يرقين عليها .

وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٢٥) : ((وقد اخْتُلف في هذه العُقد . فقيل : هو على الحقيقة ، وأنه كما يعقد الساحر مَن يسحره . وأكثر من يفعله النساء ، تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عُقدة ، وتتكلم عليه بالسِّحر ، فيتأثر المسحور عند ذلك)) اهـ .

وتنبع خطورةُ السِّحر من كمونه واستتاره، فالشخص يكون أمام عدو خفي لا يدري وُجهته. وعلى الفرد التحصن بالكتاب والسُّنَّة في مواجهةِ هذا العدو الشرس. وحتى لو حافظَ على الأذكارِ الشَّرعية فهو ليس بمعصومٍ من الوقوعِ في السِّحر ، فالنبي محمد ﷺ عبدُ الله ورسوله المعصومُ أعبدُ المخلوقاتِ وأتقاها. ولن يبلغَ إنسيٌّ أو جِنِّيٌّ مبلغَه من العلم النافع والعمل الصالح ، ومع هذا سُحِرَ على أيدي اليهود، وكان اللهُ تعالى قادراً أن يُدافع عنه ، إلا أنه تعالى أراد تحذيرنا كي نأخذ حِذْرنا. فمشيئة اللهِ تعالى نافذة في كل شيء، وعلينا بالصَّبر ومقاومة السِّحر بالوسائل الشَّرعية .

فعن السَّيدة عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ قالت : سَحَرَ رسولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ من بني زُرَيْق يُقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسولُ الله ﷺ يُخَيَّلُ إليه أنه يفعل الشيءَ وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي لكنه دعا ودعا، ثم قال : ((يا عائشة أَشعرتِ أن الله أفتاني فيما استفتيتُه فيه ، أتاني رَجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رِجلي ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرَّجل، فقال: مطبوب . قال: مَن طَبَّه ؟ ، قال : لبيد بن الأعصم، قال : في أي شيء، قال : في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر، قال : وأين هو ؟، قال : في بئر ذروان)). فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال: ((يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين))قلت: يا رسول الله أفلا استخرجتَه . قال : ((قد عافاني الله فكرهتُ أن أثور على الناس فيه شراً)) فأمر بها فدُفنت[134] .

---

(١٣٣) " النَّفاثات السواحرُ " هو تفسير الحسن البصري . رواه الطبري في تفسيره (١٢/ ٧٥٠) بسند صحَّحه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٥) .

(١٣٤)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٥/ ٢١٧٤)برقم(٥٤٣٠)،ومسلم(٤/ ١٧١٩)برقم(٢١٨٩). [مطبوب : مسحور. والمشاطة : ما يخرج من الشَّعر إذا مُشِّطَ] . قلتُ : ((وفيه دليلٌ على أن ساحرَ أهل الذِّمة لا يُقتَل ، لأن النَّبي لم يقتله . أما إذا تَرَتَّب على سحره قتل نفس فإنه يُقتَل بها)) .

وبشرية رسول الله ﷺ مُعرَّضةٌ مثل باقي الناس إلى الإعياء والمرضِ والتعب النفسي والجسماني، وحتى إنها تَعَرَّضت للسِّحر ، لكن هذه العوامل لا سبيل لها إلى الدعوةِ والرِّسالة ، فالنَّبي معصومٌ في التبليغ عن اللهِ الحافظ للرسالة ، وهذا لا يتنافى مع تعرض الرَّسول ﷺ لما قد يتعرض له أي إنسان .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٢٧) : ((وقد قال بعضُ العلماء : لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعلَ الشيء ولم يكن فَعَلَه أن يَجزم بفعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت ، فلا يبقى على هذا للملحد حُجَّة)) .

***

سابعاً : القضاءُ والقَدَر

الإيمان بالقضاء والقَدَر من أسس الإيمان ، فإذا زال زال الإيمانُ من جذوره . وهذا الإيمان يعني الخضوع لله تعالى والاستسلام له دون التواكل أو الكسل .

فالقضاءُ والقَدَر لا يعنيان إجبار العبد على الطاعة أو المعصية ، بل يعنيان أن الله تعالى هو المتصرِّف في الكون ، يفعل ما يشاء دون ظلمٍ للعباد . فاللهُ تعالى خالقٌ للخير والشر ، والإنسانُ يختار الطريق الذي يريده بملء إرادته .

أما تعريف هذا الركن الأساسي من أركان الإيمان[135] فهو على النحو التالي : _

((القضاء : علم الله _ عز وجل _ للأشياء في الأزل على الصورة التي ستُوجَد عليها ، وستكون عليها في المستقبل . أما القَدَر فهو : إيجاد تلك الأشياء في علم الظهور على وجه تفصيلي يوافق القضاءَ السابق الأزلي المتعلق بها)) .

فالقضاءُ هو الأمر الكلي الإجمالي الذي أراده اللهُ منذ الأزل . أما القَدَر فهو جزئيات ذلك الأمر الكلي .

قال الله تعالى :﴿ وإذا قَضى أَمراً فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾ [البقرة : ١١٧] .

فاللهُ تعالى إذا قضى أمراً من الأمور التي يريدها ، فهذا الأمر يحدث فوراً دون توقف ، لأن تأثير القدرة الإلهية في الأشياء نافذ بلا موانع ، والإرادةُ الإلهية لا شيء يعجزها أو يُعيقها .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧٥٠) : أن رسول الله ﷺ قال : ((... ولكنَّ ربنا_ تبارك وتعالى اسمه _ إذا قضى أمراً سَبَّح حملةُ العرش ، ثم سَبَّح أهلُ السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا)). وقال أبو السعود في تفسيره (١/ ١٥١) : ((وأصل القضاء الإحكام ، أُطلق على الإرادة الإلهية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إياه... ﴿ فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾ كلاهما من الكَوْن التام ، أي أَحْدَثَ فَيَحْدُثُ ، وليس المراد به حقيقة الأمر والامتثال، وإنما هو تمثيل لسهولة تأتِّي المقدورات بحسب تعلق مشيئته _ تعالى _ ، وتصوير لسرعة حدوثها)) اهـ .

فعندما يريد اللهُ أمراً فذلك الأمر يقع مباشرة خضوعاً للإرادة الإلهية ، دون أن يقول اللهُ للشيء : ﴿كُن ﴾ ، لأن هذا الفعل إشارة لسرعة استجابة الأشياء لإرادة الله تعالى وعدم تأخرها .

---

(١٣٥) انظر هذا التعريف في كتاب/ سفينة النجاة في عقيدة الأئمة الهداة ، ص ١٤٧ .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لن يُصيبنا إلا ما كَتب اللهُ لنا ﴾ [التوبة : ٥١] .

فلن يصيب الإنسانَ إلا ما قضاه اللهُ تعالى وقدَّره في الأزل ، في اللوح المحفوظ أو القرآن. فهو _ سبحانه _ يبتلي عبادَه بالخير والشر ليعلم المؤمنَ من الكافر ، والصادق من الكاذب ، والصابر من الساخط . والمرءُ إذا علم أن ما قدَّره اللهُ تعالى واقعٌ لا محالة ولا مهرب منه ، وأن كل ما أصابه من سعادة أو شقاء تم بقضاء الله وقَدَره ، صغرتْ في عينيه المصائب والآلام ، وهانت الدنيا بكل ما تحتويه من أعداء وأحزان .

وعن ابن الديلمي قال : أتيتُ أُبي بن كعب فقلتُ له : وقع في نفسي شيء من القَدَر فحدِّثْني بشيء لعله أن يذهب من قلبي فقال:((إن الله لو عَذَّبَ أهلَ سماواته وأهلَ أرضه عَذَّبهم غير ظالم لهم،ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقتَ مثل أُحد في سبيل الله ما قبله الله منكَ حتى تؤمن بالقَدَر،وتعلم أن ما أصابكَ لم يكن ليخطئكَ،وأن ما أخطأكَ لم يكن ليصيبكَ،ولو مِتَّ على غير هذا لدخلتَ النار)). قال:ثم أتيتُ عبد الله بن مسعود فقال مثل قوله ثم أتيتُ حذيفة بن اليمان فقال مثل قوله،ثم أتيتُ زيد بن ثابت فَحَدَّثني عن النبيﷺمثل ذلك[136].

فاللهُ تعالى لو عذَّب الخلائقَ ما كان ظالماً لأحد منهم ، لأنه يعاملهم بعدله ، ولأنهم ما قدروا اللهَ حقَّ قَدْره ، ولأن عباداتهم قاصرة عن معادلة نعمه الجزيلة . كما أن رحمته _ تعالى _ أعظم من أعمالهم الضعيفة ، ولا أحد يدخل الجنةَ بعمله ولا حتى الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . فالكلُّ خاضع للرحمة الإلهية ينتظرها بفارغ الصبر .

والإيمانُ بالقَدَر ليس من الكماليات ، بل هو من أُسس الإيمان . فمنكرُ القَدَر كافرٌ لا ينفعه أي عمل صالح يقوم به . وكل ما يجري للخلائق من خيرٍ أو شر تم بقضاء الله وقَدَره ، ولم يحدث مصادفةً ، وإنما قدَّره اللهُ تعالى بشكل دقيق غير عشوائي ، ولا يُخطئ صاحبَه .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾[الأحزاب : ٣٨] . أمرُ الله تعالى قضاءٌ مقضي ، وحُكْمٌ مقطوع بوقوعه منذ الأزل ، لا تطرأ عليه التغييرات. وكلُّ أمر يُقدِّره الله تعالى فهو كائن لا محالة ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن . وعلمُ الله تعالى محيط بكل شيء منذ الأزل. فهو _ سبحانه _ يعلم من سيذهب إلى الجنة ، ومن سيذهب إلى النار، قبل أن يخلق الخلقَ ، لكنه لم يُجبِر الفردَ على الطاعة أو المعصية . إذ لو كان هناك إجبار لسقط معنى الثواب والعقاب.

---

(١٣٦) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٥) برقم (٧٢٧) .

فأنتَ قد ترى أعمى سائراً في الشارع وأمامه حُفرة ، فتعلم مسبقاً أنه سيسقط فيها ، لكنكَ لم تجبره على ذلك . ولنفترضْ أن هناك تلميذاً في المدرسة مهملٌ في دروسه ، فالمعلِّمُ يعرف مسبقاً أن ذلك التلميذ سيرسب آخر السنة ، لكنه لم يجبره على ذلك . فالعلمُ بالشيء لا يعني الإجبار بأية حال من الأحوال .

والانتقالات في حياة الإنسان ، وتقلُّبه بين السعادة والشقاء ، والفرح والحزن ، والنجاة والهلاك ، كلها تتم تحت مظلة القَدَر . وعلى الإنسان أن يختار الدرب الصحيح لكي يسير فيه ، مبتعداً عن العجز والكسل ، وأن يطمح للحفاظ على حياته بكل السُّبل المتاحة ، ولا يستسلم للهلاك بدعوى أنها من القَدَر . فالقضاءُ والقَدَر دافعان لمزيد من الجهد والعمل الدؤوب ، وليس التكاسل والاستسلام وفهم النصوص الشرعية بشكل خاطئ .

فاللهُ تعالى رزاقٌ . لكن العباد مأمورون بالسعي في طلب الرزق ، فالسماء لا تُمطر ذهباً ولا فضة . وقضاءُ الله مُحكَمٌ لا تبديل فيه ، ولكن على المرء أن يعمل ، فكلُّ إنسان مُيَسَّر لما خُلِق له ، فاللهُ تعالى يعلم مصيرَ العباد ، إلى السعادة أو الشقاء ، لكنه لم يُجبر العبد على الطاعة أو المعصية . واللهُ تعالى لا يُطاع رغماً عنه ، ولا يُعصَى رغماً عنه . فهو _ سبحانه _ مَالِكٌ لما مَلَّك العبادَ . خلق الخيرَ والشر ، والإنسانُ يكتسبهما بأفعاله . فإذا صدرت طاعةٌ من العبد فبفضل الله تعالى وله المِنَّة . وإن أتى العبدُ بمعصية فبعدل الله تعالى وله الْحُجَّة .

وفي حديث الطاعون أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : ((نَفِرُّ من قَدَر الله إلى قَدَر الله))[137] . لم يقصد أنه يفرُّ من قَدَر الله حقيقةً، لأن القضاء والقَدَر يُظلِّلان حياةَ الإنسان شاء أم أبى، ولا مهرب منهما. لكنَّ حركة الإنسان في الحياة هي بقَدَر الله تعالى ، فالذي فرَّ منه عمر _ رضي الله عنه _ أمرٌ خاف على نفسه منه ، والذي فرَّ إليه أمرٌ فيها النجاة _ حسب تقديره _ . وكلا الأمرين من قَدَر الله تعالى الذي نهى عن إلقاء النفس في التَّهلكة . كما أن الأسباب والمسبِّبات من قَدَر الله تعالى . وهذه القضيةُ بالغة الدقة ، وقد وقع الكثيرون في غبش تفكيرهم القاصر ، فخلطوا الحابلَ بالنابل . فالذي يهرب من وحش ضارٍ ، أو يحاول زيادة راتبه للخروج من الفقر إلى الغنى ، أو يسافر من أجل العمل ...إلخ . هو في حقيقة الأمر ينتقل من قَدَر الله إلى قَدَر الله في عالم السبب والمسبِّب.

---

(١٣٧) متفق عليه. البخاري(٥/ ٢١٦٣)برقم (٥٣٩٧)،ومسلم (٤/ ١٧٤٠) برقم (٢٢١٩).

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : ((ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار)) . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نَتَّكل ؟، فقال : ((اعملوا فَكُلٌّ مُيَسَّر))[138] .

فلا ينبغي تركُ العمل ، والاتكالُ على القَدَر السابق . فيجب الامتثال للشريعة الإلهية في أوامرها ونواهيها . وكلٌّ مُيَسَّر لما خُلق له . فمن كان من أهل الجنَّة يسَّره اللهُ لعمل الطاعات فينال السعادة ، ومن كان من أهل النار يسَّره اللهُ للمعاصي فينال التعاسة .

وقد كان أهلُ الجاهلية لا يفهمون ماهيةَ القضاء والقَدَر بالصورة الصحيحة ، وهذا أدخلهم في إشكاليات كثيرة انعكست سلباً على طريقة تفكيرهم ونمطِ حياتهم .

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

فقد علَّقوا شِركهم على مشيئة الله تعالى جهلاً منهم ، وجعلوا الشركَ إنما تم بمشيئته تعالى وإرادته وفق منظورهم الرامي إلى تخليص أنفسهم من أية مسؤولية على اختياراتهم . وهم بهذا يهدفون إلى تقديم أنفسهم كعباد مأمورين مُجبَرين على اعتناق العقائد الشِّركية ، وبالتالي لا يتحملون تبعات أقوالهم وأعمالهم .

فنظرتهم العَقَدية متمركزة حول فكرة جَبرية ، وأنهم واقعون تحت مشيئة الله تعالى التي أجبرتهم على سلوك الأفعال السيئة ـ وفق عقيدتهم الباطلة ـ . فهم يجهلون أن الخير والشر ، والإيمان والكفر ، يكتسبه الإنسان بمِلك إرادته ، وأن القَدَر لا يُعارِض تحملَ الإنسان لمسؤولياته كاملة غير منقوصة . فالله تعالى أحاط بكل شيء علماً ، لكنه لم يجبر الإنسان على سلوك طريق محدد . فالإجبارُ يتعارض كلياً مع عقيدة الثواب والعقاب في الآخرة ، ومن ثم الجنة والنار .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رَجلاً يقول : الشر ليس بقَدَر ، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ((بيننا وبين أهل القَدَر : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ ... . قال ابن عباس: والعجز والكَيْس من القَدَر))[139] .

---

(١٣٨)متفق عليه واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٩٠)برقم(٤٦٦١).ومسلم(٤/ ٢٠٣٩)برقم(٢٦٤٧).

(١٣٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٧) برقم (٣٢٣٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وأهلُ القَدَر هم نُفاة القَدَر ، فهم يُنكرونه . والآية القرآنية توضِّح إيمان المشركين بالقَدَر ، ولكنْ من منظور مغلوط . فهم يعتقدون أن القَدَر سالبٌ لحريتهم ، وأن شِركهم خاضعٌ لمشيئة الله تعالى دون أية علاقة لهم . وهذا يتنافى مع الإيمان . صحيحٌ أن كل شيء خاضع للمشيئة الإلهية، لكنَّ الله تعالى أعطى العبدَ القدرةَ على اختيار طريقه، إما الإيمان أو الكفر. والعبدُ يتحمل مسؤوليةَ اختياره الحر . وقال الحافظ في الفتح(١٣/ ٤٤٩): ((وأما قوله في الأنعام : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ الآية . فقد تمسَّك بها المعتزلة ، وقالوا إن فيها رداً على أهل السُّنة . والجواب أن أهل السُّنة تمسكوا بأصل قامت عليه البراهين وهو أن الله خالق كل مخلوق، ويستحيل أن يخلق المخلوق شيئاً، والإرادةُ شرط في الخلق ويستحيل ثبوت المشروط بدون شرطه . فلما عاند المشركون المعقول وكذبوا المنقول الذي جاءتهم به الرسل وأُلزموا الحجَّة بذلك، تمسكوا بالمشيئة والقَدَر السابق، وهي حُجَّة مردودة لأن القَدَر لا تبطل به الشريعة ، وجريان الأحكام على العباد بأكسابهم)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ﷺ قال : ((واعلم أن الأُمَّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفعت الأقلامُ ، وجَفَّت الصُّحف))[140] .

إن الناس لا يَملكون من أمرهم شيئاً ، فهُم مخلوقات عاجزة لم تحدِّد موعدَ الولادة ، ولا تَقدر على تحديد موعد الوفاة . ومَن كان هذا شأنه فهو غارق في عجزه . ولو اجتمعت الأمة على نفعِ أحدٍ ما لم يَقدروا على فعل ذلك إلا إذا كان مكتوباً عند الله تعالى. فما أراده اللهُ كان ، وما لم يرده لم يكن . والناس يتحركون في عالَم الأسباب والمسبِّبات . لكنَّ المسيطر على السبب والمسبِّب هو اللهُ تعالى ، ولا يَقع في مُلكه إلا ما شاء . ولو اجتمعت الأمة على جلب ضر لأحدٍ لم يَقدروا على فعل ذلك إلا إذا كان مكتوباً عند الله تعالى . فالنافعُ والضار هو الله وَحْدَه .

أمَّا قول النبي ﷺ : ((رُفعت الأقلامُ ، وجَفَّت الصُّحف)) ، فهو تأكيدٌ باهر على أن ما تَمَّ قد تَمَّ ، ولا تبديل لما سبق ، ولا يكون خِلاف ذلك ، وأن الأمر قد كَمُل بلا زيادة ولا نقصان ، وانتهى الموضوع ، وقُضِيَ الأمرُ .

---

(١٤٠) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣) برقم (٢٦٦٩) ، والترمذي في سُننه (٤/ ٦٦٧) برقم (٢٥١٦) ، وقال : ((حسن صحيح)) .

الفصل الثالث

حقيقة القرآن

تمهيد

إن القرآن الكريم هو كتاب الله _ عز وجل _ ، وهو كلامُه المقدَّس الْمُنْزَل على محمد ﷺ بواسطة جبريل _ عليه السلام _ المتعبَّد بتلاوته المعجِز الذي لا يمكن الإتيان بمثله المنقول بالتواتر ، أي منقول من طبقة إلى طبقة لا يمكن اجتماعهم على الكذب ، المحفوظ بحفظ الله فلا يمكن تغيير حرف منه ، والمبدوء بسورة الفاتحة ، والمختوم بسورة الناس .

وهذا الخصائص العظيمة التي لم تجتمع لغيره من الكتب السماوية أو الأرضية تجعله فوق مستوى النقد والطعن والتشكيك . وهذا ليس من باب الاستعلاء بالباطل أو التعصب الأعمى. بل إبراز لعظمة القرآن الكريم الذي هيَّأ اللهُ تعالى له ظروفَ الحفظ والانتشار والبقاء عبر الأزمنة المتعاقبة رغم كثرة الأعداء .

وقد قال النبي ﷺ : ((إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبلُ الله والنور المبين والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسَّك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يَزيغ فَيُسْتَعْتَبُ ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّم ، ولا تنقضي عجائبه)) [رواه الحاكم وصحَّحه] .

إي إن القرآن كاملٌ لا نقص فيه ، ومعصومٌ لا خطأ فيه . يرشد الحائرين إلى اليقين ، ويهدي الضائعين إلى بر الأمان ، ولا تنقضي عجائبه .

ولا بد من التأدب في حضرة القرآن الكريم ، والإنصات إليه بتمعن في حال سماعه ، وقراءته بخشوع وتدبر . وقد جاء مُصدِّقاً للأنبياء السابقين والكتب السماوية السابقة . أعلى منارَ الحق عبر تقديم الْحُجَج الدامغة ، وفضح الباطلَ وأهلَه عبر دحض عقائدهم الواهية .

وقد عجز فصحاءُ العرب وفحولُ الشعراء أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ منه مع أنه نزل بلغتهم . وهذا التحدي مستمر حتى القيامة بلا انقطاع . مما يدل على رفعة القرآن وعدم غياب شمسه مع مرور السنين .

ولم يجيء القرآنُ الكريم ليوضع على الرفوف . بل جاء ليصير واقعاً عملياً عبر تطبيق أحكامه كاملةً بدون انتقاص أو انتقاء . فاللهُ قد خلق العبادَ ، ويعلم ما يصلحهم وما يُفسدهم . فينبغي التمسكُ به وعدم هجره . فمن تَركه قُصم ، ومن تَمسَّك به هُدِيَ إلى سعادة الدارين .

قال اللهُ _ عز وجل _ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحِجْر : ٩] .

١ـ تلاوته :

تلاوة القرآن الكريم تُورِث في النفس المؤمنة الإيمانَ العميق ، والطمأنينةَ المفعمة بالتأمل . فهي تنقذ الإنسانَ من دوائر الشك والقلق والحزن لتزرعه في عالم الإيمان والمحبة ، فيتحول الفردُ إلى عنصر فاعل في محيطه ، فيصير المجتمعُ خليةَ نحل دؤوب ، وتدور عجلةُ التنمية والإبداع حقيقةً لا شِعاراً مُفرَغاً من معناه . والمؤمنون إذا سمعوا كلامَ الله تعالى خشعوا ، وازدادوا إيماناً ، وارتفع مستوى يقينهم ، وسَمَت أخلاقهم . وقد قال الله تعالى عنهم : ﴿ وإذا تُلِيت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً ﴾ [الأنفال : ٢][1] . أي : زادتهم تصديقاً ويقيناً وخشيةً لله تعالى ، فانشرحت صدورُهم ، وصغرت مصائبُ الدنيا في عيونهم ، وارتفعت درجاتهم الإيمانية ، وازدادوا تَعَلُّقاً بالآخرة . وهذه الآية ميزان دقيق ، وعلى المرء أن يَعرض نفسَه عليها ، فإذا ازداد إيماناً حينما يسمع آياتِ الله فهو على خير عظيم ، لأن قلبه مفعم بالإيمان، أمَّا إذا لم تُؤثِّر فيه آياتُ الله ففي قلبه مرض ، وعليه أن يراجع أمره لكي يُصَفِّيَ قلبَه من الشوائب .

وعلى الجهة المقابلة نجد أن المشركين حينما يسمعون الآياتِ الإلهية فإن مزاجَهم يتعكر ، ويظهر عليهم الغضب والعبوس والقلق وعدم الراحة ، لأن قلوبهم سوداء مفعمة بالظلمات تتضايق من نور الإيمان الباهر . وكما قال الشاعر :

قد تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمس مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفمُ طَعْمَ الماء مِن سَقَمِ

وقال الله تعالى فاضحاً الذين كفروا : ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بَيِّناتٍ تَعرف في وجوه الذين كفروا المنكرَ ﴾ [الحج: ٧٢] . هؤلاء غارقون في إنكار الحق ، ويحاولون جاهدين طمس معالم النور ، لكن الشمس لا يمكن تغطيتها بغربال. وقد ورثوا عن آباءهم الخرافاتِ ، وهم متمسكون بها على غير بصيرة ، وينافحون عنها بكل قوة . وهُم يعتقدون أن التسليم للحق الإلهي الذي جاء به النبيُّ ﷺ يَنسف تاريخهم ، ويلغي وجودهم ، لذلك يقاومون نورَ الحقيقة بشتى السُّبل .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٠) : ((الإنكار لفرط نكيرهم للحق ، وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً ، وهذا منتهى الجهالة)) اهـ .

---

(١) هذه الآية دليل على أن الإيمان يزداد وينقص . يزداد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي. ((كما هو مذهب أكثر السلف والخلَف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك)) [تفسير ابن كثير (٢/ ٥٣٠)] .

إن المشركين حين يسمعون الآياتِ الإلهية الباهرة ذات الْحُجَج الساطعة التي لا يمكن قهرها ، فإن علامات الاضطراب والكآبة وعدم الراحة تظهر على وجوههم بسبب كرههم لظهور الحق ، وغيظهم الناتج عن جهلهم وعدم قدرتهم على مقارعة الْحُجَّة بالحجَّة . وتلاوةُ القرآن أمرٌ عظيم ينبغي التعامل معه باحترام وأدب ، لذلك كانت الاستعاذة بالغة الأهمية عند التلاوة ، لكي يستحضر الفردُ معاني الالتجاء إلى الله تعالى القادر على حماية العبد من الشيطان .

قال الله تعالى : ﴿ فإذا قَرأتَ القرآنَ فاستعِذْ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : ٩٨] .

مِنَ السُّنة أن يستعيذَ المسلمُ باللهِ من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن . والخطابُ شاملٌ للنبي ﷺ وأُمَّته مع أن المخاطَب هو النبي ﷺ . فالنبيُّ ﷺ هو المبلِّغ عن الخالق تعالى ، وهو الذي يقود مسيرةَ الدعوة . ((وإنما الفائدة في مواجهة النبي ﷺ بالخطاب أنه هو الداعي إلى الله تعالى ، والْمُبَيِّن عنه معنى ما أراد ، فَقَدَّمَ اسْمَه في الخطاب ليكون سلوكُ الأمر في شرائع الدِّين على حسب ما ينهجه ويُبيِّنه لهم))[2] .

ولا تخفى ضرورة الإنصات لدى قراءة القرآن، وتدبر معانيه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه. وهذا لا يتأتى إلا بالإنصات العميق ، وتشرُّب مدلول الآيات القرآنية ، والتفكر في عظمة الخالق تعالى وكلامِه المجيد ، وكيفيةِ تطبيق الفكر القرآني على أرض الواقع لصلاح الفرد والجماعة .

قال الله تعالى:﴿وإذا قُرِئَ القرآنُ فاستمعوا له وأنصِتوا لعلكم تُرحَمون﴾[الأعراف : ٢٠٤][3].

ففي الآية بيانٌ لضرورة الاستماع للقرآن بعمق وتفكُّر تعظيماً له ، ومن أجل فهم آياته . فلا يمكن استيعاب الآيات القرآنية ، واستنباط الأحكام الشرعية ، وربطها بالواقع العملي ، إلا من خلال التعمق في فهم الآيات عبر الاستماع شديد التركيز . كما أن فهم النصوص القرآنية هو الخطوة الأولى لتطبيقها واقعاً عملياً . فالقرآنُ لم يجيء ليُقرأ في المساجد أو في الصلوات فحسب ، بل أيضاً ليصبح مُطبَّقاً في حياة الفرد والجماعة .

وقد كان الناسُ يقرأون القرآنَ مع النبي ﷺ فيتضايق كثيراً ، لأن ذلك يُؤثِّر على التركيز ،

---

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٠٤) .

(٣) في الآية تفريقٌ لغوي بين الاستماع والإنصات . ((ولا شك أن الاستماع أخص من الإنصات ، لأن الاستماع الإصغاء ، والإنصات السكوت ، ولا يلزم من السكوت الإصغاء)) [فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٨٣)] .

وتدبر معاني الآيات . فعلى المستمع للقرآن أن يُركِّز في الاستماع ، ويبتعد كلياً عن القراءة ، وإنما يحصر تفكيره في المعاني المستقاة من كلام الله العظيم .

فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ : أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جَهَرَ فيها بالقراءة ، فقال : ((هل قرأ معي أحد منكم آنفاً ؟))، قال رَجل : نعم يا رسول الله، قال : ((إني أقول : ما لي أُنازَع القرآن)). قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ من القراءة في الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ [4].

فينبغي تجذير الفهم السليم للمعنى القرآني عبر الاستماع ، فيكون جوفُ المسلم ماصَّاً للأفكار كالإسفنج الذي يمتص الماءَ. وهذا لا يتحقق إلا إذا فُتح البصرُ والبصيرةُ أمام قداسة الكلام الإلهي. وكل كلام يدل على قائله ، فالكلامُ صفة المتكلِّم . وكلما تعمقنا في فهم القرآن الكريم أدركنا عَظَمةَ القائل _ سبحانه _ ، وهذا يزيد الخشوع والتأمل والتفكر .

فعلى المرء الذي يتعامل مع القرآن الكريم أن لا يقرأ القرآنَ بعيون ميتة إذا كان قارئاً . وعليه كذلك في حالة الاستماع أن يجاهد نفسَه للوصول إلى أعلى درجات التركيز والاستيعاب بقلب حاضر . وقد تحدَّث القرآنُ عن استماع الجن للقرآن لِما رأوا فيه من قداسة وجلال . مما يشير _ بلا شك _ إلى أن القرآن يُؤثِّر في كل المخلوقات على اختلاف جنسها . وإن لم يشعر المخلوقُ بتأثير القرآن ، فالمشكلة في المخلوق لا القرآن .

فقد قال الله تعالى : ﴿ وإذْ صَرَفْنا إليكَ نَفراً من الجن يستمعون القرآنَ فَلَمَّا حَضَروه قالوا أنصِتوا ﴾[الأحقاف : ٢٩] . إن الجن قد استمَعوا إلى القرآن، وأُصيبوا بالدهشة لجلاله وإعجازه، وآمنوا به بعد أن تدبَّروه. وفي هذه الآية توبيخٌ شديد لمشركي قُريش المتمسِّكين بالكفر والنبيُّ ﷺ بين ظهرانيهم ، في حين أن الجن يستمعون القرآنَ بأدب وخشوع ويؤمنون به .

وعن سبب نزول الآية ، روى الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٥) وصحَّحه ووافقه الذهبي : عن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ ببطن نخلة ، فلمَّا سمعوه قالوا : أنصِتوا ، قالوا : صَه . وكانوا تسعة ، أحدهم زوبعة)) .

---

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٠١) برقم (٧٩٩٤) ، وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٧٢) : ((وصحَّحه أبو حاتم الرازي)) ، والترمذي (٢/ ١١٨) برقم (٣١٢) وحسَّنه ، وابن حبان في صحيحه (٥/ ١٥٧) برقم (١٨٤٩) .

فهؤلاء الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآنَ في منطقة " بطن نخلة "، فلما سمعوه انبهروا بسبب جلال الكلام الإلهي وعُلُوِّ شأنه، فأمروا بعضهم بالإنصات والسكوت لكي يزدادوا استيعاباً للقرآن ، ومعرفةً بأحكامه . وقد ذكر الراوي عددَهم واسمَ أحدهم .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ _ اسم مكان _ ، وقد حِيل بين الشياطين وبين خَبر السماء ، وأُرسلت عليهم الشُّهب، فَرَجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا : ما لكم ؟، فقالوا : حِيل بيننا وبين خَبر السماء ، وأُرسلت علينا الشُّهب، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارقَ الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجَّهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة ، عامدين إلى سوق عكاظ وهو يُصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلمَّا سمعوا القرآنَ استمَعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء))[5] .

إن الشياطين قد حُجبوا عن خبر السماء ، فلم يعودوا يطَّلعون عليه ، أي إنهم لم يعودوا يعرفون ماذا يحدث في الملأ الأعلى ، وأُرسلت عليهم الشُّهب الحارقة تطاردهم في كل مكان . مما جعلهم يعتقدون أن هناك حدثاً عظيماً قد حصل بسبب هذا التغير المفاجئ بالنسبة لهم . فبدأوا رحلةَ البحث عن سبب حجبهم عن خبر السماء ، وحينما سمعوا النبيَّ ﷺ يقرأ القرآنَ العظيم استمَعوا له بتدبر وانبهار لأنه كلامٌ جديد على مسامعهم لا يُشبِه كلامَ العرب أهلِ الفصاحة والبيان ، فكلامُ الله أعلى وأجل ، فأدركوا حينئذ سبب الحيلولة بينهم وبين خبر السماء ، فعادوا إلى قومهم مؤمنين يُبشِّرونهم بهذا الكلام الإلهي المقدَّس . فقد أدركوا أن هذا الكلام العظيم لا

---

(٥) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٦٧) برقم (٧٣٩) ، ومسلم (١/ ٣٣١) برقم (٤٤٩) . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٧٥) : ((ولكن لا يلزم من عدم ذكر اجتماعه بهم حين استمَعوا أن لا يكون اجتمع بهم بعد ذلك .. وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن ، وأنهما لمسمًّى واحد ، وإنما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان ، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان . وفيه أن الصلاة في الجماعة شُرعت قبل الهجرة ، وفيه مشروعيتها في السَّفر ، والجهر بالقراءة في صلاة الصبح ، وأن الاعتبار بما قضى اللهُ للعبد من حسن الخاتمة لا بما يظهر منه من الشر ولو بلغ ما بلغ ، لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها،ومع ذلك فغلب عليهم ما قضى لهم من السعادة بحسن الخاتمة)).

يمكن أن يكون من تأليف بشر لأن اللغة القرآنية لا يرقى لمستواها بلاغةُ البشر وفصاحتهم ، وبالطبع فإن كلام الله الخالق يختلف عن كلام الإنسان المخلوق .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٣٢) : عن ابن مسعود _ رضي الله عنه_ قال : .. كُنَّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقُلنا : استطير _ أي طارت به الجن _ أو اغتيل ، قال : فبِتنا بِشر ليلة بات بها قوم ، فلمَّا أصبحنا إذا هو جاء من قبل حِراء ، فقلنا : يا رسول الله فقدناكَ فطلبناكَ فلم نجدكَ فبِتنا بِشر ليلة بات بها قوم، فقال:((أتاني داعي الجن فذهبتُ معه فقرأتُ عليهم القرآن)) .

والنبيُّ ﷺ أُرسِل إلى الإنس والجن ، فليس غريباً أن يقرأ القرآنَ على الجن ، فهم مُكَلَّفون من الناحية الشرعية ، وفيهم المؤمن والكافر تماماً كالإنس . كما أن هناك إشارة دقيقة إلى الجهد النبوي الجليل في الدعوة وعدمِ التقصير في ذلك ، فهو _ ﷺ _ لم يُعرِض عن داعي الجن حينما أتاه ، بل ذهب معه بلا موكب أو حراس شخصيين ليقرأ القرآنَ ، ويُبلِّغ الرسالةَ السماوية على أكمل وجه . والنبيُّ ﷺ مُنَزَّه عن التقصير، إذ إن وظيفته الأساسية هي الدعوة إلى الله تعالى ، فهو سَيِّد الدُّعاة ، والقدوة العليا في كل زمان ومكان .

٢_ حقيقته وتصديقه للكتب السابقة :

قال الله تعالى : ﴿ أفلا يتدبَّرون القرآنَ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [النساء : ٨٢] .القرآنُ كلام الله، لا يمكن الوقوف على عظمته إلا بفهم معانيه والغوص في دلالات آياته. ولو كان القرآنُ من تأليف بَشر كما يزعم الكافرون لوجدوا فيه تناقضاتٍ شديدة ، وخليطاً من الحق والباطل ، وأخباراً متضاربة . ولكنَّ القرآن _ لأنه من عند الله _ مُنَزَّهٌ عن الخطأ والتناقض والكذب. كما أن كلام البشر إذا طال سيضعف مستواه اللغوي والفكري ، أما القرآنُ فليس فيه إلا البلاغة والبيان سواءٌ كانت السورة طويلة أم قصيرة . وكلُّ آياتِ القرآن يُصَدِّق بعضُها بعضاً ولا يَهدم بعضُها بعضاً . كما أن القرآن خالٍ من الاختلاف والتعارض .

((ولا يدخل في هذا اختلاف مقادير الآيات والسُّوَر ، لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوت وعدم المطابقة للواقع ، وهذا شأن كلام البشر ، لا سيما إذا طال وتعرض قائله للإخبار بالغيب فإنه لا يوجد منه صحيحاً مطابقاً للواقع إلا القليل النادر))[6] .

(٦) فتح القدير للشوكاني (١/ ٧٤١) .

فالقرآنُ الكريم تختلف سُوره وآياته في مقدارها والمواضيعِ التي تتحدث عنها ، والأحكامِ الواردة ، وهذا كلُّه لا علاقة له بالتناقض . إنما هو دليل إعجاز القرآن وتلاؤمه مع كل زمان ومكان رغم ما فيهما من متغيرات وأحوالٍ مستجدَّة واختلافِ طبائع الناس وأجناسهم وبيئاتهم . والقرآنُ الذي قَدَّم الحلولَ النافعة للبشرية لأكثر من أربعة عشر قرناً ، قادرٌ أن يُقدِّم الحلولَ حتى يوم القيامة . فهو الكتابُ الإلهي الكامل المعصوم المحفوظ الخالي من التناقض والأخطاء . وإذا اعتمده المسلمون دستوراً حياتياً واقعياً فإن حياتهم ستتغير للأفضل كما تغيرت حياة أسلافهم ، ولن تَصلح هذه الأُمَّةُ إلا بما صَلح به أوَّلها .

وقد قال النبي ﷺ : ((... وإنما نزل كتابُ الله يُصَدِّق بعضُه بعضاً ، فلا تُكذِّبوا بعضَه ببعض، فما علمتُم منه فقولوا ، وما جهلتُم فكلوه إلى عالمه))[7].

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٣) : أن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنه _ قال : هَجَّرْتُ _ أي بَكَّرْتُ_ إلى رسول الله ﷺ يوماً. قال: فسمع أصوات رَجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرَف في وجهه الغضب،فقال:((إنما هَلَكَ مَن كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)).

وهذا الاختلاف المحذور هو الاختلاف في الأصول التي لا تَقبل النقاش ، ولا تقبل الاجتهادَ بسبب كَوْنها ثوابت غير مطروحة للحوار ، ويشمل الحظرُ الاختلاف المؤدي إلى الفتن وتشكيكِ الناس في دينهم ، وتأجيجِ العداوات بينهم. أما الاختلاف في تفسير بعض الآيات ظَنِّية الدلالة فهذا لا يدخل في باب الاختلاف في الكتاب . فالأفهامُ تتفاوت ولا بد أن تختلف ، ولكن الاختلاف يكون في استنتاج الفروع من الأصول ، ولا يكون الاختلاف على الأصول .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢١٨) : ((وأما الاختلاف في استنباط فروع الدِّين منه _ أي من القرآن _ ، ومناظرة أهل العلم في ذلك على سبيل الفائدة ، وإظهار الحق واختلافهم في ذلك فليس منهياً عنه ، بل هو مأمور به وفضيلة ظاهرة . وقد أجمع المسلمون على هذا من عهد الصحابة إلى الآن ، والله أعلم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لو أَنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً مُتصدِّعاً من خشية الله ﴾ [الحشر : ٢١] . القرآنُ العظيم لو أُنزِل على جبل _ رغم قسوته وضخامة حجمه _ لاهتزَّ وتصدَّع وصار ذليلاً خاضعاً لكلام الله تعالى لما فيه من الحكمِ البليغة ، والفصاحةِ العظمى ،

---

(٧) رواه أحمد في مسنده مرفوعاً (٢/ ١٨٥) ، وحسَّنه العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٢٨٥) .

والبيانِ الجليل ، والبشارةِ الكبرى ، والإنذارِ المخيف ، وخوفاً من عدم القيام بحق القرآن المتمثل في فهمه وتعظيمه وتطبيقه. فعلى المرء أن يستوعب هذا المعنى العظيم من أجل تعميق كتاب الله في قلبه فهماً وحفظاً، ويسعى _ قدر المستطاع _ إلى جعل الآيات القرآنية واقعاً عملياً لا حِبراً على الورق فحسب ، فالقرآن لم يجيء ليوضع على الرفوف .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥١) : ((يقول _ جَلَّ ثناؤه _ : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل وهو حجر لرأيته يا محمد خاشعاً ، يقول : متذلِّلاً متصدِّعاً من خشية الله على قساوته حذراً من أن لا يؤديَ حَقَّ الله المفترَض عليه في تعظيم القرآن ، وقد أُنزل على ابن آدم ، وهو بحقه مستخف ، وعنه عما فيه من العِبر والذِّكر مُعرِض ، كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْر ﴾[القمر : ١٧] .

القرآنُ تم تيسيره للحفظ والفهم والتطبيق الواقعي دون تعقيدات . فهو مقروءٌ في الكتب ، ومحفوظٌ في الصدور ، ومنتشرٌ بسهولة على الألسنة . وفي الحديث القُدسي الذي رواه مسلم(٤/٢١٩٧) أن الله تعالى قال للنبي ﷺ:((وأَنزلتُ عليكَ كتاباً لا يغسله الماءُ تقرأه نائماً ويقظان)).

والمعنى : إن القرآن الكريم محفوظٌ في السطور والصدور على مر الأزمنة، لا يمكن إزالته أو استئصاله أو التلاعب به ، وقراءته مُيَسَّرةٌ وسهلة في كل الأوضاع .

وقال الله تعالى : ﴿ نزَّل عَلَيْكَ الكتابَ بالحق مُصدِّقاً لما بين يَدَيْه وأَنزل التوراةَ والإنجيلَ ﴾ [آل عمران : ٣] . اللهُ تعالى نزَّل القرآنَ الكريم على النبي ﷺ بالحق والعدل والصدق وبالحجج الساطعة مُصَدِّقاً للكتب السابقة التي أنزلها اللهُ تعالى كالتوراة والإنجيل . وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أن مصدر الكتب السماوية واحدٌ ، وأن الأنبياء كلهم يدٌ واحدة جاؤوا بالتوحيد بأمر الله تعالى الذي أرسلهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور . كما أن هناك إشارة بليغة إلى صدق الرسالة المحمَّدية الإسلامية . فلو كان القرآنُ من تأليف إنسان يسعى لنيل مصالح دنيوية لما ذَكر التوراةَ والإنجيل خوفاً من تفرق أتباعه عنه . لكن النبي ﷺ الأمين يُبَلِّغ كلامَ الله تعالى كما أُنزِل دون زيادة أو نقصان ، فقد جاء مُصَدِّقاً لموسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، ولم يطمسهما أو يتجاهل ذكرهما أو يحاول رفع مكانته عبر الانتقاص منهما، كما يفعل الكثير من المؤلِّفين الذين يطمحون إلى رفع منازلهم عبر التهجم على منافِسيهم . مما يشير إلى أن القرآن ليس من كلام المؤلِّفين المتنافِسين على حطام الدنيا ، كما يشير إلى إخلاص النبي ﷺ في تبليغ الكلام الإلهي حرفياً .

٣_ محاجحة المنكِرين الجاحدين :

إن الله تعالى قد أقام الْحُجَّةَ على خلقه بإنزاله الكتب السماوية على رُسُله الكرام _ عليهم الصلاة والسلام _ . والقرآنُ الكريم هو الكتاب الخاتَم الناسخ لما قبله ، وقد وردت فيه آياتٌ كثيرة في محاجحة المنكِرين ، والرد عليهم ، ودحضِ باطلهم ، وتفنيدِ شبهاتهم . وهذه الآيات تخاطب العقلَ بما يَمكن إدراكه . فاللغةُ القرآنية في الرد على المخالِفين لغةٌ راقية تُقَدِّم الدلائلَ الواضحات، وليست لغةً فلسفية محصورة في عالم الأخيلة والافتراضات اللامنطقية ، كما أن المنهج القرآني في دحض شبهات المخالِفين ليس سِباباً أو صراخاً أو جعجعةً بلا طحن . إنه منهجٌ إلهي متكاملٌ يملك الْحُجَّةَ الناصعة ، ومشتملٌ على معرفة النفس البشرية وما يصلحها وما يفسدها . فاللهُ تعالى مُنْزِلُ القرآن هو خالق الإنسان وأعلم به منه ، ويعلم _ سبحانه وتعالى _ طريقةَ تفكير البشر ، وطبيعةَ شهواتهم وشبهاتهم ووساوسهم .

وقد أورد القرآنُ شبهاتِ الخصوم وفَنَّدها ، وقَدَّم الدلائلَ الباهرة على وحدانية الخالق تعالى وصدقِ الرسالة ، وكل هذا بلغة قرآنية سامية تعلو ولا يُعلَى عليها .

وقد تحدى اللهُ تعالى المرتابين في القرآن والشَّاكين فيه أن يأتوا بسورة من مثله ، لكنهم عجزوا عن ذلك . وهذا التحدي مستمرٌ حتى يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ وإن كُنتم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شُهداءكم من دون الله إن كُنتم صادقين ﴾[البقرة : ٢٣] .

وهذا التحدي للمشركين الطاعنين في القرآن الكريم أن يأتوا بسورة من مثله في حسن النظم ، والفصاحةِ اللغوية ، والبيانِ الباهر ، ويستعينوا على هذا الأمر بأعوانهم وفصحائهم وآلهتهم من دون الله تعالى .

ولو كان المشركون الطاعنون في القرآن صادقين في دعواهم لقدَّموا براهينهم التي تَدحض حُجَّةَ القرآن الباهرة . وبما أنهم لم يَفعلوا ولن يَفعلوا ، فهذا مؤشر على عجزهم ، وانكسارهم أمام البرهان القرآني الساطع ، وما عليهم إلا التسليم بأن مصدر القرآن هو السماء لو كانوا يريدون الحق بلا أهواء شخصية .

ولا يخفى أن العرب هُم أهل الفصاحة والبيان والتبحر في اللغة العربية وأسرارها ، فإن عجزوا عن تحدي القرآن، فغيرهم _ بالتأكيد_ سيكونون أكثر عجزاً . فإذا فشل القويُّ في إتمام عملٍ ما ، فلن ينجح فيه الضعيف .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٠) : ((وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابَيْن في شك _ وهو الرَّيب _، مما نَزَّلنا على عبدنا محمد ﷺ من النور والبرهان وآيات الفرقان : أنه من عندي ، وأني الذي أنزلته إليه ، فلم تؤمنوا به ، ولم تصدِّقوه فيما يقول ، فأتوا بحجَّة تدفع حُجَّته ، لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة : أن يأتيَ ببرهان يعجز عن أن يأتيَ بمثله جميع الخلق ، ومن حجة محمد ﷺ على صدقه ، وبرهانه على حقيقة نبوته وأن ما جاء به من عندي ، عجز جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة من مثله ، وإذا عجزتم عن ذلك وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذرابة _ حدة اللسان _ فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز)) اهـ .

قال الله تعالى : ﴿ ويقول الإنسانُ أإذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخرَج حَيَّاً (٦٦) أولا يذكر الإنسانُ أنَّا خلقناه من قبل ولم يَكُ شيئاً (٦٧) ﴾ [سورة مريم] .

ويُقدِّم القرآنُ الْحُجَّةَ الساطعة على حقيقة البعث. فالإنسان الذي يتساءل مستنكِراً ومستبعِداً أن يُبعَث بعد موته ، جاءته الْحُجَّةُ الباهرة بأن الذي أوجد الإنسانَ من العَدَم قادرٌ على إعادته .

((قال بعض العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حُجَّة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها ، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً))[8] .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٣) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((قال اللهُ : كَذَّبَني ابنُ آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أولُ الخلق بأهون عليَّ من إعادته ...)) .

فالبعثُ ثابتٌ نقلاً وعقلاً . وقد خاطب اللهُ تعالى الناسَ بما يَعقلون، فذكر _ سبحانه _ أن البعث أهون وأيسر من بدء الخلق _ وفق التفكير الإنساني _ . أمَّا اللهُ تعالى فكل شيء عنده هَيِّنٌ فلا يعجزه شيء ، ولا تتفوق على قدرته _ سبحانه _ أية قدرة . فالبداءةُ والبعثُ أمران خاضعان لقضاء الله تعالى ومشيئته . ﴿ وإذا قَضى أَمراً فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أُنزِل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنظَرون ﴾ [الأنعام : ٨] . يخبر اللهُ تعالى عن عناد المشركين وجهلهم ، فقد اقترحوا _ بكل جحود _ إنزال مَلَك على النبي ﷺ ليكون معه نذيراً ومُسانِداً . وهذا مما يتذرع به المشركون ، حيث يخترعون

---

(٨) الفخر الرازي (٢١/ ٢٤١) نقلاً عن صفوة التفاسير للصابوني (٨/ ٤٨) .

الأشياءَ من بنات أفكارهم بسبب عجزهم عن مقارعة الْحُجَّة بالْحُجَّة . فينتهجون هذا الأسلوب العقيم الذي يُنبئ عن جهل وعناد وفكرة مسبقة رافضة للإيمان مهما حصل من معجزات. لذلك تراهم يبحثون عن أمور غير منطقية ، ويحاولون إلباسها ثوب المنطق ومقارعة الدليل بالدليل . لكنَّ الرَّدَّ الإلهيَّ لا يتأخر في دحض باطلهم ، فلو أُنزِل مَلَكٌ لما أطاقوا رؤيته لعظمته وهَيْبته ومنظره العظيم، أو أن العذاب سيأتيهم عاجلاً بلا تأخر ، وعندئذ لا يُمهَلون ، ولا يُمنَحون فرصةً للتوبة .

وفي زاد المسير (٣/ ٨) : ((قال مقاتل:نزلت _ أي الآية_ في النضر بن الحارث وعبد الله ابن أبي أمية ونوفل بن خويلد . ولولا بمعنى هَلا أُنزل عليه ملك نصدِّقه ، ولو أنزلنا مَلكاً فعاينوه ولم يؤمنوا لقضي الأمر ، وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أن المعنى لماتوا ولم يُؤخَّروا طرفة عين لتوبة ، قاله ابن عباس . والثاني : لقامت الساعة ، قاله عكرمة ومجاهد . والثالث : لَعُجِّل لهم العذاب، قاله قتادة)) اهـ .

ويتواصل الرد على الكافرين . وهذه المرة يدحض القرآنُ باطلَ أهل الكتاب ، ويُفحِمهم فلا يقدرون على الرد .

قال الله تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قُل فَلِمَ يُعذِّبكم بذنوبكم ﴾ [المائدة : ١٨] .

وهذا الرد البليغ على غرور أهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين زعموا أنهم أبناء الله تعالى ، أي إنهم عباده المخلَصون الذين اختارهم وفضَّلهم على الخلق ، وأحبابُه وصفوته من بين الناس . وهذا الزعم الباطل تهاوى أمام الرد القرآني ، فإن كانوا _ كما يزعمون _ فلماذا أعدَّ اللهُ لهم نارَ جهنم خالدين فيها جزاء كفرهم وكذبهم ورفضهم للرسالة المحمَّدية الإسلامية المصدِّقة لما قبلها من الرسالات السماوية ؟ .

وفي الآية معنى لطيفٌ أن الله تعالى لا يُلقِي حبيبَه في النار ، فلو كان اليهود والنصارى أحباباً لله تعالى لما عَذَّبهم ، بل حماهم من الجحيم ومنحهم الجنةَ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٤) : [أخرج ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس قال : ((أتى رسول الله ﷺ ابن أبي ، وبحري ابن عمرو ، وشاس بن عدي ، فكلَّمهم وكلَّموه ، ودعاهم إلى الله ، وحذَّرهم نقمته ، فقالوا : ما تُخوِّفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى))] ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قُل فَلِمَ يُعذِّبكم بذنوبكم ﴾ .

إن هذا الغرور والاستعلاء والتحدث بكل عنجهية وفَوْقية ، كل هذه الأمور تُعتبَر حواجز مانعة لوصول الحق . فالإنسانُ الصادق في طلب الحق ، ينبغي أن يَطلبه في كل زمانٍ ومكان بأدب واستعداد نَفْسي لتقبُّله . أمَّا اتخاذ موقف استعلائي مسبق ، فسوف يؤدي قطعاً إلى رفض الحق سواءٌ ظَهر أم لم يَظهر . وهذا هو دَيْدن اليهود في كل العصور الذين يَنظرون إلى أنفسهم على أنهم صفوة الله من خَلْقه ، وشعبه المختار ، وأن الآخرين مجرد عبيد ورَعاع وأصحاب منزلة دونية .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((واللهِ لا يُلقِي اللهُ حبيبَه في النار))[9] .

فاللهُ تعالى إذا أحبَّ عبداً حماه من كل سوء ، ووفَّقه لفعل الخيرات حتى يقبضه طاهراً مُطَهَّراً ، ثم يدخله الجنةَ ، ولا يجعل النارَ تأكل جسدَه .

وقال الله تعالى في الرد على اليهود أصحابِ الْحُجَج الواهية : ﴿ قُل إن كانت لكم الدارُ الآخِرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : ٩٤] .

وهذه الآية فَضحت اليهودَ وكَشفت عن دواخلهم الممتلئة بحب الدنيا وكراهية الموت . فإن كان جزاءُ اليهود الجنةَ في الآخرة فَلْيَتَمَنَّوا الموتَ ، وملاقاةَ الله تعالى لكي يكافئَهم بالنعيم الأبدي ، فيرتاحوا من عناء الدنيا . لكنهم يعلمون أن مصيرهم إلى العذاب فيهربون من الموت _ حسب نظرتهم القاصرة _، ويتشبثون بالدنيا بأسنانهم وأظافرهم لعلمهم بما ينتظرهم بعد الموت من العقوبة الشديدة . وروى أحمد في مسنده (١/ ٢٤٨) عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((... ولو أن اليهود تَمَنَّوا الموتَ لماتوا ، ورأوا مقاعدهم في النار)) .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ١٧٨) وصحَّحه ، عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين ﴾ قال : قال ابن عباس : ((لو تَمَنَّى يهودٌ الموتَ لماتوا)) .

والأسلوبُ القرآني في المحاجَجة يتضمن الرد على الوثنيين المؤمنين بتعدد الآلهة رداً مُفحِماً ينتشل العقلَ من مستنقع الوهم ، ويزرعه في نور الهداية .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ [الإسراء : ٤٢] . لو كان هناك آلهةٌ _ على حد زعم المشركين _ لقامت هذه الآلهة بمنافسة الله تعالى ، ومحاولةِ انتزاع مُلْكه _ كما يحصل بين ملوك الأرض _ . أو لقامت هذه الآلهة بالسعي لنيل رضا الله تعالى لأنها دونه . وبما أنها محتاجة ، إذن ، فهي ليست آلهة . وهذا الرد

(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٥) برقم (٧٣٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الباهر المفحِم الموجَز يخاطب عقولَ الناس بشتى مستوياتهم الفكرية ، فهو متوافق مع الفطرة السليمة والعقلِ الطبيعي . فلم يُقدِّم القرآنُ رداً فلسفياً مُعقَّداً ، ولم يجيء بأنواع الشتائم للمشركين . وإنما عرض الدليلَ الواضح على وحدانية الله تعالى وبطلانِ فكرة تعدد الآلهة . وهذا يشير إلى عظمة القرآن ، وقوةِ حُجَّته المضيئة التي لا يمكن مواجهة نورها بأية وسيلة من الوسائل . فالحق يعلو ، والباطلُ يذهب أدراج الرياح .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٨) : ((قوله تعالى : ﴿ إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ فيه قولان: أحدهما لابتغوا سبيلاً إلى ممانعته وإزالة مُلكه ، قاله الحسن وسعيد بن جبير . والثاني : لابتغوا سبيلاً إلى رضاه لأنهم دونه ، قاله قتادة)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء : ٢٢] .

فلو كان في السماوات والأرض آلهةٌ غير الله تعالى لفسد نظامُ الكَوْن ، واختلَّ الوجودُ ، وذلك لما يحدث بينها من تنازع وتضاد ومنافسة . فلا يوجود مَلِكان في دولة واحدة ، ولا يوجد جسدٌ برأسَيْن[10] .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣١٤) : ((لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع من الآلهة ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام)) اهـ .

٤ـ تنزيهه عن الشِّعر :

والقرآنُ كلامُ الله تعالى لا يُشبِه كلامَ البشر ، ولا يشبهه أيُّ كلام . وما طعنُ المشركين في القرآن ورَمْيه بالشِّعر إلا دليل عجز . فقد فشلوا في محاكاة القرآن أو التفوق عليه ، مما جعلهم يختبئون خلف التشكيك في القرآن ، وإلقاءِ التهم التي لا يسندها أي دليل . لذلك فقد وَصفوا القرآن بالشِّعر مع إيمانهم بأنه مخالف للشِّعر في طريقة نظمه ، وأنه فوق مستوى البشر ، فقد اشتمل على الغيبيات ، وأحكامِ الحلال والحرام ، والفصاحةِ الساطعة ، والقوةِ البيانية الباهرة ، والنظم الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فهو متفوق على كلام العرب ،

---

(١٠)قال الصابوني في صفوة التفاسير (٩/ ٧) : ((قال المفسرون : في الآية دليلٌ على التمانع الذي أورده الأصوليون ، وذلك أنَّا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخرُ نقيضَه ، فإما أن تُنفَّذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضَيْن ، وإما أن تُنفَّذ إرادة واحد منهما دون الآخر، فيكون الأولُ الذي تُنفَّذ إرادته هو الإله ، والثاني عاجزٌ فلا يصلح أن يكون إلهاً)) .

يلهثون وراء أسلوبه دون أن يدركوه مع أنهم أهل الفصاحة والبيان ، ومنبع الشعراء العباقرة . وإذا كان العرب _ أهل البلاغة _ قد عَجزوا عن محاكاة القرآن أو التفوق عليه ، فغيرهم سيكون أكثر عجزاً ، وهم الأعاجم .

قال الله تعالى : ﴿ وما عَلَّمْناه الشِّعرَ وما ينبغي له إن هو إلا ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبين ﴾[يس : ٦٩].

فالله تعالى لم يُعَلِّم النبيَّ ﷺ الشِّعرَ ، وما ينبغي له أن يكون شاعراً . فالقرآنُ ليس شِعراً ، وإنما عظةٌ وتذكير للإنس والجن لكي يخرجوا من الظلمات إلى النور فيفوزوا بالدارَيْن .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٠) : ((﴿ وما عَلَّمْناه الشِّعرَ ﴾ رد لقولهم إن محمداً شاعر ، أي ما علمناه الشِّعر بتعليم القرآن ، فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى ، لأنه غير مُقفًّى ، ولا موزون ، وليس معناه ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغِّبة والمنفِّرة ونحوها . ﴿ وما ينبغي له ﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه على ما خبرتم طبعه نحواً من أربعين سنة)) اهـ .

واختلافُ القرآن عن الشِّعر واضحٌ للعيان.فلسنا بحاجة إلى عالم باللغة لكي يكتشف الموضوع. وهذه الحقيقة كانت معروفة لدى الذين يستمعون القرآن . لكنَّ الأهواء الشخصية تُعتبَر أكبر تشويش على الحق والحقيقة .

ففي صحيح مسلم(٤/ ١٩١٩): قال أُنَيس _وهو أخو أبي ذر الغفاري وكان أحدَ الشعراء_ حينما سمع القرآنَ : ((لقد سمعتُ قولَ الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعتُ قولَه على أقراء الشِّعر _يعني طرقه_ فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شِعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون)).

فها هو أُنَيس الشَّاعر في رحلة بحثه عن الحقيقة ، وبعد سماعه للقرآن الكريم ، يدرك أنه ليس بكلام الكهنة ، وليس بالشِّعر ، ويختلف عن أساليب الشعراء ، وقد شهد بصدق النبي ﷺ وأن الذين يرمونه بالكهانة والشِّعر كاذبون .

وهذا كلامُ الذي يَطرح التعصبَ جانباً ، ويسعى إلى معرفة الحق والحقيقة بقلبٍ صادقٍ خالٍ من الأهواء ، والأفكارِ السيئة المسبقة ، والنزواتِ الشخصية ، والمنافعِ الدنيوية البحتة .

والحق ما شهدت به الأعداء . فقد روى الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠) وصححه ووافقه الذهبي : أن الوليد بن المغيرة قال بعد أن سمع القرآنَ : ((فوالله ما فيكم من رَجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وإنه ليحطم ما تحته)) .

وهذا الاعترافُ الصريح من الوليد بن المغيرة (رأس الكفر والعناد) يشير إلى تميز القرآن الكريم عن الشِّعر . وهذا الاعتراف لم يجيء من شخص جاهل لا يَعرف اللغةَ العربية ، بل جاء من خبير بها ، متبحر فيها . فالوليد كان عالِماً بالأشعار ، والرجز ، والقصيدة ، وأشعار الجن . وقد عَقد في ذهنه مقارنةً بين القرآن وهذه الأشياء ، فلم يجد أدنى تشابه . مما يدل على أن مصدر القرآن سماوي عُلوي ، أمَّا مصدر الشِّعر فأرضي .

وقد سُئلت السيدة عائشة_ رضي الله عنها _ : هل كان النبي ﷺ يتمثل بشيء من الشِّعر ؟ ، قالت : ((كان يتمثل بشِعر ابن رواحة ، ويتمثل ويقول : ويأتيكَ بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ))[11] .

وقد استدل الحافظ ابن حجر بهذا الحديث على جواز تمثل النبي ﷺ بشيء من الشِّعر . فقال في فتح الباري (١٠/ ٥٤١) : ((وقد اخْتُلِف في جواز تمثُّل النبي ﷺ بشيء من الشِّعر وإنشاده حاكياً عن غيره ، فالصحيح جوازه)) اهـ .

ولا تعارض بين الآية النافية لكَوْن النبي ﷺ قد تعلم الشِّعرَ وبين الحديث السابق الذي يوضح أنه ﷺ كان يتمثل بشيء من الشِّعر. فالتمثُّل بالشِّعر يستند إلى التقاط الشِّعر من البيئة المحيطة وترداده في حادثة مناسبة، وهذا الأمرُ يختلف عن تعلم أوزان الشِّعر وتأليف القصائد كما يفعل الشعراء .

٥_ تأوُّل المتأوِّلين وتحريفاتهم :

لا يخفى أن التلاعب بكلام الله تعالى ، ولوي أعناق النصوص ، إنما يهدف إلى تحقيق مصالح دنيوية بحتة . وقد فضح اللهُ تعالى أولئك الذين يُحكِّمون أهواءهم في النصوص الشرعية ، فما وافق هواهم أخذوه ، وما خالف هواهم رفضوه ، أو قاموا بتأويله استناداً إلى عقولهم القاصرة وقلوبِهم المريضة دون وجود منهج شرعي لفهم الكلام الإلهي .

قال الله تعالى : ﴿ فأمَّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله ﴾ [آل عمران : ٧]. الذين في قلوبهم ميلٌ عن الحق وهوىً متجذر أو شكٌّ راسخ يتبعون الآياتِ المتشابهة فيُفسِّرونها حسب أهوائهم الباطلة وعقولهم المريضة لإشاعة الفتنة في المجتمع ، وتشكيكِ الناس بدينهم، والتشويشِ على الشريعة الإسلامية. وهذا منهج المنحرِفين في كل العصور ، حيث يتسترون بالعلم والحرية والعبقرية وحسن الفهم ، والجهلُ يعصف بهم من كل الجهات .

---

(١١) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ١٣٩) برقم (٢٨٤٨) وصحَّحه .

فعلى المرء _ قبل أن يقرأ القرآن _ أن يُنظِّف قلبَه من الأهواء والأفكار المنحرِفة المسبقة ، وذلك لكي يهبط النورُ القرآني في قلبه ، وسوى ذلك فسوف يكون القرآنُ عليه عَمى . فلا بد من قلبٍ نظيف طاهر لكي يَقدر على تلقي النفحات الإيمانية .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هو الذي أَنزل عَلَيْكَ الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخَر مُتشابهات فأمَّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله ﴾ ... قالت : قال رسول الله ﷺ : ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى اللهُ فاحذروهم)) [12] .

فآياتُ القرآن تنقسم إلى مُحْكَماتٍ (وهي الآيات التي يُعرَف تفسيرها بدقة ودلالتها واضحة ولا تحتمل إلا وجهاً واحداً) ، ومتشابِهاتٍ (وهي الآيات التي لا يُعرَف تفسيرها بدقة لأنها تحتمل أكثر من وجه ، ودلالتها غير قطعية) . فالواجبُ الإيمانُ بالقرآن الكريم كُلِّه ، فلا حُجَّة فيه لمبتدِع أو ضال . فكلامُ الله لا يتناقض ، بل يُصدِّق بعضُه بعضاً ، ولا يَدحض بعضُه بعضاً . فينبغي رَدُّ المتشابِه إلى الْمُحْكَم للتخلص من التعارض الظاهري غير الحقيقي الذي قد ينشأ في الأذهان بسبب قصور الفهم ، والضعفِ في معرفة دلالات اللغة .

وقال الله تعالى : ﴿ الذين جَعَلوا القرآنَ عِضِين ﴾[الحِجْر : ٩١] .

وهؤلاء قَسَموا القرآنَ_ حسب أهوائهم _ إلى حق وباطل، وجعلوه أجزاءً متفرقة (عِضِين)، فبعضُه شِعر ، وبعضُه سِحر ، وبعضُه كهانة . فآمنوا بما وافق هواهم ، وكفروا بما يتعارض مع مصالحهم الدنيوية الدنيئة . وقد اخْتُلف في المراد بالقرآن في هذه الآية على قولَيْن : ((أحدهما : أنه كتابنا ، وهو الأظهر، وعليه الجمهور . والثاني : أن المراد به كُتب المتقدِّمين قَبْلنا))[13] .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٤٣٥) أن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال في تفسير الآية: ((هم أهل الكتاب ، جَزَّؤوه أجزاءً ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه)) .

وهكذا نجد أن المنحرِفين يحاولون التلاعبَ بالنصوص الشرعية لتحقيق مصالح ذاتية ، وإبقاءِ السيطرة على الأتباع ، والمحافظةِ على المكانة الاجتماعية عبر لوي أعناق النصوص ، أو توظيفها لتحقيق منافع دنيئة .

---

(١٢) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٦٥٥) برقم (٤٢٧٣)،ومسلم (٤/ ٢٠٥٣) برقم (٢٦٦٥).

(١٣) زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٤١٨) .

وهذا الاعتداء على الكلام الإلهي المقدَّس نابعٌ من العناد والجهل وتحكيم الأهواء دون وجود أي منهج علمي يتضمن مقارعة الْحُجَّة بالحجة . كما أن غياب النفوس التَّواقة الباحثة عن الحق بإنصاف وتجرد أدى إلى الغرق في مستنقع الكفر عبر التلاعب بكلام الله _ عزَّ وجل _ دون الوقوف على معانيه السامية وأحكامه النبيلة .

وبلا شك أن تقديم كلام البشر على كلام الخالق يرمي بالأساس إلى تحقيق مكاسب سياسية واجتماعية واقتصادية ، لأن الغرق في متاع الدنيا الزائل أدى إلى غياب الآخرة عن الأذهان .

وقال الله تعالى : ﴿ مِن الذين هادوا يُحرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعه ﴾[النساء : ٤٦] .

فمن هؤلاء اليهود مَن يُحرِّفون كلامَ الله في التوراة، ويتلاعبون بالنصوص الدينية حذفاً وتأويلاً تابعاً للهوى والشبهات والمصالح الشخصية دون علم شرعي وفق المنهج الإلهي . وهم يعتقدون _ حينما يقومون بهذا الفعل القبيح _ أنهم يُثبِّتون سُلطتهم على العامة والجهال ، وتزداد أرباحُهم المادية ، وتتوسع مشاريعُ نفوذهم وهيمنتهم ، ويحافظون على مكانتهم الاجتماعية التي بَنَوْها عبر احتكار تأويل النص الديني ، والتلاعب به ، وتوظيفه بما يساهم في تلميع صورتهم أمام أتباعهم ، وبقائهم سادةً على الناس ، حيث يلبسون لباسَ التقوى ، وهم لا يَمتُّون للتقوى بصلة .

والجدير بالذكر أن أهل الكتاب ليسوا طائفةً واحدة . فإذا كان فيهم من قام بتحريف الكلام الإلهي والتلاعبِ بالنصوص الدينية ، فمنهم من التزم الإيمانَ ، وتمسَّكَ بالشريعة الإلهية ، واحترم كلامَ الله، ورفض مبدأَ التحريف. وقد مدحهم اللهُ تعالى ووصفهم بأنهم يتلون الكتابَ حق تلاوته . وهذا شرفٌ عظيم لهم .

فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قول الله _ عز وجل _ : ﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يتلونه حَقَّ تِلاوته ﴾ [البقرة : ١٢١]. قال : ((يُحِلُّون حَلالَه ، ويُحرِّمون حَرامَه ، و لا يُحرِّفونه عن مواضعه))[14] .

إن " حق التلاوة " لا يعني إقامة حروف الكتاب وإضاعة حدوده . فالقول والفعل يجب أن يتلازما . ويجب أن يتحول الكلامَ الإلهي إلى واقع ملموس في حياة الإنسان . وهذا لا يتأتى إلا بتطبيق الشريعة في الحياة، وذلك عبر تحليل الحلال ، وتحريم الحرام ، والحفاظ على كلام الله تعالى ، ووضعه في سياقه بلا زيادة أو نقصان .

---

(١٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٢) برقم (٣٠٥٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٦ـ تغيير الأحكام :

إن القرآن الكريم هو الْحَكَم الحاكِم . قد جاء بالأحكام الشرعية لما فيه خير البشرية ، ولم يجيء ليوضع على الرفوف أو يصبح منظراً فلكلورياً للزينة. إنه الكلام الإلهي المقدَّس المشتمل على سُبل إسعاد الوجود . لذلك ينبغي الالتزام بحُكْم القرآن في كل الحالات، وإخضاع الهوى للشريعة الإلهية كي يتحرر المرءُ من الخطيئة والقلق ، ويغدوَ فرداً صالحاً لإعمار مجتمعه الكَوْني بالفضائل والمحبة وفق المنظور الإسلامي المعصوم . وقد نهى اللهُ تعالى عن تحريم الطيبات لما في ذلك من تغيير حُكم الله ، والاعتداءِ على شريعته الكاملة التي جاءت لإصلاح الفرد والجماعة. قال الله تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا ﴾[المائدة: ٨٧].

وهذا الأمرُ الإلهي الجليل بعدم تحريم اللذائذ التي تشتهيها النفس البشرية تقشُّفاً وتزهُّداً ، وعدم تجاوز الشريعة في تحريم الحلال والانتقالِ إلى الحرام . ويجب امتثال حُكم الله تعالى وعدم الاعتداء عليه بتجاوزه أو رفضه أو التحايل عليه .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: أن رَجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني إذا أَصبتُ اللحمَ انتشرتُ للنساء ، وأخذتني شهوتي ، فَحرَّمتُ عليَّ اللحمَ ، فأنزل اللهُ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [15] .

وهذه المنهجيةُ الإسلامية في التعامل مع الشهواتِ البشرية ، والأشواقِ الإنسانية الساعية إلى اللذة والمتعة ، مبنيةٌ على الوسطية بلا إفراط ولا تفريط . فالإسلامُ لم يجيء ليستأصل الشهواتِ والغرائز ويحظر الاستمتاع بالحلال ، وإنما قام بتنظيم الشهوات وجعلها في نصابها الصحيح ، بحيث يحصل الفردُ على متعته بالحلال ، وتكون هذه المتعةُ حافزاً له على استقبال أيامه بحيوية من أجل إعمار الأرض وإصلاحِ المجتمع . وفي صحيح مسلم (٢/ ١٠٢٢) : عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : ((كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ليس لنا نساء ، فقلنا : ألا نستخصي ؟، فنهانا عن ذلك، ثم رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل)) ، ثم قرأ عبد الله : ((﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾)).

وهنا تتجلى رحمة الشريعة بالناس ، ومنعهم من تعذيب أنفسهم ، أو إيرادها المهالك . فقد نهى النبيُّ ﷺ عن الخِصاء (قطع الذَّكَر أو نزع الخصيتَيْن) . وبالطبع ففي الحلال ما يُغني عن

---

(١٥) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٥٥) برقم (٣٠٥٤) وحسَّنه .

الحرام ، وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرج لا إحراج الناس . وإن الأمر كلما ضاق اتَّسع . وقد جاءت الشريعةُ لتحقيق مصالح العباد ، وتنظيم حياتهم عبر توجيه الشهوات في طريقها الصحيح الذي لا يُفضي إلى مشكلات اجتماعية تقصم العمودَ الفقري للجماعة الإنسانية .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١١٩) : ((نهي تحريم بلا خلاف في بني آدم .. وفيه أيضاً من المفاسد تعذيب النفس ، والتشويه مع إدخال الضرر الذي قد يُفضي إلى الهلاك ، وفيه إبطال معنى الرجولية ، وتغيير خلق الله ، وكُفر النعمة ، لأن خلق الشخص رَجلاً من النعم العظيمة فإذا أزال ذلك فقد تشبَّه بالمرأة)) اهـ .

وقوله : " ألا نستخصي ؟ " دليلٌ على أن نكاح المتعة كان محظوراً في الغزو ، فلو كان مباحاً لم يكن لهذا السؤال معنى . وقد حصل الترخيص بنكاح المرأة بالثوب أو أي شيء مما يحدث به التراضي إلى أجلٍ في نكاح المتعة . وظاهر استشهاد ابن مسعود بالآية يوحي بأنه يرى جواز نكاح المتعة . وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن نسخ الحكم لم يبلغه في تلك الساعة ، وحين علم به رجع عنه . علماً بأن مفهوم الطَّيِّبات يحدده الشارعُ . فنكاحُ المتعة حينما كان مباحاً كان طيباً ، وعندما تم تحريمه صار خبيثاً . فالنصوصُ الشرعية هي التي تكشف مستوى الشيء من حيث نفعه وضره . وقد جاءت الشريعةُ تراعي الحاجاتِ البشرية في الظروف المختلفة ، فترفع عن الناس الحرجَ ، ولا تحشرهم في الزاوية . كما أن التدرج والتتابع منهجيةٌ إسلامية. فمثلاً كان تحريم الخمر على دفعات ضمن سياق تدريجي، ونكاحُ المتعة صار محرَّماً بعدما كان مباحاً . وهذا كلُّه مراعاة للحاجات البشرية ، وعدم اضطرار الناس للدرب الضيق ، أو التضييق عليهم وتحميلهم فوق ما يحتملون . فاللهُ تعالى هو خالق النفس البشرية ، ويعلم مدخلاتِها ومخرجاتِها .

وعن مسروق قال : أُتِيَ عبد الله [يعني ابن مسعود] _ رضي الله عنه _ بضرع فقال للقوم : ((ادْنُوا)) ، فأَخذوا يطعمونه ، وكان رَجلٌ منهم في ناحية ، فقال عبد الله : ((أُدْنُ)) ، فقال : إني لا أريده ، فقال : ((لِمَ ؟)) ، قال : لأني حَرَّمْتُ الضرعَ، فقال عبد الله : ((هذا من خطوات الشيطان))، فقال عبد الله : ((﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أُدْنُ فَكُلْ وَكَفِّرْ عن يمينكَ فإن هذا من خطوات الشيطان))[16].

(١٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٣) برقم (٣٢٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا الانحرافُ في قضية التحليل والتحريم مرجعه إلى اجتهاد بشري قاصر يتلاعب به الشيطان، فيذهب إلى تزيين الأمر، وإلباسه لبوس التقوى والصلاح. وهو بعيدٌ كل البعد عن ذلك. ولا أحد يملك التحليل والتحريم إلا واضع الشريعة _ سبحانه وتعالى _ ، فهو أعلم بالإنسان من نَفْسه . كما أن قضية التحليل والتحريم جاءت لتحقيق مصلحة الإنسان والمجتمع ، حتى لو غابت الحكمةُ عن الأذهان . فاللهُ تعالى لم يخلق الناسَ ليعذِّبهم ، أو يُضيِّق عليهم . وكلُّ مَن حرَّم على نَفْسه شيئاً فلا عِبرة بتحريمه ولا معنى له . فالإنسانُ لا يملك حقَّ التشريع (التحليل والتحريم) ، وعليه أن يُهمِل خطواتِ الشيطان ، ولا يَتبعها .

وقال الشاطبي في الاعتصام (١/ ٢٥١) : ((وعلى ذلك جَرَت الفُتيا في الإسلام : إن كل من حَرَّم على نفسه شيئاً مما أحل اللهُ له فليس ذلك التحريم بشيء ، فليأكل إن كان مأكولاً ، وليشربْ إن كان مشروباً ، وليلبس إن كان ملبوساً ، وليملك إن كان مملوكاً . وكأنه إجماع منهم منقول عن مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم)) اهـ .

فالشيطانُ يحاول جاهداً أن يوقع الإنسانَ في دوائر تحليل الحرام وتحريمِ الحلال كي يبتعد عن تعاليم الشريعة ، ويسقط في أحكامه العقلية القاصرة ، وأهوائه المتضاربة . مما يؤدي إلى غياب المرجعية الشرعية في أحكام الحلال والحرام عن قلب الإنسان ، فيغدو تائهاً خاضعاً لنزواته وقراراته الشخصية النابعة من فهمٍ قاصر بعيد عن التعاليم الإيمانية السمحة التي توسِّع على الناس ، لكن البعض لا يرتاح إلا إذا ضَيَّق على نفسه وحشرها في الزاوية ، واضطرها إلى أضيق السُّبل .

قال الله تعالى : ﴿ قد خسر الذين قَتلوا أولادَهم سفهاً بغير عِلْم وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله ﴾[الأنعام : ١٤٠] .

((نَزلت في ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم ، كانوا يدفنون البناتِ أحياء مخافة السَّبي والفقر))[17] .

هؤلاء الجهلة الذين قتلوا أولادَهم (وأدوا بناتهم) بكل طيش وسَفهٍ وقلة عقل ، وحرَّموا طيباتِ ما أحل اللهُ لهم من الأنعام كالبحيرة والسائبة كذباً على الله تعالى، واعتداءً على شريعته ، قد باؤوا بالخسران في الحياة الدنيا(قتلوا أولادهم وضيَّقوا على أنفسهم وحرموها من الاستمتاع بالحلال)، وخسروا الآخرةَ أيضاً حينما يُعذَّبون في الجحيم. فقد جعلوا عقولَهم الناقصة مصدرَ

(١٧) تفسير البغوي (١/ ١٩٤) ، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٨٠) .

التشريع ، وراحوا يخترعون أحكاماً ما أنزل اللهُ بها من سلطان وألزموا أنفسهم بها جهلاً وعدواناً . وهذا الأمر يعكس جهلَ العرب الذين كانوا يئدون بناتهم ، ويَحرمون أنفسهم من الأولاد زينةِ الحياة الدنيا ، ويُدمِّرون حياتهم بأيديهم .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٩٧) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : إذا سَرَّكَ أن تعلم جهلَ العرب ، فاقرأْ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قَتلوا أولادَهم سفهاً بغير عِلْم وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ .

ويواصل القرآنُ بيانَ جهل العرب وتحكيمهم لأهوائهم وشبهاتهم ، وغياب المنهج الإيماني عن حياتهم .

قال الله تعالى : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكُفر يُضَل به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويُحرِّمونه عاماً ﴾[التوبة : ٣٧] .

إن العرب كانوا يتلاعبون بالأشهر الْحُرُم (التي يَحْرم فيها القتالُ) _ تقديماً وتأخيراً _ ، وهُم بذلك يعتدون على شرع الله تعالى من أجل تحقيق رغباتهم ومصالحهم الشخصية . فصارت ثنائية (التحليل / التحريم) وسيلةً لجني المنافع التي يحصلون عليها من قتال أعدائهم . فالغايةُ عندهم تبرِّر الوسيلةَ. وقد كانت الغايةُ والوسيلة فاسدتَيْن. والجديرُ بالذِّكر أن العرب في الجاهلية كانوا يَنظرون إلى العقائد الدينية على أنها مشاريع تجارية تدر عليهم أرباحاً طائلة . فإذا وَقفت العقائدُ سداً أمام طموحاتهم المادية ، فعندئذ سوف يتلاعبون بالعقائد ، ويُكيِّفونها لصالح نشاطاتهم المالية ، ومراكزهم الدنيوية .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٩) : ((هذا مما ذَمَّ اللهُ تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حَرَّم اللهُ، وتحريمهم ما أحلَّ اللهُ ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أَحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرَّم ، فأَخَّروه إلى صَفَر ، فيُحِلُّون الشهرَ الحرام ، ويُحرِّمون الشهرَ الحلال)) اهـ .

إن الأشهر الْحُرُم عند الله تعالى أربعة : ذو القعدة ، ذو الْحِجَّة ، المحرَّم ، رجب . فيحرم فيها القتالُ ، وهذا الأمرُ ثابتٌ في الجاهلية والإسلام بلا اختلاف . فقد كان العربُ في الجاهلية يُحرِّمون القتالَ في الأشهر الحرم، لكنهم كانوا يعيشون على الغارات والغزو فيما بينهم. فالاقتصادُ

الجاهلي قائمٌ على أساس الإغارة على الآخرين ونهب ما يمكن نهبه . فإن احتاجوا إلى القتال في شهر حرام قاموا بتحليله والقتال فيه ، ثم تحريم شهر آخر مكانه. وبما أن هناك ثلاثة أشهر حُرُم متوالية ، وهي ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرَّم . فإن هذه المدة الطويلة كانت تعيق مشاريعَ الغزو والنهب ، وهذا يعني انهيار عائداتهم المادية من الغارات ، لذلك لجأوا إلى التحايل باختراع النسيء (التلاعب بتحريم وتحليل الأشهر) . مما يشير إلى أن المنفعة الذاتية أدَّت إلى قيام العرب بتغيير أحكام الأشهر الحرم ، يعني إخضاع الشريعة المتعارف عليها لسُلطة المصلحة المادية الدنيوية .

وفي الحديث المتفق عليه. البخاري (٢/ ٥٦٧) ومسلم(٢/ ٩٠٩): عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال عن أهل الجاهلية : ((ويجعلون المحرَّم صَفَراً)) .

وقد كانوا يقومون بهذا الفعل القبيح لئلا تتوالى عليهم ثلاثة أشهر ، وهم ممنوعون من القتال . فاخترعوا هذه الحيلة لتحقيق مصالحهم الشخصية ، ولئلا تضيق أمورهم المادية التي يحصلون عليها من الغارات .

((وكانوا في الجاهلية على أنحاء ، منهم من يُسمِّي المحرَّم صَفراً فَيُحِلُّ فيه القتالَ ، ويُحرِّم القتالَ في صَفر ويُسَمِّيه المحرَّم . ومنهم من كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا ، ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا ، ومنهم من يُؤخِّر صَفراً إلى ربيع الأول وربيعاً إلى ما يليه ، وهكذا إلى أن يصير شوال ذا القعدة وذو القعدة ذا الحجة ثم يعود فيعيد العدد على الأصل))[18].

<u>٧ــ النَّسخ :</u>

قال الله تعالى : ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ أو نُنسِها نَأْتِ بخير منها أو مثلِها ﴾[البقرة : ١٠٦] .

والنَّسخُ في القرآن ثابتٌ بلا نكير . وهو يعني إثبات آية مع تغيير حُكمها . فالأحكامُ تتغير بتغير الظروف ، ولا يخفى أن الشريعة جاءت لتحقيق مصالح الناس . ولا أحد يملك حَقَّ النَّسخ إلا الله تعالى . وبموتِ النبي ﷺ أُغلق باب النَّسخ إلى الأبد .

قال ابن كثير في تفسيره (٢٠٧/١) : ((قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ ﴾: ما نُبدِّل من آية،وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ ﴾:

---

(١٨) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٣٢٥) .

أي ما نمحو من آية ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ ﴾ قال : نُثبِت خطها ونُبدِّل حُكمها)) اهـ . والنسخ في اللغة يعني الإزالة والمحو. يُقال نسخت الشمسُ ظلَّها ، يعني أزالته ومحته، وأحلت الضوءَ محله . وقد أشار الشاعرُ إلى هذا المعنى عندما قال :

نَسَخْتُ بحبي آيةَ العشقِ من قبلي

فأهلُ الهوى جُنْدي و حُكمي على الكُلِّ

وفي الشَّرع هو وقفُ العمل بحُكمٍ أفاده نَص شرعي سابقٌ من القرآن أو من السُّنة الصحيحة، وإحلال حكم آخر محله أفاده نص شرعي آخر لاحق من الكتاب أو السُّنةِ لحكمة قصدها الشَّرعُ مع صحة العملِ بحكم النَّصِّ السَّابقِ قبل ورود النص اللاحق[19].

أما أولئك الذين ذهبوا إلى نفي وقوع النَّسخ في القرآن[20]، فرأيهم لا تقوم له قائمة ورأيهم لا يعتد به بالمرة لمخالفته نصوص الشريعةِ . كما أن جمهور الفقهاء وعلماء الأصول يقرونه ــ أي النَّسخ ــ بلا أدنى حرج . وقد حاول بعض المستشرقين اتخاذ النَّسخ وسيلةً للطعن في القرآن ، وقد أوردوا شبهتهم كالتالي : [القرآن يتميز بوجود الناسخ والمنسوخ فيه، مع أن كلامَ الله الحقيقي لا يجوز فيه الناسخ والمنسوخ، لأن الناسخ والمنسوخ في كلام الله هو ضد حكمته وصدقه وعلمه، فالإنسان القصير النظر هو الذي يضع قوانين ويغيرها ويبدلها بحسب ما يبدو له من أحوال وظروف. لكن الله يعلم بكل شيء قبل حدوثه. فكيف يُقال إن الله يغيِّر كلامه ويبدله وينسخه ويزيله، فليس الله إنساناً فيكذب] اهـ .

---

(١٩) هذا التعريف اختاره أكابر علماءِ الأزهر الشَّريفِ ، وفيه جمع ما تفرق من تعريفات الأصوليين مع مراعاة الدقائقِ والوضوح . وهناك تعابير مختلفة تصب في نفس الخانة ، ولكنها في أحيان كثيرة تحتاج إلى مستوى عالٍ من العلم حتى تُفهَم ، وإليك إحداها : ((النسخ في اصطلاح الأصوليين هو إبطالُ العمل بالحكمِ الشرعي بدليلٍ متراخٍ عنه، يدل على إبطاله صراحةً أو ضمناً ، إبطالاً كلياً أو إبطالاً جزئياً لمصلحة اقتضته ، أو هو إظهار دليل لاحق نَسخ ضمناً العملَ بدليل سابقٍ))[انظر علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ، ص ٢٢٢] .

(٢٠) منهم الدكتور عبد المتعال الجبري وله فيه كتاب خاص نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة، والدكتور محمد البهي ، ومنهم الشيخ محمد الغزالي .

إن النسخَ لا يقدح في حكمة اللهِ تعالى، بل هو من حكمته. فتطور الأحكام التشريعية والتدرج بما يُزيل الحرج على الناس من صميم المنهجِ الإسلامي، فالشريعة جاءت لرفع الحرج لا لتعقيد حياة الناس. ولأن الناس تختلف قدراتُهم وإمكانياتهم خاصةً وأنهم خارجون للتو من جاهلية مدقعة جاءت الشَّريعة تنتشلهم رويداً رويداً . فمهما بلغت القوةُ الإيمانية للفرد ، فهو _ أولاً وأخيراً _ إنسان تتنازعه الشهوات والغرائز ، وله قدرة تحمُّل محدودة .

فمثلاً ، إن الجاهليَّ الذي قضى عمره في شرب الخمر وتعوَّد عليه إلى حد الإدمان، ويعيش في مجتمع غارق _ إلى شحمة أذنيه _ في الخمور والحانات ، من الصعب عليه في يوم وليلة أن تأمره بترك الخمر قطعياً ، فكان التدرج في تحريم الخمر حتى الوصول إلى التحريم الكلي النهائي. إن مثل هذا المنهج يأخذ بعين الاعتبار قدرات البشرِ، ويخفف عنهم ، ويبنيهم لبنةً لبنةً ، ولا يحشرهم في الزاوية الضيقة .

ووَضَّحَ الشيخ "عبد الوهاب خَلاف" الأمرَ بقوله : ((وهذا النَّسخُ وقع في التشريع الإلهي، ويقع في كل تشريع وضعي، لأن المقصودَ من كل تشريع سواء أكان إلهياً أم وضعياً تحقيق مصالح الناس. ومصالح الناس قد تتغير بتغير أحوالهم . والحُكم قد يُشرع لتحقيق مصالح اقتضتها أسباب _ قد تظهر لنا وقد لا تظهر _ فإذا زالت هذه الأسباب فلا مصلحة في بقاء الحُكم))(21).

ولنأتِ إلى القرآن الكريم، فقد وقع فيه النَّسخ على نطاق ضيقٍ . وإليك المثال التالي المتعلق بنسخٍ داخلي حصل داخل القرآن ، فالآية القرآنية الكريمة : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾[النُّور:٢] نَسخت الآيةَ: ﴿ وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً منكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾[النِّساء:١٥].

وإليك مثالٌ على نسخٍ داخلي حصل في السُّنةِ النبوية ، ووقع في أكثر من مسألة .ففي صحيح مسلم (٢/ ٦٧٢) : عن بريدة عن أبيه قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((نَهَيْتُكم عن زيارة القبورِ فزوروها، ونهيتكم عن لحومِ الأضاحي فوقَ ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ _ أي نقيع التمر والزبيب ونحوهما_ إلا في سِقاء فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مُسْكِراً)).

(٢١) علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ، ص ٢٢٢ .

٨_ الأمثال :

قال الله تعالى:﴿ولقد ضَرَبْنا للناس في هذا القرآن مِن كل مَثَل لعلهم يتذكرون﴾[الزُّمَر: ٢٧].

اللهُ تعالى يضرب الأمثالَ النافعة ، ويُبيِّن الصراطَ المستقيم للناس من أجل أن يتفكروا ويتذكروا . وهذه الأمثلة تقوِّي إيمانَ المرء ، وتزيد من التزامه بالمنهج الإلهي ، وتجعل منه خليةَ نحل دؤوب لإصلاح نفسه ومحيطه ، وإعمار مجتمعه ، وبث الخير في المعمورة. فالقرآنُ وضَّح طريقَ الحق للخلائق ، وضرب لهم الأمثالَ ليكونوا على بَيِّنة من أمرهم . فاللهُ تعالى لا يريد من عباده أن يكونوا عمياناً يسيرون على غير هدى، ولا يريد منهم أن يُردِّدوا آياتِ القرآن كالببغاء دون فهم. لذلك أنار لهم السبيلَ ، وقرَّب القضايا المصيرية إلى عقولهم ، وأعطاهم أمثالاً عظيمة قريبة من أذهانهم ليتفكروا فيها فتكون خيرَ معين في حياتهم لكي يحصلوا على السعادة الأبدية يوم القيامة.

واللهُ تعالى لا يستحيي من ضرب الأمثال النافعة للخلائق ، وإن بدت _ للوهلة الأولى _ أنها بسيطة. فقال تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يَستحيي أن يَضرب مثلاً ما بعوضةً فما فَوْقها ﴾ [البقرة : ٢٦].

فليست البعوضةُ مقصودةً لذاتها في الآية . لكن القرآن يُعلِّمنا أن نأخذ العِبر من كل شيء ، سواءٌ كان صغيراً أم كبيراً ، ولا نتوقف عند ظواهر الأشياء . بل نُعمِل عقولَنا في فهم الآيات القرآنية المشتملة على الأمثال النافعة لكي نستفيد منها في حياتنا الإيمانية .

وفي الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٠٣) : [وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ((لَمَّا ذكر اللهُ العنكبوتَ والذباب ، قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يُذكران ؟ ، فأنزل الله : ﴿ إنَّ الله لا يَستحيي أن يَضرب مثلاً ما بعوضةً فما فَوْقها ﴾))] .

فالكفارُ المعانِدون يتوقفون عند ظواهر الأشياء الواردة في القرآن الكريم مثل العنكبوت ، والذباب ، والنمل. ولا ينظرون إلى ما وراء هذه الأشياء من العِبر الباهرة ، ولا يدركون أبعادَ السياق القرآني العظيم الذي أورد هذه الأشياء . وبما أن الجاهل عدو نفسه فإنه يُعرِض عن القرآن بسبب جهله فيطعن فيه . فهناك عميان يعتقدون أن المشكلة في نور الشمس لا في عيونهم .

وصدق الشاعر إذ يقول :

لا تحقرنَّ صغيراً لصغره   إن البعوضة تُدمِي مُقْلةَ الأسد

ويجيء النهي عن ضرب الأمثال لله تعالى ، لأنه _ سبحانه _ لا مثل له ولا شَبَه . ﴿ فلا تَضرِبوا لله الأمثالَ إنَّ الله يَعْلم وأنتم لا تَعلمون ﴾[النحل : ٧٤] .

أي : لا تجعلوا له أشباهاً وأمثالاً وأنداداً . فهو _ عز وجل _ مُنَزَّهٌ عن الأضداد والأنداد والنظائر . فليس كمثله شيءٌ . فالخالق خالقٌ ، والمخلوقُ مخلوقٌ . فهذه النظائرُ التي اخترعها الوثنيون عبر الأزمنة المختلفة من بنات أفكارهم كالأوثان والحجارة المعبودة من دون الله تعالى ، إنما هي انحرافٌ عن التوحيد ، والعقيدةِ الصحيحة . فكلُّ مثلٍ يقتضي تشبيهَ الخالق بالمخلوق أو المخلوق بالخالق ، إنما هو مثلٌ باطل . وكما قال الشاعر : ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خلا اللهَ باطلُ .

٩_ إنزال القرآن :

قال الله تعالى : ﴿ إنَّا أنزلناه في لَيْلة القَدْر ﴾[القَدْر : ١] .

للقرآن الكريم نزولان : _ النزول الأول : تم في ليلة القَدْر في شهر رمضان ، حيث إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وفي هذا دلالةٌ عظيمة على أفضلية ليلة القَدْر وتقدمها على باقي الليالي ، وعَظَمة شهر رمضان وتفوقه على باقي الشهور . والنزول الثاني : نزل به جبريل _ عليه السلام _ إلى الأرض في عشرين سنة، مع العلم أن المشهور هو ثلاث وعشرون سنة .

قال الزركشي في البرهان (١/ ٢٢٨) : ((ثم نزل بعد ذلك مُنَجَّماً _مُفَرَّقاً_ في عشرين سنة، أو في ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، على حسب الاختلاف في مدة إقامته بمكة بعد النبوة)) اهـ . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((أُنزِل القرآنُ جُملةً واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القَدْر ، ثم أُنزِل بعد ذلك بعشرين سنة))[22] .

١٠_ هَجْرُه :

قال الله تعالى:﴿ وقال الرسولُ يا رَبِّ إنَّ قَوْمي اتَّخَذوا هذا القُرآنَ مَهْجوراً ﴾[الفُرقان: ٣٠] .

إن قومي رفضوا الإيمانَ بالقرآن الذي جئتُهم به وحياً من عند الله تعالى ، فلم يعرفوا قَدْرَه ، واتخذوه مهجوراً متروكاً . وهجرُ القرآن يأخذ أشكالاً متعددة فأشدُّها الكفر به . كما أن ترك قراءته أو عدم تطبيق أحكامه يُعتبَر من هجره . قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٣) : ((وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغون للقرآن ، ولا يستمعونه ...فكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعوه فهذا من هجرانه . وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه . وترك تدبره وتفهمه من هجرانه. وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه .

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٢) برقم (٢٨٧٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والعدول عنه إلى غيره من شِعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه)) اهـ .

فينبغي الحذر من هَجْر القرآن لما في ذلك من ضياع للهوية الإيمانية، وتفتيتِ القيم الاجتماعية، وتدمير الفرد والجماعة ، وتحويل الإنسان إلى آلة صمَّاء مفرغة من المعنى البشري الراقي . فالقرآنُ هو الدستور الشامل لكوكب الأرض جاء لإخراج الخلائق من الظلمات إلى النور . يصلح لكل زمان ومكان ، ومشتمل على الحلول الناجعة لكل المشكلات المصيرية التي تهدد وجودَ الإنسان. كما أنه يجيب عن الأسئلة الكبرى التي تجول في ذهن الإنسان(من أنا ؟، من أين جئتُ؟، إلى أين أنا ذاهب ؟) . وهكذا يتخلص المرءُ من القلق الشرس فيغدو فرداً صالحاً في مجتمعه الصغير ومجتمعه الكَوْني الواسع .

١١_ وجوب الْحُكْم به :

لا شك أن القرآن هو الْحَكَم الحاكِم ، فيجب الحُكمُ به وعدم الميل عنه . لأن الله تعالى مُنْزِل القرآن هو خالق الإنسان، ويعلم _ سبحانه _ ما فيه صلاح الإنسان ، وما فيه فساده .

والقرآنُ الكريم هو الدستور الجامع للأحكام الإلهية التي تنقل الفرد والجماعة من الظلمات إلى النور ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الوهم إلى الحقيقة ، ومن الفوضى إلى النظام ، ومن الفشل إلى النجاح، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الكسل إلى العمل، ومن الحزن إلى السعادة ، ومن الاكتئاب والمَلَلِ الوظيفي إلى متعة العمل في الدنيا وحسنِ الجزاء في الآخرة .

فالأحكامُ القرآنية لم تجيء لتقضيَ على مستقبل البشرية ، وتفتِّت المجتمعَ ، وتُدمِّر حياةَ الفرد . إنها نظامٌ متكامل لصلاح الفرد وإصلاحِ الجماعة .

وفي ضوء هذه المعلومات يصبح عدمُ الحُكم بما أَنزل اللهُ تعالى جنوناً شاملاً وهلوسةً اجتماعية ستؤدي إلى تعميم الفوضى في المجتمع ، وتحويل الإنسان إلى وحش بدائي كاسر ، وتحويل المجتمع إلى مشروع استثماري استهلاكي يقضي القويُّ فيه على الضعيف ، ويسرق الغنيُّ الفقيرَ ، ... إلخ. فينكسر الولاءُ والانتماء للجماعة البشرية ، وتنهار هيبةُ الدولة في النفوس ، وتصبح الفوضى هي النظام الحاكم في المجتمع عبر كل طبقات الهرم الوظيفي والاجتماعي التَّسلسلي .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤] .

من جحد ما أنزل اللهُ فهو كافرٌ ، أما من أقرَّ بما أنزل اللهُ ولم يحكم به فهو فاسقٌ . فالمسلمُ لا يَكْفر بارتكاب الكبيرة .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الظالمون ﴾ [المائدة : ٤٥] .

فغيابُ الحُكم الإلهي يؤدي إلى انتشار الظلم ، فمن لم يحكم بما أنزل اللهُ تعالى فهو ظالمٌ لنفسه لأنه ارتكب معصيةً خطيرة وأوقع نفسَه في التهلكة ، وظالمٌ لغيره لأنه لم يُطبِّق الشرعَ الإلهي ، مما أدى إلى تغييب العدل ، ونشر الظلم والفساد الاجتماعي .

وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الفاسقون ﴾[المائدة : ٤٧] .

أي إنهم خارجون على الشريعة ، مخالفون للأوامر الإلهية . قد انحرفوا عن الصراط المستقيم بعدم تحكيمهم للشريعة الإلهية المعصومة .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٧) : عن البراء بن عازب_ رضي الله عنه _ : أن اليهود قالوا : ((ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرَّجم فاحذروا)) ، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الظالمون ﴾ ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الفاسقون ﴾ في الكفار كلها .

وقد اعترف أحد علماء اليهود أن الرَّجم هو حد الزنا في التوراة ، لكنه انتشر في أشراف اليهود ، فصاروا يُطبِّقون الحد على الضعيف دون الشريف ، فاتفقوا على اختراع عقوبة للزنا تشمل الشريف والضعيف دون تمييز فاختاروا التحميم (أي تسويد الوجه) والجلد بدلاً من الرَّجم. ففي صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٧) : عن البراء بن عازب _ رضي الله عنه _ قال : مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي مُحمَّماً _ أي مُسْوَد الوجه _ مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال : ((هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم ؟)) ، قالوا : نعم . فدعا رجلاً من علمائهم فقال : ((أَنشُدُكَ بالله الذي أَنزل التوراةَ على موسى ، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟)) ، قال : لا، ولولا أنكَ نَشدتني بهذا لم أخبركَ . نجده الرجم ولكنه كَثُرَ في أشرافنا، فَكُنَّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه وإذا أخذنا الضعيفَ أَقمنا عليه الحدَّ. قُلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميمَ والْجَلْدَ مكان الرَّجم .

وروى أبو داود في سُننه (٢/ ٣٢٣) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ إلى قوله : ﴿ الفاسقون ﴾، هؤلاء الآيات الثلاث نزلت في اليهود ، خاصة في قريظة والنضير .

وعن همام قال: كنا عند حذيفة فذكروا ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ فقال رَجل من القوم : إن هذا في بني إسرائيل . فقال حذيفة : ((نِعْمَ الأخوة بنو إسرائيل إن كان لكم الحلو ولهم المر ، كلا والذي نفسي بيده حتى تحذو السنة بالسنة حذو القذة بالقذة))[23].

والمعنى : أنكم ستتبعون آثارَ بني إسرائيل ومنهجهم في عدم تحكيم الشرع الإلهي . وهذا حاصلٌ الآن في بلاد المسلمين التي تحتكم إلى القوانين الوضعية ، ولا تأخذ بالشريعة الإسلامية إلا بشكل جزئي . لكنَّ عدم الحُكم بما أنزل اللهُ تعالى لا يُخرِج من المِلَّة إلا إذا كان المرءُ جاحداً للحُكم الإلهي المذكور في القرآن أو السُّنة المتواترة ، أو مستهزئاً به مستخفاً بمكانته ، أو إذا اعتقد أن الحُكم البشري الوضعي أفضل من حُكْم الله تعالى . أما إذا لم يحكم بالشرع الإلهي تحت ضغوطات معيَّنة أو اتباعاً للهوى فهو حينئذ ظالم فاسق ولا يخرج من الملة .

وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ قال: ((إنه ليس بالكُفر الذي يذهبون إليه ، إنه ليس كفراً ينقل عن المِلَّة ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ ، كُفر دون كُفر))[24].

وهذا الكُفرُ الذي لا ينقل عن الملة أُورد بمعناه اللغوي لا الاصطلاحي . فالكُفر (لغةً) يَعود إلى " الكَفْر " (بالفتحة) بمعنى السَّتْر والتغطية . فمن لم يحكم بشرع الله تعالى قد كفر الحُكمَ الشرعي ، أي ستره وغطَّاه وتجاوزه ولم يخضع له ، لا بمعنى الجحود والإنكار .

والحُكم بالشريعة قضيةٌ أساسية لا يمكن التساهل فيها أو أخذها بشكل اجتزائي . فينبغي أن تكون دساتير الدول مستمدةً من الشريعة الإسلامية كمصدر وحيد للتشريع ، وفي هذا ضمانة لاستقرار الفرد روحياً ومادياً ، وازدهار المجتمع بكل أطيافه ، وبكل أبنائه من المسلمين وغيرهم ، مما يؤدي إلى صناعة نهضة حقيقية متصلة بالسماء .

فتطبيقُ الشريعة لا يُشكِّل خطراً على أحد . فالشرعُ الإلهي هو الضمانة الأكيدة لنهضة المجتمعات ، وصَوْنها من أعداء الداخل والخارج ، وحماية المكتسبات الحضارية للفرد والجماعة ، حيث يعيش الجميع ضمن حالة مزدهرة من السِّلم الأهلي ، والسلامِ الاجتماعي الذي يحضن كلَّ أبناء المجتمع على اختلاف أديانهم ومنابتهم وأصولهم .

---

(٢٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢١٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وفي ظل مجتمع الإخاء سوف تتعزز قيم التسامح والنماء والانتماء على أرض الواقع ، وليس بصورة شعاراتية جوفاء.وعندئذ يكون الإنسانُ المناسب في المكان المناسب داخل مجتمع يُقدِّر أبناءه ويُطوِّر إمكانياتهم ويضعهم في مكانهم اللائق بهم لكي تدور عجلة التنمية واقعاً ملموساً لا حِبراً على ورق .

إن تحكيم الشريعة في حياة المجتمعات سيُلغي الشططَ الطبقي ، ويقضي على الفوارق الطبقية _ بمعناها التمييزي السلبي _ . فعندئذ يقدرُ الضعيفُ على أخذ حقه من القوي ، كما أن القوي تُوجَّه قوته في سُبل الخير فلا يُنقَص من مكانته أو حقوقه . ولن يشعر الفقراء بأنهم منبوذون في مجتمع يحتقرهم ويقهرهم ، ولن يشعر الأغنياء أنهم محل الحسد والتربص بثروتهم والاستيلاء على ممتلكاتهم . ولن تشعر المرأة بأن حقوقها مهضومة ، وأن المجتمع ينظر إليها نظرةً دونية محصورة في إطار نيل المتعة الشهوانية . ولن يشعر الرَّجل بأن السُّلطة السياسية والاجتماعية تضغط عليه وتزدريه ... إلخ . وهذه نماذج اجتماعية على سبيل الذكر لا الحصر . وبعبارة أخرى ، إن تحكيم الشريعة سوف يُعطي لكل ذي حق حقه ، فيتكرس المنهجُ المتماسك الذي يجعل السُّلطات في المجتمع متوازنة لها حقوقها وواجباتها دون تطرف .

لكنَّ بعض الجهات المغرِضة المرتبطة بأجندات خارجية تُخوِّف من تطبيق الشريعة . وحجتها الواهيةُ المكرَّرة تتمثل في أن تطبيق الشريعة تخلف ورجعية ، وتطبيق الحدود (قطع اليد ، الرَّجم ، الجلد ، ...) يُعتبَر معادياً لحقوق الإنسان وعودةً إلى العصور البدائية ! ، وأن الأقليات الدينية سوف يتم اضطهادها وتخسر حقوقها . وهذه الأسطوانةُ المشروخة عبارة عن سيناريو متكرر ومحفوظ سلفاً ، وقد صار مكشوفاً ومفضوحاً في آن معاً .

فتطبيقُ الشريعة هو قمة الحضارة والمدنية المتصلة بالسماء ، وعندما كان المسلمون يُطبِّقون الحدودَ الشرعية كانت الحضارة العربية الإسلامية تسيطر على كوكب الأرض ، وتنشر القيم الحضارية والازدهار في كل مكان ، فلماذا لم تُصَب بالتخلف أو الانكسار ؟ . وإن واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة يخلو من تطبيق الحدود فلماذا لم تزدهر هذه المجتمعات ؟ .

أما الحدودُ الشرعية فهي إجراءات ردع وتخويف ، ولها شروط صعبة للغاية من أجل تطبيقها . وعندما كان المسلمون يُطبِّقون الحدود في عصور الازدهار لم يتحول المجتمع إلى مجموعة مشلولين ومعاقين وتوقفت عملية الإنتاج . وعددُ الذين طُبِّقت عليهم الحدود عبر تاريخ الحضارة الإسلامية قليلٌ جداً ، بحيث لا يُذكر .

أما ورقةُ الأقليات التي يُلعَب بها فهي ورقة محروقة . فقد عاش اليهود والنصارى وغيرهم في كنف الدولة الإسلامية المحكومة بالشريعة كل هذه القرون ، ولم نسمع عن إجبارهم على اعتناق الإسلام ، أو هدم أماكن عبادتهم أو الاعتداء على أعراضهم أو سرقة أموالهم . وما وجودهم بيننا حتى هذه اللحظة إلا مؤشر على حسن معاملتهم . مع أنه كان سهلاً استئصالهم .

الفصل الرابع

الشخصية النبوية

تمهيد

لا شك أن شخصية النبي محمد ﷺ هي الشخصية المركزية في التاريخ البشري ، وهذا عائد إلى عوامل كثيرة ، كالرعاية الإلهية المخصوصة التي أحاطت به ﷺ وسدَّدت خطاه في طريق الحق الكَوْني الساطع ، والمزايا الذاتية في إنسانية محمد النبي والرسول والزوج والأب والقائد الروحي والقائد العسكري، والبيئة المرافقة لظهوره ﷺ، فكلنا نعلم أن الإنسان ابن بيئته ، وكذلك الأنبياء هم أبناء بيئتهم ، الحاملون لطموح الأفراد وآمالهم وأحلامهم ، الشاعرون بمأزق قومهم ، المهتمون بإنقاذ أقوامهم وانتشالهم من المستنقع .

وهذا الحرص على مساعدة الناس والأخذ بأيديهم إلى بر النجاة ، يشير إلى أحد أهم أبعاد النبوة، وهو الخلاص الجماعي. فالنبي ﷺ لم يأت لإنقاذ نفسه وأسرته فقط، بل تتعدى الجهود لتشمل الجماعة البشرية ككل . وهذه إشارة واضحة على أن النبوة ليست مشروعاً شخصياً عشائرياً، وإنما هو مبدأ كَوْني شامل للخلاص ، خلاص الإنسان في الدنيا والآخرة .

وقد كان النبي محمد ﷺ أفضل من قام بأعباء النبوة على أكمل وجه ، وأعطى زخماً محورياً للوجود البشري كي يضطلع بمسؤولية تنفيذ مراد الله تعالى ، وهو تحقيق الخلافة في الأرض ، وإعمارها استناداً إلى مساعدة الناس لا استغلالهم .

ولما كانت النبوة منهجيةَ حياة شاملة كان لزاماً أن تتوفر في ذات النبي ﷺ صفاتٌ مميَّزة قادرة على تنفيذ الأوامر الإلهية بكل دقة ووضوح . فليس النبي فيلسوفَ الطلاسم وتنميق الكلام ، أو شاعراً للقبيلة أو البلاط ، أو رَجلَ أعمال همه تحقيق الربح الوفير من أجل عيش رغيد في القصور مع الجواري . وإنما هو إنسان جاءته النبوة منحةً ربانية ، ومحض فضل من الله تعالى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . وبالطبع فإن الله تعالى لن يضع النبوة في قلب نجس ، ولن يختار أشخاصاً مشبوهين لحمل كلمته ، بل سيختارهم لأنهم أهلٌ لذلك من حيث الطهارة والنقاء والقوة الروحية والمادية ، وكل ذلك بتوفيق الله وحفظه .

***

١_ الشخصية :

لا يخفى أن شخصية النبي ﷺ هي المحور المركزي في التعامل مع الناس . وذلك راجع إلى كون النبي زعيماً اجتماعياً صاحب علاقات اجتماعية واسعة لأن النبوة تتطلب اتصالاً بالجماهير ، واطلاعاً على أحوالهم في سبيل دعوتهم وإرشادهم . ومن هنا تنبع أهمية الشخصية في استقطاب الأتباع المؤمنين بالرسالة النبوية .

وكما أن الانطباع الأول عن الأشخاص مهم للغاية في الحياة الاجتماعية، فإن الأهمية تتضاعف في حال الأنبياء_ عليهم الصلاة والسلام_ لأنهم لا يتكلمون باسمهم، بل باسم الله تعالى ، ويحملون كلمته. وهذا مهم للغاية في انتشال البشر من مستنقع الصدود والجحود، وتوجيههم في طريق الله تعالى . وهذا يجعل الشخصية النبوية بالغة الأهمية في إقناع الناس ، ونيل قبولهم وإيمانهم . فالناس _ بطبيعتهم _ يُجذَبون إلى أصحاب الشخصية المركزية اللطيفة الواثقة المحبَّبة للنفوس التي تتعامل بإشراق ومحبة وفكر صاف ، وينفرون من أصحاب الشخصية المضطربة التي لا تتمتع بالتألق والجمال . وهذه هي طبائع البشر في شتى الأزمان ، ومن شتى الملل والنحل . لذلك اختار اللهُ تعالى أنبياءه _ عليهم الصلاة والسلام_ أصحاب شخصيات جذابة وواعية ومكتملة الخِلْقة والأخلاق ، لتكون الدعوة أشد تأثيراً في النفوس ، وأعمق أثراً على المدى القريب والبعيد .

قال الله تعالى : ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضوا من حَوْلك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمتَ فتوكلْ على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وهذه الآية توضح معالم هامة في طريق السلوك النبوي المستقيم الواعي الذي يجذب الأتباع، ليس لتحقيق غرض شخصي أو منفعة دونية آنية ، بل لتحقيق مبدأ الإنقاذ البشري الكَوْني ، وتخليص الناس من عبء خطاياهم، ومنحهم النعيم الأبدي في الآخرة مع الحياة الطيبة في الدنيا.

فرحمة الله تعالى جعلت من النبي ﷺ لَيِّناً سهلاً بلا تعقيدات أو إجراءات بيروقراطية للوصول إليه، أو مدير مكتب يقف كعازل بينه وبين الناس . فالليِنُ في طبعه ﷺ صفة محبَّبة جاذبة للآخرين ، لأن الناس بحاجة إلى شخص يسهل التعامل معه دون تواضع مصطنع أو تكبر متغطرس، فأساس العلاقات الاجتماعية هو التعامل البنَّاء والتواصل الفعال بين الأطراف الإنسانية المختلفة في عقولها ومكانتها .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٦) : ((يقول تعالى مخاطباً رسوله ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظه : ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ﴾ ، أي : أي شيء جعلك لهم لَيِّناً لولا رحمة الله بك وبهم ... وقال الحسن البصري : هذا خُلق محمد ﷺ بعثه الله به)) اهـ .

فبرحمةٍ من الله تعالى لانَ النبيُّ ﷺ للناس ، وصار ليِّن الجانب . وهذا يدل على أهمية الأخلاق التي تشكِّل الإطارَ العام للشخصية ، وتعطي الشرعيةَ الجاذبة للذات البشرية في تعاملها مع المخلوقات بشكل عام .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٦) : ((﴿ ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضوا من حَوْلك ﴾، والفظ الغليظ . والمراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك ﴿ غليظ القلب ﴾، أي : لو كنتَ سيء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك ، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم)) اهـ . وفي الشفا للقاضي عياض (١/ ٢٤) : ((قال السمرقندي : ذكَّرهم الله مِنَّته أنه جعل رسوله رحيماً بالمؤمنين ، رؤوفاً ، لين الجانب . ولو كان فظاً خشناً في القول لتفرقوا من حوله ، ولكن جعله الله تعالى سمحاً سهلا طلقاً براً لطيفاً . هكذا قاله الضحاك)) اهـ .

وبالقطع فإن الفظاظة وغلظة القلب تتنافيان تماماً مع ماهية النبوة ، وإشفاق النبي ﷺ على الناس ، وحرصه على إيمانهم وإنقاذهم من النار . كما أن الصفات القبيحة تساهم بشكل أساسي في تنفير الناس وطردهم وإبعادهم ، وأحياناً يترافق وجود الحق على لسان شخص فظ ، مما يشوِّش على معنى الحق ، ويعطي انطباعاً سلبياً عنه . وهذا يضر بمصلحة الدعوة والهداية والرشاد . لذا كانت شخصية النبيﷺ هي المفتاح لشخصيات الناس ، إذ إنها الشمس التي تدور حولها الكواكب. وأي خلل في الشخصية سيجعلها تؤدي دوراً عكسياً ، فبدلاً من جذب المؤمنين ستنفِّرهم . وهذا محال في حق النبوة لأنه ضد مراد الله تعالى .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٧٤٧): عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو ابن العاص _رضي الله عنهما_قلتُ: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : ((أجل ، ... ، ليس بفظ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر)).

وهذه الصفات عبارة عن ركائز أساسية في طريق تثبيت الفاعلية الذاتية للشخصية البشرية ، وانعكاسها على الأفراد من أجل كسب قلوبهم واقتناعهم بجدوى الإيمان والالتزام بمنهاج النبوة واحترام المبعوثين من قِبَل الله تعالى . فالفرد لا يمكن أن يحترم شخصاً منفِّراً ، أو يقتنع بكلامه

ويأخذه على محمل الجد .

وعن سعد بن أبي وقاص قال : استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب، قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك،فقال عمر: أضحك الله سِنَّك يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: ((عجبتُ من هؤلاء اللاتي كُنَّ عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب)) . فقال عمر : فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله ، ثم قال عمر : يا عدوات أنفسهن ، أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟،فقلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ [1].

ومن هنا يظهر تميز النبي ﷺ عن أصحابه بأنه صاحب القلب الواسع ، والأخلاق الحميدة في أقصى مداها البشري. لكن البعض قد يستشكل ألفاظ الحديث مثل " أفظ " و" أغلظ "، فيظن أن النبي ﷺ فظ وغليظ ، لكن بدرجة أقل من أصحابه _ رضي الله عنهم _ ، عملاً بظاهر الحديث الذي يدل للوهلة الأولى على المفاضلة والاشتراك في الصفة . لكن الأمر بحاجة إلى تعميق أسس الاستنباط والاستدلال ضمن المفهوم السياقي اللغوي . فقد قال الحافظ في الفتح (١/ ١٦٨) : ((وقوله أنت أفظ وأغلظ ليس المراد به المفاضلة ، بل بمعنى فظ وغليظ)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ صاحب القلب الرحيم ، والصدر الواسع ، والأسلوب الطيِّب الليِّن . وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضوا من حَوْلك ﴾ [آل عمران: ١٥٩] . وهذا يستلزم أنه ﷺ لم يكن فظاً ولا غليظاً . ويمكن أن تكون الغِلظة صفة للنبي ﷺ في بعض الأوقات ، وليست صفةً لازمة له ، مثل غلظته على الكافرين والمنافقين ، وشدَّته عليهم . كما قال الله تعالى : ﴿ جَاهِد الكفارَ والمنافقين واغلظْ عليهم ﴾ [التوبة : ٧٣] . كما أنه ﷺ كان يَغضب ويشتد عند انتهاك حُرمات الله تعالى تعظيماً لله تعالى ، وليس تعظيماً لنفسه الشريفة .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٧) : ((وكان النبي ﷺ لا يواجه أحداً بما يكره إلا في حق من حقوق الله ،وكان عمر يبالغ في الزجر عن المكروهات مُطْلقاً، وطلب المندوبات، فلهذا قال النسوة له ذلك)) اهـ .

وقال السيوطي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ٣٨١) : ((ويستكثرنه ، أي يطلبن كثيراً من كلامه وجوابه لحوائجهن وفتاويهن)) اهـ .

---

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري(٣/ ١٣٤٧)برقم(٣٤٨٠).ومسلم (٤/ ١٨٦٣) برقم (٢٣٩٦).

أما قوله تعالى : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ فيعكس الارتباط الوثيق والعلاقة الاجتماعية الإيمانية المتينة بين النبي ﷺ والمؤمنين ، من حيث العفو عنهم الذي سيكون له بالغ الأثر في ازدياد إيمانهم به ، والتفافهم حوله ، وثقتهم به . وهذا كله يعزز الوشائج بين المعلِّم والتلاميذ . ويأتي الاستغفار لهم ليدل على استحالة تخلي النبي ﷺ عن أتباعه في السراء والضراء ، إذ إنه مهتم بهم لدرجة أنه يستغفر لهم من ذنوبهم لكي يخلِّصهم من عبء الذنوب ، وهذا كله يعطيهم ثقةً بالنفس، ودفعةً إلى الأمام من أجل بناء مجتمع متماسك غير مهزوز .

وتأتي المشورة ﴿ وشاوِرهم في الأمر ﴾ لتؤسس معنىً سامياً في تحمل المسؤولية بشكل جماعي . فالنبي ﷺ الذي يأتيه وحي السماء المعصوم لا يحتاج إلى أية مساعدة بشرية ، أو آراء إنسانية من هنا وهناك . ومع هذا فإن مبدأ الشورى يوحِّد كلمةَ الأُمة ، فيشعر الجميع بأنهم معنيون بأمر الدعوة الإسلامية وبناء المجتمع الطاهر وتنمية الموارد البشرية والمادية عن طريق إعمار الأرض تحقيقاً لمفهوم الخلافة . فهذه ليست قضية النبي ﷺ وحده ، بل قضية كل المؤمنين المسؤولين عن حمل أمانة الدِّين بكل تطبيقاته . مما يجعل الأفراد ينظرون إلى أنفسهم نظرة أهمية ، حيث يؤخذ رأيهم في المسائل الحساسة، وليسوا مجرد تحصيل حاصل أو ببغاوات يرددون ما يسمعون دون إعمال عقولهم . وهذا يزيد ثقتهم الحاملة لأعباء المسؤولية ، حيث يجعلهم ينظرون إلى أنفسهم نظرة صناع الحدث ، وليس مجرد المتفرجين عن بعد . وهذا له أبعد الأثر في بناء شخصية الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وفق مبادئ الدفء الاجتماعي والمسؤولية السياسية الأخلاقية ، فتغدو قلوبهم شاعرةً بدفء العلاقة الاجتماعية ، وتصير عقولهم شعلة تفكير في اختيار المنهاج الأكثر نجاعةً للتصرف إزاء المواقف الصعبة . وأيضاً لكي يقتديَ حكام المسلمين في كل الأزمنة والأمكنة بمنهج النبي ﷺ بتطبيق مبدأ الشورى ، وأن لا يستبدوا برأيهم ، أو يأخذهم الاعتداد بالنفس المبالغ فيه الذي يمنع تطبيق الشورى بزعم أن الحاكم رأيه هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ ، ولا يُستدرَك عليه .

وجاء مبدأ الشورى مطبَّقاً عملياً لا شعاراً مفرغاً من المعنى أمام وسائل الإعلام لخداع الرأي العام . فالشورى حياةٌ ، ومنهج تطبيقي على أرض الواقع أرسى دعائمه النبيُّ ﷺ واقعاً ملموساً في مواقف بالغة الحساسية ، ولحظات مفصلية في تاريخ الأمة الإسلامية .

فحدثت المشورة يوم بدر ، وهي لحظة مفصلية تتضمن حرباً شرسة في بدايات الدعوة الإسلامي .

ففي صحيح مسلم(٣/ ١٤٠٣): ((عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان. قال : فتكلم أبو بكر ، فأعرض عنه . ثم تكلم عمر، فأعرض عنه. فقام سعد بن عبادة، فقال إيانا تريد ؟ ، يا رسول الله ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها _ يعني الخيل_، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد _ اسم مكان _ لفعلنا)) .

وهنا تتجلى المشورة في أبهى صورها بين القائد والأتباع . وقد أراد النبيُّ ﷺ رأيَ الأنصار لأنه لم يكن قد بايعهم على الخروج للقتال ولقاء الأعداء. وقد أحسن سعد بن عبادة_ رضي الله عنه _ في كلامه الذي يدل على قوةِ الإيمان ، ورباطة الجأش ، والشجاعة في مواجهة الأعداء . وهذا ليس مستغرباً على الأنصار .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٢٤) : ((قال العلماء : إنما قصد ﷺ اختبار الأنصار لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدو ، وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده . فلما عرض الخروج لعير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم يوافقون على ذلك ، فأجابوه أحسن جواب بالموافقة التامة في هذه المرة وغيرها ، وفيه استشارة الأصحاب وأهل الرأي والخبرة)) اهـ .

وشاوَرهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين . مما يدل على أهمية المشورة في فقه التعامل مع الأعداء عند الأزمات .

ففي صحيح البخاري (٤/ ١٥٣١) : أن النبي ﷺ قال : ((أشيروا أيها الناس عليَّ ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله _ عز وجل _ قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين _ مسلوبين _)) ، قال أبو بكر : يا رسول الله ، خرجتَ عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صَدَّنا عنه قاتلناه .

وشاور النبي ﷺ في حادثة الإفك حيث تم اتهام السيدة عائشة _ رضي الله عنها_ بالزنا . فعن عائشة _ رضي الله عنها _قالت: لما ذُكر من شأني الذي ذُكر ، وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ خطيباً ، فتشهد فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : ((أما بعد ، أشيروا عليَّ في أناس أبنوا أهلي _ يعني : اتهموهم وذكروهم بسوء _))[2] .

(٢) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٨٠) برقم (٤٤٧٩)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩) برقم (٢٧٧٠).

واستشار النبيﷺ علياً وأسامة في فراق عائشة _ رضي الله عنها _ . حيث دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد_رضي الله عنهما_ حين استلبث الوحي (أبطأ) يسألهما ، وهو يستشيرهما في فراق أهله[3] . وهذه مشورة في أدق تفاصيل الحياة العائلية بين الرَّجل وزوجته، علماً بأن العلاقة بين الزوجين خاصةٌ للغاية ، وتجري خلف ستائر موصدة . وقد أراد النبي ﷺ تأسيس مبدأ الشورى في العلاقات الأسرية والاجتماعية ، والأخذ بكلام الثقاة أصحابِ الخبرة والرأي الثاقب .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٥٦) : ((وشَاوَرهم أيضاً أين يكون المنزل ، حتى أشار المنذر بن عمرو المعنق .. بالتقدم إلى أمام القوم . وشاوَرهم في أُحد في أن يقعد في المدينة ، أو يخرج إلى العدو ، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم ، فخرج إليهم . وشاوَرهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ ، فأبى ذلك عليه السعدان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فترك ذلك)) اهـ .

وهذه المنهجية الشاملة من الشورى في الأمور الحربية العسكرية ، والعلاقاتِ الاجتماعية ، والمصالحِ التجارية ، تدل _بدون أدنى شك _ على شمولية مبدأ الشورى ، وعدم اقتصاره على مجال دون آخر. وبالطبع فإن المشورة إنما تؤخذ من أهل الخبرة والكفاءة والاختصاص، كلٌّ حسب مجاله . وقد يؤيد الوحي رأيَ أحد الصحابة ويعتمده إذا أصاب مرادَ الله تعالى . وهذا يدل على أهمية رأي الصحابة ومشورتهم التي أدَّت إلى إعمال عقولهم وفكرهم في خدمة الدعوة ، وأن لا يكونوا في موقف المتفرج عن بعد ، وإنما يشاركون في صناعة الأحداث ، وإبداء أحكامهم في المسائل المختلفة . فالإسلامُ ليس سُلطةً قمعية يجبر مُعتنقيه على الاتباع الأعمى ، بل يحثهم على التفكير والنقد الاجتماعي ، ودعم الخير ، ودحض الباطل .

قال عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه _ : ((وافقت ربي في ثلاث ، فقلت يا رسول الله : لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصلى فأُنزلت: ﴿ واتخِذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[البقرة: ١٢٥]. وآية الحجاب، قلت يا رسول الله: لو أمرتَ نساءك أن يحتجبن فإنه يكلمهن البَر والفاجر، فنزلت آية

---

(٣) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٦٨٢) برقم (٦٩٣٥)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩) برقم (٢٧٧٠).

الحجاب . واجتمع نساء النبي ﷺ في الغَيرة عليه ، فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، فأُنزلت هذه الآية))[4] .

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٩٢) : ((ذكر ابن بطال أمثلة مما عمل فيه ﷺ بالرأي من أمر الحرب ، وتنفيذ الجيوش ، وإعطاء المؤلفة ، وأخذ الفداء من أُسارى بدر ... قال : ولا تكون المشورة إلا فيما لا نص فيه)) اهـ .

وهذه قاعدة جليلة ، فلا يُعقَل أن الله تعالى يوحي للنبي ﷺ بفعل شيء ما ، ثم يترك النبي ﷺ أمرَ ربه تعالى ، ويذهب لأخذ رأي الصحابة ، ومشورتهم ، والوقوف على كلامهم . فالشورى محكومة فيما لا نص فيه . أما إن نزل الوحي بأمر ما ، فعندئذ لا خيرة للمؤمنين من أمرهم .

وهناك صفات أخرى تساهم بشكل فعال في صياغة شخصية النبي ﷺ بصورة فعالة وجذابة لما لها من أبعاد أخلاقية حاسمة في نقل المجتمع من حالة الانكسار إلى حياة التماسك والأمل . ونقل الأفراد من أطوار اللاجدوى إلى واقعية الحلم والحياة الفضلى .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسولَ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ويأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتبارهما جناحين لإصلاح الفرد والمجتمع ، وتجذير الأخلاق السامية التي تدفع عجلةَ التقدم إلى الأمام وفق المعايير الواعية المشيَّدة على قواعد إنقاذ الناس لا استغلالهم ، ومد يد العون للجميع خصوصاً الطبقات الاجتماعية المتدنية التي لا تقدر على فرض وجودها بسبب الفقر أو الجهل . وهكذا يغيب الشطط الطبقي ، وتتأسس العدالة الاجتماعية في كل فئات المجتمع .

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٨٢) : ((﴿ ويحل لهم الطيبات ﴾ ، وذلك ما كانت الجاهلية تحرمه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي . ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾، وذلك لحم الخنازير والربا وما كانوا يستحلونه من المطاعم والمشارب التي حرَّمها الله)) اهـ .

---

(٤) رواه البخاري (١/ ١٥٧) برقم (٣٩٣) واللفظ له ، ومسلم (٤/ ١٨٦٥) برقم (٢٣٩٩) بلفظ " وافقتُ ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أُسارى بدر " .

وثنائية التحليل والتحريم جاءت لترد الأمور إلى نصابها الصحيح ، ولمساعدة الآخرين عبر انتهاج طريق الطيبات والابتعاد عن طريق الخبائث ، مما يؤثر إيجاباً على حياتهم وسلوكهم وقواهم. وأيضاً فالتحليل والتحريم هو حق لله تعالى من أجل صلاح المخلوقات ، وهو أعلم بها لأنه خالقها ، ويعلم ما ينفعها وما يضرها. وليست المسألة خاضعةً للعقل البشري ، لأن العقول متفاوتة وقاصرة لا يمكنها أن تلم بالمسألة من كل جوانبها الخفية والظاهرة ، وآثارها قريبة المدى وبعيدة المدى ، لأن العلم البشري محدود . وقد رأينا على مدار التاريخ تناقضات " النظريات العلمية " ، وسقوط كثير منها في ظل تقدم العلم والأدوات التجريبية . وهذا يجعل العلوم البشرية الناقصة عاجزة عن مستوى الوحي المعصوم الذي لا يُنقَد ولا يُنقَض مهما تقدمت البشرية .

قال الطبري في تفسيره(٦/ ٨٢): ((وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن (الإصر) هو العهد ... وأن معنى الكلام: ويضع النبيُّ الأمي العهدَ الذي كان الله أخذه على بني إسرائيل من إقامة التوراة ، والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة كقطع الجلد من البول ، وتحريم الغنائم ، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضة فنسخها حُكم القرآن)) اهـ .

وهذا يدل على أن شخصية النبي ﷺ تمتاز بالرفق واللين في تقديم أوامر الله تعالى ، والتخفيف على الناس ، وعدم التشديد عليهم . وفي ذلك مصلحتهم ، وازدياد قناعتهم بأهمية النبي ﷺ الذي جاء لمد يد العون لهم ، وفتح نافذة الأمل لهم، وهذا ما كان ليتحقق لولا الشخصية المحورية التي تكسب ود الآخرين ، وتقنعهم بجدوى منهاج النبوة ، وفائدة تطبيقه في الحياة العملية ، وآثاره الطيبة في الدنيا والآخرة .

فأبعاد الشخصية الدعوية ليست محصورةً في أسلوب الخطاب ، فهي تتعلق_ أيضاً _ بالصفات الفردية ، والمواهبِ الشخصية ، والأخلاق العامة المحيطة بالشخص . فالناس لا يسمعون كلاماً مجرَّداً ، بل يحيطون هذا الكلام بالطبيعة الشخصية للإنسان الذي يتحدث، لذلك يخرج الكلام محاطاً بتعابير الوجه ، وخلفية المتحدِّث الحياتية ، ومرجعيته الفكرية . ومن خلال هذا المنطلق كانت شخصيات الأنبياء متميزة بالصفات الجليلة ، والمواهبِ العظيمة ، والفصاحة القادرة على إيصال المعنى لكل طبقات المجتمع من رأس الهرم الاجتماعي حتى القاعدة .

ولنأخذ جانباً من التشديد على الأمم السابقة نتيجة قسوتهم . فعن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : ((إن بني إسرائيل كان إذا أصاب أحدَهم البولُ قرضه بالمقراض))[5].

وعن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ : ((أن اليهودَ كانوا إذا حاضَت المرأةُ فيهم لم يُؤاكلوها))[6] .

وكما هو معلوم فليست وظيفة النبي ﷺ أن يكون عبئاً على قومه ، وحِملاً ثقيلاً يحلمون بالتخلص منه . بل وظيفته التخفيف على الناس ، وإعطاؤهم فرصةً ذهبية للحصول على النعيم السرمدي ، والحياةِ السعيدة . فالله تعالى لم يرسل الأنبياءَ _ عليهم الصلاة والسلام_ ليقضيَ على مستقبل المخلوقات ، ويجعل الحياة جحيماً لا يطاق ، ويعذِّب الناسَ . وإنما أرسلهم لتحصل لهم النجاة من النار ، وهذا من رحمة الله تعالى بمخلوقاته .

وهكذا كان منهج التيسير والتخفيف أحد أهم ركائز النبوة المحمدية لما في ذلك من بالغ الأثر في جذب الأتباع وفق نور الحق والحقيقة . والتخفيف لا يعني بأية حال من حال تمييعَ الدين ، أو لوي أعناق النصوص لتتناسب مع الهوى والشهوات الغريزية ، أو الهروبَ من تحمل المسؤولية . وإنما يعني السير في المنهج الوسطي بلا إفراط أو تفريط .

وقد أوصى النبي ﷺ معاذاً وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن قائلاً: ((يَسِّرا ولا تعَسِّرا ، وَبَشِّرا ولا تنَفِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا))[7] .

أما الأغلال التي كانت على الأقوام الغابرة فهي التشديد عليهم، ومنها وجوب قتل بني إسرائيل لبعضهم بعضاً حتى ينالوا التوبة بسبب عبادتهم للعجل . قال الله تعالى : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ [البقرة : ٥٤] .

وتتجذر بشرية النبي ﷺ المحدودة التي لها مقام معيَّن لا يمكن تجاوزه ، لأنه ﷺ يتصرف وفق مراد الوحي الإلهي ، وليس من تلقاء نفسه . لذلك جاء التنبيه على بشرية النبي ﷺ الخاضعة لله تعالى وعلمه اللامحدود . فقال تعالى : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو

---

(٥) رواه الحاكم (٣/ ٥٢٨) برقم (٥٩٦٤) مرفوعاً وصححه ، ووافقه الذهبي . ورواه البخاري (١/ ٩٠) موقوفاً على أبي موسى الأشعري ، وكذلك مسلم (١/ ٢٢٨) .

(٦) رواه مسلم(١/ ٢٤٦)برقم (٣٠٢) .

(٧) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٠٤) برقم (٢٨٧٣)، ومسلم (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٣).

كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِيَ السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٩٤) : ((أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ، ولا أدفع عنها شراً ... إلا ما شاء الله أن يُملِّكني ويمكنني منه)) اهـ .

وهذا درس كبير لخضوع الأنبياء لله تعالى. فهو مالكهم ومالك ما ملَّكهم . ولا يمكن للنبي ﷺ أن يستبد برأيه ، أو يقيم حكماً ذاتياً منفصلاً عن إرادة الله الذي أرسله . وأيضاً هناك تنبيه إلى بشرية النبي ﷺ التي لا ترقى إلى الألوهية ، لأن النبي لو كان إلهاً لما عجز عن جلب النفع أو دفع الضر . ومن هنا تتحدد محدودية مقام النبوة كما أرادها الله تعالى .

فعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه ـ : أن رسول الله ﷺ عاد سعد بن زرارة ، وبه الشوكة ، فلما دخل عليه قال : ((بئس الميت هذا لليهود يقولون : لولا دفع عنه . ولا أملك له ولا أملك لنفسي شيئاً))[8] .

ومعرفة الغيب منفية عن النبي ﷺ ، لأنه لو كان يعلم الغيب لعرف مواطن النعيم فنال منه أكبر قسط ، وعرف مواطن الألم فابتعد عنه . وهنا إشارة إلى أن النبي ﷺ يتلقى الأوامر الإلهية ، فلا يضعها من عقله وخبرته، فهو عاجز عن معرفة الغيب إلا إذا كشف اللهُ له بعض الغيبيات ، ومن كانت هذه حاله فلا بد أن يكون خاضعاً بإرادته ورغماً عنه لعلم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء .

والنبي ﷺ هو نذير وبشير . فالإنذار والبشارة هما قسما النبوة لأنهما يشتملان على الترهيب والترغيب ، وهذان الجانبان يناسبان كل أنواع البشر ، ولا يمكن لإنسان إلا أن يخضع للترهيب أو الترغيب حسب حالته النفسية وإمكانياته وقدراته العقلية والبدنية . وتتواصل الكشوفات الفكرية والأخلاقية المرتبطة بالشخصية النبوية ، مما يعكس أهمية دورها في تجذير الدعوة ، وترسيخ معالمها في مجتمع بدائي متخلف . قال الله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

هذه الآية الشريفة منهاج متكامل يكشف طبيعةَ المستوى الأخلاقي للنبي ﷺ . فهو لم يأت من كوكب آخر ، بل جاء من قلب بيئته وقومه ، يعرفونه تماماً ، ويدركون نسبَه وأخلاقه وتفاصيل حياته. فالنبي ﷺ هو ابن بيئته، وهذا يجعله أعلم بتفاصيلها وطبيعةِ حياة قومه ، وصفاتهم، ونقاط

---

(٨) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٨) برقم (٧٤٩٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

قوتهم وضعفهم . وهذا يساهم بفاعلية أكبر في تحقيق مراد النبوة . وهو ﷺ حريص على هداية الناس لعلمه المسبق بالجاهلية الشرسة التي تحتوي قومه ، وتجعلهم كائناتٍ لا وزن لها ، هائمة في الصحراء ، بلا تاريخ أو مستقبل . وهذه الدعوة تستلزم الرأفة والرحمة بهم لأنهم نتاج مجتمع قَبَلي صحراوي جاهلي متخلف ، وليسوا خريجي الجامعات أو المدارس النظامية التي تمنحهم جزءاً من الوعي وفهم العالَم .

قال الثعالبي في تفسيره (٢/ ١٦٧): ((وقوله عز وجل: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ الآية . مخاطبة للعرب في قول الجمهور ، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم ، إذ جاءهم بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة ، وشرفوا به غابر الدهر، وقوله : ﴿ من أنفسكم ﴾ يقتضي مدحاً لنسبه ﷺ ، وأنه من صميم العرب وشرفها ... وقوله :﴿ ما عنتم ﴾ معناه : عنتكم . فما مصدرية ، والعنت المشقة . وهي هنا لفظة عامة ، أي عزيز عليه ما شق عليكم من قتل وإسار ، وامتحان بحسب الحق)) اهـ .

واللهُ تعالى يمنُّ على العرب بأنْ جعل منهم نبياً ، وأخرجه من بين أظهرهم . وقد جاءهم بلغتهم العربية ، شريفَ النسب ، رفيعَ المكانة ، طاهرَ الأخلاق ، يريد إنقاذهم من الضلال ، وهدايتهم إلى طريق الحق ، وهذا شرفٌ لهم إلى الأبد .

وفي كتاب معاني القرآن (٣/ ٢٧٠) : ((قال أهل اللغة : يجوز أن يكون المعنى ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي بشر كما أنكم بشر فأنتم تفقهون عنه ، ويجوز أن يكون المعنى أنه من العرب فهو منكم)) اهـ .

وفي تحفة الأحوذي (٨/ ٤٠٩) : ((أي من جنسكم في كونه عربياً قرشياً مثلكم ، تعرفون نسبه وحسبه ، وأنه من ولد إسماعيل ، لا من العجم ولا من الجن ولا من الْمَلك)) اهـ .

وهنا تظهر حكمة الله تعالى في اختيار الأنبياء من بني البشر ، فلو أتى جنيٌّ لدعوة البشر لهربوا منه لاختلاف الطبائع والخِلْقة ، فالجن من النار . وكذلك لو جاء مَلَكٌ لدعوة الناس لما قدروا على التواصل معه ، أو النظر إليه ، لأن مخلوق من النور . وهذا كله سوف يعيق النبوة ، ويلغي شرعيةَ وجودها وجدواها . وقد تجلت حكمة الله تعالى في اختيار الأنبياء من جنس البشر، ليكونوا شركاء في الخِلْقة والعقل والتركيب الجسماني والشهواني وتفاصيل الحياة الدقيقة . مما سيمنح النبوة حاضنةً بشرية ، وقبولاً في أوساط الناس .

وتظل مسألة أُمّية النبي ﷺ إعجازاً فريداً من نوعه وفق حكمة ربانية باهرة . فلو كان النبي ﷺ متعلِّماً لقال الكفار إنه ألَّف القرآن من بنات أفكاره بعد تجميع المعلومات من هنا وهناك بحكم تعلمه ومعرفته بالعلوم المختلفة وقراءة الكتب السابقة. أما في ظل أمية النبي ﷺ ، فلا تظل حُجة للمعارِضين حول سماوية القرآن الكريم ، وأن مصدره إلهي لا بشري . فكيف يأتي أُمِّيٌّ بهذه الكلام المعجِز الذي تحدى كلَّ فصحاء العرب العاجزين عن الإتيان بمثله ؟ . وبالطبع فالأمر ينقلنا إلى المصدرية الإلهية للقرآن فوق مستوى البشر .

قال الله تعالى:﴿وما كنتَ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

وقد قضى محمد ﷺ حياته في قومه ، لا يُحسِن القراءةَ ولا الكتابة . وهذا معلومٌ للجميع ، ومشهور بين الناس . وهذه الصفة (الأُمِّية) لا يمكن إخفاؤها، فهي مكشوفة وليست سراً .

وفي مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠) : ((أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتيَ بهذا القرآن عمراً ، لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أُمي ، لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفته في الكتب المتقدِّمة)) اهـ .

إن صفة الأُمية ثابتة في التوراة والإنجيل كما هي ثابتة في القرآن الكريم . قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسولَ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾[الأعراف: ١٥٧].

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ﷺ أنه قال : ((إنا أُمَّة أُمِّية ، لا نكتب ، ولا نحسب الشهر ، هكذا هكذا))[9] . يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٧/ ١٩٢و١٩٣) : ((قال العلماء : أُمية باقون على ما ولدتنا عليه الأمهات، لا نكتب ولا نحسب . ومنه النبي الأُمي ، وقيل : هو نسبة إلى الأم وصفتها ، لأن هذه صفة النساء غالباً)) اهـ .

وتتوالى الصفات النبوية التي تقود مسيرة الدعوة الإسلامية بكل اقتدار وتأثير في العقول والأبدان . وبالقطع فإن معالم الشخصية النبوية لها جذور واعية ، ومنطق علمي يحترم العقلَ ، ويخاطب الناس حسب تفكيرهم . وهذا كله وفق أسس ثابتة تحدد قواعد التعامل بين بني البشر،

---

(٩) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٧٥) برقم (١٨١٤) ، ومسلم (٢/ ٧٥٩) برقم (١٠٨٠) .

وعلاقتهم بخالقهم تعالى ورسله _ عليهم الصلاة والسلام_ . فالخالق تعالى لم يخلق الناس عبثاً ، ولم يسكنهم في الأرض ليلعبوا ، ويضيعوا وقتهم كلاً حسب هواه وشهواته . فهناك مسار وهدف وحقوق وواجبات . قال الله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أُمرتَ ولا تتبع أهواءهم ﴾ [الشورى : ١٥] .

وهذه الآية الشريفة حدَّدت أركانَ معنى النبوة بشكل تام ، ويمكننا أن نوردها وفق جذرَيْن أساسيين :

١) الدعوة والاستقامة : أي إرشاد الناس إلى الحق ، ودعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى وحده وشرائعه . ولكي تكون الدعوة ذات تأثير في النفوس لا بد أن ترافقها الاستقامة لتعطيَ المثل الرائع للقدوة. فلا يصح أن يدعوَ النبي ﷺ إلى الأخلاق وهو لا يتحلى بها. أو يدعو إلى التماسك الأسري وأسرته مفككة . أو يدعو إلى التقوى وهو لا يعرفها.لذلك كانت الشخصية النبوية هي القدوة الكاملة في القول والفعل. فمحالٌ أن يأمر النبي ﷺ بفعل ولا يأتيه ، أو أن ينهى عن فعل ويأتيه ، لأن ذلك سيكسر القدوةَ في أذهان الناس، فيفقدون ثقتهم بالشخصية الدعوية . فالقرآن الكريم الذي هو دستور الدولة الإسلامية التي أسَّسها النبي ﷺ ، تم تطبيقه كاملاً على أرض الواقع من قِبَل قائد هذه الدولة ﷺ ، مما أقنع الناس بأن الإسلام دين واقعي وعملي لا مجموعة فلسفات مثالية في عالم الأحلام لا يمكن تطبيقها إلا على الورق .

ففي صحيح مسلم (١/ ٥١٢) أن السيدة عائشة_ رضي الله عنها _ قالت : ((فإن خُلق نبي الله ﷺ كان القرآن)) .

إن مقام النبوة هو مقام أخلاقي مستقيم . وهذه الاستقامة الخُلقية ضرورية لتثبيت المرجعية الإيمانية الواضحة التي يعود إليها الأتباع واثقين بها ، ومسترشدين بمنهجها، حيث يرسمون خطواتهم الحياتية على ضوئها . فالنبي ﷺ قد التزم المنهجَ القرآني، فصارت حياته نابعةً من الأخلاق القرآنية الجليلة ، حيث تثبيت الفضيلة ، ورفض الرذيلة .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥١٤) : ((ومعنى هذا أنه _ عليه الصلاة والسلام _ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له ، وخُلقاً تطبعه ، وترك طبعه الجِبِلّي . فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحِلم وكل خلق جميل)) .

وعن أنس بن مالك_ رضي الله عنه_ قال : ((خدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنين ، فما قال لي أُف، ولا لم صنعت ؟ ، ولا ألا صنعت))[10] .

وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على عظمة السَّيد الذي لا يستخدم سلطاته لاستعباد الآخرين ، وممارسة الاستبداد عليهم ، مستغلاً ضعفهم . فالنبي ﷺ حينما يتعامل مع الخادم برفق ، فهو ينطلق من مقام القوة لا مقام الضعف أو قلة الحيلة . لكن مقام القوة النبوية محاط بالأخلاق اللينة ، والرحمة بالمخلوقات ، والأخذ بأيدي الضعفاء ، ومساعدة الفقراء ، وتقدير مشاعرهم وظروفهم الحياتية الصعبة .

ولم يكن النبيﷺ يتطاول على البسطاء مستغلاً اسم عائلته الشريفة القوية . ولم يستعرض عضلاته أمام الضعفاء ليمارس عليهم دكتاتورية السيد المطلق . ولم يستعمل فصاحته ليلفت انتباه الآخرين ، ويتعالى عليهم بما لديه من مقدرة لغوية .

ومما لا شك فيه أن هذا التواضع النابع من موضع القوة والقدرة والسلطة يعكس الشخصية المتكاملة الفريدة للنبي ﷺ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨١٤) : عن عائشة قالت : ((ما ضرب رسولُ الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله ، فينتقم لله _عز وجل _)) .

وهذه الأخلاق الفاضلة المركزية في مسيرة الدعوة لها وقعٌ بالغ التأثير في نفوس الجماهير ، لأنها تجعل من الإيمان واقعاً ملموساً ذا تطبيق فعلي لا مجرد حِبر على ورق. ولا يخفى دور الأخلاق الفاضلة في تقوية دعائم الأسرة التي هي نواة المجتمع، فتصبح العلاقات الاجتماعية أكثر ترابطاً ، وهذا يتيح للمجتمع أن يبدع في كل المجالات لأن الأخلاق الفاضلة في الأُسر هي الركيزة في الانطلاق نحو صناعة مجتمع الفضيلة والتقدم والحضارة بكل فروعها الروحية والمادية.

وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_قال:قال رسول الله ﷺ:((بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق))[11].

وهذا يدل _ بلا شك _ على أهمية الأخلاق في صناعة الحضارات ، وازدهارِ الأمم . فكل حضارة لا أخلاقية قد وضعت قدمها على سلم العد التنازلي، والانهيارِ المريع، والانحدار إلى

(١٠) رواه البخاري (٥/ ٢٢٤٥) برقم (٥٦٩١) ، ومسلم (٤/ ١٨٠٤) برقم (٢٣٠٩) .

(١١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٠) برقم (٤٢٢١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الهاوية. فلا يغتر الإنسان بالرقي المادي إن لم يصاحبه رقي أخلاقي. فالآلة لا يمكن أن تحل مكان الإنسان من ناحية التفكير ، واتخاذِ القرارات، وإعمارِ الأرض، والمستوى الشعوري الوجداني الأخلاقي، والطاقةِ الروحية الخلاقة . فالآلة الميكانيكية لا يمكن أن تحقق مراد الله تعالى في إعمار الأرض ، وتصير خليفةً له، فالإنسان هو خليفة الله في الأرض ، الحامل لعبء الأمانة الإلهية .

وقد كانت الأخلاق هي الركيزة الحقيقية الداعمة لصمود المجتمعات في وجه التحديات الاجتماعية المختلفة ، إذ إن مستوى الوعي البشري بأهمية الصفات الحميدة يشكِّل ضمانةً فاعلة لاستمرار قدرة المجتمع على التحرك في خط مستقيم ، وبشكل مضاد لاحتراف الانحراف . فلا يمكن للطاقة المادية _ وحدها _ أن تصنع مجتمعَ المحبة والتماسك والعدالة الاجتماعية. فالقيم الروحية الأخلاقية ذات التماس المباشر مع جوهر الإنسانية هي التي توفِّر شرعيةَ وجود التجمعات البشرية ، وتضمن ديمومةَ الإنتاج والازدهار . وكما قال الشاعر :

إنما الأممُ الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن الركائز المهمة في الشخصية النبوية عدم اتباع أهواء الناس.فالحق أحق أن يُتَّبع. وأهواء الناس متباينة حسب مصالحهم الشخصية الآنية الاستهلاكية ، ووفق عقولهم القاصرة ، ونظراتهم المحدَّدة في زوايا ضيقة لا يمكن أن تشمل الموضوع من كل جوانبه . لذلك كان اتباع الهوى قاتلاً للإنسان ، لأنه يبعده عن طريق الحق ، ويجعل منه عبداً لشهواته وطمعه وحبه لحطام الدنيا .

ولا يمكن أن يُقام المجد الإنساني إلا على الحق الناصع سواءٌ كان في مصلحة الفرد أو ضد مصلحته _ كما يتصور _ . ومن غير المعقول أن تصير أهواء الناس المتضاربة هي المحرِّك الفاعل في مسار المجتمعات ، والحضاراتِ ، والأمم ، لأن هذا من شأنه بناء الشخصية الإنسانية على الظنون، والشهوات، والشبهات ، والباطل . وما بني على باطل فهو باطل . فالحق هو المنطق الفعلي للحضارة ، سواءٌ حكم لنا أو حكم علينا .

والمسار العملي للنبوة واضح المعالم ثابت الأركان . قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إنما أنتَ مُذَكِّر ﴾ [الغاشية : ٢١] . أي ذكِّرْهم بنعم الله تعالى وشريعته ومنهاجه في الأرض الذي جاء لإسعاد البشرية . فالله تعالى أرسل الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ رحمةً بالخلق لإنقاذهم من العذاب

. ولو عذَّب اللهُ تعالى كل المخلوقات بما فيها الأنبياء والملائكة ، فلا يمكن أن يُستدرَك على حكمه ، أو يُراجَع في قراراته. فأحكام الله تعالى لا تُنقَد ولا تُنقَض. ولكن رحمة الله تعالى الشاملة لكل شيء، جعلت من الأنبياء أصحاب مكانة سامية في الدارين ، والملائكة عباد الله المقرَّبين .

ويأتي التذكير لتحريك العناصر الإيمانية في القلوب المتوارية تحت ركام الذنوب والغفلة والشهوات والضعف البشري المعلوم . ومن شأن عملية التذكير إحياء القلوب الميتة ، وإضاءة شعلة الحق المنطفئة في القلوب ، وزيادة المؤمنين إيماناً وتثبيتاً ودعماً معنوياً للاستمرار في طريق الإيمان ، والثبات عليه . فليست الذكرى مقتصرة على الكفار أو الفساق، بل إن المؤمنين يحتاجون إليها لإعادة شحن طاقتهم الإيمانية ، وإزالة الشوائب على قلوبهم وأرواحهم .

وهناك قاعدة متينة في العمل الدعوي النبوي:﴿ لستَ عليهم بمصيطر ﴾[الغاشية: ٢٢][12].

(١٢) قال بعض أهل العلم بأن هذه الآية منسوخة بآية السيف . راجع الناسخ والمنسوخ لابن حزم (١/ ٦٥) ، والناسخ والمنسوخ للكرمي (١/ ٢٢٤) ، وناسخ القرآن العزيز ومنسوخه لابن البازري (١/ ٥٨). لكن هذا الكلام فيه نظر. إذ إن هناك آياتٍ لا يمكن نسخها لما تتضمنه من أحكام ثابتة . فقد قال ابن الجوزي في مصفى الناسخ والمنسوخ (١/ ٥٩) : ((قيل: نُسِخت بآية السيف . وقيل: معناها لست عليهم بمسلط فتكرههم على الإيمان ، فعلى هذا لا نسخ)) اهـ . والذي يدحض فرضيةَ نَسْخها ما رواه الحاكم في المستدرك(٢/ ٥٦٨)وصححه ووافقه الذهبي: عن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا لحقها، وحسابهم على الله)) ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ((﴿ لستَ عليهم بمصيطر. إلا من تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾)). قلتُ: هناك أمران في المسألة ، الأول ــ إن القتال في الإسلام يكون بضوابط تحددها الشريعة ، ولا يُجبَر أحدٌ على اعتناق الإسلام . أما الكفار المحارِبون والذين يحولون دون وصول الدعوة فهؤلاء يُقاتَلون . والثاني ــ إن سياق الحديث يفيد بأن الحساب على الله تعالى، وحمل الأمور على الظاهر دون السيطرة على الخلق والتجبر عليهم، وإكراههم على الإيمان. فلو كانت ﴿ لستَ عليهم بمصيطر ﴾ منسوخة، فما فائدة أن يوردها النبي ﷺ في حديثه الذي يتحدث عن القتال وامتلاك الله وحده لسُلْطة الحساب ؟. بل إن النبي ﷺ أراد أن يقول إنه ينفِّذ تعاليم الله تعالى في القتال المنضبط لا العبثي الهمجي ، ومع هذا فهو ليس مسيطراً على الخلق ، لأن حسابهم بيد الله وحده ، ودور النبي ﷺ هو إقامة الشعائر وفق الظاهر لأنه لا يملك السيطرة على قلوب الناس وبواطنهم .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (٢٠/ ٥٣) : ((أي لستَ بمتسلط عليهم ، ولا قاهر لهم ، حتى تجبرهم على الإيمان)) اهـ .

وهذه القاعدة الجليلة تدل على أن النبي ﷺ داعيةٌ إلى الله تعالى ، لا يملك السُّلطة على إكراه الناس على الدخول في الإيمان. وليس لديه القدرة على حساب الناس، وإرسالهم إلى الجنة أو النار، لأن هذه الأعمال اختصها الله تعالى لنفسه . فالدعوة النبوية إرشادية تخرج الناس من الظلمات إلى النور . وعند هذه النقطة تنتهي صلاحياتُ النبي ﷺ. وسواءٌ آمن الشخص أم كفر، فإنه يتحمل تبعات اختياره أمام الله تعالى مالك أمور الخلائق ، والذي بيده الجنة والنار . حتى النبي ﷺ شخصياً لا يقدر أن يدخل الجنة بأعماله وإخلاصه إلا أن يتغمده الله تعالى بالرحمة . وهذا يعكس القصور الإنساني ، والحاجة إلى الله تعالى في السراء والضراء .

فعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لن ينجيَ أحداً منكم عملُه)). قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ ، قال : ((ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة))[13] .

٢_ البَعثة :

إن بَعثة النبيِّ ﷺ هي الإشراقة الكبرى في حياة البشرية التي منَّ الله عليها بإرسال حامل الشريعة ، ومنقِذ الناس من الضلال ، ومحقِّق أحلام الجماهير المكبوتة، ومرشِد الأمم الضائعة إلى الحضارة الحقة ، محمد بن عبد الله النبي العربي الأُمي ﷺ .

والرسالة النبوية قائمةٌ على الحق ، وكل حقٍّ لا بد أن يقوم على الحق ، من أجل تشييد بناء النبوة المتماسك، وتطبيق مبادئها واقعاً ملموساً ، لإحداث نقلة نوعية في حياة الأفراد والشعوب : الانتقال من عبادة العبيد إلى عبادة رب العبيد ، والخروج من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، والنجاة من جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام[14] .

---

(١٣)متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٣٧٣) برقم (٦٠٩٨) ، ومسلم(٤/ ٢١٦٩)برقم (٢٨١٦).

(١٤) قال ربعي بن عامر في خطبته أمام رستم قائد جيش الفرس (البداية والنهاية ٧/ ٣٩) : ((الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله)). [راجع أحداث الخطبة كاملةً في الموضع السابق ، وأيضاً تاريخ الطبري (٢/ ٤٠١)، وجمهرة خطب العرب (١/ ٢٤٢)] .

وبهذا تتحقق السعادة المنشودة فيلتقي الإنسان بإنسانيته ، ويجد مسارَه الصحيح بعيداً عن الحيوانية الغريزية ، أو الاستهلاكية الجنونية ، أو العبث المضاد للمبادئ الإنسانية السامية .

وإذا التقى الفرد بكيانه البشري ، فعندئذ سوف يكتشف مسارَه بدقة بالغة ، لأن معرفة الأشياء المحيطة تنطلق من معرفة الذات . فمن خلال تجذير الوعي الإيماني العميق يمكن للإنسان أن ينطلق في الحياة حاملاً شخصية متوازنة ومبدعة ومستقيمة. أما الذين لا يعرفون أنفسهم فسوف يضيعون في متاهات الوساوس الشاذة ، والأيديولوجياتِ المنحرفة . وكما قيل : لا يذهب بعيداً من لا يعرف إلى أين هو ذاهب .

ومن خلال هذا الفهم التأصيلي يمكننا القول إن البعثة النبوية جاءت لكي تعرِّف الإنسان على إنسانيته ، وتعقد مصالحةً بين الفرد وجوارحه ، بحيث يحيا الإنسان في سلام مع نفسه ، ومن ثم ينشر مناخَ السلام في العناصر المحيطة به . فمن غير المنطقي أن يعيش الفردُ جو الحرب في ذاته ، ثم نطلب منه أن يكون عنصر سلام في مجتمعه وكوكبه . لذلك ليس غريباً أن يتحول المسلمون إلى صُنَّاع للسلام المنبثق من موقف القوة لا الضعف .

لذلك كانت طبيعة البعثة المحمدية طبيعةً جماعية تنتشل الأفراد والجماعات من المأزق الوجودي الخطر ، وتتيح لهم آفاقاً واسعة لاكتشاف جوهرهم الفطري بعد أن ينفضوا عنه الغبار ، وبالتالي يلتقون مع فطرتهم السليمة المتجهة إلى عبادة الله الواحد الأحد .

وما انفتاح الطريق أمام الناس إلا ثمرة من ثمار الإشراقة النبوية ، فصارت الأنساق البشرية تملك هدفاً تعيش من أجله ، وتملك صراطاً مستقيماً تسير وفقه . فيحصل الإنسان على الشرف الدنيوي ، حيث السمعة الحسنة ، وإعمار الأرض ، وإنقاذ البشرية . ويحصل على الشرف الأُخْرَوِي ، فينال رضا الله تعالى ، ويستقر في الجنة خالداً بلا موت .

ومن شأن التوحد بين المسار والمصير إغلاقُ الطريق على إفرازات مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة "، لأن الجنة كمصير نقي شريف لا بد أن يكون الدرب إليها طاهراً ، وهذا التوحد بين الوسيلة والغاية يحول دون تناقض الفرد مع ذاته ، والعيشِ في دوامة صراع الأضداد منفصم الشخصية . وهذا هو مبدأ المصالحة الحقيقية بين الفكر الإنساني ومجالِ تطبيقه .

فلم تكن البعثة مشروعاً تجارياً مادياً لاستغلال الفقراء والأتباع ، والضحك عليهم بكلام معسول، أو صفقةً مالية لتجذير سيطرة الأغنياء على الفقراء ، وزواجِ السُّلطة بالثروة ، أو فكرةً عصبية عشائرية لسيادة بني هاشم على باقي القبائل من أجل نيل النفوذ والسيادة ، أو اختراعاً

بشرياً وضعه النبي ﷺ من تلقاء نفسه ، أو نظريةً فلسفية تم تجميعها من هنا وهناك ، أو رحلةً استجمامية لملء وقت الفراغ ، أو أضغاث أحلام لا مستقبل لتطبيقها واقعياً ، أو نظاماً ملكياً أو جمهورياً للسيطرة على موارد البلاد والعباد .

إن البعثة من تجليات رحمة الله تعالى على الخلائق ، حيث أراد الخالق تعالى أن لا يترك عبادَه تائهين كالأنعام دون مسار أو هدف . أراد لهم أن يُعمِلوا عقولَهم ، ويتفكروا في حالهم : من أين جاؤوا ؟ ، ولماذا يعيشون ؟ ، وأين سائرون ؟ .

والبحث عن إجابات منطقية لهذه الأسئلة الحاسمة يدفع الكيان البشري إلى التأمل عميقاً في موقعه الأرضي وعلاقته بالسماء. فيخرج من دوائر الحيوانية الهائمة على وجهها ، والغريزيةِ المسعورة المنفلتة من عقالها . وهكذا ، تتجذر قيمة الحرية في فضاءات العقل المؤمن، وتتأسس منطقية التحرر من سطوة الأساطير والأوهام والوساوس الشيطانية. وحينئذ يقدر الفرد على صناعة قراره بنفسه ، واتخاذ خطوات مصيرية حاسمة في مواجهة التحديات الماثلة أمامه .

ولا يمكن للعقل الخائف أن يُبدع ، لذلك فإن الإيمان يقود العقل إلى الانعتاق من الخوف ، وهذا يمنح العقلَ فرصة ذهبية لكي يفكر بكل حرية ، ويقود المسيرة البشرية على كوكب الأرض بإيمان وكفاءة . ولم تجيء البعثة النبوية لتدفن العقل البشري في حفرة كهنوتية مظلمة ، أو تلغيَ حرية التأمل والتفكير واتخاذ القرارات المصيرية . بل جاءت لكي تنتشل الفردَ من دوائر الهروب من الماضي، وحصارِ القلق على الحاضر، ومأزقِ الخوف من المستقبل، مما يؤدي إلى تحرر الإنسان من سُلْطة العناصر المادية ، والخضوعِ لسياسة الأمر الواقع القاهرة . وبعد تحرره الشامل من ثقل الهواجس الروحية ، والعناصر المادية ، سيتوجه إلى عبادة الله وحده بقلبٍ صافٍ لا شوائب فيه. وهذا هو جوهر التوحيد بأسمى معانيه .

فالله تعالى حينما خلق للناس عقولاً أراد أن تعمل هذه العقول . وكان الله تعالى قادراً أن يخلق الناس كالأغنام تساق حيث أُريد لها دون تفكير أو نقد أو نقض . لكن العناية الإلهية الشاملة لكل المخلوقات ميَّزت بني البشر بنعمة العقل ليعرفوا خالقهم ، وينشروا تعاليمه وتطبيقاتها على كوكب الأرض ، وهم عالمون بما يفعلون، ومقتنعون بجدوى الإيمان . فهم ليسوا آلاتٍ ميكانيكية تعمل وفق أجهزة التحكم عن بعد. بل إنهم حاملون لأمانة الخلافة، وإعمار الأرض، والدعوة الإسلامية ، لأن الحق أحق أن يُتَّبع . وإذا عرف الإنسانُ طريقَ الإيمان وفضائلِ الأخلاق فليس له خيار إلا أن يسير في ذلك الدرب من أجل خلاصه ، وتخليصِ البشرية من الأخطار المحدقة بها .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ [البقرة : ١١٩] .

فأساس الرسالة هو الحق الناصع ، لأن الحق هو مركزية الطهارة . ولما كانت الرسالة النبوية هي منبع الطهارة كان استنادها إلى الحق ، لتترسخ شرعيتها في النفوس، وتثبت تطبيقاتها على الأرض . وبالتالي فالرسالة النبوية تكون ذات مصداقية ومعنى وجدوى ، مما يقوّي موقفها أمام الناس . فأي خللٍ داخلي في أية منظومة سوف يؤثر سلباً على مسارها، ويعيق حركتها، فيفقد الناس ثقتهم بها ، ومن ثم يتفرقون عنها . لذلك كانت المصداقية النبوية هي الجوهر الفكري للبعثة المحمدية . وهذا يفسر الالتفاف الشعبي حول منظومة البعثة المحمدية الإسلامية ، وحجم التضحيات التي بُذِلت في سبيل إيصال تعاليم هذه البعثة إلى أصقاع الأرض .

وكل رسالةٍ نبوية إنما لها وجهان : البشارة والإنذار . البشارة بوجود الجنة النعيمِ الأبدي الذي لا ينتهي ، والإنذار بوجود النار اللانهائية . ولأن النفوس تختلف، كان هناك أفراد تؤثر فيهم البشارة ، والحديث عن النعيم . وهناك أشخاص آخرون يجب أن يستشعروا العذاب والإنذار ليتأثروا بشكل أكثر جدوى، ويلتزموا بالطريق القويم . وهذا يدل على شمولية الرسالة النبوية لكل طبائع الناس المختلفة حسب قدراتهم العقلية والبدنية .

والنبي ﷺ مأمورٌ بالتبليغ واتخاذِ الوسائل الصحيحة لإيصال الدعوة الإسلامية نقيةً من الشبهات ، طاهرةً من الشوائب . أما ما وراء ذلك من تحقيق النتائج فليس من اختصاص الرسالة النبوية. وعليه فإن النبي ﷺ غير مسؤول عن أصحاب الجحيم، وهم الكفار الذين رفضوا الدعوةَ ، لأنه أدّى أمانةَ التبليغ كاملةً غير منقوصة .

وكل إنسان يتحمل مسؤولية اختياره . وكما قال الله تعالى على لسان شعيب ﷺ : ﴿ يا قَوْمي لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ [الأعراف : ٩٣] . أي : كيف أحزن على قوم كافرين ؟! . ونلاحظ من سياق الآية الشريفة أن النبي شعيب ﷺ قام بأداء مهمة التبليغ بشكل كامل وواضح ، بلا نقص أو خلل . وذلك نابعٌ من حرصه على تنفيذ أوامر الله تعالى بكل دقة ، وإشفاقه على قومه ، حيث يريد لهم السعادة والنجاة .

وهكذا هي الشخصية النبوية على الدوام . شخصية متماسكة ، وواثقة من نفسها ، ومشفقة على الآخرين ، فتمد لهم يد العون ، ولا تبخل بإسداء النصيحة الصادقة ، وتوضيح المنهج السليم الموصل إلى الحق .

لكن الأنبياء لا يقدرون على إدخال الإيمان في قلوب الناس ـ رغم أنوفهم ـ ، لذلك تتجلى مهمتهم في التبليغ الصافي ، والناس أحرارٌ في الإيمان أو الكفر. ﴿ فَمَن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] . ووفق هذه القاعدة يتحملون مسؤولية اختيارهم أمام الله تعالى الذي يملك ـ وحده ـ سُلْطة حسابهم .

ومن الأمور القطعية أن بعثة النبي ﷺ عالميةٌ وناسخةٌ لما قبلها . قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالَمِين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

فالبعثة النبوية المحمدية ليست مخصوصة بقوم دون قوم ، بل هي شاملة لكل الأقوام في شتى الأزمنة والأمكنة لأنها هي الشريعة الباقية حتى يوم القيامة، وكما هو معلومٌ لا نبي بعد محمد ﷺ . لذلك فالعناية الإلهية أَرست معالم طريق الهداية والوحي الرباني حتى انتهاء الحياة على الأرض . فإن كان النبي ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى تعالى ، فالوحي ما زال بيننا ، وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وقد جاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ بالإعلان عن أن دعوته عالمية شاملة للجميع ، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وهذه الدعوة العالمية من شأنها تعميم النور الإلهي على كوكب الأرض ، فقد جاءت لإنقاذ البشرية عامةً ، ولم تجيء لإنقاذ قومية معينة أو عائلة محددة . لذلك اقتنع الجميع بأن الدعوة المحمدية الإسلامية مشروع عالمي لتحرير الإنسان الكَوْني ، وانتشال الشعوب المقهورة من مستنقع الجهل والمرض والتبعية والعبودية ، ومساندة الضعفاء عن طريق استئصال نقاط ضعفهم ، وإحلال نقاط القوة مكانها ، مما يجعل منهم أحراراً يملكون قرارَهم ، ويواصلون مسيرتهم نحو شمس الحرية والتقدم دون خوف أو خجل من أنفسهم .

والثقة بالنفس ، والاعتزاز بالذات ، والشموخ الذي لا ينكسر أمام الشهوات والشبهات. كل هذه القيم قام الإسلام بزراعتها في النفوس، فنشأت أجيال ذهبية لا تسكت على الظلم ، ولا تنام مقهورةً، ولا تهرب من تحمل المسؤولية . وما كانت الدعوة الإسلامية لتجتاح العالم بالمعاني الطاهرة ، والأخلاقِ النبيلة ، لولا وجود أجيال مؤمنة تم تأسيسها على القواعد الشرعية الإسلامية التي تعلن حرباً بلا هوادة على الباطل ، أينما وُجِد ، دون أية حصانة لأحد ، كائناً من كان . لذا فليس غريباً أن تكون الدعوة الإسلامية أكبر انقلاب في تاريخ البشرية .

وفي صحيح البخاري (١/ ١٢٨) عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: ((وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصة ، وبُعِثتُ إلى الناسِ عامة)).

ونستدل من هذه اللغة النبوية على المكانة السامية لرسول الله ﷺ الذي يمتاز بعالمية دعوته بعكس الأنبياء السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ . وفي ذلك إشارة واضحة على عظمة رسالته وتميزها ، وعلو رتبته ، وقوة حجته، إذ إن النبي الخاتَم الناسخ لما قبله ، والقائد العالمي لمسيرة البشرية حتى يوم القيامة بلا منازع.وبالتالي فلا يمكن للإنسان أن ينال الخلاصَ الأبدي إلا بالمرور من شريعة محمد ﷺ، ولا يقدر أي شخص أن يتجاوزها مهما علا كعبُه في حقل العلم والمعرفة .

والبعثة النبوية جاءت حاكمةً على الناس معتمدةً على أن الحاكمية لله تعالى الذي أرسل أنبياءَه _ عليهم الصلاة والسلام_ . قال تعالى : ﴿ إِنِ الحكمُ إلا لله ﴾ [الأنعام : ٥٧] . فهذه الحاكمية المطلقة بيد الله وحده، لكي يدرك البشر أنهم محكومون بشريعة إلهية _ شاؤوا أم أَبَوا _ ، لأن العبد لا يملك أن ينازع سَيِّده في حُكمه . ولا يرضى الخالق الصانع أن يتساوى مع المخلوق المصنوع .

قال الله تعالى:﴿إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[النساء: ١٠٥].

إذن ، نخلص إلى القول بوجود حُكم للنبي ﷺ مشيَّد على أركان ثابتة مستمدة من وحي الله تعالى وتوفيقه . وفي الأصل إن البعثة النبوية المحمدية هي حُكْمٌ على العباد ، وحكمٌ بين العباد . بمعنى أنها حُجَّةٌ على الخلائق ، وإقامة البينة عليهم . وفي نفس الوقت شريعةٌ تنظِّم أمورهم ، وتحل منازعاتهم ، وتقضي بينهم بالحق .

ولم تجيء الشريعة لتقضيَ على طموحات الناس ، وتقيِّد حركتهم ، وتصادر حرياتِهم ، وتحيل حياتهم إلى جحيم من الأوامر العسكرية ، والأحكام العرفية ، وقوانين الطوارئ . فالشريعة الإسلامية هي حركة عالمية لتحرير الفرد من ذاته ، لكي يتخلص من ثقل الشهوة في سياقها المنحرف ، ويفلت من قبضة الشبهة . وهي كذلك لانتشال الفرد من مستنقع العبودية لغير الله تعالى . مما ينتج فرداً صالحاً قادراً على الوقوف في وجه التحديات ، وحاملاً لعبء أمانة المسؤولية بكل كفاءة وإخلاص ، من أجل إعمار الأرض بالقيم الإيمانية روحاً ومادة ، قلباً وقالباً ، خيالاً وواقعاً ، وفق مسار منهجي منضبط يقضي على الشبهات ، ويضع الشهوات في سياقها الطبيعي الطاهر بلا إفراط أو تفريط .

قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٥٧) : ((﴿ بما أراك الله ﴾ معناه : على قوانين الشرع ، إما بوحي ونص ، أو بنظر جار على سنن الوحي . وهذا أصل في القياس، وهو يدل على أن النبي ﷺ إذا رأى شيئاً أصاب ، لأن الله تعالى أراه ذلك، وقد ضمن الله تعالى لأنبيائه العصمة)) اهـ .

وهكذا ، فحُكم النبي ﷺ يأتي مستنداً إلى مبادئ ثابتة من التأييد الإلهي ، والتوفيق الرباني . ويأتي كذلك في ضوء الوحي المعصوم . كما أن مفهوم البعثة النبوية يعطي ماهيةً للمرجعية البشرية الخاضعة للمرجعية السماوية ، لأن النبي ﷺ هو خليفة الله في الأرض ، والحاكم على الناس وبين الناس ، مستنداً إلى الأمر الإلهي بتطبيق أحكام الله تعالى .

فالبعثة النبوية فتحت الطريقَ إلى الخالق تعالى ، وأقامت اتصالاً بين السماء والأرض والعكس . وهذا يدل على أن الله تعالى لم يخلق العباد ليعذبهم ، بل ليرشدهم وفق طريق البعثة النبوية المقدَّسة والوحي المعصوم . قال الإمام الغزالي في المستصفى (١/ ٢٨٩): ((وقال ابن عباس: إن الله لم يجعل لأحد أن يحكم في دينه برأيه. وقال الله تعالى لنبيه _عليه السلام_ : ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ ، ولم يقل بما رأيت)) اهـ .

وهذا يدل على أن البعثة النبوية هي أمرٌ إلهي لا يملك النبي ﷺ أن يغيره وفق عقله ، أو يبدله حسب رأيه الشخصي وخبراته الحياتية ، أو يضيف إليه ويحذف منه اعتماداً على نظرته إلى الأمور، أو يَستدرك على شريعة الله الكاملة .

ودور النبي ﷺ مقتصر على التبليغ ، وعدمِ محاسبة العباد ، فلا يرسل أحداً إلى الجنة ، ولا يرسله إلا النار . قال الله تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ [المائدة : ٩٩] .

قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٠٤) : ((أي : ليس له الهداية والتوفيق ولا الثواب ، وإنما عليه البلاغ)) اهـ .

ومن خلال هذه القاعدة القرآنية التأصيلية يتضح دور النبوة كمنهج تبليغي يوصل المعلومة واضحةً وكاملةً ، ولا يملك أكثر من هذا . فالنبي ﷺ لم يخترع حزباً سياسياً حاكماً له ولأسرته وحاشيته ، ولم يبنِ مجدَه على سرقة الشعب كما يفعل الطواغيت في كل زمان ومكان ، حيث يتاجرون بالقيم النبيلة، والشعاراتِ البراقة .

فكل أمر صادر عن النبي ﷺ للمؤمنين ، كان يطبِّقه على نفسه واقعاً ملموساً أمام العيان لكي يقتدوا به . فلم يأمرهم بالزهد في الدنيا وهو يعيش في القصور ، بل كان يعيش في بيت بسيط شديد التقشف يحتوي على أثاث متواضع للغاية ، ونسمِّيه أثاثاً من باب المجاز . ولم يأمرهم بالتقدم في المعارك وهو يختبئ خلف الصفوف ، أو يرتعش في غرفة العمليات بعيداً عن جو المعركة . وإنما كان في قلب العاصفة يتقدم الصفوف، ويضحِّي من أجل أمته. ولم يأمر المؤمنين بالطهارة وستر أعراضهم ، ونساؤه مكشوفات أمام الناس ، بل كانت نساؤه مثالاً للطهارة والشرف

والالتزام الأخلاقي . وكل هذا من شأنه تثبيت القدوة على أرض الواقع ، لكي يقتديَ المؤمنون بقائدهم الذي يضرب الأمثلةَ العملية التي تجسِّد الأخلاقَ النبيلة ، والقيم الفاضلة . فالنبي ﷺ لم يكن يأمر بشيء إلا طبَّقه على نفسه قبل الآخرين، وما نهى عن شيء وقام بفعله، لأنه ﷺ يعرف أن القول والعمل متلازمان، وأن أية انحراف عن الصراط المستقيم هو عارٌ،ومقام النبوة أبعد ما يكون عن العار .

لا تنهَ عن خلُقٍ و تأتي مثله   عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغتَ رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وبالقطع فإن التبليغ هو أساس الدعوة النبوية، والركيزة الثابتة في البعثة . فالبعثة النبوية ليست رصيداً بنكياً شخصياً لا شأن للناس به ، أو مزرعةً للشخص وعائلته ضمن قالب أرستقراطي . بل هي تبليغ عبر إيصال الألفاظ والمعاني إلى الناس أينما وُجِدوا لإقامة الحجة عليهم . وهكذا تكون البعثةُ عملاً جماعياً يؤدي كل مؤمن دورَه المرسوم له بدقة بقيادة النبي ﷺ .

وإن غاب التبليغ سقط معنى الرسالة ، وزالت شرعية البعثة من جذورها ، لأن الركن الأعظم في البعثة هو التبليغ . لذلك قال تعالى : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ .

قال الشاطبي في الاعتصام (١/ ١٣٣) : ((والتبليغ كما لا يتقيد بكيفية معلومة لأنه من قبيل المعقول ، المعنى : فيصح بأي شيء أمكن من الحفظ والتلقين والكتابة وغيرها)) اهـ .

وقد قام النبي ﷺ بأداء أمانة التبليغ على أكمل وجه، وبأسلوب طيب واضح ، يجذب الناس ، ويقرِّبهم من الله تعالى ، بعيداً عن الغلظة ، وقسوةِ القلب ، وصعوبةِ الأسلوب ، وخشونةِ الكلام . فمنهج النبوة طريق مستقيم في التعامل مع النفس البشرية المختلفة حسب طبيعة الشخص ، وظروفِ البيئة .

ووفق هذه القاعدة النفسية الراسخة قام المنهاج النبوي بتأسيس المجال الدَّعوي بشكل يتناسب مع اختلاف العقول ، وتباينِ القدرات ، وتغيراتِ العواطف ، واتجاهاتِ النزعات الإنسانية . ومن هذا المنطلق جاءت الدعوة المحمدية الإسلامية ملبِّيةً لكل حاجات البشر ، ووفَّرت أرضيةً صلبة يقف عليها الجيل المؤمن المضطلع بإعمار الأرض لصالح خير البشرية ، وليس إعمارها لصالح عِلْية القوم ضد مصلحة الطبقات المتدنية في المجتمع الكَوْني .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٥٩): أن السيدة عائشة_ رضي الله عنها_ قالت : ((ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله، فقد أعظم على الله الفِرْية،والله يقول: ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾)) .

وهذا يعكس الأمانة المتناهية في مجال تبليغ الدعوة دون زيادة أو نقصان ، وعدم كتمان الشرع . فالمنهاج النبوي الواضح هو منهاج إنساني عالمي لم يأتِ لقبيلة النبي ﷺ ، أو للعرب وحدهم . وإنما جاء لخلاص الإنس والجن معاً . فلم يحوِّل النبي ﷺ دعوته إلى حزبٍ هاشمي تعصباً للقبيلة، أو تكتلٍ عربي تعصباً للقومية، أو منتدى لعِلْية القوم تعصباً للسلطة ، أو شركةٍ للأغنياء تعصباً للمال .

فالدعوة الإسلامية شمولية في منهجها ، وواضحة في أسلوبها ، وترمي إلى استئصال الفقر والضعفِ والجهلِ والأخلاقِ الذميمة ، لكي يتحول المجتمع إلى طبقة واحدة متماسكة ، تتمتع بالقوة الروحية والمادية ، مع اختلاف وظيفة كل فرد حسب قدراته ، وبذلك يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ويتحرك المجتمع إلى الأمام .

أما قوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ . ففيه حمايةٌ ما بعدها حماية ، وتثبيت للشخصية النبوية بأن تفرَّغ للنبوة ولوازم البعثة واستحقاقاتها ، ولا تشغل بالك بأمنك الشخصي ، وحمايتك من أعداء الدعوة ، لأن الله تعالى قد تعهد بعصمتك من الناس ، فلن يصلوا إليك مطلقاً . وهذا يجعل جهد النبي ﷺ مركَّزاً على التطبيقات العملية للبعثة النبوية قولاً وفعلاً .

ولا بد للنبي القائد العالمي من حماية لكي يفوِّت الفرصة على أعداء الحق الطامحين إلى وأد نور الدعوة الإيمانية، وتثبيتِ عبودية البشر للبشر. وجاءت الحماية الربانية ميزةً كبرى للنبي ﷺ ، فلم يستعن بحراس شخصيين ، أو جهاز مخابرات ، أو سيارات مصفحة ، لأن الحماية الإلهية أعظم من كل التدابير المادية القاصرة .

فعن عائشة_ رضي الله عنها_ قالت : كان النبي ﷺ يُحرَس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ، فأخرج النبيُّ ﷺ رأسَه من القبة ، فقال لهم : ((أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله))[15] .

---

(١٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢٢١) وصححه ، ووافقه الذهبي . ورواه الترمذي في سننه (٥/ ٢٥١) برقم (٣٠٤٦) بسند حسَّنه الحافظ في الفتح (٦/ ٨٢) .

وحينما ندرس البعثة النبوية لا بد أن نؤمن بوجد باعث ومبعوث ومبعوث إليه. أما الباعث فهو الله تعالى الذي أراد إنقاذ عباده لحبه لهم . والمبعوث هو النبي ﷺ المرشِد البشري والقائد الكَوْني، الذي يأخذ بأيدي الخلق إلى التعرف على خالقهم ، وقد بعثه الله تعالى إلى الإنس والجن (المبعوث إليه)، مع العلم أن الظهور النبوي إنما تم في العرب تلك الأمة الهمجية الضائعة في الصحراء التي لا تملك وزناً على الصعيد العالمي، والتي هي في أمس الحاجة إلى الهداية، والخروج من مستنقع الوثنية .

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ [الجمعة : ٢] .

وقد كان العربُ أُمَّةً أُمِّية لا تَكتب . أمَّا وجود بعض القادرين على الكتابة ، فهذا لا ينفي صفةَ الأُمية عن العرب ، لأن النادر لا حُكم له . والعربُ كانوا يعتمدون على الرواية الشفهية ، ولا يعتمدون على التدوين . وهذا يناسب حياة الفوضى والتحرر التي كانوا يعيشونها .

قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٨١) : [قال ابن عباس : ((الأميون العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونو أهل كتاب)).وقيل : الأميون الذين لا يكتبون، وكذلك كانت قريش] اهـ . وقال الحافظ في الفتح (٤/ ١٢٧) : ((أُمِّية بلفظ النسب إلى الأم . قيل : ... أُمة العرب لأنها لا تكتب ، أو منسوب إلى الأمهات ، أي إنهم على أصل ولادة أمهم ، أو منسوب إلى الأم لأن المرأة هذه صفتها غالباً . وقيل : منسوبون إلى أم القرى ... وقيل للعرب أميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة... ولا يرد على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب ، لأن الكتابة كانت فيهم قليلة نادرة)) اهـ .

وهكذا نرى أن البعثة النبوية كانت موجَّهةً إلى قوم جهلاء متخلفين في أمس الحاجة لطوق النجاة . مما يدل على رأفة الله تعالى بعباده ، حيث لم يرض لهم أن يعيشوا كالأنعام في الصحراء دون أن ينالوا شرفَ التعرف إلى خالقهم تعالى . فأراد لهم _ سبحانه وتعالى _ أن يخلعوا حضارتهم الوثنية الغارقة في الأصنام والعصبية القبلية والحاضر التائه والمستقبل الضائع والحيوانية الغريزية بكل ما تحمله الكلمة من معنى[16]. وعندئذ سيكونون مؤهَّلين لحمل أمانة الدعوة الإسلامية ، وبناء مجتمعات الازدهار، وتحقيق مبادئ الفتوحات الحضارية لنشر شمس الدعوة في أرجاء العالم ، وهذا ما حصل واقعاً ملموساً لا كلاماً شعاراتياً .

---

(١٦) راجع كتابنا " عقائد العرب في الجاهلية " من أجل التعرف على انحرافات العرب في الجاهلية .

وبما أن الدِّين الإسلامي مهيمن على باقي الأديان باعتباره الدِّين السماوي الوحيد ، فإن الأمة الإسلامية الحاملة له ستسطع شمسها على العالَم . وقد رأينا العرب في الجاهلية وجودهم كعدمه ، لكنهم حينما اعتنقوا الإسلامَ عقيدةً وتطبيقاً فتحوا العالَمَ من المشرق إلى المغرب . وهذه ليست عصبيةً قبلية ، أو استكباراً على الأمم والشعوب ، أو استخراباً (ولا أقول استعماراً) ، أو تكريساً لاستعباد الآخرين وإذلالهم وسرقتهم . بل هي عملية تصحيحية لمسار البشرية المنحرف ، وانتشال الناس من حياة الحيوانات ، ووضعهم في الحياة الإنسانية الكريمة . وذلك لكي يكتشف الإنسانُ الصراطَ المستقيم الذي يوصله إلى سعادة الدارين .

وعملية السطوع الإيماني ، والإشراق الكَوْني ، ومحو الحق للباطل ، وهيمنة الشريعة الإلهية بكل حضارة وتقدم وإنسانية ، وظهور شمس الإسلام على باقي الشموس المزيَّفة، وضَّحها الله تعالى في قوله العزيز : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحق ليظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون ﴾[التوبة : ٣٣] .

فالمراد من البعثة النبوية (الرسالة المحمدية) هو إشراق الحق من جديد في هذا الكَوْن ، وانتشال الإنسان من وحل الكفر والتخلف ، وتحويل كوكب الأرض من إقليم متمرد على خالقه تعالى إلى جنَّة عائشة في كنف مجد الله تعالى ورعايته ونعيمه.

فالبعثة النبوية لم تجيء إلا لتكون المحور والصدارة ، فالنبي ﷺ لم يأت ليكون وصيفاً لأحد ، أو يأخذ الرقم الثاني . إنما جاء ليكون القائد الأول بلا منازِع ، حامل الشريعة الرَّبانية ، المتحرك باسم الله تعالى سَيِّده ومرسِله . ووفق هذه الرؤية ترسَّخت تجليات البعثة نوراً ساطعاً في الكَوْن بأسره ، مما يدل على عالمية الدعوة الإسلامية ، وشمولية الرسالة المحمدية للإنس والجن . فأزال المسلمون أعظم دولتين : الرُّوم والفُرْس ، في مدة قصيرة جداً ، وامتدت الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها. مما يدل على أن البعثة النبوية ماحية للباطل ، ناشرة للحق ، ذات امتداد شاسع ، وأنها تتوسع باطراد بالغ ، حتى تبسط نفوذها الإيجابي وهيمنتها التصحيحية على العالم أجمع . ولو كانت البعثة النبوية فكرةً بشرية لما وصلت إلى ما وصلت إليه ، ولاقت القبول عند الناس قلبياً وجسدياً ، رغم كل العوائق الشرسة الموضوعة في طريقها .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥) : عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله زوى لي الأرض _ جَمَعَها_ ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ مُلْكُها ما زوى لي منها)) .

وفي هذا دلالة على اتساع دائرة نفوذ الإسلام، وسيطرته المحمودة على أصقاع الأرض. وبذلك يتاح للإنسان أن يعيش في ظل نظام اجتماعي رحيم ، يشتمل على كل مقومات الحياة الهنيئة للأفراد، فلا طواغيت يسرقون الشعب باسم الآلهة والوحدةِ الوطنية والشعاراتِ الأخلاقية ، ولا مجتمعٌ يصادر أحلامَ الأفراد، ويجعل منهم كائناتٍ ممسوخة خاضعة لسياسة الأمر الواقع . ومن هنا تبرز ثورية الإسلام في تحرير المجتمع روحياً ومادياً ، وتوحيد كلمته ضد كل المعاني السلبية .

وروى الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٧) وصحَّحه ووافقه الذهبي: أن النبي ﷺ قال : ((ليبلغن هذا الأمر _ الإسلام _ مبلغ الليل والنهار ، ولا يترك اللهُ بيتَ مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدِّينَ بعز عزيز أو بذل ذليل)) .

ومن الثابت أن البعثة أمرٌ إلهي أعلى من النبي شخصياً ﷺ ، فالبعثة باقية إلى يوم القيامة بغض النظر عن حياة النبي ﷺ أو موته . فالأمر الإلهي ثابت ومنتشر ومستمر ونافذ غير محدود بزمن ، سواءٌ عاشت المخلوقات أم فَنِيَت . لذلك قال الله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ﴾[آل عمران : ١٤٤] .

وإذا عدنا إلى مشهد موت النبي ﷺ ، وما صاحب ذلك المشهد الرهيب من أحداث ، سنجد أن سبب البلبلة هي اختزال ماهية البعثة في شخص النبي ﷺ ، فلم يُتَصَوَّر وفاة النبي ﷺ ، مع العلم أن صاحب البعثة هو الله تعالى، والنبي ﷺ مُبَلِّغ يؤدي وظيفته بإتقان ثم يمضي، وتظل الرسالة المحمدية في حفظ الله تعالى في بدايتها ونهايتها عندما تنتهي الحياة على الأرض .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦١٨) وصفٌ لبعض الأحداث المرافقة لموت النبي ﷺ : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أن أبا بكر خرج وعمر بن الخطاب يكلم الناس ، فقال : ((اجلس يا عمر)) ، فأبى عمر أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر . فقال أبو بكر : ((أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾)) .

وقد يظن البعض أن الاتصال بين السماء والأرض انقطع بموت النبي ﷺ ، أو أن البعثة زالت بسبب وفاته ، أو أن الوحي غاب عن الأرض نتيجة انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى . وفي واقع الأمر هذه خيالات لا أساس لها من الصحة. فما دام القرآن موجوداً على كوكب الأرض، فالوحي

موجود ، والشريعة موجودة ، والاتصال بين السماء والأرض مستمر .

إن رسالة الإسلام هي المعنى الكَوْني العظيم . فقد جاءت لإعادة صناعة الوعي في العقل البشري ، وتنقيته من كل الشوائب التي تؤثر سلباً على فطرته ، واتجاهه الحياتي . وعبر تعميق القيم الفاضلة لا الشعارات المفرغة من معناها ، استطاع الإسلام الوصول إلى قلوب الناس عرباً وعجماً، لأنه زرع فيهم قيم الإيمان الصافي، والجهادية الثورية ، وعدم رفع الراية البيضاء أمام الظالمين . لذلك كان الإسلام أكبر حركة ثورية في تاريخ الوجود البشري ، حيث غيَّر المفاهيم الوجودية من السالبية إلى الإيجابية ، وأعطى دوراً جديداً للقبيلة يتجاوز ماهيةَ العصبية القبلية ، والاستبدادَ السياسي والاجتماعي ، وظلمَ المرأة ، وإلغاءَ حقوق الإنسان . وهذا الدور أضحى دوراً تنموياً تنويرياً ، ثائراً ضد العادات الجاهلية المتوارثة التي تنطلق دون تفكير ، ودون تحديد مسار البداية والنهاية . كما أعطى الإسلام دوراً جديداً للفارس ، فأخرجه من حب الشهرة والرياء ، واستعراض العضلات أمام الناس ، ليجعل منه مجاهِداً مخلصاً لله تعالى ، يقاتل في سبيله _ سبحانه _ لا في سبيل القبيلة أو السُّمعة . وانتقل دور المرأة _ بفعل الفكر الإسلامي التنويري التحرري _ من دائرة التبرج الذميم ، والإغراء الغريزي ، وكشف المفاتن لجلب الزبائن ، إلى عوالم الإيمان ، والشرف ، وطلب العلم ، وبناء الأسرة المتماسكة ، وإعداد الجيل المؤمن المتمتع بروح القيادة والتضحية ، والوقوف مع الرجل في صناعة حاضر جميل ، والتخطيط لمستقبل مزدهر . وهكذا استطاع الإسلام تغيير الماهيات، وتثبيت المعاني الجديدة، وإعادة تشكيل الإنسان وخارطةِ المجتمع . وكل ذلك يؤدي إلى كوكب أكثر جمالاً ، وأقل قبحاً ، ضمن منظومة متكاملة روحاً ومادة .

٣_ الوَحْي :

إن قوة الوحي تنبع من كونه إخباراً بالغيب، وكشفاً لماوراء قدرة الإنسان وحواسه. والإنسان عموماً متطلع لاكتشاف المجهول بالنسبة إليه ، والوقوف على مستقبله الغامض ، ومصيره القادم . لذا رأينا من يتمسك بالأحلام والرؤى ، ويسعى إلى تفسيرها جاهداً إيماناً منه بأنها طريق لمعرفة الغيب والمستقبل . وهناك من يذهب إلى الكهنة والدجالين لكي يطلعوه على أمور غيبية _ كما يزعمون _ . وقد انتشرت _ للأسف _ الأبراج في الجرائد ، وقراءة الطالع ، وقراءة الفنجان ، والضرب بالمندل أو الودع ، وكل هذه الوسائل المرفوضة تعكس هوساً إنسانياً ، ولهاثاً وراء معرفة خبايا القدر ، والمستقبل الغيبي .

قال الله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

لا يوجد أحدٌ من المخلوقات يَعلم الغيبَ . حتى الأنبياء والملائكة لا يعلمونه . فمعرفةُ الغيب لا يملكها إلا الله تعالى . واللهُ يُطلِع بعض مخلوقاته على أمور غَيْبية لحكمةٍ يَعلمها . والنبيُّ ﷺ لم يكن مطلعاً على أخبار الأمم السابقة ، فهو أُمِّي لم يُعرَف عنه أنه كان طالباً للعلم ، أو ملازِماً للعلماء . وكلُّ المعلومات عن الأمم الماضية جاءته وحياً من الله تعالى تثبيتاً له، وإظهاراً لصدق دعوته . وهذا كله يدل على أن مصدر القرآن سماوي وليس أرضياً .

قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٨٦) : ((﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ ، أي الذي ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم _عليهم السلام_ من أخبار الغيب . ﴿ نوحيه إليك ﴾ ... والإيحاء هنا الإرسال إلى النبي ﷺ ، والوحي يكون إلهاماً وإيماء وغير ذلك . وأصله في اللغة إعلام في خفاء ، ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً)) اهـ .

والوحي (الإخبار بالغيب) هو قوة الإبهار التي تدهش الناسَ الذين هم محاصَرون في عالم الشهادة ، لذلك وقعه في النفوس يكون قوياً ، وعلامةً واضحة على صدق النبيﷺ الذي يتحدث عن أمور حصلت في أزمنة غابرة دون علمٍ بتاريخ الأمم ، أو بالكتب السابقة ، أو الدراسة عند علماء التاريخ والحضارات . وقد رأينا من ادَّعى النبوة أو الألوهية _ زوراً _ يحاول التلبيس على أتباعه بادعاء معرفة الغيب ، وتنسيق بعض الحوادث المستقبلية في ذهنه لكي ينال القبول ، ويقنع الأتباع بصدقه ، ونيله التأييد الإلهي الذي كشف له خبايا الغيب _ على حد زعمه _ .

ومن أمثلة ذلك ما فعله " بهاء الله " المؤسس الفعلي للبهائية _ وهي ديانةٌ أرضية باطلة _ : ((وادعى أنه يعلم الغيبَ ، وقد كان يعلن غيبيات تقع في المستقبل. ويصادف أن كان يصح بعضها . فقال إن حكومة نابليون الثالث ستسقط ، فسقطت بعد أربع سنوات ، فكان هذا داعياً لأن يصدقه الكثيرون بسبب مبالغة أتباعه مع أنه لم يعيِّن زمنَ السقوط، ولعل ذلك فراسة منه ما دام لم يعيِّن.وهل صدق في كل نبوءة قالها ؟.لم يدع أحد ذلك،حتى أشد أتباعه حماسة له))[17].

وقال الشاطبي في الموافقات (٢/ ٧٤) عن "وسائل معرفة الغيب" : ((ومنها ما كان أكثره باطلاً أو جميعه كعلم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطيرة ، فأبطلت الشريعةُ من ذلك الباطل ، ونهت عنه كالكهانة والزجر وخط الرمل، وأقرَّت الفألَ، لا من جهة

(١٧) تاريخ المذاهب الإسلامية (١/ ٢١٥) ، محمد أبو زهرة .

تطلب الغيب، فإن الكهانة والزجر كذلك . وأكثر هذه الأمور تحرص على علم الغيب من غير دليل ، فجاء النبي ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض وهو الوحي والإلهام ، وأبقى للناس من ذلك بعد موته _عليه السلام_ جزءاً من النبوة ، وهو الرؤيا الصالحة ، وأنموذجاً من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراسة)) اهـ .

وعن عبادة بن الصامت_ رضي الله عنه_ عن النبي ﷺ قال : ((رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة))[18] .

وهذه الرؤيا الصالحة إنما هي تواصل مع النبوة ، وامتدادٌ للوحي ، وتصديقٌ للنبي ﷺ ، وذلك ليظل المؤمن على صلة وثيقة بعالم الغيب ، والمشاهدِ غير المنظورة، والوقائعِ غير المحسوسة . مما يزيده يقيناً بموعود الله تعالى ، وثباتاً على الحق . وهذا يعطيه قوةً دافعة إلى التمسك بالحق ، والسير على خطى النبي ﷺ في ضوء الإرشاد الرَّباني في القرآن الكريم . فتهون عليه مصائب الدنيا ، ويقل حرصه اللاهث على حطامها ومتاعها ، وذلك عائد إلى تعلقه بالآخرة ، وارتباطه الوثيق بماوراء القدرة الإنسانية .

وبلا شك فإن انكشاف بعض الأمور الغيبية في المنام دليلٌ واضح على أن هناك قوةً فوق مستوى البشر ، وهذه القوة أحاطت بالمعرفة المحسوسة وغير المحسوسة . وبالتالي هي تملك السيطرة على الماوراء، ولديها القدرة المطلقة على معرفة عالم الغيب وكشفها . فالله تعالى الذي صفاته مطلقة غير محدودة لا يوجد عنده ماضٍ وحاضر ومستقبل ، وإنما أحاط بكل شيء علماً . وإذا شاء الله تعالى كشف غيبياتٍ محددة لأناس محددين في وقت محدد ، ليكون ذلك رسائل إلهية يريد الله تعالى أن يوصلها إلى العبد ليزداد يقيناً ، ويتمسك بمنهج الكتاب والسُّنة الصحيحة ، ويوقن أنه أمام خالق عظيم مالك لعالم الغيب والشهادة .

والوحي هو منهجٌ شامل وكلي لجميع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _، فهو بذلك تكوين جمعي دقيق ومنضبط ، ووحدةٌ جماعية واحدة ، فلا شذوذ ولا تعارض ، لأن الوحي معصوم منح العصمةَ للأنبياء_ عليهم الصلاة والسلام _ ، لذلك تنَزَّهوا عن التعارض أو الشذوذ أو الانحراف.

قال الله تعالى: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ [النساء : ١٦٣].

---

(١٨) متفق عليه. البخاري(٦/ ٢٥٦٣)برقم (٦٥٨٦)، ومسلم (٤/ ١٧٧٤) برقم (٢٢٦٤).

وفي هذه الآية تأسيس واضح للمنهج المشترك الموحَّد بين الأنبياء _ عليهم السلام _ الذين هم يدٌ واحدة في مسيرة الدعوة الإسلامية ، يتحركون في ضوء توجيه الوحي المعصوم ، وبذلك يستندون إلى قوة لا تُضَاهَى أعلى من قوة البشر الغارقين في التناقضات والنقص الإنساني . وهذا يمنح المسيرةَ النبوية الثقةَ والثبات والإصرار والعزيمة المستمرة على الرغم من كل الصعوبات الجسام ، والتحديات العنيفة . أضف إلى هذا أن الوحي المرسَل إلى أي نبي هو تصديقٌ ودعمٌ لباقي الأنبياء_ عليهم السلام_، وهذا يدل على وحدة المسار والمصير عند كل الأنبياء ، وأنهم يقتبسون من مشكاة واحدة معصومة فوق قدرة البشر . لذلك كانت النبوة هي التميز ، ومالكة الصدارة ، والتفوق على المخلوقات ، وصاحبة الريادة .

ومنهج الوحي هو إيصال الرسالة الإلهية إلى بني البشر دون أن يحيد النبي ﷺ عن المرجعية الرَّبانية (القرآن الكريم). فقد جاء القرآنُ حكماً عادلاً وحاكماً مهيمناً لا أن يوضع على الرفوف ليُقْرَأ في المناسبات أو في المآتم كإجراء روتيني تعارف عليه الناس .

لذلك قال الله تعالى : ﴿ وأُوحيَ إِلَيَّ هذا القرآنُ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

وهذا يعني أن النبي ﷺ لا يمكنه تجاوز القرآن ، بل عليه الاعتماد على القرآن لإيصال رسالة الإنذار ، ووضع كلمة الله تعالى في مسامع الناس وقلوبهم . وفي ذلك إشارة واضحة إلى مركزية القرآن الكريم الذي أسَّس الصراطَ المستقيم للخلق كي يسيروا في النور لا الظلمات .

كلام الله ليس نظريةً فلسفية عائمة ، أو ضرباً من القصص الشعبية ، وحكاياتِ المغامرات. بل هو تأسيس متكامل للوجود البشري وفق مبادئ الاستقامة التي لا تنحرف. والقرآنُ المقدَّس يحمل البشارة والإنذار ، وبذلك يكون ملائماً لكل زمان ومكان ، ومناسباً لكل الطبائع البشرية .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٢) : ((وهو نذير _ أي القرآن_ لكل من بلغه)) اهـ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٥٢) : ((أي أوحى الله إلي هذا القرآن الذي تلوته عليكم لأجل أن أنذركم به، وأنذر به من بلغ إليه : أي كل من بلغ إليه من موجود ومعدوم سيوجد في الأزمنة المستقبلة . وفي هذه الآية من الدلالة على شمول أحكام القرآن لمن سيوجد كشمولها لمن قد كان موجوداً وقت النزول))اهـ .

والوحي منهجٌ ضابط ومنضبط لا يملك النبي ﷺ أن يحيد عنه، أو يضيف عليه ، أو ينقص منه، أو يستدرك عليه. أو يفكر في مدى مناسبته للواقع أم لا، لأن الوحي جاء ليتم تطبيقه عملياً على أرض الواقع بسبب اشتماله على مصالح الناس في الدَّارين .

والدرب المستقيم الذي أسَّسه الوحي المقدَّس لا يمكن أن يقود إلا إلى خير ، لأنه مستند إلى وحي إلهي معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا التميز الواضح يكشف الفرق بين الوحي والأفكارِ البشرية . فكثير من الأفكار العلمية التي تم تقديمها على أنها نظريات صحيحة ومسلَّمات حاسمة ونهائية ، تبيَّن لاحقاً الأخطاء المنهجية التي تعتريها ، والثغرات القاتلة التي تضرب جذورها . وعندئذ سيعاد النظر في كثير من التطبيقات المبنية على هذه القواعد العلمية المتهاوية ، فما بُني على باطل فهو باطل . وقِسْ على هذا باقي العلوم الطبيعية والإنسانية المحتوية على النظريات والفرضيات .

أما الوحي فلا يمكن أن يسقط في هذا الفخ ، لأن مرجعه إلى الله تعالى العالِم بكل شيء . وبالتالي فالوحي المعصوم مُنَزَّه عن التناقض مهما طال الزمان أو قصر ، ومهما حدث من تغيرات زمنية ومكانية . ومن هنا يبرز مبدأ صلاحه لكل وقت ، وكل طبع بشري . وهذا يعكس قوة الوحي باعتباره خلاصاً للمخلوقات ، وطريقاً وحيداً لاتصال الأرض بالسماء .

قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أتبع إلا ما يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

وهذا يدل على أن مهمة النبي ﷺ هي التبليغ ، لأن الرسول ما عليه إلا البلاغ الذي أرسله به الله تعالى . فهذه الشرائع القرآنية ليس من بنات أفكار النبي ﷺ ، أو من خبراته الحياتية ، أو من آرائه الشخصية وتحليلاته العقلية، وإنما هي رسالة إلهية، ودور النبي ﷺ محصور في تبليغها كما هي، بلا زيادة أو نقصان .

لذلك من ردَّ على النبي ﷺ كلامَه ، هو ــ في واقع الأمر ــ يرد على الله تعالى الذي جعل كلامَه الإلهي المقدَّس في قلب النبي ﷺ ، وعلى لسانه . وهكذا يتضح أن الذي يدعي نزول الوحي عليه بلا دليل يفتري على الله تعالى الكذبَ، ويتقول على خالقه تعالى. لذلك قال اللهُ تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أُوحيَ إِلَيَّ ولم يُوحَ إليه شيء ﴾ [الأنعام: ٩٣] .

ومن الواضح أن الوحي لا ينزل على أي مخلوق . بل هناك صفات يجب أن تتوفر في الإنسان لكي يقدر أن يقوم بمهمات النبوة بعد اختيار الله له وتوفيقه . فلا بد أن يكون رجلاً إِنسياً ، وأن يكون ذلك الرَّجل من أهل القرى لا من الأعراب أو البدو الرُّحل . فقد قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ [يوسف : ١٠٩] .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١١) : ((وهذا معنى النبوة ، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرِّجال...وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري_رحمه الله_الإجماع على ذلك)).

وهذا يشير إلى أن النبوة تستلزم مواصفات خاصة لا تتوفر في كل الخلائق ، فهي المنهج الرباني المتكامل الذي يجب أن يُحمَل على أكتاف ثابتة غير مهزوزة . وهؤلاء النخبة البشرية (الأنبياء) الذين اختارهم الله تعالى لحمل كلمته ، لم يأتوا بواسطة ، أو محسوبيات ، أو اعتماد على النفوذ العشائري . فالله تعالى اختارهم لأنه يعلم أنهم الصفوة الإنسانية المتميزة بالصفاء القلبي ، والقوة الروحية ، والتماسك الجسدي . مما يجعلهم أفضل من يؤدي مهمة النبوة بكل أمانة واقتدار ، دون تقاعس أو استسلام للتحديات .

((ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى))[19] .

وهذا يعكس أهمية الصفات النبوية في مسيرة الدعوة الإسلامية . فمنهج النبوة ذو تماس مباشر مع الناس ، والناس ينظرون إلى شخصية الداعية ، فيقتربون منه حينما يرونه ذا أخلاق حميدة ، وينفرون منه حينما يرونه غير ذلك . وهكذا تبرز أهمية الأخلاق النبوية في استقطاب المؤمنين ، وحشد الرأي العام في سبيل ترسيخ الخير ، وتدعيمِ مسيرة السعادة . فالشخصية لها دور فاعل في إقناع الناس بالأفكار . لذلك كان الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ مُنَزَّهين عن كل ما ينفِّر الناس ، سواءٌ من ناحية الخُلُق أو الخَلْق .

قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٣٣) : ((أي أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جني ولا مَلَكٌ...ولم يبعث الله نبياً من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ، ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ، ولا من النساء ، ولا من الجن . وقال قتادة : ﴿ من أهل القرى ﴾، أي من أهل الأمصار ، لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلاً آدمياً مدنياً)) اهـ .

---

(١٩) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠٤) . وانظر أيضاً تفسير النسفي (٢/ ٢٠٧) ، والكشاف للزمخشري (١/ ٦٠٧) ، وأحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٩٦) .

ومعاناة النبي ﷺ مع الأعراب الأجلاف مشهورة ومنتشرة وثابتة . فقد كانوا أصحاب طبائع خشنة ، وصفات قاسية ناتجة بفعل البيئة الصعبة التي يعيشون فيها . ومع هذا كان النبي ﷺ يعرف أبعاد الموضوع بكل حيثياته ، فيتعامل مع الأعراب بكل رقة ، وحسن خلق ، فيصحح انحرافاتِهم ، ويرشدهم إلى الدرب القويم ، وهكذا يعيد بناء شخصياتهم وفق المنهج الإنساني السامي .

فعن ابن عباس _ رضي الله عنه _ : أن أعرابياً وهب للنبي ﷺ فأثابه عليها ، فقال : ((رضيت ؟)) ، قال : لا ، فزاده ، وقال : ((رضيت ؟)) ، قال : نعم ، فقال النبي ﷺ : ((لقد هممتُ أن لا أتَّهِبَ إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي))[20].

وهذا يعكس قسوة الأعرابي ، وخشونة طبعه ، وغلظة صفاته ، بعكس القرشي أو الأنصاري أو الثقفي الذين هم سكان المدن ، أصحاب الطباع اللينة ، والصفات المهذَّبة .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٠٨) : عن عائشة قالت : قدم ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا: أَتقبِّلون صبيانكم ؟، فقالوا: نعم، فقالوا : لكنا والله ما نقبِّل، فقال رسول الله ﷺ : ((وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة)) .

وقد كان اختيار الله تعالى للأنبياء من أهل القرى نعمةً لبني البشر ، ورحمةً إلهية عليهم . وذلك لكي يكونوا أصحاب أخلاق حميدة ورقيقة ، غير متعصبين ولا أصحاب طبائع قاسية . ومما لا شك فيه أن هذا سيكون له بالغ الأثر في تحبيب الناس بالدعوة ، وتقريب الدعوة إلى قلوبهم وحياتهم العملية . لذلك فإن الله تعالى اعتنى بالمرسَلِين وصفاتهم ، وجبلها على اللين والرفق ، وسخَّر من أجل ذلك الأسر العريقة لاحتضان الأنبياء ، وهيَّأ البيئةَ المناسبة التي سيخرجون منها يحملون الرسالة الربانية الخالدة . والوحي هو مجدُ الأنبياء، وحضارةُ البشرية ، وحياةُ الأمم وإشراقها،وقوة شرعية الوجود البشري الخاضع للخالق العظيم،وطريق الحياة الأبدية،ومنبع المعارف في القلوب الطاهرة الحية ، والرُّوح السامية التي تبعث الحياةَ المتدفقة في أوصال المجتمع .

---

(٢٠) رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٢٩٦) برقم(٦٣٨٤) واللفظ له ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٧١)برقم (٢٣٦٥) وصححه ووافقه الذهبي. وأحمد (١/ ٢٩٥) برقم (٢٦٨٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٦٣) : ((رواه أحمد والبزار ... ورجال أحمد رجال الصحيح)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٤) : ((لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن، مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء)) .

لذلك قال الله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : ٥٢] .

إن الوحي جاء لانتشال أرواح الناس من المستنقع العميق . جاء لجعل الناس يكتشفون إنسانيتهم المدفونة تحت وحل الشبهات الصادمة والشهواتِ الغريزية العابثة .

والفرد لا يمكنه أن يصبح عنصراً صالحاً في مجتمعه الجزئي ، ومجتمعه الكَوْني الكلي ، إلا إذا اكتشف روحه ، وأطلق سراحَها خارج أسوار الانهيار الأخلاقي ، وقام بتحريرها من قيود عالم الأشباح. وبذلك تقدر على الانطلاق نحو خالقها تعالى.

وفي ذات الوقت لا يمكن للإنسان أن يحرر روحَه من قيودها ، ويتحرر من سطوة العناصر السلبية ، إلا من خلال درب الوحي المعصوم الذي يجعل الأرض تلتقي مع السماء، مما يجعل الفرد كائناً حراً في تفكيره العقلاني ، ومتحرراً من أوهام الدنيا متاعِ الغرور .

وفي الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري (نقلاً عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة ، ص ٥) : ((كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ . أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبَّل بشهواته ؟ . أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ولم يتطهر من جنابة غفلاته ؟)) .

٤_ الرِّسالة :

كل رسالة سماوية أو أرضية تدل على صفات المرسِل. ولما كانت الرسالة المحمَّدية الإسلامية أعظم رسالة على الإطلاق ، اقتضى الأمر أن تتحلى بطبيعة خاصة تأخذ بأيدي الناس عن طريق النبي ﷺ إلى خالقهم العظيم . وهذه الرسالة السماوية ليست مشروعاً عائلياً تجارياً ، أو نظاماً ملكياً متوارثاً ، بل هي منهاج قول وفعل لخلاص البشرية من مأزقها الوجودي الصادم . والله قادرٌ أن يبقيَ الناسَ في جهالة الكفر بلا رسول ولا رسالة ، لكن رحمة الله تعالى التي وسعت كلَّ شيء أبت إلا أن تنقذ الناس وتخرجهم من مستنقعهم الآسن .

ومن أهم خصائص طبيعة الرسالة النبوية إفرادُ الله تعالى بالعبادة بلا شريك ، واللجوءِ إليه وحده ، وعدم اتخاذ البشر أرباباً من دونه تعالى . وهذا المعنى كرَّسه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشرٍ أن يؤتيَه الله الكتابَ والحكمَ والنبوةَ ثم يقول للناس كونوا عباداً لي مِن دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلِّمون الكتابَ وبما كنتم تدرسون ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠١) : ((أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، أي مع الله . فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسَل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى)) اهـ .

وهذا يدل على أن الرسالة النبوية ليست مشروعاً عشائرياً لابتزاز الناس ، وتنصيب النبي ملكاً عليهم ، أو إلهاً فرعونياً ، يستعبدهم ليحقق أكبر نفوذ ممكن ، ويمتص موارد البلاد والعباد، مثلما يفعل الطواغيت في كل العصور . بل إن منهجية النبي ﷺ رد الأمر إلى الله تعالى صاحبِ الأمر ، وتوجيه الناس إلى عبادة خالقهم لا عبادة أنبيائهم أو كبرائهم . وهذا دليل ساطع على أن النبي ﷺ صادقٌ فيما يقول ، إذ إنه لم يُحوِّل النبوةَ إلى زعامة عشائرية له ولأسرته لتصير أسرةً حاكمة على الشعب المسحوق، وإنما رسم الطريق الموصل إلى الله تعالى بلا زيادة أو نقصان، وأجره يكون عند خالقه لا عند الناس . فلا ينتظر النبي ﷺ وزارة إعلام تطبِّل وتزمِّر له ليلاً نهاراً بأموال الشعب، ولم يوزِّع مناصبَ الدولة على عائلته والمنافقين من حوله ، ولم ينهب موارد البلاد. وهو في ذلك ينتظر نعيمَ الآخرة الذي أعده الله تعالى للمتقين. ولم يغتر بزخرف الدنيا المنثور حوله لعلمه التام بأن ما عند الله خيرٌ وأبقى . وبالتالي تمتاز الرسالة النبوية ببعد النظر ، وعدم الانجرار وراء المظاهر الدنيوية الخادعة ، وعدم اتخاذ العباد أرباباً من دون الله تعالى . وإنما توجيه كل الجهود البشرية نحو تحقيق معنى العبودية لله وحده لا شريك له ، لأن الوحدانية هي المجد المطلق .

[فقد عرض مشركو قريش على النبي ﷺ عرضاً إغرائياً تم رفضُه بكل حزم ، فقالوا : ((فَإِنْ كُنْتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً ، وإن كنتَ إنما تطلب الشَّرف فينا سَوَّدْنَاكَ علينا ، وإن كنتَ تريد به مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ علينا))[21] . ولو كان في مكان النبي ﷺ شخص غير صادق لقبل فوراً دون أدنى تردد ، فمثلاً مُسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة كان يسعى من وراء دعوته الساقطة إلى مكاسب شخصية وتحقيق نفوذ_ لا أكثر ولا أقل _ لذلك قال بكل وقاحة : ((إنْ جَعَلَ لي محمدٌ الأمرَ من بعده تبعتُه))[22]] [23] .

وهكذا نرى أن أعداء الدعوة الإلهية عبر الأزمنة يحاولون تقديم الإغراءات بشتى أصنافها من أجل وأد الدعوة في مهدها ، والقضاءِ على المجتمع الإيماني عبر اختراقه بزخرف الحياة الدنيا . إذ إن سلاحهم المتداعي يتمحور حول اللعب بورقة الشهوات .

(٢١) تفسير الطبري (١٥/ ١٦٤) . وانظر أيضاً تفسير ابن كثير (٣/ ٦٣) ، والسيرة النبوية (٢/ ١٣١) ، والسيرة الحلبية (١/ ٤٨٧) .

(٢٢) متفق عليه.البخاري(٣/ ١٣٢٥) برقم (٣٤٢٤)،ومسلم (٤/ ١٧٨٠)برقم (٢٢٧٣).

(٢٣) انظر / صورة اليهود في القرآن والسنة والأناجيل ، ص ٨١ ، إبراهيم أبو عواد ، دار اليازوري.

وأخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟، فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريده منا يا محمد ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : ((معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني)) ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ ما كان لبشرٍ أن يؤتيَه الله الكتابَ ﴾ ...(24) .

إن طبيعة الرسالة النبوية بالإضافة إلى توحيد الله تعالى ، تمتاز بأنه ذات نظرة ما ورائية ، أي النظر إلى نعيم الآخرة دون ترك الدنيا للكفار، وعدم الانغماس في الشهوات الدنيوية بلا حساب . مما يدل _ بلا شك_ على صدقها ، وقدومها من مصدر أعلى من النبي ﷺ الذي عاش حياته متقشفاً مع أنه نبي له السطوة والسيطرة في حدود ما أُرسِل به ، وبإمكانه أن يعيش حياةَ الملوك في القصور، حيث الحراس والحاشية والجواري والخدم والفرش الوثيرة . ومع هذا كان ﷺ على الحصير، ليعطيَ درساً للبشرية بأن المسؤولية أمانة عظيمة ، وحِمْلٌ شديد ، يُسْأَل الإنسان عنه يوم القيامة . فليست أمانةُ المسؤولية رحلةً استجمام ، أو أوسمةً عسكرية ، أو حفلاتٍ صاخبة ، أو ربطاتِ عنق أنيقة وفساتين سهرة ، أو سيارات مرسيدس . بل هي منهجٌ حياتي وأُخْرَوِي متكامل يعتمد على القيم الأخلاقية لا الابتزازية المصلحية. فهدف منهج تحمل المسؤولية هو أداء الأمانة على أكمل وجه ، لما في ذلك من صلاح حياة الأفراد والجماعات ، مما ينشئ مجتمعاً قوياً فاضلاً بعيداً عن امتصاص الناس لدماء بعضهم البعض ، ونشوءِ طبقات اجتماعية ظالمة حيث الشطط الطبقي ، وغيابِ العدالة الاجتماعية ، والاستبدادِ السياسي والاجتماعي .

كما أن تحمل مسؤولية الأمانة ليس بزةً عسكرية يرتديها القائد في الاحتفالات العسكرية ثم يخلعها، وإنما هي أسلوب حياة لتثبيت قيم الفضيلة ، واحترام الأخوة الإنسانية ضمن مسارات عادلة وفق الخضوع لسيادة حكم الله تعالى ، لا سيادة قانون الغاب حيث يأكل القويُّ الضعيفَ .

كما أن طبيعة الرسالة النبوية تقتضي أن يكون القائد قدوةً أمام الأتباع ، وأسوةً حسنة . فلا يأمر القائدُ بالتقشف وهو يعيش في القصور ، أو يأمر باحترام المرأة وهو يظلم زوجته ، أو ينادي

---

(٢٤) الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٢٥٠).وانظر العجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٧٠٥).

بالعدالة الاجتماعية وهو يسرق الشعبَ ، أو يطالب بتحقيق الفضيلة وهو يمنح التراخيص لأماكن البغاء والعري ، أو يحاول تأسيس العلم في المجتمع وهو يسجن العلماء وينفيهم .

لذلك كان النبي ﷺ القائد القدوة الذي يطبِّق المبادئَ على نفسه قبل أن يأمر بها الآخرين، فهو الزاهد التقي الورع الذي يعيش حياةً بسيطة متقشفة ليمنح البشريةَ بارقةَ أمل ، ويتأسى الناس به، حيث إن الأنبياء أعظم البشر ، وفي نفس الوقت أشد الناس بلاءً . فلا يشعر الفقير أنه خارج منظومة المجتمع لفقره ، ولا يشعر الضعيف أن الناس ينبذونه لقلة إمكانياته .

وقد دخل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على النبيﷺ فرأى أثر الحصير في جنبه الشريف فبكى، فقال ﷺ : ((ما يبكيك ؟)) ، فقلتُ : يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ، فقال : ((أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟)) [25] .

فلم يجيء الأنبياء ليبنوا القصورَ ، ويناموا على الأثاث المريح ، ويَجلسوا بين الجواري . فحياةُ الأنبياء حلقة متصلة من الكفاح في سبيل نشر الدعوة الإسلامية. لذلك هم دائمو النظر إلى الآخرة لأنها المجد الحقيقي السرمدي ، ولا تَقدر الدنيا الفانية على خداعهم أو استقطابهم .

والخاصية الأساسية في طبيعة الرسالة النبوية هي الرَّبانية . قال الله تعالى : ﴿ ولكن كونوا ربانيين ﴾ . أي : كونوا فقهاء علماء حكماء منتمين إلى الله تعالى ، لكي تكونوا من أهله ـ سبحانه وتعالى ـ. فمن اعتز بغير الله تعالى ذلَّ. فالربانية التي هي العمود الفقري لطبيعة الرسالة النبوية ، هي أيضاً الحبل الوثيق بين الخالق والمخلوق، وهذا يعزز الرابطة بين السماء والأرض ، فلا يشعر المؤمن أنه يتحرك عبثاً في الدنيا، بل يتحرك استناداً إلى مرجعية ربانية سماوية واضحة المعالم والأهداف. وبالتالي يكون تأثير الرسالة النبوية قوياً للغاية لأنها تستمد قوتها من السماء لا من الأرض .

ومما لا شك فيه أن الرسالة النبوية ترتكز إلى قاعدة لا محيد عنها، وهي اتخاذ الله ولياً لا شريك له . وهذا يدفع باتجاه تثبيت الوجود الحق للرسالة النبوية السماوية ، وجعلها ذات طبيعة متفردة مميزة لا جدال فيها ولا مجاملات .

وحينما يكون الله تعالى هو الذي يتولاك ، ويرعاك ، ويحفظك ، فعندها لا خوفٌ ولا حزن ، وقد تم المراد ، وانتهى الأمر وفق أحسن خاتمة .

---

(٢٥)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٦٦)برقم(٤٦٢٩).ومسلم(٢/ ١١٠٥)برقم (١٤٧٩).

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أغيرَ الله أتخذ ولياً فاطرِ السماوات والأرض ﴾ [الأنعام : ١٤].

وهذا الاستفهام التوبيخي يدل على أن طبيعة الرسالة النبوية عدم الالتجاء لغير الله تعالى ، وعدم اتخاذ أولياء من دونه ، لأنه_ سبحانه _ هو الولي مالك الرّسالة ، وصاحب الأمر كاملاً غير منقوص . والرسالة المحمدية السماوية هي المرجعية العليا ، والقدوة السامية التي ترنو إليها الأبصار ، ولها الريادة والصدارة ، خصوصاً وأن النبي محمد ﷺ أول المسلمين في الأُمة ، وهذا يعكس أهميةَ القيادة الرائدة ، وكَوْن النبوةُ رأسَ الأمر ، وفاتحة الخير .

وقد قال الله تعالى : ﴿ قل إني أُمرتُ أن أكون أول مَن أسلم ﴾[الأنعام : ١٤] .

والنبوة هي منهاج بيان وتوضيح لا مسألة فلسفية غامضة . وذلك لأنها جاءت لكل الناس على اختلافهم، والناس متباينون في القدرات العقلية والجسمية. فلو كانت النبوة كعلم الرياضيات لما فهمها إلا القليل ، ولو كانت شِعْراً رمزياً لما وقف على معناها إلا أصحاب الاختصاص ، ولو كانت ألغازاً شعبية وحكاياتٍ تراثية لما أدرك فحواها إلا المؤرخون والمشتغلون بالأمثال الشعبية .

لذلك كانت الرسالة المحمدية واضحةً في مبناها ومعناها ، تتناسب مع كل زمان ومكان ، لأنها خالدة حتى يوم القيامة . كما أنها تتلاءم مع الفطرة البشرية ، فليس فيها أمرٌ ضد العقل والمنطق ، أو خلقٌ ذميم ، أو دعوة إلى الخراب ، أو أوامر تعجيزية ، أو نظريات خيالية مثالية . وهذا جعلها قريبة من الناس وملتصقة بهم على اختلاف مشاربهم وأوضاعهم الروحية والمادية .

وفي واقع الأمر فإن الإسلام هو أعظم داعية إلى نفسه ، بسبب اشتماله على كل شيء ، واحتوائه على الدنيا والآخرة ، والروح والمادة ، والحياة والموت ، ضمن أسلوب ترغيبي وترهيبي لا يُجارَى . والفكر النبوي في إيصال المراد الإلهي إلى الإنس والجن كان مؤسَّساً على قواعد ثابتة تمتاز بالإخلاص لله تعالى، والقدرة العلمية ، والكفاءةِ اللغوية ، ووضوحِ الأسلوب ، والابتعادِ عن الجدال العقيم ، وذلك عبر إقامة الحجة بالتي هي أحسن .

وبالاعتماد على التأصيل الشرعي المنضبط بالمنهجية القرآنية ، نجح النبي ﷺ في أداء أمانة تبليغ الدعوة بكل اقتدار ، والوصولِ إلى أماكن كانت بعيدة عن طريق الهداية ، وإرشادِ ألد أعداء البعثة النبوية إلى النور المحمدي الإسلامي . وهذا كله لم يجيء من فراغ ، فهو حصيلة جهود نبوية مضنية مستندة إلى منهج متكامل روحاً ومادة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليكَ الكتابَ إلا لتبيِّنَ لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ﴾ [النحل : ٦٤] .

وهذه الآية تشير إلى أن القرآن الكريم الذي هو أساس الرسالة المحمدية جاء للبيان والتوضيح، وإيجاد حلول للمجتمع ، وإنهاء حالة الاختلاف المذموم والتحزب حول المفاهيم المتوارثة . فقد حدَّدت الرسالةُ المفاهيمَ الشرعية ، وأنهت الخلافَ الحاصل بين الناس ، ووضَّحت الطريقَ المناسب لكل حالة ، ورفعت الإنسان التائه إلى مستوى إنسانيته . مما يدل على أن طبيعة الرسالة تشتمل على المناحي العلمية الفقهية في الأمور كلها ، فالعلم الذي يخاطب العقلَ ، ويجد الحلولَ ، ما كان له أن يتكرس كنظام حياة لولا الشرعية التي جاءت من الرسالة المحمدية . ولا يمكن إغفال مبدأ شهادة الأنبياء على أممهم ، والذي يُعتبَر من المبادئ الأساسية المتجذرة في طبيعة الرسالة . وهذه الشهادة لإقامة الحجة على الناس ، وعند الله تجتمع الخصوم ليأخذ كل ذي حقٍّ حقه . ومن الرحمة الإلهية بالخلائق أن منحها فرصة الدفاع عن نفسها ، وشرح أوضاعها ، والله تعالى أعلم بها ، لكن إقامة الحجة لها قواعد شرعية لئلا يظل للناس عذر ، ولا يذهب أحدٌ إلى النار إلا وهو مؤمن أنه مستحق لها ، وخاضع للعدالة الإلهية ، ولم يظلمه الله تعالى أو يأخذ حقه.ولا أحد يذهب إلى الجنة إلا وهو مؤمن بأن ذلك قد تم بمحض الفضل الرَّباني.

قال الله تعالى : ﴿ ويومَ نبعث في كل أُمَّة شهيداً عليهم من أنفسهم ﴾ [النحل: ٨٩] .

أي إن الله تعالى سيبعث كل نبي شاهداً على أمته ، ليعلن أمام الله تعالى شهادته ودوره الذي قام به في تبليغ الرسالة ، ويقيم الحجةَ على قومه . والنبي محمد ﷺ سيشهد على قومه ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ [النحل: ٨٩] .

ومنهج الرسالة واضحٌ للغاية في التعامل مع عمل العبد ، فيجب أن يكون عملاً صالحاً موافقاً للشرع لا ابتداع فيه ، وخالصاً لوجه الله تعالى في آن معاً . قال الله تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاءَ ربِّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادة ربِّه أحداً ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وأساس الرسالة هو الإخلاص لله تعالى ، ورفض الشرك الأكبر والأصغر (الرياء) . فلا معنى للرسالة التي تم توجيهها إلى المخلوقين ونسيان الخالق . ولا معنى للعبادة إذا خلت من الصلاح والإخلاص . فتوجه العبد يجب أن يكون نحو خالق واحد أحد لا شريك له ، فمرجعية المؤمن هي مرجعية السماء المعصومة ، لا مرجعية أرضية وضعية .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رجل : يا رسول الله ، إني أقف الموقف أريد وجه الله ، وأريد أن يُرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت :﴿ فمن كان يرجو

لقاءَ ربِّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يُشْرِكْ بعبادة ربِّه أحداً ﴾ (26) .

وهـذا يشـير إلى خطورة الريـاء ، ووضـوح الرسـالة السـماوية فـي رفضـه جملةً وتفصـيلاً ، لأنـه يسلب العبادةَ معناها ، ويحيل العبادات إلى إجراءات ميكانيكية موجَّهة لنيل رضا المخلوقين الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ولا يملكون جنةً ولا ناراً . فعن شداد بن أوس_ رضي الله عنه_قال : ((كنا نعد على عهد رسول الله ﷺ أن الرياء الشرك الأصغر))(27) .

والنبـوة ليسـت اختراعـاً مـن اختراعـات العصـور أو طفـرةً فـي تـاريخ البشـرية . بـل هـي مـنهج متكامل على مدار السنوات . ولم يأت محمد ﷺ برسالة من تلقاء نفسه ، ولـم يكـن أول مرسَـل لكـي يتعجـب النـاس ، وينظـروا إلـى الأمـر بارتيـاب ، ويُصـابوا بالدهشـة والاسـتغراب . فالرسـالة المحمدية ليست أمراً جديداً ، فقد سبقها_ زمنياً _ كلُّ رسالات الأنبياء الذين مهَّدوا لمحمد ﷺ الطريقَ، وبالتالي فالبشرية معتادة على الرسالات السماوية ، وقدومِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ما كنتُ بِدْعاً من الرُّسل ﴾[الأحقاف : ٩] .

أي : كان هناك رسلٌ قبلي، ولم أكن أولَ نبي لكي يندهش الناس، ويظنوا أني جئتُ ببدعة غير معهودة . وهذا يدل على أن طريق الأنبياء واحدٌ ، وكل نبي يبدأ من حيث انتهى من سبقه . لذلك فالمنهج النبوي العمومي متكامل منذ بدء الخليقة حتى يوم القيامة بلا تنافر. وكل نبي يقوم بوضع لبنته الخاصة في البنيان الإيماني المتماسك، مما يعكس تضافر الجهود الدعوية في سبيل إنقاذ الناس ، وإعمار الأرض .

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((إنَّ مثلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي كمثلِ رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويُعجَبون له، ويقولون : هلا وضعتَ هذه اللبنةَ ، فأنا اللبنةُ ، وأنا خاتَمُ النَّبيين)) (28) .

لذلك كان الطعن في أي نبي طعناً في كل الأنبياء _ عليهم السلام _ ، لأنهم يمثلون منهجاً إلهياً واحداً. فالإسلام هو دين جميع الأنبياء بلا استثناء. وهذه الوحدة في المسار والمصير تؤدي إلى تشـييد البنـاء الإيمـاني المتـراص علـى أسـس مـن التكامليـة لا التضـاد ، والـوعي المصـيري لا

---

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٢٢) برقم (٢٥٢٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٥) برقم (٧٩٣٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢٨)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٣ / ١٣٠٠)برقم(٣٣٤٢).ومسلم(٤ / ١٧٩٠)برقم (٢٢٨٦).

تضارب وجهات النظر ، ومعرفة الطبائع البشرية المتغيرة حسب تعاقب الأجيال، وإدراك الظروف الزمنية والمكانية المختلفة باختلاف العصور . ومما ساعد في انتشار الدعوة المحمدية الإسلامية، الإحساس الجماعي بضرورة حمل أمانة الدِّين. فالنبي ﷺ لم يحوِّل آل البيت إلى إقطاعيات سياسية وبرجوازية ، كما يحدث في بعض المجتمعات البدائية ، ولم يجعل من الصحابة عِصابةً لاستعراض عضلاته أمام القبائل . وإنما زرع في نفس كل فرد أهمية هذا الدين ، فأصبح الأفراد مؤمنين بأن الدعوة الإسلامية مسؤولية الجميع ، وليست حكراً على أحد . مما عزَّز روح الانتماء للمجتمع الإسلام بكل قوانينه . فالفقير لم يشعر بأنه غريب أو منبوذ في الجماعة المسلمة بسبب مكانته الاجتماعية ، بل وجد نفسَه في قلب صناعة الحدث التاريخي المستند إلى رؤية الإسلام في تحرير العالم. والغني لم يشعر بأن المجتمع يستغله وينهب ثروته ، أو يحترمه من أجل أمواله . لذلك ضحى الأغنياء بأموالهم في سبيل نشر الإسلام ، وحمل أمانة الدعوة محتسبين أجرهم عند الله تعالى في الدار الباقية . وهذا ينسحب على كل الثنائيات المجتمعية : الذكر والأنثى ، العالم والجاهل ، العربي والعجمي ، القرشي وغير القرشي ... إلخ .

إن الله تعالى لا يرسل الأنبياء ثم ينساهم أو يتخلى عنهم. بل يرسلهم سادةً للبشرية ، ويؤيدهم بالمعجزات والعون الإلهي ، ويثبِّتهم على الصراط المستقيم بدون انحراف أو تقصير . وهذا أعظم إمداد معنوي ومادي في حياة الأنبياء السائرين في حقول من الشوك والألغام ، حيث الصعوبات محيطة بهم من كل مكان ، والمخاطر الجسيمة تهدد عملَهم الدعوي ، وقد وصلت في بعض الحالات إلى قتل الأنبياء كما كان يفعل اليهود . لذلك فمهمة النبي ﷺ ليست نزهةً سياحية ، أو رحلة استجمام لقضاء وقت الفراغ. ولم تكن المسيرة النبوية مفروشة بالورود والعطور . إنها طريق شاق للغاية يتضمن المعاناة ، والسهر ، والعذاب الجسدي في المعارك ، والتألم الروحي بسبب الرافضين لنور الله تعالى . وكل ذلك من أجل إيصال الدعوة بأفضل أسلوب ، وزيادة عدد المؤمنين الناجين من النار الذاهبين إلى الجنة .

ولَمَّا كان تأييد الرسالة النبوية أمراً بالغ الأهمية في إتمام نجاح دعوة النبي ﷺ ، فقد كانت دعوة الأنبياء كلهم متضافرة لا متضادة ، وكل رسالة تؤيد الرسالات الأخرى ، وكلها تمهِّد للرسالة المحمدية الخاتمة . وهذا يدل على أن دعوة الأنبياء إنما هي دعوةٌ واحدة ، وطريقٌ واحد ، وذلك لاعتناقهم _جميعاً _ دين الإسلام (الدِّين السماوي الوحيد) مع اختلاف الشرائع تبعاً لإمكانياتِ كل نبي ، وظروفِ قومه وقدراتهم .

قال الله تعالى : ﴿ وإِذْ أخذ اللهُ ميثاقَ النبيين لما آتيتكم مِن كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمننَّ به ولتنصرنه ﴾ [آل عمران : ٨١] .

وهذه الآية الشريفة منهجٌ متكامل في فهم طبيعة العلاقة بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، فقد أخذ اللهُ تعالى عليهم العهدَ المؤكَّد بالالتزام بالشريعة الإلهية . ((فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد ـ عليه السلام ـ وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستخلاف))[29] .

ولا يخفى أن هذا تأييدٌ قوي للرسالة المحمدية ، ومساندة من قبل الأنبياء لدور محمد ﷺ في انتشال البشرية من مستنقعها ، وذلك عبر توفير الدعم له بكل ما يملكون من نفوذ وسُلْطة على الأتباع بما لهم من مكانة خاصة ، مؤيَّدين بالكتاب والحكمة .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠٢):[قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ((ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه . وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ، ليؤمنن به ولينصرنه)) . وقال طاوس والحسن البصري وقتادة : ((أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدِّق بعضهم بعضاً ، وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه))] .

ومنزلة النبي ﷺ الرفيعة تؤهله لأن يكون في صدارة الكوكبة النبوية العالمية ، لذلك كان واضحاً حرص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على مبايعته إماماً لهم . وفي هذا إشارة بالغة الوضوح على أفضلية النبي ﷺ وعلو كعبه . ومن خلال هذا الوعي التأصيلي يتضح تماسك البنيان النبوي الكَوْني ، حيث تعاون الأنبياء كلهم في رسم المنهاج القويم على كوكب الأرض . فلا نبي يلغي الآخرَ، ولا كتاب سماوي يتعارض مع الآخر ، لأن المرجعية السماوية التي يعود إليها كل الأنبياء واحدة لا تتعدد ، وكاملة غير منقوصة ، ومُنَزَّهة عن التناقض .

وعن العرباض بن سارية السلمي قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : ((إني عند الله في أول الكتاب لخاتَم النبيين ، وأن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بتأويل ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى قومه ، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام))[30].

---

(٢٩) تفسير القرطبي (٤/ ١٢٢) .

(٣٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٥٦) برقم (٤١٧٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وهذا يعكس حجمَ التأييد الذي حظي به النبي ﷺ، إذ إن العونَ الإلهي هيَّأ له دعمَ الأنبياء روحياً ومادياً . وإن دل هذا الأمر على شيء فإنما يدل على المكانة السامية للرسالة المحمدية الناسخة الخاتمة . ومنهجية التأييد الرباني ثابتةٌ وواضحة ومستمرة . فالله تعالى لا يرسل الأنبياءَ ثم ينساهم، وإنما يؤيدهم بالوحي، والتثبيت في كل المراحل ، ولا يتخلى عنهم ، فهم أولياؤه الكبار ، وحملة رسالته المجيدة ، والذين يأخذون بأيدي الناس إلى الهداية ، ويرشدونهم إلى الله تعالى . فقد قال الله تعالى : ﴿ ولولا فضلُ الله عليك ورحمته لهمَّت طائفةٌ منهم أن يُضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء ﴾ [النساء : ١١٣] .

ومما لا شك فيه أن تأييد الرسالة المحمدية يجعل النبيَّ ﷺ مستنداً إلى قوة جبارة تحميه ، وتدفعه إلى الأمام بلا تخاذل أو تردد . فيزداد تركيز النبي ﷺ في الدعوة ، ولا يحمل همَّ حمايته أو ضمان أمنه . ومن شأن هذا الدعم الإلهي أن تسير الرسالة النبوية بثبات وعمق نحو تحقيق كامل أهدافها . وما كان الدعم المادي ليؤتيَ أُكله بدون ثبات قلب النبي ﷺ . ولو كان مهزوزاً من الداخل ، أو يحمل قلباً خائفاً متردداً ، لما استطاع تأسيس الدولة الإسلامية وقيادتها في أحلك الظروف ، حيث الأعداء يتربصون من كل الجهات . ولما قدر على صناعة جيل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين حملوا الإسلامَ على أكتافهم بكفاءة واقتدار . وبما أن الصحابة (التلاميذ) قد تمت تربيتهم بكل ثقة وقوة وإيمان ، فهذا يدل على أنهم يقتبسون من مشكاة معلِّم متمكن وقوي، ففاقد الشيء لا يعطيه . إذن ، الثبات القلبي للنبي ﷺ أمَّن الجبهةَ الداخلية ، فكان القائد الأعلى للدولة الإسلامية واثقاً بربه ، وواثقاً بنفسه ، وواثقاً بصحابته . ومنبع هذه الثقة هي القوة الداخلية الثابتة ، لأن الواثق لن يخدع نفسَه باختراع قوة وهمية، بل يستند ـ حقيقةً ـ إلى معرفة متمكنة ، وإيمان راسخ، وإدراك كامل لمواطن القوة التي ترفض أيَّ نوع من الضعف . فلا يمكن للثقة أن تتجذر في قلب مهزوز ، ولا يمكن تأسيس القوة الخارجية إلا إذا تأسست داخلياً قبل كل شيء . وقد قال الله تعالى : ﴿ وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبِّت به فؤادك ﴾ [هود : ١٢٠] .

ففي أخبار الرسل السابقين ، وبيان معاناتهم وصبرهم ورباطة جأشهم في أصعب الظروف فائدةٌ جمة في تثبيت فؤاد النبي ﷺ ، وزيادة قدرته على الصبر والتحمل لئلا يكون ثغرةً في البنيان النبوي الكَوْني الذي شيَّده الأنبياء منذ الوجود البشري على سطح كوكب الأرض . وهذا الثبات النبوي منهجٌ قائم بذاته يساند الرسالةَ السماوية ، لأن الوحي لن ينزل على قلبٍ خائفٍ متردد ، والنور الإلهي الصافي لا يهبط في نفسٍ بشرية نجسة .

((وقد قَصَّ الله تعالى على نبيه ﷺ أخبارَ الأنبياء _ عليهم السلام _ حثاً له على التمسك بالصبر ، وتسهيلاً للمحنة عليه ... وقص علينا أخبار القرون السالفة لنتعظ بها ، وننتهي عن مثل الأفعال التي استحقوا العقاب بها ، فليس فيها أمر لنا بشيء أكثر من اعتقاد صحتها ، والاتعاظ بها))(31).

قال الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥) : ((وإن سمع _ العبدُ_ قصصَ الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود ، وإنما المقصود ليعتبر به ... فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ما نثبِّت به فؤادك ﴾ ، فليقدر العبد أن الله ثبَّت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء، وصبرهم على الإيذاء، وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى)) .

وتعميماً لمفهوم تأييد الرسالة ، فإن الأمة تواصل التأسي بالنبي ﷺ فعلاً وقولاً وتقريراً في كل مراحل وجودها ، لكي يظل الاتصال وثيقاً بين القدوة الأولى (محمد ﷺ) وأتباعه المؤمنين الحاملين للرسالة من بعده، فالإسلام ليست وظيفةً حكومية يتقاعد منها النبي ﷺ أو يستقيل . إنها منهج مستمر إلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها ، ورايةٌ لا تسقط بسبب المؤمنين السائرين في ضوء النبوة وإرشادها.

قال الله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنة ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالرسول ﷺ هو مركزية الوجود البشري، وهو المثل الإنساني الأعلى، والقدوة الشريفة التي ينبغي اتخاذها نبراساً في الحياة . وهنا تترسخ قيم الانتماء البشري للشخصية النبوية، ويتعمق الاقتداء بها في كل النواحي ، ويتركز الوعي بأهمية أن يظل مقام النبوة حياً في القلوب والواقع .

وفي واقع الأمر إن النبي ﷺ حي معنوياً ومادياً ، فكل الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ أحياء عند الله تعالى ، وفي قبورهم لا تأكلهم الأرض . لذلك فيجب تأسيس منهج التعامل مع الأنبياء على أنهم أحياء ، ليس بالمعنى المجازي فقط ، بل أيضاً بالمعنى الحقيقي .

٥_ معرفة أهل الكتاب إياه :

إن معرفة أهل الكتاب للنبي ﷺ ثابتةٌ وواضحة . ولكن الكفرَ عنادٌ . فهناك الكثير من العوامل التي تؤثر على عقيدة المرء واتجاهه السلوكي، مثل القناعات الداخلية ، ومستوى التفكير ،

(٣١) الفصول في الأصول للجصاص (٢/ ٧٣) .

والهوى، والعوامل الاجتماعية ، والشيطان . وأهلُ الكتاب بما لديهم من علم في كتبهم الدينية _ رغم تحريفها _ يدركون الحقائق التي تجري حولهم ، لكن العوامل الاجتماعية والنَّفسية تلعب دوراً كبيراً في اعتناق الحق أو رفضه . فهم يتميزون عن العرب الوثنيين في الجاهلية بعلوم دينية، ومعارف بحقائق الكون، وأمورِ الدنيا والآخرة _ حسب اعتقاداتهم _ ، لأن التوراة والإنجيل _ في الأصل _ كتابان سماويان ، ولكن مع كثرة الأيدي العابثة بهما تحوَّلا إلى خليط من الحق والباطل ، والنور والظلام .

قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ [البقرة : ٨٩] .

أي لما جاء اليهودَ القرآنُ الكريم الذي يصدِّق كتبهم غير المحرَّفة، وكانوا قبل ذلك يستنصرون بنبي آخر الزمان (محمد ﷺ) ، ولكنهم _ حين ظهوره _ كفروا به حسداً من عند أنفسهم لأنه خرج من العرب ولم يخرج من بني إسرائيل . و((أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري حدثني أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا، كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب ، وكنا أصحاب وثن ، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً يُبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله اتبعناه وكفروا به ففينا_ والله_ وفيهم أنزل الله: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾))(32) .

فالعامل الاجتماعي (العصبية القومية) الذي يتضمن اتباع الهوى والحسد ،كان له أثر مدمر في رفض الإيمان ، واعتناق الباطل ديناً . وهذه العوامل النفسية من شأنها تأسيس المبادئ المنحرفة عن قيمة الوعي الإنساني، وبذلك ينحرف الإنسان عن المنهج القويم ، ويغوص في سراديب الأوهام ضمن فوضى عبثية تنقله عبر عوالم التشويش ، فيغرق في بحور الشكوك المظلمة ، فلا يرى أي طوق نجاة هنا أو هناك .

وأهل الكتاب غارقون في الانحراف المنهجي عن الحق ، فكتبهم الدينية متضاربة ذات صبغة بشرية عائشة في عوالم الخيالات والوهم الأيديولوجي . واعتماداً على منهجية التشويش في كتبهم اختفى المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة ، فظهرت العقائد الزائغة ، والاختلاط المريع بين

(٣٢) الدر المنثور للسيوطي(١/ ٢١٥ و٢١٦).وانظر سيرة ابن إسحاق (١/ ٦٢).

الألوهية والبشرية ، والفكر المنحرف المتعلق بالمفاهيم العقدية الأسطورية كاللاهوت (الطبيعة الإلهية) ، والناسوت (الطبيعة البشرية) .

وبالطبع فإن أهل الكتاب لديهم معرفة وثيقة بالحق الإلهي الذي جاءت به الدعوة المحمدية الإسلامية ، فالحق واضحٌ أمام عيونهم وقلوبهم . لكن الحسد الذي يأكل قلوبَهم يدفعهم إلى تمني زوال نعمة الإيمان عن الأمة المحمدية ، لكي يصبح الجميع شركاء في الكفر والانهيار الأخلاقي ، وهذا الحقد الذي يتأجج في صدورهم ، هم _ وَحْدَهم _ مَن سيحترق به .

قال الله تعالى : ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيَّن لهم الحق ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

وروى الطبري في تفسيره (١/ ٤٥٤) عن ابن زيد أنه قال : ((كانت يهود يستفتحون على كفار العرب يقولون : أما والله لو قد جاء النبي _ الذي بشَّر به موسى وعيسى _ أحمد ، لكان لنا عليكم ! ، وكانوا يظنون أنه منهم، والعرب حولهم، وكانوا يستفتحون عليهم به، ويستنصرون به ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وحسدوه)) اهـ .

وهذا يعكس خطورة اتباع الهوى المضاد لاعتناق الحق، كما يدل على أن الحسد الذي يسيطر على اليهود في كل مراحل وجودهم يساهم بشكل فعال في صرفهم عن الحقيقة، والالتفاف حولها، من أجل تحقيق مكاسب شخصية دنيوية . لذلك فهم لا يملكون أية حضارة ، وليس لهم أي دور إيجابي في تاريخ البشرية .

قال الله تعالى :﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحقَّ وهم يعلمون ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٦٥) : ((يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا)) اهـ .

وهذا يدل على انفصال العلم عن الإيمان في فكر أهل الكتاب . فهم ليسوا جهالاً ، بل يملكون حصيلةً علمية كبيرة ، ومعلومات شديدة الزخم . لكنهم يستخدمون علمَهم في الدرب الخاطئ، ويوظِّفون معارفَهم في لوي أعناق النصوص، ومحاولة صرف الناس عن الحق .

والتوظيف السلبي للعلم ينطلق من إيثار الدنيا على الآخرة ، والبحث عن مكاسب دنيوية مؤقتة متعلقة بالقوة المالية ، والمناصب الاعتبارية ، وتحقيق الشهرة والنفوذ . وأهل الكتاب

محصورون في فلسفة تحريف التوراة والإنجيل التي جاءت لترسيخ شرعية وهمية لرجال الدين ، وتثبيت سلطتهم على الشعب العاجز عن اكتشاف طريق الحقيقة لجهله وفقره . لذلك فمسألة التحريف قد أخذت بعداً أيديولوجياً طبقياً لتجذير سيادة طبقة رجال الدين والحكام ، وإطالة حكمهم أطول وقت ممكن ، عبر توظيف النصوص الدينية لشرعنة الاستبداد ، وتبرير الظلم الاجتماعي ، وتكريس الخنوع والاستسلام في أوساط الناس عن طريق التلاعب بالكتب الدينية ، وتأويلها تأويلاً يخدم مصالح الطبقات المتنفذة في المجتمع على حساب العوام .

ولا يخفى أن العقل التحريفي الذي يسيطر على انحرافاتِ رجال الدين اليهود والنصارى ، قد أدى إلى إنتاج جيل من العلماء المتلاعبين بالنصوص . لذلك ظهر العقل النَّصي بكل انحرافاته التأويلية الرامية إلى تفتيت صورة الحقيقة ، وإحلال الوهم الأيديولوجي مكانها ، وذلك لخلخلة العقائد ، وإحالة المنظور الديني إلى منظور نفعي برجوازي على شكل إقطاعيات يستفيد منها عِلْية القوم على حساب الطبقات المتدنية في الشعب .

لذلك فإن محاولة إخفاء أهل الكتاب معرفتهم بالنبي ﷺ ، إنما تهدف إلى وأد الدعوة الإسلامية في مهدها، وذلك عبر إحاطتها بالغموض والتشويش وعدم اليقين، ظناً منهم أنهم بذلك يقدرون على المحافظة على نصوصهم الدينية المحرَّفة التي توفِّر لهم مزيداً من السيطرة على الأتباع ، وبسط النفوذ على عقول العوام وقلوبهم .

ولما كان الشعب غارقاً _ في مجمله_ في الجهل والفقر ، سَهُل على رجال الدين السيطرة عليه عبر إنتاج متواليات من الأساطير التوراتية والإنجيلية التي تكرِّس الشططَ الطبقي ، وتنتج جيلاً مناوئاً لإعمال العقل .

وعن طريق تكريس النصوص المحرَّفة ، وتأويلها_ بشكل ميكانيكي _ باتجاه رفض التمحيص العقلي ، ظهرت أجيال عاجزة عن توظيف الأدوات العقلانية في فحص الدلالات الدينية ، فصارت المعطيات المشوَّشة في خانة المسلَّمات بعد أن تم إضفاء القداسة الوهمية عليها ضمن متواليات من استلاب الوعي ، وانكسار القيم الدينية الذاهبة إلى التسييس الأيديولوجي البرجوازي .

((وقد نصَّ اللهُ _ عز وجل _ على أن اليهود يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل))[33] .

---

(٣٣) الفصل في الملل لابن حزم (٣/ ١١٠) .

لكن العوامل التي ساهمت في انحرافهم عن طريق الإيمان متعددة ، مثل العناد ، والحسد ، والخوف من فقدان مناصبهم وامتيازاتهم. وعلى الرغم من علمهم اليقيني بصدق نبوة محمد ﷺ إلا أنهم اختاروا الوقوفَ في الجهة المقابلة المضادة للحق ، لأن علمهم لم يُتَرْجَم إلى عمل قلبي مشرق ، وتصديق وجداني ، وإيمان راسخ ، وسلوك إيجابي .

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

فالعبقرية وحدها لا تكفي للحصول على الإيمان ، والوصول إلى الله تعالى ، لأن العقل _ في طبيعة بنيته الأساسية _ يمتاز بالنقص، والقصور ، والانكماش خلف أسوار محددة لا يمكن تجاوزها. أما الذين منحوا عقولَهم صلاحياتٍ أكثر مما ينبغي ، فقد حمَّلوا قواهم العقلية مسؤولياتٍ جسيمة فوق قدرة العقل البشري على التحمل ، مما ساهم في صناعة أعباء كبيرة أعاقت حركةَ الفرد في مجتمعه ، وقادت إلى اضطرابات نفسية جمة ، وإشكالياتٍ جسيمة على الصعيد الروحي والمادي. وانعكس الأمر سلباً على الحراك الاجتماعي الذي تراجع في بناء المجتمع الآخذ في التفكك .

٦_ صفاته في التوراة والإنجيل :

مما لا شك فيه أن صفات النبي ﷺ موجودة في الكتب السماوية ، وذلك لأهمية الحدث الكَوْني العظيم، وهو الرسالة المحمدية الإسلامية الناسخة الخاتمة . فمحمد ﷺ ليس نبياً لفترة زمنية محددة مثل باقي الأنبياء، بل هو رسول عالمي للإنس والجن غير محدود بفترة زمنية معينة . فصفاته الظاهرة في التوراة والإنجيل تتناسب مع السُلطة الإلهية الممنوحة له باعتباره حامل الشريعة الرَّبانية في الأرض .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسولَ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٣٥): ((وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشَّروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم ، يعرفها علماؤهم وأحبارهم)) اهـ .

وقد تناولت الآية السابقة ورود صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ، لأن الله تعالى قد مهَّد لظهوره ﷺ في الكتب السماوية السابقة لكي يستعد الناس نفسياً وواقعياً لاستقباله ، والإيمان به ،

والأخذ بتعاليمه ، لأن الاستعداد النَّفسي له دور فاعل في حسن التلقي والتطبيق . كما أن التمهيد للظهور النبوي أمرٌ كَوْني يخص الإنس والجن على السواء ، وليس حدثاً عابراً أو محصوراً .

وفي ذلك إشارة واضحة إلى تضافر جهود الأنبياء في إقامة صرح الإيمان ، فلا يوجد نبي يخفي صفاتِ نبي آخر ، فكلهم يد واضحة في بيان فضل بعضهم البعض ، وتوضيح مزايا مقام النبوة . ومنهج النبوة له جانبان : الأخذ والتنفيذ ، أخذ التعاليم السمحة التي جاءت لسعادة الإنسان في الدَّارين ، وتنفيذها على أرض الواقع حياةً عملية ملموسة لا فلسفةً ذهنية مجرَّدة لا علاقة لها بالواقع. فالمسار النبوي إنما جاء ليصير طريقَ الأفراد والجماعات كلهم ، لا أن يوضع على الرفوف كالتراث التاريخي أو الفلكلور الشعبي .

ولأن الأمر عظيمٌ جداً ، ويمس حياة أمم بأسرها. رأينا كثيراً من الأيدي التي تلاعبت بنصوص التوراة والإنجيل من أجل إخفاء الشمس المحمدية _ وفق نظرتهم القاصرة _ . فظهور النبي القائد الرباني صاحب النهج القويم يهدد كلَّ مصالح أهل الفساد الذين بنوا ثروتهم ونفوذهم على جماجم الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة . وهؤلاء الذين حرَّفوا التوراة والإنجيل خافوا من فقدان نفوذهم ، وضياع مصالحهم الآنية ، وخسارة مناصبهم الدُّنيوية . لذلك حاولوا جاهدين توجيه النصوص الدينية عند أهل الكتاب باتجاه مضاد للحقيقة ، يكرِّس الباطلَ ويمنحه الشرعية العابثة ، ويمحو الحق وينفيه . ﴿ ويأبى اللهُ إلا أن يتم نورَه ﴾ [التوبة : ٣٢].

وقد بشَّر المسيح ﷺ بالرسالة المحمدية . قال الله تعالى : ﴿ وإذْ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ [الصف : ٦] .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦١) : ((يعني التوراة قد بشَّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشر بمن بعدي ، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد . فعيسى _ عليه السلام _ هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة)) اهـ .

وهكذا نرى أن السيد المسيح ﷺ قد مهَّد الطريق لكي يقود المسيرةَ البشرية محمدٌ ﷺ . لكن بني إسرائيل _ كعادتهم _ قوم سوء وحسد وحقد ، يريدون احتكارَ الفضل الإلهي لأنفسهم مع أنهم غير ملتزمين بشريعة الله تعالى . لذلك حاولوا بكل ما أُوتوا من قوة عبر الطرق غير المشروعة أن يمنعوا وصولَ النور المحمَّدي الإسلامي إلى العالَم ، لكنهم عجزوا عن ذلك رغم

سيطرتهم على مثلث الشهوات (المال _ الجنس _ الإعلام) . ((ثم لما بعث الله محمداً بالدين الذي بعث به المسيح وسائر الأنبياء قبله ، وكان محمد مصدِّقاً لما جاء به المسيح،وكان المسيح مبشِّراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، صارت أمة محمد أتبع للمسيح _عليه السلام _ من النصارى الذين غيَّروا شريعته ، وكذَّبوه فيما بشَّر به ، فجعل اللهُ أمةَ محمد فوق النصارى إلى يوم القيامة))[34] .

وقد جمعتُ صفات محمد ﷺ في التوراة والإنجيل المتداولة عند أهل العلم، وأنا أنقلها كما هي :

أولاً : التوراة (العهد القديم)

[١] تثنية ١٨: ١٥: ((يقيم لكَ الربُّ إلهكَ نبياً من وسطك من إخوتك مثلي)) . ونفس الأصحاح الآية ١٨: ((أُقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلكَ وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أُوصيه به)) .

وقوله " من إخوتك " يعني العربَ ، لأن ولد إسماعيل هم أُخوة بني إسرائيل .

[٢] تثنية ٣٢: ٢١ : ((فأنا أُغِيرهم بما ليس شعباً. بأُمة غبية أُغيظهم)) .

والمقصود بالأمة الغبية هو العرب قبل رسالة محمد ﷺ .

[٣] تثنية ٣٣: ٢ : ((جاء الربُّ من سيناء وأَشرقَ لهم من سَعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعةٍ لهم)) .

فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى ﷺ ، وإشراقه من سعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى ﷺ ، وتلألؤه من فاران إنزاله للقرآن، لأن فاران من جبال مكة ، ومنه أتت الشريعة المحمدية الإسلامية.

[٤] التكوين ١٧: ٢٠: ((وأمَّا إسماعيلُ فقد سمعتُ لكَ فيه . ها أنا أُباركه وأُثْمره وأُكَثِّره كثيراً جداً . اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أُمَّةً كبيرة)).

هذه النبوة تجعل من ولد إسماعيل من سيكون سيد شعب كبير. وهذا لم يتحقق في ولد إسماعيل إلا لمحمد .

[٥] التكوين ٤٩: ١٠ : ((لا يزول قضيبٌ من يهوذا ومُشترِعٌ من بين رجليه حتى يأتيَ شِيلونُ وله يكون خضوع شعوب)) .

---

(٣٤) الجواب الصحيح لمن بدَّل دينَ المسيح لابن تيمية (٣/ ٥٠٤) .

وشِيلون هو لقب لمحمد الذي أتى وخضعت له الشعوبُ .

[٦]المزمور ٤٥: ٣: ((تَقَلَّدْ سيفكَ على فخذكَ أيها الجبارُ جلالَكَ وبهاءَكَ)).

النبي الجبار نبي السيف والبيان هو محمد . وهذه البشارة لا تنطبق على غيره .

[٧] المزمور ١٤٩. إن هذه البشارة تنبئ عن أمة محمد . إنها أمة الحمد والسيف معاً .

[٨] إشعياء ٤٢: ١١: ((لترفعِ البريةُ ومدنُها صوتَها الديارُ التي سكنها قيدار)) .

إنها نبوءة على يقظة الصحراء التي سكنها " قيدارُ " الابن الثاني لإسماعيل . فهي تشير إلى الإسلام ومحمد في الحجاز .

[٩] إشعياء ٥٤: كله . المراد بالعاقر " مكة قبل نُبُوَّة محمد " لأنه لم يقم فيها نبي بعد إسماعيل، ولم ينزل فيها وحي. وتعبير " بني المستوحشة " إشارة إلى أولاد " هاجر " . و " الحداد " المذكور في ٥٤: ١٦: ((ها أنذا خلقتُ الحدَّادَ)) إشارة إلى محمد ، حيث قاتل المشركين بسيفه.

[١٠] إشعياء ٦٥: كله . هذه نبوءة لاستبدال اليهود بالمسلمين شعباً لله . ((ويُسَمِّي عبيدَه اسماً آخر)) [٦٥: ١٥].

[١١] نبوءة دانيال المزدوجة: صورة التمثال كناية عن الشرك الذي يُمَثِّل أربع ممالك ،وفي زمن المملكة الرابعة ينقطع حجر من جبل " بغير يد قطعته " فيسحق التمثالَ والممالكَ الوثنية التي تحمله[٢: ٣١_ ٤٥]. وصورة ابن البشر الآتي على سحاب السماء لينشئ على الأرض ملكوتَ الله على أنقاض ممالك العالم [٧: ١٣_ ٣٧] . فالحجرُ الذي يَضرب تمثالَ الشرك هو محمد ، وملكوت الله هي الدولة الإسلامية التي قامت على أنقاض الفرس والروم .

ثانياً : الإنجيل (العهد الجديد)

[١٢] رسالة يهوذا: ١٤: ((انظروا ! إن الربَّ آتٍ بصحبةِ عشرات الأُلوف من قِدِّيسيه)).

" الرب " هنا بمعنى السيد وهو محمد ، أما لفظة " قديسيه " فهي إشارة إلى صحابته .

[١٣] مَتَّى ٢: ٢: ((أين هو المولود ملكُ اليهود ؟)) . و٤: ١٧: ((من ذلك الحين بدأ يسوعُ يُبَشِّر قائلاً : توبوا ، فقد اقترب ملكوتُ السماوات !)) .

إن المسيح لم يؤسس دولةً ، وهو مع المعمدان يبشران بدولة الله في أرضه ، فملكوت السماوات هو الإسلام دولةً وشريعةً .

[١٤] متى ١٣: ٣١: ((وضَرَبَ لهم مثلاً آخر ، قال : يُشَبَّه ملكوتُ السماوات ببزرة خردل أخذها إنسانٌ وزرعها في حقله)) .

فحبة الخردل التي تصير شجرةً صورة لملكوت الله . وهذه كناية عن الإسلام والنجاة فيه .

[١٥] متى ٢٠: ١_ ١٦. إن هذا المبدأ الإنجيلي نبوءة عن الإسلام ، دين الله في أرضه ، فهو يُبَشِّر بأن المسلمين آخر من ظهر من أهل الكتب المنزلة سيكونون أولين، والأولون من اليهود والنصارى سيكونون آخرين .

[١٦] متى ٢١: ٤٢و٤٣: ((الحجرُ الذي رفضه البُناة هو نفسه صار حجرَ الزاوية الأساسي... لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله سيُنزَع من أيديكم ويُسَلَّم إلى شعب يؤدي ثمرَه)).

إن ملكوت الله الذي يُنزَع من أهل الكتاب ويُعطى لأمة أخرى تؤدي ثمارَه هو الإسلام . وأن الحجر رأس الزاوية فيه هو محمد . أو أن حجر الزاوية في البنيان النبوي هو محمد صلى الله عليه وسلم .

التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم . اليهود رفضوا إسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام . قد يكون الحجر المرفوض إسماعيل صلى الله عليه وسلم لأن اليهود رفضوه وقالوا إنه ابن جارية (هاجر) وإسحاق أبناء الحرة (سارة) ، الذين ينتمون إليه نَسَباً فقط . واليهودُ يقولون إن الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

[١٧] سِفْر الرؤيا ٢: ٢٦_ ٢٩." الغالب الموعود " الذي وحده أُعطيَ سلطاناً على الأمم هو محمد .

[١٨] النبوءة بالفارقليط . حسب إنجيل يوحنا ١٤ : ١٦ : ((وسوف أطلب من الآب أن يُعطيكم مُعيناً آخر يبقى معكم إلى الأبد)) . و١٤: ٢٦، ١٤: ٢٦ ، ١٥: ٢٦ ، ١٦: ٧و٨ ، ١٦: ١٢و١٣و١٤ . [وإن الفارقليط الموعود هو " أحمد " المذكور في القرآن : ﴿ وإذْ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ [الصف : ٦][35]] .

قال الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء(ص ٤٧٣) في حوار دار بينه وبين الدكتور كارلو نلينو : ((ما معنى بيريكلتوس ؟ ، فأجابني بقوله إن القسس يقولون إن هذه الكلمة

---

(٣٥) راجع كتاب/ التناقض في التوراة والأناجيل ، ص ٧٤ ، إبراهيم أبو عواد ، دار اليازوري .

معناها " المعزي " ، فقلتُ : إني أسأل الدكتور (كارلو نلينو) الحاصل على الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة ، ولستُ أسأل قسيساً ، فقال : إن معناها (الذي له حمد كثير) ، فقلتُ : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد ؟ . فقال : نعم ، فقلتُ : إن رسول الله ﷺ من أسمائه (أحمد)، فقال : يا أخي ، أنت تحفظ كثيراً ، ثم افترقنا . وقد ازددتُ بذلك تثبتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح: ﴿ ومبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾))اهـ.

وعلماء أهل الكتاب يعرفون الحق ، لكن الغالبية منهم يفضلون المراوغة ، وممارسة التضليل الإعلامي ، وإنتاج التشويش وتعميمه في المجتمع ، وذلك للحفاظ على مصالحهم الشخصية .

وهكذا نفهم عملية التحريف في التوراة والإنجيل كممارسة كهنوتية لتكريس الوهم في أوصال المجتمع ، وإنتاج إقطاعيات انتحار الوعي بالأسئلة المصيرية التي تواجه الإنسان في حياته .

وعلى أية حال إن سياسات علماء أهل الكتاب الذين يحاولون جاهدين شرعنة الاضطهاد عبر الربط بين السلطة السياسية والسلطة الدينية للحفاظ على مكاسب عِلْية القوم ، سوف تظل سياسات لا تملك وجوداً حقيقياً على الأرض ، لأن الوهم سرعان ما يذوب حينما تخرج شمس الصباح. وعندئذ ينقلب السحر على الساحر ، لأن الوعي الديني التوراتي والإنجيلي هو وعي وهمي ، إذ إن بشرية النصوص الدينية عند أهل الكتاب، تجعل منهم رجعَ صدى لانتكاسة القومية الدينية. أي إن الاعتماد على بنية الأسطورة الأيديولوجية في محاولة تسويق النصوص الدينية المشوَّشة لن يُكتب له النجاح ، لأن ما بُنِيَ على باطل فهو باطل . خاصةً أن انكماش الأسطورة الدينية اللاهوتية كشف التناقضات المذهلة بين بنية التوراة وبنية الإنجيل ، فأضحى الحدث العقائدي ضرباً من بناء الأسطورة ، والتكريسِ الاجتماعي للخديعة استناداً إلى هالة إعلامية مفككة ومكشوفة .

وقصة الصحابة الذين ذهبوا إلى النجاشي بأمر النبي ﷺ مشهورة ، وفيها دلالات عظيمة . فهي اعتراف من ملك عالِم وحوله رجال الدِّين النصراني المتبحرون في دراسات التوراة والإنجيل ، بأن محمداً ﷺ كان معروفاً في كتب أهل الكتاب . فالبعض يملك الجرأة ليعترف بذلك ، والبعض الآخر تغلبه شهواته ومصالحه الشخصية فتحجب عنه الإيمانَ بالرسالة المحمدية الإسلامية ، وهذا يعرضه لخسارة الدنيا والآخرة معاً . ويمكننا أن نوجز القصة على النحو التالي :

((فقال النجاشي لجعفر : ما يقول صاحبك _ أي النبي ﷺ_ في ابن مريم ؟، قال: يقول فيه الله : هو روح الله وكلمته أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر ، قال _ الراوي _ : فتناول

النجاشي عوداً من الأرض فرفعه فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ، ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزن هذه . مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، فأنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي بشَّر به عيسى بن مريم ، ولولا ما أنا فيه من الْمُلْك لأتيتُه حتى أحمل نَعْلَيْه))[36] .

وفي هذه القصة إشارةٌ واضحة إلى أن أهل الكتاب لديهم علوم دينية ، ويدركون أبعاد الحقيقة، ومعالم الحق. ومنهم من يمتلك الجرأة على التصدي للباطل، والجهر بدعوة الحق . فينبغي على المرء أن يطلب الحق مُخلِصاً في ذلك دون وجود أهواء شخصية أو أغراض مادية نفعية آنية ، فلن يذوق لذةَ معرفة الحقيقة سوى شخص صادق في بحثه وقصده .

وقد رأينا موقف النجاشي _ رضي الله عنه _ في إعلان الحقيقة مدويةً أمام حاشيته ، ولم يخش انقلاب الناس عليه، لأن الحق _ بالنسبة إليه _ أحق أن يُتَّبع . فهذا الموقف الشريف يعكس تحرراً في التفكير البناء، وبعد نظر ثاقباً ، وإعمالاً لملكات تحليل المواقف ، واستيعاب الخطاب الكلماتي بدقة بالغة ، وإيثار الآخرة على الدنيا .

٧_ أخلاقه وعناية الله به :

لا ريب أن الأخلاق النبوية هي الكمال البشري، وهذا يشمل جميعَ الأنبياء _ عليهم السلام_، لكن أخلاق النبي محمد ﷺ هي السقف الأعلى في البنيان الأخلاقي النبوي، وذلك عائد إلى صفاته الحميدة البالغة منتهى الإمكانيات البشرية، فلا يمكن لمخلوق من الملائكة أو الإنس أو الجن أن يرقى إلى كمال الصفات النبوية، وأقصى ما يمكن للناس أن يفعلوه في هذا السياق هو التشبه لا أكثر ولا أقل . وكما قال الشاعر :

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالكرام فلاح

والنبوة _ بشكل عام _ هي منهجٌ أخلاقي إنقاذي لا سُلْطة استبدادية استهلاكية . لذلك كانت أخلاق الأنبياء في كل مراحل وجودهم هي الجاذبة للأتباع ، لما تحتويه من فضائل سامية ، وصفات راقية، تشد الآخرين، وتنتشلهم من صفاتهم المذمومة، لتضعهم في مستوى الرقي الأخلاقي الشامخ .

وبما أن الظواهر مهمة جداً لأنها الجزء المكشوف في التعاملات البشرية ، برز عمقُ شخصية النبي ﷺ ، وامتلاكها لأدوات التأثير الجماهيري ، وسيطرتها على المحيطين بالأخلاق الحميدة لا

(٣٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٨) برقم (٣٢٠٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

بالتلويح بالعصا أو المال . فالإحسان إلى الرعية انعكس إيجاباً على مسيرة الدعوة الإسلامية ، عبر تعميق الانتماء إليها ، والتضحية من أجلها، ومما لا شك فيه أن إكرام الكريم بمثابة صك مُلْكيته ، لأنه سيظل شاعراً بالدَّيْن في رقبته أبد الدهر .

وأهمية الأخلاق ترتكز إلى ظهورها العلني في المجتمع ، واحتكاكها مع شتى الطبقات المجتمعية المتفاوتة في العلم والثروة والنَّسب والمكانة الاجتماعية، فهي ليست أموراً باطنية خفية عن الأعين ، بل هي في صلب التعاملات العلنية على مرأى من الناس ومسمع ، والكل يلاحظونها ، ويعملون عقولهم في تصنيفها إيجاباً أو سلباً .

والمنهج الفكري للأخلاق يكمن في عمق تأثيرها في البيئة المحيطة والأفرادِ والجماعات . وهذه المنطقية التي تقود مسيرةَ التأثير من شأنها تكوين فكر اجتماعي متوازن يعمل على إنتاج منظومة من الإبداع البشري روحياً ومادياً . فالمنظومة الأخلاقية ليست ترفاً زائداً عن الحاجة أو مزايا لطبقة اجتماعية معينة دون أخرى . إنها نظام حياة متكامل وشامل .

ومن خلال الوعي الإنساني بأهمية المبادئ الأخلاقية في تأسيس طريق الدعوة ، وتعميق جذور الانتماء إلى المجتمع الإيماني المتماسك ، يتركز دور الصفات البشرية في نقل المعرفة الإيمانية إلى واقع ملموس ينقذ أبناءه ، ويمنحهم طوقَ النجاة من أجل الخروج من المأزق الوجودي الحرج الذي يضرب _ بقسوة _ الكيانَ الآدمي في كل أطواره وتحولاته .

إن منظومة الأخلاق لا ينبغي أن تنحصر في سياق الأفعال الاجتماعية التجريدية المفصولة عن التأثير الإيجابي في بيئتها ، بل يجب أن تنطلق نحو آفاق التغيير الحتمي باتجاه الأفضل .

لذلك كانت الأخلاق النبوية منهجاً متكاملاً ذا تأثير فعال في المحيطات ، وقد برزت التأثيرات الإيجابية على سلوك أهل الجاهلية ، فتحولوا من الكفر إلى الإيمان ، ومن التخلف إلى التقدم ، ومن قسوة الطباع إلى لين الصفات . كما أن البيئة الاجتماعية انتقلت من الحياة البدوية الجاهلية إلى حياة مفتوحة على كل الإبداعات، وممزوجة بالنهضة الحقيقية الشاملة لكل جوانب الحياة ، والمستوعبة لكل طاقات الأفراد دون تمييز على أساس اللون أو القبيلة . وهكذا تعززت روح الانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية الكَوْنية في بذرتها الأولى ، ونواتها الأساسية المتماسكة . وأخلاق النبي ﷺ أَدهشت العربَ في الجاهلية والإسلام، لما فيها من معانٍ سامية محببة للنفوس، كان لها بالغ الأثر في تجذير الثقة بالنبوة ، واعتبارها منهجاً خلاصياً ، وسفينةَ نجاة لا بد من الركوب فيها .

وهذا الأداء الأخلاقي منهجٌ متكامل لا رياء فيه ، وهو يرمي إلى صناعة المجتمع الإنساني عبر تحقيق المثالية الأرضية ضمن أقصى طاقة ممكنة ، وهنا يظهر الكمال النسبي الذي يجلّل الفعلَ الحضاري للمؤمنين الحاملين لشرعية الطموح الإيماني في تأسيس مجتمع العدالة الاجتماعية الذي يبث المحبة في أوصال الأفراد والجماعات، ويستأصل الكراهيةَ والعنصرية والعصبية القبلية.

وبما أن المشروعية الحضارية للمجتمع الإسلامي تنبعث من الخلق النبوي الشريف الذي ينير الطريقَ أمام الأجيال لكي تتحمل مسؤولياتها المصيرية في إرشاد الخلق إلى خالقهم، وإعمار الأرض، وتحقيق مجتمع العدل والمساواة ، فإن الأخلاق النبوية ينبغي أن تتجلى في سلوك المؤمنين واقعاً ملموساً ، وليس شعاراتٍ محبوسة في حِبر الكتب .

فمن الضروري أن يتم ردم الهوة بين النظرية والتطبيق لئلا يشعر الفرد بانفصام الشخصية ، أو يضيع المجتمع في متاهة الأضداد . فكل خلق نبوي هو نظرية حياتية تطبيقية لها مسار واضح مضاد للمراوغة والخداع ، ولها غاية محددة . لذلك فخط السير الذي يسلكه المجتمع المؤمن لا غموض فيه ، ولا نفاق ، لأن نقطتي البداية والنهاية معلومتان .

والجدير بالذكر أن المجتمع الإسلامي الحقيقي السائر في ضوء منهجية الأخلاق النبوية ليس لديه ما يخفيه أو يخجل منه ، لأن الشمس لا تخجل من نورها الساطع ، والبحر لا يخجل من صوته الهادر . لذلك فشخصية المسلم اندفاع منهجي بلا تهور ، وقوة جبارة في سبيل الحق بلا جرح مشاعر الآخرين . وكل عملية تستهدف بناء الشخصية الإسلامية لا بد أن تمر عبر منهاج النبوة الذي يربط الأرض بالسماء ، أما الاعتماد على قداسة الأفراد فلا يجدي نفعاً ، لأن الأشخاص يتغيرون ، ويغيرون أفكارَهم عبر أطوار حياتهم . والعاقل لا يأمن على حيٍّ فتنةً . والاعتماد على قداسة الدول لا يفيد ، لأنه لكل زمان دولة ورجال ، لذا فإن القداسة الفعلية التي تمتلك الشرعيةَ الحقيقية لا الشعاراتية لا تتجلى إلا في النُّبوة .

وقد كان النبي ﷺ يعامل الناس باحترام ، ويحسن الظنَّ بهم ، وفي ذات الوقت ليس مغفلاً يُضحَك عليه بالكلام المعسول . وهذه نقطة غاية في الأهمية ، لأن الكثيرين يقرنون الاحترام بالغفلة ، فيظنون أن الرجل المحترم هو شخصية مغفلة مهزوزة ، يسحقه الناس أثناء سيرهم في المجتمع. وهذه نظرة قاصرة تم تكريسها بفعل بعض النماذج السيئة التي لا تمثِّل إلا نفسها . فالاحترام هو قوة المعنى، أن تكون وردةً لا يمكن سحقها تحت الأقدام ، فتوضع الأمور في نصابها ، فالكلمة في موضع الكلمة ، والسيف في موضع السيف .

وقد حاول المنافقون أن يضحكوا على النبي ﷺ ـ حسب اعتقادهم الفاسد ـ، لكنهم سقطوا في مأزقهم الوجودي الحرج ، وظل النبي ﷺ شامخاً لا يسمح لأحد أن يتجاوزه ، أو يستغفله .

قال الله تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُن قُلْ أُذُن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ [التوبة : ٦١] .

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٤٠٥) : ((ومن هؤلاء المنافقين جماعة يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ﴿ ويقولون هو أُذُن ﴾ سامعة يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقه)) اهـ .

وهؤلاء المنافقون دائماً يحاولون الطعن في النبي ﷺ ، ويحاولون أن يصطادوا في الماء العكر ، ماءِ وساوسهم ، وأفكارهم الشيطانية، وأفعالهم الخسيسة المنافية للمروءة . فهم ينطلقون من موقف مسبق رافض للحقيقة ، يرفض التسليم والإذعان للحق .

فقد أخذوا على النبي ﷺ ـ حسب رؤيتهم ـ أنه يستمع إلى كل شخص فيُصدِّقه ويقبل منه . وهم يقصدون بذلك أنه يسهل الضحك عليه ببعض الكلمات المنمَّقة ، ويريدون رميه بالغفلة ، وعدم معرفة الرجال ، وانطلاء الحيل الكلماتية عليه ، وعدم تمييز الصالح من الطالح . وهذا قصور نظر منهم ، ووضع الأمور في غير نصابها . لذلك ردَّ الله عليهم بقوة : ﴿ قُلْ أُذُن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ .

قال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٧٧) : ((أي هو أذن خير لا أذن شر ، أي يسمع الخير ولا يسمع الشر)) اهـ .

فالنبي ﷺ يستمع للجميع ، لكنه يميز الخبيثَ من الطيب ، ويحكم على الظاهر إلا إذا أخبره الوحي بخلاف ذلك ، وهو متمسك بالأخلاق الصافية النقية المستندة إلى الإيمان بالله تعالى ، وتصديق المؤمنين ، وعدم الطعن فيهم إلا بحُجَّة شرعية . فالخلقُ النبوي الشريف يستلزم إحسان الظن بالآخرين بلا غفلةٍ أو جهل .

فليس من وظيفة النبوةِ التنقيبُ عن خبايا القلوب ، ورمي الناس بالشكوك والأوهام ، وتفتيت الجماعة المسلمة ، واعتماد القيل والقال منهجاً حياتياً . فهذا يتعارض تماماً مع سمو أخلاق النبوة ، ويتعارض مع الشخصية النبوية النبيلة .

فبعد النظر الذي كان يتحلى به النبي ﷺ مرتكز إلى يقين ثابت ، ووضوح الرؤية الثاقبة . فلا تستفزه الأحداث الجسام ، أو تخرجه عن طَوْره ، ولا يهتز أمام الأزمات العاصفة . فهو الملاذُ الآمن عند اشتداد الخطوب ، وتأجج نار الفتن .

ومما يدل على ذلك امتناع النبي ﷺ عن قتل رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، لئلا يقود هذا الأمر إلى تشتيت القوى المؤمنة ، وتفتيت أوصال الدولة الإسلامية ، وضرب الوحدة الاجتماعية الإيمانية، لذلك قال النبي ﷺ: ((لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه))(37) .

وقد كانت الأخلاق النبوية تأخذ بأيدي الآخرين إلى النجاة، وتخرجهم من المستنقعات الكارثية التي يغرقون فيها . وقد كان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على إيمان الآخرين، ليس لمنفعة شخصية يجنيها من المؤمنين ، أو زيادة راتب شهري كلما جمع مؤمنين أكثر ، أو تجميع أتباع من هنا وهناك ليلعب دور الزعيم مستغلاً نفوذه لامتصاص موارد البلاد والعباد .

فقد كان حرصه نابعاً من حبه للناس، وإنقاذهم من النار الأبدية، لينالوا الفوز في الدارين. فلم يقل النبي ﷺ : لقد قمتُ بواجبي ، وليذهب غير المؤمنين إلى الجحيم ، لقد حصلتُ على الجنة ، وليكن الطوفان من بعدي . لم يفعل ذلك ، لأن أخلاقه السامية تدفعه إلى تعزيز الأخوة البشرية ، والحرص على إنقاذ الناس حتى اللحظة الأخيرة ، ومساعدتهم إلى أقصى درجات المساعدة ، لينالوا النعيمَ ، وينبذوا الشقاءَ . فلم تكن النبوة إلا خلاصاً للبشرية ، وليس لعنةً على الإنسانية ، أو حملاً ثقيلاً على كاهل المخلوقات .

قال الله تعالى: ﴿ فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾[الكهف: ٦] . لا تقتل نفسك يا محمد حزناً على عدم إيمان هؤلاء ، فما عليك إلا البلاغ، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

وهذا يعكس درجة تأثر النبي ﷺ بعدم إيمان البعض ، وحرصه البالغ على إنقاذهم ومساعدتهم، وعدم التخلي عن الدعوة مطلقاً، ومواصلة العمل الدَّعوي حتى اللحظة الأخيرة ، فربما يأتي شخصٌ إلى حظيرة الإيمان ، فالوصول متأخراً خيرٌ من أن لا تصل أبداً .

لذلك كان كلام النبي ﷺ يعكس حرصه على إيمان قومه ، والشفقة عليهم ، والرحمة بهم ، على الرغم من كل المعاناة التي لقيها بسبب عناد قومه وجهلهم . لكن السَّيد الكريم يأبى أن يتخلى عن قومه مهما فعلوا من أعمال مشينة . فالشخصية النبوية هي ركيزة الحضارة البشرية ، لا تنساق وراء جهل الجاهلين ، أو استفزاز أصحاب العقول المشوَّشة .

قال عبد الله : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، فهو يمسح

(٣٧) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٦١) برقم (٤٦٢٢)،ومسلم (٤/ ١٩٩٨) برقم (٢٥٨٤).

الدم عن وجهه ، ويقول : ((ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون))[38] .

وهذا يشير إلى أخلاق الأنبياء الفاضلة ، وما يتمتعون به صبرٍ ، وعفو ، ورحمة . فهُم ليسوا عاجزين، أو متمسكين بالرحمة لضعفهم أو قلة حيلتهم. فأخلاقُهم نابعة من موقف القوة ، والقدرة، والعِلم ، وبعد النظر ، والرأفة بالناس .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ١٥٠) : ((فيه ما كانوا عليه _ صلوات الله وسلامه عليهم _ من الحلم ، والتصبر ، والعفو ، والشفقة على قومهم ، ودعائهم لهم بالهداية والغفران، وعذرهم في جنايتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون . وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبيِّنا ﷺ مثل هذا يوم أُحد)) اهـ .

وهذا الثبات في سبيل الدعوة ما كان ليتم لولا الثبات النبوي في العبادة التي تبث في النفس اليقين التام، والإصرار على إنجاز الأعمال الصالحة، وتماسك العزيمة، وعدم الضعف أمام الأزمات والمغريات . ودائماً سوف تظهر في طريق الداعية صعابٌ كثيرة ، لأن الدعوة الإسلامية يتجلى منهجها في إحقاق الحق، ودحض الباطل،وتثبيت شرعية الحقيقة في المجتمع عن طريق تجذير العدالة الاجتماعية. وهذه المبادئ السامية تشكل خطراً على الطواغيت أصحاب النفوذ والسلطة ، لذلك فإنهم يقاومون الدعوةَ الإيمانية بكل قوتهم ليس لأنهم يملكون منهاجاً أكثر فائدة للمجتمع من منهاج النبوة ، بل لأنهم يخشون فقدان مناصبهم ، ونفوذهم ، وأرباحهم المادية التي يحققونها عبر استنزاف الطبقات المتدنية في المجتمع مستغلين فقرها وجهلها . فالكفر _ في بنيته الأساسية _ عبارة عن تجارة رأسمالية لابتزاز الضعفاء عبر ترويج العقائد الضالة التي تضمن ديمومة سُلْطة رجال الوهم . وهكذا يقوم الطواغيت في كل العصور بمحاولة وأد دعوة الحق في بدايتها ، وخنقِ مسيرة الحقيقة في مهدها ، لكي يظل الشعبُ قطيعَ غنم يساق كما يريد الراعي دون التفكير أو النقد أو الاعتراض .

فالمصالح الشخصية الضيقة لهؤلاء المتنفذين تدفع باتجاه رفض شمس الحق التي تفتح عيونَ الناس، وتجعلهم أكثر وعياً بمسارهم ومصيرهم . ومن خلال هذا التأصيل الدقيق تبرز علاقة الصراع بين رجال الحق المدافعين عن إنسانية الإنسان ، وحضارة المجتمع الكَوْني ، وبين الطامحين إلى تجذير استعباد الناس ، وحَيْوَنةِ الذات الإنسانية عبر حقنها بالشهوات الفجة

(٣٨)متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٥٣٩)برقم (٦٥٣٠)، ومسلم (٣/ ١٤١٧)برقم (١٧٩٢).

اللامنطقية ، والاستهلاكيةِ المهووسة ، لكي ينحصر الفكر البشري في شهوتَي البطن والفَرْج دون الانتباه إلى القضايا الكبرى التي تمس وجودَ الإنسان على الكوكب، وتطرح الأسئلةَ المصيرية على نظام حياته. وكل ضعفٍ في الذات البشرية مرجعه إلى ضعف الاتصال بالله تعالى ، لذلك كانت العبادة هي الأساس المتين للانطلاق نحو بناء الفجر البشري وفق الصراط المستقيم .

قال الله تعالى موضحاً قوة عبادة النبي ﷺ : ﴿ الذي يراك حين تقوم (٢١٨) وتقلبك في الساجدين (٢١٩) ﴾ [الشعراء] .

والمعنى الإجمالي أن الله تعالى يراك حين تقوم إلى صلاتك بمختلف أحوالك من قيام وركوع وسجود . وبما أن النبي ﷺ هو الإمام ، فقد كان حريصاً على تسوية الصفوف ، وانتظام المصلين ، لكي يصلوا إلى الركوع والسجود خاشعين ، لا ينقصون شيئاً من الصلاة .

فعن أبي هريرة_ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((هل ترون قِبْلتي ههنا ؟ ، والله ما يخفى عليَّ ركوعكم ، ولا خشوعكم ، وإني لأراكم وراء ظهري))[39] .

وهذه معجزة نبوية شريفة خارقة للعادة . فالإنسانُ لا يَقدر على رؤية ما وراء ظهره . أمَّا النبي ﷺ فقد أعطاه اللهُ القدرةَ على الرؤية أمامه وخَلْفه على حدٍّ سَواء . وهذه الرؤية حقيقية لا مجازية .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ١٤٩و١٥٠) : ((قال العلماء : معناه أن الله تعالى خلق له ﷺ إدراكاً في قفاه يبصر به من ورائه . وقد انخرقت العادة له ﷺ بأكثر من هذا ، وليس يمنع من هذا عقل ولا شرع ، بل ورد الشرع بظاهره فوجب القول به . قال القاضي : قال أحمد بن حنبل _ رحمه الله تعالى _ وجمهور العلماء : هذه الرؤية رؤية بالعين حقيقة)) اهـ .

والتصاق النبي ﷺ بأمته ، والتصاق أمته به ، لا يمكن نفيه أو التقليل من شأنه . فقد قال الله تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ [الأحزاب : ٦] .

وهذا القرب العظيم يدل على أن النبي ﷺ حريص على مصلحة أمته أكثر منها، ويعرف ما ينفعها وما يضرها أكثر من معرفتها لذلك. وهكذا كانت تصرفات النبي ﷺ دفعاً للحرج عن أمته، ودرءاً لكل مفسدة ، سواءٌ عُلِمَت حكمة الفعل النبوي أم لم تُعلَم . لذا كان النبي ﷺ هو الأب لأمته ، والوالد الراعي لمصالحها ، والمدافع عنها في شتى المجالات .

---

(٣٩) متفق عليه.واللفظ للبخاري(١/ ٢٥٩) برقم (٧٠٨).ومسلم (١/ ٣١٩) برقم (٤٢٤).

كما أن نفاذ بصيرة النبي ﷺ وتأييده بالوحي يجعله يرى الأمور من كل جوانبها وفق بعد نظر قد يكون خفياً عن صاحب العلاقة ، لأن رؤية النبي ﷺ للأمور تختلف عن رؤية الناس المحكومين بالظواهر غير العالمين بأبعاد القضية من كل جوانبها الظاهرة والباطنة لذلك يكون اختيار النبي ﷺ أفضل من اختيار الشخص لنفسه ، وأجدر بالاتباع والتسليم والثقة .

قال القاضي عياض في الشفا (١/ ٤٧) : ((قال أهل التفسير : أي ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماض عليهم ، كما يمضي حكم السيد على عبده . و قيل : اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس)) اهـ .

وقد يتوهم أحدهم أن منهج النبوة يقوم على قواعد دولة دينية كهنوتية تحكم باسم رجال الدين الآلهة الذين ينوبون عن الله تعالى . أو أنه منهج رافض لاستخدام العقل ، ويعتمد على تغييب الوعي ، وتأسيس سلطات إقطاعية ابتزازية تصادر الحريات ، وتمنع الناس من نقد السلوكيات السلبية في المجتمع . وهذا كله مجانب للصواب ، ومصدره هو التأويل الخاطئ أو المغرض للنصوص الدينية . فالخضوع لتعاليم الله تعالى ، والاتباع الدقيق لأوامر النبي ﷺ لا يلغيان دورَ العقل ، لأن الفكر المؤمن المتحرر من أعباء الأسطورة الجدلية ، والأوهام الاجتماعية ، والتقاليد البالية ، هو منهاجٌ يمارس إعمال العقل ، وينتهج سبيل النقد المنطقي .

فالمؤمن حينما ينفذ أوامرَ الله تعالى ورسوله ﷺ ينطلق من منهجية مبنية على توظيف العقل لا تغييبه . فالمسلم يعرف مصدر الأوامر ، ودورها في إنقاذ المجتمع ، والأسلوب السليم لتطبيقها واقعاً ملموساً بُغية إنقاذ الإنسان وما يحيط به . فالإيمان هو فعل عقلاني مبني على النصوص الدينية الشرعية ، وهكذا تزول أية فرصة افتراضية لتعارض النقل مع العقل ، أو العكس .

فالنبي المرشِد الذي يَدُلُّك على الطريق الصحيح لا يطلب منك أن تغمض عينيك ، بل يأمرك أن تفتحهما لتكتشف طريقك ، وتعرف المسار والمصير ، وكل هذه الأفعال لا يمكن إدراكها إلا بإعمال العقل ، والتفكير بأهمية المرشِد والطريق ونقطتَي البداية والنهاية .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٨٤٥) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة . اقرؤوا إن شئتم : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ ، فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً _ عيالاً محتاجين _ فليأتني فأنا مولاه)) .

ووفق هذا المنظور الراقي يتعامل القائد مع رعيته ، حيث يرعاهم ، ويتابع شؤونهم أحياءً وأمواتاً ، ولا يفرض عليهم الضرائب لسرقتهم وتركيعهم ، أو يأمرهم بالهتاف له في مواكبه ليمارس شهوة السُّلطة على حساب شعب مسحوق منطفئ . وهذا هو المَثَلُ الأعلى في القيادة الحكيمة ، واقعاً ملموساً لا شعاراً مجرَّداً .

إن التصاق القيادة بالشعب لم يكن في المجتمع الإسلامي شعاراً إعلامياً براقاً تستهلكه وسائل الإعلام الرسمية . بل هو واقع ملموس أمام العيان . فالنبي ﷺ لم يأتِ من كوكب آخر ليكون غريباً عن البيئة الأرضية بكل إشكالياتها . ولم يجيء من الملائكة أو الجن ليكون غريباً عن طبيعة الجنس البشري ، وطريقةِ تفكيره ، وغرائزه . فقد جاء من بني البشر ، وهذه إشارة بالغة الأهمية إلى الالتصاق الوثيق بالإنسان بغض النظر عن طبقته الاجتماعية .

وهذا يدفع باتجاه بث الطمأنينة لدى المؤمنين لقناعتهم الأكيدة بأن النبي ﷺ يعرف طبيعتهم ، وأحلامهم ، ونقاط قوتهم وضعفهم . وبالتالي فهو الأقدر على إنقاذهم ، وبناءِ المجتمع الكوكبي السوي ، وإعادةِ بناء الإنسان بشكل يتجاوز كل الإشكاليات الاجتماعية ، والعقدِ النفسية ، وصراعِ الغرائز. وهكذا يتجذر مبدأ التوازن بين الروح والمادة الذي أسسه الإسلام كنظام حياة لا محيد عنه . فلم يقم الدين الإسلامي بقمع الشهوات ، وإنما أدخلها في منظومة التوازن ، واختيارِ المكان الصحيح، والزمانِ المناسب. فعلى سبيل المثال حصر الشهوةَ الجنسية في إطار الزواج ، وشرَّع الوسائلَ المستقيمة للإشباع الجنسي بين الزوجين ، ولم يأمر بالرهبانية ، أو اعتبار الجنس قذارةً أو غريزة حيوانية .

وشهوة التملك وجَّهها في مسارها الطبيعي ، فأباح حريةَ التملك للأفراد دون الاعتداء على المصلحة العامة ، وحريةَ التعاملات التجارية المنضبطة بالحلال وعدم استغلال الآخرين . كما أمر بالزكاة لكي يستأصل الفقرَ ، وينقل الفقراء إلى طبقة الغنى وعدم الحاجة . وبذلك أسَّس المنهج الاقتصادي المتكامل متجاوزاً الرأسمالية المتوحشة حيث الأغنياء يمصون دماء الفقراء، فيزداد الأغنياء غنى ، والفقراء فقراً ، ومتجاوزاً كذلك الاشتراكية حيث الملكية العامة، وقتل شهوة الإبداع الفردي، وإبادة غريزة التملك الشخصي، وطوابير الواقفين أمام المخابز ومراكز التسوق .

فالنبوةُ هي منهاج واقعي متكامل قائم على رعاية للناس والوقوف على مصالحهم ، وتحقيق أحلامهم . لذلك فالمؤمن مقتنع تماماً بأن له مرجعيةً يعود إليها ، وهي التي تمثِّله وتحافظ على شؤونه كلها. فالمرجعية النبوية هي مرجعية كل المؤمنين، حيث يطمئنون إليها ، ويحتمون بها في

وجه كافة الأزمات . ومن هنا يتم فهم مبادئ الدولة الإسلامية التي أقامها النبي ﷺ ، فهي دولة دينية بمعنى أن مرجعيتها الكتاب والسنة ، وكل مواطنيها إخوة في الإسلام ، حتى غير المسلمين لهم حق الإخوة في الإنسانية ، وحقوقهم محفوظة ، وأرواحهم وأموالهم وأعراضهم في موضع الحفظ والصيانة ، وتسود الدولةَ العدالةُ الاجتماعية ، فلا شطط طبقي ، ولا سرقة الشعب باسم الدين ، ولا حكم طواغيت آلهة يعيشون على جماجم الشعب . كما أن الدولة الإسلامية قائمة على العمل بالعلم ، فهذا المبدأ هو أساس الحضارة .

أما الدولة الدينية بمعنى وجود سلطة كهنوتية قمعية لصوصية ، وحكم رجال دين آلهة يوظفون النصوصَ الدينية لسرقة الناس ، ومصادرة حرية التفكير الواعية ، فهي مرفوضة جملةً وتفصيلاً ، لأنها ضد مراد الله تعالى الذي أراد أن يكون عبادُه أحراراً متحرِّرين من سطوة الأساطير وحاكميةِ حراس الخرافات ، وسماسرةِ الدِّين .

فالنبي ﷺ لا يقصد من رعاية المؤمنين تحقيق زعامة وهمية ، أو امتصاص أموال الناس بالباطل. فهو لا يأخذ أجراً على أفعاله الطيبة ، ولا يتقاضى راتباً شهرياً نظير خدماته في الدعوة ، فهو يحتسب أجره عند الله تعالى ، ولا ينتظر من المخلوقات جزاءً ولا شكوراً . إنه ﷺ يستشعر معنى كَوْنه عبداً لله تعالى ، وخادماً لشريعته، ووفق هذا المنظور يبني النبيُّ ﷺ أفكارَه وسلوكه ، ويؤسس دولة الإسلام والحق والعدالة والمساواة .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ما أسألكم عليه من أجر ﴾[ص : ٨٦] .

أي إن النبي ﷺ لا يأخذ أجراً على الدعوة ، وإنما أجره على الله تعالى . وبذلك قد أغلق اللهُ تعالى البابَ على الكافرين ، وألزمهم الحجة ، ودحض باطلَهم . ولو كان النبي ﷺ يأخذ أجراً دنيوياً على الدعوة ، لأتى الكافرون محاولين الطعن في النبوة ، فيقولون إن محمداً يطلب أموالاً نظير دعوته ، فلم تكن رسالته إلا مشروعاً تجارياً للسيطرة على أموالنا ، وأخذها دون وجه حق .

لكن الله تعالى أعلم بالنفوس البشرية وهو خالقها ، فأغلق هذا البابَ لئلا تظل هناك حجة للمعارِضين ، وأيضاً من أجل توجه النبي ﷺ بالكلية إلى الخالق تعالى ، فلا ينتظر من الناس أجراً ، لأن الإخلاص النبوي متوجه إلى رضا الله تعالى ونعيمه الأبدي .

وهذا الإخلاص في العبادة دون الالتفات إلى متاع الدنيا الزائل يعكس شخصية النبي ﷺ المتميزة ، ومدى صدق دعوته التي لم تكن بدعةً بشرية لجمع حطام الدنيا ، وأخذ أموال الناس .

قال الله تعالى :﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ [الفتح : ٢] .

وهذا الغفران الإلهي الذي شمل حياةَ النبي ﷺ من الولادة حتى الممات، هو عينُ الفضل الرباني، ومنحةٌ إلهية سامية يمن بها اللهُ على من يشاء من عباده . ولا ريب أن هذا الغفران هو الدافعية القوية التي تثبِّت النبوةَ المحمدية على الصراط المستقيم ، وتدفع بها إلى الأمام رغم كل الأزمات والتحديات . ومع هذا لم يذهب النبي ﷺ إلى النوم في بيته حينما سمع الآيةَ الشريفة التي تحمل بشارة الغفران، وقال إني ضمنتُ الجنة فلا داعي للعمل أو الدعوة، وليكن الطوفان من بعدي، فقد نجوتُ بنفسي . لم يفعل هذا على الإطلاق ، بل ازدادت عبادته وإصراره على الدعوة شكراً لله تعالى على هذه المنحة الربانية العظيمة ، لأن النبي ﷺ يبتغي وجهَ الله تعالى بكل أعماله ، فلا يعمل طمعاً في الجنة ، ولا خوفاً من النار . ونحن هنا لا نستهين بالنعيم أو العذاب . وإنما نقول إن الأعمال البشرية يجب أن تكون خالصةً لوجه الله تعالى ، لا وجه الجنة أو وجه النار . ومع هذا فنحن نطمع في النعيم الأبدي، ونخاف من العذاب الأبدي .

فعن المغيرة بن شعبة _ رضي الله عنه _ يقول : قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : ((أفلا أكون عبداً شكوراً ؟))[40] .

وهذه الدرجة السامية من الشكر هي دلالة نبوية على عمق العلاقة بين العبد وربه . فالعبادة ليست وظيفةً حكومية حيث يسجل الموظف اسمه في سجل الدوام الرسمي ، وهو ينتظر على أحر من الجمر متى ينتهي الدوام ، ومتى ينتهي الشهر ليستلم الراتب الشهري ، وليست حركاتٍ ميكانيكية مفرغة من معناها. إن العبادة استمتاع بحب الله تعالى والتزام تعاليمه بكل دقة . وبذلك يصل الإنسان إلى مذاق حلاوة الإيمان ، ويخرج من مأزق العادة والروتين الوظيفي إلى فضاءات الإيمان المتوقد .

وصفاتُ النبي ﷺ الراقية لا تنتهي عند حد معين ، بل هي متواصلة ، ومؤيَّدة بالوحي .

قال الله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجراً غير ممنون (٣) وإنك لعلى خلق عظيم (٤) ﴾ [القلم] . وقد اشتملت هذه الآيات الشريفة على صفات نبوية سامية . فقد

---

(٤٠) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٨٣٠)برقم (٤٥٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧١) برقم (٢٨١٩).

نفى الله تعالى تهمة الجنون التي اخترعها مشركو قريش لكي يطعنوا في الدعوة ، ويوقفوا الرسالةَ النبوية _ وفق رؤيتهم القاصرة_ .

وتهمة الجنون لا تقوم على ركائز واضحة ، وأدلة منطقية . فالمجنون يكون كلامه مبعثراً يفتقد إلى التسلسل المنطقي ، وتكون حركاته طائشة ، وأفعاله لا تتحلى بالتوازن . وهذا غير موجود في أخلاق النبي ﷺ الذي يقارع الحجة بالحجة ، ويمتاز بالفصاحة اللغوية ، والبلاغة البيانية ، ويتقن الخطابة في الجموع ، ويخاطب الروح والمادة معاً في خطاب متسق غير متناقض ، وكل هذا في ضوء التوجيه القرآني الذي تفوق على فصحاء العرب فما قدروا على مجاراة الخطاب القرآني .

كما أن حياة النبي ﷺ مستقيمة ومرتَّبة تعتمد على العقلانية المؤمنة والعاطفة النبيلة ، فلا يوجد في أفعاله طيش أو صبيانية ، ولا يوجد في كلامه تناقضات أو عدم انسجام . وهذا يدحض تهمة الجنون بكل سهولة، لكن الكفر عنادٌ . ومشركو قريش يعرفون في قرارة أنفسهم أن النبي ﷺ ليس مجنوناً، لكن الذي لا يملك الحجة، ولا يقدر على مواجهة المنطق بالمنطق ، سوف يلجأ إلى الشتائم والاتهامات الباطلة لإخفاء ضعفه الشخصي ، والتشويش على مسار الدعوة . فمن لا يقدر على مواجهة الشمس سوف ينسحب إلى الظلام ، ويتهم الشمس بنشر الظلام .

وينهمر الفضل الرباني على النبي ﷺ ، فأجره دائم غير ممنون ، أي غير منقطع . بل متواصل في حالة رقي تمتاز بالاستمرارية . وهذا يعكس الوضع المميز الذي تتمتع به الشخصية المحمدية ، وسمو رتبتها . ولم يأت هذا الأمر من فراغ . فالأخلاق النبوية السامية جاءتها إشادةٌ قرآنية خالدة : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾.

ومن الواضح أن الخطاب القرآني هو المدافع القوي عن النبي ﷺ في وجه خصومه الذين يتربصون بالدعوة . فقد قال الله تعالى _ مثبِّتاً الشخصية النبوية على طريق الرسالة السماوية ، ونافياً تهم الكافرين التي تلقى جزافاً دون أدلة مُعتبَرة _ : ﴿ إنه لقول رسول كريم (٤٠) وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون (٤٢) ﴾ [الحاقة] .

فقد أكَّد الخطابُ القرآني على كون النبي ﷺ رسولاً كريماً لا شاعراً أو كاهناً . فالشاعر الذي يرمي إلى تنميق كلامه وجعله موزوناً، فيصنع القصائد في المناسبات المختلفة ، ويخلط الحق بالباطل، والواقع بالخيال ، طريقه مختلف عن طريق النبي ﷺ الذي يبلِّغ كلامَ الله تعالى بلا زيادة أو نقصان .

والكاهن يحاول استغلال جهل الناس وابتزازهم للحصول على المنافع المادية بواسطة الخديعة ، حيث يقدم نفسه كعالم بالغيب ، وما سيحدث في المستقبل . لذا فإن همه هو تحقيق مكاسب شخصية دون التفكير في إنقاذ البشرية ، أو صناعة مجتمع السعادة، والعدالة الاجتماعية، وإعمار الإنسان والبيئة .

والدعاوى إنْ لم تُقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤُها أدعيــاءُ

وفي اللغة : ((كَهُنَ ــ كهانةً : صار كاهناً. وتكهَّن له : أخبره بالغيب. وتكهَّن بالأمر أخبر به على وجه التوقع. والكاهن: من يتنبأ بالغيب))[41] .

((والكهانة صورة الجاهليّ المقيدة بدوائر تغييب الوعي اعتماداً على استشراف الغيب . فالتنظيم العشوائي يفرض نمواً تكوينياً على مستويات الخلل التخصصي . ولهاث الفرد نحو معرفة الغيب إنما هو شكل مخترع لكي يخدع نفسه بأن وجوده في هذا الحياة ذو أهمية بالغة ، وهكذا يستشعر أهميته الوهمية))[42] .

وهكذا يظهر لنا أن فلسفة حياة الكهانة مضادة للمنهجية النبوية في الحياة . فالنبي ﷺ لم يزعم الألوهية أو ادعاء الغيب، ولم يقل للناس : اعبدوني من دون الله . ولم يخترع معجزات وهمية لابتزاز أموال الآخرين ، وتثبيت زعامة سياسية انتهازية . بل كان المسار النبوي واضحاً للغاية في الوسيلة والغاية . وقد قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ: ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِيَ السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [الأعراف : ١٨٨] . والخطابُ القرآني المتماسك دَحَضَ محاولاتِ نفي النبوة عن النبي ﷺ ، ورَفَضَ اعتباره شاعراً أو كاهناً، لما في ذلك من هدم للرسالة النبوية ، والاعتداء على حق الله تعالى ، والطعن في النبوة، وسلخ الرسالة المحمدية من الشرعية السماوية .

ففي حال غياب الشرعية السماوية عن البشر سوف يفقدون شرعية وجودهم كأنبياء ورسل، وعندها يخسرون سلطاتهم ، ويصيرون بشراً عاديين غير معصومين في دائرة الخطأ والصواب . وبالتالي جعل مقام النبوة عرضةً للانتقاص والنقد والنقض بلا نكير ، وهذا ما يسعى إليه أعداء الله في كل زمان ومكان ــ حسب تفكيرهم المحدود ــ .

---

(٤١) المعجم الوجيز ، ص ٥٤٤ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٤٢) الأساس الفكري للجاهلية ، ص ١٥٣ ، إبراهيم أبو عواد . دار اليازوري ، عمَّان ٢٠٠٧م .

إن اتهامات الكافرين للنبي ﷺ تظل محصورةً في دائرة العنف اللفظي الذي له تحولات عنفية عملية . لكنها _ في كل الأحوال_ تفتقد إلى منطقية المنهج العلمي . فكفار قريش لم يقدموا دليلاً عقلانياً لكي يدحضوا النبوةَ ، أو يُظهروا انحرافات النبي ﷺ _ وفق اعتقادهم الفاسد _ .

فالذي يريد أن يرد على منهج النبوة ، عليه أن يمتلك منهجاً أقوى ، وهذا متعذر . إذن ، لا يمكن مواجهة النبوة لأنها رسالة سماوية كاملة لا اختراع بشري ناقص . ومن العبث عقد مقارنة بين المصدر السماوي المعصوم ، والمصدرِ الأرضي القاصر . فلا يمكن مقارنة الكمال بالنقص .

ولم تقدر كل التهم التي اخترعها المشركون ومن شاركهم الموجهة ضد النبي ﷺ على النيل منه، أو الحد من نشاطه الدعوي ، أو إطفاء حماسته في تبليغ كلمة الله تعالى . فقد تم تبليغ الرسالة كاملةً غير منقوصة ، وقد أدى النبي ﷺ الأمانةَ كاملةً ، ولم يبخل بأي جزء منها . وهذا هو منهج الأنبياء كلهم بلا استثناء .

قال الله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾[التكوير : ٢٤] .

أي إن النبي ﷺ لم يبخل بتعليم الناس ، وإرشادهم إلى الحق ، وتبليغ الوحي الإلهي كاملاً غير منقوص . مما يدل على مدى العناية الإلهية المحيطة بالرسالة ، وإصرار النبي ﷺ على تبليغ الأمانة كلها رغم العوائق الكثيرة التي اعترضت طريقَه . فلم تزده الأزمات إلا ثباتاً على الحق ، ولم تزده التهم الباطلة إلا التزاماً بطريق الدعوة . وهذا دَيْدن الأنبياء أصحابِ الهمَّة التي لا تنكسر .

والثبات النبوي على الصراط المستقيم منبعه من التأييد الإلهي ، وقوةِ الخطاب القرآني في تثبيت النبوة. فقد قال الله تعالى: ﴿ ما ودَّعك ربك وما قلى (٣) وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥) ألم يجدك يتيماً فآوى (٦) ووجدك ضالاً فهدى (٧) ووجدك عائلاً فأغنى (٨) ﴾ [الضحى] .

وهذه الآيات الكريمات تمثِّل منهجاً ربانياً واضح المعالم في رعاية النبي ﷺ والاعتناء به . وقد اشتملت على معانٍ كثيرة بالغة الأهمية . فالله تعالى ما ودَّعك وما قلاك _ يا محمد _ ، أي ما تركك ولا أبغضك . وفي الأصل فإن قلب النبي ﷺ مطمئن بالموعود الإلهي ، وواثق بالعناية الربانية التي لا تتخلى عن المؤمنين بها . فالبناء النفسي المتماسك في الشخصية النبوية الداخلية ضروري للغاية لكي يبدوَ ظاهر الشخصية المحمدية متماسكاً أمام التحديات الجسيمة . فمن غير المنطقي أن يظهر منهاج النبوة مهزوزاً، أو فاقداً للشرعية، أو عاجزاً عن تقديم نفسه ، والدفاع عن

حججه، ودحض أقوال الخصوم . فالثقة بالله تعالى تدفع إلى الثقة بالنفس ، وبالتالي تحصين الجبهة الداخلية في الكيان النبوي ، فيظهر فاعلاً بكل حيوية على خارطة الأحداث الكَوْنية .

عن جندب بن سفيان _ رضي الله عنه _ قال : ((اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً. فأنزل الله عز وجل : ﴿ والضحى (١) والليل إذا سجى (٢) ما ودَّعك ربك وما قلى (٣) ﴾))[43] .

وقد جاء الرد الرباني واضحاً في دحض الشبهات، وتفنيد الوساوس التي تعتمل في نفوس أصحاب الشكوك . فالله تعالى لا يتخلى عن مبعوثيه ، فهو يؤيدهم ، ويحيطهم بعنايته ، ويشملهم برحمة مخصوصة ، بحيث لا يركنون إلى أنفسهم طرفة عَيْن ، وإنما يظلون متمسكين بحبل الله المتين ، واثقين من وعد الله الذي لا يتخلف .

وقد وجَّه اللهُ تعالى المسارَ النبوي نحو التعلق بالآخرة ، وعدم الانشغال بمتاع الدنيا الزائل : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ . أي إن الآخرة بما فيها من نعيم خيرٌ للنبي ﷺ من هذه الدنيا الفانية . فلم يجيء النبيُّ ﷺ ليجمع حطامَ الدنيا الفاني ، أو يَلهث وراء متعةٍ آنية زائلة ، إنه يَنظر إلى الخلود ، والنعيم المقيم . وهذا الزهدُ زهدُ العالِم القادر لا زهدُ العاجز الضعيف .

((ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته . ولما خُيِّر _ عليه السلام _ في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله _ عز وجل_ اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية))[44] .

وليست منهجيةُ النبي ﷺ هي الزهد القسري، أو زهد العاجز الذي لا يقدر على امتلاك الأشياء ، فيمثِّل دور الزاهد الورع . بل إنه كان بوسعه أن يكون أعظم ملوك الأرض قاطبةً ، ويملك الدنيا من المشرق إلى المغرب ، بكل ما فيها من متاع ، وكان ذلك في متناول اليد ، لكن المنهجية النبوية متطلعة دائماً إلى الله تعالى، واختيار الرفيق الأعلى _ سبحانه _ ، لما في ذلك من سعادة القرب من الخالق تعالى، والنعيم بطاعته ، والاحتماء بمجده ، ونيل رضاه ، وإيثار الآخرة على الدنيا .

---

(٤٣) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٩٠٦) برقم (٤٦٩٨)،ومسلم (٣/ ١٤٢١) برقم (١٧٩٧).

(٤٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧٤) .

فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : دخل عمر بن الخطاب _رضي الله عنه _ على النبي ﷺ و هو على حصير قد أثَّر في جنبه ، فقال : يا رسول الله ، لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا، فقال : ((ما لي وللدنيا ، وما للدنيا وما لي ، والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها))[45] .

إن هذا التشبيه البليغ يدل على أن الدنيا زائلة ، وسرعان ما تنقضي . ولا بد للجميع أن يَرحلوا عنها . وهذا الرحيل السريع يجعل الإنسانَ يوقن بأن الدنيا ليست دار استقرار وإقامة ، بل هي محطة عابرة . ولو عَرف الإنسانُ الفرقَ الحقيقي بين الدنيا والآخرة لاستعد ليوم الرحيل ، وانشغل ببناء الدار الآخرة وتجهيزها لا الدار الدنيا الفانية .

((قال الطيبي : وهذا تشبيه تمثيلي ، ووجه الشبه سرعة الرحيل ، وقلة المكث، ومن ثم خص الراكب . ومقصوده أن الدنيا زُينت للعيون والنفوس ، فأخذت بهما استحساناً ومحبة ، ولو باشر القلب معرفة حقيقتها ومعتبرها لأبغضها ، ولما آثرها على الآجل الدائم))[46] .

إن انبثاق هذا المنهج الواعي المتمثل في بعد النظر ، وعدم الاغترار بالشهوات الأرضية ، والركون إلى زخرف الحياة الدنيا الوهمي ، يشير إلى الأساس العقلاني الواعي للفكر النبوي . فتظهر الحياة الآخرة بكل حضورها في الواقع المعاش ، وهذا الظهور يدفع الإنسانَ إلى البحث عن الخلود لا الفناء ، والتركيزِ في النعيم المقيم لا النعيم المؤقت الزائل.وهنا يتجلى إبداع العقل البشري الذي لم يسقط في فخ الآنية، وإنما سعى إلى ما وراء البهرج الفتان الخادع للحياة الدنيا الزائلة . وبما أن النبي ﷺ قد اختار ما عند الله تعالى من النعيم، فلن يضيع أجره سدىً، وإنما سيبلغ رتبةً سامية ما بلغها أحد قبله ، ولن يبلغها أحد بعده . وهذه الرتبة السامية مقتصرة عليه حصرياً لما يتمتع به من صفات الكمال البشري . وقد قال الله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ . هذا شرفٌ ما بعده شرف ، وخاصية نبوية جاءت كمنحة ربانية خالصة ، لأن الله تعالى يعرف ماذا يقول، ويعرف أين يُنزل رحمته وفضله، ومن هم العباد المخصوصون بالفضل العميم ، فهو _ سبحانه_ مطلع على السر والعلانية ، ويعلم أسماءَ أوليائه ،كما يعلم أسماءَ أعدائه .

---

(٤٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٤) برقم (٧٨٥٨) وصححه ، ووافقه الذهبي ، وصححه ابن حبان (١٤/ ٢٦٥) برقم (٦٣٥٢) .

(٤٦) فيض القدير للمناوي (٥/ ٤٦٤) .

وقد عدَّد الله النعمَ العظيمة على النبي ﷺ، إذ وجده يتيماً فآواه، وضالاً فهداه، وفقيراً فأغناه .

قال الله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ .

أي : هيَّأ لك المأوى بعد أن كنتَ يتيماً فاقداً للأبوين ، فالله تعالى لا يريد أن يتفضل أي مخلوق على محمد ﷺ. وحدها الرعاية الربانية هي التي تشمله ، وتقوده في حياته ، وتحفظه في مماته. والحفظ الرباني للشخصية المحمدية لم ينقطع. فاليتم الذي عاناه النبي ﷺ لم يؤثر فيه سلباً، لأن توفيق الله تعالى نقل حالة اليتم من الضياع إلى الثقة الكاملة بالله تعالى واللجوء المطلق إليه . فلم يرد الله تعالى أن يركن النبي ﷺ إلى المخلوقات لكي تعوضه عن حالة اليتم، لأن الله تعالى قد خلق الشخصيةَ المحمدية ، وأحاطها بالرعاية والاستقامة ، وعصمها من الاضطراب النفسي أو الخلل المشاعري اللذين يظهران في شخصية الأيتام _ في الوضع الطبيعي _ .

وقد صار اليتم فرصةً ذهبية لانقطاع علائق النبي ﷺ بالناس_بغض النظر عن درجة القرابة _، واتصاله الوثيق بخالق الناس . وهذه القاعدة البنائية الإيمانية المتماسكة التي قامت عليها أبعاد الشخصية النبوية أدت إلى تنشئة النبي ﷺ وفق الأخلاق الفاضلة ، وتحمل التحديات بروح متوهجة ، ومواجهة الأزمات بقلب ثابت . وبدون هذه الصفات تفقد النبوة معناها وشرعيتها .

قال الله تعالى : ﴿ ووجدك ضآلاً فهدى ﴾ . وليس الضلال هنا بمعنى الكفر أو الجحود ، بل بمعنى الاحتياج إلى هداية الله تعالى ، لأن النبي ﷺ ما كنا ليهتديَ إلى طريق النبوة ، وحمل الرسالة ، وتبليغ الأمانة ، لولا توفيق الله تعالى وهدايته. فكل المخلوقات إذا فقدت هدايةَ الله سوف تضل طريقها ، وتعجز عن اختيار ما ينفعها .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٤) ، في الحديث القدسي يقول الله تعالى : ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هَدَيْتُه ، فاستهدوني أهدكم)) .

فالإنسان مهما بلغ من العلم العظيم ، والنسب الشريف ، والشخصية القيادية الخارقة ، يظل عاجزاً أمام عظمة الله تعالى ، وضالاً ما لم يتعرض لنفحات الهداية الربانية .

والنبي ﷺ هو كيانٌ بشري قبل أن ينال شرفَ النبوة وتكليفَها ، لذلك فالبشرية النبوية إنما خرجت من الضلال إلى الهداية بفضل الله تعالى ، وكل شيء سوى الله تعالى ، فهو محتاج إلى الله ، وضال بدون الهداية الإلهية . ولا يوجد مخلوق قادر أن يتحرك على الصراط المستقيم بدون التوفيق الرباني . والفرد لا يمكن أن يتعرف على الله تعالى اعتماداً على عبقريته ، أو شهاداته الجامعية، أو قوة عائلته ونفوذها. لذلك فهو في مستنقع الضلال ، وغارق في جحيم الظلمات .

وفرصته للخروج من الظلمات إلى النور هي الهداية الربانية التي تنتشله من الوهم الظلامي ، وتزرعه في قلب الحقيقة النورانية . والنور الإلهي لا يهبط في قلب نجس، لذلك فعلى الإنسان أن يطهِّر نفسَه لكي يكون أهلاً لنيل شرف الهداية.

قال الله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ .

أي أغناك بفضله بعد أن كنتَ فقيراً، والغنى غنى النفس ،كما أن النبي القائد ﷺ كان يملك كل السلطات في يده، بما فيها السلطة المالية ، وأموال الدولة الإسلامية ، لكنه آثر حياةَ التقشف والزهد في الدنيا انتظاراً لوعد الله في الآخرة . فلم يكن حاكماً دكتاتوراً مستبداً يسرق الشعبَ، وإنما يوزع الأموالَ وفق حاجة الناس ، أي يضع المال في مكانه الصحيح . فلا يعني تجمع السلطات في يديه أنه مستبد يذل الآخرين ويستعبدهم لكي يظلوا ملتفين حوله . ولكنْ لأنه قائد الدولة الإسلامية فهو يقوم بواجبه في توزيع المناصب والأموال على مستحقيها وفق مصلحة الدولة الإسلامية لا مصلحته الشخصية أو حظوظ نفسه .

قال الله تعالى: ﴿ ألم نشرح لك صدرك (١) ووضعنا عنك وِزرك (٢) الذي أنقض ظهرك (٣) ورفعنا لك ذكرك (٤) ﴾ [الشرح] . إن الله تعالى يعدِّد نعمه الجزيلة على النبي ﷺ ، فقد شرح صدرَه للإيمان ، واستيعاب النور الرباني، وجعل قلبه وعاءً حاضناً للهداية الإلهية السامية. وأراحه من أعباء الجاهلية الضاغطة عليه،ورفع ذِكره إلى الأبد،فلا يُذكَر اللهُ تعالى إلا ذُكر معه محمد ﷺ ، وهذا الشرف العظيم لم يَحصل عليه أي مخلوق غير النبي ﷺ .

((قال القاضي أبو الفضل : هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه ﷺ على عظيم نعمه لديه ، وشريف منزلته عنده ، وكرامته عليه بأن شرح قلبه للإيمان والهداية ، ووسَّعه لوعي العلم ، وحمل الحكمة ، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه ، وبغَّضه لسيرها ، وما كانت عليه ، بظهور دينه على الدين كله ، وحط عنه عهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم ، وتنويهه بعظيم مكانه ، وجليل رتبته ، ورفعه ، وذكره ، وقرانه مع اسمه اسمه))(47) .

وما أحسن قول حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ :

وضم الإلهُ اسمَ النبي إلى اسمه ... إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود و هذا محمد

---

(٤٧) الشفا للقاضي عياض (١/ ١٧) .

وهذه النعم الجزيلة تتضمن شرح صدر النبي ﷺ للإسلام ، وبث العلم والأخلاق الفاضلة فيه، وغفران ذنوبه التي أثقلت ظهرَه بحملها الثقيل ، ورفع ذكره في الدارين ، حيث اسم النبي ﷺ مع اسم الله تعالى في الشهادتين اللتين تترددان في أنحاء المعمورة حتى قيام الساعة ، ولا يُقبَل إسلام المرء بشهادة واحدة .

إن النعم الجزيلة التي أسبغها الله تعالى على مقام النبوة تنبئ عن عظمة الصفات النبوية التي جعلت من الشخصية المحمدية كياناً شريفاً عالمياً ، ومثلاً أعلى في كل الأزمنة والعصور ، وقدوةً بين المخلوقات . ولم يكن النبي ﷺ ليصل إلى هذه الدرجة السامية لولا توفيق الله تعالى الذي وضع الشخصيةَ المحمدية على الصراط المستقيم ، ومنحها الصفاتِ الخارقة لكي تقود البشرية إلى بر الأمان . إن الذات المحمدية بكل صفاتها المميزة أضحت مثلاً أعلى يُنظر إليه على أنه أقصى ما يمكن الوصول إليه في عالم البشرية . فهذا الكمال الإنساني الراقي يعطي الأملَ المشرق للآخرين كي يسيروا على الدرب المستقيم الذي أسَّسه النبي ﷺ ، ويعيدوا أمجادَ الحضارة العربية الإسلامية التي يظهر فيها التلاحم المتين بين النظرية والتطبيق ، فلا يحدث انفصام في الكيان الاعتباري للمجتمع المسلم، ولا يحدث تناقض بين النصوص الدينية وبين تطبيقات الواقع المحسوس. مما يشير إلى دور القيادة المحوري في وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، وأهميةِ العقلية المركزية في وضع الطاقات البشرية في أقصى مداها لبناء الإنسان والدولة . فالقائدُ هو الرأس ، وهو الرمز الملهِم ، فإذا بنى حياته على الإيمان وعمل الصالحات ، فسوف تنصلح حياة الرعية ، وتحدث نهضةٌ شاملة في المجتمع ، أمَّا إذا بنى حياته على الضلال ، فسوف تكون نهايته كارثية هو وشعبه على السواء.

والنعم الإلهية التي شملت النبي ﷺ لا تنقطع، فالله تعالى لا تنفد خزائنه من كثرة العطاء وإسباغِ النعم على عباده . واختصاص النبي ﷺ بالمنح الربانية الجليلة يدل على المكانة الخاصة لهذا النبي العظيم ﷺ الذي هو أرفع مخلوقات الله تعالى درجةً .

قال الله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر: ١] .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٠٠) عن معنى " الكوثر " : أن النبي ﷺ قال : ((فإنه نهر وعدنيه ربي ـ عز وجل ـ ، عليه خير كثير ، وحوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم)) .

وكما أن النعم الربانية المحيطة بالرسالة المحمدية مذكورة في القرآن الكريم ، فأيضاً الدفاع عن النبي ﷺ واضحٌ في الخطاب القرآني الذي يَرُد على الأعداء ، ويفحمهم بالبرهان الناصع ، والحجة الساطعة ، ويدحض باطلَهم ، ويفضحهم على الملأ بسبب كفرهم ، وعداوتهم للحق الناصع ، وعنادهم المبني على الجهل والغرور والحميَّة . ولا تخفى أهمية الدفاع عن مقام النبوة، ودحضِ أقوال خصومها،وذلك لمنع التشويش على مسار الدعوة الإسلامية، وتعزيز مسيرة الحق عبر تجاوز التحديات ، ونيل الشرعية في المنظومة المجتمعية . فالنبوةُ هي رأس الجسد الإيماني ، وإذا هُوجم الرأسُ فإن الجسد سوف يَضعف وينهار ويَسقط إلى غير رجعة .

قال الله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ [الكوثر: ٣] .

أي إن مبغضك يا محمد هو الأذل الذي ليس له عَقِبٌ (ولد) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٢١) : ((الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره. وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على دوام الآباد إلى يوم المحشر والمعاد)) اهـ .

ونلاحظ من خلال سياق الاعتداء اللفظي من قبل الكفار على المقام النبوي الشريف أنهم يحاولون بكل وسيلة الطعن في النبي ﷺ عن طريق النيل من تاريخه الأسري ، ووضعه العائلي . وهذا يدل على عجزهم عن مقارعة الحجة بالحجة ، وتقديم البراهين العقلانية المنطقية ، لذلك تناولوا وضعه الأسري بالانتقاص لأنه قد مات أبناؤه .

ووجود الأبناء بالغ الأهمية، وذو مركزية عشائرية في المجتمع الجاهلي،وقد اعتقدوا _ لجهلهم_ أنهم ناجحون في طعنهم ، لكن الأمر ارتد عليهم خسراناً ولم يتأثر مقام النبوي السامي بهذه التصرفات الطائشة الحاقدة التي لا منطق لها .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتوه ، فقالوا : نحن أهل السقاية والسدانة ، وأنت سيد أهل يثرب ، فنحن خير أم هذا الصنيبير المنبتر من قومه _ يقصدون النبي ﷺ _ يزعم أنه خير منا ؟، فقال : أنتم خير منه . فنزل على رسول الله ﷺ :﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ (48) .

---

(٤٨) صححه ابن حبان (١٤/ ٥٣٤) برقم (٦٥٧٢) . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٢١) : ((رواه البزار ، وهو إسناد صحيح)) .

٨ _ العِصمة :

إن الله تعالى لا يتخلى عن مبعوثيه ، بل يحيطهم برعايته ، ويدخلهم في كنف حمايته ، ويتولى أمورهم في السراء والضراء، والسر والعلانية. فلم يرسل الله تعالى الأنبياءَ ثم ينساهم ، أو يتركهم يضيعون في أوساط الحاقدين. حاشى وكلا، بل هو الإله القادر على الدفاع عن أوليائه، وإزالة أعدائهم .

وقد قال الله تعالى: ﴿ وإن تَوَلوْا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ﴾[البقرة : ١٣٧].

أي إن الله سيكفيك الأعداءَ _ يا محمد _ ، ويردهم على أعقابهم خائبين ، ولن يتمكنوا من النيل منك .

وفي البرهان في علوم القرآن للزركشي(٢/ ٤١٨) : ((قال سيبويه في قوله تعالى : ﴿ فسيكفيكهم الله ﴾ ، معنى السين إن ذلك كائن لا محالة ، وإن تأخر إلى حين)) اهـ .

فالله تعالى حليم صبور يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء ، ولا تستفزه إساءات الكافرين ، أو جهل الجاهلين . ولو أراد أن يؤاخذ العبادَ من أول خطأ يرتكبونه، لما أبقى على كوكب الأرض أثراً للحياة، لكنه _ تعالى _ فتح باب التوبة ، والعودة إليه . فربما يعود الكافر إلى حظيرة الإيمان ، وقد يرجع المذنب عن ذنبه ، ويلتزم التوبة .

والقرآن الكريم وضَّح معالم حماية النبيﷺ وعصمته، فالنبي ﷺ لا يتحرك اعتماداً على إمكانياته الشخصية ، أو حراسه الشخصيين . ولا يقوم بأفعاله بمعزل عن المرجعية السماوية المعصومة من الخطأ والعاصمة له من كل سوء . إنه يتحرك في ضوء الوحي ، فليس غريباً أن تكون الخِصال النبوية منضبطة لا نقص فيها ولا عيب .

قال الله تعالى:﴿ولقد قالوا كلمةَ الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهَمُّوا بما لم ينالوا ﴾[التوبة: ٧٤].

قال القرطبي في تفسيره (٨/ ١٨٨) : ((يعني المنافقين ، مِن قتل النبي ﷺ ليلة العقبة في غزوة تبوك . وكانوا اثني عشر رجلاً)) اهـ .

ولا يخفى أن أعداء الدولة الإسلامية كانوا يتربصون بها الدوائر من كل الجهات . وكان الهدف الأساسي هو إسقاط رأس الدولة (النبي ﷺ) بقتله أو حصاره أو طرده، حتى تنتهيَ الدعوة، ويتفرق المسلمون في جهات الأرض بلا مرجعية دينية ولا قيادة سياسية ، وهكذا يحصل مراد الكافرين بالقضاء على الإسلام . وهذا تفكير قاصر لأنه يذوب أمام شمس النبوة المحفوظة من كل سوء ، والمعصومة من كل خطأ ، والمضادة لاستهزاء أعداء الحق .

قال الله تعالى : ﴿ إنا كفيناكَ المستهزئين ﴾ [الحِجْر : ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ﴾ [الزُّمر : ٣٦] .

وهذا كله لتثبيت معنى عصمة النبي ﷺ وحمايته، فعليه أن يركز في الدعوة وإرشاد الآخرين ، ولا داعي أن ينشغل بأمر حمايته من الأعداء ، لأن الله تعالى قد تكفل برعايته وحفظه .

والحماية الإلهية ضرورية للغاية لصون مقام النبوة ، وجعل النبي ﷺ يركز في الدعوة بكل جوانحه . فالإسناد الحامي للشخصية النبوية يمثل دفعةً كبيرة لمزيد من العطاء ، والتفرغ لبناء المجتمع الإسلامي العالمي . فدرب الدعوة بالغ الصعوبة ، ويمتلئ بالتحديات الجسيمة ، ويحتاج إلى قلبٍ ناصع غير مشغول بالمشاغل الحياتية اليومية ، وطاقةٍ جسمانية هائلة تعين على العمل الدؤوب في تأسيس دعائم الإيمان في النفوس والواقعِ المادي ، وتشييد مجتمع الحق والفضيلة والعدالة ، وهذا لا يتأتى إلا بشعور النبي ﷺ بالأمان على حياته ، لذلك كانت العصمة الربانية هي الحارسة ، والمدافعة عن مقام النبوة ضد محاور الشر .

وقال الله تعالى :﴿ فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : ٤٨] .

أي بحفظنا وتحت رعايتنا وحمايتنا . وهذا كله يثبِّت قلبَ النبي ﷺ ، ويزيده ثقةً بالله إلى ثقته الراسخة . فالله تعالى لم يرسل الأنبياء لينساهم ، ويكلهم إلى أنفسهم . إنهم سائرون وفق النهج الرباني ، وفي ظل الحماية الإلهية التي تسدِّد خطاهم ، وتقوِّم مسارَهم خطوة بخطوة .

وجدير بالذكر أن ثبات النبي ﷺ لم يأت بإبداعه الشخصي أو مهاراته الذاتية ، بل هو محض فضل من الله تعالى ، لأن المخلوقات لا وجود استقلالياً لها ، ولا تقوم بذاتها ، بل هي قائمة بأمر الله تعالى قيومِ السماوات والأرض الذي تولى شؤون الخلائق ، فلا يطرأ عليه التعب ، ولا يصيبه الملل. وهذا لا ينفي القدراتِ المتفوقة للشخصية المحمَّدية ، واجتهادها في العبادة والعمل ، والذكاء في التعامل مع الناس ، وسبر أغوار مشاعرهم ونزعاتهم ، والكفاءة في القيادة السياسية والعسكرية ، والتخطيط بعيد المدى في تشييد الدولة الإسلامية ، وحفظ حقوق الناس ، مسلمين وغير مسلمين ، والرؤية الثاقبة في علاج أمراض المجتمع ، وإشاعة الأمن والرفاهية والعدالة الاجتماعية رغم الحصار والتضييق وتربص الأعداء من كل الجهات ، عرباً وعجماً .

والأنبياء مؤيَّدون بالوحي، ومحفوظون بأمر مُرْسِلهم تعالى. فهم _ رغم ما قد يحدث لهم _ لا يُهزَمون البتة . قد يشعرون بالألم ، لكنهم لا ينكسرون. قد يُصابون بالمرضِ والإعياء، لكنهم لا يَسقطون. قد يُصابون في المعركة ، لكنهم ليس لديهم راية استسلام يرفعونها.ومثل هذه المزايا ما

كانوا ليحصلوا عليها لولا العظمة الإلهية التي تتولاهم وتعتني بهم ، وترعاهم في كل الأمور ، صغيرها وكبيرها . فإن لاحظتك عنايةُ اللهِ تعالى فالوقتُ صافٍ ، والزمان أمان . لا قلق ولا اضطراب . وصدق القائل : وإذا السعادةُ لاحظتْكَ عيونُها نَمْ فالمخاوفُ كلهن أمانُ

قال الله تعالى :﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ [الإسراء : ٧٤] .

إن التثبيت الإلهي للنبي ﷺ هو طَوْق النجاة في كل الأزمات والشدائد . ولولا الفضل الإلهي على النبي ﷺ لمال إلى موافقة الكافرين، ولكنَّ الله تعالى عصمه من ذلك فلم يَفعل ، ولم تزل قَدمه، فهو ثابتٌ بفضل الله ورحمته . قال القرطبي في تفسيره (١٠/٢٦٠) : ((وقيل : ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل إلى موافقتهم ، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل، ذكره القُشَيري)) اهـ .

وفي البرهان في علوم القرآن للزركشي (٤/ ١٣٧) : ((فالمعنى على النفي، وأنه ﷺ لم يركن إليهم ، لا قليلاً ولا كثيراً ، من جهة أن لولا الامتناعية تقتضي ذلك ، وأنه امتنع مقاربة الركون القليل لأجل وجود التثبيت، لينتفي الكثير من طريق الأولى. وتأمل كيف جاء كاد المقتضية المقاربة للفعل بقدر الظاهرة للتقليل، كل ذلك تعظيماً لشأن النبي ﷺ وما جُبلت عليه نفسه الزكية من كونه لايكاد يركن إليهم شيئاً قليلاً للتثبيت مع ما جبلت عليه)) اهـ .

والقلب النبوي المفعم بالإيمان والثقة بالله تعالى ثابتٌ على الحق ، لا يلين في مقارعة الباطل، ولا يضعف أمام التحديات الجسيمة . فحياة النبي ﷺ كلها كانت في مجال الدعوة الإسلامية، علماً بأن مفهوم الدعوة شامل لكل مناحي الحياة . والنشاط النبوي واضح في تغيير تاريخ البشرية ، واستئصال الفساد الشرس ، وتأسيس المجتمع الإسلامي الصالح الذي يحتوي كل مكوناته على أسس العدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان ، وتشييد الدولة الإسلامية العادلة الراعية لمصالح الناس لا التي تسرقهم باسم الضرائب، وتحويل رعيان الغنم إلى رعاة الأمم، ونقل العرب من جاهليتهم السادية إلى صناعة الحضارة الكَوْنية ، وصون حقوق الأقليات ، وحفظ حقوق المرأة باعتبارها الطرف الأضعف في المجتمع . وكل هذه الإنجازات الحاسمة ، والقراراتِ المصيرية ، التي غيَّرت شكل خارطة الجزيرة العربية، وقادتها إلى صدارة الأمم ، وتأسيس أعظم حضارة عرفها التاريخ البشري امتدت أكثر من ألف سنة، ما كانت لتصدر عن قلب رجل مهزوز ، أو إنسان غير واثق بنفسه ، أو ساحر يخدع الناس. لذلك فالثبات النبوي واضحٌ من خلال الآثار الحاسمة التي أحدثت نقلةً نوعية على كوكب الأرض، وأعادت للإنسان إنسانيته المفقودة .

وفي الشفا للقاضي عياض (١/ ٢٨) : ((قال بعض المتكلمين : عاتب الله تعالى الأنبياء عليهم السلام بعد الزلات ، وعاتب نبينا _ عليه السلام _ قبل وقوعه ليكون بذلك أشد انتهاء ، ومحافظة لشرائط المحبة ، وهذه غاية العناية. ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه، وخيف أن يركن إليه ، ففي أثناء عتبه براءته)) اهـ .

ومن خلال هذه الرؤية الشمولية يتضح ثبات النبي ﷺ ومكانته السامية عند الله تعالى ، وعند الناس . وهذا يدل _ بلا شك _ على تميز الرسالة المحمدية بخصائص لا تتوافر في غيرها. فالثبات على المنهج رغم الإغراءات والتحديات ، والمضي قدماً في طريق الدعوة الإسلامية رغم المصاعب الجمة ، وانتظار نعيم الآخرة الدائم لا متاع الدنيا الزائل ، وانتشال البشر من مستنقعهم الحياتي ، وجعلهم في قمة العالَم سادةً وعلماء دون استغلال الآخرين أو استعبادهم ... إلخ. كل ذلك أعطى زخماً إيجابياً لمسار الحياة في ظل الدعوة المحمدية ، لأن القائد إذا نال ثقةَ الآخرين لا بد أن ينصاعوا له في سبيل إنشاء الدولة العادلة على الأرض ليصير الحق واقعاً ملموساً، لا حكراً على عِلْية القوم. ولا يخفى أن قوة الإسلام العالمية هي في عقيدة التوحيد السامية، وتميزه عن باقي الأديان . فهو الدين السماوي الوحيد ، وقد شمل كل الإنس والجن بشتى طبقاتهم. فلم يأتِ للأغنياء فقط ليكون رأسمالياً ، ولم يأتِ للفقراء فقط ليكون اشتراكياً، ولم يأت للعلماء فقط ليكون نخبوياً ، ولم يأتِ للجهال فقط ليكون دونياً. بل جاء للعالَمين منهجاً سماوياً خاتماً حفظ حقوقَ المخلوقات كلها ، وأرسى دعائم العدالة في كوكب كان فيه القوي يأكل الضعيف . لذلك فالكل يشعر بانتمائه إلى الإسلام لأنه الدِّين الذي حقق العالمية وفق منهج العدل. والمفاضلةُ بين الخلائق في التقوى التي محلها القلبُ . وهكذا استطاع الإسلامُ توحيد الشعوب على اختلاف أجناسها وأعراقها وألوانها وأنماطها الثقافية دون أن يقهرهم .

ومع كل هذه الإنجازات النبوية العظيمة ، فإن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ بالتواضع ، واللين مع الناس، والرفق بهم، وعدم التكبر عليهم، وخفض الجناح للمؤمنين . فقال الله تعالى : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ [الحِجْر : ٨٨] .

قال الطبري في تفسيره (٧/ ٥٤٢) : ((وأَلِن لمن آمن بك واتبعك ، واتبعَ كلامك، وقرِّبْهم منك ، ولا تجف بهم ، ولا تغلظ عليهم)) اهـ .

ولو كان يحق لإنسان أن يستعليَ على الناس بسبب أفعاله العظيمة ، ويتكبر عليهم بسبب إنجازاته الكبرى ، لكان النبي ﷺ أولى بذلك ، لكن الله تعالى وفَّق النبي ﷺ للأعمال الجليلة،

وأمره بالتواضع ولين الجانب ورؤية النعم الإلهية عليه . والتواضع النبوي لا ينبع من الضعف أو العجز أو قلة الحيلة والإمكانيات ، وإنما مرده إلى السمو الأخلاقي في التعامل مع الذوات البشرية ، والعناصر البيئية . فالأخلاق الفاضلة هي مفتاح القلوب، كما أن لين الجانب يؤثر _ إيجاباً_ في النفس البشرية ، ويجذب الناس إلى الداعية فيثقون به ، ويسلكون نفس منهجه. أما الغلظة فتعمل على تشتيت الجهود البشرية ، وتفريق الجماهير من حول الداعية ، لأن النفس البشرية مجبولة على اللين ، ومضادة لقسوة الطباع وسوءِ الأخلاق .

٩_ جزاء من يشاقق الرسول :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرسولَ مِن بعد ما تبيَّن له الهدى ويتَّبع غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى ونُصْلِه جهنم وساءت مصيراً ﴾ [النساء : ١١٥] .

فالذي يُعادي النبيَّ ﷺ ويُعارض منهجَه بعد أن اتضح له الهدى وظهر له الحق ، ويتبع طريقَ الغواية المعاكس لطريق المؤمنين ، فإن الله تعالى سَيَكله إلى اختيار نفسه ويتخلى عنه ، فيهيم على وجهه بلا بوصلة ، أو أن الله تعالى سيكله إلى الأصنام التي لا تضر ولا تَنفع . أي إن مصيره الهلاك الحتمي ، لأن الله تعالى طرده ، وتركه ضائعاً في متاهات نفسه الأمَّارة بالسوء غارقاً في مستنقع أوهامه معزولاً عن الهداية الربانية . وهذه هي النهاية الحتمية الكارثية لهذا الشخص الرافض لأوامر خالقه النافع والضار ، والمتعلِّق بالمخلوقات العاجزة التي لا تملك من أمرها شيئاً .

وفي الدر المنثور (٢/ ٦٧٤) : ((وأخرج ابن المنذر عن الحسن " أن رَجلاً على عهد رسول الله ﷺ اختان درعاً من حديد ، فلمَّا خشي أن توجد عنده ألقاها في بيت جار له من اليهود وقال : تزعمون إني اختنتُ الدرع _ فوالله _ لقد أُنبئتُ أنها عند اليهودي، فرُفع ذلك إلى النبيﷺ ، وجاء أصحابه يعذرونه، فكأن النبي ﷺ عذره حين لم يجد عليه بَيِّنة ووجدوا الدرع في بيت اليهودي ... ، فأُبرىء اليهودي وأخبر بصاحب الدرع ، قال : قد افتضحتُ الآن في المسلمين وعلموا أني صاحب الدرع ، ما لي إقامة ببلد فتراغم فلحق بالمشركين ، فأنزل الله : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرسولَ مِن بعد ما تبيَّن له الهدى ﴾)) اهـ .

فالخيانةُ عاقبتها وخيمةٌ . ومهما طال الزمانُ فلا بد للحق أن يَظهر ساطعاً يحرق نورُه الباطل . إذ إن عوامل انهيار الباطل كامنة فيه . ومهما علا صوتُ الباطل فهو سحابة صيف سُرعان ما تنقشع ، وزوبعةٌ في فنجان سُرعان ما تضمحل .

وعلى المرء أن يَلزم طريقَ النُّبوة لا يَتنكَّبها، ويتمسك بكلمة الجماعة، ولا يَشق عصا الطاعة ، فمن شَذَّ شَذَّ في النار ، ومن خالف الجماعة مات مِيتة جاهلية . فالأُمَّةُ الإسلامية لا يمكن أن تجتمع على ضلالة، فهي معصومةٌ عِصمة عامة ، وهذا بفضل الله الذي شَرَّف أُمَّةَ رسوله ﷺ تكريماً له . وبالطبع فموافقة الجماعة لا تنفي إعمالَ العقل ، وإبداءَ الرأي ، والنقدَ البنَّاء .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٣٦) : ((والذي عَوَّل عليه الشافعي _ رحمه الله _ في الاحتجاج على كَوْن الإجماع حُجَّة تَحرم مخالفته هذه الآية الكريمة ، بعد التروي والفكر الطويل . وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك)) اهـ .

وروى الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥٢) وصَحَّحه ووافقه الذهبي عن أبي مسعود الأنصاري _ رضي الله عنه _ قال : ((عليكم بتقوى الله ، ولزوم جماعة محمد ﷺ ، فإن الله تعالى لن يَجمع جماعةَ محمد على ضلالة)) .

وهكذا تظهر أهمية لزوم الجماعة، وعدم الخروج عنها . وهذا لا يعني بحال من الأحوال تعطيل عقول الأفراد وتحوُّلهم إلى أرقام لا وزن لها ضمن قطيع يسير بلا تفكير. بل يعني أهمية انخراط الفرد في الجماعة والالتحام بها خوفاً من سقوطه في الخطأ والخطيئة وانحرافه . فالجماعةُ هي الحاضنة التي تصون أبناءها وتحميهم من الفُرقة والضياع . ومهما كان الفردُ قوياً وواثقاً من نفسه فلا يَقدر بمفرده أن يُحقِّق أحلامه ، فلا بد من جماعة ينتمي إليها ، وتدافع عنه .

وروى الحاكم في المستدرك(٢/ ٥٢٤) وصححه ووافقه الذهبي أن النبي ﷺ قال : ((فَعَلَيْكَ بالجماعة ، فإنما يأكل الذئبُ القاصيةَ)) .

فالجماعةُ هي القوة المركزية التي تُوفِّر الملاذَ الآمن لأبنائها . وإذا ابتعد المرءُ عنها فلا بد أن يسقط ضحيةَ نفسه والأطرافِ المتربصة به . فالذئبُ لا يتجرأ إلا على القاصية التي ابتعدت عن القطيع ، وصارت هائمةً بمفردها بدون حماية ولا إسناد .

١٠_ أدب المؤمنين معه :

إن النبي ﷺ ليس زميلك في العمل ، أو أستاذك في الجامعة ، أو واحد من الجيران في منطقة سكنك ، أو صديقك الذي تسهر معه . فهو يملك وضعاً خاصاً للغاية.واعتماداً على هذا الوضع المختلف عن الناس يجب التعامل معه بدقة شديدة، وأدب جم ، وانتباه إلى الأفعال والأقوال . فصاحبُ المكانة الرفيعة ينبغي أن يكون له احترامٌ خاص ، ليس بدافع التكبر ، بل التأدب .

فلو كان الإنسان أمام ملك من ملوك الدنيا ، أو رئيس جامعة ، أو مدير في دائرة حكومية ، لفكر ألف مرة قبل أن يقول أية كلمة، وأحصى سكناته وحركاته بدقة شديدة، وخاف أن تُحسَب عليه أية كلمة ليست في موضعها . فما بالك بالنبي ﷺ الذي ينزل عليه سيد الملائكة جبريل _ عليه السلام _ بأمر الله ملك الملوك ؟ .

فلا بد من التأدب في حضرته ، ومعرفة أسلوب الخطاب اللائق أمام هذا الرسول الخاتم مبعوث العناية الإلهية. وقد شدَّد الخطابُ القرآني على أهمية أدب التعاملات مع النبي ﷺ ، لما في ذلك من توقير لأوامر الله تعالى ، واحترام للرسالة المحمدية .

وقد قال الله تعالى :﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾[النور : ٦٢] .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٠٩) : ((وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول _صلوات الله وسلامه عليه_ من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك . أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين)) اهـ .

وهكذا تتضح لنا أهمية الاستئذان من النبي ﷺ ، وهذه الخصلة الحميدة تدل على قوة تماسك الجماعة الإسلامية، ودور قائدها في ضبط أمورها ، وولاء الأتباع لإمامهم والالتفاف حول قيادته، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب.ولو حضر الناس أو غادروا بلا استئذان لعمَّت الفوضى، وفقدت القيادةُ مركزيةَ الانضباط والتوجيه. فقد تظهر الحاجة الملحة إلى وجود شخص ما،وفي حال غيابه بلا استئذان فإن ذلك سيخلق فراغاً يؤثر سلباً على المنظومة الاجتماعية.

وقال الله تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاءَ الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ [النور : ٦٣] .

أي : خاطِبوه بعبارات التوقير والتعظيم ، ولا تنادوه باسمه المجرَّد (محمد) ، وإنما بعبارات" نبي الله " ، " رسول الله " .

فتعظيم النبي ﷺ فرضٌ ورتبة سامية يسعى المؤمنون إليها بكل قواهم ، لأن الجهود النبوية في انتشال البشرية من مستنقعها تستحق أن تُقابَل بالتقدير والحفاوة والتعظيم . والنفوسُ مجبولةٌ على حب مَن أحسن إليها .

فالنفس الآدمية مجبولة على تقدير من أحسن إليها ، فكيف بمن نقل الناس من النار الأبدية إلى الجنة السرمدية ؟! . نقلهم من جحيم الكفر إلى واحة الإيمان دون أن يأخذ منهم أجراً ، أو يحوِّلهم إلى عبيد له من أجل ابتزازهم ، وسرقة أموالهم ، وزيادة نفوذه على حساب معاناتهم ــ كما يفعل الطواغيت في كل العصور ــ . فهذا الإحسان العظيم ما بعده إحسان.فهو قمة السمو البشري في أبهى صوره، حيث يأتي رسولٌ من عند الله تعالى ، ويضحِّي بساعات راحته من أجل راحة الآخرين ، ويسهر في سبيل إنشاء مجتمع الأمن والعدالة واحترامِ حقوق الإنسان لكي ينام الآخرون مطمئنين في بيوتهم آمنين على حياتهم وأعراضهم وأموالهم ومستقبلهم .

إن التضحيات النبوية العظيمة تكاد تكون فوق مستوى العقل البشري، فوجود إنسان ذي أخلاق كاملة معصومة مُنَزَّهة عن الشوائب ، يقضي حياته كاملةً لإنقاذ حياة الآخرين دون أن ينتظر كلمةَ شكر، أو يتوقف لسماع المديح، يستلزم وقفات كثيرة للتمعن في حياة هذا النبي العظيم الذي أعاد للإنسان معناه الآدمي المفقود ، وأخرج البشريةَ من أزمتها الوجودية الخانقة ، وأرجع للحياة مذاقها وجدواها . وفي الشفا لعياض (٢/ ١٨٥) : ((قال القاضي أبو الفضل ــ رضي الله عنه ــ : قد تقدم من الكتاب و السنة و إجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعين له من بر، وتوقير، وتعظيم، وإكرام ، وبحسب هذا حرَّم الله تعالى أذاه في كتابه ، وأجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابِّه)) اهـ . وقال ابن المنذر في الإجماع (ص ١٢٢) : ((وأجمعوا على أن من سبَّ النبي ﷺ أن له القتل)) اهـ .

لذلك ينبغي الالتزام بأدب مخاطبة النبي ﷺ ، واختيار الكلام المناسب في الوقت المناسب ، مع درجة الصوت المناسبة . فالوقوف في الحضرة النبوية ليست مسألةً عادية روتينية ، إنه منهاج متكامل للتعرض للنفحات النبوية الربانية من أجل التزود بالطاقة الإيمانية اللازمة لتحقيق مراد الله على الأرض بكل أمانة والتزام .

وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [الحجرات : ٢] .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٦٢) برقم (٦٨٧٢) : ((عن ابن أبي مليكة قال : كاد الْخَيْرَان أن يَهْلِكا ، أبو بكر وعمر ، لما قدم على النبي ﷺ وفدُ بني تميم أشار أحدهما بالأقرع ابن حابس الحنظلي أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر بغيره ، فقال أبو بكر لعمر : إنما أردت

خلافي ، فقال عمر : ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ، فنزلت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ...)) .

وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٤٢): ((ولا يجوز لأحد رفع صوته فوق صوته _ أي صوت النبيﷺ _ ... وجه الدلالة أنه توعد على ذلك بإحباط العمل ، فدل على التحريم ، بل على أنه من أغلظ التحريم)) اهـ .

فرفع الصوت إشعار بعدم الأدب في حضرته ﷺ ،كما أنه لا ينسجم مع مكانة القائد في نفوس أتباعه المؤمنين به ، وأيضاً يشيع جواً من الفوضى ، وغياب الروح التعاونية بين أفراد الجماعة المسلمة . فالمجتمع الإسلامي ينبغي عليه أن يلتزم بآداب الحوار ، والاستفسار عما يجول في الخاطر بالأساليب الحضارية المرعية بين الإمام القائد وبين أتباعه المؤمنين . مما يؤدي إلى صناعة مجال فكري حواري يساهم في تصحيح مسار الناس في ضوء الإرشاد النبوي الواضح.

وقد التزم الصحابة _ رضي الله عنهم _ بعدم رفع الصوت بعد نزول الآية ، إذ كانوا وقَّافين عند كلام الله تعالى . وهذا يشير إلى درجة الأدب والالتزام التطبيقي، حيث نقل الأوامر الشرعية في النصوص الدينية إلى واقع عملي ملموس .

فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : ((لما نزلت: ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ [الحجرات: ٣] . قال أبو بكر الصديق _ رضي الله عنه _ : والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله ، لا أكلمك إلا كأخي السرار _ كالمناجي سراً بصوت منخفض _ حتى ألقى الله عز وجل))[50].

إن موقف أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه _ الآنف الذكر يعكس مدى الالتزام بالتعاليم الإلهية ، والتأدب في الحضرة النبوية . مما يشير إلى الوعي الإنساني الخلاق في سبيل إحاطة القائد بالاحترام الحقيقي لا النفاق الاجتماعي ، لأن إنزال الناس منازلهم ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، يدل على الوعي الجماهيري الحاسم .

وبالتالي فإن مركزية النبوة السامية تكرَّست في نفوس الأتباع قبل أن تتأسس واقعاً ملموساً ، فالمجتمع الإسلامي يولد في أذهان المؤمنين حياةً تصوُّرية قبل أن ينتقل إلى التطبيق العملي المحسوس. وشيء طبيعي أن يمتاز المجتمع الإيماني بالتماسك، لأن مستويات الوعي مرتفعة جداً

---

(٥٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠١) برقم (٣٧٢٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

عبر كل طبقاته الاجتماعية التي تتحد فيما بينها لتكوّن طبقةً معرفية واحدة ، عالية الثقافة ، وذات مستويات وعي مرتفعة .

قال الله تعالى: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ [الحجرات: ٤].

وهذا السلوك السلبي يعكس جفاء بعض العرب، وقسوة طباعهم، وذلك جراء صعوبة عيشهم في الصحراء ، وغياب تهذيب أخلاقهم . فالعرب البدائيون _ قبل أن يتشربوا التعاليم المحمدية الإسلامية_ كانوا عائشين في الإطار الغريزي الشهواني، وقسوةِ الطباع الصحراوية الجافة. فهم لا يملكون أي مستوى من المدنية والحضارة، مما انعكس سلباً على أدائهم الأخلاقي ، فصُبغت صفاتهم بالغلظة ، وظهروا قساةً يلقون الكلامَ الجاف دون أن يتفكروا فيه ، أو يقفوا على أبعاده .

وقد انعكست إفرازات العقل الصحراوي على الطبيعة الآدمية للعرب قبل الإسلام، فبرزوا جفاةً محصورين في أطر اجتماعية ضيقة غير منفتحة على الحضارات الأخرى، أو الثقافات المختلفة. وهذا أدى إلى تموضعهم على هامش الوجود البشري المتحضر ، بلا إسهامات حضارية كَوْنية ، أو تأثير إيجابي في مسيرة التاريخ الإنساني الحافل بالأحداث والشخصيات والإنجازات . فقد عاشوا في عزلة خانقة خارج التاريخ غارقين في بيئة صحراوية محصورة (الجزيرة العربية) ، فكانوا عبئاً على البشرية ، ونقطةً سوداء في سجل الحضارة العالمية . فلم تتوسع مداركهم إلا بعد ظهور الدعوة المحمدية الإسلامية التي أنقذتهم من مستنقع الجهل ، ونقلتهم من العزلة المحاصِرة إلى آفاق التأثر والتأثير ضمن تبادل حضاري مشتمل على تلاقح الخبرات ، مما قاد إلى بروز حضارة رعاة الأمم بعد أن كانوا رعاة الغنم .

وعن زيد بن أرقم قال: اجتمع ناس من العرب فقالوا: انطلقوا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكاً نعش بجناحه ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بما قالوا ، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه : يا محمد . فأنزل الله: ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾، فأخذ رسول الله ﷺ بأذني ، وجعل يقول : ((لقد صدَّق اللهُ قَوْلك يا زيد ، لقد صدَّق الله قولك))[51] .

وطريقة النداء تدل على أن طباعهم لم تدخل في التحضر واللين ، وما زالوا يتعاملون بمنطق الفوضى والأخلاقِ الجافة . وهذا الجفاء يعيق التواصل مع الناس ، لأنه قائم على عدم إنزال الناس

(٥١) الدر المنثور (٧/ ٥٥٢ و٥٥٣) . وقال السيوطي : أخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن .

منازلهم بسبب الجهل والبساطة البدوية القاسية ، وغيابِ فلسفة وضع الأمور في نصابها الصحيح ، والأخلاق الصحراوية العنيفة .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي إلا أن يُؤْذَن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾[الأحزاب: ٥٣].

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٦٤): ((حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة)) اهـ .

وهكذا تبرز أهمية الاستئذان في العلاقات الاجتماعية لكي يحافظ المجتمع المؤمن على تماسكه ، وستر أعراضه ، وعدم انكشاف أسراره العائلية أمام الناس ، لما في ذلك من تنظيم شؤون الأفراد ، والحفاظ على خصوصياتهم ، وإبقاء الروابط الأسرية في دائرة الصيانة والتماسك ، ومراعاة حال الناس في بيوتهم ، فليس كل وقت مناسباً للزيارة ، ومن هنا تظهر ضرورة الاستئذان من أجل الاستعداد لتجهيز الأمور المترافقة مع الزيارة ، والابتعاد عن عنصر المفاجأة .

فعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : لما تزوج النبي ﷺ زينب ، دخل القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام من القوم ، وقعد بقية القوم ، وإن النبي ﷺ جاء ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقوا ، فأخبرتُ النبي ﷺ فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي ﴾ ... الآية[52] .

فلا يجوز دخول بيوت النبي ﷺ بغير إذن، ولا يجوز كذلك انتظار نضج الطعام، وتصيُّد تلك اللحظة ، لأن ذلك تطفل ، ومضايقة للآخرين وإزعاج لهم ، وسوء خلق لا يليق بالمؤمن. فليس المؤمن ثقيل الظل، أو عديم الإحساس. إنه طاقة شعورية خلاقة تعرف النصابَ الصحيح للأمور ، وتضع المسائل الاجتماعية في موضعها المناسب ، وتعمل على تقدير مشاعر الآخرين ، وعدم تحميلهم فوق ما يطيقون .

---

(٥٢)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٥/ ٢٣٠٣)برقم(٥٨٨٥).ومسلم(٢/ ١٠٤٦)برقم(١٤٢٨).

قال الغزالي في الإحياء (٢/ ٩) : ((أما الدخول فليس من السنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم ، فيدخل عليهم وقت الأكل ، فإن ذلك من المفاجأة . وقد نهي عنه . قال الله تعالى : ﴿ لا تدخلوا بيوتَ النبي إلا أن يُؤْذَن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ يعني منتظرين حينه ونضجه)) اهـ .

ويمكننا أن نذكر أدب التعامل مع النبي ﷺ في بيوته كالآتي :

١) عدم دخول بيوت النبي ﷺ بغير إذن .

٢) تلبية دعوة النبي ﷺ إلى الطعام بدون انتظار وقت نضجه .

٣) الانتشار في الأرض بعد تناول الطعام .

٤) عدم التحدث بعد الانتهاء من أكل الطعام مستأنسين بالكلام .

وهذه الأخلاق الفاضلة من شأنها توفير جو الراحة للنبي ﷺ في بيوته ، وعدم إزعاج أهله . وأيضاً إعطاء صورة طيبة عن ضيوفه بعيداً عن التطفل ، واصطياد الأوقات غير المناسبة للزيارة . فعدم وجود موعد مسبق ، أو الدخول بغير إذن ، سوف يؤدي إلى عنصر المفاجأة ، وتكريس سوء الأخلاق ، وهذا ضد المنهجية الأخلاقية التي جاءت بها الدعوة المحمدية الإسلامية . فالمؤمنُ متميز بأخلاقه وسلوكه .

والخطاب القرآني قد أسَّس الفكرَ الأخلاقي في التعامل مع مقام النبوة، وأزال كل السلوكيات السيئة التي من شأنها إشاعة الفوضى في العلاقات الاجتماعية ، وتعميم حالة عدم الارتياح في الجماعة المؤمنة. فغياب الانسجام في المجتمع الإسلامي ستكون له عواقب وخيمة ، تؤدي إلى تفتيت الترابط الأسري ، وانكسار حالة الوئام ، والنفور الاجتماعي .

ومن الآداب الضرورية اتباعُ النبي ﷺ وعدم إبرام الأمور دون الرجوع إليه ، فالنبي متبوع لا تابع ، والمؤمنون تابعون لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ . وهذا لا يعني تغييب عقل المسلم بأية حال من الأحوال ، أو أن يكون الدين أفيون الشعب . فالدين الإسلامي هو أعظم ثورة عرفتها البشرية في تاريخها أجمع ، وأعظم انقلاب غيَّر شكلَ كوكب الأرض إلى الأبد . فقد قاد المسارَ الإنساني إلى السمو ، والخروج من مستنقع التخلف وتعدد الآلهة إلى التوحيد النقي .

وبالتالي يكون التزام المسلمين بالتعاليم الدينية هو التطبيق العملي الواقعي العقلاني المضاد للهذيان والتحرك الأعمى . فالعقل المؤمن لا يأخذ إجازةً أبداً ، فهو دائم التفكر ، والتحليل ،

والمقارنة . لذلك يأتي الالتزام تتويجاً لإبداع العقل الإيماني المتحرر من سطوةِ الخرافة ، وتبعيةِ الأسطورة . وبعد كل هذا تختفي أية فرصة للتعارض بين الدِّين والعقل .

قال الله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي الله ورسوله ﴾ [الحجرات : ١] .

فعلى المؤمنين أن يكونوا تابعين للأوامر الإلهية ، والتوجيهاتِ النبوية . فلا يقدِّمون أفكارهم وآراءهم على حُكم الله ورسوله ﷺ .

وقد قال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٧٧) : ((لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضيَ الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٦٢) : ((أي لا تسارعوا في الأشياء بين يديه ، أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي)) اهـ .

والنبي ﷺ إنما بُعِثَ ليكون متبوعاً، وعليه فإن المؤمنين يجب أن يكونوا أتباعاً صادقين لا يقدموا كلامهم على كلام الله ورسوله ، وإنما يرضخون للشريعة السماوية المعصومة، ويتركون نتاجَ عقولهم القاصرة. ومع هذا فالإسلام أمر بإعمال العقل ، ولكنْ ضمن منهجية مستقيمة منضبطة ، فمن غير المعقول أن يتقدم رأي شخص غير معصوم على الوحي المعصوم . فينبغي التروي في إصدار الأحكام لئلا تكون مخالفةً لحكم الله ورسوله، وينبغي كذلك أن تكون الأحكام تابعةً لحكم الشريعة المقدَّسة .

١١_ أقوال الكافرين :

إن الأشخاص الذين لا يَملكون الحجَّةَ، ويَعجزون عن تقديم البراهين ودحض أقوال خصومهم سوف يلجأون إلى رمي الاتهامات جُزافاً . فهم يعتقدون أن أقوالهم الباطلة ستمنع شمسَ الحق من الظهور. وهُم بذلك يمارسون إرهاباً لفظياً بُغية التشويش على مسار الدعوة، وحجب نور الحقيقة، والحفاظ على مصالحهم الشخصية .

ولو كانوا حريصين على معرفة الحق لاستمعوا إلى الكلام الذي يخالف معتقداتهم ، وسألوا عن معناه وأبعاده ، وإذا لم يقتنعوا به فعليهم تقديم أدلتهم ووجهة نظرهم . إذ إن الحوار ومقارعة الحجَّة بالحجة هما الطريق الأمثل للوصول إلى الحق .

أمَّا الرافضُ للحق عن سبق الإصرار والترصد، ولديه موقف مسبق يتمثل في رفض النور سواءٌ ظهرت له البَيِّنات أم لم تظهر ، فهذا سيظل راتعاً في الظلمات ، ولا فائدة من التعاطي معه ، لأنه أغلق قلبَه وعقلَه ، واتخذ إلهه هواه .

قال اللهُ تعالى : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحرٌ مُبين ﴾ [يونس : ٢] .

نلاحظ أن الكافرين قد اتَّهموا النبيَّ ﷺ بأنه ساحر ظاهر ، وسِحْره واضح للعيان . وهذه التهمة لا أساس لها من الواقع . إذ إن محمداً ﷺ كان معروفاً في الجاهلية بأنه الصادق الأمين ، ولم يُعهَد عليه الاشتغال بالسِّحر أو ممارسة أعمال الشعوذة والكهانة . كما أن الساحر له صفات من أبرزها سوء الخلق ، والسعي إلى جمع المال بكل السُّبل المشروعة وغير المشروعة ، واعتماده على الطلاسم والأفعال الغامضة . وهذه الأمور غير موجودة في محمد ﷺ الذي كان حسن السيرة والسلوك طوال حياته ، وجاء بكلام واضح (القرآن) يدعو إلى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله . لكن الكافرين العاجزين عن مجاراة القرآن أو تفنيد حُججه الظاهرة لم يجدوا درباً أسهل من اتهام النبي ﷺ بالسحر . وهذا كلامٌ في الهواء لا وزن له لأنه بدون دليل . وكلُّ كلامٍ افتقد إلى البرهان فهو صادر عن الهوى والحقد والعناد .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أُنزل عليه آيةٌ مِن رَبِّه ﴾ [الرعد : ٧] .

أي إن الكافرين يَطلبون علامةً وحُجَّة على صدق محمد ﷺ . وقد وضَّح لهم اللهُ تعالى العديد من الآيات لكنهم لم يعترفوا بها بسبب سيطرة العناد عليهم ، فهم يواصلون اختراع الأعذار ، وطلب الآيات ، والتلاعب بالكلام . وليس طلبُهم للآيات نابعاً من حرصهم على الإيمان وظهور الحق ، بل هو أحد أشكال العناد ، وكسبِ الوقت ، ومحاولة التشويش على الدعوة .

وفي تفسير القرطبي (٩/ ٢٦٧) : ((... اقتراح الآيات على الرسل جهل بعد أن رأوا آية واحدة تدل على الصدق)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وقالوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ومِن بَيْننا وبَيْنِكَ حِجابٌ فاعملْ إننا عاملون ﴾[فصلت : ٥] .

وهذه الآيةُ توضِّح فلسفةَ مشركي العرب بكل أبعادها . فهم يعتبرون قلوبَهم في أغطية تمنع وصول الدعوة إلى القلوب والاستفادة منها. كما أن في آذانهم صمماً فلا يَسمعون الكلامَ النبوي، وبينهم وبين النبي ﷺ حاجز، وهو الاختلاف في الدِّين. فالمشركون يعبدون الأصنام ، أما النبي ﷺ فيعبد اللهَ وحده . وهذا الحاجز ـ وفق تصور المشركين ـ يمنع التواصلَ والالتقاء على مبدأ واحد. وهم يريدون من النبي ﷺ أن يَعمل بدينه ويتركهم وشأنهم ، فهم مصرُّون على العمل بدينهم ثابتين على باطلهم . ومن الملاحَظ أن المشركين ـ من خلال هذه الفلسفة الوثنية ـ لم يُقدِّموا

براهين لإثبات صحة عقيدتهم ، بل اكتفوا باختراع تصورات واهية حول عزلتهم التي تمنعهم من التواصل مع النبي ﷺ ، والحوار معه ، والتصديق بالحق الذي جاء به .

وفي الدر المنثور (٧/ ٣١٢) عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ قال : أقبلت قريش إلى النبي ﷺ ، فقال لهم : ((ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب ؟)) ، فقالوا : يا محمد ، ما نفقه ما تقول ولا نسمعه وإن على قلوبنا لغلفاً . وأخذ أبو جهل ثوباً فَمَدَّه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب.

يُفترَض بالعاقل أن يستمع إلى الكلام ثم يتفكر فيه . فهذا التفكرُ يمنح المرءَ تصوراً شاملاً حول القضية . والحُكمُ على الشيء فرعٌ عن تصوُّره. أمَّا الخائف من الحوار والمحاجَجة فهو الطرف الضعيف غير الواثق بنفسه ، والذي لا يملك أساساً قوياً يُبنَى عليه . فمَن ليس معه بَيِّنةٌ يخاف ممَّن يمتلكها ، ومَن يَعلم حُجَّةٌ على مَن لا يَعلم .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا مُعَلَّم مَجنون ﴾ [الدخان : ١٤] .

فالمشركون الذين تتلاعب بهم أهواؤهم لم يجدوا وسيلةً للتعامل مع النور المحمدي سوى اتهام النبي ﷺ بأنه مُعلَّم مجنون . أي : يُعلِّمه بَشَرٌ فهو يتلقى العلمَ على يديه ،كما أنه مجنون وليس نبياً. وهذا الكلامُ المتناقض لا يستقيم . فكيف يستطيع مجنونٌ أن يتلقى العلمَ ويحفظه وينشره ؟! . وهذه التهمة تدل على التشويش الهائل في بُنية العقل العربي الوثني الذي راح يتخبط في اتهامات غير منسجمة ، وتفتقد إلى البراهين . وفي هذا دلالةٌ واضحة على اتباع الأهواء وغياب آثار الهداية الربانية عن الفكر العربي الجاهلي . وقد كانوا يتَّهمون النبيَّ ﷺ بأنه يتلقى العلمَ على يد غلام أعجمي . وهذه كارثة جديدة ، فكيف يمكن لغلام أعجمي أن يأتيَ بكلامٍ عربي بليغ أعجزَ فصحاءَ العرب وشعراءهم ؟! .

وقال العيني في عمدة القاري (٧/ ٢٩) : ((وبهتوه _أي النبي ﷺ_ بأن عداساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي عَلَّمه ، ونسبوه إلى الجنون)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿أم يقولون افتراه قُل إن افتريتُه فلا تَملكون لي مِن الله شيئاً ﴾ [الأحقاف: ٨].

وتأتي تهمة أخرى للنبي ﷺ من قِبَل المشركين ، وهي أنه ﷺ افترى القرآنَ ، وأنه ليس كلامَ الله تعالى بل جاء به من تلقاء نفسه . ولو كان الأمر كما زعم المشركون فلا يمكن لأحد أن يحميَ محمداً من العذاب الإلهي . فلو افترى محمد ﷺ القرآنَ _ وحاشاه _ فهو يُعرِّض نفسه للعقاب ، فكيف يفتري على الله تعالى من أجل المشركين وهُم لا يستطيعون حمايته من غضب الله تعالى ؟ .

كما أن النبي ﷺ أُمِّي لا يقرأ ولا يَكتب ، ولم يُعرَف عنه بأن يؤلف الكتبَ أو يجلس مع الكُتَّاب ليُعلِّموه ، وهذا الأمر معروف للجميع وليس سراً . فمن أين جاء بهذا الكلام الذي أفحم فصحاءَ العرب وفحولَ الشعراء وأساطين البلاغة ؟! .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٧) : ((أي لو كذبتُ عليه وزعمتُ أنه أرسلني وليس كذلك ، لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحدٌ من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه)).

١٢_ صدقه واستحالة تقوُّله على الله :

قال اللهُ تعالى:﴿ وَلَوْ تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ﴾[الحاقة].

لا يمكن للنبي ﷺ أن يفتريَ على الله تعالى، فيُغيِّر في الرسالة الإلهية زيادةً أو نقصاناً ، أو يَنسب كلاماً بشرياً إلى الله تعالى. ولو فعل ذلك _ حاشاه _ لعَرَّض نفسه للعقوبة الإلهية ، وسوف يُقضَى عليه . فاللهُ تعالى سينتقم منه أشد الانتقام . فاليمينُ مقامُ القوة الباهرة والبطش الشديد .

كما أن الذي يكذب على الله له صفاتٌ واضحة تفضحه ، فلا يَمكن لشخص مثل محمد ﷺ معروف بالصدق والأمانة في الجاهلية والإسلام أن يقوم بهذا الفعل الدنيء . فما كان له أن يدع الكذبَ على الناس ويكذب على الله تعالى . ولو كان محمد ﷺ كاذباً لوافق المشركين ونسب كلامَهم الباطل إلى الله تعالى وجنى ثروةً هائلة ونفوذاً بين القبائل العربية الوثنية ، وصار سَيِّداً على المشركين ، يُزيِّن باطلَهم ، ويُعادي الحق ، ولَمَا تم إعلان الحرب عليه من القريب والبعيد . وبالتالي سيرتاح من المعاناة . لكنَّ شيئاً من هذا لم يَحدث ، مما يشير بكل وضوح إلى ثباته على الدعوة الإسلامية الإلهية ، وأن الأمر أكبر من محمد ﷺ نفسه . إذ إن الأمر الإلهي لا يعلوه أمرٌ .

وقد تَنَبَّه هرقل إلى صدق النبي ﷺ فقال عنه : ((لم يكن ليدع الكذبَ على الناس ثم يذهب فيكذب على الله)) [متفق عليه . البخاري (٤/ ١٦٥٧) ، ومسلم (٣/ ١٣٩٣)] .

وهذه حقيقةٌ واضحة تعتمد على منطق لا لبس فيه . فالإنسانُ الذي يمتنع عن الكذب على المخلوق ، لا يمكنه أن يَكذب على الخالق . فلا يمكن للصادق في تعامله مع الناس والمشهود له بالأمانة والاستقامة أن يَنسب كلاماً زائفاً لله تعالى. ولا يخفى أن ألسنةَ الخلق أقلامُ الحق ، فلا يُعقَل أن يتفق الناس كلهم على صدق أحدهم ويكون كاذباً .

وكما قال الشاعر :

شهد الأنامُ بفضله حتى العِدى   والفضلُ ما شَهِدت به الأعداءُ

١٣_ تنزيهه عن الشِّعر :

قال اللهُ تعالى : ﴿ ويقولون أَإنَّا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون ﴾ [الصافات : ٣٦] .

وكلامُ المشركين هذيان محض نابع من شراسة أهوائهم وكُرههم لظهور الحق وعنادهم . فقد اتَّهموا النبي ﷺ بأنه شاعر مجنون . وهذه التهمةُ مضحكة ولا تستقيم . فالشاعرُ لديه من المواهب البيانية ، والفصاحة الباهرة ، والقدرات اللغوية ما يؤهله لإبداع الصور الفنية ، وبناءِ قصيدة متماسكة . فكيف يكون حاملُ هذه الصفات مجنوناً ؟! . لذلك فإن هذه التهمة تدل صراحةً على المأزق الفكري الخطير الذي يغرق في مستنقعه أهلُ الشِّرك .

١٤_ التثبيت :

ينبغي أن لا ننسى بشريةَ النبي ﷺ وحاجته إلى التسلية والتثبيت من أجل التخفيف عنه ، وإعطائه الدعم لمواصلة المسيرة النبوية بكل نجاح وثبات. والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو _ سبحانه _ أعلم بما يعتمل في صدور الأنبياء من ضيق وحزن بسبب كفر أقوامهم وعنادهم، وابتعادهم عن طريق الحق. لذلك فهو يؤيدهم ، ويخفف عنهم ، ويثبتهم على الصراط المستقيم.

قال الله تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران : ١٧٦] .

وهذه الآية تدل على حرص النبي ﷺ على إيمان الناس عبر إنقاذهم من مستنقع الكفر . فليس في الموضوع مصلحة شخصية للنبي ﷺ لكي يقول المغرِضون إنه حزين من أجل منفعته الذاتية ، أو فقدان منصب ، أو خسارة تجارة . بل إن حزنه نابع من إشفاقه على الآخرين ، واهتمامه بعملية إنقاذهم لكي يصبحوا أفراداً صالحين في الدنيا والآخرة . وقد خفف الله تعالى عن النبي ﷺ وأمره بعدم الحزن على الذين يسارعون إلى الكفر ، فهم قد أضاعوا مستقبلهم الأُخْرَوِي ، ولن يضروا الله شيئاً ، فالله تعالى لا يحتاج إيمانهم ، بل هم الذين يحتاجونه لكي يفوزوا بالخلاص الأبدي، أي الفوز بالجنة، والنجاة من النار. فالطاعة لا تنفع اللهَ تعالى، كما أن المعصية لا تضره .

وفي صحيح مسلم(٤/ ١٩٩٤): عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله_تبارك وتعالى _ أنه قال : ((يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من مُلْكي شيئاً)) .

والخطاب القرآني السامي يخفف عن قلب النبي ﷺ ، وذلك باستعراض معاناة الأنبياء السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وذكر صبرهم ، وقوة تحملهم ، ليكون ذلك أقوى دافع إيماني لثبات القلب النبوي على الحق، وعدم الاستسلام لرياح الحزن والضيق جراء عناد الكافرين . فقال الله تعالى : ﴿ ولقد اسْتُهْزِئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ [الأنعام : ١٠] . في هذه الآية تسلية للجناب النبوي الشريف ، وبث الروح المعنوية العالية في المنهجية النبوية الدَّعوية من أجل الاستمرار في تبليغ الرسالة السماوية كما فعل الرسل السابقون الذين تحملوا الاستهزاء والأذى والتضييق ، فلم ييأسوا ، ولم يقصِّروا في حمل الدعوة بكل اقتدار . ونحن نرى أن الخطاب القرآني قد قدَّم صورةً بصرية واقعية لثبات الرسل السابقين ، من أجل زيادة التأثير الإيجابي الواقعي _ لا المثالي الخيالي _ في النبوة المحمَّدية . وكلُّ الأنبياء هُم بِناء إيماني واحد ومتماسك .

قال الله تعالى : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[الأنعام : ٣٣] .

وفي الشفا للقاضي عياض (١/ ٢٨) : ((ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ من تسليته تعالى له عليه السلام ، وإلطافه به في القول بأن قرر عنده أنه صادق عندهم ، وأنهم غير مكذبين له ، معترفون بصدقه قولاً واعتقاداً . وقد كانوا يسمونه _ قبل النبوة _ الأمين ، فدفع بهذا التقرير ارتماض _ احتراق_ نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين...فحاشاه من الوصم، وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقةُ الظلم ، إذ الجحد إنما يكون ممن علم الشيء ثم أنكره، كقوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمَاً وَعُلُوَّاً ﴾[النَّمل: ١٤])).

وفي واقع الأمر إن تكذيب النبي ﷺ تكذيبٌ لمن أرسله ، وجحدٌ بآيات الله تعالى . وتأتي الآية لتسلية النبي ﷺ ، وتخفيف أعباء الحزن على كاهله ، وذلك بإخباره بأن الكافرين يعلمون أنك صادق لكن العناد دفعهم إلى التكذيب بآيات الله تعالى. وعن علي _ رضي الله عنه _ قال : ((قال أبو جهل للنبي ﷺ : قد نعلم يا محمد أنك تصل الرحم ، وتصدق الحديث ، ولا نكذِّبك، ولكن نكذِّب الذي جئتَ به، فأنزل الله _عز وجل _ : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾))[53].

---

(٥٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٥) برقم (٣٢٣٠) وصححه .

والكفر عنادٌ وأهواء ومصالح شخصية ، ففطرة الإيمان كامنة في النفوس لكنها تتغطى بفعل المعاصي والآثام ، وتتفاوت نسب تغطيتها من شخص إلى شخص . فليس عجيباً أن يكون الكافرُ مؤمناً في قرارة نفسه ، لكن هناك عوامل عديدة تدخل عليه من كل الجهات ، تجعله يختار طريقَ الكفر إيثاراً للدنيا على الآخرة ، وتفضيلاً للمتاع الدنيوي الزائل على نعيم الآخرة السرمدي .

كما أن المجتمع العربي قبل البعثة المحمدية غارق في عقلية الأمجاد العشائرية ، والعصبية القبلية ، والفخر بالأنساب ، وهذا أدى إلى توجيه المسار الفكري لكثير من الناس نحو الكفر والعناد والأخلاق المذمومة تعصباً للقبيلة ، والتفافاً حول مكانة العائلة بين قبائل العرب، ومحاولة الحصول على السيادة والمكانة السامية بين الأُسر الكبيرة التي تمسك بالسياسة والاقتصاد . وهذا الأمر بالغ الحساسية في المجتمع الجاهلي . فالعرب الجاهليون هم نتاج أيديولوجي لقداسة الصنم الأسطوري الحاكم على توجهات القبيلة الغارقة في التقاليد البالية بكل نفوذها القاتل ، والعاداتِ الوثنية بكل إفرازاتها السلبية. فالفرد يظل يدور في مدار مغلق حول مركزية القبيلة، وهذا يؤدي إلى تغييب العقل الإبداعي النقدي لصالح العقل العشائري المتخلف ، فتحدث عملية الغرق الجماعي في مستنقع الكفر، والسلوكيات الاجتماعية المنهارة.

قال أبو جهل : ((تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه))[54] .

وقد كذَّب الأقوامُ السابقون رسلَهم عناداً ، والتزاماً بالباطل ، وإيثاراً للدنيا الزائلة . لكن الرسل لا يمكن استفزازهم ، فهم واثقون بأنفسهم لا ينزلون إلى مرتبة السفهاء ، حيث فحش الكلام والسخرية . ولا يستفزهم طيش الجهال الذين يخلطون الحق بالباطل استهزاءً بالقضايا الكبرى . لذلك فهم يصبرون واثقين بالخالق تعالى ، ويبلِّغون الرسالةَ كاملةً بكل اقتدار حتى يأتيَ وعد الله بنصرهم ، وظهورهم على أقوامهم . ولا يزيد تثبيطُ الكافرين للرسل إلا إصراراً نبوياً أكبر على مواصلة طريق الدعوة الإسلامية ، وإشفاقاً على هؤلاء الأقوام الذي ضلوا عن الصراط المستقيم نتيجة اتباع الهوى ، أو الجهل ، أو كلاهما معاً .

---

(٥٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٦) . وانظر الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٢٩٩) ، وسيرة ابن إسحاق (١/ ١٦٩) ، وتاريخ الإسلام (١/ ٣٩) ، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٥٧) .

إن سطوة الخرافات الوثنية ونفوذها الصادم في مساحات العقل البشري الجاهلي تؤدي إلى حجب نور الحقيقة عن اقتحام عزلة العقل الجاهلي ، لأن السلوكيات الاجتماعية الأسطورية مرجعها إلى سطوة المقدَّسات الوهمية (الأوثان،شيوخ القبائل،مركزية العشائر في الوعي الإنساني) مما يجعل من الفرد رجع صدى لتاريخ مكسور ، وغارقاً في الأضداد التي تمنعه من حرية التفكير ، والنقد ، والنقض ، واتخاذ القرارات الحاسمة .

قال الله تعالى: ﴿ ولقد كُذِّبَت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ [الأنعام : ٣٤] . هذه الآية تثبيتٌ للنبي ﷺ ، ورفعٌ لمعنوياته . فقد كُذِّبت رسلٌ من قبله ، وتم اتهامهم بشتى التهم ، لكنهم صبروا على ذلك، وكانوا متماسكين. لم يهتزوا أمام الصعوبات ، ولم ينهاروا أمام الشدائد . وقد كانت نتيجة صبرهم النصر ، والظفر ، وسطوع الحق ، وهزيمة الباطل . فالصبرُ مفتاحُ الفَرَج، ولا يكون النصرُ إلا مع الصبر . قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٦) : ((هذه تسليةٌ للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذَّبه من قومه ، وأمرٌ له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعدٌ له بالنصر كما نُصروا وبالظفر ، حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة)) اهـ.

ومعاداة الأنبياء مستمرة عبر كل الأطوار الزمنية ، لأن أعداء الشمس في كل زمان ومكان يعتقدون أن النور يشكل خطراً على مصالحهم الشخصية ، ومكتسباتهم الفئوية ، لأن النور يفتح العيونَ على الحق ، ويرشد الأذهان إلى ضوء الحقيقة ، ويبني جيلاً ثورياً رافضاً لكل قيم الباطل ، وهذا قد يجعل العبيد يتمردون على السادة ، فيخسر السادة نفوذهم ، وتتكشف ألاعيبهم التي خدعوا بها العوام ، لذا لا يمكن أن يكون الإسلام مخدراً للشعوب ، لأنه الدين السماوي الوحيد ، وهو يمتاز بالانقلابية والثورية وإعمال العقل للتمييز بين الحق والباطل ،كما أن تعاليمه يتم تطبيقها على الجميع بغض النظر عن المكانة الاجتماعية ، وهذا يقلق الذين بنوا مجدَهم الوهمي على جماجم الفقراء والضعفاء ، وقاموا باستعبادهم ملوِّحين بالمال والعصا .

قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ [الفرقان : ٣١] . في ذلك إشارة إلى معاناة الأنبياء السابقين مع أعدائهم المجرمين الذين لم يقصِّروا في محاولاتهم الرامية إلى إفساد الدعوة ، وإيذاء الأنبياء ، والتطاول عليهم ، وهذه من سنن الله تعالى الماضية في الأمم ، وهي جعل لكل نبي عدواً من المجرمين لكي يميز اللهُ الخبيثَ

من الطيب، ويرى صمودَ الأنبياء، ويرفع درجاتهم في الدارين، ويخزيَ أعداءهم ويردهم نادمين في الدارين.لذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ:((لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودِي))[55].

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بالصبر ، وعدم الانجرار وراء طيش الكافرين وعنادهم ، أو الاستجابة لاستفزازهم ، أوالسقوط في الخفة نتيجة أعمالهم الشريرة، أو اتباعهم في ضلال أهوائهم ، فالوعد الإلهي بالتمكين والنصر لا يتخلف . والصبر مفتاح الفَرَج .

قال الله تعالى : ﴿ فاصبرْ إن وعد الله حق ولا يَسْتَخِفَّنك الذين لا يوقنون ﴾ [الروم : ٦٠].

والصبر على الدعوة يبث اليقينَ في صدر النبي ﷺ، ويجعله أكثر تماسكاً وعزيمةً، فلا يحزن على الكافرين لأنهم اختاروا طريقَ النار بملء إرادتهم على الرغم من المحاولات النبوية الحثيثة لإنقاذهم ، ولكن الذي يرفض إنقاذَ نفسه لا يمكن لأحد إنقاذه . فلا داعي أن ينزعج النبي ﷺ على هؤلاء المعانِدِين، ويتحسر عليهم، ويقتل نفسه حزناً عليهم ، ويتأسف عليهم . فالنبوة تساعد من يساعد نفسَه، والله لا يهدي القوم إلا إذا كانوا أهلاً للهداية . وقد قال الله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ [فاطر : ٨] .

١٥_ معاتبة الله إياه :

لا شك أن الآيات القرآنية التي تحمل عتاباً للنبيﷺ هي معاتبة الحبيب للحبيب. فلا ينبغي الاعتقاد بأنها إهانة لمقام النبوة ، أو خفض درجة حامل الرسالة ، أو رسوب في الامتحان أمام الحضرة الإلهية . فهذه المعاني غير واردة البتة . لكن الله تعالى يربِّي أنبياءه ، ويحصي عليهم حركاتهم وسكناتهم لأنهم سادة البشرية ، وليسوا أناساً عاديين . والقاعدة العامة تقول إن حسنات الأبرار سيئات المقربين. فكلما ارتفع مقام العبدُ عند الله تعالى ازداد التدقيق عليه .

وبما أن الأنبياء هم صفوة الله من خَلْقه ، وسادة البشرية ،كان التدقيق عليهم شديداً، لأن الله يحبهم، ويريد أن يوصلهم إلى الكمال البشري عبر تطهيرهم من كل مخالفة ، وتنقيتهم بالبلاء والامتحانات الشديدة. فعن سعد بن أبي وقاص قال : سألتُ رسول الله ﷺ : من أشد الناس بلاءً ؟ ، قال : ((النبيون ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، إن كان صلب الدين اشتد

(٥٥) متفق عليه. البخاري(١/ ٤) برقم (٣)، ومسلم (١/ ١٣٩) برقم (١٦٠).

بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء على العبد حتى يدعه يمشي على الأرض ليس عليه خطيئة))[56].

ومن خلال هذا الفكر الشمولي يتأسس الوجود البشري في مركز الاختبار الإلهي الذي يرمي إلى تنقية البشر من الشوائب ، وتخليصهم من عبء الخطايا ، من أجل رفع درجاتهم ، وقيادتهم إلى النجاح بتفوق في الدارين . فلا بد من تجاوز الامتحان للحصول على درجة عليا ، ونيلِ المكانة الرفعية . كما أن العتاب الإلهي للنبي ﷺ يدل على أن القرآن الكريم كلام الله لا كلام محمد ﷺ ، فلا يمكن لمؤلف كتاب أن يرد على نفسه ، ويعاتب نفسه ، ويكشف بعض أموره الشخصية أمام الناس ، وهذه الرؤية قلما ينتبه إليها أحد .

قال الله تعالى : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخِن في الأرض تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

فلا يحق لنبي أن يكون له أسرى من المشركين ، يأخذ مقابلهم فديةً ، أو يمن عليهم بإطلاق سراحهم . بل عليه أن يبالغ في قتل المشركين الذين رَفضوا كلَّ الآيات الإلهية ، واختاروا أن يكونوا أعداءً للدعوة الإسلامية بكل الوسائل . وهؤلاء لا يمكن التعامل معهم إلا بالسيف ، فهي اللغة الوحيدة التي يفهمونها . ولا بد من تقديم مراد الله تعالى على مراد المؤمنين ، وتقديم الآخرة على متاع الدنيا الفاني .

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٨٦) : ((يقول تعالى ذِكره : ما كان لنبي أن يحتبس كافراً قَدِرَ عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمن ... وإنما قال الله جل ثناؤه ذلك لنبيه محمد ﷺ يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم . وقوله : ﴿ حتى يُثخِن في الأرض ﴾ .. حتى يبالغ في قتل المشركين فيها ، ويقهرهم غلبة وقسراً ... يقول للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ : تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا بأسركم المشركين وهو ما عرض للمرء منها من مال ومتاع ... والله يريد لكم زينة الآخرة، وما أعد للمؤمنين وأهل ولايته في جناته بقتلكم إياهم ، وإثخانكم في الأرض)).

ولا يدل معنى الآية على أن الإسلام دين سفك الدماء كما يعتقد بعض المغرِضِين ، وإنما تُفهَم الآية في سياق ردع المشركين الذين يرفعون السلاحَ في وجه الرسالة النبوية ، لذلك فهم ليسوا

---

(٥٦) رواه الحاكم في المستدرك(١/ ١٠٠) . وصححه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٦) .

أبرياء أو مدنيين ، بل إنهم قتلةٌ حريصون كل الحرص على إيقاع أكبر خسائر بالمسلمين ، وبالتالي وجب ردعهم وإيقافهم عند حدهم . تماماً كما يتم استئصال العضو الفاسد في جسد الإنسان حفاظاً على حياة باقي أجزاء الجسد، وكذلك المجتمع الإنساني يستأصل العناصرَ الضالة للحفاظ على حياة المجموع الكلي ، وتوجيهه وفق الصراط المستقيم . لذلك كان لزاماً على الجماعة المسلمة أن تستأصل شوكة المشركين المحارِبين ، وتردهم على أعقابهم خاسرين من أجل ضمان صلاح المنظومة الاجتماعية ، وانتهاء كل العوائق التي تقف في طريق التقاء الإنسان بإنسانيته .

فالقتالُ في الإسلام له ضوابط واضحة ، وليس محكوماً بمزاج القادة أو أهوائهم الشخصية . فالقتالُ عبادةٌ منضبطة بقواعدها الشرعية، وليس أسلوباً همجياً للإبادة الجماعية ، والتطهير العِرقي، وقهر الآخرين ، ومحو ثقافتهم ، وشطب هويتهم . ولا يمكن التعامل مع العدو المحارِب الحريص على قتلك بالورود والمفاوضات ، بل ينبغي قتله ليكون عِبرةً لمن خلفه ، ولئلا يصبح المجتمع كومةً من ركام الفوضى ، وملعباً للمجرمين الذين لا يجدون من يعاقبهم .

فينبغي الأخذ على يد الظالم ، وإيقافه عند حدِّه لئلا يعظم خطرُه وتأثيره السلبي . وكل الأممُ عبر الحقب الزمنية المختلفة متفقة على قتال المحارِبين رافعي الأسلحة ، ولم نسمع في التاريخ عن مقابلة الأعداء المدجَّجين بالسلاح بالورود أو القبلات . تدقيق الحديث التالي

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) : قال ابن عباس : فلما أسروا الأُسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: ((ما ترون في هؤلاء الأُسارى ؟))، فقال أبو بكر : يا نبي الله ، هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديَهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : ((ما ترى يا ابن الخطاب ؟)) ، قال : لا والله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتُمكِّن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت : يا رسول الله ، أخبرني من أي شيء تبكي ، أنت وصاحبك ، فإن وجدتُ بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ: ((أبكي للذي عَرض عليَّ أصحابَك من أخذهم الفِداء ، لقد عُرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة)) _ شجرة قريبة من نبي الله ﷺ _ وأنزل الله عز وجل :﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخِن في الأرض ﴾ ... .

وقد اجتهد النبي ﷺ بدون توجيه الوحي المعصوم ، وآثر أخذ الفدية مفضلاً رأي أبي بكر ، لما في ذلك _ حسب الرؤية النبوية _ من تقريب المشركين إلى الإسلام ، وحفظ أواصر القرابة ، وتعزيز الروابط الأسرية ، وتوفير القوة المالية والمعنوية في مواجهة الكفار .

وفي الشفا للقاضي عياض (٢/ ١٣٦) : ((فليس فيه إلزام ذنب للنبي ﷺ بل فيه بيان ما خُصَّ به ، وفُضِّل من بين سائر الأنبياء ، فكأنه قال : ما كان هذا لنبي غيرك ... فإن قيل : فما معنى قوله تعالى :﴿ تريدون عَرَضَ الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ ، قيل : المعنى بالخطاب لمن أراد ذلك منهم ، وتجرد غرضه لعرض الدنيا وحده ، والاستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي ﷺ، ولا أصحابه.بل قد روى عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر،واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو)) .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ١٥٢): ((فقد حكى ابن القيم في الهدى اختلافاً أي الأمرين أرجح ، ما أشار به أبو بكر من أخذ الفداء ، أو ما أشار به عمر من القتل ، فرجحت طائفة رأي عمر لظاهر الآية ، ولما في القصة من حديث عمر من قول النبي ﷺ : ((أبكي لما عرض على أصحابك من العذاب لأخذهم الفداء)) . ورجحت طائفة رأي أبي بكر لأنه الذي استقر عليه الحال حينئذ ، ولموافقة رأيه الكتاب الذي سبق،ولموافقة حديث: ((سبقت رحمتي غضبي))[57]، ولحصول الخير العظيم بعد من دخول كثير منهم في الإسلام والصحبة ، ومن ولد لهم ، من كان ومن تجدد ، إلى غير ذلك مما يعرف بالتأمل ، وحملوا التهديد بالعذاب على من اختار الفداء فيحصِّل عَرَضَ الدنيا مجرداً ، وعفا الله عنهم)) اهـ .

لذلك فمن يحاول أن يطعن في النبوة مستخدماً اجتهاداتِ النبي ﷺ المخالِفة للأَوْلى ، سوف تبوء محاولاته بالفشل، لأن الله تعالى يعاتب أنبياءه لحبه لهم لا كرهه لهم ، ومن أجل رفع درجاتهم لا طردهم ، ولكي يظل الأنبياء الذين هُم سادة البشرية في المستوى الإيماني الكامل بدون أية ثغرات ، أو اجتهادات مخالفة للأَوْلى . وهذا منتهى العناية الإلهية بهم،حيث إن الله تعالى لم يتركهم لعقولهم وتفسيراتهم الشخصية، وإنما أيدهم بالحق في كل حالاتهم ، وسدَّد خطاهم على الصراط المستقيم ، واعتنى بهم في كل أمورهم، وصوَّب اجتهاداتهم البشرية الناقصة ، ولم يتركهم

---

(٥٧) رواه مسلم (٤/ ٢١٠٧) برقم (٢٧٥١) .

لأنفسهم طرفة عَيْن. وهذا يعكس مقدار العناية الربانية المحيطة بالأنبياء ، حيث توجههم باستمرار بلا انقطاع .

قال الله تعالى : ﴿ عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ [التوبة : ٤٣] .

وهذا عتابٌ إلهي رقيق للنبي ﷺ . فقد سمح للبعض بأن يتخلفوا عنه في غزوة تبوك . وهذا خِلافُ الأَوْلى ، وهو اجتهادٌ نبوي لم يُصب المرادَ الإلهي . فقد وقع من النبي إذنٌ لمن استأذنه في القعود دون أن يتبيَّن من هو الصادق في عُذره ، ومن هو الكاذب الذي يختلق الأعذار للتهرب من مسؤولية الجهاد .

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٨٠) : ((وهذا عتاب من الله تعالى ذِكره : عاتب به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه _ حين شخص إلى تبوك لغزو الروم _ من المنافقين)) اهـ .

وكما هو معلوم فإن اجتهادات النبي ﷺ التي تستلزم العتابَ اللطيف نابعة من رؤيته الشخصية للأمور بحكم خبراته الحياتية لا بحكم الوحي المقدَّس . وبالطبع فهو يستند إلى نظرته الذاتية للأمور انطلاقاً من حرصه على الآخرين، والشفقة بهم، والأخذ بأيديهم ، وهذا ليس غريباً على أخلاق مقام النبوة الهادفة إلى مساعدة الناس ، ورفع الحرج عنهم .

ولا يخفى أن النبي ﷺ لم يكن يسعى لتحقيق مصلحة شخصية أو منفعة مادية ذاتية من وراء هذه الاجتهادات غير المصيبة، بل كان يسعى إلى تعزيز الخير ، وتفريج الهموم على الناس . خاصة وأن النبي ﷺ يحكم بالظاهر ، ولا يعلم الغيبَ إلا إذا أطلعه الوحي على الغيب .

وهؤلاء الذين سمح لهم النبي ﷺ بالتخلف ، لا بد أنهم قدَّموا أعذاراً قوية مقنعة ، فلم يُرد النبي ﷺ أن يضيِّق عليهم ، أو يحمِّلهم فوق طاقتهم . وهو لا يعلم صدقَ هذه الأعذار أو كذبها ، لأن الحكم تم إجراؤه على الظاهر دون التفتيش في النوايا ، لأن النبي ﷺ لا يقدر أن يكشف قلبَ الإنسان إلا بوحي . لكن الرحمة النبوية الخاضعة للرحمة الإلهية ، قد أسَّست لمجتمع العدالة والتضامن الاجتماعي، ومساعدة الناس بعضهم بعضاً ، لكن المنافقين يستغلون الأخلاقَ النبوية السامية من أجل مصالحهم الشخصية الرديئة ، وعندئذ يتدخل الوحي الإلهي ليرد الأمور إلى نصابها الصحيح بكل قوة وصدق وعدالة .

وعن أم سلمة_ رضي الله عنها_ أن رسول الله ﷺ قال : ((إنما أنا بَشَر وإنكم تختصمون إِلَيَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته _ أي أكثر إقناعاً _ من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار))[58].

وهذا يدل على أن النبي ﷺ يُجري الأحكامَ على الظاهر، وهو غير مطَّلع على بواطن الأمور . فالنبيُّ ﷺ لا يَعرف الغيبَ إلا عن طريق الوحي الإلهي الكامل المعصوم ، وإذا تأخَّر الوحي ، أو لم يأتِ ، فإن الأمور سوف تسير وفق الظاهر ، وحسابُ العباد على رب العباد .

ولا يخفى أن أسلوب الخطاب القرآني يحمل عتاباً لطيفاً لئلا يتسبب ذلك في كسر المشاعر النبوية . فالنُّبوة مقامٌ رفيع لها أخلاق سامية حساسة، لذلك فإن الأنبياء منزهون عن البلادة وقسوة القلب . وأيُّ عتاب إلهي يؤثر فيهم بشدة ، لذلك يخاطب الله تعالى مبعوثيه بلين العبارة ، ووضوح الكلام النقي الطاهر، والتخفيف عنهم لرفع معنوياتهم ، وليس التشديد عليهم لتدميرهم. فالله تعالى لم يرسل الأنبياء ليهينهم في أقوامهم .

وقال السمرقندي : ((ولو بدأ النبيَّ ﷺ بقوله لم أذنت لهم لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام ، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ، ثم قال له : لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب . وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب))[59] .

قال الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [التوبة : ١١٣] .

ينبغي أن نعلم أن المشركين خالدون في النار ، فلا ينبغي الاستغفار لهم ، مهما بلغت درجة القرابة ، لأن الإسلام ليس ديناً قَبَلياً ، أو مساراً إقطاعياً يعتمد في أحكامه على درجة القرابة ، وشدة العلاقات الاجتماعية والمصلحية والواسطة . فهو الدِّين السماوي الوحيد المقبول عند الله تعالى. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥].

(٥٨)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٦/ ٢٦٢٢)برقم(٦٧٤٨).ومسلم(٣/ ١٣٣٧)برقم (١٧١٣).

(٥٩) الشفا للقاضي عياض (١/ ٢٨) .

وقد أقام الإسلامُ الأواصرَ بين الناس على أساس مرجعية الدِّين (الانتماء إلى الله تعالى) لا مرجعية الدم أو أية مرجعية أخرى . إذ إن رابطة الإيمان أقوى من كل الروابط . فهي الرابطة الدائمة في الدنيا والآخرة على حدٍّ سواء .

وعن ابن المسيب عن أبيه : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل ، فقال : ((أي عم ، قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله)) . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، ترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر شيء كلَّمهم به : على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ : ((لأستغفرن لك ما لم أُنه عنه)) . فنزلت : ﴿ ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيَّن لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ (60) .

وهذا الحديث يدل على دور العلاقات الاجتماعية السلبية في إحلال تقليد الآباء مكان العقيدة الدينية، فتصبح القبيلةُ هي الدِّين ، والعصبيةُ العائلية هي العقيدةَ الدافعة التي تقف خلف السلوك . وقد رأينا كيف أن أبا طالب قد رضخ للعقلية الجاهلية الأسرية ، وآثر متابعة آبائه بدافع الانتماء السلبي للقبيلة ، وكل هذا نابعٌ من اتخاذ التقاليد الأبوية صنماً متوارثاً يحجب النورَ ، ويفسح المجالَ لانتشار الظلمات . وهنا تكمن خطورة اتباع الآباء بلا بصيرة ، وتقديم رابطة الدم على رابطة الدِّين .

والعقلية العشائرية الجاهلية تتضح بصورة مباشرة في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٥) برقم (٢٥): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه : ((قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة)) ، قال : لولا أن تعيِّرني قريش ، يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررتُ بها عينك .

ومن هنا تنبع خطورة الإفرازات السلبية للقبيلة وسلطتها المقدَّسة في توجيه مسار الأفراد نحو الالتزام بالمظاهر الزائفة ، والعصبية للعائلة بغض النظر عن الصواب أو الخطأ . وفي واقع الأمر إن القبيلة تمارس سلطةً كهنوتية على الأفراد بحيث تغسل أدمغتهم ، وتقودهم إلى حيث شاءت ، ولا أحد يملك شرعيةَ السؤال أو النقد .

---

(٦٠) متفق عليه. واللفظ للبخاري (٣/ ١٤٠٩) برقم (٣٦٧١).ومسلم(١/ ٥٤) برقم (٢٤).

ومن مظاهر العتاب اللطيف الموجَّه إلى مقام النبوة في العلاقات الاجتماعية قوله تعالى : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه أَمْسِكْ عليك زَوْجَكَ واتَّقِ الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٢/ ٦٢و٦٣) : ((اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام ﴿ وأنعمتَ عليه ﴾ بالتحرير من العبودية والإعتاق (زيد بن حارثة) ... أمسك زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلِّقها ، واتقِ الله في أمرها... وتضمر يا محمد في نفسك ما سيظهره الله ، وهو إرادة الزواج بها . قال في التسهيل : الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب ، ولكنه خاف أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه ، فأخفاه حياءً وحشمة وصيانة لعرضه من ألسنتهم ، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها ليبطل حكم التبني فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزوجها)) اهـ .

وهذه القصة لم تسلم من طعن المنافقين والمستشرقين وأذنابهم ، فاخترعوا مغامراتٍ رومانسية ألصقوها بالمقام النبوي الشريف المنزَّه عن الفساد والإفساد ، ظناً منهم أنهم بذلك يطعنون في المقام النبوي ، فيشوهون الصورةَ النبوية السامية ، ومن ثم يجعلون الرسالةَ السماوية في مكانة النقص والعيب . وهذا كله بعيدٌ عن منالهم .

((والذي صح منها _ من هذه القصة_ أن المرأة هي زينب بنت جحش بنت أميمة بنت عبد المطلب جد رسول الله ، وأما بعلها فهو زيد بن حارثة مولى رسول الله ومعتقه ، وكان رسول الله قد رباه وتبناه، وكان يسمى ابن رسول الله حتى أنزل الله تعالى :﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ [الأحزاب : ٤] ، فنفى البنوة بالدعوى . وقال : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾[الأحزاب : ٥] الآية . فلما أدرك زوَّجه رسول الله زينب المذكورة وبقي معها حتى أمر الله تعالى نبيه _ عليه السلام _ أن يتزوجها أو أخبره به ... وما تقوَّله المنافقون والجهلة المجازفون من أن رسول الله رآها وأحبها وشغف بحبها ، حتى كان يضع يده على قلبه ، ويقول: يا مقلب القلوب ثبِّت قلب نبيك ، ويدخل عليه زيد المسجد ويقول ادن مني يا زيد شوقاً إليها ، إلى غير ذلك من هذيانات لا يرضاها صلحاء المسلمين لأنفسهم فكيف سيد المرسلين ، فكل ذلك باطل متقوَّل))[61].

---

(٦١) تنزيه الأنبياء لابن حمير (١/ ٥٠ و٥١) .

ولا يخفى أن أعداء الدعوة في كل زمان ومكان يتصيدون في ماء أفكارهم العكر،فيخترعون قصصاً وهمية للطعن في سلوك الأنبياء_ عليهم الصلاة والسلام_. ومما لا شك فيه أن طبيعة العلاقة مع النساء تؤثر في شخصية الرجل إيجاباً أو سلباً ، لذلك وجدنا بعض الفئات يخترعون قصصَ العشق المحرَّم ، ويلصقونها بالأنبياء سعياً وراء تعريتهم من الأخلاقية والمصداقية ، وذلك لكي يفقد الشعبُ ثقته بأنبيائه ، ويصبح الأنبياء موضوعاً للتسلية والطعن واللمز . وهذا يؤثر سلباً على الدعوة ، لكن الله تعالى حفظ أنبياءه من كل سوء ، وعصمهم من الوقوع في الفواحش ، وكل ما يخل بمروءة الرجال . فكلُّ نبيٍّ يتحرك وفق سُمعته الطاهرة ، ومصداقيته ، وشَرفه . وإذا زالت هذه العناصر فإن الدعوة سوف تَفقد معناها ، ويصبح وجود الأنبياء عبثياً ، ومَضْيعة للوقت .

ولو كان النبي ﷺ غير صادق في الدعوة لكتم الآيةَ القرآنية التي تتناول قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش _ رضي الله عنهما _، وأخفى أمرها لئلا ينتبه إليها أحد . وبما أنه أظهرها فهذا يدل على أن القرآن الكريم ليس كلامَ محمد ﷺ ، بل كلام رب العالمين ، ولا يقدر أي نبي على إخفاء كلام الله تعالى أو تغييره . فلا توجد قوةٌ قادرة على حجب النور الإلهي ، أو كتمان الحق الذي يريد اللهُ تعالى إيصاله إلى الخلائق .

وعن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : ((لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه _ آية العتاب _))[62].

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٥٢٤): ((وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي، فساقها سياقاً واضحاً حسناً . ولفظه بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ، ثم أنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوَّجها إياه، ثم أعلم الله_عز وجل _ نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه ، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس ، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقيَ الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ، ويقولوا تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيداً))[63] .

---

(٦٢)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٦/ ٢٦٩٩)برقم(٦٩٨٤).ومسلم(١/ ١٥٩) برقم (١٧٧).

(٦٣) قال القاضي عياض في الشفا (٢/ ١٦٥) : ((وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه فلما شكاها إليه زيد قال له: ﴿

وكما نلاحظ من خلال سياق القصة حرص النبي ﷺ على تقوية العلاقات الاجتماعية عن طريق المصاهرة في المجتمع المؤمن العابر للطبقية الفجة. فقد زوَّج ﷺ ابنةَ عمته زينب بنت جحش الطاهرة الشريفة ذات المكانة الاجتماعية السامية من زيد بن حارثة الذي هو عَبْدٌ(مولى للنبي ﷺ). وفي ذلك دلالة باهرة على عظمة الإسلام الذي ألغى الاعتزاز بالفوارق الطبقية، وجعل التقوى هي المقياس . وهذا يرد على من يزعم أن الإسلام دين طبقي أو نظام إقطاعي . كما يرد على من ينظر إلى النبي ﷺ كزعيم قبلي يهدف إلى تعزيز مكانة قبيلته وعائلته ضمن العصبية الجاهلية . ولا تخفى قوة إيمان السيدة زينب_ رضي الله عنها _ التي قدَّمت الإرادةَ النبوية على إرادتها ، فخضعت لاختيار النبي ﷺ ، وقبلت بالزواج من زيد بن حارثة _ رضي الله عنه_ على الرغم من مستواه الاجتماعي المتدني .

وقد أعلم اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بأنها ستكون من أزواجه مستقبلاً ، إذ إن العلمَ الإلهي محيط بكل شيء ، ولا يتوقف عند الحواجز الزمنية (الماضي، الحاضر، المستقبل). مما جعل النبي ﷺ يستحي أن يطلِّقها ، لأن بعض الأفراد قد لا يتقبلون الأمر لضعف طاقاتهم العقلية عن الاستيعاب ، خصوصاً في ظل وجود اليهود والمنافقين الذين يريدون أي أمر، أو شبهة في عقولهم، لكي ينسجوا حولها مؤامراتهم الرامية إلى الطعن بالنبوة ، والتشكيك بالنبي ﷺ عن طريق رَمْيه بالأخلاق الدنيئة والتصرفاتِ المخلة بالآداب_ كما يعتقدون في عقولهم المريضة _ .

لذلك خشي النبي ﷺ أن يقول الناس إنه تزوج امرأةَ ابنه ، حيث إن زيداً قد تبناه النبي ﷺ قبل إبطال حكم التبني . فأراد الله تعالى أن يزيل من الأذهان البشرية فكرَ التبني وما يترتب عليه، فزيد ليس ابناً لمحمد ﷺ ، ولم يتزوج النبي ﷺ بامرأة ابنه _ كما يزعم المنافقون والجهال الذين لا يملكون حصيلةً إيمانية متماسكة _ .

أَمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ واتَّقِ الله ﴾ ، وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج ، وتطليق زيد لها)) اهـ . قلتُ : وهذه القصة أوردها الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٠٢) ، وابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٤٧) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦١٥) . وفي سندها علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف . انظر تلخيص الحبير لابن حجر (١/ ٢٨) ، ومجمع الزوائد للهيثمي (١/ ٤١٩) ، وفتح القدير للشوكاني (٤/ ٥٧٧) .

وفي موقف آخر ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تحرِّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاةَ أزواجك والله غفور رحيم ﴾[التحريم : ١] .

وسبب نزول هذه الآية ، عن عائشة _ رضي الله عنها _ : أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ، ويشرب عندها عسلاً ، فتواصيتُ أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد منك ريح مغافير _ جمع مغفور وهو صمغ حلو رائحته كريهة_ ، أكلت مغافير ؟. فدخل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال : ((لا ، بل شربتُ عسلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له)) . فنزلت : ﴿ يا أيها النبي لِمَ تحرِّم ما أحل الله لك ﴾ [64].

قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٣٤٤) : ((وقال ابن المنير إنما ساغ لهن أن يقلن أكلت مغافير لأنهن أوردنه على طريق الاستفهام بدليل جوابه بقوله : لا ، وأردن بذلك التعريض لا صريح الكذب ، فهذا وجه الاحتيال التي قالت عائشة لتحتالن له ، ولو كان كذباً محضاً لم يُسم حيلة إذ لا شبهة لصاحبه)) اهـ .

ويمكننا أن نستنبط بعض المسائل من هذا الحديث الشريف من شأنها توضيح المسار العام والخاص لهذه القصة :

أ) إن المرأة هي المرأة ، سواءٌ كانت صحابية أو غير ذلك . بمعنى أن غيرة النساء متأصلة في الجنس الأنثوي، والمشاعر النسائية متواجدة بكثافة بالغة من حيث الغَيرة واستعمال الحيل والاستسلام لاجتياح العاطفة والاحتكام إلى القلب . وهذه هي جِبِلَّة المرأة كما خلقها الله تعالى . فلا يجوز الطعن في أمهات المؤمنين نتيجة هذه القصص أو ما يشبهها ، لأن الذي يدفع بهذا الاتجاه هو استخدام المرأة لعاطفتها ، واحتكامها لمشاعرها الرقيقة،وليس محاولة خداع النبي ﷺ أو الكذب عليه أو الاستخفاف به أو الانتقاص من قَدْره الشريف .

ب) استخدام الحيل والتعريض لا يعني الكذب بأية حال من الأحوال . كما أن العلاقة بين الرَّجل والمرأة ذات طبيعة بالغة الخصوصية، حتى لو كان ذلك الرجل نبياً ، إذ إن زوجته أقرب الناس إليه ، وبينهما من العواطف والأحاسيس ، ما لا يصل إليه أي إنسان آخر . وهذا لا يتعارض مع هيبة النبي ﷺ ومكانته .

(٦٤)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٦/ ٢٤٦٢)برقم(٦٣١٣).ومسلم(٢/ ١١٠٠)برقم (١٤٧٤).

ج) كراهية النبي ﷺ لظهور رائحة سيئة منه ، وهذا يعكس مدى الاعتناء بالطهارة والنظافة على جميع الأصعدة .

ومن المظاهر الأخرى للعتاب الإلهي للنبي ﷺ، قول الله_ سبحانه وتعالى _: ﴿ عَبَسَ وتولَّى ﴾ [عَبَسَ : ١] .

وسبب نزول الآية ، عن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : أُنزلت ﴿ عَبَسَ وتولَّى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى ، فقالت : أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدْني ، قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، ويقول : ((أترى بما أقول بأساً ؟)) ، فيقول : لا . ففي هذا أُنزلت ﴿ عَبَسَ وتولَّى ﴾ [65] .

ونحن نلاحظ من سياق القصة أن النبي ﷺ كان حريصاً على إسلام عظماء المشركين لأن في ذلك إسلام أقوامهم . ولم يعرض النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم لحاجة شخصية أو تكبر أو إهانة له ، ولكنه حرص على إسلام سادة المشركين بُغية اتباع أقوامهم لهم في اعتناق الإسلام .

ولو كان ابن أم مكتوم يرى المشهد أمامه لكان ذلك سوء أدب منه ، إذ يقطع كلامَ النبي ﷺ وهو يتحدث في سبيل الدعوة . لكن ابن أم مكتوم معذور بسبب عماه ، وعدم تمكنه من الرؤية ، فلم يقدر على تحديد أبعاد المشهد وملابساته . وقد عاتب الله تعالى النبيَّ ﷺ لأنه ارتكب خلافَ الأَوْلى ، إذ انصب تركيزه على عظماء المشركين ، ولم يعر انتباهاً لابن أم مكتوم الأعمى .

قال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٨٤) : ((أقبل ابن أم مكتوم والنبي ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش ، يدعوهم إلى الله تعالى ، وقد قوي طمعه في إسلامهم ، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم ، فجاء ابن أم مكتوم وهو أعمى، فقال: يا رسول الله عَلِّمْني مما عَلَّمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه)) اهـ .

١٦_ الإسراء والمعراج :

لا شك أن حادثة الإسراء والمعراج من المكرمات الإلهية للنبي ﷺ. وهي معجزة خالدة تدل على عظمة الخالق تعالى، وأيضاً تدل على عظمة النبي ﷺ الذي نال هذا التكريم الرباني الخارق للعادة .

---

(٦٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٨) برقم (٣٨٩٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وإذا كانت أبواب الأرض قد أُغلقت في وجه النبي ﷺ فإن أبواب السماء ستظل مشرعةً للمقام النبوي ، يدخل من خلالها لينال الشرفَ الإلهي ، والمنزلةَ الرفيعة ، والمجدَ السامي . وإذا كان أهلُ الأرض لم يعرفوا المكانة النبوية لجهلهم ، فإن أهل السماء يدركون تلك المكانة العالية.

قال الله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريَه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء :١].

((ويقصد بالإسراء الرحلة التي أكرم الله بها نبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ، أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به إلى طبقات السماوات العلا ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وإنس وجن ، كل ذلك في ليلة واحدة))[66].

وهذا الربط الواضح بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى لم يأتِ بمحض الصدفة ، أو بحكم الطبيعة الجغرافية . إنما هو ربطٌ مقصود لأن المساجد بيوت الله تعالى لا تنفصل ، خاصةً أن هذين المسجدين لهما وضع بالغ الخصوصية ، فهما قِبْلتا المسلمين لا تنفصلان . حيث إن المسجد الأقصى كان قِبْلة المسلمين الأولى التي يتوجهون إليها ، وهي عهدهم الأول نحو اتصالهم بالسماء ، وتوجيه أرواحهم وأجسامهم نحو تطبيق شعيرة الصلاة التي هي الحبل المتين بين المخلوق والخالق . وكل ذلك يعكس أهمية المسجد الأقصى باعتباره القِبْلة الأولى وثالث المسجدين العظيمين .

وفي صحيح البخاري (١/ ١٥٥) : عن البراء بن عازب_ رضي الله عنهما _ قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة ، فأنزل الله :﴿ قد نرى تقلبَ وجهك في السماء ﴾ [البقرة : ١٤٤]. فتوجه نحو الكعبة . وقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [البقرة : ١٤٢] . فصلى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى ، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس ، فقال وهو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ ، وأنه توجه نحو الكعبة ، فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة .

---

(٦٦) فقه السيرة للبوطي ، ص ٩٣ ، دار الفكر ، طبعة (١٤١٤هـ ، ١٩٩٤م) .

والله تعالى قادرٌ على جعل الكعبة هي القِبْلة الأولى مباشرة دون الحاجة للتوجه إلى بيت المقدس، لكنه _ تعالى _ أراد ترسيخ الترابط الحتمي والمصيري بين هذين المسجدين ، من أجل توجيه رسالة إلى المسلمين باستحالة فك الارتباط بين القِبْلتين مهما حصل ، ومن يفرِّط بالمسجد الأقصى فهو مفرِّط بالكعبة ، خالعاً الانتماء للإسلام ، ورامياً قداسة القِبْلة وراء ظهره .

ومن خلال هذا التأصيل لا ينبغي النظر إلى فلسطين كبلد محتل وانتهى الأمر . بل يُنظَر إليها كوقف عربي إسلامي حاضن للقِبْلة الأولى والمسرى النبوي الشريف ، ومكان العروج إلى السماوات العلا . وهذه الطبيعة الإيمانية الخالصة لفلسطين تجعل منها جزءاً من العقيدة ، وقضيةً إسلاميةً عالمية ، وليست أرضاً ولاجئين وقرارات الأمم المتحدة . وبالتالي ينبغي الانتباه إلى مكانة فلسطين في العقيدة الإسلامية لا قرارات شرعية الوهم الدولية .

وقد ركب النبي ﷺ البراق _ دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه_ ، حتى أتى بيت المقدس ، وربطه بالحلقة التي يربط به الأنبياء ، ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم خرج ، فجاءه جبريل _ عليه السلام _ بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاختار اللبن (الفطرة) ، ثم عُرج بهما إلى السموات العلا ، ثم ذهب بالنبي ﷺ إلى سدرة المنتهى ، حيث أوحى الله تعالى إليه ، ففرض عليه خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، ثم خففها الله تعالى إلى خمس صلوات رحمةً بالأمة[67] .

فحادثة الإسراء كرَّست الترابطَ الأبدي بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، بحيث يصبح فصلهما تكذيباً للقرآن الكريم،وتهديداً لعقيدة المسلم التي هي شرفه وخلاصه الدنيوي والأخروي.

وحادثة المعراج كرَّست علاقةَ المسلمين بالسماء عبر فتح أبوابها للنبي الخاتم ﷺ حامل الشريعة الإلهية ، وقائد أمة المسلمين . وكل تكريم للنبي ﷺ هو بالضرورة تكريم لأمته التي ينبغي أن تظل موصولةً بالسماء مرجعيتها الوحيدة الأبدية .

وقد كان الله تعالى قادراً على فرض الصلاة على النبي ﷺ وهو جالسٌ في بيته ، لكن دلالة فرض الصلاة في السماء يدل على مكانتها الخاصة التي هي عمود الدين، حتى تؤخذ بعين الاعتبار هي وباقي العبادات التي تنبثق عن الصلاة (الأساس) .

---

(٦٧) راجع صحيح مسلم (١/ ١٤٥) . وانظر القصة بالتفصيل في الصحيحين .

فلم تكن حادثة الإسراء والمعراج رحلةً سياحية أو نزهةً في آخر الأسبوع لتغيير الجو . بل دلالتها الإيمانية التي تشكِّل خارطةَ القلب المسلم في كل أطوار وجوده ، هي الدستور الرباني الذي أسَّس العلاقةَ بين الخالق (السيد) والمخلوق (العبد) .

أمَّا الذين ينظرون إلى هذه الحادثة كمعجزة مفرغة من دلالاتها العميقة ، وأبعادها الروحية والمادية، فهم ينقصونها حقها ، ولا ينظرون إلى ما وراء هذه المعجزة الخالدة من العبر المركزية . إذ إنهم يتمركزون في قيمة المعجزة كعمل خارق ، ثم ينسون أو يتناسون لوازم هذه المعجزة ، وانعكاساتها على الحياة العملية ، وروابطها الوجودية الحاسمة في الذات الإنسانية الشخصية ، والمنظومةِ الاجتماعية العامة .

وكما هي العادة فإن المشركين ومن شاركهم يحاولون استغلال أية حادثة للطعن في الرسالة ، والالتفاف على الحق ، ظناً منهم أنهم بذلك يهدمون أسسَ الدعوة ، ويجتثون البعثةَ النبوية من جذورها . لذلك حاولوا جاهدين التشكيك في حادثة الإسراء والمعراج ومحاولة إقامة الحجَّة على النبي ﷺ وإفحامه عبر سؤاله عن وصف بيت المقدس . والنبي ﷺ وهو في الإسراء والمعراج لم يدر بخلده أن يُركِّز في أوصاف بيت المقدس بالتفصيل، لذلك كان موقفه ضعيفاً لولا أن مَنَّ الله تعالى عليه بالثبات ، فأبرز له بيت المقدس بلا حجاب لكي يصفه رأي العين .

ففي الحديث المتفق عليه. البخاري(٤/ ١٧٤٣)ومسلم (١/ ١٥٦): عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : ((لما كذَّبني قريش قمت في الحِجر ، فجلَّى الله لي بيت المقدس ، فطفقتُ أخبرهم عن آياته ، وأنا أنظر إليه)) .

وأسلوب المشركين في كلامهم القاسي ، وحجتهم الداحضة ، لا يدل على قلوب متعطشة للحق . فلو كانوا باحثين على الهداية لاستفسروا عن طبيعة هذه الحادثة (المعجزة) ، وإمكانية حدوثها، وما الأدلة عليها. وبعدها يصدرون حكمهم وقرارهم ، أما أن يأتوا بخلفية مسبقة غير قابلة للتغيير سواءٌ ظهر الحق أم لم يظهر ، فهذا ليس شأن أصحاب العقول المنصفة الباحثة عن الحقيقة مجردةً عن الهوى والمصالح الشخصية .

١٧_ عائلته :

مما لا شك فيه أن النبي ﷺ هو الأب الروحي ، والمرشد الأعلى للأمة . وهو حامل مشعل طموحاتها ، والمعبِّر عن تاريخها الحقيقي المصنوع في ظل الإيمان والعمل الصالح . وهذا

الالتصاق بالأُمة لم يأت كردة فعل أو عمل متكلف دبلوماسي ، بل هو كامن في جوهر الرسالة النبوية الملتصقة بالناس ، والمعنية بهمومهم ، وتاريخهم ، وحياتهم الدنيوية والأخروية .

والرسالة المحمدية النبوية ليست تنظيراً من البرج العاجي ، أو أوامر عسكرية يلقيها القائد النائم في غرفة العمليات على جيشه المسحوق، بل هي التصاق حقيقي بالواقع ، ونظام حياتي متكامل لإيجاد الحلول الروحية والمادية للفرد والجماعة . لذلك لا يشعر الفردُ في ظل الرسالة النبوية _ مهما كانت منزلته الاجتماعية _ بأنه غريب في مجتمعه، أو منبوذ في سياقه الاجتماعي ، أو مطرود بسبب وضعه . فالفقير يشعر بالانتماء إلى الجماعة المؤمنة قلباً وقالباً ، ويمارس هذا الانتماء روحاً ومادة ، خيالاً وواقعاً ، لأن الجماعة الإيمانية هي الحاضنة له ، والتي تمثل خط الدفاع الحقيقي عنه وعن أسرته وتاريخه ومستقبله .

والغني يشعر كذلك بالانتماء ، لأن الجماعة تشكل الضمانة الحقيقية لاستمرار وجوده بكل تألق ضمن القالب العام للمجتمع الإسلامي المتعاون فيما بينه ، والمعتمد على التكافل الاجتماعي بين طبقاته لتحقيق النهوض الفعال ، والمضي قدماً نحو الازدهار . والأمر غير محصور بالفقير أو الغني ، بل يشمل الجاهل والعالم ، الضعيف والقوي ، ... إلخ .

وهكذا نجد أن التعاضد بين طبقات المجتمع ليس شعاراً مفرغاً من معناه ، وإنما هو واقع ملموس ، وحقيقة فعالة هي القوة الدافعة لمزيد من التحديث والازدهار ، فلم يأت الإسلام ليسرق الفقراء ، ويكرس ثقافة السادة والعبيد في مجتمع إقطاعي ، ولم يأتِ لنهب ثروات الأغنياء لصناعة مجتمع شيوعي أو اشتراكي وهمي يتاجر بأحلام العمال والطبقات المتدنية .

فالإسلام نظام واقعي شامل لكل مناحي الحياة، ويتعامل بواقعية منطقية مع الشهوات البشرية، والغرائز المتأججة في الذات الإنسانية، وحب التملك والسيطرة . فهو يوجهها في مسارها الصحيح ضمن ضوابط محددة تكفل عدم اختلال النظام الفردي والمسار الجماعي . وهو بذلك يكون منهجاً وسطياً بين الكبت والانفلات ، وبين الإفراط والتفريط . وهذه المنظومة المتوازنة قادرة على قيادة المجتمع إلى بَر الأمان وسط أمواج الحياة العاتية .

والنبي ﷺ ملتصق بالأمة ، فهو حامل لواء تاريخها ، ونور طريقها في الدارين . فقد قال الله تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : ٦] .

وهذه العلاقة الأسرية الوثيقة بين النبي القائد وأُمته من أسس الرسالة النبوية ، فليس النبي ﷺ حاكماً مستبداً وزوجته سيدة أولى ، يعيشان على أكتاف الشعب المسحوق . فهو الأب الروحي

للأمة ، وزوجاته أمهات المؤمنين . وهذا يدل على شدة الروابط الأسرية بين القائد والرعية، ووجود المجتمع الإسلامي كأسرة واحدة ، ونسيج اجتماعي متماسك، ضمن وحدة المسار والمصير، وترابط الوسيلة والهدف . وهذه هي الوَحدة الحقيقية لا الشعاراتية .

قال القاضي عياض في الشفا (١/ ٤٧) : ((﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ ، أي هُنَّ في الحرمة كالأمهات ، حُرِّم نكاحهن عليهم بعده ، تكرمة له وخصوصية ، ولأنهن له أزواج في الآخرة)) .

ومن خلال هذا الفهم التأصيلي نستنتج أهمية الرابطة الأسرية في المجتمع الإسلامي بين القائد وأمته ، أي تماسك الوشائج العائلية بين مختلف طبقات الهرم الاجتماعي من الرأس حتى القاعدة . فالمجتمع المؤمن هو عائلة واحدة متماسكة ، وليس نظاماً إقطاعياً استغلالياً يوظف الدينَ لتخدير الناس ، وسرقة الفقراء لصالح عِلْية القوم .

فقد أرسى الإسلامُ دعائم الأُسرة المجتمعية الكبيرة التي تحنو على بعضها ، وتأخذ بأيدي بعضها بعضاً إلى بر النجاة . وبالطبع فهذه الأسرة الإيمانية لها رأس ، وهو النبي ﷺ .

وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنما أنا لكم مثل الوالد))(68).

وهكذا تبرز لنا معالم هذه العلاقة الدافئة بين الرسول القائد الراعي للمصلحة الفردية والجماعية ، وبين الأمة بمختلف طبقاتها . وبالطبع فإن علاقة الأب بأبنائه من شأنها إضفاء جو من الرحمة والثقة المتبادلة بين الطرفين ، فتختفي مشاعر الغربة والاغتراب داخل المجتمع الواحد ، وتتعزز قيم الانتماء إلى المثل العليا ، ويزداد الإيمان بالشعارات الكبرى التي يتم تطبيقها على أرض الواقع ، ولا تظل حِبراً على ورق . وحين يؤمن الفرد بأن زوجات النبي ﷺ أمهات للمؤمنين يزداد شعوره بالانتماء إلى هذه الأسرة الواحدة، فلا يحس بأنه غريب أو ضائع في داخل الجماعة، ولا يشعر كذلك باليُتم ، سواءٌ بمعناه الروحي أو المادي . فوجود النظام الأسري الحاضن للفرد يعطيه الدافعية للاستمرار دون وجود عقد نفسية أو ثغرات في مسيرة التنمية الإيمانية بكل تطبيقاتها الذهنية والواقعية. والأسرة الإيمانية المجتمعية المتماسكة تعطي الفرد معناه ، والدافعيةَ الفعالة للانطلاق نحو أداء أكثر توازناً وإبداعاً .

---

(٦٨) رواه النسائي في المجتبى (١/ ٣٨) برقم (٤٠) ، وأحمد (٢/ ٢٥٠) برقم (٧٤٠٣) . ورواه ابن حِبَّان في صحيحه (٤/ ٢٧٩) برقم (١٤٣١). وصحَّحه أبو عوانة [قاله ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٠٢)] .ورواه ابن خُزَيمة في صحيحه(١/ ٤٣)برقم(٨٠)بلفظ " إنما أنا لكم مثل الوالد لولده".

ففي صحيح مسلم (١/ ٢٧١) : أن أبا موسى استأذن على عائشة فأُذِن له ، فقال لها : ((يا أماه _ أو يا أم المؤمنين _ إني أريد أن أسألك عن شيء ، وإني أستحييك)) ، فقالت : ((لا تستحيي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي وَلَدَتْك ، فإنما أنا أمك)) .

ولنأت إلى دراسة الظروف المصاحبة لحياة أمهات المؤمنين بشيء من التفصيل والتأصيل والاستنتاج . فقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتها فتعالَيْن أُمَتِّعْكن وأُسَرِّحْكن سراحاً جميلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٨] .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٣٣) : ((هذا أمر من الله _ تبارك وتعالى _ لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن_ رضي الله عنهن وأرضاهن _ الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة)) اهـ .

وهذا يدل على رجاحة عقول نساء النبي ﷺ ، وحرصهن على الثواب الإلهي دون النظر إلى زخرف الحياة الدنيا وزينتها ، وما تطمح إليه النساء من الحلي ، والملابس الغالية، ومستحضرات التجميل، وتصدر المجالس النسائية للتفاخر بالمظاهر الخادعة ، والشكليات الاجتماعية المفرغة من معناها . وفي ذلك دليل باهر على المكانة السامية لأمهات المؤمنين ، وقوة عقيدتهن ، وتماسك مستواهن الإيماني، وسعة علمهن بأحوال الدنيا والآخرة . وهذا ليس بمستغرب على نساء بيت النبوة الطاهرات العالمات اللواتي لم يلهثن وراء زينة الحياة الدنيا الظاهرية ، بل نظرن إلى ما وراء هذه الدار الفانية ، إلى النعيم الإلهي الأبدي .

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : لما أُمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال : ((إني ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك)) . قالت : وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت : ثم قال : ((إن الله جل ثناؤه قال :﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدنيا وزينتها فتعالَيْن أُمَتِّعْكن وأُسَرِّحْكن سراحاً جميلاً (٢٨) وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً (٢٩) ﴾ [الأحزاب])). قالت

: فقلت : ففي أي هذا أستأمر أبوي ؟ ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . قالت : ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت[69] .

قال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٤٤) : ((اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه على قولين : الأول : أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق ، فاخترن البقاء . قالته عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي وابن شهاب وربيعة . ومنهم من قال : إنما خَيَّرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيمسكهن لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن ، ولم يخيرهن في الطلاق . ذكره الحسن وقتادة ومن الصحابة علي)) اهـ .

قال الحافظ في الفتح (٨/ ٥٢١) : ((والذي يظهر الجمع بين القولين لأن أحد الأمرين ملزوم للآخر ، وكأنهن خُيِّرْن بين الدنيا فيطلقهن ، وبين الآخرة فيمسكهن . وهو مقتضى سياق الآية . ثم ظهر لي أن محل القولين : هل فُوِّض إليهن الطلاق أم لا ؟ . ولهذا أخرج أحمد عن علي قال : لم يُخيِّر رسول الله ﷺ نساءه إلا بين الدنيا والآخرة))[70] .

قال الله تعالى: ﴿ يا نساءَ النبي من يأت منكن بفاحشة مبيِّنة يُضاعفْ لها العذاب ضعفَيْن ﴾ [الأحزاب: ٣٠] .

وهذه الآية الكريمة تشير إلى المكانة الاستثنائية لنساء بيت النبوة ، حيث تم التشديد عليهن في حال إتيانهن لفاحشة مبينة، وذلك لرفعة قَدْرهن بسبب ارتباطهن بالنبي ﷺ . فأية فاحشة تصيب زوجة النبي ﷺ تُعتبَر طعناً في طهارة بيت النبوة ، وهذا يؤثر سلباً على مصداقية المنهج النبوي، وقدرته على حشد الأتباع المؤمنين به.

---

(٦٩) متفق عليه.البخاري (٤/ ١٧٩٦) برقم (٤٥٠٨)، ومسلم (٢/ ١١٠٣) برقم (١٤٧٥).

(٧٠) روى الإمام أحمد في مسنده (١/ ٧٨): حدثنا عبد الله حدثني سريج بن يونس ثنا علي ابن هاشم يعني البريد عن محمد بن عبيد الله بن علي بن أبي رافع عن عمر بن علي بن حسين عن أبيه عن علي رضي الله عنه : أن النبي ﷺ خَيَّر نساءه الدنيا والآخرة ولم يخيرهن الطلاق .

[قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٣٣) تعليقاً على الحديث السابق : ((وهذا منقطع)). وقال أحمد شاكر (مسند أحمد ١/ ٧٨ تعليق شعيب الأرناؤوط) : ((ثم إن هذا الحديث خطأ يخالف الأحاديث الصحاح أن رسول الله ﷺ خيَّر أزواجه الطلاق فاخترن الله ورسوله ــ رضي الله عنهن ــ))].

قال القرطبي في تفسيره (١٤/ ١٥٥) : ((فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبي ﷺ بفاحشة _ والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مر في حديث الإفك_ ﴿ يُضاعفْ لها العذاب ضعفَيْن ﴾ لشرف منزلتهن ، وفضل درجتهن ، وتقدمهن على سائر النساء أجمع.وكذلك بيَّنت الشريعة في غير ما موضع _ حسبما تقدم بيانه غير مرة _ أنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت تضاعفت العقوبات ، ولذلك ضوعف حد الحر على العبد ، والثَّيب على البِكر . وقيل : لما كان أزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي، وفي منزل أوامر الله ونواهيه، قوي الأمر عليهن، ولزمهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب . وقيل : إنما ذلك لعظم الضرر في جرائمهن بإيذاء رسول الله ﷺ ، فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة في إيذاء رسول الله ﷺ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يا نساءَ النبي لستنَّ كأحد من النساء إن اتقيتنَّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلنَ قولاً معروفاً ﴾ [الأحزاب : ٣٢] . وفي هذا دلالة واضحة على التميز والأفضلية. فنساء النبي ﷺ لهن مكانة سامية متقدمة على باقي النساء ، وهذه المكانة إنما جاءت نتيجة التقوى والتزامهن بالمنهج النبوي في حياتهن الروحية والمادية . وهنَّ أيضاً في دائرة الصيانة الطاهرة والشرف الرفيع، لذلك أمرهن الله تعالى بعدم الخضوع بالقول ، أي عدم ترقيق الكلام ، لئلا يطمع أصحاب القلوب المفعمة بأمراض الشهوات السيئة .

قال الله تعالى مخاطباً زوجات النبي ﷺ: ﴿ وَقَرْنَ في بيوتكُنَّ ولا تبرَّجْنَ تبرجَ الجاهلية الأولى ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . لازِمْنَ بيوتكن ولا تخرجن إلا للضرورة. وفي ذلك صيانة لهن، وتشريف ، وإبراز علو مكانتهن . فالجوهرة الثمينة لا بد أن تحاط بسياج واقٍ ضد كل عابث ، ولم نسمع بوجود اللؤلؤ إلا داخل الصدف الذي هو الإطار الحامي . وهذا الخطاب لكل امرأة مسلمة ، فعليها أن تلزم بيتها ، ولا تخرج إلا للمصلحة الشرعية ، ولا تُبعثِر وقارَها في الأسواق والشوارع ، ولا تصبح سلعةً تتجول في الطرقات أمام عيون الناس . وقد نهى الله تعالى نساءَ بيت النبوة عن التبرج وإظهار الزينة الواجب سترها ، وقد كان التبرج شعار المرأة في الجاهلية[71]، فلما جاء

(٧١) يقال : تبرجت السماء ، أي تزينت بالكواكب . وتبرجت المرأة ، أي أظهرت زينتها ومحاسنها. (انظر المعجم الوجيز ص ٤٣). وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ قال : ((كانت الجاهلية الأولى ألف سنة فيما بين نوح وإدريس)) [ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٥٢٠) وقال : وإسناده قوي] .

الإسلام حاملاً نظامه الاجتماعي المتماسك عزَّز قيمَ الفضيلة، وذلك بمحاربة التبرج وظهور العورات ، ومنع نشر الفواحش والشهوات بين أفراد المجتمع .

وبما أن نساء بيت النبوة هنَّ السيدات صاحبات الصدارة في المشهد النسائي في المجتمع المسلم، كان عليهن أن يَكُنَّ القدوةَ الحسنة لمن خلفهن من نساء المؤمنين ، لذلك كان التدقيق عليهن لأنهن مركزية الطهارة ، ومنبع الفضيلة الخارجة من رحم بيت النبوة الشريف الذي ألغى المظاهرَ الشهوانية الفاحشة في الجاهلية .

((فالبيئة الجاهلية أقنعت المرأة بأن وجودها مرتبط بما تقدمه وتعرضه من جسدها . فكلما عرضت مساحاتٍ أكبر من لحمها وفتنتها صارت مطلوبة أكثر ، يُعجَب بها الرجال، ويتسابقون لخطب ودها ... إن هذا التبرج نتيجة طبيعية لحالة الجماعة البشرية التي سلَّعت المرأةَ _ أي جعلتها سلعة _، وأدخلتها في التشيؤ الرخيص _ أي جعلتها شيئاً غير ذي قيمة _. فأضحت المرأة تضحي بجسدها وتعرضه على العامة مقابل أن تلقى الاهتمام والإشباع الذاتي ، ولكي تقنع نفسها أنها قادرة على الإغراء وجذب الرجال[72].

وقد كانت المرأة في الجاهلية تُبرز مفاتنها وتمشي في الأسواق معطرة متكشفة للفت عيون الناس وجذبهم إليها . وقد وضَّح الإسلامُ العظيم مخاطر هذا الفعل ، وآثاره المدمرة في الحياة الاجتماعية للأفراد ، وألغاه بصورة حاسمة قاطعة .

والإسلام لا يُغلق درباً محرَّماً إلا ويفتح بدلاً منه مئات الدروب المشروعة. فحث على الزواج، وأمر المرأة أن تتزين لزوجها ، وأمر الرجل أن يتزين لامرأته ، لكي يحصل الإشباع العاطفي النفسي والمادي داخل نطاق الأسرة ، ولكي يحصل الاكتفاء الذاتي ، فلا يبحث كل طرف عن الإشباع خارج نطاق الزوجية ، وهكذا سد الإسلامُ الذرائع الموصلة إلى كل مفسدة))[73] .

وما زال التوجيه الإلهي مستمراً حول صيانة نساء النبي ﷺ وبناته ، وحفظهن من كل شائبة، وذلك بالتزامهن باللباس الإسلامي الساتر للعورات ، والذي يعكس شخصية المرأة المسلمة

(٧٢) المرأة الطبيعية تشعر بالانهيار حين تفقد القدرة على الإغراء ، أو حين تشعر أنها غير مرغوبة . لذا يجب توجيه الإغراء وتفعيله داخل الحياة الزوجية ، لئلا تبحث المرأة عمن تغريه خارج نطاق الزواج .

(٧٣) الأساس الفكري للجاهلية، ص ٨١ و٨٢ ، إبراهيم أبو عواد ، دار اليازوري ، عَمَّان ٢٠٠٧م.

العفيفة الطاهرة ، فهي متميزة عن غير المسلمات بالأداء الأخلاقي المنضبط، والتمركز في ذاتية الشرف والطهارة قبل الزواج وبعد الزواج .

قال الله تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنين عليهنَّ من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعْرَفْنَ فلا يُؤْذَيْن ﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (١٢/ ٧٢) : ((أي : قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات _ أمهات المؤمنين _ وبناتك الفضليات الكريمات ، وسائر نساء المؤمنين ، قل لهن يلبسن الجلباب الواسع الذي يستر محاسنهن وزينتهن ، ويدفع عنهن ألسنة السوء ، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية ... ذلك التستر أقرب بأن يُعْرَفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد ، وقيل : أقرب بأن يُعرفن أنهن حرائر ، ويتميزن عن الإماء)) اهـ .

١٨_ أفضلية الأُمة والصحابة :

إن الأمة المحمدية هي أعظم الأمم على الإطلاق . وليس هذا تبجحاً أو اتباعاً لخرافة نقاء العِرْق أو استكباراً في الأرض بغير الحق . فالأفضلية المطلقة لهذه الأمة محكومة بشروط ينبغي توفرها حتى تنال صدارة الأمم . وهذه الشروط هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى.ولا يمكن الحصول على سبق الريادة، وتصدر المشهد العالمي الأممي إلا بتحقيق هذه الشروط، إذ إن أفضلية الأمة مترتبة على مدى الالتزام بها ، وتحقيقها واقعاً ملموساً . ومَن أراد معرفة مكانة الأمة المحمَّدية فليتخيل شكلَ العالم بدونها . فعندئذ سيختفي الإيمانُ من الأرض ، ويسيطر الكفرُ على تفاصيل الحياة من أولها إلى آخرها ، وتنهار النظم البشرية دون أدنى فرصة للنهوض .

قال الله تعالى : ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ١١٠](74) .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: قرأ عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه _ : ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس﴾، ثم قال : يا أيها الناس من سَرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها(75).

---

(٧٤) قال ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٤) : ((وقال بعض أهل العلم كنتم بمعنى أنتم ، والكاف صلة . وقال آخرون : كنتم في اللوح المحفوظ ، وهو الذِّكر ، وأم الكتاب)) اهـ .

إن أفضلية الأمة المحمدية مقيدة بتحقيق الشروط الإلهية ، فهي لا تملك صكوك غفران حتى تنام وتنتظر دخول الجنة . بل عليها العمل بالعلم ، والمثابرة في تحقيق المراد الإلهي ، حتى تنال شرفَ الصدارة بين الأمم ، والرفعة في الدارين . وإذا لم تحقق شروط الرفعة فلا بد أن تلاقيَ نفسَ مصير الأمم الغابرة التي ذهبت إلى الهاوية مع خزي الدنيا والآخرة .

وعن ابن عباس_رضي الله عنهما_: في قوله_عز وجل_: ﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس﴾، قال : ((هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة))[76] .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : أنه سمع النبي ﷺ في قول الله _ عز وجل _ : ﴿ كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس﴾ ، قال : ((أنتم تتمُّون سبعين أُمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله _ عز وجل _))[77] .

وهكذا نجد أن الأمة المحمدية لها مكانة خاصة بين الأمم باعتبارها الأمة الحاملة لميراث الأنبياء كلهم _ عليهم الصلاة والسلام_ . لذلك كانت الشريعة المحمدية ناسخةً وخاتمة . وبالتالي فإن الأمة المحمدية هي التي ستضطلع بمسؤولية المحافظة على الشريعة الإلهية حتى يوم القيامة . وهذا تشريفٌ عظيم ، وتكليفٌ عالي الشأن . وبدون هذه الأمة فإن نور الله تعالى سيختفي على الأرض ، وتتلاشى الشريعة السماوية ، ولن يُعبَد الله تعالى في الأرض . ومن هنا تنبع أهمية هذه الأمة الخاتمة الحاملة لثقل الأمانة السماوية إلى قيام الساعة .

---

(٧٥) تفسير الطبري (٣/ ٣٨٩) . وانظر تفسير ابن كثير (١/ ٥١٩)، والعجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٧٣٤) .

(٧٦)رواه الحاكم(٢/ ٣٢٣)برقم(٣١٦٠)وصححه ووافقه الذهبي . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥):((وعن أُبي بن كعب قال:((لم تكن أمة أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأمة)) . أخرجه الطبري بإسناد حسن عنه.وهذا كله يقتضي حملها_أي حمل﴿كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس﴾_على عموم الأمة ، وبه جزم الفراء... وقال غيره : المراد بقوله : ﴿كنتم﴾ في اللوح المحفوظ ، أو في علم الله _ تعالى _ ورجَّح الطبري أيضاً حمل الآية على عموم الأمة)) اهـ .

(٧٧) رواه الحاكم (٤/ ٩٤) برقم (٦٩٨٧) وصححه ، ووافقه الذهبي . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥) : ((وهو حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي وحسَّنه ، وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، وله شاهد مرسل عن قتادة عند الطبري رجاله ثقات)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣) : أن النبي ﷺ قال يوم بدر : ((اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض)) .

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢٨٩) : ((وإنما قال ذلك لأنه علم أنه خاتَم النبيين ، فلو هلك هو ومن معه حينئذ لم يُبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان، ولاستمر المشركون يعبدون غير الله ، فالمعنى لا يُعبَد في الأرض بهذه الشريعة)) اهـ .

والأمة المحمدية هي الوحيدة التي تعبد الله تعالى ، وباقي الأمم تعبد الشيطان والهوى ضمن غلاف ديني منسوب_ زوراً _ إلى الذات الإلهية المقدَّسة . فلو هلكت هذه الأمة ، فهذا يعني أن كوكب الأرض سيخلو من الإسلام الدينِ الوحيد المقبول عند الله تعالى ، وعندئذ تفقد المفاهيم الشرعية معناها ، وتغيب الشريعة السماوية عن الأرض ، وتفقد ماهية الخلافة وإعمار الأرض معناها، ويصبح العالم _ بالكامل _ مسيطراً عليه من قبل الشيطان، ولا مكان لعبادة الله تعالى فيه . وهذا محالٌ نقلاً وعقلاً .

وفي مسند أحمد (١/ ٩٨): عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: ((وجُعِلَت أُمتي خير الأمم))[78].

وهذا كله يصب في مسار تفضيل الأمة المحمدية على باقي الأمم بفعل إنجازاتها الدعوية المهمة ، وأدائها الثابت في تطبيق الشرعية الإلهية كاملةً غير منقوصة ، والمحافظة على المنهج الإسلامي الوسطي بدون إفراط أو تفريط ، والموازنة الدقيقة بين حاجات الروح وغرائز الجسد ، والتأسيس المنهجي العلمي لمجتمع العدالة والفضيلة والأخوة .

قال الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [الأنفال : ٧٤] .

إن هذه التزكية الإلهية لصحابة النبي ﷺ لم تأت من فراغ . فالجهود الجبارة التي قدَّمها هذا الجيل المبارك من الرجال الأشداء الذين حملوا الرسالة النبوية على أكتافهم ، ونشروها في أصقاع الأرض ، متحملين في سبيل ذلك شتى الصعاب والتضييق والعذاب والحصار والرفض والسخرية والاضطهاد ، لهي جهود سامية جبارة لم تذهب سدى، لأن الله تعالى سجَّلها لهم عنده في ميزان

(٧٨) حسَّنه الحافظ في الفتح (٨/ ٢٢٥) .

حسناتهم ، فارتفعت درجاتهم في الدارين. وقد صارت إنجازات الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ قرآناً يُتلى حتى القيامة ، لأنهم صَدَقوا اللهَ فَصَدَقهم الله .

قال الصابوني في صفوة التفاسير (٤/ ٨٧) : ((﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿ والذين آوَوْا ونصروا ﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار)) اهـ .

وهذه الدرجات العليا التي حصل عليها الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ بسبب نيلهم التوفيق الإلهي في أعمالهم الصالحة ، وإنجازاتهم الكبيرة المدهشة ، حيث فتحوا العالم في مدة زمنية قصيرة ، وأدخلوا الإسلام إلى ممالك الجهل والظلام ، فنقلوها من الخضوع للطواغيت المرتزقة إلى الخضوع للخالق العظيم مالك الجنة والنار . فأخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، فتحرر الإنسان من خوفه وجهله وظلمات روحه ، وأضحى عنصراً فعالاً في البناء الحضاري العالمي . لذلك فالمنهج الإسلامي الدعوي هو مصباح ينير الطريقَ أمام الأفراد والجماعات، كي يلتقيَ الإنسان بإنسانيته، ويعرف إجابات الأسئلة المصيرية الحاسمة: من هو ؟ ، ومن أين جاء ؟ ، ولماذا جاء ؟ . ولا يخفى أن زوال الحيرة والتشويش في الذهن البشري سيدفع باتجاه تحرر الإنسان من وساوسه وخوفه من المستقبل ، فيتحول الفرد إلى شعلة نشاط ، ووجود تحريري ، فتوضع الطاقات البشرية في أقصى مداها، الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من الإنجازات ، وتحقيق خلافة الله في الأرض، إخلاصاً وإعماراً وتحديثاً .

وعن سهل بن سعد الساعدي ــ رضي الله عنه ــ قال : قال النبي ﷺ : ((اللهم لا عَيْش إلا عيش الآخرة . فاغفر للأنصار والمهاجرة))[79].

والمغفرة ثابتة للأنصار والمهاجرة لأن دعاء النبي ﷺ مستجاب . وهذ الفضل الإلهي يدل على سمو رتبة الصحابة الذين ضحوا بكل شيء في سبيل الدعوة . فهم الرعيل الأول، والجيل الذهبي، والآباء المؤسسون لأمجاد الحضارة العربية الإسلامية.

وآثارهم ماثلة للعيان ، ومنهجهم الفكري ذو معالم واضحة في الشرق والغرب ، وقد أوصلوا الدينَ إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ووضعوا بذور حضارة إنسانية كَوْنية أنارت الطريقَ للبشرية ،

(٧٩) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٣٥٧) برقم (٦٠٥١)،ومسلم (٣/ ١٤٣١) برقم (١٨٠٥).

فقد كانت الحضارة العربية الإسلامية صاحبة المرتبة الأولى عالمياً لمدة تزيد عن ألف سنة. وتفوقها في شتى المجالات اعترف به الشرق والغرب معاً .

لكن سقوط هذه الحضارة العالمية السامية كان متوقعاً في يوم من الأيام ، لأن سنن الله تعالى ثابتة لا تتغير ، فتداول الحضارات التي تمر بأطوار تشبه أطوار الإنسان (الولادة ، الطفولة ، الشباب ، الكهولة ، الشيخوخة ، الموت)، ذو نزعة استمرارية على مدار التاريخ. فلا يوجد حضارة تستمر إلى ما لا نهاية. بل لها أطوار مرحلية تتضمن الميلاد والقوة والضعف والتلاشي .

والفرد يقف بكل احترام وإجلال لجيل الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ الذين خرجوا من رمال الصحراء الملتهبة حيث الحياة القاسية في دهاليز النسيان، ليؤسسوا حضارة الرفعة البشرية ، والسمو الأخلاقي ، والنهضة العلمية الراقية ، والتكريس الوجداني للماهية الإنسانية لفظاً ومعنى. وبالطبع فما كان ليتم هذا لولا الإخلاص ، والتفاني ، والعمل بالعلم من أجل سعادة البشرية في الدارين . ووفق هذه المعطيات يمكننا رسم صورة نَفسية للصحابة ــ رضي الله عنهم ــ تعتمد على الفكر المنهجي الصافي ، والتطبيق العقلاني الدقيق ، والتأصيل الحياتي اعتماداً على النقل والعقل . وبذلك يكونون خارجين على قانون التقليد الأعمى ، وترديدِ الأقوال كالببغاء دون فهم أو شعور. فهم يحملون الفكر الإسلامي المنهجي واقعاً في الذهن الباطني ، وعلى الأرض . كما أنهم يقومون بواجبات الدعوة على أكمل وجه انطلاقاً من اقتناع تامٍ ، وصمود تاريخي ، وتطبيق سليم .

وبالتالي فهم يؤسسون لواقعية التطبيق العملي النابع من التصور الإسلامي بلا إفراط أو تفريط. مما يدل على صفاء في الفهم ، ووضوح في الرؤية ، وتقدير لأحوال الناس النفسية ، والأوضاع البيئية المتباينة وفق اختلاف الأزمنة والأمكنة .

وما كان هذا ليتم لولا الإخلاص في تلقي النور النبوي ، والاستناد إلى منهجية علمية واضحة في فهم دلالات النصوص بمقتضى فقه اللغة العربية والأحكامِ الشرعية . لذلك بذل الصحابةُ أنفسهم رخيصةً في سبيل الله تعالى ، وقَدَّموا أموالَهم في سبيل الدعوة .

وإليك هذا المشهد في يوم بَدْر ، والذي يدل على التضحية بأعز ما يملك المرءُ ، وهو نَفْسه التي بين جَنْبَيْه . ففي صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٩) أن رسول الله ﷺ قال : ((قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض))، فقال عُمَير بن الْحُمَام الأنصاري: يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ ، قال : ((نعم))، قال : بَخٍ بَخٍ ، فقال رسول الله ﷺ : ((ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟))، قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ، قال : ((فإنك من

أهلها)) ، فأخرج تَمَرات من قَرَنه _ يعني جَعْبَة النشَّاب _ فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حَيِيتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتل حتى قُتل .

إن هذا المشهد يُذهِل العقولَ بسبب حجم التضحية الكامنة فيه . فالصحابي الجليل ما إن سمع قولَ النبي ﷺ حتى تحركت أركانه حُرقةً وشوقاً إلى رضا الله تعالى ونيل جَنَّته . فأطلق كلمته "بَخٍ بَخٍ " ، وهي كلمة تُطلَق لتعظيم الأمر في الخير . فهو يرجو أن يكون من أهل هذه الجنة الرائعة ، مما يشير إلى علو همته ، وعدم ركونه إلى متاع الدنيا الفاني . وقد بَشَّره النبي ﷺ بأنه من أهلها . وبالطبع فإن النبي ﷺ لا يَعلم الأمورَ الغيبية إلا إذا أطلعه اللهُ عليها . وهذا الصحابي لم ينتظر حتى يأكل تمراتِه ، فالجنةُ تنتظره وهو يتحرق شوقاً إليه مُعرِضاً عن زينة الدنيا الزائلة . فما كان منه إلا أن ألقى التمرات ، أي إنه يُلقي الدنيا وراء ظهره ، راغباً فيما عند الله تعالى من الثواب الجليل، وقاتل حتى قُتل مُصدِّقاً بكلام الله تعالى ورسوله ﷺ ، لا رياءً ولا سُمعة ، وكان له ما أراد .

١٩_ الشهادة على الناس :

إن النبي ﷺ قائد البشرية ، وحامل لواء الرسالة الإلهية الخاتمة الناسخة، ومالك السلطاتِ في الدعوة والشهادة على الناس ، وبالتالي فليس غريباً أن يشهد على الآخرين ، ويقول كلمته في حقهم مدحاً أو ذماً . وكذلك أمته السائرة على خطاه نالت هذا الشرف المستمد من مكانة النبوة وقيادتها للعالم .

قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وهذه الآية الشريفة تأسيس دقيق للمنهج الوسطي بدون إفراط أو تفريط ، لأن الوسط من كل شيء هو المنهج العادل المتوازن الذي يلبِّي احتياجات الأفراد والجماعات باعتدال ، وتنسيق ، ومراعاة للأحوال النفسية بدون انحلال ، أو تمييع للأحكام الشرعية ، أو لوي أعناق النصوص .

ومن خلال هذا الفهم الوسطي يمكن تحديد معالم المنهج الإسلامي في التعامل مع الأفكار والأشخاص والمجتمعات بكل إنصاف ، حيث يُعطى كل ذي حق حقه بدون إجحاف، مع بيان مواضع الصواب لدعمها والحض عليه،وكشف مواضع الانحراف للتحذير منها ودحضها .

وهذا هو الجوهر الأساسي للفكر الإسلامي في التعامل مع الذوات الروحية ، والذوات المادية. فلم يأت الإسلام لتدمير المجتمع ، والقضاء على إبداعات العقل البشري . وإنما جاء لوضع الأمور في نصابها الصحيح بدون تطرف . إذ إن العقل البشري الناقص له حدود ،

والمجتمع البشري له حدود . وقد جاء الإسلام لإبراز هذه الحدود ، وخطورة تجاوزها ، ومدى الضرر الذي يترتب على وضع الأمور في غير نصابها الصحيح . وكما قال الشاعر :

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السيفِ بالعُلا

مُضِر كوضع السيف في موضع النَّدَى

والوسط هو العدل(80) لأنه قيمة المعنى الفكري الدقيق ، والتأصيل الشرعي للحيلولة دون ممارسة التطرف ، إفراطاً أو تفريطاً .

قال الآمدي في الإحكام (١/ ٢٧٠) : ((ووجه الاحتجاج بالآية أنه عَدَّلهم ، وجعلهم حُجة على الناس في قبول أقوالهم ، كما جعل الرسول حُجة علينا في قبول قوله علينا)) اهـ .

وهذا المديح الإلهي لجيل الصحابة وتعديلهم ، كشف قوة الإيمان الثابتة في نفوس هذا الجيل الذهبي الذي حمل أمانة تبليغ الوحي كما هو . فاستحق هذه الرتبة العظيمة بسبب حجم الإنجازات الخارقة في سياق الدعوة ، والثبات عليها . وقال الرازي في المحصول (٤/ ٩٨) : ((وأما المعنى فلأن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين ، فالشيء الذي يكون بعيداً عن طرفي الإفراط والتفريط الذين هما رديان كان متوسطاً فكان فضيلة،ولهذا سمي الفاضل في كل شيء وسطاً))(81).

إذن ، نتوصل إلى أن قيمة الفضيلة تتمركز في موضعها الوسطي بين النقيض والنقيض . فالكرم _ على سبيل المثال _ فضيلة متوسطة بين البخل والإسراف ، والشجاعة قيمة نبيلة تتوسط طرفي

---

(٨٠) الدليل على هذا التعريف قول الله تعالى: ﴿ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تُسَبِّحون ﴾ [القلم: ٢٨] . وقد فسَّر الطبري ﴿ أوسطهم ﴾ : أعدلهم . ونقل هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك [انظر تفسير الطبري ١٢/ ١٩٣] . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٢١) : ((قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن كعب والربيع بن أنس والضحاك وقتادة : أي أعدلهم وخيرهم)). وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢١٥) : أن أبا سعيد الخدري _ رضي الله عنه_ قد فسَّر الوسط بالعدل . اهـ . أما في لغة العرب فقد قال الشاعر :

هُم وَسَطٌ يرضى الأنام بِحُكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بِمُعْظَمِ

(٨١) هذا المعنى سبق أن أشار إليه أرسطو (٣٨٤ ق.م _ ٣٢٢ ق.م) الذي كان يرى أن الفضيلة هي اختيار الإنسان للحالة الوسطى بين طرفين كلاهما رذيلة ، وهما : الإفراط والتفريط .

الجبن والتهور . وهكذا كل فضيلة هي تجسيد أخلاقي نبيل في منتصف الطريق .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٧٥): عن أبي سعيد الخدري_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يُجاء بنوح يوم القيامة ، فيقال له : هل بَلَّغْتَ ؟ ، فيقول : نعم يا رب ، فتُسأل أمته : هل بلغكم ؟ ، فيقولون : ما جاءنا من نذير ، فيقول : مَن شهودك ؟ ، فيقول : محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون))، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ((﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾)) .

وهذه الشهادة الأخروية تدل على مكانة النبي ﷺ وأمته ، حيث تُقرر مصيرَ هذه الأقوام الغابرة التي افترت على رسولها نوح ﷺ الذي قضى حياته في الدعوة إلى الله تعالى بكل إخلاص وكفاءة . لكن قومه لم يقدِّروا هذه الجهود الخارقة ، وإنما واصلوا مسلسل غطرستهم وعنادهم وكذبهم في الدنيا والآخرة ، ظناً منهم أن حيلتهم قد تنطلي على الله تعالى عالِمِ السر والعلانية ، وتمر الأمور بكل سلاسة ، وينجون بفعلتهم . لكن هذا لم يحصل .

((إنما طلب الله من نوح شهداء على تبليغه الرسالة أمته _ وهو أعلم _ إقامةً للحُجة ، ولمنزلة أكابر هذه الأمة . فيقول : محمد وأمته . المعنى : إن أمته شهداء ، وهو مُزكِّي له، وقُدِّم في الذكر للتعظيم، ولا بَعُدَ أنه ﷺ يشهد لنوح_عليه السلام_ أيضا لأنه محل النصرة))[82] .

قال الله تعالى : ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وقال الشاطبي في الموافقات (٢/ ٢٥٣) : ((إنه جُعل شاهداً على أمته ، اختص بذلك دون الأنبياء _ عليهم السلام _)) .

وهذا الشرف الكبير الذي حصل عليه النبي ﷺ عبارة عن فضل إلهي ، فالشهادة على الأمة ليست مسألةً سهلة ، ولا تُعطَى لأيٍّ كان . لذلك كانت المنزلة النبوية السامية وراء تقديم هذه الشهادة التي من شأنها رفع أناس ، ووضع آخرين . لكن النبي ﷺ لا يملك أن يشهد إلا بالحق ، فقوله حق ، وفعله حق . ومن هنا تأتي شهادته إحقاقاً للحق ، وإنزال الناس منازلهم اللائقة بمستواهم صعوداً أو هبوطاً . وهذا يشير إلى مكانة النبي ﷺ كمعلِّم ومرشد أعلى للأمة ، يعتني بها ، ويتفقد مصالحها ، ويحاسب المخطئ على خطئه ، ويدفع المحسن إلى الأمام . وبعد كل ذلك يقوم بدور الشهادة على الأمة لأنه قائدها الأعلى الذي تعنيه كل صغيرة وكبيرة في الدنيا

(٨٢) شرح سنن ابن ماجة (١/ ٣١٧) ، السيوطي وآخرون .

والآخرة . فليس النبي ﷺ قائداً صورياً ينام في قصره ، ويترك الأمة ضائعة في حياتها ، أو زعيماً عسكرياً ينام في غرفة العمليات ، ويترك الأمة تموت في المعركة من أجل إشباع غروره ، أو صانع شعارات فارغة لا يعنيه مستقبل الأمة . فقد كان شديد الحرص على نجاة أمته في الدارين مع أنه قد ضمن الجنة في أعلى درجة، ولم يقل لقد نجوتُ بنفسي فليكن الطوفان من بعدي. وهذا يدل على رحمته بالعالمين عامةً ، وأمته خاصة . وهذا هو منهاج النبوة الناصع في أبهى صوره، حيث الحرص على إنقاذ الناس لكي ينالوا الحياة الهنيئة في الدنيا ، والسعادة الأبدية في الآخرة .

قال الله تعالى:﴿فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء: ٤١].

قال الطبري في تفسيره (٤/ ٩٤) : ((يعني : بمن يشهد عليها بأعمالها وتصديقها رسلها أو تكذيبها)) اهـ .

وقال الصابوني في صفوة التفاسير (٢/ ٩٧): ((أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمة بنبيها يشهد عليها ، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان ؟! كيف يكون موقفهم ؟ وكيف يكون حالهم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع)) اهـ .

وهذه الشهادات النبوية هي إقامة الحجة على الأمم ، لأن الله تعالى لم يخلق البشر ليظلمهم ، فقد أعطاهم الفرصة تلو الأخرى لكي يصححوا مسارَهم . ولو أدخل اللهُ تعالى الكافرين في جهنم مباشرة دون حساب أو إقامة حُجَّة أو إعطائهم فرصة أخيرة لإبداء وجهة نظرهم ، لما استطاع أحد أن يعترض . لكنه تعالى _ بفضل منه ورحمة_ منح البشر حريةَ الاختيار بين الإسلام أو الكفر، وحق تقرير مسارهم الدنيوي ، ومصيرهم الأخروي ، بكل حرية ودون إجبار ، لكي يكون الفرد مسؤولاً عن أعماله أمام الله تعالى ، وأمام نفسه .

فالذي زرعه الإنسان قد حصده . وهذا نتاج حرية الإرادة الإنسانية التي تملك حق اختيار الطريق ، وتحديد طريقة المشي فيه من حيث الاستقامة والاعوجاج . وبالتالي فالإنسان عليه أن يتحمل المسؤولية كاملةً ، وأن لا يخترع الأعذار الواهية التي يضحك بها على نفسه ، أو يعلِّق أخطاءه على شماعة الآخرين . فإن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ، وإن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه . ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[الزخرف : ٧٦] .

وعن ابن مسعود_ رضي الله عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ: ((اقرأ عليَّ)). قال: قلتُ : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟، قال: ((إني أشتهي أن أسمعه من غيري)) . قال : فقرأتُ النساء حتى إذا

بلغتُ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ .قال لي : ((كُف _ أو أَمْسِكْ _)) . فرأيتُ عينيه تذرفان[83].

وفي هذا الحديث الشريف دلالات واضحة تشير إلى حرص النبي ﷺ على أن يسمع القرآن الكريم من غيره ، لما في ذلك من تأكيد انتشار القرآن الكريم في أوساط المؤمنين ، وإتقان تلاوته ، مما ينعكس إيجاباً على المجتمع المسلم داخلياً وخارجياً . فالإيمان يزداد ، ويتكرس اليقين في القلوب، وينعكس ذلك الإيمان على الجوارح سلوكاً طيباً، وصورة ظاهرية حسنة مستندة إلى عمق إيماني داخلي حقيقي. فتنتج حياة حضارية متقدمة على كافة الأصعدة .

وقد بدا تأثير القرآن واضحاً على النبي ﷺ ، حيث ذرفت عيناه دموعاً تدل على عمق تأمله في الآية التي سمعها ، وفهمه لأبعادها والظروف المحيطة بها . وما الدموع إلا انعكاس لتأثر القلب وحرارته العالية تجاه الأحداث. وإذا لم يبك الإنسان حين يتأمل في آيات الله تعالى ، فمتى سيبكي ؟ . فالقلب القاسي الذي لا يتأثر بكلام الله تعالى سوف تمر الآيات عليه سريعاً بلا تدبر أو فهم لدلالات الآيات . فالبكاء يغسل القلب ، ويطهره من الشوائب العالقة فيه .

وعن ابن أبي مليكة قال: جلسنا إلى عبد الله بن عمرو في الحِجر فقال: ((ابكوا فإن لم تجدوا بكاءً فتباكوا))[84] .

وقد كان النبي ﷺ شديد التأثر عند سماعه القرآن ، وذلك لعلمه بأهمية كلام الله تعالى ، وأن أمر القرآن لا يحتمل المزاح أو المرور العابر بلا تفكر . لذلك فبكاء النبي ﷺ من خشية الله تعالى _ وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر _ منهجٌ واضح وثابت في سيرته العطرة التي انعكست على سلوك أصحابه والتابعين .

وعن محمد بن فضالة الظفري _ رضي الله عنه_ : أن رسول الله ﷺ أتاهم في مسجد بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في مسجد بني ظفر اليوم ومعه عبد الله ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأناس من أصحابه ، فأمر رسول الله ﷺ قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من

---

(٨٣) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٩٢٧)برقم(٤٧٦٨).ومسلم(١/ ٥٥١)برقم (٨٠٠) .

(٨٤) رواه الحاكم (٤/ ٦٢٢) برقم (٨٧٢٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

كل أُمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ، فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه فقال : ((أي رب ، شهدتُ على من أنا بين ظهريه ، فكيف بمن لم أرَ ؟))(85) .

قال الحافظ في الفتح (٩/ ٩٩) : ((قال ابن بطال : إنما بكى ﷺ عند تلاوته هذه الآية لأنه مثَّل لنفسه أهوال يوم القيامة ، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء .اهـ. والذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته ، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم ، وعملهم قد لا يكون مستقيماً ، فقد يفضي إلى تعذيبهم ، والله أعلم)) اهـ .

وبكاء النبي ﷺ يدل على سعة علمه بأحوال الدنيا والآخرة ، وقلبه العطوف المشفق . وهذه النظرة النبوية الأبوية الحانية تشير إلى عمق المعاني الإنسانية في الشخصية النبوية المضادة للأنانية ، والمنطلقة نحو مساعدة الآخرين في تنفيذ مشروع خلاصهم وتخليصهم في الدنيا والآخرة . وهذا الارتباط الوثيق بين النبي القائد الأب وبين أمته يشيع جوَّ الاطمئنان في أوساط الجماعة المسلمة التي تزداد ثقةً بربها ونبيها ونفسها في ظل وجود مرجعية نبوية متصلة بالسماء . وكل هذه المؤشرات تعكس مدى الترابط الأسري في المجتمع الإيماني الدافع لبناء حضارة إنسانية سامية بُغية إعمار الأرض.وأيضاً لكي ينال المؤمنون السعادةَ السرمدية في الآخرة مكافأةً على إنجازاتهم الحاسمة.

*

وهذا المبحث جاء لتسليط الضوء ـ بشكل موجز ـ على العناوين الكبرى في حياة النبي ﷺ التي كان لها الأثر الأكبر في تشكيل شخصيته وتأهيله ليكون أعظم مخلوقات الله على الإطلاق . ونحن لا نقول هذا الكلام من باب اختراع الدعايات أو التقليل من شأن الأنبياء الآخرين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، بل نقوله لإعطاء كل ذي فضلٍ فضله. ولا يخفى أن الدنيا والآخرة مبنية على التفاضل في المستويات ، والتفاوت في الدرجات . فنعيم الجنة يتفاوت حسب كفاءة الشخص وإنجازاته ، وكذلك عذاب النار له مستويات حسب طبيعة الجرائم .

---

(٨٥) رواه الطبراني (١٩/ ٢٤٣) برقم (٥٤٦) . وحسَّنه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٥٤١) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٩) : ((رجاله ثقات)) .

ومن الطبيعي أن تختلف إمكانيات الناس وقدراتهم من حيث درجة الذكاء ، والقدرة على اتخاذ القرارات في المواطن الحرجة، ومدى تحملهم وصبرهم، وقوة أخلاقهم، وثباتهم عند الشدائد . وهذا ينطبق على الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام_ ، فظهر هنالك أولو العزم من الرسل لتميزهم عمن سواهم ، وكذلك هنالك الفروقات بين النبي والرسول ، لاختلاف طبيعة النبوة عن طبيعة الرسالة . إن الشخصية النبوية ستظل على مدار التاريخ هي المحور الذي تدور حوله الحضارة الإنسانية الراقية . فالمنهج المحمدي الذي أخرج العالم من المأزق الوجودي الخطر هو المشعل المضيء الذي فتح العقول على عوالم المحبة ، والسمو الأخلاقي ، وإعمار الأرض ، وإنشاء جيل إنساني متفوق ، وبناء حضارة خالدة تعتمد على الإيمان والحق والعدالة لا الابتزاز واضطهاد الآخرين ومنطق القوة والجبروت . ومهما اعترض طريقَ الدعوة من عقبات ، لا بد أن يظل الداعية مقاتِلاً حتى اللحظة الأخيرة ، لأن الحق منصور ، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، ومهما انتفخ الباطل فإن بذرة انكساره في داخله . لكن البعض قد يتعجل قطف الثمار قبل موعد حصادها ، ويريد النتائج آنيةً بسرعة دون انتظار. وهذا متعذر لأن طريق الدعوة شاق، ويحتاج إلى صبر شديد . أمَّا الذين يفتقدون إلى المقدرة على التحمل فسوف يميلون مع الرياح حيث مالت ، وينهارون أمام الصدمات الشرسة ، والأزمات الكبرى . وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا دعاةً حقيقيين . فطريقُ الدعوة وعرٌ شاق مليء بالأشواك لا الزهور. لكنَّ الداعية الناجح يُحوِّل هذه الأشواك إلى أزهار مفعمة بالأمل والحلم بمستقبل أفضل. إن الدعوةَ عملية تحويل نقاط الضعف إلى نقاط قوة.

ومن يطالع السيرة النبوية يدرك أن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة ، فهؤلاء العرب البدائيون رعيان الغنم في الجزيرة العربية الذين قضوا حياتهم في عزلة تامة ، ولا يعترف أحد بهم ، وليس لهم حضارة ينشرونها في العالم ، استطاعوا أن ينهضوا من قبورهم ، ويقودوا المسيرةَ العالمية بفضل وجود قيادة توجيهية استطاعت إدارة الصراع .

وهذا إن دل على شيء فيدل على أن الإنسان قادر على صناعة الأحداث التاريخية الحاسمة ، عندما يأخذ بالأسباب ، وتتوفر العوامل المساعدة لتحقيق الإنجازات . فلا ينبغي أن يشعر الفردُ بأن وجوده كعدمه ، لأن في داخله قوة مدهشة قادرة على إعادة رسم خارطة هذا الكوكب الغارق في الأزمات . وهذا الفصل الذي تحدَّثنا فيه عن الشخصية المحمَّدية المتفرِّدة ليس سيرةً نبوية بالتفاصيل التاريخية والأحداثِ الزمانية والمكانية، وإنما هي توضيح موجز لمعالم المجد النبوي . ووقوفٌ على زهرات فوَّاحة من هذه الحديقة العطرة .

ولا يخفى أن الشخصية النبوية بما لها من هَيْبة ، ومكانة عظمى ، وأثر مركزي في تغيير مسار كوكب الأرض ، لا يمكن الإلمام بكل جوانب تميُّزها وإبداعها . لكن هذا المبحث أعطى صورةً واضحة إلى حد بعيد لمعالم الحياة النبوية الشريفة بكل ما فيها من دروس وعِبَر ، واشتمل كذلك على توضيح العلاقات الاجتماعية وتشعباتها في المجتمع الإسلامي .

فالنبيُّ ﷺ شخصية متكاملة لا قصور فيها ولا ثغرات . ويمكن أن نذكر بعض جوانب حياته الشريفة ﷺ بشكل مختصر : _ فهو الزوجُ العطوف على نسائه ، الذي يحترم المرأةَ ، ولا ينظر إليها نظرة السَّيد إلى الأَمَة ، بل يُكرمها ويضعها في مكانتها اللائقة، ويراعي مشاعرها وتركيبها البيولوجي. فلا يُمارِس سُلطاتٍ ذكورية قمعية . وهو الأبُ الحاني على أُسرته يُوجِّهها نحو بر الأمان بحزم وحنان ومحبة ، فيحرص على تماسك البنيان الأُسري دون خلل أو ثغرات .

وهو المعلِّم الذي يمنح تلاميذه (الصحابة) العلمَ النافع ، ولا يكتم شيئاً مما أمره اللهُ تعالى بتبليغه . وكل ذلك بأسلوب جذاب يراعي الفروقاتِ الفردية بين أصحابه من ناحية القدرات العقلية والجسدية . وهو القائدُ العسكري الذي يتقدم الصفوفَ ، ولا يختبئ في غرفة العمليات ويترك جنودَه يموتون دفاعاً عنه . إنه مثال الشجاعة والإقدام والثبات عند الشدائد قولاً وفعلاً ، لا شعاراتٍ مفرغة من معناها . وكلما اقترب المرءُ من الشخصية النبوية المتفرِّدة ، ازداد حُبُّه لها ، وتعلَّق بها أكثر فأكثر . لأن الظمآن حينما يجد الماءَ فلا يَملك إلا أن يتمسك به بكل الوسائل ، لأنه الأمل والنجاة والخلاص ، وبدونه ستكون النهاية كارثية .

أمَّا أولئك الذين يُعادون النبيَّ ﷺ ، ويُعلِنون الحربَ على شريعته الخالدة، فهُم _ في حقيقة الأمر _ يُعادون اللهَ الخالق العظيم . وهذا الموقف السيئ _ الذي يَعكس انتكاسةً في الفِطرة الإنسانية وشذوذاً عن الطريق المستقيم _ مرجعه إلى الجهل والعناد والمعلومات المغلوطة التي تقلب الحقَّ باطلاً ، والباطل حقاً . كما أن الناس أعداء ما يَجهلون .

ومن أراد ان يرى النُّورَ الإلهي المتجسِّد في شخصية النبي محمد ﷺ ، فلا بد أن يُنقِّيَ قلبَه وباقي أعضائه من الدَّنس ، والشوائب ، والانحرافات العَقَدية ، وسوءِ الأخلاق . فالأعمى ليس بمقدوره رؤية الشمس ، مهما وصفنا له جمالَها ، وقوةَ نورها ، وأهميتها في الحياة .

الفصل الخامس

الدعوة إلى الله

تمهيد

إن الدعوة إلى الله تعالى بالأسلوب الطيب الجذاب هي طريق الأنبياء عبر كل المراحل الزمنية. فقد قاموا بتجذير الدعوة الإسلامية على أرض الواقع منهاجاً حياتياً لا محيد عنه . وذلك امتثالاً للأمر الإلهي بتبليغ الرسالة _ دون زيادة أو نقصان _ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ونشرِ تعاليم الإيمان والأخلاق الفاضلة ، واجتثاث القيم السلبية المعتمدة على عبادة العباد للعباد . وهنا تتجلى أهمية الدعوة وضرورتها المصيرية .

والدعوة دربٌ مستمر وبابٌ لا يمكن إغلاقه . والتقصيرُ في أدائها على أكمل وجه أمرٌ بالغ الخطورة ، ويدمِّر قيمَ الفرد والجماعة ، ويقضي على طموحات البشر في الحرية والتحرر من ثقل العناصر المادية الدنيوية .

فكلُّ فردٍ عليه أن يكون داعيةً بقدر ما يستطيع . فلا يُشترَط في الداعية أن يكون فقيهاً أو إماماً . فالمرءُ يتحدث فيما يَفهم ، أما الأمور التي لا يتقنها فلا يتحدث فيها . وقد صنع النبيُّ ﷺ هذا المنهج الدعوي المتماسك حينما قال : ((بَلِّغُوا عَنِّي ولو آية)) [البخاري] .

والدعوةُ لها أركان واضحة . فينبغي أن تكون باللغة التي يفهمها المخاطَبون دون الخوض في المسائل الصعبة على الفهم أو التي قد تثير الفتن . ويكون أسلوبُ الدعوة سلساً هادئاً جذاباً ، لا يقوم بالتنفير أو بعث القنوط في النفوس . فالخطابُ الدعوي ينبغي أن يتحلى بالوسطية لفظاً ومعنىً بلا إفراط أو تفريط .

والداعيةُ عليه أن يُنقِّيَ قلبَه من الرياء وحظوظِ النفس ، ويجعل النيةَ خالصةً لوجه الله تعالى ، ويدفع السيئةَ بالحسنة ، ويصبر على أذى الناس ، ويراعي الفروقات الفردية بينهم في المستوى الاجتماعي والفكري .

وعندئذ ستكون الدعوةُ مشروعاً حياتياً متواصلاً مبنياً على قواعد راسخة ، فتظهر النتائجُ باهرةً بلا فشل . ويظهر التأثير الإيجابي على السلوك الفردي والجماعي لما فيه مصلحة الجميع ، وسعادة البشرية .

والجدير بالذكر أن الدعوة لها جناحان : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبدونهما تفقد الدعوةُ شرعيتها ومعناها .

١ـ ضرورة الدعوة :

قال الله تعالى : ﴿ ولتكن مِنكم أُمَّةٌ يَدْعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر وأُولئك هم المفلحون ﴾[آل عمران : ١٠٤] .

إن الدعوة ليست مهنةً حكومية ذات دَوامٍ محدود . إنها مشروع كَوْني شامل لإنقاذ الذات والآخرين ، وصناعةِ مجتمع الإيمان والطمأنينة والفضائل . وهي تثبيت للإيجابيات وتعميمها في كل مناحي الحياة ، ونفي للسلبيات واجتثاثها من كل الجوانب الحياتية .

فلا بد من وجود الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكي يستقيم حالُ الإنسان ، ويصلح المجتمع بكل تفاصيله . فلا يمكن ترك الحبل على الغارب ، فعندئذ سوف تنهار القيمُ الأخلاقية في النفوس وأرضِ الواقع، فتصبح المفاسدُ نظاماً حياتياً للجميع ، وهذا هو السقوط الأخلاقي المريع ، ونهايةُ الحضارة الإنسانية .

و" مِن " في قوله تعالى : ﴿ مِنكم ﴾ اخْتُلِف في معناها على وجهَيْن : إنها لبيان الجنس ، والمعنى لتكونوا كلكم دعاة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والوجهُ الثاني : للتبعيض، ومعناه أن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ينبغي أن يكونوا عالِمين بما يأمرون به وما ينهون عنه ، وليس كلُّ الناس يملكون هذا العلمَ . وقد رجَّح القرطبي أنها للتبعيض ، وقال في تفسيره (٤/ ١٦٢) : ((فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية)) .

وفي صحيح مسلم (١/ ٦٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ : ((مَن رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، ومن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان)) .

وهذا أمرٌ نبوي جليل بتغيير المنكر . وهذا التغيير يكون باليد لمن يمتلك سُلطة التغيير كالحاكم وغيره ، وباللسان للعالِم بالحُكم الشرعي . والمرحلةُ الأخيرة تكون بالقلب وهذا أضعف الإيمان ، وهي أدنى المراتب . وهذا التصنيف المراحلي يشير إلى رفع الحرج عن الناس ، وعدم تحميلهم فوق طاقتهم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٢٢) : ((وأما قوله ﷺ " فليُغيِّره " فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة ، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة . وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدِّين)) اهـ .

فعلى المرء أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في حدود ما يَعلم . وحتى لو كان الشخصُ مقصِّراً في أداء الطاعات ، ومتلبِّساً بالمعاصي ، فعليه أن يأمر نفسَه وغيرَه بالمعروف ، وينهى

نفسَه وغيرَه عن المنكر . وهناك أشياء واضحة يعلم الجميعُ أنها منكر كترك الصلاة والصيام ، والكذب، والغش ... إلخ ، فهذه الأمور كل المسلمين هم علماء فيها . وهناك أمورٌ دقيقة لا يعلمها إلا العلماء فلا شأن للعوام فيها وعليهم أن يبتعدوا عنها . والمنكَر هو ما تم الإجماع على أنه منكَر ، أما الأمور الخلافية فلا إنكار فيها .

وعن حذيفة بن اليمان _ رضي الله عنه _ : أن النبي ﷺ قال : ((والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم))[1] .

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس ترفاً اجتماعياً ، أو رفاهيةً هامشية. إنهما منهجٌ إيماني متكامل تركه يؤدي إلى تفتيت الفرد نفسياً ومادياً ، وتدميرِ المجتمع باستئصال جهاز المناعة فيه ، والقضاء على منجزاته الحضارية عبر تجريدها من وسائل الحماية . وغيابُ هذا المنهج الدعوي يُعرِّض الإنسان والمجتمع للعقوبة الإلهية، ومحقِ البركة،وغيابِ التوفيق، وانتشارِ الرذيلة الاجتماعية، وتفشي العناصر السلبية التي لا تستثني أحداً ، ولا تُبقي ولا تَذَر . وهذا هو الاضمحلال الذي لا يُفرِّق بين الفرد والجماعة .

وقال الله تعالى : ﴿ لَوْلا ينهاهم الرَّبَّانِيُّون والأحبارُ عن قَوْلهم الإثْمَ وأكلهم السُّحْت لَبِئْسَ ما كانوا يَصنعون ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وفي هذه الآية توبيخٌ شديد للعلماء الذين تركوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ، واكتفوا بالمشاهَدة ، ولم يقوموا بزجر أصحاب المعاصي . ((ودلَّت الآيةُ على أن تارك النهي عن المنكر كمرتكب المنكر))[2] .

((وكان العلماء يقولون ما في القرآن آية أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ، ولا أخوف عليهم منها))[3].

فالعلماءُ ينبغي أن يكونوا في طليعة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر لعلمهم الشرعي ، وكَوْنهم أصحابَ مكانة اجتماعية ذات احترام ، وهم قدوةُ الآخرين في شتى الأزمنة والأمكنة .

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٦٨) برقم (٢١٦٩) وحسَّنه .

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٢٢٣) .

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٢٩٨). وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٥)، والدر المنثور (٣/ ١١٢).

وكما قال ابن المبارك ــ رحمه الله ــ :

وهل أفسد الدِّينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورُهبانها(4)

وعن أبي بكر الصِّديق ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهم اللهُ بعقاب منه))(5) .

فالناسُ إذا استمرأوا الظلمَ ، ولم يقوموا بمقاومة الظالم والتصدي له ، فهم مُعرَّضون للعقوبة الإلهية جزاءَ تقاعسهم ، وابتعادهم عن الدعوة المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فانتشار الظلم دون نكير أو مقاومة من شأنه إحالة الحياة إلى جحيم لا يطاق ، وتضييع كل المكتسبات الإنسانية ، وإبادة المعاني البشرية الراقية . مما يدفع باتجاه إفساد الدنيا ، وفقدانِ معنى إعمارها بالفضائل ، وهذا يعود سلباً على الإنسان ومحيطه ، فيضعف الإيمانُ في النفوس ، وتفقد الحياةُ معناها .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلا كان من القُرون مِن قَبْلكم أُولو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْن عن الفساد في الأرض إلا قليلاً مِمَّن أَنجَيْنا مِنهم ﴾[هود : ١١٦] .

فلم يكن في الأمم الخالية مَن ينهى عن الفساد لذلك شملهم العذاب ، وتمت إبادتهم بسبب تقصيرهم في الدعوة.لكنَّ قليلاً من تلك الأقوام الغابرة كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، (والنادر لا حُكم له). وهؤلاء مَنَّ اللهُ عليهم بالنجاة من العذاب لأنهم التزموا بالدعوة قولاً وفعلاً ، وقاموا بواجبهم الدَّعوي على أكمل وجه سائرين على خطى الأنبياء ــ عليهم السلام ــ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦١٠) : ((يقول تعالى فَهَلا وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض ، وقوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل ، لم يكونوا كثيراً ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته)) اهـ .

وقال الله تعالى :﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْن عن مُنكر فَعلوه لَبِئْسَ ما كانوا يَفعلون ﴾[المائدة : ٧٩].

---

(٤) تفسير القرطبي (٨/ ١١٠) .

(٥) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٤٦٧) وصحَّحه ، وابن حبان في صحيحه (١/ ٥٣٩) .

فهؤلاء اليهود كانوا لا ينهى بعضُهم بعضاً عن المنكَرات . أي إنهم تركوا الدعوة ، وتقاعسوا عن تبليغها . وهذا عملٌ بائس شرير قادهم إلى عواقب خطيرة كقسوة القلب ، وتفشي المعاصي والآثام دون نكير أو معارضة ، فاستحقوا بذلك غضب الله تعالى .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٥) : ((أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن مثل منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له ، أو لا ينتهون عنه ، من قولهم : تناهى عن الأمر وانتهى عنه ، إذا امتنع)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤٠٦): ((وذكر المفسرون في هذا المنكَر ثلاثة أقوال : أحدها صيد السمك يوم السبت ، والثاني أخذ الرشوة في الحُكم ، والثالث أكل الربا وأثمان الشحوم . وذِكْرُ المنكَر منكراً يدل على الإطلاق ويمنع هذا الحصر)) اهـ .

والآيةُ تشير إلى اشتراكهم في الفعل ، وقد تم توبيخهم على ترك النهي عن المنكَر . كما أن في الآية دليلاً على وجوب ترك المجرمين والابتعاد عنهم .

والمرءُ إذا قارف ذنباً فعليه أن يستتر ويختفي عن الأنظار ، ولا يجاهر بالمعصية . فالمجاهرةُ بالمعصية وانتشارها في المجتمع بلا مقاومة دليل على اشتراك الناس كلهم في الجريمة ، وهذا يجعل من المجتمع بيئةً موبوءة مُعرَّضة للغضب الإلهي .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((كل أُمتي مُعافى إلا المجاهِرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره اللهُ ، فيقول : يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره رَبُّه ، ويصبح يكشف سِتْرَ الله عنه))(6) .

وهؤلاء المجاهِرون يسردون حكاياتِ معاصيهم بلا ضرورة، فيهتكون سترَ الله تعالى ، ويقومون بفضح أنفسهم، وتقديم ذواتهم إلى الناس على أنهم عُصاة فسقة ، فيفقدون ثقتهم بأنفسهم ، ويفقد المجتمعُ ثقته بهم . والبعضُ يفتخر بالمعصية وما يترتب عليها من إثم ، فهو يراها من باب الرجولة أو الجرأة أو الذكاء . وهذا أعمى البصيرة ينبغي تحذيره وإرشاده إلى أن المعاصي عارٌ لا بطولة . وعلى الجانب الآخر نجد أن الملتزمين بالمنهج الدعوي في التصدي للمنكَرات يحصلون على النجاة من العذاب بسبب امتثالهم للأوامر الإلهية ، وثباتهم على طريق الأنبياء في الدعوة بلا كلل أو ملل .

---

(٦) متفق عليه.البخاري (٥/ ٢٢٥٤) برقم (٥٧٢١) ، ومسلم (٤/ ٢٢٩١) برقم (٢٩٩٠).

قال الله تعالى: ﴿ فلمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا به أَنجَيْنا الذين يَنْهَوْن عن السُّوء ﴾[الأعراف: ١٦٥].

فلمَّا ترك العُصاةُ نصحَ الناصحين القائمين بأمر الدعوة ، وأعرضوا عنه بالكلية ، استحقوا العذابَ. أما الذين قاموا بالدعوة وإسداء النصحِ والنهي عن السوء فقد أنجاهم اللهُ تعالى مكافأةً لهم على تمسكهم بالدعوة بغض النظر عن النتيجة .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١٠٠) : ((فلما تركت الطائفةُ التي اعتدت في السبت ما أمرها اللهُ به من ترك الاعتداء فيه ، وضَيَّعت ما وعظتها الطائفةُ الواعظة وذكَّرتها به من تحذيرها عقوبة الله على معصيتها ، فتقدمت على استحلال ما حرَّم اللهُ عليها ، أنجى الله الذين ينهون منهم عن (السوء) ، يعني عن معصية الله واستحلال حرمه)) اهـ .

وعلى المرء أن يقوم بواجب الدعوة في كل الأحوال ، ومع كل أجناس البشر ، بالحكمة والموعظة الحسنة. فعلى الإنسان أن يعمل جاهداً في مجال الدعوة سواءٌ قبله الناسُ أم رفضوه ، فهو يؤدي عبادةً لله تعالى، ولا ينتظر من الآخرين مديحاً أو شكراً، ولا ينتظر كذلك نتائج على الأرض. فالدعوةُ بحد ذاتها هي النجاح بغض النظر عن قبول الناس لها أو رفضهم . فالإنسانُ يقول كلمته بإخلاص ويمضي ضمن منهجية دعوية منضبطة بالكتاب والسنة . واللهُ تعالى يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.ويبقى المنهجُ الإلهي في بيان عموم الدعوة: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَفَعَت الذِّكرى ﴾[الأعلى : ٩].

٢ــ خطورةُ التقصير في الدعوة :

قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ اللهُ مِيثاقَ الذين أُوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تَكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشْتَرَوْا به ثمناً قليلاً فَبِئْسَ ما يَشترون ﴾[آل عمران : ١٨٧] .

وهذه الآية تشير إلى ضرورة نشر العلم الصالح والأخذ بأيدي الناس إلى الهداية ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم . وفيها بيانٌ لخطورة كتمان العلم ، وحجبه عن الآخرين بسبب منافع دنيوية دنيئة . فعلى العلماء أن يكونوا حُرَّاسَ الشريعة ، وينشروها بدون زيادة أو نقصان ، ويُعلِّموا الناسَ تعاليم الدِّين ، والأخلاقَ الفاضلة ، والسلوكياتِ الاجتماعية الطيبة . وكل ذلك وفق المنهج الإلهي في الدعوة والتبليغ . وهذا يتم بالسير على خطى الأنبياء أعظمِ الدُّعاةِ، والاقتداء بأسلوبهم المعصوم في البيان وإرشادِ الآخرين .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٩) : ((هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ اللهُ عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن يُنَوِّهوا بذكره في الناس ليكونوا

على أهبة من أمره ، فإذا أرسله اللهُ تابَعوه ، فكتموا ذلك وتعوَّضوا عما وُعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم . وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسالكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئاً)) اهـ .

وقد قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : ((لولا ما أَخذ اللهُ على أهل الكتاب ما حَدَّثْتُكم بشيء ، ثم تلا :﴿ وإذ أخذ اللهُ مِيثاقَ الذين أُوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تَكتمونه ﴾))[7] .

وهنا تتجلى أهمية نشر العلم وعدم كتمانه . فأبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أكثر الصحابة روايةً للحديث . وقد بَيَّن سبب كثرة حديثه ، فهو يريد نشر كل ما سمعه من النبي ﷺ لئلا يكون من كاتمي العلم الذين ذَمَّهم اللهُ تعالى ، وفضحهم بسبب خيانتهم للأمانة ، وعدم التزامهم بالميثاق القاضي ببيان الشرع الإلهي وتبليغه للناس. مما يشير إلى الأهمية البالغة لنشر العلم ، وذلك لإخراج الخلائق من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن متاهاتِ الكفر إلى واحة الإيمان . وهنا تكمن أهمية العلم كمنهج خلاص كَوْني .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ : أن رسول الله ﷺ قال : ((مَن كتم علماً ألجمه اللهُ يوم القيامة بلجام من نار))[8] .

فهذا التحذيرُ الشديد يعكس العاقبة الوخيمة لكاتم العلم . فعلى المرء أن يخرج من دائرة العقوبة وذلك بتبني الدعوة مشروعياً أُممياً طوال حياته ، حيث النشر المنهجي للعلم النافع ، ومساعدة الآخرين بإرشادهم إلى إعمال عقولهم ، وتنظيفها من شوائب الجهل ، لكي تستوعب نورَ العلم ، وتتلقى ضوءَ الدعوة الصافية بلا إفراط أو تفريط . وتظل الكلمةُ النبراس في هذا المدى : ((زكاةُ العلم نشرُه)) .

٣ـ الدعوة بلسان القوم وما يفهمونه :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرآناً أعجمياً لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه ﴾[فُصِّلت : ٤٤] .

---

(٧)رواه الحاكم في المستدرك(١/ ١٩٠)برقم(٣٦٦) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((لا أعلم له عِلة)).

(٨) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٨٢) برقم (٣٤٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فالقرآنُ الكريم لو كان بلغة العجم لقال المشركون: لولا فُصِّلت آياته وتم توضيحها ، ونزل بلغتنا كي نفهمه .

وهذه الآية توضِّح أهمية الدعوة باللغة التي يفهمها الناس لكي يستوعبوا الأحكامَ والشرائعَ ، ويقفوا على معنى الكلام ودلالاته ، ويقوموا بتطبيق الأحكام على أرض الواقع . أما الدعوة باللغة التي لا يتقنها الناس فهي مضيعة للوقت بسبب انعدام وسيلة الحوار والتخاطب ، وغياب معنى استقبال الكلام وإرساله .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٠) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرآناً أعجمياً ﴾ أي بلغة غير العرب ، ﴿ لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه ﴾ أي بُيِّنت بلغتنا ، فإننا عرب لا نفهم الأعجمية ، فبيَّن أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز ، إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً ، وإذا عجزوا عن معارضته كان من أدل الدليل على أنه من عند الله ، ولو كان بلسان العجم لقالوا لا علم لنا بهذا اللسان)) اهـ .

٤_ الأسلوب الطيب :

قال الله تعالى : ﴿ وقُل لعبادي يقولوا التي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء : ٥٣] .

ومن أهم أركان الدعوة إيصالها بأسلوب محبَّب للنفس الإنسانية يعتمد على البشارة ، ويوازن بين الترغيب والترهيب ، ويحترم عقولَ الناس ومكانتهم الاجتماعية ، ويُنزلهم في مقاماتهم اللائقة . وهذا الأسلوب ينبغي أن يشتمل على العلم الشرعي ، والحجَّةِ الناصعة ، واللغةِ المستقيمة الهادئة ، ويبتعد عن الصراخ والضجيج وتنفير الناس وبعثِ اليأس فيهم . فالأسلوبُ الخشن حينما يحمل الحقَّ ، فإن الناس تبتعد عن ذلك الحق من أجل أداة توصيله السيئة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٦ و٤٧) عن الآية : ((في سبب نزولها قولان . أحدهما : أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكة بالقول والفعل ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : أن رَجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب فَهَمَّ به عمر _ رضي الله عنه _ فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل)) اهـ .

كما أن تذكير الناس بالنعم الإلهية عليهم من شأنه جذبهم إلى محبة الخالق تعالى ، والالتزام بشريعته ، لأن النفوس مجبولة على محبة من أحسن إليها .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠٤) : عن عائشة _ رضي الله عنها _ : عن النبي ﷺ قال : ((إن الرِّفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا يُنْزَع من شيء إلا شانه)) .

فالرفقُ _الذي هو ضد العنف_ عندما ينتشر في الأشياء، فإن هذه الأشياء تكسب زينةً وبهاء، وتصل إلى النفوس ، وتتحقق المطالب دون عناء . أما غيابُ الرفق عن الأمور ، فسببٌ رئيس في جعل الأمور قبيحةً بعيدة عن القبول . فأكبر ظلم يلحق بالمعاني السامية أن توضع في قوالب قبيحة.

٥_ دفع السيئة بالحسنة :

قال الله تعالى : ﴿ ادْفَعْ بالتي هِيَ أحسنُ السَّيئةَ ﴾ [المؤمنون : ٩٦] .

وهذا أمرٌ إلهي عظيم للنبي ﷺ وأُمَّته بأن يقابل الإساءةَ بالإحسان، وأن يتحلى بمكارم الأخلاق لجذب قلوب الناس ، وتحويل العداوة إلى صداقة ، ونقل الأعداء من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان فيصيرون حملةً للرسالة ، ودعاةً للفضيلة ، ومناصِرين للدعوة .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٤١) : ((ادفع يا محمد بالْخَلَّة _ الصفة _ التي هي أحسن وذلك للإغضاء والصفح عن جهلة المشركين ، والصبر على أذاهم ، وذلك أمره إياه قبل أمره بحربهم . وعنى بالسيئة : أذى المشركين إياه ، وتكذيبهم له فيما أتاهم به من عند الله)) اهـ .

٦_ الامتناع عن إثارة الخصم :

قال الله تعالى:﴿ولا تَسُبُّوا الذين يَدْعون من دون الله فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بغير عِلْم ﴾[الأنعام: ١٠٨].

أي: لا تشتموا آلهةَ المشركين وأوثانهم، فيشتموا اللهَ تعالى جهلاً وظلماً وحميةً للباطل واعتداءً على مقام الله العظيم .

وهذه الآيةُ منهاج متكامل في منع إثارة الخصم واستفزازه ، وحشره في الزاوية ، حتى لو كان في ذلك مصلحة إلا أنه ينتج عنه مفسدة أكبر وأشد خطورة . وهنا تتجلى حكمة سد الذرائع الموصلة إلى المفاسد الكبيرة . و((قال العلماء : حُكمها _ أي الآية _ باق في هذه الأمة على كل حال ، فمتى كان الكافر في مَنَعة ، وخِيف أن يَسُبَّ الإسلامَ ، أو النبيَّ _ عليه السلام _ ، أو اللهَ _ عز وجل _ ، فلا يحل لمسلم أن يَسُبَّ صلبانهم ، ولا دينهم ، ولا كنائسهم ، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك ، لأنه بمنزلة البعث على المعصية))(9) .

وفي الدر المنثور (٣/ ٣٣٩) : ((عن قتادة قال: كان المسلمون يَسُبُّون أصنامَ الكفار ، فيسبُّ الكفارُ اللهَ ، فأنزل اللهُ : ﴿ ولا تَسُبُّوا الذين يَدْعون من دون الله ﴾)) اهـ .

---

(٩) تفسير القرطبي (٧/ ٥٥) .

فعلى المرء أن ينظر وراء الأمور من حيث الموازنة بين المصالح والمفاسد ، ولا يغرق في اللحظة الآنية بحماس وتسرُّع دون معرفة عواقب الأمور . فقبل فتح الباب ينبغي التفكير فيما سيأتي منه . فلا مفر من ترك المصلحة إذا كان سينتج عنها مفسدة أكبر .

٧_ لا غُلُو في الدِّين :

قال الله تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغْلُوا في دِينكم ﴾[النِّساء : ١٧١] .

فالله تعالى يأمر أهلَ الكتاب بعدم الغُلُو في الدِّين، أي عدم مجاوزة الحد، والتطرف ، والانحراف عن الطريق المستقيم . فالغلو طريقُ الضلال والابتعاد عن جادة الصواب ، وله تأثيرات سلبية على الحياة والأفكار والإنسان .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٣٧٢) : ((لا تجاوِزوا الحق في دينكم فتفرِّطوا فيه ، ولا تقولوا في عيسى غير الحق ، فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله قول منكم على الله غير الحق ، لأن الله لم يتخذ ولداً ، فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابناً)) اهـ .

وقد غلا اليهودُ في المسيح ﷺ حتى قذفوا أُمَّه السيدةَ مريم _ عليها السلام _ ، فرموها بالزنا . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِم وَقَوْلِهِم عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾[النِّساء:١٥٦].

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أنهم رموها بالزنا ، وكذلك قال السدي وجبير ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو ظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظائم وجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم وهي حائض ، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة)) اهـ .

أما النصارى فقد غرقوا في التطرف والغُلُو عكس اتجاه اليهود ، فقد اعتبروا المسيح ﷺ إلهاً. وكلا الأمرين تطرُّف وغُلُو من جهتَيْن متعاكستَيْن. فالفضيلةُ هي المنزلة الوسط بين خُلقَيْن ذميمَيْن.

وصدق الشاعر إذ يقول :

ولا تَغْلُ في شيء من الأمر واقتصدْ كلا طَرَفي قصد الأمور ذميم

٨_ الاضطهاد بسبب العقيدة لا يجوز :

إن الذين يفتقدون إلى العقيدة الصحيحة ، ولا يملكون الحجَّةَ الساطعة ، ولا يقدرون على المناقشة والمحاجَجة بالأدلة والبراهين سوف يلجأون إلى العنف اللفظي والجسدي ضد المخالِفين ، والتنكيل بهم، والتضييق عليهم بشتى الوسائل، في محاولة لدفعهم إلى التخلي عن عقيدتهم بالإكراه.

ولا يمكن للإيمان والإكراه أن يجتمعا في قلب شخص ما . فالإيمان قولٌ وعملٌ ، ينبع من إرادة داخلية ، وقبول ذاتي ، ولا سُلطة لمخلوق _ مهما بلغ من النفوذ والمكانة _ على قلوب الناس . والإيمان مقرُّه القلب .

قال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم وَلَتَسْمَعُنَّ من الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلكم ومن الذين أَشركوا أذىً كثيراً ﴾[آل عمران : ١٨٦] .

هذا الخطابُ الإلهي الجليل للنبي ﷺ وأُمَّته بأنه سوف يصيبهم بلاء واختبار في أموالهم وأنفسهم ((بالمصائب والإنفاقات الواجبة وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال ، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب والقتل في سبيل الله))[10] .

كما أن المؤمنين سيتعرَّضون من قبل اليهود والنصارى والمشركين لعنفٍ لفظي يتضمن تكذيبَ الله تعالى ، والطعنَ في الإسلام والنبيﷺ والمؤمنين . وهذا هو منهج الكافرين في اضطهاد المؤمنين لإيمانهم بالله تعالى ، وثباتهم على الحق . وأهلُ الكفر يقومون بهذا في محاولة يائسة منهم لتشكيك المؤمنين بدينهم ، والسعي إلى ارتدادهم عن الإسلام .

وفي الدر المنثور (٢/ ٣٩٦) : ((عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر بيت المدراس ، فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم . فقال أبو بكر : ويلكَ يا فنحاص ! اتَّقِ الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا_كما يزعم صاحبكم _ ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الرِّبا . فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربةً شديدة ، وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكَ لضربتُ عنقكَ يا عدو الله، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد ، انظر ما صنع صاحبك بي ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : " ما حملك على ما صنعت ؟ " ، قال : يا رسول الله ، قال قولاً عظيماً : يزعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال فضربتُ وجهه، فجحد فنحاص ، فقال : ما قلتُ ذلك. فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقاً لأبي بكر : ﴿ لقد سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ ﴾ الآية .. [آل عمران : ١٨١] . ونزل في أبي بكر

---

(١٠) فتح القدير للشوكاني (١/ ٦١٤) .

وما بلغه في ذلك من الغضب : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ من الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلكم ومن الذين أَشركوا أذىً كثيراً ﴾ [11])) .

وقال الله تعالى : ﴿ الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حَق إلا أن يقولوا رَبُّنا اللهُ ﴾[الحَج: ٤٠].

فالاضطهاد الذي تعرَّض له المسلمون بسبب إيمانهم بالله تعالى ، وتمسكهم بالعقيدة وعدم الانحراف عنها، هو اضطهاد مبرمَج تم التخطيط له مسبقاً على أيدي المشركين لكي يَرُدُّوا المسلمين عن إسلامهم _ حسب رؤية المشروع الجاهلي الوثني _ . فالمشركون لا عقيدة صحيحة تحكمهم وتردعهم عن الباطل ، لذلك يسعون _ بكل جهدهم _ إلى إرهاب المؤمنين بشتى الوسائل . فالمشركون قد أخرجوا المسلمين من ديارهم في مكة للضغط عليهم ، وإذلالهم ، وثنيهم عن الدعوة الإسلامية . وإخراجُ الإنسان من وطنه _ بشكل قسري _ مثل قتله . فهذا يُسبِّب له ألماً نفسياً بالغاً ، وجرحاً عميقاً في ذاته ، وهذا ما كان يطمح المشركون إليه من أجل إخضاع المسلمين لإرادتهم وردِّهم إلى الكفر، لكن الثبات على العقيدة كان السمة المميزة للمسلمين الذين لم يتركوا الدعوةَ الإسلامية في السراء ولا الضراء رغم الضغوطات الهائلة عليهم .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٦٢) : ((وعنى بالمخرَجين من دورهم : المؤمنين الذين أخرجهم كفار قريش من مكة ، وكان إخراجهم إياهم من دورهم وتعذيبهم بعضهم على الإيمان بالله ورسوله ، وسبهم بعضهم بألسنتهم ، ووعيدهم إياهم ، حتى اضطروهم إلى الخروج عنهم، وكان فعلهم ذلك بهم بغير حق لأنهم كانوا على باطل ، والمؤمنون على الحق)) اهـ .

٩_ عدم التَّعصب :

إن الدعوة الإسلامية منهاجٌ إنساني عقلاني متكامل ، لا مكان فيه للإكراه والتعصب والتسليم الأعمى . وهذا المنهاج قائم على الشريعة الدينية ، ويحتوي على الحجج والبراهين ، ويجيب عن أسئلة الناس بصدر رحب ، فيزيل الشكوكَ ، ويُثبِّت مكانها اليقين . لا يقمع الآخرين ، ولا يجبرهم على اعتناق الإسلام بالسيف ، فالدِّين هو تسليمٌ قلبي ، والسيفُ لا يمكن أن يصل إلى القلوب .

وقد امتاز المسلمون بطرح التعصب جانباً ، واتباع الحق أيما وُجِد ، فالحكمةُ ضالة المؤمن أنَّا وجدها فهو أحق بها ، وينبغي أخذ الحكمة لا يضرُّكَ من أي وعاء خَرجتْ .

---

(١١) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣١) : ((وروى ابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن عن ابن عباس أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر وبين فنحاص اليهودي)) اهـ .

وإننا لنجد المنهج القرآني واضحاً في اعتناق الحق ورفض التعصب: ﴿ وإنَّا أو إيَّاكم لعلى هُدىً أو في ضَلالٍ مُبين ﴾ [سَبأ : ٢٤] .

والمؤمنون يعلمون أنهم أصحاب الإيمان والحق ، وأنهم على الهدى ، وغيرهم على الضلال. وهذا الأسلوب اللغوي في المحاجَجة ﴿ وإنَّا أو إيَّاكم ﴾ يشير إلى المسامَحة ، وتلطيف الأجواء ، وجذب قلوب الخصوم ، لا أن المؤمنين أصحاب شك أو عدم إيمان . وهذا من الأدب في المناظرة ، وحسنِ التخاطب والمحاوَرة . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٩) : ((ليس هذا على طريق الشك ، ولكن على جهة الإنصاف في الحِجاج ، كما يقول القائل للآخر : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق ، وصاحبه كاذب)) اهـ .

فهناك فريقٌ واحد على الحق ، والآخر على الباطل ، فمن المحال أن يكون الطرفان على الحق . فأحدُ الفريقَيْن مهتدٍ، والآخر ضال. والمسلمون هم على الحق ، فقد قدَّموا البراهين النقلية والعقلية على التوحيد ، وأقاموا الحجَّةَ على المشركين الذين عجزوا عن تقديم أي دليل يشير إلى صحة عقيدتهم الوثنية .

وعلى الجانب الآخر نجد تعصبَ الكافرين، وعنادهم، واعتناقهم للباطل بدون حُجَّة أو برهان. وقد ذكر اللهُ تعالى قولَهم : ﴿ ولا تؤمنوا إلا لِمَن تَبِعَ دِينكم ﴾[آل عمران : ٧٣] .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٦) : ((أي لا تطمئنوا أو تظهروا سِرَّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم)) اهـ .

وفي هذه الآية توضيح بليغ لتعصب الكافرين ، واتباعهم لأهوائهم ومصالحهم الشخصية ، وانحرافهم عن طريق الحق والبحث عن الحقيقة . فالمتعصِّب هو إنسان فاقدٌ لبوصلة الإنصاف ، يتبع هواه بغير علم ، ويترك عقلَه جانباً . فلو كان باحثاً _ بجدية _ عن الحقيقة لبذل في سبيل تحصيلها الغالي والنفيس ، وأخذها بغض النظر عن مصدرها . لكنَّ ضغوطات الأهواء والمنافع الذاتية والنفوذ والمكاسب الدنيوية الدنيئة أدَّت إلى حجب نور الحق عن عقل ذلك الإنسان، تماماً كالستارة التي تمنع وصول ضوء الشمس إلى الغرفة.

والقاعدةُ الذهبية في هذا السياق هي : اعرف الحقَّ تعرف رجالَه . فالرجالُ يُعرَفون بالحق ، وليس العكس . وهذا يطرح التعصبَ جانباً . كما أن التعصب يأخذ أشكالاً متعددة مثل التعصب للمذهب ، والتعصب للقبيلة ، والتعصب للآباء ، والتعصب للرأي ... إلخ . وهو بالتأكيد صفةٌ جاهلية ، تتفشى في البيئات الجاهلة المفتقدة إلى قيمة العلم ، وسُمُو الحق .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٧٦) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((... ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّة ، يغضب لعُصبة ، أو يدعو إلى عُصبة ، أو ينصر عُصبة ، فقُتِل ، فقتلةٌ جاهلية)) .

فهذا المنضوي تحت راية عمياء ، إنما خضع لها لأنه أعمى تحرِّكه الأهواء والمنافع الذاتية والعصبية القبلية . فهو يقاتل لشهوة نفسه وغضبه ، ونزولاً عن رأي قبيلته وتعصباً لها دون تمييز الحق من الباطل . فهذا إن قُتل فقتلةٌ جاهلية لا نصيب للإسلام فيها ، لأنها لم تستند إلى الإخلاص والسير وفق السُّنة النبوية الشريفة .

فينبغي على المرء أن يُوطِّن نفسَه على الخضوع للحق ، وأن يتقبَّله بكل صدر رحب بغض النظر عن مصدره لئلا يكون من الذين تأخذهم العِزَّةُ بالإثم فيتمسكون بالباطل تبعاً للهوى ، وحفظاً لمكانتهم أمام الناس. فاتباعُ الحق هو الشرف الأسمى ، والسعي وراء الحقيقة في كل الأزمنة والأمكنة يدل على رجاحة عقل الإنسان ومكانته السامية . كما أن الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل ، والمراوغةِ ، ومحاولةِ الالتفاف على الحق هروباً منه .

قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٥٤) : ((والمتعصِّب وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأُذنه عن سماع الحق صَمَّاء ، يدفع الحقَّ وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلةً منه وجهلاً بما أوجبه اللهُ عليه من النظر الصحيح،وتلقي ما جاء به الكتاب والسُّنة بالإذعان والتسليم)) اهـ .

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

إن الدعوة الإسلامية ليست فعلاً ارتجالياً حماسياً على غير هدى . ولا تكفي النيةُ الصالحة وَحْدَها في صناعة مشروع دعوي متماسك . فالنيةُ الصالحة لا تُصلِح العملَ الفاسد . وكما يقال إن الطريق إلى الجحيم مُعبَّد بالنوايا الحسنة ! .

إذن ، لا بد من وجود هدف تنطلق منه الدعوة ، ووجود مسار مستقيم لكي تسير عليه الدعوة . فيتوجب معرفة القواعد الشرعية التي تُوضِّح ماهيةَ الدعوة . وعلى الداعية أن يدرس طبيعةَ الناس واستعدادهم النَّفسي لتقبل الكلام الإيماني ، ويدرس _ كذلك _ حركةَ التاريخ والتغيرات المجتمعية والاختلافات البشرية ، كي تكون الدعوةُ أشد تأثيراً في النفوس ، وليس كلاماً في الهواء يملأ المجالس دون نتائج ملموسة .

الفصل السادس

العمل

تمهيد

إن العمل قيمة إنسانية نبيلة مرتبطة بالكرامة البشرية ، والجدوى الوجودية للفرد في الحياة . وقد أعلى الإسلامُ من شأن العمل ، وأمر بإتقانه ، لما في ذلك من انتشار الصلاح والإصلاح في المجتمع . فجاءت الدعوة إلى العمل الدؤوب في نصوص شرعية كثيرة جداً .

ومن الملاحَظ في السياق القرآني أن هناك ترابطاً تلازمياً بين الإيمان وعمل الصالحات في آيات عديدة، لأن الإيمان قولٌ وعمل، لا يُقبَل أحدهما بدون الآخر. كما أن العمل على قدر الاستطاعة، فالشرعُ الحنيف لم يُكلِّف الناسَ بما لا يُطيقون ، فقد جاء لرفع الحرج عنهم ، وتوزيع المسؤوليات بعدالة ، فكلُّ إنسان يتحمل نتيجة أعماله الشخصية ، ويكون الجزاءُ من جنس العمل بلا ظلم .

ولم تقم الشريعةُ بالحض على العمل الصالح فحسب ، بل أمرت بالمسارعة في أدائه بلا إفراط ولا تفريط ، وهذا هو المنهجي الإيماني الوسطي بين الغلو والتقصير ، والمشتمل على تطابق القول مع العمل والأخلاقِ الطيبة وحسنِ السلوك .

ومن جهة أخرى جاء التحذير من العمل الفاسد الذي يبث الشرورَ في المجتمع ، فيُعكِّر صفوَ الحياة، ويحيل المعنى البشري إلى أضداد متصارعة تحول دون تصالح الفرد مع ذاته ومحيطه. فخطورةُ العمل الطالح لا تقتصر على الفرد وحده ، بل تشمل كلَّ المكونات الاجتماعية بلا استثناء . وهذا يؤثر سلباً على تماسك المجتمع وأهدافه السامية المنشودة .

إن تعزيز العمل الصالح وتفعيل آلياته يساهمان في تطهير المجتمع من أمراضه الروحية والمادية ، فتغدو الجماعة البشرية خليةَ نحل دؤوب تعمل على نهضة الإنسان وتخليصه من أزماته الوجودية، وصناعة مجتمع الطهارة والسلام والتنمية .

ومن خلال هذا المنظور تتضح أهمية العمل كقاعدة أساسية تدفع الطموحَ البشري نحو التحرر من مأزق الحياة الاستهلاكية ، وتدفع الفكر الإنساني نحو تحرير ذاته من الوهم . والتحررُ والتحرير هما جناحا العمل الدؤوب الرامي إلى نشر الخير واستئصالِ الفساد .

***

١ـ الدعوة إلى العمل :

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرضَ ذَلولاً فامشوا في مناكبها ﴾[الْمُلْك : ١٥] .

يُذكِّر اللهُ تعالى عبادَه بنعمه الجليلة ، فقد جعل لهم الأرضَ سهلةً ليِّنة، وأمرهم بالعمل الدؤوب المفعم بالحيوية والنشاط . وأمرُ المشي في مناكب الأرض يعني ((فسافروا حيث شِئتم من أقطارها وتَردَّدوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات))[1].

فالأمر الإلهي﴿ فامشوا ﴾ دليلٌ ساطع على حتمية العمل النافع ، وضرورة السعي لطلب الرزق والتمتع بملذات الدنيا بالوسائل المشروعة .

قال القرطبي في تفسيره (١٨/ ١٨٨): ((﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ هو أمر إباحة، وفيه إظهار الامتنان.وقيل:هو خبر بلفظ الأمر، أي لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها))اهـ.

والعمل الجاد المخلِص ، والسعي في طلب الرزق والأخذ بالأسباب ، والاهتمام بالمشاريع التجارية وتحقيق الأرباح ، وإعمار الأرض ، وإصلاح الإنسان . كل هذا من صميم الشريعة الإسلامية ، ولا يتعارض مع قيم التوكُّل على الله تعالى والزهد وحب الآخرة .

فعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لو أنكم كنتم تَوَكَّلون على الله حَقَّ تَوَكُّله لرُزِقْتم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً))[2] .

وقد ذكر الحديثُ أن الطير تغدو جِياعاً وتروح شِباعاً، إي إنها تتحرك بدأب في طلب الرزق ، وهذا من الأخذ بالأسباب ولا يُنافي التوكل على الله تعالى . فالطيرُ تدرك أن عليها العمل جاهدةً لتحصيل رزقها ، وهذه دعوة للعمل ، حريٌّ بالإنسان العاقل أن يأخذ العِبر منها .

وقد كان الأنبياءُ سادةُ البشرية أصحابَ أعمال ومهن شريفة يحصلون على قوت يومهم منها، ولا يجلسون تحت الصدقات ، أو ينتظرون مساعدة أتباعهم المؤمنين بهم ، أو يَقبضون ثمناً للدعوة يبتزون به الناس .

ففي صحيح البخاري (٢/ ٧٨٩) : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : ((ما بعث اللهُ نبياً إلا رعى الغنمَ)) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٠) .

(٢) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٧٣) برقم (٢٣٤٤) وقال : ((حديث حسن صحيح)) ، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٩) برقم (٧٣٠) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٤) وصحَّحه .

وهذه مهنةٌ شريفة لا تُنقِص من قَدْر صاحبها . فهذا العملُ الدؤوب المتمثل في رعي الغنم ، والذي ارتضاه اللهُ تعالى لأنبيائه ــ عليهم الصلاة والسلام ــ يشير إلى أهمية العمل في تحقيق مفهوم الخلافة في الأرض ، وأن كلَّ عملٍ شريف لا يُنزِل من مكانة صاحبه مهما كان في عيون الناس صغيراً أو وضيعاً، بل على العكس. إنه يعطي مثالاً رائعاً على عُلُو الهمة ، وسُمُو الرُّتبة ، والتواضع الحقيقي لا المصطنَع ، والفاعلية الاقتصادية ، والحراك الاجتماعي .

وقد ثبت في صحيح مسلم (٤/ ١٨٤٧) أن زكريا ﷺ كان نجاراً . وفي هذا فضيلةٌ له ، فقد كان صانعاً محترِفاً يعمل في مهنة شريفة كالنجارة ، ويأكل من كسب يده .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٧٣٠) : أن رسول الله ﷺ قال : ((ما أكل أَحدٌ طعاماً قَط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود ــ عليه السلام ــ كان يأكل من عمل يده)) .

وهذه دعوة صريحة للعمل ، وعدم انتظار مساعدة الناس وشفقتهم . مما يدل إلى أن الإسلام دين شامل لكل مناحي الحياة ، ولا يمكن حصره في الكتب على الرفوف . والدِّينُ ليس كلاماً نظرياً في الهواء ، إنه عملٌ بالعلم ، لا مكان فيه للكسل والتواكل .

وقال الله تعالى : ﴿ وأن لَيْسَ للإنسان إلا ما سعى ﴾[النجم : ٣٩][(3)] .

---

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢٩) : ((ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة ــ يعني قراءة القرآن ــ لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أُمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنَص ولا إيماء ، ولم يُنقَل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم . ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يُقتصر فيه على النصوص ، ولا يُتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما)) اهـ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٩٠) : ((وأما قراءة القرآن فالمشهور من مذهب الشافعي أنه لا يصل ثوابها إلى الميت . وقال بعض أصحابه يصل ثوابها إلى الميت، وذهب جماعات من العلماء إلى أنه يصل إلى الميت ثواب جميع العبادات من الصلاة والصوم والقراءة وغير ذلك)) اهـ . قلتُ : وإهداء ثواب قراءة القرآن للميت مسألة فقهية خلافية ، لكنَّ المسلمين يقومون بها في كل العصور بلا نكير فصارت أمراً إجماعياً . اهـ . وقال السيد سابق في فقه السُّنة (١/ ٣٠٩) : ((فالاختيار أن يقول القارئُ بعد فراغه : اللهم أوصل مثل ثواب ما قرأتُه إلى فلان)) .

فالإنسانُ لا يُجازَى إلا بعمله، صالحاً كان أو طالحاً . فالمرءُ لا يحمل آثامَ الآخرين ، وكذلك ليس له من الحسنات إلا ما كسبها بنفسه . وهذه دعوة عظيمة للعمل ما دام هناك فسحة في هذه الحياة الدنيا . فالمرءُ إن لم يساعد نفسَه فلن يساعده أحد ، لذلك ينبغي عليه أن يستغل وقته في الإكثار من عمل الصالحات لكي ينجوَ بنفسه في الدَّارَيْن .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٢٥٥): عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال : ((إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ، إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) .

فحينما يغادر الإنسانُ هذه الحياة فإن صحيفته تُطوَى ، فلا يعود قادراً على العمل وفعل الخيرات وكسب الحسنات . فينقطع عملُه ، ولا يستفيد بعد موته إلا من هذه الأمور الثلاثة لكَوْنها من كَسْبه ، وقد كان سبباً فيها . فالصدقةُ الجارية وهي الوقف قد قام بتنفيذها في حياته الدنيا فيلحق به أجرُها بعد موته ، وكذلك العلم النافع الذي نشره وسعى في تعليمه للآخرين ، وأيضاً الولد الصالح الذي أنجبه وربَّاه أحسن تربية ليخدم دينَه وأُمَّته .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٨٥) : ((قال العلماء : معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته ، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها ، فإن الولد من كسبه ، وكذلك العلم الذي خلَّفه من تعليم أو تصنيف ، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف. وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح ...وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظيم ثوابه، وبيان فضيلة العلم، والحث على الاستكثار منه، والترغيب في توريثه بالتعليم والتصنيف والإيضاح وأنه ينبغي أن يختار من العلوم الأنفع فالأنفع ، وفيه أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت ، وكذلك الصدقة وهما مُجمَع عليهما)) اهـ .

٢ـ التكليف بالعمل على قَدْر الاستطاعة :

قال الله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعها ﴾[البقرة : ٢٨٦] .

فاللهُ تعالى لا يُحمِّل الإنسانَ فوق طاقته ، ولا يُكلِّفه بما لا يُطيق . فكل التكاليف الشرعية هي في متناول اليد، أي إن الإنسان قادر على القيام بها بما لديه من قدرات معنوية ومادية . وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرج عن الناس ، لا التضييق عليهم . مع ضرورة الانتباه إلى أن العبادات لا تنفك عن المشقة ، ولكنها المشقة المقدور عليها ، والتي يستطيع الفردُ العادي أن يتجاوزها بالنية الصالحة والاندفاع المتحمِّس .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : لما نَزلت هذه الآية ﴿ إن تُبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يُحاسبكم به اللهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] . شَقَّ ذلك عليهم ما لم يشق عليهم مثل ذلك ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ((قولوا : سمعنا وأطعنا)) ، فألقى اللهُ الإيمانَ في قلوبهم فقالوا : سمعنا وأطعنا ، فأنزل اللهُ_عز وجل _:﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعها لها ما كَسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ ...[4].

واللهُ تعالى أرحم بالعباد من أمهاتهم . لم يَخلقهم ليعذِّبهم ، وإنما خَلقهم لينالوا شرفَ عبادته ويستحقوا جنَّته . وجميعُ التكاليف الشرعية هي ضمن دائرة قدرة الإنسان وطاقته ، فلا يوجد تكليفٌ شرعي جاء لتعجيز الإنسان ، أو تدميره ، أو حصاره في أضيق المسالك . فالشريعةُ تُوسِّع دروبَ الحياة، وتفتح للإنسان الأبوابَ الموصدة، وتجعله في راحةٍ واطمئنان من أجل ممارسة عباداته على أكمل وجه ، والقيام بكل أنشطته اليومية دون عوائق .

٣_ المسؤولية

أ _ مسؤولية المرء عن عمله

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قد خَلَت لها ما كَسبت ولكم ما كسبتُم ولا تُسْألون عمَّا كانوا يعملون ﴾[البقرة : ١٣٤] .

فمن رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يؤاخذهم بذنوب غيرهم . فكلُّ إنسان يتحمل نتيجةَ أعماله ، ولا يُسْأل عما فعله الآخرون ، خيراً كان أم شراً . فكما أن الأُمة المحمَّدية الإسلامية لا تُسْأل عن أفعال الأمم السابقة ، كذلك الأمم السابقة لا تُسْأل عن أفعال الأمة المحمَّدية .

وعن أبي راشد قال: جاء رجال من أهل البصرة إلى عبيد بن عمير فقالوا: إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك عن علي وعثمان_ رضي الله عنهما_ فقال: وما أقدمكم شيء غير هذا ؟، قالوا : نعم، قال: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قد خَلَت لها ما كَسبت ولكم ما كسبتُم ولا تُسْألون عمَّا كانوا يعملون ﴾ [5].

وهذه الإجابةُ القاطعة تشير إلى حقيقة أن الله تعالى لا يؤاخذ أَحداً بذنب أحد ، فما دار بين الصحابة من منازعات وقتال قد مضى وانتهى ، فهم أعلم بأنفسهم منَّا ، وأعلم بتلك الأحوال وظروفها الزمنية والمكانية ، ونحن لا نُسْأل عن أعمالهم ، كما أنهم لا يُسْألون عن أعمالنا . وكلُّ

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٤) برقم (٣١٣٢) وصحَّحه ووافقه الذهبي .

(٥) رواه الطبراني (١/ ١٠٥) برقم (١٧٠).وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٥٦): ((رجاله ثقات)) .

إنسان سيقف بين يَدَي خالقه تعالى الذي يعلم السرَّ وأخفى، وعند الله تجتمع الخصوم . وعلى المرء أن يكون مالكاً للحُجَّة حتى يعرف ماذا يُجيب إذا سأله اللهُ تعالى . واللهُ تعالى أعلم بالعباد من أنفسهم ، يعلم عنهم كلَّ شيء قبل أن يخلقهم. وهذا لا يتنافى مع دراستنا للتاريخ وتحليلنا للأنساق الإنسانية لأخذ العِبَر لا تنصيب أنفسنا حكاماً على النوايا نحاسب أصحابها .

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/ ٣٩٤) : ((سُئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان والجمل وصِفِّين وما كان بينهم، فقال: تلك دماء كَفَّ اللهُ يدي عنها، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها)) اهـ .

فكل إنسان يتحمل مسؤوليةَ أعماله أمام الله تعالى ، فإن عمل خيراً سيلاقي الجزاءَ الطيب ، وإن عمل عكس ذلك فسيحمل إثْمَه ، ولا يُظلَم أحدٌ من الخلائق . فبدلاً من تعيين الناس أنفسهم رقباء على الآخرين ، يُفتِّشون عن عثراتهم ، عليهم أن يُطهِّروا أنفسهم من الخطايا العظيمة التي يغرقون فيها . فمن غير المعقول أن يرى المرءُ القشةَ في عين أخيه ولا يرى الخشبةَ في عينه .

وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسبت وهُم لا يُظلَمون ﴾[البقرة : ٢٨١] .

وهذا آخر ما نَزل من القرآن الكريم كما ثبت عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ في صحيح البخاري (٢/ ٧٣٤).

وفي هذا إشارةٌ بالغة إلى أهمية العمل الصالح . فكل إنسان سيُلاقي نتيجةَ أعماله ، ولن ينقذه أحد من المخلوقين . فالرصيدُ الحقيقي هو ما يقوم به الفردُ لنفسه ، فمستقبله بيده . إن عمل خيراً سيُنقذ نفسَه بفضل الله ، وإن عمل شراً فقد أضاع مصيرَه ولا فرصة للتعويض . فلا مناص من التفكير جدياً في مسار الإنسان ومصيره .

ب ــ انتفاء مسؤوليته عن عمل غيره :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَزِرُ وَازِرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾[الأنعام : ١٦٤] .

فلا أحد يحمل ذنبَ غيره ، ولا يُؤاخَذ الفردُ بأفعال الآخرين . فكل امرئ بعمله رهينٌ ، ولا تفارقه حسناته ولا سيئاته . وهذا هو العدلُ الإلهي المقدَّس المنَزَّه عن الظلم ، وتحميلِ الناس فوق طاقاتهم ، وأخذِهم بآثام غيرهم . فالنقلُ والعقلُ متفقان على أن الإنسان يُجازَى بما كَسبت يداه ، وليس عليه خطايا الآخرين مهما كانوا قريبين منه . وهذا بالطبع لا يتنافى مع مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الآخرين ، وتقديم النصح لهم ، والأخذ بأيديهم إلى سبل الخير والنجاة .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((ليس على ولد الزِّنا من وِزر أبويه شيء ، ولا تزر وازرة وِزر أخرى))[6] .

وهكذا نرى أن الفرد مرتَهن بعمله غير مسؤول عن أفعال الآخرين . فابنُ الزنا لا يتحمل إثمَ العلاقة غير الشرعية بين أبويه ، لأنه لا شأن له بالموضوع ، فلم يرتكب ذنباً ، ولم يُجبر أبويه على ارتكاب ذلك الذنب . لذلك لا يوجد أبناء غير شرعيين ، فكل الأبناء شرعيون ، ولكنْ توجد علاقات شرعية وأخرى غير شرعية . فابنُ الزنا هو ولدٌ شرعي جاء من علاقة غير شرعية . والإثمُ واقعٌ على أبويه ، وهو بريءٌ من ذلك .

وهناك حالةٌ خاصة يتحمل فيها المرءُ ذنبَه وذنوبَ الآخرين إذا أرشدهم إلى الباطل ، وساهم في غوايتهم .

ففي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٨) : أن النبي ﷺ قال : ((ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مثل وِزر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم شيء)) .

وهذا الحديث لا يُعارض الآيةَ . فالفرد يتحمل إثمَه وآثامَ غيره إذا كان سبباً في ضلالهم وإبعادهم عن الحق ، فهو يتحمل الذنوبَ من جهة فِعْله وجهةِ تسبُّبه . فقد ظَلم نفسَه مرَّتَيْن ، الأولى: حين ارتكب الذنبَ، والثانية: حينما قام بإضلال الناس وإغوائهم وفتح لهم طريقَ الذنوب.

٤_ الجزاء :

أ_ الجزاء بالعمل :

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يَكسِبون الإثْمَ سَيُجْزَوْن بما كانوا يَقترفون ﴾[الأنعام : ١٢٠] .

فالذين يكسبون الذنوبَ والآثام ويغرقون في المعاصي سيكون جزاؤهم العذابَ ، ونهايتهم وخيمةً بسبب أعمالهم الشريرة . فأفعالهم السوداءُ قادتهم إلى نتيجة سوداء وهي النار . فالإثمُ يلتصق بالإنسان ولا يفارقه مثل طابع البريد الملتصق بالرسالة .

والتعريفُ النبوي للإثم كما في صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠) هو : ((ما حاكَ في صدرِكَ وكرهتَ أن يطلع عليه الناسُ)) .

فالإثمُ هو ما تحرَّك في الصدر ، ولم تنشرح له النَّفْسُ ، ولم يطمئن له القلبُ ، وكره المرءُ أن يعرفه الناسُ ويكتشفوا أمرَه .

---

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٢) برقم (٧٠٥٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى :﴿ لِيَجْزِيَهم اللهُ أَحسنَ ما عَمِلوا ويزيدَهم من فضله ﴾[النُّور : ٣٨] .

فهؤلاء الذين قضوا حياتَهم في عمل الصالحات سيُجْزَوْن أحسن ما عملوا بفضل الله تعالى وكرمه ، فيتقبل اللهُ حسناتهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم . فكما أن أعمالهم في الدنيا كانت خيراً ، فإن جزاءهم الأُخْرَوِي سيكون خيراً .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٢٥٩) : ((فذكر الجزاء على الحسنات ، ولم يذكر الجزاء على السيئات ، وإن كان يجازي عليها لأمرين : أحدهما : أنه ترغيب فاقتصر على ذكر الرغبة ، الثاني : أنه في صفة قوم لا تكون منهم الكبائر فكانت صغائرهم مغفورة . ﴿ ويزيدَهم من فضله ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما:ما يضاعفه من الحسنة بعشر أمثالها، الثاني:ما يتفضل به من غير جزاء)).

وقال الله تعالى : ﴿ مَن كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حَرْثه ومَن كان يريد حرثَ الدنيا نُؤْته منها وما له في الآخرة مِن نصيب ﴾[الشُّورى : ٢٠] .

فمن كانت الآخرةُ مقصدَه وعمل لها فإن الله تعالى يزيد من حسناته ، ويضاعف أجرَه . ومن كان جهدُه محصوراً في الدنيا فقط فإنه يأخذ منها ما كُتب له ، وليس له في الآخرة من نصيب . فالجزاءُ الأُخروي إنما يكون حسب طبيعة العمل الدنيوي .

((قال المفسرون : من أراد العمل لله بما يرضيه أعانه الله على عبادته ، ومن أراد الدنيا مُؤثراً لها على الآخرة لأنه غير مؤمن بالآخرة يؤته منها ، وهو الذي قُسم له ، وما له في الآخرة من نصيب لأنه كافر بها لم يعمل لها))[7] .

فعلى المرء أن يحرص على الآخرة لكي يكسب الدنيا والآخرة معاً . أما إن حصر جهدَه في متاع الحياة الزائل فسيخسر حاضرَه ومصيرَه، لأن الدنيا _ مهما طال نعيمها _ فهي مؤقتة وسائرة إلى زوال حتمي ، والإنسانُ سيغادرها رغماً عنه في رحلة إلى الآخرة دارِ البقاء بلا عودة . والعاقلُ لا يغتر بالبهرج الفتَّان الفاني ، لأن عينه تكون مُركَّزة على ما بعد الموت .

والإشكاليةُ العظمى في تاريخ المجتمعات هي عدم النظر وراء الأمور . فالجهودُ تكون مركَّزة على اللذة الوقتية دون النظر إلى المسؤولية . ويكون التفكير محصوراً في شَهْوَتَي البطن والفَرْج ، فلا يتم التفكر في الحياة الآخرة. وكلُّ الانهيارات الاجتماعية عبر العصور مرجعها إلى عدم الاعتبار بالموت وما بعده من نعيم دائم ، أو عذاب دائم .

---

(٧) زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٢٨١) .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : تلا رسول الله ﷺ ﴿ مَن كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حَرْثه ومَن كان يريد حرثَ الدنيا نُؤْته منها وما له في الآخرة مِن نصيب ﴾ ، ثم قال رسول الله ﷺ : ((يقول الله _ عز وجل _ : ابن آدم ، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدركَ غنىً وأَسُد فقركَ ، وإلا تفعل ملأتُ صدركَ شغلاً ولم أسد فقركَ))[8] .

فالإنسانُ حينما يتعلق بالآخرة فإن الدنيا تأتي إليه راغمةً، ويرزقه اللهُ تعالى من حيث لا يحتسب أما إن كانت الدنيا هي منتهى آماله ومبلغ علمه ، فإنه يضيع وقته حائراً في الأرض يبحث عن الثروة لكنه يظل فقيراً طوال حياته ، يلهث وراء السراب ، ويدور في حلقة مفرغة ، وسيخسر حياته في متاهات القلق والحيرة .

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٣٧) : ((... كما قال بعض السلف : من أحب الدنيا فليُوطِّن نفسه على تحمل المصائب . ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث : هم لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي ، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئاً إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه)) اهـ .

إن الدنيا مجبولة بالكدر والمنغِّصات . فمتعتها زائلة وغير صافية ، ولحظات السعادة قليلة ، لأن الدنيا دار امتحان . ولا أحد يَشعر بالسعادة أثناء وجوده في الامتحان ، لأن مصير الإنسان متوقف على نتيجة الامتحان . أمَّا السعادة فإنما تأتي بعد ظهور النتيجة بالنجاح . وهذا لا يتأتى إلا في الآخرة . والشخصُ الواقع في حب الدنيا تراه مهموماً بسبب كثرة الإغراءات واللهاث المستمر وراء تحصيل المكاسب المادية ، والمناصب الرفيعة . كما أنه غارق في التعب بسبب حركته في كل الجهات من أجل تحصيل المنافع ، واقتناص لحظاتِ المتعة المعدودة . ومن الطبيعي أن يفوته كثيرٌ من الفرص والامتيازات، لذا تراه متحسراً ، ونادماً على ما فات ، ويعيد تذكر الماضي مراتٍ عديدة . والإنسانُ دائم التطلع إلى أعلى ، فإذا امتلك مليوناً أحب امتلاك عشرة ملايين . وإذا صار مديراً تاقت نفسه إلى الوزارة . وهذا هو حال الإنسان مع الدنيا ، ولن يملأ عينيه إلا التراب . ومهما امتلك من القصور الواسعة، والسيارات الفارهة، والأموال الهائلة، وارتفعت طموحاته في السماء ، فسوف يعود إلى الأرض _ رغم أنفه _ منسياً في حفرة ضيقة . لكنَّ زينةَ الدنيا الظاهرية تنسيه هذه اللحظة، وتجعله عائشاً في الوهم ، إلى أن يدهمه الموت بغتةً، فيمنع أية فرصة للتعويض .

---

(٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) برقم (٣٦٥٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وكما قال الشاعر :

_ والنفسُ كالطفلِ إن ترضْعهُ شبَّ على حُبِّ الرضاعِ وإن تفطمْهُ ينفطمِ

_ والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ

وفي الحديث : ((من كانت الدنيا نِيَّته فَرَّقَ اللهُ عليه أمرَه ، وجعل فقرَه بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع اللهُ له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة))(9) . راجع الحديث ، لأن الحديث مرفوع .

فالشخصُ الذي تكون الدنيا _ بالنسبة إليه _ هي مَبْلغ علمه ، وأكبر همِّه ، ومنتهى أحلامه ، ولا يرى أبعد منها، هو شخصٌ قاصر النظر باع آخرته بِعَرَضٍ من الدنيا قليل . فهو لم يُخلَق لهذا . وإنما خُلق لعبادة الله تعالى ونيلِ جنَّته في الآخرة .

ومن انحصرت نيَّته في الدنيا ، فرَّق اللهُ أمرَه ، وجعله مُشتَّتاً ، لا تستقيم أموره ، ولا يطمئن لحالٍ ، دائم الاضطراب والقلق . فقرُه بين عينيه أينما توجَّه ، غائب عنه التوفيق . ومهما لهث وراء سراب الدنيا ، وركض وراء زينتها الفانية ، فلن يحصل إلا على ما هو مكتوب له.

وعلى الجهة الأخرى نجد أن الإنسان العائش في عالم الآخرة، ولا ينخدع بإغراءات الحياة الدنيا ، نجده في أعلى درجات الصفاء والتركيز ، مطمئن البال ، قنوع بلا عجزٍ . قد جَمع اللهُ له أمره ، وجعله مُوَفَّقاً أينما حَل وارتحل . غناه في قلبه فلا يَنظر إلى ما في أيدي الآخرين ، وهذا لا يتنافى مع السعي والكسب . فهو عالِمٌ بأن رزقه لن يأخذه أحدٌ غيره ، وسوف يأخذ نصيبه كاملاً غير منقوص . وسوفَ تأتيه الدنيا راغمةً لأنه اختار الآخرةَ . فالأجلُ والرزقُ ثابتان ، وقد تكفَّل اللهُ بهما ، فلا داعي للقلق بشأنهما ، وعلى الفرد أن ينطلق في عبادة الله تعالى ونيل رضاه واثقاً مطمئناً . وعندما يوقن الفرد بأن رزقه محفوظ ، فإن نفسه ستر تاح ، ويزداد تركيزاً في مجالات العبادة ، وبذل الجهد لإرضاء خالقه تعالى ، وتحصيل الأجر العظيم. فلا يوجد شيء يخاف عليه .

وفي غريب الحديث لابن قُتيبة (٢/ ٢٥٦) : ((قال أبو بكر _ رضي اللّه عنه _ لخالد ابن الوليد حين أغْزَاه : " احْرِص على الموت تُوهَب لك الحياة ")) اهـ .

---

(٩) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٥٤) برقم (٦٨٠) ، وابن ماجة في سُننه (٢/ ١٣٧٥) برقم (٤١٠٥) . وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٠٢) : ((أخرجه ابن ماجة من حديث زيد بن ثابت بسند جيد)) .

وعن أُبي بن كعب _ رضي الله عنه _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((بَشِّر هذه الأُمة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض ، ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب))[10].

وكل هذه الأدلة الشرعية تشير إلى الضرورة القصوى للعمل من أجل الله تعالى ، والنظر إلى ما وراء زخرف الحياة الدنيا . فالجزاءُ بالعمل ، فمن عمل للدنيا أخذ نصيبَه في الدنيا ، ثم مصيره إلى النار . أما من اجتهد في عمل الآخرة فقد فاز في الدَّارَيْن معاً . وهنا يتجلى الإخلاصُ وأهميته البالغة في قبول الأعمال ، وتبرز خطورةُ الرياء وتوجيه النوايا نحو تحصيل متاع الدنيا الزائف دون النظر إلى الآخرة .

ب_ جزاء السيئة بمثلها :

قال الله تعالى : ﴿ مَن عمل سَيِّئَةً فلا يُجزَى إلا مِثْلَها ﴾[غافر : ٤٠] .

هذه الآية تشير إلى تجليات الرحمة الإلهية بالعباد ، فمن عمل سيئةً يُجزَى بمثلها دون زيادة.

واللهُ تعالى يضاعف الحسناتِ لا السيئات. وهذا يدفع العبادَ إلى العمل ، ويُشجِّعهم على عمل الصالحات، وعدم اليأس عند ارتكاب الذنوب، فبابُ التوبة مفتوح ، والسيئات لا تتم مضاعفتها . وهنا تبرز قاعدة هامة " لا كبيرةٌ مع استغفار ، ولا صغيرةٌ مع إصرار " . وعلى المرء أن يَبذل قصارى جهده من أجل الفوز بالرضا الإلهي ، وأن يقاتل حتى النهاية ، يقاتل نَفْسَه والشيطانَ ، ولا يستسلم لشهواته ووساوسه _ مهما حصل _ .

وفي صحيح مسلم (١/ ١١٧) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن رسول الله ﷺ قال : ((قال الله _ عز وجل _ : إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتُها له حسنة ، فإن عملها كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبتُها سيئة واحدة)) .

وهذه الرحمة الإلهية التي تأخذ بأيدي الناس إلى بر الأمان ، وتزيل عنهم الحرج ، فيتخلصون من أزماتهم الحياتية، ويتصالحون مع أنفسهم ، ويندفعون باتجاه العمل الصالح تحت ظل الشريعة.

---

(١٠) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٦) برقم (٧٨٦٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٥_ العمل الصالح :

أ _ الدعوة إلى العمل الصالح :

قال الله تعالى:﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ لهم مغفرة وأجرٌ عظيم ﴾[المائدة: ٩].

وهذه دعوةٌ جليلة للعمل الصالح لنيل رضا الله تعالى وجنّته . فاللهُ تعالى قد وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ بأن لهم مغفرة عظيمة وأجراً جليلاً . وفي هذا حافزٌ عظيم على العمل المتقَن الذي يمتاز بالإخلاص والسيرِ وفق الشريعة .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٤٨٤) : ((وعد الله_ أيها الناس _ الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به من عند ربهم ، وعملوا بما واثقهم الله به ، وأوفوا بالعقود التي عاقدهم عليها بقولهم : لنسمعن ولنطيعن الله ورسوله ، فسمعوا أمرَ الله ونهيه ، وأطاعوه فعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه ... لهؤلاء الذين وفوا بالعقود والميثاق الذي واثقهم به ربهم ﴿ مغفرة ﴾ وهي ستر ذنوبهم السالفة منهم عليهم ، وتغطيتها بعفوه لهم عنها ، وتركه عقوبتهم عليها ، وفضيحتهم بها ... ولهم مع عفوه لهم عن ذنوبهم السالفة منهم جزاءً على أعمالهم التي عملوها ، ووفائهم بالعقود التي عاقدوا ربهم عليها ﴿ أجرٌ عظيم ﴾ والعظيم من خيره غير محدود مبلغه ، ولا يعرف منتهاه غيره _ تعالى ذِكْرُه _)) اهـ .

ب_ المسارعة في الخيرات :

قال الله تعالى : ﴿ ويُسَارِعون في الخيرات ﴾[آل عمران : ١١٤] .

إنهم يبادرون إلى فعل الخيرات دون تكاسل أو تباطؤ لمعرفتهم بعظيم الأجر الذي ينتظرهم . وهذه المسارَعة تعكس قوةَ الإيمان ، والصدق في القول والفعل ، والمثابرة في تحصيل الأجر ، وقوة الوازع الديني ، والدافعية للتحدي والإنجاز . فهُم في سباق مع الزمن ، يَعملون الخيراتِ دون تأخير لئلا يَدهمهم الموتُ فينهيَ حياتهم ، فتنقطع بذلك أعمالهم .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٠٢) : ((ويبتدرون فعل الخيرات_ خشية أن يفوتهم ذلك_ قبل معالجتهم مناياهم)) اهـ .

وقد مدح اللهُ تعالى الصحابةَ الكرام الذين امتازوا بالسَّبق والمسارعة في الخيرات ، وعدم التقاعس والركونِ إلى الدنيا. فقال_ سبحانه _: ﴿ والسَّابِقون الأوَّلون من المهاجِرين والأنصار ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وقال الطبري في تفسيره (٦ / ٤٥٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : والذين سبقوا الناسَ أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله من المهاجرين الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم ، وفارقوا منازلهم وأوطانهم ، ﴿ والأنصار ﴾ الذين نصَروا رسولَ الله ﷺ على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله)) اهـ .

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٠و٤٩١) ستة أقوال في قوله _ سبحانه _ : ﴿ والسَّابِقون الأوَّلون ﴾ : ((أحدها أنهم الذين صَلُّوا إلى القِبْلتين مع رسول اللهﷺ ... والثاني أنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان ... والثالث أنهم أهل بدر ... والرابع أنهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ حصل لهم السَّبق بصحبته ... والخامس أنهم السابقون بالموت والشهادة سبقوا إلى ثواب الله تعالى ... والسادس أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة)) اهـ .

كل هذه الأقوال تشير إلى أهمية المسارعة في الخيرات ، والمبادرةِ إلى فعل الطاعات ، والحرصِ على مسابقة الأقران إلى الأمور الطيبة. فعلى المرء أن يكون حريصاً أن لا يسبقه إلى الله تعالى أحد.فهذا هو مجال التسابق والتنافس والإصرار والعزيمة.فالإيمانُ حينما يملأ الكيانَ البشري فإن الفرد يتحول إلى شعلة نشاط،ويؤول المجتمع إلى خلية نحل لا تتوقف عن العمل الجاد .

ج _ التَّوسط في العمل :

قال الله تعالى: ﴿ ولا تجعل يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تبسطها كلَّ البسط ﴾[الإسراء: ٢٩].

فاللهُ تعالى يأمر بالاقتصاد في المعيشة والاعتدال في الإنفاق، فقد ذَمَّ البخلَ والإسراف معاً .

ولا يَخفى أن المنهج الإسلامي قائم على الاعتدال والوسطية ، فخيرُ الأمور أوسطها .

ومعنى الآية : ((أي لا تكن بخيلاً مَنُوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً كما قالت اليهود_ عليهم لعائن الله _: يد الله مغلولة ، أي نسبوه إلى البخل ... ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ، وتُخرج أكثر من دخلك))[11] .

الإسلام منهجٌ متكامل يمتاز بالوسطية ، فلا إفراط فيه ولا تفريط . إنه نظام حياة يمتاز بالشمولية والاعتدال ، فلا غُلُو فيه ولا تقصير . وهذه النهج الوسطي شاملٌ لكل الأمور الدينية والدنيوية .

قال الله تعالى:﴿ولا تَجهر بصلاتكَ ولا تُخافِت بها وابْتَغِ بَيْن ذلك سبيلاً ﴾[الإسراء: ١١٠].

---

(١١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣) .

هذا التوسط في العمل له حكمة بليغة ، ولا يجيء عبثاً . إنما هو في سياقه المنطقي حيث المسار المعتدِل بين الجهر بالصلاة والمخافتة بها .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ في قوله تعالى : ﴿ ولا تَجهر بصلاتكَ ولا تُخافِت بها ﴾. قال : نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة ، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمعه المشركون سَبُّوا القرآنَ ومن أَنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿ ولا تَجهر بصلاتكَ ﴾، أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآنَ،﴿ ولا تُخافِت بها ﴾ عن أصحابك فلا تُسمعهم[12].

وهنا يظهر أهمية التوسط في قراءة القرآن ، فالصوتُ ينبغي أن يكون معتدلاً واضحاً ، ليس عالياً يصل إلى آذان المشركين فيعتدون على القرآن بألفاظهم القبيحة ، ولا خافتاً لا يصل إلى آذان المؤمنين فيَعجزون عن أداء الصلاة . بل يجب أن يكون الصوتُ في المنطقة الوسط بلا إفراط ولا تفريط .

د ــ تطابق العمل مع القول :

قال الله تعالى : ﴿ أَتأمرون الناسَ بالبِر وتَنسَوْن أَنفسَكم ﴾[البقرة : ٤٤] .

فهؤلاء يأمرون الناس بالخير وينسون أنفسهم . إي إن كلامهم يتعارض مع واقع حالهم . وهذا الانفصام في الشخصية يؤدي إلى ضياع البوصلة الإنسانية، وتحول الفرد إلى كيان مفرغ من المعنى، حيث تصبح الكلماتُ مجرد شعارات رنَّانة لا تنعكس على السلوك البشري .

وهذه الآفةُ موجودة في كل العصور، وتكمن خطورتها في انشغال المجتمع بالكلام دون العمل ، واختفاء العلم في حِبر الكتب دون القدرة على الاستفادة منه على أرض الواقع . فالنهضةُ الاجتماعية في شتى المجالات لا تحصل إلا بالعمل بالعلم، أي تحويل العلم إلى واقع ملموس ، وتحويل النظريات الفكرية إلى تطبيقات في الحياة المعاشة تساهم في رفع مستوى الإنسان روحياً ومادياً ، وجعل المجتمع أكثر إشراقاً وتقدماً . والعلمُ المجرَّدُ من العمل يقود إلى غياب الثقة بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد والجماعة ، فيتحول المجتمعُ إلى جُزر متباعدة بلا هوية ولا رابط بينها ، مشغولة بالجِدال ومحرومة من العمل . والمحكُّ الحقيقي هو العمل ، لأن الكلام سهلٌ لا يحتاج إلى جهود جبارة وخطط تنموية وبرامج إصلاح ومشاريع تطوير .

---

(١٢) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٧٤٩) برقم (٤٤٤٥) ، ومسلم (١/ ٣٢٩) برقم (٤٤٦) .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٤) : ((يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب ، وأنتم تأمرون الناس بالبِر وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به)) اهـ .

وكما قال الشاعر :

وصفتَ التُّقى حتى كأنك ذو تقى   وريح الخطايا من ثيابك يسطع

وفي الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٥٦) : [وأخرج الثعلبي والواحدي عن ابن عباس قال : ((نزلت هذه الآية في يهود أهل المدينة ، كان الرَّجل منهم يقول لصِهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينهم رضاع من المسلمين : اثبت على الدِّين الذي أنت عليه ، وما يأمرك به هذا الرَّجل _ يعنون به محمداً _ ، فإن أمره حق ، وكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه))] .

وفي الحديث المتفق عليه. البخاري (٣/ ١١٩١) ومسلم (٤/ ٢٢٩٠) أن النبي ﷺ قال: ((يجاء بالرَّجل يوم القيامة ، فيُلقَى في النار ، فتندلق أقتابه _ أي أمعاؤه _ في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه ، فيقولون: أي فلان ، ما شأنك ؟ ، أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟، قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)).

وهكذا نرى خطورة عدم تطابق القول والعمل . وهذا التناقض الصارخ يؤدي إلى عواقب وخيمة . ففي الدنيا يغدو الفردُ منفصمَ الشخصية لا يشعر بحلاوة الإيمان وتطبيقاته العملية على أرض الواقع ، وهذا يجعل الفردَ ضائعاً في متاهات القلق والحيرة وعدم الاستمتاع بالحياة . وفي الآخرة سوف يُلاقي جزاءَ سيئاته، فقد كان يرشد الآخرين إلى المعروف، وهو يغوص في المنكرات. فمثلُه كإنسان يُرشِد الآخرين إلى الطريق الآمن ويقع هو في الحفرة .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لِمَ تقولون ما لا تَفْعلون ﴾[الصَّف : ٢] .

فقد أنكر اللهُ تعالى عليهم أن يقولوا القولَ ولا يجاوز ألسنتهم . فأعمالهم مخالفة لأقوالهم . وهذا الاختلاف بين الكلام والواقع ينعكس سلباً على نفسية المرء ، ويؤدي إلى الشعور بالذنب وعدم الرضا عن الذات ، فتنشأ حربٌ بين الإنسان وذاته بسبب التناقض في حياته ، وهكذا ينهار السلام الداخلي في ذات المرء ، وتصبح حياته كوابيس متناقضة يقتل بعضُها بعضاً ، فيغرقُ الفردُ في متاهات لا ضوء في آخرها . وهذه الآية ((إنكار على من يَعِد وعداً ، أو يقول قولاً لا يفي به

. ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء تَرتَّب عليه عزم الموعود ، أم لا))[13] .

وعن عبد الله بن سلام _ رضي الله عنه_ قال: ((قعدنا نفر من أصحاب النبي ﷺ ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عملنا))[14] . وهذا سبب نزول الآية .

فالمسلمُ تكون أقوالُه مطابقة لعمله ، وعملُه ذا وجود على أرض الواقع وليس شعاراً مرفوعاً فحسب. وعليه أن يحرص على عدم حدوث انفصال بين القول والفعل لئلا يتحول إلى بُوق أجوف لا مصداقية لكلامه ، فيخسر احترامه لنفسه واحترامَ الآخرين له .

هـ _ حُسن السلوك :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُوا لا تقولوا رَاعِنا ﴾[البقرة : ١٠٤] .

إن الآية ترشد إلى حسن السلوك ، وانتقاءِ الألفاظ الطيبة ، والابتعادِ عن المعاني القبيحة ، وتقليدِ الكافرين في كلامهم المليء بالنفاق والحقد والمعنى الباطل الخفي . فإن اليهود كان يلجأون إلى الكلام المبطَّن الذي فيه تَوْرِية ((لما يقصدونه من التنقيص _ عليهم لعائن الله _، فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولون : راعنا ، ويُوَرُّون بالرعونة))[15].

وكان خبثاء اليهود يقولون للنبي ﷺ (راعنا) وهي لفظة قريبة من معنى الرعونة . وهذه الكلمة باللغة العبرية هي شتيمة . وهكذا يَلْوُون ألسنتهم بكلام يحتمل المعنيين الصالح والطالح ، وبالطبع يقصدون المعنى الطالح . وهذا يدل على خبث السريرة ، والنيةِ السيئة المبيَّتة مسبقاً . وهذه الأساليب الدنيئة الغارقة في التحايل والاستهزاء ليست غريبةً على اليهود المشهورين بالمكر ، ولوي أعناق النصوص ، والتلاعب بالألفاظ والمعاني .

قال ابن عطية في البحر المحيط (٣/ ٢٦٤) : ((وهذا موجود حتى الآن في اليهود ، وقد شاهدناهم يُرَبُّون أولادهم الصغار على ذلك ، ويُحفِّظونهم ما يُخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ، ويريدون به التحقير)) اهـ .

---

(١٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٨) .

(١٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٨) برقم (٢٨٩٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٥) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٦) .

والتلاعب بالألفاظ والعبارات صفة لازمة لليهود عبر كل المراحل الزمنية . فهم يستعملون الكلامَ الباطني الفضفاض الذي يحتمل المعاني المتعددة، ويقصدون المعنى القبيح.فهم بذلك يكشفون عن حقدهم الخفي ، ويسعون إلى تنفيذ مخططاتهم الشريرة ذات الطبيعة المستترة . وهم يلجأون إلى هذه الطرق للتنفيس عن حقدهم واحتراقِ صدورهم بالضغينة وكراهية الحق . وهم يعتقدون أن هذه الأساليب تعكس ذكاءهم وانتصارهم ، لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فَحَيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها ﴾[النِّساء : ٨٦] .

وهذا الإرشاد القرآني إلى حسن التعامل في مسألة " التحية " يدل على عَظَمة الإسلام ، وعنايته بالأخلاق الحميدة ونشرها في المجتمع من أجل بناء الفرد والجماعة وفق منظور إيماني لا يَنفصل عن الأخلاق والقيم الاجتماعية السامية . فلا بد من مقابلة التحية بأفضل منها أو ردها . وفي هذا تقويةٌ للروابط الإنسانية،ونشرٌ للمحبة بين الأفراد،وتطهيرٌ للمجتمع من الكراهية والحقد.

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٥٢) أن الجمهور يَرَوْن أن" التحية" هي السلام.

وفي الفقه إن إلقاء السلام سُنَّة ، والرد عليه فرض . وهذا يشير إلى مكارم الأخلاق التي جاءت بها الشريعة المطهَّرة لتعزيز الروابط الاجتماعية، وتوحيدِ المجتمع على قلب رَجل واحد. فالتحيةُ ليست مجرد كلام . إنها منظومة دينية فكرية ثقافية شاملة تُعزِّز التكافل الاجتماعي ، وتنتزع الأحقاد من صدور الناس ، وتُصفِّي الأجواء من كل الشوائب الاجتماعية والأمراض النفسية كالحسد والحقد وحب الانتقام . فالتحيةُ تُشيع جواً من المودة والطمأنينة وقبول الآخر ، فتنشأ علاقات اجتماعية صحيحة ، فتتضافر الجهودُ البشرية وتلتقي لقيادة حركة الإصلاح الاجتماعي والازدهار والتقدم .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((مَن سَلَّم عليك من خَلْق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً ، فإن الله يقول : ﴿ وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فَحَيُّوا بأحسن منها أو رُدُّوها ﴾))[16].

---

(١٦) رواه أبو يعلى في مسنده (٣/ ١٠٠) برقم (١٥٣٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٨٢) : ((ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة))اهـ.وفي فتح الباري (١١/ ٤٢) : ((قال ابن بطال : قال قوم : رد السلام على أهل الذمة فرض لعموم الآية . وثبت عن ابن عباس أنه قال : " من سلَّم عليك فرد عليه ولو كان مجوسياً " ، وبه قال الشعبي وقتادة . ومنع من ذلك مالك والجمهور . وقال عطاء : الآية مخصوصة بالمسلمين فلا يرد السلام على الكافر مطلقاً)) .

وعن الحسن : ((﴿ وإذا حُيِّيتم بتحيَّة فَحَيُّوا بأحسن منها ﴾ لأهل الإسلام ، ﴿ أو رُدُّوها ﴾ على أهل الشرك))[17] .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تَدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتُسلِّموا على أهلها ﴾[النُّور : ٢٧] .

((هذه آداب شرعية أَدَّب اللهُ بها عبادَه المؤمنين ، وذلك في الاستئذان ، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أي يستأذنوا قبل الدخول ، ويُسلِّموا بعده))[18] .

وهذه الآداب الجليلة من شأنها حماية المجتمع من الفساد الأخلاقي ، والعمل على التماسك الاجتماعي عبر إحاطة البيوت بسياج أخلاقي منيع من الآداب العامة والاستئذان والسلام. فكيفيةُ الدخول إلى البيوت أمرٌ بالغ الأهمية، لأن فيه اطلاعاً على ما وراء الأسوار والستائر المغلقة، فأعطته الشريعةُ مكانةً خاصة وأهمية كبرى .

وينبغي للمرء أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أُذن له كان بها،وإلا فعليه الرجوع. ففي الحديث : ((إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يُؤذن له فليرجع))[19] .

كما ينبغي للزائر أن يُعرِّف بنفسه حينما يطلب أهلُ الدار معرفته . فعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ قال : أتيتُ النبي ﷺ في دَيْن كان على أبي، فدققتُ البابَ، فقال: ((مَن ذا)) ، فقلتُ : أنا ، فقال : ((أنا أنا)) . كأنه كرهها [20].

فهذه اللفظة " أنا " لا تكشف عن هوية صاحبها ، فهي تنطبق على كل الناس . فلا يحصل بها دفء الاستئذان وآدابه . لذلك أعاد النبيُّ ﷺ كلامَ جابر ــ رضي الله عنه ــ مُنكِراً عليه .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ١٣٥): ((قال العلماء : إذا استأذن فقيل له : من أنت ؟ ، أو من هذا ؟ ، كُره أن يقول : أنا ، لهذا الحديث . ولأنه لم يحصل بقوله : أنا فائدة ولا زيادة، بل الإبهام باق، بل ينبغي أن يقول: فلان، باسمه، وإن قال : أنا فلان ، فلابأس)) اهـ .

---

(١٧) رواه أبو يعلى في مسنده (٣/ ١٠٠). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٤): ((رجاله ثقات)) .

(١٨) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٢) .

(١٩) متفق عليه.البخاري (٥/ ٢٣٠٥) برقم (٥٨٩١)،ومسلم (٣/ ١٦٩٤) برقم (٢١٥٣).

(٢٠) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٥/ ٢٣٠٦)برقم(٥٨٩٦).ومسلم(٣/ ١٦٩٧)برقم (٢١٥٥).

وقال الله تعالى : ﴿ وعِبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهِلون قالوا سَلاماً ﴾[الفُرقان : ٦٣] .

وهذه الآية تتضمن مظهرَيْن لحسن سلوك المؤمنين الذين هم عباد الرحمن وصفوته من خلقه . فالمظهر الأول هو المشي على الأرض بوقار وسكينة بدون تكبر أو خُيلاء . وهذه طبيعتهم بلا رياء أو تصنُّع . وقد كان النبيُّ ﷺ ((إذا مشى تكفأ تكفؤاً ، كأنما انحط من صبب))(21). والمعنى العام أنه ﷺ يمشي بوقار وسكينة بلا رياء أو تكلُّف ، وكانت مِشيته هادئة متوازنة بلا إسراع ولا إبطاء. أما المظهر الثاني فهو مقابلة الإساءة بالإحسان والعفو عن الجهال ، ومقابلة كلامهم القبيح بالكلام الطيب الهادئ . فالمؤمنون ((إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلماً))(22) .

وصدق القائل :

يُخاطِبُني السفيهُ بكلِّ قبحٍ … فأكرَهُ أن أكونَ له مجيباً

يزيدُ سفاهةً وأزيدُ حِلماً … كعودٍ زادَهُ الإحراقُ طيباً

وقال الله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمَنوا إذا قِيل لكم تَفَسَّحُوا في المجالس فافْسَحوا يَفْسَحِ اللهُ لكم ﴾[المجادِلة: ١١].

وهذا هو الأدبُ القرآني في قضية المجالس ، وكيفية الجلوس فيها والتعامل بين الحضور . فقد أمر اللهُ تعالى المؤمنين بالتأدب في المجلس والتوسعة فيه لكي يستطيع الجميع أن يجلس دون مضايقة أحد لأحد .

إنه أمرٌ إلهي جليل ((بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ حتى لا يُضيِّقوا عليه المجلس ، وأمرَ المسلمين بالتعطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله والنظر إليه))(23) .

---

(٢١) رواه الترمذي (٥/ ٥٩٨) برقم (٣٦٣٧) وصحَّحه، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٦٢) برقم (٤١٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٣) .

(٢٣) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٥١) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٨/ ٨٢) : ((عن مقاتل بن حيان قال : أُنزلت هذه الآية يوم جمعة، وجلس رسول الله ﷺ يومئذ في الصُفة، وفي المكان ضيق. وكان يُكرِم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر ، وقد سُبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبيُّ ﷺ عليهم ثم سَلَّموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبيُّ ﷺ ما يحملهم على القيام فلم يُفسَح لهم ، فَشَقَّ ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فَشَقَّ ذلك على من أُقيم من مجلسه فنزلت هذه الآية)) اهـ .

فينبغي للجماعة المسلمة أن تكون متماسكة كالبنيان المرصوص ، ومتعاطفة اجتماعياً في كل المجالات . وفي المجالس تتجلى الآداب الإسلامية بإفساح المجال للآخرين كي يجلسوا مرتاحين بلا ضيق ، وفي هذا احترامٌ بالغ ، وتطييب للنفوس، ومعرفة مكانة الرجال وإنزالهم منازلهم . مما يؤدي إلى توليد حالة كبرى من الوحدة الاجتماعية بلا حقد أو سوء أدب . فالاحترامُ المتبادل ينشر مناخاً من المودة والقبول النَّفسي الذي ينعكس على السلوك الاجتماعي بشكل إيجابي . كما ينبغي نشر قيم الإيثار ، وتقديم الآخرين لمكانتهم الدينية والعِلمية ، وليس مجاملةً أو تحصيلاً لمنفعة وقتية زائلة . فالمسْلمُ أكبر من المصالح الدنيوية ، وحياته مرسومة وفق الدِّين ، وليس وفقاً للقضايا المادية الوضيعة .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ﷺ قال : ((لا يُقيم الرَّجلُ الرَّجلَ من مقعده ثم يجلس فيه ، ولكن تَفَسَّحوا وتَوَسَّعوا))[24] .

ونحن نرى أن الشريعة أَوْلت اهتماماً خاصاً بآداب المجلس . فجاء الإرشادُ النبوي بأن لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مكانه ثم يجلس محلَّه لما في ذلك من سوء أدب، ونشر الحقد والضيق في الصدور. والحل إنما يكون في التوسعة ، واستيعاب الآخرين. وهكذا يكون المجلس عاملاً على تصفية النفوس من الشوائب ، وتطهيرها من الخصال الذميمة .

و ــ التعاون مع الآخرين :

قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنوا على البِر والتقوى ﴾[المائدة : ٢] .

---

(٢٤)متفق عليه.واللفظ لمسلم(٤/ ١٧١٤)برقم(٢١٧٧).البخاري(٥/ ٢٣١٣)برقم (٥٩١٤).

وهنا تظهر أهمية التعاون على فعل الخير وترك المنكر، وتضافر الجهد الجماعي من أجل التقرب إلى الله تعالى . وقد ورد تعريفٌ جميل للتقوى : ((الخوفُ من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل)) .

وقد أَعْلت الشريعةُ من قيمة التعاون وإرشاد الآخرين إلى الخير لما في ذلك من تقوية الأواصر المجتمعية، وتوحيد كافة الجهود لنشر الفضيلة واجتثاث الرذيلة . فحبُّ الخير للآخرين من علامات المروءة واحترام الإنسان لنفسه . فالمؤمنُ مرآةُ أخيه ، وهو قويٌّ بإخوانه . وهذا الترابط الإنساني الجماعي لا يمكن أن يتأسس إلا بتعميم منظومة نشر الخير، وإرشاد الآخرين إلى السعادة. فانكماشُ المرء على نفسه والعيش من أجل ذاته فقط ، يشير إلى سوء أخلاق وأثرة مقيتة تنبئ عن أمراض اجتماعية ونفسية تستوطن كيان ذلك الشخص .

وفي الحديث النبوي المرفوع الذي رواه مسلم (٣/ ١٥٠٦):((مَن دَلَّ على خير فله مثل أجر فاعله)) .

وهذا يشير إلى أهمية إرشاد الآخرين إلى الخير . فلا يكفي أن يكون الفردُ صالحاً ، بل يجب أن يكون مُصلِحاً أيضاً، وهذا لا يتأتى إلا بتعميم الخير، والأخذ بأيدي الناس إلى بَر الأمان، وتوجيههم إلى سُبل الفضيلة والأخلاق من أجل تحصيل السعادة الدنيوية والأخروية ، فالمؤمنُ ليس أنانياً يمنع وصول الخير إلى الناس ، وإنما هو شمعةٌ تضيء لنفسه ولغيره ، ويحب الهداية والصلاح لكل الناس. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٣٩) : ((فيه فضيلة الدلالة على الخير ، والتنبيه عليه ، والمساعدة لفاعله . وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات ، لاسيما لمن يعمل بها من المتعبِّدين وغيرهم . والمراد بمثل أجر فاعله أن له ثواباً بذلك الفعل كما أن لفاعله ثواباً ، ولايلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء)) اهـ .

ز ـ التواضع :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَمْشِ في الأرض مَرَحاً إنكَ لن تخرق الأرضَ ولن تَبْلغ الجبالَ طُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٧] .

إن الإرشاد القرآني أعلى من شأن التواضع والمشي بالسكينة والوقار . وقد ذَمَّت الشريعةُ المشي في الأرض بتكبر وخُيلاء ورياء ، لما في ذلك من عدم تقدير للنِّعم الإلهية، واحتقار للآخرين ، وعدم احترام مشاعر الناس ، ونشر سوء الأدب في الطريق . والمرءُ حينما يتذكر أصله الطيني البسيط ، ويتذكر أنه يذهب إلى الخلاء ليُخرِج الفضلات ، سيُدرك أن لا مجال للتكبر

والاستعلاء في الأرض بغير الحق . وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٨١) : ((ولا تمش في الأرض مختالاً مستكبراً ... إنك لن تقطع الأرض باختيالك ... ﴿ ولن تَبْلغ الجبالَ طُولاً ﴾ بفخرك وكِبْرك ، وإنما هذا نهي من الله عباده عن الكِبر والفخر والخيلاء)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٦٥٣): عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : ((بينما رَجل يتبختر يمشي في بُرْدَيْه ـ يعني ثوبَيْه ـ ، قد أعجبته نفسُه ، فخسف اللهُ به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)) .

فعلى الإنسان أن يدرك أنه حقير أمام عَظَمة الله تعالى ، فلا يتكبر ولا يتبختر . بل يمشي بهدوء وسكينة مستشعراً الكِبرياء الإلهي . ومن عرف حدَّه عليه أن يقف عنده . والإنسانُ أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وبين يدي ذلك يحمل العذرة . ومن كان هذا حاله فلا يحق له أن يتكبر أو يمشي مختالاً .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٦٤) : ((يتجلجل ـ بالجيم ـ أي يتحرك وينزل مضطرباً. قيل : يحتمل أن هذا الرجل من هذه الأمة، فأخبر النبيﷺ بأنه سيقع هذا . وقيل : بل هو إخبار عمَّن قبل هذه الأمة ، وهذا هو الصحيح)) اهـ .

وقد تم ذمُّ مشية التبختر والخيلاء. عن خولة بنت قيس ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال : ((إذا مَشَت أُمتي المطيطاء ، وخدمتهم فارس والروم سُلِّط بعضهم على بعض))[25] .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للناس ﴾[لُقمان : ١٨] .

فلا تُمِل وجهك عن الناس احتقاراً لهم، ولا تُعرِض عنهم تكبراً. وهذا درسٌ بليغ في التواضع، واحترامِ الإنسان ، وأدب الحوار بين الناس . وكل هذه المعاني الطيبة تعمل على تنقية المجتمع من الضغائن ، وشهوةِ الانتقام ، وعقليةِ الحقد والثأر . فكل الناس أصلهم من التراب ومرجعهم إلى التراب فلا معنى للغرور والتكبر ، ولا فائدة من التطاول على الآخرين .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢١٤) : ((وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها ، فيُشَبَّه به الرجل المتكبر على الناس)) اهـ .

---

(٢٥) رواه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ١١٢) برقم (٦٧١٦) ، والطبراني في الأوسط (١/ ٤٧) برقم (١٣٢) بسند حسَّنه الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١١) .

٦_ العمل الطالح :

أ _ العمل الآثم :

إن العمل الآثم ذو تأثير مدمر في حياة الفرد والجماعة ، فهو يُضعف الروحَ المعنوية للمجتمع ، ويعمل على تفتيت الأواصر بين الناس، وتفشي الرذيلة ، وفقدان البوصلة المحرِّكة للإنسان ، وهذا يُنتج مجتمعاً ممسوخاً ، وإنساناً شبحاً ، مما يجعل البيئة محيطاً قاتلاً للمعاني الطيبة ، وبالتالي يُصاب الفرد بانتكاسة أخلاقية شديدة ، ويصاب المجتمع بأمراض معنوية ومادية لا يمكن إحصاؤها . وهذا من شأنه إدخال الجميع في مأزق وجودي حرج .

قال الله تعالى : ﴿ وتَرى كثيراً منهم يُسارِعون في الإثم والعُدوان وأكلهم السُّحت لَبِئْسَ ما كانوا يعملون ﴾ [المائدة : ٦٢] .

هؤلاء اليهود غاطسون في العمل الآثم ، فهم يسابقون في المعاصي والذنوب ، ويبادرون إلى ارتكاب المحرَّمات، وأكل السُّحت (الحرام). وقد سُمِّيَ بذلك لأنه يَسحت المالَ ، أي يهلكه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩١) : ((وفي السُّحت ثلاثة أقوال، أحدها : الرشوة في الحكم ، والثاني : الرشوة في الدِّين ، والثالث : الربا)) .

وقال الله تعالى : ﴿ إنما نُمْلِي لهم ليزدادوا إثماً ﴾[آل عمران : ١٧٨] .

إن الله تعالى حينما يُمهِل الكافرين بدون عذاب فتطول أعمارهم مع رغد العيش ، فهذا لا يعني نجاتهم من العقوبة، وإفلاتهم من الغضب الإلهي، لأن الإمهال هو عينُ العقوبة . فالجزاءُ الإلهي الواقع على الكافرين هو تركهم في غيِّهم وضلالهم وغرقهم في مستنقع الآثام دون مساعدتهم أو إخراجهم . فالله تعالى يُمهلهم ليغرقوا أكثر فأكثر في المعاصي فيزدادوا ذنوباً إلى ذنوبهم . وهذا هو الخذلانُ ورفض منحهم الهداية ، وتيسيرهم للعُسرى ، وهو استدراج بالنعم من حيث لا يعلمون . فالتمتع ، واللعب ، وطول الأمل ، وامتداد العمر ، ورغد العيش ، والغرق في الشهوات . كل ذلك يمنعهم من النظر وراء الاستمتاع المؤقَّت ، ووراء الحياة الدنيا ، وهو المصير الأبدي : الجنة أو النار .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((والذي لا إله غيره ، ما على الأرض نَفْسٌ إلا الموت خير لها ، إن كان مؤمناً فإن الله يقول :﴿ لكنِ الذين اتَّقَوْا ربَّهم لهم جنات تجري

من تحتها الأنهار ﴾[آل عمران: ١٩٨] . وإن كان فاجراً فإن الله يقول :﴿ إنما نُمْلِي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ [آل عمران: ١٧٨])) [26] .

فالموتُ خيرٌ للمؤمن والفاجر . فالمؤمنُ تنتظره جنَّاتٌ عرضها السماوات والأرض ، فيرتاح من تعب الدنيا وزينتها المملة وفتنتها المضطربة . والفاجرُ تنقطع آثامه فلا يَغرق أكثر في المعاصي ، بل يصل إلى حد معيَّن من الخطايا فلا يتجاوزها ، وبالتالي يخفُّ الحملُ عن كاهله .

ب_ الأعمال المحرَّمة :

١_ أكل الميتة والدم ولحم الخنزير :

قال الله تعالى : ﴿ إنما حَرَّمَ عليكم الْمَيْتَةَ والدمَ ولحمَ الخِنزير ﴾[البقرة : ١٧٣] .

واللهُ تعالى يَذكر في هذه الآية بعضَ الأمور المحرَّمة لكي يبتعد عنها الناس ، ويلتزموا بالطيبات. إذ إن الخبائث لها أثر سلبي على الإنسان ، روحياً ومادياً . حيث تنقله إلى عوالم الفساد والضيق ، وهذا ينعكس على السلوك الاجتماعي بشكل عام ، مما يُولِّد حالة ارتباك في المجتمع ، وغياب معاني الطهارة عن مساره وهويته. وإذا غرق المجتمع في مستنقع الخطايا، فإن الجميع سيدفع ثمناً، وعندئذ تقترب نهاية المجتمع وانكسار الحضارة . وإذا انتشرت في المجتمع حالة الانهيار والفوضى واللاايقين فلن ينجوَ أحدٌ ، وسوف تعمُّ الكارثةُ الجميعَ بلا تمييز . وعندما يقوم الفردُ بحماية مجتمعه من السلبيات فهو في الحقيقة يحمي نفسه وأُسرته قبل كل شيء .

والذنوبُ لا تنحصر خطورتها في ذاتها فحسب ، لأن ضررها يصل إلى سلوك الفرد والجماعة ، ويتسلل خطرها ليشمل كل مفاصل المجتمع البشري ، مما يؤدي إلى انتشار الفوضى ، وبث الفرقة والتنازع بين الأفراد . وعندئذ تتوقف حركة الإنتاج ، وتؤول حركةُ التاريخ الاجتماعي إلى شكل للفراغ والعبث .

فالخطايا لها تأثير بالغ على الطبيعة النفسية للبشر، والحراك الاجتماعي ، والروابط الإنسانية ، وعلاقاتِ الإنتاج والإعمار والتنمية . إنها مثل النار المنتشرة في الهشيم لا يمكن التنبؤ بمداها . كما أن الذنوب تستأصل النقاءَ والطهارة من مفاصل المجتمع ، فيتحول الفرد إلى آلة استهلاكية متوحشة ، ويتكرس المجتمعُ كمستنقع للروائح الكريهة والمنظر القبيح والمحتوى الدنيء . وعندئذ يندم الجميعُ على تقصيرهم ، ولكن بعد فوات الأوان .

---

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٦) برقم (٣١٦٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فالميتةُ محرَّمة ، وهي ما فارقته الروح من غير ذبح شرعي . ويُستثنى من التحريم ميتةُ البحر . فقد جاء في الحديث : عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ سئل عن ماء البحر فقال : ((هو الطهور ماؤه ، الحِلُّ مَيْتته))[27] .

والدمُ السائل محرَّم . أما الدم المختلط باللحم وعروقه فليس بحرام ، لأنه يصعب الاحتراز منه، كما أن في تحريمه مشقة كبرى على الناس ، وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرج ، وكلما ضاق الأمرُ اتَّسع . والخنزيرُ محرَّمٌ كلُّه ، وإنما خُصَّ اللحم بالذِّكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢١٠) : ((أجمعت الأُمة على تحريم شحم الخنزير . وقد استدل مالك وأصحابه على أن من حلف ألا يأكل شحماً فأكل لحماً لم يحنث بأكل اللحم، فإن حلف ألا يأكل لحماً فأكل شحماً حنث ، لأن اللحم مع الشحم يقع عليه اسم اللحم، فقد دخل الشحمُ في اسم اللحم ، ولا يدخل اللحم في اسم الشحم . وقد حَرَّم اللهُ تعالى لحمَ الخنزير فناب ذكر لحمه عن شحمه لأنه دخل تحت اسم اللحم)) اهـ . وقال السيد سابق في فقه السُّنة (١/ ١٩) : ((ويجوز الخرز بشَعر الخنزير في أظهر قول العلماء)) اهـ .

٢_ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام :

قال الله تعالى :﴿ يا أيها الذين آمَنوا إنما الخمر والميسِر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تُفلحون ﴾[المائدة : ٩٠] .

وقد ذكرت الآيةُ بعض المحرَّمات ، وهي : الخمر التي تُذهب العقلَ وتُسقط المروءةَ وتُفسد الأخلاقَ الحميدة ، والميسر (القمار) فقد كان أهلُ الجاهلية يتقامرون فنهاهم الإسلامُ عن هذا الخلق الذميم ، والأنصاب (حجارة كان المشركون يذبحون قرابينهم عندها)، والأزلام (قداح

---

(٢٧)رواه ابن حبان في صحيحه(٤/٥١)برقم(١٢٤٤)،وابن خزيمة في صحيحه(١/ ٥٨)برقم(١١٢). أما حديث " أُحلت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال " فقد رواه أحمد في مسنده (٢/ ٩٧) وابن ماجة في سُننه (٢/ ١١٠٢) . والحديثُ ضعيف ، ففي سنده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. ضعَّفه ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١) اهـ . وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٢٦) : ((ضعيف متروك . وقال أحمد : حديثه هذا منكر)) اهـ . وذكر الشوكاني في نيل الأوطار (٩/ ٢٢) أن أحمد وابن المديني ضعَّفاه .

كانوا يستقسمون بها) . وكل هذه المحرَّمات هي قاذورات ونجسٌ من إغواء الشيطان وتزيينه للمعاصي . فعلى المسلم أن يبتعد عنها بشكل كامل ، ولا يقترب منها بأية حال من الأحوال .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٦) : عن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ قال : وأتيتُ على نفر من الأنصار والمهاجرين ، فقالوا : تعال نطعمك ونسقيك خمراً ، وذلك قبل أن تُحرَّم الخمر، فأتيتُهم في حش _ والحش البستان _ فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزق من خمر، فأكلتُ وشربتُ معهم، فذكرتُ الأنصار والمهاجرين عندهم، فقلتُ : المهاجرون خيرٌ من الأنصار ، فأخذ رجل أحد لحي الرأس فضربني به ، فجرح بأنفي فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه ، فأنزل اللهُ عز وجل فِيَّ _ يعني نفسه _ شأن الخمر : ﴿ إنما الخمر والميسِر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان ﴾ .

الخمر كانت مباحة بلا نكير قبل تحريمها النهائي الحاسم . لكنها قادت إلى مشكلات عديدة بسبب إفسادها للعقل . فبعد أن شرب سعد بن أبي وقاص الخمرَ ، قال إن المهاجرين خيرٌ من الأنصار ، وهو محقٌّ في هذه الكلمة ، ولكن لكل مقام مقال ، فاغتاظ أحد الرجال، ويظهر أنه كان أنصارياً ، فضرب سعداً على أنفه بعظم الجزور (ما يصلح للذبح من الإبل) ، فجرح أنفَه ، وهم في مجلس الأكل وشرب الخمر . وكانت هذه الحادثة سبب نزول الآية الكريمة التي تُحذِّر من الخمر والقمار والأنصاب والأزلام ، لما فيها من كوارث مدمرة لحياة الفرد والجماعة ، وتأثيرات سلبية في كل المجالات . وهي بالطبع قاذوراتٌ من عمل الشيطان الفاسد .

٣_ الفاحشة والزنى :

١) الفحشاء :

قال الله تعالى : ﴿ الشيطانُ يَعِدكم الفقرَ ويأمركم بالفحشاء ﴾[البقرة : ٢٦٨] .

إن الفحشاء (ما اشتد قبحه من الذنوب قولاً وفعلاً) تعمل على تدمير الذات البشرية، وتفتيت أوصال المجتمع ، بسبب ما فيها من انحراف عن الفطرة السليمة ، وقيادة الجماعة الإنسانية نحو الهاوية عن طريق قتل الرقابة الداخلية ، ونشر الانحلال الأخلاقي ، وإضعاف الروح المعنوية ، مما يؤدي إلى طمس المناعة المجتمعية ، فينهار المجتمع بكل أطيافه .

وقد ارتبط ذكر الفحشاء بالشيطان والعكس صحيح . فالشيطانُ لا يكتفي بالأمر بارتكاب المعاصي والآثام ، بل يعمل _ أيضاً _ على منع العبد من فعل الطاعات . فمثلاً يحاول منعه من التصدق والإنفاق في سبيل الله تعالى ، حيث يُخوِّفه من الفقر . وهذه هي الفلسفة المعتمدة لدى

الشيطان (محاولة منع العبد من فعل الطاعات / الأمر بارتكاب المحرَّمات) . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٨) : ((أي يُخوِّفكم الفقرَ لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ... _ و_مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهر منها وما بَطن ﴾[الأنعام : ١٥١] .

وهذا نهي عن كل المعاصي والأفعال الشنيعة الظاهرة والباطنة (المستترة) . سواءٌ تم المجاهرة بها أم تمَّت في الخفاء . سواءٌ ما ظهر من المعاصي كأفعال الجوارح ، وما بطن كأفعال القلب .

وفي الدر المنثور (٢/ ٤٩٠) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كان أهل الجاهلية يُحرِّمون ما ظهر من الزنا ، ويستحلُّون ما خفي. يقولون : أمَّا ما ظهر منه فهو لؤم، وأمَّا ما خفي فلا بأس بذلك . فأنزل الله : ﴿ ولا تقربوا الفواحشَ ما ظَهر منها وما بَطن ﴾)) اهـ .

وهذا يشير إلى انتكاسة كبرى في العقل الجاهلي المحصور في عالم الرياء والسُّمعة والظاهر دون أي اعتبار للجوهر الحقيقي. وأهلُ الجاهلية لا يَملكون ميزاناً إيمانياً لقياس الأعمال. فالزنا_ بالنسبة إليهم _ ليس مشكلةً أو إثماً . بل المشكلة تكمن في ظهوره الذي قد يُسبِّب فضيحةً أو عاراً أو تلويثاً للنَّسب ، أمَّا إذا تم إخفاؤه فلا مشكلة في ذلك ، لأن الناس لن يَعرفوا بالأمر . وهذا هو الانهيار الشامل في العقل الجاهلي الذي تغيب عنه مراقبة الله تعالى .

٢) النكاح المحرَّم :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَنكحوا ما نَكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلف ﴾[النساء : ٢٢] .

أي : لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء . وما مضى قد عفا اللهُ عنه . والآيةُ تُحرِّم زوجاتِ الآباء على الأبناء تشريفاً لهنَّ ، وصوناً لمكانتهن، وحفظاً لصورة المرأة أن توطأ من قبل ابن زوجها. والجديرُ بالذِّكر أن أهل الجاهلية كانوا يُبيحون زواج الشخص من امرأة أبيه ، ولا يَخفى مقدار الإهانة والانهيار الخُلقي في هذا الزواج البائس الذي يَخلط الحابل بالنابل ، ويَجعل من الأنساب ألعوبةً متشابكة الخيوط لا معنى لها . وقد رَفع الإسلامُ مكانةَ المرأة ، وجعلها في رتبة سامية بعيدة عن هذا الإسفاف الذي يُمارَس باسم رابطة الدم ، والوصايةِ العائلية ، والسيطرة الذكورية في مجتمع لا يُقيم وزناً للمرأة. بل يحصرها في زاوية الشهوة وتلبية الرغبة الذكورية ذات النزعة التسلطية . وقد ذكر ابن كثير في تفسيره (١/ ٦١٧) الإجماع على حُرمة المرأة على ابن زوجها بمجرد العَقْد عليها .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٩٩) : ((وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه. وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي ألا ترى أن عمرو بن أمية خَلَفَ على امرأة أبيه بعد موته فَوَلَدَت له مسافراً وأبا معيط ، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره ، فكان بنو أمية أخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهم . ومن ذلك صفوان ابن أمية بن خلف تزوج بعد أبيه امرأته فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد ، وكان أُمية قُتل عنها . ومن ذلك منظور بن زبان خلف على مليكة بنت خارجة ، وكانت تحت أبيه زبان بن سيار. ومن ذلك حصن بن أبي قيس تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن ، والأسود بن خلف تزوج امرأةَ أبيه)) اهـ . و ((أخرج ابن أبي حاتم من طريق أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: تُوفِّي أبو قيس بن الأسلت ، وكان من صالحي الأنصار ، فخطب ابنُه قيس امرأةَ أبيه، فقالت: إني أَعُدُّكَ ولداً،ولكن آتي رسولَ الله أستأمره، فأتته فأخبرته فأُنزلت هذه الآية))[28] .

٣) نكاح المشركة وإنكاح المشرك :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَنكِحوا المشركاتِ حتى يُؤْمِنَّ ولأَمَةٌ مؤمنة خير من مُشركة ولو أَعْجَبَتْكُم ولا تُنكِحوا المشركين حتى يُؤمنوا ﴾[البقرة : ٢٢١] .

وهذا تحريمٌ واضح على المؤمنين أن يتزوجوا المشركاتِ عابدات الأصنام ، مهما كُنَّ جميلاتٍ أو صاحبات مال ، أو شريفات النَّسب . فرابطةُ الدِّين أعلى من رابطة الدم . وأيضاً تقول الآيةُ : لا تُزوِّجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات . والنساءُ الكتابيات مستثنيات من هذه الآية ، فلهنَّ وضعٌ خاص . وفي الدر المنثور للسيوطي (١/ ٦١٤) : ((عن مقاتل بن حيان قال : نزلت هذ الآية في أبي مرثد الغنوي ، استأذن النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها ، وكانت ذا حظ من جمال وهي مشركة ، وأبو مرثد يومئذ مسلم . فقال : يا رسول الله إنها تعجبني . فأنزل الله : ﴿ ولا تَنكِحوا المشركاتِ حتى يُؤْمِنَّ ولأَمَةٌ مؤمنة خير من مُشركة ولو أَعْجَبَتْكُم ﴾)) .

٤) النكاح في فترة الحيض :

قال الله تعالى : ﴿ ويسألونكَ عن المحيض قُل هو أذى فاعتزِلوا النساءَ في المحيض ولا تَقربوهنَّ حتى يَطْهُرْن ﴾[البقرة : ٢٢٢] .

(٢٨) العجاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٨٥١) ، ولباب النقول للسيوطي (١/ ٦٤) .

الآيةُ تُحرِّم جماعَ النساء أثناء الحيض ، أما ما دون ذلك من الاستمتاع فليس بمحرَّم . فمعنى الاعتزال الوارد في الآية هو اعتزال موضع الحيض وهو الفَرْج ولا يتعدى ذلك إلى باقي بدن المرأة. وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٩٢) : ((وإنما كان القوم سألوا رسولَ الله ﷺ _ فيما ذُكر لنا _ عن الحيض لأنهم كانوا قبل بيان الله لهم ما يتبيَّنون من أمره ، لا يُساكنون حائضاً في بيت ولا يُؤاكلونهن في إناء ، ولا يُشاربونهن ، فعَرَّفهم اللهُ بهذه الآية أن الذي عليهم في أيام حيض نسائهم: أن يتجنبوا جماعهن فقط دون ما عدا ذلك من مضاجعتهن ومؤاكلتهن ومشاربتهن)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٢٤٦) : عن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت،فسأل أصحابُ النبي ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونكَ عن المحيض قُل هو أذى فاعتزِلوا النساءَ في المحيض ﴾ إلى آخر الآية. فقال رسول الله ﷺ : ((اصنعوا كل شيء إلا النكاح)) ، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا : ما يريد هذا الرَّجلُ أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه .

إن المنهج الإسلامي قائمٌ بذاته، ومتميز عن غَيْره . وقوةُ الشريعة الإسلامية تتجلى في مصدرها السماوي الكامل المعصوم ، فهي غير متأثرة باليهودية والنصرانية ، أو الديانات الأخرى . ولا تقتبس تعاليمها من الشرائع الأرضية، لأن الكامل لا يمكن إكماله، وهذه هي الخاصية الكبرى للشريعة الإسلامية المخالِفة لباقي الشرائع ، لفظاً ومعنى ، مرجعيةً وممارسةً .

٥) عمل قوم لوط :

قال الله تعالى:﴿ ولُوطاً إذ قال لقَوْمه أَتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحد من العالَمين (٨٠) إنكم لَتَأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم مُسرِفون (٨١) ﴾[سورة الأعراف] .

وقد ذَكرت الآيةُ عملَ قوم لوط ﷺ ، وهو إتيان الرجال من أدبارهم. وهذه الفاحشة الشنيعة هي ابتكار قوم لوط ﷺ الذين اتبعوا أهواءهم الشخصية وتزيين الشيطان . فالشذوذُ الجنسي عند الرجال لم يكن معروفاً قبل قوم لوط[29] .

(٢٩) من الأمور التي يتوجب أن ننتبه إليها هي المصطلحات المستخدمة في نصوصنا الدينية ، ومدى التزامها بالكتاب والسنة الصحيحة. ومن هذه المصطلحات الشائعة لفظة " اللواط "، وهذه اللفظة سيئة للغاية لأنها مشتقة من اسم النبي لوط ﷺ ، وذات دلالة على فاحشة ، فاشتقاق اسم فاحشة من اسم نبي كُفْرٌ بواح. لذا فنحن نجزم أن النبي ﷺ لم يقل لفظة " اللواط " أو " لوطي" أو " اللوطية " أو أنه ﷺ

اشتق اسم فاحشة من اسم نبي ، لأن هذا العمل كفرٌ ، ومحال على الأنبياء المعصومين أن يقعوا في هذا الفعل الشنيع . لذلك أنصح إخواني بعدم استعمالها نهائياً لأنها كلمة كُفْرية ضد الإسلام تماماً، ويجب استعمال مكانها" فعل قوم لوط " للدلالة على إتيان الذَّكر للذكر . كما أنه من المعلوم أن خبر الآحاد (خبر الواحد) إذا عارض ثوابتَ الدِّين (القرآن والسُّنة المتواترة) فإنه يُرفَض فوراً ، كما أن العلماء وضَّحوا مسألة الحديث الصحيح سنداً الشاذ متناً . فبالنسبة لخبر الآحاد (الواحد) ، قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ١٣١) : ((وأما خبر الواحد فهو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر ، سواء كان الراوي له واحداً أو أكثر ، واختلف في حكمه ، فالذي عليه جماهير المسلمين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع يلزم العمل به ، ويفيد الظن، ولا يفيد العلم)) اهـ . وفي فتح الباري (٤/ ١٥٦) : ((خبر الواحد إذا جاء بخلاف القواعد لم يُعمَل به)) اهـ . قلتُ : أما بالنسبة للحديث الصحيح سنداً الشاذ متناً ، فقد قال الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١١٢ و١١٣): ((وإنما يُعَلَّل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل ، فإن حديث المجروح ساقط واهٍ ، وعلة الحديث يكثر في أحاديث الثقات أن يحدثوا بحديث له علة فيخفى عليهم علمه ، فيصير الحديث معلولاً ، والحجة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة)) اهـ . ولنستعرض الأحاديث الواردة في الموضوع لكي نقف على حقيقة الأمر بشكل علمي منهجي تفصيلي. أولاً : وردت العبارة النبوية الشريفة الثابتة " عمل قوم لوط " في أحاديث كثيرة صحيحة وحسنة منها : [١] عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : أن رسول الله ﷺ قال : ((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٥) برقم (٨٠٤٧) وصحَّحه، ووافقه الذهبي] .

[٢] عن جابر ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ : ((إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط)) [الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٧) برقم (٨٠٥٧) وصحَّحه، ووافقه الذهبي] . ثانياً : بالنسبة لاشتقاق اسم عمل قوم لوط من اسم النبي لوط ﷺ ، فقد وردت أحاديث في ذلك ــ مع العلم أنه لم ترد لفظة " اللواط " عن النبي ﷺ في كتب الحديث المعتمدة والمشهورة ــ :[١] ما رواه أبو داود (٢/ ٥٦٤) : عن ابن خيثم قال : سمعتُ سعيد بن جبير ومجاهداً يحدثان عن ابن عباس في البكر يؤخذ على اللوطية ، قال : يُرجَم . [٢] ما رواه أحمد (١/ ٣١٧) : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ((ملعون من عمل عمل قوم لوط)) ، قالها رسول الله ﷺ مراراً ثلاثاً في اللوطية .

قلتُ : لفظة " اللوطية" ليست من كلام ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ كما هو واضح من سياق الحديث الأول ، وفي الحديث الثاني ليست من كلام النبي ﷺ ، وهذا واضحٌ . ويغلب على ظني أنها من

وقد لعن النبيُّ ﷺ من عمل عملَ قوم لوط. وقالها ثلاثاً (30) **. وقد قال النبي ﷺ : ((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به))**(31) .

كلام أحد الرواة الذي اختزل فعل قوم لوط بهذه اللفظة الشاذة المعارِضة للعبارة النبوية الثابتة " عمل قوم لوط " ، وأقحم فهمَه الخاص في الحديث معلِّقاً عليه بهذه اللفظة المرفوضة " اللوطية " .

[٣] ما رواه أحمد (٢/ ١٨٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال : ((هي اللوطية الصغرى)) ، يعني الرَّجل يأتي امرأته في دبرها .

قلتُ : عبارة " اللوطية الصغرى " وردت ثلاث مرات في مسند الإمام أحمد في ثلاثة أحاديث مختلفة بأرقام (٦٧٠٦) و(٦٩٦٧) و (٦٩٦٨) مع الانتباه إلى أن هذه الأحاديث الثلاثة مختلف في رفعها ووقفها. فالواجب الالتزام بما صحَّ عن النبي ﷺ وهي عبارة " عمل قوم لوط " ، ورفض ألفاظ من قبيل" اللوطية " أو " اللواط" أو" اللوطي"لأنها ألفاظ كُفرية تَشتق اسمَ فاحشة من اسم نبي عظيم هو لوط ﷺ. ولو وردت هذه الألفاظ في أحاديث في أعلى درجات صحة السند، فيجب أن تُرفَض لأنها أخبار آحاد ضد قواعد الإسلام الأساسية القادمة من الكتاب والسنة المتواترة . فلا تُتعِب نفسك في الحكم على السند، لأن العلة الأساسية في المتن ـــ رغم أن علة السند الاختلاف في الوقف والرَّفع ـــ ، إذ إن تلك الألفاظ الشنيعة طعنٌ في نبي معصوم قاوم الفاحشةَ في قومه ، فهل جزاؤه أن يُشتَق من اسمه الشريف اسماً للفاحشة ؟. إنها مسألة غاية في الخطورة ، لأن من طعن في نبي فهو كافر ، ومن رماه بفاحشة أو نقيصة أو ذمَّه فهو كافر . فما بالك بهذه اللفظة الشنيعة ؟! . فإياك أن تعتقد أن المسألة تشديد أو غلو في الدِّين أو تعقيد ، فأسماء الأنبياء الشريفة تدل على شخوصهم الطاهرة ، ويجب أن تظل محفوظة من كل دنس أو شبهة. ولا يغرنك تكرارها في كلام العلماء ، لأن الحق أحق أن يُتَّبع ، واعرف الحق تعرف رجاله ، كما أن انتشار هذه الألفاظ من عموم البلوى. وأنا واثق أن علماءنا لم تظهر لهم المسألة بهذا الارتباط أو الاقتران الكارثي بين اسم نبي واسم فاحشة ، فظنوا المسألة مجرد لفظ يُطلَق ورد في أحاديث ذات أسانيد مُعتمَدة ولا مشاحة في استخدام الألفاظ ـــ كما هو سائد ـــ ، والأمر أكبر من ذلك بكثير. فنحن نحسن الظن بعلمائنا ، ونعذرهم لأنهم لم ينتبهوا إلى هذه المسألة ، لكن المعصوم هو النبي ﷺ فقط لا غير ، وجلَّ من لا يسهو . ونختم بما قاله محمد أمين في حاشية ابن عابدين (٧/ ١٦٢) : ((اعلم أن من القواعد القطعية في العقائد الشرعية أن قتل الأنبياء ، أو طعنهم في الأشياء ، كفر بإجماع العلماء)) .

(٣٠) صحيح ابن حبان (١٠/ ٢٦٥) برقم (٤٤١٧) .

وهذه الكبيرة المدمِّرة للإنسان والمجتمع ، لها تأثير قاتل في النسق البشري ككل . فهي انتكاسة ضد الفِطرة ، وتمرد على الشريعة الإلهية . فاللهُ تعالى خلق الرَّجلَ للمرأة ، وخلق المرأةَ للرَّجل ، فهما متكاملان روحاً وجسداً . والانحراف عن هذا السياق الواضح يُمثِّل جريمةً بحق الوجود الإنساني ، وطبيعةِ الحياة على الأرض . لذلك كانت عقوبة هذا الفِعل الدنيء شديدة للغاية متناسبة مع طبيعته القذرة .

٦) إتيان النساء في غير الموضع :

قال الله تعالى : ﴿ نِساؤكم حَرْثٌ لكم فَأْتوا حَرْثَكم أنَّى شِئْتُم ﴾[البقرة : ٢٢٣] .

شبَّه اللهُ تعالى النساءَ بمواضع الحرث ، حيث يلقي الإنسانُ البذورَ وينتظر الإنباتَ . فالنطفُ التي تُلقى في أرحامهن هي البذور ، وانتظار الولد هو النبات . وموضعُ الزرع في المرأة هو قُبلها ، أما الدُّبر فليس هو بحرث ولا مكان زرع . فلا حرج من إتيان النساء بأية كيفية ما دام ذلك في الفَرْج . أمَّا إتيان المرأة في دُبرها فهو شذوذ ، وتفضيلٌ للقذارة على الطهارة . وهذا مرضٌ ينبغي علاجه بكل السبل الممكنة .

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ قال : ((كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت ﴿ نِساؤكم حَرْثٌ لكم فَأْتوا حَرْثَكم أنَّى شِئْتُم ﴾))[32] .

وهذه الآيةُ تُكذِّب اليهودَ ، وتفضح جهلَهم ، وتُظهر كلامَهم المعتمد على الهوى والآراء الشخصية دون وجود منهجٍ شرعي أو علمي .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٠/ ٦) : ((قال العلماء : وقوله تعالى :﴿ فَأْتوا حَرْثَكم أنَّى شِئْتُم ﴾ أي موضع الزرع من المرأة ، وهو قُبلها الذي يُزرَع فيه المني لابتغاء الولد ، ففيه إباحة وطئها في قُبلها إن شاء من بين يديها ، وإن شاء من ورائها ، وإن شاء مكبوبة . وأما الدُّبر فليس هو بحرث ولا موضع زرع . ومعنى قوله :﴿ أنَّى شِئْتُم ﴾ أي كيف شئتم . واتفق العلماء الذين يُعتد بهم على تحريم وطء المرأة في دُبرها ، حائضاً كانت أو طاهراً ، لأحاديث كثيرة مشهورة)) اهـ .

---

(٣١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٥) برقم (٨٠٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣٢) متفق عليه.البخاري (٤/ ١٦٤٥) برقم (٤٢٥٤)،ومسلم (٢/ ١٠٥٨) برقم (١٤٣٥).

والإتيانُ من الدُّبر فعل خبيث مستقذَر ضد الفطرة والطهارة . وهو يدل على انتكاسة خُلقية ، وعدم احترام لخصوصية العلاقة الجنسية بين الزَّوجين ، وعدم إدراك لأبعادها الروحية والمادية .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا ينظر اللهُ إلى رَجل أتى امرأةً في دُبرها))[33] .

٤_ في المال :

١) أكل الأموال بالباطل :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بَيْنكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكَّام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تَعلمون ﴾[البقرة : ١٨٨] .

وهذا نهي عن أكل الأموال بالوسائل المحرَّمة التي ترفضها الشريعةُ ، مثل السرقة والنَّصب وغيرهما ، ونهي كذلك عن تقديم الحجج الباطلة للحكام ، والتحايلِ عليهم من أجل الاستيلاء على أموال الناس بالإثم ، أو تقديم الرشوة لهم لكي يحكموا بغير الحق ، ويسهل عندئذ أكل المال بالباطل .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٥) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرَّجل يكون عليه مال ، وليس عليه فيه بَيِّنة فيجحد المالَ ، ويُخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾[النساء : ٢] .

والآية تتحدث عن الأيتام ، وأهمية حفظ حقوقهم لئلا تضيع، وحُرمة أكل أموالهم . فهم طبقة اجتماعية ضعيفة لا يقدرون على رعاية أمورهم بأنفسهم بسبب عجزهم ، وقلة خبرتهم لغياب التوجيه والقيادة، كما أنهم أصحاب مشاعر منكسرة وإمكانيات محدودة، فيسهل التحايل عليهم ، أو أكل أموالهم بالباطل ، أو النصب عليهم . والمجتمعُ الإسلامي المبني على التراحم وعدمِ ابتزاز الآخرين واستغلالِ نقاط ضعفهم يحضن جميعَ أبنائه دون قهرهم أو التمييز بينهم .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٤٢٥) أن مجاهد قال في تفسير الآية : ((لا تأكلوا أموالهم مع أموالكم ، تخلطونها فتأكلونها جميعاً)) اهـ .

---

(٣٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٥١٧) برقم (٤٢٠٣) .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا إن كثيراً من الأحبار والرُّهبان ليأكلون أموالَ الناس بالباطل ويَصُدُّون عن سبيل الله ﴾[التوبة : ٣٤] .

فالكثير من الأحبار(علماء اليهود) والرُّهبان (عُبَّاد النصارى) يأكلون أموال الناس بالحرام، وذلك باسم البِيَع والكنائس ، وفرض الضرائب على الأتباع ، وخداعهم بأن يقولوا لهم إن هذه الأموال قُربة إلى الله تعالى، وتُستعمَل للإنفاق على دور العبادة ودعمِ المؤمنين . وهذه الحِيَل موجودة في كل زمان ومكان .

ولا تزال " صُكوكُ الغفران " عالقةً في الأذهان، وهي مثال واضح على أكل أموال الناس بالوسائل المحرَّمة ، واستعمالِ الكذب والخداع وطرق الاستغلال . فهم يأكلون الدنيا بالدِّين مستغلين مناصبهم وسُلطاتهم ومكانتهم الاجتماعية .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٣٥٧) : ((يا أيها الذين صدقوا اللهَ ورسوله وأقرُّوا بوحدانية ربهم ، إن كثيراً من العلماء والقراء من بين إسرائيل من اليهود والنصارى ... يأخذون الرشى في أحكامهم ، ويُحرِّفون كتاب الله ، ويكتبون بأيديهم ثم يقولون : (هذه من عند الله) ، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم...ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه بنهيهم إياهم عنه)).

٢) التطفيف في الوزن :

قال الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ للمُطَفِّفين (١) الذين إذا اكتالوا على الناس يَسْتَوْفون (٢) وإذا كالوهم أو وَزَنوهم يُخسِرون (٣) ﴾[سورة المطفِّفين] .

العذابُ لهؤلاء الفسقة الذين يُنقصون المكيالَ والميزان . فإذا أخذوا الكيلَ من الناس أخذوه كاملاً بلا نقص ، وإذا وزنوا للناس يُنقصون الكيلَ . وهذه كانت صفةَ قوم شُعيب ﷺ الذين حَلَّ عليهم العذاب الشديد . وهذا الفعل الشنيع هو خيانة للأمانة، وسرقة في وضح النهار ، واستغفال للناس، وخداع لهم، وتحايل عليهم، وسوء تعامل بين الناس ، لذلك كان عذابُه شديداً ، وعاقبته وخيمة.قال الذهبي في الكبائر (ص ٢٦٥) : ((والمطفِّف هو الذي ينقص الكيلَ والوزن ، وسُمِّيَ مُطَفِّفاً لأنه لا يكاد يسرق إلا الشيء الطفيف، وذلك ضربٌ من السرقة والخيانة، وأكلِ الحرام)).

وعن ابن عباس _ رضي الله عنه _ قال : ((لَمَّا قَدِم النبيُّ ﷺ المدينةَ كانوا من أخبث الناس كَيْلاً ، فأنزل اللهُ _ سبحانه _ : ﴿ وَيْلٌ للمُطَفِّفين ﴾ ، فأَحْسَنوا الكيلَ بعد ذلك))[34] .

(٣٤) رواه ابن ماجة في سُننه (٢/ ٧٤٨) برقم (٢٢٢٣) وصحَّحه الحافظ في الفتح (٨/ ٦٩٦).

وفي الحديث النبوي : ((ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسِّنين ، وشدة المؤنة ، وجَوْر السُّلطان عليهم))[35] .

وهذه هي النتائج العملية على أرض الواقع لعملية إنقاص المكيال والميزان ، وهي عقوباتٌ عاجلة تأتي جزاءً وفاقاً على عملية تطفيف الكيل ، فتصبح حياتهم بالغة الصعوبة ، يعانون القحطَ والجدبَ وقلةَ الغذاء وضيقَ العيش ، ويقع عليهم ظلم الحكام ، فيصبحون مقهورين في حياةٍ مليئة بالنكد والألم والعذاب .

٣) الربا :

قال الله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يَتخبَّطه الشيطانُ من الْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

والرِّبا من أكبر الكبائر ، والذي يأكله يقوم يوم القيامة من قبره كالمصروع الذي يتخبَّطه الشيطانُ ، فيكون كالمجنون عقوبةً له ، وفضيحةً له بين أهل المحشر . فهذه علامة مميزة لأهل الربا . والربا استغلالٌ واضح لضعف الآخرين ، وابتزاز لهم . وهو يساهم في تدمير الروابط الاجتماعية، وتأسيس الفكر الإنساني وفق مبادئ الظلم ، والانتهازية، والحقد، واقتناص لحظات ضعف الآخرين وحاجتهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٧٤) : ((أي الآخذون له ، وإنما ذُكر الأكل لأنه أعظم منافع المال ، ولأن الربا شائع في المطعومات ، وهو زيادة في الأجل بأن يباع مطعوم أو نقد بنقد إلى أجل ، أو في العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه)) اهـ .

وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال : لَمَّا نزلت ﴿ الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يَتخبَّطه الشيطانُ من الْمَسِّ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : ((مَن لم يَذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله))[36] .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٦) : ((وإنما حُرِّمت المخابرة وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة : وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل وبالتمر على وجه الأرض ،

(٣٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٨٢) برقم (٨٦٢٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٣٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٤) برقم (٣١٢٩) وصححه ووافقه الذهبي .

والمحاقلة وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض إنما حُرِّمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الرِّبا لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٢١٩) عن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنه _ قال : ((لعن رسولُ الله ﷺ آكلَ الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهدَيْه)) .

فهؤلاء الأصناف سواءٌ في المعصية لأنهم متضافرون على تنفيذ هذه الكبيرة الشنيعة التي من شأنها تدمير المجتمع عبر استغلال الأغنياء للفقراء ، مما يؤدي إلى توليد تيارات طبقية متناحرة تقود المجتمع إلى الفوضى ، وغيابِ العمل الفعال المبدِع ، ونشرِ الكراهية والحقد والانتقام بين الناس ، وتكريس الشطط الطبقي ، والظلم الاجتماعي ، وانعدام تكافؤ الفرص بين أبناء المجتمع .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ٢٦) : ((هذا تصريح بتحريم كتابة المبايعة بين المترابين ، والشهادة عليهما . وفيه تحريم الإعانة على الباطل ، والله أعلم)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : عن النبي ﷺ قال : ((الرِّبا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرَّجلُ أُمَّه))[37] .

وهذا يشير إلى خطورة الربا . فهو ليس معاملةً مالية عادية ، وإنما محاربة لله تعالى ، وعدم التزام بالشريعة . وقد توعَّد اللهُ تعالى الذين لم يتركوا ما بقي من الربا (ما لهم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال) بالحرب : ﴿ فَأْذنوا بحرب من الله ورسولِه ﴾ [البقرة : ٢٧٩] .

وقال الله تعالى : ﴿ يمحق اللهُ الرِّبا ﴾[البقرة : ٢٧٦] .

فاللهُ تعالى يُذهِب الرِّبا ، إما بشكل كامل أو بشكل جزئي ، أو ينزع البركةَ من أموال الربا فلا تحصل المتعة بها في الدنيا ، فتكون وبالاً على صاحبها في الدنيا والآخرة .

وعن ابن مسعود_رضي الله عنه_أن النبي ﷺ قال:((الرِّبا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل))[38].

الرِّبا متعةٌ مالية وقتية زائلة مهما كثر فإن عاقبته ستؤول إلى النقص أو الاضمحلال . فالخسرانُ مقترن بالربا لا ينفكان ، فما بُنِيَ على باطل فهو باطل ، وإذا كانت الجذورُ فاسدة فإن الشجرة ستسقط حتماً . والمعاملةُ الرِّبوية هي الفساد بعينه ، فكل ما يوضع فيها ستصير عاقبته إلى

---

(٣٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣) برقم (٢٢٥٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٣٨) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٩٥) برقم (٣٧٥٤) وحسَّنه الحافظ في الفتح (٤/ ٣١٥) ، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣) برقم (٢٢٦٢) وصححه ووافقه الذهبي .

الخسارة ، وكل ما يمر عن طريقها سيؤول إلى الفساد ، وكل ما يقترن بها فمصيره الهلاك . وكما قيل إنك لن تجنيَ من الشوك العنبَ .

٤) السرقة :

قال الله تعالى:﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبا نَكالاً من الله ﴾[المائدة:٣٨] .

فكل من سرق، سواءٌ كان رجلاً أو امرأة، فينبغي قطعُ يده جزاءً على سوءِ فِعلته. فهذه عقوبة إلهية لا يمكن إلا تنفيذها . وقد قَدَّمَ اللهُ ذِكْرَ السارق على السارقة ، لأن الرَّجل أكثر جُرأةً وأشد قوةً . والإسلامُ قد صان المالَ ، ووضع التشريعات المؤدية إلى المحافظة عليه من عبث كل عابث . لذا فقد جاءت العقوبة مشدَّدة على السارق وهي قطع اليد التي باشرت السرقة. مما يجعل الشخص الذي يريد السرقةَ يفكر ألف مرة قبل إقدامه على هذا الفعل القبيح . والسرقةُ من الكبائر ، وهي مشتملة على الخيانة والاعتداء على أموال الآخرين ، والتعدي على حقوق الناس .

وفي الحديث : ((لا يسرق السارقُ حين يسرق وهو مؤمن))[39] .

أي إن كمال الإيمان منفيٌّ عن السارق حين يسرق ، لا أنه صار كافراً . فالسرقةُ تُنقِص في إيمان الفرد ، وتؤثر سلباً عليه ، فحينما يقوم بهذه الفِعلة فهو ناقص الإيمان لا فاقد الإيمان بالكلية . والجدير بالذكر أن هناك شروطاً دقيقة ينبغي توفرها لقطع يد السارق ، وهي موجودة في كتب الفقه بالتفاصيل . لكننا نذكرها بشكل إجمالي وهي : أخذ مال الغير على جهة الاستتار والاختفاء من الحِرز (مثل الدار والدكان والصندوق ... إلخ). وهذه الشروط ينبغي توفرها معاً .

وبعض الغربيين يثيرون الشبهاتِ حول قطع يد السارق ، فيزعمون أن هذا الأمر وحشية ورجعية وبدائية ، وضد حقوق الإنسان ، وسيُحوِّل الناس إلى كائنات عاجزة أصحاب أطراف مقطوعة . وهذه الصورة المسبقة التي تخترعها جهاتٌ في الغرب للإساءة إلى الإسلام مكشوفة للجميع وبعيدة عن الإنصاف والحقيقة .

فمن يستعرض تاريخَ المسلمين من بداية تطبيق الحدود حتى التوقف عن تطبيقها ، سوف يجد أن الذين أُقيم عليهم حد السرقة قِلةٌ قليلة تكاد لا تُذكَر ، فلم يتحول المسلمون إلى كائنات مشلولة مقطوعة الأطراف ، بل صنعوا حضارةً زاهية استمرت أكثر من ألف عام ، بلغوا فيها الذروةَ

(٣٩) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢١٢٠) برقم (٥٢٥٦) ، ومسلم (١/ ٧٦) برقم (٥٧) .

من الحضارة والرقي والعلم والتمدُّن ، وهذا دليلٌ باهر وواقعي على أن تطبيق الحدود الشرعية يساهم في بناء الحضارة لا هدمها .

فحدُّ السرقة (والحدود عموماً) هي إجراءات ردع استباقية لإخافة الذين يفكرون بممارسة الجرائم . وهذا يمنعهم من تنفيذها ، وبالتالي حماية الفرد والجماعة .

أمَّا أن يتم سجن السارق بعض الوقت في سجن مريح كالفندق الراقي ، ثم يخرج للاستمتاع بما سرقه ، ويُعاود السرقةَ من جديد ، فهذا سيؤدي إلى تدمير المجتمع ، وضياعِ حقوق الناس ، وضياعِ الأمن والأمان ، فيسقط المجتمع من أجل عيون بعض المجرمين .

كما أن شروط تنفيذ حد السرقة يصعب تحصيلها معاً في شخص واحد ، وبالتالي ستكون حالات السرقة نادرةً جداً، ولن تجد مجتمعاً بشرياً بلا أطراف _كما يزعم بعض الجهال الذين لا ينظرون إلى تبعات الأمور _ . فهذا الحزمُ في إقامة الحدود جاء لحفظ الأمن والأمان ، وحراسةِ أموال الناس ، وضبطِ المجتمع بحيث لا تنفلت الأمور ، فيضيع الصالحُ مع الطالح .

كما أن تطبيق الحدود الشرعية يشير بكل وضوح إلى خضوع المجتمع الإسلامي بكل طبقاته لأحكام الشريعة ، فهذه الحدود يتم تطبيقها على الجميع بلا تمييز، وهذا ينفي صفة الطبقية البغيضة عن المجتمع الإيماني ، فكل المؤمنون سواء أمام الْحُكم الإلهي .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (٣/ ١٢٨٢) ومسلم (٣/ ١٣١١) أن النبي ﷺ قال : ((وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سَرقت لقَطعتُ يدها)) .

وهذا يدل على أن جميع أفراد المجتمع يَخضعون للشريعة الإسلامية دون تمييز . فلا توجد واسطة ولا محسوبيات . كما أن الشريعة تُطبَّق على الضعيف والقوي ، والغني والفقير ، والشريف والوضيع . وهذا هو أساس منهج العدالة الاجتماعية في الإسلام .

٥) كنز الذهب والفضة :

قال الله تعالى : ﴿ والذين يَكْنِزون الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فَبَشِّرْهم بعذاب أليم ﴾[التوبة: ٣٤].

والكنزُ هو كل مالٍ لم يتم إخراج زكاته . وجريمةُ عدم إخراج الزكاة تُعرِّض صاحبَها للغضب الإلهي الشديد، والعذاب في الآخرة. فالحريصون على الذهب والفضة يحرسونها بالأظافر والأسنان، ولا يؤدون حقَّ الله فيهما ، سيكون مصيرهم الموت ، فيتركون أموالَهم _ رغماً عنهم لورثتهم _ ، وسيُلاقون عذاباً أليماً ، فهم خزنةُ أموال للآخرين ، وهم الذين يُحاسَبون عليها . وهذا

يدل على غياب البصيرة تماماً . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٢٨ و٤٢٩) عن الآية : ((اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال. أحدها : أنها نزلت عامة في أهل الكتاب والمسلمين ، قاله أبو ذر والضحاك . والثاني : أنها خاصة في أهل الكتاب ، قاله معاوية بن أبي سفيان . والثالث : أنها في المسلمين ، قاله ابن عباس والسدي)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٥٠٩) : عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فقال أعرابي : أخبرني قول الله ﴿ والذين يَكْنِزون الذهبَ والفضةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله ﴾ . قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : ((من كَنَزَها فلم يُؤَدِّ زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أُنزلت جعلها الله طُهراً للأموال)) .

وسياقُ الحديث يُشعِر أن كنز الذهب والفضة كان محرَّماً على الإطلاق ، ثم نُسخ ذلك بفرض الزكاة . وحينما نزلت الزكاة بمقادير محددة صارت تطهيراً للأموال وصيانةً لها . والزكاةُ هي حارسة للمال تصونه من التلف والهلاك ، وتقود صاحبها إلى الرضا الإلهي .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٦٣): عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن آتاه اللهُ مالاً فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّل له ماله شجاعاً أقرع له زبيبتان، يُطوِّقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه ـ يعني بشدقيه ـ يقول : أنا مالُك أنا كنزُك)) .

فعدمُ إخراج الزكاة يقود المرءَ إلى الهلاك ، حيث يصير مالُه حيةً ذَكراً بلا شَعر على الرأس من كثرة السُّم . والزبيبتان هما نابان يخرجان من فمه أو نقطتان سوداوان فوق عينيه . فيُطوِّقه يوم القيامة ويأخذ بشِدْقَيْه (العظمَيْن الناتئَيْن تحت الأُذنَيْن) عقوبةً وعذاباً له ، ويقول مُقرِّعاً له : أنا مالك أنا كنزك .

٥ـ في القول :

١) التحليل والتحريم :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتُكم الكذبَ هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذبَ ﴾[النحل : ١١٦] .

والآيةُ تَذُمُّ من يُحلِّلون ويُحرِّمون دون مستند شرعي ، فيخترعون الأحكامَ من بنات أفكارهم وتبعاً لأهوائهم وآرائهم الشخصية دون الرجوع إلى الشريعة الإلهية .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٧٣) : ((الآية خطابٌ للكفار الذين حَرَّموا البحائرَ والسوائبَ ، وأَحَلُّوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة . فقوله : ﴿ هذا حلال ﴾ إشارة إلى ميتة

بطون الأنعام وكل ما أَحَلُّوه،وقوله﴿ هذا حرام ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حَرَّموه)).

٢) الغِيبة :

قال الله تعالى : ﴿ ولا يَغتب بعضُكم بعضاً ﴾[الْحُجُرات : ١٢] .

فيه نهي عن الغِيبة . والغِيبةُ محرَّمةٌ بالإجماع ، ويُستثنى من ذلك ما كان لغرض شرعي .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠١) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ : أن رسول الله ﷺ قال : ((أتدرون ما الغيبة ؟)) ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ((ذِكرك أخاك بما يَكره)) ، قيل : أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟ ، قال : ((إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه ، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه _ من البهتان وهو الباطل _)) .

فقد يكون المرءُ صادقاً في وصف أخيه ، لكنه يُعتبَر مغتاباً إذا ذكره بما يَكره . وإغلاقُ باب الغِيبة من شأنه بناء مجتمع متماسك لا مكان للحقد فيه . وعلى المرء أن يشتغل بإصلاح عيوبه قبل أن ينظر إلى عيوب الناس ، وأن يكون مدافعاً عن عِرض أخيه المسلم ضد الكلام القبيح ، إذ إن الحاضرين في مجلس الغِيبة كلهم آثمون ، سواءٌ المتحدث والمستمع .

وتباح الغِيبة ضمن شروط محدَّدة شرعاً لا مجال للتحايل عليها أو التلاعب فيها . فيجوز للمرء أن يتظلم إلى الحاكم أو القاضي ، ويَذكر مظلمته واسم الظالم ، ويُعدِّد الأفعالَ القبيحة التي قام بها ضده ، وذلك من أجل تحصيل حقوقه ، وردع الظالم ، وإشاعة العدل في المجتمع .

وتباح الغِيبة ضمن منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإذا رأى الإنسانُ مُنكَراً يصدر من شخص ، فعليه تغيير ذلك ، أو يلجأ إلى من يملك القدرةَ فيخبره بالفعل المنكَر وصاحبه من أجل ردعه ، وإعادته إلى طريق الصواب .

والغِيبة مسموحة في مجال الاستفتاء . فعندما يَذهب الإنسان إلى المفتي ، فله أن يقول ظلمني فلان ، أو سرقني ، أو اعتدى عليَّ . ولا بأس بتعيين الشخص باسمه ، وذِكر ما قام به من أعمال سيئة . ومن المجالات التي يُسمَح فيها بالغِيبة ، بل تصبح الغِيبة واجباً ، مجال تحذير المسلمين من الأخطار والشرور . فأيُّ شخصٍ يقوم بعمل قبيح ، فينبغي تحذير المسلمين منه ، ومن أفعاله ، خوفاً من إفسادهم أو إلحاق الضرر بهم .

كما أن المجاهِر بالفسق والذي يقوم بالآثام جهاراً نهاراً ، تجوز غِيبته بما يُجاهِر به فقط .

وهناك أشخاص لا يمكن معرفتهم إلا بألقاب سيئة ، مثل : الأحول ، الأعرج ، القصير . فيجوز استخدام هذه الألقاب للتعريف بهم لا الإساءة لهم ، وانتقاصهم ، وتشويه سُمعتهم . وفي هذه الحالة تجوز الغِيبة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٤٢و١٤٣) : ((لكن تباح الغيبة لغرض شرعي ، وذلك لستة أسباب ، أحدها : التظلم ، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول ظلمني فلان أو فعل بي كذا . الثاني : الاستغاثة على تغيير المنكر ، ورد العاصي إلى الصواب ، فيقول لمن يرجو قدرته : فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك. الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمفتي : ظلمني فلان أو أبي أو أخي أو زوجي بكذا فهل له ذلك وما طريقي في الخلاص منه ودفع ظلمه عني ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة ، والأجود أن يقول في رَجل أو زوجٍ أو والد وولد كان من أمره كذا ، ومع ذلك فالتعيين جائز ... الرابع : تحذير المسلمين من الشر وذلك من وجوه ، منها جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين وذلك جائز بالإجماع ، بل واجب صوناً للشريعة ، ومنها الإخبار بعيبه عند المشاورة في مواصلته ، ومنها إذا رأيتَ من يشتري شيئاً معيباً أو عبداً سارقاً أو زانياً أو شارباً أو نحو ذلك ، تذكره للمشتري إذا لم يعلمه ، نصيحة لا بقصد الإيذاء والإفساد . ومنها إذا رأيت متفقهاً يتردد إلى فاسق أو مبتدع يأخذ عنه علماً وخفتَ عليه ضرره فعليك نصيحته ببيان حاله قاصداً النصيحة، ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليته أو لفسقه فيذكره لمن له عليه ولاية ليستدل به على حاله فلا يغتر به ويلزم الاستقامة . الخامس : أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالخمر ومصادرة الناس وجباية المكوس وتولي الأمور الباطلة فيجوز ذِكره بما يجاهر به ، ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر . السادس : التعريف ، فإذا كان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع ونحوها جاز تعريفه به ، ويحرم ذِكره به تنقصاً ، ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى ، والله أعلم)) اهـ .

وعن أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع اللهُ عورته ، ومن يتبع اللهُ عورته يفضحه في بيته))[40] .

---

(٤٠) رواه أبو داود (٢/ ٦٨٦) . وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ١٥٩) : إسناده جيد .

فمن يتبع عوراتِ المسلمين فإن اللهَ تعالى سيفضحه ولو كان في جوف منزله . وهذا الوعيدُ الشديد يدل على خطورة كشف العورات ، ونشر الفاحشة بين الناس ، وعدم الدفاع عن أعراض المسلمين .

٣) كتم الشهادة :

قال الله تعالى : ﴿ ومَن أظلم مِمَّن كتم شَهادةً عِنده من الله ﴾[البقرة : ١٤٠] .

أي : لا أحد أظلم من أهل الكتاب الذين كتموا شهادةَ الله تعالى ، وهي معرفتهم بأن الأنبياء كانوا مسلمين ، ولا يدينون باليهودية ولا النصرانية .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٣٤) : ((هذا توبيخ لهم ، وهو أن الله تعالى أشهدهم في التوراة والإنجيل أنه باعث فيهم محمداً ﷺ من ذرية إبراهيم _ عليه السلام _ ، وأخذ مواثيقهم أن يُبَيِّنوه ولا يكتموه)) اهـ .

وأهلُ الكتاب معروفون بكتمان الحق الذي يؤمنون به في قرارة أنفسهم ، لكنهم يخفونه طمعاً في الحفاظ على مناصبهم الدنيوية ، وخوفاً من فقدان امتيازاتهم وخسارةِ المكتسبات المادية والمعنوية التي يُحصِّلونها عبر تحريف النصوص الدينية واحتكار تأويلها بما يضمن تحقيق مصالحهم الشخصية .

وقد ذكر ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ ، ((فسألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه ، ثم أتوه فسألهم فأخبروه بغير ذلك ، فخرجوا ورأوا أن قد أَخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه مما سألهم عنه))(41) .

واليهودُ مشهورون بكتمان الحق . وهُم يتخذونه منهجاً دينياً واجتماعياً لحماية أنفسهم _ من وجهة نظرهم _ ، وتحقيق أهدافهم الخبيثة الرامية إلى طمس الحق ، وإظهار الباطل .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تَكتموا الشَّهادةَ ﴾[البقرة : ٢٨٣] .

وهذا نهيٌ عن كتمان الشهادة . فلا يجوز كتمانها حتى لو كانت على الشخص نفسه أو أقرب المقرَّبين إليه ، ويجب بيانها بشكل واضح لا لَبْس فيه ولا غموض . إذ إن الشهادة تقوم عليها الكثير من الحقوق والقضايا الاجتماعية الهامة ، وإذا كُتمت فإن ضرراً فادحاً سيلحق بأصحاب الحقوق ، وهذا تدميرٌ شامل للمجتمع . لذلك ليس غريباً أن يكون كتمانُ الشهادة من الكبائر ،

---

(٤١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٧) برقم (٣١٧١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ومقترناً بشهادة الزور ، فكلاهما يؤدي إلى إضاعة الحقوق . وقد ورد عن النبي ﷺ أن من علامات الساعة : ((ظهور شهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق))[42] .

٤) الحلف على معصية :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَجعلوا اللهَ عُرْضةً لأيمانكم ﴾[البقرة : ٢٢٤] .

فعلى المرء أن لا يحلف على ترك الطاعات أو ارتكاب المحرَّمات لئلا تصبح الأيمان طريقاً للمعصية والذنوب . كما أن الأيمان لا ينبغي أن تكون مانعاً من فعل الطاعات ، أو حاجزاً يحول دون تنفيذ أعمال الخير . والمؤمنُ لا يحلف على فعل معصية ، فعليه أن يُعظِّم اسمَ الله تعالى فلا يُورده إلا في سياق الخير والبركة والأعمال الطيبة. أما اتخاذ الحلف كوسيلة لإلزام النفس بالمعاصي فهذا ليس من الخلق الإسلامي في شيء .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٥٨) : ((يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعةً لكم من البِر وصلة الرحم إذا حلفتُم على تركها)) اهـ .

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٥٣) أربعة أقوال في سبب نزول الآية : ((أحدها : أنها نزلت في عبد الله بن رواحة ، كان بينه وبين خَتَنِه (صِهْره) شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يُكلِّمه، وجعل يقول : قد حلفتُ بالله فلا يحل لي إلا أن تبر يميني فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس . والثاني : أن الرجل كان يحلف بالله أن لا يصل رحمه ولا يصلح بين الناس فنزلت هذه الآية ، قاله الربيع بن أنس . والثالث : أنها نزلت في أبي بكر حين حلف لا ينفق على مسطح، قاله ابن جريج. والرابع: نزلت في أبي بكر حلف أن لا يصل ابنه عبد الرحمن حتى يسلم ، قاله المقاتلان ابن حيان وابن سليمان)) اهـ .

وفي الحديث المتفق عليه [البخاري (٦/ ٢٦١٣) ومسلم (٣/ ١٢٧٣)] : ((إذا حلفتَ على يمين فرأيتَ غيرها خيراً منها فَكَفِّرْ عن يمينك ، وَأْتِ الذي هو خير)) .

فاليمينُ لا تكون سَدَّاً يمنع فعلَ الخير . فعلى المرء أن يلتزم بالخير أينما وُجد ، حتى لو تعارض ذلك مع يمينه ، فيُكفِّر عن اليمين ، ويلتزم بالخير قولاً وفعلاً .

٥) الهمز واللمز :

قال الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزةٍ ﴾[الْهُمَزة : ١] .

---

(٤٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٠) برقم (٧٠٤٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فالويلُ (العذاب والهلاك) لكل مغتاب للناس ، يعيبهم ويطعن فيهم . وهذا هو الجزاءُ المستحق لكل الذين يطعنون الناسَ ، ويراقبونهم من أجل الانتقاص من قَدْرهم ، وإلصاق العيوب بهم . فهذا العملُ الكارثي من شأنه تدمير المجتمع ، وشطب سُمعة الأفراد وتصنيفهم في خانة الشُّبهة والسوء ، وعندئذ تتفكك الجماعةُ ، وتعجز عن الاجتماع على كلمة واحدة .

وقال السيوطي في لباب النقول (١/ ٢٣٤) : ((وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحاق قال : كان أمية بن خلف إذا رأى رسولَ الله ﷺ هَمَزَه ولَمَزَه ، فأنزل الله: ﴿ وَيْلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزةٍ ﴾ السورة كلها)) اهـ .

وهذه الآيةُ شاملةٌ لكل همزة لمزة في كل زمان ومكان ، لأن العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فكلُّ مغتابٍ طاعنٍ في الناس قد عرَّض نفسَه للهلاك الشديد والعذابِ الأليم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : _ ﴿ وَيْلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزةٍ ﴾ ، قال : ((الويل واد في جهنم ، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يفرغ من حساب الناس))[43] .

٦_ القتل والقتال :

١) قتل الأولاد :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَقتلوا أولادَكم من إملاق ﴾[الأنعام : ١٥١] .

أي : لا تَقتلوا أولادكم خشية الفقر . وهذه الآية دليلٌ باهر على أن الله تعالى أرحم بالعباد من أمهاتهم ، إذ إنه _ سبحانه _ نهى عن قتل الأولاد . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٤٨) : ((يريد _ سبحانه _ دفنَ البنات أحياء من إملاق ، أي من خوف فقر)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٨٤) ومسلم (١/ ٩٠) : أن النبي ﷺ ذكر أن من أعظم الذنوب : ((أن تقتل وَلَدَكَ خشية أن يطعم معك)) .

فهؤلاء الذين يقتلون أولادَهم خوفاً من أن يأكلوا معهم _ يعني خوفاً من الفقر _ ، يقترفون كبيرةً شنيعة . فهم يعتدون على نَفْسٍ إنسانية لها احترامها ومكانتها المعتبَرة ، ولا يتوكلون على الخالق تعالى . فلو آمنوا أن الرازق هو الله تعالى المتكفِّل برزق العباد مؤمنهم وكافرهم لما أقدموا على جريمة القتل خوفاً من الفقر وضيقِ ذات اليد وغيابِ الرزق . إذ إن خزائن الله تعالى لا تنفد ، وهو الذي يُطعِم الناسَ ويسقيهم . ﴿ وفي السماء رِزْقُكم وما تُوعَدون ﴾ [الذاريات : ٢٢] .

(٤٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٣) برقم (٣٩٧٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٢) وأد البنات :

قال الله تعالى : ﴿ وإذا الموؤدةُ سُئِلت (٨) بأيِّ ذَنبٍ قُتِلت (٩) ﴾[سورة التكوير] .

فالموؤدةُ (المدفونة حيةً مخافة العار أو الحاجة) تُسأل يوم القيامة على أي ذنب قُتلت وهي المظلومة، وهذا تهديدٌ لقاتلها الظالم . وسُمِّيت الموؤدة بهذا الاسم لأنه حينما يُطرَح عليها التراب فيؤودها ، أي يثقلها حتى تموت . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٠٢) : ((وكانوا يدفنون بناتهم أحياء لخصلتَيْن ، إحداهما: كانوا يقولون : إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . والثانية : إما مخافة الحاجة الإملاق ، وإما خوفاً من السبي والاسترقاق)) اهـ .

والوأدُ مرتبطٌ بالإناث ، لأن الذكور يُنظَر إليهم كقوة مستقبلية ، وسندٍ عائلي ، وطاقةٍ قادرة على الاكتساب وتحصيلِ الأموال ، وتدبُّر أمورهم في كل الأوضاع. فالمجتمعُ الجاهلي يمارس سُلطته الذكورية بكل تطرف . وحينما يتجذر التطرف فإن الضغط سوف يتركز على الطرف الأضعف ، لذلك كانت الإناثُ هُنَّ الخاسر الأكبر في هذه اللعبة القاتلة .

والمجتمعُ العربي الجاهلي كان يعتمد بشكل أساسي على القتال والغزو . وهذا يعني أنه بحاجة إلى رجال أشداء قادرين على حمل راية القبيلة والدفاع عنها . أمَّا النساء فَكُنَّ الطرف الخاسر في المعادلة لأنهن غير قادرات على حماية أنفسهن ، وفُرصة تعرضهن للسبي كبيرة جداً ، وهذا يُلحِق العارَ بأهلهن وقبائلهن ، ويصبح ذلك إهانةً وخزياً بين القبائل التي تعتمد على قيم الشرف والبطولة والقتال. لذلك نُظر إلى المرأة (الأنثى) على أنها حِمْل ثقيل ينبغي التخلص منه ، ووصمة عارٍ تجب إزالتها من أجل حفظ اسمَ القبيلة وشرفَ أبنائها . وهذه الصورة النمطية تجسِّد الفلسفةَ الجاهلية في التعامل مع الأنثى منذ ولادتها حتى موتها .

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٠٦) : ((ويقال إن أول من فعل ذلك _ يعني وأد البنات _ قيس بن عاصم التميمي ، وكان بعض أعدائه أغار عليه فأسر بنته فاتخذها لنفسه ، ثم حصل بينهم صلحٌ ، فَخَيَّر ابنته فاختارت زوجَها ، فآلى قيس على نفسه أن لا تولد له بنت إلا دفنها حيةً ، فتبعه العرب في ذلك)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٩٢) : عن أسماء بنت أبي بكر _ رضي الله عنهما _ قالت : ((رأيتُ زيد بن عمرو بن نفيل[44] قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة ،

(٤٤) قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٣/ ٣٦٣) : ((زيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، ابن عم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، ووالد سعيد بن زيد أحد العشرة)) اهـ . قلتُ : وقد تُوفِّي زيد على

يقول : يا معاشر قريش ، والله ما منكم على دِين إبراهيم غيري . وكان يُحيي الموءودةَ ، يقول للرجل إذا أراد أن يَقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أَكْفِيكها مؤونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئتَ دفعتُها إليك وإن شئتَ كَفَيْتُكَ مؤونتها)) .

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مكارم الأخلاق الجليلة المنبثقة من دِين التوحيد (دين إبراهيم ﷺ) . فزيد بن عمرو بن نفيل على الرغم من حياته وموته في الحقبة الجاهلية (قبل البعثة المحمَّدية الإسلامية) إلا أن كان متمسكاً بالحنيفية (الميل عن الباطل إلى الحق) . ومع أن الجاهلية كانت تعج بالمغريات والانحلال الأخلاقي وعبادة الأوثان ، إلا أنه اختطَّ لنفسه مساراً مخالفاً لبني قومه مُؤْثراً الآخرة على الدنيا . وهذا جعله يعارض وأدَ البنات ، بل ذهب أبعد من هذا حينما كان يعرض على الأب أن يتكفل بمؤونة ابنته خوفاً من قتلها .

وكل هذا الإصرار على الحق في محيط مريض بالكفر والفساد ، جعل منه قدوةً في الصلاح والإصلاح ، لذلك يُبعَث يوم القيامة أُمَّةً لوحده ، ومصيره إلى الجنة ، لأنه قضى حياته مشعلاً للنور والهداية ونشر الفضيلة ، ومات على التوحيد الخالص دون أن يتلوَّث بالشِّرك ، وسوءِ الأخلاق .

إن وأد البنات كان ثقافةً اجتماعية سائدة . وهي تعكس السقوطَ العقائدي ، والانتكاسة الأخلاقية ، وضغط الحياة المادية الفجة على سلوك الأفراد . الأمر الذي جعلهم محصورين في دائرة رد الفعل دون أن يُفكِّروا في تغيير أوضاعهم ، أو تنظيم حياتهم بما يتناسب مع إمكانياتهم . وبما أن المجتمع الجاهلي تكتلٌ وثني ذكوري بامتياز ، فقد تم تحميل المرأة مسؤولية كل الهزائم والخيبات ، فالمرأة هي الحلقة الأضعف ، لذلك يتطاول عليها الجميع ، ويَفرضون عليها أفكارهم الشاذة . وقد أكرم اللهُ تعالى المرأةَ _ أُمَّاً وبنتاً _ ، ورفع من شأنها ، ومنع الإساءةَ إليها . فعن المغيرة ابن شعبة _ رضي الله عنه _ قال : قال النبي ﷺ : ((إن الله حَرَّم عليكم عُقوقَ الأمهات ووأدَ البنات))[45] .

التوحيد قبل بعثة النبي ﷺ . وقد ذكره النبي ﷺ فقال : ((يُبعَث يوم القيامة أُمَّةً وَحْدَه بَيْني وبَيْن عيسى)) [سنن النسائي الكبرى(٥/ ٥٤)].وقال العراقي في تخريج الإحياء (١/ ٢٣٦) : سنده جَيِّد.

(٤٥) متفق عليه . البخاري (٢/٨٤٨) برقم(٢٢٧٧) ، ومسلم (٣/ ١٣٤٠) برقم (٥٩٣) .

وقد خُصَّ بالذكر الأمهات ، لأن العقوق مرتبط بهن بسبب ضعفهن ، كما أن بِر الأم مقدَّم على بِر الأب، وحُرْمتها أعظم من حُرْمة الأب. وعقوقُ الأمهات من الكبائر _ بإجماع العلماء _ .

ووأدُ البنات من الكبائر المهلِكة لأنه قتلٌ للنفس التي حرَّم اللهُ قتلَها ، وقطعٌ للرَّحم ، ويعكس عدم الرضا بقضاء الله وقَدَره . لذلك كان التحريمُ مشدَّداً في كلا الحالتَيْن : عقوق الأمهات ووأد البنات .

٣) الانتحار :

إن قتل الإنسان لنفسه كبيرة شنيعة ، فهي تعكس الانهيارَ الإنساني الشامل ، وانعدامَ القدرة على الصمود في وجه الأزمات . كما تشير إلى سخط الإنسان وعدم رضاه بالقضاء والقَدَر ، وضعف مناعته الداخلية تجاه الصعوبات الحياتية التي يعانيها كل الناس . فينبغي على المرء أن يكون قوياً أمام التحديات المصيرية ، وأن يحاول قدر المستطاع المحافظةَ على رباطة جأشه والبقاء واقفاً بدون انهيار . صحيحٌ أن الناس تتفاوت قدراتهم على المواجَهة ، وهناك مصائب قاصمة شديدة الوطأة ، ولكن على المرء أن يوقن بأن الدنيا معجونة بالكَدَر والمصائب ، فهي دار التعب والشقاء. أما من يبحث عن الراحة فعليه أن ينظر إلى ما وراء الموت ، لأن الآخرة هي الاستراحة الأبدية لمن حَسُن عمله . فالدنيا هي دار الاختبار ، وكلُّ اختبار يحمل قَدْراً من الصعوبة والتعب ، ويتطلب جهداً بالغاً من أجل تجاوزه . وإذا نجح الفردُ ولم يَسقط فإنه سوف يجد الراحةَ التي ما بعدها راحة .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تُلقوا بأيديكم إلى التَّهْلكة ﴾[البقرة : ١٩٥] .

فاللهُ تعالى أرحم بالعباد من أمهاتهم ، ولم يخلقهم ليقضيَ عليهم . لكنَّ الإنسان هو الذي يختار _ بيده_طريقَ سعادته أو شقائه. وقد أمرهم _سبحانه_ بأن لا يُلقوا أنفسهم إلى الهلاك والضياع. والإنسانُ كائنٌ مُكرَّم له وضع اجتماعي مميز وسُلطة اعتبارية . كما أن كيانَه منحةٌ ربانية، فليس من حقه أن يُهلِك نفسَه ، لأنه _ عندئذ _ يتصرف فيما لا يَملك . ومهما اشتدت الخطوب على المرء وحاصرته الكوارث ، فلا بد من وجود حَل . ومهما طال الليل لا بد أن يطلع الفجر .

وقد قال أبو أيوب الأنصاري _ رضي الله عنه _ عن هذه الآية : ((وإنما أُنزلت فينا معشر الأنصار ، إنَّا لما أعز اللهُ دينه ، وكثر ناصريه ، قال بعضنا لبعض سِرَّاً من رسول الله ﷺ : إن أموالنا قد ضاعت، فلو أقمنا فيها، فَرَدَّ اللهُ علينا ما هممنا به، فأنزل الله _ عز وجل _ : ﴿ وأنفِقوا في

سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التَّهْلكة ﴾ ، فكانت التَّهلكة في الإقامة على أموالنا التي أردنا ، فأُمرنا بالغزو))[46] .

فكانت التهلكةُ في الإقامة على الأموال والغرق في متاع الدنيا الزائل . أما النجاةُ فكانت في الغزو والجهاد في سبيل الله ، والنظر إلى نعيم الآخرة الباقي ، وعدم الانخداع ببهرج الدنيا الفاني.

والعِبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فالتهلكةُ (الهلاك والضياع) لها حالاتٌ كثيرة جداً تختلف بحسب الظروف المحيطة . والآيةُ القرآنية واضحة في تحريم كل ما من شأنه قيادة الإنسان إلى الهلاك ، سواءٌ كان معنوياً أو مادياً .

وكلُّ صحابي يتحدث وفق العلم الذي لديه ، مستنداً إلى قوته العقلية في الحفظ والفهم والاستنباط . لذلك ليس غريباً أن يصدر تفسير آخر للآية . فعن البراء_ رضي الله عنه _: قال له رَجل: يا أبا عمارة ﴿ ولا تُلقوا بأيديكم إلى التَّهْلكة ﴾، أهو الرجل يلقى العدو فيُقاتِل حتى يُقتَل ؟، قال : ((لا ، ولكن هو الرَّجل يُذنب الذنبَ فيقول : لا يغفر اللهُ لي))[47] .

ونحن هنا أمام تفسير جديد للتهلكة وهي اعتقاد أن الله تعالى لا يَغفر للعبد . وهذا الاعتقاد الفاسد هو هلاكٌ للعبد وتدمير لمعنوياته ، وتحجيرٌ للرحمة الإلهية التي وَسِعت كلَّ شيء .

وكما أسلفنا الذِّكرَ ، فإن معنى التهلكة يأخذ أبعاداً واسعة جداً باختلاف الزمان والمكان . فعلى المرء أن يبتعد عن كل شيء يُلحِق به ضرراً . وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرج عن الناس لا التضييق عليهم . واللهُ الرحيمُ بعباده لا يرضى لهم أن يُعذِّبوا أنفسهم أو يُلقوها إلى الهلاك . فالإنسانُ كائنٌ مُكَرَّمٌ _ مهما كانت عقيدته _ .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تَقتلوا أنفسَكم ﴾[النساء : ٢٩] .

وهذه قاعدة جليلة تشير إلى رحمة الله تعالى بخلقه ، حيث حرَّم قتلَ أنفسهم.فالإنسانُ مستخلَفٌ في نفسه ، ليس من حقه أن يوردها المهالك ، فهو لا يملكها ، لأنها مُلْكٌ لله تعالى ، وسوف تُرَد إلى خالقها تعالى في يوم من الأيام .

والانتحارُ من الكبائر المريعة التي تورد صاحبَها النار ، فهو يعتدي على نفسه التي لا يملكها، ولا يرضى بالقضاء والقَدَر. لكنَّ الإنسان عليه أن يُروِّض نفسَه من أجل إلجامها ، ويُدرِّبها على

---

(٤٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٢) برقم (٣٠٨٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٢) برقم (٣٠٨٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

تحمل المصائب . ويدرك تماماً أن الأمر كلما ضاق اتسع ، ويجتهد في طلب الحلول بشكل عقلاني، أما الانتحار، أو ندب الحظ ، أو الاستسلام للاكتئاب والنَّوْح ، فلن يُغيِّر من الأمر شيئاً .

ففي صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٥) : عن جندب بن عبد الله_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((كان فيمن كان قبلكم رَجل به جُرح ، فجزع فأخذ سكيناً فَحَزَّ بها يده، فما رقأ الدم حتى مات ، قال الله تعالى : بَادَرَني عبدي بنفسه ، حَرَّمْتُ عليه الجنةَ)).

فهذا الذي أقدم على جريمة الانتحار لم يتقبل الألَمَ ، ولم يحاول أن يواجه ظروفَه الصعبة بالإصرار والعزيمة والعمل على علاج جرحه ، فاعتدى على نَفْسه التي لها حُرْمة جليلة ، وسبَّب الأذى لروحه وبدنه ، فمات نتيجة عمله الطائش ، فكانت النتيجةُ أن الله تعالى حرَّم عليه الجنةَ .

وعن أبي قيس مولى عمرو بن العاص : أن عمرو بن العاص كان على سَرِيَّة ، وأنهم أصابهم بردٌ شديد لم يُر مثله ، فخرج لصلاة الصبح فقال : والله لقد احتلمتُ البارحة ، ولكني والله ما رأيتُ برداً مثل هذا ، أَهَلْ مَرَّ على وجوهكم مثله ؟ ، قالوا : لا . فغسل مغابنه ، وتوضأ وضوءه للصلاة ثم صلى بهم ، فلما قَدِمَ على رسول الله ﷺ سأل رسولُ الله ﷺ : ((كيف وجدتُم عَمْراً وصحابته لكم ؟))، فأثنوا عليه خيراً وقالوا:يا رسول الله صلى بنا وهو جُنُب ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عمرو فسأله فأخبره بذلك وبالذي لقي من البرد فقال : يا رسول الله ، إن الله قال : ﴿ ولا تَقتلوا أنفسَكم ﴾ ، ولو اغتسلتُ مِتُّ ، فضحك رسول الله ﷺ إلى عمرو[48] .

وانظر إلى هذا الفهم الدقيق للنص الشرعي في عقلية عمرو بن العاص ، فهو موقنٌ أنه لو أقدم على الغُسل في ذلك اليوم البارد لمات من شدة البرودة . فتذكرَ رحمةَ الله تعالى بعباده ، ونَهْيه عن قتل أنفسهم . وهذا أنقذه من الهلاك . مما يشير إلى أهمية الفقه وفهمِ النصوص الدينية وتطبيقاتها في الظروف المختلفة لا حفظها فحسب . وعلى المرء أن يكون حذراً في التعامل مع النصوص ، فلا يوجد نَص شرعي منفصل عن الاستنباط . وكلُّ منهجٍ صحيح لا يقوم إلا على النص والاستنباط . وعلى الجهة الأخرى نجد أن الجهل بأبعاد النَّص الديني وعدم فهمه، والعجز عن معرفة تطبيقاته في الحياة العملية، وعدم وضع الأحكام الفقهية في نصابها الصحيح ضمن الزمان والمكان السَّليمَيْن، سوف يؤدي إلى كوارث حقيقية . فالحفظُ ينبغي أن يقترن بالفهم ، فهمِ العبارة ولوازمها وظروفِ تطبيقها وإسقاطها على الواقع .

---

(٤٨) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢٨٥) برقم (٦٢٨) وصححه ووافقه الذهبي .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنه _ : أن رَجلاً أَجنب في شتاء ، فَسَأل ، وأُمِرَ بالغُسل ، فاغتسل فمات ، فذُكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : ((ما لهم قتلوه قتلهم اللهُ _ ثلاثاً _ ، قد جعل اللهُ الصعيدَ _ أو التيمم _ طَهوراً))[49] .

هؤلاء الذين أَفْتَوا بغير علمٍ تسبَّبوا بقتل الرَّجل . وكان عليهم أن يسألوا ، لأن السؤال هو شفاء الجاهل. وهنا تكمن خطورة الإفتاء بغير علم ، أو دون معرفة الأحوال المصاحبة للإنسان . لذلك على المفتي أن يكون عالِماً بالنصوص الشرعية وأحوالِ الناس لكي تكون الإجابة شافية لا قاتلة .

٧_ الذُّنوب سبب في ظهور الفساد في الأرض :

قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفسادُ في البَر والبحر بما كَسبت أيدي الناس ﴾[الرُّوم : ٤١] .

فقد ظهرت الكوارث البيئية والاختلالات في الطبيعة ، وانتشرت النكباتُ في البَر والبحر . فالتصحرُ في ازدياد ، وكثيرٌ من دول العالم تعاني من شح الأمطار . ونحن نرى مشكلاتِ الاحتباس الحراري، وارتفاع حرارة الأرض والبحر ، واقتراب الماء من المدن الساحلية ، واتساع ثقب الأوزون ، وكثرة الأعاصير . وذلك بسبب ذنوب الناس ، حيث مُحقت البركة وعمَّ شؤم المعصية وآثارها الكارثية على الروح والمادة. وأدَّت آثامُ الناس إلى تدمير الطبيعة بكل عناصرها .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : ((يا معشر المهاجرين،خمس إن ابتليتم بهن ونزل فيكم _ أعوذ بالله أن تدركوهن _،لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسِّنين وشدة المؤنة وجَوْر السلطان عليهم ، ولم يمنعوا الزكاةَ إلا مُنعوا القَطْر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهدَ الله وعهدَ رسوله إلا سُلِّط عليهم عدوهم من غيرهم وأَخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم))[50] .

وهذه القضايا الخمس لها تأثيرات سلبية ، فردياً وجماعياً .

فظهورُ الفواحش وانتشارها والعمل بها يؤدي إلى ظهور الأمراض التي لم تكن معروفة مسبقاً . وها نحن في هذا العصر نسمعُ كلَّ يومٍ عن أمراض جديدة يَسمع بها العالَمُ لأول مرة . وما هذا إلا

---

(٤٩) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢٧٠) برقم (٥٨٥) وصححه ووافقه الذهبي .

(٥٠) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٨٢) برقم (٨٦٢٣) وصححه ووافقه الذهبي .

بسبب انتشار الفواحش في الجماعة الإنسانية انتشار النار في الهشيم ، بحيث أصبحت الفاحشةُ في كثير من الأحيان رُقِيّاً وتقدماً وتمرداً على التقاليد البالية . وهذا هو الانهيار بعَيْنه .

وإنقاصُ الميزان من الكوارث الحقيقية في المجتمع ، والتي تؤدي إلى غياب الثقة بين الأفراد ، وانتشار الجشع والاستغلال ، فيصير المجتمعُ كومةً من الأضداد والصراعات والأحقاد . والنتيجةُ المترتبة على إنقاص المكيال والميزان هي الشِّدة وضنك العيش وقسوة الحياة، وظلم الحاكم للرعية.

أمَّا منع الزكاة فهو جريمة بحق الفرد والجماعة. وكما هو معلومٌ فإن الزكاة من أركان الإسلام الخمسة . ومنعها هو هدمٌ لبناء الإسلام ، يترتب عليه منع الغيث من السماء . وهذه العقوبة الإلهية من شأنها أن تؤديَ إلى القحط والجفاف وانهيار مقوِّمات الحياة .

وقضيةُ " نقض العهد الإلهي والعهد النبوي " من القضايا المدمِّرة التي تقود إلى انتكاسة كبرى في النفس البشرية،وتكون العقوبة هي تسلُّط الأعداء وتكالبهم، وسيطرتهم على المقدَّرات المادية.

وتجيءُ مسألة عدم الحُكم بالقرآن (الدستور الإلهي الكامل المعصوم) لتلقيَ الضوء على أهمية تحكيم الشرع الإلهي ، وضرورة نقل القيم القرآنية السامية إلى واقع ملموس في حياة الفرد والجماعة . وعدمُ الحُكم بكتاب الله تعالى يؤدي _ حتماً _ إلى شيوع الجرائم ، والانحلال ، والعداوة الشديدة بين أفراد المجتمع لغياب العدالة الاجتماعية، وتفشي الظلم على جميع المستويات. وعندئذ يتأسس مجتمع الكراهية والحقد ، ويصبح العدلُ شعاراً براقاً لا وجود له في الواقع . ولا يمكن الاستهانة بتأثير الذنوب في تدمير الفرد والبيئة ، إذ إن لها تأثيراً كارثياً على كل سياقات الحياة المعاشة ، وهذا التأثير شاملٌ لكل النواحي المعنوية والمادية . فالآثامُ تُعكِّر صفو الحياة وتحيلها إلى جحيم لا يُطاق ، حيث يعاني الناس في أمور عَيْشهم ضمن بيئة قاسية ضاغطة عليهم ، تُفقدهم لذةَ الاستمتاع بمباهج الدنيا .

الفصل السابع

الجِهاد

تمهيد

إن موضوع الجهاد بالغ الحساسية ، لأن البعض يفهمه بشكل مغلوط مما يُسيء إلى طهارة المعنى . فالجهادُ شُرِع لغاياتٍ نبيلة لا من أجل إذلال الناس وتجريدهم من إنسانيتهم وسرقةِ ممتلكاتهم . فالعقيدةُ لا بد لها من قوة تحميها ، والقوةُ لا بد لها من عقيدة تُوجِّهها . وضمن هذا السياق نفهم أبعادَ الجهاد كمشروع حضاري يضع السيفَ في نصابه الصحيح ولا يعتدي على الآخرين .

فالطبيبُ حينما يقوم بقطع عضو فاسد في الجسد ، إنما يرمي من وراء هذه العملية إلى المحافظة على حياة المريض . فمن يأخذ صورةً مجتزءة تتضمن قطع العضو سوف يعتقد أن الطبيب كائن متوحش يعتدي على الآخرين ، ويستغل قوته وضعفَهم ، ويمارس سُلطةً إرهابية على أجسامهم . لكن الذي يأخذ الصورة كاملة سيدرك أن الطبيب قام بهذا العمل لإنقاذ حياة الإنسان كي يمارس دورَه في الحياة إصلاحاً وإعماراً وإبداعاً .

والجهادُ الذي هو قتال الكافرين الذين يستحقون القتالَ عبارة عن وضع السيف في موضعه الصحيح . فليس كلُّ الناس يؤمن بالحوار ومقارعة الحجة بالحجة ، وليس كلُّ الناس يلجأ إلى الوسائل السلمية . وهكذا كان الجهادُ الحلَّ الوحيد للذين لا يَفهمون إلا لغة السيف . فلا يُعقل أن أحداً ما يرفع السلاحَ في وجهك ثم تقدِّم له وردةً ، فلا بد للقوة أن تأخذ مسارَها الصحيح بلا إفراط ولا تفريط . وكما قال الشاعر :

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السيفِ بالعُلا   مُضِر كوضع السيف في موضع النَّدَى

فالإسلامُ قد أحاط النفسَ البشرية بالاحترام والحماية ، فوضع الشرائعَ اللازمة للمحافظة على حق الفرد في العيش الكريم بدون خوف أو تهديد _ سواءٌ كان مسلماً أو غير مسلم _ . لكنَّ الحالات الشاذة الرامية إلى قتل الحياة لا بد أن تُواجَه بالحزم والقوة . فالجهادُ هو السياجُ الحامي للمجتمع الإنساني العالمي ، لأن التصدي للظالم والانتصار للمظلوم قيمةٌ إنسانية نبيلة يؤمن بها الجميع على اختلاف شرائعهم . وهذه هي الفكرةُ الأساسية في منظومة الجهاد .

أولاً : الجهاد في الإسلام

١_ الدعوة إلى الجهاد :

قال الله تعالى : ﴿ وقَاتِلوا في سبيل الله الذين يُقاتِلونكم ﴾[البقرة : ١٩٠] .

فاللهُ تعالى يأمر المؤمنين بقتال مَن يرفع السلاحَ في وجوههم ، وهؤلاء الذين يُقاتِلون المؤمنين كفارٌ محارِبون لا مجال للإجراءات السلمية معهم أو الحوار ، لأنهم اتخذوا طريقَ العنف المسلَّح ، فلا بد من ردعهم عسكرياً . واللهُ تعالى يدعو المؤمنين إلى الجهاد ويُعلِي من معنوياتهم .

أما عن سبب نزول هذه الآية فقد روى السيوطي بإسناده في لباب النقول (١/ ١٣٧) عن ابن عباس_ رضي الله عنهما_قال: ((نزلت هذه الآية في صلح الحديبية ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صُد عن البيت ، ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه القابل، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفيَ قريش بذلك ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم ، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام ، فأنزل الله ذلك)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ١٩٥) : ((اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية ، فقال بعضهم هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك ، وقالوا أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين والكف عمن كف عنهم ثم نُسخت بِ براءة)) اهـ .

من الواضح من سياق الآية الشريفة ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ﴾ [البقرة : ١٩٠] أن القتال في هذه الآية مقيَّد ضمن ثلاث نقاط مركزية ومحورية ، الأولى : أن القتال يجب أن يكون في سبيل الله تعالى، وليس في سبيل المصالح الذاتية الآنية ، وليس من أجل استعباد الآخرين وسحقهم وابتزازهم وسرقتهم ، والثانية : أن القتال مُوَجَّه ضد الكفار المحارِبين فقط دون البدء في القتال ، فهذه حالة رد فعلٍ وليس فعلاً ابتدائياً ، والثالثة : عدم الاعتداء والتمادي والتجاوز ، فالهدف هو رد العدوان فقط .

ونحن لا نعتقد بأن الآية منسوخة ، لأنها آية محكمة وقاعدة عامة تأصيلية شاملة لا يُمكِن أن تُنسَخ مطلقاً ، أما الذين يعتقدون بنسخها معتمدين على آيات أخرى في القتال ، فكل حالة لها وضعها الخاص بها ، وكل الآيات تُجمَع معاً دون تعارض يقتضي اعتقادَ النسخ . إذ إن كل آية تتحدث عن حالة خاصة بعينها لا تتعدى إلى حالة أخرى . ومن غير المنطقي أن نخلط بين أحكام الآيات ، لأن كل حُكْم قادم لعلاج وضعية معينة ، واستئصالِ كل القيم السلبية فيها .

ولا يخفى أن القاعدة الشرعية العامة التأصيلية هي تقديم الجمع والتوفيق بين النصوص الشرعية قبل الذهاب إلى النسخ أو الترجيح .

قال الله تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْرَكم فانفِروا ثُباتٍ أو انفِروا جميعاً ﴾[النساء: ٧١].

والآيةُ تُوضِّح منهجيةَ الجهاد المقدَّس لإعلاء راية الإسلام ودحر المعتدين . فينبغي أخذ الحِيطة والحذر والاستعداد لمواجهة العدو وفق أصول التخطيط العسكري لا الاندفاع المتهور . فالجهادُ منظومةٌ إيمانية متماسكة ذات أصول ثابتة وفروع قوية ، لا هَبَّةٌ عشائرية جاهلة معتمدة على التعصب القَبَلي . وقد خيَّرهم اللهُ تعالى بين الخروج للجهاد جماعاتٍ متفرقة ، واحدة تلو واحدة ، أو الخروج دفعةً واحدة كجيش كثيف .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا هجرة بعد الفتح _ أي فتح مكة _ ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا))(1) .

فوجوبُ الهجرة من مكة قد انقطع بفتحها لأنها صارت دارَ إسلام . ولكن بقي الجهادُ حسب الأوضاع المختلفة ، وإذا تَمَّت الدعوةُ إلى الجهاد فلا بد من الإجابة وعدم القعود . فإذا طلب الإمامُ الناسَ للجهاد فعليهم الخروج . وإذا فات الناسَ تحصيلُ ثواب الهجرة بسبب انقطاعها ، فما زال بابُ الخير وتحصيل الأجر مفتوحاً بالجهاد والنية الصالحة . والجدير بالذِّكر أن في الحديث بشارة تتعلق باستمرار مكة دارَ إسلام حتى يوم القيامة . وقد نقل النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٨) تأويلَيْن للحديث : ((أحدهما : لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دارَ إسلام،فلا تُتصور منها الهجرة. والثاني:_ وهو الأصح_ أن معناه أن الهجرة الفاضلة المهمة المطلوبة التي يمتاز بها أهلها امتيازاً ظاهراً انقطعت بفتح مكة ومضت لأهلها الذين هاجروا قبل فتح مكة لأن الاسلام قَوِيَ وعَزَّ بعد فتح مكة عِزاً ظاهراً بخلاف ما قبله)) اهـ .

والجهادُ فرضُ كفاية إذا فعله البعضُ سقط عن الآخرين ، وإذا لم يقم به أحد فالجميعُ آثمون. فإذا نزل العدو في بلد المسلمين فيصبح الجهادُ فرضَ عَيْن يجب على أهل ذلك البلد ، فإن لم يقدروا على استئصال العدو ، فإن الذين يلونهم يتوجب عليهم الجهاد ضمن دائرة تتسع وتضيق حسب القدرة على إزالة العدو أو عدمها . وقد تتسع دائرةُ الجهاد فيُصبح فرضَ عَيْن على

(١) متفق عليه . البخاري(٣/ ١٠٢٥) برقم(٢٦٣١) ، ومسلم (١٤٨٨/٣) برقم (١٨٦٤) .

الأُمة كلها. وفي زمن النبي ﷺ كان الجهادُ فرضَ كفاية، لأن السرايا كانت تغزو ، وفيهم بعض الصحابة دون بعض .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتُم الذين كفروا زَحْفاً فلا تُوَلُّوهم الأدبارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] .

هذه الآيةُ فيها بيانٌ لكبيرة من الكبائر ، وهي التولِّي يوم الزحف ، أي الهروب من الأعداء أثناء المعركة . وهذا كارثةٌ شنيعة لأنها تضرب جيشَ المسلمين في الصميم ، وتكسر معنوياتِه ، وتثير البلبلةَ في الصفوف ، وتعطي صورةً سلبية عن المجاهِدين بأنهم قوم جبناء خائفون ، وتُشوِّه سمعةَ الإسلام وتفتح المجالَ للطاعنين فيه . فالهروبُ من المعركة يعطي نصراً مجانياً لأعداء الله تعالى، فتظهرُ رايةُ الإسلام ضعيفة منكسرة ، ورايةُ المشركين عاليةً خفاقة ، وهذه كارثة ما بعدها كارثة . والصمودُ في المعركة ليس عمليةً سهلة فهي بحاجة إلى تثبيت الله تعالى وتأييده ، وقوةٍ إيمانية راسخة في قلب العبد . فالكلامُ عن بُعد سهلٌ ، أما حينما يكون المرءُ في المعركة والسيوفُ تبرق والرؤوس تتطاير ، فهذا الاختبار الحقيقي الذي يكشف عن معادن الرجال .

وقد عبَّر القرآنُ عن جيش الأعداء بالزَّحف ، وفي هذا تصويرٌ بليغ لصعوبة الموقف . فمن كثرة الجنود والكتائب المتراصة يبدو الجيشُ وكأنه يزحف زحفاً ، وهذه الصورة تشير إلى عظمة المواجهة في المعركة ، وقسوتها ، فلا يصمد فيها إلا الرجالُ المؤمنون حقَّ الإيمان .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : عن النبي ﷺ قال : ((اجتنبوا السبعَ الموبقات)). قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ ، قال : ((الشِّرك بالله ، والسِّحر ، وقتل النفس التي حَرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، والتَّوَلِّي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))(2).

فالتولِّي يوم الزحف (الهروب من المعركة) من الكبائر السبع الرئيسية التي تُهلِك صاحبَها ، لأنها تدميرٌ للقوة الإسلامية ، وسحق للروح المعنوية ، وكسر لراية الإسلام ، ويترتب على الهروب من المعركة انهيار جهود المسلمين ووقوعهم بين قتيل وأسير ، وحدوث خسائر مادية كبرى . وهذا تدمير حقيقي للدولة الإسلامية .

قال الله تعالى:﴿إن الله يحب الذين يُقاتِلون في سبيله صَفّاً كأنهم بُنيان مرصوص ﴾[الصَّف: ٤].

---

(٢) متفق عليه . البخاري (١٠١٧/٣) برقم(٢٦١٥) ، ومسلم (١/ ٩٢) برقم (٨٩) .

وهذا درسٌ إلهي لكيفية القتال . فاللهُ تعالى يحب الذين يُقاتِلون في سبيله _ لإعلاء كلمته ورفع راية التوحيد _ صفاً متماسكاً متراصاً لا ثغرات فيه ، ولا ضعف . فهم ثابتون كالبناء الشامخ الذي لا يتزعزع أمام التحديات الجسيمة .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٨) : ((فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين إذا صَفُّوا مواجِهين لأعداء الله في حَوْمة الوغى يُقاتِلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمةُ الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان)) اهـ .

ومن الأصناف الذين يحبهم اللهُ تعالى : ((رَجل غزا في سبيل الله صابراً محتسباً مجاهداً فلقي العدو فقاتل حتى قُتل))(3) .

وهذا يشير إلى الصلابة في المواجهة ، والثباتِ على موقف الحق ، وعدم الاهتزاز في لحظات الشدة . فالصبرُ هو مفتاح الفَرَج ، وهو مفتاح النصر . ولا يخفى أن الجهاد قائم على منظومة الإيمان ، والصبر ، والاستعداد النفسي والمادي . والشجاعة صبر ساعة ، والأقدر على التحمل هو من سيفوز في نهاية المطاف .

٢_ النهي عن الاعتداء :

قال الله تعالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكم شَنآنُ قَوْمٍ أن صَدُّوكم عن المسجد الحرام أن تَعتدوا ﴾ [المائدة : ٢] .

وهذه الآية تشير إلى منهجية الإسلام في العدالة ونشرها ، وعدم تعلقها بالمحبة والكراهية . فقد نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن الاعتداء على المشركين مع أنهم قومٌ وثنيون قاموا بصد المؤمنين عن البيت الحرام ، ومنعهم من الوصول إليه .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥) : ((ومعناها ظاهر : أي لا يحملنَّكم بغض قوم قد كانوا صَدُّوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام _ وذلك عام الحديبية _ على أن تعتدوا حُكمَ الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد)) اهـ .

فعلى الرغم من أفعال المشركين القبيحة واعتدائهم بدافع العناد والجهل والحمِيَّة ، إلا أن الاعتداء عليهم منهيٌّ عنه ، لأن الإسلام دين حق وعدالة يتم تطبيقه على كلِّ الناس _ مؤمنهم

(٣) رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي ذر_رضي الله عنه_ مرفوعاً (٢/ ٩٨) برقم (٢٤٤٦) وصححه ووافقه الذهبي .

وكافرهم ـ ، فالعدالةُ من المنظور الإسلامي ليست قيمةً نسبية أو إجراء تمييزياً لصالح المؤمنين ضد الكافرين . إنها منظومة تشمل الجميعَ ، توقف الظالمَ عند حده ، وتُنصِف المظلومَ ، سواءٌ كان مسلماً أم كافراً . وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((أَدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك))[4] .

فالمنظومةُ الأخلاقية في الإسلام ذات طبيعة كَوْنية شاملة ، وليست معطفاً يرتديه المسلمُ متى شاء ويخلعه متى شاء. إنها منظومة قِيَمِيَّة جاءت لإسعاد البشرية جمعاء،وانتشالها من مأزقها الوجودي الحاد. فالمسلمُ والكافر يجدان فيها العدالة وحماية مصالحهما . وهذه نقطة شديدة الأهمية، ففي الحضارات المنقطعة عن السماء تكون المنظومةُ الأخلاقية تياراً طبقياً احتكارياً لاضطهاد الآخرين والتمييز ضدهم . أما في الحضارة الإسلامية المتصلة بالسماء فالفكرُ الأخلاقي هو سفينة نجاة للجميع ، وقد رأينا نماذج كثيرة جداً في الحضارة الإسلامية تُصدَر فيها أحكام لصالح كافرين ضد مسلمين، لأن العدالة هي الشرعيةُ الأخلاقية الحضارية بغض النظر عن عقائد الناس .

٣ـ الجنوح إلى السَّلم :

قال الله تعالى : ﴿ وإن جَنَحوا للسَّلْم فاجْنَحْ لها ﴾[الأنفال : ٦١] .

إن الحرب في الإسلام هي الاستثناء لا القاعدة ، وهي حالة مؤقتة لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح عبر استئصال الشر ، وتعميم الخير . والنبيُّ ﷺ يُحارِب بكرامة وعِزَّة ، ويُسالِم بشموخ وثقة. فالسلامُ والحربُ في حياة النبي ﷺ إنما هما تنفيذ للأوامر الإلهية لا الاستجابة لحظوظ النفس.

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٧٨) : ((وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب ، إما بالدخول في الإسلام ، وإما بإعطاء الجزية ، وإما بموادعة ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح ... فَمِلْ إليها ، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك)) اهـ .

ولا يخفى أن قرار الحرب والسلام مرتبط بمصلحة الأمة الإسلامية ، فأحياناً تكون المصلحة واضحةً في الحرب لأن السلام طريقه مسدود ولا يؤدي إلى نتائج ، وأحياناً تكون المصلحة في

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣) برقم (٢٢٩٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

السلام إذا عجزت الأمة عن خوض الحروب ، وكان السلامُ يحقق لها أهدافَها . وهذا الأمر تُحدِّده القيادةُ .

٤_ المعاملة بالمثل :

قال الله تعالى:﴿ فَمَن اعتدى عَلَيْكم فاعتَدوا عَلَيْه بِمِثْل ما اعتدى عَلَيْكم ﴾[البقرة: ١٩٤] .

إن الإسلام دين السلام والتسامح والأخوة البشرية . والقيمُ الأخلاقية الإسلامية نابعة من موقف قوة لا موقف ضعف واستسلام . فالقيمُ النبيلة في الشريعة تعكس شخصيةَ المؤمن الشامخ الواثق بنفسه لا شخصية الفرد العاجز المغلوب على أمره .

وفي حالة تعرض المسلمين إلى اعتداء فعليهم أن يَرُدُّوه دفاعاً عن أنفسهم دون تجاوز الحد . فاعتداءُ الكافرين ظلمٌ ، وردُّ عدوانهم من قبل المسلمين عدلٌ . فعدوانُ الكافرين هو ابتداء للظلم، وهو بمعنى التمادي في الباطل، وتجاوز طريق الحق. أما عدوان المؤمنين فمعناه رد الإساءة والتصدي للباطل لردعه ودحضه . ومن الأهمية بمكان أن يؤخذ على يد الظالم ويُوقف عند حده لكي يرتدع غيره ، أما ترك الأمور للفوضى والعبث بحجَّة التسامح والأخوة ، فهذا لا يقول به عاقل . لذلك ينبغي وضع الأمور في نصابها الصحيح . فلا بد من استخدام القوة في المواضع التي تتطلب ذلك للحفاظ على الأرواح والممتلكات .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ١٦٥) : ((فالعدوان الأول ظلم، والثاني جزاء لا ظلم ، بل هو عدل لأنه عقوبة للظالم على ظلمه ، وإن وافق لفظُه لفظَ الأول)) اهـ .

٥_ الحرب في الإسلام :

قال الله تعالى : ﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أَثْخَنتموهم فَشُدُّوا الوَثَاقَ فإمَّا مَنّاً بَعْدُ وإمَّا فِداءً حتى تضع الحربُ أوزارها ﴾[محمد : ٤] .

والآيةُ تدعو إلى ضرب رقاب الأعداء واستئصالهم بكل قوة ، وهذا تعبير أقوى من القتال . فالصورةُ التي توضحها الآيةُ تشير إلى حصاد الرؤوس . وهؤلاء هُم كفارٌ محارِبون يرفعون السلاحَ، فلا مجال للرحمة في مواجهتهم . كما أن المسلمين لم يعتدوا عليهم أو يظلموهم ، ولا يمكن الحوار مع الأعداء المحارِبين رافعي الأسلحة أو تقديم الورود لهم ، فلا بد من قتلهم لكي يرتدع الآخرون ، وتستقيم حالُ الأرض . وبعد إهلاكهم بالقتل وانتهاء الحرب ينبغي أسر من بقي على قيد الحياة ، والمؤمنون مُخيَّرون بين إطلاق سراحهم بدون مقابل أو أخذ الأموال منهم لقاء إطلاقهم .

٦ـ تفضيل المجاهدين :

قال الله تعالى:﴿فَضَّلَ اللهُ المجاهِدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً ﴾[النساء: ٩٥] .

وتتجلى العدالةُ الإلهية في إنزال الناس منازلهم،ومنح الأجر لكل فرد حسب اجتهاده وإنجازاته. فمن الظلم أن يستويَ المجاهدون الذين يُضحُّون بأموالهم وأنفسهم مع القاعدين . واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الظلم ، فقد فضَّل المجاهِدين على القاعدين درجةً .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٧٤) : ((في هؤلاء القاعدين قولان . أحدهما : أنهم القاعدون بالضرر ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني : القاعدون من غير ضرر ، قاله أبو سليمان الدمشقي)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦١٠) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ : أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال : ((إن بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم مسيراً ولا قطعتُم وادياً إلا كانوا معكم)). قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة ؟، قال: ((وهم بالمدينة ، حبسهم العُذر)) .

فالرحمةُ الإلهية واسعة شاملةٌ لكل شيء . فهؤلاء الذين حبسهم العُذر هم مشارِكون في الجهاد بأرواحهم وقلوبهم . ولو كانوا قادرين على الحركة لما تأخروا في الالتحاق بركب المجاهدين . فالنيةُ الصالحة جعلتهُم في قلب الحدث يسيرون مع الجيش ويقطعون الوديان معه ، وينالون أجورهم نتيجة نِيَّتهم الصادقة التي لم يقدروا على ترجمتها واقعاً عملياً بسبب العُذر. وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد	سِرْتُم جسوماً وسِرْنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عُذر وعن قَدَر	ومن أقام على عذر فقد راحا

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٠٢٨) : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن في الجنة مائة درجة أعدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتَيْن كما بين السماء والأرض)) .

وهذا يشير إلى مكانة المجاهدين السامية ، وحجمِ النعيم الذي ينتظرهم ، جزاءً لهم على حسن فعالهم ، وصمودهم في المعارك ، وجهادهم لرفع كلمة الله تعالى .

٧ ـ ذم المتخاذلين عن الجهاد :

قال الله تعالى : ﴿ فَرِحَ المخَلَّفون بمقعدهم خِلاف رسول الله وكرهوا أن يُجاهِدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قُل نارُ جهنم أشد حَرَّاً لو كانوا يَفقهون ﴾[التوبة : ٨١] .

إن التخاذل عن الجهاد ، والهروب منه ، ومحاولة التملص من استحقاقاته ، كل ذلك يكشف عن قلب فاسد عامرٍ بالانحرافات لم يثبت فيه الإيمان . فهؤلاء المنافقون الذين فرحوا لأنهم هربوا من الجهاد (غزوة تبوك)، وكرهوا التضحيةَ بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، هم يلعبون بمصيرهم، ويُضيِّعون أنفسهم في متاع الدنيا الزائل معرِضين عن النعيم الأُخْرَوِي الخالد . فلن يحصلوا من الدنيا إلا على نَزْر يسير من الراحة ثم يأتون يومَ القيامة يحملون ذنوبَهم الثقيلة . فإن استراحوا في الدنيا من شدة الحر فما موقفهم من حَر جهنم يوم القيامة ، ومن سيريحهم منه ؟ . فالتعبُ الدُّنْيَوي مهما كان طويلاً فلا بد من نهاية له ، أما الشقاء في الآخرة فسرمديٌّ بلا انتهاء .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٩٦) : ((لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر ليتقوا به من حَر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٢٥٥) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ((أن رسول الله ﷺ أمر الناسَ أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف . فقال رجال : يا رسول الله ، الحر شديد ، ولا نستطيع الخروج ، فلا تنفروا في الحر ، فقال الله : ﴿ قُل نارُ جهنم أشد حَرَّاً لو كانوا يَفقهون ﴾ فأمره بالخروج)) اهـ .

وهذه الآية تشير إلى جهل المنافقين ، فقد كان بإمكانهم أن يضحوا بساعة شاقة من أجل راحة دائمة ، لكنهم آثروا النعيمَ الوقتي الزائل على النعيم الدائم الذي لا يزول . وبالطبع فحرُّ الدنيا لا يُقاس بحر الآخرة . وعلى الإنسان أن يبنيَ منهجه الحياتي على النظر إلى الماوراء . فالأمورُ مرتبطة بنتائجها . وإذا تم إدراك شرف النتيجة ورِفعة الغاية يمكن تحمُّل تعب الوسائل وشدتها المؤقتة . أما التوقف عن ظواهر الأشياء دون إعمال العقل في تحليلها والوقوف على أبعادها وما يترتب عليها ، فمن شأنه ضياع المصير الإنساني . وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ: أن رسول الله ﷺ قال : ((نارُكم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم))(5) .

---

(٥) متفق عليه.واللفظ للبخاري(١١٩١/٣) برقم (٣٠٩٢) .ومسلم (٢١٨٤/٤) برقم (٢٨٤٣).

٨_ الفرار من المعركة :

قال الله تعالى:﴿ قُل لن ينفعكم الفِرارُ إن فَرَرْتُم من الموت أو القتل وإذاً لا تُمَتَّعون إلا قَليلاً ﴾ [الأحزاب : ١٦] .

الفرارُ من المعركة فعلٌ شنيع بلا جدوى ، ولا يعود بفائدة على الإنسان . فالإنسانُ مصيره إلى الموت سواءٌ كان في المعركة أو في بيته . لكنَّ هناك فرقاً بين الموت في سبيل الله ، والموت في سبيل الشيطان. وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٢٧٢) : ((وإذا فررتُم من الموت أو القتل لم يزد فراركم ذلك في أعماركم وآجالكم ، بل إنما تُمتَّعون في هذه الدنيا إلى الوقت الذي كُتب لكم ، ثم يأتيكم ما كُتب لكم وعليكم)) اهـ .

وقد كان النبيُّ ﷺ مضربَ المثل في الثبات في اللحظات العصيبة حيث تتطاير الرؤوس ، ويتجول الموتُ في المعارك . فقدماه ﷺ ثابتتان في أرض المعركة ، يتقدم الصفوفَ ، ولا يفرُّ من القتال ، أو يختبئ في غرفة العمليات وهو يرى جنودَه يُقتَلون أمامه .

فعن أبي إسحاق السبيعي : قال رَجل للبراء بن عازب_ رضي الله عنهما_ : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حُنَيْن ؟ ، قال : لكن رسول الله لم يَفِر ، إن هوازن كانوا قوماً رُماة ، وإنا لَمَّا لقيناهم حَمَلْنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام ، فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيتُه وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول : ((أنا النبي لا كَذِب ، أنا ابن عبد المطلب))[6] .

ففي غزوة حُنَيْن حصل اهتزازٌ للمسلمين، إذ إنهم هربوا لَمَّا التقوا مع الكافرين، لكن النبي ﷺ أعاد تجميعهم بأن رَفَعَ من روحهم المعنوية ، وشَحَذَ طاقاتِهم ، وأثار في نفوسهم مواقفَ الإيمان والإخلاص والرجولة . وهذا الموقف يشير _ بلا ريب _ إلى صِدق دعوة النبي ﷺ ، فلو كان مُدَّعياً للنبوة لهرب من المعركة لكي ينجوَ بنفسه بعد تفرق أصحابه ، لكن عدم فراره يدل على التأييد الإلهي له ، وصدق دعوته ، وصفاته النبوية الجليلة . والمجتمعُ الإسلامي يرفض الفرارَ من المعركة ، ويعتبره جُرْماً وعَيْباً ، لأنه مجتمع حي وعزيز يستحيل تدجينه بسبب تحركه من منظور

---

(٦) متفق عليه . البخاري (٣/١٠٥١) برقم (٢٧٠٩) ، ومسلم (٣/ ١٤٠٠) برقم (١٧٧٦) .
قلتُ : أبو سفيان المذكور في الحديث هو ابن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم النبي ﷺ وليس هو أبا سفيان بن حرب والد معاوية .

إيماني راقٍ . فالمجتمعُ الإيماني ثوريٌّ بطبعه ليس لديه راية بيضاء لكي يرفعها ، وهو قادر على المواجهة _ بكافة أشكالها _ حتى يوم القيامة . فعن أم سلمة _ رضي الله عنها _ أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة : ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاةَ مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين ، قالت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس: يا فُرَّار، أفررتم في سبيل الله_عز وجل _ ؟! ، حتى قعد في بيته فما يخرج[7].

وسلمة بن هشام _ رضي الله عنه _ هو صحابي جليل أسلم قديماً ، وهو ابن عم خالد ابن الوليد _ رضي الله عنه _ . وهذه القصة حصلت بعد العودة من غزوة مؤتة .

قال البوطي في فقه السيرة (ص ٢٣٩) : ((وأما سبب قول الناس للمسلمين بعد رجوعهم إلى المدينة ، يا فُرَّار ، فررتم في سبيل الله ، فهو أنهم لم يتبعوا الرومَ ومن معهم في هزيمتهم ، وتركوا الأرضَ التي قاتلوا فيها كما هي ولم يكن ذلك شأنهم في الغزوات الأخرى ، واكتفى خالد بذلك فكرَّ عائداً إلى المدينة)) اهـ .

ولدينا عدة وقفات في هذا الموضوع . الأولى : عبقرية خالد بن الوليد _ رضي الله عنه _ الذي حفظ كرامةَ جيش المسلمين وصورته العظيمة في أذهان الروم . وعرف متى ينسحب بالجيش انسحاباً مُشرِّفاً بعد البلاء الطيب في أرض المعركة . لذلك قال النبيُّ ﷺ : ((لَيْسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار _ إن شاء الله _))[8]. والثانية : عدم قدرة الصحابي الجليل سلمة بن هشام _ رضي الله عنه _ على مواجهة الناس مع العلم أنه أبلى بلاءً حسناً ، وقام بواجبه على أحسن وجه ، ولم يُقَصِّر ، ولم يرتكب ما يوجب الندم أو الخجل ، وهذا يشير إلى همته العالية ، وطموحه العظيم لأداء الأفضل دائماً ، وشعوره المرهف تجاه كلام إخوانه المسلمين . والثالثة : قوة المجتمع الإسلامي المبني على الإيمان والجهاد والمعتاد على الانتصارات ، فهو لا يرضى بأدنى من استئصال العدو ، وإنهاء المعركة من كل النواحي إنهاءً كاملاً . وهذا لا يتأتى في كل المواقف ، لأن الظروف القاسية أحياناً تفرض شروطَها على المقاتِلين ، وخالد بن الوليد _ رضي

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٥) برقم (٤٣٥٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٨) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٥٣) وقال : ((وهذا مرسل)) . وانظر تاريخ الطبري (٢/ ١٥٢) ، والسيرة لابن حبان (١/ ٣١٥) ، وسيرة ابن هشام (٥/ ٣٣) .

الله عنه _ قائد المعركة والعقلية العسكرية العالمية الخارقة يَعرف ماذا يَفعل . وبالطبع فإن الذي يُشاهِد الحدثَ بعينيه على أرض الواقع ليس كمن يَسمع عنه .

٩_ إعداد الجيش :

قال الله تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم مِن قُوَّة ﴾[الأنفال : ٦٠] .

وهذا توجيهٌ إلهي إلى أهمية الاستعداد للمعركة والإعدادِ لمواجهة العدو . وتظهر هنا أهمية الأخذ بالأسباب ، واتخاذ كافة الاستعدادات المعنوية والمادية من أجل قهر العدو ، والحفاظِ على مكانة الأمة الإسلامية كقوة عظمى مرهوبة الجانب لئلا يطمع فيها أحد . فلا بد للعقيدة من قوةٍ تحميها ولا بد للقوة من عقيدة تُوَجِّهها . واللهُ تعالى قادرٌ أن يَهزم الأعداءَ فوراً سواءٌ استعدَّ المسلمون أم لا ، ولكنَّ الله تعالى يختبر الناسَ ليميز الخبيثَ من الطَّيب ، ولِيَعْلم _ سبحانه _ من يلتزم أوامرَه ومن يُعرِض عنها .

قال القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٦) : ((فإن الله _ سبحانه _ لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنة من تراب كما فعل رسول الله ﷺ ، ولكنه أراد أن يَبتليَ بعضَ الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ)) .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٢) : أن النبي ﷺ قال : ((وأَعِدُّوا لهم ما استطعتُم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي)) .

والقوةُ لفظٌ شامل لكل الإجراءات المعنوية والمادية الرامية إلى مقارعة العدو وبث الرعب في صفوفه ، واجتثاثه بشكل حاسم ، وإبقاء صورة الأمة الإسلامية كجيش لا يُهزَم . لكن الحديث اختصَّ الرمي بالذِّكر لما فيه من مزايا .

وفي فتح الباري (٦/ ٩١) : ((قال القرطبي : إنما فَسَّر القوةَ بالرمي وإن كانت القوة تظهر بإعداد غيره من آلات الحرب ، لكَوْن الرمي أشد نكاية في العدو ، وأسهل مؤنة ، لأنه قد يرمي رأس الكتيبة فيُصاب فيَنهزم من خلفه)) .

***

ثانياً : تعليمات حربية

١ـ نظام الجهاد وقانونه :

إن الجهاد ليس قتلاً فوضوياً سادياً بدافع الشهوة والغريزة ، أو عملاً هجمياً بدائياً . إنه نظام حياة متكامل له منهجه الفكري المقدَّس في نشر منظومة الصلاح والإصلاح في النفس البشرية وعلى الأرض. وللجهادُ نظام متماسك يُميِّز بين الكافر الحربي وغير الحربي، والعسكريين والمدنيين، وله ضوابط متعددة مثل إجراء الأحكام بحسب الظاهر ، ومنع الهروب من المعركة ، والتعامل وفق أخلاقيات الحرب .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضَرَبْتُم في سبيل الله فَتَبَيَّنوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلامَ لَسْتَ مُؤمناً تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا ﴾[النساء : ٩٤] .

وهذه الآيةُ الشريفة تتضمن أحد قوانين الجهاد وهو البناء على اليقين ، والحكم وفق الظاهر . فاللهُ تعالى يأمر المؤمنين إذا مضوا إلى الجهاد أن يَتبيَّنوا فيُميِّزوا المؤمن من الكافر ، ويبنوا أحكامَهم على اليقين لا الشبهات . وعليهم أن لا يُقدِموا على قتل أحد إلا إذا علموا أنه كافر محارِب . فقتلُ النفس البشرية عملية غير سهلة ، وينبغي أن تكون مبنيةً على أحكام واضحة مستمدة من الشريعة الإلهية .

والحكمُ على الظاهر يستلزم عدم التفتيش عن النوايا . فمن ألقى السلامَ يُعامَل كمسلم معصوم الدم ، لأن السلام هي التحية المتعارفة عليها بين المسلمين ، ولا يجوز البحث في القلوب والدوافع ، وهل ألقى السلامَ خوفاً من القتل أو صادقاً في كلامه ؟ . كما لا يجوز رفض سلامه طمعاً في قتله لأخذ ماله وباقي ممتلكاته .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٧٧): عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ـ ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلامَ لَسْتَ مُؤمناً ﴾ . قال : ((كان رَجل في غنيمة له ـ قطيع صغير من الغنم ـ فلحقه المسلمون ، فقال : السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غنيمته)) .

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٧٥٦) : ((وقد اسْتُدِل بهذه الآية على أن من قتل كافراً بعد أن قال لا إله إلا الله قُتل به ، لأنه قد عَصم بهذه الكلمة دَمَه ومالَه وأهلَه ، وإنما سقط القتلُ عَمَّن وقع منه ذلك في زمن النبي ﷺ لأنهم تَأَوَّلوا ، وظنوا أن من قالها خوفاً من السلاح لا يكون مسلماً ولا يصير بها دمه معصوماً ، وأنه لا بد من أن يقول هذه الكلمة وهو مطمئن غير خائف .

وفي حكم التكلم بكلمة الإسلام إظهار الانقياد بأن يقول : أنا مسلم ، أو أنا على دينكم ، لما عَرفتَ من أن معنى الآية الاستسلامُ والانقياد، وهو يحصل بكل ما يُشعِر بالإسلام مِن قول أو فعل، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة وكلمة التسليم)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٩٦): عن أسامة بن زيد _ رضي الله عنهما _ قال : بَعَثَنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّة فصبحنا الحرقات من جهينة _ وصلنا صباحاً إلى منطقة الحرقات _ فأدركتُ رَجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنتُه، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُه للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ((أقال لا إله إلا الله وقتلتَه ؟)) ، قلتُ: يا رسول الله، إنما قالها خوفاً من السلاح، قال : ((أفلا شَقَقْتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟))،فما زال يُكرِّرها عليَّ حتى تمنيتُ أني أسلمتُ يومئذ .

فالواجبُ إجراء الأحكام على الظاهر ، فمن المحال أن يطلع المرءُ على قلوب الناس ليعلم هل هم صادقون في كلامهم أم لا . وبالتالي لا بد من الاقتصار على الظاهر ، واللهُ يتولى السرائر .

وقال الله تعالى : ﴿ ومَن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَه إلا مُتحرِّفاً لقتال أو مُتحيِّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[الأنفال : ١٦] .

والقاعدةُ الثابتة هي أن الفرار من المعركة (التولي يوم الزحف) مُحرَّم شرعاً ومن الكبائر . لكن هناك استثناء . فالحالة الأولى الاستثنائية : هي التَّحرُّف لقتال، أي مَن يفر من المعركة كخدعة حربية حتى يستدرج العدو. والثانية : التَّحيُّز لفئة ، أي الهروب من وجه العدو إلى فئة من المسلمين يساعدهم ويساعدونه .

وعن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه_ : في هذه الآية ﴿ ومَن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَه ﴾ . قال: ((نَزلت فِينا يوم بَدْر))[9] .

وهذه الآية وإن كانت نزلت يوم بَدْر فحُكْمُها عام شامل في تحريم الفرار من المعركة . والعِبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وفي تفسير القرطبي (٧/ ٣٣٥) : ((قال ابن القاسم : لا تجوز شهادة من فَرَّ من الزحف ، ولا يجوز لهم الفرار ، وإن فَرَّ إمامهم لقوله _ عز وجل _ : ﴿ ومَن يُوَلِّهم يومئذ دُبُرَه ﴾ الآية . قال : ويجوز الفرار من أكثر من ضعفهم ، وهذا ما لم يبلغ عدد المسلمين اثني عشر ألفاً ، فإن

---

(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥٧) برقم (٣٢٦٢) وصححه ووافقه الذهبي .

بلغ اثني عشر ألفاً لم يحل لهم الفرار وإن زاد عدد المشركين على الضعف لقول رسول الله ﷺ : ((ولن يُغلَب اثنا عشر ألفاً من قِلَّة))[10])) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وإمَّا تخافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيانةً فانبِذْ إليهم على سَواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

إن الحرب في الإسلام منظومة أخلاقية لها مسار منضبط ومصير واضح ، وتقوم على أُسس ثابتة مستمدة من الشريعة المعصومة . صحيحٌ أن الحرب خدعة ، لكن الخيانة والغدر لا تليقان بأخلاق المسلم حاملِ لواء الشريعة ، وناشرِ كلمة الله تعالى . وفي حال ظهور علامات واضحة على خيانة قوم مُعاهدين ، فلا بد من إعلامهم بإلغاء العهد قبل قتالهم ، لكي يكونوا على بَيِّنة من أمرهم ، لا أن يتم قتالهم في حال وجود عهد فيكون ذلك خيانةً وغدراً .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٧٩) في تفسير الآية : ((أي : اطرح إليهم عهدَهم ، وذلك بأن يُرسِل إليهم من يُعلمهم بأن العهد انتقض)) اهـ .

وذلك لكي يكون الطرفان لديهم عِلم بأن العهد قد سقط ، وبالتالي سقطت كل الالتزامات في هذا العهد ، وهذا يدل على الشرف الرفيع في السلام والحرب ، فلا خيانة ولا غدر . فالمسلمُ ينظر إلى السلام والحرب من منظور أخلاقي طاهر لا منظور ابتزازي غادر . وقاعدة " الغايةُ تبرِّر الوسيلةَ" غير موجودة في قاموس الحرب الإسلامي. فشرفُ الغاية لا بد أن يلازمها شرف الوسيلة. وفي تفسير القرطبي (٨/ ٣٢) : ((قال ابن العربي : فإن قيل : كيف يجوز نقض العهد مع خوف الخيانة والخوف ظن لا يقين معه ؟ ، فكيف يسقط يقين العهد مع ظن الخيانة ؟ . فالجواب من وجهين : أحدهما _ أن الخوف قد يأتي بمعنى اليقين ... الثاني _ إذا ظهرت آثار الخيانة وثبتت دلائلها وجب نبذُ العهد لئلا يوقع التمادي عليه في الهلكة ، وجاز إسقاط اليقين هنا ضرورة)) اهـ . وقال الشافعي في الأم (٤/ ٢٦٣) : ((فإن قال الإمام : أخاف خيانةَ قوم ، ولا دلالة له على خيانتهم من خبر ولا عيان فليس له _ والله تعالى أعلم _ نقض مدتهم إذا كانت صحيحة ، لأن معقولاً أن الخوف من خيانتهم الذي يجوز به النبذ إليهم لا يكون إلا بدلالة على الخوف)) .

---

(١٠) رواه ابن حبان في صحيحه (١١/ ١٧) ، والحاكم في المستدرك (١/ ٦١١) وصححه .

فالخوفُ المعتبَر شرعاً في هذا السياق ليس شعوراً داخلياً مجرَّداً من الأدلة أو حديث نفس عابراً. إنه خوف مقترن بمؤشرات وقرائن ومرجِّحات . وليس إجراءً مزاجياً تابعاً للهوى لا نصيب له من الصحة . فالأحكامُ الشرعية مبنية على قواعد ثابتة مستمدة من الكتاب والسُّنة ، ولا مكان للأوهام أو الحالات المزاجية .

٢_ أحكام خاصة :

أ _ الصلاة وقت الحرب :

قال الله تعالى : ﴿ وإذا كُنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ فَلْتَقُم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأتِ طائفة أخرى لم يُصَلوا فليُصَلوا معك وليأخذوا حِذْرَهم وأسلحتهم ﴾ [النساء : ١٠٢] .

إن للصلاة مكانةً جليلة في الإسلام لدرجة أنها لا تسقط في وقت الحرب، ولكن تتغير كيفيتها لتُلائِم وضعيةَ الحرب . فالصلاةُ في حالة الأمن والأمان تختلف عن الصلاة في حالة القتل والقتال . وما وجود الصلاة في المعركة إلا مؤشر على أهميتها الكبرى ، وعدم إسقاطها في أي ظرف . كما أنها تستجلب النصرَ الإلهي ، حيث التوجه الخالص لله تعالى في أرض المعركة ، والاتصال به ، وطلب العون منه ، مع الأخذ بأسباب الانتصار المادية .

وصلاةُ الخوف في الحرب لها وضع خاص . حيث ينقسم المسلمون إلى طائفتَيْن ، الأولى تأتم بالنبي ﷺ وهي مُدجَّجة بالسلاح ، والطائفة الثانية تقوم بمواجهة العدو . فإذا انتهت الطائفة الأولى من الصلاة تأتي الثانية للصلاة خلف النبي ﷺ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : خرج رسول الله ﷺ في غزاة ، فلقي المشركين بعسفان ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهرَ ، فرأوه يركع ويسجد هو وأصحابه ، فقال بعضهم لبعض: كان هذه فرصة لكم ، لو أغرتُم عليهم ما علموا بكم حتى تواقعوهم ، فقال قائل منهم : فإن لهم صلاة أخرى هي أحب إليهم من أهليهم وأموالهم فاستعدوا حتى تُغيروا عليهم فيها ، فأنزل الله _ عز وجل _ على نَبِيِّه ﷺ : ﴿ وإذا كُنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاةَ ﴾ إلى آخر الآية . وأعلمه ما ائتمر به المشركون ، فلما صلى رسول الله ﷺ العصرَ وكانوا قبالته في القِبلة ، جعل المسلمين خلفه صَفَّين ، فَكَبَّر رسولُ الله ﷺ فكَبَّروا معه[11] .

(١١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢) برقم (٤٣٢٣) وصححه ووافقه الذهبي .

ب_ الأعمى والأعرج والمريض :

قال الله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ [النُّور : ٦١] .

إن المجاهدين _ بوصفهم حملةَ الرسالة الإلهية النبيلة _ ينبغي أن يكونوا أصحابَ عقول سليمة وأجسام صحيحة . فالعقلُ السليم في الجسم السليم . واللهُ تعالى لا يُكلِّف نفساً فوق طاقتها . وهناك أشخاص غير قادرين على الجهاد مثل الأعمى والأعرج والمريض ، وهؤلاء لا حرجٌ عليهم ، والجهادُ عنهم مرفوع . وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٦) : ((اختلف المفسرون _ رحمهم الله _ في المعنى الذي لأجله رُفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا . فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم إنها : نزلت في الجهاد ...أي إنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم)) اهـ.

وقد ورد سببٌ آخر لنزول الآية . ((عن مجاهد : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو قريبه ، فكان الزَّمْنى _ الضِّعاف بسبب الكِبَر أو العِلَل المزمنة _ يتحرجون من ذلك ، ويقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم . فنزلت الآية رخصةً لهم))[12] .

فهذه الفئةُ الضعيفة حينما يتواجدون في بيوت الناس يشعرون بالإحراج ، فقد تُقدِّم لهم النساءُ بعضَ الطعام ، أو يجدون أنفسهم بين أشخاص غرباء لا يعرفونهم . وهذا يُصيبهم بالانقباض وعدم الراحة ، وقد يَشعرون بأنهم ثقلاء على الآخرين . فنزلت هذه الآية لترفع عنهم الحرجَ . وعلى أية حالة فالآيةُ عامةٌ في دلالتها مهما يكن السبب ، وتظل القاعدةُ التي نعيدها ونُكرِّرها : العِبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ج _ القتال في الأشهر الْحُرُم :

قال الله تعالى : ﴿ الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والْحُرُماتُ قِصَاص ﴾[البقرة : ١٩٤] .

للأشهر الْحُرُم مكانة خاصة في الجاهلية والإسلام . فيَحرم فيها القتالُ لأن لها وضعية مميَّزة متفق عليها عبر الحقب الزمنية المختلفة . فالأشهر الحرم (ذو القعدة وذو الحِجَّة ومُحرَّم ورجب) لها حُرْمتها المعتبَرة التي تؤثِّر في سلوك الناس ، ولا يمكن تجاوز حُرْمتها إلا لغرض شرعي معتمَد . وقد وضَّحت النصوصُ الشرعية كيفيةَ العلاقة الصحيحة بين الناس والأشهر الْحُرُم في الأوضاع

(١٢) ذكر هذا الأثرَ الحافظُ في الفتح (٩/ ٥٢٩) وصححه .

المختلفة . وتظهر قضية القتال في الأشهر الحرم وضوابطها وأبعادها . وهذا موضوع حسَّاس تبعاً لحساسية حُرمة الأشهر الحرم في النفوس وعلى أرض الواقع .

وفي لباب النقول للسيوطي (١/ ١٣٧) : ((عن قتادة قال : أقبل نبي الله ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة،ومعهم الهدي حتى إذا كانوا بالحديبية صَدَّهم المشركون ، وصالحهم النبي ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك ثم يرجع من العام المقبل ، فلما كان العام المقبل أقبل وأصحابه حتى دخلوا مكة معتمرين في ذي القعدة ، فأقام بها ثلاث ليال ، وكان المشركون قد فَخروا عليه حين ردُّوه ، فأقصَّه اللهُ منهم ، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا رَدُّوه فيه، فأنزل الله : ﴿ الشهرُ الحرام بالشهر الحرام والْحُرُماتُ قِصَاص ﴾)) اهـ .

فاللهُ تعالى أرغم أنوفَ المشركين وردَّهم خائبين مهزومين . فقد دخل النبيُّ ﷺ مكة في نفس الشهر (ذي القعدة) الذي ردَّه فيه المشركون ، ليكون ذلك قِصاصاً عادلاً . وقد علت كلمةُ الله تعالى على كلمة المشركين ، وتحققت عُمرة النبي ﷺ في الوقت الذي اختاره اللهُ رغم أنف أهل الشِّرك . وفي فتح الباري (٧/ ٥٠٠) : ((قال السهيلي : تسميتها عمرة القِصاص أولى لأن هذه الآية نزلت فيها . قلتُ _ أي ابن حجر_ : كذا رواه ابن جرير وعبد بن حميد بإسناد صحيح عن مجاهد ، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه)) اهـ .

أما قولُ الله تعالى : ﴿ والْحُرُماتُ قِصَاص ﴾ ، فقد قال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٥١) : ((وإنما جُمعت الحرمات لأنه أراد حُرمةَ الشهر الحرام ، وحرمة البلد الحرام ، وحرمة الإحرام. والحرمة : ما مُنِعْتَ من انتهاكه، والقِصاصُ المساواة . أي : اقتصصتُ لكم منهم إذ صدوكم سنة ست فقضيتم العمرة سنة سبع)) اهـ .

وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ قال : ((لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزَى أو يغزوا))[13] .

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يكن يبدأ القتالَ في الشهر الحرام . ولكن إذا اعْتُدِيَ عليه بأن يُغزَى فعندئذ يُقاتِل دفاعاً عن النفس وردّاً للعدوان. فالشهرُ الحرام لا ينبغي القتال فيه إلا وفق اعتبارات شرعية محددة ومنضبطة . فلا تُكسَر حُرمة الشهر الحرام إلا لضرورة دينية معتبَرة . فالقتالُ في الإسلام لا ينفك عن قواعده الشرعية الملزِمة ، ومبادئه غير القابلة للتلاعب والتمييع .

---

(١٣)رواه أحمد في مسنده(٣/ ٣٤٥) برقم (١٤٧٥٥) وصححه ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٠٩).

قال الله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن الشهر الحرامِ قِتالٍ فيه قُل قتالٌ فيه كبير ﴾[البقرة: ٢١٧].

وهذا السؤال حول القتال في الشهر الحرام يشير إلى مكانة الشهر الحرام في النفوس وحساسية اتخاذ الأمور الحربية فيه . لذا فالقتالُ فيه ذنب عظيم مُسْتَنْكَر ، لأنه انتهاك لحرمة الشهر المتعارف عليها في الجاهلية والإسلام على السواء . وقد كانت العربُ خلال الأشهر الحرم لا تُغير على عدو ولا تسفك دماءَ أحد تعظيماً لمكانة هذه الأشهر المميَّزة. فينتشر السلامُ بين القبائل في هذه الشهر الحرام ، ولا أحد يجرؤ على استحلاله بأي شكل .

وقال الطبري في تفسيره (٢/ ٣٥٩) عن الشهر الحرام : ((.. العرب كانت لا تَقرع فيه الأسنةَ ، فيلقى الرجلُ قاتلَ أبيه أو أخيه فيه ، فلا يُهيِّجه تعظيماً له ، وتُسمِّيه مضر الأصم لسكون أصوات السلاح وقعقعته فيه)) اهـ .

وعن جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : بعث رسول الله ﷺ رهطاً، واستعمل عليهم عبيدة بن الحارث ، فلما انطلق ليتوجَّه بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فبعث مكانه رَجلاً يقال له عبد الله بن جحش ، وكتب له كتاباً وأمَّره أن لا يقرأه إلا لمكان كذا وكذا ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك ، فلما صار إلى ذلك الموضع قرأ الكتاب واسترجع ، قال : سمعاً وطاعة لله ورسوله ، فرجع رَجلاً من أصحابه ومضى بقيتهم معه ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، فلم يَدْرِ ذلك من رجب أو من جمادى الآخرة، فقال المشركون: قتلهم في الشهر الحرام.فنزلت: ﴿ يسألونكَ عن الشهر الحرام قِتالٍ فيه قُل قتالٌ فيه كبير ﴾ (14) .

وهذا يدل بصورة واضحة على أن الشهر الحرام له حُرْمة معتبَرة في الجاهلية لأن المشركين يؤمنون بحُرْمته بدليل استنكارهم لفعل القتل في هذا الشهر الحرام واستعظامهم لهذا العمل . وقد نَزلت الآية لتؤكد حُرْمة هذا الشهر، وأن القتال فيه ذنبٌ كبير ، وأن مكانة الشهر الحرام لم تتغير.

د ـ القتال في الحَرَم :

قال الله تعالى: ﴿ ولا تُقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يُقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ [البقرة : ١٩١].

فلا يجوز الابتداء بقتال الكافرين عند المسجد الحرام ، ولكن إذا بدأوا بالقتال فعندئذ يُقاتَلون لرد عدوانهم وردعهم ، ولكي يدفعوا ثمنَ جرائمهم .

(١٤)رواه البيهقي في سُننه(٩/ ١١)برقم(١٧٥٢٣)،وصححه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٦٠٠).

قال الطبري في تفسيره (٢/ ١٩٧) : ((ولا تبتدئوا _ أيها المؤمنون _ المشركين بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدأوكم به فإن بدأوكم به هناك عند المسجد الحرام في الحرم فاقتلوهم ، فإن الله جعل ثواب الكافرين على كفرهم وأعمالهم السيئة القتلَ في الدنيا ، والخزي الطويل في الآخرة)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٤٨) : ((للعلماء في هذه الآية قولان : أحدهما : أنها منسوخة ، والثاني : أنها مُحْكَمة . قال مجاهد : الآية مُحكَمة ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يُقاتِل ، وبه قال طاووس . وهو الذي يقتضيه نص الآية ، وهو الصحيح من القولين ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه)) اهـ .

ويؤيد كَوْنها مُحْكَمة ما قاله النبي ﷺ يوم فتح مكة : ((إن هذا البلد حَرَّمه اللهُ يومَ خَلق السماوات والأرض ، فهو حرامٌ بِحُرْمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يَحِل القتالُ فيه لأحد قبلي ، ولم يَحِل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة))[15] .

وهذا يشير إلى الحرمة الأبدية الثابتة لمكة المكرمة ، وهذه الحرمة مستمرة حتى يوم القيامة لا يمكن تغييرها لأن باب النَّسخ قد أُغلق بوفاة النبي ﷺ . مما يدل على المنزلة السامية لمكة وشرفها المقدَّس الذي لا يرقى إليه أي مكان آخر .

هـ _ شراء أنفس المؤمنين وأموالهم :

قال الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى مِن المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنة يُقاتلون في سبيل الله فَيَقْتلون ويُقتَلون ﴾[التوبة : ١١١] .

في هذا إشارةٌ بليغة إلى الفضل الإلهي ، فإن الأنفس والأموال هي مُلْكٌ لله تعالى ، ومع هذا فقد اشتراها اللهُ تعالى من المؤمنين مقابل منحهم الجنة . وهذه العلاقة بين السَّيد والعبيد ترشدنا إلى كرم السَّيد _ سبحانه _ في تعامله مع عباده ، وأنه يسَّر لهم طريقَ الجنة لأنه يحبهم ويحبونه .

قال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٤٣) : ((فاشترى اللهُ_ سبحانه_ من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته وإهلاكها في مرضاته ، وأعطاهم _ سبحانه _ الجنةَ عوضاً عنها ...فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء ، فمن العبد تسليم النفس والمال، ومن الله الثواب والنوال فسمَّى هذا شراء)) اهـ .

(١٥) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٦٤) برقم (٣٠١٧) ، ومسلم (٢/ ٩٨٦) برقم (١٣٥٣).

أما سبب نزول الآية . فعن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : [قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت !، قال: ((أشترط لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم)) ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ ، قال : ((الجنة !))، قالوا : ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل !.فنزلت:﴿ إن الله اشترى مِن المؤمنين ﴾الآية] (16).

نلاحظ أدبَ الصحابة في التعامل مع النبي ﷺ ، فهم جاؤوا بقلوب مفتوحة على الإيمان والفضيلة . كما أن إيمانهم مبني على يقين وبصيرة ، وليس إيماناً أعمى محصوراً في دائرة التقليد. وهذا كله مرجعه إلى التوفيق الرباني ، والدورِ المركزي للمُعلِّم ﷺ القادر على التأثير الإيجابي في أتباعه وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

٣_ الوساطة والإصلاح في الحرب :

قال الله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتَتلوا فأصلِحوا بينهما ﴾[الحجرات : ٩] .

فإن نشب القتالُ بين فِرْقتَيْن من المؤمنين فينبغي الإصلاح بينهما ، وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح ، حيث الأخوة الإسلامية والمودة والتعاون ، وعلاج المشكلات يكون بالاحتكام إلى الشريعة ولغة العقل والحوار لا لغة القتال والقتل . ومهمةُ الإصلاح يضطلع بها أصحابُ العقول الواعية والصدور الواسعة القادرون على الحل والربط ، ولا يضطلع بها المتهوِّرون أو السفهاء أو أصحاب الأغراض الشخصية والمصالح الذاتية الضيقة . فلا بد من إبعاد سماسرة الحروب الذين يستثمرون أموالهم في سفك الدماء ، ولا يُقيمون أية حُرمة للقيمة الإنسانية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٦٩) : ((فَسَمَّاهم مؤمنين مع الاقتتال . وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عَظُمت ، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم)) اهـ .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيتَ عبد الله بن أُبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حماراً، فانطلق المسلمون يمشون معه ، وهي أرض سبخة _ يعني التي لا تُنبت لملوحة أرضها _ ، فلما أتاه النبي ﷺ قال : إليك عني ، والله لقد آذاني نتنُ حمارك ، فقال رَجل من الأنصار منهم: واللهِ لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رَجل من قومه

---

(١٦) تفسير الطبري (٦/ ٤٨١) . وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٥) ، وفتح الباري (٦/ ٤) .

فشتمه ، فغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهما ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنها نَزلت : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلِحوا بينهما ﴾ (17) .

والمؤمنون قد تنشأ بينهم نزاعاتٌ وحروبٌ ، فهم ليسوا ملائكة أو معصومين . وعند حدوث قتال بينهم ينبغي الإصلاح بينهم من أجل استئصال الفِتنة ، وتنقية القلوب من الضغائن، وهذا يؤدي إلى إعادتهم إلى طريق الخير والأخوة ، فيستفيد كلُّ طرف من أخطائه لئلا يقع فيها مرةً أخرى. والجدير بالذكر أنهم _بقتالهم _ لم يخرجوا عن دائرة الإيمان، لكنَّ الشيطان نَزغ بينهم ، والرجوعُ إلى الحق فضيلة.

***

(١٧) متفق عليه . البخاري (٢/ ٩٥٨) برقم (٢٥٤٥) ، ومسلم (٣/ ١٤٢٤) برقم (١٧٩٩) .

ثالثاً : الأسرار الحربية

١ـ وجوب كتمانها :

قال الله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾[النساء : ٨٣] .

وهذه الفئةُ تتلقف الأخبارَ وتذيعها دون تثبُّت ، فهي لا تعتمد على التحقق من الأنباء لتقف على حقيقتها ، بل تنشرها في كل الجهات دون غربلتها . وهذا الأمرُ بالغ الخطورة على وحدة الصف الإسلامي ، إذ إنه يُعرِّض المجتمعَ الإسلامي للخطر الذي لا يمكن توقع مصدره . فإذاعةُ الأسرار الحربية من شأنه إضعاف قوة المسلمين وإحداث ثغرات في صفوفهم ، وهذا يُسهِّل دخولَ العدو ويُقوِّي موقفَه . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٥٤) : ((وذلك أن النبي ﷺ كان يَبعث السرايا ، فإذا غَلبوا أو غُلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم فيُفشون ويُحدِّثون به قبل أن يُحدِّث به رسول الله ﷺ فيُضعِفون به قلوب المؤمنين)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ١٠) : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكل ما سمع)) .

فعلى المرء ـ بالنسبة للأخبار ـ أن يكون كالإسفنجة لا المرآة . بمعنى أن يمتص الخبرَ ويفحصه فيأخذ الخيرَ ويترك الشرَّ ، لا أن يَعكس كلَّ الأخبار التي تصله دون التحقق منها . فنشرُ الأنباء دون فحصها من شأنه تفتيت التماسك الاجتماعي ، وإشاعة البلبلة والاضطرابات في المجتمع ، وهذا يؤدي إلى انهياره التدريجي أو المفاجئ .

٢ـ تناقل الأخبار :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فَتَبَيَّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتُصبِحوا على ما فعلتُم نادمين ﴾[الحجرات : ٦] .

فيجب تدقيق الأخبار وغربلتها ثم اتخاذ حُكْم اعتماداً على التحقق واليقين لا الفوضى والشك. فإذا جاء شخصٌ فاسق غير معنيٍّ بصدق اللهجة والتحققِ من الأخبار ، فلا مفر من التثبت من كلامه وعرضه على الوقائع والأحداث ليظهر الغثُّ من السمين . فعدمُ التحقق من الأنباء قد يؤدي إلى كوارث أو إعلان حروب صادرة عن تسرُّع وجهل لا تروٍّ وعلم .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٦٦): ((يأمر ـ تعالى ـ بالتثبت في خبر الفاسق ليُحتاط له

لئلا يُحكَم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه. وقد نهى الله ـ عز وجل ـ عن اتباع سبيل المفسدين . ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقَّق الفسق لأنه مجهول الحال)) اهـ .

وفي مسند أحمد : [بعث رسولُ الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحرث ـ هو الحارث بن ضرار سَيِّد بني المصطلِق ـ ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فَرِق ـ أي خاف ـ فرجع ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ، إن الحرث منعني الزكاة وأراد قتلي ، فضرب رسولُ الله ﷺ البعثَ إلى الحرث ، فأقبل الحرث بأصحابه إذ استقبل البعث وفصل من المدينة لقيهم الحرث، فقالوا : هذا الحرث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى من بُعِثْتُم، قالوا : إليك . قال : وَلِمَ ؟ ، قالوا : إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك مَنَعْتَه الزكاةَ ، وأردتَ قتلَه ، قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ، ما رأيتُه بَتَّة ولا أتاني . فلما دخل الحرثُ على رسول الله ﷺ ، قال : ((مَنعتَ الزكاةَ وأردتَ قتلَ رسولي))، قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيتُه ولا أتاني وما أقبلتُ إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ ، خشيتُ أن تكون كانت سخطةً من الله ـ عز وجل ـ ورسوله . قال ـ الراوي ـ : فنزلت الحجرات : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فَتَبَيَّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتُصبِحوا على ما فعلتُم نادمين ﴾][18] .

وهذه القصةُ تشير إلى خطورة تصديق الأنباء دون تدقيق . فصدورُ أخبار من شخص فاسق غير مأمون على نقل الكلام دون غربلة تلك الأخبار من شأنه إشاعة الاضطراب في المجتمع ، وقد يؤدي ذلك إلى نزاعات مسلحة يذهب ضحيتها الكثير من الأرواح ، وإهدار الوقت والجهد ، وتفريق الكلمة ، وتمزيق وحدة الصف . وكل ذلك ينعكس سلباً على المجتمع .

وقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٦٠) أن عداوةً في الجاهلية كانت بين الوليد ابن عُقبة وبين بني المصطلِق ، وهذا جعل الخوفَ يتمكن منه ويفعل فِعلتَه الشنيعة .

---

(١٨) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٧٩) . وقال السيوطي في لباب النقول (١/ ١٩٤) : أخرجه أحمد وغيره بسند جيِّد . اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣٨) : ((ورجال أحمد ثقات)) اهـ .

رابعاً : نتائج الحرب

١ـ النصر من عند الله :

قال الله تعالى : ﴿ وما النصر إلا مِن عند الله ﴾[الأنفال : ١٠] .

إن تحقيق الانتصار في المعركة ليس إجراءً ميكانيكياً تلقائياً يعتمد على العبقرية الفردية والأخذ بالأسباب . فالنصرُ هِبَةٌ ربَّانية يمنحها اللهُ لمن يشاء من عباده . أما التخندق في الإجراءات المادية البحتة ونسيان القدرة الإلهية ، فهذا يؤدي إلى الهلاك الحتمي بسبب الغرق في الأسباب دون النظر إلى قدرة المسبِّب ـ تعالى ـ . والمسلمون في عصور مجدهم وانتصاراتهم لم يكونوا يعتمدون على العُدَّة والعتاد ، وإنما يعتمدون على الله تعالى آخذين بالأسباب وعواملِ النصر المادية . فالنصرُ ـ حقيقةً ـ منحةٌ إلهية ، وإذا تخلى اللهُ تعالى عن عباده فلن يستفيدوا من عبقريتهم ولا قوتهم . وصدق القائل :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٩٤) عن الآية : ((يعني نصر المؤمنين ، ولا يدخل في ذلك نصر الكافرين ، لأن ما وقع لهم من غلبة إنما هو إملاء محفوف بخذلان وسوء عاقبة وخسران)) .

٢ـ النصر حليف المظلوم :

قال الله تعالى:﴿ذلك ومَن عاقب بِمِثْل ما عُوقِب به ثم بُغِيَ عَلَيْه لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ [الحج: ٦٠].

وهذه بشارةٌ للمظلوم ـ الذي بُغِيَ عليه وتم الاعتداء عليه ظلماً ـ بأن اللهَ تعالى ناصرُه ، فالبغي يصرع أهلَه ، والظلمُ مرتعه وخيم . وفي لباب النقول للسيوطي (١/ ١٤٨) : ((عن مُقاتِل : أنها ـ أي الآية ـ نَزلت في سَرِيَّة بعثها النبي ﷺ ، فلقوا المشركين لِلَيْلتَيْن بقيتا من المحرَّم ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قَاتِلوا أصحابَ محمد فإنهم يُحرِّمون القتالَ في الشهر الحرام ، فناشدهم الصحابة وذكَّروهم بالله أن لا يتعرضوا لقتالهم ، فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام، فأبى المشركون ذلك وقاتلوهم ، وبَغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ونُصروا عليهم)).

٣ـ الهزيمة :

قال الله تعالى : ﴿ إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مِثْلُه ﴾[آل عمران : ١٤٠] .

فإذا أصاب المؤمنين قتلٌ وجراحٌ ، فقد أصاب المشركين مثلُ ذلك . والمسلمون غير معصومين من الهزيمة أو التعرض للإصابات من شتى الأنواع. ففي المعركة يحصل كلُّ شيء ، لا سيما أن المقاتِلين هم بشرٌ يُصيبون ويُخطئون ، وقد يرتكبون بعض الأخطاء مما يؤدي إلى تأخر النصر عنهم أو هزيمتهم . فإذا انتصر المسلمون فبفضل الله تعالى لِيُعْلِيَ دينَه ويُعِزَّ عبادَه ، أما إذا انهزم المسلمون فهذا درسٌ لهم لكي يُراجعوا أنفسهم ويقفوا على مواطن الخلل فيهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢١٤) : ((والمعنى : إن يمسسكم يومَ أُحد قرحٌ فقد مَسَّ القومَ يومَ بَدْر قرحٌ مثله)) اهـ .

وقال ابن حجر في العُجاب في بيان الأسباب (٢/ ٧٥٩و٧٦٠) : ((عن عكرمة قال : ندم المسلمون كيف خَلُّوا بينه _ أي خالد بن الوليد وقد كان مشركاً_ وبين رسول الله، وصعد رسولُ الله الجبلَ ، فجاء أبو سفيان فقال : يا محمد ، الحرب سِجال _ الحديث _ ، قال : ونام المسلمون وبهم كُلوم _ أي جروح _ ، ففيهم نزلت _ الآية _)) اهـ .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتُم مِثْلَيْها قُلتُم أنَّى هذا قُل هو مِن عند أنفسكم ﴾[آل عمران : ١٦٥] .

الآيةُ تتحدث عن المصيبة التي حَصلت للمسلمين يوم أُحد إذ قُتِل منهم سبعون ، واللهُ تعالى يُذكِّرهم بأنهم يوم بَدْر قَتلوا سبعين مشركاً وأسروا سبعين . فمجموع القتلى والأسرى يوم بَدْر مِثْلَي قتلى المسلمين يوم أُحد. وما الهزيمةُ التي حصلت لهم يوم أُحد إلا بسبب مخالفتهم للأمر النبوي الشريف القاضي ببقاء الرُّماة على الجبل.وهذا الإثمُ الذي ارتكبوه قاد إلى انكسارهم أمام أعدائهم.

وفي مسند أحمد (١/ ٣٠) : قال عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ : ((فلما كان يوم أُحد من العام المقبل ، عُوقِبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقُتل منهم سبعون ، وَفَرَّ أصحابُ النبي ﷺ عن النبي ﷺ ، وكُسرت رُباعِيَّته ، وهُشِّمت البيضةُ على رأسه ، وسال الدمُ على وجهه،وأنزل الله تعالى:﴿ أَوَ لَمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أصبتُم مِثْلَيْها ﴾ الآية، بأخذكم الفداء)).

فنحن نلاحظ أن الوقائع المؤلمة التي حدثت للمسلمين يوم أُحد كانت عقوبةً لهم على تقصيرهم. وأخذُهم للفداء يوم بَدْر فتح بابَ العقاب الإلهي يوم أُحد ، فقُتل منهم سبعون ، وتفرَّق الصحابة _ رضي الله عنهم _. وقد كُسرت أسنان النبي ﷺ ، وهُشِّمت خُوذته ، وسال الدمُ على

وجهه الشريف . وهذا يشير _ بلا ريب _ إلى تأثير الذنوب في تعكير صفو الحياة ، وإشاعة الحزن والكآبة في النفوس ، وتحويل الواقع إلى أزمات متفاقمة ، وهزائم متكاثرة .

٤_ الغنائم والأنفال :

قال الله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن الأنفال قُل الأنفال لله والرسولِ ﴾[الأنفال : ١] .

والسؤالُ عن صاحب غنائم يوم بَدْر ، فجاء الجواب بأن الغنائم لله والرسولِ ﷺ ، والحكمُ لله تعالى ويُنفِّذه النبي ﷺ على أرض الواقع . فعلى المؤمنين أن يلتزموا بالشريعة ، ويبتعدوا عن حظوظ النفس المادية والتفكيرِ في اقتسام الغنائم .

وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ٢) : ((النَّفْلُ الغنيمة ، سُمِّيت به لأنها عطية من الله تعالى زائدة على ما هو أصل الأجر في الجهاد من الثواب الأُخروي)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : أن رسول الله ﷺ قال يوم بَدْر : ((مَن قَتل قتيلاً فله كذا وكذا)) ، أما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشباب فتسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم ، فإنا كُنَّا ردءاً لكم ، ولو كان فيكم شيء لجئتم إلينا فأبوا ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ ، قال : فنزلت ﴿ يسألونكَ عن الأنفال ﴾ ، فَقُسِّمت الغنائم بينهم بالسَّوية [19].

واللهُ تعالى يُرشد صحابةَ رسوله ﷺ إلى حتمية خضوعهم للحكم الإلهي الذي يُطبِّقه النبي ﷺ ، فهم ليس لهم من الأمر شيء ، وعليهم التركيز في القتال لإعلاء كلمة الله تعالى ، والابتعاد عن التناحر من أجل متاع الدنيا الزائل ، فدخولُ الأمور المادية _ المتمثلة في اقتسام الغنائم _ بين صفوف المؤمنين سيؤدي إلى تشتيت كلمتهم ، وبث الضغائن والأحقاد فيما بينهم ، والابتعاد عن جوهر الجهاد الذي يعني الإقدام على الآخرة وإعطاء الظَّهر للدنيا .

وقال الله تعالى:﴿ واعلَموا أنَّما غَنِمْتُم مِن شيء فأن لله خُمُسَهُ وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل ﴾[الأنفال : ٤١] .

والغنيمةُ هي ما يناله المسلمون من الكفار قهراً . وقد أرشد القرآنُ إلى كيفية توزيعها . حيث تُقسَّم خمسة أخماس ، فيُعطَى الْخُمْس للنبي ﷺ وقرابته (بني هاشم وبني المطلب) واليتامى

(١٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤١) برقم (٢٨٧٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

والمساكين وابن السبيل (المنقطع في سَفره) . أما الأربعة أخماس فتُعطَى للمجاهِدين الذين وضعوا أرواحَهم على أكفِّهم من أجل إعلاء كلمة الله تعالى .

وقد قال النبي ﷺ لما سُئل عن الغنيمة : ((لله خُمسها ، وأربعة أخماس للجيش))[20] .

أما تخصيص القرابة _ الذين يُعْطَوْن من الْخُمْس _ ببني هاشم وبني المطلب ، فلأنهما متلازمان ووحدة واحدة . وعن جبير بن مطعم قال : لما قسم رسولُ الله ﷺ سهم القربى من خيبر بين بني هاشم وبني المطلب جئتُ أنا وعثمان بن عفان ، فقلتُ : يا رسول الله ، هؤلاء بنو هاشم لا يُنكَر فضلهم لمكانك الذي وصفك اللهُ _ عز وجل _ به منهم ، أرأيتَ إخواننا من بني المطلب أعطيتَهم وتركتنا وإنما نحن وهم منك بمنزلة واحدة ، قال : ((إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام ، وإنما هم بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد)) ، ثم شَبَّك بين أصابعه [21] .

فقد أوضح النبي ﷺ أن سبب إعطاء بني المطلب من الْخُمْس عدم مفارقتهم له لا درجة قرابتهم . فالعِبرةُ هنا في الملاصقة والدعم لا رابطة الدم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١٠) : ((وأما سهم ذوي القربى فإنه يُصرَف إلى بني هاشم وبني المطلب ، لأن بني المطلب وازروا _ أعانوا _ بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشِّعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له ، مسلمهم طاعة لله ولرسوله ، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل _ وإن كانوا بني عمهم _ فلم يوافقوهم على ذلك ، بل حاربوهم ونابذوهم ، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول)) اهـ. لكنَّ السؤال الذي يطرح نفسَه: أين يذهب السهمان(سهم النبي وسهم قرابته) بعد وفاة النبي ﷺ ؟ . وقد خاض العلماء في هذه القضية . وفي مستدرك الحاكم (٢/ ١٤٠) : عن الحسن بن محمد ابن الحنفية_رحمه الله_ قال : ((اختلف الناس في هذين السهمَيْن بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون: سهم القربى لقرابة النبي ﷺ ، وقال قائلون : لقرابة الخليفة ، وقال قائلون : سَهْم النبي ﷺ للخليفة من بعده، فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذين

---

(٢٠)رواه البيهقي في سُننه (٩/ ٦٢)برقم (١٧٧٩١).وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١٠).

(٢١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٨١) برقم (١٦٧٨٧).وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٨/ ١٤٧) : رواه البرقاني وذكر أنه على شرط مسلم .

السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله ، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر _ رضي الله عنهما _)) .

٥_ المدد الإلهي :

قال الله تعالى:﴿ يُمْدِدْكُم رَبُّكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين ﴾[آل عمران : ١٢٥].

وهذه الآية مشروطة بصبر المؤمنين وتقواهم . فلما ثَبَتوا يوم بدر أمدَّهم اللهُ تعالى بخمسة آلاف من الملائكة مُعلَّمين بعلامات. فالصبرُ مفتاح النصر. وهنا تبرز ضرورة الثبات في المواقف الشديدة، وتدريب النفس على الصمود عند الأزمات . والكلامُ يظل سهلاً ، لكن العِبرة بالأفعال . وبالطبع فإن الممارسة والتدريب العملي على الثبات يؤدي إلى صناعة أفراد قادرين على المواجهة الفعلية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٨٩) : ((من التسويم الذي هو إظهار سيما الشيء)) . اهـ .

واللهُ تعالى ليس بحاجة إلى الملائكة ليمنح النصرَ للمؤمنين ، لكنه _ سبحانه _ أراد إعطاء درس واقعي للصحابة حول الأسباب والمسبِّبات . وقد قال القرطبي في تفسيره (٤/ ١٩٠) : ((نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلبُ بالله ، وليثق به فهو الناصر بسبب وبغير سبب)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٣١٠) : ((عن علي بن أبي طالب قال : كان سِيما الملائكة يوم بَدْر الصوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها)) .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عَلَيْكم إذ جاءتكم جنودٌ فأَرْسَلْنا عَلَيْهم رِيحاً وجنوداً لم تَرَوْها ﴾[الأحزاب : ٩] .كان هذا عام الخندق (٥ هـ). حيث اجتمعت الأحزابُ لقتال النبي ﷺ ، وهم قُرَيْش ، وغطفان ، ويهود قُرِيظة والنضير . لكنَّ الله تعالى لا يتخلى عن رسوله ﷺ وصحابته _ رضي الله عنهم _ فأرسل على الأحزاب ريحاً قَلبت أمورَهم رأساً على عقب ، والريحُ من جُند الله تعالى . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٦٢٠) : ((ثم أرسل الله _ عز وجل _ على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار، ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين))اهـ . لذلك قال النبي ﷺ : ((نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهلكت عاد بالدَّبُور))[22].

---

(٢٢) متفق عليه . البخاري (١/ ٣٥٠) برقم (٩٨٨) ، ومسلم (٢/ ٦١٧) برقم (٩٠٠) .

والصَّبا هي الريحُ الشرقية ، أما الدبورُ فالريحُ الغربية . وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى قصة الأحزاب الذين هزمهم اللهُ تعالى بالريح ، وإمداد المؤمنين بالملائكة الذين زَلزلوا الأعداءَ ، وألقوا في قلوبهم الرعبَ لكنهم لم يُقاتِلوا .

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٩٣) : ((وهم الملائكة يُقَوُّون المؤمنين بما يُلقون في قلوبهم من الخواطر والتثبيت، ويُضعِفون الكافرين بالتجبين لهم من حيث لا يرونهم ومن غير قتال لأن الملائكة لم تُقاتِل إلا يوم بَدْر)) .

***

خامساً : الأسرى والرقيق

١ـ فداؤهم قبل استرقاقهم :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قُل لمن في أيديكم من الأسرى إن يَعلم اللهُ في قلوبكم خيراً يُؤتكم خيراً مِمَّا أُخذ مِنكم ويَغفر لكم ﴾ [الأنفال : ٧٠] .

فاللهُ تعالى إن يعلم في قلوب الأسرى ـ يوم بَدْر ـ إسلاماً وتصديقاً ، فإنه سيؤتيهم خيراً من الفداء الذي دفعوه لقاء نيل حريتهم لئلا يُصبحوا عبيداً . فالنبيُّ ﷺ فتح لهم بابَ الحرية ، وأن يفتدوا أنفسَهم ، وجنَّبهم ذُلَّ الرِّق . أما سبب نزول الآية . فعن السيدة عائشة ـ رضي الله عنه ـ قالت : [قال العباس : يا رسول الله إني كنت مسلماً ، فقال رسول الله ﷺ : ((الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك ، فافْدِ نفسك وابْنَي أخوَيْك نَوْفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ابن عبد المطلب وحليفك عُتبة بن عمرو بن جحدم أخا بني الحارث بن فِهر)) ، فقال : ما ذاك عندي يا رسول الله ، قال : ((فأين المال الذي دفنتَ أنت وأم الفضل فقلتَ لها : إن أُصبت ، فهذا المال لبني الفضل وعبد الله وقثم ؟)) ، فقال : والله يا رسول الله ، إني أشهد أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل ...ففدى العباس نفْسه وابنَي أخوَيْه وحليفه ، وأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ يا أيها النبي قُل لمن في أيديكم من الأسرى إن يَعلم اللهُ في قلوبكم خيراً يُؤتكم خيراً مِمَّا أُخذ مِنكم ويَغفر لكم واللهُ غفورٌ رحيم ﴾ ، ـ قال العباس ـ : فأعطاني مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله ـ عز وجل ـ][23] .

وفي هذا الحديث يتجلى صِدقُ الدعوة النبوية. فما كان للنبي ﷺ أن يَطَّلع على أمر غَيبي لو لم يكن مؤيداً بالوحي . وتتجلى كذلك رحمة الشريعة بالعباد ، وأن الإسلام قد جاء لرفع الحرج عن الناس والتفريج عنهم ، فقد فتح بابَ الفداء للحيلولة دون وقوع الأسرى في الرِّق مع الانتباه إلى حسن التعامل مع الأسرى . ويظهر ـ أيضاً ـ الفضلُ الإلهي ، والتعويض الرباني . فقد عوَّض اللهُ تعالى العباسَ ـ رضي الله عنه ـ خيراً مما أُخذ منه ، فالكلامُ الإلهي حقٌّ ساطع لا كلام في الهواء .

---

(٢٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٦٦) برقم (٥٤٠٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

٢ـ خطوات سباقة للقضاء على الرَّقيق :

أ ـ احترام المملوك ومساعدته على التخلص من الرِّق :

قال الله تعالى: ﴿ والذين يبتغون الكتابَ مِمَّا مَلكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتُم فيهم خيراً ﴾ [النُّور : ٣٣] . إن المنهج الإسلامي في تحرير الرقيق منهجٌ تدريجي يراعي الظروف النفسية والاجتماعية والاقتصادية داخل المجتمع البشري ، وليس منهجاً فوضوياً مبنياً على الثورة الهدَّامة المباغتة التي تَكسر ثم تَعجز عن الجبر . فقد وضع الإسلامُ خطواتٍ عملية لاستئصال الرِّق ، وهذه الخطوات تمتاز بالتَّدرج مُراعاةً لحالة الرقيق ومدى استعدادهم للحرية والاعتماد على أنفسهم ، وتهيئةً للمجتمع حتى يَستقبل الوافدين الجدد الخارجين من العبودية إلى الحرية .

ومن خطوات اجتثاث ظاهرة الرقيق تشريعُ المكاتَبة ، وهي أن يُكاتب الرجلُ عبدَه على مال ، فإذا دفعه العبدُ فهو حُر ، أي إنه يُحرِّر نفسَه بماله . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٨٢) : ((هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يُكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سَيِّده المال الذي شارطه على أدائه)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٦/ ١٨٩):((وأخرج ابن السكن في معرفة الصحابة عن عبد الله ابن صبيح عن أبيه قال : كنتُ مملوكاً لحويطب بن عبد العزى ، فسألتُه الكتابَ فأبى ، فنزلت : ﴿ والذين يبتغون الكتابَ ﴾)) اهـ .

وقد اختلف الفقهاء في حُكم مكاتَبة الرَّجل عبده ، هل هي على الوجوب أم الندب ؟. فالذين قالوا بوجوبها استدلوا بقوله تعالى : ﴿ فكاتبوهم ﴾ ، وأن مُطْلق الأمر يفيد الوجوب . واستدلوا كذلك بما أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٩٠٢): ((أن سيرين ـ والد محمد بن سيرين الفقيه المشهور ـ سأل أنساً المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال : كَاتِبْه، فأبى، فضربه بالدُّرة ، ويتلو عمر: ﴿ فكاتبوهم إن علمتُم فيهم خيراً ﴾ . فكَاتَبَه)) .

وقد قيل : وما كان عمر ليرفع الدُّرة على أنس فيما له مباح ألا يفعله . وفي رواية : ((أن سيرين أراد أن يُكاتبه ـ أي أنس بن مالك ـ ، فتَلَكَّأ عليه، فقال له عمر : لتُكاتبه))[24] .

أما الجمهورُ القائلون بالندب فهم يَرَوْن أن مطلق الأمر يفيد الوجوب إذا لم تظهر قرينةٌ تقتضي صرفه عن الوجوب . والأمرُ في الآية ليس على إطلاقه ، بل هو مشروط بعلم الخير فيهم

---

(٢٤) رواه الطبري في تفسيره (٩/ ٣١١) ، وصحَّحه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٨٢) .

﴿ فكاتبوهم إن علمتُم فيهم خيراً ﴾ . وقال ابن عبد البَر في التمهيد (٢٢/ ١٦٧) : ((وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والشافعي والأوزاعي وأصحابهم: ليست الكتابة بواجبة ، ومن شاء كَاتَب ومن شاء لم يُكاتب ، وهو قول الشعبي والحسن البصري وجماعة . ومن حجتهم أنه لَمَّا لم يكن عليه واجب أن يبيعه ولا يهبه بإجماع _ وفي الكتابة إخراج مُلكه عن يده بغير تراض ولا طيب نفس منه _ كانت الكتابة أحرى ألا تجب عليه ، وكان ذلك دليلاً على أن الآية على الندب لا على الإيجاب.ويُحتمل أن يكون فعل عمر لأنس على الاختيار والاستحسان لا على الوجوب)) .

وعن النبي ﷺ قال : ((ثلاثة حَقٌّ على الله أن يُعينهم : الْمُكَاتِب الذي يُريد الأداءَ ...))[25].

فقد تعهَّد اللهُ تعالى بإعانة المكاتِب الذي يسعى إلى تحرير نفسه من الرِّق عبر إعطاء مبلغ من المال لسَيِّده ، وهو صادقٌ في أداء هذا المبلغ ، لا يريد الهروب أو التحايل . مما يشير _ بوضوح _ إلى منهجية الشريعة في القضاء على ظاهرة الرقيق نهائياً عبر خطوات فعالة وتدريجية تُفضي إلى ولادة نظام اجتماعي متماسك لا فوضى اجتماعية .

ب _ الإعتاق :

قال الله تعالى : ﴿ فكفَّارته إطعامُ عشرة مساكين مِن أوسط ما تُطعِمون أهليكم أو كِسْوتهم أو تحريرُ رَقَبة ﴾ [المائدة : ٨٩] .

وهذه الآية تتحدث عن كفَّارة اليمين ، ونلاحظ فيها إيراد تحرير رقبة . وفي هذا دلالةٌ واضحة على منهجية الشريعة في الربط بين الكفَّارات وتحرير الرقاب. وهذا الربط منتشر في القرآن . مما يؤدي إلى جعل عتق الرقبة ثقافةً مجتمعية عامة ، واتجاهاً متداولاً بكثرة في المجتمع . فالشريعةُ تريد وضعَ هذه القضية في بؤرة الضوء لئلا يتم تجاهلها أو الاستهانة بها فيضيع العبيدُ في زحمة الحياة الضاغطة . وقد تعامل المسلمون مع إعتاق الرقبة بأهمية قصوى ، وأَوْلوها عنايةً خاصة ، لدرجة [أن عبد الله بن عمر أَعتق ابنَ زنا وأُمَّه] [26] .

---

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٣٦) برقم (٢٨٥٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢٦)رواه البيهقي في سُننه (١٠/ ٥٩) برقم (١٩٧٨٤).وصحَّحه الحافظ في الفتح (١١/ ٦٠١).

سادساً : حياة الشهداء

إن الشهداء الذين ضَحُّوا بحياتهم لإعلاء كلمة الله تعالى لم يضع جهدُهم عند خالقهم تعالى . فقد منحهم الحياةَ الأبدية في النعيم والاستمتاع مكافأةً لهم على صبرهم، وحُسن فِعالهم ، وتقديمهم أرواحهم رخيصةً في سبيل الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربِّهم يُرزَقون ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٦٥) : ((يخبر _تعالى _عن الشهداء بأنهم وإن قُتلوا في هذه الدار فإن أرواحَهم حيةٌ مرزوقة في دار القرار)) اهـ .

فالقرآنُ يُثبِت للشهداء الحياةَ ، ويُزيل الصورةَ المتخيَّلة في أذهان الناس بأن الشهداء قد ماتوا. وهذا يشير إلى وضعية مميَّزة للشهداء تختلف عن وضعية الأموات ، فهم أحياء عند ربهم يُرزَقون . وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٢٦٠) : ((لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أن ما جرى يوم أُحد كان امتحاناً يميز المنافق من الصادق ، بَيَّن أن مَن لم ينهزم فقُتل ، له الكرامة والحياة عنده . والآية في شهداء أُحد، وقيل : نَزلت في شهداء بئر معونة ، وقيل : بل هي عامة في جميع الشهداء)) .

وعن ابن عباس_ رضي الله عنهما_ قال:قال رسول الله ﷺ:((لَمَّا أُصيب إخوانكم بأُحد جعل اللهُ أرواحَهم في جوف طير خُضر ترد أنهارَ الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب مُعلَّقة في ظل العرش، فلما وَجدوا طِيبَ مأكلهم ومشربهم ومقيلهم،قالوا: من يُبلِّغ إخواننا أنَّا أحياء في الجنة نُرزَق لئلا يَزهدوا في الجهاد،ولا ينكلوا_ يمتنعوا_ عن الحرب، فقال الله _تبارك وتعالى_:أنا أُبلِّغهم عنكم)).وأنزل اللهُ:﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً ﴾ [27].

وقال الله تعالى : ﴿ فَرِحين بما آتاهم اللهُ مِن فضله ويَستبشِرون بالذين لم يَلحقوا بهم مِن خَلْفهم ألا خوفٌ عَلَيْهم ولا هُم يَحزنون ﴾ [آل عمران : ١٧٠] .

فهم فرحون بفضل الله تعالى وشرفِ الشهادة والنعيم الأبدي، ويستبشرون بإخوانهم المجاهِدين الذين ما زالوا في الدنيا على منهاج الإيمان والجهاد لعلمهم أنهم إذا استشهدوا فسيحصلون على النعيم السرمدي والكرامةِ الخالدة والسعادة الدائمة .

---

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٩٧) برقم (٢٤٤٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥١٦) : ((لا خوف عليهم لأنهم قد أَمِنوا عقابَ الله، وأَيقنوا برضاه عنهم ، فقد أَمِنوا الخوفَ الذي كانوا يخافونه من ذلك في الدنيا ، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها)) اهـ .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : ((ما من عبد يموت له عند الله خير يَسُرُّه أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة ، فإنه يَسُرُّه أن يرجع إلى الدنيا فيُقتَل مرة أخرى))[28] .

وهذا يشير إلى فضل الشهادة ، ودرجة الشهيد السامية ، والشرفِ المجيد الذي حصل عليه ، فهو يريد العودةَ إلى الدنيا ليُقتَل مرة أخرى لما رأى من النعيم الخالد والمرتبةِ الشريفة ، حيث المتعة الأبدية التي لا تزول .

((وأما سبب تسميته شهيداً، فقال النضر بن شميل : لأنه حي فإن أرواحهم شَهدت وحَضرت دارَ الإسلام ، وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة . وقال ابن الأنباري : إن الله تعالى وملائكته ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يشهدون له بالجنة . وقيل : لأنه شهد عند خروج روحه ما أعده اللهُ تعالى له من الثواب والكرامة . وقيل : لأن ملائكة الرحمة يشهدونه فيأخذون روحه . وقيل : لأنه شُهد له بالإيمان وخاتمة الخير بظاهر حاله. وقيل : لأن عليه شاهداً بكونه شهيداً وهو الدم. وقيل : لأنه ممن يشهد على الأمم يوم القيامة بإبلاغ الرُّسل الرسالة إليهم))[29] .

****

---

(٢٨) متفق عليه.البخاري (٣/ ١٠٢٩) برقم (٢٦٤٢) ، ومسلم (٣/ ١٤٩٨) برقم (١٨٧٧) .

(٢٩) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٢٤) .

سابعاً : الغزوات

١ـ غزوة بدر (٢ هـ) :

قال الله تعالى : ﴿ وإذ يَعِدُكم اللهُ إحدى الطائفتَيْن أنها لَكُم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد اللهُ أن يُحِق الحقَّ بكلماته ويقطعَ دابرَ الكافرين ﴾[الأنفال : ٧] .

وهذه الآية نزلت في قصة بَدْر. والطائفتان هما العِير (مع أبي سفيان) والنفير (مع أبي جهل). فاللهُ تعالى وعد المؤمنين إحدى الطائفتين أنها ستكون لهم . والمؤمنون أحبُّوا أن تكون لهم العِير تجنباً للقتال وإهدار الدماء ، فأرادوا نصراً سهلاً دون خوض حرب ، لكن الله تعالى يريد إعلاءَ كلمته ، وتثبيت دعائم دِينه المقدَّس ، واستئصال الكافرين ، فأمرَ المؤمنين بقتال قُرَيْش . والخِيرةُ فيما اختاره اللهُ تعالى لأنه أعلم بالنفوس من أصحابها . والإرهاصاتُ التي سبقت غزوةَ بدر تتمثل في وجود عِير لقُريش قادمة من الشام ، على رأسها أبو سفيان ، فخرج النبيُّ ﷺ في جماعة من أصحابه يريد الاستيلاء على العِير لتعويض ما تركه المهاجرون للكفار بمكة. فعلم أبو سفيان بالأمر ، فأرسل من يُخبِر قُريشاً بذلك ، فخرج المشركون بأسلحتهم للدفاع عن تجارتهم ، وعلموا بنجاة القافلة ، لكنهم أصرُّوا على قتال المسلمين . فالتقى الطرفان في بَدْر . وكان عدد أصحاب بَدْر ثلاثمائة وثلاثة عشر رَجلاً، أما المشركون فقُرابة الألف.

وقد روى الترمذي في سُننه (٤/ ١٥٢) وصححه: عن البراء ــ رضي الله عنه ــ قال : ((كنا نتحدث أن أصحاب بدر يوم بدر كَعِدَّة أصحاب طالوت ، ثلاثمائة وثلاثة عشر رَجلاً)) .

وقبل خروج المسلمين للقتال شاوَرَهم النبي ﷺ في الأمر ، فهم لم يكونوا مستعدين للحرب .

فعن أبي أيوب الأنصاري ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة : ((إني أُخبرت عن عير أبي سفيان أنها مُقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير ؟ ، لعل الله يغنمناها)) ، فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سِرْنا يوماً أو يومين قال لنا : ((ما ترون في القوم فإنهم قد أُخبروا بمخرجكم ؟)) ، فقلنا : لا والله ، ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكن أردنا العير. ثم قال: ((ما ترون في قتال القوم ؟)) ، فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما

قال قوم موسى لموسى ﴿ فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنَّا هَهُنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] . قال: فتمنَّيْنا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم [30].

ونرى الإصرارَ الكبير من الصحابة على ملازمة النبي ﷺ والقتالِ معه وعدم التخلي عنه ، على الرغم من رغبتهم في العِير وتجنب النفير (القتال) في بداية الأمر . لكنَّ الحق أحقُّ أن يُتَّبع .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٠٣) : ((عن أنس : أن رسول الله ﷺ شَاوَر حين بلغه إقبال أبي سفيان. قال : فتكلم أبو بكر ، فأعرض عنه . ثم تكلم عمر، فأعرض عنه. فقام سعد بن عبادة، فقال : إيانا تريد ؟، يا رسول الله ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها _ يعني الخيل_، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد_اسم مكان _ لفعلنا)) .

وهذا هو الصدقُ التطبيقي في أحلك الظروف لا الصدق الشعاراتي والأناشيد الوطنية المفرغة من المعنى الواقعي . لذلك جاءت أهلَ بدر البشارةُ بسبب إيمانهم وصبرهم ورباطة جأشهم وثباتهم عند تطاير الرؤوس في أرض المعركة . فقد قال النبي ﷺ : ((لعل الله_ عز وجل _ اطَّلعَ على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم))[31] .

ومعناه أن لهم الغُفرانَ في الآخرة والكرامة والنعيم المقيم جزاء صبرهم وثباتهم في الموقف الصعب (يوم بَدْر) ، أما إذا ترتب على أحدهم حَد أو غيره أُقيم عليه في الدنيا . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٥٦) : ((ونقل القاضي عياض الإجماع على إقامة الحد)) .

ولو عُدنا إلى مقدمات المعركة لوَجدنا أن النبي ﷺ أعطى جرعةً معنوية عالية للمؤمنين بأن بشَّرهم بمصارع المشركين . ففي سيرة ابن هشام (٣/ ١٦٢) أن النبي ﷺ قال : ((والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم)) .

ويتجلى الأخذ بمشورة الصحابة يوم بدر . فمضى النبي ﷺ [يُبادر قريشاً إلى الماء حتى إذا جاء أدنى من ماء بدر نزل به ، فقال حباب بن المنذر بن الجموح أحد بني سلمة : يا رسول الله ! ، أرأيتَ هذا المنزل ؟ أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ ، قال : ((بل هو الحرب والرأي والمكيدة)) ، قال : فإن هذا ليس لك بمنزل ،

---

(٣٠) رواه الطبراني (٤/ ١٧٤). وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٦/ ٩٤) برقم (٩٩٥٠) .

(٣١) متفق عليه. البخاري (٤/١٨٥٥) برقم (٤٦٠٨) ، ومسلم (٤/ ١٩٤١) برقم (٢٤٩٤) .

فانهض حتى نأتيَ أدنى قليب القوم فننزله ، ثم نُغوِّر ما سواه من القلب ، ثم نبني حوضاً فنملأه ، ثم نُقاتِل القومَ فنشرب ولا يشربون] [32] .

فهذا الصحابي الجليل قدَّم خبرته في سبيل الدعوة الإسلامية ، ولم يكتم المشورةَ الصادقة ، بل أعطى رأيَه مدعوماً بالحجَّة والبرهان من أجل صناعة انتصار المسلمين على المشركين . وقد كان ذكياً حينما سأل عن اختيار الموقع قبل إبداء النصيحة ، هل هو أمرٌ إلهي معصوم أم اجتهاد بشري وفق ظروف الحرب ؟ . فهذا السؤال له أبعاد دقيقة . فالأمرُ الإلهي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يمكن رفضه أو الاعتراض عليه ، أما الاجتهاد البشري فيمكن تغييره إذا ظهر رأي راجح . وقد كانت معركةً قوية ، وأمدَّ اللهُ المؤمنين بالملائكة ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين الباهر على الرغم من تفوق المشركين عددياً . وقُتل من المشركين سبعون ، وأُسر سبعون . وارتفعت معنويات المسلمين وعلا صوتُهم بعد هذا النصر الإلهي .

وعن ابن مسعود قال: أدركتُ أبا جهل يوم بدر صريعاً ، فقلتُ : أي عدو الله ، قد أخزاك الله، قال : وبما أخزاني الله من رَجل قتلتموه . ومعي سيف لي فجعلتُ أضربه ولا يحيك فيه ، ومعه سيف له جيد فضربتُ يدَه فوقع السيف من يده فأخذتُه ثم كشفتُ المغفر عن رأسه فضربتُ عنقه ثم أتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه فقال : ((الله الذي لا إله إلا هو ؟)) ، قلتُ : الله الذي لا إله إلا هو ، قال : ((انطلق فاستثبت)) ، فانطلقتُ فأنا أسعى مثل الطائر ، ثم رجعتُ وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرتُه ، فقال رسول الله ﷺ : ((فانطلقْ فأرني)) ، فانطلقتُ معه فأريته ، فلما وقف عليه رسول الله ﷺ قال : ((هذا فرعون هذه الأمة))[33] .

فأبو جهل (رأس الشِّرك) قضى حياته كافراً مُحارِباً لله تعالى ورسوله ﷺ مُعانِداً للحق ، حتى وهو على حافة الموت ما زال العنادُ مسيطراً عليه . وهذا يدل على التكبر والصفاتِ الجاهلية المغروسة فيه . وما قتلُه إلا إنجازٌ كبير في سبيل نشر الدعوة ، فهذا الفرعونُ الهالك رفض البرهانَ الساطع ، ولم يكتفِ بكفره ، بل حارب الإسلامَ بكل ما يملك ، فكانت هذه عاقبته المخزية .

---

(٣٢)السيرة لابن حبان (١/ ١٥٧).وانظر تاريخ الطبري(٢/ ٢٩)،وسيرة ابن هشام(٣/ ١٦٧).

(٣٣) رواه الطبراني (٩/ ٨٤) برقم (٨٤٧٤) . وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٠٣) : ((ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة وهو ثقة)) .

٢ـ غزوة أُحد (٣ هـ) :

قال الله تعالى : ﴿ وإذ غَدوتَ مِن أهلكَ تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتال واللهُ سميعٌ عليم ﴾[آل عمران : ١٢١] .

وهذا يوم أُحُد . فالنبي ﷺ خرج من عند أهله في الصباح ، يُنْزِل المؤمنين في مواقعهم التي سيُقاتِلون فيها المشركين . والمشركون بعد هزيمتهم في بدر ومقتل الكثير من أشرافهم عقدوا العزمَ على الثأر فخرجوا في ثلاثة آلاف مُقاتِل ، ومعهم النساء لتشجيعهم على القتال ، ونزلوا عند جبل أُحُد . وعندما علم النبي ﷺ بالخبر استشار أصحابه وخيَّرهم بين الخروج لقتال المشركين أو انتظارهم في المدينة فإذا هاجموها قاتلهم. وفي نهاية المطاف اختار النبي ﷺ الخروجَ في ألف من أصحابه الذين صاروا سبعمائة بعد انسحب ابن سلول (رأس النفاق) بثلث الجيش . وفي تنظيمه للمقاتِلين خصَّص النبي ﷺ فرقةً من الرُّماة على جبل أُحد لتحميَ ظهورَ المسلمين على رأسهم عبد الله بن جُبير ، وقد أوصاهم بعدم مغادرة أماكنهم مهما حصل ، فقال لهم : ((احموا ظهورَنا ، فإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا قد غَنِمْنا فلا تشركونا))(34) .

وقال الله تعالى : ﴿ ولقد صَدَقَكم اللهُ وَعْدَه إذ تَحُسُّونهم بإذنه ﴾[آل عمران : ١٥٢] .

ودار القتالُ الشديد وانهزم المشركون أولاً ، ونساؤهم يَبكين ، وصدق اللهُ وعدَه حينما قَتل المسلمون المشركين أول النهار . والحسُّ هو القتل . فتم قتل المشركين بإذن الله تعالى وتوفيقه . ووعدُ الله لا يتخلف .

ثم حصل المنعطَف الحرج الذي غيَّر مسارَ المعركة ، فعصيانُ أمر النبي ﷺ المتمثل في ترك الرُّماة للجبل كان الضربةَ القاضية التي أَدخلت المسلمين في الهزيمة . فبعد أن انتصر المسلمون أول النهار أخذوا يجمعون الغنائمَ ، فلما رأى الرُّماةُ ذلك تركوا الجبلَ من أجل الحصول على نصيبهم من الغنائم . ولم يثبت على الجبل إلا قائد الرُّماة عبد الله بن جُبير مع عدد يسير ، وقد ذكَّرهم بوصية النبي ﷺ . ورأى خالد بن الوليد المشهدَ ـ وقد كان مشركاً يومئذ ـ فاستغل لحظة فراغ الجبل من الرُّماة فالتفَّ على المسلمين ففاجأهم ، وعمَّت الفوضى في صفوف المسلمين وداخلهم الرعبُ ، وازداد فيهم القتلُ .

---

(٣٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٤) برقم (٣١٦٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

قال الله تعالى : ﴿ حتى إذا فَشِلْتُم وتنازعتُم في الأمر وعصيتُم مِن بعد ما أراكم ما تُحِبُّون مِنكم مَن يريد الدنيا ومِنكم مَن يريد الآخرةَ ﴾[آل عمران : ١٥٢] .

والمقصودُ هم الرُّماة الذين خالفوا الأمرَ النبوي طمعاً في الدنيا (الغنائم) ، وهذا أدى إلى حدوث الهزيمة بعد النصر الباهر أول النهار. وفي الآية مدحٌ للذين ثبتوا على الجبل، فقد شهد اللهُ لهم بأنهم يريدون الآخرةَ (الأجر الإلهي) .

وعن عبد الله بن مسعود_رضي الله عنه_ قال : ((ما كنتُ أرى أن أَحداً من أصحاب رسول الله يريد الدنيا حتى نَزلت فينا يوم أُحُد : ﴿ مِنكم مَن يريد الدنيا ومِنكم مَن يريد الآخرةَ ﴾))[35].

والصحابةُ _ رضي الله عنهم _ ليسوا ملائكة . إنهم نُخبة بشرية ، ومهما قدَّموا من تضحيات فهم بشرٌ تجري عليهم أحوال البشر من حب الآخرة وحب الدنيا ، والقوة والضعف ، والشجاعة والجبن . مع العلم أن الصحابة طبقات ، ويتفاوتون في الإيمان والعلم والتضحية وخدمة الدِّين .

وقال الله تعالى : ﴿ ثم صرفكم عنهم لِيَبْتَلِيَكم ولقد عفا عنكم واللهُ ذو فضل على المؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

أي ردَّكم عنهم بالهزيمة من أجل اختباركم . فهذه الهزيمةُ هي امتحانٌ للمؤمنين لبيان درجة الثبات على الإيمان، ولحظاتٌ مؤلمة لأخذ الدروس والعِبر . وجاء العفو الإلهي عن عُصاة المسلمين ، فاللهُ تعالى لا حدود لفضله .

وأخرج الطبري في تفسيره (٣/ ٤٦٨) : عن الحسن في قوله : ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ ، قال : ((وكيف عفا عنهم وقد قُتل منهم سبعون وقُتل عم رسول الله ﷺ وكُسرت رباعيته ، وشُجَّ في وجهه ؟ ... قال الله _ عز وجل _ : قد عفوتُ عنكم إذ عصيتموني أن لا أكون استأصلتكم ... هؤلاء مع رسول الله ﷺ في سبيل الله ، غِضاب لله ، يُقاتِلون أعداءَ الله ، نُهوا عن شيء فصنعوه ، فوالله ما تُركوا حتى غُمُّوا بهذا الغم ، فأفسق الفاسقين اليوم يتجرثم كل كبيرة ويركب كل داهية ويسحب عليها ثيابه ويزعم أن لا بأس عليه !! فسوف يعلم)) اهـ .

فلا مجال للطعن في الصحابة الذين خالفوا الأمرَ النبوي، وفارقوا الجبلَ . فقد خرجوا إلى المعركة للجهاد في سبيل الله تعالى صادقين يحملون أرواحَهم على أكفِّهم ، وقد ارتكبوا إثماً

---

(٣٥) رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ١٠٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥١) : رجاله ثقات. اهـ. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٠٢) : ((أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن)) .

تحت إغراء الغنائم ، ودفعوا ثمنَ ذلك ، وعفا اللهُ عنهم . والصحابةُ ليسوا معصومين ، ولم يطلب منهم أحدٌ أن يكونوا كالملائكة ، فرضي اللهُ عنهم. والمعصومُ مَن عصمه اللهُ ، والكمالُ لله وحده .

وقد ورد وصف دقيق لما حدث يوم أُحد بعد غياب نصر المسلمين . فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : وصاح الشيطان : قُتل محمد فلم يَشُكوا فيه أنه حق ، فما زلنا كذلك ما نَشُك أنه قد قُتل حتى طلع رسولُ الله ﷺ بين السعدين فعرفناه بتكفُّؤه إذا مشى ، ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، فَرَقِيَ نحونا وهو يقول : ((اشتد غضب الله على قوم دَموا وجهَ نَبِيِّهم)) ، ويقول مرة أخرى : ((اللهم إنه ليس لهم أن يَعلونا)) ، حتى انتهى إلينا ، فمكث ساعة ، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل : أُعْلُ هُبَل أعل هبل ـ يعني آلهته ـ ، أين ابن أبي كبشة أين ابن أبي قحافة أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : يا رسول الله ألا أجيبه ؟ قال : ((بلى)) ، فلما قال : أعل هبل ، قال عمر : الله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان : يا ابن الخطاب إنه يوم الصمت ، فعاد فقال : أين ابن كبشة أين ابن قحافة أين ابن الخطاب ؟ ، فقال عمر : هذا رسول الله ﷺ ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم ، بدر الأيام دُوَل ، والحرب سِجال ، فقال عمر : لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، قال : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خِبْنا إذاً وخسرنا ، ثم قال أبو سفيان : أما أنكم سوف تجدون في قتلاكم مُثْلة ، ولم يكن ذلك عن رأي سُراتنا، ثم أدركته حميةُ الجاهلية فقال : أما أنه إذا كان ذلك لم نكرهه[36] .

وتتجلى الحمية الجاهلية في عقلية أبي سفيان حينما رفض الاعتذار عن التمثيل بجثث قتلى المسلمين ، فقد أخبر أن هناك مُثلةً ، لكنها لم تصدر عن رأي سُراة المشركين ـ أشرافهم ـ ، ومع هذا فلن يكره المشركون عملية التمثيل بالجثث، وهذا انعكاس للحمية، حيث أخذته العزة بالإثم، وساند قومَه في إثمهم تعصباً للشِّرك والقبيلة والعقلية الجاهلية ، ولم يعتذر عن فعل ذلك .

---

(٣٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٤) برقم (٣١٦٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٥٢) : ((قال ابن إسحاق : حَدَّثني صالح بن كيسان قال : خرجت هند والنسوة منها يُمَثِّلْنَ بالقتلى، يجدعن الآذان والأنف، حتى اتخذت هند من ذلك حزماً وقلائد ، وأعطت حزمها وقلائدها ، أي اللاتي كُنَّ عليها لوحشي جزاء له على قتل حمزة ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها)) .

٣ــ غزوة بني النضير (٤ هـ على المشهور) :

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي أَخرج الذين كفروا مِن أهل الكتاب مِن ديارهم لأول الحشر ما ظننتُم أن يَخرجوا وظنُّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم اللهُ من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرُّعبَ يُخرِبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبِروا يا أولي الأبصار ﴾[الحشر : ٢].

وقد كان سبب هذه الغزوة هو خيانة يهود بني النضير الذين حاولوا قتلَ النبي ﷺ ضاربين بعرض الحائط المواثيق والعهود ، وهذا دَيْدن اليهود على مدار التاريخ .

ففي الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٣٦و٣٧) : ((خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى بني النضيرِ يستعينهم على دِيَةِ العَامِرِيَّيْن اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن فَمُروا رَجلاً يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه . فقال عمرو بن جِحاش بن كعب : أنا . فأتى النبي ﷺ الخبرُ ، فانصرف)) .

وأمر النبي ﷺ بإجلائهم من المدينة ، وأمهلهم وقتاً ، فمن شوهد بعد ذلك ضُربت عنقه . وأخذوا يستعدون للخروج لكن رأس النفاق ابن سلول طلب منهم عدم الخروج ، والإقامة في حصونهم، ووعدهم بمساندتهم في قتال النبي ﷺ. فعدلوا عن الخروج. فاستعد المسلمون لقتالهم.

وعن عائشةــ رضي الله عنهاــ قالت : ((كانت غزوة بني النضير ــ وهم طائفة من اليهود ــ على رأس ستة أشهر من وقعة بَدْر ، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء،وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقةــ يعني السلاحــ ... فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء ، فأجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، وأما قوله: ﴿ لأول الحشر ﴾، فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام))[37].

(٣٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٥) برقم (٣٧٩٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقد اختلفت الأقوال في سنة حدوث غزوة بني النضير . ففي صحيح البخاري (٤/ ١٤٧٦) : عن عُروة بن الزبير: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أُحد .اهـ. وقال ابن حجر في تلخيص الحبير(٤/ ٩٠): ((وعن ابن شهاب أنها كانت في المحرَّم سنة ثلاث، وبه جزم ابن الجوزي في التلقيح والنووي في الروضة وغيرها،وقال الماوردي:كانت في ربيع الأول سنة أربع،وهذا قول ابن إسحاق)).

فاليهودُ قد دفعوا ثمنَ خيانتهم ، وقد كانوا آمنين مطمئنين ، يعيشون بسلام في المدينة مع المسلمين . لكنَّ مغامرات زعمائهم الطائشة قادتهم إلى فقدان ممتلكاتهم ، وخروجهم من ديارهم بكل خزي وعار . وهذا يُدل على أهمية القيادة ذات السُّلطة المعنوية والمادية . فالقيادةُ الرشيدة تقود الناسَ إلى بَر الأمان ، أما القيادةُ الطائشة فتقضي على نفسها وشعبها في آن معاً .

٤_ غزوة الخندق / الأحزاب (٥ هـ) :

قال الله تعالى: ﴿ إذ جاؤوكم مِن فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبَلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنُّون بالله الظنونا(١٠) هنالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلوا زِلزالاً شديداً(١١)﴾[الأحزاب].

وعن عائشة _ رضي الله عنها _: ﴿ إذ جاؤوكم مِن فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصارُ وبَلغت القلوبُ الحناجرَ ﴾ ، قالت : ((كان ذلك يوم الخندق))[38] .

وهذا الوصفُ الإلهي الدقيق لصعوبة الحادثة لا يُضاهيه أي وصف . فهؤلاء الأحزابُ الذين اجتمعوا على محاربة النبي ﷺ كانوا يطمحون إلى استئصال الدعوة الإسلامية من جذورها. فجاءت أسد وغطفان من فوق الوادي (جهة المشرق) ، وجاءت قُريش وكنانة من أسفل الوادي (جهة المغرب) . ومالت الأبصارُ من هول الموقف ، وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وهذا تصويرٌ قرآني بليغ لشدة الرعب وكأن القلب قد انخلع من مكانه .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٨٥٩): ((ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأصلون ، وأيقن المؤمنون بنصر الله)) اهـ .

ويمكن أن تكون الظنون قد حصلت للمؤمنين بمعنى توارد الخواطر وأحاديث النفس بأن هزيمتهم قد حانت وأن القتل ينتظرهم ، وهذا لا يمكن للنفس دفعه ، ولا يقدح في إيمان الصحابة وتوكلهم على الله تعالى ، لأن الخواطر لا يمكن السيطرة عليها .

وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ٢٢١) : ((عبارة عن خواطر خطرت للمومنين لا يمكن البشر دفعها ، وأما المنافقون فنطقوا ونجم نفاقهم)) اهـ .

وحصل ابتلاءُ المؤمنين _ وقد أثبت اللهُ لهم الإيمانَ _ ، وزُلزلوا وحُرِّكوا بقوة بالغة ، كأن الأرض تميد من تحت أرجلهم ، وهذا امتحانٌ إلهي ليظهر المؤمن الصادق من المنافق . وهذه

(٣٨) متفق عليه.البخاري (٤/ ١٥٠٦) برقم (٣٨٧٧) ، ومسلم (٤/ ٢٣١٦) برقم (٣٠٢٠).

المواقف الصعبة يسهل الكلامُ عنها وتحليلها ، لكن التواجد فيها والثبات بحاجة إلى توفيق إلهي ، وإيمان راسخ ، وصبر كبير . فالكلامُ سهلٌ والفعلُ صعب .

وقد هُزم الأحزابُ بأن بعث اللهُ عليهم ريحاً قلبت أمورَهم رأساً على عقب ، وبثَّت في قلوب الكافرين الرعبَ . كما أيَّد اللهُ المؤمنين بالملائكة للدعم المعنوي لا القتال .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤١٤) : عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة ، فقال رَجل : لو أدركتُ رسول الله ﷺ قاتلتُ معه ، وأبليتُ ، فقال حذيفة : أنتَ كنتَ تفعل ذلك ؟ ، لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة وقر ، فقال رسول الله ﷺ : ((ألا رَجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ؟)) ، فسكتنا فلم يجبه منا أَحد ، _ أعادها النبي ﷺ ثلاث مرات دون أن يجيبه أَحد _ .

وهذا يشير إلى خطورة الموقف ، واستيلاء الخوف على القلوب ، فعدمُ إجابة النبي ﷺ لثلاث مرات متوالية يدل على صعوبة الموقف ، وشدة الرعب في النفوس ، وقسوة الظروف الاستثنائية .

وقد سُمِّيت هذه الغزوة بالخندق ، لأن المسلمين حفروا خندقاً بينهم وبين العدو بمشورة سلمان الفارسي _ رضي الله عنه _ ، فنالت هذه الفكرةُ استحسانَ النبي ﷺ . وقد كان المسلمون ثلاثة آلاف ، أما قُريش والأحزاب فكانوا عشرة آلاف .

٥_ فتح مكة (٨ هـ) :

قال الله تعالى: ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتحُ (١) ورأيتَ الناسَ يَدْخلون في دِين الله أفواجاً (٢)﴾ [سورة النصر].

فهذا الفتحُ المقترن بنصر الله تعالى هو فتح مكة . والإعلامُ بفتح مكة قبل وقوعه يشير إلى أن القرآن من عند الله تعالى عالِم الغيب والشهادة ، كما يشير إلى صدق نُبُوَّة محمد ﷺ . وقد كان هذا الفتحُ العظيم حَدثاً استثنائياً . فمكة ليست مكاناً عادياً مثل سائر الأمكنة. فهي ذات رمزية عالية سامية في الجاهلية والإسلام . إنها المركزُ وما سواها أطراف . والعربُ في الجاهلية تنظر إليها نظرة تقديس ، وتنظر إلى حُكَّامها على أنهم سادة العرب. وخضوعُها لراية الإسلام شجَّع الناسَ على الدخول في دِين الله جماعاتٍ جماعات. والناسُ_عموماً_ ينظرون إلى القوي المسيطر نظرةَ تبجيل واحترام . وفي صحيح البخاري (٤/ ١٥٦٤) : ((وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح _ أي تنتظر فتح مكة حتى يُسلموا _ فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق ، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم)) .

أما الإرهاصات التي سبقت فتح مكة فتتمثل في نقض قُريش صلحَ الحديبية ، وذلك بمساعدتها بني بكر حلفاءها على خُزاعة (حلفاء النبي ﷺ) ، فقُتل من خُزاعة عدد من الرجال ، الأمر الذي جعلهم يَطلبون نصرةَ النبي ﷺ .

وتفصيلُ ذلك : أن أُناساً من بني بكر كَلَّموا أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح ، فوعدوهم ووافوهم بالوتير _ اسم مكان _ متنكِّرين متنقِّبين ، فيهم صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى، ومِكْرَز بن حفص ، فبيَّتوا خزاعة ليلاً وهم آمنون ، فقَتلوا منهم عشرين رَجلاً ، ثم ندمت قريش على ما صنعت ، وعلموا أن هذا نقض للمدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ . وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خُزاعة ، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه ، فقام وهو يجر رداءه ، وهو يقول : ((لا نُصِرْتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي))(39) .

وندمت قُريش على فعلتها ، فأرسلت أبا سفيان في محاولة لرأب الصدع ، وتمديد الهدنة ، وتجديد العهد . لكنَّ النبي ﷺ رفض ذلك ، وأخذ يستعد للقتال ، فسار إلى مكة في عشرة آلاف رَجل . ودخلها النبي ﷺ دون قتال .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٥٥٩) أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة : ((... ولكن هذا يوم يُعظِّم اللهُ فيه الكعبة يوم تُكسَى فيه الكعبة)). وكُسرت الأصنامُ حول الكعبة ، ودانت مكة بالإسلام ، ودخل الناس في دِين الله أفواجاً .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٢٧) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ في قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتحُ ﴾ ، قال : ((أَجَلُ رسولِ الله ﷺ أعلمه إياه)) .

وفي هذه الآية نعيُ النبيﷺ ، وقرب انتقاله إلى الرفيق الأعلى _ سبحانه _ . لذلك تُسمَّى سورة النصر بسورة التوديع . وقد قال الكرماني في أسرار التكرار (١/ ٢٢٧) : ((فإن جواب إذا مضمر تقديره إذا جاء نصر الله إياك على من ناوأك حضر أجلُك)) اهـ .

٦_ غزوة حُنَيْن (٨ هـ) :

قال الله تعالى: ﴿ ويومَ حُنَيْن إذ أعجبتكُم كَثْرَتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرضُ بما رَحُبت ثم وَلَّيْتُم مُدبِرين ﴾ [التوبة : ٢٥] .

---

(٣٩) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٤) . وانظر سيرة ابن هشام (٥/ ٤٨) .

وسببُ الغزوة أن هوازن قد سمعت بفتح مكة وسيطرة المسلمين عليها وخضوعِ قُريش لهم . فَكَبُر عليها الأمر ، فجهَّزت جيشاً لإنهاء انتصارات المسلمين ، وإيقاف زحفهم . فخرج النبي ﷺ لملاقاة العدو في اثني عشر ألفاً من المسلمين . وقد كانوا مُعجَبين بكثرتهم. وانتشر الأعداء في وادي حُنَيْن يكمنون للمسلمين حتى يُباغتوهم . وحينما وصل المسلمون إلى المكان تفاجأوا بالعدو يظهر من شِعاب الوادي بشكل مباغت وكثيف. وهنا حصلت الفوضى في جيش المسلمين، ودبَّ الخوفُ فيهم ، وبدأ المسلمون يهربون .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٨) : قال العباس بن عبد المطلب_ رضي الله عنه _ : شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حُنَيْن فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسولَ الله ﷺ ، ... فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله ﷺ يركض على بغلته قِبَل الكفار ، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أَكُفُّها إرادة أن لا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ((أي عباس، نادِ أصحاب السمرة_شجرة بَيْعة الرضوان_)) ... فقلتُ بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة ؟ ... فقالوا : يا لَبَّيْك يا لبيك ، فاقتتلوا والكفار ... فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم ، فقال رسول الله ﷺ : ((هذا حين حَمِيَ الوطيس))، ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصياتٍ، فرمى بهن وجوهَ الكفار، ثم قال:((انهزموا ورب محمد)) .

وتغير مسارُ المعركة لصالح المسلمين. بعد أن جمعهم النبي ﷺ على كلمة سواء، ووحَّد صفوفَهم بأن أثار فيهم ذكرى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، مما أدى إلى رفع معنوياتهم ، وعودتهم إلى القتال بكل بسالة . وقد أنزل اللهُ تعالى الملائكة لا للقتال ، بل لتشجيع المسلمين وتثبيط الكافرين .

قال الله تعالى : ﴿ ثم أنزل اللهُ سَكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تَرَوْها وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاءُ الكافرين ﴾ [التوبة : ٢٦] .

وفي هذا الغزوة درسٌ باهر على أن النصر إنما هو من عند الله تعالى ، وليس بالعَدد والعُدد . فقد كان المؤمنون مُعجَبين بكثرتهم ، وهذا الأمر ارتد عليهم سلباً . فقد أخرج الطبري في تفسيره (٦/ ٣٤٠) عن السدي : [أن رَجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يوم حُنَيْن قال : يا رسول الله لن نُغلَب اليوم مِن قِلَّة !، وأعجبته كثرةُ الناس وكانوا اثني عشر ألفاً ، فسار رسول الله ﷺ فَوُكِلوا إلى كلمة الرَّجل فانهزموا عن رسول الله غير العباس وأبي سفيان بن الحارث وأيمن ابن أم أيمن

قُتل يومئذ بين يديه ، فنادى رسول الله ﷺ : ((أين الأنصار ؟ ، أين الذين بايعوا تحت الشجرة ؟)) ، فتراجع الناس ، فأنزل الله الملائكة بالنصر ، فهزموا المشركين يومئذ] .

فمن اعتمد على الأسباب وُكِل إليها، أما من اعتمد على خالق الأسباب مع الأخذ بالأسباب، فعندئذ سوف ينال النصرَ بإذن الله وفضله ، لأن الله تعالى لا يتخلى عن عباده الصادقين الذين يُضحُّون بأرواحهم في سبيل إعلاء راية التوحيد .

٧_ غزوة تبوك / العُسرة (٩ هـ) :

كانت هذه الغزوة أيام حَر شديد ، والناس في عُسرة وضيق بالغ في عيشهم . وسببُها أن الأنباء وصلت إلى النبي ﷺ أن الروم جمعوا أعداداً كثيرة ، وتقدَّموا جهة البلقاء في الشام . وقد تسابق المسلمون لتقديم ما لديهم . فقد روى الحاكم في المستدرك (١/ ٥٧٤) وصححه : عن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال : أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلتُ: اليوم أسبق أبا بكر _ إن سبقته يوماً _ فجئتُ بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : ((ما أبقيتَ لأهلك ؟)) ، فقلتُ : مِثْله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال : ((يا أبا بكر ، ما أبقيتَ لأهلك ؟)) ، فقال : أبقيتُ لهم الله ورسوله ، فقلتُ : لا أسابقك إلى شيء أبداً .

وقال البوطي في فقه السيرة (ص ٢٧٠) : ((وإذا صح هذا الحديث ، فلا بد أن يكون هذا الندب بمناسبة غزوة تبوك كما قال ذلك فريقٌ من العلماء)) اهـ .

وخرج النبي ﷺ في ثلاثين ألفاً من المسلمين . أما جيش الروم فكانوا أربعين ألفاً . ولما وصل المسلمون إلى تبوك لم يجدوا جيش الروم ، ولم يحدث قتال . وعاد النبي ﷺ إلى المدينة .

وكانت هذه الغزوة فاضحةً للمنافقين . ونزلت آياتٌ في هذا الشأن . فقال الله تعالى : ﴿ لو كان عَرَضاً قريباً وسَفراً قاصداً لاتَّبعوكَ ولكن بَعُدَت عليهم الشُّقَّةُ ﴾[التوبة : ٤٢] .

وهذا توبيخٌ للذين تخلفوا عن النبي ﷺ يوم تبوك.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ٤٤٤): ((قال المفسرون : نَزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك)) اهـ . ومعنى الآية: لو كانت هناك غنيمة قريبة وسَفر قريب لاتَّبعوا النبي ﷺ ، ولكن بَعُدت عليهم المسافة إلى الشام .

وهناك حالة خاصة تتعلق بثلاثة صحابة تخلفوا عن النبي ﷺ ، لكن الله تعالى تاب عليهم . فقال _ سبحانه _ : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبَت وضاقت عليهم أنفسُهم وظَنُّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾[التوبة: ١١٨].

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥١٠) : ((وهم : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية . قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد ، كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكاً ونفاقاً)) اهـ .

وفي صحيح البخاري(٤/ ١٧١٨): عن كعب بن مالك :_ ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا ﴾. قال : إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال النبي ﷺ : ((أمسكْ بعض مالك فهو خير لك)) .

فهذا الصحابي الجليلُ قد استشعر حجمَ الكارثة التي أقدم عليها ، وندم أشد الندم . فأراد أن يتصدق بماله . وهذا يدل على صدقه في توبته ، وقوة عزيمته التي تجعله ينخلع من ماله كله ، وإصراره على اعتناق الحق ، وعدم العودة إلى الوراء . ومن تاب تاب اللهُ عليه . والعصمةُ للأنبياء وَحْدَهم .

***

ثامناً : أدوات الجهاد

١ـ الحديد :

قال الله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافع للناس ﴾[الحديد : ٢٥] .

فاللهُ تعالى أوجد الحديد فيه قوة وصلابة ، فآلاتُ الحرب تتم صناعتها من الحديد كالسيوف والدروع. كذلك فيه منافع للناس ، وهذا ظاهرٌ للعيان ، إذ إن الحديد يدخل في كثير من الأدوات المستعملة والصناعات والتكنولوجيا، ولا يمكن الاستغناء عنه .

وفي تفسير القرطبي (١٠/ ١٥) : ((وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء . وسَمَّاه إنزالاً لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٠٣) : ((أي : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه . ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السُّور المكية ، وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف ، شرع اللهُ الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب)) اهـ.

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٠٦٦) : عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال : ((جُعل رِزْقي تحت ظِل رُمحي ، وجُعل الذلة والصغار على من خالف أمري)) .

أي إن الله تعالى جعل رِزقَ النبي ﷺ من الغنيمة ، ولا يتم الحصول عليها إلا بالجهاد . وهذا لا يعني ـ بأية حال من الأحوال ـ انتشارَ الإسلام بالقوة العسكرية والإكراه . فالمنهجُ الإسلامي هو وضع القوة المادية في نصابها الصحيح ، ووضع القوة الروحية في مكانها الملائم . ولا بد للعقيدة من قوة تحميها ، ولا بد للقوة من عقيدة تُوجِّهها .

أما الذين يحاولون الاصطياد في ماء شكوكهم العكر ، فيلتقطون الألفاظ ذات الدلالة الحربية كالرمح والسيف ... إلخ ، في محاولة بائسة منهم لإيهام الآخرين بأن الإسلام دِين عنف وإرهاب ، فهؤلاء حجتهم داحضة، فالإسلامُ مصحفٌ وسيف لا ينفصلان ، وفي ذات الوقت ﴿ لا إكراهَ في الدِّين ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٩٨) : ((إشارة إلى أن ظله ممدود إلى أبد الآباد . والحكمة في الاقتصار على ذكر الرمح دون غيره من آلات الحرب كالسيف أن عادتهم جرت بجعل الرايات في أطراف الرمح ، فلما كان ظل الرمح أسبغ كان نسبة الرزق إليه أَلْيق)) اهـ .

٢ـ الخَيل :

قال الله تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتُم مِن قُوَّة ومِن رِبَاط الخيل ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

إن الخيل من الأدوات الفعالة في الجهاد ، وهي تُستخدَم في أغراض متعددة لخدمة الجيش . فالخيلُ التي تُربَط في سبيل الله لها مكانةُ طيبة في منظومة القوة التي يتطلبها الجهاد . مع الانتباه إلى ضرورة الاعتناء بها، والإنفاق عليها ، وتغذيتها جيداً ، وعلاجها في حال المرض . والجدير بالذكر أن اقتناءها وتخصيصها للغزو في سبيل الله من العبادات التي يؤجر المرءُ على فعلها ، لأنه أراد بهذا العمل المساهمةَ الفعالة في الجهاد لإعلاء راية التوحيد . وبالطبع فالأخذ بالأسباب المادية من صميم التوكل على الله تعالى ، ومن تمام المعرفة بالسُّنن الكَوْنية .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((الخيلُ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة))[40] .

فمن ربطها في سبيل الله تعالى كانت له نجاحاً يوم القيامة ، وسيرى الخيرَ بسببها ، لأنه سخَّرها لإعلاء كلمة الله تعالى ، ونشر دِينه ، وهزيمة أعدائه .

وقال ابن عبد البَر في التمهيد (١٤/ ٩٦) : ((في هذا الحديث الحضُّ على اكتساب الخيل وتفضيلها على سائر الدواب ، لأنه ﷺ لم يأتِ عنه في غيرها مثل هذا القول، وبذلك تعظيم منه لشأنها وحض على اكتسابها ، وندب إلى ارتباطها في سبيل الله عُدة للقاء العدو ، إذ هي أقوى الآلات في جهاده ، فهذه الخيل المعدة للجهاد هي التي في نواصيها الخير ، وأما إذا كانت معدة للفتن وقتل المسلمين وسلبهم وتفريق جمعهم وتشريدهم عن أوطانهم فتلك خيل الشيطان)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢/ ٦٨٠) : أن النبي ﷺ قال : ((الخيل ثلاثة ، هي لرَجل وِزْر ، وهي لرجل سِتْر ، وهي لرَجل أجر . فأما التي هي له وِزْر فرَجلٌ ربطها رياء وفخراً ونواء على أهل الإسلام ــ يعني معاداة لهم ــ فهي له وِزْر ، وأما التي هي له سِتْر فرَجل ربطها في سبيل الله ثم لم ينسَ حق الله في ظهورها ولا رقابها فهي له سِتْر ، وأما التي هي له أجر فرَجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كُتب له عدد ما أكلت حسنات ، وكُتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات)) .

---

(٤٠)متفق عليه.البخاري (٣/ ١٠٤٧) برقم (٢٦٩٤) ، ومسلم (٣/ ١٤٩٢) برقم (١٨٧١).

وهكذا نرى أهمية النية في الأعمال. فربطُ الخيل قد يقود إلى الحسنات وقد يقود إلى السيئات. والمهم هو طريقُ الأجر ، وهذا يتأتى بربطها في سبيل الله استعداداً للجهاد ، والاعتناء بها لكي تساهم في نصرة جيش المسلمين . وعندئذ تكون الخيلُ باباً للحسنات مفتوحاً على مصراعَيْه .

***

الفصل الثامن

الإنسان والعلاقات الاجتماعية

تمهيد

إن الإسلام نظامٌ حياتي شامل يحتوي على منظومة اجتماعية متماسكة . فالعلاقاتُ الاجتماعية بالغة الأهمية في بناء الحضارة الإسلامية فكراً ومادةً . والشريعةُ الإسلامية ليست نظاماً كهنوتياً معزولاً عن العالم يعيش في الكهوف والمغارات على هامش التاريخ . إنها شريعة مرتبطة بشكل وثيق مع الناس وشؤونهم الاجتماعية .

وقد تناول القرآنُ العديدَ من القضايا الاجتماعية ، وأعطى حلولاً واقعية للمشكلات الناشئة في المجتمع على الصعيدَيْن : الفردي والجماعي . ولا يخفى أن مركز الحياة هو الإنسان ، لذلك كرَّمه اللهُ تعالى بأن خلقه في أحسن تقويم ، ورزقه القدرةَ على التفكير واتخاذ القرار وتطبيقه ، وسخَّر له ما في الوجود للقيام بواجب الخلافة على أكمل وجه . والفردُ القوي لا بد أن يُنشئ مجتمعاً قوياً ، لأن قوة النواة الجزئية هي قوة المنظومة الكلية .

ولا يمكن إغفال دور الأسرة باعتبارها اللبنة الأساسية في بناء المجتمع الإسلامي ، فلا بد أن تُبنى على أُسس سليمة ، فتكوينها ضروري للغاية في دفع عجلة الجماعة البشرية ، وتحقيق مفهوم إعمار الأرض وتنميتها . وقد سلَّطت الشريعةُ الضوءَ على التحديات التي تعترض طريقَ الأسرة ، والأمراضِ المجتمعية التي تؤثر سلباً على الفرد والجماعة ، وقدَّمت علاجاً ناجعاً لكل الأزمات من أجل تنقية العلاقات الاجتماعية من الأمراض الروحية والمادية .

وحريٌّ بنا أن نفهم طبيعة تكوينات المجتمعات في ضوء الكتاب والسُّنة ، فاللهُ تعالى أعلم بالإنسان من الإنسان ، لأنه _ سبحانه _ هو الخالق . وقد فتحت الشريعةُ الإلهية المعصومة الطريقَ أمام الإنسان لكي يتحرر من أزماته ، وقامت بإرشاده إلى طبيعة الداء والدواء. ومهما حاول الفردُ أن يبحث عن علاج مشكلاته خارج إطار الشريعة فإنه سيعود مهزوماً ، لأنه _ حينئذ _ يكون قد ترك اليقينَ من أجل الشك .

والمجتمعاتُ الإنسانية تمر في أطوار الولادة والقوة والضعف والموت ، وتتفاوت الشعوبُ في درجة تحضُّرها وإنجازاتها. لكن الإنجازات الحضارية ينبغي أن يتم تسخيرها لإرشاد الفرد إلى خالقه، كخطوة أولى لا بد منها في سبيل إعمار الأرض ، وإنشاء علاقات اجتماعية سوية بين الشعوب والقبائل ، مما يؤدي إلى تكريس التعاون البشري من أجل الخير واستئصالِ الشر .

١ــ الإنسان :

أ ــ خَلْقه :

قال الله تعالى : ﴿ فإنَّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من عَلَقة ثم من مُضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ﴾[الحج : ٥].

هذه الآيةُ تُظهِر مراحل خلق الإنسان . فآدمُ ﷺ (أصلُ البشرية) مخلوق من تراب ، ثم جُعل نسلُه من نطفة (المني) . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩) : ((سُمِّيَ نطفة لقِلَّته ، وهو القليل من الماء)) اهـ . ثم من علقة وهي الدم الجامد المستقر في رَحم المرأة . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٠٦) : ((وقيل : سُمِّيت علقة لرطوبتها وتعلقها بما تمر به ، فإذا جَفَّت فليست علقة)) اهـ . ثم قطعة لحم قليلة قدر ما يُمضَغ ، مُصوَّرة الخلق وغير مُصوَّرة .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : في قوله تعالى : ﴿ مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ﴾. قال : ((المخلَّقة ما كان حياً، وغيرُ المخلقة ما كان من سقط))[1] .

وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ : أن النبي ﷺ قال : ((إن أحدكم يُجمَع في بطن أُمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم يبعث اللهُ مَلَكاً فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقي أم سعيد ، ثم يُنفَخ فيه الروح))[2] .

وهذا الحديث يشير إلى المدة الزمنية لكل مرحلة ، كما يدل على أن نفخ الروح يكون بعد أربعة أشهر (١٢٠ يوماً) .

وعن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : ((إذا وقعت النطفةُ في الرَّحم بعث اللهُ مَلَكاً ، فقال : يا رب، مُخلَّقة أو غير مخلقة ؟ ، فإن قال : غير مخلقة، مَجَّتها الأرحامُ دماً، وإن قال : مخلقة قال: يا رب ، فما صفة هذه النطفة أذكر أم أنثى ما رزقها ما أجلها أشقي أو سعيد ؟))[3] .

فهذا الحديث الموقوف له حُكم المرفوع، لأن هذه الأمور الغَيْبية لا مجال لمعرفتها بدون الوحي، فنجزم أن الصحابي قد سمعه من النبي ﷺ .

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٨) برقم (٣٤٥٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٧٤) برقم (٣٠٣٦) ، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦) برقم (٢٦٤٣).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٩/ ١٠٩). وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤١٩) : ((وإسناده صحيح، وهو موقوف لفظاً ، مرفوع حُكماً)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقَر ومُسْتَوْدَع ﴾[الأنعام: ٩٨] .

فالبشريةُ مصدرُها نفسٌ واحدة ، ولها أبٌ واحد ، هو آدم ﷺ . واستقرارُها في أرحام النساء وأصلابِ الرجال . وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٥٤٥) : ((فقال الجمهور : مُستقر في الرَّحم ، ومُستودع في ظهور الآباء حتى يقضيَ اللهُ بخروجهم)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في قوله تعالى: ﴿ فمستقَر ومُسْتَوْدَع ﴾. قال: ((المستقر في الرَّحم ، والمستودَع في الصُّلب))[4] .

وقال الله تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مَهين ﴾ [المرسَلات : ٢٠] .

فالمني هو الماءُ الحقير الذي يتخلَّق منه الإنسان . وهذا يدل على عظمة الخالق تعالى الذي أنشأ كائناً سميعاً بصيراً ذا عقل وجوارح من ماء وضيع لا يُعبَأ به . وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٤١): ((وهذه الآية أصلٌ لمن قال: إن خلق الجنين إنما هو من ماء الرَّجل وحده)) اهـ .

وعن بسر بن جحاش القرشي ـ رضي الله عنه ـ قال : بزق رسولُ الله ﷺ على كَفِّه ، فقال : ((يقول الله : يا ابنَ آدم ، أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه))[5] .

فمن نظر في أصل خِلْقته (الماء المهين) أدرك أنه كائن حقيرٌ وضيع أمام خالقه تعالى . فلا مجال لاستكبار العبد على طاعة الله تعالى ، أو تحدي المخلوق للخالق . فالتحدي يكون بين أنداد ، واللهُ تعالى لا نِد له ولا ضد ، فالإنسانُ الكائن العاجز ليس بمقدوره أن يُبارِز اللهَ تعالى بالمعاصي ، ولا يمكنه الهرب من سَيِّده، فالإنسانُ عبدٌ ذليل بإرادته ورغم أنفه ، ومن يعتقد أن بإمكانه تحدي خالقه فليحمِ نفسَه من الموت.وبما أنه عاجز أمام الموت الذي هو مخلوق،فكيف سيتحدى خالقَ الموت ؟!.

والقادرُ على خلق الإنسان من المني (سائل مهين) ، ونقله عبر أطوار متعددة ليصير كائناً عاقلاً كامل الخِلقة ، قادرٌ على بعثه بعد الموت ، وإعادة الروح إليه . واللهُ تعالى قادرٌ على خلق الإنسان دفعة واحدة ، لكنَّ هذا الأمر يسبِّب مشقةً كبرى للأم، ويسبِّب مشكلاتٍ كثيرة للإنسان ومستواه الفكري والعاطفي ، وتحركه عبر الزمان والمكان . واللهُ أرحم بالعباد من أمهاتهم ، لذلك خلقهم بشكل تدريجي ليتم النمو وفق مراحل واضحة المعالم ذات طبيعة خاصة ، ويتقدم الإنسانُ

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٢) برقم (٣٨٧٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٥) برقم (٣٨٥٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

عبر هذه الفترات التي تمتاز كلٌّ واحدةٍ منها بصفات معينة تشتمل على طبيعة النمو ، والإدراك ، والذكريات ، والأحلام ، والتطلعات . وَمَن أدركَ أطوارَ خَلقه الباهرة لا يمكنه إلا أن يشكر خالقه تعالى على نعمة الحياة والوجود . لذلك قيل : مَنْ عَرَفَ نَفْسَه فقد عَرَفَ رَبَّه .

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٨٨و٤٨٩) : ((مَن قَدِر على خلق الشخص من ماء مهين ، ثم نقله إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم يَنفخ الروحَ فيه ، قادر على نفخ الروح بعد أن يصير تراباً ، ويجمع أجزاءه بعد أن يُفرِّقها . ولقد كان قادراً على أن يخلقه دفعة واحدة ، ولكن اقتضت الحكمة بنقله في الأطوار رِفقاً بالأم لأنها لم تكن معتادة ، فكانت المشقة تعظم عليها فهيَّأه في بطنها بالتدريج إلى أن تكامل ، ومَن تأمل أصلَ خَلْقه من نطفة وتنقله في تلك الأطوار إلى أن صار إنساناً جميل الصورة مُفضَّلاً بالعقل والفهم والنطق كان حقاً عليه أن يشكر من أنشأه وهيَّأه)) .

ب_ أحواله وأوصافه :

قال الله تعالى : ﴿ وخُلق الإنسانُ ضعيفاً ﴾[النساء : ٢٨] .

فالإنسانُ كائنٌ ضعيف أمام شهواته ومشكلاته . وضعفُه ظاهرٌ للعيان ، فلا يحتاج إلى براهين فلسفية لإثباته ، أو وضع نظريات لبرهنة ضعفه . فهو أمام أهوائه وأمراضه وصعوبات حياته وأزماته النفسية والمادية نجده شديد الضعف كقطعة القماش البالية ، قليل الهمة ، بالغ العجز . وكيف يكون الإنسانُ قوياً وأصلُه ضعيف(النطفة) ؟! .

وقال أبو السعود في تفسيره (٢/ ١٦٩) عن معنى الآية : ((عاجزاً عن مخالفة هواه، غير قادر على مقابلة دواعيه وقواه ، حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ، ولا يستخدم قواه في مشاق الطاعات)) اهـ . وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٤٩٤) : ((عن طاووس : ﴿ وخُلق الإنسانُ ضعيفاً ﴾، قال: في أمر النساء ، ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء)) اهـ .

والنساءُ فتنةٌ شديدة . وبالطبع فإن الإنسان ضعيف أمام المرأة ، وذلك بحكم الشهوة والإغراء والفطرة الغريزية . ومَن نظر في حياة الإنسان يجدها محفوفةً بالأخطار والمتاعب والشهوات والصراع مع الغرائز والأهواء . وهذا الكائنُ الضعيف الذي تم تركيبُ الشهوة فيه يسبح ضد التيار ، ويكافح في بحرٍ متلاطم الأمواج . فالفتنُ والإغراءات تحيطه من كل الجوانب . وعليه أن يَصمد أمامها إذا أراد النجاةَ . ولا يمكن الصمود إلا بوجود إيمانٍ راسخ بالله تعالى ، وصبرٍ على تحمل الشدائد ، واستعداد لمقاومة الشهواتِ في سياقها السلبي لا الإيجابي . وبالطبع فلن يَثْبت إلا مَن ثَبَّته اللهُ تعالى .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) : عن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه_ عن النبي ﷺ قال : ((فإن أولَ فِتْنَةِ بني إسرائيل كانت في النِّساء)) .

والأمةُ المحمَّدية الإسلامية أُمَّة ضعيفة مقارنة مع الأمم الغابرة التي كانت أقوى أجساماً ، وأشد بأساً . وهذه الأمةُ الضعيفة غير قادرة على تحمل الأعباء الشديدة . لذلك تم التخفيف عليها في الشرائع والعبادات . وفي حديث الإسراء المشهور أن النبي ﷺ قال لموسى ﷺ:((أُمرتُ بخمسين صلاة كل يوم))، قال:((أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جَرَّبْتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك))[6].

وقال الله تعالى : ﴿ إن الإنسان لَظَلوم كفَّار ﴾[إبراهيم : ٣٤] .

والإنسانُ لفظُ جنس. فهو ظلوم لنفسه ، حيث يتجاوز أوامرَ الله تعالى ، ويسقط في الآثام ، ويجحد النعمَ الإلهية مُنكِراً فضل خالقه عليه. إنه ظالِمٌ لنفسه بالمعاصي كافرٌ بالنعمة . كما أن غالبية البشر هم كُفَّارٌ جاحدون،ومن نظر إلى كوكب الأرض سيجد المسلمين أقليةً من حيث العَدد.

وقال النسفي في تفسيره (٤/ ١٠٧) : ((والكفور : البليغ الكُفران . والمعنى : أنه يذكر البلاءَ وينسى النعمَ ويغمطها . قيل : أُريد به كفران النعمة ، وقيل : أُريد به الكفر بالله تعالى)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٤٥) : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ أنه قال : اللهم اغفر لي ظلمي وكُفري ، قال قائل : يا أمير المؤمنين هذا الظلم ، فما بال الكفر ؟ ، قال : إن الإنسان لظلوم كفَّار !)) .

والإنسانُ قد يَغرق في ضوضاء الحياة الاستهلاكية ، ويغوص في النعم والشهوات ، ويغرق في الاستمتاع بها دون تذكر خالق هذه النِّعم . فزينةُ الدنيا البراقة الخادعة تُنسي الإنسانَ ضرورةَ شكر الله على نعمه الجزيلة . وكثيرٌ من الناس لا يتذكرون اللهَ تعالى في السراء ، وإنما يَلجأون إليه في الضراء ، وبعد أن يَفقدوا كل أسباب الحياة . لذلك على المرء أن يلجأ إلى خالقه تعالى في كل الحالات ، سواءٌ كان قوياً أو ضعيفاً ، غنياً أو فقيراً . فالعبدُ الصادق إنما يَعبد اللهَ تعالى لأنه أهلٌ للعبادة ، وليس من أجل الجنَّة والنار ، أو تحصيل منافع دنيوية زائلة .

وقال الله تعالى : ﴿ وكان الإنسانُ عَجولاً ﴾[الإسراء : ١١] .

---

(٦) متفق عليه.واللفظ للبخاري (٣/ ١٤١٠) برقم (٣٦٧٤).ومسلم(١/ ١٤٥) برقم (١٦٢).

والإنسانُ _ على الدوام _ يستعجل الأمورَ والأحداث ، فهو يفتقد إلى الصبر الذي يَمنح التروي والانتظار ، فيظهر في عَجَلة من أمره بلا تريُّث. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٦٢٩) : ((يعجل في الدعاء بالشر كعجلته في الدعاء بالخير)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وكان الإنسانُ قَتوراً ﴾[الإسراء : ١٠٠] .

فالإنسانُ مجبولٌ على البخل والإمساك عن الإنفاق . فحبُّ المادة والتعلق بالحياة الدنيا يسيطران على أدق تفاصيل حياته. كما أن خشية الفقر تمثِّل هاجساً حياتياً شديد الزخم . والخوفُ من الفقر هو عينُ الفقر .

وقال الله تعالى : ﴿ وإذا مسَّه الشرُّ كان يَؤوساً ﴾[الإسراء : ٨٣] .

فالإنسانُ إذا وقع في ضيق ومصائب فإنه يُصاب باليأس والقنوط والإحباط . فتغور همته ، وتسقط معنوياته ، ويصبح كالريشة في مهب الريح ، وهذا يعكس ضعفه الجِبِلِّي ، وطبيعته غير المعتادة على الصمود أمام الأزمات .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٨٠) : ((أي إذا ناله شدة من فقر أو سُقم أو بؤس يئس وقنط لأنه لا يثق بفضل الله تعالى)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إن الإنسانَ خُلق هَلوعاً ﴾[المعارج : ١٩] .

فالإنسانُ مجبول على هذا الخلق الدنيء، فهو قليل الصبر شديد الحرص ، إذا أصابه الشرُّ جزع واضطرب وفقد اتزانه ، وإذا أصابه خيرٌ بخل به . لذلك لا بد للفرد أن يصارع رغباتِه الجامحة ، ويكافح أهواءه المتضاربة إذا أراد الوصول إلى بَر الأمان .

وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((شَرُّ ما في الرَّجل : شُحٌّ هالع ، وجُبْنٌ خالع))[7] .

فهذا الشحُّ يحمل المرءَ على التمسك بالمال بالأظافر والأسنان ، والجزعُ الشديد عند ذهابه ، أما الجبنُ الخالع فهو الخوف الشديد الذي يخلع القلبَ نتيجة الرعب ، وغيابِ الثقة في النفس ، وكثرةِ الهواجس المثبِّطة .

وقال الله تعالى : ﴿ وكان الإنسانُ أكثرَ شيء جَدَلاً ﴾[الكهف : ٥٤] .

---

(٧) رواه ابن حبان في صحيحه (٨/ ٤٢) برقم (٣٢٥٠)، وأبو داود (٢/ ١٥)برقم (٢٥١١) ، وقال العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ١٩٥) : ((أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد)) .

فالطبيعةُ الإنسانية تتصف بالجدل والخصومة ، وعدم الرضوخ للحق . فالإنسانُ كائن مُجادِل لا ينصاع للحق بسهولة .

وقال النسفي في تفسيره (٣/ ١٨): ((يعني أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء)).

أما فيمن نزلت الآية. فقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٥٧) قولَيْن : ((أحدهما: أنه النضر بن الحارث وكان جداله في القرآن ...والثاني: أُبي بن خلف وكان جداله في البعث)) .

وعن علي بن أبي طالب_ رضي الله عنه_: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلةً ، فقال لهم : ((ألا تُصلون ؟)) . قال علي : فقلتُ يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بَعثنا ، فانصرف رسول الله ﷺ حين قلتُ ذلك ، ولم يرجع إلَيَّ شيئاً ، ثم سمعتُه وهو مُدبِر يضرب فخذَه ويقول : ((﴿ وكان الإنسانُ أكثرَ شيء جَدَلاً ﴾))[8] .

وقد تضايق النبي ﷺ من هذا الجواب الذي لم يكن في محله ، فالتسرعُ في الإجابة تشير إلى نوع من المجادَلة. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٦٥) : ((المختار في معناه : أنه تعجَّب من سرعة جوابه ، وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا ، ولهذا ضرب فخذَه . وقيل : قاله تسليماً لعذرهما وأنه لا عتب عليهما)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ بل يُريد الإنسانُ لِيَفْجُر أمامه ﴾[القيامة : ٥] .

فالإنسانُ يريد المضي في المعاصي والغرقِ في الشهوات والمداومة على الفجور ، لا يوقفه شيء، فلا يشغل بالَه بتوبة لأنه واقع في التسويف واتباعِ الأمل الكاذب . فهو يريد الاستمتاع باللحظة الآنية ، والوصول إلى أقصى الآثام بلا رادع. إنه يتخندق في اللذة الآنية دون النظر إلى المسؤولية ، وَكَم من شهوةٍ ذَهبت لذاتها وبقيت تبعاتها . لذا لا بد من النظر وراء المتعة ، وعدم الانبهار بها ، والسقوط في مصيدتها . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ :_﴿ بل يُريد الإنسانُ لِيَفْجُر أمامه ﴾، قال : ((يقول : سوف أتوب))[9] .

فهو يخدع نفسَه بالأمل الكاذب والتسويف ، فيغرق في الذنوب ، ويخدع نفسَه بالتوبة المستقبلية . وهذا الأمرُ غير منطقي لأن المرء لا يعرف متى سيدهمه الموت فينهي حياتَه ، وقد يموت أثناء المعصية فيُحرَم من التوبة ، ولا أحد يَعرف خاتمته .

---

(٨) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٧١٦) برقم (٧٠٢٧) ، ومسلم (١/ ٥٣٧) برقم (٧٧٥) .

(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٣) برقم (٣٨٧٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وفي صحيح مسلم(٤/ ٢٢٠٦) أن النبي ﷺ قال : ((يُبعَث كل عبد على ما مات عليه)).

وفي هذا إشارةٌ واضحة إلى أن الأعمال بخواتيمها ، وأن العِبرة بكيفية النهاية . وكلُّ شيء انتهى على خير فهو خيرٌ . لكن الوصول إلى هذه النهاية السعيدة يتطلب سلوك طريق مستقيم ، والالتزام به حتى النهاية بلا رجوع ولا استسلام . فحياةُ الإنسان هي تأسيسٌ لمرحلة الموت وما بعده، وكلُّ شجرة مثمرة لا بد أن تكون جذورها ضاربة في أعماق التراب . فالغايةُ النبيلة تتطلب طريقاً نبيلاً . وكما قيل : إنكَ لا تجني من الشوك العنبَ .

وقال الله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسانَ في كَبَد ﴾[البَلَد : ٤] .

فقد خُلق الإنسانُ في تعب ومشقة ، فهو يقاسي الصعوباتِ بشتى أصنافها منذ ولادته حتى وفاته . فسيرةُ حياته عبارة عن أزمات متوالية ، وشدائد قاسية . فهو يُكابد أمرَ الدنيا والآخرة . وهذا أمرٌ منطقي لأن الدنيا هي فترة امتحان وعملٍ دؤوب ، وفي الآخرة تكون النتيجة .

وصدق الشاعر إذ يقول :

تعبٌ كلها الحياة فما أعجب　　　　إلا من راغب في ازديادِ

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : ـ ﴿ لقد خلقنا الإنسانَ في كَبَد ﴾ ، قال : ((في شدة خلق في ولادته ، ونبت أسنانه ، وسَوْره ـ أي حِدَّته ـ ، ومعيشته ، وخِتانه))[10] .

فكل أطوار الإنسان يُكابد فيها المشاق ، الواحدة تلو الآخرة . ولو كان المرءُ هو الذي يخلق نفسَه لأراح نفسه من كل التعب ، فدلَّ هذا على وجود خالق عظيم قضى وقدَّر . فاللهُ تعالى هو الخالق الذي وضع الإنسانَ في اختبار الحياة الدنيا ليميز الخبيثَ من الطيب ، فعلى المرء أن يخضع لأوامر الله تعالى ، ويصبر عند الضَّراء ، ويشكر عند السَّراء . وخلقُ الإنسان في تعب لا يعني أن الله تعالى يريد تدميرَ الإنسان والقضاء عليه، بل يريد اختباره ليعطيَه النتيجةَ التي يستحقها.

ج ـ تكريم الله إياه :

قال الله تعالى : ﴿ ولقد كَرَّمْنا بني آدم ﴾ [الإسراء : ٧٠] . التكريمُ الإلهي للإنسان عامٌّ يشمل البَرَّ والفاجرَ . وهذا من فضل الله على بني آدم ، فقد منحهم الشكلَ الحسن ، وأعطاهم العقلَ والقدرةَ على التمييز والتخيُّل ، وزوَّدهم بالأعضاء والحواس ، وسخَّر لهم الكائنات الحية ، وبسط لهم الأرضَ وجعلها صالحةً للحياة لكي يعيشوا فيها بسعادة دون مُنغِّصات .

---

(١٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٠) برقم (٣٩٣٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فالإنسانُ يمشي منتصباً على رِجْليه ، ويأكل بيديه ، على عكس الحيوانات التي تزحف أو تمشي على أربع ، وتأكل بفمها . وهذا من مظاهر التكريم الباهرة الواضحة للعيان. ولكنَّ الإنسان مِن فَرْط تعوُّده على رؤية الأشياء ببصره لم يعد قادراً على رؤيتها ببصيرته .

قال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٥٤) : ((كَرَّمْنا تضعيف كرم ، أي : جعلنا لهم كرماً ، أي شرفاً وفضلاً . وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة وحملهم في البر والبحر)) اهـ .

د _ تسخير الكائنات له :

ومن مظاهر التكريم الإلهي للإنسان ، تسخير الكائنات الحية له لتسهيل أموره المعيشية ، فهي منقادةٌ له يستعملها في مجالات شتى .

وقد قال الله تعالى في بيان هذه النعمة : ﴿ ومن الأنعام حَمولةً وفَرْشاً ﴾[الأنعام : ١٤٢] .

فهذه الأنعامُ يستعملها الإنسانُ لحمل أغراضه ، أو قد تُفرَش للذبح فيأكل منها لحماً طيباً . ولها استعمالاتٌ أخرى حسب وضعها ، وحسب حاجة الناس .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ : _ ﴿ ومن الأنعام حَمولةً وفَرْشاً ﴾ ، قال : ((الحمولةُ ما حَمل من الإبل ، والفَرْشُ الصغار))[11] .

وفي تفسير الجلالين (١/ ١٨٧) : ((سُمِّيت فَرْشاً لأنها كالفَرْش للأرض لدنوها منها)) .

وقال الله تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مُسَخَّراتٍ في جَو السماء ﴾[النحل : ٧٩] .

فقد سخَّر اللهُ تعالى الطيرَ في الهواء بين السماء والأرض ، مُذَلَّلات لأمر الله تعالى ، ويستفيد الناسُ منها في قضاء حوائجهم وتحقيق منافع حياتهم كي تسهل أمور عَيْشهم بعيداً عن المشاق .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٣٥) : ((الجو ما بين السماء والأرض . وأضاف الجو إلى السماء لارتفاعه عن الأرض . وفي قوله : ﴿ مُسَخَّراتٍ ﴾ دليلٌ على مُسَخِّرٍ سَخَّرها ومُدَبِّرٍ مَكَّنها من التصرف)) .

هـ _ النهي عن تزكية نفسه :

قال الله تعالى : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين يُزَكُّون أنفسهم بل اللهُ يُزَكِّي مَن يشاء ﴾[النساء : ٤٩] .

---

(١١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٧) برقم (٣٢٣٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فتزكيةُ المرء لنفسه مذمومةٌ ، وذلك يكون بمدحها والإشادة بها ووصفها بالتقوى والطاعة . فاللهُ تعالى يُزَكِّي من يشاء لأنه يعلم بواطن الأمور وظواهرها ، ومُطَّلِعٌ _ سبحانه _ على القلوب ، فيعلم الصادقَ من الكاذب، ويعلم ما وراء المظاهر والأشكال ، وهذه الماورائيات مخفية عن الناس، لكنها لا تخفى على الله تعالى الذي هو أعلم بالإنسان من نفسه .

وفي لباب النقول للسيوطي (١/ ٦٤) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت اليهود يُقدِّمون صبيانهم يُصَلُّون بهم ، ويُقرِّبون قُربانهم ، يزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب ، فأنزل الله : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين يُزَكُّون أنفسهم ﴾)) .

واليهودُ مشهورون بتزكية ذواتهم ، وتقديم أنفسهم كشعب الله المختار . وما تقديمهم لصبيانهم من أجل الصلاة إلا مؤشر واضح على غرورهم ، وأمانيهم ، ومدحهم لأنفسهم ، وتأسيس شرائعهم على الهوى والمصلحة النفعية المادية ، وليس وفق المنهج الإلهي الكامل. فهم يبتكرون شريعتهم الخاصة من بنات أفكارهم،وذلك من أجل تحصيل المكاسب المادية والمناصب الرفيعة.

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٧) : أن النبي ﷺ قال : ((لا تُزَكُّوا أنفسَكم ، اللهُ أعلم بأهل البِر منكم)) . وعن أبي بكرة _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((مَن كان منكم مادحاً أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً واللهُ حسيبُه ، ولا أُزَكِّي على الله أحداً))[12] .

فالذي يبدو للناس هو الأمور الظاهرية، ولا أحد يعرف حقائق الأمور سوى الله تعالى . ومدحُ الناس لبعضهم إنما يستند إلى مشاهد ظاهرية خارجية ، لكن الحقيقة المستترة وراء المظاهر ليس بوسع الناس أن يَطَّلعوا عليها. فمن أراد مدحَ شحص فلا يجزم بصلاحه لأنه غير مطلع على قلبه ، بل يمتثل التوجيهَ النبوي في هذا السياق .

و _ حال أكثر الناس :

قال الله تعالى : ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يَعلمون ﴾[الأعراف : ١٨٧] .

فغالبيةُ الناس يفتقدون إلى العلم ، فهم غارقون في التقليد الأعمى ، ولا يَبنون أفعالَهم على حصيلة علمية متماسكة. كما أن أكثر الناس يقولون ما يُقال ضمن فوضى الجهل المطبِق. ولا يخفى أن أصحاب العقول الواعية والعلماءَ بالأمور هم أقلية في كل زمان ومكان .

وقال الله تعالى : ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[هود : ١٧] .

(١٢) متفق عليه. البخاري (٢/ ٩٤٦) برقم (٢٥١٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٦) برقم (٣٠٠٠).

فأكثرُ الناس عُميان عن الإيمان ، يفتقدون إلى التصديق ، وهذا مرجعه إلى الجهل واتباع الهوى ووسوسة النفس والشيطان. كما أن الإغراءات الحياتية تقف سداً منيعاً أمام إيمان غالبية الناس . وقال الله تعالى : ﴿ ولكنَّ أكثر الناس لا يَشكرون ﴾[البقرة : ٢٤٣] .

فأكثرُ الناس منصرفون عن شكر الخالق تعالى،فهم غارقون في النعم الإلهية دون تذكُّر صاحبها.ويحيلون المنافعَ التي تحصل لهم إلى أسباب مادية ويَنْسون خالقَ الأسباب والمسبِّبات .

قال الطبري في تفسيره (٢/ ٦٠٠) : ((يقول ـ تعالى ـ : لا يشكرون نعمتي التي أنعمتها عليهم وفضلي الذي تفضَّلتُ به عليهم ، بعبادتهم غيري ، وصرفهم رغبتهم ورهبتهم إلى من دوني ممن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وإن تُطِع أكثرَ مَن في الأرض يُضِلُّوك عن سبيل الله ﴾[الأنعام : ١١٦] .

وفي هذا دليلٌ واضح على أن غالبية الناس هم ضالون مُضِلُّون ، وإطاعتهم تقود إلى الهلاك الحتمي ، وضياعِ الإيمان ، ونيلِ الغضب الإلهي .

ز ـ نسيان الشكر في الرضا :

قال الله تعالى : ﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلمَّا كشفنا عنه ضُرَّه مَرَّ كأن لم يَدْعنا إلى ضُرٍّ مسَّه ﴾[يُونُس : ١٢] .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٢) : ((اختلفوا فيمن نزلت على قولَيْن : أحدهما أنها نزلت في أبي حذيفة واسمه هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي ، قاله ابن عباس ومقاتل . والثاني أنها نزلت في عُتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة ، قاله عطاء)) اهـ .

فإذا أصاب الإنسانَ مشكلةٌ ما ، أو حدث له مكروه ، فإنه يدعو في جميع حالاته ، مضطجع أو قاعد أو قائم ، وهذا يدل على إلحاحه الحار في الدعاء والتضرع والإنابة والخضوع لله تعالى . وحينما يزول الضرُّ لا يشكر ولا يتَّعظ .

وهذه الحال المذكورة في الآية غير مخصوصة بالكافرين ، بل تنطبق على كثير من المسلمين ، إذ إنهم يدعون بإلحاح في كل أحوالهم بقلب صافٍ وإنابة عظيمة لإزالة الضر، وحينما يُفرِّج اللهُ عنهم يغفلون عن شكره ، ويحصرون تفكيرهم في النعمة دون تذكُّر المنعِم .

وفي تفسير القرطبي (٨/ ٢٨٧) : ((قال بعضهم : إنما بدأ بالمضطجِع لأنه بالضر أشد في غالب الأمر ، فهو يدعو أكثر ، واجتهاده أشد ، ثم القاعد ، ثم القائم)) اهـ .

ح ـ طول عمره يضعفه ويعجزه :

قال الله تعالى:﴿ومِنكم مَن يُرَد إلى أرذل العُمُر لكي لا يَعلم بعد علمٍ شيئاً ﴾[النحل : ٧٠] .

فأرذلُ العمر هو الهرم والشيخوخة وهو أكثر سنوات العمر رداءةً ، حيث يعود المرءُ جاهلاً عاجزاً كما كان في طفولته ، فتضعف قواه العقلية أو تزول نهائياً، ويذبل جسمُه ، ويصبح الإنسانُ ـ كالطفل ـ بحاجة إلى من يقوده ويرشده ويُفسِّر له الأشياء . وفي هذه المرحلة الرديئة يفقد المرءُ عنفوانه ، وقوةَ ذاكرته ، وتماسكَه العقلي ، ويعود ـ كما بدأ ـ لا حَوْل له ولا قوة . فبعد كل هذه المسيرة الطويلة يعود الفردُ من حيث بدأ .

وقال العيني في عمدة القاري (١٤/ ١١٩) : ((وأرذل العمر هو الخرف، يعني يعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية ، ضعيف البنية ، سخيف العقل ، قليل الفهم . ويقال : أرذل العمر أردؤه وهو حالة الهرم والضعف عن أداء الفرائض ، وعن خدمة نفسه فيما يتنظف فيه ، فيكون كَلاً على أهله ، ثقيلاً بينهم ، يتمنون موته ، فإن لم يكن له أهل فالمصيبة أعظم)) اهـ .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ كان يدعو: ((أعوذُ بكَ من البخلِ والكسلِ وأرذلِ العمر))[13] .

والنبي ﷺ معصومٌ عن الوقوع في هذه الأمور ، لكن الاستعاذة منها تعليمٌ لأمته كي تقتديَ به، وتنتبه إلى خطورة هذه القضايا ، وتأثيرها السلبي على الفرد والجماعة . وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : ((مَن قرأ القرآنَ لم يُرَد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً))[14] .

وهذا يشير إلى فضل القرآن وبركته التي تمنع الخرف من الوصول إلى الإنسان ، إذ إن قراءة القرآن تنعكس على سلوك الفرد ، فيصبح الفردُ طاقةً نشيطة طوال الحياة ، كما تنعكس على قواه الذهنية والجسدية ، فتزداد قوته ، ولا يصل إلى حالة الانتكاسة التي تلازم كِبار السن .

وقال الله تعالى : ﴿ ومَن نُعَمِّرْه نُنَكِّسْه في الخلق ﴾ [يس : ٦٨] .

من يمتد عمره يصبح ضعيفاً عاجزاً على عكس ما كان عليه أيام الصبا من القوة والحيوية ، فمن طال عمره نُكس خلقه ، فصار ضعيفاً بعد القوة، وشيخاً هَرِماً بعد الشباب . وفي واقع الأمر، إن الإنسان يَصعد نحو الهاوية ، ويتقدم نحو الموت ، ويزداد تألقاً في طريق الانطفاء .

---

(١٣)متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٤١) برقم (٤٤٣٠)،ومسلم (٤/ ٢٠٧٩) برقم (٢٧٠٦).

(١٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٦) برقم (٣٩٥٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ١٠٥٣) في تفسير الآية : ((وذلك أنَّا خلقناه على ضعف في جسمه ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقي من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيُجعل أعلاه أسفله)) اهـ .

ط _ حمله الأمانة

قال الله تعالى : ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأمانةَ على السماوات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يَحْملنها وأشفقنَ منها وحملها الإنسانُ إنه كان ظَلوماً جَهولاً ﴾[الأحزاب : ٧٢] .

قال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢٢٥) : ((والأمانة تعم جميعَ وظائف الدِّين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور)) اهـ .

وعرضُ الأمانة على السماوات والأرض والجبال إما أن يكون حقيقةً أو مجازاً . فالحقيقةُ يعني أن الله تعالى خلق شعوراً في هذه الأجرام العظيمة، وعرض عليها الأمانة ، فإن قامت بحقها أُثيبت ، وإن قصَّرت عُوقبت ، فرفضت حملَها لعظم شأنها . وهذا الرفضُ لا يدخل في باب العصيان ، بل مرجعه إلى ثقل الأمانة وعظمة المسؤولية . وقد كان عَرضُ الأمانة للتخيير لا للإلزام . ولو كان على وجه الإلزام لما قدرت هذه الأجرام على رفض الأمر الإلهي . أما المجاز فيعني أن الأمانة لو عُرِضت على هذه الأجرام العظيمة وكانت ذات قدرة عقلية وإدراكية لأبت حملَها لعظم المسؤولية وخطورةِ التقصير . أما الإنسانُ فقد حمل الأمانة ، وهو ظلوم لنفسه لم يُؤَدِّ حقَّ الأمانة ، غارقٌ في تقصيره ، جاهلٌ بعواقب الأمور .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٣٨) عن الآية : ((اختلف أهل التأويل في معنى ذلك . فقال بعضهم : معناه : إن الله عرض طاعته وفرائضه على السماوات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أُثيبت وجُوزيت ، وإن ضَيَّعت عُوقبت ، فأبت حَمْلَها شفقاً منها أن لا تقوم بالواجب عليها ، وحملها آدم ﴿ إنه كان ظَلوماً ﴾ لنفسه ﴿ جَهولاً ﴾ بالذي فيه الحظ له)) اهـ . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأمانةَ على السماوات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يَحْملنها وأشفقنَ منها ﴾، قال : ((قيل لآدم : أتأخذها بما فيها فإن أطعتَ غَفرتُ لك وإن

عصيتَ عذبتُك ؟ ، قال : قبلتُ ، قال : فما كان إلا كما بين صلاة العصر إلى أن غربت الشمس حتى أصاب الذَّنْب))[15] .

وهنا يتجلى الضعف الإنساني . ومهما علا شأنُ الإنسان يظل محتاجاً إلى الهداية الربانية العاصمة من الإثم . والإنسانُ منظومة متكاملة من القوة العقلية ، والمشاعر العاطفية ، والأشواق الروحية ، والغرائز الشهوانية . لكن هذه المنظومة محدودة قاصرة ، لا يمكن أن يتكامل عملُها وتصمد في وجه الفتن إلا بالتوفيق الرباني .

٢_ الأسرة :

أ _ تكوينها :

قال الله تعالى : ﴿ ومِن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مَوَدَّةً ورحمة ﴾[الرُّوم : ٢١] .

من مظاهر عظمة الخالق تعالى ، ودلائلِ حكمته الباهرة ، أن خلق نساءً آدميات من نفس صنف الرجال، وذلك ليحصل السَّكن والأُلفة بدون نفور ، فتستمر الحياةُ دون تناقض . فانبثاق الرجال والنساء من صنف واحد من شأنه التوفيق بينهما بسهولة ، والتأليف بين الأحاسيس المشتركة لأنهما من جنس واحد(الإنس) . ولو كانوا من جِنْسَيْن مختلفين لحصل النفور ، وانعدم التجاذب ، وبالتالي لم تعد هناك إمكانية لتكوين الأسرة وإعمار الأرض ومواصلة السير في الدنيا .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٨) : ((ولو أنه _ تعالى _ جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر ، إما من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم وبينهن مودة وهي المحبة ، ورحمة وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إنما لمحبته لها ، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك)) اهـ .

والرُّسل _ عليهم الصلاة والسلام _ قدوةُ البشرية، قد كَوَّنوا عائلاتٍ، ولهم أزواج وذرية . ووجودُ زوجات وأبناء في حياة الأنبياء لا يقدح في زهدهم ، أو اشتغالهم بالدعوة ، بل هو جزءٌ من الدعوة ، وذلك بإنشاء أُسر صالحة تكون قدوةً للأتباع كي يُكَوِّنوا مجتمعَ الحق والفضيلة .

---

(١٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٨) برقم (٣٥٨٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رُسلاً مِن قَبْلك وجعلنا لهم أزواجاً وذُرِّية ﴾[الرعد : ٣٨] .

والرُّسلُ _ عليهم الصلاة والسلام _ هُم بشرٌ لهم أزواج وذرية . يُكوِّنون عائلاتٍ ويعتنون بزوجاتهم وأبنائهم . كما أنهم يَحملون الشهواتِ الإنسانية في أجسادهم ، ولكنهم يَضعونها في نصابها الصحيح . وليسوا من الملائكة الخالين من الشهوة ، والذين لا يتزوجون ولا يُنجِبون .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٢٥) : ((أي إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم ، ولم نرسل الرسلَ من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٣٦):((سبب نزولها أن اليهود عَيَّروا رسولَ الله ﷺ بكثرة التزويج، وقالوا: لو كان نبياً كما يزعم شغلته النبوة عن تزويج النساء فنزلت هذه الآية)).

وهكذا نجد اليهودَ يحاولون جاهدين الاصطياد في الماء العكر . إنهم غارقون في الشكوك والوساوس ، ويحترقون داخلياً حقداً وحسداً وكرهاً لظهور الحق . وقد أخذوا على أنفسهم معاداة النبي ﷺ بكل الوسائل . ونجدهم في هذه المرة قد عيَّروا النبيَّ ﷺ بكثرة الزواج ، وهم يَقصدون من كلامهم هذا أن النبي ﷺ مشغولٌ بممارسة شهوته مع النساء ، والاستمتاع بهن . ولو كان نبياً حقيقياً لتفرغ الدعوة واعتزل النساءَ ولم يعبأ بهن . وهذه الفِريةُ يتمسك بها أعداء الإسلام في كل العصور محاولين الطعن في النبي ﷺ وإسقاطه لكي تَسقط الدعوةُ الإسلامية إلى الأبد .

والنبيُّ ﷺ هو إنسان له أحاسيس وشهوات ، وهو مُشَرِّعٌ بأمر الله تعالى ، جاء بِدِينٍ شامل لكل مناحي الحياة . ولو اعتزل النساءَ لتبعه في ذلك الناسُ فانتهى النسلُ ، وتعطلت الحياةُ على الأرض . لذلك فإن وقتَ النبي ﷺ مُوَزَّعٌ بين جوانب الحياة المختلفة ، فنجده في المعركة قائداً عسكرياً، ونجده في الأسرة زوجاً وأباً ، ونجده في المجتمع مصلِحاً اجتماعياً ، ونجده في المسجد داعياً إلى الله تعالى . وكلُّ حياته إنما تسير في ظل الشريعة الإسلامية .

ووجودُ الشهوة الجنسية في الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ليس عَيباً أو إثماً . فهُم بشرٌ لا ملائكة . وهُم يَضعون هذه الشهوة في الحلال وفق الشريعة الإلهية . وقد كان اللهُ قادراً على جعل الإنسان يتكاثر بلا اتصال جنسي ، ولكنَّ الحكمة الإلهية اقتضت وجود الذَّكر والأنثى ليحصل التكامل بينهما من أجل تحقيق مفهوم خلافة الله في الأرض وإعمارها . وأيضاً كان اللهُ قادراً على جعل الرُّسل ملائكةً بلا شهوات لا يتزوجون ولا يُنجبون ، ولكنَّ الرحمة الإلهية اقتضت

وجود الرسل من جنس الناس لتحصل الأُلفة ، وينصلح حالُ المجتمع ، وتسير الحياة بكل اتزان وتوافق .

ب ـ أمر غير القادر على الزواج بالاستعفاف :

قال الله تعالى:﴿وَلْيَسْتَعْفِف الذين لا يجدون نِكاحاً حتى يُغْنِيَهم اللهُ من فضله ﴾[النُّور: ٣٣].

وهذا أمرٌ إلهي للذين لا يجدون تزويجاً أن يلتزموا بالتعفف والابتعادِ عن الحرام حتى يرزقهم اللهُ فيتمكنوا من أداء متطلبات الزواج من مَهْرٍ وتجهيز منزل ... إلخ . والصبرُ مفتاح الفَرَج . وعلى المرء أن يبتعد عن الحرام ، ويغض بصرَه ، ولا يلاحق الشهواتِ . وهذه التعاليمُ تريح أعصابَه ، ولا تجعله كائناً مُهيَّجاً . فالبعيدُ عن العَيْن بعيدٌ عن القلب . والنظرةُ المحرَّمةُ بريد إبليس ، وكَم من نظرةٍ فَتكت بقلب صاحبها ، فأوردته المهالك . وكما قال الشاعر :

وكُنْتَ إذا أرْسَلْتَ طرْفَكَ رَائِدًا   لِقَلْبِكَ يوْماً أتْعَبَتْكَ الْمنَاظِرُ
رأيتَ الَّذِي لاَ كُلُّهُ أنْتَ قادِرٌ   عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِه أنْتَ صابِرُ

وفي قضية الزواج يظهر التوجيه النبوي السامي : ((يا معشر الشباب ، من استطاع الباءَةَ فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفَرْج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء))(16).

والمعنى : أن من استطاع الجِماعَ ، ورأى نفسه قادراً على متطلباته فليتزوج لكي يُطفئ شهوته ويحمي نفسَه من الوقوع في الحرام ، أما غير القادر على الجماع فعليه بالصوم لأنه قاطعٌ للشهوة ، مطفئ لنار الغريزة تجاه النساء .

ج ـ تعدد الزوجات :

قال الله تعالى : ﴿ فانكِحوا ما طاب لكم من النساء مَثنى وثُلاث ورُباع فإن خِفْتم ألا تَعْدلوا فواحدةً ﴾[النساء : ٣] .

فالرَّجلُ بإمكانه الزواج بأربع نساء كحد أعلى ، وإذا خاف من عدم العدل بينهن فليكتفِ بواحدة . وقد كان تعدد الزوجات موجوداً قبل البعثة المحمَّدية الإسلامية ، لكن الشريعة قامت بتنظيمه وحصر العدد في أربع زوجات ، وترتيب الحقوق والواجبات . فقد ورد أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له رسول الله ﷺ : ((اختر منهن أربعاً))(17) .

---

(١٦) متفق عليه. البخاري (٥/ ١٩٥٠) برقم (٤٧٧٩)، ومسلم (٢/ ١٠١٨) برقم (١٤٠٠).

(١٧) رواه ابن حبان في صحيحه (٩/ ٤٦٣) برقم (٤١٥٦) .

وتعددُ الزوجات له أهمية بالغة في أي مجتمع . فهناك حالاتٌ لا حل لها إلا تعدد الزوجات . فانتشار نسب العنوسة بشكل كارثي وعدم قدرة الشباب على توفير متطلبات الزواج بسبب تعقيدات الحياة الاجتماعية ، فهذا يفتح الباب أمام التعدد كحل جذري لئلا ينزلق المجتمعُ إلى العلاقات غير الشرعية . وعندما تصاب المرأة بمرض عُضال أو تكون عقيماً عاجزة عن الإنجاب أو تكون مدةُ حيضها طويلة جداً بحيث لا يقترب منها زوجها لمدة طويلة . أو اندلاع حروبٌ تحصد أرواحَ الكثيرين من الرجال فتزيد نسبةُ الإناث على الذكور في المجتمع بصورة جنونية . فهذه بعض الحالات التي نوردها بسرعة . وهناك عشرات الحالات المختلفة باختلاف الزمان والمكان ، والتي تستدعي تفعيل تعدد الزوجات كحل جذري لكثير من المشكلات الاجتماعية .

أما ما يُثار من شبهات حول تعدد الزوجات فمصدره سوء التطبيق الإنساني ، أما إذا توفر العدلُ والقدرة الروحية والمادية ، والتفاهم المشترك بين الرجل وزوجاته ، وبين الزوجات ، وحسن تربية الأبناء ، والتعاون لإنشاء أُسر متماسكة واعية ، فهذا يزيد من قوة المجتمع ولا يُفكِّكه .

وتعددُ الزوجات معروف عند أمم كثيرة غير المسلمين ، وهو موجود في الجاهلية قبل البعثة المحمَّدية . أما محاولة تصوير التعدد بأنه ذو طابع إسلامي خالص فهذا مخالف للحقيقة .

((والحقيقة كذلك أن نظام تعدد الزوجات لا يزال إلى الوقت الحاضر منتشراً في عدة شعوب لا تدين بالإسلام في أفريقيا والهند والصين واليابان ، فليس بصحيح إذن ما يزعمونه من أن هذا النظام مقصور في الوقت الحاضر على الأمم التي تدين بالإسلام . والحقيقة كذلك أنه لا علاقة للدين المسيحي في أصله بتحريم التعدد ، وذلك أنه لم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على هذا التحريم . وإذا كان السابقون الأولون إلى المسيحية من أهل أوروبا قد ساروا على نظام وحدة الزوجة ، فما ذاك إلا لأن معظم الأمم الأوروبية الوثنية التي انتشرت فيها المسيحية في أول الأمر ، وهي شعوب اليونان والرومان ، كانت تقاليدها تُحرِّم تعددَ الزوجات المعقود عليهن ... ، فقد حدث في منتصف القرن السادس أن ديارميت ملك إيرلندا كانت له زوجتان شرعيتان ، وتزوج الملوك الميروفيون عدة مرات بأكثر من زوجة . وكان لشارمان زوجتان وعدة سريات ، ويستفاد من أحد قوانينه أن تعدد الزوجات لم يكن مجهولاً حتى من القساوسة . وقد حدث بعد ذلك أن الملك هيس فيليب والملك فردريك وليم الثاني (القرن السادس عشر) البروسي تزوجا بأكثر من واحدة بموافقة القساوسة اللوثريين . وأقر لوثر نفسه فعلَ الأول كما أقره ميلانشتون . وكل ما هنالك أن النظم الكنسية المستحدَثة بعد ذلك استقرت على تحريم تعدد الزوجات ، واعتبرت هذا

التحريم من تعاليم الدين ، على الرغم من أن أسفار الإنجيل نفسها لم يرد فيها شيء يدل على هذا التحريم))[18] .

د _ الحمل والرضاع :

قال الله تعالى:﴿حَمَلَتْه أُمُّه كُرهاً ووضعته كُرهاً وحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثون شهراً ﴾[الأحقاف: ١٥] .

والأمُّ تعاني من آلام الحمل والوضع ، فهي تكابد شتى صنوف المشاق والعذاب حينما تكون حاملاً كالغثيان والوحام والثقل ، وكذلك تعاني من آلام الطلق . والحملُ والفطام من الرضاع يستغرق عامَيْن ونصف .

وفي تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٥) : ((قال ابن عباس : إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهراً ، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ والوالداتُ يُرْضِعْنَ أولادهن حَوْلَيْن كامِلَيْن لمن أراد أن يُتِم الرَّضاعة ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨٦) : ((ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، لأنه قال في الآية الأخرى :﴿ وحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثون شهراً ﴾ ، وإنما يذكر _ تعالى _ تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليُذَكِّر الولدَ بإحسانها المتقدم إليه))اهـ. فالحملُ والفِصالُ ثلاثون شهراً، وإرضاع الأولاد لمدة حَوْلين (أربعة وعشرين شهراً)، فبقي للحمل ستة أشهر ، وهذا هو الحد الأدنى .

وفي الدر المنثور للسيوطي(٧/ ٤٤١) : ((وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بعجة ابن عبد الله الجهني قال : تزوج رَجل منا امرأةً من جُهَيْنة فَوَلدت له تماماً لستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فأمر برجمها ، فبلغ ذلك علياً _ رضي الله عنه _ فأتاه ، فقال : ما تصنع ؟ ، قال : وَلدت تماماً لستة أشهر ، وهل يكون ذلك ؟ ، قال علي _ رضي الله عنه _ : أما سمعتَ الله تعالى يقول : ﴿ وحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثون شهراً ﴾ ، وقال : ﴿ حَوْلَيْن كامِلَيْن ﴾ ، فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ؟ ، فقال عثمان _ رضي الله عنه _ : والله ما فطنتُ لهذا)) .

---

(١٨) المرأة في الإسلام ، ص ١٥٧و١٥٨ ، للدكتور علي عبد الواحد وافي .

هـ ـ القِوَامة :

قال الله تعالى : ﴿ الرجالُ قَوَّامون على النساء بما فضَّل اللهُ بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾[النساء : ٣٤] .

فالرجالُ قائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسؤولون عن النساء ، قائمون على أمورهن كما يقوم الوالي على شؤون الرعية . وهذا مرجعه إلى قدرة الرجل العقلية والعاطفية والجسمية، وإمكانياته في الكسب والإنفاق . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٥٣) : ((أي : الرَّجل قَيِّم على المرأة ، أي : هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومُؤَدِّبها إذا اعوجَّت)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٥١٢):أخرج ابن أبي حاتم من طريق أشعث بن عبد الملك عن الحسن قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تستعدي على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ﷺ : ((القِصاص)) ، فأنزل الله : ﴿ الرجالُ قَوَّامون على النساء ﴾ الآية . فرجعت بغير قِصاص .

وهذا يشير إلى تقدم الرَّجل على المرأة ، وأنه قَوَّامٌ عليها ، ليس بدافع الاستبداد ، وسوءِ استخدام السُّلطة الذكورية. بل بدافع قدرته على حمايتها وتوجيهها بما لديه من قوة روحية ومادية. ولا ينبغي أن يكون الرَّجلُ دكتاتوراً بحجَّة القِوامة ، فالقِوامةُ وُضعت لصالح الرَّجل والمرأة معاً ، ولما فيها من منافع اجتماعية جليلة ، أمَّا سوء استخدامها فمشكلةٌ يتحملها الرَّجلُ لا الشريعة .

والرجالُ خيرٌ من النساء. قال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٤) : ((ولذلك خُصُّوا بالنبوة ، والإمامة ، والولاية ، وإقامة الشعائر ، والشَّهادة في مجامع القضايا ، ووجوب الجهاد ، والجمعة ونحوها)).

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٠٠) أن النبي ﷺ قال : ((لن يُفلِح قومٌ وَلُّوا أمرَهم امرأة)).

وذلك لأن الطبيعة البيولوجية والعاطفية للمرأة تجعلها عاجزةً عن الاضطلاع بمسؤولية القيادة العظمى ، كأن تكون ـ مثلاً ـ رئيسة دولة ، أو قائدة جيش ... إلخ . فالمرأةُ لم تُخلَق لهذا . إذ إن تكوينها الجسماني يشير إلى وظيفتها في الحياة ، وهي الحمل والولادة وتربية الأبناء وتكوين أسرة صالحة . ولا مانع من عمل المرأة بما يتناسب مع مكانتها واستعدادها النفسي والجسدي . أما أن تتقمص المرأةُ دورَ الرَّجل بزعم حقوق المرأة والمساواة والتحرر ، فهذا من شأنه سلخ المرأة من أنوثتها المميَّزة ، وتحويلها إلى كائن مسخ بلا هوية ، حيث تفقد مكانتها الشريفة ، وتصير دُميةً تتلاعب بها الأيدي ، وتنهشها الذئاب البشرية .

والقِوامةُ مبدأ عظيم يحفظ وحدةَ الأسرة ، ويُوزِّع الأدوارَ بين الزوجين بلا تعارض ، فتنشأ التكاملية بين الزوجين لما فيه مصلحة الأسرة . وإذا مارس الرجلُ حقَّ القوامة بدون إفراط أو تفريط فسيدرك أن القوامة ليست سلطةً استبدادية أو وسيلة قهر ، بل هي ضمانة للحيلولة دون غرق الأسرة . والمرأةُ حينما تدرك أن طاعة زوجها في المعروف عبادةٌ تتقرب بها إلى الله تعالى ، فعندئذ ستقوم بدورها كاملاً ضمن منهجية الحقوق والواجبات بين الزوجين بشكل متوازن . مما يُضفي على الحياة جَوًّا من البهجة والتوافق بعيداً عن النشوز والصدام .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قيل لرسول الله ﷺ : أيُّ النساء خير ؟ قال : ((التي تسرُّه إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره))[19] .

وإذا امتثلت المرأةُ بهذه التعاليم السامية فإنها سوف تملك زوجَها ، وتحافظ على بيتها ، وتعيش عزيزةً كريمة في ظل أسرة متماسكة تعرف مسارَها ومصيرَها. وإذا فهم الزوجان معنى القوامة بالشكل الصحيح،وحصل التطبيق السليم على أرض الواقع ، فعندئذ تتجذر الأسرة ولا تَسقط .

و ــ النشوز :

قال الله تعالى : ﴿ واللاتي تخافون نشوزَهنَّ فَعِظوهنَّ واهجروهنَّ في المضاجع واضربوهنَّ ﴾ [النساء : ٣٤] .

والإسلامُ قد قدَّم علاجاً حاسماً لقضية نشوز الزوجة ــ الترفع عن أمر الزوج وعصيانه وبغضه ورفض أمره ــ . وجعل ذلك بشكل تدريجي وفق مراحل مؤثرة . فعلى الرجل أن يبدأ بالوعظ والإرشاد بالأسلوب الحسن ، وتذكيرها بالأجر الإلهي الذي أعدَّه اللهُ تعالى للمرأة المطيعة ، والعقاب الشديد للمرأة العاصية . إذ إن حق الرجل على زوجته عظيمٌ جداً . ولو كان هناك سجود للآدميين في الشريعة لكان على المرأة أن تسجد لزوجها لعظيم حقه عليها . وهذا مؤشر بالغ على مكانة الرجل كقائد للأسرة يرعى شؤونها بلا إفراط أو تفريط .

وعن قيس بن سعد ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرتُ النساءَ أن يسجدن لأزواجهن ، لما جعل اللهُ لهم عليهن من حق))[20] .

---

(١٩)رواه النسائي في سُننه(٦/ ٦٨)برقم(٣٢٣١).وصححه العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٣٨).

(٢٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٠٤) برقم (٢٧٦٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

ونشوزُ المرأة وترفعها عن زوجها وعدم امتثال أوامره عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة . فهو يقضي على الأسرة ويُفكِّكها ، ويوم القيامة يُعرِّض الزوجة للعذاب الإلهي الأليم . خصوصاً قضية رفض الجِماع ، لما في ذلك من حساسية بالغة تؤدي إلى مفاسد كبيرة . فرفضُ المرأة المجيء إلى فراش الزوجية من أعلى درجات النشوز .

فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا دعا الرجلُ امرأته إلى فراشه فأبت ، فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكةُ حتى تُصبح))[21].

فإن لم يأتِ الوعظ بنتيجة ينتقل الرجلُ إلى المرحلة الثانية وهي الهجر في المضاجع ، أي أن لا يَقرب الرجلُ زوجته في الفِراش ولا يُكلِّمها ، فيُعرض عن مضاجعتها ويعطيها ظهرَه كإجراء عقابي لكي تشعر المرأةُ بذنبها ، فلعلها ترتدع وتعود إلى الحق . فعدمُ الجِماع أمرٌ شديد على المرأة .

فإن استمرت المرأةُ في عنادها ، فعندئذ يتم اللجوء إلى الحل الأخير ، وهو الضربُ غير المبرح. فآخرُ الدواء الكَي _ كما يُقال _.

وهناك شبهاتٌ مثارة حول قضية ضرب الرجل لزوجته الناشز، فنقول إن الضرب هو الحل الأخير بعد عدم نجاح محاولات علاج نشوز المرأة . والمرأةُ التي تصل إلى هذه الحالة من العُصيان لا بد أن يتم تأديبها للحيلولة دون تفكك الأسرة وضياعِ الأبناء في الشوارع . فمسألةُ ضرب المرأة بسيطة جداً إذا ما قُورنت بضياع الأسرة والقضاءِ على مستقبل الأبناء . كما أن مفهوم الضرب ملتبس في عقول البعض ، فيعتقدون أنه عمل وحشي همجي يقضي على الكرامة الإنسانية ويُدمِّر الجسد الآدمي . فالضربُ المقصود في علاج النشوز أقرب إلى الملاعبة منه إلى العنف. فهو ضربٌ غير مبرح ، أي لا يكسر عظماً، ولا يُسيل دماً ، ولا يترك أثراً. ومن تخيَّل شكلَ هذا الضرب بهذه الشروط سيجد أنه قريبٌ إلى العتاب والحزم دون وحشية .

وفي حجة الوداع وضع النبي ﷺ دستوراً جامعاً ، وقد أوصى بالنساء خيراً ، فقال ﷺ كما في صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) : ((فاتقوا اللهَ في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتُم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فُرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)) .

---

(٢١) متفق عليه. البخاري (٣/ ١١٨٢) برقم (٣٠٦٥)،ومسلم (٢/ ١٠٥٩) برقم (١٤٣٦).

إن المؤمنُ يتقي اللهَ في النساء ، ويطبِّق تعاليمَ الشريعة كاملةً غير منقوصة . والمرأةُ هي الطرف الأضعف في المجتمع فينبغي معاملتها معاملة خاصة تأخذ بعين الاعتبار حالتها النفسية والعاطفية والجسمية . فلا بد من حسن معاشرتها ، ومراعاة مشاعرها ، وعدم خدش أحاسيسها .

واللهُ تعالى قد ائتمن الرجالَ على النساء فيجب حفظ الأمانة ، وعدم التفريط بها ، والقيام بحقها بكل مسؤولية . كما أن الشريعةَ جَعلت فَرْجَ المرأة (وهو الحصن الحصين ، ورمز شرف المرأة والعائلة) حلالاً لزوجها ومباحاً له . وهذا الاستحلال تمَّ بكلمة الله تعالى : ﴿ فانكِحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ [النساء : ٣] (*) .

ومن حقوق الرَّجل على المرأة ألا تُدخِل بيتَه من يَكره ، سواءٌ كان ذلك من الأجانب أو من محارم الزوجة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ١٨٣) : ((والمختار أن معناه أن لا يُأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم ، سواءٌ كان المأذون له رَجلاً أجنبياً ، أو امرأة ، أو أحداً من محارم الزوجة . فالنهي يتناول جميع ذلك)) اهـ .

وقد وضعت الشريعةُ دستوراً متكاملاً لتنظيم العلاقة بين الزوجين بما يضمن استمرار الأسرة بشكل متماسك وفعَّال، فمنعت إساءةَ أي زوج لشريك حياته ضمن منظومة حياتية أخلاقية سامية تعتمد على التفاهم المشترك والاحترام المتبادل وحفظ الحقوق والقيام بالواجبات . وحينما يعرفُ كلُّ طرف دورَه بدقة سوف تحصل الألفة ، ويختفي الشقاق نهائياً .

وعن معاوية القشيري قال:قلتُ: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟، قال: ((أن يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يَضرب الوجهَ ، ولا يُقبِّح ، ولا يهجر إلا في البيت))[22] .

(*) ((لا فرقَ بين الزواج والزنا من ناحية التفاعلِ الجنسي . ولكن ما الذي جعلَ الزواج حلالاً والزنا حراماً ؟ . والمرأة المتزوجة تمنح جسدها لرَجل ، والمومس تمنحُ جسدها لرجل، فما الذي جعل الناس يحترمون الأولى ولا يحترمون الثانية ؟ ، إنها الشريعة التي وفَّرت الغطاءَ الشرعي للزواج ، وسلبته عن الزنا . فالأمور لا تُؤخذ مُجتزأةً منفصلةً عن سياقها ومحيطها، لأن الجو العام الذي يُحيط بالأمور له تأثيرٌ بالغٌ. ويوجدُ مسائلُ كثيرةٌ خُلِقَتْ تابعةً لا تتمتعُ باستقلالية، فعلينا أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار)) [صرخة الأزمنة (مخطوط) ، إبراهيم أبو عواد].

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٠٤) برقم (٢٧٦٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ وإن امرأةٌ خافت من بَعْلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جُناح عليهما أن يُصلحا بينهما صُلحاً ﴾[النساء : ١٢٨] .

فإذا خافت المرأة من زوجها ترفُّعاً وإعراضاً عنها ، فلا حرج أن يعقدا بينهما اتفاقاً وصُلحاً ينهي أية مشكلة بينهما أو سوء تفاهم . وهنا تتجلى أهمية الحوار وتبادل الآراء والأفكار من أجل الوصول إلى نقطة مشتركة بينهما في منتصف الطريق .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٤٧) : ((إذا خافت المرأةُ من زوجها أن ينفر عنها أو يُعرِض عنها ، فلها أن تُسقِط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها ، فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها)) اهـ .

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ : ﴿ وإن امرأةٌ خافت من بَعْلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾. قالت : ((الرجلُ تكون عنده المرأة ، ليس بمستكثر منها ، يريد أن يفارقها ، فتقول : أجعلك من شأني في حِل ، فنزلت هذه الآية في ذلك))[23] .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٣٠٤ و٣٠٥) : ((واختلف السلف فيما إذا تراضيا على أن لا قِسمة لها ، هل لها أن ترجع في ذلك . فقال الثوري والشافعي وأحمد وأخرجه البيهقي عن علي وحكاه ابن المنذر عن عبيدة بن عمرو وإبراهيم ومجاهد وغيرهم إن رَجعت فعليه أن يَقسم لها، وإن شاء فارقها . وعن الحسن : ليس لها أن تنقض ، وهو قياس قول مالك في الإنظار والعارية ، والله أعلم)) اهـ .

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : ((... ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنَّت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ : يا رسول الله : يَوْمي لعائشة ، فقبل منها رسول الله ﷺ . في ذاك أنزل اللهُ ــ عز وجل ــ فيها وفي أشباهها : ﴿ وإن امرأةٌ خافت من بَعْلها نشوزاً ﴾))[24] .

فالسيدة سَوْدة بنت زمعة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ حين كَبُرت في السن ، وخافت أن يُطلِّقها النبي ﷺ تنازلت عن حقها ، فجعلت يَوْمَها للسيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ ، وقد قبل منها النبي ﷺ هذا الفعل ولم يعترض عليه . مع الانتباه إلى أن النبي ﷺ لم يجبرها على هذا الأمر ، ولم يُضَيِّق عليها ليسلبها حقَّها ، وإنما هي التي اختارت هذا الأمرَ بمحض إرادتها ، وفضَّلت

---

(٢٣)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٢/ ٨٦٥) برقم (٢٣١٨)،ومسلم(٤/ ٢٣١٦)برقم(٣٠٢١).

(٢٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٠٣) برقم (٢٧٦٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

البقاءَ في عصمة النبي ﷺ على حقِّها الشرعي ، فنالت الشرفَ في الدارين ، وعوَّضها اللهُ خيراً من يَوْمها.

ز ــ التحكيم قبل الطلاق :

قال الله تعالى : ﴿ وإن خِفْتم شِقاقَ بينهما فابعثوا حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها إن يُريدا إصلاحاً يُوَفِّق اللهُ بينهما ﴾[النساء : ٣٥] .

ففي حال وجود خلاف بين الزوجين ، فيتم إرسال حَكَمَيْن ، واحد من أهل الزوج ، والآخر من أهل الزوجة للتوفيق وحل النزاع بين الزوجين ، وإن كانا صادقَيْن في سعيهما بالصلح فإن الله تعالى يُوَفِّق بينهما بفضله .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٥٥) : ((وقال الفقهاء : إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جُنُب ــ غريب ــ ثقة ينظر في أمرهما ويمنع الظالم منهما من الظلم فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما بعث الحاكم ثقةً من أهل المرأة وثقةً من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ إن خِفْتم شِقاقَ بينهما فابعثوا حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها إن يُريدا إصلاحاً يُوَفِّق اللهُ بينهما ﴾ ، فجعل اللهُ حُكْمَ الرجال سُنَّةً مأمونة))[25] .

وعن عبيدة أنه قال : جاء رَجل وامرأة إلى علي ــ رضي الله عنه ــ ومع كل واحد منهما فئام من الناس ــ يعني جماعة ــ، فأمرهم علي ــ رضي الله عنه ــ فبعثوا حَكَماً من أهله وحكماً من أهلها ، ثم قال للحَكَمَيْن : ((تدريان ما عليكما ؟ ، عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا ، وإن رأيتما أن تُفرِّقا أن تُفرِّقا)) ، قالت المرأة : رضيتُ بكتاب الله بما عليَّ فيه ولي ، وقال الرجل : أما الفُرقة فلا ، فقال علي ــ رضي الله عنه ــ : ((كَذبتَ والله حتى تقر بمثل ما أقرَّت به)) [26] .

---

(٢٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٤) برقم (٢٦٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢٦)رواه البيهقي في سُننه الكبرى(٧/ ٣٠٥)برقم (١٤٥٥٩)،والدارقطني في سُننه (٣/ ٢٩٥).
وقال ابن القيِّم في زاد المعاد (٥/ ١٧٢) : ((وصَحَّ عن علي بن أبي طالب أنه قال للحَكَمَيْن بين الزوجين : عليكما إن رأيتما أن تُفرِّقا فَرَّقْتما ، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما)) .

فوجودُ الحكمَيْن ضروري للحيلولة دون تمزق الأسرة وضياعها . فعليهما أن يُصلحا ذات البَيْن بنيةٍ صادقة ، وقلبٍ صافٍ ، ويُدركا أن وظيفتهما ليست سهلةً ، لأنها مرتبطة بمصير أُسرة كاملة ، فينبغي دراسة الموقف بحذافيره ، وتحليله بدقة ، وتنقية أجواء الأسرة من كل الأزمات .

وعن ابن أبي مليكة قال : ((تزوج عقيل بن أبي طالب فاطمة بنت عتبة ، فقالت له : اصبر لي وأنفق عليك ، فكان إذا دخل عليها تقول له : أين عُتبة وشَيْبة ، فسكت عنها ، فدخل يوماً بَرِماً فقالت : أين عُتبة بن ربيعة وشَيْبة بن ربيعة ، فقال : على يسارك في النار إذا دخلتِ ، فشدَّت عليها ثيابها ، فجاءت عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ فذكرتْ له ذلك ، فأرسل ابن عباس ومعاوية ، فقال ابن عباس : لأُفرِّقنَّ بينهما ، وقال معاوية : ما كنتُ لأُفرِّق بين شيخَيْن من بني عبد مناف . فأتياهما فوجداهما قد شَدَّا عليهما أثوابهما وأصلحا أمرهما))[27] .

٣ــ عداوة بعض الأزواج والأولاد :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن مِن أزواجكم وأولادكم عَدُواً لكم فاحذروهم ﴾ [التغابن : ١٤] .

فبعضُ الأزواجِ والأولادِ هم أعداء يَصُدُّون عن سبيل الله تعالى ، ويُعيقون المسيرةَ الإيمانية ، ويمنعون الخيرَ من الوصول ، ويؤثرون سلباً على مستوى التديُّن . فينبغي الحذر منهم ، وعدم الاستجابة لهم ، ومحاولة إصلاح أمورهم عبر إرشادهم وتنبيههم بالأسلوب الطيب . ولا ينبغي الانسياق وراء العاطفة ، فالعقلُ هو الحاكم على المشاعر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٨٢) : ((يقول ــ تعالى ــ مُخبِراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح)) اهـ .

أما سبب نزول الآية ، فعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فلمَّا أتوا رسولَ الله ﷺرأوا الناسَ قد فقهوا في الدِّين، هَمُّوا أن يُعاقبوهم، فأنزل اللهــ عز وجل ــ: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن مِن أزواجكم وأولادكم عَدُواً لكم فاحذروهم ﴾))[28] .

---

(٢٧) رواه الشافعي في مسنده (١/ ٢٦٢) برقم (١٢٦٥)،والبيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٠٦).

(٢٨) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٤١٩) برقم (٣٣١٧) وقال : ((حسن صحيح))، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٢) برقم (٣٨١٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وفي هذا إشارةٌ إلى أن العدو قد لا يكون بذاته وإنما بأفعاله . فالأزواجُ والأولاد لا يُنظَر إليهم كأعداء في المجتمع الأسري ، ولكن تكون بعض أفعالهم عدائيةً تؤثر سلباً على المرء، وتُدمِّر حياته، فيصبحون أعداءً بهذه الأفعال. فعلى المرء أن لا يخضع لعملية التثبيط وخفضِ الهمة والمعنويات التي قد تأتي من أفراد الأسرة ، وأن لا يخسر مستقبله من أجل استسلامه لطاعة زوجته أو حب أبنائه .

٤ـ المجتمعات :

أ ـ اختلاف الناس :

قال الله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أُوتوا الكتابَ إلا من بعد ما جاءهم العلمُ بَغْياً بينهم ﴾ [آل عمران : ١٩]. لم يكن اختلافُ اليهود والنصارى (أهل الكتاب) في شأن الدين الإسلامي ونبوَّة محمد ﷺ مرجعه إلى الجهل والشُّبهة ، بل كان لديهم العلم واليقين التام بصدق الرسالة المحمَّدية الإسلامية ، فالحجَّةُ مُقامة عليهم ، لكنَّ كُفْرَهم مردُّه إلى العناد ، وحبهم للدنيا ، وخوفهم من فقدان مناصبهم ومكتسباتهم المادية ، وتحاسدهم وتباغضهم . وهذا كله جعلهم يُعرِضون عن الحق ، وهم متأكدون منه تمام التأكد . فالأهواء الشخصية والأغراض المادية عندما تدخل على مسار الحق ، فلا بد من حدوث صِدام لا تُحمَد عقباه . وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٤٩١) : ((فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود والنصارى كان لمجرد البغي بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول في دين الإسلام ، بما تضمنته كتبهم المنْزَلة إليهم)) اهـ .

قال الله تعالى:﴿ولو شاء اللهُ لجعلكم أُمَّةً واحدةً ولكن لِيَبْلُوَكم في ما آتاكم ﴾[المائدة: ٤٨].

ولو شاء اللهُ تعالى لجعل الناسَ كلهم على شريعة واحدة يتبعون كتاباً سماوياً واحداً ورسولاً واحداً . ولكن تعدَّدت الشرائعُ ، وتعاقب الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ليختبر اللهُ العبادَ ، ويعلمَ المؤمنَ بالشريعة من الكافر ، فيُثيب الطائعَ ، ويُعاقب العاصي . فلا مفر من القضاء والقَدَر ، واللهُ تعالى أعلم بالعباد من أنفسهم ، فهو ـ سبحانه ـ يَعلم ما يجهلونه ، ويَرى ما لا يرونه .

وقال النسفي في تفسيره (١/ ٢٨٦) : ((ولكن أراد ليبلوَكم ليعاملكم معاملة المختبِر فيما آتاكم من الشرائع المختلفة)) اهـ .

وإذا حصل اختلافٌ فيجب الاحتكام إلى الكتاب والسُّنة لأنهما كاملان معصومان مصدرهما السماء لا الأرض . واللهُ هو خالقُ الإنسان ، ويعلم ما يصلحه وما يُفسده ، لذلك فإن الاحتكام إلى الشريعة الإلهية من شأنه إراحة كل الأطراف من الأوهام والشبهات والقلق ، فالشريعةُ حَكَمٌ

مُنصِف لا يمكن رشوته ، ولا يخضع للوساطة والمحسوبيات ، ولا يتأثر حُكْمُه بالضغوط ، ولا يُجامل الأغنياء والأقوياء على حساب الفقراء والضعفاء .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فَحُكْمُه إلى الله ﴾[الشُّورى : ١٠] .

فالْحُكْمُ مرجعه إلى الله تعالى في الدنيا والآخرة على السواء . ففي الدنيا ينبغي الاحتكام إلى الكتاب والسُّنة . أما في الآخرة فإن الخصوم تجتمع عند الله تعالى فيحكم بينها ، فهو القاضي العادل _ سبحانه وتعالى _ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٥٠) : ((هذا عام في كل ما اختلف فيه العباد من أمر الدِّين ، فإن حُكْمَه ومرجعه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بِحُكْمه، ويفصل خصومة المختصمين فيه، وعند ذلك يظهر المحِق من المبطِل، ويتميز فريق الجنة وفريق النار)) اهـ .

ب_ الشعوب والقبائل :

قال الله تعالى : ﴿ وجعلناكم شُعوباً وقبائل لِتَعارَفوا ﴾[الحجرات : ١٣] .

فالحكمةُ من وجود الشعوب والقبائل هي التعارف والتآلف والتعاون لا التناحر والعصبيات الجاهلية والتفاخر بالحسب والنسب والاستعلاء بالباطل. فجميعُ الناس سواء من حيث نسبتهم إلى الطين ، لكنهم يتفاوتون في التقوى ، وهذا هو معيارُ التفاضل بينهم ، وما سواه لا يُعتَد به . ويظل التعاونُ هو الشعار المرفوع بين بني البشر بغض النظر عن اختلاف الأديان والأجناس .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٨٧) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ﴿ وجعلناكم شُعوباً وقبائل ﴾ . قال : ((الشعوبُ : القبائل العِظام ، والقبائلُ : البطون)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٩) : ((الشعب : الجمع العظيم المنتسِبون إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل . والقبيلة تجمع العمائر ، والعِمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل. فخُزَيْمة شعب، وكِنانة قبيلة ، وقُرَيْش عِمارة، وقُصَي بطن، وهاشم فخذ ، وعباس فصيلة . وقِيل : الشعوب بطون العجم ، والقبائل بطون العرب)) اهـ .

والمنهجُ الإسلامي واضح في تأسيس معيار التفاضل بين الناس وفق درجة التقوى ، لذلك ألغى العصبيةَ القبلية ، وذَمَّ العقليةَ الجاهلية في التفاخر بالأنساب ، وصرف الجهودَ البشرية نحو تحقيق معنى التقوى ، الذي هو أشرف معنى ، والمقياس الحقيقي بين بني البشر . أما المقاييس الظاهرية المعتمدة على حجم الثروة وقوة العائلة فلا وزن لها عند التمحيص .

وهذا أدى إلى إخراج العرب من الجاهلية العامرة بالتفاخر برابطة الدم المعتمدة على الرياء والمظاهر إلى قيمة التقوى التي هي سِر بين العبد وربّه ، لأن التقوى محلُّها القلب ، ولا أحد يعرف ما في القلوب سوى خالقها ، وهكذا نرى أن الإخلاص لله تعالى قد حَلَّ مكان الرياء والتفاخرِ الدنيوي بالآباء الغابرين .

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ﷺ قال : ((أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَةَ الجاهلية ــ يعني كِبْرها ــ . يا أيها الناس إنما الناس رَجُلان : بَر تقي كريم على رَبّه ، وفاجر شقي هَيِّن على ربِّه)) ، ثم تلا ﴿ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذَكَر وأنثى وجعلناكم شُعوباً وقبائل لِتَعارَفوا ﴾ حتى قرأ الآية[29] .

والتقوى لا تنفي رابطةَ الدم . فالعائلةُ لها احترامها في المنظور الإسلامي ، ولكن ليس على حساب الشريعة . فالعربُ هم قبائل ، وهذا دليلٌ على التماسك الأسري ، والوحدةِ الاجتماعية . لكن الإسلام نقل مفهوم القبيلة من العنصرية والكِبْر إلى مفهوم القوة المجتمعية الحاملة لرسالة التوحيد . فالقبيلةُ ليست دولةً داخل الدولة الإسلامية ، لأن ذلك سيؤدي إلى النزاع والتضارب في السُّلطات فيتمزق المجتمع . وليست القبيلة مصدراً للتشريع لأن الكتاب والسُّنة هما مصدرا التشريع . وهكذا وضع الإسلامُ حدوداً للقبيلة لئلا تتجاوزها فتقع في المحظور ، وتنهار التراكيب المجتمعية ، وتسقط إنسانية الأفراد .

وقد قال النبي ﷺ مُتَحَدِّثاً عن الله تعالى : ((خلق الخلقَ ، فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العربَ ، واختار من العرب مُضَر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا من خيار إلى خيار ، فمن أحب العربَ فبحبي أَحَبَّهم ، ومن أبغض العربَ فببغضي أَبْغَضَهم))[30] .

وهذا هو الاصطفاء الحقيقي ، والصفوة الاجتماعية التي اختارها اللهُ تعالى ، ولم يخترعها البشرُ بدافع نقاء العِرق أو طهارة النَّسب . فهذا اختيارٌ إلهي لا علاقة للبشر فيه . والنبيُّ ﷺ هو صفوة الصفوة ، والذي تنقَّل عبر الأنساب الطاهرة المختارة . ولا يَخفى مكانة العرب في هذا السياق ، وارتباطهم الوثيق بالنبي ﷺ الذي خرج منهم . ومَن أحب العرب فذلك بسبب النبي ﷺ

---

(٢٩)رواه ابن حبان في صحيحه (٩/ ١٣٧).وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٢٧): ((رجاله ثقات)).

(٣٠)رواه الطبراني (١٢/ ٤٥٥) برقم (١٣٦٥٠)، وحسَّنه ابن حجر في الأمالي المطلقة (١/ ٦٨).

واعترافاً بفضله وشرفه وتقديماً له على الجميع ، ومن أبغض العربَ فبغضُه مرجعه إلى بغض النبي العربي ﷺ. وهذا يدفعنا إلى تقديم العرب ، والاعتراف بمكانتهم التي وضعهم اللهُ تعالى فيها إكراماً للنبي ﷺ ، وتشريفاً لهم على سائر الأمم .

ج _ جَعْلُهم خلائف :

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض ﴾[الأنعام : ١٦٥] .

أهلك اللهُ الأممَ السابقة ، وجعل الأمةَ المحمدية تخلفهم بعد زوالهم . ومحمد ﷺ هو خاتَم النَّبيين ، وأُمَّته هي خاتمة الأمم التي وَرِثت الأرضَ بعد انتهاء الأمم السابقة . وهذا يشير إلى مبدأ تعاقب الحضارات والأمم على هذه الأرض التي هي دار امتحان. فالأرضُ لله تعالى يُورثها من يشاء من عباده ، والعاقبةُ للمتقين . وكل الحضارات الإنسانية ذاهبة إلى نهايتها الأكيدة لأنها إسهامات بشرية. فهي مثل البشر، تمر في مرحلة الولادة ثم الطفولة ثم الشباب ثم الشيخوخة ثم الموت .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٨) : ((أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وخَلَفاً بعد سَلَف)) اهـ .

د _ العرب :

إن الآيات القرآنية التي تتحدث عن العرب كثيرةٌ جداً . لكننا في هذا السياق نُسلِّط الضوءَ على بعض الجوانب الأساسية في العقلية العربية . فقد قال الله تعالى : ﴿ أفنضربُ عنكم الذِّكرَ صَفْحاً أن كُنتم قوماً مُسرِفين ﴾[الزُّخرف : ٥] .

وهذا استفهام إنكاري . والمعنى : أنترك تذكيركم ودعوتكم من أجل أنكم مسرفون غارقون في الكفر ؟. فهذا لن يَحدث .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٩٧٠) : ((أفنمسك عن إنزال القرآن ونتركه من أجل أنكم لا تؤمنون به ؟)) اهـ .

وهذه الآيةُ تشير إلى سعة الرحمة الإلهية ، فإن الله تعالى لم يترك العبادَ كالبهائم بدون وحي سماوي ، بل ذَكَّرهم وأرشدهم ، ولم يَقطع تذكيرهم وهدايتهم ، وأقام عليهم الحجَّة . فاللهُ تعالى يريد إنقاذَ عباده من النار ، فأرسل لهم الرُّسلَ ، وأنزل عليهم كلامَه المقدَّس هدايةً وتعليماً لهم ، وفتح لهم كل الطرقات الموصلة إلى النعيم الأبدي والنجاة من النار. ولو أرسل اللهُ تعالى الناسَ كلهم إلى النار بدون إقامة الحجَّة لما تجرَّأ أحدٌ على الاعتراض ، لكنه _ سبحانه _ رحيمٌ بعباده يمنحهم الفرصةَ تلو الفرصة رأفةً بهم ومساعدةً لهم، فطاعةُ العباد لا تنفعه ، ومعاصيهم لا تضره .

والآيةُ تشير كذلك إلى عناد العرب في الجاهلية ، وقسوة طباعهم ، وإعراضهم عن الحق مع أن تذكيرهم متواصل ، وإرشادهم لا ينقطع . وهذا يدل على خشونة صفاتهم ، وقلوبهم الصخرية ، وحياتهم الغارقة في الشهوانية الاستهلاكية ، والأساطيرِ الوثنية الحاجبة لنور الحقيقة .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٦) : ((وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ أفنضربُ عنكم الذِّكرَ صَفْحاً ﴾ : " والله لو أن هذا القرآن رُفع حين رَدَّته أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرَّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة ، أو ما شاء الله من ذلك " . وقول قتادة لطيف المعنى جداً ، وحاصله أنه يقول في معناه : إنه _ تعالى _ من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذِّكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كانوا مُسرِفين مُعرِضين عنه ، بل أمر به ليهتديَ به من قُدِّر هدايته ، وتقوم الحجَّةُ على من كُتب شقاوته)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وقالوا لَوْلا نُزِّل هذا القرآن على رَجل من القريتَيْن عظيم (٣١) أَهُم يَقسِمون رحمةَ رَبِّك ﴾[الزُّخرف] .

والآيةُ تشير إلى العقلية الجاهلية عند العرب ، إذ إنهم يعتبرون مقياس العظمة والمجد مرتبطاً بالجاه والمال ، لذلك لم يتقبلوا أن ينزل القرآنُ على محمد ﷺ وهو الفقير اليتيم ، واقترحوا أن يَنزل على رَجل عظيم. وهم يقصدون الوليد بن المغيرة من مكة ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف. وفي هذا دلالةٌ واضحة على أن مبدأ الفخر والمجد والرياء والمظاهر الاجتماعية مسيطر على عقول العرب في الجاهلية ، لدرجة أنهم يربطون العقائدَ بهذا الأمر . فهم يتصورون أن الوحي لا بد أن ينزل على رَجل غني ذي جاهٍ ، لأن هذا مقياس العظمة في نظرهم . لكنَّ الحقيقة الساطعة هي أن العظيم من كان عند الله عظيماً ، أما الموازين الدنيوية فهي زينةٌ ظاهرية زائلة ، وتفاخرٌ بالأموال والأولاد سرعان ما تذهب إلى النسيان . أما التقوى وعلو الهمَّة وصفاء القلب فتظل على مدى الأزمان في حياة صاحبها وبعد موته .

وقد ردَّ القرآنُ عليهم وأعلمهم بأن الأمر ليس في أيديهم، فاللهُ تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو يختار من يشاء لتبليغ الدعوة ، أما محاولة العرب الجاهليين لاقتراح من صاحب النبوة فهي محاولة ساقطة ، لأنه ليس لهم من الأمر شيء .

كما أن الله تعالى يختار صاحبَ القلب النقي لحمل الرسالة الإلهية . ومكانةُ الناس في الدنيا المعتمدة على الرياء والمظاهر الزائفة والأموال والأولاد تتعارض مع منهجية التقوى التي قرَّرها

الإسلامُ ، فالمكانةُ الحقيقية للناس عند ربِّهم تعالى تعتمد على صفاء قلوبهم ودرجة تقواهم . فالأتقياءُ هم العظماء الحقيقيون في الأرض والسماء .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ : _ ﴿ أَهُم يَقسِمون رحمةَ رَبِّك نحن قَسَمْنا بينهم ﴾ ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله ليعطي الدنيا من أَحب ومن لا يُحِب ، ولا يُعطي الدِّينَ إلا من أَحب ، فمن أعطاه الدِّينَ فقد أحبه))[31] .

فالدنيا يأخذها من يَعمل ، سواءٌ كان مسلماً أم كافراً . أما الآخرةُ فلا يأخذها إلا المسلم . وهذا يشير إلى اختلاف الموازين بين الدنيا والآخرة . ولو كانت الدنيا ذات مكانة عند الله تعالى لأعطاها لأنبيائه وحَرَم الكافرين منها، لكن الواقع غير ذلك . مما يشير إلى أن محبة الله للعبد تتجلى في هدايته للإسلام لا إعطائه متاع الدنيا الزائل . ولو كانت الدنيا ذات قيمة لما رأيتَ الكافرين يتنعمون فيها بالطول والعَرْض في حين أن الأنبياء كانوا يَرْعون الغنمَ وهم سادة البشرية .

وعن سهل بن سعد _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لو كانت الدنيا تَعدِل عند الله جناحَ بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء))[32] .

إذن ، فإن النعيم الدنيوي لا يدل على حب الله للعبد أو بُغضه ، لأن الدنيا تُعطَى للمسلم والكافر على السواء . فلا يصح اعتماد المال والجاه وكثرة الأولاد مقياساً على صلاح العبد أو فساده، لأن التقوى هي المِحَك الحقيقي، ومحلُّها القلب، وهذا أمرٌ باطني لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقال الله تعالى : ﴿ واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كُنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكُنتم على شَفا حُفرة من النار فأنقذكم منها ﴾[آل عمران : ١٠٣] .

وفي الآية تذكيرٌ للعرب كيف كانوا في الجاهلية ، فقد قضوا حياتهم في الحروب فيما بينهم ، والاقتتال على أتفه الأسباب. وكانوا يعتمدون على الغزو والسلب والنهب ، ضمن فوضى عارمة، فلا وازع ديني ، ولا قيم أخلاقية رادعة . لكنَّ الله تعالى مَنَّ عليهم ، فنقلهم من العداوة والحقد فيما بينهم إلى المحبة والألفة ، فصاروا إخواناً على قلب رَجل واحد . وكانوا على شفير الهاوية سائرين إلى النار ، فأنقذهم اللهُ منها بأن أرسل إليهم خيرَ رُسله، وأنزل عليهم أعظمَ كُتبه ، ونقلهم

---

(٣١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٥) برقم (٣٦٧١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٣٢) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٦٠) ، وقال : ((حديث صحيح غريب من هذا الوجه)) .

من الجاهلية إلى الحضارة ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأنقذهم من النار ، وجعلهم على طريق الجنة .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٤) : ((وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة ... طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم ، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى)) اهـ .

و[عن زيد بن أسلم قال : مر شأس بن قيس ، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ... فأمر فتى شاباً من يهود وكان معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكِّرْهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار_ وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج _ ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا ... فانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : ((يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألَّف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كُفاراً ؟)) ، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم ، وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين] (33).

فالأصابعُ اليهودية في التحريش بين الأوس والخزرج واضحة المعالم ، وقد كانت العداوة بينهما في الجاهلية شديدة للغاية ، حيث خاضوا حروباً شرسة حَصدت الأخضر واليابس . وكما يقال : معظم النار من مستصغر الشرر .

---

(٣٣) رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٣٧٠) . وانظر الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٢٧٨و٢٧٩) .

وقد روى الطبري في تفسيره (٣/ ٣٧٨) أن الحرب بينهما استمرت مئة وعشرين سنة ، فلم تَخمد نارُ الفتنة والحرب بينهما إلا بمجيء الإسلام الذي ألَّف بين قلوبهم ، ونزع الحقدَ من صدورهم ، وجعلهم على قلب رَجل واحد ، إخوةً متحابين في حمل الرسالة الإلهية . وهنا تتجلى عظمةُ الإسلام الذي وحَّد الصفوفَ رغم تاريخ العداء الشديد والطويل ، وقضى على الجاهلية ، ونقل الناس إلى الحضارة روحاً ومادةً .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (٤/ ١٥٧٤) ومسلم (٢/ ٧٣٨) أن النبي ﷺ قال : ((يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم اللهُ بي ؟، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي ؟ ، وكنتم عالةً فأغناكم اللهُ بي ؟)) .

والنبيُّ ﷺ يُذكِّر الأنصارَ بفضل الله تعالى . فقد كانوا ضلالاً هائمين على وجوههم في متاهات الجزيرة العربية بلا وزنٍ ولا حضارة، فهداهم اللهُ تعالى إلى الحق بأن أرسل إليه صفوة خَلْقه محمدﷺ فأخرجهم من الظلمات إلى النور . وكانوا متفرقين متناحرين ، لا يجتمعون على أمر ، فجمع اللهُ كلمتهم بالنبي ﷺ ، وجعلهم أُسرةً واحدة متماسكة ومتحابة وقوية . وكانوا عالةً فقراء محتاجين فأغناهم اللهُ بالنبي ﷺ .

هـ ـ الأعراب :

قال الله تعالى: ﴿ الأعرابُ أشدُّ كُفراً ونِفاقاً وأجدرُ ألا يَعْلموا حدودَ ما أنزل اللهُ على رسوله﴾ [التوبة : ٩٧] . قال الحافظ في الفتح (١/ ٣٢٣) : ((الأعرابي واحد الأعراب، وهم مَن سكن الباديةَ عَرَباً كانوا أو عَجَماً)) اهـ .

فالأعرابُ أصحاب قلوب قاسية وطباعٍ جافة ، فهم أشد كُفراً وإنكاراً للإيمان ، وأكثر جهلاً بأحكام الشريعة ، فهم متأثرون بقسوة البيئة وخشونة العيش وغياب العلم وسوء الأخلاق .

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٠) : ((الأعرابُ أشد جحوداً لتوحيد الله ، وأشد نفاقاً من أهل الحضَر في القرى والأمصار ، وإنما وصفهم ـ جل ثناؤه ـ بذلك لجفائهم وقسوة قلوبهم وقلة مشاهدتهم لأهل الخير ، فهم لذلك أقسى قلوباً ، وأقل علماً بحقوق الله)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : عن النبي ﷺ قال : ((مَن سَكَنَ الباديةَ جَفا))[34].

(٣٤) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٢٣) برقم (٢٢٥٦) وقال : ((حسن صحيح غريب)) اهـ . وقال ابن عبد البَر في التمهيد (١٨/ ١٤٤):((وقد صَحَّ عنه ﷺ أنه قال : " من لزم البادية جفا")).

فقسوةُ بيئة البادية تجعل من العائشين فيها قُساةً غِلاظاً ، لأن صعوبة البيئة تنعكس على النفس البشرية فتصبح أقرب إلى طبع الوحوش ، حيث انعدام الرأفة ، وسيطرة الفظاظة على السلوك والتعاملات اليومية ، وتفشي الجهل بسبب انعدام الاختلاط بالعلماء والترددِ على حواضر العلم . فالطبيعةُ المادية للبيئة تتسرب إلى الطبيعة النفسية للأفراد .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٤) : ((ولما كانت الغِلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث اللهُ منهم رسولاً وإنما كانت البعثة من أهل القرى)) اهـ .

وقد روى الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٠) عن إبراهيم النخعي قال : ((جلس أعرابي إلى زيد ابن صوحان وهو يُحدِّث أصحابَه ، وكانت يده قد أُصيبت يوم نهاوند ، فقال : والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني ! ، فقال زيد : وما يريبك من يدي ؟ ، إنها الشمال ! ، فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال ؟ ، فقال زيد بن صوحان : صدق الله : ﴿ الأعرابُ أشدُّ كُفراً ونِفاقاً وأجدرُ ألا يَعْلموا حدودَ ما أنزل اللهُ على رسوله ﴾))[35] .

فهذا الأعرابي اعتقد أن اليد المصابة سببها تطبيق حد السرقة . وهذا سوءُ ظن بالمسلمين ، وسوء أدب في نفس الوقت . لكن العقلية الأعرابية تدفع الشخصَ لإلقاء الكلام بكل قسوة بغض النظر عن جرح مشاعر الآخرين أم لا .

والقرآنُ حَكَمٌ عادل ، فكما أنه قَدَّم صورةً لكُفر الأعراب ونفاقهم وقسوة طباعهم ، قَدَّم صورةً طيبة للصالحين من الأعراب المؤمنين بالله واليوم الآخر ، وهم القِسم الممدوح لا المذموم .

فقد قال الله تعالى : ﴿ ومِن الأعراب مَن يؤمن بالله واليومِ الآخِر ويتَّخذ ما يُنفِق قُرُباتٍ عند الله وصلواتِ الرسول ﴾[التوبة : ٩٩] . من الأعراب من يؤمن بوحدانية الله تعالى والثواب والعقاب بعد الموت ، ويُنفِق في سبيل الله تعالى مُخلِصاً في ذلك راجياً الأجر من الله تعالى ، ومتطلعاً إلى استغفار الرسول ﷺ له ودعائه . وروى الطبري في تفسيره (٦/ ٤٥٢) عن مجاهد في هوية هؤلاء الأعراب المؤمنين قال : ((هُم بنو مقرن من مُزَيْنة)) اهـ . فالأعرابُ لا يمكن وضعهم في خانة واحدة ، فهناك المؤمن فيهم وهناك الكافر . وقد أنصف القرآنُ مؤمني الأعراب وأشاد بأفعالهم الطيبة ، وفضح الكافرين بأن وضَّح انحرافهم وجهلهم . وقال الشاطبي في الموافقات (٣/ ١١٥) : ((والمقصود أن عموم الأعراب مخصوص بمن كَفر دون من آمن)) .

---

(٣٥) انظر الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٢٦٦) ، والطبقات الكبرى لابن سعد (٦/ ١٢٣و١٢٤) .

الفصل التاسع

العلاقات الأخلاقية

تمهيد

إن المنظومة الأخلاقية في الإسلام شديدة التماسك والتأثير لأنها متصلة بالسماء ، وليست تياراً فلسفياً أرضياً من بنات أفكار الفلاسفة والعلماء . لذلك نجد آثار الثقافة الأخلاقية الإسلامية ماثلةً في سلوك الفرد والجماعة في عصور الازدهار. وحينما فقدت هذه الآثار بريقَها في السلوك البشري تخلفت حضارةُ المسلمين عن الركب العالمي . وهذه ليست مشكلة الشريعة بل مشكلة الإنسان نفسه ، فقد قامت الشريعةُ بإخراج الناس من جاهلية الأخلاق الدنيئة إلى سمو الأخلاق الرفيعة . فصاروا بشراً حقيقيين ، يعيشون حياتهم وفق منظور أخلاقي شديد التراص ، مما أدى إلى صناعة مجتمعات الخير والتسامح والفضيلة عبر الأطوار الزمنية المختلفة . وكل ثغرةٍ في الجدار الأخلاقي المجتمعي فمرجعها إلى السلوك البشري لا الشريعة المعصومة . وإذا وُجد خلل في المعنى الحضاري البشري فسيكون ناتجاً عن سوء أخلاق تراكم مع الزمن حتى صار مسماراً في نعش الحضارة .

وكلُّ مجتمع إنساني مهما بلغ من درجة التقدم في العلوم المادية والتكنولوجيا لا يمكن أن يستمر إلا من خلال حصانة أخلاقية تعمل عملَ السياج الواقي الذي يصد الهجماتِ القاتلة للروح والمادة . لذا فالعلاقاتُ الأخلاقية ليست ترفاً زائداً عن الحاجة أو فلسفةً محصورة في الكتب . إن الأخلاق نظام حياتي متكامل بدونه سيرتد الإنسانُ نحو المستوى الحيواني الغريزي البدائي . فكل حضارةٍ تتخلى عن الأخلاق إنما تكتب قصةَ نهايتها عن سبق الإصرار والترصد .

وإننا لنجد النصوص الشرعية قد أسَّست نظاماً أخلاقياً متكاملاً ، وفتحت المجالَ لتطبيق الأخلاق على الذات الإنسانية وعلى أرض الواقع . وقد صدق النبي ﷺ حينما قال : ((بُعِثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق)) [رواه الحاكم وصحَّحه] .

وموضوعُ العلاقات الأخلاقية الذي نبحثه في هذا السياق ينقسم إلى قِسْمين: الأخلاق الحميدة والأخلاق الذميمة . فالخلقُ هو الصفة الملتصقة بالفرد كالتصاق طابع البريد بالرسالة ، وكلُّ صفة خُلقية بمثابة هوية اجتماعية للإنسان ، تكشف عن مستوى التحضُّر أو الهمجية في السياقات البشرية .

ولا بد أن تكون العلاقات الأخلاقية هي دستور اجتماعي منتشر بكثافة _ فردياً وجماعياً _ لكي تخرج الصفات الراقية من إطار حِبر الكلمات إلى الواقع العملي المحسوس .

أولاً : الأخلاق الحميدة

١ـ الإصلاح بين الناس :

قال الله تعالى : ﴿ لا خيرَ في كثير من نجواهم إلا مَن أمر بصدقة أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ﴾[النساء : ١١٤] .

والنجوى (الكلام بين اثنين فأكثر سِرَّاً) . فلا خير في هذا الكلام إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح شؤون الناس وجمعهم على كلمة الحق والخير ، ونزع المشكلاتِ فيما بينهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦٣) : ((﴿ أو إصلاح بين الناس ﴾ عام في الدماء والأموال والأعراض ، وفي كل شيء يقع التداعي والاختلاف فيه بين المسلمين)) اهـ .

وعن أم كلثوم بنت عُقبة ـ رضي الله عنها ـ أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقول : ((ليس الكذابُ الذي يُصلِح بين الناس فيُنمِّي خيراً أو يقول خيراً))[1] .

فهذا الشخص الذي يصلح بين الناس ذاكراً الخصال الطيبة لا يُعتبَر كاذباً ، فهو يذكر محاسنَ الأمور من أجل رأب الصدع بين المتخاصِمين ، وتصفيةِ الأجواء ، ونزعِ الحقد من الصدور ، وتقوية الروابط الاجتماعية بين الناس . فعملُه هذا لا ينطوي على تغيير الحقائق أو تزييفها ، أو التلاعب بالأحداث الجارية ، أو خداع الناس وإسقاطهم في مصيدة الوهم . فهو يتحدثُ بما رآه ، ولا يخترِع الوقائع من بنات أفكاره .

قال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٩٩و٣٠٠) : ((قال العلماء : المراد هنا أنه يُخبِر بما علمه من الخير ، ويسكت عما علمه من الشر ، ولا يكون ذلك كذباً ، لأن الكذب الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به ، وهذا ساكت ولا يُنسَب لساكت قول، ولا حُجَّة فيه لمن قال يُشترَط في الكذب القصد إليه ، لأن هذا ساكت)) اهـ .

فالمؤمنُ يَستر العيوبَ ، ويَنشر الفضائلَ . ولا يتبع سقطاتِ الناس وأخطاءهم ، ولا يتصيَّد عثراتهم ، بل يلتمس لهم عُذراً ، ويتذكر محاسنهم . فإن ظَهر منهم أمرٌ قبيح ، تذكر الأمورَ الجميلة التي قاموا بها. وكلُّ الناس لهم أخطاء وخطايا ، ولهم كذلك فضائل طيبة ، وصفات حسنة . فينبغي تعميم الجانب الإيجابي ، ورؤية النصف الملآن من الكأس لا النصف الفارغ .

---

(١) متفق عليه . البخاري (٢/ ٩٥٨) برقم (٢٥٤٦) ، ومسلم (٤/ ٢٠١١) برقم (٢٦٠٥) .

وعن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ قال: ((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والقيام ؟))، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ((إصلاح ذات البَيْن ، وفسادُ ذات البين هي الحالقة))[2] .

والحالقةُ هي التي تحلق الدِّينَ، أي تستأصله، وتجعله أثراً إثر عَيْن في النفس البشرية. فالإصلاحُ بين الناس تقوية للمجتمع الإسلامي ، وإشاعة جو الأمن والأمان والسِّلم الاجتماعي والتصالح مع الذات والآخرين ، وهذا من شأنه إعطاء زخم حقيقي للفرد والجماعة . أما الفسادُ بين الناس فإنه يقضي على تماسك المجتمع ، مما يجعل عقيدةَ الفرد في مهب الريح ، فتنهار القيم المجتمعية ، وتسقط المنجزاتُ الحضارية ، وهذا يؤدي إلى إعطاء صورة سلبية عن الإسلام ، وتصوير المسلمين على أنهم أُمم متناحرة لا رابط بينها . وهذا أمرٌ شديد الخطورة لأنه يُهدِّد وجودَ الفرد والجماعة على حد سواء .

وقال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلِحوا بين أخوَيْكُم ﴾[الحجرات : ١٠] .

فالمؤمنون إخوةٌ في العقيدة ، وإن حصل بينهما أي نزاع مهما كانت صورته ، فلا بد من الإصلاح بين الطرفين ، فالرجوعُ إلى الحق فضيلة . وإمكانيةُ حدوث نزاع أو قتال بين المسلمين واردة في كل زمان ومكان ، وهذا لا يقدح في إيمانهم ، فهم ليسوا ملائكة معصومين ولا أنبياء يُوحى إليهم . فقد تختلف زوايا النظر إلى القضايا ، وقد تتطور الأمور إلى نزاع مسلَّح كما حدث في صِفِّين ، لكن الإصلاح يظل هو القضية الجوهرية في هذا السياق ، فأُخوة الدِّين أكبر من كل العلاقات الأخرى .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢٧٤) عن معنى أُخوة المؤمنين : ((أي في الدِّين والْحُرمة، لا في النَّسب. ولهذا قيل : أُخوة الدِّين أثبت من أُخوة النسب، فإن أُخوة النسب تنقطع بمخالفة الدِّين ، وأُخوة الدِّين لا تنقطع بمخالفة النسب)) اهـ .

٢_ الصِّدق :

قال الله تعالى : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾[التوبة : ١١٩] .

وهذه دعوةٌ إلهية مجيدة إلى الحرص على مرافقة الصادقين، والالتزام بنهجهم، وعدم مفارقتهم. لأن في ذلك فلاحهم في الدنيا والآخرة ، فالصدقُ خُلقٌ شريف ، والمتَّصفون به هم

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١١/ ٤٨٩) برقم (٥٠٩٢) ، والترمذي في سُننه (٤/ ٦٦٣) برقم (٢٥٠٩) وصحَّحه .

سادة المجتمع الذين يُشار إليهم بالبنان ، ويُضرَب المثل في علو همتهم ، وصدق لهجتهم ، وحملهم لمعاني الأخلاق الإسلامية الراقية . لذلك فالصادقون هم صفوة الجماعة البشرية حيث طَهَّر اللهُ ألسنتهم من الكذب فصاروا نجوماً في المجتمع ، متصالحين مع ذواتهم ومحيطهم ، مؤثرين في بيئتهم بشكل إيجابي، يقومون بإرشاد الناس إلى صلاحهم .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إن الصدق يَهدي إلى البِر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرَّجل ليصدق حتى يكون صِدِّيقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتَب عند الله كذاباً))[3] .

فالصدقُ مفتاح كل خير، فهو يهدي إلى محاسن الأخلاق وأبوابِ الخير وشتى أنواع الطاعات، وهذا هو طريق الجنة . وكلما ثبت المرءُ في بيئة الصدق صار الصدقُ صفةً لازمة له بدون تكلف ، وعندئذ يكون صِدِّيقاً ، وهذه الرتبة جاءت نتيجة الصِّدق المتواصل الذي لا يتسرب إليه كَذِب . أما الكذبُ فيقود إلى الفسق والفجور وسوء الأخلاق والمعاصي الدنيئة ، وهذا هو طريق النار. وكلما غرق المرءُ في مستنقع الكذب، كُتب عند الله كذاباً ، وهي رتبة قبيحة للغاية تستدعي الخزي والعار .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٦٠) : ((قال العلماء : هذا فيه حث على تحرِّي الصدق ، وهو قصده والاعتناء به ، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه ، فإنه إذا تساهل فيه كَثُر منه فعُرف به . وكتبه اللهُ لمبالغته صِدِّيقاً إن اعتاده ، أو كذاباً إن اعتاده . ومعنى يكتب هنا : يُحكَم له بذلك ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين وثوابهم أو صفة الكذابين وعقابهم ، والمراد : إظهار ذلك للمخلوقين ، إما بأن يكتبه في ذلك ليُشْتَهَر بحظه من الصفتين في الملأ الأعلى وإما بأن يُلقيَ ذلك في قلوب الناس وألسنتهم ، كما يوضع له القبول والبغضاء)) اهـ .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((إن الكذب لا يَصْلُح منه جِد ولا هزل ، ولا أن يَعِدَ الرجلُ ابنَه ثم لا يُنجِز له))[4] .

فالكذبُ فاسدٌ في جميع الحالات ، لا يمكن استخدامه في الأمور الجادة ولا الهزلية ، فلا يوجد كذبٌ أبيض ولا أسود . فكله كذبٌ مذموم . ولا يجوز كذلك أن يضحك الرجلُ على ابنه

---

(٣) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٢٦١) برقم (٥٧٤٣) ، ومسلم (٤/ ٢٠١٢) برقم (٢٦٠٧) .

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢١٧) برقم (٤٤٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

بأن يعده بعمل كذا وكذا ثم لا يُنفِّذ وعدَه ، فهذا يدخل في باب الكذب . ويؤدي إلى غياب الثقة تماماً بين أعضاء المجتمع الواحد وتمزيقه إلى شظايا لا تجتمع على هدف واحد .

ونحن نلاحظ عناية الشريعة بالصدق وتحريمها للكذب ، وذلك من أجل صناعة مجتمع متماسك لا يوجد فيه إلا الحق والحقيقة ، وبالتالي لا تقدر فوضى الأكاذيب والإشاعات أن تضعفه ، أو تقضيَ على حاضر الأفراد والجماعات ، وتبث الاضطراب في صفوف المجتمع . فالصدقُ هو قوة التماسك الاجتماعي ، أما الكذبُ فالمسمار الأول في نعش المجتمع .

وقال الله تعالى : ﴿ فإذا عزم الأمرُ فلو صَدَقوا اللهَ لكان خيراً لهم ﴾[مُحمَّد : ٢١] .

فلو صدقوا اللهَ تعالى حينما جَدَّ الأمرُ ، وأخلصوا النيةَ لله تعالى ، لكان ذلك خيراً لهم . وهذا يشير إلى أهمية الصدق مع الله تعالى ، إذ إن الصدق يفتح الأبوابَ المغلقة ، ويجعل من الإنسان طاقةً فعالة في بناء المجتمع الإنساني الكَوْني في ظل الشريعة الإسلامية المعصومة . وقال الطبري في تفسيره (١١/٣١٨) : ((فإذا وجب القتال وجاء أمر الله ذلك كرهتموه)) اهـ .

وهذا يدل على أن غياب الصدق مع الله تعالى له عواقب وخيمة، وهذه الخصلة المذمومة تتعارض مع الإيمان .

وقال الله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصِّدق وصَدَّق به ﴾[الزُّمر : ٣٣] .

فالنبي ﷺ هو الصادق المصدوق . قد جاء بأصدق كلمة وهي كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، وصدَّق بها ، واعتنقها منهجاً حياتياً لا مجال للانحراف عنه . وهذا يشير إلى أن الدعوة مرتبطة بالصدق بحيث لا يمكن حدوث انفصال أو تعارض . فالدعوة المحمَّدية الإسلامية دعوةٌ صادقة مصدرها صادق ورسولها صادق وكتابها صادق وأتباعها صادقون . وبغير الصدق سوف تنهار الدعوة قبل أن تبدأ ويهرب منها الناس .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٩٥) : ((ومن طريق قتادة بسند صحيح : الذي جاء بالصِّدق رسولُ الله ﷺ، جاء بالقرآن ، والذي صَدَّق به المؤمنون)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ مِن المؤمنين رِجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا اللهَ عَلَيْه ﴾[الأحزاب : ٢٣].

وهذا مدحٌ إلهي للصادقين الذين أوفوا بعهد الله تعالى ، والتزموا بما عاهدوا اللهَ عليه ، فلم يتراجعوا ، ولم يخونوا عهدَهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٠) : ((من الثبات مع الرسول ﷺ ، والمقاتلة لإعلاء الدِّين ... فإن المعاهِد إذا وفى بعهده فقد صدق فيه)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٠٣٢) ومسلم (٣/ ١٥١٢) : عن أنس _ رضي الله عنه _ قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله ، غِبْتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين،لئن الله أشهدني قتالَ المشركين لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أصنع.فلما كان يوم أُحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء _ يعني أصحابه_، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء _ يعني المشركين _. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحَها من دون أُحد ، ... ، فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قُتل وقد مَثَّل به المشركون ، فما عرفه أَحدٌ إلا أخته ببنانه . قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه ﴿ مِن المؤمنين رِجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا اللهَ عَلَيْه ﴾ إلى آخر الآية .

فالمؤمنُ يؤثر فيه الغيابُ عن الوقائع المجيدة والأحداث الجسيمة ومواطن الخير والصلاح . وليس كالمنافق الذي يفرح بالتخلف عن المعارك ومواطن الرجولة لكي يحافظ على نفسه ويكسب عمرَه _ كما يتوهم _. وأنس بن النضر_ رضي الله عنه_ لم يقبل بالغياب عن أول قتال (بَدْر) ، واعتبر ذلك نقطةً سوداء في تاريخه ، فأراد أن يتدارك الموقف . فعقدَ العزمَ الأكيد على القتال بضراوة في المواجهة القادمة مع المشركين . وقد كان كلامُه نابعاً من قلب صادق وإرادة متحررة من شهوات النفس ، ولم يكن شعاراتٍ براقة ، أو أغنيات وطنية للنسيان . فنفَّذ كلامَه على أرض الواقع ، قتالاً حتى النهاية . وقد صَدَق اللهَ فَصَدَقه اللهُ تعالى . فالمؤمنُ يتطابق قولُه مع فعله دون أن يُكذِّب أحدهما الآخر .

وجزاءُ الصدق سعادةٌ وشرفٌ يوم القيامة . فقد قال الله تعالى : ﴿ قال اللهُ هذا يومُ يَنفع الصادقين صِدْقُهم ﴾[المائدة : ١١٩] .

فالصدقُ ليس إجراءً ترفيهياً أو ترفاً زائداً عن الحاجة أو لحظة زمنية منقضية بلا نتائج . إنه خلاصُ الإنسان الذي سيجد نتائج صِدْقه يوم القيامة ، حيث يرضى اللهُ تعالى عنه ، ويمنحه الجنةَ ، وذلك لأنه كان عبداً مؤمناً صادقاً في الدنيا ، فقد التزم بالأوامر الإلهية ، ولم ينحرف عنها ، وقام بأداء واجبات العبودية بإيمان وإخلاص وصِدْق ، قولاً وفعلاً .

وللأسف فإن كثيرين يتوهمون أن الكذب مفتاح سعادتهم ، وطريق تحقيق أحلامهم . فينظرون إليه على أنه ذكاء اجتماعي . وهؤلاء غارقون في متاهاتهم الفوضوية لأنهم عاجزون عن معرفة حقيقة الأمور . فلا يمكن أن يكون الصدقُ ضعفاً أو غباءً ، ولا يمكن أن يكون الكذبُ عبقريةً .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٥٠) : ((أي صدقهم في الدنيا فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق ، وصدقهم في الدنيا يُحتمل أن يكون صدقهم في العمل لله ، ويحتمل أن يكون تركهم الكذب عليه وعلى رسله ، وإنما نفعهم الصدق في ذلك اليوم)) اهـ .

وصدق القائل :

عليك بالصدق ولو أنـه أحرقك الصدق بنار الوعيـد
وابغ رضا المولى فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد

٣_ الاستقامة :

قال الله تعالى : ﴿ فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ﴾[هود : ١١٢] .

فهذا أمر إلهي للنبي ﷺ وأُمَّته بالاستقامة على الصراط المستقيم، والتمسكِ بالشريعة السماوية، وعدم الميل عن طريق الدعوة. والاستقامةُ أمرٌ جامع لأنواع الطاعات، وثباتٌ على الدرب الواضح بلا انحراف أو زيغ .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٩١) : ((الخطاب للنبي ﷺ ولغيره . وقيل : له والمراد أُمته، قاله السدي . وقيل : (استقم) اطلب الإقامة على الدِّين من الله ، واسأله ذلك ، فتكون السين سين السؤال ، كما تقول : أستغفر الله ، أطلب الغفران منه . والاستقامة : الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ، فاستقم على امتثال أمر الله)) اهـ .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي _ رضي الله عنه _ قال : قلتُ يا رسول الله ، حَدِّثْني بأمر اعتصم به ، قال : ((قُل رَبِّيَ الله ثم استقِمْ))(5) .

فالإيمانُ بالله رَبَّاً ثم الاستقامة . هذه هي القضية المركزية في الدِّين الإسلامي، وقد أُوتيَ النبيﷺ جوامع الكَلِم فعبَّر بشكل موجز غير مُخِل عن طريق الخلاص للبشر ، ومن انحرف عنه فإنه ضائع _ لا محالة _ في الدنيا والآخرة . فالإيمانُ بالله هو الأساس ، والاستقامة هي ثمرة

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٩) برقم (٧٨٧٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

الإيمان ، وهي التطبيق الواقعي لتعاليم الدِّين المشتملة على القول الصادق والفعلِ المطابق للقول دون تعارض . وكما يُقال في الرياضيات إن أقصر مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:قال أبو بكر الصِّديق _ رضي الله عنه _ لرسول الله ﷺ : أراكَ قد شِبْتَ ، قال : ((شَيَّبَتْنِي هُود ...))[6] .

والمعنى : أن سورة هُود بما فيها من أوامر إلهية تأمر بالإيمان والاستقامة والانضباط وعدم الميل قد شَيَّبت النبيَّ ﷺ لعظم شأنها ، وتعاليمها الجليلة .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩) : ((قال ابن عباس _ رضي الله عنهما _ في قول الله تعالى ﴿ فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ﴾ : ما نَزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آيةٌ كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية)) اهـ .

فالاستقامةُ ليست عمليةً سهلة ، إنها قضية كبرى تستلزم نقاءً قلبياً ، وصفاءً روحياً ، وطهارةً جسدية ، وجهداً خارقاً ، لكنها يسيرة إذا اقترنت بالهداية الإلهية والتوفيقِ الرباني .

وقال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزنون ﴾ [الأحقاف : ١٣] .

فالمؤمنون بالله تعالى المستقيمون وفق منهاجه السماوي المقدَّس لا يشعرون بالخوف إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، فهم متصلون بالشريعة الإلهية ، واختاروا أن يكونوا عباداً لله تعالى، واللهُ يُدافع عن أوليائه الأنقياء ، ويحميهم من شرور الدنيا ، ويُجيرهم من العذاب الأُخروي. ومن اتخذ من الاستقامة منهاجاً له فلا يمكن للخوف والحزن أن يستوليا عليه . فالقلبُ المستقيم مُحصَّنٌ ضد الفتن العاصفة بالقلوب والأزماتِ الروحية والمادية المتفاقمة في المجتمعات الإنسانية ، وإذا زالت الاستقامة فعندئذ يصبح القلبُ ألعوبةً بيد الشيطان يُحرِّكه كيفما شاء . فالقطارُ إذا انحرف عن السكة فإن كارثةً حقيقية _ لا محالة _ ستقع .

وعن أبي بكر الصديق _ رضي الله عنه_ : _ ﴿ إن الذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثم استقاموا ﴾ ، قال : ((ثم استقاموا ولم يلتفتوا إلى إلهٍ غيره))[7] .

---

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٤) برقم (٣٣١٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٨) برقم (٣٦٤٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

إن الاستقامة هي الميزان الحساس ، وهي النظام المتكامل الدقيق . فإن فُقدت الاستقامة فقد اختل النظام ، وسقط قلبُ العبد في مستنقع الوهم والشكوك والاضطراب . ومَن وَصل إلى هذه الحالة سيصبح عبئاً على نَفْسه ومجتمعه ، ولا يُنتظَر منه أي خير .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩) : ((قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته : الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده .. وقيل : الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق)).

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٥٦) : عن حذيفة _ رضي الله عنه _ قال : ((يا معشر القُرَّاء ، استقيموا ، فقد سَبقتم سبقاً بعيداً ، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً)) .

وهذه رسالة إلى العلماء بالكِتاب والسُّنة بضرورة الاستقامة على أمر الله تعالى ، والتمسك بالشريعة السمحة في أوامرها ونواهيها ، لأن استقامة العلماء تنعكس إيجاباً على الناس ، حيث يتم تقليدهم واتخاذهم قدوةً في أقوالهم وأفعالهم. أما إذا انحرفوا فعندئذ سيضيع المجتمع . فانحرافُ العالِم هو انحراف العالَم . وصنفان من الناس إذا صلحا صلح الناسُ ، وإذا فسدا فسد الناسُ : العلماءُ والأمراء .

٤_ العفو عن الناس :

قال الله تعالى : ﴿ وأن تَعفوا أقربُ للتقوى ﴾[البقرة : ٢٣٧] .

والعفو صفةٌ شريفة مقترنة بالتقوى ، لأنها تشير إلى سلوك إيماني متماسك ، حيث الرحمة بالآخرين ، والتجاوز عن أخطائهم ، والأخذ بأيديهم نحو بر الأمان . وهذا التصرف النبيل يدل على قوة الروابط المجتمعية ، وعدم التربص بالطرف الآخر من أجل اصطياد العثرات واستغلالها . فلا يمكن أن يُحكَم المجتمع البشري بقانون الغاب، لأن ذلك يعني انتحار المعنى الإنساني ، وانتكاسة الفرد إلى رتبة الحيوانية الغريزية . وفي الدر المنثور للسيوطي (١/ ٧٠٠) أن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال في الآية : ((أقربهما إلى التقوى الذي يَعفو)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ والعَافِين عن الناس ﴾[آل عمران : ١٣٤] .

وقد ورد ذِكْرُ العافين عن الناس في سياق الإشادة والمدح ، فهم يتجاوزون عن الناس رحمةً بهم وشفقةً عليهم ، فيعفون عمَّن ظلمهم ، وتكون قلوبهم خاليةً من الحقد ، وهذا منتهى الصفاء ، وحب الخير للآخرين .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠١): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه _ عن رسول الله ﷺ قال : ((ما زاد اللهُ عبداً بعفو إلا عِزّاً)) .

فالعبدُ الذي منحه اللهُ تعالى نعمةَ العفو والتجاوز عن سقطات الناس، هو كبيرٌ في عيون الناس، يُنظَر إليه كسيِّد كريم عزيز، راجح العقل ، وحسن الأخلاق. وهذا يجعله ذا مكانة رفيعة في قومه . وهذه هي النعمةُ الدنيوية، أمَّا النعمة الأُخروية فتتجلى في حصوله على الرضا الإلهي ، ونيل جنَّته ، وهذا هو العِز المطْلق . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٤١) : ((فيه أيضاً وجهان ، أحدهما أنه على ظاهره وأن من عُرِف بالعفو والصفح ساد وعَظُم في القلوب وزاد عِزُّه وإكرامه ، والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعِزه هناك)) اهـ .

والبعضُ يعتقد أن العفو هو وسيلة المغلوب على أمره ، وموقف العاجز الضعيف . وهذا فهمٌ يتنافى مع الحقيقة . فالعفو دليلٌ على قوة الشخصية ، والثقةِ بالنفس ، والشفقةِ على الآخرين، وهو لا يصدر إلا عن الواثقين القادرين لا الضعفاء العاجزين .

٥_ الرحمة :

قال الله تعالى في وصف الصحابة ومدحهم : ﴿ رُحماء بَيْنهم ﴾[الفتح : ٢٩] .

فقلوبُهم مليئة بالرحمة والشفقة على بعضهم البعض ، فهم وحدةٌ اجتماعية متراصة لا مكان بينهم للأحقاد والانتقام والغدر . فهم يتجاوزون عن المخطئ بينهم ، ويعملون على إقالة عثرته ، ويساعدون المحتاج والضعيف . وهكذا تتجلى أبهى صور الرحمة والود والتكافل الاجتماعي ، مما يؤدي إلى نهضة اجتماعية حقيقية ذات نتائج ملموسة . وعن النعمان بن بشير _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضواً ، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى))[8] .

وهذا التشبيه النبوي الدقيق يحمل سماتِ العناصر التوحيدية للمجتمع الإيماني . فالمؤمنون وحدةٌ واحدة متماسكة كالجسد الإنساني، وإذا حصل أي خلل في هذا الجسد كمرضٍ أو ضعفٍ ، فإن كل أعضاء الجسد تُسْتَنْفَر وتُصاب بالتعب والسهر والحمى لتخليص الجسد من الألم وكل المشكلات الناشئة . فلا يمكن لأي عضو أن ينعم بالراحة إلا إذا زال الألم عن جميع الأعضاء . وهذا مؤشر على أن الخلاص يكون جماعياً لا فردياً .

(٨) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٢٣٨) برقم (٥٦٦٥) ، ومسلم (٤/ ١٩٩٩) برقم (٢٥٨٦).

وفي هذا الحديث دعوةٌ للتعاون بين المسلمين ، وأن يكونوا أصحابَ جهودة متضافرة لا متناقضة . كما يُبرِز حقوقَ المسلمين العظيمة ، وأن رابطة الأُخوة الدينية بين المؤمنين تُحتِّم عليهم التماسك في وجه الأزمات من أجل علاجها ، والانطلاق معاً للدعوة ونشر الخير وإعمار الأرض . فالقوةُ الفعالة تكمن في الوحدة والتصرف كفريق عمل منتظم لا متناحر . أمَّا الفُرقة فهي المسمار الأول في نعش المجتمع .

قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٣٩) : ((أما السهر فلأن الألم يمنع النومَ ، وأما الحمى فلأن فقد النوم يثيرها . وقد عرَّف أهل الحذق الحمى بأنها حرارة غريزية تشتعل في القلب فتشب منه في جميع البدن فتشتعل اشتعالاً يضر بالأفعال الطبيعية)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وتَواصَوْا بالمرحمة ﴾[البلد : ١٧] .

فالمؤمنون يوصي بعضُهم بعضاً بالرحمة ، فهذه الصفة من شأنها توحيد السياقات المجتمعية ، وجعل الناس على قلب رَجل واحد ، بلا أحقاد أو نزاعات أو تعارض . فحينما يرحم القويُّ الضعيفَ ، والغنيُّ الفقيرَ ، والعالِمُ الجاهلَ ، ... ، إلخ . فعندئذ سوف يتخلص المجتمع من أحقاده ، وينشأ تماسكٌ مدهش بين كافة قوى الشعب على اختلاف مرتبتها الاجتماعية . وهذا يؤدي إلى إنتاج أفراد واثقين يقومون بإصلاح أنفسهم ومجتمعاتهم بكل حيوية ونشاط ، بلا عُقد نفسية أو شعور بحب الانتقام والثأر . وهذه هي التنمية البشرية الحقيقية التي تُفضي إلى تنمية واقعية لا شعاراتية . مما يؤدي إلى تقدم الجماعة الإنسانية على كافة الأصعدة ، والحصول على مركز مرموق بين الشعوب والكياناتِ السياسية .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨) : أن النبي ﷺ سَمَّى نفسَه نبي الرحمة .

مما يشير إلى أن الدعوة المحمَّدية الإسلامية مبنية على الرحمة والعطف على الناس والأخذ بأيديهم إلى سعادة الدنيا وجنةِ الآخرة لا القضاء على مستقبلهم بإرسالهم إلى الجحيم . لكنَّ الذي يرفض الرحمةَ النبوية ، ويلهث وراء هواه ومزاجه ، يقتحم النارَ عن سبق الإصرار والترصد ، ويأبى إلا أن يَحرم نفسه من رحمة الشريعة . وبالطبع فهو يتحمل نتيجةَ أعماله .

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : ((الرَّاحمون يرحمهم اللهُ))[9].

---

(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٥) برقم (٧٢٧٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فالمتَّصفون بالرحمة يُعرِّضون أنفسهم لنفحات الرحمة الإلهية ، حيث يتغمدهم اللهُ تعالى بواسع رحمته أحياءً وأمواتاً ، فهم كُرماء مع الناس حيث يُغدِقون عليهم من الرحمة والشفقة والمساعدة ، ولن يكونوا أكرمَ من الله تعالى رحمنِ الدنيا والآخرة ورحيمهما .

٦_ الإحسان :

قال الله تعالى : ﴿ وقولوا للناس حُسْناً ﴾[البقرة : ٨٣] .

أي : كَلِّموهم بالقول الحسن ، والموعظةِ الطيبة ، والنصيحةِ اللطيفة الصادقة ، ولا تستعملوا معهم خشونةَ الألفاظ ، وقسوةَ الكلمات، مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأسلوب هادئ .

وقال الله تعالى : ﴿ إن أحسنتُم أحسنتُم لأنفسكم ﴾[الإسراء : ٧] .

إن الله تعالى لا يحتاج طاعاتِ العباد ، فهو غني عن العالَمين . فإحسانُ الناس لا يعود بالفائدة على خالقهم تعالى، وإنما يعود على أنفسهم، فهم يساعدون أنفسهم لنيل رضا الله تعالى، والحصول على الأجر العظيم . فهم المحتاجون إلى إحسانهم ، وإحسانِ الله إليهم . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٩١) : ((أي نفع إحسانكم عائد عليكم)) اهـ . وعندما يكون الشخصُ محسناً ، قد انتشر الإحسانُ في أخلاقه وسلوكه ، فإنه يدخل في محبة الله تعالى الذي يقول : ﴿ واللهُ يُحِبُّ المحسِنين ﴾[آل عمران : ١٣٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ للذين أحسَنوا الحسنى وزِيادةٌ ﴾[يُونُس : ٢٦] .

فالذين أحسَنوا في الدنيا بأن آمنوا بالله تعالى، وأخلَصوا عبادتهم ، وقاموا بواجباتهم على أكمل وجه فإن لهم الجنة يوم القيامة وزيادة . وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٥٤٥) : ((يخبر _ تعالى _ أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة ... وقوله : ﴿ وزِيادةٌ ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال ، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك ، أيضاً ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم ، وما أخفاه لهم من قُرَّة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أُعطوه ، لا يستحقونها بعملهم ، بل بفضله ورحمته)) اهـ .

وعن صهيب _ رضي الله عنه _ قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ للذين أحسَنوا الحسنى وزِيادةٌ ﴾ ، قال : ((إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ نادى مُنادٍ : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يحب أن يُنجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ، ألم يُثقِّل اللهُ موازيننا ، ويُبَيِّض وجوهنا ، ويدخلنا الجنةَ ويُجرنا من النار ؟ ، فيُكشَف الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم

الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه))[10] .

فرؤيةُ الله تعالى ثابتة نقلاً وعقلاً مع اعتقاد التنزيه ، وأن الله تعالى ليس جسماً محصوراً . فحقيقةُ الرؤية لا يدركها إلا الله تعالى . أما عقول البشر القاصرة فتعجز عن تخيُّلها . لذلك ذهب أهلُ الضلال إلى نفي رؤية الله تعالى معتمدين على عقولهم المحدودة التي قَرنت الرؤيةَ بالتحيُّز اعتماداً على الظواهر المحسوسة في الدنيا ، فقد قاسوا الغائبَ (الآخرة) على الشَّاهد (الدنيا)، وهذا أوقعهم في المحظور . فعالمُ الغيب وعالم الشَّهادة يختلفان تماماً .

٧_ الإيثار :

قال الله تعالى : ﴿ قالوا لن نُؤثِركَ على ما جاءنا من البَيِّنات ﴾[طه : ٧٢] .

وهذا كلامُ سحرة فرعون حينما آمنوا بالله تعالى ورسوله موسى ﷺ . فهم رفضوا اختيارَ فرعون وإيثاره على ما جاءهم من الحجج الإيمانية الباهرة والأدلةِ الدينية الساطعة . وهم بذلك يكونون قد آثروا اتباع موسى النبي الصادق على اتباع فرعون . أي إنهم آثروا رضا الله تعالى على رضا فرعون، واختاروا نعيمَ الحياة الآخرة الدائم على متاعِ الحياة الدنيا الزائل. وهنا تبرز أهمية التوفيق الرباني والهداية الإلهية في نقل الناس من الوهم إلى الحقيقة .

وفي تفسير أبي السعود(٦/ ٢٩): ((لن نختارك بالإيمان والاتباع على ما جاءنا من الله على يد موسى _ عليه الصلاة والسلام _ من البينات من المعجزات الظاهرة ، فإن ما ظهر بيده _ عليه الصلاة والسلام_من العصا كان مشتملاً على معجزاته...فإنهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها)).

وقال الله تعالى : ﴿ ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بِهِم خَصَاصةٌ ﴾[الحشر : ٩] .

وهذا مدحٌ للأنصار الذين يُعطون المهاجرين أموالَهم ، فهم يُؤثرون المهاجِرين على أنفسهم ولو كان بهم حاجة . فالأنصار _ حتى لو كانوا محتاجين _ فإنهم يُفضِّلون المهاجرين . وهذا منتهى الإيثار والتضحية وإنكار الذات وتقديم الآخرين على النفس . وهذا الرتبة لا يصل إليها إلا المؤمنون الصادقون .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٠) : ((ويُقدِّمون المهاجرين على أنفسهم ، حتى إن كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوَّجها من أحدهم)) اهـ .

---

(١٠) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٤٧١) برقم (٧٤٤١) .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ قال : أتى رَجلٌ رسولَ الله ﷺ، فقال : يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : ((ألا رَجل يُضيفه هذه الليلة يرحمه الله)) . فقام رَجل من الأنصار ، فقال : أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته : ضيف رسول الله ﷺ لا تدَّخريه شيئاً ، قالت : والله ما عندي إلا قوت الصِّبية ، قال : فإذا أراد الصِّبيةُ العَشاءَ فنوِّميهم وتعالي فأطفئي السراجَ ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلتْ ، ثم غدا الرجلُ على رسول الله ﷺ فقال : ((لقد عجب الله عز وجل _ أو ضحك _ من فلان وفلانة)) . فأنزل الله _ عز وجل _ :﴿ ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بِهم خَصَاصةٌ ﴾ [11] .

إن إقدام الأنصاري على استضافة ضيف النبي ﷺ يشير إلى حرص الأنصاري على تنفيذ كلام النبي ﷺ دون تردد ، حتى إنه لم يُفكِّر هل يوجد عنده طعام كافٍ أم لا . وما قام به من إطعام ضيفه مقابل جوعه وجوعِ عائلته يشير إلى إكرام ضيف النبي ﷺ وتفضيله . وهكذا يتجلى الإيثار في أبهى صوره ، ويبرز إنكارُ الذات وعدم رؤيتها مطلقاً كنظام حياتي راقٍ منطلق من إيمان نابع من القلب ومنتشر على الجوارح . وقد عجب اللهُ تعالى من الرجل وزوجته أو ضحك منهما ، بمعنى أنه _ سبحانه _ رضي هذا الفعلَ ، ورضي عنهما ، لما في صنيعهما من معاني الإيثار ، وتقديم الآخر على النفس ، والابتعادِ عن البخل أو الشكوى .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٣٢) : ((وقال الخطابي : إطلاق العجب على الله محال ، ومعناه الرضا ، فكأنه قال إن ذلك الصنيع حَلَّ من الرضا عند الله حلول العجب عندكم)) اهـ .

٨_ القِرى (إكرام الضيف) :

قال الله تعالى : ﴿ فما لَبِثَ أن جاء بعِجْلٍ حَنيذ ﴾[هود : ٦٩] .

وهذه الآيةُ تتحدث عن صفة إكرام الضيف التي حقَّقها النبي إبراهيم ﷺ واقعاً ملموساً ، إذ إنه ذهب سريعاً لإحضار الضيافة ، وهي عِجْلٌ مشوي . وقد خلَّد القرآنُ هذه اللحظة ليُعطيَ للآخرين مثالاً واقعياً يُحتذى لإكرام الضيف .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٥٥) : ((في هذه الآية من أدب الضيف أن يُعجِّل قِراه فَيُقَدِّم الموجود الميسَّر في الحال)) اهـ .

---

(١١) متفق عليه.البخاري (٤/ ١٨٥٤) برقم (٤٦٠٧) ، ومسلم (٣/ ١٦٢٤) برقم (٢٠٥٤).

وإكرامُ الضيف من الآداب الإسلامية ، ومكارمِ الأخلاق . وهذا الْخُلقُ الكريم طريقُ الأنبياء والصالحين ، فهو يعكس سمو الروح ، وعظمة المروءة ، ونُبل الأخلاق .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن كان يؤمن بالله واليومِ الآخِر فَلْيُكْرِمِ ضيفَه))(12) .

فإكرامُ الضيف علامةٌ على صدق الإيمان ، وهو نتيجة واقعية تطبيقية لما وقر في الصدر من تعاليم الشريعة السمحة . كما أنه إشارة إلى التماسك الاجتماعي ، والترابطِ الإنساني في أبهى صوره ، وتقديرِ العلاقات البشرية ووضعها في مكانتها اللائقة ، وحسنِ التعامل بين بني البشر ، وانتشارِ مكارم الأخلاق ، والابتعادِ عن الصفات الذميمة كالبخل وسوء الاستقبال . فالضيفُ له حُرمةٌ بالغة في كل البيئات عبر الأطوار التاريخية المختلفة .

٩ــ غَضُّ البصر وحفظ الفَرْج :

قال الله تعالى : ﴿ قُل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم ويَحفظوا فُروجَهم ﴾[النُّور : ٣٠] .

وغضُّ البصر هو كفُّه عن النظر إلى المحرَّمات، ومنعه من النظر إلى الشهوات . أما حفظُ الفَرْج فيتحقق بمنعه من الزنا وحفظِه من الأبصار ، وذلك بإبقائه مستوراً غير مكشوف . وهذه المنظومةُ الأخلاقية الشاملة تحمي الفردَ والجماعة من الغرق في مستنقع الشهوانية الغريزية القاتل.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٧٦) : ((هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عمَّا حرَّم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم . ... وحفظ الفَرْج تارة يكون بمنعه من الزنا ... وتارة يكون بحفظه من النظر إليه)) .

والعينُ بريد القلب،فالنظرُ إلى المحرَّمات من شأنه فسح الطريق أمام الزنا.لذلك وجدنا الترابط في الآية القرآنية بين غض البصر وحفظِ الفَرْج. فالبصرُ ناقل الأحاسيس والشهوات إلى الفَرْج .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٦) : عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال : ((كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة ، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زِناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرِّجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى ، ويُصَدِّق ذلك الفَرْجُ ويُكذِّبه)) .

---

(١٢) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٢٤٠) برقم (٥٦٧٢) ، ومسلم (١/ ٦٨) برقم (٤٧) .

فالجوارحُ دورها كبيرٌ جداً في نقل الشهوات إلى مراكز الإحساس ، لذلك يتوزع الزنا على هذه الأعضاء ، والفَرْجُ هو الحد الفاصل بين الحلال والحرام ، وهو معيار القبول أو الرفض . فإما أن يخضع لزنا الجوارح ، وإما أن يرفضه .

وقد تقع العينان بدون قصد على الحرام، فعندئذ يَصرف المرءُ نظرَه ولا يتمادى في التحديق ، أو النظر بشهوة .

ففي صحيح مسلم (٣/ ١٦٩٩) : عن جرير بن عبدالله _ رضي الله عنه _ قال : ((سألتُ رسولَ الله ﷺ عن نظر الفُجاءة ، فأمرني أن أصرف بصري)) .

وفي صحيح البخاري(٥/ ٢٣٧٦) : عن سهل بن سعد _ رضي الله عنه_ عن رسول الله ﷺ قال : ((من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رِجليه ، أضمن له الجنة)) .

فمن يحفظ لسانَه وفَرْجَه من الوقوع في الحرام ، فإن الجنة ستكون مضمونةً له ، لأن هذين العُضْوَيْن هما مصدر الخير والشر على السواء . فمن استعملهما في الخير سار إلى الجنة ، ومن لم يحفظهما من الباطل والإثم فسوف يقضيان عليه في الدنيا والآخرة معاً . فهويةُ الأعضاء الإنسانية تتحدد وفق المجال الذي تُسْتَخْدَم فيه (الخير أو الشر) .

١٠_ الإعراض عن اللغو :

قال الله تعالى : ﴿ وإذا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِرَاماً ﴾[الفُرقان : ٧٢] .

فالمؤمن يُعرِض عن اللغو (كل سقط من قول أو فعل) ، ولا يسقط في استفزاز الجهلة والأعداء الذين يُلقون كلامَهم يمنةً ويسرة دون التفكر في أبعاده ، فهم ينطلقون من الحقد والجهل والعناد وسوء الأخلاق . أما المؤمن فينطلق من كرم النفس وعلو الهمة وحسن الخلق ، فلا يخوض مع الجهلة ، ولا يسقط في الفواحش . وكما يُقال : القافلةُ تسير والكلابُ تَنبح . وهنا تتجلى ثقة المؤمن بربِّه ونَفْسه ، فلا يمكن استفزازه لأنه ثابت الجنان ، ينظر إلى عواقب الأمور .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٩) : ((أي لا يحضرون الزورَ ، وإذا اتفق مرورهم به مَرُّوا ولم يتدنسوا منه بشيء)) اهـ .

١١_ القصد في المشي والخفض من الصوت :

قال الله تعالى : ﴿ واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُض مِن صَوْتكَ ﴾[لُقمان : ١٩] .

والإسلامُ دِين وسطي بلا إفراط أو تفريط ، وتتجلى هذه الوسطية في السلوك الإنساني . فلا بد من التواضع في المشي بدون سرعة طائشة أو خُيلاء ، والكلام بصوت معتدل مسموع بلا

جعجعة أو صراخ أو همس غير مفهوم . وهنا تظهر أهمية الاقتصاد والاعتدال في القول والفعل . وخيرُ الأمور أوسطها. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٨٨) : ((أي امشِ مقتصداً ، مشياً ليس بالبطيء المتثبِّط ولا بالسريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بَيْن بين ... _ و _ لا تبالغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه)) . وعن جابر بن عبد الله _ رضي الله عنهما _ : وتلا قولَ لقمان لابنه ﴿ واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُض مِن صَوْتكَ ﴾ ، قال : ((كان رسول الله ﷺ إذا خَرج مشوا بين يديه ، وخلوا ظهرَه للملائكة))[13] .

١٢_ السَّكينة :

قال الله تعالى : ﴿ الذين آمَنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بِذِكْر الله ﴾[الرعد : ٢٨] .

إن قلوب المؤمنين تهدأ بذكر الله تعالى وتستأنس بأوامره ، وينبعث فيها الطمأنينة والسَّكينة والثبات الإيماني . فيزول كدرُ الأمور المعيشية لأن الله تعالى رزَّاق ، ويتلاشى الخوف من المستقبل لأن الزمان بيد الله تعالى ، فتختفي الأمراضُ النفسية والاكتئاب والقلق ، وتصبح النظرةُ الإنسانية إلى الأمور نظرةً إيمانية مليئة بالهدوء والراحة النفسية ،كالنظر إلى القضاء والقَدَر ، والموتِ وما بعده ، والأحياءِ والأموات ، وماهية الرزق ، وطبيعة المستقبل الإنساني . وكلُّ ما سوى الله تعالى هو مُلْكٌ له سبحانه ، ولا شيء يَقع في مُلكه إلا بإذنه .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤) : عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري _ رضي الله عنهما _ أن النبي ﷺ قال : ((لا يقعد قومٌ يَذكرون اللهَ_ عز وجل_ إلا حَفَّتهم الملائكةُ، وغشيتهم الرحمةُ ، ونَزلت عليهم السَّكينةُ ، وذَكَرهم اللهُ فيمن عنده)) .

وذِكْرُ الله تعالى ليس ترديداً لكلام دون فهم ، أو حركةً باللسان لا تصل إلى القلب . إنه استحضار عظمة الخالق تعالى ، وتدبُّر ذِكْرِه المجيد حتى يتشربه القلبُ وباقي الجوارح ، فالقلبُ يكون في أعلى درجات حضوره وليس لاهياً في عالَم آخر . كما أن الذِّكر له جانبٌ تطبيقي على أرض الواقع ، فالإسلامُ دِين شامل للدنيا والآخرة ، والروحِ والمادة ، حيث تترسخ الأفكارُ في الكتب ثم يتم تطبيقها واقعاً ملموساً .

---

(١٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٦) برقم (٣٥٤٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَنزل السَّكينةَ في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ [الفتح : ٤] . اللهُ تعالى أنزل الطمأنينة والراحة والثبات في قلوب المؤمنين لتزداد ثقتهم بالله تعالى وتصديقهم بشريعته المعصومة ، فيُضاف إلى إيمانهم زيادةٌ في الإيمان والرسوخ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٣٥) : ((وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب)) اهـ .

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ : ـ ﴿ هُوَ الذي أَنزل السَّكينةَ في قلوب المؤمنين ﴾ ، قال : ((السَّكينةُ لها وجه كوجه الإنسان ، ثم هي بعد ريح هفافة))(14) .

فالسَّكينةُ لها هويةٌ مميَّزة ، ولها كيان وملامح وجه كوجه الإنسان ، ثم هي بعد ذلك ريحٌ طَيِّبة ساكنة تبث الراحةَ النفسية في أوصال الإنسان ، وتُرسِّخ في قلبه معاني الطمأنينة والثبات ، وتجعله خلية نحل دؤوب ، يَعمل بلا كلل أو ملل ، ولا يستسلم للأزمات العاصفة .

١٣ـ الاعتدال في الأمور :

قال الله تعالى:﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يَقْتروا وكان بَين ذلك قَوَاماً ﴾[الفرقان: ٦٧].

وهذه الآيةُ الكريمة تؤسس المبدأ الأصيل في علم الاقتصاد وهو التوازن بين طرفي النقيض ، والاعتدال بين الإفراط والتفريط . فالإنفاقُ ينبغي أن يكون بلا إسراف ولا تقتير . وإنما بشكل معتدل لا تطرف فيه إلى أية جهة . وهذا من شأنه الحفاظ على سير الأمور دون مشكلات غير محسوبة ، فالاقتصاد في الإنفاق هو الضمانة الأكيدة للاستمرارية وعدمِ تعطل المشاريع التي فيها صلاح معيشة الناس . كما أن التوسُّط في الإنفاق يمنع حدوث مفاجآت غير سارة ، لأن الأمور تكون محسوبةً بدقة مع وجود هامش لحالات الطوارئ ، وهذا يحول دون انبعاث صدمات قاتلة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) : ((أي : ليسوا بمبذِّرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيُقصِّرون في حقهم فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً)) اهـ .

١٤ـ الصَّبر :

قال الله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصَّبر والصلاةِ ﴾[البقرة : ٤٥] .

---

(١٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٩٩) برقم (٣٧١٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

والإنسانُ لا يمكن أن يسير في طريق العبادة إلا بالصبر على أداء الفرائض والسُّنن وتثبيتِ نفسه على الطاعة ومنعها من الحرام ، وهذا لا يتأتى إلا بالاستعانة بالصبر الذي قُدِّم ذِكْرُه على الصلاة لأن الصبر هو مفتاح العبادات ، وبدونه لا يمكن أداء أية عبادة .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : أنه جاءه نعي بعض أهله وهو في سَفر ، فصلى ركعتين، ثم قال : ((فعلنا ما أمر اللهُ ، استعينوا بالصبر والصلاة))[15] .

وهذا هو التطبيق العملي للأوامر الإلهية التي ليست شعاراتٍ من حِبر . فهي منهاجٌ متكامل لصلاح الفرد وإصلاح مجتمعه ، فالصبرُ إن لم يتحقق على أرض الواقع وعند الصدمات ، فعندئذ يكون الفردُ كالحمار الذي يحمل أسفاراً، يحملها على ظهره ، لكنه لا يفهم ما فيها، ولا يعمل بها.

وقال الله تعالى : ﴿ واصْبِرْ على ما أصابكَ ﴾[لقمان : ١٧] .

فلا بد للمرء أن يتحلى بالصبر عند المصائب والأزمات والكوارث ، لأن المصيبة إذا وقعت لا يمكن تغييرها بالجزع والفوضى والسخط ، لكنَّ الصبر عليها يُحوِّلها من نقمة إلى نعمة ، مع استحضار الأجر الإلهي للصابرين ، وتذكر أن الدنيا دار اختبار وفتن لتمييز الصادق من الكاذب .

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال : ((الصبرُ عند الصدمة الأولى))[16] .

فالصبرُ الحقيقي يكون في ذروة الحدث ، وفي قمةِ المصيبة الصادمة ، حينما تأتي فجأةً ، فهذه اللحظة يتجلى فيها الصبر ، ويثبت فيها الصادقون . أما مع مرور الوقت فإن الصدمة مهما كانت قوية سوف تذبل شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى مرحلة تفقد فيها تأثيرها بحكم مضي الزمان، وامتصاص الناس للحدث . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٢٢٧) : ((معناه : الصبر الكامل الذي يترتب عليه الأجر الجزيل لكثرة المشقة فيه . وأصلُ الصدم الضرب في شيء صلب ، ثم استعمل مجازاً في كل مكروه حصل بغتة)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وتَوَاصَوْا بالصَّبر ﴾[العصر : ٣] .

والصبرُ ــ وحده ــ غير كافٍ ، بل ينبغي أن يتجذر التواصي بالصبر في الحياة المعاشة ، بمعنى أن يوصي الناسُ بعضهم بالصبر والتحمل والثبات عند الشدائد، فهذا تذكيرٌ بالخير وأسبابه، وتعميق للجذور الاجتماعية، وتوحيد للصفوف ، لأن التوصية بالصبر تُذكِّر الناسي ، وتُنبِّه الغافلَ،

---

(١٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٦) برقم (٣٠٦٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١٦) متفق عليه . البخاري (١/ ٤٣٨) برقم (١٢٤٠) ، ومسلم (٢/ ٦٣٧) برقم (٩٢٦) .

وتشيع جواً من القوة والتحمل والترابط الأسري في المجتمع الذي يغدو متماسكاً رغم كل أزماته . فلا ينبغي أن ينحصر المرءُ في إصلاح ذاته فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى إصلاح الآخرين ، ونقل الخير إليهم . والتواصي بالصبر يدل على جماعية الفكر الإيماني ، وأن الخير مشروع إنقاذ جماعي ، ومنظومة خلاص شمولية لا يمكن حصرها _ بأية حال من الأحوال _ في الإطار الفردي الذاتي . فالمؤمنُ ذو شخصية متميزة متفردة مبدِعة ، يَضع مهاراته في خدمة الصالح العام ، ويصون مجتمعه من الأخطار والشرور ، ويقوم بإنقاذ أفراد أمَّته من كل الشدائد .

قال أبو السعود في تفسيره (٩/ ١٩٧) : ((أي عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحُكم الجِبِلة البشرية ، وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها، أو على ما يبلو اللهُ _ عز وجل _ به عبادَه ... فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك ، بل هو تلقِّي ما ورد منه _ تعالى _ بالجميل والرضا به ظاهراً وباطناً)) اهـ .

والصبرُ لن يضيع أجرُه عند الله تعالى ، كما أن الصابرين الذين آثروا رضا الله تعالى على إشباع غرائزهم وشهواتهم سوف يجدون نتائج أعمالهم الطيبة يومَ القيامة ، فيحصلون على الأجر الجزيل ، والنعيم السرمدي ، جزاءَ تضحيتهم في الحياة الدنيا . وقد قال الله تعالى : ﴿ إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب ﴾[الزُّمر : ١٠] .

<u>١٥_ كظم الغيظ :</u>

قال الله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظَ ﴾[آل عمران : ١٣٤] .

وكظمُ الغيظ صفةٌ عظيمة لا تصدر إلا عن النبلاء ، فهي انتصار الخلق الرفيع على النفس الأمارة بالسوء. إنها حبس الغيظ وكتمه بحيث يَعجز عن تهييج النفس وقيادتها إلى الطيش والانتقام. فالكاظمون الغيظ يكتمون غضبَهم فلا يصل أثره إلى الناس، ويحتسبون عند الله تعالى. فهم رَوَّضوا أنفسهم لنيل الرضا الإلهي لا اكتساب مديح الناس . وهنا تظهر القدرة على التحمل ولجم النفس البشرية ومنعها من التهور والانطلاق بلا حساب أو رادع .

قال الطبري في تفسيره (٣/ ٤٣٧) : ((يعني : والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه . يقال منه : كظم فلان غيظَه ، إذ تجرَّعه ، فحفظ نفسَه من أن تُمْضِيَ ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها وانتصارها ممن ظلمها . وأصل ذلك مِن كَظْم القِربة ، يقال منه : كظمتُ القِربةَ إذا ملأتها ماء)) اهـ .

وعن معاذ بن أنس : أن النبيﷺ قال : ((مَن كظم غيظاً وهو يَقْدر على أن ينفذه دعاه اللهُ على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخيِّره في أي الحور شاء _ يعني الحور العِين _))[17] .

فالذي يكتم غيظَه ويترك شهوةَ نفسه وحبَّ الانتقام مع قدرته على التنفيذ ، ولا يريد بهذا العمل إلا وجه الله تعالى ، فإنه سيلاقي جزاء عمله في الآخرة عِزَّاً ونعيماً ورضواناً . فقد نجح في إلجام نفسه الأمارة بالسوء التواقة للانتقام، وكبح هذه الشهوةَ المتأججة . وهذا عمل لا يقدر عليه إلا صفوة الصفوة .

وفي المستطرف للأبشيهي (١/ ٤١٧) : ((وحُكِيَ عن جعفر الصادق _ رضي الله عنه _ أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه ، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست ، فطار الرشاش في وجهه ، فنظر جعفر إليه نظر مغضب ، فقال : يا مولاي ، والكاظمين الغيظ ، قال : قد كظمتُ غيظي ، قال : والعافين عن الناس ، قال : لقد عفوتُ عنك ، قال : والله يحب المحسنين ، قال : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى)) اهـ .

وهنا تتجلى الأخلاق الكريمة في أبهى صورها . فقد كَظم الإمامُ جعفر الصادق غيظَه وهو قادر على إنفاذه ، فموقفُه نابعٌ من القوة لا الضعف . ولا يخفى أن كظم الغيظ بحاجة إلى قوة روحية كبرى تستوعب الصدماتِ ، ولا تهتز أمام التحديات . وفي المرحلة الثانية جاء العفو تأكيداً على سمو الأخلاق ، ومساعدة الطبقات المتدنية في المجتمع . وفي المرحلة الثالثة كان الإحسان ، وقد تمثل في إعتاق هذا الغلام لوجه الله تعالى . والجدير بالذِّكر أن الأخلاق النبيلة لا تَصدر إلا عن شخص قوي ، ولا تنبثق إلا من موقف القوة لا العجز . فصاحبُ الأخلاق الحميدة هو شخصٌ انتصر على شهواته ، واستطاع التحكم بأعصابه ، وضبط مشاعره . ولم يترك نَفْسه فريسةً سهلة للغضب والثورة والتصرفات الطائشة .

١٦_ الوفاء بالعهد :

إن الوفاء بالعهد من الصفات الجليلة التي تدل على شرف صاحبها ومكانته النبيلة . ولا يخفى أن أعظم عهد يستحق الوفاء هو العهد الإلهي . قال الله : ﴿ وبعهدِ الله أَوفوا ﴾[الأنعام : ١٥٢] .

(١٧) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٦٥٦) برقم (٢٤٩٣) ، وقال : ((هذا حديث حسن غريب)) .

قال الطبري في تفسيره (٥/ ٣٩٣) : ((وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا ، وإيفاء ذلك : أن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم وأن يعملوا بكتابه وسُنة رسوله ﷺ،وذلك هو الوفاء بعهد الله)).

وقال الله تعالى : ﴿ وأَوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾[الإسراء : ٣٤] .

وهذا أمرٌ إلهي بإيفاء العهد والالتزام به وعدم نقضه ، واللهُ تعالى سيسأل ناقضَ العهد عن فِعلته . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦) : ((أي الذي تُعاهدون عليه الناس ، والعقود التي تعاملونهم بها ، فإن العهد والعقد كل منهما يُسأل صاحبه عنه)) اهـ .

ونقضُ العهد خصلةٌ من النفاق ينبغي تجنبها والابتعاد عنها ، فهي تعكس نفسيةً مريضة غارقة في إثمها وسوء طباعها . وقد ذكر النبيُّ ﷺ من صفات المنافِق : ((إذا عَاهَد غَدَر))[18].

فخيانةُ العهد مؤشر على سوء النية ، وسوء التصرف ، وتدل على قلب خبيث عامر بالحقد وعدمِ احترام المواثيق . وهذه الصفات لا يمكن أن تتوفر في المؤمن ، لأن المؤمن باطنه وظاهره ، كلاهما خيرٌ ولا يتعارضان .

وقال الله تعالى فاضحاً خيانة اليهود ناقضي العهود : ﴿ أَوَ كلما عاهَدوا عهداً نبذه فريقٌ مِنهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾[البقرة : ١٠٠] .

اليهودُ لا يلتزمون بالعهود والمواثيق ، وهذا دَيْدنهم على مر العصور . فهم يعتقدون أن التزامهم بالعهد سيؤثر سلباً عليهم ، ويحشرهم في الزاوية . لذلك يستخدمون العهود لكسب الوقت وتنفيذ مخططاتهم ، فهم ملتزمون بالعهد ما دام متوافقاً مع مصالحهم الآنية ، أما إذا خالف أهواءهم ومنافعهم الشخصية فسيضربون به عرض الحائط .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٧) : ((وأما العهد فإنه الميثاق الذي أعطته بنو إسرائيل ربهم ليعملن بما في التوراة مرة بعد أخرى ، ثم نقض بعضُهم ذلك مرة بعد أخرى ، فوبَّخهم _ جَلَّ ذِكْرُه _ بما كان منهم من ذلك ، وعَيَّر به أبناءهم إذ سلكوا منهاجهم في بعض ما كان _ جَلَّ ذِكْرُه _ أخذ عليهم بالإيمان به من أمر محمد ﷺ من العهد والميثاق فكفروا وجحدوا ما في التوراة من نَعْته وصفته ، فقال _ تعالى ذِكْرُه _: أو كلما عاهد اليهودُ من بني إسرائيل ربهم عهداً وأوثقوه ميثاقاً نبذه فريق منهم فتركه ونقضه ؟)) اهـ .

---

(١٨) متفق عليه . البخاري (١/ ٢١) برقم (٣٤) ، ومسلم (١/ ٧٨) برقم (٥٨) .

ثانياً : الأخلاق الذميمة

١ـ الفضول :

قال الله تعالى:﴿يا أيها الذين آمَنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم ﴾[المائدة: ١٠١].

فلا ينبغي أن يسأل المؤمنون عن أشياء لا تعنيهم ، أو يُكثِروا الأسئلة بما لا فائدة منه . فالشريعةُ جاءت كاملةً معصومة قد وضَّحها اللهُ تعالى ، وما لم يتم ذِكْره هو رحمة بالمؤمنين ، وليس نسياناً أو غفلةً من الشارع الحكيم ـ سبحانه ـ. فيجب الابتعاد عن الفضول الذي يدفع لاختراع أسئلة فاقدة للمعنى . وكلُّ سؤال لا يترتب عليه شرائع دينية أو أحكام فقهية أو مصالح الناس ، فهو مضيعة للوقت والجهد . والصمتُ أفضل من الكلام غير النافع .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رَجل : يا نبي الله ، مَن أبي ؟، قال : ((أبوك فلان)) . ونزلت ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تسألوا عن أشياء ﴾. الآية [19] .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : ((يا أيها الناس، إن الله قد افترض عليكم الحج))،فقام رَجل فقال: أكل عام يا رسول الله ؟، فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات ، قال : ((لو قلتُ : نعم ، لوجبت ، ولو وجبت ما قمتم بها ، ذروني ما تُركتم ، فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم)) . وذَكر أن هذه الآية التي في المائدة نزلت في ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم ﴾ [20] .

وهذا الفضول الذي قاد إلى السؤال لم يكن في محله . فالنبي ﷺ يُوضِّح الأمورَ التي بحاجة إلى توضيح ويُفصِّلها ، وإذا سكت عن أمرٍ ما فلا يَسكت جهلاً أو اعتباطاً ، بل لحكمة التيسير وعدم التشديد على أُمَّته . لكن البعض يأبى إلا أن يتحرى الأسئلة بحثاً عن التشديد . وهذا حشرٌ للنفس الإنسانية في الزاوية ودفعها إلى الحرج والمشقة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٩/ ١٠١) : ((وأما قوله ﷺ :(لو قلت : نعم، لوجبت) ففيه دليل للمذهب الصحيح أنه ﷺ كان له أن يجتهد في الأحكام، ولا يُشترَط في

---

(١٩) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٦٦٠) برقم (٦٨٦٥) ، ومسلم (٤/ ١٨٣٢) برقم (٢٣٥٩).

(٢٠) رواه ابن حبان (٩/ ١٨) برقم (٣٧٠٤) واللفظ له ، ومسلم (٢/ ٩٧٥) برقم (١٣٣٧) .

حُكمه أن يكون بوحي . وقيل : يُشترَط ، وهذا القائل يجيب عن هذا الحديث بأنه لعله أُوحي إليه ذلك ، والله أعلم . قوله ﷺ : (ذروني ما تُركتكم) دليل على أن الأصل عدم الوجوب ، وأنه لا حُكم قبل ورود الشرع ، وهذا هو الصحيح عند محققي الأصوليين)) اهـ .

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ : أن النبي ﷺ قال : ((إن أعظم المسلمين جُرماً مَن سأل عن شيء لم يُحرَّم فَحُرِّم من أجل مسألته))[21] .

لذلك فالقضيةُ ليست سهلةً . فالمسلمُ الذي يتحرى الأسئلة التي لم تقع ، ويبحث عن القضايا المسكوت عنها ، هو في دائرة الخطر ، فقد يسأل عن شيء لم يُحرَّم فيأتي التحريمُ بسبب سؤاله ، فيكون قد ضيَّق على نفسه وعلى المسلمين ، فيكون الأعظم جُرماً لأنه ارتكب جريمة التشديد على نفسه والآخرين . وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٦٢) : ((وقد استمر جماعة من السلف على كراهة السؤال عما لم يقع، لكن عمل الأكثر على خلافه، فلا يُحصى ما فرَّعه الفقهاء من المسائل قبل وقوعها)).

٢ـ الاختيال والفخر :

قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يُحِبُّ مَن كان مُختالاً فخوراً ﴾[النساء : ٣٦] .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٥٦) : ((أي مختالاً في نفسه ، مُعْجَباً متكبراً فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم ، فهو في نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض)) اهـ .

وهذه النوعية من البشر موجودون في كل زمان ومكان ، فالواحد يكون حجمُه الحقيقي كالذبابة لكنه ينفخ نفسَه بالباطل فيعتقد في قرارة نفسه أنه صار أسداً هصوراً . وفي واقع الأمر إنه عبدٌ يرتدي قناعَ السَّيد فيَخدع ذاته ، لكن حيلته لا تنطلي على الآخرين لأنهم يعرفون حجمَه الحقيقي . لكنَّ القوة الحقيقية تتجلى في التواضع ، والسير بهدوء وتأمُّل في مخلوقات الله تعالى وعظيم صنعه ، واستحضار عَظَمة الفضل الإلهي الذي يغرق فيه العبادُ . ومن أدرك نعمَ الله فلن يتكبر على خلق الله . أما الاختيال فهو مظهر سلبي ينطلق من جوهر فارغ يعتمد على الشكلانية بسبب المضمون الخاوي .

واللهُ تعالى قد حجب محبته ورضاه عن المختال الفخور ، وهذا يشير إلى خطورة الاختيال

(٢١) متفق عليه . البخاري (٦/٢٦٥٨) برقم (٦٨٥٩) ، ومسلم (٤/ ١٨٣١) برقم (٢٣٥٨) .

والفخر ، لأنهما صفتان _ إذا اجتمعتا _ في إنسان ، فإنه سيتحول إلى شخص مكروه هائم على وجهه دون بوصلة . ومن الأصناف الذين يبغضهم اللهُ تعالى : ((المختال الفخور))(22) .

٣_ الاستكبار :

قال الله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المستكبِرين ﴾ [النحل : ٢٣] .

اللهُ تعالى يُبغِض المستكبِرين ، فلا يمدحهم ولا يُثيبهم . والاستكبار قد يكون بمعنى رفض عبادة الله تعالى والاستكبار على التوحيد ، وقد يكون بمعنى احتقار الناس ورفض الحق . وهذه الخصلة الذميمة مرجعها إلى الخواء الروحي ، والفراغ الأخلاقي ، والعبثية الحياتية .

وعن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال: قال النبي ﷺ : ((تحاجت الجنةُ والنارُ ، فقالت النار : أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم . قال الله _ تبارك وتعالى _ للجنة : أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أُعذِّب بك من أشاء من عبادي))(23) .

النارُ مأوى المتكبرين والمتغطرسين الذين يتكبرون على عبادة الله تعالى أو يتكبرون على الناس ويحتقرون الحقَّ، وهذا جزاءُ أفعالهم الشريرة وتعظيمهم لأنفسهم بالباطل. أما الجنةُ فهي مأوى المتواضعين والضعفاء الذين إذا حَضروا لم يُذكَروا، وإذا غابوا لم يُفقَدوا، فلا أحد يعيرهم اهتماماً. وفي فتح الباري (١٣/ ٤٣٦) : ((قال ابن بطال عن المهلب : يجوز أن يكون هذا الخصام حقيقةً بأن يخلق الله فيهما حياةً وفهماً وكلاماً ، واللهُ قادر على كل شيء ، ويجوز أن يكون هذا مجازاً)) اهـ . وقد قال النبي ﷺ : ((يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّر في صُوَر الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان))(24) .

فهؤلاء المتكبرون الذين كانوا ينظرون إلى أنفسهم كعظماء فوق مستوى البشر يُحشَرون كصغار النمل في صورة الرجال عقاباً لهم ، وجزاءً على تكبرهم ، فيُصابون بالذل والخزي والعار .

وقال الله تعالى : ﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾[ص : ٧٤] .

---

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً (٢/ ٩٨) برقم (٢٤٤٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢٣) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٨٣٦) برقم (٤٥٦٩) ، ومسلم (٤/ ٢١٨٦) برقم (٢٨٤٦) .

(٢٤) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٦٥٥) برقم (٢٤٩٢) وصححه .

فإبليس هو إمامُ المستكبِرين ، وهو الذي سَنَّ الاستكبار ، إذ إنه رفض السجود لآدم ﷺ تكبراً وتعظيماً لنفسه . فقد اعتقد أن النار التي خُلق منها أفضل وأشرف من الطين الذي خُلق منه آدم . والقضيةُ ليست طيناً وناراً ، إنها تنفيذ للأمر الإلهي ، وأي استكبار على أمر الله تعالى يعني الطرد من رحمته _ سبحانه _ . فالاستكبارُ عاقبته وخيمة ، لأنه نوع من تحدِّي الخالق تعالى ، فاللهُ وحده هو المتَّصف بالتكبُّر ، فمن أسمائه تعالى المتكبِّر ، وهو اسمٌ جليل مُنَزَّه عن كل نقصٍ وعيبٍ . واستكبارُ البشر هو طريق الجحيم ، أما التواضع واللين فطريقُ الجنة . والإنسانُ حر في اختياره ، ويتحمل مسؤوليةَ هذا الاختيار .

وعن حارثة بن وهب الخزاعي _ رضي الله عنه_ قال : سمعتُ النبي ﷺ يقول : ((ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ ، كل ضعيف متضعِّف ، لو أقسم على الله لأبرَّه . ألا أخبركم بأهل النار ، كل عُتُل جواظ مستكبر))[25] .

فأهلُ الجنة هم الضعفاء الذين سُحقوا في الحياة الدنيا ، لأنهم لا يَملكون المالَ أو الجاه أو السُّلطة ، ويوم القيامة يأخذون تعويضاً عن حياتهم الدنيوية البائسة . وهؤلاء الضعفاء لو أقسمَ أحدُهم على الله تعالى لأبرَّه ، أي إن الله تعالى يحقِّق ما حلف به هذا الضعيف لما له من المكانة الرفيعة في السماء رغم مكانته الدونية في الأرض.أمَّا أهلُ النار فهُم الجفاة المتكبرون الذين لا هَمَّ لهم سوى إشباع بطونهم وفروجهم . فهُم يحتقرون أهلَ الحق ، وينظرون إلى أنفسهم على أنهم صفوة المجتمع ، وأصحاب المكانة السامية ، أمَّا باقي الناس فمجرد رعاع وعبيد . وهذه الفئةُ الضالة التي تظن نفسه عظيمة ، هي في واقع الأمر حقيرة الشأن ، لا وزن لها ، مهما حَصلت على مدح المنافقين ، وإعجاب اللاهثين وراء الدنيا .

والمتكبرُ مثل شخص واقف على قمة جبل يرى الناسَ صغاراً ، ويراه الناس أكثر ضآلةً .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٨٧و١٨٨):((أما العتل ... فهو الجافي الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل : الجافي الفظ الغليظ ، وأما الجواظ بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة فهو الجموع المنوع، وقيل : كثير اللحم المختال فى مِشيته، وقيل: القصير البطين ، وقيل : الفاخر ... وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكِبْر وهو بطر الحق وغمط الناس)) .

---

(٢٥) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨٧٠) برقم (٤٦٣٤) ، ومسلم (٤/ ٢١٩٠) برقم (٢٨٥٣).

٤ـ الغرور :

قال الله تعالى : ﴿ وما الحياةُ الدنيا إلا مَتاعُ الغُرور ﴾[آل عمران : ١٨٥] .

فالحياةُ الدنيا وزُخرفها هي خديعة بصرية ووهمٌ مُخادِع لا حقيقة له عند التمحيص والاختبار. فالشهواتُ الدنيوية هي متاعٌ زائل ذاهب إلى الفناء . لكن زخارف الدنيا تغر الإنسانَ وتُمنِّيه بالبقاء ، ولكن لا مجال للبقاء .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن موضع سَوْط في الجنة لخير من الدنيا وما فيها . اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فمن زُحْزِح عن النار وأُدخِل الجنةَ فقد فاز وما الحياةُ الدنيا إلا مَتاعُ الغُرور ﴾))(26) .

وذلك لأن الجنة باقية ، وفيها الخلود بلا موت . أما الدنيا فزائلة مهما طالت . لذلك قيل : لو كانت الآخرة من حديد ، والدنيا من ذَهب ، لاختار العاقلُ الآخرةَ لأن الحديد الباقي خيرٌ من الذهب الفاني ، فما بالك والجنةُ هي النعيم السرمدي والدنيا هي الوهم اللحظي ؟! .

وقال الله تعالى : ﴿ وما يَعِدهم الشيطانُ إلا غُروراً ﴾[النساء : ١٢٠] .

فالشيطانُ يعد أولياءه بالنصرة ، وعدم التخلي عنهم ، ويُزيِّن لهم المعاصي حتى يغرقوا فيها أكثر فأكثر ، ويقنعهم بأن يستمروا في ارتكاب الذنوب ويتوبوا بعد ذلك ضمن خطة التسويف ، وما علموا أن الموت قد يدهمهم فيُحرَمون من التوبة. ووعدُ الشيطان سرابٌ كاذب وغرورٌ باطل . وهذا الوعد الشيطاني المخادِع يكون بالوسوسة والخواطر القبيحة أو بلسان أولياء الشيطان .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٣٨) : ((وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويُمنِّيهم بأنهم هم الفائزون في الدينا والآخرة ، وقد كذب وافترى في ذلك)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريم ﴾[الانفطار : ٦] .

وفي الآية سؤالٌ عن سبب اغترار العبد بخالقه تعالى، حتى اقترف المعاصي ، وغرق في الذنوب، وقابلَ الإحسانَ الإلهي بالمعصية وعدم الشُّكر . فما الذي جَرَّأ الإنسانَ على اقتراف الآثام ، والاستعانة بالنعم الإلهية على معصية المنعِم سبحانه .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦١٩) : ((المعنى في هذه الآية : ما غَرَّك يا ابن آدم بربِّك الكريم ، أي العظيم ، حتى أقدمتَ على معصيته وقابلته بما لا يليق)) اهـ .

---

(٢٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٧) برقم (٣١٧٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وهذا تهديد وتوبيخٌ للإنسان ، فاللهُ تعالى الكريم صاحب النعم الجزيلة والمواهب الكثيرة لا يُقابَل إحسانه بالمعاصي واقتراف الآثام . واللهُ تعالى لا يحتاج أحداً يُحسِن إليه لأنه الغني عن العالَمين ، فطاعةُ العبد لنفسه، ومعصيته ترتد سلباً عليه . واللهُ تعالى لا يمكن نفعه ولا يمكن ضرُّه.

وفي الدر المنثور للسيوطي (٨/ ٤٣٩) : ((أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية ﴿ يا أيها الإنسان ما غَرَّكَ بربِّكَ الكريم ﴾ ، فقال : غَرَّه _ واللهِ _ جَهْلُه)) .

٥_ الكذب :

قال الله تعالى : ﴿ إنما يَفتري الكذبَ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله ﴾[النحل : ١٠٥] .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٧٥) : ((إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس)) اهـ.

فالكذبُ خصلةٌ مذمومة ، ويكون إثمها أعظم حينما تُنسَب الأكاذيب والافتراءات إلى الخالق تعالى وأنبيائه وملائكته ، لأن هذا طعن في الدِّين السماوي ، وتشكيك الناس به ، ومحاولة صرفهم عنه . والكافرُ يُروِّج الأكاذيبَ اعتقاداً منه أنها الطريق الأكثر فاعلية لإبعاد الناس عن الصراط المستقيم ، وبث الشبهات في نفوسهم ، طمعاً في انحرافهم عن المنهاج القويم . لكن الكذب سيرتد وبالاً على صاحبه ، فالثلوجُ مهما تراكمت لا بد أن تذوب أمام شمس الحقيقة .

وهذه الآيةُ ردٌّ باهر على الكافرين الذين طعنوا في النبي ﷺ ونسبوه إلى الافتراء. فالنبي ﷺ هو رأس الصدق في الجاهلية والإسلام ، وقد كان يُلقَّب بالصادق الأمين قبل بعثته ، فما كان ليترك الكذبَ على الناس في الجاهلية ثم يكذب على الله تعالى . وهذه الحقيقة تنبَّه لها قيصر الروم حينما زاره أبو سفيان بن حرب كما عند البخاري (١٦٥٧/٤) ومسلم (٣/ ١٣٩٣) .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال: ((مَن كذب عليَّ مُتعمِّداً فليتبوَّأ مقعده من النار))[27] .

وقال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يَهدي من هو كاذبٌ كفَّار ﴾[الزُّمر : ٣] .

إن الله تعالى يحجب هدايته عن الكاذب الكفَّار، لأن الكذب جعل من قلبه بيئةً موبوءة قذرة ، ونورُ الله تعالى لا يهبط في بيئة غير نظيفة .

---

(٢٧) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٢٩٠) برقم (٥٨٤٤) ، ومسلم (١/ ١٠) برقم (٣) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٩): ((أي لا يرشد إلى الهداية من قَصْدُه الكذب والافتراء على الله تعالى، وقلبه كافر بآياته وحُجحه وبراهينه)) اهـ.

والكذبُ حينما يلتصق بالإنسان يصبح صفةً لازمة له ، وهويةً تدل عليه . وهو خُلق ذميم يعكس انهيارَ القيم الإنسانية ، واضطرابَ الشخصية ، وضياعَ المعنى في الحياة الاجتماعية .

٦ـ سوء الظن :

قال الله تعالى : ﴿ يظنون بالله غيرَ الحق ظنَّ الجاهلية ﴾[آل عمران : ١٥٤] .

وسوءُ الظن بالله تعالى يشير إلى نفسية مريضة مفتقدة للهداية الربانية . وقد كان أهل الجاهلية غارقين في سوء الظن ، إذ إنهم كانوا يظنون أن أمر النبي ﷺ باطل ، وأنه لا يُنصَر ، ولا تقوم للإسلام قائمة . وهذا الظن السيئ قضى عليهم .

وعن أبي طلحة قال : ((غشينا النعاس ونحن في مصافنا ـ أي مواضعنا ـ يوم بدر ، فكنتُ فيمن غشيه النعاس يومئذ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه، والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هَم إلا أنفسهم ، أجبن قوم وأذله للحق ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، أهل شك وريبة في أمر الله))[28] .

فسوءُ الظن هو صفة أصحاب الشكوك والقلوبِ المريضة ، العاجزين عن الثبات في ساعة الشدة لأنهم يفتقدون إلى الثقة بالله تعالى وقدرتِه المطْلقة . وعلى المرء أن يحرص على حسن الظن بالله تعالى في حياته وعند موته ، ويرجو الرحمةَ الإلهية ، ويثق بالمغفرة الربانية .

وعن أبي هريرة ـرضي الله عنهـ أن رسول الله ﷺ قال:((قال الله:أنا عند ظن عبدي بي))[29].

فيجب على الإنسان أن يُحسِن الظنَّ بالله تعالى ، فيخشى ذنوبه ، ويرجو عفوَ خالقه تعالى ، ويكون متأكداً من سعة رحمة الله تعالى ، وأنها أكبر من كل الآثام .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٢) : ((قال القاضي : قيل : معناه بالغفران له إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية ، وقيل : المراد به الرجاء وتأميل العفو ، وهذا أصح)) اهـ .

وقال الله تعالى:﴿يا أيها الذين آمَنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾[الحجرات: ١٢].

---

(٢٨) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ١٤٥) برقم (٧١٨٠) .

(٢٩) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٧٢٥) برقم (٧٠٦٦) ، ومسلم (٤/ ٢٠٩٩) برقم (٢٦٧٥) .

ينبغي الابتعاد عن سوء الظن وإلقاء التهم بدون أدلة ، فبعض الظن إثم . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٩٣) : ((لا تقربوا كثيراً من الظن بالمؤمنين ، وذلك أن تظنوا بهم سوءاً ، فإن الظان غير محق . وقال _ جل ثناؤه _ : ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن ﴾ ، ولم يقل : الظن كله ، إذ كان قد أذن للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث))[30] . هذا يشير إلى ضرورة الابتعاد عن ظن السوء، وترتيبِ أحكام بدون أدلة مُعتبَرة .

وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧٦) : ((ومعنى قوله " أكذب الحديث " ، أي أكذب في الحديث من غيره ، لأن الصدق والكذب يوصف بهما القول لا الظن)) اهـ .

٧_ التجسس :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَجَسَّسوا ﴾[الحجرات : ١٢] .

وهذا نهي عن تتبُّع عورات المسلمين والبحثِ عن أمورهم الخفية من أجل كشفها ومعرفة تفاصيلها . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٩٣) : ((ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره يبتغي بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذُموا ، لا على ما لا تعلمونه من سرائره)) اهـ .

وعن عبد الرحمن بن عوف : أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ بالمدينة فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت ، فانطلقوا يؤمونه حتى إذا دنوا منه إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ، فقال عمر _ رضي الله عنه _ وأخذ بيد عبد الرحمن : أتدري بيت من هذا ؟ ، قال : لا ، قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب ، فما ترى ؟ ، فقال عبد الرحمن: أرى قد أتينا ما نهى الله عنه، نهانا الله _ عز وجل _ فقال : ﴿ ولا تَجَسَّسوا ﴾ فقد تجسَّسنا ، فانصرف عمر عنهم وتركهم [31] .

وهكذا نرى عدم جواز التجسس، وتتبع أسرار الناس، ومحاولة معرفة ما يحدث خلف الأبواب المغلقة. وحتى لو كانوا غارقين في الذنوب أو يمارسون المحرَّمات في بيوتهم ، فلا يجوز كشف

(٣٠) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٢٥٣) برقم (٥٧١٧) ، ومسلم (٤/ ١٩٨٥) برقم (٢٥٦٣) .

(٣١) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤١٩) برقم (٨١٣٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

أسرارهم والاطلاع عليهم ما داموا لم يُجاهروا بالمعصية . وبما أنهم مستتِرون في بيوتهم فلا يحق لأحد أن يكشف أسرارَهم ويحاسبهم على معاصيهم ، وليترك أمرَهم لله تعالى .

وعن زيد بن وهب قال : أتى رَجلٌ عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ فقال : هل لك في الوليد بن عقبة ولحيته تقطر خمراً ؟ ، فقال : ((إن رسول الله ﷺ نهانا عن التجسس ، إن يظهر لنا نأخذه))(32) .

ونحن نرى وضوح منهجية الصحابة _ رضوان الله عليهم _ في منع التجسس ، وعدم ملاحقة الناس لضبطهم والوقوف على أفعالهم . فالحُكمُ إنما يكون وفق الظاهر دون تفتيش في النوايا ، ودون اقتحام حُرمات الناس في بيوتهم أو التجسس عليهم لكشف أعمالهم .

٨_ السخرية :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ من قوم ﴾[الحجرات : ١١] .

وقد نهى القرآنُ عن السخرية ، واحتقارِ الناس ، والنظرِ إليهم نظرةً دونية ، واعتبارهم بشراً من الدرجة الثانية . وفي الدر المنثور للسيوطي (٧/ ٥٦٣) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل _ رضي الله عنه _ في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ من قوم ﴾ ، قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزأوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهيرة وسالم مولى أبي حذيفة)) اهـ .

وقد يكون المسخور منه أعظم عند الله تعالى من الساخر .

ففي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٤): عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرَّه)) .

فقد يكون المرءُ لا يُهتَم لأمره ، يحتقره الناسُ ولا يُعيرونه اهتماماً ، وينظرون إليه نظرةً دونية ، لو حلف على شيء لحقَّقه اللهُ تعالى إكراماً لهذا الشخص الذي له مكانة عظيمة عند الله تعالى رغم مكانته الدونية عند الناس .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٧٤و١٧٥) : ((الأشعث : الملبَّد الشَّعر المغبر ... ومدفوع بالأبواب : أي لا قَدْر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه

---

(٣٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤١٨) برقم (٨١٣٥) وصححه ، ورواه أبو داود في سُننه (٢/ ٦٨٩)برقم(٤٨٩٠)دون ذكر الوليد بن عقبة،وصححه النووي في رياض الصالحين (١/ ٢٠١٢).

عنهم احتقاراً له . لو أقسم على الله لأبره ، أي : لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكراماً له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه ، وهذا لعِظَم منزلته عند الله تعالى ، وإن كان حقيراً عند الناس . وقيل : معنى القَسَم هنا الدعاء ، وإبراره إجابته ، والله أعلم)) اهـ.

٩_ التنابز بالألقاب :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَنَابَزوا بالألقاب ﴾[الحجرات : ١١] .

فلا يجوز مناداة الأشخاص بالألقاب التي يكرهونها ، وتُسبِّب لهم إحراجاً وألماً . فهذا يؤدي إلى جرح أحاسيسهم ، وإضعاف ثقتهم بأنفسهم ، وانتشار مشاعر الحقد وحب الانتقام بين الناس ، مما يصنع مجتمع الكراهية وانعدام الانسجام . ويجوز مناداتهم بالألقاب التي يحبونها ، والتي تَحمل معانٍ طيبة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٧) : ((إن النبز مختص بلقب السوء عُرفاً)) اهـ .

وعن أبي جبيرة بن الضحاك قال: كانت الألقاب في الجاهلية، فدعا النبيُّ ﷺ رَجلاً منهم بلقبه، فقيل له:يا رسول الله ، إنه يكرهه ، فأنزل الله _ عز وجل _: ﴿ ولا تَنَابَزوا بالألقاب ﴾ (33).

١٠_ البخل :

قال الله تعالى:﴿ ولا يحسبنَّ الذين يَبْخلون بما آتاهم اللهُ من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

إن جمع البخيل للمال وعدم تأدية حق الله فيه عمليةٌ خاسرة لا تعود بالنفع . بل سيكون عليه مضرة في دِينه ودنياه . فهو يجمعه لورثته حارماً نفسه ، ثم يوم القيامة يُحاسَب عن ماله ، من أين اكتسبه وأين أنفقه . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٣٠) : ((قال الواحدي : أجمع المفسرون على أنها نزلت في مانعي الزكاة ، وفي صحة هذا النقل نظر . فقد قيل : إنها نزلت في اليهود الذين كتموا صفة محمد، قاله ابن جريج واختاره الزجاج ، وقيل : فيمن يبخل بالنفقة في الجهاد ، وقيل : على العيال وذي الرحم المحتاج ، نعم الأول هو الراجح وإليه أشار البخاري)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((مثل البخيل والمتصدق مثل رَجلين

---

(٣٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٣) برقم (٣٧٢٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

عليهما جُبَّتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما ، فكلما هَمَّ المتصدق بصدقته اتسعت عليه حتى تعفيَ أثره ، وكلما هَمَّ البخيل بالصدقة انقبضت كل حلقة إلى صاحبتها وتقلصت عليه وانضمت يداه إلى تراقيه))(34) .

الكريمُ المتصدق إذا همَّ بالصدقة انشرحت نفسُه، وامتدت يدُه بالعطاء دون تردد. أما البخيل إذا همَّ بالصدقة فإن ذاته تنقبض ويتضايق نفسياً ، ولا تطاوعه يداه على الإنفاق . وهنا تبرز أهمية انتصار المرء على هواه وشهواته وطموحاته، وصموده في وجه غريزة حب التملك ، وعشقِ المال .

١١ـ المن والأذى في الصدقات :

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى ﴾[البقرة : ٢٦٤] .

فالمن والأذى يبطلان الصدقاتِ ، فلا يقبلها اللهُ تعالى عقوبةً للعبد على سوء أخلاقه ، وعدم قيامه بحق العبادة ، واعتدائه على الناس بدون وجه حق ، وإيذائه لمشاعرهم ، وعدم احترام الأخوة الإنسانية .

قال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٩٥) : ((قال جمهور العلماء في هذه الآية : إن الصدقة التي يعلم اللهُ من صاحبها أنه يمن أو يؤذي بها فإنها لا تُقبَل)) اهـ .

وقال ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٤١٥) : ((الْمَنُّ ههنا أَن تَمُنَّ بما أَعطيت وتعتدَّ به كأَنك إِنما تقصد به الاعتداد ، والأَذى أَن تُوَبِّخَ المعطَى)) اهـ .

١٢ـ الإسراف :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تُسرِفوا إنه لا يُحِبُّ المسرِفين ﴾[الأنعام : ١٤١] .

فالإسرافُ مذمومٌ لأن فيه مجاوزة الحد وتطرُّفاً غير محسوب ، كما أن له سلبيات كثيرة في المجتمع ، ويؤثر بشكل كارثي على اقتصاديات الدول ، وميزانيات الأُسر ، ودخل الأفراد . وهذا كله يقود إلى مأزق مالي خطير يُعرِّض الأفرادَ والجماعات للاضطراب والانحراف .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٥٣) : ((والإسراف مجاوزة الحد في كل فعل أو قول ، وهو في الإنفاق أشهر)) .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٣٦٩) : ((وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن أبي جريج قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وجد نخلاً ، فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا

---

(٣٤) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٦٨) برقم (٢٧٦٠) ، ومسلم (٢/ ٧٠٨) برقم (١٠٢١) .

أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فأنزل الله : ﴿ ولا تُسرِفوا إنه لا يُحِبُّ المسرِفين ﴾)) اهـ .

وهذا العملُ يُعتبَر تطرفاً وإسرافاً ، ولا يمت للكرم بِصِلة . فالكرمُ لا بد أن يكون محسوباً وفق منهجية معتدلة . وفي الواقع إن العرب في الجاهلية كانوا في أحيان كثيرة يتجاوزون حدَّ الكرم ، ويَدخلون في الإسراف الهستيري ، وذلك لانتشار الصِّيت بين القبائل ، والحصول على مدح الناس وثنائهم ، والافتخار بين العرب .

١٣_ التبذير :

قال الله تعالى : ﴿ إن المبذِّرين كانوا إخوانَ الشياطين ﴾[الإسراء : ٢٧] .

فالذين يُضيِّعون أموالهم في معصية الله تعالى ، وينفقونها في الضلال والآثام ، هم مُلازِمون للشياطين متتبِّعون أثرهم ، لذلك كانوا إخواناً لهم . فالعبادُ مُسْتَخْلَفون في أموالهم ، فإذا أساؤوا التصرف به ، فهم بذلك يُوردون أنفسهم المهالك .

والتبذيرُ هو إنفاق المال في وجهٍ غير شرعي ، وبذل المال في مجالٍ مذموم .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ : أنه سئل عن معنى التبذير ، فقال : ((إنفاق المال في غير حقه))[35] .

١٤_ البطر :

قال الله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بَطَراً ﴾[الأنفال : ٤٧] .

وهذه الآيةُ تنبيه للمؤمنين على ضرورة الإخلاص لله تعالى في القول والفعل كي يُخالفوا المشركين الذين ينخر أعمالَهم الشِّركُ والرياءُ والباطل وكراهية ظهور الحق . والبطرُ هو الطغيان في النعمة ورفض الحق . وهذه الخصلة المذمومة تعمي الإنسانَ ، فلا يعود قادراً على رؤية الأشياء، وتمييز الغث من السمين. وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه_ أن رسول الله ﷺ قال : ((لا ينظر اللهُ يوم القيامة إلى مَن جَرَّ إزاره بَطَراً))[36] .

---

(٣٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٣) برقم (٣٣٧٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٣٦) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢١٨٢) برقم (٥٤٥١) ، ومسلم (٣/ ١٦٥٣) برقم (٢٠٨٧).

فالذي يقوم بهذا العمل لم يعرف حقَّ الله عليه ، فهو عائش في الخيلاء والرياء والتكبر على الحق ، فيجر إزاره بشكل يحمل معاني الاستكبار والغرور ، وكل هذه الخصال مجتمعة تجعل من الفرد عُرضةً للغضب الإلهي ، واللهُ تعالى لا يَنظر إلى هذا المتكبر إهانةً له وتحقيراً لشأنه .

ولو نظر المرءُ إلى نفسه لأدرك أنه كائن ضعيف محدود القدرات سائر إلى الموت_ رغم أنفه_ . ومن كانت هذه حاله ، فلا معنى للبطر والغرور .

١٥_ الخيانة :

قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب كلَّ خوَّان كَفُور ﴾[الحج : ٣٨] .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٢) : ((أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق ، لا يفي بما قال ، والكفرُ الجحد للنعم فلا يعترف بها)) اهـ .

والخيانةُ مرتعها وخيم ، وهي لا تصدر إلا عن قلب مريض . كما أنها تدل على نفسية خبيثة تعتمد على التحايلِ والرَّوغانِ وخرقِ العهود وتغييرِ الكلام لتحقيق مصلحة آنية فانية. والخيانةُ هي البطانة البائسة . وقد كان من دعاء النبي ﷺ: ((أعوذ بك من الخيانة فإنها بِئْست البِطانة))[37] .

والخيانةُ متعارضة تماماً مع الإيمان ، فهي تطعن فيه ، ولا يمكن أن تنسجم مع خُلق المسلم بأية حال من الأحوال ، لأن المسلم شخصية متوازنة ظاهرها خيرٌ كباطنها دون تناقض ، أما الخيانة فتحمل في طياتها نقض العهود سراً ، وطعن الآخرين في ظهورهم ، وتضييع الأمانة ، وهذا يتنافى مع المنهجية الإسلامية في التعامل . فالمؤمن قد توجد عنده بعض الأخلاق السيئة ، لكن الخيانة لا يمكن أن تكون ضمن دائرة أخلاقه . فعن سعد بن أبي وقاص _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((المؤمن يُطبَع على كل خَلَّة غير الخيانة والكذب))[38] .

كما أن المنهجية الإسلامية ترفض مقابلةَ الخيانة بالخيانة، فالنارُ لا تُطفئ النارَ ، إنما يطفئها الماء. ولا ينبغي مقابلة الأخلاق السيئة بمثلها، لأن المؤمن هو منارة الحق والفضيلة ، وناشر

---

(٣٧) رواه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٣٠٤) برقم (١٠٢٩) .

(٣٨) رواه البزار (٣/ ٣٤٠) برقم (١١٣٩). وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٠٨) : ((وسنده قوي . وذكر الدارقطني في العلل أن الأشبه أنه موقوف)) اهـ .

الأخلاق الكريمة. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا تخن من خانك))[39].

١٦ـ المكر :

قال الله تعالى : ﴿ وإذ يَمْكر بِكَ الذين كفروا ﴾[الأنفال : ٣٠] .

ولا يخفى أن أعداء الحق في كل زمان ومكان ينتهجون أسلوبَ المكر لوأد الدعوة ، وإغلاقِ طريقها ، وحجبِ نور الحقيقة عن الناس . فهم يُخطِّطون ليلاً نهاراً لتثبيت سُلطتهم الظلامية ، وإبقاء الناس مُغمَضي الأعين كي تسهل السيطرة عليهم وتدجين المجتمع. والمشركون ـ بسبب عجزهم عن مواجهة الدعوة الإسلامية بالْحُجَّة والبرهان ـ بنوا مشروعَهم الظلامي على المكر بالنبي ﷺ ، والتخطيطِ الخفي لإبادة الإسلام وأهلِه .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: في قوله ﴿ وإذ يَمْكر بِكَ الذين كفروا لِيُثْبِتوك ﴾ ، قال : ((تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه، وقال بعضهم : بل أخرِجوه ، فأطلع اللهُ ـ عز وجل ـ نَبِيَّه على ذلك ، فبات علي على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا علياً ردَّ اللهُ مكرهم، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟، قال : لا أدري ، فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم،فصعدوا في الجبل فمروا بالغار،فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال))[40].

إن بنية المكر في عقلية المشركين الجاهلية تشير إلى تخطيط مسبق لاستئصال الدعوة الإسلامية ، وهذه الخطط القبيحة التي تُدبَّر ليلاً هدفها تكريس الوثنية ، وطمس التوحيد ، وذلك لكي يحافظ السادةُ على نفوذهم ومناصبهم وأرباحهم المادية التي يحصلون عليها نتيجة المتاجرة بالدِّين الوثني .

---

(٣٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣) برقم (٢٢٩٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤٠) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٤٨) برقم (٣٢٥١) . وحسَّنه ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٨١) ، ووافقه الحافظ في الفتح (٧/ ٢٣٦) .

وقد كان مكرُ المشركين شديداً للغاية من أجل إنهاء الوجود الإسلامي ، لكن الله تعالى حافظٌ دينه ورسوله ﷺ . وقد عبَّر القرآنُ عن شدة مكر أعداء الإسلام : ﴿ وقد مَكَروا مَكْرَهم وعندَ الله مَكْرُهم وإن كان مكرُهم لِتزولَ منه الجبالُ ﴾[إبراهيم : ٤٦] .

وعن ابن مسعود_رضي الله عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ : ((المكر والخداع في النار))[41].

فالمكرُ والخداعُ مقترنان ، وكلاهما في النار ، لأنهما صفتان قبيحتان لهما آثار كارثية على المجتمع الإنساني ، حيث يُحوِّلان البيئةَ الاجتماعية إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف ، مما يقضي على الاستقرار البشري ، ويجعل من الأرض بيئةً غير أخلاقية ، وهذا يقود إلى اختلال الأنظمة والموازين ، فتتعطل الحياةُ ، وتفقد القيمُ الإنسانية معناها ، ويختل نظامُ العيش ، فيخسر الفردُ إنسانيته ، وتؤول الحياةُ المعاشة إلى فوضى عارمة ، الكل فيها خاسر بسبب انتحار المعاني الإنسانية النبيلة وفقدان الثقة بين بني البشر .

١٧_ الحسد :

قال الله تعالى : ﴿ أم يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله ﴾[النساء : ٥٤] .

والحسدُ هو تمنِّي زوال النعمة عن صاحبها . وقد قال أحد الحكماء : ما رأيتُ أعدل من الحسد ، بدأ بصاحبه فقضى عليه . وهذه الآية تتحدث عن اليهود واتصافهم بالحسد، فقد حسدوا النبيَّ ﷺ والعربَ على نعمة النُّبوة . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٨٣) : ((يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه اللهُ من النُّبوة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له ، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل)) اهـ .

فظهورُ النبي ﷺ من العرب ملأ صدورَ اليهود غيظاً وحقداً ، فتمنوا زوالَ نعمة النُّبوة عن محمد ﷺ وقومه . وهذا الحسدُ دفعهم إلى تكذيب الدعوة الإسلامية ، وعدم تصديق القرآن ، واكتفائهم بالتوراة وموسى ﷺ _ على حد زعمهم _ . مع أنهم _ في حقيقة الأمر _ يسيرون ضد موسى ﷺ والكتابِ الذي جاء به .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((الحسدُ يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطبَ))[42] .

---

(٤١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٣٦٩) برقم (٥٥٥٩) .

(٤٢)رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد(٢/ ٢٢٧).وحسَّنه العراقي في تخريج الإحياء(١/ ٣١).

فالحسدُ يقضي على الحسناتِ ويبيدها، فهو نارٌ مشتعلة تلتهم الأفعالَ الصالحة التي فعلها الإنسانُ . فحينما يوضع العفنُ في بيئة نظيفة فسوف يتمدد ويتكاثر حتى يسيطر على تلك البيئة. وكذلك الحسد حينما يستوطن في القلوب فإنه يأكل الحسناتِ كما تلتهم النارُ الحطبَ وتجعله أثراً إثر عَيْن. وعن الزبير بن العوام ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : ((دَبَّ إليكم داءُ الأمم : الحسد والبغضاء))[43] .

فالحسدُ والبغضاء من أمراض الأمم التي وصلت إلى المجتمع الإسلامي بفعل الاحتكاك ، ودخولِ الدنيا في القلوب ، والضعفِ الإنساني أمام مغريات الدنيا ، والتنافس على الأمور المادية ، وهذه القضايا لا يَسْلم منها مجتمع إنساني عبر التاريخ ، لأن المجتمعات هي نتاج بشري ، وتراكم معرفي إنساني ، والإنسانُ كائن ضعيف ناقص محدود القدرات والإمكانيات ، تتصارع عليه قوى الخير والشر ، وهو لا يتمتع بالعصمة ، لذلك يرتكب الأخطاء والخطايا . لكن الواجب أن يعود الفردُ إلى الحق ، ويُطهِّر نفسَه من الأمراض القلبية دون تأخير . فإن أصاب ذنباً تاب فوراً لئلا تتراكم الخطايا في القلوب ، فالإيمانُ والحسد لا يجتمعان . فعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ((لا يجتمع في جَوْفِ عبدٍ الإيمانُ والحسدُ))[44] .

وقال الله تعالى : ﴿ ومِن شرِّ حَاسِد إذا حَسَدَ ﴾[الفَلَق : ٥] .

فعلى المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى ليحميَه من شر الحاسد الذي يتمنى زوالَ النعمة ، ويتربص بالناس ، حيث يراقب أمورَهم ، ويتمنى لهم الشقاء والتعاسة ، وأن تبتعد السعادة عن حياتهم . وهذا العدو المستتر ينبغي التحصن من شره بالأوراد الشرعية . أما الاستسلام له ، واتخاذه شَمَّاعةً تُعلَّق عليها كل المصائب التي تحاصر الإنسان ، فهذا من شأنه توليد حالة مَرَضية مهووسة تضرب المجتمع ، وتشل حركته ، وتبث فيه الخوف .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال : ((لا تحاسدوا))[45] .

---

(٤٣) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٦٦٤) برقم (٢٥١٠) وصحَّحه ، ورواه البزار في مسنده عن ابن الزبير (٦/ ١٩٢) برقم (٢٢٣٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٥) : إسناده جيِّد ، ووافقه الهيثمي في المجمع (٨/ ٦٤) .

(٤٤) رواه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٦٦) برقم (٤٦٠٦) .

(٤٥) متفق عليه. البخاري (٥/ ٢٢٥٣) برقم (٥٧١٧) ، ومسلم (٤/ ١٩٨٢) برقم (٢٥٥٨).

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧١٩) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ عن النبيﷺ قال : ((العَيْنُ حَق ، ولو كان شيء سابق القَدَر سبقته العَيْنُ)) .

١٨ــ القساوة :

قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ للقاسية قلوبهم مِن ذِكْر الله ﴾[الزُّمر : ٢٢] .

فالقلبُ القاسي مثل الأرض الصخرية التي لا تمتص المطرَ ولا تُنبِت الزرعَ . فهذا القلب الغارق في قسوة الابتعاد عن الصراط المستقيم يفتقد إلى اللين واستيعابِ الحق، لذلك يرفض الحقَّ. فلا بد من تنظيف القلب من كل شوائبه كخطوة تمهيدية إذا أراد المرءُ نيل الهداية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٥) : ((فلا تلين عند ذِكْره ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم)).

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٨) : أن النبي ﷺكان يدعو : ((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع)) . وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ : أن رَجلاً شكا إلى النبي ﷺ قسوةَ قلبه ، فقال : ((امسح رأسَ اليتيم وأطعم المسكين))[46] .

فعلى المرء أن يُليِّن قلبَه حتى يتقبل الحقَّ ويستفيد منه ، لأن قسوة القلب من علامات غضب الله على العبد. فالأرضُ الجرداء لا يُنتَظر منها إنبات الشجر المثمر، وإنك لا تجني من الشوك العنبَ . وعلى المرء أن يتبع الوسائلَ العملية لمحاربة قسوة قلبه . فيمسح على رأس اليتيم ، لأن ذلك الشعور الذي يتسرب إليه يجعله لَيِّناً ذا قلب متعاطف مع الضعفاء ، يستشعر صعوباتِ حياتهم وضعفَ إمكانياتهم . وأيضاً إطعام المسكين يقود إلى تعزيز التكافل الاجتماعي ، ومخالطة أصحاب المكانية المتدنية في المجتمع، والاطلاع على مشكلاتهم وعدم قدرتهم على توفير الحاجات الأساسية . ولا شك أن هذه الأداء العملي يستأصل القسوةَ من القلب ، ويبث فيه الطمأنينة والفرح بمساعدة الآخرين وإنقاذهم . فيتحول القلبُ من نار متأججة لا تَرحم إلى واحة طاهرة ينتشر فيها اللينُ والانشراح .

***

---

(٤٦) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٨٧) برقم (٩٠٠٦) . وحسَّنه الحافظ في الفتح (١١/ ١٥١) .

الفصل العاشر

العلاقات السياسية والعامة

تمهيد

إن العلاقات السياسية بالغة الأهمية في فهم تكوين الأنظمة الاجتماعية ، والتحولاتِ الفكرية للأفراد والجماعات . فالسياسةُ هي تاريخ موجز لعلاقة السُّلطة بالفرد وعلاقة الفرد بمحيطه الإنساني ضمن فكر العلاقة بين الحاكم والمحكوم .

وقضيةُ الْحُكْم محورية في المنهج السياسي ، لأنها تشير إلى وجود السُّلطة الاعتبارية ذات السطوة ، والتي تقوم بتنظيم تفاصيل المجتمع فوق رؤية معينة . فالسياسةُ ليست اختراع أحكام في الهواء بشكل فوضوي ، إنها تراكمات فكرية ذات انعكاس بشري من أجل توليد صيغة متكاملة للعيش المتوازن بلا مُنغِّصات .

ويظهر موضوع السُّلطة في تكوين النسق المعماري للمجتمع بصورة شديدة الوضوح لا يمكن تجاهلها ، لأن السُّلطة هي المؤسسة القادرة على وضع القوانين وتطبيقها على أرض الواقع بما تملكه من مكانة روحية ومادية . ويمكن النظر إلى السُّلطة من خلال منظورَيْن : الأول _ المنظور الشمولي المتجسد على شكل دولة محكومة بنظام سياسي هرمي يتكون من رأس وقاعدة ومناطق وسيطة ، والثاني _ المنظور التفاعلي مع أرض الواقع ، وهنا تصبح ماهيةُ السُّلطة عبارة عن مؤسسة تنفيذية ذات تماس مباشر مع الوعي الإنساني الجزئي والوعي المجتمعي الكلي .

ولا يخفى أن طاعة ولي الأمر (رأس النظام الحاكم) في غير معصية ضرورية للغاية من أجل سير الحياة والحيلولةِ دون تعارض مكوِّناتها. فالقطارُ لا يمكن أن يسير إلا إذا تحركت العربةُ الأولى، وكذلك المنظومة الاجتماعية التي تبرز فيها قضايا سياسية هامة في تكوين الهوية الفردية والجمعية ، مثل الشورى والسَّلم . وتبرز _ أيضاً _ المؤامرات التي قد تأتي أفعالاً مستقلة أو ردودَ أفعال .

وكل نظام سياسي في الدنيا له موالون ومعارضون. فالموالون قد يكونون صادقين في ولائهم مخلِصين للفكرة الحاكمة وأسلوب الْحُكْم ، وقد يكون ولاؤهم مصلحياً مرتبطاً بأجندة خاصة ومنافع شخصية . وكذلك المعارضة قد تكون صادقةً طامحةً إلى التغيير وإنقاذِ البلاد والعباد ، وقد تكون ماهيةُ المعارَضة مشروعاً تجارياً استثمارياً يستقطب الأضواءَ لتحقيق مكاسب ذاتية لا علاقة لها بتاريخ الأُمة وحاضرها ومستقبلها .

١_ الحُكْم :

قال الله تعالى : ﴿ إن الله يَحْكم ما يُريد ﴾[المائدة : ١] .

إن الله يحكم في خلقه ما يريد ، ويقضي بينهم بِحُكْمه في الأمر والنهي ، فهو الحكيم الْمُنَزَّه عن النقص والخطأ والغفلة ، لذلك فإن أحكامه لا يمكن الاستدراك عليها أو تجاوزها مع مرور الزمن . فهي أحكام كاملة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٠٦) : ((يُحِل ما يشاء ويُحرِّم ما يشاء)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله لِيَحْكم بينهم ثم يتولى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون ﴾ [آل عمران : ٢٣] .

فكتابُ الله تعالى هو الْحَكَم الحاكِم على الناس ويجب الخضوع له . فأحبارُ اليهود الذين أُوتوا نصيباً وافراً من التوراة وعلومها رفضوا الاحتكام إلى كتابهم الذين يؤمنون به ويعتقدون صحته . وهنا يتجلى الهوى في النفس، وشدة سيطرته على الأحبار الذين تبعوا أهواءهم ومصالحهم الذاتية ، فأعرضوا عن الحق ، لأنهم رأوا فيه تهديداً حقيقياً لمكتسباتهم السُّلطوية .

ففي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ١٧٠) : [أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له النعمان بن عمرو والحرث بن زيد : على أي دِين أنت يا محمد ؟ ، قال : ((على ملة إبراهيم ودِينه)) ، قالا : فإن إبراهيم كان يهودياً ، فقال لهما رسول الله ﷺ : ((فَهَلُمَّا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم)) ، فأبيا عليه] ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله لِيَحْكم بينهم ثم يتولى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون ﴾ .

إن اليهود يبنون عقائدهم على الهوى والوهم والتعالي. فهم يعتقدون أنهم صفوة الخلق . وهذه الدعوى تفتقد إلى البرهان. وفي القصة السابقة نجد أن اليهود يحاولون جاهدين إفحام النبي ﷺ فسألوه عن دِينه ، فكانت الإجابةُ النبويةُ الحاسمة بأنه ﷺ على دِين إبراهيم ﷺ ، فظهر استعلاءُ اليهود بالباطل حيث زعموا أن إبراهيم كان يهودياً ، وذلك من أجل الحصول على شرعية دينية ، وغطاء نبوي لانحرافهم ، وقد دعاهم النبي ﷺ إلى الاحتكام إلى التوراة ، فَرَفضوا ، وذلك لعلمهم أن التوراة تُكذِّبهم ، وتكشف باطلَهم ، وتنسف أوهامَهم . وهكذا نرى أن اليهود عاجزون تماماً عن تقديم أدلة مُعتبَرة ، وحجج قوية، وبراهين واضحة . لذلك لا يخرج كلامهم عن دائرة الوهم ، ولا تتجاوز أفكارُهم البعدَ الأسطوري المتغطرس .

وعن حبيب بن أبي ثابت قال : [أتيتُ أبا وائل في مسجد أهله أسأله عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي بالنهروان ، ففيما استجابوا له وفيما فارقوه وفيما أستحل قتالهم ، قال : كنا بصِفِّين ، فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتل،فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علي بمصحف وادْعُه إلى كتاب الله ، فإنه لن يأبى عليك ، فجاء به رَجل ، فقال : بيننا وبينكم كتاب الله ﴿ ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله لِيَحْكم بينهم ثم يتولى فريقٌ منهم وهم مُعْرِضون ﴾ . فقال علي : نعم ، أنا أولى بذلك][1] .

فالْحُكْم يؤخذ من الكتاب والسُّنة لأنهما المرجعيتان المعصومتان من الخطأ والزلل والظلم . وأي اختلاف بين الأفراد والجماعات ينبغي أن يُرَد إلى المرجعية السماوية المقدَّسة الحاكمة التي لا تحابي أحداً، ولا تقبل الرشوةَ ، ولا تظلم الناسَ شيئاً . أما الاحتكام إلى القوانين الوضعية المليئة بالثغرات والأخطاء والتعارض فهو مضيعة للوقت والجهد ، وتدمير للفرد والمجتمع على السواء .

٢_ السُّلطة لله يؤتيها من يشاء :

قال الله تعالى : ﴿ قُل اللهم مَالِكَ الْمُلْك تُؤتي الْمُلْكَ من تشاء وتنزع الْمُلْكَ مِمَّن تشاء ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فالسُّلطة لله تعالى يُعطيها لمن يشاء وينزعها ممن يشاء . فالحاكمُ ينبغي أن يتذكر أن وصوله إلى سُدة الْحُكْم لم يكن بذكائه لأن هناك أذكى منه، ولم يكن بغناه، فهناك من هو أغنى منه ...وهكذا. ولو دام الْحُكْمُ لغيره ما وصل إليه ، فهذه السُّلطة امتحان إلهي ، وليست مجالاً للترف واللعب والتفاخر بالأموال والأولاد. وكل حاكم سيترك السُّلطةَ بإرادته أو رغم أنفه . والعاقلُ من اتعظ بغيره ، والجاهلُ من اتعظ بنفسه . ومن نظر إلى تعاقب الحضارات ، وتداول الأنظمة الحاكمة التي جاءت على كوكب الأرض سيدرك _ تماماً _ أن التعاقب على السُّلطة لا يسيطر عليه البشر بصورة استقلالية ، وإنما هو بيد الله تعالى . وفي لُباب النقول للسيوطي (١/ ٥١) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ سأل رَبَّه أن يجعل مُلْكَ الروم وفارس في أُمته،فأنزل الله: ﴿ قُل اللهم مَالِكَ الْمُلْك ﴾ الآية)) .

فالْمُلْكُ للهِ تعالى يتصرف به كيفما يشاء. واللهُ تعالى مالكٌ للناس ، ومالكٌ لِمَا مَلَّكهم . وعلى المرء أن ينتبه إلى أن الْمُلْك هو اختبار، فلا ينبغي أن ينخدع المرء بالبهرج الفتان، والزينة

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٨٥) برقم (١٦٠١٨) .

الظاهرية. وسوف تظهر نتيجة هذا الاختبار الصعب (النجاح أو الفشل) ، وهي الباقية . أمَّا الْمُلْك فزائلٌ لا محالة . وكما قال الشاعر :

وشَيَّدت الملوكُ به قصوراً   فما بقي الملوكُ ولا القصورُ

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٥) : ((أنتَ المعطي وأنت المانع ، وأنت الذي ما شِئْتَ كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة ، لأن الله تعالى حَوَّل النُّبوةَ من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأُمي المكي خاتَم الأنبياء على الإطلاق ورسول الله إلى جميع الثقلين)) اهـ .

إن ظهور النُّبوة في العرب كان صدمةً حقيقية لليهود الذين جعلوا هذه القضيةَ عُقدةَ حياتهم ، وأدى هذا الأمرُ إلى اشتعال الحقد في صدورهم ، وانتشار الحسد في قلوبهم ، فبنوا أفكارَهم على معاداة الحق الذي جاء به محمد ﷺ معتقدين أنهم بذلك يطفئون نارَهم المتأججة ، ويشفون غليلهم، ويَطمسون الشمسَ المحمَّدية الإسلامية . وقد كانت النتيجة أنهم خسروا أنفسهم في النار ، وازداد الإسلامُ انتشاراً .

٣_ طاعة ولي الأمر في غير معصية :

قال الله تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمر منكم ﴾[النساء: ٥٩].

إن المجتمع الإسلامي مجتمعٌ منضبط لا فوضى فيه ولا تمرد . فهو مثالُ السمع والطاعة في غير المعاصي . لكن هذه الطاعة مبصرة لا عمياء . فالجماعةُ المسلمة ليست قطيعَ غنم يُساق بلا تفكير أو نقاش ، ولكن هناك فرقاً بين الحوار والفوضى ، وبين السؤال والتمرد ، وبين إبداء النصيحة والرفضِ الأعمى .

فالمجتمعُ المحكوم بالشريعة له مسار واضح ، فلا يسير معصوبَ العينَيْن ، بل يسير حسب رؤية القيادة المندمجة بالشعب وآرائه وطموحاته ، وهذه هي العلاقة الأخوية المصيرية بين الحاكم والمحكوم / الرأس والقاعدة / النخبة الحاكمة والرَّعية / قوة النفوذ والطبقة الشعبية . وهذه الثنائيات تتقدم وفق عقد اجتماعي صحي لا علاقة استبدادية قمعية . فالحاكمُ والمحكوم في سفينة واحدة ، وأي ثقب في السفينة سيؤدي إلى غرق الجميع دون تمييز. وأيُّ نزاع بين الحاكم والمحكوم هو _ في واقع الأمر _ نزاع بين عصفورين داخل قفص واحد . وكلُّ صِدامٍ في المجتمع سوف يَحرق الجميعَ بلا استثناء ، إذ إن تأثير الفتن يطال كلَّ الأفراد ، لأن المجتمع تكتل واحد في مَرْكب واحد بغض النظر عن الفروقات . وإذا جاء الغرقُ فلن يميِّز بين أحد .

فطاعةُ الحكام واجبةٌ في غير المعصية ، لأن طاعتهم توحيد للصفوف ، وجمعٌ للكلمة ، وهذا يقوّي المجتمعَ المسلم ، ويجعل منه قوةً مُهابة متماسكة أمام التحديات الداخلية والخارجية . أما عصيانُ الحاكم فهو شق لعصا الطاعة ، وتفتيت للجهود البشرية في المجتمع ، مما يؤدي إلى تشتيت الروابط الاجتماعية وتدمير الإنجازات ، وإضعاف الجبهة الداخلية ، وهذا السقوط يصير انهياراً شاملاً أمام القوى المعادية .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ﴿ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمر منكم ﴾ ، قال : ((نَزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سَرِيَّة))(2) .

وعن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ:ــ﴿ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمر منكم ﴾ ، قال : ((أولي الفقه والخير))(3) .

وهذا الحديث لا يتعارض مع مفهوم أولي الأمر المرتبط بالحكام ، لأن الحكام لا يمكنهم أن يقوموا بأي عمل إلا إذا كان متوافقاً مع الرؤية الشرعية ، والرؤيةُ الشرعية لا يعرفها إلا الفقهاء القادرون على استنباط الأحكام من القرآن والسُّنة ، أو على أقل تقدير الذين يحيطون بالأحكام الشرعية علماً ، ولديهم حصيلة علمية متماسكة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٢٢٣) : ((قال العلماء : المراد بأولي الأمر من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء . هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم . وقيل : هم العلماء ، وقيل : الأمراء والعلماء ، وأما من قال : الصحابة خاصة فقط ، فقد أخطأ)) اهـ .

وإذا صلح العلماءُ والأمراءُ فإن حال الناس سوف ينصلح . فالناسُ ينظرون إلى العالَم كقدوةٍ وقائد روحي ، ومرشِد أمين ، ويُقلِّدونه في أفعاله وكلامه . أمَّا الأميرُ فهو يملك السُّلطةَ على حمل الناس على ما يريد . ولا يَملك أحدٌ مخالفته . فإن أرشدهم إلى الخير ساروا في طريق الخير ، وإن حَملهم على الفساد صاروا فاسدين . وكما قيل : الناسُ على دِين ملوكهم .

---

(٢) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٦٧٤) برقم (٤٣٠٨) ، ومسلم (٣/ ١٤٦٥) برقم (١٨٣٤) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢١١) برقم (٤٢٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((من أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني))[4] .

والطاعةُ إنما تكون في المعروف ، أما المعصية لا يجوز الأمرُ بها ، ولا يجوز طاعةُ الآمر بها . ففي صحيح مسلم (٣/ ١٤٦٩) : أن النبي ﷺ قال : ((لا طاعة في معصية الله)) .

فالمعصيةُ تقود المرءَ إلى الغضب الإلهي ، كما أنها مخالفة لأمر الله تعالى ، ولا يمكن لأي شخص مهما بلغت مكانته أن يُقدِّم أمرَه على أمر الله تعالى ، لذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، لأن الأدنى لا يتقدم على الأعلى .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦١٢) : عن أنس بن مالك _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((اسمعوا وأطيعوا وإن اسْتُعْمِل عليكم عبدٌ حبشي)) .

وهذا يشير إلى قوة المجتمع الإسلامي وتماسكه، ومفهوم الطاعة المبصرة لولي الأمر ، سواءٌ كان شريفاً قرشياً أو عبداً حبشياً . فالمجتمعُ المسلم ليس تكتلاً بشرياً إقطاعياً عنصرياً يعتمد على الطبقة الاجتماعية كمقياس للأفضلية . فمن المعلوم أن التقوى هي مقياس التفاضل في المجتمع الإسلامي ، ومن التقوى إطاعة ولي الأمر لأن ذلك تنفيذ للأمر الإلهي، والأمرِ النبوي، وتوحيد لكلمة المسلمين وجمع شملهم بحيث لا يمكن شق صفهم، وهذا يجعل الأمةَ الإسلامية ذات وزن على الصعيد العالمي. وإذا حدث شرخ في العلاقة بين السُّلطة والشعب ، فإن كلمة المجتمع سوف تتمزق ، وتذهب إنجازاته أدراج الرياح .

ومخالفةُ ولي الأمر بلا سبب شرعي، من شأنها تدمير القيم الاجتماعية ، وجعل مصير المسلمين في مهب الريح ، وتحويل مجتمعاتهم إلى كيانات فاشلة عاجزة مهزومة داخلياً وخارجياً . فالفُرقةُ واختلاف الكلمة ، وتشتت الجهود ، أكثر خطورةً من أعداء الخارج . فهذه القيم السلبية تنخر في المجتمع من الداخل ، وعدو الداخل _ دائماً _ هو أشد خطورةً .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ عن النبيﷺ قال : ((مَن رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعةَ شبراً فمات ، إلا مات ميتةً جاهلية))[5] .

---

(٤) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٦١١) برقم (٦٧١٨) ، ومسلم (٣/ ١٤٦٦) برقم (١٨٣٥) .

(٥) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٥٨٨) برقم (٦٦٤٦) ، ومسلم (٣/ ١٤٧٧) برقم (١٨٤٩) .

وهذه الميتةُ الجاهلية تعني ميتة في إطار فوضوي بلا إمام كما كان الحال في الجاهلية ، حيث الكلمة مبعثرة ، والجهود ضائعة ، وكلٌّ يُغنِّي على ليلاه . فالمجتمعُ الجاهلي كان فوضى وعبثاً بكل معنى الكلمة ، فلا عقيدةٌ صحيحة في النفوس ، ولا إمامٌ لهم يقودهم إلى الحق . ومَن وصل إلى هذه الحالة المزرية سيعجز تماماً عن بناء حضارة ، وتشييد مجتمع العدل والازدهار . وعندئذ ستشب النزاعاتُ ، وتتفشى الأحقاد في المجتمع ، وتكثر الأمراض الاجتماعية ، ويصبح الإنسان قاتلاً ومقتولاً في آن معاً ، مجرماً وضحيةً في نفس الوقت .

٤_ الشورى :

قال الله تعالى : ﴿ وأمرُهم شُورى بينهم ﴾[الشورى : ٣٨] .

والشورى من قواعد المجتمع الإسلامي ، لأنها تجميع للآراء ثم غربلتها للحصول على رأي متماسك يحقق مصلحةَ الفرد والجماعة ، أما الاستبداد بالرأي فمن شأنه إضاعة الكفاءات ، وتدمير الأوضاع الاجتماعية ، فالرأي الواحد الاستبدادي خطيرٌ للغاية لأنه مُعرَّض للخطأ بصورة كبيرة جداً . أما الآراء الجماعية فهي تجميع للخبرات المتعددة في الأوضاع المختلفة زمنياً ومكانياً ، وهذا يجعل نسبة الخطأ قليلة جداً إن لم تكن معدومة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٣) عن الآية : ((ذو شورى بينهم ، لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه ، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور)) اهـ .

فالشورى من دلائل كمال العقل ، وبعد النظر ، وحسن الأخلاق . كما أنها تساهم في تعميق الروابط الاجتماعية ، لأن كلَّ فردٍ سيشعر أنه مهم في المجتمع ، وليس رقماً عابراً بلا وزن . وهذا ينمِّي روحَ الانتماء والولاء في النفوس .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : في قوله _ عز وجل _ : ﴿ وشاوِرهم في الأمر ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، قال : ((أبو بكر وعمر _ رضي الله عنهما _))[6].

فهذا الأمر الإلهي للنبي ﷺ بمشاورة أصحابه _ رضي الله عنهم _ تم تطبيقه على أرض الواقع، فكانت الشورى علامةً مضيئة في المجتمع الإسلامي المتماسك لا شعاراً للاستهلاك الإعلامي ، وهذا درسٌ راقٍ بضرورة مواصلة تطبيق مبدأ الشورى عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة .

---

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٤) برقم (٤٤٣٦) وصححه ، ووافقه الذهبي . [للاطلاع على مواقف النبي ﷺ في تطبيق مبدأ الشورى،راجع الصفحتين ٢٨١و٢٨٢ من هذا الكتاب] تغيير صفحات

كما أن المشاورة تعميقٌ للتكافل الاجتماعي ، والإخلاص في طلب الحق ، وتجذير لمبدأ الاستفادة من الخبرات والإمكانيات البشرية ، لذلك من اختار طريقَ الشورى سيهديه اللهُ تعالى إلى الحق بإذنه . أما مَن استبد برأيه فقد غرق في مستنقع لا قاع له . وسوف يقود نفسه والآخرين إلى الهاوية الحتمية ، وعندئذ سيندم الجميعُ يومَ لا يَنفع الندمُ .

وعن الحسن قال : ((والله ما استشار قوم قط إلا هُدوا لأفضل ما بحضرتهم))(7) .

وهذا أمرٌ لا جِدال فيه ، لأن استشارة الآخرين تعني الحصول على أفضل الأفكار والرؤى ، ومن ثم تطبيقها على أرض الواقع . وبعبارة أخرى ، إن الاستشارة تحقق الكمالَ الاجتماعي ، وتكرِّس نقاطَ القوة ، وتستأصل نقاطَ الضعف .

٥ـ السَّلم :

قال الله تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم وأنتم الأعْلَوْن ﴾[محمد : ٣٥] .

إن المسلمين يقاتلون باسم الله تعالى ويُصالحون باسمه . لذا فالحربُ والسلام مفهومان لهما أوضاع معينة في الشريعة الإسلامية ، وليسا حالةً اعتباطية مزاجية ارتجالية . فلا حربٌ فوضوية في الإسلام ولا سلامٌ عبثي . فالقتالُ أو المهادَنة يتم التعامل معهما من منظور شرعي واضح المعالم . والآيةُ تنهى عن الضعف والدعوةِ إلى السلام في حالة قوة المسلمين وعلو كلمتهم . وتظل مصلحةُ الجماعة المسْلمة هي الأساس في هذا السياق . فالمصلحةُ العامة هي التي تحدِّد حالةَ السلام أو الحرب . وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٢٣١) : ((فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين،ورأى الإمامُ في المهادَنة والمعاهدة مصلحة،فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صَدَّه كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك)) .

٦ـ المؤامرات :

قال الله تعالى : ﴿ والذين يَمْكرون السَّيئاتِ لهم عذابٌ شديد ﴾[فاطر : ١٠] .

إن مؤامرات الكافرين لإنهاء الدعوة الإسلامية من الوجود متواصلة منذ بدء الدعوة حتى يوم القيامة ، وهذه المؤامرات تأخذ أشكالاً مختلفة حسب تغير الزمان والمكان . فالكافرون العاجزون

---

(٧)رواه البخاري في الأدب المفرد(١/ ١٠٠) برقم (٢٥٨). وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٤٠) : أخرجه البخاري في الأدب المفرد وابن أبي حاتم بسند قوي .

عن تقديم براهينهم ومقارعة الدليل بالدليل يلجأون إلى التآمر، والتخطيطِ الخفي، واتباعِ الأساليب القذرة لتنفيذ أهدافهم الشيطانية الآثمة من أجل تثبيت سُلطتهم ونفوذهم ومصالحهم المادية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٣) : ((المكرات السيئات ، يعني مكرات قريش للنبي _ عليه الصلاة والسلام _ في دار الندوة ، وتداورهم الرأي في إحدى ثلاث : حبسه ، وقتله ، وإجلائه)) .

***

الفصل الحادي عشر

تنظيم العلاقات المالية

تمهيد

لقد اعتنى الإسلامُ بالعلاقات المالية في المجتمع، لأن المال من أهم أعمدة البناء الاجتماعي . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشريعة الإسلامية منظومة دينية وفكرية متكاملة ، وليست مبادئ نظريةً حالمة ، أو نزعةً تقشفية مختبئة في زوايا الحياة .

فلا بد للناس من نواةٍ مركزية يستندون إليها في حياتهم لكي تستقيم أمورهم . والمالُ هو تلك الركيزة التي بواسطتها يتحقق مبدأ إعمار الأرض ، ونشر الخير ، ومكافحة الشر .

وقد أسَّست الشريعةُ منهجاً مالياً متكاملاً ـ على الصعيدَيْن الفكري والواقعي ـ ، فلم تُغرِق المجتمعَ في التقشف والفقر والحرمان . وفي نفس الوقت لم تترك الناسَ ضحيةً للجشع والرأسمالية المتوحشة حيث يستغل الأغنياءُ الفقراءَ ، ويأكل الأقوياءُ الضعفاءَ .

وهذا المنهجُ المتوازن يتجلى في وجود تشريعات تُحرِّم اكتسابَ المال بالطرق غير الشرعية . كما أن هذه التشريعات تحدد الدروبَ الصالحة التي يُنفَق فيها المال . وهكذا يكون الإسلامُ قد أسَّس فقهَ التعامل مع المال ، وقرنه بالأخلاق الفاضلة كالأمانة والاعتدال وغيرهما ، ووضَّح أن المال فتنةٌ ، فإما أن ينجح المرءُ في هذا الاختبار أو يَسقط .

ولا يخفى أن كلَّ المجتمعات البشرية تتكون من الأغنياء والفقراء . فالناسُ يتفاوتون في عقولهم وقدراتهم وأرزاقهم . ومع هذا فإن الإسلام قد أعلن الحربَ على الفقر ، وسَنَّ أنظمةً تُحرِّم التبذيرَ واستغلال الآخرين ، كما أنه لم يترك الفقراء لفقرهم ، بل أمر الأغنياءَ بإخراج الزكاة للفقراء ، واعتبر الزكاةَ من أركان الإسلام الخمسة، وحثَّ على الصدقات ومساعدة المحتاجين بشتى السُّبل .

ومما يدل على أهمية المعاملات المالية في الإسلام ، طرقُ توزيع الميراث التي فَصَّلها القرآنُ ، وبَيَّن كيفيةَ التعامل مع أموال الناس واليتامى والنساء والسفهاء والكفار . وهذه العنايةُ بأدق التفاصيل تشير التكاملية في المنهج الإسلامي الشمولي بلا استبداد ، والمتماسك بلا شعاراتٍ مفرغة من معناها .

ويبقى القول إن المال نعمةٌ جليلة لا يمكن للحياة أن تستقيم بدونه ، ولكنْ إذا تم استخدامه في سُبل الضلال فسيصبح نقمةً على أصحابه. فالواجبُ أن يظل المالُ في اليد لا القلب ، وأن يظل وسيلةً لا غاية . وهو ـ أولاً وأخيراً ـ عَرَضٌ زائل يأتي ويذهب .

١ــ اكتساب الأموال :

لم تجيء الشريعةُ من أجل التضييق على الناس، وحرمانهم من الاستمتاع بمباهج الحياة، والتلذذِ بالطيبات . والنفسُ البشرية مجبولة على حب المال ، ومَن يَكره المالَ فهو ذو فِطرة منكوسة . لكنَّ الوسطية في التعامل مع المال هي الأساس النظري والفعلي الذي يُعوَّل عليه من أجل بناء مجتمع الخير والعدالة الاجتماعية وليس مجتمع الحقد والشطط الطبقي .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ليس عليكم جُناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

والآيةُ توضِّح جوازَ البيع والتماس الرزق بالتجارة في موسم الحج ، وأن ذلك لا يُنافي قُدسيةَ الحج وفضيلته الكبرى . ففي أول الحج كانت يتم البيعُ بمنى ومواسم الحج ، فلمَّا نزل القرآنُ خافوا البيعَ . لكنَّ الله تعالى أعلمهم بجوازه . وفي هذا دلالةٌ واضحة على أهمية البيع والتجارة واكتساب المال . فالحجُ ركنُ الإسلام الخامس الذي يتخلى فيه المرءُ عن علائق الدنيا ويتَّصل بالله تعالى واليوم الآخر ، ومع هذا فقد سُمح فيه للمسلمين بأن يبتغوا فضلاً من ربِّهم ، ويمارسوا التجارةَ بلا حرجٍ .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٦٢٨) أن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((كان ذو المجاز وعكاظ متجر الناس في الجاهلية ، فلمَّا جاء الإسلامُ كأنهم كَرهوا ذلك حتى نزلت : ﴿ ليس عليكم جُناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ في مواسم الحج)) .

والمنهجُ الإسلامي واضحٌ في التعامل مع رموز الجاهلية وعاداتها الاجتماعية . فهو لم يجيء ليلغيَ الجاهليةَ بالكامل ، وإنما جاء ليلغيَ العاداتِ السلبية ، وينمِّيَ القيمَ الإيجابية ، ويمنحها الشرعية الدينية والمشروعية الأخلاقية الاجتماعية . فالجاهليةُ خليطٌ من الحق والباطل . وقد قام الإسلامُ برفع مكانة الحق وتعميمه ، وإلغاء الباطل بعد نزع الشرعية منه .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وتبرز أهميةُ طلب الرزق ، وممارسة البيع والشراء . فهذا الفعلُ هو الأساس للاقتصاد المحرِّك لمفاصل الحياة الاجتماعية .

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٨٨) : ((يؤخذ منها مشروعية البيع من طريق عموم ابتغاء الفضل ، لأنه يشمل التجارة وأنواع التكسب . واخْتُلِف في الأمر المذكور ، فالأكثر على أنه للإباحة، ونُكتتها ــ حُكمتها ــ مخالفة أهل الكتاب في منع ذلك يوم السبت ، فلم يُحظَر ذلك على المسلمين)) اهـ .

والفضلُ الإلهي شاملٌ لأنواع التكسب والتجارة وكسب المال . وفي هذا مخالفةٌ واضحة لليهود الذين يَعتبرون السبتَ يوماً مُقدَّساً لا يجوز فيه البيع ولا الشراء ، أو ممارسة النشاطات التجارية . فسُمح فيه للمسلمين أن يمارسوا أعمالهم المالية بلا حرج . وهنا يتجلى المنهجُ الإسلامي في مخالفة أهل الكتاب ، وتجذير الهوية الإسلامية ذات السيادة والاستقلالية .

٢_ إنفاقها :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وأنفَقوا مما رزقناهم سِراً وعلانيةً ﴾ [الرعد : ٢٢] .

وهذا المدحُ الإلهي للذين يُنفِقون في السِّر والعلانية . ففي كل أحوالهم يُنفِقون مما رزقهم اللهُ تعالى. فعلى المسلم ألا يكون خادماً للمال ، بل يُخرج من ماله في سُبل الخير والصلاح . وفي الوضع الطبيعي فإن إخراج المال سراً أفضل ، وإن تعذر ذلك فليكن علانية ، ولا ينبغي له أن يمتنع عن الإنفاق خوفاً من الرياء . فعليه أن يُخلِص لله تعالى ، ولا يَلتفت إلى وساوس الشيطان أو كلام الناس .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٨) : ((وقيل : السِّر في المسنونة ، والعلانية في المفروضة _ يعني الزكاة _)) اهـ .

وقد يكون إنفاقُ المال علانيةً تشجيعاً للآخرين على البذل والعطاء . فعلى المرء أن يَعرف حاله والأحوال المحيطة به لمعرفة السبيل الأفضل للإنفاق ، السر أو العلانية . وهذا الأمرُ يختلف من شخص لشخص ، ويتفاوت حسب الزمان والمكان .

ومَن يُنفِق فإنما يُساعد نفسَه . فاللهُ تعالى غني عن العالَمين . فأعمالُ الخير التي يقوم بها الإنسانُ تصب في صالحه ، فهو بذلك يحاول إنقاذ مصيره من الهلاك . فلا مجال للمَنِّ على الله تعالى ، أو المن على الناس .

وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ وأنفِقوا خيراً لأنفسكم ﴾ [التغابن : ١٦] .

فهذا الإنفاقُ يعود بالفائدة على صاحبه في الدنيا والآخرة ، فهو يَعكس حرص الفرد على نيل رضا الله تعالى ، والنجاةِ من عذابه. كما أن عدم الإنفاق هو وَبال وشر سيُلاحق المرءَ أينما ذهب . فينبغي للمُمْسِك عن الإنفاق أن يعرف أنه على شفير الهاوية ، وهو بذلك يُدمِّر نفسه ، ويقضي على مصيره .

وكَم من امرئ قضى حياته خادماً للمال جامعاً له مهووساً به خازناً لورثته ، ثم رحل إلى دار البقاء محروماً ، يُحاسَب على كل صغيرة وكبيرة . أمَّا ورثته فيتمتعون بما خَلَّفه من أموال ،

وينفقونها في الحلال والحرام بلا حساب. وبالطبع فإن الإنفاق بحاجة إلى مجهود كبير ، لأن الشيطان والنفس يُخوِّفان المرءَ من الفقر ، لذلك يتشبث المرءُ بالمال بالأظافر والأسنان إلا من رحم اللهُ . لذلك كان التعاملُ مع المال هو المحك الحقيقي للكشف عن معادن الرجال .

وفي جمهرة خطب العرب (١/ ٢١٤) أن عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _ قال في خُطبة له : ((واعلموا أن بعض الشُّح _ يعني البخل _ شُعبةٌ من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون)) اهـ .

فالبخلُ هو خصلة مذمومة عند جميع الأمم . وقد كان العربُ يُعيِّرون البخلاءَ ، فتصبح هذه الصفة وصمةَ عارٍ بين القبائل والأقوام . والبخلُ يَعكس ضعفَ اليقين ، وشدةَ التعلق بمتاع الدنيا الفاني ، والخوف من الرزق الذي تكفَّل اللهُ تعالى بحفظه . فرزقُ الإنسانِ لن يأخذه غيرُه فعليه أن يطمئن ، ويبتعد عن القلق والاضطراب .

قال اللهُ تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذو سَعَةٍ مِن سَعَته ﴾ [الطلاق : ٧] .

إن الله تعالى يُعلِّم عبادَه أهميةَ السخاء والإنفاق ، وضرورة إبقاء المال في اليد لا القلب . ويأمر عبادَه بالإنفاق _ كلاً حسب طاقته _ . والآيةُ متعلقة بإنفاق الزوج على زوجته وولده الصغير . وهذه مهمةٌ جليلة لا تنصلح حالُ المجتمعات بدونها .

والإنفاقُ من شأنه الحفاظ على الأسرة في ظل الصعوبات الاجتماعية المتعاظمة ، وتوفير متطلباتها ، والحيلولة دون غرق السفينة الإنسانية في متاهات الحياة . فعلى الموسِر والمعسِر أن ينفقا _ وفق إمكانياتهما _، بعيداً عن الذرائع ، واختراع الأعذار الواهية ، والتملص من هذه المسؤولية ومحاولة الالتفاف عليها .

وقال الواحدي في الوجيز (ص ١١٠٩) : ((أمر أهلَ التوسعة أن يوسعوا على نسائهم المرضعات أولادهن)) اهـ .

٣_ الغِنى :

أ _ الأغنياء :

إن الغِنى اختبارٌ إلهي . فمن الناس من يَنجح فيه ، أمَّا الغالبيةُ الساحقة فتفشل في أدائه . والأغنياءُ ينقسمون إلى فريقَيْن: فريقٌ مؤمن أدى حقَّ الله في مال الله ، وسَخَّر مالَه لإنقاذ الإنسان ، وإعمار الأرض ، ونشر الحق والفضيلة ، ومكافحة الظلم والفساد . وقِسمٌ كافر جعل مالَه عوناً للشيطان . يستخدم قدراتِه المادية لنشر الكفر ومحاربة الخير ونشر الضلال بكافة أشكاله .

وبالطبع فإن إنفاق المال يستند إلى المرجعية الفكرية التي يؤمن بها صاحبُ المال . فإذا كان مؤمناً فسوف يَزرع الدنيا بالخير ليَحصد الخيرَ في الآخرة، وبالتالي يربحهما معاً . أمَّا إن كان كافراً فسوف يَحرق الدنيا ليَحصد سوءَ عمله في الآخرة ، فيخسرهما معاً .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَأْتلِ أُولو الفضل منكم والسَّعة أن يُؤتوا أُولي القُربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ﴾ [النور : ٢٢] .

والآيةُ تدعو إلى الإنفاق على الأقرباء والمساكين والمهاجرين في سبيل الله تعالى ، وعدم قطع معونتهم. وبدون هذه النفقة سيَغرقون في معاناة كبرى ، إذ إنهم أصحاب مكانة اجتماعية ضعيفة ، وبحاجة إلى أدنى مساعدة لكي تستمر حياتهم ، ويواصلوا مشوارهم في هذه الدنيا . وإذا لم يُنفِق الأغنياءُ على الفقراء ، فكيف يتسنى للفقراء أن يعيشوا بكرامة ؟! .

ولا يخفى أن التفاوت الطبقي موجود في كل المجتمعات عبر التاريخ، ولكن ينبغي للمجتمع أن تتضافر جهودُه بُغية تحقيق التكافل الاجتماعي ، ومحاربة الفقر بلا هوادة .

أمَّا سببُ نزول الآية الكريمة ، فذو علاقة بحادثة الإفك . حيث تم اتهام السيدة عائشة _ رضي الله عنها_ في شرفها . ومن الذين خاضوا في هذا الكلام مسطح بن أثاثة، وهو من المهاجرين البدريين ، وكان أبو بكر الصِّديق _ رضي الله عنه _ يُنفِق عليه لقرابته وفقره . فلمَّا بَرَّأَ اللهُ تعالى عائشة ، حلف أبو بكر ألا يُنفِق على مسطح شيئاً أبداً بعد كلامه عن عائشة . فأنزل اللهُ تعالى: ﴿ ولا يَأْتلِ أُولو الفضل منكم والسَّعة أن يُؤتوا أُولي القُربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ﴾ الآية[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يَأْتلِ ﴾ ، يعني : ولا يَحلف . فلا يَنبغي للمرء أن يَحلف على ترك فعل الخير . فعلى الرغم من أن مسطحاً قد آذى آل أبي بكر في شرفهم ، وهم الذين احتضنوه ، ومَدُّوا له يد العون والمساعدة ، إلا أن الله تعالى نَبَّه على ضرورة صلة الرَّحم وإن كانوا مسيئين ، وعدم قطع المعونة عنهم .

وهذا يشير إلى المنهج الإسلامي الجليل في إنقاذ الناس ومساعدتهم روحياً ومادياً ، والتجاوز عن عثراتهم ، وتخليص المجتمع من الحقد والتنافر . وهذا التسامحُ لا يمكن أن يُوجَد بهذا الشكل في دِينٍ غير الإسلام .

---

(١) انظر القصة كاملةً في صحيح البخاري (٤/ ١٧٧٤) ، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩) .

وإذا انتقلنا إلى الضفة الأخرى سنجد أن الكافرين يُنفِقون أموالهم لإغواء الناس ، وتجذيرِ الضلال.وهذه الأموال ستكون وبالاً عليهم، ولعنةً تطاردهم ، وتَبعث فيهم الندمَ يومَ لا يَنفع الندمُ .

قال اللهُ تعالى : ﴿ إن الذين كفروا يُنفِقون أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيل الله فَسَيُنفقونها ثم تكون عليهم حَسْرةً ثم يُغلَبون ﴾ [الأنفال : ٣٦] .

الكافرون يُسخِّرون أموالهم لمحاربة الله تعالى . فهم يريدون إطفاء نور الحق ، وصرف الناس عن اتباع الإسلام . وهذه الأموالُ ستذهب أدراج الرياح ، فتكون عليهم ندامة وحسرة ، لأنها ذَهبت بدون أي فائدة. وسوف يُقهَرون بكل خزي، ولا يُحقِّقون أي انتصار . وهذه عادة الكافرين في كل زمان ومكان ، إذ إنهم يُحوِّلون النعمَ الإلهية إلى ويلاتٍ نازلة على رؤوسهم . فالمالُ نعمةٌ جليلة ، لكنهم يَستخدمونه في سبيل الغواية والضلال .

وفي الدر المنثور (٤/ ٦٣) : ((وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة في قوله : ﴿ إن الذين كفروا يُنفِقون أموالَهم لِيَصُدُّوا عن سبيل الله ﴾ . قال : نزلت في أبي سفيان ، أنفق على مشركي قريش يوم أُحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الأوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً من ذهب)) اهـ .

فهذه الأموالُ المصروفة هدراً من أجل طمس نور الحق، قد عادت وبالاً على أصحابها ، وعاراً يلاحقهم في كل المحافل . وقد أُنفِقت في سبيل الشيطان بدافع الحميَّة الجاهلية والرياء والحفاظ على التقاليد الوثنية للآباء الهالكين . وخاب سعي الكافرين ، فخسروا أموالَهم ، ولم يُحقِّقوا مرادَهم . والناظرُ في حال الناس سوف يُذهَل عندما يُدرك حجمَ الأموال المهدورة في سبيل الشيطان ، والتي تضيع هباءً منثوراً في طرق الغواية والضلال . ولو أُنفقت هذه الأموال في مجالها الصحيح لعُدم الفقرُ ، وزالت البطالةُ ، وصار المجتمعُ جَنَّةً ، لا مكان فيه للجريمة ، والفاقة ، والانحلال الأخلاقي ، والأزمات السياسية .

ب _ المترَفون :

قال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تُعجِبكَ أموالُهم وأولادُهم إنما يريد اللهُ أن يُعَذِّبهم بها في الدنيا وتَزهقَ أنفسُهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : ٨٥] .

إن أموال الكافرين وأولادهم زينةٌ ظاهرية سُرعان ما تضمحل وتختفي ، فينبغي عدم الإعجاب بها ، أو الاغترار بهذا اللذة الوهمية التي هي _في واقع الأمر _ نقمة على أصحابها . فاللهُ تعالى يريد أن يُعذِّبهم بها في الدنيا فيتعبون في جمعها وحفظها ، ثم يوم القيامة تكون سبباً في ولوجهم

النار لأنهم لم يُؤَدُّوا حقَّ الله تعالى ، وأعرضوا عن شريعته رافضين لها ، غير مُقدِّرين للنعم العظيمة التي أسبغها اللهُ عليهم . وقد كانوا مشغولين بهذه المتعة الوقتية التي كانت استدراجاً فلم يتفكروا في ما بعد الموت. وسوف يداهمهم الموتُ فجأةً، فتخرج أرواحهم بشدة بالغة ، ويموتون كافرين.

وهذا إخبار من الله تعالى بأنهم _ مُستقبَلاً _ سيموتون على الكفر . فاللهُ تعالى يَعلم ما حدث ويحدث وسَيَحدث ، فهو خالق الماضي والحاضر والمستقبل ، لا يَحصره زمانٌ ولا يَحدُّه مكان .

وفي تفسير الثعالبي (٢/ ١٣٤) : ((قال الفخر : أمَّا كَوْن كثرة الأموال والأولاد سبباً للعذاب في الدنيا فحاصل من وجوه منها : أن كلما كان حب الإنسان للشيء أشد وأقوى كان حزنه وتألم قلبه على فراقه أعظم وأصعب ، ثم عند الموت يعظم حزنه وتشتد حسرته لمفارقته المحبوب . فالمشغوف بحب المال والولد لا يزال في تعب فيحتاج في اكتساب الأموال وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة ، ثم عند حصولها يحتاج إلى متاعب أشد وأصعب في حفظها وصَوْنها ، لأن حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه ، ثم أنه لا ينتفع إلا بالقليل من تلك الأموال ، فالتعب كثير والنفع قليل)) اهـ .

إن الدنيا مجبولة بالكدر . وما الأموالُ والأولاد إلا فتنة شديدة لا يَنجح فيها إلا القليلون . والمتعُ الدنيوية ممزوجة بالألم ، ولا يمكن الحصول عليها إلا ببذل الجهد ، ولا يمكن الحفاظ عليها إلا بالتعب والسهر والقلق. لذلك كانت المتعُ حقلاً خصباً للغواية، يتحرك فيه الشيطان بكل سهولة ، لأنها نقطة ضعف للإنسان .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ واتَّبع الذين ظَلموا ما أُترِفوا فيه وكانوا مُجرِمين ﴾ [هود : ١١٦] .

هؤلاء المترَفون اشتغلوا بتحصيل متاع الدنيا ولم يَلتفتوا إلى الآخرة . فأغرقوا أنفسهم في اللذات مؤثرين دنياهم على آخرتهم . فقد أطغاهم الترفُ وألهاهم عن التفكر فيما وراء الحياة الدنيا. وكانوا مجرمين بسبب فساد عقائدهم ، وسوء سلوكهم ، وعدم تقديرهم للنعم الإلهية وأداء شُكرها . وقال أبو السعود في تفسيره (٤/ ٢٤٧) : ((﴿ ما أُترِفوا فيه ﴾ أي أُنعموا من الشهوات ، واهتموا بتحصيلها . أما المباشرون فظاهر ، وأما المساهلون فَلِمَا لهم في ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة)) اهـ .

وكلُّ جريمةٍ تفرز صنفَيْن من الناس : الأول _ وهو المجرم الذي يباشر العمل بعقله ويده ، والثاني _ هو الساكت عن الجريمة لأنه يجني أرباحاً من ورائها ، فلا يَريد خسارة هذه الامتيازات . وهذا المبدأ موجود في كل المجتمعات بغض النظر عن معتقداتها .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فَدَمَّرْناها تدميراً ﴾ [الإسراء : ١٦] .

إن اللهَ تعالى أرشد عبادَه إلى طريق سعادتهم ، وأمر المترَفين _ الذين هُم عِلْيةُ القوم وأصحاب الثروة والسُّلطة والنفوذ _ بالطاعة والخير . فإذا قال أحدهم أمرتُه فعصاني ، فيُفهَم من هذا الكلام أن الأمر كان بعكس المعصية .

وقوله تعالى : ﴿ أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها ﴾ يشير إلى أن الأمر كان بمخالفة الفسق. لكنهم خرجوا عن الأمر الإلهي وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فاستحقوا العذابَ، وحَلَّ بهم الدمار المهلِك . وقد خُصَّ المترَفون بالذِّكْر لأنهم الرؤساء ، والناسُ تَبَعٌ لهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٨) : ((واختلف المفسرون في معناها . فقيل : معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً ... فإن الله لا يأمر بالفحشاء . قالوا : معناه أنه سَخَّرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل : معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة ، رواه ابن جريج عن ابن عباس ، وقاله سعيد بن جبير أيضاً)) اهـ .

ج _ فتنة المال :

إن المال امتحانٌ صعب . والغالبيةُ الساحقة تفشل في أدائه بسبب عشق النفس البشرية للمال، وهذا أمرٌ غريزي . وأيضاً بسبب إغراءاته المتعلقة بزينة الحياة الدنيا ، وأهميته في تحريك مفاصل المجتمع فَوْقياً وتحتياً ، ودوره المحوري في إدارة عجلة الحياة ، إذ إن الحياة الإنسانية على الأرض لا تستقيم إلا في ظل وجود المال ، وبدونه لن تتحقق معنى خلافة الله في الأرض ، وإعمارها . ولا يَمكن بناء حضارة إنسانية مؤمنة وراقية إلا بوجود المال الخاضع لعقيدة صحيحة لا مجال فيها لاختلاط الحق بالباطل . وكثيرٌ من الناس يَعتبرون أن الفقر _ وَحْدَه _ هو الابتلاء ، أما الغِنى فيعتبرونه نعمةً مُجرَّدة خالية من الابتلاء . وهذا تفكير قاصر . فالغِنى والفقر امتحانان شديدا الصعوبة . ولن يَثبت فيهما إلا مَن ثَبَّته اللهُ تعالى . وكَثيرٌ من الناس يَصبرون على ابتلاء الشِّدة ، لكنهم يَسقطون في امتحان الرخاء .

وعن عبد الرحمن بن عوف _ رضي الله عنه _ قال : ((ابْتُلينا مع رسول الله ﷺ بالضراء فصبرنا ، ثم ابْتُلينا بالسراء بعده فلم نصبر))[2] .

---

(٢) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٦٤٢) برقم (٢٤٦٤) ، وقال : ((حديث حسن)) .

وهذا مؤشرٌ واضح على أن السراء ابتلاء يَغفل عنه الكثيرون. فالناسُ في حالة الرخاء تأخذهم الدنيا بزينتها وبريقها ، ويَذهبون وراء اللذات وألقها الفتّان . فالدنيا متاعٌ زائل جاذب للأبصار خاطف للقلوب . أمَّا في حالة الشدة فإن طرقات الدنيا تكون مسدودة ، لكنَّ طريق الله تعالى يظل مفتوحاً ، لذلك يَتوجَّه الناسُ إلى خالقهم وعبادته . أمَّا إذا فُتحت عليهم الدنيا بكل عنفوانها فعندئذ تَكثر الدروب ، وتتشعب السُّبل . ولا يَلجأ إلى طريق الله تعالى إلا القِلَّة النادرة . وبشكل عام فإن السراء امتحان أكثر صعوبة من الضراء .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا أَنعمنا على الإنسان أَعرض ونأى بجانبه ﴾ [الإسراء : ٨٣] .

فالإنسانُ في حال النعمة وسعة العيش ورغد الحياة ، فإنه يَنسى صاحبَ النعمة _ سبحانه _ الذي تَفضَّل عليه بهذه العطايا الكبيرة ، ويَركن إلى إمكانياته المادية ، فيُعرِض عن المنهج الإلهي القويم ، ويبتعد بنفسه عن طريق الله الموصل إلى النجاة . إذ إنه يعتمد بالكلية على الأسباب المادية مُعرِضاً عن خالق الأسباب القادر على منحها وسلبها .

وبالتالي فالإنسانُ يُعرِّض نفسه للهلاك ، لأنه اغترَّ بنفسه ولم يَرَ أبعد منها، ولم يَلتزم بمنهج اللهِ واهبِ النعم. وعندئذ تتحول النعمة إلى نقمة بسبب سوء تصرف الإنسان المغتر بقوته الزائلة ، وقدراته الوهمية ، وإمكانياته الفانية . فينبغي قراءة التاريخ لمعرفة نهاية الملوك والأغنياء ، وسقوطِ الحضارات التي أُتيح له من أسباب القوة والثروة الشيء الكثير ، لكنها ذَهبت إلى غير رجعة . والعاقلُ من اتعظ بغيره . والجاهلُ من اتعظ بنفسه .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٣٥٧) : ((يُحتمَل أن يكون الإنسان عاماً للجنس . فالكافر يبالغ في الإعراض ، والعاصي يأخذ بحظ منه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولو بَسط اللهُ الرزقَ لعباده لبَغَوا في الأرض ولكن يُنَزِّل بِقَدَرٍ ما يَشاء ﴾ [الشورى : ٢٧] .

فَلَوْ فُتحت الدنيا على العباد لهلكوا . فحينئذ سوف يَطغى العباد متجاوزين كل الحدود ، غارقين في النعم الزائلة ، متناسين المنعِم تعالى. واللهُ تعالى يَرزق عبادَه بمقدار رحمةً بهم ، ولئلا يَسقطوا في أريج زهرة الدنيا فيُضيِّعون آخرتهم .

والعبادُ قِسْمان : قِسْمٌ لا يُصلحه إلا الغِنى ، وقِسمٌ لا يُصلحه إلا الفقر . واللهُ خالقُ العباد وأعلمُ بهم منهم ، ويَعلم نقاط قوتهم وضعفهم ، وما يُصلحهم وما يُفسدهم . كما أن الإنسان قصير النظر لا يَعلم الغيبَ ، ولا يَملك القدرة على معرفة المستقبل ، فقد يَكون الفقرُ نجاةً له ،

والغِنى كارثةً تحل عليه . وقد يكون العكس . وكما قيل : رُبَّ امرئ حَتْفه فيما تمنَّاه . وعلى المرء أن يلتزم بالأوامر الإلهية سواءٌ كان فقيراً أو غنياً ، لأن الشريعة هي الحاكمة على الوضع المادي للإنسان وليس العكس .

وعن علي _ رضي الله عنه _ قال : ((ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعم ، إن أدناهم منزلة يَشرب من ماء الفرات ، ويجلس في الظل ، و يأكل من البُر . وإنما أُنزلت هذه الآية في أصحاب الصُّفة : ﴿ ولو بَسط اللهُ الرزقَ لعباده لبَغَوا في الأرض ولكن يُنَزِّل بِقَدَرٍ ما يَشاء ﴾ . و ذلك أنهم قالوا : لو أن لنا فتمنوا الدنيا))[3] .

فالدنيا زهرةٌ فوَّاحة لكن عطرها قاتل للذي أَدمن عليها ، ولم يَنظر إلى ما ورائها . واللهُ تعالى يَرحم عبادَه فلا يَفتح عليهم الدنيا لئلا يَجرفهم السيلُ المدمِّر . وانظر _ مثلاً _ إلى نعمة الماء العظيمة واعتماد أشكال الحياة عليها ، ولكن لو فُتح أحد السدود عن آخره فإنه سَيُهلِك الحرثَ والنسلَ ، ولا يُبقي ولا يَذر ، مع أن الماء نعمة . لكن قدومه بهذا الشكل المرعِب سوف يُدمِّر كل المنجزات الحضارية والبشرية ، وعندئذ يصبح الماءُ قاتلاً لا وسيلةً للحياة والازدهار . وكما هو معلوم فإن الأمور بمآلاتها ونتائجها .

٤_ أموال الناس :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وأكْلِهم أموالَ الناس بالباطل ﴾ [النساء : ١٦١] .

إن أموال الناس لها حُرمة عظيمة ، وهي مُصانة وفق تعاليم الشريعة . فلا يجوز الاعتداء عليها بأي شكل ، أو ابتزاز أصحابها من أجل الاستحواذ عليها . ولا يَحِل أخذ مال أحدهم إلا عن طِيب نفسٍ . كما أن حفظ المال من أهم مقاصد الشريعة . فالمالُ ركيزة الحياة ، ولن تقوم للفرد والجماعة قائمة بدونه . بل إن المرء يُضحِّي بحياته (أعز ما يَملك) من أجل حماية ماله . وهذه دلالة باهرة على أهمية المال في حياة الفرد والجماعة والنظم الحضارية .

فعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنهما _ أن النبي ﷺ قال : ((مَن قُتل دون ماله فهو شهيد))[4] .

---

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٣) برقم (٣٦٦٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤) متفق عليه . البخاري (٢/ ٨٧٧) برقم (٢٣٤٨) ، ومسلم (١/ ١٢٤) برقم (١٤١) .

فالشخصُ المقتول دفاعاً عن ماله يُعتبَر في نظر الشريعة شهيداً . وهذا يدل على أهمية المال الكبرى في الحياة ، ودوره المركزي في قيادة السفينة البشرية نحو بَر الأمان . فالشيءُ الذي تُبذَل الروح في سبيله عظيمٌ لا محالة .

وقال القرطبي في تفسيره (٣/ ٣٨٦) : ((ومما يدل على حفظ الأموال ومراعاتها ، إباحة القتال دونها وعليها)) اهـ .

والآيةُ السابقة قد فَضحت اليهودَ الذين كانوا يأخذون الرِّشى في أحكامهم ، ويأكلون أموالَ الناس بالسُّبل غير المشروعة . فقد استولَوا على أموال الآخرين بالتحايل ، والوسائل القذرة ، مستخدمين مهاراتهم في الخداع للاستيلاء على ممتلكات الناس وسحبها من أيديهم ، مُنتهِكين بذلك حُرمة المال التي لا يجوز هتكها ، أو القفز فوقها بأي شكل . والشريعةُ الإسلامية ترفض مبدأَ الغاية تُبرِّر الوسيلةَ . فالهدفُ النبيل لا بد أن يكون الطريقُ إليه نظيفاً .

كما أن سلب الناس أموالهم بغير وجه حق سيؤدي إلى بث النزاعات في المجتمع ، ونشر الحقد وروح التربص والانتقام . مما يُحوِّل المجتمعَ البشري إلى غابة تسكنها الوحوشُ الضارية التي تَحتكم إلى حق القوة لا قوة الحق . وبالتالي تنهار قيمُ الحضارة ، وتحل مكانها قيم التوحش ، وتَسقط الإنسانية لتحل محلها الصفات الحيوانية الغريزية . وهكذا ينهار المجتمعُ ، وتعم الفوضى ، ولا يعود هناك معنى لحياة الفرد والجماعة .

٥_ الأمانة :

إن الحياة لا تستقيم إلا بتجذير الأخلاق الحميدة ، والعلاقاتِ السوية بين أفراد المجتمع . فليس المجتمعُ الإنساني غابةً للوحوش يأكل القويُّ فيها الضعيف، ويتم القتل جهاراً نهاراً بشكل اعتيادي. فالمجتمع الإنساني كيان راقٍ لا بد أن يُحكَم بالعدل والمساواة والقيم النبيلة . فالإنسانُ لا يعيش بالخبز وَحْدَه . فهناك غذاءٌ روحيٌّ ، وأشواقٌ عابرة لحدود المادة ، وأحلامٌ تتجاوز ضغطَ الواقع ، وذكرياتٌ تَكشف عن تاريخ الفرد والجماعة . وهذه النظرةُ ليست رومانسيةً هلامية مُجرَّدة من المعنى، بل هي ركيزة أساسية في الواقع البشري. وبدونها فإن الحياة ستفقد جدواها، ويختل ميزانها . وللأسف فقد ارتبطت_في أذهان الكثيرين_ القيمُ النبيلة والمشاعر الراقية بالضعف والسذاجة. وهذا مرجعه إلى شراسة الواقع المادي وصعوبات العيش . فصار الفردُ آلةً متوحشة تأكل ولا تَشبع ، وتَلهث وراء السراب ولا تَصل إلى شيء .

وقد حَلَّت المعاني المادية الصارمة محل القيم الروحية ، وتحوَّل المجتمع إلى نسق مادي مغلق لا مكان فيه للروحانيات . فصار الصدقُ سذاجةً ، والأمانةُ غباءً ، والكرمُ تضييعاً للمال ، وحبُّ الآخرين ضعفاً ، والوحدةُ الوطنية شعاراً خيالياً ، والشجاعةُ إهلاكاً للنفس . وفي المقابل صار الكثيرون يَعتبرون السرقةَ ذكاءً ، وابتزازَ الآخرين بُعدَ نظرٍ ، والخداعَ فهلوةً ، والنفاقَ عبقريةً اجتماعية ... إلخ . وهذا يشير إلى اختلال الموازين ، وغرق المجتمع في انتكاسة أخلاقية لها آثار كارثية في كل مجالات الحياة . ولكنْ لا يَخلو زمنٌ من قائم لله بِحُجَّة . وإن الحق لن يُعدَم ناصراً ، وإن ناصر الحق منصور ، وناصر الباطل مخذول. سواءٌ قَلَّ الناصرون أو كَثروا . فالخيرُ باقٍ ، والشرُّ سيذهب أدراجَ الرياح، مهما علا صوتُ الشر ، وخَفَت صوتُ الحق . فَمَن يَضحك أخيراً يَضحك كثيراً ، والعِبرةُ بالخواتيم .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _: عن النبي ﷺ أنه قال : ((سيأتي على الناس سُنون يُصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذَّب فيها الصادق ، ويُخوَّن فيها الأمين ، ويُؤْتمن فيها الخائن ، ويَنطق فيها الرويبضة)) ، قيل : يا رسول الله ، وما الرويبضة ؟ ، قال : ((السفيه يتكلم في أمر العامة))[5].

وهذه السنواتُ الخدَّاعات تعكس حالةَ الانهيار الذي أصاب المجتمعَ الإنساني ، حيث اختلَّت القيمُ ، وصارت المعاني معكوسةً ، فضاع الناسُ في متاهة الوهم وغياب الحقيقة ، وأضحى السفهاء يتصدَّرون المجالسَ، ويُحلِّلون الأوضاعَ، ويتكلمون في أمر العامة نقداً وتشريحاً، ويخترعون حلولاً ، ويُقدِّمون أنفسهم كقادة اجتماعيين قادرين على تحديد المشكلات وعلاجها . وهذا السقوطُ المريع يشير إلى حجم الانتكاسة التي يَغرق فيها الفرد والجماعة . وفي زمنِ الانكسار يَكثر الذين يُقدِّمون أنفسهم كقادةٍ سياسيين ، ومصلِحين اجتماعيين .

والمنهجُ الإسلامي واضح في تثبيت الأمانة كركنٍ أساسي في بناء المجتمع الفاضل . فبدون الأمانة سوف تَسقط الثقة بين أفراد المجتمع، وتنهار القيمُ الحضارية. لذلك كانت الأمانةُ عنصراً لا غنى عنه في تكوين شخصية الفرد الواعية، ورسم معالم الهوية المجتمعية على قاعدة الحق والتنمية.

قال اللهُ تعالى : ﴿ فَلْيُؤَدِّ الذي اؤتُمن أمانته ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

---

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥٧) برقم (٨٥٦٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وهذا توجيهٌ إلهي جليل يشير إلى أهمية تأدية الأمانة وعدم خيانتها . فأداءُ الأمانة يَبعث روح التماسك الاجتماعي في المجتمع ، ويشيع أجواءَ الثقة بين أفراده ، وهذا الأمر ذو تأثير إيجابي بالغ على تقدم المجتمع . فلا يَمكن حصول نهضة إنسانية إذا انتشرت الخيانة واختفت الأمانة . لذلك كانت الأمانةُ أصلاً ثابتاً في مشروع النهضة والازدهار عند كل الأمم ـ بغض النظر عن أديانها وأعراقها ومذاهبها السياسية ـ .

والآيةُ متعلقة بأداء الدَّيْن على أكمل وجه . فعلى المديون أن يُسدِّد الدَّيْنَ الذي عليه ، ولا يُقصِّر في ذلك . إذ إنه متعلق في ذِمَّته في الدنيا والآخرة ، إلا إذا قام بأدائه ، فعندئذ تبرأ ذِمَّته . وتسديدُ الدَّيْن هو إعادة الحق لأصحابه الذين وَثقوا بالمديون. وعليه أن يكون عند حسن ظنهم به. فالمؤْمنُ يقابل الإحسان بالإحسان لا الإساءة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٨٢) : ((سَمَّاه أمانة ـ أي الدَّيْن ـ لائتمانه عليه بترك الارتهان به)) اهـ .

وعن سمرة ـ رضي الله عنه ـ : عن النبي ﷺ قال : ((على اليد ما أَخذت حتى تُؤَدِّيَه))[6] .

فينبغي تعميق مفهوم الأمانة في المجتمع ، ورَدُّها إلى أصحابها من أجل بناء حضارة تحترم حقوقَ الإنسان ، وتخرجه من مستنقع الحياة المادية المغلقة إلى فضاء القيم النبيلة . وهنا تبرز ضرورة نشر ثقافة التكافل الاجتماعي ، وتجذير الثقة في المجتمع بعيداً عن الضغينة والتربص والانتقام ، وتعميق القيم الإنسانية التي تخفف وحشيةَ الحياة واضطرابها .

ولا يمكن للمجتمع أن يتحرك إلى الأمام إذا كان مبنياً على الكراهية ، وانعدام الثقة بين مكوِّناته . ومن الجدير بالذِّكر أن المجتمع سفينة واحدة ـ رغم كل التنوع الإنساني واختلاف الأديان والأعراق ـ ، فإمَّا النجاة معاً ، أو الغرق معاً . وهذه النظرةُ ليست رومانسية حالمة بل هي واقعٌ ملموس وثابت عبر الحقب التاريخية المختلفة .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إن اللهَ يَأمركم أن تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلها ﴾ [النساء : ٥٨] .

إن هذا الإرشاد الإلهي يدل على عِظَم شأن الأمانة ، وضرورة تأديتها إلى أصحابها ، سواءٌ كانوا أبراراً أو فُجَّاراً . والآيةُ تشمل جميع الأمانات على اختلافها ، فالأمانةُ لا تتجزأ ، كما أن الخيانة لا تتجزأ .

---

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥) برقم (٢٣٠٢) وصححه ووافقه الذهبي .

وفي الدر المنثور (٢/ ٥٧٠و٥٧١) عن ابن جريج في قوله : ﴿ إن اللهَ يَأمركم أن تُؤَدُّوا الأماناتِ إلى أهلها ﴾ قال : ((نَزلت في عثمان بن طلحة . قَبض منه النبي ﷺ مفتاحَ الكعبة ، ودخل به البيت يومَ الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية ، فدعا عثمان ، فدفع إليه المفتاح)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ هو القُدوة للآخرين . فقد ضرب أروع الأمثلة على أداء الأمانة ، وردِّها إلى أصحابها . مع أن هذا التصرف النبوي المستند إلى الأمر الإلهي يجيء من منطلق القوة لا الضعف . وهذا يزيد الأمرَ بهاءً وإجلالاً . فالنبيُّ ﷺ هو الفاتحُ المنتصر الذي لا كلمة تَعلو فوق كلمته ، ومع هذا لم يتكبر على الناس، ولم يأخذه الاغترار بالنصر والتمكين . وقد أدى الأمانة إلى مَن هو دونه (الطرف الأضعف) عن طِيب نَفْسٍ ، فلا أحد أكبر من أمر الله تعالى ، ولا أحدٌ يمكنه الاستغناء عن الأجر الإلهي .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٧) عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _: أن رسول الله ﷺ قال : ((لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)) .

وفي هذا إشارةٌ إلى أهمية الأمانات والحقوق ، وضرورة أدائها إلى أصحابها . ولا يمكن للخائن أن يُفلِت بفعلته . فإذا أفلت في الدنيا ، ففي الآخرة سوف يجد سوءَ عمله كارثةً حالَّة به . فالموتُ ليس نقطةَ النهاية ، بل هو نقطة البداية .

حتى إن البهائم سوف يَحصل بينها قصاص وأداء حقوق ، فيُقتَصُّ من القرناء (التي لها قرن) لصالح الجلحاء (التي ليس لها قرن) . فإذا كان حال البهائم (غير المكلَّفة شرعاً) هكذا، فكيف سيكون حال الناس المكلَّفين والغارقين في حقوق الناس بدون وجه حق .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٧) : ((وأمَّا القصاص من القرناء للجلحاء ، فليس هو من قصاص التكليف ، إذ لا تكليف عليها ، بل هو قصاص مقابلة)) اهـ .

وهذه المقابلةُ له حكمة شرعية بالغة . فاللهُ تعالى يريد إعلامَ الخلق بأنه أحاط بكل شيء علماً ، ولا شيء يَضيع عنده . فعالَمُ الإنسان ، وعالَم البهائم ، وعالَم الجمادات . كل هذه العوالم يسيطر عليها خالقها _ سبحانه وتعالى _ . وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ : عن النبي ﷺ قال : ((القتلُ في سبيل الله يُكفِّر الذنوبَ كلها_ أو قال _ كل شيء إلا الأمانة ، والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الحديث ، فأشد ذلك الودائع))[7] .

(٧) رواه الطبراني (١٠/ ٢١٩) . وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٥٣٢) : ((رجاله ثقات)) .

هذا يدل على خطورة تضييع الأمانة، وأنها ملتصقة بالعبد في الدنيا والآخرة ، وستقضي عليه إن لم يقم بحقها وأدائها على أكمل وجه . كما أن الأمانة لها أشكال متعددة ، وهي تتواجد في العبادات كالصلاة والصوم . والأمانةُ في العبادات تستلزم أداء العبادات على أحسن وجه دون تهاون أو تقصير ، وأخذ الأمور التعبُّدية على محمل الجِد لا الهزل . كما أن الأمانة في الودائع لها وضعٌ خاص بسبب تعلقها بحقوق العباد . واللهُ تعالى قَد يَغفر ما بينه وبين العبد ، لكنَّ حقوق الناس لا تَسقط إلا بِرَدِّها إلى أصحابها أو طلب مسامحتهم . ولا مجال للهرب من هذه الحقوق ، فمَن نجا من المساءلة في الدنيا لن يَهرب في الآخرة .

قال اللهُ تعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتِكم ﴾ [الأنفال: ٢٧].

إن الخيانة (عكس الأمانة) مرتعها وخيم ، وهي نقطةٌ سوداء في تاريخ الفرد سوف تقضي على مصيره ، وتورده المهالك . وأعظمُ خيانة هي خيانة الله ورسوله ﷺ ، وتتمثل في ترك الفرائض التي شَرَعها اللهُ تعالى ، ومخالفة السُّنة النبوية . وهذه الجريمةُ شديدة الخطورة لأنها تعمل على تدمير المجتمع الإسلامي ، وتعريض حياة المسلمين للخطر ، والقضاء على منجزات الحضارة الإسلامية وهدمها . كما يتوجب عدم إنقاص الأعمال التي ائتمن اللهُ عليها العباد .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٣٤٦) : ((وَسُمِّيت أمانة ، لأنها يؤمن معها من منع الحق . مأخوذة من الأمن)) اهـ .

أمَّا سبب نزول الآية . ففي زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٣٤٣و٣٤٤) : ((نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر . وذاك أن النبي ﷺ لَمَّا حاصر قُرِيظة سألوه أن يصالحهم على ما صالح عليه بني النضير على أن يسيروا إلى أرض الشام ، فأبى أن يُعطيَهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد ابن معاذ فأبوا ، وقالوا : أَرْسِل إلينا أبا لبابة ، وكان مناصحاً لهم لأن ولده وأهله كانوا عندهم ، فبعثه إليهم ، فقالوا : ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ ، فأشار أبو لبابة بيده إلى حَلْقه ، إنه الذبح ، فلا تفعلوا فأطاعوه ، فكانت تلك خيانته . قال أبو لبابة : فما زالت قدماي حتى عرفتُ أني قد خنتُ اللهَ ورسوله . ونزلت هذه الآية . هذا قول ابن عباس والأكثرين)) اهـ .

ومن الضروري أن ينتبه المسلمُ إلى أقواله وأفعاله لئلا تكون حُجَّةً عليه . فأبو لبابة صحابي جليل ، لكن قَدَمَه قد زَلَّت في هذا الموقف ، وأفشى سِرَّاً من أسرار المسلمين للأعداء . وقد انساق وراء عاطفته ، وسقط ضحيةً للعلاقة الجيدة التي تربطه مع يهود بني قريظة .

وهذه الخيانةُ العظمى لا يمكن تبريرها بأي شكل . إذ إن الرابطة الدينية لا يعلوه شيء ، وهي أسمى وأجل من علاقات القُربى أو الصداقة ... إلخ . وقد أدرك أبو لبابة هذا الأمر الشنيع الذي أَقدم عليه ، وندم عليه أشد الندم . والرجوعُ إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل . ومَن تاب ، تاب اللهُ عليه .

٦_ البيع :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وأحلَّ اللهُ البيعَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

إن العلاقات المالية هي العمود الفقري للمجتمع ، وهي الضمانة الأكيدة للحراك الاقتصادي والاجتماعي . وفي هذه المنظومة المالية لا يخفى أهمية البيع والشراء ، فهاتان العمليتان هما أساس الحركة الاقتصادية على مستوى الأفراد والجماعات .

وبما أن أشكالَ الحياة والأنشطةَ الإنسانية في المجتمع الإسلامي محكومة بالضوابط الشرعية ، فمن الطبيعي أن تكون التجارةُ منضبطة بالأحكام الدينية من أجل ضمان حقوق الناس ، ولكي يتساوى الجميع دون تمييز أو استغلال ، ولكي تدور عجلة الاقتصاد دون عوائق .

وقد جعل اللهُ البيعَ حلالاً رحمةً بالعباد ، وأحلَّ الأرباحَ في التجارة . فالشريعةُ لم تجيء للتضييق على الأفراد ، بل للتوسيع عليهم في أنشطتهم وعلاقاتهم . فالإنسانُ حُر ما لم يَضُر . وقد رَسمت الشريعةُ حدوداً عامة للعلاقات التجارية لكي يتحرك الأفراد بحرية بعيداً عن الربا والاحتكار والاستغلال وابتزاز الآخرين ... إلخ .

وقد ذَمَّ الشرعُ التجارَ الذين لا يَلتزمون بالأحكام الشرعية في معاملاتهم المالية . فيعتمدون مبدأ " الغاية تُبرِّر الوسيلةَ " ، وينتهجون أسلوبَ الحلف لترويج السلعة ، والكذب من أجل تحقيق الأرباح . وهؤلاء اعتبروا التجارة نظاماً مفتوحاً بلا ضوابط ، يَغرقون فيه لزيادة أرصدتهم البنكية دون وازع ديني ، أو اعتبار أخلاقي ، أو تعاطف إنساني .

وعن عبد الرحمن بن شبل _ رضي الله عنه _ أن النبي ﷺ قال : ((إن التجار هم الفُجَّار)) ، قالوا : يا رسول الله ، أليس قد أحل اللهُ البيعَ ؟ ، قال : ((بلى ، ولكنهم يَحلفون فَيَأثمون ، ويُحدِّثون فَيَكْذبون))[8] .

(٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٨) برقم (٢١٤٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

التجارةُ عملٌ شريف نبيل ، ولكن كثيراً من التجار حَوَّلوا هذه المهنة إلى وسيلة للكسب السريع غير المشروع . فتراهم يَعتمدون على الحلف لترويج السلع فيقعون في الذنوب العظيمة . ولا يخفى أن الحلف يتضمن اسمَ الله العظيم ، ويجب أن يظل اسمُ الله تعالى في مكانة عليا بعيداً عن الابتذال ، واستخدامه كوسيلة تجارية . كما أن الكذبَ من أجل إنفاق السلعة يُعتبَر أساساً تجارياً عند الكثيرين ، فيُزيِّنون البضاعةَ القبيحة من أجل بيعها، ويَكذبون في مقدار ربحهم من أجل جذب الزبائن وإقناعهم بجدوى الشراء ... إلخ . وهذه الأمور ضد المنهج الإسلامي في التجارة والبيع والشراء .

٧_ الكيل والميزان :

قال اللهُ تعالى : ﴿ فأوفوا الكَيْلَ والميزان ولا تَبخسوا الناسَ أشياءهم ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

إن الغش والتدليس في المعاملات المالية من سمات الأمم المتخلفة والحضاراتِ الظالمة الآيلة للسقوط . فمن الواجب إتمام حقوق الناس في الكيل والميزان بلا تطفيف ، وهذا لا يتأتى إلا وفق العدل والإنصاف وعدم التمييز بينهم . ومن الواجب _ كذلك _ عدم ظلمهم وسلبهم حقوقهم تحت أية ذريعة كانت .

وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَبخسوا الناسَ أشياءهم ﴾ للتعميم . فالناسُ كلمةٌ عامة تشمل المؤمن والكافر على السواء . فينبغي التعامل بالعدل مع الجميع بغض النظر عن أديانهم أو أجناسهم. كما أن قوله تعالى : ﴿ أشياءهم ﴾ يفيد التعميم ، أي إنهم كانوا يَبخسون الكثير والقليل على حَدٍّ سواء ، ويَعتبرون هذا البخسَ (النقص) معاملةً مالية أساسية لا غنى عنها . فالتحايلُ عندهم منهجٌ ثابت ونظامَ حياةٍ ، وليس معاملةً عابرة .

والغشُّ والخداع ليسا دليلاً للذكاء أو مُبرِّراً لتحقيق الثراء السريع ، بل هما مؤشر على انتكاسة العقل البشري ، وسقوط الحضارة في فخ الظلم . وكلُّ حضارةٍ تعتمد الظلمَ شريعةً لها تقامر بوجودها ، وتضع رِجْلها على طريق الانطفاء والنهاية الأليمة .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٢٢١) : ((البخس النقص . وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها ، أو المخادعة عن القيمة ، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه ، وكل ذلك من أكل المال بالباطل ، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه على جميعهم)) اهـ .

٨_ أموال اليتامى :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالَهم ولا تتبدَّلوا الخبيثَ بالطَّيِّب ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالكم إنه كان حُوباً كبيراً ﴾ [النساء : ٢] .

والخطاب القرآني للأولياء أن أعْطُوا اليتامى إذا بلغوا أموالَهم . واليتيمُ هو من لم يَبْلغ الحُلُم . وهنا يتضح المنهج القرآني في حفظ حقوق الناس خصوصاً الفئات الاجتماعية الضعيفة ، وصيانة المال الذي هو قوام الحياة .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ١٢) : ((وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين : أحدهما _ إجراء الطعام والكسوة ما دامت الولاية ، إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلي والاستبداد كالصغير... . الثاني_ الإيتاء وإسلام المال إليه، وذلك عند الابتلاء والإرشاد)) اه .

والعاقلُ لا يتبدل الخبيث بالطيب. وبعبارة أخرى لا يترك مالَه الحلال ثم يَسطو على مال اليتيم بغير وجه حق . فالأتقياء الحريصون على طاعة الله والخائفون من غضبه ، لا يتبدلون الحرامَ من أموال الناس بالحلال من أموالهم .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٦) : ((قال سفيان الثوري عن أبي صالح : لا تَعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيَك الرزقُ الحلال الذي قُدِّر لك)) اه .

فالحرامُ حجابٌ حاجز يمنع وصول الحلالَ إليك . والإنسانُ قد يَضعف أمام الرزق الحرام فيغرف منه ، ولو صبر لجاءه الرزقُ الحلال . ولكن الطمع والعجلة منعا وصولَ الخير إليه . وهذا بالطبع من الآثار المدمِّرة للمعصية التي تُجرِّد المرءَ من التوفيق ، وتَحرمه من الرزق الحلال .

وفي الدر المنثور (٢/ ٤٢٥) عن سعيد بن جبير قال : ((إن رَجلاً من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلمَّا بلغ اليتيمُ طلب مالَه ، فمنعه عنه ، فخاصمه إلى النبي ﷺ . فنزلت ﴿ وآتوا اليتامى أموالَهم ﴾ ، يعني الأوصياء)) اهـ .

إن المنهج الإسلامي قد تأسَّس في الواقع لحفظ حقوق الناس ومنع ظلمهم . وقد أرسى دعائم الحق والعدالة والمساواة واقعاً ملموساً وليس فرضياتٍ هلامية خالية من المعنى أو القدرة التطبيقية . واليتامى فئةٌ ضعيفة في المجتمع بلا حَوْلٍ ولا قوة ، بسبب افتقادها لمقوِّمات الصمود والمواجهة والتحدي . وقد راعى الإسلامُ هذا الجانب ، وأمر الآخرين باحترام حقوق اليتامى وعدم التلاعب بأموالهم وممتلكاتهم . وقد ضرب الإسلامُ سوراً حول أموال اليتامى لئلا تَضيع في أفواه

الطامعين الذين يستغلون نقاطَ ضعف الآخرين لتحقيق مآرب شخصية مُحرَّمة ، ومكاسب مادية آثمة ، ومنافع قذرة ليس لها نصيب من الشرعية الدينية أو الأخلاقية .

كما شَدَّد الإسلامُ على حُرمة أكل أموال اليتامى . وذلك بخلطها مع أموال الناس وأكلها جميعاً . واعتبر الشرعُ هذا الفعلَ القبيح حوباً كبيراً ، أي إثماً عظيماً ، بسبب ما فيه من اعتداء على حقوق الآخرين ، والاستيلاء على ممتلكاتهم بلا وجه حق .

والجدير بالذِّكر أن حفظ المال من مقاصد الشريعة . وتجاوزُ هذا المقصد الأساسي يُعتبَر هدماً للشريعة ، وتطاولاً على أُسسها ، وتدميراً للقيم الحضارية والمنجزات الإنسانية ، وإفساداً في الأرض يصل تأثيره إلى الجميع بلا استثناء .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هِيَ أَحسن ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

إن الشريعة قد صانت مالَ اليتيم ، وأحاطته بسياج منيع . فاليتيمُ كائنٌ ضعيف ذو جناح مهيض بلا حَوْلٍ ولا قوة . ولو تُرك لأهواء الجماعة البشرية وأطماعهم فإنه سَيَضيع ، وتذهب أموالُه أدراج الرياح . فلا يجوز المساس بمال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتكثيره واستثماره على أحسن وجه ممكن . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٤٩) : ((إنما خص مال اليتيم لأن الطمع فيه _ لقلة مراعيه وضعف مالكه _ أقوى)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((لما نزلت ﴿ ولا تَقربوا مالَ اليتيم إلا بالتي هِيَ أَحسن ﴾ ، عَزلوا أموالهم عن أموال اليتامى ، فجعل الطعام يفسد ، واللحم ينتن ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله _ عز وجل _ : ﴿ قُل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة : ٢٢٠] ، فَخَالَطوهم))[9] .

وقد كان المسلمون حريصين على حفظ مال اليتيم ، فابتعدوا عنه ، وعَزلوا أموالهم عن أموال اليتامى ، فحدثت مشكلاتٌ جسيمة مثل فساد الطعام واللحم . وقد أزال اللهُ تعالى اللبسَ الحادث في الأذهان ، فَنَبَّه على أهمية الإصلاح ، وعدم وجود حرج في مخالطة الأيتام ، إذ إن أُخُوَّة الدِّين تتَّسع للجميع . وفي تفسير القرطبي (٣/ ٦٠) : ((وقيل : كانت العرب تتشاءم بملابسة أموال اليتامى في مؤاكلتهم)) اهـ .

---

(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٦) برقم (٣١٠٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

والتشاؤمُ كان ثقافةً عربية بامتياز، لكن الإسلام هدمه ، ووضع قواعد ثابتة للعمل الاجتماعي والاقتصادي.وقد أذن اللهُ تعالى بمخالطة الأيتام.وينبغي أن يكون الهدف من وراء ذلك هو الإصلاح،ومساعدة الأيتام على الوقوف على أقدامهم بعيداً عن الفقر، والحاجة ، والعُقد النفسية .

٩_ أموال النساء :

إن المرأة عنصر ضعيف في المجتمع ، لا تملك القوةَ لأخذ حقها بيدها أو المطالبة به بشكل واضح ومتماسك . وقد صانت الشريعةُ مكانةَ المرأة وحَفظت حقوقَها لئلا تصبح الأنثى هي الحلقة المسحوقة في زحمة الحياة اليومية ، وضجيجِ اللهاث وراء المادة .

لذا ليس غريباً أن يحفظ الإسلامُ أموالَ النساء، ويؤسس تشريعاتٍ خاصة بذلك. فالإسلامُ لا يَقبل الاستغلال ولا يُبرِّره بأي شكل. وهذا يدل على منهجية احترام حقوق المرأة المعنوية والمادية ، وصيانتها من عبث العابثين ، واستغلال الذين يرون في المرأةَ فريسةً سهلة .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وآتوا النِّساءَ صَدُقاتهنَّ نِحْلةً ﴾ [النساء : ٤] .

فقد أوجب اللهُ تعالى على الرجال إعطاءَ النساء مهورهنَّ كاملةً . وجعل _ سبحانه _ هذا الأمرَ فريضةً واجبة لا مجال للتلاعب بها أو الالتفاف حولها . والرجولةُ الحقيقية لا يمكن تحديد ماهيتها إلا وفق التعامل مع النساء . وما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم . وقل لي كيف تعامل المرأةَ أقل لكَ مَن أنتَ . وقال المطرزي في المغرب في ترتيب المعرب (٢/ ٢٩٢) : (((نحَله) كذا: أي أعطاه إيَّاه بطيبةٍ من نفسه من غيرِ عِوَض ... و(النِحْلة) : العَطِيَّة)) اهـ .

وقد كانوا في الجاهلية يستغلون المرأةَ أبشع استغلال ، فلا يُعطونها من المهر شيئاً ، بل يأخذونه كاملاً . وبالطبع فالمرأةُ لا تملك غير الرضوخ للأمر الواقع ، فهي لم تتعود على المطالبة بحقها ، كما أن المجتمع العربي البدائي موغل في الذكورية المناوئة للأنوثة . فالعربُ البدائيون لم يكونوا يقيمون وزناً للمرأة فهُم يَنظرون إليها على أنها عنصر هامشي يتلقى الأوامرَ ويُنفِّذها بلا تفكير أو معارَضة. وللأسف فإن واقع المرأة المعاصر يشبه إلى حد بعيد واقعَ المرأة الجاهلية ، وذلك بسبب سيطرة العادات البالية في المجتمع . وهذه العاداتُ يتم تقديمها على الشريعة . وفي أحيان كثيرة تصبح التقاليد المتوارثة هي الشريعة الاجتماعية التي يَحتكم إليها الناس . وهذل هو الضلالُ بعَيْنه . وهكذا تبرز أهمية تحرير المرأة بالإسلام وليس من الإسلام .

وفي العجاب في بيان الأسباب(٢/ ٨٢٩)عن الكلبي وجماعة قالوا : ((هذا خطاب للأولياء. وذلك أن ولي المرأة كان إذا زَوَّجها ، فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها

قليلاً ولا كثيراً ، وإن كان زوجها غريباً حملوها إليه على بعير ولا يعطونها من مهرها غير ذلك ، وكذلك كانوا يقولون لمن وُلدت له بنتاً : هنيئاً لك النافحة ، أي يأخذ في مهرها إبلاً يضمها إلى إبله ، فَيُكَثِّرها بها ، فنهاهم اللهُ عن ذلك ، وأمر بأن يُعطَى الحق لأهله)) اهـ .

إن المرأة العربية كانت في موضع الشراء والبيع ، والعَرْض والطلب . فهي سلعةٌ يُسعَى لترويجها بُغية جني أكبر قَدْر من الأرباح. وهي لا تَعدو عن كَوْنها مشروعاً استثمارياً لزيادة أرصدة أوليائها من الإبل والغنم (عصب الاقتصاد العربي) . وهذا يشير إلى المكانة المتدنية للمرأة ، وأن هناك ثقافةً مجتمعية تتمحور حول استغلالها وامتهانها .

وقد ألغى الإسلامُ هذه المظاهر اللاإنسانية ، وحمى المرأةَ من الذئاب البشرية ، ووضع التشريعاتِ الخالدة لحفظ حقوقها .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وللنساء نصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ [النساء : ٧] .

إن هذا الحُكم الإلهي قد أبطل عادةَ أهل الجاهلية الذين كانوا يُورِّثون الرجالَ دون النساء والأطفال. وقد أثبتت الشريعةُ أن للنساء حظاً من تركة الميت، ونصيباً من الميراث لا يمكن إنكاره، أو الاستيلاء عليه تحت أية ذريعة . وفي زاد المسير (٢/ ١٨) لابن الجوزي : ((أن أوس بن ثابت الأنصاري توفِّي وترك ثلاث بنات وامرأة ، فقام رَجلان من بني عَمِّه يقال لهما قتادة وعرفطة ، فأخذا ماله ، ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً ، فجاءت امرأته إلى النبي ﷺ فذكرت له ذلك ، وشكت الفقر . فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس)) اهـ .

إن حرمان الأنثى من الميراث كان ثقافةً جاهلية سائدة لها غطاء اجتماعي لا يمكن اختراقه . فالأمرُ مفروغ منه ، وهو مُسلَّمة غير قابلة للنقاش ، فلا الرجال يُناقشون في هذا الأمر ، ولا النساء يمتلكن حقَّ الاعتراض. وكان أهلُ الجاهلية يقولون إنما يَرِثُ من يُحارِب ويذبُّ عن الحوزة. أي إنهم كانوا يَنظرون إلى المرأة كعنصر هامشي لا دور له في الحياة سوى خدمة الرجال ، وبالتالي فهي ـ من وجهة نظرهم ـ لا تستحق الميراث لأنها لا تقوم بأعباء الحرب ، ولا تدافع عن القبيلة ، وهذه السياسة الجاهلية تشير إلى بدائية العقل العربي في التعامل مع المرأة ، وحصرِ الإنجازات البشرية بالحرب والقتال دون أدنى اعتبار للقيم الإنسانية والمسؤولية الاجتماعية والدور الحضاري.

وحينما جاء الإسلامُ أعطى كلَّ ذي حق حقه، وأنصف الفئات الضعيفة المنبوذة في المجتمع كالنساء. فصارت المرأةُ تمتلك الجرأةَ للمطالبة بحقها، والسعي وراء تحصيله من مغتصبيه . وهذا ما كان ليحصل لولا التشريع الإسلامي الذي رفع مكانةَ المرأة ، وأعطاها حقوقها المعنوية والمادية.

١٠_ أموال السفهاء :

قال اللهُ تعالى: ﴿ ولا تُؤْتوا السُفهاءَ أموالَكم التي جعل اللهُ لكم قِياماً وارزقوهم فيها واكْسُوهم وقولوا لهم قَوْلاً معروفاً ﴾ [النساء : ٥] .

لقد صانت الشريعةُ المالَ (عصب الحياة) ومَنعت وصولَه إلى الجهات التي لا تُحسِن التصرف خوفاً من إضاعته ، وتبذيره في دروب الشر . فالمالُ ركيزةٌ أساسية في حياة المجتمعات ، وإذا تم تضييعه فلن تقوم للمجتمع الإنساني قائمة . فجاءت القواعدُ الشرعية لحماية المال، ومنع تبذيره ، وبيان السُّبل الصالحة لإنفافه بلا إفراط أو تفريط . فالسفهاء (الجهال) غير قادرين على إدارة شؤون حياتهم،وهُم يفتقدون القدرةَ على التصرف بالممتلكات، وإذا امتلكوا المالَ سيُتلفونه.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٧) : ((نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رُشد لهم أموالهم فيُضيِّعوها . وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم ، وتحت ولايتهم)) اهـ .

وعن أبي موسى الأشعري _ رضي الله عنه _ : عن النبي ﷺ قال : ((ثلاثة يَدعون الله فلا يُستجاب لهم : رَجلٌ كانت تحته امرأة سيئة فلم يُطلِّقها ، ورَجلٌ كان له مال فلم يُشهِد عليه ، ورَجلٌ آتى سفيهاً مالَه ، وقد قال اللهُ _ عز وجل _ : ﴿ ولا تُؤْتوا السُفهاءَ أموالَكم ﴾))[10].

فهذا الرَّجلُ الذي يؤتي السفيهَ ماله ، مُشارِكٌ في جريمة إضاعة المال . إذ إنه فتح بابَ الفساد على مصراعيه ، وساهم في تبديد الموارد المادية للجماعة البشرية المحتاجة إلى المال لبناء نظامها الحياتي بلا اضطراب أو مشكلات . وهذه الكارثة الاجتماعية لها تأثير خطير على مسار الإنسان في محيطه الاجتماعي ، وستكون معولَ هدم في الكيان البشري برمَّته .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٠٠) : ((ينهى _ سبحانه وتعالى _ عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً ، أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها ، ومن ههنا يؤخذ الحَجْر على السفهاء ، وهم أقسام فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدِّين ، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برَجل وضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حُجر عليه)) اهـ .

---

(١٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣١) برقم (٣١٨١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

إن الشريعة الإسلامية أحاطت المال بسور واقٍ ضد سوء التصرف ، وذلك لأهمية المال في إنشاء الأمم والحضارات ، إذ إنه العمود الفقري للحياة الاجتماعية بأكملها. ومن هنا كان الْحَجْرُ _ منع الناس من التصرف بأموالهم _ . ومنهجيةُ الحجر ليست عبثيةً أو مزاجية ، بل هي مبنية على قواعد شرعية تتعامل مع الواقع ولا تعيش في الخيالات .

فالصغيرُ غير مؤهَّل لممارسة الشؤون الحياتية ، والاضطلاع بمسؤولية التصرف في الممتلكات ، لذلك حِيل بينه وبين المال ، ومُنع من التصرف فيه ، لأنه لا يملك القدرة العقلية والبدنية على فعل ذلك . كما أن المجنون لا يَقدر على التصرف بسبب فقدان قواه العقلية ، فالجنون يمنعه من التمييز بين الصواب والخطأ . وأحياناً يكون الشخصُ غير قادر على التصرف بحكمة ، فيُبذِّر ماله يمنةً ويسرة بلا حساب ، إمَّا لنقص عقله أو فسقه الذي يؤدي إلى إضاعة ماله في الملذات والحياة الاستهلاكية بكل طيش . وأيضاً يمكن الحجرُ على المدين الغارق في الديون ، وذلك لحفظ حقوق الدائنين ، وإجباره على السداد .

ومع أن الإسلام منع السفهاء من التصرف بأموالهم لعدم امتلاكهم الأهلية ، إلا أنه نَبَّه على أهمية إطعامهم وكسوتهم ، وعدم تركهم لإحسان الآخرين وصدقاتهم . فلا ينبغي تدميرُ حياة السفهاء وإضاعتهم تحت ذريعة " عدم امتلاك الأهلية " . فالأمورُ تُقدَّر بقَدْرها . والشريعةُ لا تُغلِق باباً إلا وتفتح أبواباً أخرى. فالشارعُ _ سبحانه _ خالق الإنسان ، ويَعلم ما يُصلحه وما يُفسده .

١١_ أموال الكفار :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وجعلتُ له مالاً ممدوداً ﴾ [المدثر : ١٢] .

إن الإنسان إذا لم يُقدِّر النعمَ الإلهية ، ويدرك عظمةَ المنعِم سبحانه ، فإن هذه النعمة ستصبح نقمةً عليه ، ووبالاً يُفسِد دنياه وآخرته. فالكثيرون قد غرقوا في البهرج الخادع ، والزينةِ الوهمية ، ولم يعرفوا ماهيةَ الاختبار الإلهي المتجلي في المال ، فكان ذلك استدراجاً لهم ، فعادوا بالخسران ، وانتهت حياتهم في الهاوية، وقُضِيَ على مصيرهم في الآخرة . والعاقلُ مَن ينظر إلى ما وراء الأمور ، ولا ينخدع بالسراب . فالعِبرةُ في الجوهر لا المظهر .

والآيةُ تتحدث عن الوليد بن المغيرة الذي آتاه اللهُ مالاً عظيماً ، لكنه اغتر بذلك ، ولم يَشكر المنعِم سبحانه ، فكان مالُه حسرةً عليه ، ولعنةً تطارده . فقد كان من سادة العرب في الجاهلية ، وأصحاب الثراء الفاحش ، وألد أعداء الإسلام ، ومات مشركاً فلم ينقله مالُه من الظلمات إلى النور ، أو يساعده على اعتناق الحق ، كما أن ماله لا يمكن أن ينقذه من عذاب الآخرة .

والإنسانُ المتعلق بالأسباب المادية الظاهرية دون معرفة المسبِّب ، يقامر بمصيره ، ويورد نفسه المهالك . فالمالُ لا يمكنه جلب السعادة أو الطمأنينة ، كما أن الأثرياء لا يمكنهم شراء الهداية الربانية بأموالهم ، أو الحصول على الجنة باستخدام نفوذهم وسُلطتهم . فالمالُ وصاحبه زائلان . وصدقَ الشاعر : واللبيبُ اللبيبُ من ليسَ يغترُّ بكونٍ مصيرُه لفَسادِ

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٦٦) : ((وهو ما كان للوليد بين مكة والطائف من الإبل ، والحجور ، والنعم ، والجنان ، والعبيد ، والجواري . كذا كان ابن عباس يقول)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وما يُغني عنه مالُه إذا تردَّى ﴾ [الليل : ١١] .

فماذا يستفيد المرءُ إذا ربح العالَمَ وخسر نفسَه ؟! . وما نفعُ المال إذا هلك صاحبُه وسقط في جهنم ؟! . فهذا المالُ _ الذي بخل به صاحبُه وجمعه وحَرَسه _ لا يُغني عنه شيئاً . والمضحكُ المبكي في الأمر أن المال الذي ضحَّى صاحبه _ لجمعه وحفظه _ بقواه الروحية والمادية ، لا يَقدر على تخليص مالكه من الموت أو النار ، أو التخفيف منهما .

وفي تفسير القرطبي (٢٠/ ٧٧) : ((و (ما) : يُحتمَل أن تكون جحداً . أي : ولا يغني عنه ماله شيئاً ، ويحتمل أن تكون استفهاماً معناه التوبيخ ، أي : أيُّ شيءٍ يُغني عنه إذا هلك ووقع في جهنم)) اهـ .

إن المال له دور مركزي في تحريك مفاصل الحياة قاطبةً ، ولكنْ ينبغي النظر إليه كوسيلة موجودة في اليد لا عقيدة مستولية على القلب . كما أنه من الواجب اكتساب المال من الطرق المشروعة ، فالغايةُ _ وفق المنهج الإسلامي _ لا تبرِّر الوسيلةَ . فالكسبُ والإنفاق هما جناحا العمل الاقتصادي ، ويجب أن يكون مُنْبَثِقَيْن من منهجية شرعية لا مكان فيها لأنصاف الحلول ، أو التحايل ، أو التلاعب بمصائر الآخرين .

فمصدرُ اكتساب المال لا بد أن يكون طاهراً شريفاً لا شُبهة فيه ، وأيضاً يكون الإنفاقُ مُوَجَّهاً في السُّبل المشروعة. أمَّا ترك الحبل على الغارب ، وترك الناس يَسرحون ويَمرحون في الأمور المالية بلا تنظيم أو مراقبة ، فهذا من شأنه تحويل الاقتصاد إلى مقامرة ، ولعبةٍ قاتلة تقضي على حُلم الأُمَّة في النهضة ، وتُدمِّر حاضر الأفراد ومستقبلهم ، وتفقدهم الثقة بأنفسهم وبلادهم .

والعمليةُ الاقتصادية الناجحة لا يمكن أن تؤتيَ ثمارها إلا إذا أَعلنت الحربَ على الفقر لا الفقراء . فالحركةُ الاقتصادية تستمد شرعية وجودها وجدواها من حركتها الدؤوبة لردم الهوة بين الأغنياء والفقراء . فمن غير المقبول أن يكون الاقتصادُ لعبةً قذرة منسوجة مسبقاً بإحكام لتكريس

الثروة في أيدي أقلّية، في حين أن السواد الأعظم من الشعب يزداد فقراً وذلاً. فالحركةُ الاقتصادية السليمة لا تهدف لزيادة ثراء الأغنياء ، وإفقار الشعب ، بل تهدف إلى رفع مستوى الدخل لجميع الأفراد دون تمييز .

وعلى الأغنياء أداءُ حقَّ الله تعالى في أموالهم ، والابتعاد عن التبذير والترف والتفاخر أمام الناس . فالمالُ فتنةٌ ، أي امتحان إلهي لِيَعْلم اللهُ تعالى الناجحين والفاشلين . فالذي أدرك عَظَمة النعم الإلهية ، وأدَّى واجب الشكر ، وسَخَّر مالَه لتحقيق الأهداف النبيلة فقد نجح في الاختبار ، أمَّا من اغتر بماله واعتبره نتيجةً منطقية لعبقريته ونشاطه دون معرفة المنعِم سبحانه ، ولم يهتم بمصدر اكتسابه وسُبل إنفاقه ، فقد فشل في الاختبار بصورة كارثية ، وهو على خطر عظيم .

إذن ، لا بد أن يَخضع المالُ لتعاليم الشريعة ، وهذا الخضوعُ سيؤدي إلى تنمية المجتمع ، وتحسين وضع الفرد ، وحفظ حقوق الجميع دون تمييز على أساس الدِّين أو العِرْق . وعندئذ يزول الشعور بالظلم لدى كل الطبقات الاجتماعية. فالشريعةُ تحيط المالَ بسياجٍ أخلاقي لا يمكن اختراقه وبالتالي يتحول المجتمع إلى خلية نحل دؤوب ، عامرة بقيم الولاء والانتماء .

الفصل الثاني عشر

العلاقات القضائية

تمهيد

إن العلاقات القضائية شديدة الأهمية في بناء المجتمع الإنساني العصيِّ على الانهيار . فالعلاقاتُ القانونية والدستورية من شأنها وضع الأمور في نصابها الصحيح ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وعندئذ لا يَشعر أحدٌ بالظلم أو التهميش. فالإسلامُ قد وَحَّد المجتمعاتِ على أساس الحق والعدالة ، ووضع أحكاماً عامة وخاصة من أجل استئصال الشر وتعميم الخير . كما أن تجذير العدل واقعاً ملموساً سَيَدفع الفردَ والجماعة إلى العمل الدؤوب استناداً إلى روح الولاء والانتماء .

والظلمُ قاتلٌ للحضارة والقيم الإنسانية ، ففي أي مجتمع ظالم سيشعر الجاني والضحية بأنهما مظلومان . وعندئذ تنهار الموازين والمعاني ، وتعم الفوضى والمزاجية واختراع القوانين وفق أهواء الناس ، وأخذ القانون باليد ، وتفشي منطق القوة لا قوة المنطق .

وقد وضع الإسلامُ تشريعاتٍ وأُطراً اجتماعية تحفظ وجودَ المجتمع. وهذه التشريعاتُ يترتب عليها حقوقٌ وواجبات ينبغي للجميع أن يلتزم بها من أجل تحقيق المصلحة العامة ، والمصالح الشخصية على حدٍّ سواء .

والجديرُ بالذِّكر أن هذه التشريعات تتعامل مع الإنسان كإنسان . وبعبارة أخرى إن المجتمع الإنساني ليس ملائكياً ولا شيطانياً . فالأخطاء والخطايا سوف تتغلغل في سلوك البشر لأنهم ليسوا معصومين . لكنَّ المذْنِب سيجد العقوبةَ المناسبة الرادعة له وللآخرين .

وهذا الأمرُ ينقلنا إلى فقه العقوبات في الإسلام . فهي لم تجيء بدافع مزاجي أو انتقامي ، بل جاءت لتطهير المجتمع ، والحفاظ على وحدته وتماسكه وجدوى بقائه . فالحدود هي الضمانةُ الأكيدة للحفاظ على وجود الجماعة البشرية وتواجدها على خارطة الحضارة .

وأخيراً وليس آخراً ، فإن التنظيمات القضائية من شأنها تطهير النسق البشري من السلبيات . ولا يمكن لأحد _ مهما كانت عقيدته _ أن يختلف على قيمة العدل ، وأهمية الحُكم بالعدل ، ونشر الحق ، وأداء الشَّهادة كما هي. فهذه المعاني إنسانيةٌ شاملة عابرة للزمان والمكان . والإسلامُ هو الدِّين السماوي الأوحد الذي جاء لإنقاذ كل المخلوقات ، العاقلة وغير العاقلة . وبالتالي فلا غرابة أن نجد الشريعةَ الإسلامية قد وَضعت حلولاً لمشكلات الخلق (الإنس ، الجن ، الحيوان ، الطبيعة ، الجمادات) .

أولاً : علاقات قانونية ودستورية

١_ التكليف :

قال اللهُ تعالى : ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعها ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

إن القدرات البشرية محدودة وقاصرة ، ولها طاقةٌ مُعيَّنة لا يمكن تجاوزها . واللهُ تعالى خالق الإنسان ويَعلم مقدار تحمُّله ، لذلك لم يفرض _ سبحانه وتعالى _ على الإنسان فوق ما يَستطيع ، ولم يُحمِّله فوق طاقته . والشريعةُ جاءت لرفع الحرج عن الناس ، والتخفيف عنهم ، لا الضغط عليهم وتدمير حياتهم وحشرهم في الزاوية الضَّيِّقة . فالنفسُ البشرية لا تُلزَم إلا بما يسعها .

وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر (١/ ٢١٩) : ((رُوِيَ عن الحلاج الصوفي أنه كان يقعد في الشمس في الحر الشديد ، وعَرَقه يسيل ، فجاز بعض العقلاء ، فقال له : يا أحمق ، هذا تقاوي على الله تعالى)) اهـ .

فالمرءُ ينبغي ألا يُضيِّق على نفسه ، ويَضطرها إلى أضيق المسالك ، ويُعذِّبها أشد العذاب . فاللهُ تعالى لو أراد أن يُهلِك خلقَه لحمَّلهم فوق طاقتهم ، وجعل حياتهم جحيماً لا يُطاق ، وقضى على وجودهم . لكنَّ الرحمة الإلهية قد وَسعت كلَّ شيء . فعلى المرء أن يَلتزم بالشريعة بلا إفراط ولا تفريط ، فالفضيلةُ هي المسار المستقيم الواضح بين قيمتَيْن متطرِّفتَيْن . وعلى المرء ألا يُشدِّد على نفسه فيُشدِّد اللهُ عليه . فلا معنى لتحدي الشريعة ، أو محاولة التفوق عليها .

وفي صحيح البخاري (١/ ٢٣) : عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ عن النبي ﷺ قال : ((إن الدِّينَ يُسْرٌ ، ولن يُشَادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غَلبه)) .

فلا يمكن لأحد أن يُغالِب الدِّينَ أو يتفوق عليه . فالعاقلُ يلتزم بالرِّفق واللين والوسطية ، فلا يُحمِّل نفسَه فوق طاقتها فيُهلِكها ، ولا يُهمِل التعاليمَ الدينية ويستخف بها فيُضيع نفسَه . فالإسلامُ يُسْرٌ بلا ضعف . فكلُّ متعمِّق في الدِّين وفق مبادئ التشدد سَتنقطع به السُّبل ، فإذا ترك الإنسانُ الرفقَ والهدوء فسوف يَسقط حتماً .

وفي فتح الباري (١/ ٩٤) : ((قال ابن المنير : في هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدِّين ينقطع ، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة ، فإنه من الأمور المحمودة ، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال ، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم

إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة ، أو إلى أن خرج الوقت المختار ، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة)) اهـ .

إن الكثيرين يَفتقدون إلى الحكمة في التعامل مع الدِّين . فترى الواحدَ حريصاً على الصف الأول في المسجد في حين أنه عاق لوالدَيْه ، ولا يَسْلم من شرِّه أحد . والبعضُ يَحرص على السُّنة ويُضيِّع الفَرضَ . وقد رأينا الجهالَ من الصوفية يَحرصون على أوراد شيوخهم ليلاً ونهاراً ، في حين أنهم لا يقرأون القرآنَ ، ولا يَعرفون الأذكارَ النبوية . وهذا الانهيار أتى من سوء الفهم للدِّين ، والجاهلُ عدو نفسه . وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أنها قالت : ((ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرَيْن إلا أَخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً))[1] .

وهذا يدل على المنهجية الإسلامية الوسطية . فالشريعةُ لم تُشدِّد على الناس ، بل حَبَّبت إليهم الرفق واللين والأخذ بالأسهل ما يكن إثماً . وبالطبع فالحديثُ متعلق بالأمور الدنيوية لأن أمور الدِّين لا إثم فيها . والبعضُ يعتقد _ لجهله _ أن التشديد على النفس من علامات الزهد والتقوى . وهذا الوهمُ المنتشر على نطاق واسع جاء بفعل تأثيرات اجتماعية سلبية وتقاليد وعادات بشرية لا تمت للدِّين بصلة . فينبغي على المرء أن يضع الأمورَ في نصابها الصحيح ، فلا يجعل من الدِّين سُلطةً كهنوتية مغلقة وعقبةً في طريق الإبداع والتقدم ، وأيضاً لا يجعل الدِّينَ ألعوبةً بلا هوية تميل مع الرياح حيث مالت . فالتشديدُ في الدِّين وتمييعه قُطبا التطرف، والصواب هو الاعتدال ، وخيرُ الأمور أوسطها . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/ ٨٣) : ((قال القاضي : ويُحتمَل أن يكون تخييره ﷺ هنا من الله تعالى ، فَيُخَيِّره فيما فيه عقوبتان ، أو فيما بينه وبين الكفار من القتال وأخذ الجزية، أو في حق أمته في المجاهدة في العبادة أو الاقتصار، وكان يختار الأيسر في كل هذا)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ قادر على الاضطلاع بأشد المسؤوليات وأخطر المهمات، لكنه أراد ألا يُحرِج أُمَّته ، فهو يسيرُ بسَيْر أضعف أتباعه ، ليس عجزاً منه ، ولكنْ رحمةً بهم . فالقائدُ الحكيم لا يَحمل أتباعه على الشدائد فينهارون ، بل يُعلِّمهم كيفيةَ التعامل مع الخطوب الجليلة بشكل تدريجي عملي كي يقدروا على استيعاب المواقف الخطيرة ، والتعامل معها بدون مشكلات .

---

(١) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٣٠٦) برقم (٣٣٦٧) ، ومسلم (٤/ ١٨١٣) برقم (٢٣٢٧) .

وفي صحيح مسلم(١/٤٩٠)أن معاذ بن جبل_ رضي الله عنه_ سُئل عن سبب جمع النبي ﷺ في غزوة تبوك بين الظهر والعصر ، وبين المغرب والعشاء ، فقال : ((أراد أن لا يُحرِج أُمَّته)) .

وهذا الحديثُ يوضِّح المنهجَ النبوي الشريف في التعامل مع المؤمنين . فالشريعةُ جاءت للتخفيف عنهم ، ورفع الحرج ، وتوجيههم إلى أيسر السُّبل وأوضحها بلا تعقيدات .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٥) أن النبي ﷺ قال : ((هلك المتنطِّعون)) . قالها ثلاثاً .

أي: هلك المبالِغون المتعمِّقون في الأمور قولاً وفعلاً. فهؤلاء الغالون أضاعوا عمرَهم في تفاصيل التفاصيل دون مبرِّر شرعي أو مسوِّغ اجتماعي. فتراهم يَبحثون في قضايا لا فائدة منها ، ولا تؤثر على حياة الناس وشؤونهم اليومية. إنهم يعيشون في عوالم أحلامهم الذاتية ، ووساوسهم الشخصية.فهُم يتخندقون في شرانق خاصة بهم معزولين عن المسار الاجتماعي العام. وعلى الرغم من حياتهم على هامش الوجود الإنساني إلا أنهم يظنون أنفسهم علماء مؤثرين في مجتمعاتهم . وللأسف فهُم لا يَرَوْنَ أبعد من أنوفهم ، ويظنون أنهم يُحسِنون عملاً . وهذا هو الجهلُ بعَيْنه .

٢_ المسؤولية الشخصية :

إن المؤمن ثابت القلب ، لا يميل مع الريح حيث مالت. وذلك لأن جذوره ضاربة في الأرض ، فلا يهتز عند الأزمات ، ولا يَنكسر أمام العواصف. فهو يَعرف طريقَه جيداً لذلك لا يَلتفت أثناء سَيْره . كما أن المؤمن رابط الجأش ، قوي الشكيمة ، يَنصح الآخرين ولا يُشاركهم في الإثم . فإن اهتدوا كان معهم ناصراً ومُعيناً ، وإن ضلوا لم يَغرق معهم في الضلال ، وإنما يحاول انتشالهم من مأزقهم . فالمؤمن ثابتٌ على موقفه بغض النظر عن مواقف الناس ، لأنه يستمد رسوخَه من تعاليم الشريعة لا أمزجةِ الناس وأهوائهم . أما الذين يَبنون مواقفهم الحياتية وفق أهواء الآخرين ، فسيبقون بلا هوية، تائهين في الدروب. وكما قيل: لا يَذهب بعيداً مَن لا يَعرف إلى أين هو ذاهب.

قال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يَضُرُّكم مَن ضَل إذا اهتديتُم ﴾ [المائدة : ١٠٥] . إذا قام العبدُ بإصلاح نفسه ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، فلن يؤثر عليه ضلالُ المنحرِفين وفسادهم . فإن التزم العبدُ بالهداية واعتصم بالشريعة ، فلا ضرر عليه من أهل الغواية والمعصية ، سواءٌ كانوا قريبين أو بعيدين . فلا يُؤاخَذ الإنسانُ بآثام الآخرين . فكلُّ امرئ يتحمل مسؤولية نفسه لا أكثر ولا أقل .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٢٢) : ((لأن المذهب الصحيح عند المحقِّقين في معنى الآية أنكم إذا فعلتُم ما كُلِّفْتُم به فلا يَضُرُّكم تقصير غيركم)) اهـ .

فالآيةُ لا يوجد فيها إعفاء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فالمسلمُ لا يكتفي بإصلاح نفسه ، بل عليه إصلاح الآخرين بالأسلوب الحسن ، ومَن رَفض النصيحةَ فإثمه على نفسه ،كما أن الناصح الذي أَصلح سِرَّه وعلانيته لن يتأثر بمعصية غيره .

وعن أبي بكر الصِّديق ــ رضي الله عنه ــ أنه قال : يا أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يَضُرُّكم مَن ضَل إذا اهتديتُم ﴾، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : ((إن الناس إذا رأوا ظالماً فلم يأخذوا على يَدَيْه ، أَوشك أن يَعُمَّهم اللهُ بعقاب))[2] .

إذن ، هناك فهمٌ مغلوط للآية . فالبعضُ يعتقد أن عليه إصلاح نفسه دون النظر إلى الآخرين وقضايا المجتمع . وهذا فهمٌ قاصر ، فلا يمكن السماح بتحول المجتمع إلى جُزُر معزولة غير متصلة فيما بينها . كما أن المؤمن صالح ومُصلِح دون تفريق . لذلك لا يَترك المجتمعَ غارقاً في انحرافه ، بل يُساهِم في توجيه دَفَّة السفينة الإنسانية إلى بَر الأمان ، فيُشجِّع أهلَ الصلاح ويشدُّ من عزائمهم ، وفي نفس الوقت يُقاوِم الظلمَ والظالمين دون هوادة أو استسلام .

وعن أبي أمية الشعباني قال : سألت أبا ثعلبة عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم لا يَضُرُّكم مَن ضَل إذا اهتديتُم ﴾ . فقال أبو ثعلبة : لقد سألتُ عنها خبيراً . أنا سألتُ عنها رسول الله ﷺ قَبلاً ، فقال : ((يا أبا ثعلبة ، مُرُوا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، فإذا رأيتَ شُحَّاً مُطاعاً ، وهوى مُتَّبعاً ، ودنيا مُؤْثَرة ، ورأيتَ أمراً لا بد لك من طلبه، فعليكَ نفسك ودَعْهم وعوامهم ، فإن وراءكم أيام الصبر ، صبرٌ فيهن كقبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين يعمل مثل عمله))[3] .

وهذا الحديثُ منهجٌ متكامل ، يُرشِد إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإذا غرق المجتمعُ في المفاسد ، واختلط الحقُّ بالباطل ، وصارت أهواءُ الناس هي المرجعية ، فعندئذ يهتم المرءُ بخاصة نفسه، ويَترك أمر العوام ، ويُؤْثِر السلامةَ الشخصية محاولاً إنقاذ نفسه في زحمة المتناقضات الاجتماعية، والمفاسدِ المنتشرة كالنار في الهشيم ، والفتنِ المتلاطمة كأمواج البحر .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن أَبصر فلنفسه وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْها ﴾ [الأنعام : ١٠٤] .

---

(٢) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٥٦) برقم (٣٠٥٧) وقال : ((حسن صحيح)) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٨) برقم (٧٩١٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فمَن عرف طريقَ الحق والتزم به ، ولم يَنحرف عنه ، فإن الفائدة ستعود عليه ، وينال المكافأةَ الجزيلة ، أمَّا المنحرِف عن الصراط المستقيم الذي فشل في معرفة الحق فإن الكارثة ستحلُّ به شخصياً لا غيره . فالمرءُ إنما يَعمل لصالح نفسه ، والمذْنِب عدوُّ نفسه . فاللهُ تعالى غنيٌّ عن المطيعِ والعاصي ، لا تَنفعه الطاعة ولا تضرُّه المعصية .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٢٩٩) : ((فَمَن تَبَيَّن حُججَ الله وعَرَفها ، وأقرَّ بها ، وآمن بما دَلَّته عليه من توحيد الله وتصديق رسوله ، وما جاء به فإنما أصاب حظ نفسه ، ولنفسه عمل ، وإياها بغى الخير . ﴿ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْها ﴾ يقول : ومن لم يستدل بها ، ولم يُصدِّق بما دَلَّته عليه من الإيمان بالله ورسوله وتنزيله ، ولكنه عَمِيَ عن دلالتها التي تدل عليها ، يقول : فنفسه ضَرَّ وإليها أساء لا إلى غيرها)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن جَاهَد فإنما يُجاهِد لنفسه ﴾[العنكبوت : ٦] .

فالذي يُجاهِد في الدِّين ويُقاتِل الكافرين بالكلمة والسيف ، فإنما يَعمل ذلك لصالح نفسه ، أي لنيل رضا الله تعالى وجنَّته، والهروب من الجحيم. فاللهُ تعالى لا يحتاج إلى أعمال البشر وتضحياتهم ، فهو _ سبحانه _ قد أمرهم بالطاعة ونهاهم عن المعصية رحمةً بهم ، وإنقاذاً لهم من النار . وليس لله حاجةٌ في ذلك . فالطبيبُ عندما يَصف الدواءَ للمريض فهذا لمصلحة المريض لا الطبيبِ. وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص ٤٤١) : ((مَن يَتوهَّم أن الله _جل وعلا _ ينتفع بطاعة، أو يتضرر بمعصية ، أو ينال بذلك غرضاً ، فما عَرف اللهَ _ جل جلاله _ لأنه مُقدَّس عن الأعراض والأغراض، ومن انتفاع أو ضرر، وإنما نفع الأعمال تعود على أنفسنا)).

٣ _ السيئة بمثلها :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن جاء بالسَّيئة فلا يُجزَى إلا مِثْلَها وهُم لا يُظلَمون ﴾ [الأنعام : ١٦٠].

إن المنحرِف عن طريق الحق المتلبِّس بالإثم سوف يُحيط به الإثم. فمن أساء فإنما يسيء لنفسه ، وسيجد العقوبةَ المناسبة لجريمته دون ظلم .

وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٩) أن هناك قَوْلين في معنى السيئة في هذا الموضع : الأول_ الشِّرك، والثاني _ السيئة بشكل عام .

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٨) : ((ومَن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر)) .

وهذا يدل على سعة الرحمة الإلهية . فاللهُ تعالى يُضاعِف الحسناتِ لكنه لا يُضاعِف السيئات . كما أن المسيء تحت المشيئة الإلهية ، فإمَّا أن يُعذِّبه اللهُ أو يَغفر له . وهذا الأمرُ يجب ألا يَدفع الناسَ إلى ارتكاب الذنوب قائلين إن الله غفور رحيم . فالعقوبةُ الإلهية قاصمة لأهل العصيان ، كما أن الرَّحمة الإلهية تُظلِّل مَن كان أهلاً للرحمة . أمَّا الغرقى في الآثام فهُم على شفير الهاوية ، وعليهم العودة إلى الطاعة لكي يستحقوا أن يُرحَموا .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإن عاقبتُم فعاقِبوا بِمِثْل ما عُوقِبتُم به ﴾ [النحل : ١٢٦] .

إن العدل والمساواة من صميم المنهج الإسلامي الذي جاء لإنقاذ المؤمن والكافر . وهنا تتجلى العدالة في القصاص ، والمماثلة في العقوبة بلا تجاوز أو طغيان . فينبغي تطبيق الشرع بكل دقة لا الاستسلام للعواطف أو فَوْرة الغضب وحب الانتقام . فمن ظُلم له أن يأخذ حقَّه ، أي يُعاقِب بمثل ما عوقب به دون مجاوزة للحد . وعن أُبي بن كعب _ رضي الله عنه _ قال : لما كان يوم أُحد أُصيب من الأنصار أربعة وستون رَجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، فَمَثَّلوا بهم ، وفيهم حمزة . فقالت الأنصار : لئن أصبناهم يوماً مثل هذا لنربِيَنَّ عليهم،فلمَّا كان يوم فتح مكة أنزل اللهُ _ عز وجل _ : ﴿ وإن عاقبتُم فعاقِبوا بِمِثْل ما عُوقِبتُم به ﴾ ، الآية [4].

إن المسلمين محكومون بمنهاج سماوي لا يمكن تجاوزه ، فهُم لا يتحركون بدافع الثأر أو الأهواء الشخصية ، بل يتحركون استناداً إلى تعاليم الشريعة العادلة في تعاملها مع المؤمن والكافر على حَدٍّ سَواء . فالكافرون يوم أُحد قاموا بالتمثيل بجثث المسلمين ، فأراد الأنصار أن ينتقموا ويزيدوا على هذا الفعل ثأراً لقتلاهم، لكنَّ اللهَ بَيَّن لهم الطريقَ القويم، وكيفيةَ التعامل مع هذه الحالات بلا غُلُو.

٤ _ توحيد الأمم بالدِّين :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وإن اللهَ رَبِّي وربُّكم فاعبدوه هذا صِراطٌ مستقيم ﴾ [مريم : ٣٦] .

إن هذه الدعوة المقدَّسة لا لبسَ فيها ولا اعوجاج. فاللهُ تعالى هو رب الناس. وكلهم خاضعون له . وهذه الحقيقة الباهرة لا مجاملة فيها أو محاباة لأَحد . فالنقلُ والعقل يرشدان العباد إلى خالقهم الإله الواحد الذي لا شريك له ، وهذا الصراطُ المستقيم قادرٌ على توحيد البشرية والأمم بغض النظر عن أشكالهم وأجناسهم .

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩١) برقم (٣٣٦٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إن هذه أُمَّتكم أُمَّةً واحدةً وأنا ربُّكم فاعبدونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

فالدِّينُ واحدٌ لا لبسَ فيه ولا ضعف . واللهُ تعالى إلهٌ واحد يجب إفراده بالعبادة والتوجُّه إليه بكل إخلاص بدون أية شائبة شِرْكية . لذلك ليس غريباً أن تكون الأُمَّة متحدة على مبدأ واحد ، فكلمتها واحدة لا تتشتَّت ، كما أن مواقفها ثابتة على الحق لا تتزعزع لأنها تنطلق من عقيدة سماوية واحدة لا شك فيها ولا شُبهة . فالدِّينُ هو الذي وَحَّد الأُمَّة ، وصنع تاريخَها الناصع . وإذا زال الدِّينُ فإن الأُمَّة ستتفرق شِيَعاً وأحزاباً ، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون . فالدِّينُ هو الموحِّد الحقيقي للأمة ، وبدونه ستفقد الأُمةُ معنى وجودها وتماسكها .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٨) : ((مِلَّتكم مِلَّة واحدة ، أي مُتَّحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع ، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان ، والتوحيد في العبادة)) اهـ .

٥ ـ الحق يُزهِق الباطلَ :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وقُل جاء الحقُّ وزَهَق الباطلُ إن الباطل كان زَهوقاً ﴾ [الإسراء : ٨١] .

إن دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة . ومهما علا ضجيجُ الباطل ونال من الحظوة والمكانة والانتشار ، فسيظل هَشَّاً كأوراق الخريف سُرعان ما يذهب أدراج الرياح . وفي نهاية المطاف لن يَصِحَّ إلا الصحيح . والبقاءُ للحق لأنه قوي بذاته ، أمَّا الباطل فعواملُ ضعفه كامنة فيه ، وهو يستمد سَطْوته من خارجه ، لذلك لا يتمتع بالبقاء والديمومة . فالشمسُ حينما تطلع سوف تذيب الثلوجَ مهما تراكمت وعَلَت . وكما يُقال : مَن يَضحك أخيراً يَضحك كثيراً .

فالإسلامُ هو الحق الساطع الذي لا تَثبت أمامه أية قوة . فقد جاء الحقُّ ليبقى ولن يزول . أمَّا الكفر فقد اضمحل وتلاشى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٢): ((﴿ وقُل جاء الحقُّ وزَهَق الباطلُ ﴾ الآية تهديد ووعيد لكفار قريش ، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مِرْية فيه ، ولا قِبَل لهم به ، وهو ما بعثه اللهُ به من القرآن ، والإيمان ، والعلم النافع . وزهق باطلهم ، أي : اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء)) اهـ .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: ((دخل النبيُّ ﷺ مكة ، وحَوْلَ الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً ، فجعل يطعنها بعود في يده ، وجعل يقول : ﴿ جاء الحقُّ وزَهَق الباطلُ ﴾ ـ الآية ـ))[5].

(٥) متفق عليه . البخاري (٢/ ٨٧٦) برقم (٢٣٤٦) ، ومسلم (٣/ ١٤٠٨) برقم (١٧٨١) .

فالنبيُّ ﷺ دخل مكة فاتحاً رحيماً لا مغروراً . فهذه البُقعة المقدَّسة كانت مركزاً للأصنام المعبودة من دون الله تعالى . فالعربُ قد نَصبوا ثلاثمائة وستين صنماً تُجسِّد ثقافتهم الوثنية البدائية المستندة إلى تقاليد الآباء الغابرين . فأخذ النبيُّ ﷺ يَطعن هذه الأوثان في إشارة واضحة إلى قدوم نور التوحيد وانكسار ظلام الشِّرك إلى الأبد . فالتوحيدُ قد علا صوته ولن يَنخفض ، والوثنية تلاشت ولن تَعود . فالحقُّ قد جاء ، والباطل قد زال .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ بَل نَقذفُ بالحق على الباطل فَيَدْمَغُه فإذا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

فالقرآنُ _ وهو الحق الباهر _ يمحو الباطلَ ويُهلكه ، بحيث لا تقوم له قائمة بعد ذلك . فيذهب الباطلُ أدراج الرياح بكل ذِلَّة وخزي . فاللهُ تعالى يَرمي بالحق المبين على الباطل المتداعي ، فيقضي عليه قضاءً تماماً لا فرصة معه للعودة .

وقال القرطبي في تفسيره(١١/ ٢٤٤):((وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ))اهـ.

وفي هذا إشارةٌ واضحة على أن الباطل سَيَفقد حياته ، بحيث تضمحل فرصةُ بقائه ، تماماً كالذي يتلقى ضربةً هائلة على رأسه فتُهشِّم الجمجمةَ ، وتصل إلى الدماغ . فضربُ الدماغ هو مَقتل . وهنا يبرز معنى الاستئصال والنهاية الحتمية .

***

ثانياً : أحكام قانونية

١ـ أحكام عامة :

أ ـ سن التكليف (البلوغ) :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وابْتلوا اليتامى حتى إذا بَلَغوا النكاحَ فإن آنستُم مِنهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالَهم ﴾ [النساء : ٦] .

وهنا تبرز أهميةُ اختبار اليتامى لاكتشاف قدراتهم العقلية ، وإمكانية تولِّي مسؤولية أنفسهم ، ومقدرتهم على التصرف في أموالهم . فإذا وصلوا إلى سِن البلوغ (الْحُلُم) ، ووُجِد فيهم الصلاح والتقوى والقدرة على حفظ أموالهم ، فعندئذ يَسقط الْحَجْرُ عليهم ، وتُدفَع إليهم أموالهم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٤) : ((قوله تعالى : ﴿ وابْتلوا اليتامى ﴾، سبب نزولها أن رَجلاً يقال له رفاعة مات وترك ولداً صغيراً يقال له ثابت ، فَوَلِيَه عَمُّه ، فجاء إلى النبي ﷺ ، فقال : إن ابن أخي يتيم في حِجري ، فما يحل لي من ماله ؟ ، ومتى أدفع إليه ماله ؟ ، فنزلت هذه الآية)) اهـ .

وهذا يعكس حرصَ الوَلِيِّ على مال ابن أخيه ، فلم يستغل ضعفَ اليتيم لسرقة ماله ، وإنما تحرَّى الحُكمَ الشرعي في هذا المال ، وسعى إلى معرفة ما له وما عليه .

والبلوغُ يتحقق بالْحُلُم، وهو أن يرى في منامه ما يستدعي نزول المني(الذي يكون منه الولد).

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : عن النبي ﷺ قال : ((رُفع القلم عن ثلاثة : عن الصبي حتى يَحتلم ...))(6) .

إذن ، فالاحتلام هو العلامة الأكيدة للبلوغ ، وجريان القلم بالثواب والعقاب . فلا مؤاخذة قبل سِن البلوغ .

والحالةُ الثانية التي يتحقق بها البلوغ هي استكمال خمس عشرة سنة . فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : ((عرضني رسول الله ﷺ يوم أُحد في القتال وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني))(7) .

---

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧) برقم (٢٣٥٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٧) متفق عليه . مسلم (٣/ ١٤٩٠) برقم (١٨٦٨) ، والبخاري (٢/ ٩٤٨) برقم (٢٥٢١) .

وهذا هو الحد بين الصغير والكبير . فقد رفض النبيُّ ﷺ مشاركةَ ابن عمر في الحرب عندما كان في الرابعة عشرة ، لكنه سمح له بالاشتراك عندما صار في الخامسة عشرة ، أي عندما دخل مرحلةَ الرجولة ، وصار قادراً على الاضطلاع بمسؤولية القتال تماماً كالرجال .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا بَلَغ الأطفالُ مِنكم الْحُلُمَ فليستأذنوا كما استأذن الذين مِن قَبْلهم ﴾ [النور : ٥٩] .

فإذا وصل الأطفالُ إلى سِن البلوغ وَجب عليهم أن يستأذنوا تماماً كالرجال وفي كل الأوقات. واللهُ تعالى يُوضِّح للناس طريقَ سعادتهم ، ويُبيِّن للمجتمع السُّبل المثلى لتحقيق العفة والطهارة . وهذا كله يؤدي إلى صيانة المجتمع من الأمراض الروحية والمادية ، ويحمي الإنسان من السقوط في فخ الشهوات المحرَّمة. إذ إن الاستئذان من شأنه حراسة المجتمع من الانحراف الأخلاقي الذي يُفضي إلى كوارث اجتماعية هائلة. كما أن سَد الذرائع ، وإغلاق الطرق الموصلة إلى الحرام يدفعان باتجاه صناعة مجتمع الفضيلة والنقاء . ودرهمُ وقايةٍ خيرٌ من قنطار علاج .

وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٧٧) : ((وقول الله _ عز وجل _ : ﴿ وإذا بَلَغ الأطفالُ مِنكم الْحُلُمَ فليستأذنوا ﴾ ، في هذه الآية تعليق الحُكم ببلوغه الحُلم . وقد أجمع العلماء على أن الاحتلام في الرجال والنساء يلزم به العبادات والحدود وسائر الأحكام)) اهـ .

إذن ، فالاحتلامُ هو نقطة البداية ، والركيزة الأساسية التي تُبنَى عليها الأحكام الشرعية ، وهو العلامة الفاصلة بين مرحلتَيْن . فإذا احتلم الطفلُ فعندئذ تسري عليه تعاليمُ الدِّين لأنه صار رَجلاً مُخاطَباً بالْحُكم الشرعي ، أي إنه مُكلَّف في نظر الشريعة ، ومُلزَم بأداء العبادات كاملةً .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((إن الله حليم رحيم بالمؤمنين ، يحب السَّتْر ، وكان الناس ليس لبيوتهم سُتُور ، ولا حِجَال _ وهي بيوت تُزيَّن بالثياب والأسِرَّة والسُّتور لها عُرى وأزرار _ ، فربما دخل الخادمُ أو الولد أو يتيمة الرَّجل والرَّجلُ على أهله ، فأمرهم اللهُ بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم اللهُ بالستور والخير))[8] .

إن الله خالق الإنسان، ويَعلم نقاطَ قوته وضعفه، وماهيةَ شهواته ونزواته. وهو _ سبحانه _ رؤوف بالمؤمنين لم يُكلِّفهم فوق طاقتهم ، ولم يتركهم لشهواتهم وخطواتِ الشيطان . وقد كان الناسُ ليس لبيوتهم ستور . وهذا قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة ، إذ إن غياب الستر يتناقض مع

---

(٨) رواه أبو داود في سُننه (٢/ ٧٧٠) برقم (٥١٩٢) . وصححه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٥) .

العفة والصيانة ، ويُهدِّد أمنَ المجتمع من الناحية الأخلاقية . فقد يَدخل أحدهم بلا استئذان ، فيَرى ما يَكرهه ، مثل أن يكون الرَّجلُ مع زوجته ضمن العلاقة الحميمة . فأمر اللهُ بالاستئذان صيانةً للمجتمع المسلم وحفظاً له من الوقوع في الأزمات الأخلاقية الكارثية . فكانت الستورُ لحفظ حُرمات الناس وأسرارهم وبيوتهم .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : أنه كان إذا بلغ بعضُ ولده الحُلم عَزَله ، فلم يَدخل عليه إلا بإذن [9] . وعن علقمة قال : جاء رَجل إلى عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ قال : أأستأذن على أمي ؟ ، فقال : ((ما على كل أحيانها تحب أن تراها))[10].

وعن عطاء قال : سألتُ ابن عباس فقلتُ : أستأذن على أختي ؟ ، فقال : ((نعم)) ، فأعدتُ فقلتُ : أختان في حِجري وأنا أمونهما وأنفق عليهما ، أستأذن عليهما ؟ ، قال : ((نعم ، أتحب أن تراهما عريانتَيْن ؟))[11] .

وهذه الأحاديثُ تُمثِّل منهجاً أخلاقياً متكاملاً لصيانة المجتمع المسلم ، وحفظِ الأسرة من الانهيار الأخلاقي، وجنونِ الغريزة الشرس. وهذا المنهجُ يتجلى في سَد الذرائع الموصلة إلى الحرام ، وهو بالطبع لا يعني عدم الثقة في الآخرين ، أو التشكيك بإيمانهم وأخلاقهم . بل يعني إحاطة المجتمع والأسرة بسورٍ متماسك من الفضيلة يقمعَ ألاعيبَ الشيطان ، ويُغلق الطريقَ أمام تأجج الشهوة الإنسانية التي يضعف أمامها الكثيرون .

ولا يمكن إنكار أهمية الاستئذان في هذه المنظومة مهما بَلغت درجة القرابة . فالولدُ قد يرى أباه في وضعٍ غير لائق ، وهذا يؤدي إلى تدمير صورة الأب في الذهن ، وتفتيتِ الأسرة ، وتكسيرِ الروابط العائلية ، وتهشيمِ المفاهيم التربوية ، بحيث لا يمكن إصلاحها مرةً أخرى .

وقد يرى الرَّجلُ أُمَّه أو أُخته في حالة عُري . وعندئذ يكون الموقف محرجاً للغاية ، وقد يتطور فيما بعد ليصل إلى زنا المحارم الذي ينتشر في التجمعات البشرية المكشوفة التي لا تهتم بالستر والعفة . لذلك أراح الإسلامُ الفردَ والجماعةَ من الوساوس والسلوكيات الخاطئة ، وأغلق الطريق الموصل للحرام كي يحافظ المجتمع على تماسكه وطهارته وأخلاقه . فإذا زالت الأخلاقُ وانتحر

---

(٩)رواه البخاري في الأدب المفرد(١/ ٣٦٤) برقم (١٠٥٨).وصححه الحافظ في الفتح(١١/ ٢٥).

(١٠)رواه البخاري في الأدب المفرد(١/ ٣٦٤)برقم(١٠٥٩).وصححه الحافظ في الفتح(١١/ ٢٥).

(١١)رواه البخاري في الأدب المفرد(١/ ٣٦٥)برقم(١٠٦٣).وصححه الحافظ في الفتح (١١/ ٢٥).

العفافُ فسوف ينهار المجتمع لا محالة ، لأنه _عندئذ _ يكون قد فَقد المناعةَ الذاتية ، وحصانةَ الجبهة الداخلية ، فيَسقط في الهاوية السحيقة . وكما قال الشاعر :

_ وإنما الأُممُ الأخلاقُ ما بقيَتْ   فإن همُ ذَهَبَتْ أخلاقهُم ذَهَبوا

_ إنما الأممُ الأخلاقُ مابقيَتْ   فإن تَوَلَّتْ مَضَوا في إثرها قُدما

ب_ إباحة الزينة وأكل الحلال :

قال اللهُ تعالى : ﴿ اليومَ أُحِلَّ لكم الطَّيبات وطعامُ الذين أُوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم ﴾ [المائدة : ٥] .

فاللهُ تعالى أحل الطيباتِ للمؤمنين رحمةً بهم ، فأباح المستلذات والأشياء المحبَّبة للنفس البشرية ، ولم يُضيِّق على الناس ، أو يَضطرهم إلى أضيق المسالك. فالشريعةُ لم تجيء لتعذيب الإنسان وحرمانه من الاستمتاع بالطيبات، بل جاءت لتنظيم هذا الاستمتاع، فهي نظامٌ متكامل متوافق مع الفِطرة .

وقد أحل اللهُ تعالى ذبائحَ أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ، فهي مباحةٌ للمسلمين ، ولا حرج عليهم في تناولها . كما أن ذبائح المسلمين يجوز تقديمها لأهل الكتاب ، فهي مباحة لهم .

فالشريعةُ منظومة متوازنة لا غُلُو فيها أو معاداة للقيم الإنسانية . ولا يخفى أن هذا التسامح الإسلامي في قضية " الذبائح " من شأنه تعزيز المعاني الإنسانية ، وتعزيز الروابط الاجتماعية ، وبناء جسور التعارف والتعاون والرحمة بين أصحاب الدِّيانات المختلفة . فالإسلامُ هو الدِّين السماوي الوحيد ، وهو عالمي شاملٌ للإنس والجن على السواء .

كما أن هذا التسامح يشير إلى قُرب أهل الكتاب من المسلمين . ومع أنهم حَرَّفوا التوراةَ والإنجيل إلا أن الشريعةَ الإسلامية تَنظر إليهم كأهل كتابٍ ، وفي رُتبة خاصة متميزة عن الوثنيين وأتباعِ الديانات الأخرى . فقد خلطوا الحقَّ بالباطل ، وما زال لديهم بقايا من تعاليم السماء التي جاء بها أنبياؤهم _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وفي تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨) : ((وهذا أمرٌ مُجمَع عليه بين العلماء ، أن ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولايَذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو مُنَزَّه عنه _ تعالى وتقدَّس _)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ : أن امرأةً يهودية دَعت النبيَّ ﷺ وأصحاباً له على شاة مَصْلِيَّة _ أي مشويَّة _ ، فلمَّا قَعدوا يأكلون أخذ رسولُ الله ﷺ لقمةً فوضعها ، ثم قال لهم :

((أمسِكوا ، إن هذه الشاة مسمومة)) ، فقال لليهودية : ((وَيْلَكِ ، لأي شيء سَمَّمْتِني ؟)) ، قالت : أردتُ أن أعلم إن كنت نبياً ، فإنه لا يضرك ، وإن كان غير ذلك أن أريح الناس منك ، وأكل منها بشر بن البراء فمات ، فقتلها رسولُ الله ﷺ [12].

ووجهُ الدلالة أن النبي ﷺ وأصحابه لَبُّوا دعوةَ اليهودية بلا حرج ، وراحوا يتناولون الشاةَ المشوية . وهذا دليلٌ باهر على أن ذبائح اليهود مباحة شرعاً ، وليست حراماً على المسلمين .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ أُحِلَّ لكم صَيْدُ البحر وطعامُه مَتاعاً لكم وللسَّيارة ﴾ [المائدة : ٩٦] .

هذا حُكمٌ إلهي بتحليل صيد البحر على الإطلاق ، وفي كل الحالات (سواءٌ في الإحرام أو غيره) . وأيضاً تحليل طعامه ، وهو كل ما قَذفه البحر ، منفعةً للمقيم والمسافر يأكلون منه أو يتاجرون به . وصيدُ البحر ما اصْطيد ، وطعامُه ما قَذف به .

وفي زاد المسير (٢/ ٤٢٧ و٤٢٨) : ((قال أحمد : يُؤْكَل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح ، لأن التمساح يأكل الناس ، يعني أنه يفرس . وقال أبو حنيفة والثوري : لا يُباح منه إلا السمك ، وقال ابن أبي ليلى ومالك : يباح كل ما فيه من ضفدع وغيره)) اهـ .

ومن الأحاديث في هذا السياق حديث جابر في الحوت الذي يُقال له العنبر ، وقَذفه البحر . ففي صحيح مسلم (٣/ ١٥٣٥) أن النبي ﷺ قال عنه : ((هُوَ رِزقٌ أخرجه اللهُ لكم ، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟)) .

وهذا دليلٌ على إباحة طعام البحر ، أي ما رَمى به . فالنبيُّ ﷺ اعتبره رزقاً أخرجه اللهُ تعالى من البحر لكي يأكل الناس ، وأيضاً فقد أراد النبيُّ ﷺ تناولَ هذا الطعام (لحم الحوت) غير المعهود في البيئة العربية الصحراوية .

ج ـ الوفاء بالعهد :

قال اللهُ تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عَاهَدوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

إن الوفاء بالعهد من أبرز صفات المؤمنين . فهو يدل على شخصية أخلاقية متوازنة تُمثِّل لبنةً أساسية في بناء المجتمع الإنساني الذي يَعرف حقوقَه وواجباته . فيجب الوفاء بالعهد الإلهي ، أي حفظ العلاقة بين المخلوق والخالق . وأيضاً الوفاء بعهود الناس ومواثيقهم . فالوفاءُ بعهد الله تعالى هو الدافع للوفاء بعهود الناس . ومن خان عهدَ الله ، فهو ـ حتماً ـ سوف يخون عهودَ الناس .

---

(١٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٤٢) برقم (٤٩٦٧) وصححه ، وسكت عنه الذهبي .

فإذا لم يَردع الدِّينُ الإنسانَ ، فلن يَردعه شيء . فالمسلمُ إذا عاهَدَ أوفى ، وإذا قال صَدَق ، وإذا حَلف لم يَحنث بيمينه ، وإذا وَعد لم يُخلِف ، وإذا ائتمن لم يَخن .

وفي الدر المنثور (١/ ٤١٧) عن أبي العالية قال : ((فَمَن أعطى عهدَ الله ثم نقضه ، فالله ينتقم منه ، ومَن أعطى ذِمَّةَ النبي ﷺ ثم غدر بها ، فالنبي ﷺ خصمه يوم القيامة)) اهـ .

إذن ، قضية "العهود " ليست لعبةً أو لغواً جارياً على الألسنة . إنها قضية حساسة يتوقف عليها مصير الإنسان . فالعهدُ الإلهي والذِّمةُ النبوية لهما مكانتان ساميتان . فلا ينبغي تعريضهما للمزاح أو اللغو أو الخيانة . فلا بد من الحذر الشديد في التعامل مع المقدَّسات لئلا يَهلك الإنسانُ في الهاوية السحيقة ، وعندئذ لا يَنفع الندم .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَن حَلف على يمين صَبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان)) . فأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ إن الذين يَشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ [آل عمران : ٧٧] [13].

فالمسلمُ يُقدِّس عهدَ الله تعالى ولا يشتري به ثمناً قليلاً ، ولا يَبيع دِينه بِعَرَض من الدنيا زائل . وهنا تبرز أيضاً ضرورة حفظ الأيمان ، وعدم إقحام اسم الله العظيم في سياق الخيانة أو الكذب . فالحلفُ بالله لا يكون إلا في الأمور الجليلة لا التافهة .

وفي تاريخ دمشق(٥١/ ٣٩٥) أن الشافعي قال: ((ما حلفتُ بالله صادقاً ولا كاذباً))اهـ .

وهذا يدل على تعظيم اسم الله تعالى . فالحلفُ بالله قضية كُبرى . فعلى المرء ألا ينخدع بكثرة الحلف _ على الصغيرة والكبيرة _ من قِبَل العوام ، فهذا جهلٌ وعدم توقير لاسم الله تعالى . والجاهلُ عدو نفسه . وللأسف فإن الحلف ينتشر بصورة كارثية في الأسواق ، فنرى الكثيرين يتخذون من الأيمان _ الصادقة أو الكاذبة _ وسيلةً لترويج السِّلع ، وتحقيق أرباح مادية عبر إقناع الزبائن بجودة البضائع . وهُم يُقحِمون اسم الله تعالى في معاملاتهم التجارية لكي يُصدِّقهم الناسُ ، وبالتالي تباع البضائعُ ، ويجنون المكاسب . وفي صحيح مسلم (١/ ١٠٢) عن أبي ذر _ رضي الله عنه _ : أن النبي ﷺ قال : ((ثلاثة لا يُكلِّمهم اللهُ يوم القيامة))، وذَكَر منهم : ((والمنفِق سِلْعته بالحلف الفاجر _ أي الكاذب_)) .

---

(١٣) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٤٥٨) برقم (٦٢٩٩) ، ومسلم (١/ ١٢٢) برقم (١٣٨) . وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٥٩) : ((ويمين الصبر هي التي تُلزِم ويُجبَر عليها حالفها)) اهـ .

د ـ الوفاء بالنذر :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلْيُوفوا نذورَهم ﴾ [الحج : ٢٩] .

إن المسلم الذي ألزم نفسَه بالنَّذر يتوجب عليه أن يَفِيَ به . ولا مجال للهروب أو التحايل . فالوفاءُ بالنذر واجبٌ شرعي يأثم تاركُه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٤٠) : ((يدل على وجوب إخراج النَّذر ، إن كان دماً أو هدياً أو غيره ، ويدل ذلك على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاء بالنذر)) اهـ .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : ((أمر اللهُ بوفاء النَّذْر))[14] .

إن إخراج النذر إشارة واضحة على تقوى العبد وتعظيمه لحقوق الله تعالى . فإذا ألزم العبدُ نفسه بأداء قُربةٍ إلى الله تعالى وَجب الوفاء بها ، لأن حق الله أوْلى بالوفاء والأداء على النحو الأكمل بلا نقصان . ومن رحمة الله بالعباد أنه لم يَفرض عليهم النذور ، ولكن العبد حينما يُقرِّر التقربَ إلى خالقه فعليه أن يكون ملتزماً بكلامه ، لأن العبادات ليست لغواً أو حالةً مزاجية عابرة. إنها موقف لا يمكن التساهل به ، وينبغي أداء هذا الحق الإلهي بلا تفريط أو تهرُّب .

هـ ـ الكبائر :

قال اللهُ تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْن عنه نُكَفِّرْ عنكم سَيِّئاتكم ﴾ [النساء : ٣١] .

لا يخفى أن اقتراف الكبائر سقوط مريع في الهاوية السحيقة ، هاوية الإثم والخضوع للغريزة والشهوات المحرَّمة . لكنَّ ذلك ليس نهاية المطاف . فالتوبةُ متاحة للجميع . والرجوعُ إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل . والأشخاصُ حينما يبتعدون عن الكبائر ، ولا يَسقطون في هذه المصيدة القاتلة ، فهُم على خير عظيم ، لأنهم أَغلقوا هذا البابَ . وبالتالي فإن مستواهم الإيماني سيكون عالياً جداً رغم بعض الثغرات التي لا يَخلو منها إنسان بسبب انعدام العِصمة .

واجتنابُ الكبائر طريقٌ لغفران الصغائر ومحوها . وهذا لا يعني التساهل في الذنوب ، والغرق في الصغائر بحجَّة أنها مغفورة . فالعاقلُ لا يَنظر إلى حجم المعصية ، بل يَنظر إلى مَن عَصى . ولا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧٨) : ((واخْتُلِف في الكبائر . والأقرب أن الكبيرة كل ذَنْب رَتَّب الشارعُ عليه حَدَّاً ، أو صَرَّح بالوعيد فيه . وقيل : ما عُلم حُرْمته بقاطع)) اهـ .

---

(١٤) متفق عليه . البخاري (٢/ ٧٠٢) برقم (١٨٩٢) ، ومسلم (٢/ ٨٠٠) برقم (١١٣٩) .

ولا يخفى أن أكبر الكبائر هي الشِّرك بالله تعالى . وهذه الكبيرةُ لا ينفع معها طاعة ، وهي غير مغفورة قطعاً . والمشرك خالدٌ في النار لا فرصة له بالنجاة إطلاقاً .

وعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((الكبائر من أول سورة النساء إلى ﴿ إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْن عنه ﴾ ، من أول السورة ثلاثين آية))[15] .

واللهُ تعالى قادر على أن يَخلق البشر كالملائكة . إي إنهم معصومون ، لا يَعصون اللهَ البتَّة ، ويَعبدونه بلا انقطاع أو تعب . لكنَّ اللهَ تعالى قد رَكَّب الشهواتِ في البشر، ولم يجعلهم معصومين. فهم يتحركون بين الطاعات والمعاصي ، وبين الحسنات والسيئات . وهنا تتجلى الحِكمةُ الإلهية ، والإرادة الربانية العُليا .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢١٠٥) : أن النبي ﷺ قال : ((لولا أنكم تُذنِبون لخلقَ اللهُ خَلقاً يُذنِبون يَغفر لهم)) .

وهذه _ بالطبع _ ليست دعوةً للإثم وارتكاب الذنوب . بل هي تثبيت للمسلَّمة بأن البشر كائنات غير معصومة ، ترتكب الذنوبَ ، ويُفترَض بها أن تستغفر وترجع إلى خالقها تعالى . فاللهُ تعالى يريد من عباده أن يعودوا إليه رحمةً بهم . وهنا تبرز أهمية الاستغفار ، وأن الرحمة الإلهية أعظم من الذنوب _ مهما بَلغت _ . والخالقُ _ سبحانه _ لا تضرُّه المعصية ولا تَنفعه الطاعة. ولو أراد اللهُ لأجبر الناسَ على الطاعة وعصمهم من الآثام. وعندئذ يَبطل الأجر والعقاب، وتصبح الجنة والنار بلا معنى . والله تعالى خلق الإنسانَ ، ومنحه القدرةَ على الاختيار بين الخير والشر ، ووفق هذا الاختيار يتحدد المصير البشري . فالإنسانُ مكتسب لفعل الخير أو الشر غير خالقٍ له ، كما أنه يتحرك في هذا العالَم بين التسيير والتخيير. فمثلاً ، إن الله لا يقول للعبد يومَ القيامة : لِمَ مرضتَ ؟، بل يقول له: لِمَ عصيتَ ؟. ووفق هذا المعنى تتحدد مسؤولية الإنسان ، وحدود طاقته .

وقال النبي ﷺ : ((مَا مِن عبد يأتي الصلوات الخمس ، و يصوم رمضان ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فُتحت له أبواب الجنة يوم القيامة)) . ثم تلا ﴿ إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْن عنه نُكَفِّرْ عنكم سَيِّئاتكم ﴾ [16] .

---

(١٥) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ١٢٧) برقم (١٩٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١٦) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٣١٦) برقم (٧١٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وهذا يدل على أن العبادات وترك الكبائر تُكفِّر الذنوبَ ، وتفتح الطريقَ أمام الإنسان نحو الجنة . لذلك لا يمكن الاستهانة بأثر العبادات في الدنيا والآخرة . كما أن اجتناب الكبائر يُسقِط الصغائر . وهذا من رحمة الله بعباده .

أمَّا الكبائر السبع ، فقد وضَّحها حديث آخر للنبي ﷺ . وهي أمهات الذنوب ، أي إنها أُسس الخطيئة الجالبة للغضب الإلهي ، ويلزم التوبة منها عاجلاً غير آجِل .

فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _: عن النبي ﷺ قال : ((اجتنبوا السبع الموبقات)) . قالوا : يا رسول الله ، وما هُنَّ ؟ ، قال : ((الشِّرك بالله ، والسِّحر ، وقتل النفس التي حَرَّم اللهُ إلا بالحق ، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزَّحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))[17].

والناظرُ في هذه الذنوب الكبيرة يجد أنها كارثية بكل ما تحمله الكلمة من معنى . فهي تقضي على حياة الفرد ، وتجعل من المجتمع ريشةً في مهب الريح . وذلك لما لها من آثار مُدمِّرة في الدنيا والآخرة . والمبتعِد عنها يكون قد أَغلق هذا الباب ، واستراح من أمهات الشرور ، وجَنَّب نفسه التهلكة والدمار الحتمي .

٢_ الجزاء :

أ _ القِصَاص :

قال اللهُ تعالى : ﴿ ولكم في القِصَاص حياةٌ يا أُولي الألباب لعلكم تتَّقون ﴾ [البقرة : ١٧٩].

إن تشريع القِصاص له حكمة بالغة . فقتلُ القاتل يؤدي إلى تطهير المجتمع من الجرائم وثقافة الحقد والثأر . كما أن هذه العقوبة الحاسمة سَتَرْدع الذين يُفكِّرون في قتل الآخرين خوفاً من أن يُقتَلوا . وبالتالي فإن الحياة البشرية على الأرض ستتألق وتستمر بلا خوف أو اضطراب . فكان القِصاصُ حياةً، أي إنه حفظ حياة الآخرين ، وصانها من عبث العابثين ، وحمى المجتمعَ من الأزمات الخطيرة ، وانتشارِ الجرائم ، وثقافةِ الانتقام ، والتي تُهدِّد الوجودَ الاجتماعي وتَعصف به .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢٥٢): ((وكانت العربُ إذا قَتل الرَّجلُ الآخرَ حَمِيَ قبيلاهما وتقاتلوا ، وكان ذلك داعياً إلى قتل العدد الكثير ، فلمَّا شَرع اللهُ القِصاصَ قنع الكلُّ به ، وتركوا الاقتتالَ ، فلهم في ذلك حياة)) اهـ .

---

(١٧) متفق عليه . البخاري (٣/ ١٠١٧) برقم (٢٦١٥) ، ومسلم (١/ ٩٢) برقم (٨٩) .

وهذا يدل على الحميَّة الجاهلية وثقافة الثأر السائدة في البيئة العربية . فكان القتلُ في البيئة الجاهلية عبثياً ومجانياً وبلا ضوابط . فهو محكوم بشريعة الغاب والعنجهية القَبَلية . فكلُّ قبيلة تريد إثبات أنها الأقوى والأكثر نفوذاً ، وأن كلمتها هي العليا بين القبائل . ومن هنا كان الاحتكام للسيف والغزو والقتل العبثي . فقد كانوا يَقتلون غيرَ القاتل ، والجماعة بالواحد ، مما يؤدي إلى إزهاق أرواح الأبرياء ، وانتشار الأحقاد والفوضى الجارفة . أمَّا في حالة القِصاص فلا يُقتَل إلا القاتل ، وبالتالي ينجو الآخرون من القتل ، وتزول الضغائن وحب الانتقام ، وهكذا تتكرس الحياة البشرية بلا تهديد ، ويَأمن الناسُ على حياتهم وممتلكاتهم . فالقتلُ أنفى للقتل ، أي إن قتل القاتل سبب حياة الآخرين . كما أن تطبيق القِصاص لا يكون إلا بأمر الحاكم (الحكومة) ، أو المسؤول الذي عَيَّنه الحاكمُ لهذا الشأن. ولا يجوز للناس أن يَقتصوا من بعضهم البعض ، لأن هذا يؤدي إشاعة الظلم والفوضى في المجتمع ، وتحوُّل النسق الإنساني إلى مجتمع الغاب. فليس للناس أن يَأخذوا حَقَّهم بأيديهم ، فهذا الأمرُ له آثار وخيمة تقضي على وجود الفرد والجماعة معاً .

ب ـ جزاء الكافرين :

قال اللهُ تعالى:﴿واقتلوهم حيثُ ثقفتموهم وأخرِجوهم مِن حيثُ أخرجوكم ﴾ [البقرة: ١٩١].

إننا لنجد أعداء الحق ـ في كل زمان ومكان ـ يحاولون جاهدين تشويه صورة الإسلام وصبغه بالإرهاب والقتل والإبادة. وهذه الأسطوانة المشروخة لم تعد تنطلي على أحد بسبب انكشافها وانهيار مَن يَقفون وراءها . وهؤلاء القومُ يَضعون النصوصَ الدينية الخاصة بالقتل والقتال في غير موضعها، ويخرجونها من سياقها الديني والتاريخي، ويُؤَوِّلونها حسب أهوائهم ومصالحهم ، ويُوظِّفونها من أجل دعم أفكارهم الخبيثة التي تفتقد إلى المنهج العِلمي . وأيُّ نَصٍّ في هذا العالَم ـ سواءٌ كان دينياً أو غير ديني ـ يمكن تأويله بشكل داعم للعنف والإرهاب . لكن الإنصاف يقتضي الوقوف على الآيات القرآنية الخاصة بالقتل والقتال ، ومعرفة تفسيرها ، وسياقها ، ودلالتها ، دون إقحام الأهواء الشخصية ، والأفكارِ المغرِضة ، والمصالح الذاتية الضَّيقة .

قال الطبري (٢/ ١٩١) في تفسيره : ((واقتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم، وأمكنكم قتلهم ...وأما قوله: ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ فإنه يعني بذلك المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم ومنازلهم بمكة ، فقال لهم تعالى ذِكْره : أَخْرِجوا هؤلاء الذين يقاتلونكم ـ وقد أخرجوكم من دياركم ـ من مساكنكم وديارهم كما أخرجوكم منها)) اهـ .

ومن الواضح أن الآية الشريفة﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ تتحدث عن المشركين الذين عذَّبوا المسلمين . وقد أمر الله تعالى بقتلهم لأنهم كفار محاربون لم يتخلصوا من حرب الإسلام والمسلمين ، لذلك فهؤلاء فقدوا عصمةَ الدم لأنهم لم يلتزموا بالقواعد التي تحفظ لهم دماءهم ، فجاء الأمر صريحاً بقتلهم ، وأيضاً القيام بإخراجهم من منازل المسلمين في مكة التي وقعت تحت احتلال المشركين ، لذلك فقتلُ المشركين هو ضمن سياسة المقاومة المشروعة للاحتلال، والمكفولة في كل الدساتير السماوية والوضعية .

وانظر إلى الدستور الإسلامي في التعامل الحربي _ بلا إفراط أو تفريط _ ، وتأمَّل هذه القواعد الشرعية الإنسانية الراقية . ففي صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٧) : عن بُرَيْدة _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّة أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : ((اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتِلوا مَن كفر بالله، اغزوا ، ولا تَغُلُّوا ، ولا تغدروا ، ولا تُمَثِّلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حُكمُ الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أَبَوا فَسَلْهم الجِزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتِلهم . وإذا حاصرتَ أهلَ حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيِّه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرتَ أهلَ حصن فأرادوك أن تُنْزِلهم على حُكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أَنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا)) .

إن هذا الحديث الجامع يُمثِّل منهجيةَ الحرب في الإسلام ، منهجيةً منضبطة بالشريعة السماوية لا الأهواء البشرية .

فالنبيُّ ﷺ إذا أمَّر أميراً لم يتركه لهواه أو اجتهاده الشخصي ، بل يُوضِّح له الأُسس التي يقوم عليه أمر القتال . فالقتالُ في الإسلام ليس عبثياً أو نزوةً عابرة أو عصبيةً قَبَلية . إنه منهج متكامل له حكمة جليلة لحفظ أمن الفرد والمجتمع ، والحفاظِ على سَيْر الحياة البشرية بلا عوائق ، وذلك

عبر التخلص من العناصر الفاسدة . تماماً كالطبيب الذي يَقطع عضواً فاسداً في الجسم البشري للحفاظ على حياة الإنسان . فالوصيةُ الأساسية تتجلى في تقوى الله تعالى والاعتناء بالمسلمين الخاضعين لقيادة الأمير . كما أن الغزو إنما يكون باسم الله لا باسم الأشخاص ، وفي سبيل الله لا سبيل الغنيمة أو الانتقام . وينبغي الابتعاد عن الغلول والغدر والتمثيل بجثث القتلى وقتل الأطفال . فهذه القضايا تتصادم تماماً مع منهج الإسلام وشخصية المسلم المتَّزنة .

والقتالُ من منظور الشريعة الإسلامية ليس مقصوداً لذاته، ولا يَنطلق بدافع الثأر أو الكراهية، بل هو وسيلة لمعاقبة المجرِم ، وردع الذين يُفكِّرون في ارتكاب الجرائم . وهنا تتجلى إنسانية الحرب عن المسلمين . وبما أن مسيرة الدعوة لا تتوقف _ مهما كانت الظروف _ ، كان من الطبيعي أن تَسبق الدعوةُ القتالَ ، ولا يُبادَر إلى القتال مباشرةً . فأولاً : ينبغي دعوة الكافرين إلى الإسلام ، فإن أجابوا فقد عَصموا دماءهم ، ثم الدعوة إلى التحول إلى دار المهاجرين ، فإن فعلوا ذلك فهُم كالمهاجرين سواءً بسواء . فإن رَفضوا التحول فلهم أن يكونوا كأعراب المسلمين ، ليس لهم نصيب من الغنيمة والفيء إلا إذا جاهدوا مع المسلمين . وإذا رَفضوا فيجب عليهم دفع الجِزية ، وإذا رَفضوا فعندئذ يكون القتالُ. وكما يقال : آخر الدواء الكَي. وهذا يَدحض افتراءاتِ الخصوم الذين يربطون الإسلام بالتعطش للدماء ، والهمجية ، وعشق القتل .

وتبرز هنا توجيهاتٌ نبوية جليلة في موضوع "الحِصار" . فإذا حاصر المسلمون الأعداءَ، فينبغي على الأمير ألا يُقحِم ذِمَّةَ الله ولا ذمة النبي ﷺ في هذا الأمر. بل يجعل للأعداء _ إن طلبوا ذلك _ ذِمَّته وذِمة أصحابه. إذ إن ذمة الله ورسوله ﷺ مُقدَّستان ، ويجب إبعادهما عن التقلبات أو المفاوضات. وإذا أراد الأعداءُ إنزالهم على حُكم الله ، فعلى الأمير أن يُنْزِلهم على حُكمه الشخصي لأنه لا يَعرف هل يصيب حُكمَ الله فيهم أم لا .

ج _ جزاء القاتل :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن أن يَقتل مؤمناً إلا خطأً ومَن قَتل مؤمناً خطأً فتحريرُ رقبة مؤمنة ودِيَةٌ مُسلَّمة إلى أهله إلا أن يَصَّدقوا فإن كان مِن قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان مِن قوم بينكم وبينهم ميثاق فَدِيَةٌ مُسلَّمة إلى أهله وتحريرُ رقبة مؤمنة فَمَن لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين توبة من الله وكان اللهُ عليماً حكيماً ﴾ [النساء : ٩٢] .

فلا ينبغي للمؤمن أن يَقتل مؤمناً لأن إيمانه يَردعه عن إتيان هذا الفعل الكارثي ، لكنَّ قتل الخطأ وارد بسبب انعدام عِصمة البشر ، وإمكانية ارتكابهم للأخطاء . ولا يمكن تصوُّر أن يَقتل

المؤمنُ مؤمناً متعمِّداً ، لأن هذا الفعل الشنيع يُعَدُّ كبيرةً تقود صاحبها إلى هاوية الخطيئة ، وتضعه على طريق جهنم ، لما لها من آثار مُدمِّرة على سَيْر الحياة الدنيا ، ومصيرِ الإنسان في الآخرة .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٦١٦) : ((أخرج ابن المنذر والبيهقي في سُننه من طريق عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه : أن الحارث بن زيد كان شديداً على النبي ﷺ، فجاء وهو يريد الإسلام وعياش لا يشعر ، فلقيه عياش بن أبي ربيعة فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله : ﴿ وما كان لمؤمن أن يَقتل مؤمناً إلا خطأً ﴾)) اهـ .

ومن قَتل مؤمناً على وجه الخطأ فيترتب عليه أمران واجبان : الأول _ الكفَّارة ، وهي تحرير رقبة مؤمنة ، إذ إن إعتاق العبد كإحيائه وإعادته إلى الوجود ، والثاني _ دفع الدِّية إلى أهل المقتول إلا إذا تنازلوا عنها . وهذا تعويض عن فقدانهم لابنهم .

أما مقدار الدِّية ، ففي مسند أحمد (٢/ ١٨٣) : أن رسول الله ﷺ قضى مَن قُتل خطأ ، فَدِيته مائة من الإبل .

فإن كان المقتول مؤمناً لكنه من قومٍ كافرين محارِبين ، فلا دِية لهم لئلا يَستعينوا بها على محاربة الإسلام والمسلمين . وعلى القاتل تحرير رقبة فقط.وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧١٠) : ((فإن كان القتيلُ أولياؤه أهل ذِمَّة أو هدنة ، فلهم دِية قتيلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء)) اهـ . ويجب على القاتل أيضاً تحرير رقبة مؤمنة.

فمن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين ، أي صومهما بشكل متواصل لا إفطار فيه . ومن أفطر بغير عُذر فيجب البدءُ من جديد . وهذه هي توبةُ القاتل خطأ . فقضيةُ القتل ليست سهلةً إطلاقاً . وإذا كانت هذه التشريعات التفصيلية خاصة بالقاتل خطأ ، فما بالك بالقاتل عمداً ؟! .

قال اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَقتل مؤمناً مُتعمِّداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب اللهُ عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً ﴾ [النساء : ٩٣] .

والقتلُ العمد من أفظع الذنوب على الإطلاق ، ومن أمهات الكبائر . وهو مقرونٌ بالشِّرك بالله تعالى . مما يدل على خطورة هذا الإثم ، وتأثيره الشديد على الفرد والجماعة والوجود الإنساني برمَّته . والآيةُ تحمل تهديداً شديداً ووعيداً واضحاً لمقترِف هذه الكبيرة أو الذي يُفكِّر في اقترافها للردع والزجر .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٥٨) : ((يُقال : نزلت في مقيس بن ضبابة ، وكان أسلم هو وأخوه هشام . فقتل هشاماً رَجلٌ من الأنصار غيلة فلم يعرف، فأرسل إليهم النبي ﷺ رَجلاً يأمرهم

أن يدفعوا إلى مقيس دِية أخيه ففعلوا ، فأخذ الدِّيةَ ، وقَتل الرسولَ ، ولحق بمكة مرتداً فنزلت فيه. وهو ممن أهدر النبيُّ ﷺ دَمَه يوم الفتح . أخرجه بن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير)) اهـ .

والآيةُ محمولة على من استحلَّ القتلَ ، أي اعتبره حلالاً . فعندئذ يَخرج من الإسلام ، ويُعتبَر كافراً مستحقاً للخلود في جهنم ، ونيلِ غضب الله ولعنته . والقاتلُ المتعمد تلزمه التوبة الصادقة لكي يعود إلى حظيرة الإيمان . فإذا مات على غير توبة فهو على خطرٍ عظيم .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣١٢) : ((واختلف العلماء في صفة المتعمِّد في القتل ، فقال عطاء والنخعي وغيرهما : هو من قَتل بحديدة كالسيف والخنجر وسنان الرمح ، ونحو ذلك من المشحوذ المعد للقطع ، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقال الحجارة ونحوها . وقالت فِرقةٌ : المتعمد كل من قَتل بحديدة أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك ، وهذا قول الجمهور)) اهـ .

وعن ابن جبير قال : آية اختلف فيها أهل الكوفة ، فرحلتُ فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال : ((نزلت هذه الآية : ﴿ وَمَن يَقتل مؤمناً مُتعمِّداً فجزاؤه جهنم ﴾ . هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء))[18] .

وهذا يدل على الثقافة العلمية التي كانت سائدةً في الوسط الاجتماعي . فالجماعةُ البشرية كانت حريصةً على التعلم والتعليم . فالسَّفرُ من أجل معرفة تفسير آية قرآنية كان أمراً عادياً وليس تشدداً أو مضيعةً للوقت . وهذه البيئة المعتمدة على المنهج العلمي قادرة على بناء منظومة شرعية متكاملة مستندة إلى الكتاب والسُّنة وأقوال العلماء الراسخين القادرين على تفسيرهما .

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : قال النبي ﷺ : ((أول ما يُقضَى بين الناس في الدماء))[19] . فيه تغليظ موضوع " الدماء " والتشديد عليه . وهو أول ما يُقضَى فيه بين الناس يوم القيامة بسبب خطورته الكبرى ، وتأثيره العميق . فالدمُ البشري معصوم ، والحياة الآدمية لها احترامها ومكانتها التي لا يجوز الاعتداء عليها . لذلك كانت "الدماء" أمراً بالغ الأهمية يَستحق أن يكون بدايةَ القضاء والمحاسبة يوم القيامة . فهذا الكيانُ البشري (الإنسان) الذي خلقه اللهُ تعالى وكَرَّمه وصانه ، ليس لأحد أن يزيله أو يعتديَ عليه . فالحياةُ التي منحها اللهُ لعباده مقدَّسة لا يملك أيُّ شخص ــ مهما بلغت رُتبته ــ أن يهدمها .

---

(١٨) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٦٧٦) برقم (٤٣١٤) ، ومسلم (٤/ ٢٣١٧) برقم (٣٠٢٣) .

(١٩) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٥١٧) برقم (٦٤٧١) ، ومسلم (٣/ ١٣٠٤) برقم (١٦٧٨) .

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال:((لزوال الدنيا أَهْون على الله من قتل رَجل مسلم))[20] .

فالدنيا أحقرُ وأقل شأناً من دم المسلم . وقتلُه أعظم عند الله تعالى من الدنيا . وهذا التكريمُ الإلهي للمسلم يشير إلى منزلته الجليلة . فكيانُ الإنسان المسلم أكثر شرفاً ورِفعةً من الكيان الدنيوي بكل زينته . ولا يخفى أن المسلم هو الذي يَحمل الرسالةَ الإلهية على الأرض ، ويسعى جاهداً لتطبيقها في الواقع . ومَن حاول قتل حامل الرسالة (المسلم) فقد حاول إزالةَ الدنيا .

وفي فتح الباري (١٢/ ١٨٩) : ((قال ابن العربي : ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك ، فكيف بقتل الآدمي ؟!، فكيف بالمسلم ؟! ، فكيف بالتقي الصالح ؟!)) اه .

وعن أبي الدرداء _ رضي الله عنه _ أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول : ((كلُّ ذَنْبٍ عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً ، أو مَن قَتل مؤمناً مُتعمِّداً))[21] .

فنحن نجد قتلَ المؤمن عن عمد مقروناً بالشِّرك . مما يدل على خطورة هذا الذنب ، وأن مرتكبه قد أَهلك نفسه ، ووضعها في مأزق حرج ، فعليه التوبة فوراً بلا تسويف قبل أن يهويَ في جهنم ، وعندئذ لا تنفعُ التوبة ولا الندم .

وفي مسند أحمد (٢/ ٢١٧) : أن النبي ﷺ قال : ((مَن قَتل مؤمناً متعمِّداً فإنه يُدفَع إلى أولياء القتيل ، فإن شاؤوا قَتلوا ، وإن شاؤوا أخذوا الدِّية)) .

ومن خلال هذه النصوص يتضح لنا أن قضية "القتل" شديدة الأهمية ، ويترتب عليها تبعات كثيرة تتعلق بالفرد والجماعة. فعلى المرء أن يبتعد عن الدَّم الحرام المعصوم. فالعاقلُ من اتعظ بغيره، والجاهلُ من اتعظ بنفسه . والبقاءُ على بَر الأمان أفضل من الخوض في بحر متلاطم الأمواج يُغرِق الداخلَ فيه ، ولا يَسمح له بالخروج أبداً .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ مِن أجل ذلك كَتبنا على بني إسرائيل أنه مَن قَتل نَفْساً بغير نَفْس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قَتل الناسَ جميعاً ﴾ [المائدة : ٣٢] .

فمن أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً ، كُتب على بني إسرائيل أنه مَن قَتل النفس البريئة أو فساد في الأرض (مثل الشِّرك أو قطع الطريق) فكأنما قَتل الناسَ جميعاً ، لأنه لا فرق بين نَفْسٍ ونفس

---

(٢٠) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ١٦) برقم (١٣٩٥) . وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ١٨٩) : ((قال الترمذي : حديث حسن)) .

(٢١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٣١٨) برقم (٥٩٨٠) .

. وهذا التشريعُ السامي يدل على أن الاعتداء على النفس الإنسانية عدواناً وظلماً هو اعتداء على جميع النفوس ، فالكيانُ الآدمي كُلٌّ لا يتجزأ ، ووحدة واحدة لا انفصال فيها . كما أن قتلَ الفرد هو تكريسٌ لقتل الجماعة ، وهدم للمنجزات الحضارية ، وفتح الباب أمام الأحقاد الاجتماعية وثقافة الانتقام والقتل والإبادة . وإذا زال الجزءُ زال الكلُّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٩) : ((﴿ فكأنما قَتل الناسَ جميعاً ﴾ من حيث إنه هَتكَ حُرمةَ الدماء ، وسَنَّ القتلَ ، وجَرَّأ الناسَ عليه . أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله _ سبحانه وتعالى _ ، والعذاب العظيم)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٦٤) : ((عن أبي هريرة قال : دخلتُ على عثمان يوم الدار فقلتُ : جئتُ لأنصرك ، فقال : يا أبا هريرة ، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ ، قلتُ : لا ، قال : فإنك إن قَتلتَ رَجلاً واحداً فكأنما قَتلتَ الناسَ جميعاً ، فانصرِفْ)) اهـ .

وهذا يدل على خطورة القتل ، وأن الكيان الإنساني له احترامه في المنظور الإسلامي ، ولا فرق بين الفرد والجماعة من حيث المكانة الاعتبارية . فقتلُ الفرد هو قتلٌ للجماعة . وهذه النظرة الشرعية تقود إلى تدعيم الوحدة الاجتماعية ، وتقوية الروابط بين أفراد المجتمع ، وإحاطة الكيان البشري بسورٍ واقٍ مضاد لعبث العابثين . فالدمُ الإنساني معصوم لا يُراق إلا بأحكام الشريعة . وهذه الحصانة الإلهية الممنوحة للإنسان تشير إلى مركزيته على الأرض، ودوره المحوري في إعمارها، وأنه كائن راقٍ شريف ومُكرَّم .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَقتلوا النفسَ التي حَرَّم اللهُ إلا بالحق ومَن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لِوَلِيِّه سُلطاناً فلا يُسرِف في القتل إنه كان منصوراً ﴾[الإسراء : ٣٣] .

لا يجوز قتل النفس المعصومة التي جعل اللهُ دمها حراماً مُصاناً إلا بالحق. أي إلا بأحد الأسباب التي تَسلب الإنسانَ عِصمةَ الدم وتجعله مباحاً ، كالرِّدة ، والزنا من المحصَن ، وكالقِصاص من القاتل عمداً . ومَن قُتل مظلوماً ، أي بلا سبب موجب لقتله ، فإن وَلِيَّ المقتول (الوارث الذي يلي أمرَه بعد وفاته) يملك سُلطةً على القاتل ، إن شاء قَتل ، وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدِّيةَ . ويجب عدم الإسراف في القتل. فلا يجوز أخذ البريء بجريمة القاتل . فلا يُقتَل بالمقتول ظلماً إلا قاتله ، ولا أحد غير القاتل . وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٧٤) : ((وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يفعلون ذلك، إذا قتل رَجل رَجلاً عمد ولي القتيل إلى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بِوَلِيِّه ، وترك القاتلَ ، فنهى اللهُ _ عز وجل _ عن ذلك عباده)) اهـ .

كما أنه لا يجوز التمثيل بجثة القتيل أو الاعتداء عليها. وأيضاً لا يَقتل الشخصُ بدل وَلِيِّه اثنين، كما كانت تفعل العربُ في الجاهلية . فهذا منتهى الظلم النابع من الاحتكام لعقلية الثأر والتشفِّي لا إقامة العدل . فالبيئة الجاهلية كانت تتقاذفها الأهواءُ الشخصية بلا رؤية واضحة ، وتتحكم فيها ثقافة الانتقام وشهوة السُّلطة والسيادة على القبائل لا قيمة العدل والمساواة .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٣٣) : عن عبادة بن الصامت _ رضي الله عنه _ قال : كُنَّا مع رسول الله ﷺ في مجلس، فقال : ((تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا ، ولا تقتلوا النَّفْسَ التي حَرَّم اللهُ إلا بالحق)) .

وهذه الوصايا النبوية الشاملة تؤسس منهجاً شرعياً وتربوياً واجتماعياً في المحيط الإنساني ، فَتَفتح البابَ أمام الخير ، وتغلق البابَ أمام الشر . مما يؤدي إلى صناعة المجتمع المتماسك المتقدم العصيِّ على الانقسام والتناحر .

وقوله تعالى : ﴿ إنه كان منصوراً ﴾ . فإمَّا أن يكون الضمير عائداً على المقتول ، فإنه منصور في الدنيا بثبات حقِّه والقِصاص من قاتله ، وفي الآخرة ينال الأجرَ . وإمَّا أن يكون عائداً على ولي المقتول فإن الله تعالى نصره ، إذ أعطاه سلطاناً على القاتل ، ومنحه حقَّ القِصاص ، وأمر الحكامَ بمساعدته حتى ينال حقَّه .

٣_ الحدود :

أ _ حَد الزنى :

قال اللهُ تعالى : ﴿ الزانيةُ والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائة جَلدة ﴾[النور : ٢] .

إن الزاني إذا كان مُحصَناً فعليه الرَّجم. أمَّا إن كان بِكراً لم يتزوج فيُجلَد مائة جَلدة ، ويُغرَّب عن بلده لمدة عام. فالجَلدُ عقوبةٌ حِسِّية، والتغريب عقوبة معنوية. وذلك لكي يدرك حجمَ جريمته ، ويرتدع الآخرون عن الإتيان بفِعلته القبيحة .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٩٣٧) : عن زيد بن خالد_ رضي الله عنه_: عن رسول الله ﷺ أنه أمر فيمن زنى ولم يُحصَن بجلد مائة ، وتغريب عام .

وقد قَدَّم اللهُ تعالى ذِكر الزانية على الزاني ، لأن المرأة هي منبع الفتنة الجنسية ، ومصدر الجذب، وهي _غالباً_ صاحبة المبادرة في المشكلات الجنسية لما تملكه من إغراء وعوامل استدراج. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧٢) : ((وإنما قَدَّم ﴿ الزانيةُ ﴾ لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرَّجل ، وعرض نفسها عليه ، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها)) اهـ .

ب_ حَد زنى الإماء :

قال اللهُ تعالى:﴿فإذا أُحْصِنَّ فإن أتَيْنَ بفاحشةٍ فعليهنَّ نصفُ ما على المحصَنات من العذاب ﴾ [النساء : ٢٥] . الأَمَةُ إن زَنت فإنها تُجلَد نصف جَلد الحرَّة (٥٠ جلدة) . وإحصانُ الأمَة تزويجها ، وقيل : إسلامها .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٧٢) : ((وهو يدل على أن حَد العبد نصف حَد الحر ، وأن لا يُرجَم لأن الرَّجم لا ينتصف)) اهـ .

ج _ حد القذف :

قال اللهُ تعالى : ﴿ والذين يَرْمون المحصَناتِ ثم لم يأتوا بأربعة شُهداء فاجلدوهم ثمانين جَلدة ولا تَقبلوا لهم شَهادةً أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ [النور : ٤] .

فالذين يتهمون حرائر المسلمين بالزنا ، ولم يأتوا بأربعة يَشهدون على ارتكاب هذا الفعل ، فعندئذ يُطبَّق عليهم حد القذف ، وهو الجلد ثمانين جَلدة ، ولا تُقبَل لهم شهادة أبداً ، إذ إنهم قد فَقدوا عدالتهم وسُمعتهم ، فلا يستحقون أن تُسمَع شهادتهم . فالمجتمع فقد الثقة بهم ، لذلك لا يمكن التعويل على كلامهم ، أو الاعتماد على شهادتهم المتعلقة بمصير الآخرين .

واللهُ تعالى حَكمَ على القاذف الذي لم يأتِ ببرهان على كلامه بثلاثة أمور : ١) الجلد ثمانين جلدة ، ٢) عدم قبول شهادته أبداً ، ٣) إسقاط عدالته عند الله تعالى وعند الناس .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ١٥٤) : ((للقذف شروط عند العلماء تسعة : شرطان في القاذف ، وهما : العقل والبلوغ ، لأنهما أصلا التكليف ، إذ التكليف ساقط دونهما . وشرطان في الشيء المقذوف به، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد وهو الزنى...، وخمسة في المقذوف وهي : العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رُمي بها)) اهـ .

فالقذفُ قضيةٌ بالغة الخطورة وشديدة الحساسية لأنها تمس أعراضَ الناس وسُمعتهم . وإذا انتشر قذفُ المحصَنات في المجتمع فإن التماسك الاجتماعي سيتفكك ، ويؤول شرفُ الناس إلى ألعوبة ، وأحاديث للتسلية تنتقل في المجالس . وهذا يقضي على الوجود الاجتماعي برمَّته ، ويُفقِد الناس ثقتهم بأنفسهم ومجتمعاتهم ، ويؤدي إلى البغضاء والخصومات والقتال بين الناس . وعندئذ يزول معنى الأسرة والقيم المجتمعية بأسرها ، وتصبح البلاد والعباد في مهب الريح . وهذه هي النهاية الكارثية الأكيدة .

د ـ حد المحاربة :

قال اللهُ تعالى : ﴿ إنما جزاءُ الذين يُحارِبون اللهَ ورسولَه ويَسْعَوْن في الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم مِن خِلاف أو يُنفَوْا من الأرض ﴾ [المائدة : ٣٣] .

فجزاءُ الذين يُحارِبون الشريعةَ الإلهية والمسلمين ، وينشرون الفساد وسفك الدماء في الأرض أن يُقتَلوا عقوبةً لهم، أو يُصلَبوا، أو تُقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى،أو يُنفوا من بلدٍ إلى بلد.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٥٣) : ((واختلف العلماء في المراد بهذه الآية الكريمة . فقال مالك : هي على التخيير ، فيخير الإمام بين هذه الأمور إلا أن يكون المحارِب قد قَتل فيتحتم قتله . وقال أبو حنيفة وأبو مصعب المالكي : الإمام بالخيار وإن قَتلوا،وقال الشافعي وآخرون : هي على التقسيم ، فإن قَتلوا ولم يأخذوا المال قُتلوا ، وإن قَتلوا وأخذوا المالَ قُتلوا وصُلبوا ، فإن أَخذوا المالَ ولم يَقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خِلاف ، فإن أخافوا السبيل ولم يأخذوا شيئاً ولم يَقتلوا طُلبوا حتى يُعزَّروا ، وهو المراد بالنفي عندنا)) اهـ .

وبما أن ضرر هذه الجرائم مختلف ، وتأثيرها متفاوت ، فقد كانت عقوباتها مختلفة ، لكي تتناسب العقوبة مع الجريمة دون إفراط أو تفريط .

والناظرُ في حَد المحاربة قد يظن ـ للوهلة الأولى ـ أنه قاسٍ وعنيف . ولكنْ ينبغي النظر إلى الأمر من كل زواياه إذا أردنا تكوين صورة صحيحة . فالحِرابةُ ـ قطع الطريق ـ هي تمرُّد مسلَّح لإرباك المجتمع ، وإشاعة الفوضى والقتل ، وانتهاك الأعراض ، وانتزاع الأموال من أصحابها دون وجه حق . وهذه الجريمةُ الكبرى لا بد من التصدي لها بحزم حفاظاً على أرواح الناس وممتلكاتهم ومجرى الحياة دون عوائق. وسوى ذلك ستنتشر الفوضى في المجتمع ، ويعمُّ القتل والسلب والنهب بكل أريحية ، ودون رادع .

والحدودُ شُرعت من أجل ردع الناس ، وإحاطة المجتمع بسياجٍ واق ضد الجريمة والمجرمين والذي يُفكِّرون في ارتكاب الجرائم ، وليس من أجل تحويل الأفراد إلى مشلولين ومُعاقين . فالحدودُ هي عقوباتٌ حازمة تجعل الأفراد يُفكِّرون ألف مرة في عاقبة ارتكاب الجرائم ، وبالتالي يَطردون فكرة الجريمة من أذهانهم خوفاً من العقوبة الحاسمة. ودرهمُ وقاية خير من قنطار علاج. أمَّا التساهل في العقوبة سيؤدي إلى جرأة الناس على ارتكاب الجرائم ، لعلمهم أن الطريق مفتوح بسهولة ، والعقوبةُ بسيطة لا تستحق أن يُخاف منها . وكما قيل : مَن أَمِنَ العقوبةَ أساءَ الأدب .

وعن أنس _ رضي الله عنه_: أن نفراً من عكل _اسم قبيلة_ ثمانية قَدِموا على رسول الله ﷺ، فبايعوه على الإسلام ، فاستوخموا الأرض ، وسقمت أجسامهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ((ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبوالها وألبانها ؟)) ، فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحُّوا ، فقتلوا الراعي ، وطردوا الإبلَ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم ، فأُدرِكوا فجيء بهم ، فأمر بهم فَقُطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمر أعينهم ، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا (22) .

هؤلاء النَّفر قابلوا الإحسان بالإساءة ، وقابلوا المساعدةَ النبوية بالخيانة . فالنبيُّ ﷺ أراد إنقاذهم من مأزقهم ، وإخراجهم من أزمتهم ، وإنهاء معاناتهم . فَعَرض عليهم الخروج مع راعي الإبل للتزود من أبوالها وألبانها من أجل أن يستعيدوا عافيتهم ، وحالتهم المعنوية والجسمانية . وقد خرجوا مع الراعي وشربوا من أبوال الإبل وألبانها ، فلمَّا عادت إليهم الصِّحة ما كان منهم إلا أن قَتلوا الراعي ، وطَردوا الإبلَ . وإنهم بهذا الفعل يُعلِنون الحربَ على الله ورسوله ، لذلك فقد استحقوا العقوبة الحازمة التي توقفهم عند حَدِّهم ، وتَردع الآخرين .

وقال السيوطي في شرحه لسُنن النسائي (٧/ ٩٣): ((وإنما فعل بهم ذلك لأنهم فعلوا بالرعاة وقتلوهم فجازاهم على صنيعهم بمثلة . وقيل : إن هذا كان قبل أن تنزل الحدود ، فلمَّا نزلت نهى عن المثلة)) اهـ .

***

(٢٢) متفق عليه. مسلم (٣/ ١٢٩٦) برقم (١٦٧١) ، والبخاري (٦/ ٢٥٢٨) برقم (٦٥٠٣) .
"فاستوخموا الأرض": استثقلوها،ولم يوافق هواؤها أبدانهم."سمر أعينهم": أحمى لهم مسامير الحديد ثم كَحَّلهم بها .

ثالثاً : تنظيمات قضائية

١_ العدل :

قال اللهُ تعالى : ﴿ قُل أمرَ رَبِّي بالقِسْط ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

فاللهُ تعالى أمرَ بالعدل . وهي قيمة نبيلة عند كل الأمم على اختلاف معتقداتها ، لما فيها من حفظ حقوق الفرد والجماعة ، وتجذير الإنجازات الحضارية ، وتحقيق النهضة الشاملة ، والتنمية المستدامة ، والعدالة الاجتماعية ، والتكافل الإنساني في أبهى صوره. ولا يمكن للحضارات أن تقوم إلا على أساس العدل ، أمَّا إن سَلكت طريق الظلم فهي تقامر بمصيرها ، وتضع رِجْلها على درب الانهيار الحتمي ، والنهاية الوخيمة . وكما قال الشاعر :

والْبَغيُ يَصْرَعُ أَهْلَهُ وَالظُّلمُ مَرْتَعُهُ وَخيمُ

وقال أبو السعود في تفسيره (٣/ ٢٢٣) : ((والقسط هو العدل ، وهو الوسط من كل شيء ، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأُمِرْتُ لأَعدل بينكم ﴾ [الشورى : ١٥] .

فالنبيُّ ﷺ مأمورٌ بإقامة العدل ، ونشر الاستقامة ، فيأخذ الحقَّ للمظلوم ، ويوقف الظالمَ عند حدِّه ، ولا يسمح باعتداء القوي على الضعيف ، أو تطاول الضعيف على القوي . فالنبيُّ ﷺ هو الحاكم العادل الذي يَنظر في قضايا المتخاصمين ، فيفصل بينهم بالعدل دون محاباة لطرف على حساب الطرف الآخر .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٢٥) : ((﴿ وأُمِرْتُ لأَعدل بينكم ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات. والأول إشارة إلى كمال القوة النظرية، وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ معصوم من الوقوع في الظلم . فهو القاضي العادل الذي لا يمكن ابتزازه أو رشوته أو التلاعب بأحكامه . فهو المؤيَّد بالوحي ، يُبلِّغ تعاليمَ السماء بلا زيادة أو نقصان .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٧/ ٣٤١) عن قتادة قال : ((أُمر نبي الله ﷺ أن يَعدل فعدل حتى مات . والعدلُ ميزان الله في الأرض، به يأخذ للمظلوم من الظالم، وللضعيف من الشديد . وبالعدل يُصدِّق اللهُ الصادقَ ، ويُكذِّب الكاذبَ . وبالعدل يردُّ المعتدي ويُوبِّخه)) اهـ .

٢ـ الحُكم بالعدل :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا حَكمتم بين الناس أن تَحكموا بالعدل ﴾[النساء : ٥٨] .

فهذا الأمرُ الإلهي الجليل بالحكم بين الناس استناداً إلى مبدأ العدل والمساواة ورد المظالم ، ونصرة المظلوم ، وقمع الظالم . فالبيِّنةُ على مَن ادَّعى ، واليمين على مَن أَنكَر . والشريعةُ هي منبع العدل ، وبدون تطبيقها فلا يمكن للعدل أن يتحقق. والعادلُ هو الذي يَضع أمر الله في موضعه . والآيةُ تخاطب الحكَّام والقضاة ، وتشمل أيضاً جميع الخلق ، لأن العِبرة بعموم اللفظ .

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٧٢٥) : ((وأمَّا الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله ولا بما هو أقرب إليهما ، فهو لا يدري ما هو العدل لأنه لا يعقل الحجَّة إذا جاءته فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٤٥٨) أن النبي ﷺ قال:((إن المقسِطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن ـعز وجلـ وكلتا يديه يمين، الذين يَعدلون في حُكمهم وأهليهم وما وُلُّوا)).

فالمقسِطون (العادلون) على منابر من نور ، ولهم المنازل الرفيعة . وقد نالوا هذه المكانة العظيمة بسبب عَدْلهم في كل أحوالهم .

أمَّا قوله ﷺ : ((عن يمين الرحمن)) ، فالمعنى أنهم في مكانة سامية ، فالعربُ تنسب الفعلَ المحمود إلى اليمين.ولئلا يظن السامعُ أن لله تعالى أعضاء ، قال النبي ﷺ : ((وكلتا يديه يمين)) من أجل التنبيه على أنه ليس المقصود باليمين جارحة لله تعالى .

وعن ابن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ ، فإذا جَارَ تبرَّأ اللهُ ـ عز وجل ـ منه))[23] .

فاللهُ تعالى يؤيد القاضي ويُثبِّته على الحق ما دام متمسكاً بالعدل والاستقامة وتحرِّي الصواب في أحكامه ، فإذا ظَلم وانحرف عن الطريق القويم ، فإن الله تعالى يكله إلى نفسه ، ويتركه لهواه يتلاعب به حتى يُهلكه . وهنا تتَّضح أهميةُ القضاء ، والدور المحوري للقضاة في إقامة الشريعة ، وفض النزاعات بين الناس ، وتأسيس العدالة واقعاً ملموساً لا شعاراً مُجرَّداً . فإذا صَلح القاضي فإن الخير سيعمُّ المجتمع ، وتزول الخصومات بين الأفراد والجماعات . أمَّا إذا فَسد فعندئذ تنتشر الفوضى ، وفقدان الثقة بالقضاء ، فيحتكم الأفرادُ إلى أنفسهم ، ويخترعون القوانين من

---

(٢٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٥) برقم (٧٠٢٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

بنات أفكارهم ويُطبِّقونها ظناً منهم بأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق العدل هي أخذ حقوقهم بأيديهم . وهذا يعني انتحار الدولة وفقدان هَيْبتها، وظهور دول داخل الدولة، وتمزُّق النسيج الاجتماعي . ويصبح كلُّ فردٍ حاكماً قائماً بذاته ، فيتحول المجتمع إلى جُزر فوضوية معزولة ، وتتجذر شريعةُ الغاب في النسق الإنساني . وهذه بدايةُ نهاية الحضارة ، وانكسارِ الأمم .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قُلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُربى ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

إن العدل ليس حالةً مزاجية ، أو سيفاً مسلطاً على الضعفاء ، أو وسيلةً لابتزاز الآخرين . إنه منهج متكامل يسري على الجميع بلا تمييز أو مجاملة . يسري على الحاكم والمحكوم ، والقوي والضعيف ، والغني والفقير ، والرَّجل والمرأة ، والقريب والبعيد ، والصديق والعدو ... إلخ .

فلا مفر من تطبيق العدل في الأحكام والشهادات بغض النظر عن درجة القرابة أو المكانة الاجتماعية للفرد . ومن العدل أن يقول المرءُ الحقَّ سواءٌ على نفسه أو غيره . فالعدلُ لواءٌ ينضوي تحته جميع فئات الشعب بلا تفرقة على أساس الدِّين أو العِرْق أو المستوى الروحي والمادي . وهنا تتجلى المساواة في أبهى صورها ، والتي تكفل تعزيزَ روح الانتماء والولاء للجماعة ، وتحفظ حقوقَ الناس رغم اختلافاتهم ، وتحافظ على التماسك الاجتماعي ، لأن التمييز في المجتمع سيؤدي إلى نشر الخصومات والأحقاد ، وهذا سيجعل الأفراد أعداءً لبعضهم البعض ، كلٌّ يتربص بالآخر . وهذا المناخ الموبوء من شأنه قتل المعنى الاجتماعي بكل أشكاله وأبعاده .

٣_ الظن لا يُغني من الحق شيئاً :

قال اللهُ تعالى : ﴿ إن الظَّن لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ [يونس : ٣٦] .

فالظنُّ لا يحل مكان الحق ، ولا يقوم مقامه . ولا فائدة منه ، لذلك لا يمكن التعويل عليه أو الاستناد إليه في حَل المشكلات وعلاجِ القضايا . والظنُّ خليطٌ من الشوائب ، أمَّا الحقُّ فلا شائبة فيه . والمقارنةُ بين الظن والحق كالمقارنة بين الثرى والثريا . ولا يمكن لشمس الحق أن تُغطَّى بغربال الظن . ولا يمكن للظلام _ مهما كانت شِدَّته _ أن يَهزم الضوءَ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٣٣) : ((أي : لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً . وقيل : لا يقوم مقام العِلم)) اهـ .

وأهلُ الضلال _ في كل المراحل الزمنية _ يَبنون عقائدهم وسلوكهم الاجتماعي على الظن والتلفيق والترقيع ، فتكون عقائدُهم كومةً من الأضداد وخليطاً غير متجانس ، لأن الذي يَعجز عن الوصول إلى الحق ، سوف يَعتبر الباطلَ هو الحق المطْلق الذي لا يَقبل النقاش .

٤ـ الشَّهادة :

أ ـ وجوب أدائها كما هي :

قال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامين بالقِسط شُهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربين ﴾ [النساء : ١٣٥] .

والآيةُ توضِّح ضرورةَ القيام بالعدل في أداء الشَّهادة على أكمل وجهٍ ، بلا زيادة أو نقصان ، وإقامتها خالصةً لوجه الله تعالى ، حتى لو كان الأمرُ متعلقاً بأن يَشهد المرءُ على نفسه فيعترف بالحقوق المترتبة عليه ، أو على والدَيْه والأقربين الذين هُم الحاضنة الاجتماعية للفرد ، والحضنُ الدافئ الذي يحتمي فيه . فالشهادةُ إظهارٌ للحق ، ودحضٌ للباطل . والعدلُ أكبر من الأشخاص ، وأعظم من درجة القرابة . فعلى المرء أن يُؤدِّيَ الشَّهادةَ كما هي ، ولا يَخشى في ذلك لومة لائم . ولا يخاف جباراً لجبروته ، ولا يَرحم ضعيفاً لضعفه .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٩٠) : ((لا خلاف بين أهل العِلم في صحة أحكام هذه الآية ، وأن شهادة الولد على الوالدَيْن الأب والأم ماضية ، ولا يمنع ذلك من برهما ، بل من برهما أن يَشهد عليهما ، ويُخلِّصهما من الباطل)) اهـ .

وفي الدر المنثور (٢/ ٧١٤و٧١٥) : ((وأخرج ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مولى لابن عباس قال : لَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ كانت البقرة أول سورة نزلت ثم أردفها النساء . قال : فكان الرَّجلُ يكون عنده الشَّهادة قِبَل ابنه ، أو عَمِّه ، أو ذوي رَحِمه ، فيلوي بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عُسرته حتى يُوسِر فيقضي . فنزلت : ﴿كونوا قَوَّامين بالقِسط شُهداء لله ﴾)) اهـ .

وهكذا نرى تأثيرَ الروابط الأسرية الضاغطة ووطأةَ العلاقات الاجتماعية على مسار العدالة ، فكان الشخصُ يُقدِّر مقامَ القرابة أكثر من مقام العدل، فلا يؤدي الشهادةَ تحت ضغط رابطة الدم، لكنَّ التوجيه القرآني بَيَّن وجوبَ أداء الشهادة كما هي، سواءٌ كانت متعلقة بالذات أو الآخرين .

ب ـ شهادة الزُّور :

قال اللهُ تعالى : ﴿ واجتنبوا قولَ الزُّور ﴾ [الحج : ٣٠] .

إن قول الزُّور ـ وهو الكذب والباطل ـ يُفقِد المرءَ احترامه لنفسه ، ويؤدي إلى شيوع الخرافات والإشاعات في المجتمع . الأمر الذي يُغرِق الناس في دوامة من الأوهام ، وعندئذ تختفي الحقائق ، ويغيب اليقين ، وتنعدم الثقة بين المكوِّنات الاجتماعية ، ويصبح الكذبُ أساساً للبنية الإنسانية ، وهذا يُدمِّر المجتمعَ ، ويجعله ريشةً في مهب الريح ، لا تقوم له قائمة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٥٢) : ((والزُّور : الباطل والكذب . وسُمِّيَ زُوراً لأنه أَمْيَل عن الحق)) اهـ .

والحقُّ واحدٌ لا يتعدد ، وكلُّ ما خالف الحقَّ فهو زُور _ أي انحراف عن النهج القويم _ ، وينبغي التحذير منه ومن صاحبه لئلا يَغتر بشهادته أحد .

وعن أبي بكرة _ رضي الله عنه _ قال : قال النبي ﷺ : ((ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر)) ثلاثاً . قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ((الإشراك بالله ، وعقوق الوالدَيْن ، _ وجلس وكان متكئاً فقال : _ ألا وقول الزور))[24] .

إن الارتباط الوثيق بين بين الإشراك بالله وعقوق الوالدين من جهة ، وبين قول الزور ، ليشير إلى خطورة قول الزور ، وكَوْنه من أعظم الكبائر ، وأشدها خطراً على أمن الجماعة الإنسانية ، لما فيه من تفتيت للعلاقات الاجتماعية ، وتشكيك الناس بأنفسهم وغيرهم ومجتمعاتهم . ولا يمكن للمجتمع أن يُبنَى على الشكوك وانعدام الثقة . ومن هنا كان قولُ الزور كبيرةً يجب التصدي لها بحزم واجتثاثها قبل أن تنتشر في الأوساط الاجتماعية كانتشار النار في الهشيم ، فتؤول المكتسباتُ الحضارية إلى وهمٍ متبخِّر . وعندئذ لا يَنفع الندم أو العتاب .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((عدلت شهادة الزور الشِّرك بالله)) . وقرأ : ﴿ واجتنبوا قولَ الزُّور ﴾ [25] .

فالشِّركُ هو كذبٌ على الله تعالى ، وشهادةُ الزور كذبٌ على العبد . لذلك وُضعت شهادة الزور مقابل الشِّرك بالله تعالى . والشِّركُ وشهادةُ الزور هما وَهْمان لا حقيقة لهما ، وهما ضد النَّقل والعقل معاً.إنهما عالَمان من الأكاذيب والخيالات التي تعتمل في النفوس المريضة، وسوف تَذهب أدراج الرياح وتضمحل.إذ إن ثلوجَ الوهم لا تَصمد أمام شمس الحق.ولا يَصِحُّ إلا الصحيح .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ والذين لا يَشهدون الزُّورَ ﴾ [الفُرقان : ٧٢] .

فمن صفات عباد الرحمن أنهم لا يَحضرون الكذبَ والباطل ولا يشاهدونه . فمشاهدةُ الباطل مشاركةٌ فيه . وإذا رَأَوْه فإنهم يُعرِضون عنه ولا يتوقفون عنده. والزُّورُ درجاتٌ، أعظمها على الإطلاق هو الشِّرك بالله . فالشِّركُ كذبٌ على الله تعالى ، ونشر للباطل بين الخلائق .

---

(٢٤) متفق عليه . البخاري (٢/ ٩٣٩) برقم (٢٥١١) ، ومسلم (١/ ٩١) برقم (٨٧) .

(٢٥) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٩) برقم (٨٥٦٩) . وحسَّنه الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٦٣) .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٤١٢) : ((وفيه التحريض على مجانبة كبائر الذنوب ليحصل تكفير الصغائر بذلك كما وعد اللهُ _ عز وجل _)) اهـ .

فالزُّورُ من الكبائر ، فلا يَنبغي اقترافها أو حضورها . والمؤمنُ يُنَزِّه نفسه عن مخالطة الضلال وأهله من أجل حفظ دِينه . والابتعادُ عن الكبائر من شأنه تكفير صغائر الذنوب ، لقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْن عنه نُكَفِّرْ عنكم سَيِّئاتكم ﴾ [النساء : ٣١] .

وفي تفسير البغوي (١/ ٩٨) : ((وكان عمر بن الخطاب يَجلد شاهدَ الزُّور أربعين جَلدة ، ويسخم وجهه ، ويطوف به في السوق)) اهـ .

فلا بد من تحذير الناس من شاهد الزور وفضحه على الملأ لئلا يُغويَ الآخرين ، ويوردهم المهالك . فإذا عُرف بين الخلق وكُشف أمرُه فلن يُغْتَرَّ بشهادته ، ولن يَقع في حبائله أحد .

٥_ الحَكَم :

قال اللهُ تعالى:﴿ثُمَّ إِلَيَّ مرجعكم فأحكمُ بينكم فيما كُنتم فيه تختلفون ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

إن اللهَ تعالى هو الحَكَم الحاكم ، يَفصل بين العباد ، ويُصدر الحُكمَ بشأن اختلافاتهم ، لا مُعقِّب لِحُكمه . وعند الله تجتمع الخصوم . فاللهُ تعالى هو القاضي العادل الْمُنَزَّه عن الظلم ، والمحاباة . وإذا كان العدلُ غائباً في الدنيا التي يسيطر عليها الأقوياء ، ويَحصدون الضعفاء دون رادع ، فهو موجود عند الله تعالى الذي يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨٧) : ((يقول : فأقضي حينئذ بين جميعكم في أمر عيسى بالحق)) اهـ .

والآيةُ تتحدث عن الاختلافات الكبرى التي ضَربت النصارى في شأن عيسى ﷺ ، وفَرَّقت كلمتهم ، وحَوَّلتهم إلى شِيَع وأحزاب متناحرة .

قال اللهُ تعالى:﴿وإن حَكَمْتَ فاحكم بينهم بالقِسط إن الله يحب المقسِطين ﴾ [المائدة: ٤٢].

وهذا الخطابُ الإلهي للنبي ﷺ بالحُكم بين أهل الكتاب بالعدل الذي هو شريعة الله في الأرض. فاللهُ تعالى يحب العادِلين . والعدلُ مظلةٌ شاملة للجميع ، والكل تحتها ، سواءٌ المسلم والكافر . وهنا تتحقق المساواة بين بني البشر على اختلاف أديانهم وأجناسهم .

وقال الشافعي في الأم (٤/ ٢٩٨) : ((والقِسطُ حُكمُ الله عز وجل الذي أنزله عليه ﷺ)) .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كانت قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قَتل رَجلٌ من قريظة رَجلاً من النضير قُتل به ، وإذا قتل رَجلٌ من النضير رَجلاً من

قريظة قالوا : ادفعوه إلينا نقتله . فقالوا : بيننا وبينكم النبي ﷺ فأتوه ، فنزلت : ﴿ وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾)) [26].

وقد كان العدلُ في المجتمع اليهودي (قريظة والنضير) امتيازاً طبقياً يعتمد على المكانة الاجتماعية لا تحقيقِ قيم العدل والمساواة . فكان النضيرُ يستغلون مكانتهم الاجتماعية الشريفة من أجل قهر قريظة ذات المكانة الأدنى . وهذا التمييز يتعارض تماماً مع ماهية العدل ، لذلك وضَّح القرآنُ هذه القضية ، وأمر النبيَّ ﷺ بالحُكم بالقِسط بينهم دون محاباة للشريف أو اضطهاد للأقل منزلةً . وهكذا أَسَّس القرآنُ مفهومَ العدل وتطبيقه الذي يَسري على الجميع بلا استثناء .

***

(٢٦) رواه الحاكم (٤/ ٤٠٧) برقم (٨٠٩٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

الفصل الثالث عشر
العلوم والطبيعة

تمهيد

إن مكانة العلم والعلماء في الإسلام عالية جداً ، فقد مدح اللهُ تعالى العلماء ، وأعلى من منزلة العقل ، وفتح أمامه الطريقَ لكي يكتشف آثارَ القدرة الإلهية في الإنسان والطبيعة ، فالعقلُ هو مناط التكليف .

وقد ذكر القرآنُ كثيراً من العلوم والفنون التي تقود الأذهانَ إلى النظر العميق البعيد عن الاعتيادية ، والتفكر الدقيق . فالنظرُ والتفكر هما جناحا الحقيقة .

ونحن حينما نتحدث عن الظواهر العلمية في القرآن فلا نقصد أن القرآن كتاب مختص بالبحوث العلمية ونظريات العلوم الطبيعية ، بل نعني أن هناك إشارات علمية وردت في القرآن استطاع العلمُ أن يتوصل إليها فيما بعد .

وفي هذا المبحث نحاول تسليط الضوء على بعض المجالات العلمية التي نكتشف من خلالها سعةَ الكَوْن ، ونعرف عظمةَ الصانع الذي أتقن كلَّ شيء ، ونكتشف من خلالها أيضاً عملياتٍ حسابية متعددة ذات تماس مباشر بحياتنا . ونتعرف على أصل علوم الصحة كما وضَّحها القرآنُ بأسلوبه المعجِز المضاد للثرثرة .

ثم نكتشف العديد من الظواهر الطبيعية والحقائق العلمية المتعلقة بالرياح ووظيفتها في هذا الوجود ، والسحاب وأهميته في حمل الأمطار ، ونتعرف إلى حركة الأرض وتعاقب الليل والنهار ، حيث الليل للراحة والسكون ، والنهار للعمل وإعمار الأرض ، وندرس أهميةَ الجبال ، ونعمة وجود البحر .

وهذه المظاهرُ الباهرة موجودة عبر كل الأزمنة ومكشوفة لكل العيون . لكن الإنسان من فرط اعتياده على رؤية هذه المظاهر صار لا يُفكِّر فيها،ولا ينظر إلى القدرة الإلهية العظيمة التي أوجدتها. مما جعل هذه المظاهر بالنسبة إليه مجرد تاريخ وجغرافيا وعلوم في بطون الكتب . فالنظر إلى الأشياء بعيون ميتة سيؤدي حتماً إلى فوضى في الفكر ، وعدم اكتشاف ما وراء المحسوس .

والقرآنُ الكريم فتح الأعينَ أمام هذه المظاهر وكشف عن أسرارها ، ليكون ذلك عوناً للعبد على التعرف على عظمة الخالق تعالى . والعقلُ السليم سيقود الفردَ إلى رؤية آثار الله تعالى في مخلوقاته ، فهذا الوجود بكل مكوناته لم يجيء صدفةً ، بل هو لحكمة إلهية جليلة .

١ـ فضل العلم والعلماء :

قال الله تعالى : ﴿ قُل هل يستوي الذين يَعلمون والذين لا يَعلمون ﴾[الزُّمر : ٩] .

إن العلماء هم ورثةُ الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، فهم يحملون العلمَ في أرجاء المعمورة ليُخرجوا الناسَ من ظلام الجهل إلى نور المعرفة . إنهم يأخذون بأيدي الناس إلى خالقهم ، ويفتحون عيونهم أمام المعارف والمظاهر الكَوْنية ، ويكشفون لهم عن علومها وأسرارها وأبعادها الفكرية . والعلمُ ليس شهادةً معلَّقة على الحائط ، أو حرفاً يُوضع أمام اسم الشخص . إن العلم منهاج حياتي متكامل بدونه تفقد الإنسانيةُ معناها ، ويخسر الوجودُ أسمى ما فيه . فلا يمكن أن يتساوى العالِمُ والجاهل ، لأن النور والظلام ضِدَّان لا يجتمعان .

وعن أبي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ﷺ قال : ((مَن سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك اللهُ به طريقاً من طرق الجنة ، والملائكةُ تضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالِم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في الماء ، وفضلُ العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وأورثوا العلمَ ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر))[1] .

إن العِلمَ النافع هو الطريق الرئيسي نحو الجنة . وهذا العلمُ يجب أن يَقترن بالنية الصالحة ، لأن الأعمال بالنيات . والملائكةُ ــ عليهم السلام ــ تضع أجنحتها لطالب العلم ، وذلك بالدعاء والاستغفار له. واستغفارُ الملائكة مقبول حتماً. ووضعُ الأجنحة يتضمن معنى إظلال طالب العلم ، والتواضع له تعظيماً لقَدْره . ومن مزايا العالِم أن المخلوقات تستغفر له ، وهذا يدل على جلالته ، وعَظَمة مكانته . والعالِمُ أفضل من العابد ، لأن العابد صلاحه لنفسه ، أما العالِمُ فصلاحه إصلاحُ للآخرين ، وأخذٌ بأيديهم إلى طريق الحق . فهو القمرُ المنير الذي يرشد الحيارى ، ويدل التائهين . والعلماءُ أفضل البشر بعد الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، وهُم حملةُ الميراث النبوي ، الذي يُكمِلون مسيرةَ الأنبياء ، ويُطبِّقون تعاليمهم وينشرونها بين الناس .

والقدوةُ العليا في هذا الموضوع هم الأنبياء الذين كانوا يَحرصون على العِلم ونشره ، فلم يَجمعوا متاعَ الدنيا الزائل ، ولم يُوَرِّثوا مالاً ، بل وَرَّثوا العِلمَ النافع . واللهُ تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً سيرزقه عِلماً لأنه رأس الأمور . ولا شك أن العِلم أفضل من المال ، لأن العِلمَ يَحرس المالَ ، أمَّا

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٨٩) برقم (٨٨) .

المالُ فلا يَحرس العِلمَ . ومَن أراد الدنيا فعليه بالعِلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم . وكما قال الشاعر :

تفنى الكنوزُ على الزمان وصَرْفه والعِلمُ يبقى مع بقاء الأعصرِ

فالكنوزُ زائلة . تذهبُ الأموالُ أدراج الرياح ، والناسُ غارقون في حركة التاريخ ، ودورانِ الزمان . فَكَم من ثريٍّ أصبح فقيراً ، وكَم من فقير صار ثرياً . أمَّا العِلمُ فهو الشرف الرفيع الباقي رغم تغير الحقب الزمنية ، واختلافِ الوجوه والأزمنة والأمكنة .

وصدق علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ حين قال :

فَفُز بِعِلْمٍ تعشْ حياً به أبـداً الناسُ مَوْتى وأهلُ العِلم أحياءُ

إن العِلمَ يمنح الإنسانَ الخلود . فالعالِمُ لا يموت ، لأن أفكاره وكتاباته تظل أبد الدهر ، ولا يمكن أن تندثر تحت التراب مثل أجساد البشر . ونحن نرى أن الناس عندما يموتون يَذهبون إلى النسيان ، وتختفي جثثهم تحت التراب ، ويغيب ذِكرهم بين الناس لأنهم لم يَتركوا آثاراً أو بصماتٍ في تاريخ الحضارة الإنسانية . أمَّا العلماءُ فيظل تأثيرهم وآثارهم حتى يوم القيامة ، لأنهم صنعوا مجداً علمياً باقياً ، وتركوا أفكاراً جليلة وكتاباتٍ لامعة في سجل الوجود البشري . وهذا هو الفرق الجوهري بين العالِم والجاهل .

٢_ الحث على التفكر واستخدام العقل :

قال الله تعالى : ﴿ وما يَذَّكر إلا أُولو الألباب ﴾[البقرة : ٢٦٩] .

إن العقل هو مناط التكليف ، وهو الجهاز الذي يُميِّز الإنسانَ عن باقي الكائنات الحية . وأصحابُ العقول المشرقة هم أهلُ الله تعالى الذين عَرَفوه فعبدوه ، لأنهم فهموا التعاليمَ الإلهية وعملوا بها ، وبيَّنوها للناس ، فأرشدوا الحيارى إلى الصراط المستقيم ، وذكَّروا الناسين ، وعلَّموا الجهالَ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٢٨) : ((وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لُب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام)) اهـ .

والعقلُ لا يمكن أن يتوصل إلى الحق إلا في ضوء الهداية الربانية ، فالعقلُ جهازٌ ناقص يحتاج إلى إرشاد كي يقوم بعمله على أكمل وجه ، وإذا لم يكن الإرشادُ إلهياً فإن العقل سيُصاب بانتكاسة حقيقية ، فيأكل بعضُه بعضاً ، وهذا يقود إلى خلل وظيفي في حياة الإنسان ، يؤدي إلى اضطراب في كامل الأعضاء . فالعقلُ البشري _ مهما علا شأنه _ لا يمكن أن يستغنيَ عن الوحي السماوي، لأن الناقص يظل محتاجاً إلى الكامل .

٣_ الفَلَك :

قال الله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن الأهِلَّة قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾[البقرة : ١٨٩] .

فالأحوال المختلفة للأهلة (جمع الهلال) من حيث زيادتها ونقصانها لم تجيء عبثاً أو بمحض الصدفة ، بل هي لحكمة جليلة ، حيث إنها مواقيتُ الناس يعتمدون عليها في أمورهم المختلفة لكي تستمر مصالحهم على أكمل وجه ، ولا تتعطل حياتهم .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٣٩) : ((﴿ قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾، تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ، وهو زوال الإشكال في الآجال ، والمعاملات ، والأيمان ، والحج، والعدد ، والصوم ، والفطر ، ومدة الحمل ، والإجارات ، والأكرية _ أجرة المستأجر _، إلى غير ذلك من مصالح العباد)) اهـ .

والناظرُ في العبادات يرى أن كثيراً منها يعتمد على المواقيت . لذلك فهي تَحمل معنى دينياً ، ويجب معرفتها بدقة لكي تكون العباداتُ صحيحةً مقبولة . وما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجبٌ .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _: أن رسول الله ﷺقال:((إن الله قد جعل الأهلةَ مواقيت، فإذا رأيتموه فصوموا ، وإذا رأيتموه فافطروا ، فإن غُمَّ _ خُفِيَ _ عليكم فاقدروا له ، واعلموا أن الأشهر لا تزيد على ثلاثين))[2] .

فالأهلةُ هي مواعيد زمنية دقيقة ، وصيامُ رمضان والإفطارُ يتحددان وفق رؤية الهلال . وإذا خُفِيَ الهلالُ فيُقدَر له حسابياً ، والحد الأعلى للشهر هو ثلاثون يوماً . وهكذا نرى أهمية الوقت في العبادات .

وقال الله تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمسَ ضياء والقمرَ نوراً وقدَّره منازل لتعلموا عددَ السنين والحساب ﴾[يونس : ٥] .

فاللهُ تعالى قدَّر القمرَ منازل ، حيث يمر بأطوار متعددة ، فيبدو صغيراً ثم يَكبر ثم يعود إلى حالته الأولى ، فيعلم الناسُ من خلال هذه الحالات المختلفة عددَ السنين ، ويُجرون الحسابات المختلفة التي تفيدهم في حياتهم ، ويتوقف عليها الكثير من منافعهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٣٥) : ((فبالشمس تُعرَف الأيام ، وبسير القمر تُعرَف الشهور والأعوام)) اهـ .

---

(٢)رواه الحاكم في المستدرك(١/ ٥٨٤)برقم(١٥٣٩) وصححه ، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٢٠١).

وكل شيء في الكَوْن يسير وفق نظام دقيق ، وهذا يشير إلى عظمة الخالق وكماله المطلق ، لأن النظام الكامل لا يصدر إلا عن الكامل .

وقال الله تعالى : ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً ﴾[الحِجْر : ١٦] .

ففي السماء منازل للشمس والقمر . وهي ليست موجودة عبثاً أو بمحض الصدفة ، بل لحكمة إلهية جليلة .

وقال أبو السعود في تفسيره (٥/ ٧٠) : ((وهي البروج الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيئات والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة)) .

٤_ الكواكب :

قال الله تعالى : ﴿ إنَّا زَيَّنا السماءَ الدنيا بزينةٍ الكواكب ﴾[الصَّافَّات : ٦] .

فقد زيَّن اللهُ تعالى السماء بالكواكب المضيئة ، وكأنها جواهر تشع بريقاً أو تتلألأ بكل جمال . فاللهُ تعالى أتقن كلَّ شيء خَلَقه ، كما أن المخلوقات موجودة لحكمة ، ولم تجيء عبثاً . فالكواكبُ البهية التي تُجمِّل الكونَ لها مسار محدد لا تقدر على تجاوزه ، مما يدل على عظمة الخالق المسيطر على المخلوقات ، فقد أحاطها بعنايته ، وإذا تركها فإن نظام الكون المحكَم سوف ينهار كلياً . والصناعةُ المتقنة تدل على عَظَمة الصانع .

قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦) : ((يخبر _ تعالى _ أنه زَيَّن السماءَ الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب ... فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرمَ السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض)) اهـ .

٥_ التقويم :

أ_ عدة الشهور :

قال الله تعالى : ﴿ إن عِدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يومَ خلق السماواتِ والأرض منها أربعة حُرُم ﴾[التوبة : ٣٦] .

فاللهُ تعالى جعل عدد الأشهر اثني عشر شهراً في اللوح المحفوظ أو في حُكْمه تعالى . منها أربعة أشهر حُرُم متعارف على حُرمتها في الجاهلية والإسلام .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٤٦٢) : ((عدد شهور المسلمين التي تُعبِّدوا بأن يجعلوها لسنتهم اثنا عشر شهراً على منازل القمر ، واستهلال الأهلة ، لا كما يعده أهل الروم وفارس)) اهـ .

وعن أبي بكرة _ رضي الله عنه _ عن النبيﷺ قال : ((الزمانُ قد استدار كهيئته يوم خلق اللهُ السماواتِ والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحِجَّة والمحرَّم ورجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان))[3] .

وقد تمت إضافة رجب إلى مُضر لأنه كان هناك اختلاف بين بني مضر وبين ربيعة في تحديد الشهر ، فأراد النبي ﷺ أن يُوضِّح الأمرَ ، ويُزيل اللبسَ ، فحدَّده بمضر الذين تمسَّكوا بالشهر وعظَّموه .

وقد كان أهلُ الجاهلية مؤمنين بالأشهر الْحُرُم ، ومتمسكين بحُرمتها ومكانتها الجليلة ، وتحريم القتال فيها . لكنَّ الغزو _ الذي كان مورداً اقتصادياً أساسياً _ جعلهم يتلاعبون بالأشهر الْحُرم تقديماً وتأخيراً ، وذلك لكي يَخرجوا من الحرج وإثمِ القتال في الشهر الحرام .

ومن فَرْط تقديم الأشهر وتأخيرها ، اختلط عليهم الأمر ، وعجزوا عن تحديد الأشهر . وقد أخرجهم النبيُّ ﷺ من المتاهة التي غَرقوا فيها ، فحدَّد ﷺ الشهرَ الحرام كما حَكم اللهُ تعالى به يومَ خلقَ السماواتِ والأرض .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ١٦٨): ((فقال العلماء: معناه أنهم في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم ﷺ في تحريم الأشهر الحرم ، وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات ، فكانوا إذا احتاجوا إلى قتال أخَّروا تحريم المحرَّم إلى الشهر الذي بعده وهو صَفَر ، ثم يؤخرونه في السنة الأخرى إلى شهر آخر ، وهكذا يفعلون في سنة بعد سنة حتى اختلط عليهم الأمر ، وصادفت حجةُ النبيﷺ تحريمهم وقد تطابق الشرع ، وكانوا في تلك السنة قد حرَّموا ذا الحجة لموافقة الحساب الذي ذكرناه ، فأخبر النبيُّ ﷺ أن الاستدارة صادفت ما حكم اللهُ تعالى به يوم خَلَقَ السماواتِ والأرض)) اهـ .

ب_ الأشهر المعلومات :

قال الله تعالى : ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾[البقرة : ١٩٧] .

فوقتُ الحج أشهر معلومات واضحة لا لبس فيها ، وهذا مؤشر على وضوح مواعيد العبادات بلا غموض أو تعقيد .

(٣) متفق عليه . البخاري (٣/ ١١٦٨) برقم (٣٠٢٥) ، ومسلم (٣/ ١٣٠٥) برقم (١٦٧٩) .

وقد انقسم العلماء إلى فريقَيْن : الأول يرى أن الحج حج أشهر معلومات ، فالإحرامُ بالحج في هذه الأشهر أفضل مما سواها مع صحة الإحرام في جميع السَّنة . ودليلهم قوله تعالى : ﴿ يسألونكَ عن الأهِلَّة قُل هي مواقيت للناس والحج ﴾ ، والفريق الآخر يرى عدم صحة الإحرام بالحج إلا في أشهره المحدَّدة، ودليلهم قوله تعالى : ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ ، أي إن هناك أشهراً تم تخصيصها دون سائر السَّنة .

وعن ابن عمر _ رضي الله عنهما _ ﴿ الحجُّ أشهر معلومات ﴾ قال : ((شَوَّال، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحِجَّة))[4] .

ج _ اليوم عند الناس واليوم عند الله :

قال الله تعالى : ﴿ وإن يوماً عند رَبِّكَ كألف سنة مِمَّا تَعُدُّون ﴾[الحج : ٤٧] .

إن الله تعالى حليم صبور لا تستفزه المعاصي والآثام ، ولا يتأثر بالطاعات والقُربات . وهو _ سبحانه _ يُمهِل ولا يُهمِل . ولا يمكن الإفلات من قبضته تعالى ، فالمرءُ مهما جاء أو ذهب فمرجعه _ رغم أنفه _ إلى خالقه تعالى الذي يجازي الناسَ بأعمالهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٠٦) : ((أي هو _ تعالى _ لا يَعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حِلْمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجَّل وأنظر وأملى)) اهـ .

وقال الله تعالى: ﴿ تَعْرج الملائكةُ والرُّوحُ إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنة ﴾[المعارج: ٤] .

الملائكةُ وجبريل _ عليهم الصلاة والسلام _ تصعد إلى الله تعالى في يوم كان مقدارُه خمسين ألف سنة من سنوات الدنيا التي يتعامل بها الخلقُ . وهذا يشير إلى سيطرة الله تعالى على الزمان والمكان اللذين يتحكم بهما كما يريد دون شريك. وفي هذا إشارةٌ إلى القدرة الإلهية غير المحدودة . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٩٥) : ((... هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة ، في قول جماعة من السلف والخلف ، وهو الأرجح إن شاء الله)) اهـ .

وعن عبد الله بن أبي مليكة : أن رَجلاً سأل ابن عباس _ رضي الله عنهما _ عن قوله _ عز وجل _ : ﴿ وإن يوماً عند رَبِّكَ كألف سنة مِمَّا تَعُدُّون ﴾ ، فقال : ((من أنت ؟)) ، فذكر له أنه

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٠٣) برقم (٣٠٩٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

رَجل من كذا وكذا ، فقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ((فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟))، فقال الرجل : رحمك الله ، إنما سألتك لتخبرنا، فقال ابن عباس : ((يومان ذكرهما اللهُ ــ عز وجل ــ في كتابه ، اللهُ أعلم بهما)) ، فكره أن يقول في كتاب الله بغير علم[5] .

وهذا يدل على تقوى ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ وورعه ، حيث امتنع عن الإجابة بغير علم ، لأن تفسير كلام الله تعالى والوقوف على دلالاته وأبعاده ليس قضيةً سهلة ، فهو يحتاج إلى تقوى وعلم ، أما الذين يُحكِّمون أهواءهم وآراءهم الشخصية في كتاب الله تعالى دون بَيِّنة ، فهم على خطر عظيم .

والعالِمُ الصادق لا يَخجل من قول لا أدري ورد العِلم إلى الله تعالى . ومن قال لا أدري فقد أفتى . وللأسف فإن كثيراً من الذين يُقدِّمون أنفسهم كعلماء يَخجل الواحدُ منهم أن يقول لا أدري ، فتراه يُفتي بغير عِلم ليحفظ مكانته عند الناس ، فَيَضِل ويُضِل الناسَ . وهذا يَدل على غياب النية الصادقة. فالعالِمُ الراسخ لا يُفتي بغير عِلم مهما حصل ، وهكذا يُريح نَفْسَه ، ويُريح الآخرين.

وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر (١/ ٢٠٦) : ((وقد رُوِيَ عن مالك بن أنس أن رَجلاً سأله عن مسألة فقال : لا أدري ، فقال : سافرت البلدان إليك ، فقال : ارجع إلى بلدك ، وقل : سألت مالكاً فقال : لا أدري)) اهـ .

وهكذا يكون العالِم الرباني ، فهو لا يخترع فتاوى من بنات أفكاره ليخفيَ جهلَه أمام الناس ، ويحفظ مكانته بينهم . بل يفتي بما يَعلمه ، ويعترف بما لا يَعْلمه ، وهذا ليس عيباً أو منقصة . فالعلمُ بحرٌ واسع وعميق لا أحدٌ يَبلغ شَاطِئَهُ مهما علا كعبُه . فالرَّجلُ يظل عالِماً ما دام يطلب العلمَ ، فإن قال : قد علمتُ ، فقد جَهِل . والرَّجلُ يظل يَطلب العِلمَ حتى وفاته . ومَن سَمَّى نَفْسه عالِماً فهو الجاهل الحقيقي .

٦ــ الملاحة :

قال الله تعالى:﴿ألم تر أن الفُلْك تجري في البحر بنعمة الله لِيُرِيَكُم من آياته ﴾[لقمان: ٣١].

فالسفنُ التي تجري في البحر هي إحدى مظاهر الرحمة الإلهية بالناس ، فهي تجري بفضل الله تعالى وإحسانه ، فقد سخَّرها لقضاء حوائج الناس كما سخَّر البحرَ لحملها . ومن خلال هذه

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥٢) برقم (٨٨٠٣) وصححه ووافقه الذهبي .

العملية يُشاهد المرءُ آياتِ الله الباهرة ، وآثارَ القدرة الإلهية ، كالظواهر الطبيعية ، والمخلوقات العجيبة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٩٨) : ((يخبر _ تعالى _ أنه هو الذي سخَّر البحرَ لتجريَ فيه الفُلك بأمره ، أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت)) اهـ .

فاللهُ تعالى أخضع البحرَ لتحقيق مكاسب الإنسان ، ومكَّن الإنسانَ من ركوب البحر والاستفادة منه . ولو لم يكن هناك تسخير لكان البحر كالوحش يبلع من يدخله ويُغرِق اليابسةَ . فليست القضيةُ عبقرية الإنسان أو مواهبه الذاتية ، وإنما الفضل الإلهي والتسخير الرباني .

<u>٧_ الصحة :</u>

قال الله تعالى : ﴿ وكُلوا واشربوا ولا تُسرِفوا ﴾[الأعراف : ٣١] .

وهذه القاعدةُ القرآنية العظيمة تُغني عن وصفات الأطباء . فالاعتدال في الأكل والشرب هو مفتاح الصحة والحيوية ، لأن الإسراف هو طريق الأمراض وانهيار القوة البدنية . وتجاوزُ الحد في الأكل والشراب يثقل المعدةَ ، ويقود إلى التكاسل والخمول ، والضعف عن أداء العبادات ، مما يؤدي إلى عواقب وخيمة .

وفي تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨١):((قال بعض السلف:جمع اللهُ الطب كله في نصف آية)).

وروى الطبري عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((أحل اللهُ الأكلَ والشربَ ما لم يكن سَرفاً أو مَخْيلة))[6] .

وهذا يشير إلى وضوح المنهاج الإسلامي في الحفاظ على الصحة ، فالمعدةُ هي بيت الداء أو أصل الدواء ، فحسب ما يدخل فيها تتحدد بوصلة الصحة العقلية والبدنية ، لذلك نبَّه الإسلامُ إلى خطورة الإسراف في الأكل والشراب ، لما في ذلك من هلاك الإنسان روحياً ومادياً .

<u>٨_ ظواهر طبيعية وحقائق علمية :</u>

<u>أ _ الرياح :</u>

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي يُرسل الرياحَ بُشراً بين يَدَي رحمته ﴾[الأعراف : ٥٧] .

---

(٦) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٨١) وصححه .

إن الله تعالى هو المدبِّر الحكيم لهذا الكون . ومن نعمه الجليلة إرساله الرياح تُبشِّر بالمطر رحمةً بالبلاد والعباد . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٩٧) عن الرياح : ((أي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر)) اهـ .

فانتشارُ الرياح خطوةٌ أساسية في إنزال المطر ، لأنها هي التي تحرِّك السحابَ وتسوقه ، فوجودُ الرياح لم يجيء صدفةً ، فلها وظيفة تؤديها على أكمل وجه ، لأن الله تعالى هداها إلى هذا العمل ، ومنحها القدرة على التنفيذ . وحريٌّ بنا أن نتذكر كَوْن الرياح من جنود الله ـ عز وجل ـ ، ويتحدد عملها وفق الأمر الإلهي . أما انحصار تفسير الظواهر الطبيعية بالأسباب المادية دون معرفة صانع تلك الأسباب ، فذلك ضياعٌ في متاهات الظواهر الشكلية .

وقال الله تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياحَ لَواقِح ﴾[الحِجْر : ٢٢] .

ومن تجليات الرحمة الإلهية إرسال الرياح تُلقِّح السحابَ والشجرَ ، فيعم الخيرُ، وتزدهر الحياة. فعن طريق تلقيح السحاب تتكون الأمطارُ . وتلقيحُ الشجر يجعله يتكاثر ، ويزداد وجوده لتحقيق المنافع المتعددة ، وتجميل البيئة ، وإكسابها منظراً مريحاً لعين الناظر . وهذه المناظر الطبيعية ذات الألوان الباهرة المنتشرة حولنا من دلائل عَظَمة الصانع تعالى .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٢٣) : ((أي تُلقِّح السحابَ فتدر ماءً ، وتلقح الشجرَ فتفتح عن أوراقها وأكمامها ، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ واللهُ الذي أرسل الرياحَ فتُثير سَحاباً ﴾[فاطر : ٩] .

ومن وظائف الرياح أنها تنشر السحابَ فيبسطه اللهُ تعالى في السماء كيف شاء ، ويُنْزِل المطرَ أينما أراد . وقال الثعالبي في تفسيره (٣/ ٢٠٥) : ((الإثارة تحريكها ـ أي الرياح ـ من سكونها وتسييرها)) اهـ .

وهكذا نرى أن قيام الرياح بتحريك السحاب وقيادته من دلائل القدرة الإلهية الباهرة ، فالكونُ مبني وفق الأسباب والمسبِّبات ، لكن الفاعل هو الله تعالى .

ب ـ السَّحاب :

قال الله تعالى : ﴿ ويُنشِئ السَّحابَ الثِّقال ﴾[الرعد : ١٢] .

فاللهُ تعالى يُوجِد السحابَ الثقال المحمَّلة بالماء .

وقال الشوكاني في فتح القدير (٣/ ١٠٣) في تفسير الآية : ((التعريف للجنس ، والواحدة سحابة ، والثقال جمع ثقيلة، المراد : الله _ سبحانه_ يجعل السحابَ التي ينشئها ثقالاً بما يجعله فيها من الماء)) اهـ .

فالسحابُ هي أوعية المطر ، إنها الحاملة للفضل الإلهي (المطر) الذي يسقي العبادَ ويُحيي الأرضَ الموات ، ويعيد البهجةَ إلى الكائنات الحية والطبيعة . ولو اجتمعت الخلائقُ على إنزال قطرة ماء واحدة لما قدروا على ذلك . ولو اجتمع علماءُ الكيمياء على كوكبنا من أجل دمج الأكسجين والهيدروجين لتكوين الماء (H_2O) لعجزوا عن ذلك. فالأكسجين والهيدروجين عنصران يُساعدان على الاحتراق ، وحينما يندمجان يتكون الماء الذي يُطفئ الحريق . وهذا يشير إلى القدرة الإلهية غير المحدودة .

وقال الله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله يُزجِي سَحاباً ثم يُؤلِّف بَيْنه ثم يجعله رُكاماً ﴾ [النُّور : ٤٣].

فاللهُ تعالى يُسَيِّر السحابَ إلى حيث شاء ثم يجمعه فيتكاثف، ويصبح متراكماً بعضه فوق بعض. وهذه الحقيقة ماثلة للعيان ، لكن الكثيرين يردونها إلى تصرف الطبيعة ، وفعلِ المناخ الجوي ، وينسون القدرة الإلهية المسيطرة على كل شيء . وكلُّ مصنوعٍ يحتاج إلى صانع ، فلا يوجد شيء عبثاً. ومن تفكرَ في الموجودات المحيطة بنا والنظام الدقيق الذي تسير وفقه أيقنَ بوجود خالق عظيم يسيطر على كل شيء ، ويَمنع العناصرَ من الاضطراب والخلل .

ج _ الغيث :

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسيمون ﴾ [النحل : ١٠] . اللهُ تعالى أنزل المطرَ ، ومن هذا الماء يشرب الناسُ ويشرب الشجرُ ، ويقوم الناس برعي أنعامهم في هذا الشجر النابت من ماء السماء . فهذا الغوثُ الإلهي يجيء رحمةً بالعباد فيخرجهم من الشدة إلى الرخاء . وقال أبو السعود في تفسيره (٥/ ١٠٠) : ((سامت الماشية، وأسامها صاحبها ، وأصلها السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض)).

وقال الله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كلَّ شيء حَيٍّ ﴾[الأنبياء : ٣٠] .

إن أصل الحياة هو الماء . فقد خلق اللهُ تعالى الأحياء من الماء . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣١٦): ((وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء حي، أي من الحيوان ، ويدخل فيه النبات والشجر ، يعني أنه سبب لحياة كل شيء)) اهـ .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قلتُ : يا رسول الله ، إني إذا رأيتك طابت نفسي ، وقرَّت عيني فأنبئني عن كل شيء ، قال : ((كل شيء خُلق من ماء))[7] .

فكل الأشياء لها مصدر واحد وهو الماء ، إذ إنه عماد وجود الكائنات الحية . فهو الأصل المشترك بين الأحياء. وهذا يدل على عَظَمة الخالق الذي يوجد كائناتٍ متعددة مختلفة في تراكيبها وخصائصها من ماء واحد .

د ـ حركة الأرض :

قال الله تعالى : ﴿ وترى الجبالَ تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السَّحاب ﴾[النمل : ٨٨] .

فالناظرُ إلى الجبال يعتقد أنها ساكنة غير متحركة لكنها تمر بشكل سريع ، وهذه السرعة تعجز عينُ الناظر عن ملاحظتها . وفي هذا إشارةٌ إلى حركة الأرض ، فهذا الْجُرْم الهائل يدور حول نفسه ويدور حول الشمس .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ١٨٣) : ((وذلك أن كل شيء عظيم وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وبعد ما بين أطرافه ، فهو في حسبان الناظر واقف وهو سائر)) اهـ .

هـ ـ الليل والنهار :

قال الله تعالى: ﴿ ذلك بأن الله يُولِج الليلَ في النهار ويولج النهارَ في الليل ﴾[الحج : ٦١].

فاللهُ تعالى هو خالق الليل والنهار المتحكم فيهما . ففي الصيف يؤخذ من ساعات الليل فيطول النهار ، وفي الشتاء يؤخذ من ساعات النهار فيطول الليل .

و ـ الجبال :

قال الله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رَواسِيَ أن تميد بكم ﴾[النحل : ١٥] .

فالجبالُ هي الرواسي الثابتة التي تحافظ على توازن الأرض وتمنع اضطرابها ، مما يؤدي إلى سهولة العيش على الأرض ، وقيامِ الكائنات بأدوارها في بيئة صالحة للحياة .

واللهُ تعالى قادر على حفظ توازن الأرض بدون الجبال، فهو الغني عن كل شيء. لكنه تعالى أراد تعليم الخلق أن الكَوْن مبني على الأسباب والمسبِّبات ، وأن عليهم أن يأخذوا بالأسباب ، وهذا لا يتنافى مع الإيمان بقدرة الخالق تعالى. فكل المخلوقات ذات التأثير في الكَوْن إنما تأثيرها غير مستقل بذاته ، وغير قائم بذاته ، لأنه خاضع لسُلطة الله تعالى .

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٦) برقم (٧٢٧٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٠) : ((وذلك لأن الأرض قبل أن تُخلَق فيها الجبال كانت كرةً خفيفة بسيطة الطبع ، وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك ، أو أن تتحرك بأدنى سبب للتحريك ، فلمَّا خُلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها ، وتوجَّهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة)) اهـ .

ز ــ البحر :

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي سخَّر البحرَ لتأكلوا منه لحماً طَرِياً وتستخرجوا منه حِلْيةً تلبسونها ﴾[النحل : ١٤].

واللهُ تعالى يُذكِّر عبادَه بنعمه العظيمة ، فقد هيَّأ البحرَ للإنسان ، وطوَّعه لتحقيق المنافع للناس، حيث يصطادون السمكَ،وهو اللحم الطري الشهي النافع صحياً ، ويستخرجون اللؤلؤ والمرجان، وهما من أدوات الزينة الجميلة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٩) عن اللحم الطري : ((هو السمك ووصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يُسرَع إليه الفساد فيُسارَع إلى أكله، ولإظهار قدرته في خلقه عذباً طرياً في ماء زعاق ــ يعني المر الذي لا يُطاق شُرْبُه ــ)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ وهو الذي مَرَجَ البحرَيْن هذا عذبٌ فُرات وهذا مِلْحٌ أُجاج وجعل بينهما بَرْزخاً وحِجْراً محجوراً ﴾[الفُرقان : ٥٣] .

وهذه الآية تشير إلى آثار القدرة الإلهية الباهرة . فاللهُ تعالى جعل ماءَ البحر العذب والماء المالح متلاصقَيْن بينهما تماس دون أن يؤثر كلُّ طرف في الآخر ، فالعذوبةُ لا تُغيِّر الملوحةَ ، ولا الملوحة تُفسد الماءَ العذب . فقد جعل اللهُ تعالى بينهما حاجزاً يمنع كل جزء من إفساد الآخر .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٩٨) : ((وإنما عنى بذلك أنه من نعمته على خلقه وعظيم سلطانه يخلط ماءَ البحر العذب بماء البحر الملح الأُجاج ، ثم يمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته وإفساده إياه بقضائه وقدرته)) اهـ .

إن المظاهر الطبيعية في الكون هي آيات الله الباهرة . فالكونُ هو الكتاب الإلهي المشاهَد بأم العين، والظاهر لجميع المخلوقات. وهذه الصور الكَوْنية البديعة بما فيها من تناسق عظيم، والمحكومة بنظام دقيق لا اضطراب فيه ، تشير بوضوح إلى وجود صانع لها . فالذين يعتمدون على الصدفة في تفسير نشوء المظاهر الكَوْنية وتركيبها وحركتها ، هم يغالطون أنفسهم ويتحايلون على عقولهم ويخدعون ذواتهم ، فلا يمكن للفوضى أن تُنشئ نظاماً ، ولا يمكن للناقص أن يوجد

كمالاً ، ففاقد الشيء لا يعطيه. فالصدفةُ لا عقل لها ولا تدبير ، وبالتالي لا يمكن أن تخلق هذه المظاهر الطبيعية وتسيطر عليها . فكل مصنوع لا بد أن يكون له صانع .

ولو وجدنا في طريقنا قصيدةً جميلة، أو لوحةً فنية لمنظر طبيعي خلاب، فلا يمكن للعقل البشري أن يتصور أن الصدفة قد أوجدتها، وإنما يذهب التفكير الإنساني مباشرةً إلى وجود شخص صانع لهذا العمل الفني . فتركيبُ القصيدة المحكَم ، والرسم المتقَن ، إنما يجيئان نتيجةً لإبداع إنسان ما قادر على التفكير والتنفيذ . وهذا التفكيرُ المنطقي ينبثق من احترام الإنسان لنفسه ، وذلك بأن يُجنِّبها المزالق الفكرية ، والأزمات الروحية ، والانتكاسات الأخلاقية .

وحينما ينظر المرءُ إلى عوالم الكَوْن والطبيعة ، حيث لا اختلال ولا اضطراب ، فلا يحدث تصادم بين الأجرام منذ بدء الخليقة حتى هذه اللحظة ، ولا تعارض بين عمل الرياح والسحاب ، والأمطارُ لها وقت محدد وكمية محددة ، والليل والنهار يتعاقبان بلا تضارب ، بل يسيران وفق حركة تكاملية ، وغير ذلك من المظاهر الطبيعية المنتشرة في كل العالم وأمام كل العيون . فإنه _ أي الإنسان _ سوف يدرك عظمة الخالق العظيم .

لكن الإلحاد والإنكار يأتيان بسبب غياب الهداية الإلهية ، فيصبح المرءُ عندئذ مَوْكولاً إلى عقله القاصر المريض، فيحدث الكفر والجحود. فالأعمى إذا قال إنه لا يرى الشمس ، فهذا لا يعني أن الشمس غير موجودة.بل إنها موجودة بلا مشكلات، ولكن المشكلة في الشخص نفسه .

قد تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمس مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفمُ طَعْمَ الماء مِن سَقَمِ

ومن المهم أن يتفكر المرء في آثار القدرة الإلهية ، أما التفكر في الذات الإلهية فإنه أمر يُدمِّر العقلَ البشري بسبب عجزه وقصوره ، وهذا له آثار سلبية على إيمان الفرد ، وقد يقوده إلى إنكار وجود الله تعالى . فالاعتمادُ على العقل البشري القاصر دون وجود هداية ربانية سيؤدي حتماً إلى كوارث عقائدية فادحة . وإن كثرة التحديق في الشمس ذات النور الباهر قد تقود إلى العمى لا قوة الإبصار ، أي إن الأمر يجيء بنتيجة عكسية، ولله المثلُ الأعلى . فالتفكر في الذات الإلهية لا يمكن للإنسان أن يتحمله فتخور قواه العقلية والبدنية ويسقط . وصدق القائل :

حقيقةُ المرء ليس المرءُ يُدرِكها فكيف يُدرِك كُنْهَ الخالق الأزلي

وينبغي على الإنسان أن يُعيد اكتشاف الأشياء من حوله ، ولا يراها بعيون ميتة . فالاعتيادية القاتلة قد أدت إلى غياب التأمل في المظاهر الطبيعية وطريقة عملها ، واختفاء المبدأ التحليلي في التعامل مع المناظر المحيطة بنا . وهكذا يمضي العمر دون أن يكتشف المرءُ حقيقةَ الأشياء ، والغاية من وجودها .

ولا شك أن النظر إلى ما وراء الظواهر يقود إلى صناعة منهج علمي في تحليل المعطيات وربط الظواهر معاً، مما يؤدي إلى الوقوف على ملامح هذا النظام الدقيق المذهِل الذي يشمل هذه العناصر . فمعرفةُ النظام أمرٌ لا بد منه لمعرفة صانع النظام .

أما الغرق في الحياة الروتينية الاستهلاكية كما يفعل غالبية البشر الساحقة ، حيث يُخبِّئون رؤوسهم في الرمال كالنعامة ، وتمضي أعمارهم ، وهم مجرد أرقام لا وزن لها . فهذا يتعارض تماماً مع مكانة البشر ككائنات حرة مُفكِّرة تضطلع بمسؤولية إصلاح الإنسان والأرض .

***

الفصل الرابع عشر

القَصَص والتاريخ

تمهيد

إن القَصَص والأحداث التاريخية المذكورة في القرآن الكريم لم تجيء للتسلية وملء وقت الفراغ. بل جاءت لإعطاء الدروس والعِبر ، وتعليم الناس الأبعاد العقائدية والفكرية والتاريخية ، وهذا يقودهم إلى تكوين حصيلة كبيرة من الوعي ، مما يجعلهم عناصر فاعلة في المجتمع قادرة على ربط الماضي بالحاضر ، والاستفادة منهما في رسم خارطة المستقبل . مع العلم أن القرآن ليس كتاباً تاريخياً أو مادةً أرشيفية تأريخية ، لكنه اشتمل على قَصَص تاريخية ، وعرض أحداثها بالتفصيل أو الإيجاز لكي يقوم الناس بتبني الإيجابيات وتفادي السلبيات . فكارثةٌ كبرى أن ترتكب الأممُ نفسَ أخطاء الأمم السابقة ، لأن العاقل يُفترَض به أن يتعظ بغيره بعكس الجاهل الذي يتعظ بنفسه .

وقد أرشد القرآنُ إلى ضرورة السير في الأرض ورؤيةِ آثار الأمم الغابرة للاستفادة من تجاربها، ومعرفة طبيعة حياتها والتأثيرات المختلفة التي صبغت وجودَها على هذه الأرض، فالنظر في السلوك الاجتماعي للحضارات والأمم يعطي تصوراً واضحاً وشمولياً للأفكار وتطبيقاتها على أرض الواقع .

وإننا في هذا المبحث سوف نستعرض _ بإذن الله تعالى _ أحداثاً تاريخية منتقاة بشكل موجز ، وتسليط الضوء عليها من أجل الوقوف على معالم طريق الأمم الماضية . ولسنا هنا في معرض البحث التفصيلي في كل القَصَص القرآنية ، لكننا نحاول استعراض بعض الأحداث لتكوين صورة متكاملة عن قضايا الوجود والإنسانية .

فتأتي قصة ابْنَي آدم لتصوير الصراع بين الخير والشر ، ويظهر الصبر النبوي في طريق الدعوة الشاق، وتبرز بعض الأحداث الشهيرة كأصحاب الكهف . ونحاول دراسة شخصية ذي القرنين الذي حكم الدنيا . وفي الختام نذكر قصة أصحاب الأخدود المؤمنين الذي ضحوا بحياتهم في سبيل الله تعالى ، وننتقل إلى الضد فنذكر قصة أصحاب الفيل الذين حاولوا هدمَ الكعبة ، لكنَّ للبيت رباً يحميه . وقد صان اللهُ تعالى بيتَه الحرام من الأعداء ، وجعلهم عِبرةً لمن يَعتبر .

وكلما تعمَّقنا في دراسة هذه الأحداث والنظر في تفاصيلها وأبعادها ازداد إيماننا بالله تعالى ، وتعمَّقت معرفتنا بالقدرة الإلهية المسيطرة على الأمم المتعاقبة ، حيث إن الحضارات تأتي وتذهب ، والأشخاصُ يظهرون ثم يختفون ، واللهُ تعالى باقٍ لا يذهب ولا يزول .

١ــ السير في الأرض والنظر في عاقبة الماضين :

قال الله تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سُنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين ﴾[آل عمران : ١٣٧] .

فعلى المرء أن يتعظ بسيرة الأمم الماضية التي أُهلكت ، وصارت أثراً إثر عَيْن . فآثارهم تدل على وجودهم ، فينبغي دراسة آثارهم والاستفادة من تجاربهم ، والسيرُ في الأرض والنظر بعين الباحث عن الموعظة يؤديان إلى تنقية السلوك الإنساني من السلبيات .

قال الواحدي في الوجيز (١/ ٢٣٣) : ((قد مضت مِنِّي فيمن كان قبلكم من الأمم الكافرة سُنن بإمهالي إياهم حتى يبلغوا الأجل الذي أجَّلته في إهلاكهم ، وبقيت لهم آثار في الدنيا فيها أعظم الاعتبار)) اهـ .

إن الأمم الغابرة يمكن معرفة عقائدها وسلوكها من خلال آثارها التي يمر عليها الناسُ في النهار والليل . وهذه الآثارُ أو البقايا تُعتبَر هويةً معرفية غير قابلة للتزوير . والعاقلُ من استفاد من تجارب الأمم السابقة ، فوقف على نقاط قوتها ونقاط ضعفها ، وفهم مسارَها التاريخي لكي يستفيد من الإيجابيات فيُنمِّيها ، ويستفيد من السلبيات فيتجاوزها ، ولا يقع فيها .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٣٢٩) : ((وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ قد خلت من قبلكم سُنن ﴾ يعني تداول من الكفار والمؤمنين في الخير والشر)) اهـ .

والتداولُ سُنَّةٌ كَوْنية . فالحضاراتُ تتعاقب ، والسنوات تدور ، والتاريخ يعيد نَفْسه بأدوات جديدة تتناسب مع طبيعة كل عصرٍ . والدهرُ يَوْمان : يومٌ لكَ ، ويومٌ عليكَ . يومٌ تضحك فيه ، ويومٌ تبكي فيه . والتداول حاصلٌ بين المؤمنين والكفار في السراء والضراء . ومهما علا صوتُ الكافرين ، وارتفعت مكانتهم الدنيوية ، فلا بد أن يَسقطوا في فخ انحرافهم العَقَدي . فدولةُ الباطل ساعةٌ ، ودولةُ الحق إلى قيام الساعة ، ومَن يَضحك أخيراً يَضحك كثيراً .

٢ــ ابنا آدم (هابيل وقابيل) :

قال الله تعالى : ﴿واتلُ عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرَّبا قُرباناً فَتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّل من الآخَر قال لأقتلنَّك ﴾[المائدة : ٢٧] .

وقصةُ ابْنَي آدم ﷺ (هابيل وقابيل) تعكس الصراعَ بين الخير والشر . فقد قرَّبا قُرباناً فتُقُبل من هابيل ولم يُتقبَّل من قابيل ، فأراد قابيل قتلَ أخيه . وقد نفَّذ جريمته بالفعل ، فأقدم على قتل

أخيه ثم ندم أشد الندم . وعلى المرء أن يُفكِّر في عواقب الأمور قبل الخوض فيها لئلا يندم يوم لا ينفع الندم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٤) : ((أوحى اللهُ _ سبحانه وتعالى _ إلى آدم أن يزوج كلَّ واحد منهما توأمة الآخر ، فسخط منه قابيل لأن توأمته كانت أجمل ، فقال لهما آدم : قَرِّبا قُرباناً ، فمن أيكما قُبل تزوجها ، فقُبل قُربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته ، فازداد قابيل سخطاً ، وفعل ما فعل)) اهـ .

إن أصل المشكلة كامنٌ في الطمع والشهوةِ الإنسانية المتأججة . فالنفسُ البشرية لا تشبع ، وهي تريد المزيدَ باستمرار . وقابيل تحركت غريزته بكل شراسة ، وغضب على أخيه بسبب موضوع الزواج . ثم ازداد حنقاً وغضباً لأن قربانه لم يُقبَل ، وهذا ما قاده إلى اقتراف أول جريمة قتل في العالَم . فالغضبُ الشديد سلب منه العقلَ ، والقدرةَ على التفكير في عواقب الأمور.

والجدير بالذكر أن اسمي هابيل وقابيل لم يردا في القرآن الكريم ، لكنهما وردا في التوراة : ((وعرف آدمُ حواء امرأته فحبلت وولدت قايين . وقالت اقتنيتُ رَجلاً من عند الرَّبِّ . ثم عادت فولدت أخاه هابيل)) [سِفْر التكوين ٤: ١و٢] .

وقد قال النبي ﷺ : ((لا تُقتَل نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ _ نصيب _ من دمها ، وذلك لأنه أولُ من سَنَّ القتلَ))(1) .

فقابيلُ هو إمام القاتلين ، لأنه أول من ارتكب جريمةَ القتل في التاريخ ، فسنَّ سُنةً قبيحة سيظل عليه وِزْرها حتى يوم القيامة . وبارتكابه لهذه الجريمة يكون قد فَتح بابَ القتل ، وكلُّ من اقتدى به في هذا المجال سيكون آثماً ، كما أن قابيل سيتحمل آثامهم أيضاً ، لأنه قد أرشدهم إلى طريق الغواية والضلال . وفي هذا دلالةٌ على أن الإمام يتحمل آثامَ الأتباع إن أرشدهم إلى الضلال والأوهام لأنه قدوة ومثل أعلى لأتباعه . وفي الجهة المقابلة إن فتح لهم أبوابَ الخير والصلاح فسوف ينالَ الأجر ، وأجر من يتبعه إلى يوم القيامة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١١/ ١٦٦) : ((وهذا الحديث من قواعد الإسلام،وهو أن كل من ابتدع شيئاً من الشر كان عليه مثل وِزْر كل من اقتدى به في ذلك العمل ... ، ومثله من ابتدع شيئاً من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة)) اهـ .

---

(١) متفق عليه. البخاري(٣ / ١٢١٣) برقم (٣١٥٧)،ومسلم (٣/ ١٣٠٣) برقم (١٦٧٧).

٣_ نوح :

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قَوْمه فلبث فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾[العنكبوت : ١٤] .

إن النبي نوح ﷺ من أُولي العَزْم ، فقد دعا قومَه بإخلاص وثبات ومحبة طيلة تسعمائة وخمسين سنة ، وعلى الرغم من كفرهم وقسوة قلوبهم وقلة عدد المؤمنين فيهم إلا أنه لم يستسلم في طريق الدعوة . وقد نجَّى اللهُ تعالى المؤمنين ، وأهلك الكافرين بالطوفان الذي كان عذاباً شاملاً جزاءً على سوء أفعالهم . وهذا لا يتعارض مع الرحمة الإلهية . فقومُ نوح رفضوا الإيمانَ والدعوة النبوية ، وبالتالي يتحملون المسؤولية كاملةً ، وهم مستحقون للعذاب ، لأن الحجَّة أُقيمت عليهم . ومن أورد نفسَه المهالك فلا يلومنَّ إلا نفسه .

وتأتي قصةُ نوح ﷺ لتسلية محمد ﷺ . فالنبي نوح ﷺ قضى تسعمائة وخمسين سنة في الدعوة بلا ملل أو كلل ، ومع هذا فقد كانت حصيلة المؤمنين قليلة للغاية بسبب عناد قومه الذين حاربوه بشتى الوسائل ، ولم يزدهم دعاؤه المخلِص إلا فراراً من الدعوة ، وكفراً بالله تعالى . ورغم هذه النتيجة لم يستسلم نوح ﷺ ، بل كان رابطَ الجأش ، صلبَ الإرادة ، في كل مراحل دعوته . وهذا بالطبع يشد من أزر محمد ﷺ ويقوِّيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٩) : ((هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح _ عليه السلام _ أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل)) اهـ .

وقد خُصَّ نوح ﷺ بالذِّكر ، لأنه كان أول نبي أُرسل إلى أهل الأرض [كما ثبت في صحيح البخاري (٦/ ٢٧٠٨)] . فقد كان فاتحةَ الخير في الدعوة إلى الله تعالى على هذه الأرض .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((كان بين نوح وآدم عشرة قرون))[2].

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أن رسول الله ﷺ قال : ((لو رحم اللهُ أحداً من قوم نوح لرحم أمَّ الصبي)) ، قال رسول الله ﷺ : ((كان نوح ماكثاً في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت، وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم

---

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٦) برقم (٤٠٠٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

جعل يعمل سفينة، فيسخرون منه ويقولون: يعمل سفينة في البَر فكيف تجري ؟، فيقول: سوف تعلمون، فلما فرغ منها فار التنور، وكثر الماء في السكك، خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى بلغت ثلثي الجبل ، فلما بلغها خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب به الماء ، فلو رَحِمَ اللهُ منهم أحداً لرحم أم الصبي))[*] .

إن اللهَ مُنَزَّهٌ عن الظلم ، وهو أرحم بالعباد من أمهاتهم . وقومُ نوح ﷺ كان لهم وضعٌ خاص ، فقد طَبع اللهُ على قلوبهم وخُتمت بالكفر، فلن يؤمن منهم أحدٌ إلا من قد آمن . وقد بقي نوح ﷺ يدعو قومه إلى الإيمان تسعمائة وخمسين سنة بكل صدق وإخلاص . لكن قومه كانوا أصحاب قلوب قاسية فَرَفضوا هذه الدعوة الكريمة ، ولم يؤمن من قومه طيلة هذه المدة الطويلة سوى عدد قليل. حتى إن زوجة نوح وابنه كانا كافرَيْن . لذلك عَمَّ العذابُ (الطوفان) ، ولم ينجُ منه إلا المؤمنون .

وفي زاد المسير(٨/ ٣٧٥):((قال المفسرون:إن الله تعالى أخبر نوحاً أنهم لا يلدون مؤمناً)).

وهذا يعني أن جميع الأطفال هُم كُفَّار المستقبل ، فلا يمكن انتظار قدوم الخير منهم، أو الانتظار ريثما يَكبرون ، لأن قلوب الجميع ، رجالاً ونساءً ، كِباراً وصغاراً ، طُبعت على الكفر .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ((بعث الله نوحاً لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا)) [3].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ضَرب اللهُ مَثَلاً للذين كفروا امرأةَ نوحٍ ﴾[التحريم : ١٠] .

فمخالطةُ المؤمنين والتعاملُ معهم لا يفيدان الشخصَ ما لم يكن قلبُه مؤمناً . فامرأةُ نوح كانت زوجةَ رسولٍ كريم ، أي إنها شديدة القُرب منه ، ملتصقة به ليلاً نهاراً ، ومع هذا لم تَقتبس من نور

(*) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٦) برقم (٤٠١٠) وصححه . وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٦٧) : ((رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه موسى بن يعقوب الزمعي ، وثقه ابن معين وغيره ، وضعَّفه ابن المديني ، وبقية رجاله ثقات)) .

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٥) برقم (٤٠٠٥) ، وسكت عنه الذهبي. وقال السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٥٥) : صَحَّحه الحاكم .

النُّبوة ، بل اختارت الكفرَ على الإيمان . وكلُّ قرابةٍ لا فائدة منها إذا عارضت الدِّينَ ، وما فَرَّقه اللهُ تعالى فلن يَجمعه أحد . والذي يَختار الضلالَ فلن يستفيد من قرابته لنبي أو علاقته به . فاللهُ تعالى لا يُحابي أحداً ، ولا توجد مجاملات في يوم القيامة . وهذا دليل واضح على أن رابطة الدم لا معنى لها إذا نُزِع منها الإيمان .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٤) عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ومَن بَطَّأَ به عملُه لم يُسرع به نسبُه)) .

فعلى المرء ألا يَتَّكل على شَرف النسب ، أو قرابته من العظماء ، فهذا لا يَنفعه إذا كان قلبُه منحرفاً عن طريق الله . وإننا لنجد كثيرين يعتمدون على علاقاتهم الاجتماعية في الدنيا من أجل تحقيق منافع ذاتية، والاستحواذ على مكاسب مادية ، وبسط نفوذهم . أمَّا يوم القيامة فإن القواعد ستتغير ، لأن الله تعالى هو القاضي العدل الذي نَزَّه ذاته عن الظلم ، وجعله بين عباده مُحرَّماً . وكلُّ إنسان يجب أن يبنيَ نفسه بنفسه إذا أراد النجاة . أمَّا التعويلُ على عناصر خارجية فلن يُجديَ نفعاً .

وعن ابن عباس_رضي الله عنهما_قال: ((أمَّا امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون))(4).

وهذه الخيانةُ الشنيعة تدل على انحراف امرأة نوح عن طريق زوجها ، ووقوفها إلى جانب الباطل . فهي لم تستفد شيئاً من قرابتها لهذا الرسول العظيم ، بل كانت عوناً لأهل الضلال عليه ، حيث أَيَّدت الكافرين على المؤمنين ، ورفضت المنهجَ الإلهي الذي جاء به زوجها الكريم ، وبذلك تكون قد خَسرت الدنيا والآخرة معاً ، ولا يمكنها العويل على درجة القرابة أو رابطة الدم .

٤_ قوم تُبَّع :

قال الله تعالى : ﴿ أهُم خيرٌ أم قوم تُبَّع والذين من قبلهم ﴾[الدُّخان : ٣٧] .

وقومُ تُبَّع أحد الأقوام الهالكة التي ذمَّها اللهُ تعالى وأخزاها في الدنيا ، ويوم القيامة يذلهم ويُجلِّلهم بالعار .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٣) : ((تُبَّع الحِمْيَري الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند وقيل : هدمها ، وكان مؤمناً وقومه كافرين ، ولذلك ذمَّهم دونه)) .

وقد قيل لملوك اليمن التبابعة ، لأن كل تُبَّع يتبع صاحبَه .

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٣٨) برقم (٣٨٣٣) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧٠٠) : ((كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان _ عليه الصلاة والسلام _ من جملتهم)) اهـ .

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ أنها قالت : ((كان تُبَّع رَجلاً صالحاً ، ألا ترى أن الله _ عز وجل _ ذَمَّ قومَه ولم يذمه))(5).

إن قوم تُبَّع لم يستفيدوا من صلاح حاكمهم ، بل اختاروا طريقَ الكفر والضلال . وهذه الحالة غريبة بعض الشيء ، لأن الناس _ في الأغلب الأعم _ على دِين ملوكهم . أمَّا هؤلاء القومُ فاختاروا درباً مغايراً تماماً لدرب زعيمهم . فقد اختاروا الكفرَ بينما هو اختار الإيمانَ .

٥_ لقمان وحُكمته :

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولقد آتَيْنا لُقمانَ الحِكمةَ ﴾ [لقمان : ١٢] .

إن لقمان _ عليه السلام _ رَجلٌ صالح ولم يكن نبياً ، وقد منحه اللهُ تعالى الفقهَ في الدِّين ، والفهم ، والعِلم ، والقدرة على التعبير . وقد كان كثير التأمل والتفكر ، واثقاً بالله تعالى مُتوكِّلاً عليه ، حسن اليقين ، أحب اللهَ تعالى فأحبَّه ، وصَبَّ في قلبه الحِكمة ، وأعطاه فصاحة اللسان وقوة الحجَّة . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٦) : ((والحِكمةُ في عُرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية ، واكتساب الْمَلَكة التامة على الأفعال الفاضلة على قَدْر طاقتها)) اهـ .

والحكمةُ تقود إلى معرفة العلاقة بين المرء ونفسه ، والمرءِ وخالقه ، والمرءِ والآخرين . وبالتالي فإن الدرب الموصل إلى الله تعالى يتَّضح أمام الإنسان الذي يتوجب عليه أداء العبادات على أكمل وجه ، وأداءِ الحقوق إلى أصحابها دون تكاسل . والحكمةُ تجعل الفردَ قادراً على تحديد نقطتَي البداية والنهاية في مساره الوجودي ، والإجابة عن الأسئلة الكبرى من قبيل : مَن أنا ؟ ، ومَن خلقني ؟ ، وما الغاية من خَلقي ؟ . وبدون الحكمة سيظل الفردُ تائهاً ضمن دائرة فوضوية تضيق عليه شيئاً فشيئاً إلى أن تخنقه .

وقد وَرد أن لقمان الحكيم كان عبداً حبشياً نجاراً ، قاضياً في بني إسرائيل .

وعن أنس _ رضي الله عنه _ قال : ((إن لقمان كان عند داود و هو يسرد الدرع ، فجعل يفتله هكذا بيده ، فجعل لقمان يتعجب ، ويريد أن يسأله ، ويمنعه حكمته أن يسأله ، فلمَّا فرغ

---

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٨) برقم (٣٦٨١) وصححه ووافقه الذهبي .

منها صبها على نفسه ، فقال : نِعْمَ درع الحرب هذه . فقال لقمان : الصمت من الحِكمة ، وقليل فاعله ، كنتُ أردتُ أن أسألك ، فسكتُّ حتى كَفَيْتَني))[6] .

فالصمتُ وطول التفكر والتأمل وقوة الملاحَظة من علامات الحِكمة . فالحكيمُ يلوذ بالصمت عندما يكون الصمتُ أبلغ من الكلام ، ويتكلم حينما يكون الكلامُ أفضل من الصمت . والحكمةُ ليست ميزةً طبقيةً، بل هي مِنحة ربَّانية يتفضَّل بها اللهُ على من يشاء من عباده . وكَوْن لقمان عبداً حبشياً لم يمنعه من اكتساب المعارف ، وإسداء النصائح ، وتقديم الحِكَم الخالدة عبر مراحل الزمن . فاللهُ تعالى يَنظر إلى قلوب العباد لا صُوَرهم . فالتقيُّ هو الشريف في قَوْمه بغض النظر عن مكانته الاجتماعية المادية _ وفق منظور الناس _ . أمَّا المال والأولاد والمنصب والحسب والنَّسب فهي عوارض زائلة ، وزينةٌ ظاهرية سُرعان ما تتبخر ، وجزءٌ من متاع الدنيا الفاني .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله لا يَنظر إلى صُوَركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) .

٦_ أصحاب الرَّس :

قال الله تعالى : ﴿ وأصحابَ الرَّس ﴾[الفُرقان : ٣٨] .

والرَّسُّ _ لغةً _ هو البئر . وقد قيل إنهم قوم دسُّوا نبيَّهم في البئر . وهؤلاء القوم أخبر اللهُ تعالى عنهم أنه أهلكهم وجعلهم عِبرةً لمن وراءهم . وقد كانوا قوماً كافرين ، فَبَعث اللهُ لهم نبياً من أجل هدايتهم ، وقيادتهم إلى طريق الحق ، فاستحبوا الكفرَ على الإيمان . ولم يقف الأمرُ عند هذا الحد ، بل قتلوا نَبِيَّهم لكي يُنهوا مسيرةَ الدعوة الإسلامية .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٨) عنهم : ((قوم كان يعبدون الأصنام فبعث اللهُ تعالى إليهم شعيباً فكذبوه، فبينما هم حول الرس وهي البئر الغير المطوية فانهارت فخسف بهم وبديارهم.وقيل:﴿ الرَّس ﴾ قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا)).

٧_ أصحاب القرية :

قال اللهُ تعالى : ﴿ واضربْ لهم مَثَلاً أصحابَ القرية إذ جاءها المرسَلون ﴾ [يس : ١٣] .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٧٤٨) : ((قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له أنطيخس ابن

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٨) برقم (٣٥٨٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

أنطيخس، وكان يَعبد الأصنام ، فبعث اللهُ إليه ثلاثة من الرُّسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم ، فكَذَّبهم . وهكذا رُوِيَ عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهري أنها أنطاكية)) اهـ .

إن عَرْض قصة أصحاب القرية أمام مشركي قُرَيْش ، وما فيها من عِبَر ومواعظ متعلقة بأهمية الإيمان وعاقبةِ الكفر، يدل على أهمية التاريخ الذي يَكشف لنا مسارَ الأمم الغابرة وأسباب انهيارها الروحي والمادي. والعاقلُ من اتَّعظ بغيره ، أي إنه يتجنب الطريق المفضي إلى الهلاك ، ويَلتزم طريقَ الحق . فتجاربُ الأمم السابقة سِجِلٌّ مفتوح ينبغي الاستفادة منه في تحديد نقاط القوة من أجل اعتمادها وترسيخها ، وتحديدِ نقاط الضعف من أجل اجتنابها .

٨_ أصحاب الكهف :

قال الله تعالى:﴿ أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيمِ كانوا من آياتنا عجباً ﴾[الكهف: ٩].

ومن آيات الله الباهرة قصة أصحاب الكهف ، وهم قومٌ فرُّوا بإيمانهم من الاضطهاد ، فلجأوا إلى كهف ، فجعلهم اللهُ تعالى ينامون مدة طويلة جداً ، ثم أيقظهم ، وكشف لهم عن هذه الآية الربانية العظيمة. واللهُ تعالى لا يتخلى عن عباده الصالحين ، بل ينقذهم من الشدائد ، ويُنجِّيهم من أعدائهم. فهؤلاء الصالحون لم يساوموا على عقيدتهم، ولم يبيعوا دِينهم بِعَرَض من الدنيا قليل ، ولم يخضعوا لاضطهاد الآخرين وأساليبهم الملتوية ، واتخذوا كل السُّبل الممكنة للمحافظة على دِينهم ، لذلك هربوا من الفتن مؤثرين الآخرة على الدنيا . وهنا يتجلى بعد النظر ، والتمسك بالشريعة قَوْلاً وفعلاً لا شعاراً .

والكهفُ هو الغار في الجبل ، أما الرقيمُ فهو اللوح الذي كُتب فيه أسماء أصحاب الكهف .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٥٠٥): ((وقد روى عبد بن حميد بإسناد صحيح عن ابن عباس قصةَ أصحاب الكهف مطولة غير مرفوعة .... _ قال ابن عباس :_ إنهم كانوا في مملكة جبار يعبد الأوثان فلما رأوا ذلك خرجوا منها ، فجمعهم الله على غير ميعاد فأخذ بعضهم على بعض العهود والمواثيق فجاء أهاليهم يطلبونهم ففقدوهم ، فأخبروا الملكَ فأمر بكتابة أسمائهم في لوح من رصاص وجعله في خزانته ، فدخل الفتيةُ الكهفَ ، فضرب اللهُ على آذانهم فناموا ، فأرسل اللهُ من يقلبهم ، وحوَّل الشمس عنهم فلو طلعت عليهم لأحرقتهم ، ولولا أنهم يقلبون لأكلتهم الأرض ، ثم ذهب ذلك الملك وجاء آخر فكسر الأوثانَ وعبد اللهَ وعدل ، فبعث اللهُ أصحابَ الكهف ، فأرسلوا واحداً منهم يأتيهم بما يأكلون فدخل المدينة مستخفياً فرأى هيئة وناساً أنكرهم لطول المدة ، فدفع درهماً إلى خباز فاستنكر ضَرْبه ، وهمَّ بأن يرفعه إلى الملك ، ... ، فاجتمع

الناس فرفعوه إلى الملك فسأله، فقال : عليٌّ باللوح ، وكان قد سمع به فسمى أصحابه فعرفهم من اللوح، فكبَّر الناس وانطلقوا إلى الكهف ، وسبق الفتى لئلا يخافوا من الجيش ، فلما دخل عليهم عمَّى اللهُ على الملك ومن معه المكان ، فلم يدر أين ذهب الفتى ، فاتفق رأيهم على أن يبنوا عليهم مسجداً ، فجعلوا يستغفرون لهم ويدعون لهم)) اهـ .

إن المؤمنين يَحرصون على دِينهم لأنه أغلى ما يَملكون . وهُم مستعدون للتضحية بأي شيء في سبيل المحافظة عليه . فكلُّ شيء يمكن تعويضه إلا الدِّين . وهؤلاء الفتيةُ المؤمنون فرُّوا بِدِينهم ، وهربوا من هذه المملكة التي تُعبَد فيها الأصنام . وقد جمعهم اللهُ على الهدى ، فكانوا إخوةً متحابين تجمعهم رابطة الدِّين . وقد حماهم اللهُ تعالى من الأذى ، وجعلهم آيةً للناس ، وقدوةً في الثبات على العقيدة ، والتمسك بالدِّين .

٩_ الذي أماته الله مئة عام :

قال الله تعالى : ﴿ أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يُحيي هذه اللهُ بعد موتها فأماته اللهُ مئةَ عام ثم بعثه ﴾[البقرة : ٢٥٩] .

وهذه القصةُ من آيات الله الجليلة ، إذ تتجلى فيها القدرة الإلهية على الإماتة والإحياء . فهذا الرَّجل (عُزَيْر عليه السلام) الذي مرَّ على قرية فوجدها ساقطة سقوفها وجدرانها وخالية ليس فيها أحد، استبعد إحياءها وهي في حالة الموات تلك ، مع علمه بأن الله تعالى على كل شيء قدير. فأراد اللهُ تعالى أن يُميته ثم يُحييه لإعطائه موعظة على أرض الواقع متجسدة في نفسه . وصار عُزَيْر بحد ذاته آيةً ربانية ، وآيةً قرآنية خالدة .

وعن علي _ رضي الله عنه _ قال : [خرج عُزَيْر نبي الله من مدينته وهو رَجل شاب ، فمر على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال : أنَّى يُحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، فأول ما خلق عيناه فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى بعض ، ثم كُسيت لحماً ، ونُفخ فيه الروح وهو رَجل شاب فقيل له : كم لبثتَ ؟ ، قال : يوماً أو بعض يوم ، قال : بل لبثتَ مائة عام . فأتى بالمدينة وقد ترك جاراً له إسكافاً شاباً ، فجاء وهو شيخ كبير] [7].

وعُزَيْر غير متفق على كَوْنه نبياً . فهذا الأمر فيه أخذ ورد بين أهل العلم .

---

(٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٠) برقم (٣١١٧) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن حِمْير في كتابه تنزيه الأنبياء (ص ١٠٥) : ((جاء في الأثر أنه كان في بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام نبي ، وكان اسمه دانيال ، وإنما سُمِّيَ عُزَيْراً لكثرة تعزير اليهود له ، وإعظامهم لقَدْره عليه السلام ، ثم غلوا في تعظيمه حتى عبدوه ، وسبب ذلك لأنه أماته الله مئة سنة ثم أحياه)) اهـ .

وللأسف فإن ظاهرة تقديس الأولياء وعبادة الصالحين منتشرة بكثرة . فكثيرٌ من الناس يَقعون في المغالاة ظناً منهم أن هذه هي الوسيلة الصحيحة لتمجيد الصالحين ، والحفاظ على ذِكْرهم . فالكثيرون لا يَقدرون على تَحمُّل رؤية المعجزات أو الكرامات ، فتحدث لديهم صدمة تقودهم إلى الانحراف العَقَدي ، والسلوكِ الاجتماعي المخالف للشريعة .

١٠_ الذين خَرجوا حذر الموت :

قال اللهُ تعالى : ﴿ ألم تَرَ إلى الذين خَرجوا مِن دِيارهم وهُم أُلوفٌ حَذَر الموت فقال لهم اللهُ مُوتوا ثم أحياهم ﴾ [البقرة : ٢٤٣] .

قال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢١٨) : ((وقصة هؤلاء أنهم قوم من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء. وكانوا بقرية يقال لها (داوردان)، فخرجوا منها هاربين ، فنزلوا وادياً ، فأماتهم الله تعالى . قال ابن عباس : كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون وقالوا : نأتي أرضاً ليس بها موت فأماتهم الله تعالى ، فَمَرَّ بهم نبي الله تعالى فأحياهم . وقيل : إنهم ماتوا ثمانية أيام ، وقيل : سبعة ، والله أعلم)) اهـ .

إن اللهَ تعالى قد أماتهم ثم أحياهم من أجل الاعتبار ، وحصول اليقين في نفوسهم بأن لا مهرب من القضاء والقَدَر . فلا توجد إمكانية للهرب من الموت ، لأن الموت هو الحارس الشخصي للإنسان . فإذا حانت ساعةُ الوفاة فلا شيء سَيَحمي الإنسان ، وإذا لم تَحِن ساعةُ الوفاة فلا شيء سَيُنهي حياته . والإنسان يسير إلى الموت بقدمَيْه .

وكلُّ الكائنات الحية مَثَلها كعقارب الساعة ، مُثَبَّتة بنقطة مركزية لا تَقدر على الإفلات منها، ومهما دارت فإنها ستتوقف يوماً ما . والإنسانُ مربوطٌ بقبره ، ومهما دار وانطلق فلن يَستطيع الخروج من مداره ، أو التخلص من نهايته الحتمية . فالموتُ هو الأم التي سَيَعود إليها ابنها مهما طال الزمان، والقبرُ هو المرجعية ونقطة النهاية الأكيدة . ومن نظر إلى القبر فإن الدنيا ستصغر في عينيه ، ويدرك أنها لعبٌ ولهو . لكنَّ زينةَ الدنيا الخادعة تغرُّ الناسَ وتجذبهم وتنسيهم الغايةَ التي خُلقوا من أجلها . وهكذا يَغرق الإنسانُ في اللذة دون النظر إلى عواقبها .

وفي الدر المنثور (١/ ٧٤٣) عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال: ((عدد كثير خرجوا فراراً من الجهاد في سبيل الله ، فأماتهم اللهُ حتى ذاقوا الموت الذي فَرُّوا منه ، ثم أحياهم ، وأمرهم أن يجاهدوا عدوهم)) اهـ .

١١_ عاد (قوم هود) :

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هُوداً ﴾ [هود : ٥٠] .

فالنبيُّ هود ﷺ أُرسِل إلى قومه (عاد) ، فهو أخوهم بمعنى الانتماء إلى قبيلتهم ، لا من جهة أُخُوَّة الدِّين . وكلُّ الأنبياء جاؤوا بالتوحيد ، ومكارمِ الأخلاق ، وتأسيسِ المجتمع الإيماني الفاضل القائم على العدل والمساواة . و (عاد) قد غرقوا في الشِّرك ، وساروا في طريق عبادة الأصنام التي اخترعوا أسماءً لها ، وكَوَّنوا شريعةً أسطورية مرتبطة بها . وأصلُ (عاد) اسم رَجل ثم صار اسماً للقبيلة .

وقال عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء (ص ٧١) : ((وكانت مساكن عاد في أرض الأحقاف وهي تقع في شمال حضر موت ، وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عُمان)) اهـ .

وقد تحولت حضارتهم إلى رمال ، وصار العمران خراباً شاسعاً . فقد غَرَّتهم القوةُ المادية ، ولم يَحرسوا النعمَ الإلهية بالشُّكر ، لذلك صارت النعمةُ نقمةً ، وقدراتهم وبالاً عليهم . وقد أُهلكوا بالريح العاتية عقاباً لهم ، فما أَغْنت عنهم قوتهم ، ولم يقدروا على حماية حضارتهم من الانقراض . وهذا حال جميع الأمم التي تعتمد على الأسباب ، ولا تعتمد على خالق الأسباب . ولو أنهم اعتمدوا شُكر الله منهاجاً حياتياً لازدادت قوتهم، وعلت حضارتهم. فبالشكرُ تدوم النعم.

وقال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٣١٨) : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن خيثم قال : كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذَّر . وأخرج ابن عساكر عن وهب قال : كان الرَّجل من عاد ستين ذراعاً بذراعهم ، وكان هامة الرَّجل مثل القبة العظيمة ، وكان عين الرَّجل لتفرِّخ فيها السِّباع ، وكذلك مناخرهم)) اهـ .

وهذه القوةُ الجسمانية الهائلة لم تكن عوناً لهم على طاعة الله تعالى ، بل على العكس ، فقد صارت وبالاً عليهم لأنهم اغتروا بها ، واعتمدوا على المادة ، ولم يَعرفوا خالقَ هذه المادة وواهبها . فهُم قد حشروا تفكيرهم في دائرة الأسباب الدنيوية الفانية التي حَجبتهم عن معرفة مُسَبِّب الأسباب ، وهذه كانت بداية نهايتهم ، ولم يستطع جبروتهم وطغيانهم أن يَحميَهم من الغضب الإلهي .

١٢_ ثمود (قوم صالح) :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وإلى ثَمود أخاهم صَالِحاً ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

فالنبي صالح ﷺ أُرسِل إلى قَوْمه ثمود من أجل دعوتهم إلى عبادة الله وَحْدَه ، لكنهم رَفضوا هذه الدعوة ، واعتمدوا على قواهم الذاتية غير عابئين بقوة الله تعالى . وكانت مساكنهم الحِجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى .

وثمود اسمُ أبيهم ثم صار اسماً للقبيلة . وقد تم إهلاكهم بالطاغية (الصيحة المدمِّرة) ، فكانت نهايتهم وخيمة ، وعاقبة أمرهم خسارةً فادحة ، ولم يقدروا أن يقفوا _ بعد ذلك _ على أقدامهم . فالانتقامُ الإلهي إذا جاء فلا راد له .

وفي تفسير البغوي (١/ ٢٤٧) : ((قال أبو عمرو بن العلاء : سُمِّيت ثمود لقلة مائها . والثمدُ الماء القليل)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولقد كَذَّب أصحابُ الحِجر المرسَلين ﴾ [الحِجر : ٨٠] .

وأصحابُ الحِجر هُم ثمود قوم صالح ﷺ . وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ المرسَلين ﴾ ، ولم يُرسَل إليهم إلا صالح ﷺ ، وذلك لأن مَن كَذَّب رسولاً واحداً فقد كَذَّب جميعَ الرُّسل دون استثناء ، إذ إن دعوتهم واحدة ، وكلمتهم متَّفقة لا تتبعثر . ومَن اعترض على رسولٍ واحد فقد اعترض على كل الرُّسل ، وهو بذلك يَرفض أمرَ المرسِل _ سبحانه وتعالى _ . ويمكن أن يكون المقصود أنهم كَذَّبوا صالحاً والأنبياء الذين سَبقوه ، أو أنهم كَذَّبوا صالحاً والذين آمنوا معه .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وآتَيْنا ثَمودَ الناقةَ مُبصِرةً فَظَلموا بها ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

فالناقةُ هي المعجزةُ الربَّانية الدالة على وحدانية خالقها ، والآية الإلهية الباهرة التي تدل على صدق الرَّسول صالح ﷺ . لكن ثمود كفروا بهذه الآية ، وتمادوا في غيِّهم ، وقاموا بقتل الناقة بكل تكبر وعناد ، فكان جزاؤهم أن حَلَّ بهم العذاب الإلهي ، فأُبيدوا عن بكرة أبيهم . فلم ينتفعوا برؤية هذه المعجزة الباهرة ، لأنهم يَحملون موقفاً مسبقاً وهو الكفر والعناد والتكذيب . لذلك مهما رأوا من آياتٍ باهرة فلن يؤمنوا ، لأن قلوبهم نجسة ، وملوَّثة بالعقائد الزائغة ، وغير مستعدة لقبول الحق . والحقُّ لا يَهبط في قلبٍ قذر .

وعن ابن عباس _رضي الله عنهما_ قال: ((سأل أهلُ مكة رسولَ الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن تُنحَّى عنهم الجبال فيزرعوا فيها ، فقال اللهُ _ عز وجل _ : إن شِئْتَ آتيناهم ما سَألوا فإن كفروا أُهلكوا كما أَهلكتُ مَن قبلهم ، وإن شئتَ أن أستأني بهم لعلنا نستحي منهم ، فأنزل

اللهُ هذه : ﴿ وما مَنَعَنا أن نرسِل بالآياتِ إلا أن كَذَّب بها الأوَّلون وآتَيْنا ثَمودَ الناقةَ مُبصِرةً فَظَلموا بها ﴾))[8] .

إن الله تعالى رحيمٌ بعباده ، حليمٌ صبور يُمهِل ولا يُهمِل . فهو _ سبحانه _ يمنح الفرص المتتالية لعباده كي يعودوا إلى الصراط المستقيم. ومن السُّنن الإلهية أن الأقوام الذين يطلبون الآيات الربَّانية ، ثم يَكفرون بها بعد رؤيتها فإن العذاب الشديد سيحل بهم ، ولا يُعطَون أية مُهلة . إذ إن رؤية الآية الإلهية رأيَ العَيْن ، تعني أنهم قد استنفدوا جميعَ الفرص .

ولو تم تحويل الصفا إلى ذهب _ كما طلب أهل مكة _، ونُحِّيت الجبال عنهم ، ثم كفروا بعد ذلك ، فإنهم سَيُمْحَوْن من الوجود دون إعطائهم أية فرصة . ومن رحمة الله بعباده أنه يُمهلهم لكي يرجعوا إلى الحق ، ويبتعدوا عن طريق الغواية . لكن العباد قاصرو النظر لا ينظرون إلى ما وراء الأمور ، والإنسانُ عجول بطبعه ، ورُبَّ امرئ حتفه فيما تمنَّاه .

١٣_ قوم لوط :

قال اللهُ تعالى : ﴿ كَذَّبت قومُ لُوطٍ المرسَلين ﴾ [الشعراء : ١٦٠] .

إن لوط ﷺ رسول كريم ، وهو ابن أخي إبراهيم ﷺ . وقد أرسله الله تعالى إلى أُمَّة كبيرة كانت تسكن في منطقة سدوم وما حَوْلها ، وهي الآن منطقة البحر الميت (أخفض بقعة في العالَم عن سطح البحر) . وقد دعاهم إلى التوحيد ، والتزام مكارم الأخلاق ، ونهاهم عمَّا أحدثوه في العالَم وهو إتيان الذكور دون الإناث . وهذه الفاحشةُ لم يسبقهم إليها أحد . فما كان منهم إلا أن رفضوا هذه الدعوةَ ، فَصَبَّ اللهُ عليهم العذاب صَبَّاً ، وجعلهم عِبرةً لمن يَعتبر . وعلى قَدْر الإثم يكون العذابُ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فما كان جوابَ قَوْمه إلا أن قالوا أخرِجوا آلَ لُوطٍ مِن قَرْيتكم إنهم أُناسٌ يتطهَّرون ﴾ [النمل : ٥٦] .

إن قوم لوط ﷺ عاجزون تماماً عن مقارعة الحجَّة بالحجة ، وإثبات صحة معتقداتهم . لذلك كانوا في موقف الضعف والفشل ، فلم يجدوا غير وسيلة الترهيب لإثبات باطلهم . وهذا دَيْدن الأقوام العاجزة عن تقديم الأدلة والبراهين . فأرادوا إخراج آل لوط من القرية كوسيلة للضغط عليه ، ونَفْيه ، والتخلص من وعظه وإرشاده . فإخراجُ الإنسان من بلده نظير قَتْله . ولم تكن تهمتهم

(٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٤) برقم (٣٣٧٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

إلا أنهم أناس يتطهرون . ففي عُرف قوم لوط صارت الطهارة تهمةً تستدعي مواجهتها بحزم ودون تأخير ! . وهذه الانقلاب المرعب في الموازين ورؤية الحق باطلاً والباطل حقاً ، يشير إلى تلاعب الأهواء بقوم لوط ، وحجم انحرافهم الهستيري الذي أعماهم عن رؤية النور .

وقَوْلهم : ﴿ إنهم أُناسٌ يتطهَّرون ﴾ يحتمل معنيَيْن :

الأول _ أنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزَّهون عن ممارسة الفاحشة (إتيان الرجال في أدبارهم) ،

والثاني _ أنهم قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء .

وفي الدر المنثور (٣/ ٤٩٦) : ((أخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي وابن عساكر عن أبي حمزة قال : قلت لمحمد بن علي : عَذَّب اللهُ نساءَ قوم لوط بعمل رجالهم ؟ ، قال : الله أعدل من ذلك ، استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء)) اهـ .

وهذا يدل على الانهيار الشامل الذي ضرب المجتمعَ ، فانتحر المعنى الإنساني ، وغابت وظيفةُ الشهوة بعد أن وُضعت في غير موضعها . وصارت أهواءُ الناس هي الشريعة التي أسَّست للباطل ، ووفَّرت له الغطاء الاجتماعي بلا نكير ، فضاعت قُدسية العلاقة بين الرَّجل وزوجته ، واستغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء .

وعندئذ أضاع المجتمعُ فرصة التعويض لأنه لم يحفظ خطَّ الرجعة ، فكان العذابُ الأليم هو النتيجة العادلة الحاسمة .

قال اللهُ تعالى : ﴿ قالوا يا لُوطُ إنَّا رُسلُ رَبِّكَ لن يَصلوا إلَيْكَ فأسْرِ بأهلكَ بِقِطْعٍ من الليل ولا يَلتفت مِنكم أحدٌ إلا امرأتَكَ إنه مُصيبها ما أصابهم ﴾ [هود : ٨١] .

إن الملائكة قد أَخبرت هذا النبي الكريم بأنهم رُسل الله ، وأنه محميٌّ من مكر قومه وضلالهم ، ولن يَقدروا على إيذائه . وقد جاءت ساعة العذاب الماحي ، وما على لوط ﷺ سوى الإسراء بأهله من آخر الليل ، ولا يلتفت أحد إذا سمع الأصواتَ المزعجة الناتجة عن العذاب الشديد ، بل عليهم الاستمرار في المشي كأن شيئاً لم يَحدث ، فهم ناجون بفضل الله تعالى ، لكنَّ امرأة لوط سيصيبها العذاب لأنه كانت مشاركة معهم .

وقد مُحِيَ قوم لوط عن آخرهم بسبب تكذيبهم للدعوة الإسلامية التي جاء بها لوط ﷺ . وقد وصف القرآن الكريم قُراهم بالمؤتفكات : ﴿ والمؤتَفِكاتِ ﴾ [التوبة : ٧٠] . أي المنقلبات التي صار عاليها سافلها ، وهي : سدوم وأمورا وعامورا وصبوير . وقد انتكست فطرتهم ، وانعكس مسارُ شهوتهم ، فكان الجزاء من جنس العمل .

وعن ابن مسعود و عن أناس من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً قال : ((لَمَّا خَرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، وأتوها نصف النهار ، فلمَّا بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها ، وكان له ابنتان ، فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟ ، قالت : نعم ، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم ، فأتت أباها ، فقالت : يا أبتاه ، أَدْرِكْ فتياناً على باب المدينة ما رأيتُ وجوه قوم هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رَجلاً ...

فجاءهم ولم يُعلِم أحداً إلا بيت أهل لوط ، فخرجت امرأته فأخبرت قومه قالت : إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثل وجوههم قَط ، فجاءه قومه يُهرَعون إليه ، فلمَّا أَتوه قال لهم لوط : يا قوم ، اتقوا الله ، ولا تخزونِ في ضيفي، أليس منكم رَجل رشيد ؟!، هؤلاء بناتي هُنَّ أطهر لكم مما تريدون قالوا له : أو لم ننهك أن تضيف الرجال ، قد علمتَ أن ما لنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ، فلمَّا لم يقبلوا منه ما عرضه عليهم قال : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ، يقول _ صلوات الله عليه _ : لو أن لي أنصاراً ينصروني عليكم ، أو عشيرة تمنعني منكم لحالت بينكم وبين ما جئتم تريدونه من أضيافي ، ولَمَّا قال لوط : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد بسط حينئذ جبريل جناحيه ، ففقأ أعينهم، وخَرجوا يَدوس بعضهم في آثار بعض عمياناً ، يقولون : النجا النجا ، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض ... وقالوا : يا لوط إنَّا رُسل ربك ، لن يصلوا إليك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ... فأخرجهم اللهُ إلى الشام))[9].

نلاحظ آثار تربية لوط ﷺ لابنته التي كانت حريصةً على استضافة والدها لهؤلاء الضيوف قبل أن تمتد إليهم أيدي قومه الكافرين الشاذين جنسياً . وقد أخذ لوط ﷺ بالأسباب ، واعتمد السِّرية في التعامل مع ضيوفه خوفاً من انتشار أمرهم بين قومه ، فتحدث فضيحة كبرى . والعاقلُ يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان .

لكن الخيانة جاءت من أقرب المقرَّبين. فامرأةُ لوط الكافرة أذاعت الخبرَ في القرية ، فقد كانت عوناً للشيطان ، تدعم الباطل وتعادي الحق . وهذا مؤشر على أن الإنسان قد يُلاقي العداوة من أهل بيته الملتصقين به ، وكما يقال : من مأمنه يُؤتَى الْحَذِر . لذلك يجب أن تكون رابطة الدِّين فوق رابطة الدم .

---

(٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦١٣) برقم (٤٠٥٩) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وعندما جاء قومه لفعل الفاحشة بضيوفه قام بنصحهم وإرشادهم . فالنصيحةُ لا تنقطع ، وهي مستمرة في كل الأحوال ، خصوصاً في الأزمات. لكنهم رَفضوا النصيحة ، واستمروا في ضلالهم . فكان العذابُ هو الحل الناجع الرادع لهم ولغيرهم .

١٤_ ذو القرنَيْن :

قال الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنَيْن قُل سأتلو عليكم منه ذِكْراً ﴾[الكهف : ٨٣].

وذو القرنَيْن رَجل صالح مَلَكَ الدنيا ، وبسط نفوذه عليها بفضل الله تعالى وتوفيقه ، فنشر الإيمان والعدل في الأرجاء . وقد كان شديدَ البأس ، قوي الشكيمة ، لا يلين ولا يستكين . وقد اخْتُلِف في نُبُوَّته .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما أدري ذا القرنين أنبياً كان أم لا))[10].

وفي تفسير القرطبي (١١/ ٤٥) : ((قال ابن إسحق : وكان من خبر ذي القرنين أنه أُوتي ما لم يؤت غيره ، فمُدَّت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضاً إلا سُلِّط على أهلها حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق))اهـ.

وهذا يدل على سعة مُلك ذي القرنَيْن . فالشخصُ الذي يبسط نفوذه وسُلطته بين المشرق والمغرب دون منازِع ، لا بد أنه شخص غير عادي .

وقد ذهب فريق إلى اعتبار ذي القرنين والإسكندر شخصية واحدة معتمدين على ما رواه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٧٠) أن النبي ﷺ سُئل عن ذي القرنين فقال : ((كان شاباً من الرُّوم فجاء فبنى مدينة مصر الإسكندرية ...))[11].

---

(١٠) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٩٢) برقم (١٠٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١١) في سنده ابن لهيعة.وإليك أقوال العلماء فيه من تهذيب التهذيب (٥/ ٣٣١):[قال أحمد بن صالح: ((كان ابن لهيعة من الثقات إلا أنه إذا لقن شيئاً حدَّث به)). وقال النسائي عن أبيه : ((ليس بثقة)). وقال ابن معين : ((كان ضعيفاً لا يحتج بحديثه)) . وقال مسعود عن الحاكم : ((لم يقصد الكذب وإنما حدَّث من حفظه بعد احتراق كتبه فأخطأ)) . وقال الجوزجاني : ((لا يوقف على حديثه ولا ينبغي أن يحتج به ولا يغتر بروايته)) . وقال ابن أبي حاتم : ((سألتُ أبي وأبا زرعة عن الإفريقي وابن لهيعة

لكن الحديث ضعيف لا يُعَوَّل عليه . وقد ضعَّفه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٣٦) ، ووافقه الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٣) .

وهناك فروقات بين ذي القرنين والإسكندر نقلها الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٢و٣٨٣) عن الفخر الرازي نوردها باختصار : فذو القرنين مؤمن ، أما الإسكندر فكافر ، وقد كان تلميذاً لأرسطو طاليس . وذو القرنين من العرب ، أما الإسكندر فمن اليونان ، والعربُ كلها من ولد سام بن نوح ، واليونان من ولد يافث بن نوح .

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٢) : ((والذي يظهر أن الإسكندر المتأخر لُقِّب بذي القرنين تشبيهاً بالمتقدِّم لسعة مُلْكه وغلبته على البلاد الكثيرة ، أو لأنه لما غلب على الفُرس وقتل ملكهم انتظم له مُلك المملكتين الواسعتين الروم والفرس فلُقِّب ذا القرنين لذلك ، والحق أن الذي قَصَّ اللهُ نبأه في القرآن هو المتقدِّم)) اهـ .

وقد اخْتُلف في سبب تسميته بذي القرنين. وبشكل عام فإن هذا اللقب يدل على سعة مُلكه، وسُلطته المبسوطة على كوكب الأرض . قال البغوي في تفسيره (١/ ١٩٧) : ((قال الزهري : لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها . وقيل : لأنه ملك الروم وفارس . وقيل : لأنه دخل النور والظلمة . وقيل : لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني الشمس . وقيل : لأنه كانت له ذؤابتان حسنتان . وقيل : لأنه كان له قرنان تواريهما العمامة)) اهـ .

وفي تفسير مجاهد (١/ ٣٨٠) أنه قال : ((لم يملك الأرض كلها إلا أربعة، مؤمنان وكافران، فالمؤمنان : سليمان بن داود وذو القرنين ، والكافران : نمروذ بن كوش وبخت نصر)) .

<u>١٥_ يأجوج ومأجوج :</u>

قال اللهُ تعالى:﴿قالوا يا ذا القرنَيْن إن يأجوج ومأجوج مُفسِدون في الأرض ﴾ [الكهف: ٩٤].

أيهما أحب إليك ؟ ، فقال : جميعاً ضعيفان ، وابن لهيعة أمره مضطرب يكتب = =حديثه على الاعتبار)) . وقال أبو زرعة : ((كان لا يضبط)) . وقال ابن عدي : ((حديثه كأنه نسيان وهو من يكتب حديثه)) . وقال محمد بن سعد : ((كان ضعيفاً ومن سمع منه في أول أمره أحسن حالاً في روايته ممن سمع منه بآخره)) . وقال مسلم في الكنى : ((تركه ابن مهدي ويحيى ابن سعيد ووكيع)) . وقال الحاكم أبو أحمد : ((ذاهب الحديث)) . وقال ابن حبان:((سبرتُ أخباره فرأيته يدلِّس عن أقوام ضعفاء على أقوام ثقات قد رآهم)). وقال أبو جعفر الطبري في تهذيب الآثار : ((اختلط عقله في آخر عمره))] .

إن يأجوج ومأجوج قبيلتان من ولد يافث بن نوح [12]، في خَلقهم تشويه ، فمنهم مفرط في الطول ، ومنهم مفرط في القصر. وقد عاثوا في الأرض فساداً ، فكانوا يَقتلون ويُخرِّبون ، ويُتلِفون الزرعَ . فالفسادُ صفةٌ لازمة لهم ، وقد اعتمدوه منهجاً حياتياً لا محيد عنه ، ولا شيء يَردعهم ، إذ إنهم يَفتقدون الوازعَ الديني أو الأخلاقي . وقد تنوَّعت جرائمهم ، وتعدَّدت انحرافاتهم . وهذا مؤشر على غِلظة طباعهم ، وطبيعتهم البدائية الهمجية ، وعدم وجود شريعة تَحكمهم . وهذا السلوك الإجرامي يدل على أنهم سائرون وفق أهوائهم ، غارقون في ضلالهم ، لا يَعرفون غير لغة القتل والتدمير . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ١٩١) : ((في هذا الفساد أربعة أقوال : أحدها _ أنهم كانوا يفعلون فعل قوم لوط ، قاله وهب بن منبه . والثاني _ أنهم كانوا يأكلون الناس ، قاله سعيد ابن عبد العزيز. والثالث_ يَخرجون الى الأرض ... أيام الربيع فلا يدعون شيئاً أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه إلى أرضهم ، قاله ابن السائب . والرابع _ كانوا يقتلون الناس ، قاله مقاتل)) اهـ .

وقد ورد في الحديث أن يأجوج ومأجوج : ((لا يمرون بماء إلا شربوه ، ولا بشيء إلا أفسدوه))[13] .

وفي هذا إشارةٌ واضحة إلى كثرة عددهم المذهلة ، وفسادهم وإفسادهم الشديدَيْن . وأنهم يمتازون بقدرات خارقة ، وإمكانيات جسمانية جبارة .

قال اللهُ تعالى:﴿حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسلون﴾ [الأنبياء: ٩٦].

والحدبُ هو ما ارتفع من الأرض . وهذه الصورة القرآنية توضِّح صفةَ خروجهم . فعندما يُفتَح سَد يأجوج ومأجوج الذي كان يَحجزهم ، فإنهم يُسرِعون إلى الفساد كأنهم أمواج هائلة متتابعة . فهُم ينسلون من كل ناحية ، وذلك لكثرة أعدادهم . والجدير بالذِّكر أن خروجهم من علامات الساعة الكبرى . وممَّا يشير إلى أعدادهم الهائلة أن الرَّجل فيهم لا يموت إلا وقد تَرك ألفاً من ذريته من بعده فأكثر.

---

(١٢) وردت حكاية في بعض المصادر أن آدم ﷺ نام فاحتلم فاختلط مَنِيُّه بتراب فتولد منه ولد يأجوج ومأجوج من نسله.وهذه خرافة لا أساس لها من الصحة. فالأنبياءُ _عليهم الصلاة والسلام_ لا يَحتلمون. وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٦):((وهو قول منكر جداً ، لا أصل له إلا عن بعض أهل الكتاب)).

(١٣) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٤) برقم (٨٥٠٢) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فعن عبد الله بن عمرو _ رضي الله عنهما _ قال عن يأجوج ومأجوج : ((ولا يموت رَجلٌ إلا ترك ألفاً من ذريته فصاعداً))[14].

وعن أبي سعيد الخدري _ رضي الله عنه _ قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((تُفتَح يأجوج ومأجوج ، يَخرجون على الناس كما قال الله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسلون ﴾ ، فيبعثون في الأرض ، وينحاز المسلمون إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً ، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : لقد كان هاهنا ماء مرة))[15].

وهذا الحدثُ المذهل الذي سيحصل في نهاية الزمان عظيم الخطورة ، وبالغ الشدة . فعندما يُفتَح سَد يأجوج ومأجوج ، يخرجون بأعداد مرعبة ، فيتحصَّن المسلمون في أماكنهم ، ويبدأ إفسادُ يأجوج ومأجوج ، حيث يَشربون مياه الأرض . وهذا يدل على قدرات غير عادية ، وغير متوفرة لدى باقي البشر . وعن زينب بنت جحش _ رضي الله عنها _ : أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول : ((لا إله إلا الله ، ويلٌ للعرب من شر ما اقترب ، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا)) . وحَلَّق بإصبعه وبالتي تليها [16].

إذن ، فالعد التنازلي قد بدأ ، فالسد الذي أقامه ذو القرنين لحماية الناس من شر يأجوج ومأجوج قد تم خرقه من قِبَلهم ، وهذا الخرق يتَّسع مع مرور الوقت . وسوف يَخرجون في نهاية الزمان ليعيثوا في الأرض فساداً. والجديرُ بالذِّكر أن يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى، ولن يَثْبت في هذه العلامات المذهلة إلا مَن ثَبَّته اللهُ تعالى .

١٦_ أصحاب مَدْين (قوم شُعَيْب) :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وإلى مَدْين أخاهم شُعَيْباً ﴾ [الأعراف : ٨٥] .

إن الله تعالى قد أَرسل إلى أولاد مَدْين بن إبراهيم ﷺ رسولَه شعيباً ﷺ من أجل دعوتهم إلى عبادة الله وحده. وهو أخوهم في النَّسب لا في الدِّين ، فهو من أنفسهم ، لكنه ليس على مِلَّتهم .

---

(١٤) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٦) برقم (٨٥٠٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١٥) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٣٥) برقم (٨٥٠٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١٦) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٣١٧) برقم (٣٤٠٣) ، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠) .

وكان يُقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وقوةِ حُجَّته ، وفصاحة عبارته . وقد نهى قومَه عن أن ينقصوا المكيال والميزان ، لأنهم كانوا _ مع كفرهم _ أهل تطفيف . وهكذا قادهم كفرهم (الانحراف العَقَدي) إلى التطفيف (الانحراف السلوكي الاجتماعي) .

وعن محمد بن إسحاق قال : وشعيب بن ميكائيل النبي ﷺ ، بعثه اللهُ نبياً ، فكان من خبره وخبر قومه ما ذكر اللهُ في القرآن ، وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره قال : ((ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه))[17] .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٥٤) : ((قال أبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿ وإلى مَدْين أخاهم شُعَيْباً ﴾ ، مَدْين لا ينصرف لأنه اسم بلد مؤنث ، ومجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير ، أي إلى أهل مدين)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإن كان أصحابُ الأَيْكة لظالِمين ﴾ [الحِجر : ٧٨] .

وأصحابُ الأيكة (الشجر الملتف) هم قوم شعيب ﷺ ، وكانوا كافرين . وأعظمُ الظلم هو الكفر بالله تعالى ، لأن المرء يَظلم نفسه ، ويوردها المهالك . والإنسانُ حينما يختار طريقَ الكفر فهو لا يَظلم خالقَه تعالى ، بل يَظلم نفسَه . فاللهُ تعالى أعلى وأجل من ظلم العباد ، مُنَزَّهٌ عن كل منقصة ، لا تضرُّه المعصية ، ولا تنفعه الطاعة .

وعن قتادة قال: ((بُعث شعيب النبي ﷺ إلى أُمَّتَيْن: إلى قومه أهل مَدْين وإلى أصحاب الأيكة ، فكانت الأيكة من شجر ملتف ، فلمَّا أراد اللهُ أن يُعذِّبهم بَعث اللهُ عليهم حراً شديداً ، ورفع لهم العذاب كأنه سحابة ، فلمَّا دنت منهم خرجوا إليها رجاء بردها ، فلما كانوا تحتها مطرت عليهم ، فذلك قوله_عز وجل _:﴿ فأخذهم عذابُ يوم الظُّلة ﴾ [الشعراء: ١٨٩]))[18].

والجمهور على أن أصحاب مَدْين هم أصحاب الأيكة ، أمَّا ما ذهب إليه قتادة إلى أنهما أُمَّتان مختلفتان فقد اعتمد فيه على أمرَيْن : الأول _ أن شعيباً ﷺ وُصف في أصحاب مدين بأنه أخوهم بخلاف أصحاب الأيكة ، والثاني _ أن الله تعالى قال في أصحاب مدين : أخذتهم الرجفة والصيحة، وفي أصحاب الأيكة : أخذهم عذاب يوم الظلة .

---

(١٧) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٠) برقم (٤٠٧١) ، وسكت عنه الذهبي .

(١٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢١) برقم (٤٠٧٥) ، وسكت عنه الذهبي .

وقد رَدَّ الجمهور على كلام قتادة كما في فتح الباري (٦/ ٤٥٠) فأجابوا : ((عن ترك ذكر الأخوة في أصحاب الأيكة بأنه لَمَّا كانوا يعبدون الأيكة، ووقع في صدر الكلام بأنهم أصحاب الأيكة ناسب أن لا يذكر الأخوة ، وعن الثاني بأن المغايرة في أنواع العذاب إن كانت تقتضي المغايرة في المعذَّبين ، فليكن الذين عُذِّبوا بالرجفة غير الذين عُذِّبوا بالصيحة ، والحق إنهم أصابهم جميع ذلك ، فإنهم أصابهم حر شديد ، فخرجوا من البيوت ، فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فرجفت بهم الأرض من تحتهم ، وأخذتهم الصيحة من فوقهم)) اهـ .

١٧ـ فِرْعَوْن :

قال اللهُ تعالى : ﴿ اذهبْ إلى فِرْعَوْن إنه طَغى ﴾ [النازعات : ١٧] .

فهذا الأمرُ الإلهي لموسى ﷺ بالذهاب إلى فرعون من أجل دعوته إلى توحيد الله تعالى ، والرجوع إلى طريق الحق . فقد تجبَّر وتكبَّر على ربِّه ، وتجاوَزَ كل الحدود .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٧٦) : ((أي : ناداه رَبُّه ، فَحُذف لأن النداء قول ، فكأنه قال له ربُّه : ﴿ اذهبْ إلى فِرْعَوْن ﴾)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولقد فَتَنَّا قَبْلهم قَوْمَ فِرْعَوْن وجاءهم رَسولٌ كريم ﴾ [الدخان : ١٧] .

إن الله تعالى قد ابتلى قومَ فرعون قبل مشركي العرب ، والابتلاءُ هو الأمر بالطاعة . وأرسل اللهُ إليهم رسوله موسى ﷺ ، فرفضوا الدعوةَ ، وتمرَّدوا مستندين إلى قوتهم المادية ، فكانت النتيجة أن العذاب الإلهي قد نزل عليهم ، وانتهى أمرهم إلى الأبد .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٦٠) : ((امتحناهم بإرسال موسى ـ عليه السلام ـ إليهم أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال ، وتوسيع الرزق عليهم)) اهـ .

فاللهُ تعالى يَختبر عبادَه ، فمنهم من ينجح في الاختبار، ومنهم من يَسقط. والكثيرون يعتمدون على قوتهم الذاتية فيُصابون بالنشوة الخادعة ، والغرور القاتل . وهؤلاء يَسقطون في الفتنة ولا يَقدرون على الخروج منها.والعاقلُ مَن نظر إلى ما وراء الأمور ، واعتمد على خالق الأسباب لا الأسباب ، لأن الأسباب عَرَضٌ زائل ، أمَّا الخالق تعالى فلا يَزول . كما أن العاقل لا يَغتر بقوته ، لأنه يَعلم أن اللهَ تعالى هو الذي يَهب القوةَ لمن يشاء ، ويَسلبها ممن يشاء .

وقد اغترَّ فرعون بقوته ، وولاء حاشيته ، وكثرة جنوده وأنصاره ، وهذا منعه من رؤية الحق ، فاستمرأ الضلالَ ، وواصل طغيانه .

وقال اللهُ تعالى مُوضِّحاً القوة المادية لفرعون : ﴿ وَفِرْعَوْن ذِي الأوتادِ ﴾ [الفجر : ١٠] .

والأوتادُ هم الجنود والجيوش الذين يُثبِّتون مُلْكه ، ويُقوُّون شوكته ، ويُنفِّذون أوامره في قمع الناس وتعذيبهم . وكما أن الأوتاد تُثبِّت الخيمة أمام العواصف والتحديات ، فكذلك الجنود يُثبِّتون حُكمه أمام كل المعارِضين . ويقال : كان فرعون يُعذِّب الناسَ بأن يُوتِّد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ ذِي الأوتادِ ﴾ ، قال : ((وَتَّد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رَحىً عظيماً حتى ماتت))[19].

وهذه الجريمةُ الشنيعة تشير إلى عقلية فرعون الرافضة لنور الإيمان ، وقلبِه المظلم الذي لا يُقيم وزناً لرابطة الدَّم ، وجبروته الذي أعماه عن إدراك القوة الإلهية ، فكان غرورُ فرعون وغطرسته عاملَيْن في القضاء عليه ، فصار مضرب المثل في الطغيان الموصل إلى الهلاك على مر الأزمان .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فاتَّبعوا أمرَ فِرْعَوْن وما أمرُ فِرْعَوْن برشيدٍ ﴾ [هود : ٩٧] .

إن فرعون كان إماماً في الضلال قاد قومَه إلى الهلاك الحتمي، كما أن ملأه يتحملون المسؤولية معه لأنهم اتَّبعوا أمره الباطل ، وساروا وراءه عمياناً غير عابئين بمعرفة الحق . وقد كان أمرُ فرعون يفتقد إلى الحكمة والمنطق والإنصاف ، وممتلئاً بالكفر والعناد . وكما أنه كان زعيمهم في الدنيا يتقدمهم في المواكب والمناسبات ، فسيكون أيضاً زعيمهم في الآخرة يتقدمهم إلى الجحيم . وهذا يكشف أهميةَ دور القائد ، فإمَّا أن يقود أتباعه إلى القمة ، وإمَّا أن يقودهم إلى الهاوية .

١٨ـ موسى :

أـ أم موسى :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وأوحَيْنا إلى أُم موسى أن أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليَم ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رَادُّوه إليكِ وجاعلوه من المرسَلين ﴾[القَصَص : ٧] .

ليس هذا الوحي هو الذي يُوحَى للرُّسل ، بل هو وحي إلهام لا وحي نبوَّة . فاللهُ تعالى أَلهم أمَّ موسى ، أي قَذف في قلبها أن ترضع ابنها موسى . فإذا خافت عليه من بطش فرعون فعليها إلقاؤه في نهر النيل، ولا خوفٌ من غرقه ، ولا حزنٌ على فراقه . فاللهُ تعالى سيردُّ إليها ابنها سالماً ، ويجلعه رسولاً إلى فرعون . وكلامُ الله واقعٌ لا محالة .

---

(١٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٦٨) برقم (٣٩٢٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والمنطقُ البشري يقول إن الأم إذا خافت على ابنها فعليها أن تحتضنه وتتمسك به لا أن تلقيَه في البحر . لكن القدرة الإلهية فوق كل شيء ، وهي أعلى من المنطق البشري ، لا يَطرأ عليها الضعف ، ولا تصاب بالتآكل . وهذه العبارة ﴿ فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليَم ﴾ لا يَقدر أن يقولها غير الله الخالق العظيم المسيطر على كل شيء .

وقال القاضي عياض في الشفا (١/ ١٩٧) : ((وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ! ، فقالت : أَوَ يُعَدُّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : ﴿ وأوحَيْنا إلى أُم موسى أن أرضعيه فإذا خِفْتِ عليه فألقيه في اليَم ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رَادُّوه إليكِ وجاعلوه من المرسَلين ﴾ ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين)) اهـ .

وهذا يدل على الإعجاز اللغوي في القرآن ، وهو أمرٌ معروف لدى الجميع ، فقد نَزل القرآنُ بلغة العرب أهل الفصاحة والبيان . ولكن المسلمين ضعف مستواهم في اللغة العربية ، فصاروا يقرأون القرآن الكريم بعيونٍ جامدة ، وقلوب لاهية ، ولا يتفكرون في إعجازه .

وللأسف فقد تغلبت العادةُ على العبادة . وصار القرآن يُقرأ في كثير من الأحيان من أجل البركة ، وفي المآتم طلباً للرحمة ، ونسي الكثيرون أن القرآن هو دستور الأحياء الذي يجعل دنياهم سعيدةً هانئة، وطريقاً نحو سعادة الآخرة . ولكن قسوة القلوب قد انتشرت بشكل كارثي ، وصارت هي السمة الغالبة في المجتمعات المسْلمة بالاسم .

وقد تحدَّى القرآنُ العربَ بأن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مِثله ، لكنهم عجزوا عن ذلك ، وسَلَّموا بهزيمتهم أمام القرآن. فإذا كانوا عاجزين _ وهم الذين يَملكون ناصيةَ اللغة _ ، فإن غيرهم أعجز .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأصبح فؤادُ أُم موسى فارغاً إن كادت لَتُبْدِي به لولا أن ربطنا على قلبها لِتَكون من المؤمنين ﴾ [القصص : ١٠] .

إن قلب الأم لا يتحمل فراقَ الابن . فالأمومةُ فطرةٌ زرعها اللهُ تعالى في المرأة . لذلك أضحى قلبُ أم موسى فارغاً من أمور الدنيا غير ابنها موسى ﷺ ، فقد استحوذ ابنُها على قلبها وعقلها ، وسَيْطر على مشاعرها لدرجة لا تطاق ، فكادت تعلن قِصَّتها أمام الناس بأنها فَقَدت ابنها ، لكن اللهَ تعالى ثَبَّتها ، ومنحها الصبر والسلوان .

ب_ قوم موسى :

قال اللهُ تعالى : ﴿ فلمَّا تراءا الجمعان قال أصحابُ موسى إنَّا لَمُدْرَكون ﴾ [الشعراء: ٦١].

عندما تقابل الفريقان : موسى وأصحابه من جهة وفرعون وأتباعه من جهة أخرى ، وصار كلُّ فريق يرى الآخر ، أيقن أصحابُ موسى أنه تم إدراكهم ، وأنهم هالكون لا محالة لأنهم لا طاقة لهم بفرعون وجبروته . لكن ثقة موسى بربِّه لم تتزعزع ، وكان موقناً أن الله لن يتخلى عنه وأصحابِه ، والشدائدُ تكشف عن معادن الرجال . وفي الأزمات يَظهر المعنى الحقيقي للصبر وثبات القلب ، ويَظهر المخلِصون الصامدون ، ويَسقط أصحاب الشعارات الجوفاء ، والجعجعة بلا طحن .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٤٤٧) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : فلمَّا تناظر الجمعان : جمع موسى وهم بنو إسرائيل ، وجمع فرعون وهم القبط ، ﴿ قال أصحابُ موسى إنَّا لَمُدْرَكون ﴾ ، أي إنا لملحقون الآن ، يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ واتَّخذ قومُ موسى مِن بعده مِن حُلِيِّهم عِجْلاً جسداً له خُوار ﴾ [الأعراف : ١٤٨] .

إن قوم موسى ﷺ كانوا أصحاب عقيدة مهزوزة ، ولا يتمتعون بالرسوخ في الدِّين والعِلم ، لذلك سقطوا في فتنة عبادة العِجل ، ولم يلتزموا بالتعاليم السماوية التي جاء بها موسى ﷺ ، مما يدل على اضطراب شخصيتهم ، وانعدام ثقتهم بأنفسهم ، وتغلغل الوثنية في قلوبهم والتي انعكست على سلوكهم . فبعد أن خرج موسى ﷺ إلى الطور اتَّخذ قومُه من الحلي التي استعاروها من القبط عجلاً جسداً له صوت البقر .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٢٩) : ((يُخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حُلِي القبط الذي كانوا استعاروه منهم ، فَشَكَّل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام)) اهـ.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ومِن قوم موسى أُمَّةٌ يَهْدون بالحق وبه يَعْدِلون ﴾ [الأعراف : ١٥٩] .

إن القرآن حاكمٌ مُنصِف . فقد أثبت أن قوم موسى ليسوا كلهم في خانة واحدة ، بل منهم أُمَّة مؤمنة تمتاز بالتقوى والتزام الحق منهجاً لا محيد عنه . يدعون الناسَ إلى الهداية ، ويَعدلون في الحُكم . وهذه الفئةُ ثَبتت على الصراط المستقيم ، ورَفضت الباطل ، لذلك استحقت أن تُمدَح في القرآن ، ويصبح ذِكْرُها خالداً إلى يوم القيامة ، لأن ناصر الحق منصور . وهكذا نجد أن القرآن يؤسس منهجَ الإنصاف ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

ج ـ التابوت :

قال اللهُ تعالى : ﴿ وقال لهم نَبِيُّهم إن آيةَ مُلْكه أن يأتيَكم التابوتُ فيه سَكِينة مِن رَبِّكم وبقيَّةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تَحمله الملائكة ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

قال القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٣٦) : ((أي : إتيان التابوت . والتابوت كان من شأنه فيما ذُكر أنه أنزله الله على آدم ـ عليه السلام ـ فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب ـ عليه السلام ـ فكان في بني إسرائيل يَغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فَغُلبوا على التابوت ، غَلبهم عليه العمالقة : جالوت وأصحابه في قول السدي : وسلبوا التابوت منهم)) اهـ .

وقد قال لهم نبيُّهم إن بركة مُلك طالوت أن يأتيَكم التابوت . إي إن الله تعالى سيردُّه إليكم علامةً على مُلك طالوت ومكانته العالية . وهذا التابوتُ فيه جلالٌ ووقار ، وهو سبب طمأنينة القلوب فلا تَجزع ولا تَشُكُّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٤٤) : ((وكان موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا قاتل قَدَّمه فَتَسكن نفوس بني إسرائيل ولا يَفِرُّون)) اهـ .

وهذا التابوتُ يحوي رضاض الألواح ، وعصا موسى ، وثيابه ، وعمامة هارون .

ومن الواضح أن التابوت له مكانة عالية ، فوجوده تثبيتٌ لقلوب بني إسرائيل ، وعلامةٌ باهرة على عظمة الخالق سبحانه وتأييده لأوليائه الصالحين . واللهُ تعالى رحيمٌ بعباده ، يساعدهم على الثبات ، وينصرهم إذا لجأوا إليه ، ولا يتخلى عن أوليائه الصالحين ـ مهما طال ليلُ الطغاة ـ .

كما أن احتواءه على بعض آثار موسى وهارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من شأنه بعث الثقة في النفوس ، ودفع الناس إلى مواجهة الباطل بكل إصرار وعزيمة .

وفي الدر المنثور (١/ ٧٥٨) عن قتادة قال : ((أَقبلت به الملائكة تحمله حتى وضعته في بيت طالوت فأصبح في داره)) اهـ .

١٩ـ قارون :

قال اللهُ تعالى : ﴿ إن قارون كان مِن قَوْم موسى فبغى عليهم وآتَيْناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصبة أُولي القوة إذ قال له قومُه لا تفرحْ إن الله لا يُحبُّ الفَرِحين ﴾[القصص : ٧٦] .

قارون ابنُ عم موسى ﷺ [20]،لكنه لم ينتفع بهذه القرابة.وقد تكبَّر على قومه واحتقرهم بسبب كثرة أمواله . وقد آتاه اللهُ من الكنوز (الأموال المدَّخرة) الشيء الكثير لدرجة أن الجماعة أصحاب القوة يَثقل عليها حمل مفاتيح خزائن هذه الأموال . فما بالك بالأموال نفسها ؟!. وهذا مؤشر واضحٌ على غناه الفاحش .

وقارون لم يُقدِّر النعمةَ الإلهية فَحَوَّلها إلى نقمة عليه بسبب عدم شكر الله تعالى ، وقد نصحه قومه بعدم التكبر والطغيان ، فاللهُ تعالى لا يحب الأشرين البطرين ، لكنه غرق في ضلاله ، ولم يستمع للنصح ، فكانت نهايته كارثية ، وخسر نفسَه إلى الأبد ، وزال غناه وسطوته .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((لَمَّا أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة ، فجمعهم قارون فقال لهم : جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها، فتحملوا أن تعطوه أموالكم ؟ ، فقالوا : لا نحتمل أن نعطيَه أموالنا ، فما ترى ؟ ، فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغي بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها ، فدعا موسى عليهم ، فأمر اللهُ الأرضَ أن تطيعه ، فقال موسى للأرض : خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى ، ثم قال للأرض : خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى، ثم قال للأرض: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى ، فقال للأرض : خذيهم فأخذتهم فَغَيَّبتهم فأوحى الله إلى موسى : يا موسى سألك عبادي ، وتضرَّعوا إليك فلم تجبهم ، وعِزَّتي لو أنهم دعوني لأجبتهم . وذلك قول الله _ عز وجل _ : ﴿ فَخَسَفْنا به وبداره الأرضَ ﴾ [القصص : ٨١] . خسف به إلى الأرض السفلى)) [21].

لقد سيطر عشقُ المال على قارون فأبى أن يُخرج الزكاةَ ، ولم يكتفِ بهذا ، بل _ أيضاً _ حَرَّض قومه على عدم إخراج الزكاة ، فكان فاسداً ومُفسِداً في آن معاً . وقد رسم خطةً شريرة تتمحور حول اتهام موسى بأنه راود إحدى البغايا عن نفسها ، وهذا يدل على خُبث قارون ، وقسوةِ قلبه ، وانحرافه الأخلاقي . فكان عاقبته أنه خُسف به وبداره ، فصار تحت الأرض بعد أن كان متجبراً يختال فوقها محتقراً الآخرين . واللهُ تعالى لا تستفزُّه معاصي عباده ، فهو أرحم بهم

---

(٢٠) قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٤٨) : ((فقد روى بن أبي حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه كان ابن عم موسى)) اهـ .

(٢١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٣) برقم (٣٥٣٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

من أمهاتهم ، ولو استغاثوا به لأغاثهم ، ولكنهم سَلكوا طريقَ الغواية فحقَّ عليهم العذاب . ومَن لجأ إلى نَفْسه وكله اللهُ إليها ، ومَن لجأ إلى الله تعالى فإن الله تعالى سينقذه .

٢٠_ سَبَأ :

قال اللهُ تعالى مُخبِراً عن كلام الهدهد : ﴿ إني وجدتُ امرأةً تَملكهم وأُوتِيَت مِن كُل شيء ولها عرشٌ عظيم ﴾ [النمل : ٢٣] .

قال الطبري في تفسيره (٩/ ٥٠٩) : ((وإنما صار هذا الخبر للهدهد عُذراً وحُجَّةً عند سليمان دَرأ به عنه ما كان أوعد به،لأن سليمان كان لا يرى أن في الأرض أحداً له مملكة معه)).

وهذه المرأةُ هي بلقيس ملكة سبأ ، فقد كانت حاكمةً على قومها ، وسَيِّدةً على البلاد . وأُوتيت القوة والمجد والمال والجنود والأتباع ، ولها عرشٌ عظيم مقارنة مع عروش أمثالها .

وكان هذا المشهد قد استوقف الهدهد لأن الملوك إنما يكونون من الرِّجال . أمَّا وجودُ امرأة على رأس الهرم السياسي تتزعَّم أهلَ الحُكم والسياسة فكان غريباً أثار انتباه الهدهد .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٠٠) أن النبي ﷺ قال : ((لن يُفلِح قومٌ وَلَّوا أمرَهم امرأة)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٤) : ((وقيل: كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عَرْضاً وسُمكاً أو ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر)) اهـ .

مما يدل على أنها ملكة عظيمة ذات مكانة رفيعة ، ونفوذ هائل ، وتملك أموالاً طائلة .

وقد أخفى اللهُ تعالى مكانها على سليمان ﷺ الذي كان يَحكم الأرضَ لحِكمةٍ بالغة ومصلحة عظيمة ، كما أخفى على يعقوب مكانَ يوسف _ عليهما الصلاة والسلام _ .

وقال اللهُ تعالى مخبراً عن كلام الهدهد : ﴿ وجدتُها وقَوْمَها يَسجدون للشمس مِن دون الله وزَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم فَصَدَّهم عن السَّبيل فهُم لا يَهتدون ﴾ [النمل : ٢٤] .

إن بلقيس وقومها كانوا مجوساً يَعبدون الشمس ، ولا يَعبدون اللهَ الواحد الأحد ، وقد حَسَّن لهم الشيطانُ هذه العبادة ، وزَيَّنها في قلوبهم ، فلم يَروا فيها بأساً . ولقد نجح الشيطانُ في صَدِّهم عن طريق الإيمان وإغراقهم في مستنقع الكفر ، لذلك كانوا يَفتقدون إلى الهداية . ولم ينتفعوا بمنجزات حضارتهم الزائفة التي كانوا يَفرحون بها .

وهنا يتجلى الموقف الإيجابي للهدهد الذي أبى إلا أن يكون داعياً إلى الله تعالى آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر . فحينما رأى هذا المشهد لم يتجاهله ، أو يقول : أنا لا علاقة لي بالموضوع . بل رَفض هذه العبادة الباطلة ، وأبلغ سليمان ﷺ بالأمر لكي يتخذ الإجراء المناسب

باعتباره رسولاً ومَلِكاً . وهذا الموقفُ النبيل الذي قام به الهدهد ينبغي أن يكون موقف جميع الناس ، أي إن عليهم عدم القبول الباطل ، والسعي نحو تغييره بكل السُّبل .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مَسْكنهم آيةٌ جَنَّتان عن يمين وشِمال كُلوا مِن رِزق رَبِّكم واشكروا له بلدةٌ طَيِّبة وربٌّ غَفور ﴾ [سبأ : ١٥] .

لقد كانت سبأ ملوك اليمن ، وكانوا يعيشون حياةً رغيدة ، حيث أرزاقهم واسعة ، وأحوالهم هانئة . وفي مسكنهم تتجلى الدلالةُ على وحدانية الله تعالى وعَظَمَته ، فهو الخالقُ المنعِم الذي أسبغ عليهم النِّعم الكثيرة ، وأفاض عليهم من العطايا والإمكانيات الجليلة ، وجعل حياتهم مزدهرة لا نكد فيها ولا عَوَز .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : إن رَجلاً سَأل النبيَّ ﷺ عن سَبَأ ما هو رَجل أو امرأة أو أرض ؟ ، فقال : ((هو رَجلٌ وَلد عشرة من الولد : ستة من ولده باليمن وأربعة بالشام ، فأما اليمانيون فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحِمْيَر ، خير كلها ، وأمَّا الشاميون فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان))[22] .

لكنَّ سبأ لم يُؤَدُّوا واجبَ الشُّكر على النِّعم ، وساروا في درب الضلال مغترِّين بما لديهم من أسباب الرزق والقوة والازدهار ، فَحَكموا على أنفسهم بالهلاك ، وكتبوا نهايتهم بأيديهم .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فأعرَضوا فأرسَلنا عليهم سَيْلَ العَرِم وبَدَّلْناهم بجنَّتَيْهم جَنَّتَيْن ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ مِن سِدْرٍ قليلٍ ﴾ [سبأ : ١٦] .

فأعرضوا عن توحيد الله تعالى ، ولم يَشكروه على نعمه الجزيلة ، وتمسَّكوا بعبادة الشمس . فعاقبهم اللهُ تعالى بأن أرسل عليهم السَّيْلَ الشديد . وزالت الجنتان الرائعتان ، وحَلَّ مكانهما جنتان بائستان ذواتا أُكل خمط ، وأثل (وهو شجر الطرفاء) ، وسِدْر (وهو شجر معروف) .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((الأُكل : الثمر ، والخمط : الأراك وثمره يقال له : البرير . هذا قول أكثر المفسرين)) اهـ .

وقد كان شجرُهم من أحسن الأنواع ، فجعله اللهُ تعالى من شَر الأنواع عقوبةً لهم بسبب كُفرهم ، وأعمالهم الشريرة ، وانعدام الشُّكر على النِّعم .

---

(٢٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٩) برقم (٣٥٨٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

٢١_ عمران :

أ_ امرأة عمران (أم مريم) :

قال اللهُ تعالى : ﴿ إذ قالت امرأةُ عِمْران رَبِّ إني نذرتُ لكَ ما في بطني مُحرَّراً فتقبَّلْ مِنِّي إنك أنتَ السميع العليم ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

امرأةُ عمران هي أُم مريم، واسمها حنَّة بنت فاقوذ، وهذا الاسم ليس عربياً . وقد أَوجبت على نفسها أن تجعل ما في بطنها خالصاً لله مُكرَّساً لعبادته مُعرِضاً عن الدنيا . وطَلبت قبولَ هذا النذر . وهذا يشير إلى حرصها على طاعة الله تعالى ، وأنها من عائلة شريفة ملتزمة دينياً . وتتجلى مظاهر هذا الالتزام في الاهتمام بالشعائر التَّعبدية ، وتقديم الابن (أغلى ما يملك الإنسان) خالصاً لعبادة الله تعالى لا يشغله أمرٌ آخر .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩) : ((رُوِيَ أنها كانت عاقراً عجوزاً ، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يُطعم فرخه فحنَّت إلى الولد وتمنَّته فقالت : اللهم إن لك عليَّ نذراً ، إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ، فيكون من خَدَمه ، فحملت مريم ، وهلك عمران . وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان ، فلعلها بَنَت الأمر على التقدير أو طَلبت ذَكَراً)) .

وقد كانت امرأةُ عمران معروفةً بين الناس بالطهارة والشرف. وهذا المعنى يتجلى في قول الله _ سبحانه وتعالى _ : ﴿ وما كانت أُمُّكِ بَغِياً ﴾ [مريم : ٢٨] .

ب _ مريم ابنة عمران :

قال اللهُ تعالى : ﴿ فتقبَّلها رَبُّها بِقَبولٍ حَسَنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وَكَفَّلها زكريا كلما دَخل عليها زكريا المحرابَ وَجد عندها رِزقاً قال يا مريمُ أنَّى لَكِ هذا قالت هو مِن عند الله إن الله يَرزق مَن يشاء بغير حساب ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

لقد نشأت مريم _ عليها السلام _ في بيئة الطهارة والشرف والعبادة ، فكانت عابدةً ناسكة منقطعة عن متاع الدنيا الزائل ، ومتصلة بخالقها تعالى . وهذه العنايةُ الإلهية التي أحاطت بها جعلتها قدوةً ومثلاً أعلى في الصفاء والأخلاق .

وقال القرطبي في تفسيره (٤/ ٧٠) : ((﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ يعني : سَوَّى خَلْقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد)) اهـ .

وكانت في كفالة زوج خالتها زكريا ﷺ حيث اعتنى بها ، وقام على رعاية شؤونها بكل أمانة واقتدار . وكان زكريا ﷺ كلما دَخل عليها الغرفة وَجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء .

وهذا مؤشر على المكانة العالية التي بلغتها مريم العذراء من العبادة والولاية . كما أنها مؤشر على كرامات الأولياء . فاللهُ تعالى يؤيد بعض عباده الصالحين بأمور خارقة للعادة تثبيتاً لهم ، ورفعاً لمعنوياتهم ، وإظهاراً لرتبتهم السامية .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : في قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ إني نذرتُ لكَ ما في بطني مُحرَّراً ﴾ تلا إلى قول : ﴿ وَجد عندها رِزقاً ﴾ . قال : ((كفلها زكريا ، فدخل عليها المحراب ، فوجد عندها عنباً في مكتل ــ يعني قفَّة ــ في غير حِينه ، قال زكريا : أنى لك هذا ؟ ، قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، قال : إن الذي يرزقك العنب في غير حِينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولداً))(23) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إن الله يُبشِّرِكِ بكلمةٍ مِنه اسمُه المسيحُ عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين ﴾ [آل عمران : ٤٥] .

إن الله تعالى بَشَّر مريم بولد يكون وجوده بكلمة من الله تعالى ، وهي : كُن فيكون .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨٦) : ((﴿ بكلمةٍ مِنه ﴾ يعني : برسالة من الله وخبر من عنده، وهو من قول القائل: ألقى فلان إلي كلمة سَرَّني بها، بمعنى: أخبرني خبراً فرحتُ به)) اهـ .

وقد سَمَّاه اللهُ تعالى ﴿ المسيحُ عيسى ابن مريم ﴾ قبل أن يُولَد . وفي هذا إخبارٌ لمريم بأنها ستلده دون أب ، لأن الأبناء يُنسَبون إلى آبائهم ، أمَّا نسبة عيسى إلى أُمِّه فدليلٌ على أنه مخلوق بلا أب . وهذه آية ربانية خارقة للعادة. واللهُ تعالى خلقَ النواميس الكَوْنية ، وهو سبحانه قادر على كسرها. أمَّا سبب تسمية المسيح بهذا الاسم ، فَوَرَد في ذلك أقوال عديدة نُلخِّصها كالتالي : لأنه كان يسيح في الأرض ولا يُقيم في مكان . وقيل : لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما . وقيل : لأنه إذا مَسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى . وقيل : لأنه مُسح من الأقذار ، وطَهُر من الذنوب . وقيل : لأنه مُسح بالبركة . وقيل : لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن . وقيل : مَسحه جبريل ــ عليه السلام ــ بجناحه فلم يكن للشيطان عليه سبيل . وعيسى ﷺ من

(٢٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٩) برقم (٣١٥٠) وصححه ، ووافقه الذهبي .

أعظم أنبياء الله تعالى ، وجيهٌ في الدنيا صاحب مكانة عُليا كَوْنه رسولاً ، ووجيهٌ في الآخرة (بالشفاعة والدرجات العُلى)، ومن المقرَّبين عند الله تعالى. ولا يَخفى أن عيسى ﷺ من أولي العزم ، وهم الرُّسل الخمسة المقدَّمون(محمد، إبراهيم، موسى، عيسى ، نوح) ، عليهم الصلاة والسلام .

٢٢_ أصحاب الأخدود :

قال الله تعالى : ﴿ قُتل أصحابُ الأُخدود ﴾[البروج : ٤] .

وهذا لعنٌ شديد لأصحاب الأخدود الذين حفروه في الأرض وألقوا فيه المؤمنين لأنهم رفضوا الارتداد عن دينهم . وهذا يدل على قوة عقيدتهم أمام التحديات الجسيمة ، وثباتهم على الحق ، وتفضيلهم الحياة الآخرة على الدنيا الزائلة . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٣٣) : ((أي : لُعن أصحاب الأخدود _ وجمعه أخاديد وهي الحفر في الأرض _ ، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله _عز وجل _ فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم في الأرض أُخدوداً وأجَّجوا فيه ناراً ، وأعدوا لها وقوداً يُسعِّرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩) : عن صهيب _ رضي الله عنه _ أن رسول الله ﷺ قال : ((كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرتُ فابعث إلَيَّ غلاماً أُعلِّمه السِّحر ، فبعث إليه غلاماً يُعلِّمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مَرَّ بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسني الساحر ، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ ، فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضيَ الناس ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك سَتُبْتَلى فإن ابتليتَ فلا تدل عليَّ ، وكان الغلام يُبرئ الأكمه _ يعني الأعمى _ والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عَمِيَ ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنتَ شفيتني ، فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي اللهُ ، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ ، قال : ربي ، قال : ولك رب غيري ؟ ، قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم

يزل يعذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل فقال : إني لا أشفي أحداً ، إنما يشفي اللهُ ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمئشار _ يعني المنشار _، فوضع المئشار على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شِقَّاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ ، قال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور _ يعني سفينة _ فتوسَّطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ ، قال : كفانيهم الله ، فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، قال : وما هو ؟، قال : تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، فجمع الناسَ في صعيد واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيتَ ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت وأضرم النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له : اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أُمَّه اصبري فإنك على الحق)) .

وهذه القصة فيها الكثير من الدروس والعِبر ، نورد بعضاً منها : ١_ السعي الحثيث للحصول على الهداية الربانية ، والبحث عن الحق بشكل دؤوب ، والتوجه إلى الله تعالى لطلب توفيقه . ٢_ إثبات الكرامات للأولياء ، حيث تجري أمور خارقة للعادة على أيدي الصالحين ، وهذا معروف ومنتشر في كل زمان ومكان . ٣_ الثبات على العقيدة ، والموت في سبيلها ، وعدم الخضوع للترهيب والابتزاز ، والتضحية بالنفس من أجل إعلاء اسم الله العظيم . ٤_ إن

الطواغيت يحاربون اللهَ تعالى، ويقتلون عباده المؤمنين من أجل تثبيت سُلطتهم ، والحفاظ على نفوذهم ومناصبهم الزائلة ، لكن الوقوف ضدهم سوف يضع حداً لعجرفتهم ، أما الاستسلام لهم فسوف يزيد من استكبارهم وظلمهم . كما أن الحكام الظالمين عبر كل العصور تتبدل أسماؤهم لكن أعمالهم الشريرة لها نفس الأسلوب ، حيث الترهيب والتضييق والتعذيب والتصفية الجسدية، لأنهم عاجزون عن مقارعة الحجَّة بالحجة . ٥_ الخير كامن في جوهر النفس الإنسانية ، والشعبُ مهما كان مسحوقاً لا يرفع رأسَه ، فلا بد أن يسلك طريقَ الحق قولاً وفعلاً ، ويقود عملية حريته بنفسه ، لكنه ينتظر القائد الصادق المتمكن الذي يُوحِّد الجهودَ المبعثرة ، ويبعث الثقةَ في النفوس ، ويُحرِّك المقطورةَ الأولى في قطار الحرية والتحرير ، فالشعبُ إذا تحرك فلا يمكن إيقافه نهائياً . وهنا تتجلى أهمية المبادرة الصادقة في إخراج الضائعين من الموت إلى الحياة .

٢٣_ أصحاب الفيل :

قال الله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل رَبُّكَ بأصحاب الفيل ﴾[الفيل : ١] .

فأصحابُ الفيل قد جاؤوا بقيادة أبرهة الأشرم لهدم الكعبة المشرَّفة ، لكن الله تعالى حمى بيتَه الحرام من شرهم ، وردَّ كيدهم في نحرهم ، فجعلهم أحاديث وعِبرةً لمن يَعتبر . واللهُ سبحانه يدافع عن بيته المقدَّس ، وحَرَمه الآمن .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧١٠) : ((هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم أنوفهم ، وخيَّب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردَّهم بشر خيبة ، وكانوا قوماً نصارى وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ)) اهـ .

والقصةُ الموجزة هي أن أبرهة بنى كنيسةً هائلة في صنعاء ، وأراد أن يصرف إليها الحجيج ، فغضبت قريش غضباً شديداً ، فجاء رَجلٌ من كنانة وأحدث فيها احتقاراً لها ، فغضب أبرهة ، وحلف أن يهدم الكعبةَ . وجاء مكة بجيش عظيم مع الأفيال ، فهرب أهلها ، وأرسل اللهُ تعالى على الجيش طيراً متتابعة رمتهم بحجارة صغيرة كأنها رصاصات،فصاروا مثل ورق الشجر المتطاير .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((أقبل أصحابُ الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب ، فقال لملكهم : ما جاء بك إلينا يا رَبَّنا _ يعني سَيِّدنا _ ألا بعثتَ فنأتيك بكل شيء أردت ؟ ، فقال : أُخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أَمِن فجئتُ أُخيف أهلَه ،

فقال: إنا نأتيك بكل شيء تريد فارجع، فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلكَ هذا البيت وأهله ، ثم قال :

اللهم إن لكل إلهٍ حَلالاً فامنع حَلالك

لا يغلبنَّ مِحالهم أبداً مِحالـك

اللهم فإن فعلتَ فأمر ما بدا لـك

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طيرٌ أبابيل ـ جماعات متتابعة ـ))[24].

وقد طلب أبرهة أن يأتيَ إليه أشرفُ قريش فجاء إليه عبد المطلب ، وكان رَجلاً مُهاباً حسن النظر ، فنزل أبرهة عن سريره ، وجلس مع عبد المطلب على البساط . وقد دار بينهما حوار بواسطة ترجمان . فقال عبد المطلب : إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فصُدم أبرهة من هذا الكلام ، وقال للترجمان : قُل له لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه ؟ ، فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ـ يعني سَيِّد الإبل ـ ، وإن للبيت رَبّاً سيمنعه[25].

وهذه القصةُ تشير إلى معرفة عبد المطلب بأن قُريشاً لا طاقة لها بحرب أبرهة ، وأن الكعبة هي بيت الله تعالى، ولا أحد يقدر على الدفاع عنها سواه ـ سبحانه ـ ، لذلك قال كلمته التي خلَّدها التاريخ : ((إن للبيت ربَّاً سيمنعه)) ، أي سيحميه ، ويصونه من كل سوء . فاللهُ تعالى قادر على حماية بيته الحرام من كل متكبر متغطرس ، وقد حَماه .

والطغاةُ في كل العصور تأخذهم العِزَّة بالإثم ، فهم يغترُّون بحِلْم الله عليهم ، وثناءِ الناس عليهم . لذلك يتمادون في الظلم والتحدي والغطرسة ، لكن نهايتهم ستكون كارثيةً للغاية ، لأنهم لم يحافظوا على النعم الإلهية ، فما قاموا بواجب الشكر والاعتراف بالفضل الإلهي .

---

(٢٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٣) برقم (٣٩٧٤) وصححه ووافقه الذهبي .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١٧٤) : ((أي : شيء ما بدا لك لم تكن تفعله بنا . والحلال : جمع حِل ـ وهو ما جاوز الحرم ـ ، والمِحال : القوة)) .

(٢٥) انظر تفسير الطبري(١٢/ ٦٩٣)،وتفسير ابن كثير(٤/ ٧١٠)،وتفسير القرطبي(٢٠/ ١٧٤).

لقد حوَّلوا القوةَ الممنوحة لهم إلى ظلم للآخرين ، وجعلوا من نفوذهم استعباداً للناس ، وأساؤوا التصرف في ممتلكاتهم ، فخسروا الدنيا والآخرة ، وماتوا والخزي يُجلِّلهم ، فصاروا عِبرةً وأحاديث في مجالس الناس .

وعن أبي موسى _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله لَيُمْلي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه))[26].

فاللهُ تعالى يُعطي الظالِمَ فرصاً زمنية عديدة ، فيُطيل له في المدة ، ويُمهله ولا يُهمله ، وإذا أخذه لم يُطلقه ، لأن أَخْذَه _ سبحانه وتعالى _ أليم شديد . فإذا رأيتَ ظالماً يزداد تكبراً وغطرسةً ونفوذاً وسطوةً فاعلم أن الله تعالى يستدرجه . والعاقلُ من يقرأ حركةَ التاريخ جيداً . فالقويُّ لا يظل قوياً حتى النهاية ، والضعيف لن يبقى ضعيفاً للأبد .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٧) : ((معنى يُمْلي يُمْهِل ويُؤخِّر ويُطيل له في المدة ، وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان ، بضم الميم وكسرها وفتحها . ومعنى لم يُفلته لم يُطْلقه)) اهـ .

إن الحراك التاريخي يتمحور حول فكرة واحدة وهي عدم دوام القوة والضعف. وهذه القاعدة الثابتة المطردة تشير إلى دوران مراكز النفوذ والسُّلطة. فعلى المرء _ في حال قوته _ أن يَقرن أعماله بالعدل ونشر الخير والفضيلة فيكسب ودَّ الناس وتقديرهم . وحينما يَسقط فإن الآخرين سيمدون له يد العون ، ولن يُعمِلوا مخالبهم فيه انتقاماً منه . أما المرءُ _ في حال ضعفه _ فعليه بالصبر والتحمل والإيمان بأن القادم سيحمل بشائر النصر والقوة والتمكين . وليعقد العزمَ أنه سيساعد الضعفاء حينما يصبح قوياً . وهنا تظهر أهمية الابتعاد عن الجزع والارتباك .

والقوةُ والضعف مرحلتان مؤقتتان ، والكرسيُّ دَوَّار. فالدهرُ يومان : يومٌ لك ، ويوم عليك . فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصطبر . فكلاهما سينحسر .

٢٤_ أبو لهب وامرأته :

قال اللهُ تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) ما أغنى عنه مالُه وما كَسب (٢) سَيَصْلى ناراً ذات لهبٍ (٣) وامرأته حمالةَ الحطب (٤) في جِيدها حبلٌ مِن مَسد (٥) ﴾ [سورة المسد] .

(٢٦) متفق عليه. البخاري (٤/ ١٧٢٦) برقم (٤٤٠٩) ، ومسلم (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٣) .

أبو لهب هو أحد أعمام النبي ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب . وسُمِّيَ أبا لهب لإشراق وجهه . وكان شديدَ العداوة لله تعالى ، سَخَّر وقته لمحاربة الدعوة الإسلامية ، والطعن في النبي ﷺ ، وتشكيك الناس به .وقد حَكم اللهُ عليه بالهلاك والخسران . ولم يستفد من درجة قرابته للنبي ﷺ ، فالهدايةُ لا علاقة لها برابطة الدم أو قُرب المسافة ، بل هي منحة ربانية خالصة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢١٦) : ((وإنما كَنَّاه اللهُ بأبي لهب _ عند العلماء _ لمعانٍ أربعة : الأول : أنه كان سُمِّيَ عبد العزى ، والعزى : صنم ، ولم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم . الثاني : أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه فَصَرَّح بها . الثالث : أن الاسم أشرف من الكنية فَحَطَّه اللهُ _ عز وجل _ عن الأشرف إلى الأنقص ... الرابع : أن الله تعالى أراد أن يُحقِّق نسبته بأن يدخله النار ، فيكون أبا لهب تحقيقاً للنسب ، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه))اهـ.

ولم يستفد أبو لهب من ماله وولده ، فلم يُنقذاه من عذاب النار الشديد . كما أن امرأته أم جميل كانت داعمةً لزوجها في الكفر والجحود ، ومُعينةً له على معاداة الإسلام والنبي ﷺ . لذلك ستكون رفيقته في نار جهنم عقوبةً لها . وأمُّ جميل هي أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبي سفيان . كانت تأتي بالشوك فتضعه في طريق النبي ﷺ . وفي الآخرة سَيُوضع في عنقها حبل من ليف قد فتل فتلاً شديداً ، وهذا العذابُ الأليم جزاء أفعالها الشريرة ومساندتها لكُفر زوجها . فالدنيا مزرعةُ الآخرة ، ولا يمكن لأحد أن يَهرب من الله تعالى .

وعن ربيعة بن عباد الدؤلي قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ بِمِنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة، يقول : ((يا أيها الناس ، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً)) ، ووراءه رَجلٌ يقول : يا أيها الناس ، إن هذا الرَّجل يأمركم أن تتركوا دِينَ آبائكم ، فسألتُ : مَن هذا الرَّجل ؟ ، قيل : أبو لهب [27].

وهذا يعكس درجةَ العداوة ، ويُنبئ عن مقدار الحقد الذي يتأجج في صدر أبي لهب الذي كان يَتْبع محمداً ﷺ أينما ذَهب ، من أجل التشويش على دَعْوته الإسلامية ، وتشكيك الناس بها ، والطعن في الشخصية المحمَّدية .

---

(٢٧) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٦١) برقم (٣٨) وصححه ، ووافقه الذهبي .

والنبيُّ ﷺ كان يُبلِّغ الرسالةَ السماوية كما هي ، دون زيادة أو نقصان ، فَيَدعو الناس إلى توحيد الله تعالى ونبذ عبادة الأصنام ، لكنَّ أبا لهب الذي نشأ في بيئة الشِّرك ، وتشرَّب الوثنيةَ حتى الثمالة أخذته العِزَّةُ بالإثم ، ونظر إلى الدعوة الإسلامية على أنها تهديد لِدِين الآباء وتقاليدهم وميراثهم الوثني. وهذا يكشف درجةَ التقليد الأعمى ، واتِّباع الآباء بلا بصيرة . فلم يُقدِّم أبو لهب برهاناً واضحاً يَدعم وجهةَ نظره ويُقنع الناسَ بالفكر الوثني ، وإنما كان ينطلق استناداً إلى الحميَّة الجاهلية ، والعصبية القَبَلية ، وحراسة تراث الأجداد البالي . وهذا دَيْدن الذين يَفتقدون إلى الحجَّة في كل العصور .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : خرج رسولُ الله ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : ((يا صباحاه)) . فقالوا : مَن هذا ؟ ، فاجتمعوا إليه فقال : ((أرأيتُم إن أخبرتُكم أن خَيْلاً تخرج من سفح هذا الجبل ، أَكنتم مُصَدِّقي ؟)) . قالوا : ما جَرَّبنا عليك كذباً ، قال : ((فإني نذير لكم بين يَدَي عذاب شديد)) . قال أبو لهب : تبَّاً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ، ثم قام . فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ . وقد تَبَّ [28].

لقد قَدَّم النبيُّ ﷺ حُجَّةً باهرة على صدق كلامه ، وكشف للآخرين عن المنطق السليم في الحوار والمحاجَجة . فقبل أن يَخوض في موضوع الرسالة ، ضرب مثلاً رائعاً للمشركين يتضمن تذكيرهم بأنه الصادق الأمين . فلو أخبرهم بقدوم خَيْل لصَدَّقوه لأنهم لم يَعهدوه كاذباً ، وهذا باعترافهم . وقد بنى النبيُّ ﷺ حُجَّته على هذا العبارة ، وأخبرهم بأنه نذير من الله لإنقاذهم من العذاب، فالإنسانُ الذي لا يَكذب على الناس ، من المحال أن يَذهب فيكذب على الله تعالى . لكن الكفر عناد . وهنا تدخَّل أبو لهب شاتماً النبي ﷺ . مما يدل على ضعف شخصية أبي لهب وعدم امتلاكه لوسائل الحوار ، وعجزه عن تقديم الدلائل والبَيِّنات .

ولو كان أبو لهب عاقلاً لاستفسر عن الموضوع ، وطلب من محمد ﷺ أن يُوضِّح كلامَه ومن أين جاء به ، ومن الذي أرسله نذيراً ، وما هذا العذاب الذي يتحدث عنه . وبعد أن يتفكر في الإجابات والتوضيحات بإمكانه أن يَقبله أو يَرفضه. فهذا هو المنطق، لكن الجهل الممزوج بالجحود والأهواء من شأنه أن يُحيل الإنسانَ إلى حيوان غريزي هائج لا يملك العقلَ ولا أسلوبَ الحوار .

---

(٢٨) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٩٠٢) برقم (٤٦٨٧) ، ومسلم (١/ ١٩٣) برقم (٢٠٨) .

وعن أسماء بنت أبي بكر _ رضي الله عنها_قالت: لَمَّا نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها وَلْولة ، وفي يدها فِهر _ حجر ناعم صلب _ ، وهي تقول : مُذَمَّماً أَبَيْنا ، ودِينه قَلَيْنا ، وأمره عَصَيْنا ، والنبي ﷺ جالس في المسجد ، ومعه أبو بكر ، فلمَّا رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أَقبلتْ وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((إنها لن تراني)) ، وقرأ قرآناً فاعتصم به [29]. إن أُمَّ جميل حمالة الحطب لم تَقدر على التحرر من بيئتها الصحراوية البدائية، وثقافتها الضحلة، وتقاليدِ الآباء الوثنية .

فبعد نزول ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ صُدمت ، واعتبرت الأمرَ اعتداءً عليها وطعناً في مكانتها الاجتماعية، فجاءت تحمل حجراً بهدف إيذاء النبي ﷺ ،وهي تردد عباراتٍ شنيعة نابعة من صدر يحترق بالأحقاد . فقد وَصفت مُحمَّداً ﷺ بأنه مُذَمَّم . وكان المشركون لا ينادون محمَّداً ﷺ بهذا الاسم لأنه مدح له ، فَيَعمدون إلى " مُذَمَّم " بهدف الطعن في النبي ﷺ . وهذا هو أسلوب العاجز ، الذي لا يَملك القدرةَ على المحاجَجة ، وتقديم البَيِّنات .

وفي صحيح البخاري(٣/ ١٢٩٩): عن أبي هريرة_ رضي الله عنه_قال: قال رسول الله ﷺ : ((ألا تعجبون كيف يَصرف اللهُ عني شتمَ قريش ولَعْنهم ، يَشتمون مُذَمَّماً ، ويَلعنون مُذَمَّماً ، وأنا مُحمَّد)) . إن الله تعالى رَفع اسمَ " مُحمَّد " عالياً ، ونَزَّهه عن التعرض للشتائم . فالمشركون يَشتمون مُذَمَّماً ، ويَلعنون مُذَمَّماً ، وهذا ليس اسم النبي ﷺ ، ولا يُعرَف به. وبالتالي لا يصل المشركون إلى غايتهم لأن جهدهم في الشتم والطعن مصروفاً إلى غير النبي ﷺ . لذلك يُتعِبون أنفسهم بلا طائل ، ويَحرقون قلوبَهم بلا نتيجة ، ويموتون في غَيْظهم .

وأُم جميل تواصل هَيَجانها الهستيري ، فتقول : ((ودِينه قَلَيْنا ، وأمره عَصَيْنا)) ، أي إنهم أَبْغَضوا الإسلامَ ، وعصوا الأمرَ النبوي الشريف . وهي تفتخر بهذا الباطل بأعلى صوتها ، مما يشير إلى احتراق صدرها بالضغينة والحسد والعناد ، وأن الباعث على اندفاعها الطائش هو الأهواء الشخصية ، والحميَّة الجاهلية ، والعصبية العشائرية . ﴿ ويأبى اللهُ إلا أن يتم نورَه ﴾ [التوبة : ٣٢]. والنبيُّ ﷺ رابطُ الجأش ، يجلس في المسجد ، لم يضطرب قلبُه لجعجعة هذه المرأة الحاقدة ، وقد خاف عليه أبو بكر الصديق من أذى أُم جميل ، وفَوْرةِ غضبها المهووسة ، لكن اللهَ تعالى أعمى بصرها فلم تشاهد النبيَّ ﷺ ، وعصمه من كل أذى .

---

(٢٩) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٣) برقم (٣٣٧٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

٢٥ـ الرُّوم :

قال اللهُ تعالى : ﴿ غُلبت الرومُ (٢) في أدنى الأرض وهُم مِن بعد غَلَبِهم سَيَغْلبون (٣) في بِضع سِنين لله الأمرُ مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ ويومئذٍ يَفرح المؤمنون (٤) ﴾ [سورة الرُّوم] .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٦٠) : ((نَزلت هذه الآيات حين غَلَب سابور مَلِكُ الفُرس على بلاد الشام ، وما والاها من بلاد الجزيرة ، وأقاصي بلاد الروم ، واضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل)) اهـ .

والرومُ هُم نصارى أهل كتاب ، أمَّا الفُرس فهُم مجوس يَعبدون النار . لذلك كانت عاطفةُ المسلمين تميل إلى الروم ، في حين أن المشركين (أهل الأصنام) كانوا يَميلون إلى الفُرس .

وعندما غُلبت الروم انزعج المسلمون ، وفرِح المشركون . لكن الله تعالى أخبر المؤمنين في كتابه العزيز بأن الروم سينتصرون في بضع سنين (ما بين الثلاث إلى التسع) . وكلامُ الله تعالى صادقٌ لا يَعتريه الكذب ، وواقعٌ ـ لا محالة ـ لا يتخلف . وقد انتصر الروم في الفترة التي حَدَّدها اللهُ تعالى . وعن ابن عباس قال : كان المسلمون يُحِبُّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أهل أوثان، فَذَكر ذلك المسلمون لأبي بكر فَذَكر أبو بكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : ((أَمَا إنهم سيهزمون)) ، فذكر ذلك أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهروا كان لك كذا وكذا ، وإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين فلم يَظهروا ، فَذَكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال : ((ألا جعلته ـ أراه قال : ـ دون العشر))[30].

والنبيُّ ﷺ لا يَعلم الغيبَ ، لكنَّ الله تعالى يُطلِعه على بعض الأمور الغيبية مثل انتصار الروم مستقبلاً ، وهذا يشير إلى أحد جوانب إعجاز القرآن الكريم ، وهو الإخبار بالغَيْب ، مما يدل على أن القرآن من عند الله المسيطر على الزمان والمكان وأحداثِ التاريخ ، وليس من تأليف محمد ﷺ ، أو أحد الناس . وقد راهن أبو بكر الصِّديق على انتصار الروم ، ـ وكان هذا قبل تحريم المراهَنات ـ . ولم يكن ليقدم على هذه الخطوة لولا ثقته اليقينية بكلام الله تعالى ورسوله ﷺ . فأبو بكر يتلقى النصوصَ الشرعية واقعاً ملموساً لا غبش فيه ، ومشهداً ماثلاً أمام العيان لا لبس فيه . لذلك سُمِّيَ بالصِّديق .

---

(٣٠) رواه أحمد في مسنده (١/ ٣٠٤)،والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٥) وصححه ووافقه الذهبي .

الفصل الخامس عشر

الدِّيانات

تمهيد

إن الدِّين ذو أهمية قصوى في حياة الشعوب ، لأنه يعطي التصوراتِ عن الوجود والحياة والموت والمسار الإنساني والمصير النهائي، ويُوضِّح العلاقة بين الإنسان وباقي العناصر الداخلية والخارجية . ولا يمكن حصر الدِّين في عقيدة شخصية ، لأن التأثيرات الدينية لا بد أن تظهر على سلوك الأفراد والجماعات عن قصد أو غير قصد .

وإننا في هذا السياق نبحث في طبيعة الدِّيانات ، فنستعرض أحوال أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ، ومسار أفكارهم وحياتهم ، ونتطرق إلى التوراة والإنجيل باعتبارهما كتابَيْن سماوِيَّيْن في الأصل ثم طرأ عليهما التحريف. مع عدم إغفال وجود المؤمنين بين أهل الكتاب ، لأن الإنصاف يتطلب ذكر الجانبَيْن المظلم والمشرق عند اليهود والنصارى .

ثم ننتقل إلى التخصيص ، فيأتي الحديث عن بني إسرائيل ، والأوامر الإلهية إليهم ، ومدى عنادهم والكوارث التي ارتكبوها بدافع العناد والغرور والكفر وحب الدنيا . وهذا يساعدنا في تحليل الشخصية اليهودية المضطربة عقائدياً ، والمنحرفة عن السياق الاجتماعي .

ويأتي الحديث عن النصارى والعداوة فيما بينهم ، فهم يظهرون ككتلة واحدة ، لكن قلوبهم شتَّى ، ومذاهبهم متضاربة وعقائدهم تلغي بعضُها بعضاً ، ونذكر أمثلة على ضلالهم وتطرفهم العقائدي وجرأتهم على الله تعالى حيث نسبوا إليه الولدَ ، مما يدل على جهلهم وانحرافهم وتطرفهم في فهم النصوص . ونذكر الحواريين باعتبارهم مثالاً للإيمان والتضحية والالتزام الحقيقي بتعاليم السيد المسيح ﷺ .

ثم يأتي الصابئون والمجوس ، فنتحدث عن هويتهم وعقائدهم بشكل مختصر من أجل تكوين فهم متكامل حول طبيعة الدِّيانات المنتشرة على كوكبنا .

والجديرُ بالذِّكر أن الإسلام هو الدِّين السماوي الوحيد ، وما سواه هو ديانات أرضية نتجت بفعل إفرازات بشرية واجتماعية وسياسية . وهكذا تسقط خرافة " الأديان السماوية " ، لأن الحق واحد لا يتعدد، والدِّينَ السماوي واحد لا يتعدد. وقد قال الله تعالى مُوضِّحاً هذه الحقيقة الخالدة : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾[آل عمران: ١٩] .

أولاً : أهل الكتاب

١ـ إقامة التوراة والإنجيل :

قال الله تعالى : ﴿ قُل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراةَ والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربِّكم ﴾[المائدة : ٦٨] .

فاليهودُ والنصارى ليسوا على شيء من الدِّين حتى يؤمنوا بالتوراة والإنجيل ، ويعملوا بما فيهما من تعاليم ــ ومن ضمنها الإيمان بمحمد ﷺ ــ ، ويؤمنوا بالقرآن الكريم الذي هو خاتم الكتب السماوية المحفوظ من الضياع والتحريفِ . أما تمثيل دور المؤمن بالتوراة والإنجيل دون القرآن الكريم ، فهذا لا يجدي نفعاً . وكلُّ التصرفات الإنسانية التي لا تنبثق من الوحي السماوي (الكتب السماوية) هي سلوكيات شاذة مرفوضة ، مناوئة للإنسانية ، ومضادة للقيم الحضارية ، ومخالفة للأوامر الإلهية . فالكتبُ السماوية جاءت لتصبح دستوراً حياتياً واقعياً لا أفكاراً مجرَّدة .

وهذه الكتب المقدَّسة كفيلة بإنشاء المجتمعات على أسس صحيحة ، حيث تسود العدالة ، والحق ، والسعادة الروحية ، والرخاء الاقتصادي . فاللهُ تعالى أعلم بالإنسان من نَفْسه ، ويَعلم مفاتيحَ شخصيته لأنه خالقها. أمَّا الإنسان فكائن ضعيف قاصر ومحدود الإمكانيات مهما علا شأنه في مجال العلم والحضارة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٠) : ((أي : حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنْزَلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ ، والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته)) اهـ .

فلا بد من الإيمان بكل الكتب السماوية المنْزَلة على الأنبياء ، فتكذيبُ كتابٍ هو تكذيب لكل الكتب ، وتكذيب لمن أنزلها . كما أن الإيمان بالأنبياء يجيء شاملاً لا مخصوصاً بنبي دون آخر ، لأن الطعن في نبي هو طعن في كل الأنبياء، لأنهم سائرون وفق منهاج إلهي واحد .

لذلك فإن الشريعة الإلهية تؤخذ ككُل لا يتجزأ لأنها وحدة بناء متماسكة ، تؤخذ معاً أو تُرفَض معاً ، ولا حل وسطاً بين الأمرَيْن. أمَّا الأشخاص الذين يُقسِّمون الشريعةَ حسب مصالحهم ، فيأخذون ما يوافق أهواءهم ، ويَرفضون ما يخالفها ، فلا يمكنهم استيعاب عَظَمةِ النصوص الدينية وروحِ الشريعة ، والإحساس بالطمأنينة . وسوف يظلون تائهين بلا بوصلة ، غارقين في الشكوك والأهواء المتضاربة . ولن يَذهبوا بعيداً لأنهم لا يَعرفون أين هُم ذاهبون .

و[عن ابن عباس قال : جاء مالك بن الصيف وجماعة من الأحبار ، فقالوا : يا محمد ألستَ تزعم أنك على ملة إبراهيم وتؤمن بما في التوراة وتشهد أنها حق ؟ ، قال : ((بلى، ولكنكم كتمتم منها ما أُمرتم ببيانه ، فأنا أبرأ مما أحدثتموه)) ، قالوا : فإنا نتمسك بما في أيدينا من الهدى والحق ولا نؤمن بك ، ولا بما جئت به](1). **فأنزل اللهُ تعالى : ﴿ قُل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراةَ والإنجيل ﴾ الآية .**

وهكذا نرى أن الأحبار يحاولون إفحام النبي ﷺ وإقامة الحجَّة عليه ، لكنَّ كيدهم رُدَّ في نحورهم . فالنبي ﷺ على مِلة إبراهيم ﷺ (الحنيفية السمحة) ، ويؤمن بالتوراة التي أُنزلت على موسى ﷺ ، لكنه يبرأ من التحريفات التي اخترعها اليهودُ في كتابهم ، لأنها إسهامات بشرية لا تمت للوحي بصلة . أمَّا زعمُ الأحبار تمسكهم بالتوراة وكفرهم بالنبي ﷺ ، فهذا أمرٌ متناقض ينسف بعضُه بعضاً، لأن تكذيب محمد ﷺ هو تكذيب للتوراة التي أَخبرت عنه، وتكذيبٌ لموسى ﷺ الذي يزعم اليهودُ أنهم سائرون على شريعته . وهكذا يتضح التناقض في العقل اليهودي المعتمد على التحايل والتلاعب ولوي أعناق النصوص من أجل الوصول إلى الأهداف الخبيثة .

وفي صحيح البخاري (٥/ ٢٣٧٤) أن سفيان بن عُيينة قال : ((ما في القرآن آية أشد عليَّ من ﴿ لستم على شيء حتى تقيموا التوراةَ والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربِّكم ﴾)) .

وهذا يشير إلى ضرورة الالتزام بالتعاليم الدينية ، وأخذها وحدةً واحدة دون تفرقة أو بشكل مجتزأ ، لأن التقصير في أداء عبادة ينسحب على باقي العبادات . وهكذا تتجلى الرابطة الوثيقة بين العبادات ، بحيث لا يمكن فصلها . كما أن التقصير في حمل الشريعة يؤدي إلى تدمير الروح الإنسانية ، ونسف القيم الاجتماعية . وهنا تتجلى أهمية الثبات على المنهج السماوي ، وحمله بكل أمانة وكفاءة ، وإيصاله إلى جميع الناس لإنقاذهم، ومنحهم السعادة في حياتهم وبعد مماتهم.

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٦٩) : ((يعني أن من لم يعمل بما أنزل اللهُ في كتابه فليس على شيء ، ومقتضاه أن من أخل ببعض الفرائض فقد أخل بالجميع ، ولأجل ذلك أطلق كونها أشد من غيرها ، ويُحتمل أن يكون هذا مما كان على أهل الكتاب من الإصر)) .

---

(١) ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٢٦٩) وقال قبله : رواه ابن أبي حاتم بإسنادحسن من طريق سعيد ابن جُبير . اهـ . وانظر الدر المنثور للسيوطي (٣/ ١٢٠) ، وقد جاء فيه أسماء الأحبار ، وهم : ((رافع بن حارثة ، وسلام بن مشكم ، ومالك بن الصيف ، ورافع بن حرملة)) .

إن الشريعة السماوية كلٌّ لا يتجزأ ، فهي بناءٌ متماسك وشامخ . ومَن أخل بجزء منها فهو يَهدم كلَّ أجزائها . تماماً كالبنيان العظيم ، إن أُزيلت منه لبنة فسوف ينهار . وهنا تبرز أهمية فهم التعاليم السماوية ، وتطبيقها كلها دون اجتزاء .

٢_ العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب :

قال الله تعالى : ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾[آل عمران : ٦٤] .

والقرآنُ الكريم يُقدِّم الحججَ الدامغةَ ، والبراهين الباهرة . فقد دعا أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلى كلمة عَدْل يستوي أمامها الجميعُ بلا تمييز أو مداهنة . وهذه الكلمة التي ينبغي الاتفاق عليها من كل البشر _ على اختلاف أديانهم وأجناسهم _ هي إفراد العبادة لله وحده ، وعدم الشِّرك به ، وعدم اتخاذ البشر أرباباً من دون الله تعالى . فلا أحد يملك حقَّ التشريع والتحليل والتحريم سوى الله تعالى . وكلُّ ما عُبد من دون الله تعالى هم آلهة باطلة لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فلا معبود بحق إلا الله تعالى .

ومن يتفكر في هذه الدعوة العظيمة سيجد أنها منصفة لا ظلم فيها ، ولا تغليب أُناس على آخرين . فاللهُ تعالى هو خالق كلِّ الناس ، فعليهم أن يعبدوه وحده لا شريك له . فلا يجوز عبادة محمد أو موسى أو عيسى _ عليهم الصلاة والسلام _، بل يتوجب عبادة الذي أرسلهم. والالتزامُ بهذا المبدأ الراقي سَيُوحِّد الناسَ على الحق ، ولا فضل لإنسان على إنسان إلا بالتقوى .

وهذه الدعوة عالمية لأنها لا تختص بقوم دون قوم . فهي لا تجامل المسلمين على حساب أهل الكتاب ، لأن اللهَ خالقُ الجميع لا المسلمين وحدهم . ولا تُنقِص من قَدْر التوراة والإنجيل ، لأنهما كتابان سماويان _ في الأصل _ يؤيدان القرآنَ مثلما القرآن يؤيدهما ، ولا تحط من منزلة موسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _ ، لأن الأنبياء كلهم دِينهم واحد يتشرفون بعبادة الله تعالى . ولو كان محمد ﷺ كاذباً لدعا الناس إلى عبادته مثل فرعون ، أو طعن في موسى وعيسى لإعلاء منزلته عليهما ، أو طعن في التوراة والإنجيل لبيان تفوق الكتاب الذي جاء به . لكن هذه الأمور لم تحدث، فقد كان النبي ﷺ أشد المدافعين عن التوراة والإنجيل وموسى وعيسى _ عليهما السلام _، فلا يُقبَل الإسلام من أحد إلا إذا آمن بالكتب السماوية كلها والأنبياءِ كلهم . وهذا هو الأساس للدعوة الإسلامية الكَوْنية الشاملة لكل زمان ومكان .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٩٤) : ((هذا الخطاب يعم أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ، ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ ، والكلمة تُطلَق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾، أي عَدْل ونَصَف _ يعني إنصاف _ ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسَّرها بقوله : ﴿ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ ، لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نُفرِد العبادةَ لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل)) اهـ .

إن القاعدة الأساسية العالمية هي عبادة الله وَحْدَه ، وعدم الإشراك به . ومن تفكر في هذه القاعدة الذهبية سيجد أنها متوافقة مع العقل البشري تماماً ، ومنطقية بشكل تام . فالمخلوقات كلها عاجزة مفتقرة إلى خالقها الذي أوجدها . إذن ، فالعبادةُ ينبغي أن تتوجه إلى الخالق العظيم الذي صنع الموجودات ، وليس إلى الموجودات .

ولو جئنا إلى الحياة العامة لوجدنا أنه من غير المنطقي أن يتساوى الكرسي مع النجار الذي صنعه ، أو يتعادل الحديد مع الحدَّاد الذي يُشكِّله ، أو تتساوى اللوحة مع الفنان الذي رسمها . وهذه الأشياء كلها محصورة في عالم المخلوقات الناقصة العاجزة ، فكيف يتساوى الإنسانُ الضعيف مع خالقه العظيم ؟! . وكيف يصبح المخلوقُ إلهاً وهو لا يَملك من أمره شيئاً ؟! . وكيف يصبح المخلوقُ ربَّاً وهو لا يَقدر على حماية نفسه من الموت ؟! . فإذا كانت هذه الآلهة لا تَستطيع حمايةَ نفسها فكيف ستحمي المؤمنين بها ؟! .

ومن الأمثلة الواضحة في هذا السياق اعتقاد النصارى أن المسيحَ إلهٌ وقد تم صلبُه . فإذا كان هذا الإله _ حسب اعتقاد النصارى _ لم يقدر على حماية نفسه من الصلب والإهانة ، فكيف سيحمي المؤمنين به ويدافع عنهم ؟! .

وفي تفسير البغوي (١/ ٤٩) : ((قال المفسرون : [قدم وفدُ نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختصموا في إبراهيم _ عليه السلام _ فزعمت النصارى أنه كان نصرانياً وهم على دِينه وأولى الناس به،وقالت اليهود: بل كان يهودياً وهم على دِينه وأولى الناس به، فقال رسول الله ﷺ: ((كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودِينه ، بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً وأنا على دِينه فاتبعوا دينَه دينَ الإسلام)) ، فقالت اليهود : يا محمد ، ما تريد إلا أن نتخذك رَبَّاً كما اتخذت النصارى عيسى رَبَّاً ، وقالت النصارى : يا محمد ، ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عُزَيْر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة ﴾ _ الآية _])) اهـ .

والصراعُ بين اليهود والنصارى قديمٌ جداً . وعندما التقى وفد نجران (النصارى) مع اليهود تجادلوا بشأن إبراهيم ﷺ ، فهو أبو الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وكلٌّ طرف يحاول تقديم إبراهيم ممثلاً لعقيدته ، وذلك من أجل نيل الشرعية الدينية، والمشروعية الأخلاقية .

فزعم النصارى أن إبراهيم ﷺ كان نصرانياً ، وأنه منهم ، وهُم سائرون على عقيدته ، ويَحملون ميراثه النبوي ، وهم أحق الناس به لأنه يدين بالنصرانية _ حسب اعتقادهم .

وزعم اليهودُ _ كردة فعل_ أن إبراهيم ﷺ كان يهودياً ، وهُم تابعون له ، وهُم أولى الناس به .

وهذه المزاعم العريضة لا أساس لها من الصحة ، وهي مضحكة ومبكية في آنٍ معاً . إذ إن إبراهيم ﷺ وُجد قبل عيسى وموسى _ عليهما الصلاة والسلام _، كما أن الإنجيل والتوراة أُنزلا بعد إبراهيم ﷺ ، فكيف يدين بالنصرانية أو اليهودية ؟! . فالمنطق يقول إن اللاحق تابعٌ للسابق ، وليس السابق تابعاً للاحق . وقد رَدَّ عليهم النبيُّ ﷺ ، وبيَّن لهم أن إبراهيم كان حنيفاً مُسْلماً يدين بالتوحيد .وكل الأنبياء هُم مسلمون ، لأن الدِّين عند الله الإسلام ، فالدِّينُ واحدٌ لا يتعدد ، أمَّا الشرائع فهي مختلفة . ومن أراد السير على منهاج إبراهيم ﷺ فليتبع الإسلامَ دينَ جميع الأنبياء ، والدِّين السماوي الأوحد .

وبما أن اليهود والنصارى يَفتقدون إلى البراهين ، ولا يَملكون حُجَّةً . فقد أخذوا يرمون التهمَ بلا دليل . فادَّعت اليهود أن محمداً يريد أن يتخذه اليهودُ ربَّاً كما اتخذت النصارى عيسى رباً. وزَعم النصارى (كردة فعل) أن محمداً يريد أن يتخذه النصارى ابناً لله تعالى ، وهذا ما قاله اليهود في عُزَيْر . فقد قال اللهُ تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله ﴾[التوبة : ٣٠] .

وهذه التهم العريضة نابعة من الأهواء الشخصية لا المنهج العلمي . إذ إن محمداً ﷺ لم يدعُ الناسَ إلى عبادته ، أو اتخاذه شريكاً لله تعالى . وها هي النصوص الدينية (القرآن والسُّنة) ظاهرة للجميع ، وغير سرية ، ويمكن للجميع أن يطلع عليها . ولا يوجد فيها أي نص يدعو إلى تأليه محمد أو أي مخلوق آخر . فالدعوةُ المحمَّدية الإسلامية قائمة بالأساس على التوحيد ، أي إفراد العبادة لله تعالى وَحْدَه بلا شريك . وبدون التوحيد فلا معنى لرسالات الأنبياء كلها .

وقد كان لابن حجر رأي آخر في سبب نزول الآية .

فقال في العُجاب في بيان الأسباب (٢/ ٦٨٨) عن الآية : ((أنزلها الله في قصة وفد نجران قبل أن يقع اجتماعهم باليهود فلما أبوا وبذلوا الجزية واطمأنوا اجتمعوا بيهود المدينة عند النبي أو فيما بينهم فتجادلوا إلى أن ذكروا إبراهيم)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٧٤٢) : [قال ابن عباس : أخبرني أبو سفيان بن حرب أن هرقل دعا ترجمانه ثم دعا بكتاب النبي ﷺ فقرأه : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل ، و ﴿ يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾)) . الآية][2] .

وهذا يعكس حرصَ النبي ﷺ على تبليغ الدعوة الإسلامية كاملةً غير منقوصة لكل الناس على اختلاف أجناسهم ومكانتهم الاجتماعية . كما يشير إلى حسن الأسلوب في الدعوة ، حيث اللين والرفق بلا تطرف أو خشونة في التعامل . ويشير أيضاً إلى حرص النبي ﷺ على دعوة عِلْية القوم ، إذ إن إسلامهم يعني إسلامَ أقوامهم، ودخولهم جميعاً في رحمة الله تعالى ورضوانه ، فلم يَسْعَ النبي ﷺ إلى مخاطبة العظماء من أجل مصلحة شخصية ، أو إبراز نفسه في عالم الرياء والشهرة والمجتمعات المخملية ، لأنه ﷺ كان ينظر إلى الآخرة فلا ينخدع ببهرج الحياة الدنيا الفانية .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٠٢) : ((قوله تعالى : ﴿ ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ فيه ثلاثة أقوال ، أحدها : أن سجود بعضهم لبعض ، قاله عكرمة . والثاني : لا يطيع بعضُنا بعضاً في معصية الله، قاله ابن جريج.والثالث: أن نجعل غير الله رَبَّاً كما قالت النصارى في المسيح ، قاله مقاتل والزجاج)) اهـ .

فكلُّ مظاهر العبودية لا يجوز صرفها لأحد من المخلوقين . واتخاذُ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله تعالى يحتمل عدة معانٍ ، فاتباع عِلْية القوم (الأمراء والعلماء) في التحليل والتحريم هو نوع من عبادتهم ، لأن تشريع الحلال والحرام بيد الله تعالى وحده . وهناك معنىً مشهور مثل عبادة النصارى للمسيح ﷺ ، فقد اتخذوه إلهاً ، وذلك لجهلهم وتحريفِ الإنجيل ، حيث دخلت فيه العوامل البشرية . وأيضاً سوء تأويل النصوص الدينية الذي أدى إلى كوارث عقائدية .

---

(٢) يمكن استنباط العديد من الفوائد من هذا الحديث ، فمنها على سبيل المثال لا الحصر : أ) دعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم . ب) استحباب تصدير الكتاب ببسم الله الرحمن الرحيم ، وإن كان المبعوث إليه كافراً . ج) يجوز للمحدِث والكافر مس آية أو آيات يسيرة . د) السُّنةُ في المكاتبة والرسائل بين الناس أن يبدأ الكاتب بنفسه فيقول : من زيد إلى عمرو .

[هذه الفوائد مأخوذة من شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ١٠٧)] .

٣_ وجود المؤمنين بينهم :

قال الله تعالى : ﴿ ليسوا سواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾[آل عمران : ١١٣] .

إن أهل الكتاب والأمة المحمَّدية ليسوا سَواء ، فلا يمكن المساواة بينهم ، لأن الإيمان والكفر ضِدَّان لا يجتمعان . فالأمةُ المحمدية هي الحاملة للشريعة السماوية المحفوظة ، وإذا ذهبت فإن الله تعالى لن يُعبَد في الأرض ، لذلك هي مستمرة وثابتة حتى يوم القيامة رغم حالات الضعف التي تمر فيها بين الحين والآخر .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : أَخَّر رسولُ الله ﷺ صلاةَ العشاء ، ثم خرج إلى المسجد والناس ينتظرون الصلاة ، فقال : ((أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر اللهَ هذه الساعة غيركم)) ، ثم نزلت عليه : ﴿ ليسوا سواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ (3).

وأهلُ الكتاب متفاوتون ، وليسوا كلهم في إطار واحد ، ففيهم المؤمن والكافر ، والبَر والفاجر. فمن أهل الكتاب من هو متمسك بالشريعة الإلهية ، يُطبِّق التعاليم الدينية ، ولا ينحرف عنها . وهذه الفئةُ تتلو آيات الله تعالى ، وتقوم الليلَ ، وتكثر التهجدَ .

والتفاوتُ سُنَّةٌ إلهية ثابتة. فالناس مختلفون في قدراتهم العقلية، وإمكانياتهم الجسمية، ومستواهم المادي . وأهلُ الكتاب يَجري عليهم ما يَجري على الآخرين ، فلا يمكن وضعهم كلهم في سلة واحدة . ففيهم المؤمن والكافر ، والصالح والفاسد . والقرآنُ الكريم منصفٌ في أحكامه ، فهو يوضِّح أهلَ الخير ويشيد بهم ، ويُخلِّد أفعالهم ، ويَذكر أهلَ الشر ويذمهم ويفضح باطلَهم .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٩٧) : ((ليس فريقا أهلِ الكتاب أهل الإيمان منهم والكفر سواء ، يعني بذلك : أنهم غير متساوين ، يقول : ليسوا متعادلين ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد والخير والشر)) اهـ .

٤_ غرورهم وأمانيُّهم :

قال الله تعالى : ﴿ وقالوا لن يَدخل الجنةَ إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانِيُّهم قُل هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين ﴾[البقرة : ١١١] .

---

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٩٧) برقم (١٥٣٠) .

فأهلُ الكتاب يخترعون الأماني الكاذبة ، فهم يخدعون أنفسهم فيعيشون في دنيا الخيال وعوالم الأحلام التي لا حقيقة لها . فاليهودُ قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، والنصارى قالت لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً . لكن الله تعالى أفحمهم وفضح باطلَهم . فهذه الأماني الواهية لا أساس لها من الصحة ، كما أن أهل الكتاب لم يُقدِّموا دليلاً على كلامهم . فإن كانوا صادقين في زعمهم فليحضروا البرهان الساطع ، وليُقدِّموا الحجةَ الباهرة ليكون موقفهم قوياً ، لكن هذا لم يحدث ولن يحدث ، فاليهودُ والنصارى عائشون في عوالم الأحلام بلا حُجَّة مُعتبَرة ، وهذه الأحلام ستؤول إلى كوابيس .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٤) : ((يُبيِّن _ تعالى _ اغترارَ اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادَّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على مِلَّتها)) .

والبشرُ حينما يَفتقدون إلى الحجج والبراهين ، ولا يقومون بالأعمال الصالحة ، فإنهم يلجأون إلى الأحلام الواهية ، والأماني العريضة ، فتراهم يلهثون وراء أهوائهم ، ويتمنون على الله الأماني . وهذا من تزيين أنفسهم والشيطان للمعاصي . فهُم واقعون في فخ أهوائهم التي تصور لهم الدنيا والآخرة كمزرعة خاصة بهم ، لا يشاركهم فيها أحد . واليهودُ والنصارى لم يؤسسوا حياتهم على منهج الإيمان والحق . لذلك تمسَّكوا بالأمنياتِ بسبب شعورهم بالنقص . وما لجوؤهم إلى التمني وتبني الدعاوى العريضة ، إلا وسيلة لإخفاء نقصهم وعجزهم ، وتقديم أنفسهم كأولياء الله المختارين . لذلك زعموا أن الجنة من نصيبهم لوحدهم دون تقديم أي برهان يدعم كلامَهم، وهذا دَيْدن أهل الباطل في كل العصور مع اختلاف الأسماء والمسمَّيات .

وقال الله تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾[البقرة : ١٣٥] .

وهذا يشير إلى غرور أهل الكتاب ، وبناءِ أفكارهم على أُسس واهية . فإن اليهود يعتقدون أن اليهودية هي الدرب المستقيم وخلاص الإنسان والإنسانية ، وكذلك النصارى يعتقدون أنهم على الصراط المستقيم ، فمن وافقهم اهتدى ، ومن خالفهم ضَل . وهذه دعوى عريضة لا دليل عليها، وهي بمثابة أضغاث أحلام ، وكلٌّ يُغنِّي على لَيْلاه .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٦١٤) : ((...وقالت اليهود لمحمد ﷺ وأصحابه من المؤمنين : كونوا هودا تهتدوا ، وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى تهتدوا ... ﴿ تهتدوا ﴾ أي : تصيبوا طريق الحق)) اهـ .

إن الهداية ليست مشروعاً عائلياً أو طائفياً أو عِرقياً أو تجارياً احتكارياً . إنها مكرمة إلهية تهبط في القلوب النظيفة التي لم تتلوث بشوائب الدنيا والعقائدِ الزائغة . وإذا درسنا عقائدَ اليهود والنصارى سنجدها بعيدةً عن الحق ، وتطعن في الحقيقة . فهي خليطٌ غير متجانس من المعرفة والجهل، والإيمان والكفر، والحق والباطل . أمَّا الهدايةُ فهي حقيقة صافية لا مكان فيها لأية شائبة ، دينية أو اجتماعية أو سياسية أو أخلاقية ... إلخ .

وفي لُباب النقول للسيوطي (١/ ١٧) : ((عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا للنبي ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتَّبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾)) اهـ .

وهكذا نرى أن اليهود والنصارى عائشون في عالم الأوهام ، فابن صوريا _ وهو أحد رؤوس اليهود _ يفتقد إلى المنهجية العلمية وتقديم البراهين الجلية ، فهو يزعم أن قومه (اليهود) على الهدى دون تقديم أدلة تدعم كلامَه ، فلم يحاول _مثلاً _ مناقشة النبي ﷺ ومقارعة الحجَّة بالحجة، وإنما اكتفى بأن اليهود على الهدى بلا برهان ، وكذلك فعل النصارى ، وهذا كلامٌ في الهواء لأنه لا يستند إلى عقلية علمية منهجية تحليلية ، بل يستند إلى الأهواء والأماني الكاذبة . وهذا غير مستغرب ، إذ إن عقائد أهل الكتاب مبنية على الأحلام والشكوك والوساوس دون وجود حصيلة علمية متماسكة . فالأمرُ الطبيعي أن يُقدِّم المرءُ دليلاً على كلامه لكي يكون موقفُه متماسكاً مقنعاً للآخرين ، لكن أهل الكتاب غارقون في الأهواء الشخصية والمصالحِ الذاتية ، وهذا يجعلهم بعيدين عن الاستخدام المنهجي للعقل ، وتكوين حصيلة فكرية متضمنة للأدلة والبراهين ، فعقائدُ أهل الكتاب مبنية على الظن لا اليقين، وهي عقائد واهية ضد الفطرة، تنفي نفسَها ، وتفتقد إلى المنطق.

٥_ عدم رضاهم عمن لم يتبع ملتهم :

قال الله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتى تتَّبع مِلَّتهم ﴾ [البقرة: ١٢٠].

أهلُ الكتاب لا يمكن أن يرضوا عن النبي ﷺ ولو جاءهم بكل الآيات والبراهين النقلية والعقلية ، فهم يطمحون إلى أن يترك النبيُّ ﷺ الإسلامَ (الدين الحق)، ويتبع ملتهم الباطلة . وهذا محال بسبب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومهما فَعل النبيُّ ﷺ فلن يرضى عنه اليهود والنصارى لأنهم يَحملون في عقولهم أفكاراً مسبقة لا يريدون تغييرها سواءٌ ظهر لهم الحق أم لم يظهر . كما أن إرضاء الناس غاية لا تُدرَك . فلا فائدة من ملاحقة أهواء الناس ومواقفهم المتباينة .

والحالةُ الوحيدة التي سيرضى فيها اليهودُ والنصارى عن النبي ﷺ هي أن يتبع مِلَّتهم . وهذا محال . فاللهُ تعالى يُثبِّت أنبياءه على الحق ، فلا يحيدون عن المنهج السماوي ، ولا يَنحرفون عن الطريق الإلهي . وأيضاً اليهودية والنصرانية دينان متضادان متناقضان ، فالمثْبَت في الأول منفيٌّ في الثاني ، والمنفيُّ في الأول مُثْبَت في الثاني . وهذه الأوهام المتصادمة لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد ، فكلُّ إنسان يدين بِدِين واحد فقط ، وليس " خَلْطة " عقائد متضاربة .

وعلى المرء أن يَجعل رضا الله أكبر همِّه ، ولا يلتفت إلى رضا الناس أو سخطهم . فالمؤمنُ يتحرك وفق الشريعة الإلهية ، وليس وفق أمزجة الناس وأحكامهم القاصرة . ومَن رَسم حياته وفق أحكام الآخرين فلا بد أن يَسقط في فخ التناقض والتشويش بسبب اختلاف الناس ، وتفاوت عقولهم وقدراتهم . أمَّا مَن رَسم مسارَه الحياتي حَسْبَ تعاليم الوحي (القرآن والسُّنة) فسوف يصل إلى الحق بلا تشويش ، وسيكون يكون معصوماً من الوقوع في متاهات الضلال والتضارب.

وفي الآية السابقة دليلٌ على أن الكفر مِلَّةٌ واحدة لأن الله تعالى ذكر المِلة بالمفرَد: ﴿ مِلَّتهم﴾، مع أن اليهود والنصارى فريقان . وهذه القضية غاية في الأهمية . فالكفرُ كله مجالٌ واحد لأنه ظلمات متشعبة تدور في حلقة مفرغة ، ومحصورة في الوهم والأبعاد الخرافية . وكلُّ الأديان سوى الإسلام هي أديان أرضية وَضْعية لا تاريخ لها غير الأساطير .

ومَن تفكر في الظلمات وَجد أنها ذات مرجعيات مختلفة ، ونقطة تجميع واحدة ، أي إنها تنطلق من نقاط بداية متباينة ، لكنها تنتهي إلى نقطة واحدة . لذلك كانت الظلمات سياقاً واحداً مهما اختلفت الأسماء والأشكال . فالكفرُ هو وجهٌ دميم واحد تتعدد أقنعته . وعلى الرغم من تعدد هذه الأقنعة سيظل الوجهُ واحداً ومعروفاً لدى الجميع . والشمسُ لا يمكن تغطيتها بغربال . والباطل مهما علا ضجيجه سيظل صراخاً في وادٍ ، وجعجعة بلا طحن . وما ضجيجُه إلا محاولة يائسة لإخفاء ضعفه الفكري ، وغياب المرجعية المتماسكة ، واختفاء المنهج العلمي .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٥٦٥) : ((وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً ، فدع طلبَ ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك اللهُ به من الحق ، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة

والدِّين القيِّم ، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية ، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك إلا أن تكون يهودياً نصرانياً ، وذلك مما لا يكون منك أبداً لأنك شخص واحد ، ولن يجتمع فيك دِينان متضادان في حال واحدة)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (١/ ٢٧٢) : ((عن ابن عباس أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يُصَلِّيَ النبي ﷺ إلى قِبلتهم ، فلمَّا صرف اللهُ القِبلةَ إلى الكعبة شَقَّ ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم،فأنزل اللهُ: ﴿ ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى ﴾ الآية)).

إن اليهود والنصارى يتحركون بدافع الأهواء المتضاربة ، والتحايل على الحقيقة ، والالتفاف على الحق . وهُم يَنظرون إلى أنفسهم على أنهم صفوة الله من الخلق ، ويعتقدون أنهم على الحق المطْلق ، وغيرهم على الباطل المطْلق . وهذه الأوهام نابعة من ثقافة " احتكار الحقيقة " المستقاة من التوراة والإنجيل اللذين أصابهما التحريف .

كما أن اليهود والنصارى ينطلقون من موقف استعلائي رافض للحق ، ويَنظرون إلى الآخرين على أنهم أتباع وعوام . فهُم يَعتبرون أنفسهم الأصلَ ، وغيرَهم الفرع أو الصورة . وهكذا يتجلى البعدُ الأسطوري عند أهل الكتاب . وللأسف فإن أوهامهم مصبوغة بالدِّين ، وأهواءهم مختلطة بالعقائد. وهذا يجعلهم غارقين في ضلالهم ، غير مستعدين نفسياً لتقبل الحق ، أو احتضان الحقيقة ، والناسُ أعداءُ ما يَجهلون .

٦ـ حُججهم الواهية :

قال الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تُحاجون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ﴾ [آل عمران : ٦٥] .

وفي هذه الآية إفحامٌ لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) الذين زعموا أن إبراهيم ﷺ كان على دينهم . فاليهودُ قالوا إن إبراهيم كان يهودياً ، والنصارى قالوا إنه كان نصرانياً . وقد كَذَّبهم اللهُ تعالى ودحض زعمَهم . فالتوراةُ والإنجيلُ أُنزلا بعد إبراهيم ﷺ بمدة طويلة جداً ، فكيف كيف على دِينهم وقد ظهر قبلهم بقرون ؟ . وهذه الْحُجَّةُ القرآنية الباهرة تفضح جهلَ أهل الكتاب ، وتُبرز أن كلامهم نابع من الأهواء المتضاربة ، ويفتقد إلى المنهج العلمي المتوازن والحججِ السليمة ، وكلُّ كلامٍ لا دليل عليه فهو كلامٌ ساقط لا تقوم له قائمة . فالحجَّةُ لا تقوم بالصراخ أو الخطب الرنانة ، وإنما تقوم بالبراهين والأدلة الساطعة المتوافقة مع النقل والعقل .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٠٢) : ((وكان حِجاجهم فيه : ادعاء كل فريق من أهل هذين الكتابين أنه كان منهم ، وأنه كان يدين دينَ أهل نحلته ، فعابهم اللهُ _ عز وجل _ بادعائهم ذلك ودل على مناقضتهم ودعواهم، فقال: وكيف تدعون أنه كان على ملتكم ودينكم ، ودينكم إما يهودية أو نصرانية ، واليهودي منكم يزعم أن دينه إقامة التوراة والعمل بما فيها ، والنصراني منكم يزعم أن دينه إقامة الإنجيل وما فيه ، وهذان كتابان لم ينزلا إلا بعد حين من مهلك إبراهيم ووفاته ؟ ، فكيف يكون منكم ؟ ، وما وجه اختصامكم فيه وادعاؤكم أنه منكم ، والأمر فيه على ما قد علمتم ؟)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٢٣٥): [أخرج ابن إسحق وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : ((اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً . فأنزل اللهُ فيهم: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تُحاجون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾ _ الآية _))] .

وهكذا نرى أن القرآنَ الكريم يخاطب العقلَ الإنساني بما يَعلم ، فلم يجيء الخطابُ القرآني بعيداً عن الواقع أو الموضوع ، ولم يجيء مخاطباً الإنسان بما هو فوق قدرته . فالْحُجَّةُ القرآنية واضحة ، فلا يوجد فيها تزويق فلسفي هلامي ، ولا هروب من الموضوع .

فأهلُ الكتاب الذين يزعمون انتماءَ إبراهيم ﷺ إليهم تم بيان باطلهم بأسلوب واضح يدركه العقلُ البشري . فإبراهيم ﷺ ظهر قبل اليهود والنصارى ، وبالتالي فلا يمكن أن يكون يهودياً أو نصرانياً، فقد كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين. وهذا الخطابُ القرآني الذي دحض شبهاتِ الخصوم يدل على إعجاز القرآن لفظاً ومعنى ، ويدل على عظمة الله تعالى مُنْزِلِ القرآن الذي يَغلب ولا يُغلَب .

وفي هذا السياق ينبغي الانتباه إلى أزمنة ظهور الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ ، فهم لم يظهروا في فترة واحدة ، بل كان يتبع بعضُهم بعضاً ، لكنهم جميعاً سائرون على منهاج واحد ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٧٤٩) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان بين آدم ونوح ألف سنة ، وبين نوح وإبراهيم ألف سنة ، وبين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى أربعمائة سنة ، وبين عيسى ومحمد ستمائة سنة)) اهـ .

إن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ قادةُ البشرية . وما وجودُهم إلا دليل باهر على رحمة الله بعباده . فاللهُ تعالى أرسل أنبياءه ليخرجوا الناسَ من الظلمات إلى النور ، وبالتالي تقام الحجَّةُ على الناس ، وعندئذ لا يصبح لأي إنسان عُذر في الكفر أو رفض الدعوة .

واللهُ تعالى قادر على وضع الخلائق في الجنة أو النار مباشرةً بدون إرسال أنبياء ، ولا أحد يَملك الاعتراضَ على القرار الإلهي. ولكن الرحمة الإلهية وَسعت كلَّ شيء، واللهُ تعالى أرحم بالعباد من أمهاتهم ، ولم يَخلقهم ليُعذِّبهم . أمَّا مَن اختار طريق الكفر والعذاب فعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره ، وقد ساعده اللهُ تعالى على سلوك طريق الحق ، وأرشده إلى الصراط المستقيم ، لكنه أبى أن يسلكه ، فلا يلومنَّ إلا نَفْسه .

***

ثانياً : بنو إسرائيل

١_ أوامر الله إليهم :

قال الله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم وإيايَ فارهبون ﴾[البقرة : ٤٠] .

فاللهُ تعالى يأمر بني إسرائيل أن يذكروا نعمته عليهم ، فيتفكروا فيها ، ويقوموا بشكرها . والنعمُ الإلهية لا يمكن إحصاؤها ، فقد منَّ اللهُ عليهم بأن اختار منهم أنبياء ، ونجَّاهم من فرعون والغرقِ ، وعفا عن اتخاذ العجل إلهاً من دونه تعالى .

وقد نسبهم اللهُ تعالى إلى إسرائيل (يعقوب ﷺ) لكي يُذكِّرهم بانتمائهم إليه ، وهو النبي الطاهر ، فعليهم أن يقتفوا أثرَه ، ويسيروا على نهجه ، فهو أبوهم الصالح . وهذا التذكير من شأنه أن يُحفِّز همتهم نحو العمل حينما يتذكرون أن أباهم كان في قمة الصلاح ، كما تقول لشخص : يا ابن الرَّجل الشريف الكريم قم بعملك ، فهذه العبارة ستكون دافعاً له على العمل ، واقتفاء آثار من سبقوه ، وتذكيراً له بأصله الكريم .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢١) : ((يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، ومتابعة محمد _ عليه من الله أفضل الصلاة والسلام _، ومُهَيِّجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب _ عليه السلام _ وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق)) اهـ .

وهذا الأسلوبُ القرآني السامي يعمل على تحفيز الناس ، ودفعهم في طريق العمل الدؤوب ، ورفع مستوى الجهود البشرية من أجل بث الإيمان في النفوس ، ونشر العمل الصالح ، وتفعيل دور العقل في تغيير الواقع نحو الأفضل .

والإنسانُ عندما يتذكر أصلَه الرفيع ، وتَجول في خاطره أعمال آبائه الكِرام ، سوف يندفع باتجاه التشبه بهم ، وتقليد أعمالهم الصالحة .

والجدير بالذِّكر أن الإنسان يحب الافتخار بآبائه لأنهم المرجعية التي تنبثق منها شرعيةُ وجوده في هذه الحياة ، وتواجده على خارطة البنية الإنسانية للمجتمع . وصدق القائلُ :

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ قال : ((كان الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة : نوح ، وصالح ، وهود ، ولوط ، وشعيب ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب، ومحمد _ عليهم الصلاة و السلام _ ، و لم يكن من الأنبياء من له اسمان إلا إسرائيل وعيسى ، فإسرائيل يعقوب ، وعيسى المسيح))(4) .

فهذا الحديثُ يشير إلى أن غالبية الأنبياء كانوا من بني إسرائيل ، وهذه نعمة إلهية كُبرى ، كما تدل على قسوة طباع بني إسرائيل الذين احتاجوا إلى هذا العدد الكبير من الأنبياء لغاية التوجيه والإرشاد والهداية . كما يدل على أن يعقوب اسم آخر لإسرائيل ، والمسيح اسم آخر لعيسى .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٨٦) : ((ونعمته التي أنعم بها على بني إسرائيل _ جل ذِكْره_ اصطفاؤه منهم الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب ، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه إلى التمكين لهم في الأرض ، وتفجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المن والسلوى)) اهـ .

وكل هذه النعم وغيرها تشير إلى عظمة الرحمة الإلهية . ولو أراد اللهُ تعالى أن يحاسب العبادَ بما اكتسبوه لأحرقهم نتيجة أفعالهم الشريرة ، ولكنه هو العَفُو الرحيم الذي يقبل التوبةَ ، ويعفو عن السيئات . فاللهُ تعالى هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، أما العبادُ فهم كومة آثام غاطسة في النعم الإلهية غير المحدودة .

وقد أُمروا بأن يلتزموا بالعهد الإلهي المقدَّس ، وهو تطبيق أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ، وعهدُه _ تعالى _ أن يدخلهم الجنة . كما أُمروا بالخوف من الله تعالى ، والرهبة منه . وهذا الالتزامُ من شأنه أن ينقلهم إلى الشرف الدنيوي ، والمجد الأُخروي .

وفي الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٥٤) : [وأخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ ، قال : ((للأحبار من اليهود ، ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم ﴾ أي آلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجَّاهم به من فرعون وقومه ، ﴿ أوفوا بعهدي ﴾ الذي أخذتُ بأعناقكم للنبي ﷺ إذ جاءكم ، ﴿ أُوفِ بعهدكم ﴾ أُنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقكم معه وأتباعه ، بوضع ما كان عليهم من الإصر والأغلال ، ﴿ وإيايَ فارهبون ﴾ أن أُنزل بكم ما أنزلتُ بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات))] .

---

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٠٥) برقم (٣٤١٥) وصححه ، ووافقه الذهبي .

إن بني إسرائيل فيهم الحاكم والمحكوم، والعالِم والجاهل. وعلماؤهم هُم الأحبار الذين يَفهمون النصوص الدينية ، وينشرونها بين الناس بعد شرحها وتفسيرها . والإنسانُ العادي لا يَقدر على استيعاب النصوص الدينية بشكل كامل ، فهذه العملية بحاجة إلى منهج علمي ، ومَلَكَات فكرية لا تتوفر إلا لدى العلماء بسبب دراساتهم الواسعة ، وتبحرهم في مجال العلوم الدينية ، وقضاء أعمارهم في الدراسة والتدريس . وهذه الخصائص غير متوفرة عند السواد الأعظم من الناس ، بسبب غرقهم في الحياة المادية الاستهلاكية المحصورة .

لذلك كان العلماءُ هم ورثة الأنبياء ، أي إنهم يسيرون على خطى الأنبياء ، ويَحملون دعوتهم إلى الناس ، ويُبلِّغونها دون زيادة أو نقصان . وإذا فَسد العلماء فَسد الناسُ . فالعلماءُ هُم الرأس ، وإذا زال الرأسُ من الجسد، مات الجسدُ . كما أن العلماء هم الدواء لكل المشكلات والأمراض ، وإذا فسد الدواءُ فسوف تعم الأمراض بشكل كارثي ، ولن يتصدى لها أحد . لذلك فإن فساد العالِم هو فساد العالَم .

واللهُ تعالى يُذكِّرهم بنعمه الجليلة التي أسبغها عليهم وعلى آبائهم ، وهذا التذكير من شأنه بعث التقوى في النفوس الطاهرة ، ومساعدة الإنسان على التفكير والتأمل والتروي في اتخاذ القرارات المصيرية . فقد نجَّاهم من فرعون الطاغية الذي أَهلك الحرثَ والنسلَ ، وحفظَ أنفسهم من القتل . ولا يوجد أكبر من حفظ النَّفْس وتجنيبها الهلاك . ومَن أدرك النعمَ الإلهية العظيمة التي يراها بأم عينيه ، فلا بد له أن يقوم بواجب شُكر الله تعالى ، قولاً وفعلاً . وبالشُّكر تدوم النعم . والشُّكر لا يكون باللسان فقط ، بل أيضاً بجميع الجوارح .

والمطلوبُ هو الإيفاء بالعهد (وهو أحد أشكال شُكر الله تعالى) . أي اتباع محمد ﷺ خاتَم الأنبياء ، واللبنة الأخيرة في البناء النبوي المتماسك الذي شَيَّده اللهُ تعالى على كوكب الأرض ليكون منارةً للحائرين، ودليلاً للتائهين، وإنقاذاً للبشرية، وتخليصاً له من مأزقها الوجودي الحرج .

وإذا التزموا بالعهد الإلهي المقدَّس ، فإن الله تعالى سيكافئهم ، ويُوفِي بعهدهم ، أي إن الله تعالى سينجز لهم ما وعدهم بتصديقهم معه وأتباعه، بوضع ما عليهم من الأحمال الثقيلة، والتكاليف الشديدة (الإصر والأغلال) التي كانت لهم عقوبةً بسبب جهلهم ، وعنادهم ، وعدم امتثالهم للأوامر الإلهية .

ويأتي الترهيب بعد الترغيب . ﴿ وإيايَ فارهبون ﴾ . فعليهم أن يتذكروا ما نَزل بآبائهم من نقمات ومحن ومصائب ، وعليهم أن يتعظوا بما جرى لهم ، ولا يكرروا نفسَ أخطاء من سبقوهم .

وقال الله تعالى : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[البقرة : ٦٣] .

وجاء الأمرُ الإلهي لبني إسرائيل بأخذ التوراة بجِد وإخلاص دون تقاعس أو كسل، والعمل بما فيها، والالتزام بالتعاليم الإلهية الجليلة سواءٌ كانت أمراً بطاعة أو اجتناباً لمعصية. فلا يمكن للإنسان أن يمشيَ على هواه ، لأنه كائن خاضع لصانعه تعالى . والصانعُ هو الذي يضع الشروط على المصنوع . فالتوراةُ (وكل الكتب السماوية) لم تجيء لتوضع على الرفوف أو القراءة لنيل البركة فقط . فالكتبُ السماوية _ بما فيها التوراة الأصلية غير المحرَّفة _ هي الدستور الإلهي الشامل الكامل ، الذي لا يَعتريه نقصٌ أو تناقض .

وهذا الدستورُ جاء من السماء منحةً ربانية لإنقاذ البشرية ، ورسم خط سيرها إلى السعادة الدنيوية ، والنعيم الأُخروي . وواضعُ هذا الدستور الكامل هو الله الكامل. ولا يَصدر عن الكامل إلا الكامل . أمَّا الدساتير الوضعية فيضعها رجال قانون قاصرون يطرأ عليهم الخطأ والنسيان والتناقض بسبب عدم عصمتهم . كما أنهم قد يَسقطون في سوء النية، وخبث المقصد ، أو يتعرضون لضغوط من هنا وهناك للتلاعب بنصوص الدستور ، أو كتابتها بما يخدم فئة دون أخرى .

وهذا لا يمكن أن يكون في الدساتير السماوية (الكتب السماوية) لأن الله تعالى مُنَزَّه عن العبث والخطأ والنسيان ، ولا يمكن أن يخضع لأية قوة . فاللهُ تعالى هو الخالق العظيم العزيز ، وكلُّ ما سواه مخلوق ذليل خاضع .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٩٣) : ((وفي المراد بالقوة أربعة أقوال ، أحدها : الجِد والاجتهاد ، قاله ابن عباس وقتادة والسدي ، والثاني : الطاعة ، قاله أبوالعالية ، والثالث : العمل بما فيه ، قاله مجاهد ، والرابع : الصدق ، قاله ابن زيد)) اهـ .

ونحن نجد أن هذه المعاني متضافرة ، وكتلة واحدة متماسكة . فالقوةُ لها أشكالٌ متعددة ، وصورٌ مختلفة. فالاجتهاد أحد أشكال القوة لأنه ينبعث من قوة الإرادة الإنسانية ، والثقة بالنفس ، وانطلاق الجسد نحو الخير. والطاعةُ هي قوة ، لأن الطائع ينتصر على شهواته الجامحة ، ويَقهر نفسَه الآمرة بالمنكر . والعملُ هو قوة لأنه تحويل الإرادة إلى تطبيق واقعي ملموس ، وتحويل الكلام إلى حياة محسوسة . والصدقُ هو قوة ، فالصادقُ متصالحٌ مع نفسه ، لا يستسلم لرغباتها ، وهو ينصاع للحق بغض النظر عن حسابات الربح والخسارة .

وقال الله تعالى : ﴿ وَقُولوا حِطَّةٌ نغفر لكم خَطاياكم ﴾ [البقرة : ٥٨] .

وهذا أمرٌ إلهي بأن يطلبوا من الله تعالى أن يحط عنهم آثامهم ، ويتضرعوا إليه مخلِصين بقلوب منكسرة . فهذا الانكسار أمام الله تعالى هو طريق غفران خطاياهم . فلا بد من الخضوع للخالق كخطوة أساسية في طريق نيل المغفرة. ولا يمكن الدخول في الرحمة الإلهية بدون الخضوع والانكسار والاستسلام لله تعالى . وينبغي تذكر أن الإسلام _ الذي هو الدِّين الوحيد المقبول عند الله تعالى ودِين جميع الأنبياء _ يعني الاستسلام والانصياع والخضوع لله تعالى .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١٠٧) : ((وذلك أنهم أصابوا خطيئةً بإبائهم على موسى عليه السلام دخول القرية _ أي بيت المقدس _ ، فأراد اللهُ تعالى أن يغفرها لهم فقال لهم : قولوا حِطة، أي : مسألتنا حِطة وهو أن تحط عنا ذنوبنا)) اهـ .

إن بني إسرائيل أصحاب قلوب صخرية شديدة القسوة. فهُم يعتمدون على العناد، والتحايل، ولوي أعناق النصوص . لذلك كَثُر الأنبياءُ فيهم من أجل إرشادهم ، وتوجيههم ، والأخذ بأيديهم إلى النُّور الإلهي . وحيث يكون الداءُ يَظهر الأطباءُ .

وقد رفضوا أمرَ موسى ﷺ القاضي بدخول بيت المقدس ، وأعاقوا سيرَ الدعوة الموسَوِيَّة الإسلامية . وقد أراد اللهُ تعالى أن يتجاوز عنهم رحمةً بهم ، فأرشدهم إلى طريق التوبة ، وذلك بأن يَطلبوا من الله تعالى أن يحط عنهم ذنوبهم ليعودوا أنقياء طاهرين .

ولكنهم رفضوا الأمر الإلهي، وأَقحموا السخريةَ والاستهزاء في كلامهم. وهذا يشير إلى قسوة قلوبهم ، ورفضهم للمنح الإلهية التي تجيء لمساعدتهم . فلم يقولوا : حِطة ، بل غيَّروا الكلامَ إمعاناً في الاستهزاء بأمر الله . فعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((قالوا : حبة في شعرة))[5] .

وفي هذا إشارةٌ بالغة إلى موقفهم المسبق الرافض للحق . فهم لم يَفتحوا قلوبَهم لتلقي الرحمة الإلهية ، لذلك عمدوا إلى السخرية والاستهزاء . ونحن نرى مقدارَ التلوث في قلوب بني إسرائيل. فلم يكتفوا بمخالفة أمر موسى ﷺ، بل خالفوا الأمرَ الإلهي، وسخروا منه. وهذا يدل على نظرة استعلائية ممزوجة بالغرور والعناد وسوء الأخلاق وخبث الضمائر .

٢_ نعمه عليهم :

(٥) متفق عليه. البخاري (٤ / ١٧٠١) برقم (٤٣٦٥)،ومسلم (٤/ ٢٣١٢)برقم (٣٠١٥).

قال الله تعالى : ﴿ وإذ نَجَّيناكم من آل فِرْعَوْن يسومونكم سوءَ العذاب يُذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾[البقرة : ٤٩] .

واللهُ تعالى يُعدِّد نعمَه الجليلة على بني إسرائيل. فقد نجَّاهم من آل فرعون، أي أنقذهم من قوم فرعون وحاشيته والموالين له وأهل دِينه ، فقد كانوا يُذيقونهم شتى صنوف العذاب ، يُذبِّحون أبناءهم ، ويُبقون النساء على قيد الحياة . واللهُ تعالى يُذكِّر بني إسرائيل بإنقاذهم من فرعون الذي نَصَّب نفسه عدواً لبني إسرائيل ، وقد عَذَّبهم أشد العذاب، ونكَّل بهم دون رحمة. واللهُ تعالى يمن عليهم بإنقاذهم من هذا الكرب الشديد، وجَعْلِهم أصحاباً لموسى ﷺ .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٣١) : ((يقول تعالى : اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، أي خَلَّصْتُكم منهم ، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى _ عليه السلام _ ، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب . وذلك أن فرعون _ لعنه الله _ كان قد رأى رؤيا هالته ، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل ، مضمونها أن زوال مُلكه يكون على يدي رَجل من بني إسرائيل ، ويُقال بعد تحدث سُمَّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رَجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة ... فعند ذلك أمر فرعون _ لعنه الله _ بقتل كل ذَكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وأن تُترَك البنات ، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها)) اهـ .

إن الطغاةَ المتمسكين بكرسي الحُكم بالأظافر والأسنان ، هُم مرضى نفسيون غارقون في العُقد النفسية والاجتماعية، ومصابون بجنون العَظَمة، والوساوس التي لا تنتهي . فهُم يَنظرون إلى الجميع على أنهم تهديد محتمَل لنظام حُكمهم ، وبالتالي يصبحون من حيث لا يَشعرون عبيداً للكرسي ، وخُدَّاماً له بدلاً من أن يكون خادماً لهم .

والطاغية فرعون من هذا الصنف.فمن فرط تمسكه بالكرسي صار مرعوباً من أي تهديد، سواءٌ كان حقيقياً أو وهمياً . وها نحن نراه متعلقاً بالأحلام والرؤى ، مع أنها لا تَثْبت بها الأحكامُ . فما يراه الإنسانُ في منامه قد يَصْدق وقد لا يَصْدق . ولكن فرعون جعل ما رآه في المنام شرعاً لازماً واجبَ النفاذ، واعتبره حقيقةً لا مراء فيها، وبدأ بترتيب أحكام واقعية مستندة إلى ما رآه في منامه.

وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على خوفه الشديد ، وشدة حرصه على كرسي الحُكم . فأمرَ _ لعنه اللهُ _ بقتل كل مولود ذَكر يُولَد من بني إسرائيل ، وذلك من أجل ضمان اختفاء

الرجال من بني إسرائيل، فلا أحد يَسْلبه الكرسيَّ كما أمر بترك البنات لأنه اعتبرهنَّ غير خطيرات ولا يُشكِّلنَ أيَّ تهديد . وأمرَ باستعمال بني إسرائيل في الأعمال الشاقة التي تتطلب جهداً كبيراً ، وذلك من أجل كسرهم وإخضاعهم . ومن أجل أن تصبح لقمةُ العيش وكيفية تحصيلها هي همَّهم الشاغل، فلا يَنشغلون بالقضايا السياسية والاجتماعية . وهذه هي سياسةُ الطغاة على مر العصور .

وقال الله تعالى : ﴿ وأنِّي فضَّلتكم على العالَمين ﴾[البقرة : ٤٧] .

فاللهُ تعالى فضَّل بني إسرائيل على العالَمين بما أُعطوا من الرُّسل والكتب والْمُلْك . وهذا التفضيلُ مع أنه في حق الآباء فإنه شرفٌ ورِفعة للأبناء. لكنهم لم يُقدِّروا هذه النعمة الإلهية العظيمة، ولم يعرفوا قيمةَ كُتبهم، ومكانة أنبيائهم . وكلُّ من يعجز عن شكر النعمة فإنه سيفقدها ، فالشُّكر هو الطريقة المثلى لتحصين النعم وحمايتها من الزوال .

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٤١٩) عن التفضيل : ((يريد على عالمي زمانهم ، وأهلُ كل زمان عالَم . وقيل : على كل العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء ، وهذا خاصة لهم ، وليست لغيرهم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم مُلوكاً ﴾[المائدة : ٢٠] .

واللهُ تعالى جعل في بني إسرائيل الأنبياء لإرشادهم والأخذ بأيديهم إلى خالقهم تعالى . وأكثر أُمَّة في تاريخ البشرية ظهر فيها أنبياء هم بنو إسرائيل . وقد جعلهم اللهُ تعالى ملوكاً بعدما كانوا خَدماً لفرعون وعبيداً له ذوي مكانة وضيعة لا يُعبأ بهم . فماذا يريد بنو إسرائيل أكثر من النُّبوة والْمُلْك ؟! .

وما يشير إلى كثرة أنبياء بني إسرائيل ، الحديث المتفق عليه عند البخاري (٣/ ١٢٧٣) ومسلم (٣/ ١٤٧١) أن النبي ﷺ قال : ((كانت بنو إسرائيل تَسوسهم الأنبياء ، كلما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ)) .

وهذا الأمرُ لم يكن بمحض الصدفة ، فكثرةُ الأنبياء وتتابعهم يشير إلى كثرة الأمراض والمعاصي في بني إسرائيل ، فحيثما توجد الأوبئةُ يكثر الأطباء . فهذا العدد الهائل من الأنبياء يعكس غرق بني إسرائيل في مستنقع الفساد والرذيلة حتى شحمة الأُذن ، الأمر الذي يستدعي وجود المرشِدين والقادة لانتشال الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ١١٩) : ((﴿ وجعلكم مُلوكاً ﴾ أي تملكون أمركم ، لا يغلبكم عليه غالب ، بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين ، فأنقذكم منه بالغرق ، فهم ملوك بهذا الوجه)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: في قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ جعل فيكم أنبياء ﴾ قال : ((جعل منكم أنبياء)) ، ﴿ وجعلكم مُلوكاً ﴾ قال : ((المرأة والخادم)) (6) .

فوجودُ الزوجة التي تصنع الأُسرةَ مع توفر خادم يقوم بالواجبات الموكولة إليه يجعل من الإنسان مَلِكاً، فهذا يعكس حياة الرفاهية بلا مُنغِّصات . فمفهومُ "الْمَلِك" لا يمكن حصره في رأس النظام السياسي، بل معناه يشتمل على أبعاد كثيرة .

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٢٨٥) : أن رَجلاً سأل عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ ، فقال له عبد الله : ((ألك امرأة تأوي إليها ؟)) ، قال : نعم ، قال : ((ألك مسكن تسكنه ؟)) ، قال : نعم ، قال : ((فأنت من الأغنياء)) ، قال : فإن لي خادماً ، قال : ((فأنت من الملوك)) .

فعلى المرء أن ينظر إلى ما وراء الأمور ، فكثيرٌ من الناس لا يعرفون حجمَ النعم التي يغرقون فيها . فوجودُ زوجة ومسكن يجعل المرءَ في قائمة الأغنياء ، وإن أضفتَ إليهم خادماً ، فهذا يجعله مَلِكاً . ومن نظر في هذه النعم العظيمة سيجد أنها شاملة للمتع الحياتية التي يطمح إليها الناس . ولكنَّ الإنسان دائم الشكوى ، يَنظر إلى النصف الفارغ من الكأس . فهو ينسى النعمَ العظيمة التي تحيطه من كل الجوانب ، ويتذكر مصيبة واحدة أَلَمَّت به . وهذا يتنافى مع حقيقة الإيمان ، ويعارض شخصيةَ المسْلم المتوازنة .

فالمسْلمُ يتحرك بين الشُّكر والصَّبر. فهو يشكر عند السراء، ويصبر عند الضراء . أمَّا الطمعُ ، وعدم القناعة ، والنظر إلى ما في أيدي الآخرين ، فهذه صفات تتعارض بالكلية مع الإسلام . وللأسف فإن الطمع متأصل في النفس البشرية ، ولا يَنجو منه إلا من طَهَّره اللهُ تعالى .

وفي الحديث المتفق عليه . البخاري (٥/ ٢٣٦٤) ومسلم (٢/ ٧٢٥) : عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : ((لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ، ولا يملأ جوفَ ابنِ آدم إلا الترابُ ، ويتوب اللهُ على مَن تاب)) .

---

(٦) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤١) برقم (٣٢١٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

فالإنسانُ لا يَشبع ولا يَقنع ، فهو في لهاث دائم نحو المزيد . ولا ينقضي طمعُه إلا بموته ، حيث يُصَبُّ فوقه التراب فيملأ جوارحَه . وتكون نهايةُ حياته هي نهاية طمعه ولهاثه وراء حطام الدنيا. وفي هذا دلالةٌ واضحة على ذم الحرص على الدنيا ، واللهاثِ الهستيري وراء متاعها الزائل، وتحصيله بشتى الوسائل . وعن عبيد الله بن محصن قال: قال رسول الله ﷺ : ((مَن أصبح منكم آمناً في سِربه ، مُعافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حِيزت له الدنيا))[7] .

فمن أصبح آمناً في نفسه لا يشعر بالخوف ولا التهديد على حياته من أية جهة ، ويتمتع بصحة جيدة ، وجسدُه سليمٌ من الأمراض والعلل ، وعنده قوت يومه الذي يكفيه ، فكأنما جُمعت له الدنيا من كل أطرافها . والمعنى أنه في نعيم عظيم ولا ينقصه شيء . وصدق القائلُ :

إذا القوتُ يأتي لكَ والصحةُ والأمنُ   وأصبحتَ أخا حزن فلا فارقكَ الحزنُ

فإذا توفر لدى الإنسان القوت ، وامتلك الصحة ، وعاش في أمنٍ ، فقد اجتمعت عنده عناصر السعادة الدنيوية . فلا مجال للحزن أو الشقاء ، فهو غارق في نعمٍ إلهية عظيمة لا يَعرفها إلا مَن فَقدها ، أو فَقد واحدةً منها .

وقال الله تعالى : ﴿ ونزَّلنا عليكم المن والسَّلوى ﴾[طه : ٨٠] .

وهذه النعمة الكبرى تتمثل في تنزيل المن (وهو يشبه العسل) والسلوى (من أجود الطيور لحماً) على بني إسرائيل في أيام التيه . فاللهُ تعالى لم يترك بني إسرائيل للهلاك والضياع والموت جوعاً ، بل أنعم عليهم بالمن والسلوى تفضلاً منه _ سبحانه _ ورحمة بهم .

فاللهُ تعالى أرحم بالعباد من أمهاتهم ، يفتح لهم أبوابَ الخير والنعيم والسعادة على الرغم من تقصير الناس وعجزهم عن شكر الله تعالى الذي هو أهل التقوى وأهل المغفرة . ولو أراد الخالقُ سبحانه أن يعامل الناس بما هم أهلُه لجعل حياتهم جحيماً لا يُطاق .

وفي الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٧١) : ((عن ابن عباس قال : كان المن ينزل عليهم بالليل على الأشجار ، فيغذون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا ، والسلوى طائر شبيه بالسماني كانوا يأكلون منه ما شاؤوا)) اهـ .

---

(٧) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٧٤) برقم (٢٣٤٦) وحسَّنه . وصححه الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٤٢) . وقال ابن عبد البَر في الاستيعاب (١/ ٣١١) : ((منهم من جعل هذا الحديث مرسلاً ، وأكثرهم يُصحِّح صحبة عبيد الله بن محصن هذا ، فجعله مسنداً)) .

٣_ قضاؤه إليهم :

قال الله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مرَّتَيْن ولتَعْلُنَّ عُلُوَّاً كبيراً ﴾[الإسراء : ٤][8] .

إن معنى القضاء في الآية لا يعني الإجبارَ أو سلبَ إرادة الإنسان . بل يحمل معنى الإعلام والإخبار . فاللهُ تعالى أخبر بني إسرائيل بأنهم سَيُفْسِدون .

وقطعاً بنو إسرائيل يتحملون المسؤولية كاملةً ، لأنهم يَمتلكون الإرادةَ والقدرة على فعل الخير أو الشر ، وقد اختاروا طريقَ الشر . وعِلْمُ الله تعالى عِلْمُ إحاطةٍ بما كان ويكون وسيكون، وليس عِلمَ إجبارٍ أو قهرٍ للإرادة الإنسانية وسلبها. وقال البغوي في تفسيره (١/ ٦٧) : ((أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتب أنهم سيُفسِدون)) اهـ .

فاللهُ تعالى لم يُجبِر أحداً على الإفساد ، لكن بني إسرائيل ساروا في طريق الغواية والإفساد ، وذلك لضعف إيمانهم ، وابتعادهم عن طريق الحق ، وعدم التزامهم بتعاليم أنبيائهم . فقد اعتنقوا الإفسادَ شريعة لهم سعياً وراء المتعة الدنيوية الآنية. الأمر الذي قادهم إلى تغيير الحقائق ، والالتفاف على الحق . وقال الحافظ في الفتح (١/ ١٧٤) : ((ويأتي القضاء على وجوه بمعنى الأمر والحكم والخَلق ... ويأتي القضاء بمعنى الأجر والوفاء ، ... ، وبمعنى صنع ، ... ، وبمعنى الإتمام ، ... ، وبمعنى الإحصاء والتقدير وبمعنى الإعلام)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٢٣٩) : [وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ في قوله : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مرَّتَيْن ﴾ قال : ((الأولى قتل زكريا _عليه الصلاة والسلام _ ، والأخرى قتل يحيى _ عليه السلام _)) . وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية العوفي _ رضي الله عنه _ في قوله : ﴿ لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مرَّتَيْن ﴾ قال : ((أفسَدوا في

---

(٨) روى الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٩٢) وصححه ووافقه الذهبي [عن طاوس قال : كنت عند ابن عباس _ رضي الله عنهما _ ومعنا رَجل من القدرية ، فقلت : إن أناساً يقولون لا قَدَر ، قال : ((أَوَ في القوم أحد منهم ؟)) ، قلت : لو كان ما كنت تصنع به ؟ ، قال : ((لو كان فيهم أحد منهم لأخذتُ برأسه ثم قرأتُ عليه آية كذا وكذا : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مرَّتَيْن ولتَعْلُنَّ عُلُوَّاً كبيراً ﴾] .

المرة الأولى فبعث اللهُ عليهم جالوت فقتلهم ، وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا _ عليهما السلام _ فبعث اللهُ عليهم بختنصر))] .

إن بني إسرائيل مشهورون بقتل الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ . وهذه ليست تهمةً عابرة ، أو كلاماً حاقداً ، أو تشويهاً لسُمعتهم وصورتهم . فالنصوص الدينية والتاريخية متضافرة في هذا المجال ، ولا يمكن إخفاؤها، أو التحايل عليها. والجميعُ يَعلم أن زكريا ويحيى _ عليهما الصلاة والسلام _ كانا من أنبياء بني إسرائيل ، وقد قُتلا بكل خِسَّة ودناءة .

ولا يمكن أن تمر قضية قتل الأنبياء مروراً عابراً. فالنبيُّ ليس شخصاً عادياً. إنه إنسان يتلقى خبرَ السماء، ويَهبط عليه الوحي، ويُبلِّغ الأوامرَ الإلهية بكل أمانة وصدق، وهو معصوم. وتكذيبُ النبي تكذيبٌ لمن أرسله ، وقتلُ النبي رفضٌ لأوامر الله تعالى . لذلك كان قتلُ النبي كُفراً مُخرِجاً من الإسلام ، ومقترف هذه الفِعلة خالد في جهنم .

وفساد بني إسرائيل وإفسادهم ارتد عليهم سلباً ، وقد عُوقبوا جزاء أفعالهم السيئة . وهذا الانحراف الروحي والمادي كان نتيجةً حتمية لغياب منهج التفكير في عقول بني إسرائيل ، فهم يتخندقون في اللحظة الآنية دون أن ينظروا إلى عواقب الأمور ، وهذا قادهم إلى السقوط المريع في أوحال الخطيئة ودفع الثمن غالياً .

أما قوله تعالى: ﴿ ولتَعْلُنَّ عُلُوَّاً كبيراً ﴾ فيشير إلى قسوة طباع بني إسرائيل وتماديهم في الطغيان حيث الاستكبار على طاعة الله تعالى ، وظلم الناس والاستعلاء عليهم بالباطل . وقال الطبري في تفسيره (٨/ ١٩) : ((ولتستكبرن على الله باجترائكم عليه استكباراً شديداً)) .

٤_ معاندتهم وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء :

قال الله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُم اسْتَكْبَرْتُم فَفَرِيقَاً كَذَّبْتُم وَفَرِيقَاً تَقْتُلُون ﴾ [البقرة : ٨٧] .

إن بني إسرائيل غارقون في اتباع أهوائهم ، فحينما يأتيهم رسولٌ بما يخالف ميولَهم الفاسدة فإنهم يستكبرون أن يتبعوه ، ويرفضون إرشادَه . وهم يعتمدون على تكذيب الأنبياء وقتلهم ، اعتقاداً منهم أنهم بذلك يُطفئون نورَ الدعوة ، ويحافظون على فوضى حياتهم الغارقة في الخطايا ، ويقومون بما يحلو لهم دون نكير أو مساءلة. فهم يَنطلقون من موقف مبدئي رافض للحق، ويسعون بكل الوسائل للتحايل على القيم النبيلة ومحاولة طمسها .

قال القرطبي في تفسيره (٢/ ٢٦) : ((﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُم ﴾

أي بما لا يوافقها ويلائمها ، وحُذفت الهاء لطول الاسم ، أي بما لا تهواه . ﴿ اسْتَكْبَرْتُم ﴾ عن إجابته احتقاراً للرسل واستبعاداً للرسالة ، وأصل الهوى الميل إلى الشيء)) اهـ .

وقد قاموا بتكذيب عيسى ومحمد _عليهما السلام _ ، وقاموا بقتل يحيى وزكريا_ عليهما السلام _ . وهذا يشير إلى الطبيعة الإجرامية ، والتمادي في الظلم والاعتداء دون وجود وازع ديني أو رادع أخلاقي . وهذا السلوكُ الذي صار علامةً مميزة لبني إسرائيل يدل على البيئة الفكرية الموبوءة التي يعيش بها هؤلاء القوم دون الاستفادة من تعاليم الأنبياء .

والجدير بالذِّكر أن ﴿ تَقْتُلُون ﴾ جاءت بالمضارع للدلالة على استمرار الحالة في المستقبل ومحاولة قتل النبي ﷺ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٥٧) : ((وإنما ذُكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس ، فإن الأمر فظيع ، أو مراعاة للفواصل ، أو للدلالة على أنكم بعد فيه ، فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم ، ولذلك سحرتموه وسمَّمتم له الشاة)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٥/ ٢١٧٨) أن النبي ﷺ قال لليهود : ((هل جعلتم في هذه الشاة سُمَّاً ؟)) . فقالوا : نعم ، فقال : ((ما حملكم على ذلك ؟)) . فقالوا : أردنا إن كنتَ كذاباً نستريح منك ، وإن كنتَ نبياً لم يضرك .

إن اليهود _ طيلة وجودهم _ يَعتمدون على فكرة الاغتيال ، وذلك من أجل إخفاء الحق ، وطمسِ الحقيقة . فهُم يَفتقدون إلى الحجج الباهرة والأدلة المقنِعة ، فتراهم يلجأون إلى الحرب السرية البعيدة عن الأعين . وأبرزُ أشكال هذه الحرب الخفية هو الاغتيال بالسُّم . فهذه الطريقة المستترة تُحاك في الخفاء ، وتنفَّذ بصمتٍ وسرية دون إثارة أية شكوك . لذلك يُفضِّلها اليهودُ على غيرها من الطرق . وقد وَضعوا في الشاة سُمَّاً لعلمهم أن النبي ﷺ سَيُقْدِم على أكلها . وهكذا يتخلصون منه _ حسب رؤيتهم _ ، وتنتهي الدعوة المحمَّدية الإسلامية ، ويغيب النورُ الإلهي . وبالتالي يصبح اليهودُ سائرين على هواهم ، يَغرقون في الظلمات ، ويَسحبون الآخرين إليها دون تهديد من أحد ، فيحفظون مناصبهم ، ويحافظون على مكاسبهم المادية .

لكنَّ اللهَ تعالى ما كان ليترك محمداً ﷺ وحيداً في هذه الحرب القذرة ، فعصمه من الأذى ، وأعلمه بوجود السُّم . وقد اعترف اليهود علانيةً بوضع السُّم ، لكنهم قدَّموا تبريراً واهياً ومضحكاً لعملهم الدنيء . فقالوا : ((أردنا إن كنتَ كذاباً نستريح منك ، وإن كنتَ نبياً لم يضرك)) .

وهذا منتهى الغرور والاستعلاء والعنجهية . فقد كان بإمكانهم أن يعتذروا ، أو يَعترفوا بخطئهم ويطلبوا السماحَ والصفحَ . لكنهم تمادَوا في غيِّهم ، وأصروا على باطلهم .

والجديرُ بالذِّكر أن اليهود كانوا متأكدين من نبوَّة محمد ﷺ ، لذلك حاربوه بشتى الطرق . ولو كان كذاباً لتركوه وشأنه . وكلنا يَعلم أن مسيلمة الكذاب ادَّعى النبوة ، فلماذا لم يحاول اليهودُ اغتيالَه ليرتاحوا منه ؟! . إن اليهود يريدون طمسَ النور لا طمس الظلام .

وعن أنس أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها ، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك،فقالت: أردتُ لأقتلك،قال:((ما كان الله لِيُسَلِّطكِ على ذاك))[9] .

وفي هذا دلالةٌ واضحة على عِصمة النبي ﷺ ، فهو محفوظٌ بأمر الله تعالى من الناس . كما أن هذه الحادثة تدل على صدق نبوَّة محمد ﷺ ، فإن السُّم القاتل لم يؤثر فيه ، وأيضاً قد أعلمه اللهُ تعالى بوجود السُّم .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ١٧٩) : ((فيه بيان عصمته ﷺ من الناس كلهم ...وهي معجزة لرسول الله ﷺ في سلامته من السم المهلك لغيره، وفي إعلام الله تعالى له بأنها مسمومة)) اهـ .

إن جهود اليهود الحثيثة ومحاولاتهم المتكررة لقتل النبي ﷺ نابعة من الحقد الشديد على الدعوة الإسلامية، فهم حاولوا خنقَها في مهدها لكنهم لم ينجحوا ، ومع هذا استمروا في حياكة المؤامرات دون كلل ، مما يدل على قسوة قلوبهم وغرقهم في مستنقع الجرائم وأساليب تنفيذها . وقد ركَّزوا جهودَهم على قتل النبي ﷺ لمعرفتهم أنه حاملُ لواء الإسلام ورأسُ المسلمين ، وإذا سقط الرأسُ سقط الجسدُ بالكامل. وهذا ما كانوا يطمحون إليه، لكن الله تعالى عصمه من شرِّهم. أما اختيارهم لطريقة القتل بالسم لعلمهم أنها طريقة فعالة وخفية غير مكشوفة للعيان، ولا تثير الانتباه . واليهودُ متميزون في حياكة المؤامرات خلف الستائر المغلقة عبر مراحل التاريخ ، فهم يعملون في الخفاء لاقتناعهم أن الذي يعمل في السر أقدر على إنجاز عمله بكفاءة ودون تشويش. لكنَّ كيدهم رُدَّ في نحورهم ، ولم يُفلحوا في وأد الدعوة الإسلامية .

---

(٩) متفق عليه.واللفظ لمسلم(٤/ ١٧٢١)برقم (٢١٩٠) والبخاري (٢/ ٩٢٣) برقم (٢٤٧٤).

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦١١) : قالت عائشة _ رضي الله عنها _ : كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : ((يا عائشة ، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السُّم)) .

فالنبي ﷺ كان يشعر بآثار السم ، ويعاني من ألم الطعام المسموم الذي أكله بخيبر . ومن شدة السم كان النبي ﷺ يحس أن أبهره (الشريان الرئيسي الذي يحمل الدم إلى القلب) سينقطع. وهذا الشريان إذا انقطع مات الإنسان بسبب عدم وصول الدم إلى القلب. وهذا الصبر يدل على رباطة جأش النبي ﷺ في الشدائد ، كما تدل هذه المعاناة على الحقد اليهودي الذي يختار أشد أنواع السموم فتكاً . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٠٦): ((وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيداً مع ما أكرمه اللهُ من النبوة)) اهـ .

قال الله تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦١].

فقتلُ النَّبيين بغير الحق كانت نتيجةً لكفر بني إسرائيل بآيات الله تعالى، وليس بعد الكفر ذَنْبٌ. فغيابُ الهداية عن عقولهم أدى إلى انحراف تفكيرهم ، وسيرهم في طريق الغواية محاولين استئصال الدعوة الإسلامية عن طريق قتل الأنبياء حاملي لواء الشريعة السماوية .

وقد كان باستطاعة اليهود أن يناقشوا الأنبياءَ ، ويجادلوهم بالتي هي أحسن . وبعد الحوار ، وتقديم البراهين ، يختارون ما يريدون ، إمَّا الإيمان وإمَّا الكفر . لكنهم اختاروا الكفرَ بآيات الله وقتل الأنبياء . وهذا يشير إلى موقفهم المسْبق الرافض للنور الإلهي . فهُم لا يَبحثون عن الحق ، وإنما يبحثون عن مصالحهم وكيفية الحفاظ عليها بأي ثمن .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٤٥) : ((يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم ، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كفر أعظم من هذا ، إنهم كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق)) اهـ .

إن الكفر ليس موقفاً عابراً يمر دون حساب أو عقاب . إن له ثمناً باهظاً يجب دفعُه . واليهودُ حينما اختاروا طريقَ الكفر ، فحاربوا اللهَ تعالى ، وقَتلوا أنبياءه ، حَلَّ عليهم العقابُ الإلهي ، فَضُرِبَت عليهم الذِّلة والمسكنة ، فهُم قومٌ أذلاء لأنهم أهانوا الحقَّ ، فأهانهم اللهُ تعالى . ﴿ وَمَن يُهِن اللهُ فما له مِن مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] . ولو أنهم نَصروا الحقَّ لصاروا أعزَّ قومٍ .

وفي حاشية ابن عابدين (٧/ ١٦٢) : ((اعلم أن من القواعد القطعية في العقائد الشرعية أن قتل الأنبياء أو طعنهم في الأشياء كفر بإجماع العلماء ، فمن قتل نبياً أو قتله نبي ، فهو أشقى الأشقياء)) اهـ .

إن الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ معصومون ، ولا يَتحدثون باسمهم ، بل يتحدثون باسم الله تعالى، فهُم يُمثِّلون الشريعةَ الإسلامية ، ويُطبِّقونها على أرض الواقع . لذا فإن الطعن فيهم ، أو الاعتداء عليهم بأي شكل، يُعتبَر رفضاً لأوامر مُرسِلهم _ سبحانه وتعالى _. وهذا هو الكفرُ بعَيْنه.

وروى أبو داود الطيالسي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاث مئة نبي، ثم يقيمون سوقَ بقلهم من آخر النهار))[10] .

وهذه الوقاحة مرجعها إلى التمادي في القتل لدرجة الاستمراء واعتباره أمراً عادياً لا يستحق الندم أو إعارته الانتباه. وهذه المرحلة لا يصل إليها إلا من احترف القتلَ وخاض فيه بشكل روتيني متكرر دون أن يتحرك له جفن، مما يشير إلى قسوة قلوب بني إسرائيل ، وانتكاسهم على كافة المستويات . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ : في قوله _عز وجل _ : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٢١] . قال : ((بعث عيسى بن مريم _ يحيى بن زكريا _ في اثني عشر رَجلاً من الحواريين يُعلِّمون الناس ، فكان ينهاهم عن نكاح ابنة الأخ . وكان ملك له ابنة أخ تعجبه فأرادها ، وجعل يقضي لها كل يوم حاجة ، فقالت لها أمها : إذا سألك عن حاجتك فقولي له : أن تقتل يحيى بن زكريا ، فقال لها الملك : حاجتك ؟ ، فقالت : حاجتي أن تقتل يحيى ابن زكريا ، فقال : سلي غير هذا ، فقالت : لا أسالك غير هذا ، فلما أتى أمر به فذُبح في طست ، فبدرت قطرة من دمه ، فلم تزل تغلي حتى بعث اللهُ بخت نصر ، فدلت عجوز عليه ، فألقى في نفسه أن لا يزال القتل حتى يسكن هذا الدم ، فقتل في يوم واحد من ضرب واحد وبيت واحد سبعين ألفاً))[11] . وفي رواية أخرى عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _: ((فجاءته عجوز من بني إسرائيل فدلته على ذلك الدم ، فألقى اللهُ في قلبه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن،فقتل سبعين ألفاً منهم من سِن واحدة حتى سَكن))[12].

(١٠) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٥) ، والدر المنثور للسيوطي (١/ ١٧٨) .

(١١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٨) برقم (٣١٤٦) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(١٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٤٧) برقم (٤١٥١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

وهذا الحديث يشير إلى حرص الأنبياء على تبليغ الدعوة بلا زيادة أو نقصان، وإيصال التعاليم الشرعية إلى الجميع، وبذل الوقت والجهد في سبيل إنجاح مسيرة الدعوة الإسلامية .كما يدل على خطورة الاستماع إلى الأشرار وأهدافهم الخبيثة ، وهنا ينبثق قبحُ التواطؤ على الخيانة والقتل . وهناك إشارة دقيقة إلى أن الغضب الإلهي إذا نزل بقوم فلا راد له ، فتسليط بختنصر على بني إسرائيل وإعماله للقتل فيهم كان عقوبةً إلهية على سوء أفعالهم وتماديهم في الإثم .

٥_ تحريفهم كلام الله :

قال الله تعالى : ﴿ مِن الذين هادوا يُحرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعه ﴾[النساء : ٤٦] .

فمن اليهود فئةٌ تُبدِّل كلامَ الله تعالى ، فيحذفون منه ويزيدون فيه ، أو يعمدون إلى تفسير الكلام الإلهي ضد مراد الله تعالى عمداً وليس جهلاً أو نسياناً . وهم يقومون بهذا العمل القبيح لإقحام وجهة نظرهم الباطلة وأهدافِهم الخبيثة في النصوص الدينية من أجل صبغ باطلهم بالقداسة والعصمة . وهكذا تنطلي هذه الحِيَل على العوام والأتباع فيحافظ رجالُ الدين على مناصبهم ونفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويستمرون في استغلال الدِّين لتحقيق مكاسب شخصية على حساب شعوبهم . وقد حذفوا صفةَ النبي ﷺ في التوراة ، وأزالوا حدَّ الرجم . وذلك من أجل المحافظة على ولاء الأتباع وعدم تفرقهم ، وهكذا يضمن المنحرِفون أن يظل الشعب خاضعاً لهم ، وتحت رحمتهم واستغلالهم ، وعاجزاً عن التفكير ونقد الأوضاع ، وبذلك يستمر نفوذُ عِلْية القوم دون وجود تهديد من أية جهة. فالتحريفُ هو مشروع استثماري وضيع قائم على المتاجرة بالكلام الإلهي المقدَّس من أجل الحصول على عَرَض دنيوي زائل .

٦_ أخذ الميثاق عليهم :

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أخذ اللهُ ميثاقَ بني إسرائيل ﴾[المائدة : ١٢] .

فاللهُ تعالى أخذ ميثاقَ بني إسرائيل بأن يلتزموا بتعاليم التوراة فيعبدوا اللهَ تعالى وحده . وهذا العهد الوثيق ينبغي الالتزام به وعدم الانحراف عنه .

إن الميثاق الإلهي يتطلب التزاماً حقيقياً لا صورياً . فينبغي الوفاء بعهد الله الوثيق ، وتنفيذ ميثاقه المقدَّس . وهذا الميثاق له أركان متعددة مثل مساندة الحق ، ونشر الحقيقة ، وتعميق جذور الخير في المجتمع ، ونشر العدالة بكل أشكالها . ولا رَيْبَ أن رفض الميثاق الإلهي ، أو التقصير في حمله وتطبيقه ، أو الالتفاف عليه والتحايل على أركانه . كلُّ ذلك من شأنه جلب الغضب الإلهي ، والطرد من رحمة الله تعالى ، وفساد الحياة الدنيا ، وضياع المصير في الحياة

الآخرة . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥) : ((لَمَّا أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل وذكَّرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى ، شرع يُبَيِّن لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم ، وطرداً عن بابه وجَنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودِينِ الحق ، وهو العلم النافع والعمل الصالح)) اهـ .

٧_ شدة حرصهم على الحياة :

قال الله تعالى : ﴿ ولتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياة ﴾[البقرة : ٩٦] .

فاليهودُ أشد الناس حرصاً على الحياة وتمسكاً بها ، فهم يكرهون الموتَ ويتشبثون بالدنيا بأيديهم وأسنانهم لأنهم خرَّبوا آخرتهم وعمَّروا دُنياهم ، فكرهوا أن ينتقلوا من العَمار إلى الخراب . فهم يعلمون عاقبتهم السيئة بعد الموت جزاء أفعالهم الدنيئة ، فيتمنون أن يطول بهم العمر إلى أقصى مدى . فالدنيا هي جنَّتهم ومنتهى علمهم وأحلامهم ، وفي الآخرة سيدفعون ثمنَ تقصيرهم وضلالهم فيخلدون في النار . فهم يعرفون حجم ذنوبهم وانحرافهم عن المنهج الإلهي ، وأن لا كرامة لهم في الآخرة ، لذلك يحرصون على الحياة بكل ما أُوتوا من قوة ، ويتمسكون بجمع حطامها الهالك بأي شكل . فالدنيا سجنُ المؤمن وجنة الكافر. وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _:_ ﴿ ولتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياة ﴾ ، قال : ((اليهود))[13] .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٥) : ((وتنكير حياة لأنه أُريد بها فرد من أفرادها وهي : الحياة المتطاولة)) اهـ . وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((لو أن اليهود تمنوا الموتَ لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار))[14] .

فاليهودُ يعشقون الحياة الدنيا ويكرهون الموتَ بكل مشاعرهم . فالنهايةُ حينما تكون سوداء فإن المرء سوف يصارع للابتعاد عنها . وهذا ما يفعله اليهود عبر مراحل وجودهم الزمنية ، فكلُّ

---

(١٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٩) برقم (٣٠٤٣) وصححه ووافقه الذهبي .

(١٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٤٨) برقم (٢٢٢٥) ، وأبو يعلى (٤/ ٤٧١) برقم (٢٦٠٤) ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤١٨) : ((رجال أبي يعلى رجال الصحيح)) ، ورواه الطبري في تفسيره (١/ ٤٦٨) وصحَّحه ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب (١/ ٢٨٧) .

تفكيرهم منصب على الدنيا ، لذلك هم يسيطرون على مثلث الشهوات الأرضي : المال والجنس والإعلام . واليهودُ في عشقهم للدنيا وإسقاط الآخرة من حساباتهم يتشابهون مع العرب الوثنيين في الجاهلية الذين كانوا لا يؤمنون بوجود الآخرة . وفي ذلك يقول شاعرهم :

تمتع من الدنيا فإنك فـانٍ   من النشوات والنساء الحسان

٨ _ عداوتهم لله وملائكته وأوليائه :

قال الله تعالى : ﴿ قُل مَن كان عَدُواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبكَ بإذن الله ﴾[البقرة : ٩٧] .

إن هذه الآية نَزلت في اليهود الذين زَعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل وَلِيٌّ لهم . وهذا الزعمُ الباطل ناتج من طبيعة أهوائهم المتضاربة . حيث إنهم يَخترعون العقائدَ تبعاً لأمزجتهم ومصالحهم . ولو استندوا إلى التوراة في أخذ عقائدهم لخرجوا من الظلمات إلى النور ، ولكنهم اتخذوا التوراةَ وراءهم ظهرياً، وراحوا يُنسِّقون عقائدهم الدينية، ومواقفهم الاجتماعية ، وفلسفتهم الحياتية وفق مبادئهم النفعية الآنيَّة . قال الطبري في تفسيره (١/ ٤٧٦) : ((أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل وَلِيٌّ لهم)) اهـ. فاليهودُ لا يحترمون مكانةَ الملائكة _ عليهم السلام _ لذلك يعمدون إلى انتقاصهم والحد من قَدْرهم ، والطعن فيهم . وهذا مرجعه إلى هوى النفس والتنصلِ من تحمل المسؤولية . فقد اتخذوا جبريل الأمين _ عليه السلام _ عدواً لهم، وهم بذلك يُعادون الله تعالى ، لأن الملائكة لا يتصرفون من تلقاء أنفسهم ، بل يُنفِّذون الأمرَ الإلهي فوراً بلا تردد ،

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٨) : عن أنس قال : سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ ، وهو في أرض يخترف _ يعني يجتني من ثمارها _ ، فأتى النبي ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، فما أول شرط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ ، قال : ((أخبرني جبريل آنفاً)) . قال : جبريل ؟ ، قال : ((نعم)) . قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ((﴿ مَن كان عَدُواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبكَ بإذن الله ﴾))[15] . وعبد الله بن سلام كان يهودياً باحثاً عن الحق ، وعندما وَجده أعلن إسلامَه

(١٥) قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٥) : ((قيل : سبب عداوة اليهود لجبريل أنه أُمر باستمرار النبوة فيهم فنقلها لغيرهم . وقيل : لكونه يطلع على أسرارهم . قلت : وأصح منهما ... لكَوْنه الذي ينزل عليهم بالعذاب)) .

فصار صحابياً جليلاً _ رضي الله عنه _ . وها هو يريد سؤال النبي ﷺ عن ثلاث مسائل لا يَعلمها إلا نبي ، وذلك لكي يتأكد من نبوَّة محمد ﷺ . وهذا هو أسلوب الباحثين عن الحق ، الساعين بكل إخلاص إلى النُّور الرَّباني . وقد كان بإمكان عبد الله بن سلام أن يفعل مثل قومه اليهود ، فيتخذ موقفاً مسبقاً من الدعوة المحمَّدية الإسلامية فيُكذِّب النبيَّ ﷺ مباشرةً وبلا مقدِّمات ولا حوار. ولكنه اتخذ الحوارَ والتحقق من أمر محمد ﷺ طريقاً له نحو الحق ، وهذا يدل على رجحان عقله ، وثقته بنفسه . فالحوارُ هو لغة الأقوياء الواثقين ، والهروبُ منه لغة العاجزين الذين ليس لديهم ما يُقدِّمونه من أدلة منطقية .

وهكذا نرى أن عداوة الملائكة صارت صفةً لازمة لليهود الذين لا يعرفون قَدْر الشريعة ومنزلة الأنبياء والملائكة ، لذلك يقتلون الأنبياء ويحاولون تشويه صورتهم بكل قوتهم ، ويطعنون في الملائكة بدافع الأهواء والآراء الشخصية التي ما أنزل اللهُ بها من سلطان. وهم لا يُحاولون الخروج من المستنقعات التي يَغرقون فيها ، لأنهم رضوا بالحياة بالحياة الدنيا وأطمأنوا بها . فهي مبلغهم من العلم ونقطة بدايتهم ونهايتهم .

ونراهم يُعادون أولياءَ الله تعالى ، فها هم يطعنون في السيدة مريم العذراء _ عليها السلام _، ويحاولون إلصاق أسوأ الصفات بها دون دليل .

قال الله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ [النِّساء:١٥٦].

فلم يكتفِ اليهود بالكفر بالسيد المسيح ﷺ [16]، بل أيضاً طعنوا في أُمِّه حيث رموها بالزنا بدافع الهوى والحقد والاعتداء على الشريعة دون أن يُقدِّموا دليلاً على قولهم . فهم ينظرون إلى النبي عيسى ﷺ على أنه ابن زنا ، وأمه زانية . وهذا هو منهج اليهود المعادي للحق في كل أطوار وجودهم ، فهم يصدرون أحكاماً في الهواء دون براهين ، ثم يُروِّجونها بين الناس مستخدمين وسائل قوتهم ، وسطوة إعلامهم ، وأموالهم . فاليهودُ شديدو الذكاء في المكر السيئ والتخطيط والتنفيذ من أجل نشر باطلهم ، وتلميع صورتهم ، وتشويه صورة أعدائهم .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٦٢) : ((قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أنهم رموها بالزنا ، وكذلك قال السدي وجويبر ومحمد بن إسحاق وغير واحد ، وهو ظاهر من الآية

---

(١٦) ((سُمِّيَ مسيحاً لأن جبريل _ عليه السلام _ مسحه بالبركة فهو ممسوح ، أو لأنه كان يمسح المريض والأكمه والأبرص فيبرأ ، فَسُمِّيَ مسيحاً بمعنى الماسح)) [تفسير النسفي (١/ ٢٦٠)] .

أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: وهي حائض، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة)) اهـ .

٩_ جرأتهم على الله :

قال الله تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولة ﴾[المائدة : ٦٤] .

إن اليهود أصحاب عقيدة باطلة ، فهم يطعنون في الله تعالى ، حيث يحاولون إلصاق صفة البخل به _ سبحانه _ وأنه لا يُنفِق . وهذا مضاد للحقيقة ، لأن الله تعالى لا تنفد خزائنه ، وهو الذي يرزق مخلوقاته منذ خلقها ، فلم يُصَب بالإعياء أو الفقر ، ولم تنفد خزائنه فيحتاج إلى المساعدة ، ولم يقطع إحسانه عن خلقه رغم آثامهم وتقصيرهم وعدم القيام بحق العبادة . والذي يرزق المؤمن ويمنحه النعمَ الجليلة ، ويرزق الكافر على كُفره ويجعله في سعة من العيش مُحال أن يكون بخيلاً . فالبخلُ هو الإمساك عن الإنفاق خشية الفقر أو الحاجة ، وهذه الصفة منفيةٌ عن الخالق تعالى الغني عن كل شيء ، وكلُّ شيء يحتاج إليه _ سبحانه _ .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٣٩) : ((وهذا خبر من الله _ تعالى ذِكْره _ عن جرأة اليهود على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من صفته ، توبيخاً لهم بذلك ، وتعريفاً منه نبيه ﷺ قديم جهلهم واغترارهم به ، وإنكارهم جميع جميل أياديه عندهم ، وكثرة صفحه عنهم ، وعفوه عن عظيم إجرامهم ، واحتجاجاً لنبيه ﷺ بأنه له نبي مبعوث ورسول مُرسَل: أن كانت هذه الأنباء التي أنبأهم بها كانت من خفي علومهم ومكنونها التي لا يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود فضلاً عن الأمة الأمية من العرب الذين لم يقرأوا كتاباً ، ولا وعوا من علوم أهل الكتاب علماً ، فأطلع اللهُ على ذلك نبيه محمداً ﷺ ليقرر عندهم صدقه ويقطع بذلك حجتهم)) اهـ .

فاللهُ تعالى حين يُعلِم النبيَّ ﷺ بأقوال الأمم الغابرة وعقائدهم وأحداثهم التاريخية فهذا دليلٌ باهر على صدق الدعوة المحمَّدية الإسلامية، فهذه الغيبيات لا مصدر لها إلا السماء . فالنبي ﷺ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ، أي إنه لم يطلع على كتب السابقين فيعرف ما فيها ، ولم يُعرَف بأنه كان عالِماً بالعقائد الدينية أو مؤرِّخاً مطلعاً على الأمم الماضية ، وإنما كان راعياً للغنم ، فمن أين جاء بكل هذه المعلومات الغيبية عن الأقوام السابقين وعقائدِ أهل الكتاب ؟ . الجوابُ الوحيد هو أنه نبي يوحى إليه ، ويأتيه خبر السماء . أما سبب نزول الآية، فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما_

قال : ((قال رَجل من اليهود يقال له النباش بن قيس : إن ربك بخيل لا يُنفِق))[17] ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولة﴾ الآية. ومع أن القائل هو شخص واحد إلا أن هذه الكلمة الشنيعة نُسبت لليهود عامةً لأنهم رضوا بها ، ولم يُنكِروا على صاحبها . فصارت كلمةً لهم جميعاً . وهنا تبرز خطورةُ العقل الجمعي ، حيث يصبح الفسادُ صفةً لازمة للجماعة وتعبيراً عنهم .

أما سبب هذه المقولة القبيحة : ﴿ يدُ الله مغلولة ﴾ والدافع لاعتناقها ، فقد ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩٢) ثلاثة أقوال : ((أحدها : أن الله تعالى كان قد بسط لهم الرزق ، فلمَّا عصوا اللهَ تعالى في أمر محمد ﷺوكفروا به كَفَّ عنهم بعض ما كان بسط لهم فقالوا: يد الله مغلولة رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال عكرمة . والثاني : أن الله تعالى استقرض منهم كما استقرض من هذه الأُمة ، فقالوا إن الله بخيل ويده مغلولة فهو يستقرضنا، قاله قتادة . والثالث : أن النصارى لما أعانوا بختنصر المجوسي على تخريب بيت المقدس قالت اليهود : لو كان الله صحيحاً لمنعنا منه ، فيده مغلولة ، ذَكَرَه قتادة أيضاً)) اهـ .

فينبغي الاعتقاد بأن الخزائن الإلهية لا تنفد ، وأن الله تعالى مالكٌ لكل شيء لا يُصاب بالفقر ولا البخل . فلا يحتاج عبادَه لكي يساعدوه ، ولا يطلب النفقةَ من أحد . فهو ــ سبحانه ــ يُنفق كيف يشاء بلا عائق ، فيُعطي من يشاء تكرُّماً منه وتفضُّلاً ، ويمنع من يشاء لحكمةٍ يعلمها لا بخلاً أو خوفاً من العوز . وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ﷺ قال : ((إن يمين الله مَلأى ، لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم ينقص ما في يمينه))[18].

وهذا يشير إلى عظمة الخالق تعالى . فإن المخلوق إذا أنفق مالاً نقصت خزائنُه وقد يُشهر إفلاسَه ويصبح محتاجاً لمساعدة الآخرين . أما اللهُ تعالى فخزائنه لا تنفد ، ولا تنقص مع كثرة الإنفاق ، فالنفقةُ والإنعام دائمة في الليل والنهار . فهو ينفق مذ خلق السماوات والأرض، ولم يُصَب بالفقر أو نقص المال ، ولم يطلب مساعدة أحد من عباده . مما يدل على أن الله تعالى هو الكريم الأكرم الذي يُنعم على أوليائه وأعدائه رحمةً بهم ، وهو الغني عنهم . فالكرمُ صفةٌ لله تعالى ، وصفات الله قديمة لا يَطرأ عليها النقص أو التغير .

---

(١٧) رواه الطبراني (١٢/ ٦٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨١) : ((ورجاله ثقات)) .

(١٨) متفق عليه . البخاري (٦/ ٢٦٩٩)برقم (٦٩٨٣) ، ومسلم (٢/ ٦٩٠) برقم (٩٩٣) .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٣) : ((لأن ما عند الله لا يدخله نقص ، وإنما يدخل النقصُ المحدودَ الفاني ، وعطاءُ الله تعالى من رحمته وكرمه ، وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص)) اهـ . وقال الله تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله ﴾[التوبة : ٣٠] .

واليهودُ تزعم أن عُزيراً [19](وهو رَجل صالح مختلف في نبوته) هو ابن الله تعالى ، وهذا الغلو دَيْدن أهل الكتاب في كل مراحل وجودهم ، إذ إنهم يتطرفون في المسائل العقائدية ، وهذا مرجعه إلى انحرافهم عن الصراط المستقيم ، وتحكيمهم لأهوائهم وشهواتهم ، فهم يسيرون في الظلام بلا بيِّنة ، وعلى غير هدى . كما أنهم يعتمدون على التأويل المنحرف غير المبني على أسس سليمة ، وهذا يؤدي إلى إخراج النصوص الدينية عن سياقها الصحيح ، وبالتالي الوقوع في عقائد باطلة ، ونشر الكفر والضلال بسبب تغيير مراد الله تعالى .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٤/ ١٧١) أن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((أتى رسولَ الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف، فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قِبلتنا وأنت لا تزعم أن عُزيراً ابن الله ؟ . وإنما قالوا : هو ابن الله من أجل أن عزيراً كان في أهل الكتاب ، وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا ، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق ، وكان التابوت فيهم ، فلمَّا رأى اللهُ تعالى أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع اللهُ عنهم التابوت، وأنساهم التوراة، ونسخها من صدورهم ، وأرسل عليهم مرضاً فاستطلقت بطونهم منهم حتى جعل الرجل يمشي كبده ، حتى نسوا التوراة ونُسخت من صدورهم ، وفيهم عُزير كان من علمائهم ، فدعا عُزيرٌ اللهَ ــ عز وجل ــ ، وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نُسخ من صدره ، فبينما هو يُصلِّي مبتهلاً إلى الله تعالى نزل نورٌ من الله فدخل جوفه فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة ، فأذَّن في قومه فقال : يا قوم قد آتاني الله التوراة رَدَّها إِلَيَّ فعلق يُعلِّمهم ، فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم ، ثم إن التابوت نزل عليهم بعد ذلك وبعد ذهابه منهم ، فلمَّا رأوا التابوت عرضوا ما كانوا فيه على الذي كان عُزير يُعلِّمهم فوجدوه مثله ، فقالوا : والله ما أُوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله))[20] .

---

(١٩) لقد تحدثنا عن عزير بشيء من التفصيل، وذلك في الصفحة ٧٠٥ من هذا الكتاب، فلتُراجَع.

(٢٠) انظر أيضاً تفسير الطبري (٦/ ٣٥٠) ، وتفسير البغوي (١/ ٣٦) ، وزاد المسير لابن الجوزي (٣/ ٤٢٣) ، وسيرة ابن هشام (٣/ ١٠٨) .

وكل عقيدة باطلة لها سبب ، ولم تجيء تلقائياً أو تهبط من الهواء . فالنصارى الذين ألَّهوا المسيحَ ﷺ اعتمدوا على التأويل المنحرف للنصوص الدينية فوقعوا في المحظور ، وهنا تبرز خطورةُ عدم فهم دلالات اللغة ، فتحويل المجاز إلى واقع أو العكس ، وعدم التمييز بين المعنوي والمادي ، وغير ذلك ، سوف يؤدي _ بلا شك _ إلى الانحراف العقائدي ، وإضاعة الشريعة بسبب الجهل اللغوي . فكلُّ دِين مبني على النصوص اللغوية . وإذا لم تُفهَم اللغةُ بالشكل الصحيح فإن الدين سيضيع لا محالة . كما أنهم اعتمدوا على معجزات خارقة للعادة جرت على يد السيد المسيح ﷺ مثل إحياء الموتى بإذن الله تعالى وغيرها، فاعتقدوا أن الذي يقوم بهذا العمل هو إلهٌ أو ابنٌ لله تعالى. وهذا انحراف عقائدي قبيح . فلو وُجد إلهان في الكون لاختل النظام بسبب اختلاف الإلَهَيْن . فلا توجد دولة يوجد فيها رئيسان ، حتى إن الفاتيكان له بابا واحد لا اثنان . ولكنْ إذا غابت الهدايةُ الربانية فإن الإنسان قد يعتنق أي شيء بلا تمييز .

واليهودُ الذين اعتقدوا ببنوة عُزير _ أي إنه ابن لله تعالى _ اعتمدوا على خوارق جرت على يديه ، فلم يقتنعوا بأن هذه الأمور تحصل مع الصالحين ، بل تطرَّفوا في هذه القضية ، ونسبوا لله تعالى الولد . وهذا أمرٌ ضد النقل والعقل .

فلو أن كل إنسان جرت على يديه خوارق للعادة تم اعتباره ابناً لله تعالى لكان عددٌ كبير من الخلائق أبناء الله تعالى، وهذا لا يقول به عاقل . لذا ينبغي وضع الأمور في نصابها الصحيح وتطهير العقائد من الأهواء المفتقدة إلى البرهان .

واليهودُ في هذا الوقت لا يَعتقدون بأن عُزيراً ابن الله تعالى . فهذه العقيدةُ قديمةٌ وقد اختفت فيما بعد . وقد كانت سائدة عند اليهود في أيام النبي ﷺ بدليل أن اليهود لم يتبرأوا منها ، أو يردوا عليها. ولو كانت كذباً لقالت اليهودُ إن القرآن يفتري علينا، وهذا لم يحصل. إذن، فالقصةُ ثابتة عندهم ، وهذه عقيدتهم لم يَقدروا على التهرب منها .

وفي فتح الباري (٣/ ٣٥٩) : ((قال ابن العربي في شرح الترمذي : تبرأت اليهودُ في هذه الأزمان من القول بأن العُزير بن الله ، وهذا لا يمنع كونه كان موجوداً في زمن النبي ﷺ لأن ذلك نزل في زمنه واليهودُ معه بالمدينة وغيرها، فلم يُنقَل عن أحد منهم أنه رَدَّ ذلك ولا تعقَّبه ، والظاهر أن القائل بذلك طائفة منهم لا جميعهم)) اهـ .

وقال الله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودات ﴾[آل عمران : ٢٤].

وكلامُ اليهود يدل على وقاحتهم وجرأتهم على الله تعالى واستخفافهم بعذاب النار ، فهم يُحدِّدون فترة عذابهم كما لو كانت النار مُلكاً لهم يتحكمون فيها كيفما شاؤوا . والعجيبُ أنهم يؤمنون بأنهم مستحقون للعذاب ، ومع هذا يُقدِّمون أنفسهم على أنهم صفوة الله من خَلْقه ، وأتباع موسى ﷺ الحاملون لرسالته وتعاليمه . وفي اختلف المفسرون في توضيح كلام اليهود . فذهبت طائفة إلى أن اليهود يعتقدون بأنهم سيُعذَّبون أربعين يوماً _ مدة عبادتهم للعجل _ ثم يخرجون من النار . وذهبت الطائفةُ الأخرى إلى أنهم يعتقدون أنهم سَيُعَذَّبون سبعة أيام ، وذلك لأنهم يؤمنون أن الدنيا سبعة آلاف سنة ، وسوفَ يُعَذَّبون عن كل ألف سنة يوماً . وهذا إن دل على شيء فيدل على الجهل الممزوج بالجرأة المذمومة والاغترار . فالجنةُ والنار خاضعتان لله تعالى ، ووحده _سبحانه_ مَن يملك التصرف فيهما ، ويُحدِّد أصحابهما . والمخلوقُ الضعيف لا يملك من أمره شيئاً ، وهو _ أصلاً _ لا يعرف هل هو من أهل الجنة أو النار . واللهُ تعالى لم يُحدِّد عددَ الأيام في الآية لأنها معروفة عن اليهود ، فهي معلومة لديهم ، ومقتنعون بها . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٧٤) : ((أي إنما حَمَلهم وجَرَّأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادَّعوه لأنفسهم أنهم إنما يُعذَّبون في النار سبعة أيام ، عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً)) اهـ .

[ومن طريق ابن إسحاق عن سيف بن سليم عن مجاهد عن ابن عباس : ((أن اليهود كانوا يقولون : هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نُعذَّب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة أيام))[21]][22] ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودة ﴾ [البقرة : ٨٠] .

وقد اتضح سبب اعتقادهم بأنهم سَيُعَذَّبون سبعة أيام . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه : لماذا قدَّروا مدةَ عذابهم بأربعين يوماً _ حسب قول طائفة واسعة من المفسرين _ ؟ .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٠٧) : ((فيه ثلاثة أقوال : أحدها _ أنهم قالوا : بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، ونحن نقطع مسيرة كل سنة في يوم ثم ينقضي العذاب وتهلك النار ، قاله ابن عباس . والثاني _ أنهم قالوا : عتب علينا ربنا في أمر فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة ثم يدخلنا الجنة فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلة القَسَم ، وهذا قول الحسن وأبي العالية . والثالث _ أنها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل ، قاله مقاتل)) اهـ .

(٢١) رواه الطبراني (١١/ ٩٦) برقم (١١١٦٠) .

(٢٢) ذكره الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٤٦) وقال : ((وهذا سند حسن)) .

١٠_ إلقاء العداوة بينهم :

قال الله تعالى : ﴿ وألقَيْنا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾[المائدة : ٦٤] .

فاليهودُ قومٌ تنتشر بينهم العداوة والبغضاء والحقد والكراهية ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، فوحدتهم ظاهرية وفق منافع مادية شكلية لا حقيقة لها. فلا يوجد رابط فاعل بينهم ، إذ إن العداوة تنخر صفوفَهم ، وتمزِّق شملَهم ، وتجعلهم طوائف متناحرة ، وكلٌّ يُغنِّي على لَيْلاه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٠٤) : ((يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم في بعض دائماً لأنهم لا يجتمعون على حق)) اهـ .

١١_ حسدهم المؤمنين :

قال الله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ منْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم من بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً منْ عِندِ أَنفُسِهِم من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

اليهودُ مليئون بالحسد تجاه المؤمنين ، فهم متلبسون به بسبب قلوبهم المريضة وحبها لما هو قبيحٌ وكرهها للحق.وهذه الخصلة الذميمة مرجعها إلى كراهية الإنسان كإنسان ، وتمني زوال النعمة عنه،وهذا اتجاه مضاد للأخوة بين البشر بوصفهم من أصل واحد.لكن الحسد كسياسة منهجية هدفها تجريد الخصم من كل فضيلة ، والاستحواذ على النعم كاملةً ليسهل القضاء على الخصوم .

قال الغزالي في الإحياء (٣/ ١٨٩) : ((اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم اللهُ على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان : إحداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسدُ حَدُّه كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعَم عليه . الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لنفسك مثلها ، وهذه تسمى غبطة)) اهـ .

وقد قال أحد الحكماء : ما رأيتُ أعدل من الحسد ، بدأ بصاحبه فقضى عليه .

وعن سبب نزول هذه الآية الشَّريفة ، قال السُّيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦٠) : ((وكان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود حسداً للعرب إذ خصَّهم اللهُ برسوله ، وكانا جاهدَيْن في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ منْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾)).

إن المشكلة الأساسية في عقلية اليهود هي اعتبار أنفسهم الأحق بالنبوة من العرب ، والنظر إلى بني إسرائيل على أنهم أعلى وأرقى من العرب .

وتفكيرُ اليهود يتشابه إلى حد بعيد مع تفكير إبليس، حيث إن إبليس اعتبر نفسه أفضل من آدم ﷺ وينبغي أن يَحصل على امتيازات خاصة متناسبة مع هذه الأفضلية المزعومة. واليهودُ

اعتبروا أنفسهم أفضل من العرب ، ويجب أن يَحصلوا على النبوة ليتناسب ذلك مع مكانتهم الرفيعة المزعومة . وبما أن الأمور قد تمَّت ، وظَهرت النبوة في العرب بعد أن شَرَّف اللهُ تعالى محمداً ﷺ بالنبوة ، لم يجد اليهود وزعماؤهم غير الحسد الذي يستلزم زوال النعمة عن الآخرين ، وحياكة المؤامرات ، وبذل أقصى الجهود من أجل رد الناس عن الإسلام . وقد صارت هذه الأفعال الدنيئة هي الغاية من وجود اليهود الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الإسلام بكل الوسائل . وقد نصَّبوا أنفسهم أعواناً للشيطان ، وأعداءً للرحمن. وهذا يدل على الحقد الدفين الذي يَحرق قلوبَ اليهود ، والنار المتأججة في صدورهم . وقد صدق القائلُ :

كلُّ العداوةِ قد تُرْتجى إماتتـها   إلا عداوةَ من عاداكَ من حَسَدِ

فإن في القلبِ منها عقدةً عقدتْ   وليس يفتحُها راقٍ إلى الأبـدِ

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : ((إن اليهودَ قومٌ سئموا دينهم ، وهم قومُ حسدٍ ، ولم يحسدوا المسلمين على أفضل من ثلاث : رد السلام ، وإقامة الصفوف ، وقولهم خلف إمامهم في المكتوبة : آمين))[23] .

فاليهودُ يتمنون زوالَ النعمة عن المسلمين لأنهم يعلمون أن المسلمين على الحق ، لذلك يحسدونهم على رد السلام لأن فيه دلالة على تماسك المجتمع الإسلامي ووحدة الصف الإيماني ، وإقامة الصفوف في الصلاة لأنه دليل الإيمان والانضباط والقوة والتكافل الاجتماعي ، وكلمة آمين لأنها دعاء خالص لله تعالى بالاستجابة بعد قراءة سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن، والتي لم يَنْزِل مثلها في كل الكتب السماوية السابقة .

١٢_ أحبارهم :

قال الله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً من دُونِ اللهِ ﴾ [التَّوبة : ٣١] .

أي إنهم أطاعوهم كما يُطاع الرَّبُّ تعالى ، فأحلوا لهم الحرام ، وحرَّموا عليهم الحلال . فكلامهم مقدَّس لا يُناقَش ، وأفعالهم معصومة لا يُسأل عنها . وهذا الاتباع الأعمى جعل من علمائهم فوق مستوى النقد لا يُسْتَدْرَك عليهم ، فأقوالهم نصوصٌ معصومة ، وأفعالهم حُجَّة ثابتة ، يأمرون الناسَ بالإثم فيطيعهم الناسُ بلا تفكير . فالحلالُ ما رأوه حلالاً ، والحرام ما رأوه حراماً .

---

(٢٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ١٤٦) برقم (٤٩١٠) . وحسَّنه المنذري في الترغيب والترهيب(١/ ١٩٤) ، ووافقه الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٨٨) .

فهم يُشرِّعون ، ويجعلون من أفكارهم شريعةً لازمة للخلق . والمشكلة أن الشعب الخانع جعل الآخرين يفكرون عنه ، ويتخذون القرارات المصيرية بالنيابة عنه ، فقد ركن إلى تحليل الحرام وتحريم الحرام بدافع التقليد الأعمى دون إعمال العقل وعرض الأحكام على الشريعة .

والأحبارُ هم علماء اليهود ، أمَّا الرُّهبان فعُبَّاد النصارى[24] . وصدق من قال :

وهل أفسد الدِّينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سَوْءٍ ورُهبانها

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠١) : ((فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر اللهُ به، وبلَّغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه ، وبلَّغتهم إياه رسله الكرام ، فالرسل _ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين _ هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة،وإبلاغ الأمانة،فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلَّغوهم الحق)) اهـ.

إن العلماء الفاسدين قد ضَلوا وأضلوا ، وذلك لأنهم رؤوس الناس ومرجعياتهم ، وإذا فسدَ الرأسُ انتهى الجسدُ . وهؤلاء العلماء كالحمار يَحمل أسفاراً ، يَحفظون الكتبَ ، ويَملكون ناصيةَ اللغة، وفصلَ الخطاب، ومع هذا لم يستفيدوا شيئاً من عِلمهم . فكان عِلْمُهم حُجَّةً عليهم لا لهم ، لأنهم اتخذوا العِلم طريقاً لتحقيق منافع شخصية ، وليس ابتغاءَ وجه الله تعالى . وهؤلاء يَنظرون إلى الدِّين بوصفه مشروعاً تجارياً استثمارياً يدر أرباحاً وفيرة ، ويَضمن ولاءَ الناس وتبعيتهم ، ويَحشد الجماهير . وهكذا صار علماءُ السوء دعاةً على أبواب النار ، مَن أطاعهم قذفوه فيها . وصدق القاضي الجرجاني إذ يقول :

لو أن أهل العِلم صانوه صانهم ولو عظَّموه في النفوس لَعُظِّما

ولكن أهانوه فهانوا ودنَّسوا محياه بالأطماع حتى تجهَّما

وعن عدي بن حاتم قال : أتيتُ النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال : ((يا عدي ، اطرح عنك هذا الوثن)) ، وسمعته يقرأ في سورة براءة : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً من

(٢٤) قال القرطبي في تفسيره (٨/ ١١٠) : ((الأحبار جمع حَبر ، وهو الذي يحسن القول وينظمه ويتقنه بحسن البيان عنه ، ومنه ثوب محبر ... وقد قيل في واحد الأحبار : حبر بكسر الحاء، والمفسرون على فتحها ، وأهل اللغة على كسرها ... والرهبان جمع راهب ، مأخوذ من الرهبة وهو الذي حمله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس، ويجعل زمانه له ، وعمله معه ، وأُنسه به)) اهـ .

دُونِ اللهِ ﴾ ، قال : ((أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه))[25] .

إن قضية التحليل والتحريم لا أحدٌ يَمْلكها إلا الله تعالى . فهي تشريعٌ إلهي لا علاقة للمخلوقات به . والشخصُ الذي يقوم بالتحليل والتحريم إنما هو يُنازِع الله تعالى ، ويعتدي على شريعة السماء ، ويَجعل عقلَه الناقص المحدود مساوياً لِعلم الله المطْلق ، وقدرته اللامحدودة . وإطاعة ذلك الشخص إنما هي استسلام له ، وخضوع لأفكاره ، وعبادة له من دون الله تعالى .

١٣_ أصحاب السبت[26] :

قال الله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] . قصةُ أصحاب السبت تشير إلى تحايل اليهود على الشريعة ، ومكرهم بأنفسهم . فهم يريدون تحقيق مكسب مادي بواسطة التلفيق والتدليس والخداع. وقد قصَّ القرآنُ بعضاً من خداعهم ، والذي يتجلى في هذه القضية . مما يشير إلى أن منهجهم الذي لا يحيدون عنه هو التحايل والاستهزاء والروغان ولوي أعناق النصوص ومحاولة تطويع الدِّين لخدمة مصالحهم الشخصية.فالخداعُ ضاربٌ جذوره من قاع المجتمع اليهودي حتى قمته في كل الأزمنة . والتدليس واستعمال الخدع واضح في الدلائل التي ظاهرها الصلاح وباطنها القذارة والغش . وقد وصلَ إلى أماكن ربما تُثير العجب والاستغراب . لكن الهوسَ المخادِع احتل شُغاف قلوبهم فلم يتركهم إلا حينما أوصلهم إلى حضيض التحايلِ . مجتمعٌ ضائعٌ بأكمله ، وسفينة تَغرقُ ولا رُبَّان يُوَجِّه الدفة بالاتجاه الصحيح . وهذا يعكس غرق المجتمع اليهودي في ضلاله الناتج عن قسوة الطباع، والتمرد على الأوامر الإلهية ، ورفض الشريعة ، وعدم قبول النصيحة .

قال ابنُ كثير في تفسيره (١/ ١٥٠): ((فاشتهى بعضُهم السَّمكَ فجعل الرجلُ يحفر الحفيرة ويجعل لها نهراً من البحرِ فإذا كان يوم السبت فتحَ النهرَ فأقبل الموجُ بالحيتان يضربها

---

(٢٥) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٧٨) برقم (٣٠٩٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١١٦) برقم (٢٠١٣٧) ، والطبراني (١٧/ ٩٢) برقم (٢١٨) .

(٢٦) قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ١٥١) : ((والسبت في أصل اللغة : القطع ، لأن الأشياء تمت فيه وانقطع العمل . وقيل : هو مأخوذ من السبوت ، وهو الراحة والدعة)) .

حتى يُلقيَها في الحفيرة فيُريد الحوتُ أن يخرج فلا يُطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فجعل الرجلُ يشوي السمك فيجد جارُه روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جارُه حتى فشا فيهم أكلُ السمك فقال لهم علماؤهم : ويحكم إنما تصطادون يوم السَّبتِ وهو لا يحل لكم فقالوا إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه)) اهـ .

وهذه الحادثة لنا معها وقفات : ١_ اليهود يملكون عقولاً قادرة على الاكتشاف والاختراع والتخطيط والتنفيذ . لكنهم يستخدمون قدراتهم العقلية العالية في المكر السيئ، وحبك المؤامرات، والتحايل على الدِّين والناسِ فهم مؤمنون بأن الغاية تبرِّر الوسيلة ، لذلك لا يوجد نظام اخلاقي يردعهم ويحكمهم . ٢_ الضلال لا تكمن خطورته في ذاته فحسب ، بل أيضاً تكمن في العُدوى التي تنتقل إلى الآخرين ، فعندما يفسد إنسان في مجتمع ما فإن كثيرين سيغترون به ، ويحاولون تقليده، ويسيرون على منواله،وهكذا ينتشر وباء الانحراف في المجتمع بأسره. ٣_ دور العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمكن تجاهله ، فعلى المرء أن يستمر بالنصيحة سواءٌ أُخذ بها أم لا ، فهو يؤدي واجبه في محاولة انتشال الآخرين من مستنقع الضلال ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه .

وقال الله تعالى: ﴿ ولقد علمتُم الذين اعتدَوْا منكم في السبت فقُلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ [البقرة : ٦٥] . هؤلاء الذين اعتدوا في السبت ، فاصطادوا الحيتان فيه ، وهو مُحرَّم عليهم. ولجأوا إلى الحيل والخداع ، فحفروا الحفرَ وشقوا الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد ، لم ينتفعوا بهذه الخدعة . فقد أصابهم العذاب الإلهي بأن مسخهم اللهُ تعالى قردةً أذلة صاغرين ، والقردةُ أشبه الحيوانات بالإنسان من ناحية المنظر .

وقد اختلف العلماء في الممسوخ هل ينسل (يتكاثر) . ففي تفسير القرطبي (١/ ٤٧٧) : ((وقال الجمهور : الممسوخ لا ينسل ، وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ، والذين مسخهم اللهُ قد هلكوا ، ولم يبق لهم نسل لأنه قد أصابهم السخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار في الدنيا بعد ثلاثة أيام)) اهـ . وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٠) أن رَجلاً قال : يا رسول الله ، القردة والخنازير هي مِمَّا مُسخ ؟ ، فقال النبي ﷺ : ((إن الله _ عز وجل _ لم يُهلِك قوماً أو يُعذِّب قوماً فيجعل لهم نسلاً ، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك)) .

وفي هذا الحديث إشارةٌ واضحة إلى أن القرود والخنازير التي تعيش في عالمنا ليست ممسوخة ، بل حيوانات أصلية تتكاثر ولها نسل ، والممسوخُ لا نسل له .

وقال الله تعالى : ﴿ إنما جُعل السبتُ على الذين اختلفوا فيه ﴾[النحل : ١٢٤] .

واللهُ تعالى فَرض تعظيم يوم السبت على الذين اختلفوا فيه، ولم تتفق كلمتهم . فكان السبتُ _ بالنسبة إليهم _ محلاً للنزاع والشقاق وتفرق الكلمة . وهذا يدل على اختلاف المرجعيات ، وتضارب الأهواء والأمزجة، وعدم الاتفاق على مبدأ واحد . وفي هذا مؤشرٌ على تشتت القلوب، وتبعثر الجهود ، وتعارض العقول . وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٦٦٢) : ((يقول تعالى ذِكْره : ما فرض اللهُ أيها الناس تعظيم يوم السبت إلا على الذين اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : هو أعظم الأيام ، لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة ثم سبت يوم السبت . وقال آخرون : بل أعظم الأيام يوم الأحد ، لأنه اليوم الذي ابتدأ فيه خلق الأشياء ، فاختاروه وتركوا تعظيم يوم الجمعة الذي فرض اللهُ عليهم تعظيمه ، واستحلوه)) اهـ .

واليهودُ قومٌ لا ينصاعون للحق ، بل يتحايلون عليه بكل وسيلة . فهم أصحاب قلوب قاسية تعتمد على اللف ، والدوران ، والتحايل ، وتبديل الألفاظ والمعاني ، وخيانة العهود ، ورفض الشريعة ، ومعاندة الأنبياء . وهذا معروفٌ عنهم . وقد اختلفوا في يوم السبت ولم يتفقوا ، وهذا يدل على كثرة ألاعيبهم ، وعدم انقيادهم للحق .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٥٠٥) : ((وفي معنى اختلافهم فيه قولان : أحدهما _ أن موسى قال لهم : تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يوماً ، فاعبدوه في يوم الجمعة ، ولا تعملوا فيه شيئاً من صنيعكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك ، وقالوا : لا نبتغي إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت ، فجُعل ذلك عليهم وشُدِّد عليهم فيه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ... والثاني _ أن بعضهم استحله وبعضهم حرَّمه ، قاله قتادة)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ((نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة ، بَيْد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذي فُرض عليهم ، فاختلفوا فيه _ يعني يوم الجمعة _ ، فهدانا الله ، فالناس لنا فيه تبعٌ ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد))[27] .

فعيدُ اليهود هو السبت . وعيدُ النصارى يوم الأحد . أما عيدُ المسلمين فيوم الجمعة . وهنا تتجلى ريادة المسلمين وتقدمهم على غيرهم ، فهم يَسبقون عِيدَي اليهود والنصارى ، ويتفوقون عليهم .فالجمعةُ تَسبق السبتَ والأحد .

---

(٢٧) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٩٩) برقم (٨٣٦) ، ومسلم (٢/ ٥٨٥) برقم (٨٥٥) .

ثالثاً : النصارى

١ـ نسيانهم الميثاق والعداوة بينهم :

قال الله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقَهم فنسوا حَظَّاً مِمَّا ذُكِّروا به فأغرَيْنا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾[المائدة : ١٤][28] .

وهؤلاء الذين سَمُّوا أنفسهم بالنصارى (يعني أنصار الله السائرين على خطى المسيح ﷺ) ـ وهم عكس ذلك ـ نقضوا العهدَ الإلهي، وفرَّطوا في تعاليم الإنجيل، فلم يمتثلوا أوامر الله تعالى ، فتركوا الطاعات، والتزموا المعاصي . فقد سلكوا مسلك اليهود في رفض اتباع النبي ﷺ وحملِ الشريعة الإلهية . وهذا الانحراف عن الصراط المستقيم عاد عليهم بالضياع والضلال .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥) : ((أي : ومن الذين ادَّعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم ـ عليه السلام ـ وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود : خالفوا المواثيق ونقضوا العهود)) اهـ .

وفي الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٢):((عن قتادة في قوله :﴿ ومن الذين قالوا إنَّا نصارى ﴾ قال : كانوا بقرية يقال لها ناصرة نزلها عيسى ، وهو اسم تسمُّوا به ، ولم يؤمروا به)) اهـ .

إنهم أَطلقوا على أنفسهم اسم " النصارى " ليظهروا في ثوب الإيمان والطهارة ومتابعة السيد المسيح ﷺ . وقد اعتمدوا على هذا الاسم لصناعة صورة براقة لهم ، وربط أنفسهم بعيسى ﷺ ليظهروا كأصحابه أو مقرَّبين منه .

لكن الشيء الذي غفلوا عنه هو أن لكل اسمٍ جوهراً ، لكن هذا الاسم " النصارى " كان بلا جوهر ، لأن نفوسهم لم تستوعب الإيمان ، ولم تَعرف حقيقة رسالة المسيح الإسلامية . فصار الاسم شعاراً لامعاً بلا جذور في النفوس البشرية ، ولا وجود على أرض الواقع .

---

(٢٨) استدل بعض العلماء بقوله تعالى : ﴿ فأغرَيْنا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ على عدم قبول شهادة ملة على ملة وتقبل بعض الملة على بعضها ، وهو قول الحسن وابن أبي ليلى والليث وإسحاق. وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٩٢) بعد أن أورد هذه المسألة : ((وهذا أعدل الأقوال لبعده عن التهمة)) .

وفي زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣١٥): ((قال الحسن: إنما قال : ﴿ قالوا إنَّا نصارى ﴾ ولم يقل من النصارى ، ليدل على أنهم ليسوا على منهاج النصارى حقيقة ، وهم الذين اتبعوا المسيح)) اهـ .

وقد عُوقبوا بأن ضُربت قلوبهم ، فانتشرت العداوة والبغضاء بين فِرَق النصارى ، حيث تُكفِّر كل طائفة الأخرى وتعاديها وتعلن الحرب عليها . وانتشر بينهم الجدال في الدِّين والخصومات ، والأهواء المتضاربة . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٥) : ((أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة ، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يُكفِّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، فكل فِرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تُكفِّر اليعقوبية ، وكذلك الآخرون ، وكذلك النسطورية والآريوسية كل طائفة تكفِّر الأخرى في هذه الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد)) اهـ .

وهذه العداوة مستمرة حتى الآن . فالنزاعات قائمة بضراوة بين الكاثوليك والبروتستنت والأرثوذكس ، وكل يزعم أن طريقه هو الصراط المستقيم ، وغيره على الباطل ، وهذا أدى إلى تفرقهم وتفشي الكراهية بينهم ، وانقسامهم الشديد ، فالشمال الأوروبي بروتستنتي ، والجنوب كاثوليكي ، وبريطانيا تتبع المذهب الأنكليكاني . وقد رأينا الحروب الدينية الطاحنة بين الكاثوليك والبروتستنت التي أكلت أوروبا من عام ١٥٤٥م حتى ١٦٤٨م ، وذهب ضحيتها ملايين البشر .

ويصدق فيهم قول الشاعر :

كلٌّ يدَّعي وصلاً لليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

٢ـ جرأتهم على الله :

قال الله تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ﴾[التوبة : ٣٠] .

وهذه العقيدة الباطلة تعكس الجرأة على الله تعالى ونسب الولد إليه ، كما تشير إلى تغلغل الأهواء الزائفة في نفوس النصارى الذين يتبعون الظن لا اليقين ، إذ إن عقائدهم مبنية على الشكوك ، وسوء تأويل النصوص ، وغياب منهجية الفهم الصحيح للمعجزات . فهم لا يملكون برهاناً على قولهم ، ويفتقدون إلى الحجَّة الساطعة ، لذا فإن عقيدة " المسيح ابن الله " لا أساس لها من الصحة ، ولا دليل عليها من ناحية النقل أو العقل .

والدعاوى إنْ لم تُقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤُها أدعيـاءُ

وهناك عدة أسباب جعلت النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله تعالى :

_ أن المسيح وُلد لغير أب .

_ أنه كان يُحيي الموتى ويشفي الأكمه والأبرص بإذن الله .

_ هناك نصوص إنجيلية تذكر أن المسيح ابن الله، وقد تم حمل هذه النصوص على البنوة المادية، مع أن معناها يفيد التشريف لأن الإضافة تفيد علو المكانة ، أو أن هذه نصوص محرَّفة قد تم اختراعها لترويج عقائد باطلة من قبل المتلاعبين بالنصوص الدينية لتحقيق منافع شخصية .

ويمكن استعراض بعض الآياتِ الإنجيلية في هذا المجال : ((وإذا صوت من السماوات يقول:هذا هو ابني الحبيب الذي به سررتُ كل سرور !))[متى ٣: ١٧] . ((وأبوك السماوي الذي يرى في الخفاء هو يكافئك))[متى ٦: ٤]. ((أبانا الذي في السماوات))[متى ٦: ٩].

ولو أردنا المضي مع النصارى في اعتقادهم لكان كل الناس هم أبناء اللهِ تعالى ، وليس المسيح وحده ، وفق هذه النصوص. إذن، هذه البُنُوَّة _ إذا ثَبَتت _ فإنها مجازية تُفيد الرحمة والمحبة وليست على وجه الحقيقة . والخالقُ تعالى لا يحتاج إلى ابن ، فكل ما سوى الله تعالى مخلوق ذليلٌ خاضع بإرادته ورغم أنفه لله تعالى . فشرفٌ للمسيح ﷺ وكل الأنبياء أن يكونوا عباداً لخالقهم الْمُنَزَّه عن الصاحبة والولد والشريك والنِّد .

٣_ الحواريون :

قال الله تعالى : ﴿ فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفرَ قال مَن أنصاري إلى الله قال الحوارِيُّون نحن أنصارُ الله آمنَّا بالله واشهد بأنَّا مسلمون ﴾[آل عمران : ٥٢] .

فالسيد المسيح ﷺ حينما أحس أن اليهود مصمِّمون على الكفر دون وجود أية رغبة لديهم في الإيمان ، أراد معرفة أنصاره في الدعوة إلى الله تعالى . وهؤلاء الأنصار الصادقون هم الحواريون الذين آمنوا بالله ربَّاً ، وبالإسلام دِيناً ، وبالمسيح نبيَّاً ورسولاً ، وثبتوا على الصراط المستقيم ، وحملوا الشريعة الحقة بلا غلو ولا تحريف . وهم صفوةُ بني إسرائيل في زمن السيد المسيح ﷺ وصحابته الكرام الذين حملوا مشعلَ النبوة إلى الآخرين .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٨٦) : ((وهكذا عيسى ابن مريم _ عليه السلام _ انتدب له طائفة من بني إسرائيل ، فآمنوا به ، ووازروه _ أي أعانوه _ ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أُنزل معه)) اهـ .

وقد اخْتُلِف في سبب تسميتهم بالحواريين . فقال بعضهم : سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم ، وقال آخرون : لأنهم كانوا قصَّارين يُبيِّضون الثياب .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٨٢) : ((... الحور عند العرب شدة البياض ... قيل للرَّجل الشديد بياض مقلة العينين أحور، وللمرأة حوراء . وقد يجوز أن يكون حواريو عيسى كانوا سُمُّوا بالذي ذكرنا من تبييضهم الثياب ، وأنهم كانوا قصَّارين ، فعُرفوا بصحبة عيسى واختياره إياهم لنفسه أصحاباً وأنصاراً ، فجرى ذلك الاسم لهم)) اهـ .

والمعنى الذي نختاره لكلمة " الحواريين " هو الأنصار . فالحواريُّ هو الناصر . فعن جابر ابن عبد الله _ رضي الله عنهما _ أن النبي ﷺ قال : ((لكل نبي حَوَارِيٌّ ، وحواريَّ الزبير))[29] .

والدعوة الإسلامية لا يمكن أن يحملها نبي بمفرده ، فلا بد له من أتباع يسيرون على خطاه ، ويُبلِّغون التعاليم الإلهية ، ويُطبِّقونها على أرض الواقع . فالشريعةُ السماوية لا تقوم إلا على أكتاف الجميع . وهكذا نفهم قول السيد المسيح ﷺ : ﴿ مَن أنصاري إلى الله ﴾ . فهو يريد معرفة أتباعه المؤمنين به المستعدين لحمل الدعوة بكل إيمان وصبر ونشاط .

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري _ رضي الله عنهما _ أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم من منى : ((مَن يُؤْويني ؟ ، مَن ينصرني حتى أُبلِّغ رسالاتِ ربي فله الجنة ؟))[30] . وهكذا نرى حرص الأنبياء على معرفة أتباعهم في وسط هذا الجو المظلم الكئيب الذي يغص بالكفر والضلال ، فصحابة كل نبي هم حملة الرسالة بكل طهارة ، القائمون على أمر الدعوة ونشرها وتطبيقها .

٤_ الرهبان والقِسِّيسون :

قال الله تعالى : ﴿ ولتجدنَّ أقربهم مَوَدَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأن منهم قِسِّيسين ورُهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾[المائدة : ٨٢] .

فالنصارى _ عكس اليهود _ أصحابُ قلوب رقيقة تميل إلى الإيمان، فهم قليلو الحرص على الدنيا ، ويهتمون بالعلم والعمل . ففيهم القِسِّيسون (علماؤهم) والرُّهبان (عُبَّادهم) ، وهم يمتازون بالتواضع ولين الجانب وعدم الاستكبار . وهذا يشير إلى أن التواضع خصلةٌ محمودة ولو

---

(٢٩) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٦٥٠) برقم (٦٨٣٣) ، ومسلم (٤/ ١٨٧٩) برقم (٢٤١٥).

(٣٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٨١) برقم (٤٢٥١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

كانت من كافر . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٧) : ((أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم ، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة)) اهـ .

وفي لباب النقول للسيوطي (١/ ٨٦) : ((أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب وأبي بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير قالوا : " بعث رسولُ الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري، وكتب معه كتاباً إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ كتابَ رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه ، وأرسل إلى الرهبان والقِسِّيسين ، ثم أمر جعفر بن أبي طالب ، فقرأ عليهم سورة مريم ، فآمنوا بالقرآن ، وفاضت أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل اللهُ فيهم : ﴿ ولتجدنَّ أقربهم مَوَدَّةً ﴾ _ الآية _")) .

ونحن نرى حرص النبي ﷺ على الاتصال بمحيطه . والحبشة _ التي كان يَحكمها النجاشي _ يمكن اعتبارها جارة للجزيرة العربية ، فلا يَفْصل بينهما إلا البحر الأحمر . والنجاشيُّ _ رضي الله عنه _ كان نصرانياً ، ولكنْ عندما ظهر له الحق اعتنق الإسلامَ . وعندما سمع الرهبانُ والقسيسون سورةَ مريم ، أدركوا أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى ، وأن مصدره سماوي وليس أرضياً . لذلك آمنوا جميعاً ، وفاضت الدموعُ في عيونهم مما عَرفوا من الحق .

وهكذا نجد أن المخلِصين في طلب الحق لا يلجأون إلى المراوغة والتحايل ، أو التهرب من الاستحقاقات المصيرية . فإذا ظَهر الحقُّ أمامهم فإنهم يَخضعون له ، ويُسلِّمون به ، ولا يَخترعون تبريرات واهية أو حِيَلاً للتملص من الموقف .

وقال الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ منهم فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧] .

فهؤلاء ابتدعوا الرهبانية (الانقطاع عن النساء وشهواتِ الدنيا) ، وهم لم يُؤمروا بذلك . لكنهم سَنُّوا هذه الطريقة تقرُّباً لله تعالى وابتغاء رضوانه ، فما قاموا بأداء حقها ، فبدَّلوا وغيَّروا ، وظلموا أنفسهم بانحرافهم عن الصراط المستقيم .

وقد اختلف أهل التأويل في هوية الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها .

فقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٧٦) : ((قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ، في المشار إليهم قولان : أحدهما _ أنهم الذين ابتدعوا الرهبانية ، قاله الجمهور . ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها أنهم ما رعوها لتبديل دَيْدنهم وتغييرهم له ، قاله عطية العوفي. والثاني

: لتقصيرهم فيما ألزموا أنفسهم، والثالث: لكفرهم برسول الله ﷺ لَمَّا بُعث، ذكر القَوْلَيْن الزَّجاج . والثاني : أنهم الذين اتبعوا مبتدعي الرهبانية في رهبانيتهم ما رعوها بسلوك طريق أوليهم ، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس)) اهـ . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٦٨٩) : ((وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال : إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها بعض الطوائف التي ابتدعتها ، وذلك أن الله _ جل ثناؤه _ أخبر أنه آتى الذين آمنوا منهم أجرهم ، .. فدل بذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها ، فلو لم يكن منهم من كان كذلك لم يكن مستحق الأجر الذي قال _ جل ثناؤه _ :﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾)) اهـ .

وهكذا يتبين أن الله تعالى لم يعب على أولئك الذين ابتدعوا الرهبانية من أجل ابتداعها ، بل لأنهم لم يتمسكوا بهذه البدعة الحسنة ولم يرعوها حق رعايتها . ولو كانت هذه البدعة مذمومة لما آتى الله تعالى الذين آمنوا منهم أجرهم ، كما يتضح من الآية الشريفة . وهذه الآية دليل قاطع على جواز الابتداع بشرط عدم مخالفة هذه البدعة لأصول الدِّين وفروعه ، كما أن هذه الآية دليل واضح كالشمس على وجود بدعة حسنة يؤجر صاحبها إذا قام بها حق القيام .

وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٢٥٣) : ((والبدعة أصلها ما أُحْدِث دون مثال سابق ، وتطلق في الشرع في مقابل السُّنة فتكون مذمومة ، والتحقيق أنها إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة ، وإن كانت مما تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة وإلا فهي من قسم المباح وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة))اهـ. وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ١٥٤):((قال العلماء: البدعة خمسة أقسام:واجبة ومندوبة ومحرَّمة ومكروهة ومباحة)) اهـ.

وبما أنهم قد التزموا بالرهبانية وألزموا أنفسهم بها فعليهم أن يقوموا بأداء حقها وتنفيذها على أرض الواقع بمثابرة . وإذا كانوا عاجزين عن رعايتها حق الرعاية فلماذا ألزموا أنفسهم بها ؟ . فاللهُ تعالى لم يفرضها عليهم . وهذا يقودنا إلى خطورة أن يُشدِّد الإنسانُ على نفسه ، ويُحمِّل نفسه فوق طاقتها. فقد قال النبي ﷺ : ((لا تُشدِّدوا على أنفسكم فيُشدِّدَ اللهُ عليكم ، فإن قوماً شَدَّدوا على أنفسهم فَشُدِّد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾))[31] .

---

(٣١)رواه أبو يعلى (٦ / ٣٦٥) برقم (٣٦٩٤) بسند حسن. قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٩٠): ((ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء وهو ثقة)) .

٥_ التثليث :

قال الله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثة ﴾[النساء : ١٧١] .

فاللهُ تعالى يأمر بالإيمان به _ سبحانه _ إلهاً واحداً لا شريك له ، وتصديق رُسله الكرام الذين بلَّغوا دعوة التوحيد ، وعدم التثليث في العقيدة لأنه ضد النقل والعقل . فالتثليث هو اعتقاد تعدد الآلهة(الله ، عيسى ، مريم)، أو القول بالآب والابن وروح القُدُس.

فاللهُ تعالى إله واحد لا يتعدد، وهو الخالق ، فكل ما سواه مخلوق . فلا يُعقَل أن يكون الإلهُ مُرَكَّباً ، أو تضاف إليه التراكيب المخلوقة . فهو _ سبحانه _ قديمٌ ، وما سواه حوادث وُجدوا بعد إذ لم يكونوا . فأساسُ الدِّين هو العقيدة ، فإن سَقطت سَقط الدِّينُ كله. والنصارى لا يَملكون عقيدةً متماسكة ، وهذا جعلهم طوائف مختلفة ، ومتناقضة ، ومتحاربة .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٨٤) : ((لا تجعلوا عيسى وأُمَّه مع الله شريكَيْن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ... _ فالنصارى عليهم لعائن الله _ من جهلهم ليس لهم ضابط ولا لكفرهم حد ، بل أقوالهم وضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقده _ أي المسيح _ إلهاً ، ومنهم من يعتقده شريكاً ، ومنهم من يعتقده ولداً . وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة ، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً)).

إن عقيدة النصارى شديدة الارتباك والاختلاط . وذلك لأن مدارها حول " ألوهية المسيح ". وهذا الأمر مضاد للنقل والعقل ، فلا يمكن للمخلوق (المسيح) أن يصبح إلهاً . فالمسيحُ ﷺ يأكل ويشرب ، ويَذهب إلى الخلاء . فكيف يمكن للإله أن يَبول ويتغوَّط ؟! .

والنصارى أرادوا تعظيمَ المسيح فَرَفعوه فوق قَدْره . ولا شك أن مكانته عظيمة ، فهو النبي الطاهر يتشرف بعبادة الله تعالى ، ويتبرأ ممن جعلوه إلهاً . ولكن النصارى لم يَكتفوا بنبوَّته ، فغالوا فيه أشد المغالاة ، وجعلوه إلهاً .

كما أن النصارى يعتقدون أن المسيح قد صُلِب . فكيف يمكن لهذا " الإله المصلوب " _ الذي عَجز عن حماية نَفْسه _ أن يدافع عن المؤمنين به ؟! .

وإليكَ هذا النص الإنجيلي : ((وبصقوا عليه وأخذوا القصبة منه وضربوه بها على رأسه . وبعدما أوسعوه سخرية نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه وساقوه إلى الصلب)) [متى ٢٧: ٣٠و٣١] . فما هذا الإله الذي يُبصَق عليه ويُضرَب ويُسخَر منه ويُساق إلى الصلب ؟!.

وقال الله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة ﴾[المائدة : ٧٣] .

قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٣٤) : ((وهذا قول فرق النصارى من الملكية والنسطورية واليعقوبية ، لأنهم يقولون : أب وابن وروح القدس إله واحد ، ولا يقولون ثلاثة آلهة ، وهو معنى مذهبهم . وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمة لهم ، وما كان هكذا صَحَّ أن يُحكى بالعبارة اللازمة وذلك أنهم يقولون : إن الابن إله ، والأب إله ، وروح القدس إله)) اهـ .

إن التثليث عقيدة ثابتة في النصرانية . والغريبُ أن كثيراً من النصارى يؤمنون بأن اللهَ واحدٌ، لكن من منظور منحرفٍ مضاد لمفهوم التوحيد عند المسلمين . فهم يزعمون أن اللهَ تعالى واحدٌ ذو ثلاثة أقانيم (الآب ، الابن ، الروح القدس). تعالى الله علواً كبيراً .

وقد قرأتُ لعالِم نصراني كلاماً مضحكاً حول هذا الموضوع، فقد ضرب مثلاً لهذه العقيدة الفاسدة فَشَبَّهها بالشعاع الواحد الذي يتخذ ثلاثة مسارات !. وكأن التَّوحيدَ مسألة فيزياء متعلقة بانكسار الضوء ! .

فهرس

مقدمة...5

الفصل الأول : أركان الإسلام [7]

تمهيد [8] أولاً : الدِّين [9] ١_ الدين عند الله [9] ٢_ لا إكراه [14] ٣_ الإخلاص في الدِّين [18] ثانياً : التوحيد [23] ١_ توحيد الله [23] أ _ وجوده ووحدانيته وربوبيته [23] ب _ أهواء الناس وعقائدهم [29] ج _ دعوتهم إلى الاعتبار بمن سبقهم [41] د_ إنذارهم بالانتقام [43] ٢_ الكافرون [44] أ _ افتراؤهم على الله [44] ب _ شُبههم واحتجاجهم بالقَدَر [48] ج _ عداوتهم [51] ثالثاً : الصلاة [54] ١_ الطهارة [54] أ _ التطهر [54] ب _ الوضوء [58] ٢_ أداء الصلاة [60] أ_ الحض عليها[60]ب_ صفات المصلين [62] ج_ التهجد وقيام الليل [68] د_ صلاة الجمعة [73] ٣_ القِبلة [74] ٤_ المساجد [78] ٥ _ الدعاء [84] أ _ الحث على الدعاء [84] ب _ كيفية الدعاء [89] رابعاً : الزكاة والصدقات[90] خامساً : الحج والعُمرة [99] ١_ الحج [99] ٢_ مكة المكرمة [100] ٣_ الكعبة المشرَّفة [105] ٤_ العُمرة [106] سادساً : الصيام [108] ١_ الطعام والأغذية [108] ٢_ وجوب الصيام [110]

الفصل الثاني : الإيمان [116]

تمهيد[117] أولاً: الإيمان بالله[118] ١_الدعوة إلى الإيمان[118] ٢_ حقيقة الإيمان [119] ٣_ تشبيه الإيمان بالنور [126] ٤_ المقابلة بين المؤمن والكافر [127] ٥_ الفرق بين الإيمان والإسلام [129] ٦_ تفضيل الإيمان على سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام [130] ٧_ مثال الإيمان[132] ٨_ النفاق[135] ٩_ الريب والشك [148] ١٠_الفتنة [149] ١١_ الشفاعة[153] ١٢_ الابتلاء والفتن اختبار لإيمان المؤمن [157]ثانياً : الملائكة[161] ١_توفي النفوس[161] ٢_كتابة أعمال بني آدم [162]

٣_حفظهم[163] ٤_ دعاؤهم[164] ٥_ حملهم العرش[166] ٦_ إغاثتهم المؤمنين[167] ٧_ملائكة العذاب [171] ٨ _ ملائكة الرحمة[172] ٩_ النفخ في الصور[173] ١٠_من ورد اسمه منهم[176]ثالثاً : الكتب [178] ١_ التوراة[178] ٢_ الإنجيل[178] ٣_الزبور[178] ٤_صحف إبراهيم وموسى [179] رابعاً : الأنبياء والرسل [180] ١_ الإيمان بهم [180] ٢_ تفضيل بعضهم على بعض [180] ٣_ أخذ الميثاق منهم [181] ٤_ نفي الغلول عنهم [182] ٥_ مهمتهم في البلاغ [183] ٦_ أمرهم بالتذكير[186] ٧_لا أجر لهم على التبليغ[187] ٨_حكمتهم في الدعوة [188] ٩_ حُكمهم بين الناس [190] ١٠_ لكل أمة نذير [192] ١١_ بلسان قومهم [192] خامساً : اليوم الآخر [194] ١_ الموت [194] أ _ قضاء محتوم [194] ب _ لكل أمة أجل محتوم [198] ج _ ساعة الاحتضار [199] ٢_ اليوم الآخر وأسماؤه [201] أ _ يوم الدِّين[202] ب _ الآخرة [202] ج _ يوم القيامة [203] د _ الساعة [204] هـ _ يوم الحسرة [204] و_ المعاد [205] ز _ يوم البعث [206] ح _ يوم الفصل [207] ط _ يوم التلاق [207] ي _ يوم الجمع [207] ك_ يوم الوعيد [208] ل_ الواقعة [208] م _ يوم التغابن [208] ن _ الحاقة [209] س _ القارعة [210] ع _ الطامة الكبرى [210] ف _ الصاخة [210] ص _ الغاشية [211] ٣_ الحشر [211] ٤_ الميزان واستلام الكتاب[212] ٥_الأنساب يومئذ[214] ٦_فئات الخلق يومئذ [216] سادساً : الغيب[218] ١_ الإيمان بالغيب [218] ٢_ الجنة وأسماؤها [218] أ _ الآخرة [219] ب_ جَنَّاتُ عَدْن[220] ج_الفِرْدَوْس[221]د_جنة المأوى [221] هـ_ جنة الخلد [222] و _ الحسنى [223] ز_ الدار الآخرة [223] ح_ دار السلام [223] ط_ دار المتقين[224] ي_ دار المقامة [224] ٣_ النار وأسماؤها [224] أ _ الآخرة [224] ب _ الجحيم [225] ج _ جهنم [225] د _ الحطمة [226] هـ _ السعير [226] و _ سَقَر [226] ز _ السَّموم [227] ح _ لظى [227] ط _ الهاوية [227] ٤_ الشيطان وسلوكه [228] ٥_ السِّحر [232] سابعاً : القضاء والقَدَر [235] .

الفصل الثالث : حقيقة القُرآن [240]

تمهيد [241] ١_ تلاوته [242] ٢_ حقيقته وتصديقه للكتب السابقة [246] ٣_ محاججة

المنكِرين الجاحدين [249] ٤_ تنزيهه عن الشِّعر [253] ٥_ تأول المتأولين وتحريفاتهم [255] ٦_ تغيير الأحكام [258] ٧_ النسخ [262] ٨_ الأمثال[265] ٩_ إنزال القرآن [266] ١٠_ هجره [266] ١١_ وجوب الحُكم به [267]

الفصل الرابع : الشخصية النبوية [272]

تمهيد[273] ١_ الشخصية[274] ٢_ البعثة[290] ٣_ الوحي[302] ٤_ الرسالة [309] ٥_ معرفة أهل الكتاب إياه [319] ٦_ صفاته في التوراة والإنجيل[323] ٧_أخلاقه وعناية الله به [329] ٨_ العصمة [349] ٩_ جزاء من يشاقق الرسول [353] ١٠_ أدب المؤمنين معه [354] ١١_ أقوال الكافرين [361] ١٢_ صدقه واستحالة تقوُّله على الله [364] ١٣_ تنزيهه عن الشعر [365] ١٤_ التثبيت [365] ١٥_ معاتبة الله إياه [369] ١٦_الإسراء والمعراج [380] ١٧_عائلته [383] ١٨_أفضلية الأمة والصحابة [390] ١٩_ الشهادة على الناس [395]

الفصل الخامس : الدعوة إلى الله [403]

تمهيد [404] ١_ ضرورة الدعوة [405] ٢_ خطورة التقصير في الدعوة[409] ٣_ الدعوة بلسان القوم وما يفهمونه[410] ٤_الأسلوب الطيب[411] ٥_ دفع السيئة بالحسنة [412] ٦_ الامتناع عن إثارة الخصم [412] ٧_ لا غلو في الدين [413] ٨ _ الاضطهاد بسبب العقيدة لا يجوز [413] ٩_ عدم التعصب [415]

الفصل السادس : العمل [418]

تمهيد[419] ١_ الدعوة إلى العمل [420] ٢_ التكليف بالعمل على قدر الاستطاعة [422] ٣_ المسؤولية [423] أ _ مسؤولية المرء عن عمله [423] ب _ انتفاء مسؤوليته عن عمل غيره [424] ٤_ الجزاء [425] أ_ الجزاء بالعمل [425] ب_ جزاء السيئة بمثلها [429]

٥_العمل الصالح [430] أ_الدعوة إلى العمل الصالح[430]ب_ المسارعة في الخيرات [430] ج _التوسط في العمل [431]د_ تطابق العمل مع القول[432] هـ _ حُسن السلوك[434] و _ التعاون مع الآخرين [438] ز _ التواضع [439] ٦_ العمل الطالح [441] أ _ العمل الآثم [441] ب_ الأعمال المحرَّمة [442] ١_أكل الميتة والدم ولحم الخنزير[442] ٢_ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام[443] ٣_الفاحشة والزنى[444] ١)الفحشاء [444] ٢) النكاح المحرَّم [445] ٣) نكاح المشركة وإنكاح المشرك [446] ٤) النكاح في فترة الحيض [446] ٥) عمل قوم لوط [447] ٦) إتيان النساء في غير الموضع [450] ٤_ في المال [451] ١)أكل الأموال بالباطل[451]٢)التطفيف في الوزن[452]٣)الربا [453] ٤) السرقة[455] ٥)كنز الذهب والفضة[456]٥_في القول[457]١)التحليل والتحريم[457] ٢)الغيبة[458] ٣)كتم الشهادة[460] ٤)الحلف على معصية[461] ٥)الهمز واللمز[461] ٦_ القتل والقتال [462] ١) قتل الأولاد[462] ٢) وأد البنات[463] ٣) الانتحار [465] ٧_ الذنوب سبب في ظهور الفساد في الأرض [468] .

الفصل السابع : الجهاد [470]

تمهيد [471] أولاً : الجهاد في الإسلام [472] ١_ الدعوة إلى الجهاد [472] ٢_ النهي عن الاعتداء [475] ٣_ الجنوح إلى السلم [476] ٤_ المعاملة بالمثل [477] ٥_ الحرب في الإسلام[477] ٦_تفضيل المجاهدين [478] ٧ _ ذم المتخاذلين عن الجهاد [478] ٨_ الفرار من المعركة [480] ٩_ إعداد الجيش [482] ثانياً : تعليمات حربية [483] ١_ نظام الجهاد وقانونه [483] ٢_ أحكام خاصة [486] أ _ الصلاة وقت الحرب [486] ب_ الأعمى والأعرج والمريض [487] ج _ القتال في الأشهر الحرم [487] د _ القتال في الحرم [489] هـ _ شراء أنفس المؤمنين وأموالهم [490] ٣_ الوساطة والإصلاح في الحرب [491] ثالثاً : الأسرار الحربية [493] ١_ وجوب كتمانها [493] ٢_ تناقل الأخبار [493] رابعاً : نتائج الحرب[495] ١_النصر من عند الله[495]٢_النصر حليف المظلوم [495] ٣_ الهزيمة[495] ٤_الغنائم والأنفال[497] ٥_المدد الإلهي[499]خامساً: الأسرى

والرقيق[501] ١_ فداؤهم قبل استرقاقهم [501] ٢_ خطوات سباقة للقضاء على الرقيق [502] أ _ احترام المملوك ومساعدته على التخلص من الرق [502] ب_ الإعتاق [503]سادساً : حياة الشهداء[504] سابعاً : الغزوات [506] ١_ غزوة بدر (٢ هـ) [506] ٢_ غزوة أُحد (٣هـ) [509] ٣_غزوة بني النضير(٤هـ على المشهور)[512] ٤_غزوة الخندق/الأحزاب(٥هـ) [513] ٥_ فتح مكة (٨ هـ) [514] ٦_ غزوة حُنَيْن (٨هـ) [515] ٧_ غزوة تبوك / العُسرة (٩هـ)[517] ثامناً : أدوات الجهاد[519] ١_ الحديد[519] ٢_ الخيل [520]

الفصل الثامن : الإنسان والعلاقات الاجتماعية [522]

تمهيد[523] ١_الإنسان [524]أ_خَلقه [524]ب_أحواله وأوصافه [526] ج _ تكريم الله إياه [530] د_تسخير الكائنات له [531] هـ_ النهي عن تزكية نفسه [531] و _ حال أكثر الناس [532] ز_ نسيان الشكر في الرضا[533] ح _ طول عمره يضعفه ويعجزه [534] ط _ حمله الأمانة [535] ٢_ الأسرة [536] أ _ تكوينها [536] ب _ أمر غير القادر على الزواج بالاستعفاف [538] ج _ تعدد الزوجات [538] د _ الحمل والرضاع [540] هـ _ القِوامة [541] و _ النشوز [542] ز _ التحكيم قبل الطلاق [546] ٣_ عداوة بعض الأزواج والأولاد[547] ٤_المجتمعات[548] أ _ اختلاف الناس [548] ب_ الشعوب والقبائل [549] ج _ جَعْلُهم خلائف [551] د _ العرب [551] هـ _ الأعراب [555]

الفصل التاسع : العلاقات الأخلاقية [557]

تمهيد[558]أولاً:الأخلاق الحميدة [559] ١_الإصلاح بين الناس[559] ٢_الصدق [560] ٣_ الاستقامة [564] ٤_العفو عن الناس [566] ٥_ الرحمة [567] ٦_ الإحسان [569] ٧_ الإيثار[570] ٨ _القِرى (إكرام الضيف)[571] ٩_غض البصر وحفظ الفَرْج [572] ١٠_ الإعراض عن اللغو [573] ١١_ القصد في المشي والخفض من الصوت [573] ١٢_ السَّكينة [574] ١٣_ الاعتدال في الأمور [575] ١٤_ الصبر [575]

١٥_كظم الغيظ[577]١٦_الوفاء بالعهد[578]ثانياً : الأخلاق الذميمة [580] ١_ الفضول [580] ٢_ الاختيال والفخر[581] ٣_ الاستكبار[582] ٤_ الغرور [584] ٥_ الكذب [585] ٦_سوء الظن[586] ٧_التجسس[587] ٨_السخرية[588] ٩_ التنابز بالألقاب [589] ١٠_ البخل [589] ١١_ المن والأذى في الصدقات [590] ١٢_ الإسراف [590] ١٣_ التبذير [591] ١٤_ البطر [591] ١٥_ الخيانة [592] ١٦_ المكر [593] ١٧_ الحسد [594] ١٨_ القساوة [596]

الفصل العاشر : العلاقات السياسية والعامة [597]

تمهيد [598] ١_ الحُكم [599] ٢_ السُّلطة لله يؤتيها من يشاء [600] ٣_ طاعة ولي الأمر في غير معصية[601] ٤_ الشورى [604] ٥_ السَّلم [605] ٦_ المؤامرات [605]

الفصل الحادي عشر : تنظيم العلاقات المالية [607]

تمهيد [608] ١_ اكتساب الأموال [609] ٢_ إنفاقها [610]٣_الغنى [611]أ _ الأغنياء [611] ب _ المترفون [613] ج _ فتنة المال [615] ٤_ أموال الناس [617] ٥_ الأمانة [618] ٦_ البيع [623] ٧_ الكيل والميزان [624] ٨_ أموال اليتامى [625] ٩_ أموال النساء [627] ١٠_ أموال السفهاء [629] ١١_ أموال الكفار [630]

الفصل الثاني عشر : العلاقات القضائية [633]

تمهيد [634] أولاً : علاقات قانونية ودستورية [635] ١_ التكليف [635] ٢_ المسؤولية الشخصية [637] ٣ _ السيئة بمثلها [639] ٤ _ توحيد الأمم بالدِّين [640] ٥ _ الحق يزهق الباطل [641] ثانياً : أحكام قانونية [643] ١_ أحكام عامة [643] أ _ سن التكليف (البلوغ) [643] ب_ إباحة الزينة وأكل الحلال [646] ج _ الوفاء بالعهد [647] د _ الوفاء بالنذر [649] هـ _ الكبائر [649] ٢_ الجزاء [651] أ _ القِصاص [651] ب_جزاء

الكافرين[652] ج_جزاء القاتل [654] ٣_ الحدود [659] أ _ حد الزنى [659] ب_ حد زنى الإماء [660] ج _ حد القذف [660] د _ حد المحاربة [661] ثالثاً : تنظيمات قضائية [663] ١_ العدل [663] ٢_ الحُكم بالعدل [664] ٣_ الظن لا يغني من الحق شيئاً[665] ٤_الشهادة[666] أ_ وجوب أدائها كما هي [666] ب_ شهادة الزور [666] ٥_ الحَكَم [668] .

الفصل الثالث عشر: العلوم والطبيعة [670]

تمهيد [671] ١_ فضل العلم والعلماء[672] ٢_الحث على التفكر واستخدام العقل [673] ٣_ الفَلَك [674] ٤_ الكواكب [675] ٥ _ التقويم [675] أ_ عدة الشهور [675] ب_الأشهر المعلومات [676] ج _ اليوم عند الناس واليوم عند الله [677] ٦_ الملاحة[678] ٧ _ الصحة [679] ٨ _ ظواهر طبيعية وحقائق علمية [679] أ _ الرياح [679] ب_السحاب[680] ج_الغيث[681] د_حركة الأرض[682] هـ _ الليل والنهار [682] و _ الجبال [682] ز _ البحر [683]

الفصل الرابع عشر : القَصَص والتاريخ [686]

تمهيد [687] ١_ السير في الأرض والنظر في عاقبة الماضين [688] ٢_ ابنا آدم (هابيل وقابيل) [688] ٣_ نوح [690] ٤_ قوم تُبَّع [692] ٥ _ لقمان وحكمته [693] ٦_ أصحاب الرس[694] ٧_ أصحاب القرية [694] ٨_ أصحاب الكهف [695] ٩_ الذي أماته الله مئة عام [696] ١٠_الذين خرجوا حذر الموت [697] ١١_ عاد (قوم هود) [698] ١٢_ثمود(قوم صالح)[699] ١٣_قوم لوط[700] ١٤_ ذو القرنين [703] ١٥_ يأجوج ومأجوج[704] ١٦_أصحاب مَدْين(قوم شعيب)[706]١٧_ فرعون [708] ١٨_ موسى [709] أ_ أم موسى [709] ب_ قوم موسى [710] ج _ التابوت [712] ١٩_قارون[712] ٢٠_سبأ[714] ٢١_عمران[716]أ_امرأة عمران(أم مريم)[716]

ب_مريم ابنة عمران [716] ٢٢_ أصحاب الأخدود [718] ٢٣_ أصحاب الفيل [720] ٢٤_ أبو لهب وامرأته [722] ٢٥_ الروم [726] .

الفصل الخامس عشر : الديانات [727]

تمهيد[728]أولاً:أهل الكتاب[729] ١_إقامة التوراة والإنجيل[729] ٢_العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب[731] ٣_وجود المؤمنين بينهم[735] ٤_غرورهم وأمانيُّهم [735] ٥ _ عدم رضاهم عمن لم يتبع ملتهم [737] ٦ _ حُججهم الواهية [739] ثانياً : بنو إسرائيل [742] ١_ أوامر الله إليهم [742] ٢_ نعمه عليهم [746] ٣_ قضاؤه إليهم [751] ٤_ معاندتهم وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء [752]٥_ تحريفهم كلام الله[757] ٦_ أخذ الميثاق عليهم [757] ٧_شدة حرصهم على الحياة[758] ٨_عداوتهم لله وملائكته وأوليائه[759] ٩_ جرأتهم على الله[761] ١٠_إلقاء العداوة بينهم[766] ١١_حسدهم المؤمنين[766] ١٢_ أحبارهم[767] ١٣_ أصحاب السبت[769] ثالثاً: النصارى[772] ١_نسيانهم الميثاق والعداوة بينهم[772] ٢ _ جرأتهم على الله [773] ٣_ الحواريون [774] ٤ _ الرهبان والقِسِّيسون [775] ٥_ التثليث [778]

فهرس..780

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى